الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر ﷺ

غزوة الأحزاب (١)

فهرسة أثناء النشر

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

قاسم، غريب محمود

الموجز في جدارات القرن الحادي والعشرين / غريب محمود قاسم

- ط١ – القاهرة: الوادى للثقافه والاعلام، ٢٠٢٠م.

٦٩٧ ص، ٢٤سم.

تدمك ٠ ٨٤ ٦٥١٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١- السيرة النبوية–عصر الجهاد فى سبيل نشر الدعوة غزوة الأحزاب (١)

أ- العنوان ٢٣٩,٤

تاريخ الإصدار: ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

حقوق الطبع: محفوظة

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: ٢٠١٩/١٥٩٣٨م

الترقيم الدولي: ISBN: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٦٥١٥ - ٨٤ - ٠

الوادي

للثقافة والإعلام

ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518

E-mail: darannshr@hotmail.com

الدروس والعبر

في

غزوات وسرايا خير البشر ﷺ

موسوعة شاملة لأحداث ودروس الغزوات والسرايا النبوية

غزوة الأحزاب (١)

١٥ شوال ٥هـ/ ٩ مارس (آذار) ٦٢٧ م/ ١٣ برمهات ٣٤٣ قبطي

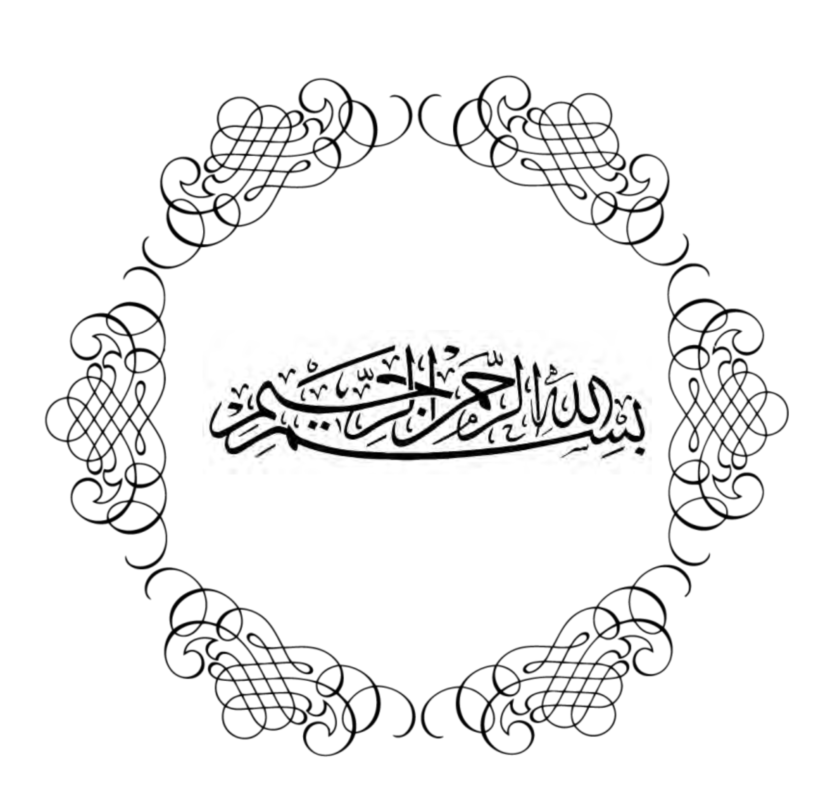
الباب الأول: المرحلة الأولى من غزوة الأحزاب (قبل المعركة)

الباب الثاني: المرحلة الثانية من غزوة الأحزاب (المعركة)



غريب محمود قاسم

من علماء الأزهر الشريف


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد

فهذه هي المجموعة الثالثة من كتاب «**الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر ﷺ**»، أتناول فيها «**غزوة الأحزاب**» وما بينها وبين **غزوة الحديبية**.

أبواب هذه المجموعة:

المجموعة الثالثة: غزوة الأحزاب، وقد قسمتها إلى أربعة أبواب، في مجلدين:

المجلد الأول: ويشتمل على:

الباب الأول: المرحلة الأولى من غزوة الأحزاب (قبل المعركة).

الباب الثاني: المرحلة الثانية من غزوة الأحزاب (الحصار والمعركة).

المجلد الثاني: ويشتمل على:

الباب الثالث: غزوة بني قريظة.

الباب الرابع: الغزوات والسرايا بين بني قريظة والحديبية.

لقد كانت غزوة الأحزاب مَعْلَمًا بارزًا في تاريخ الإسلام كله، بل وفي تاريخ الإنسانية، وليس في سيرة النبي ﷺ فقط.

فقد كانت وما زالت مدرسة للأمة المسلمة إلى يوم القيامة، تنهل من دروسها، وترتوي بعبرها، وما أكثرها من دروس وعبر وعظات مع كل خطوة من خطواتها من قبل أن تبدأ وإلى ما بعد انتهائها في أرض المعركة.

فإننا مع تتبع أحداث هذه الغزوة بداية من أسبابها إلى أحداثها، ثم إلى ما تلاها من أحداث ونتائج نرى أنها تتكرر في تاريخ المسلمين على مدى هذه القرون الخالية، ولا يختلف فيها إلا الأسماء والمسميات، وبعض الوقائع والأحداث، أما الإطار العام لحرب الكفار للإسلام والمسلمين في كل العصور فهو إطار واحد كما سنرى ذلك من تناولنا لهذه الغزوة.

منهج دراسة الغزوة:

وقد سرتُ في دراسة هذه الغزوة الكبرى للرسول ﷺ **الأحزاب على المنهج الذي اتبعته في دراسة غزوتي بدر الكبرى وأُحُد**، فقد انتهجتُ في دراسة هذه الغزوة الكبرى المنهج التالي:

أولًا: قمت بتقسيم الحديث عن الغزوة إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: قبل المعركة.

المرحلة الثانية: الحصار والمعركة.

وقد أفردت غزوة **بني قريظة** بالدراسة، رغم ارتباطها بغزوة الأحزاب؛ لكثرة أحداثها وكثرة الدروس المستنبطة منها.

ثانيًا: قمت في كل مرحلة من مرحلتيها بتقسيمها على قسمين:

القسم الأول: العرض العام لأحداث المرحلة.

وقد سرت فيه على النهج السابق في غزوتي بدر الكبرى وأُحُد من استعراض أحداث الغزوة من خلال مصادر السيرة الرئيسة: القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكتب السيرة والتاريخ...إلخ.

القسم الثاني: عرض الدروس المستفادة من المرحلة.

ثالثًا: تقسيم الدروس المستفادة من كل مرحلة:

ونظرًا ـ أيضًا ـ لكثرة الدروس المستفادة من كل مرحلة، ولكثرة الاستنباطات منها؛ ولتيسير الاستفادة منها في كل مرحلة، قمتُ بتقسيم الدروس المستفادة من كل مرحلة إلى عدة أقسام: مبتدئًا بالدروس العقائدية المستفادة من المرحلة، ثم ما يليها من دروس، على ما اتبعته في عرض دروس غزوتي بدر الكبرى وأُحُد.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كتبه الفقير إلى عفو ربه / أبو عمر

غريب محمود محمد قاسم

ليسانس دار العلوم ـ جامعة القاهرة

ليسانس أصول الدين والدعوة ـ جامعة الأزهر

ليسانس الحقوق ـ جامعة القاهرة

زاوية البقلي ـ الشهداء ـ المنوفية ـ ج.م.ع

ت: ٠١٠٠٦٥٣٦١١٠ – ٠١١٤٠٨٤٧٤٧٨

MAKKA29167@Gmail.COM

النسخة الأولى في: الأحد ١٨ رمضان ١٤٢٨هـ/ ٣٠ سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٧م.

وكانت أخر مراجعة وتنقيح في: الأربعاء: ١٦ شعبان ١٤٣٩هـ / ٢ من مايو (أيار) ٢٠١٨م.

تمهيد

غزوة الأحزاب وأهميتها في التاريخ الإسلامي والعالمي

١ ـ غزوة الأحزاب في التاريخ:

يقول الشيخ عرجون: «جاءت غزوة الأحزاب بعد غزوة (أُحُد)، فكانت آخر غزوة هجومية في غزوات أحلاس الشرك وعبيد الوثنية المتحجرة الذين كان يسوقهم الصَّلَف بسياط الغرور الكذوب والتنفج بالقوى المادية، وكانت في هذه الغزوة هزيمة الشرك البليد بحشوده وجحافله، وقد تعرى عن سوءاته القبيحة، وهزيمة الشرك المتستر بالغطرسة اليهودية التي أحرق أكبادها الحسد القاتل والحقد الأسود». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٣٥].

تعد غزوة الأحزاب (الخندق) من أشد الغزوات بأسًا على المسلمين، رغم أنه لم يكن فيها قتال يذكر؛ لأن المسلمين قد عانوا فيها من الآلام النفسية والعصبية ما لم يعانوه في غزوة من الغزوات، وقد صور القرآن الكريم تلك المعاناة أبلغ تصوير في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١﴾ [الأحزاب].

ويقول الإمام الصالحي: «وهي الغزوة التي ابتلى اللهُ فيها عبادَه المؤمنين، وبعث الإيمان في قلوب أوليائه المتقين، وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق، وفضحهم وفزعهم، ثم أنزل الله تبارك وتعالى نصره، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، وأعز جنده، ورد الكفرة بغيظهم، ووقى المؤمنين شر كيدهم، وحرَّم عليهم شرعًا وقدرًا أن يغزوا المؤمنين بعدها، بل جعلهم المغلوبين، وجعل حزبه هم الغالبين».
[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥١٢].

ويقول الشيخ الغزالي: «إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل معركة أعصاب.

فقتلى الفريقين من المؤمنين والكفار يُعَدُّون على الأصابع، ومع تلك الحقيقة فهي من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام؛ إذ أن مصير هذه الرسالة العظمى كان فيها أشبه بمصير رجل يمشي على حافة قمة سامقة، أو حبل ممدود، فلو اختل توازنه لحظة وفقد السيطرة على موقفه، لهوى من مرتفعه إلى وادٍ سحيق، ممزق الأعضاء، ممزع الأشلاء! ولقد أمسى المسلمون وأصبحوا فإذا هم كالجزيرة المنقطعة وسط طوفان يتهددها بالغرق ليلًا أو نهارًا». [فقه السيرة للغزالي ٣٠٨].

ويقول أ/ دويدار: «لم تكن غزوة الأحزاب هذه معركة ميدان، تتميز فيها البطولة بالكر والفر، والإقدام والإحجام، بل كانت معركة أعصاب، وامتحان عزائم، واختبار قلوب؛ ومن أجل هذا أخفق

فيها المنافقون ونجح المؤمنون، فبمقدار ما أظهر المنافقون ومرضى القلوب من الجزع والشك وضعف النفس، أظهر المؤمنون من الجلد والصبر وقوة الاحتمال ما يدل على قوة إيمانهم، وصدق يقينهم بالله، وثقتهم بأن وراء هذه الشدة فرجًا قريبًا، وأن الله تعالى إنما أراد بهذه الشدة أن يبتليهم ويمتحن إيمانهم، فلما نجحوا في الامتحان هذا النجاح الباهر مد الله إليهم يده الرحيمة، واستنقذهم بنعمته من براثن أعدائهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[الأحزاب]».

[**صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار** ١٩٠-١٩١].

ويقول الشيخ المسند: «موقعة الأحزاب أيام حرجة غربلت المجتمع في المدينة المنورة وحولها وفرزت الذهب من التراب والخبيث من الطيب، وقد أرهبت المسلمين وحسبوا لها حسابها، وكانت نتيجتها في مصلحة المؤمنين، وفيها مناسبات مماثلة للمجتمع الإسلامي اليوم على المستوى الخاص والعام، ولم تقتصر على التنظيم الحربي وسلوك وسائل الحماية والاحتياط واتخاذ أسباب النصر، بل بينت فئات الناس الذين كانوا مع رسول الله ﷺ». [**متى ينتصر المسلمون؟ للمسند** ٦٦].

ويقول أ/ الشامي: «تمثل هذه الغزوة فترة عصيبة في حياة دولة الإسلام الناشئة، تعاونت فيها عوامل الجوع والبرد وقلة العدد والعدة مع سيل الأعداء الذي جاء يستأصل شأفة الإسلام وجماعة المسلمين، وقد بلغت الحال بالمسلمين كما وصف الله ﷻ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾[الأحزاب].

واستطاع المسلمون بفضل الله ورحمته، تجاوز تلك العقبة، ليخرجوا منها مرفوعي الرؤوس، معتزين بإيمانهم، وقد تعلموا الكثير من الدروس، يمليها عليهم رسول الله ﷺ، واقعًا عمليًا، فإذا هو أبلغ من كل قول، وإذا القول حينئذ بعض العمل.

والتأمل في هذه الغزوة، وما جرى فيها من أحداث، يفتح أعيننا على الكثير من الدروس، التي ينبغي أن يعيها المسلمون؛ لتكون لهم العون، والمرشد الذي يأخذ بأيديهم في أوقات الشدة ـ وما أكثرها في حياتهم ـ وما أحوجهم إلى درايتها». [**من معين السيرة للشامي** ٣٠٩].

ويقول الشيخ عبيد: «من الحوادث العظام والأمور الهامة التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ غزوة الخندق، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة الأحزاب؛ لذلك فإن بعض المؤرخين يسميها «غزوة

الأحزاب» وهذه الغزوة حدث فيها بين المؤرخين خلاف في زمن تحديدها والرأي الصحيح الذي يميل إليه الكثير وتؤيده الوقائع أنها وقعت في السنة الخامسة من الهجرة، وأنها كانت في شهر شوال، ولقد اهتم المؤرخون بهذه الغزوة؛ لأن أثرها كبير في تاريخ المسلمين، ولها مقدمات ونتائج فهي:

أولًا: تبرز أمامنا صفحة من تاريخ اليهود وتكشف عن أسلوبهم الدنيء في إثارة الأحقاد وتسخير قيمهم لخدمة مصالحهم وقضاء مآربهم حتى ولو أدى الأمر إلى التجسس والإغراء بالمال.

ثانيًا: تكشف هذه الغزوة عن قوة الإسلام وكيف أن أصحاب العقيدة يصبرون على البلاء والجوع.

ثالثًا: تكشف لنا عن شخصية الرسول ﷺ في قيادته الحكيمة وفي صموده أمام طواغيت الشر وأولياء الشيطان، ثم إن المسلمين لو تعرفوا على غزوة الأحزاب واستفادوا من دروسها ثم صدقت عزيمتهم لأبصروا طريق الحق ووصلوا إلى بر السلام». [غزوة الأحزاب لعبيد ١١].

ويقول أ/ باشميل: «والحق أن عملية الغزو هذه كانت عملية منظمة مركزة مخيفة، فكان كل شيء في الظاهر عند وصول جيوش الأحزاب يوحي بأن أيام الكيان الإسلامي كله أمام هذا الغزو الساحق الرهيب، أصبحت معدودة.

ولم لا؟.. عشرة آلاف مقاتل من فرسان العرب وشجعانهم مجهزة أحسن تجهيز يساندها رأس المال اليهودي المخيف ويخطط لها الفكر الإسرائيلي الخبيث، تُطْبِق من كل ناحية على ألف مقاتل من المسلمين، ينقصهم كل شيء إلا الإيمان بالله.. ولكن الله غالب على أمره.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[الأحزاب].

إن هذه الآية وهي تصف أهوال غزوة الأحزاب تعبر ـ في إيجاز أبلغ من التفصيل ـ أصدق تعبير عن مدى خطورة هذه الغزوة، ومدى ما تعرض له المسلمون فيها من عظيم الكرب وشدة القلق والخوف والفزع الذي بلغ بهم حد الاختناق.

لقد تحدث القرآن الكريم عن متاعب المسلمين في كثير من معارك التحرير الكبرى التي خاضها المسلمون بقيادة نبيهم الأعظم ﷺ كبدر وأحد وحنين، ولكنه لم يذكر أن حالة الجيش الإسلامي قد بلغت بهم من الكرب والشدة والرعب إلى الدرجة التي تحدث عنها في غزوة الأحزاب هذه.

فمعركة الأحزاب إذن، وإن لم يكن جرى فيها كبير قتال، هي بشهادة القرآن الكريم أخطر معركة في تاريخ الإسلام، وهي بحق معركة المصير.

إنها فعلًا لم تكن معركة فَصَلَ فيها الرمح والسيف، ولكنها كانت معركة أعصاب، كان السلاح الرئيس الذي واجهه المسلمون فيها هو الخوف والرعب والقلق والإرجاف والانقسام والغدر والخيانة في الساعات الحاسمة.

وفاعلية هذا السلاح تكون في المعارك ـ غالبًا ـ أشد من فاعلية السيف والرمح والسهم.

لقد أجمع المعنيون بأخبار معارك الإسلام على أن المسلمين لم يكونوا على درجة من الخوف والشدة والقلق والجزع والاضطراب، مثلما كانوا عليه في غزوة الأحزاب.

فَكَانَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها تَقُولُ: قَدْ شَهِدْتُ مَعَهُ (أي مع رسول الله ﷺ) مَشَاهِدَ فِيهَا قِتَالٌ وَخَوْفٌ ـ الْمُرَيْسِيعَ، وَخَيْبَرَ، وَكُنَّا بِالْحُدَيْبِيَةِ، وَفِي الفَتْحِ، وَحُنَيْنٍ ـ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ أَتْعَبُ لِرَسُولِ الله ﷺ وَلا أَخْوَفُ عِنْدَنَا مِنْ الخَنْدَقِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا فِي مِثْلِ الحَرَجَةِ (الشجرة الصغيرة الملتف عليها الشجر من كل ناحية)، وَأَنَّ قُرَيْظَةَ لا نَأْمَنُهَا عَلَى الذَّرَارِيِّ، وَالْمَدِينَةُ تُحْرَسُ حَتَّى الصَّبَاحِ يُسْمَعُ تَكْبِيرُ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا حَتَّى يُصْبِحُوا خَوْفًا، حَتَّى رَدَّهُمْ اللهُ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٨**].

وبينما كان المسلمون في أمر عظيم من الكرب والشدة والامتحان إذا بحلفائهم يهود بني قريظة الواقعة منازلهم خلف خطوط الجيش الإسلامي يعلنون ـ في خسة ونذالة ـ نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، ويعلنون انضمامهم إلى جيوش الأحزاب الغازية، فيصبحون ـ وهم ما يقرب من ألف مقاتل ـ قوة ثانية مستعدة لضرب مؤخرة الجيش الإسلامي الصغير الذي لا يزيد عدده ـ في أصح التقديرات ـ على ألف مقاتل، والذي قد وقف بأكمله لمواجهة عشرة آلاف مقاتل تهدده أمواجها بالغرق في كل لحظة.

وهكذا تضاعف الكرب وازداد البلاء على المسلمين واستحكمت فصول المحنة، ولم يقف الكرب والبلاء والامتحان عند هذا الحد، بل أبى الله ـ لحكمة يعلمها ـ إلا أن يبلغ الكرب والبلاء والامتحان بجيش المدينة الذروة.

فقد ظهرت ـ في تلك الساعات الرهيبة الحاسمة ـ داخل الجيش الإسلامي نفسه قوة ثالثة أعلنت التمرد وظهر رجالها على حقيقتهم جبناء رعاديد يُظهرون مالا يبطنون، وهم المنافقون الذين أخذوا ـ في تلك اللحظات الحاسمة من ساعات المصير ـ ينسحبون من صفوف الجيش متذرعين بشتى الأعذار تاركين النبي ﷺ والقلة من صفوة أصحابه في مهب العاصفة المدمرة.

وهكذا هزت المحن والبلايا جيش محمد ﷺ، في غربالها بعنف من جديد فتساقط من ثقوب هذا الغربال مَنْ تساقط، من ضعاف الإيمان.

ولم يبق بجانب النبي الأعظم ﷺ في تلك الليالي الرهيبة المرعبة إلا ذلك النوع من الرجال الذين عندما اهتز غربال المحن والبلايا كانوا أكبر من ثقوبه فضاقت عن أن تستوعبهم فيسقطوا؛ لأنهم كانوا بإيمانهم ويقينهم أعظم من تلك المحن والخطوب وأكبر من البلايا والكروب، فقد ثبتت تلك الصفوة المختارة من صحابة محمد ﷺ مع نبيها العظيم ﷺ أمام تلك الخطوب والأهوال التي تنخلع لها القلوب، وقاوموا ذلك الغزو الساحق الرهيب، بصبر وجلد منقطع النظير حتى جاءهم النصر ـ من عند الله فهزم الأحزاب، وجنت قريظة الغادرة ثمار غدرها وخيانتها فدفعت ثمن هذا الغدر والخيانة غاليًا، رؤوس ثمانمائة من رجالها قُطعت بأيدي المسلمين بعد محاكمة عادلة نزيهة.

إن النظر بتفهم ووعي وتبصر في مواقف أصحاب محمد ﷺ، من حوادث معركة الأحزاب الرهيبة مع التطبيق يمكن ـ بل يجب ـ أن يكون قاعدة لكل العقائد بين الذين يريدون ـ صادقين لا متاجرين ـ أن يتحملوا مسؤولية الدعوة إلى الله والنضال في سبيل إعلاء كلمة الله.

فبالنظر في تفاصيل حوادث هذه المعركة المثيرة سيرى شبابُ الإسلام العقائدي وكهولُه الصادقون، كيف يكون الثبات على الحق وكيف يكون النضال والتضحية والفداء، في سبيل حماية ورفع راية الدعوة الإسلامية التي كثر الضجيج ـ في زماننا هذا ـ باسمها، ولكنه ضجيج كضجيج الرحى الذي يصم الآذان دون أن يرى الناس له طحنًا». [**غزوة الأحزاب لباشميل** ١١-١٥].

٢ ـ غزوة الأحزاب واستعادة الهيبة الإسلامية:

يقول د/ أبو خليل: «استطاع المسلمون بعد أُحُد جمع صَفِّهم بعد درس قاس، كان سببه المخالفة لأمر رسول الله ﷺ، لقد لملموا الجراح، وأعادوا هيبتهم في نفوس القبائل المجاورة بعد حمراء الأسد.

وفي غزوة الخندق، غزوة الأحزاب سنجد الالتزام التام بأوامر رسول الله ﷺ، مع الطاعة التامة، ولا يعني ذلك عدم تبادل الرأي وتداول الأمور المستجدَّة، ولكن إذا تقرر أمر التزم المسلمون، لقد كان ﷺ يجمع أطراف الأمور كلها بيده.

وهذا لا يعني أنَّه لم يكن للمنافقين دورٌ سيءٌ في غزوة الخندق، فسنرى عدم التزامهم أثناء الحفر، مع دعاياتهم المثبِّطة للهمم والعزائم، فدور المنافقين ما زال واضحًا في مجتمع المدينة، يشاركهم اليهود بدور كاد يغيِّر سير الأحداث، عندما نكثوا بعهودهم، وقلبوا ظهر المجن للمسلمين، فكان لابدَّ بعد ذلك من قَصاص عادل، يتناسب مع ضخامة الجريمة، فكانت غزوة بني قريظة بعد الخندق مباشرة.

وفي حفر الخندق، عمل رسول الله ﷺ بنفسه، كأي فرد من أفراد المجتمع، حمل التراب، وكلما ظهرت صخرة واستعصت على الرجال، جاء ﷺ ليمسك المعول بيده الشريفة، مذلِّلًا عقبات سير العمل، ولإنجازه في الوقت المناسب قبل مجيء قريش وغطفان ومن معهما.

لقد تمَّ حفر الخندق لا خوفًا من لقاء قريش ومن معها، ولكن دفعًا للجموع بلا دماء، وتحقيقًا للنصر بأقل خسائر ممكنة، ودليل شجاعة المسلمين وعدم خوفهم من الأحزاب، صدِّهم المشركين، وقتل فارسهم الأول عمرو بن عبد وُدٍّ العامري، بيد عليٍّ ﷺ، ودورياتهم المنتظمة التي ضمنت حراسة المدينة من ناحية، والتي سدت كل الثغرات والمنافذ في وجه فرسان الأحزاب من ناحية أخرى.

ويرفع رسول الله ﷺ الروح المعنوية عند المسلمين إلى أعلى القمم، عندما طوى ﷻ له الزمن، فرأى المستقبل، فقال ﷺ في هذه الساعات الحرجة: «**أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّام، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ**»، «**أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**»، «**إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بِالبَيْتِ العَتِيقِ وَآخُذَ المِفْتَاحَ..**».

وهكذا.. فأعمال قريش ومن معها، صورة لن تمنع مسيرة رسول الله ﷺ ومن معه، إنها كصورة الأشجار على وجه الأنهار، تظهر فيها ولا تمنع جريانها وسيرها وخيرها، ووصولها إلى مصيرها الذي أراده الله ﷻ.

الخندق: معركة فاصلة ثانية في تاريخ الإسلام، بعد غزوة بدر الكبرى.

لقد أراد المشركون واليهود استئصال المسلمين، فلو قُدِّر لهم النجاح فيما أرادوا وجاؤوا من أجله، لتغيَّر مجرى التاريخ كله، لا أقول مجرى التاريخ العربي فحسب، بل مجرى التاريخ العالمي، لارتباط التاريخ العربي الإسلامي بأحداث الساحة العالمية بعدئذ، ولا سيما مع الدولتين الأعظم: الفرس والروم.

قال حكيم: «**بالتواضع تكثر المَحَبة**»: وقد كسب رسول الله ﷺ محبَّة المسلمين في تواضعه، عندما اشترك بنفسه في حفر الخندق محقِّقًا منتهى (الديمقراطية).

«**وبالرفق تستخدم القلوب**»: وحقَّق رسول الله ﷺ ذلك عندما هوَّن الأمر على أبي لبابة رفاعة بن المنذر الأنصاري ﷺ بعد إفشائه سر رسول الله ﷺ عند يهود بني قريظة، وعندما أُصيب سعد بن معاذ ﷺ فجعله في خيمة في مسجده، وجعل أوَّل ممرضة في الإسلام رُفَيْدة الأنصارية، التي أوقفت نفسها لله، في خدمة الجرحى المسلمين.

«**وبالحكمة تكثر الأنصار**»: وفعلًا بعد الخندق، بعناية الله وتوفيقه، وبحكمة رسول الله ﷺ التي اتبعها في توجيه الأحداث تجاه المنافقين في الداخل، وتحمُّل ما يقولون جاعلًا الزمن عامل دحض لافتراءاتهم، ومبددًا أكيدًا لإرجافاتهم، وجذبت الحكمة التي حققت الانتصارات أفرادًا من القبائل كل يوم، وكان واحدهم يعود إلى قومه ناشرًا للدين الجديد بيقين وعزيمة صادقة.

«**وبالوفاء يدوم الإخاء**»: ودام الإخاء الحق بين المهاجرين والأنصار، لوفاء رسول الله ﷺ لهما في كل أعماله، فكانت هذه الأخوة ملاطًا بين لبنات أضحت صفًّا وبنيانًا متينًا، فانتقلت المبادأة إلى يد المسلمين

بفضل تماسكهم، فانتقلوا بعد الخندق من انتصار إلى انتصار، حتى شمل الإسلام جزيرة العرب، لينتقل بعدها إلى العالم، ولو تُرك الأمر إلى:

تكبُّر أبي جهل، بدل تواضع رسول الله ﷺ.

وإلى تجبُّر أبي لهب، بدل رفق المؤمنين.

وإلى رعونة أبي سفيان، بدل حِكمة الإسلام.

وإلى غدر اليهود، بدل وفاء المسلمين.

لما كانت هناك أمجاد وقادسية ويرموك وذات الصواري وأندلس...

ولو تحقَّق لأبي جهل وأبي لهب وأبي سفيان ما أرادوا، لما كانت هناك حضارة عربية إسلامية زاهرة خالدة». [غزوة الخندق لأبي خليل ٧-١١].

٣ ـ تشابه واقعنا مع واقع الخندق:

يقول د/ الجبوري: « عندما نتحدث عن تشابه حال المسلمين اليوم وما يمرون به من صراعات مع أعداء الإسلام، هو ليس تشابه تناظري بين الفريقين في هذا الزمن وذلك الزمن، فليس الأشخاص في عهد الصحابة يوجد من يماثلهم في زماننا، ولا الأعداء هم نفس الأعداء، فالموازين قد تغيرت ولا توجد مقارنة في هذا الجانب.

وإنما العامل المشترك الوحيد بين زمن النبي ﷺ وصحابته الكرام، والأحزاب، وبين ما نعيشه اليوم هو الصراع الأزلي بين الحق والباطل، وهو عداء الشرك والضلال للإسلام، فهذا العداء الأزلي لا ينتهي إلى قيام الساعة.

ونستطيع أن نضيف حلقة مشتركة بين ذلك الزمان وهذا الزمن، وهي جزء من الأولى المتمثلة بالعداء الأزلي بين الشرك والإسلام، ألا وهي (اليهود).

وها هي تجتمع قوى الظلام من جديد، تغيرت الوجوه ولكن النوايا والغايات ثابتة لا تتغير.

إن اليهود الذين أَلَّبوا وحشدوا الأحزاب في ذلك الزمان على المسلمين، هم أنفسهم اليوم يغزلون المؤامرات على المسلمين ولكن بوجه آخر وسلاح مختلف وغايات مسمومة تعبر عن حقدهم الأزلي على الإسلام.

تغير أسلوب الحروب كثيرًا، فبعد أن كان في ميادين القتال وساحات الحرب، ومقتصرًا على الرجال، تحول إلى حرب فكرية عقائدية هدفها انحراف المجتمعات بأكملها بعد تسليط التكنولوجيا الحديثة على كل بيت هدفها الانحراف.

ومن أجل القضاء على روح هذا الدين الحنيف قامت قوى الشر والظلام ـ وعلى رأسهم اليهود ـ على تبني الأفكار المتطرفة التي يظن البعض أنها تمثل الإسلام، والحقيقة عكس ذلك تمامًا، الهدف منها أن يظهر الإسلام بطابع القتل والإجرام؛ ليبيحوا لأنفسهم قتل المسلمين تحت غطاء مكافحة الإرهاب.

وَفَّروا كل الوسائل التي تبعد المسلم عن الدين أو تقربه من الله، بالمجان أو شبه المجان، المتمثلة بأجهزة الاستقبال والإنترنت، وكل وسائل اللهو والانحراف.

في حين في المقابل نجد كل برامج تطوير الأسلحة وغيرها محظورة، وخطوط حمراء لا يُسمح للدولة الإسلامية القريبة من إسرائيل، امتلاك مثل هذه الأسلحة المتطورة بحجة أنها تهدد أمن إسرائيل، وقد أُسقطت حكومات وأُبيدت شعوب تحت هذه الذريعة.

وختامًا نقول: يا مسلمون عودوا إلى الله، انصروا الله ينصركم، (فيا شباب! قد كثرت ثلمات الأمة فمن الحارس؟ وقد كثرت ثغرات المسلمين فمن الفارس؟ فامضوا إلى كتيبة التوحيد منيبين، في مجتمع الإيمان والإخاء منضبطين، ولا تُفزعنكم رسائل العدو ونفثه ونفخه، أنتم أقوياء بالله ولو حاصركم أهل الأرض!) [السيرة النبوية لياقوت ٤٣٢]». [غزوتا الأحزاب وبني قريظة للجبوري ١٦٤-١٦٥].

الباب الأول

المرحلة الأولى من غزوة الأحزاب

(قبل المعركة)

الفصل الأول: عرض المرحلة الأولى من غزوة الأحزاب (قبل المعركة)

الفصل الثاني: الدروس والعبر المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة الأحزاب (قبل المعركة)

الفصل الأول

عرض المرحلة الأولى من غزوة الأحزاب

(قبل المعركة)

المبحث الأول

تاريخ غزوة الأحزاب وأسبابها

تاريخ الغزوة:

يقول د/ المدخلي: «بالنسبة لتحديد زمن هذه الغزوة فقد اختلف العلماء في ذلك، وانحصرت أقوالهم فيها فيما بين السنة الرابعة والخامسة للهجرة النبوية الشريفة، وقد شذ اليعقوبي، فقال: إنها كانت في السنة السادسة بعد مقدم رسول الله ﷺ بخمسة وخمسين شهرًا». [**تاريخ اليعقوبي ٢/ ٥٠**].

وهذا التحديد يبدو أنه خطأ بدليل التفصيل بعده بالأشهر؛ ولأن الخمسة والخمسين شهرًا تأتي أقل من خمس سنوات فلينظر.

وسأذكر فيما يلي رأي كل فريق مع أدلته وترجيح ما يظهر بالدليل بعد المناقشة والتحليل حسب الإمكان:

أ ـ القائلون بأنها كانت سنة أربع:

الزهري، ثم تابعه موسى بن عقبة صاحب المغازي، قال ابن كثير: «وقد روى موسى بن عقبة عن الزهري أنه قال: ثم كانت وقعة الأحزاب في شوال سنة أربع، وكذلك قال الإمام مالك بن أنس فيما رواه أحمد بن حنبل عن موسى بن داود عنه». [**البداية والنهاية ٤/ ٩٣**].

وقد ذكر البخاري رأي موسى بن عقبة في صحيحه فقال: «قال موسى بن عقبة: كانت في شوال سنة أربع» هكذا رواه تعليقًا وبه قال [**صحيح البخاري ٥/ ٤٤**]، أثبت ذلك الحافظ حيث قال: «ومال المصنف إلى قول موسى بن عقبة». [**فتح الباري ٥/ ٢٧٨، ٧/ ٣٩٣**].

وقد تابع هؤلاء في ذلك ابن قتيبة، والفسوي، وابن حزم، والنووي، وابن خلدون».

كما قال به النسفي، أمَّا خليفة بن خياط فلم توجد الغزوة في تاريخه، ويبدو أنها سقطت منه.

وذكر ابن العربي أن ابن وهب وابن القاسم قالا بذلك؛ ولذلك قال ابن حزم: «والثابت أنها في الرابعة بلا شك مستدلًا بحديث ابن عمر الآتي، ثم عقب قائلًا: فصح أنه لم يكن بينهما ـ أي بين أحد والخندق ـ إلا سنة واحدة فقط». [**جوامع السيرة ١٨٥**].

والقائلون بأنها كانت سنة أربع جميعهم يستدلون بحديث ابن عمر وهذا سياقه:

قال البخاري رحمه الله: «**حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ عُبَيْدِ الله قَالَ: أَخْبَرَنِي نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ** رضي الله عنهما: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَرَضَهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَمْ يُجِزْهُ، وَعَرَضَهُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَهُ**». [البخاري في الشهادات (٢٦٦٤)، وفي المغازي (٤٠٩٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٦٨)، وأبو داود في الخراج والفيء (٢٩٥٧)، وفي الحدود (٤٤٠٦)، والترمذي في الأحكام (١٣٦١)، وفي الجهاد (١٤١٢)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣١)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤٣)، ومسند أحمد ٨/ ٢٨٧، ومسند أبي عوانه ٤/ ٥٣- ٥٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٩٥].

هذا الحديث مخرَّج في الصحيحين كما هو مبين وفي غيرهما من كتب السنة، وقد أورده القائلون بأن هذه الغزوة كانت سنة أربع دليلًا لهم.

والزهري من القائلين بهذا القول، وقد مر أن موسى بن عقبة روي عنه أنه قال: ثم كانت وقعة الأحزاب في شوال سنة أربع. [البداية والنهاية ٤/ ٩٣].

ومع ذلك فقد صرح في موضع آخر بأن الخندق بعد أُحُد بسنتين، وأُحُد كانت في السنة الثالثة، وهو قول الجمهور. [البداية والنهاية ٤/ ٩٣].

ب ـ القائلون بأن هذه الغزوة كانت في شوال سنة خمس:

أما الذين قالوا بأنها كانت سنة خمس فهم كثيرون، وهم الجمهور كما قال ابن كثير.

ويتقدمهم إمام أهل المغازي ابن إسحاق، وعروة بن الزبير، وقتادة، والبيهقي، وغير واحد من العلماء سلفًا وخلفًا. [البداية والنهاية ٤/ ٩٤].

وممن قال به أيضًا الواقدي وكاتبه ابن سعد، لكنهما قالا: «إنها كانت في ذي القعدة»، وتابعهما في ذلك المقريزي، حيث قال: «وكان من خبرها أن رسول ﷺ عسكر يوم الثلاثاء لثمان مضت من ذي القعدة سنة خمس». [الإمتاع للمقريزي ١/ ٢١٦].

أما ابن هشام فقد قال: «بأنها كانت في شوال وفي سنة خمس، متابعًا في ذلك ابن إسحاق».

[السيرة النبوية ٢/ ٢١٤].

وقال به أيضًا البلاذري، والطبري، والمسعودي، وابن عبد البر، والخطيب.

وممن قال بهذا القول أيضًا السهيلي، وابن الأثير، والنويري، حيث حكاه عن ابن إسحاق.

وممن قال به من المشاهير ابن كثير، والسمهودي.

وممن قال به من المعاصرين: د/ محمد محمد أبو شهبة، ود/ عماد الدين خليل، ود/ مصطفى السباعي، ود/ أكرم العمري، ود/ محمد الصلابي.

وهكذا يتبين أن الكثرة الكاثرة هم القائلون بأنها كانت سنة خمس.

قال الذهبي: «وهو المقطوع به»، وقال ابن القيم: «وهو الأصح»، وقال الحافظ: «وهو المعتمد حكى ذلك كله القسطلاني، وقد أجابوا عن حديث عرض ابن عمر المتقدم مؤولين له»، وقالوا: «يحتمل أنه عُرض في أُحُد في أول الرابعة عشرة، ويوم الأحزاب في أواخر الخامسة عشرة، وهذا هو جواب البيهقي». [دلائل النبوة ٣/ ٣٩٥].

وعقَّب ابن كثير على قول ابن حزم المتقدم (والثابت أنها في الرابعة بلا شك) بقوله: «هذا الحديث مخرج في الصحيحين، وليس يدل على ما ادعاه (أي ابن حزم)؛ لأن مناط إجازة الحرب كان عنده ﷺ خمس عشرة سنة، فكان لا يجيز من لم يبلغها، ومن بلغها أجازه، فلما كان ابن عمر يوم أُحُد ممن لم يبلغها لم يجزه، ولما كان قد بلغها يوم الخندق أجازه.

وليس ينفي هذا أن يكون قد زاد عليها بسنة أو سنتين أو ثلاث أو أكثر من ذلك، فكأنه قال: وعُرضت عليه يوم الخندق، وأنا بالغ أو من أبناء الحرب.

[**الفصول في سيرة الرسول ﷺ ص ١٦٤-١٦٥ تح الخطراوي ومستو**].

وقال البيهقي: «ولا اختلاف بينهم في الحقيقة؛ لأن مرادهم أن ذلك بعد مُضي أربع سنين وقبل استكمال خمس». [**دلائل النبوة ٣/ ٣٩٥**].

وقد أورد ابن حجر هذا الجواب عن البيهقي ومفاده: «بأن قول ابن عمر رضي الله عنهما: «**عُرضت يوم أُحُد وأنا ابن أربع عشرة**» أي دخلت فيها، وأن قوله عُرضت يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشرة، أي تجاوزتها، فألغى الكسر في الأولى، وجبره في الثانية، وهو شائع مسموع في كلامهم، وبه يرتفع الإشكال المذكور، وهو أولى من الترجيح». [**فتح الباري ٥/ ٢٧٨، التلخيص ٤/ ٨٩- ٩٠**].

وقد روى الطبراني بسنده عن ابن إسحاق أثرًا يعتبر شاهدًا لأصحاب هذا الرأي حيث قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الله الحَضْرَمِي، ثَنَا مُحَمَّدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الله بنِ نُمَيْرٍ، ثَنَا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: «**كَانَتْ غَزْوَةُ الخَنْدَقِ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْسٍ، وَفِيهَا مَاتَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ** رضي الله عنه».

[**المعجم الكبير ٦/ ١٦**] [**مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٦-٢٠٧ في المغازي والسير (١٠١٧١)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات. السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٤، وقال د/ المدخلي: «حكم الهيثمي على هذا السند جيد؛ لأن يونس بن بكير أكثرهم على توثيقه ومن هؤلاء ابن معين خلافًا لما توصل إليه الحافظان الذهبي وابن حجر فيما تقدم»**].

وهذا الأثر يعتبر على ضوء هذا السند حسنًا إلى ابن إسحاق منقطعًا بعده، والله أعلم.

وكذا أورد هذا الأثر البيهقي حيث قال: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الحَافِظُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الجَبَّارِ [العطاردي]، قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: «**كَانَتْ غَزْوَةُ الخَنْدَقِ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْسٍ**». [**دلائل النبوة ٣/ ٣٩٤-٣٩٥**].

وقال البيهقي أيضًا: وَأَخْبَرَنَا أَبُو الحُسَيْنِ بْنُ الفَضْلِ القَطَّانُ ، قَالَ: أَخْبَرَنَا [حَدَّثَنَا] عَبْدُ الله بْنُ جَعْفَرٍ ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ ، قَالَ: حَدَّثَنَا [حَدَّثَنِي] اللَّيْثُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُقَيْلٌ ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ ، قَالَ: «**ثُمَّ كَانَتْ وَقْعَةُ أُحُدٍ عَلَى رَأْسِ سَنَةٍ مِنَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، ثُمَّ كَانَتْ وَقْعَةُ الأَحْزَابِ وَهِيَ بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ بِسَنَتَيْنِ، وَذَلِكَ يَوْمَ خَنْدَقَ رَسُولُ الله ﷺ جَانِبَ الـمَدِينَةِ، وَرَئِيسُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، ثُمَّ سَارَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى قُرَيْظَةَ فَحَاصَرَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**».

[دلائل النبوة ٣/ ٣٩٤].

والثابت أن غزوة أُحُد سنة ثلاث من الهجرة.

وقال الحافظ ابن حجر: «وَيُؤَيِّدُ قَوْلَ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ لَـمَّا رَجَعَ مِنْ أُحُدٍ: **مَوْعِدُكُمْ العَامَ الْمُقْبِلَ بِبَدْرٍ،** فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ السَّنَةِ الْمُقْبِلَةِ إِلَى بَدْرٍ، فَتَأَخَّرَ مَجِيءُ أَبِي سُفْيَانَ تِلْكَ السَّنَةِ لِلجَدْبِ الَّذِي كَانَ حِينَئِذٍ، وَقَالَ لِقَوْمِهِ: إِنَّمَا يَصْلُحُ الغَزْوُ فِي سَنَةِ الخَصْبِ، فَرَجَعُوا بَعْدَ أَنْ وَصَلُوا إِلَى عُسْفَانَ أَوْ دُونَهَا، ذَكَرَ ذَلِكَ اِبْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ المَغَازِي». **[فتح الباري ٧/ ٤٥٤]**.

وعقب الحافظ ابن حجر على ذلك بقوله: «وَقَدْ بَيَّنَ البَيْهَقِيُّ سَبَبَ هَذَا الِاخْتِلَافِ، وَهُوَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ السَّلَفِ كَانُوا يَعُدُّونَ التَّارِيخَ مِنْ الْمُحَرَّمِ الَّذِي وَقَعَ بَعْدَ الهِجْرَةِ وَيَلْغُونَ الأَشْهُرَ الَّتِي قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى رَبِيعِ الأَوَّلِ، وَعَلَى ذَلِكَ جَرَى يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ فِي تَارِيخِهِ فَذَكَرَ أَنَّ غَزْوَةَ بَدْرٍ الكُبْرَى كَانَتْ فِي السَّنَةِ الأُولَى، وَأَنَّ غَزْوَةَ أُحُدٍ كَانَتْ فِي الثَّانِيَةِ، وَأَنَّ الخَنْدَقَ كَانَتْ فِي الرَّابِعَةِ وَهَذَا عَمَلٌ صَحِيحٌ عَلَى ذَلِكَ البِنَاءِ، لَكِنَّهُ بِنَاءٌ وَاهٍ مُخَالِفٌ لِـمَا عَلَيْهِ الجُمْهُورُ مِنْ جَعْلِ التَّارِيخِ مِنْ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ الهِجْرَةِ، وَعَلَى ذَلِكَ تَكُونُ بَدْرٌ فِي الثَّانِيَةِ وَأُحُدٌ فِي الثَّالِثَةِ وَالخَنْدَقِ فِي الخَامِسَةِ وَهُوَ الـمُعْتَمَدُ». **[فتح الباري ٧/ ٤٥٤]**.

أما ابن العربي فقد قال: «إن الخندق بعد مضي أربع سنين وعشرة أشهر وخمسة أيام من الهجرة».

[عارضة الأحوذي ٧/ ١٧٣].

وهذا موافق لأصحاب الرأي القائل بأنها كانت في الخامسة، وموافق لابن سعد حيث قال بأنها كانت في الخامسة، وفي شهر ذي القعدة، وذلك بناءً على التاريخ من بداية المحرم.

وأخيرًا نعرج على كلام البيهقي لنراه يقول: «قُلْتُ: لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي الحَقِيقَةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَاتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ لِسَنَةٍ وَنِصْفٍ مِنْ مَقْدَمِهِ المَدِينَةَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، ثُمَّ قَاتَلَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ السَّنَةِ القَابِلَةِ لِسَنَتَيْنِ وَنِصْفٍ مِنْ مَقْدَمِهِ المَدِينَةَ فِي شَوَّالٍ، ثُمَّ قَاتَلَ يَوْمَ الخَنْدَقِ بَعْدَ أُحُدٍ بِسَنَتَيْنِ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِ سِنِينَ وَنِصْفٍ مِنْ مَقْدَمِهِ المَدِينَةَ، فَمَنْ قَالَ سَنَةَ أَرْبَعٍ، أَرَادَ بَعْدَ أَرْبَعِ سِنِينَ، وَقَبْلَ بُلُوغِ الخَمْسِ، وَمَنْ قَالَ: سَنَةَ خَمْسٍ، أَرَادَ بَعْدَ الدُّخُولِ فِي السَّنَةِ الخَامِسَةِ وَقَبْلَ انْقِضَائِهَا، وَاللهُ أَعْلَمُ». **[دلائل النبوة ٣/ ٣٩٥]**.

هذا نص كلام البيهقي وهو توجيه حسن أخذ به كثير من العلماء لفك الإشكال.

أما ابن سيد الناس فقد نقل كلا القولين، ولم يرجح أحدهما على الآخر. [عيون الأثر ٢/ ٥٥].

الخلاصة: استعرضنا أدلة الفريقين، وتبين من ذلك أن الحق مع القائلين بوقوع هذه الغزوة في سنة خمس لما يأتي:

١ـ احتمال حديث ابن عمر رضي الله عنهما لتأويلهم.

٢ ـ إطباق أهل المغازي والسير والمؤرخين والعلماء من بعدهم على هذا الرأي.

٣ ـ ما ذُكر من مواعدة قريش لرسول الله ﷺ بعد أُحُد ـ بدر الموعد ـ يجعل ذلك واضحًا، ومواعدة قريش لملاقاته ﷺ ساقها ابن حجر كاملة [فتح الباري ٧/ ٣٩٣]، وقد بيَّن رحمه الله في المقدمة أن ما يورده في كتابه منتزعًا من أمهات المسانيد، والجوامع والمستخرجات، والأجزاء، والفوائد بشرط الصحة أو الحسن. [هدي الساري ٤]. [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٥-٧٩ بتصرف واختصار، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة دراسة فقهية مقارنة لبربر ٦-٨].

أسباب الغزوة:

يقول د/ المدخلي: «يبدو أن أصحاب المغازي ومن جاء بعدهم من العلماء متفقون على أن سبب هذه الغزوة هو إجلاء يهود بني النضير من المدينة، حيث إن الحسد والحقد قد تمكنا من قلوبهم مما جعلهم يُضمرون العداء ويتحينون الفرص للتشفي ممن طردهم ـ وما طردهم إلا بسبب ما ارتكبوه ضد المسلمين ـ أو التحريش ضده، وكانوا لا يستطيعون تنفيذ الأول وهو التشفي وحده، وهذا طبعهم الذي أخبر الله تعالى عنهم في أكثر من آية، منها على سبيل المثال قولهم لنبيهم موسى عليه السلام: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل بجلاء على جبنهم، وخبث نفوسهم، وعلى عدم طاعتهم لنبيهم، بعكس أمة محمد ﷺ حيث كان حسنًا ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسولَ الله ﷺ حين استشارهم في قتال كفار قريش حيث كان آخر ما قالوه: «**فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ هَذَا البَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا بَقِيَ مِنَّا رَجُلٌ، وَصِلِ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ، وَاقْطَعْ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ، وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ، وَمَا أَخَذْتَ مِنْ أَمْوَالِنَا أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا تَرَكْتَ، وَمَا أَمَرْتَ فِيهِ مِنْ أَمْرٍ فَأَمْرُنَا تَبَعٌ لأَمْرِكَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا سَلَكْتُ هَذَا الطَّرِيقَ قَطُّ، وَمَا لِي بِهَا مِنْ عِلمٍ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ يَلقَانَا عَدُوُّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ عِنْدَ الحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرَّ بِهِ عَيْنُكَ**».

[تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٨-٣٩، والسيرة النبوية ٢/ ٦١٥، صحيح البخاري مع الفتح ٧/ ٢٨٧ كتاب المغازي، وكتاب التفسير]. [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٥-٤٦].

وقال ابن القيم: «وَكَانَ سَبَبُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ أَنَّ اليَهُودَ لَـمَّا رَأَوْا انْتِصَارَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَعَلِمُوا بِمِيعَادِ أَبِي سُفْيَانَ لِغَزْوِ الْمُسْلِمِينَ، فَخَرَجَ لِذَلِكَ، ثُمَّ رَجَعَ لِلعَامِ الْمُقْبِلِ؛ خَرَجَ أَشْرَافُهُمْ كَسَلَامِ بْنِ أَبِي الحُقَيْقِ، وَسَلَّامِ بْنِ مِشْكَمٍ، وَكِنَانَةَ بْنِ الرَّبِيعِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى غَزْوِ رَسُولِ الله ﷺ، وَيُؤَلِّبُونَهُمْ عَلَيْهِ، وَوَعَدُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِالنَّصْرِ لَهُمْ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٧٠-٢٧١].

وكان القرشيون قد جربوها واكتووا بنارها، فصاروا يتهيبونها ويزهدون فيها، فزينها الوفد اليهودي وهوَّن أمرها وقالوا: **إِنَّا سَنكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ.**

«فَأَجَابَتْهُمْ قُرَيْشٌ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى غَطَفَانَ فَدَعَوْهُمْ، فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ، ثُمَّ طَافُوا فِي قَبَائِلِ العَرَبِ يَدْعُونَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ مَنْ اسْتَجَابَ». [زاد المعاد ٣/ ٢٧١].

أما الحافظ ابن حجر فقال: «وَذَكَرَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي المَغَازِي قَالَ: «خَرَجَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ بَعْدَ قَتْلِ بَنِي النَّضِيرِ (لم يُقتل بنو النضير، ولكنهم أُجلوا وقد صرح القرآن الكريم بذلك كما في سورة الحشر، والذين قُتلوا هم بنو قريظة) إِلَى مَكَّةَ يُحَرِّضُ قُرَيْشًا عَلَى حَرْبِ رَسُولِ الله ﷺ، وَخَرَجَ كِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ابْنِ أَبِي الحَقِيقِ يَسْعَى فِي بَنِي غَطَفَانَ وَيَحُضُّهُمْ عَلَى قِتَالِ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى أَنَّ لَهُمْ نِصْفَ ثَمَرِ خَيْبَرَ، فَأَجَابَهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْن حُذَيْفَةَ بْن بَدْر الفَزَارِيُّ إِلَى ذَلِكَ، وَكَتَبُوا إِلَى حُلَفَائِهِمْ مِنْ بَنِي أَسَد فَأَقْبَلَ إِلَيْهِمْ طَلَحَةُ بْنُ خُوَيْلِد فِيمَنْ أَطَاعَهُ، وَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ بِقُرَيْشٍ فَنَزَلُوا بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، فَجَاءَهُمْ مَنْ أَجَابَهُمْ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ مَدَدًا لَهُمْ فَصَارُوا فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ، فَهُمْ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ اللهُ تَعَالَى الأَحْزَابَ». [فتح الباري ٧/ ٤٥٤].

يقول د/ المدخلي: «ويتبين مما أوردناه من الآثار السابقة أن يهود بني النضير الذين أُجلوا إلى خيبر كانوا هم السبب المباشر في وقوع هذه الغزوة، وقد ثبت ذلك بطرق تكون بمجموعها صالحة للاحتجاج بها.

وهكذا نرى اتفاق علماء المغازي والسير، وغيرهم من المفسرين على أن سبب هذه الغزوة المباشر هو حقد اليهود، وأملهم في القضاء على الإسلام والمسلمين؛ ليشفوا الغيظ الذي أحرق قلوبهم نتيجة طردهم (من حوالي المدينة) رغم أن إجلاءهم كان نتيجة نقضهم للعهود وتلاعبهم بالمواثيق».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٥٦].

المبحث الثاني

الدور اليهودي في تحزيب الأحزاب

تفكير اليهود في تحزيب الأحزاب:

يقول أ/ باشميل: «كل ما قام به اليهود في يثرب ضد النبي ﷺ ـ قبل غزوة الأحزاب ـ هو عمليات دس وتفريق بين المسلمين ومحاولات لإثارة الحرب الأهلية بينهم، وحركات عصيان ضيقة النطاق.. عمليات كلها باءت بالفشل.

وآخر محاولة جريئة قام بها اليهود هي محاولة بني النضير اغتيال النبي ﷺ وهو بين منازلهم، فكانت نهاية هذه المحاولة الفاشلة هي طرد يهود هذه القبيلة وإجلاؤهم عن المدينة نهائيًّا.

من أجل ذلك ازداد حقد اليهود على النبي ﷺ، وصار زعماؤهم يفكرون في رسم خطة محكمة تكون نهايتها سحق المسلمين كاملًا وهدم كيان الإسلام من الأساس، فكانت ثمرة هذا التفكير اليهودي (غزوة الأحزاب) الخطيرة هذه التي كادت (فعلًا) أن تعصف بكيان الإسلام والمسلمين.

فقد توالت اجتماعات زعماء يهود بني النضير في «خيبر» لبحث الوضع الذي آل إليه اليهود في الجزيرة العربية بعد انهيار مركزهم الرئيس في المدينة وقيام الدولة الإسلامية قوية متماسكة في يثرب.

بعد بحث شامل دقيق للموضوع من جميع نواحيه قرر برلمان اليهود في خيبر وضع خطة محكمة لغزو شامل كامل ساحق ضد المسلمين يشترك فيه أكبر عدد ممكن من القبائل العربية القوية، وخاصة قبائل نجد وكنانة وقريش، على أن تتولى خيبر اليهود الدعوة إلى هذا الغزو وتنظيمه بل وتحمل جانب كبير من نفقاته المالية». [غزوة الأحزاب لباشميل ١١٧-١١٨].

ويقول الشيخ الغزالي: «أيقنت طوائف الكفار أنها لن تستطيع مغالبة الإسلام إذا حاربته كل طائفة منفردة، وأنها ربما تبلغ أملها إذا رَمت الإسلام كتلة واحدة.

وكان زعماء يهود في جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة، فأجمعوا أمرهم على تأليب العرب ضد الإسلام وحشدهم في جيش كثيف ينازل محمدًا ﷺ وصحبه في معركة حاسمة».

[فقه السيرة للغزالي ٣٠٤].

ويقول د/ المدخلي: «وعندما لم يستطع يهود خيبر ـ وخاصة بني النضير(ذلك لأنهم خسروا الكثير من مناطق نفوذهم وسلطانهم فهم موتورون، وأكثر حقدًا وتحمسًا من غيرهم) ـ مجابهة المسلمين لجأوا إلى الأسلوب الثاني وهو أسلوب المكر والتحريش». [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٦].

الوفد اليهودي للتحريض:

يقول أ/ باشميل: «ونتيجة لهذا القرار الخطير، قرر برلمان خيبر تشكيل وفد من أعضائه البارزين للقيام بهذه المهمة الخطيرة، والاتصال بالقبائل العربية المطلوب الاتصال بها للقيام بذلك الغزو.

وقد تكوَّن هذا الوفد اليهودي على النحو التالي:

١ـ حيي بن أخطب، رئيسًا.

٢ـ سلام بن مشكم، عضوًا.

٣ ـ كنانة بن أبي الحقيق، عضوًا.

٤ ـ هوذة بن قيس الوائلي، عضوًا.

٥ ـ أبو عامر الفاسق، الذي كان قائد فصيلة خونة الأوس في معركة أحد ضد المسلمين، عضوًا.

وقد غادر هذا الوفد اليهودي مدينة خيبر في أوائل شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة ـ أي: بعد مرور حوالي سنة على معركة أحد وبعد مرور أربعة أشهر (فقط) على إجلاء بني النضير من المدينة».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١١٩].

روى ابن إسحاق عن شيوخه قَالُوا: إِنَّهُ كَانَ مِنْ حَدِيثِ الخَنْدَقِ أَنَّ نَفَرًا مِنْ اليَهُودِ، مِنْهُمْ سَلَامُ بْنُ أَبِي الحُقَيْقِ النَّضْرِيُّ، وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ النَّضْرِيُّ، وَكِنَانَةُ بْنُ أَبِي الحُقَيْقِ النَّضْرِيُّ، وَهَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ الوَائِلِيُّ، وَأَبُو عَمَّارٍ الوَائِلِيُّ، فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ وَنَفَرٍ مِنْ بَنِي وَائِلٍ، وَهُمْ الَّذِينَ حَزَّبُوا الأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ خَرَجُوا حَتَّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ مَكَّةَ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ الله ﷺ وَقَالُوا: «**إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ**». **[السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢١٤، وقال الشيخ العلي: «ورجاله ثقات، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، ولكنه مرسل، وقد وصله السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول ص ١٧، ورواه الطبراني في الكبير ١١/ ٢٥١، وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٦: وفيه يونس بن سليمان الجمال، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح»، قلت: وقد رواه البيهقي بسنده عن ابن إسحاق بنحوه. دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٠٨. وستأتي بقيته في «الخطيئة الكبرى لوفد اليهود»].**

وروى الواقدي عن شيوخه قَالُوا: لَـمَّا أَجْلَى رَسُولُ الله ﷺ بَنِي النَّضِيرِ سَارُوا إِلَى خَيْبَرَ، وَكَانَ بِهَا مِنْ اليَهُودِ قَوْمٌ أَهْلُ عَدَدٍ وَجَلَدٍ وَلَيْسَتْ لَهُمْ مِن البُيُوتِ وَالأَحْسَابِ مَا لِبَنِي النَّضِيرِ ـ كَانَ بَنُو النَّضِيرِ سِرَّهُمْ وَقُرَيْظَةُ مِنْ وَلَدِ الكَاهِنِ مِنْ بَنِي هَارُونَ ـ فَلَـمَّا قَدِمُوا خَيْبَرَ خَرَجَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وَكِنَانَةُ بْنُ أَبِي الحُقَيْقِ، وَهَوْذَةُ بْنُ الحُقَيْقِ وَهَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ الوَائِلِيُّ مِنْ الأَوْسِ مِنْ بَنِي خَطْمَةَ، وَأَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ فِي بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا إِلَى مَكَّةَ يَدْعُونَ قُرَيْشًا وَأَتْبَاعَهَا إِلَى حَرْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالُوا لِقُرَيْشٍ: **نَحْنُ مَعَكُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمَّدًا**. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤١].

الوفد اليهودي في مكة:

يقول أ/ باشميل: «وبالرغم من أن قبائل غطفان النجدية ـ التي أَلَّفت فيما بعد العمود الفقري لغزو الأحزاب ـ كانت منازلها أقرب إلى هؤلاء اليهود من قبائل الحجاز، فإن الوفد اليهودي قد توجه رأسًا إلى مكة.

فاتصل أولًا بزعمائها وقادتها وعرض عليهم كامل المخطط الذي يحمله لإنشاء الاتحاد العسكري القبلي الكبير لغزو المدينة ووضع حد لسلطان المسلمين باستئصال شأفتهم.

ولدى اطلاع زعماء مكة على المخطط اليهودي سروا سرورًا عظيمًا وأبدوا موافقتهم الكاملة عليه واستعدادهم لتنفيذه بكامله، بعد أن شكروا لليهود مجهودهم الكبير في وضع هذا المخطط والسعي من أجل تنفيذه.

الوفد اليهودي في برلمان مكة:

فعند وصول الوفد اليهودي إلى مكة عقد برلمانها جلسة خاصة لبحث المخطط اليهودي الموضوع لإنشاء الاتحاد العربي الوثني اليهودي لمحاربة الإسلام والقضاء على المسلمين.

وبعد أن ألم أعضاء دار الندوة (برلمان مكة) بالمشروع اليهودي ودرسوه من جميع نواحيه وعرفوا أن في تنفيذه هدم الإسلام والقضاء على المسلمين أبدو للوفد اليهودي سرورهم العظيم وموافقتهم الكاملة، وقف قائد عام جيش مكة (أبو سفيان بن حرب) خطيبًا في البرلمان الذي سمحت مكة للوفد اليهودي بحضور جلسته الخاصة؛ لأنها تتعلق ببحث مشروعهم لغزو المدينة.

وقف وأعلن أبو سفيان في خطبته باسم برلمان مكة وجيشها الترحيب بفكرة اليهود الداعية إلى إنشاء الاتحاد العربي اليهودي العسكري لغزو المدينة وسحق المسلمين فيها سحقًا كاملًا».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١١٩-١٢٠].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: هَذَا الَّذِي أَقْدَمَكُمْ وَنَزَعَكُمْ؟

قَالُوا: نَعَمْ، جِئْنَا لِنُحَالِفَكُمْ عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ وَقِتَالِهِ.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **مَرْحَبًا وَأَهْلًا، أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْنَا مَنْ أَعَانَنَا عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ.**

قَالَ النَّفَرُ: **فَأَخْرِجْ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا أَنْتَ فِيهِمْ، وَنَدْخُلُ نَحْنُ وَأَنْتُمْ بَيْنَ أَسْتَارِ الكَعْبَةِ، حَتَّى نُلصِقَ أَكْبَادَنَا بِهَا، ثُمَّ نَحْلِفُ بِاللهِ جَمِيعًا لا يَخْذُلُ بَعْضُنَا بَعْضًا، وَلَتَكُونَنَّ كَلِمَتُنَا وَاحِدَةً عَلَى هَذَا الرَّجُلِ مَا بَقِيَ مِنَّا رَجُلٌ.**

فَفَعَلُوا فَتَحَالَفُوا عَلَى ذَلِكَ وَتَعَاقَدُوا. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤١-٤٤٢].

الخطيئة الكبرى لوفد اليهود وما نزل فيهم من القرآن:

يقول أ/ باشميل: «وقد جرت داخل برلمان مكة بين زعمائها وأعضاء الوفد اليهودي مناقشات حول الإسلام والوثنية، وتقدم بعض نواب مكة إلى أحبار اليهود في الوفد بأسئلة يسألونهم فيها (بصفتهم أهل كتاب والأكثر معرفة بالأديان منهم) عن دين محمد ودين الوثنية وأيهما أحق بالاتباع».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٢١].

قال ابْنُ إِسْحَاقَ: «خَرَجُوا - أي الوفد اليهودي - حَتَّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ مَكَّةَ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ الله ﷺ وَقَالُوا: **إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ**، فَقَالَتْ لَهُمْ قُرَيْشٌ: **يَا مَعْشَرَ يَهُودَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ الأَوَّلِ وَالعِلْمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ؟** قَالُوا: **بَل دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالحَقِّ مِنْهُ**، فَهُمْ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ (أَيْ: النُّبُوَّةَ) فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾[النساء].

قال ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَلَـمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِقُرَيْشٍ سَرَّهُمْ، وَنَشَطُوا لِـمَا دَعَوْهُمْ إِلَيْهِ مِنْ حَرْبِ رَسُولِ الله ﷺ، فَاجْتَمَعُوا لِذَلِكَ وَاتَّعَدُوا لَهُ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢١٤- ٢١٥].

وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ حَسَدًا لِلعَرَبِ أَنْ جَعَلَ اللهُ ﷻ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْهُمْ. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٠٩].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: ثُمَّ قَالَتْ قُرَيْشٌ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ: قَدْ جَاءَكُمْ رُؤَسَاءُ أَهْلِ يَثْرِبَ وَأَهْلُ العِلْمِ وَالكِتَابِ الأُوَلِ فَسَلُوهُمْ عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ وَمُحَمَّدٌ أَيُّنَا أَهْدَى؟ قَالَتْ قُرَيْشٌ: نَعَمْ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ، أَنْتُمْ أَهْلُ الكِتَابِ الأُوَلِ، وَالعِلْمِ، أَخْبِرُونَا عَمَّا أَصْبَحْنَا نَحْنُ فِيهِ وَمُحَمَّدٌ، دِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُ مُحَمَّدٍ؟ فَنَحْنُ عُمَّارُ البَيْتِ، وَنَنْحَرُ الكَوْمَ، وَنَسْقِي الحَجِيجَ وَنَعْبُدُ الأَصْنَامَ**، قَالُوا: **اللَّهُمَّ أَنْتُمْ أَوْلَى بِالحَقِّ مِنْهُ، إِنَّكُمْ لَتُعَظِّمُونَ هَذَا البَيْتَ، وَتَقُومُونَ عَلَى السِّقَايَةِ، وَتَنْحَرُونَ البُدْنَ، وَتَعْبُدُونَ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ، فَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالحَقِّ مِنْهُ**، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ فَاتَّعَدُوا لِوَقْتٍ وَقَّتُوهُ.

فَقَالَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ: **يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ قَدْ وَعَدْتُمْ هَؤُلاءِ القَوْمَ لِهَذَا الوَقْتِ، وَفَارَقُوكُمْ عَلَيْهِ فَفُوا لَـهُمْ بِهِ، لا يَكُونُ هَذَا كَمَا كَانَ، وَعَدْنَا مُحَمَّدًا بَدْرَ الصَّفْرَاءِ، فَلَمْ نَفِ بِمَوْعِدِهِ وَاجْتَرَأَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ، وَقَدْ كُنْتُ كَارِهًا لِمِيعَادِ أَبِي سُفْيَانَ يَوْمَئِذٍ**. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٢].

الاتفاق على الدور اليهودي في التحريض للغزوة:

ويظهر أن لهذه القصة أصلًا؛ ولذلك أوردها المفسرون عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ [النساء].

فقد قال الطبري وابن كثير: «عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ ، عَمَّنْ قَالَهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَوْ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قَالَ: كَانَ الَّذِينَ حَزَّبُوا الْأَحْزَابَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ وَبَنِي قُرَيْظَةَ: حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ ، وَسَلَامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ ، وَأَبُو رَافِعٍ ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ ، وَأَبُو عَامِرٍ ، وَوَحْوَحُ بْنُ عَامِرٍ ، وَهَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ؛ فَأَمَّا وَحْوَحُ ، وَأَبُو عَامِرٍ ، وَهَوْذَةُ فَمِنْ بَنِي وَائِلٍ ، وَكَانَ سَائِرُهُمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ ، قَالُوا: **هَؤُلَاءِ أَحْبَارُ يَهُودَ وَأَهْلُ الْعِلْمِ بِالْكُتُبِ الْأُوَلِ ، فَاسْأَلُوهُمْ أَدِينُكُمْ خَيْرٌ ، أَمْ دِينُ مُحَمَّدٍ؟ فَسَأَلُوهُمْ** ، فَقَالُوا: **بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ ، وَأَنْتُمْ أَهْدَى مِنْهُ وَمِمَّنِ اتَّبَعَهُ**، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]. **[تفسير الطبري ط هجر ٧/ ١٤٦، وتفسير ابن كثير تح سلامة ٢/ ٣٣٤، ويقول د/ المدخلي: «والحديث بهذا السند يعتبر حسنًا لذاته، والشك في قوله عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير لا يضر فكلاهما ثقتان، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه كذلك الطبري، وعبد الرزاق عن الزهري في حديثه عن ابن المسيب مطولًا». مرويات غزوة الخندق ٥٣. وقال الشيخ الصوياني: حسن لغيره. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣١٦. قلت: وقد رواه البيهقي بسنده عن ابن إسحاق بنحوه. دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٠٨]**.

الوفد اليهودي في ديار غطفان [(١)]:

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن ضمن الوفد اليهودي موافقة قريش على مشروع غزو المدينة وحدد موعدًا لهذا الغزو، توجه هذا الوفد الشرير إلى ديار غطفان بنجد لعرض مخططه على زعماء تلك القبائل، وعندما وصل إلى منزل غطفان صار ينتقل بين مضارب البدو وخيامهم للدعاية لمشروعه الخبيث وإيغار صدر الأعراب على النبي ﷺ وشحن نفوسهم بالكره للمسلمين.

---

(١) غطفان بن سعد بطن عظيم متسع كثير الشعوب والأفخاذ من قيس عيلان من العدنانية، وهم بنو غطفان بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان كانت منازلهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبل طيء ثم تفرقوا في الفتوحات الإسلامية، واستولت عليها قبائل طيء، وتنقسم إلى ثلاثة أفخاذ عظيمة هي:
أ – أشجع بن ريث بن غطفان. ب – عبس. ج – ذبيان.
وقد حاربوا رسول الله ﷺ في غزوة الخندق، وجاؤوا من بلادهم لذلك، وكانوا أكثر الجموع في الأحزاب، ثم ارتدوا بعد موته ﷺ فحاربهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وبعث إليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه فقتل منهم كثيرًا وتشتت شملهم. معجم قبائل العرب ٣/ ٨٨٨، والمعارف لابن قتيبة ٨٢.

ثم شرع في محادثاته مع زعماء هذه القبائل العظيمة، فعرض عليهم مشروع غزو المدينة وأطلعهم على مخطط هذا الغزو، وأبلغهم موافقة قريش عليه، وأنها قد أخذت تتجهز للزحف على المدينة وفق هذا المخطط.

وقد دارت محادثات الوفد اليهودي الرئيسة مع عيينة بن حصن الفزاري؛ لأنه أقوى شخصية مُطاعة بين قبائل غطفان، وهو الذي وصفه النبي ﷺ بالأحمق المطاع لأنه مع (حُمقه) من جَرَّاري الجيوش المشهورين تتبعه عشرة آلاف قناة..

كما حضر محادثات الوفد اليهودي من زعماء قبائل غطفان كل من (الحارث بن عوف) قائد بني مرة، و(أبي مسعود بن رخيلة) قائد بني أشجع، و(سفيان بن عبد شمس) قائد بني سليم، و(طليحة بن خويلد) قائد بني أسد.

وقد وافق زعماء هذه القبائل الغطفانية على المشروع اليهودي وأعجبهم المخطط المرسوم لغزو المدينة، وتم الاتفاق بينهم وبين اليهود على تنفيذه بحذافيره». [الأحزاب لباشميل ١٢٢-١٢٣].

قال ابْنُ إِسْحَاقَ: «ثُمَّ خَرَجَ أُولَئِكَ النَّفَرُ مِنْ يَهُودَ حَتَّى جَاؤُوا غَطَفَانَ، مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ مَعَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَنَّ قُرَيْشًا قَدْ تَابَعُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَاجْتَمَعُوا مَعَهُمْ فِيهِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٥].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَخَرَجَتْ اليَهُودُ حَتَّى أَتَتْ غَطَفَانَ، وَأَخَذَتْ قُرَيْشٌ فِي الجَهَازِ، وَسَيَّرَتْ فِي العَرَبِ تَدْعُوهُمْ إِلَى نَصْرِهَا، وَأَلَّبُوا أَحَابِيشَهُمْ وَمَنْ تَبِعَهُمْ، ثُمَّ خَرَجَتْ اليَهُودُ حَتَّى جَاؤُوا بَنِي سُلَيْمٍ فَوَعَدُوهُمْ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ إِذَا سَارَتْ قُرَيْشٌ، ثُمَّ سَارُوا فِي غَطَفَانَ، فَجَعَلُوا لَهُمْ تَمْرَ خَيْبَرَ سَنَةً وَيَنْصُرُونَهُمْ وَيَسِيرُونَ مَعَ قُرَيْشٍ إِلَى مُحَمَّدٍ إِذَا سَارُوا، فَأَنْعَمَتْ بِذَلِكَ غَطَفَانُ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَسْرَعَ إِلَى ذَلِكَ مِنْ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٢-٤٤٣].

نجاح اليهود في إنشاء اتحاد الحلفاء ضد المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «وهكذا نجح اليهود في محادثاتهم مع قبائل غطفان نجاحًا كبيرًا، هذه القبائل التي لم تكن أقل تحمسًا من قريش لفكرة قيام الاتحاد العربي الوثني اليهودي العسكري ضد المسلمين.

فكم حاولت قبائل غطفان هذه القيام بغزو المسلمين في المدينة منفردة فتفشل، حيث يحبط النبي القائد ﷺ محاولاتها بضربها (بسرعة) في ديارها فيشتت جموعها قبل أن تتحرك.

ولهذا فقد كان ما عرضه اليهود في مشروعهم على هذه القبائل من المشاركة مع قريش واليهود في غزو المدينة أُمنية تتمناها هذه القبائل». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٢٣-١٢٤].

اتفاقية الاتحاد وشروطها:

يقول أ/ باشميل: «وقد أبرم الوفد اليهودي مع زعماء قريش وأعراب غطفان اتفاقية الاتحاد العربي الوثني اليهودي العسكري ضد المسلمين، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو:

١ـ أن تكون قوة غطفان في جيش الاتحاد هذا ستة آلاف مقاتل.

٢ـ أن يدفع اليهود لقبائل غطفان (مقابل ذلك) كل ثمر نخل خيبر لسنة واحدة.

وهكذا لم يعد الوفد اليهودي الشرير إلا بعد أن حشد عشرة آلاف مقاتل من قبائل قريش وغطفان وجمعها على حرب النبي ﷺ، وهو جمع لم يسبق للمسلمين أن واجهوا مثله في حروبهم مع الأعداء، وقد أبلغ الوفد اليهودي قادة قريش بتفاصيل الاتفاقية التي تمت بينه وبين قبائل غطفان ليكون تنسيق الغزو بموجبها، فاغتبطت قريش غاية الاغتباط بذلك». [**غزوة الأحزاب لباشميل ١٢٤**].

المبحث الثالث
الأحزاب وتجهيزاتهم وقادتهم

الأحزاب يتجهزون:

يقول أ/ باشميل: «وقد شرع قادة الأحزاب في التجهيز، وبذلوا جهودًا جبارة لحشد جيوشهم وتنظيمها وتموينها لكي يكون الغزو مركزًا ناجحًا محققًا أهدافه.

أما قريش فقد استطاعت أن تحشد أربعة آلاف مقاتل بما في ذلك حلفاؤها، وكان جيشها في هذا الغزو أحسن جيش من حيث دقة التنظيم وجودة التسليح ووفرة التموين.

فقد كان لقريش من سلاح النقليات ألف وخمسمائة بعير، ومن سلاح المطاردة ثلاثمائة فرس.

وفي دار الندوة عقدت قريش اللواء وأعطته لعثمان بن طلحة العبدري، أما قيادة الجيش فقد أُسندت إلى أبي سفيان بن حرب الأموي، وتسلم خالد بن الوليد المخزومي قيادة سلاح الفرسان، وهذا كله تم ويتم بموجب نظام أبدي تسير عليه في حروبها منذ عهود سحيقة.

حيث كان النظام المتفق عليه بين قبائل قريش أن تكون القيادة العامة للجيش في بني أمية، والسقاية والرفادة في بني هاشم، وحمل اللواء في الحروب يختص به بنو عبد الدار مع الحجابة، وقيادة الفرسان (ضمن القيادة العامة) تكون دائمًا في بني مخزوم.

تحالف قريش عند أستار الكعبة:

وزيادة في التصميم من قريش على حرب النبي ﷺ خرج من بطونها خمسون رجلًا إلى الحرم فتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها وتعاهدوا (وهم كذلك) على أن لا يخذل بعضهم بعضًا، ويكونوا يدًا واحدة على محمد ما بقي منهم رجل واحد. [السيرة الحلبية ٢/ ٩٦].

قادة جيوش غطفان:

أما قبائل غطفان فقد حشدت ستة آلاف مقاتل منها ومن أحلافها، ولما كانت غطفان ليس لها نظام ثابت تسير عليه في الحروب كما هو الحال عند قريش التي يكون القائد العام لجيوشها رجل من بني أمية (دائمًا) فقد تحركت قواتها تحت أربع قيادات، وذلك حسب القبائل الرئيسة في غطفان وهي:

١ـ بنو فزارة، وقائدها (عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر).

٢ ـ بنو أسد، وقائدها (طليحة بن خويلد).

٣ ـ بنو أشجع، وقائدهم (مسعود بن رخيلة بن نويرة).

٤ ـ بنو مرة، وقائدهم (الحارث بن عوف)». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٢٥-١٢٦].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ، وَقَائِدُهَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ؛ وَخَرَجَتْ غَطَفَانُ، وَقَائِدُهَا عُيَيْنَةُ ابْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ، فِي بَنِي فَزَارَةَ، وَالحَارِثُ بْنُ عَوْفِ بْنِ أَبِي حَارِثَةَ الـمرِّيُّ، فِي بَنِي مُرَّةَ، وَمِسْعَرُ بْنُ رُخَيْلَةَ بْنِ نُوَيْرَةَ بْنِ طَرِيفِ بْنِ سُحْمَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ هِلَالِ بْنِ خَلَاوَةَ بْنِ أَشْجَعَ بْنِ رَيْثِ بْنِ غَطَفَانَ، فِيمَنْ تَابَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ أَشْجَعَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٥].

المبحث الرابع
الموقف في المدينة المنورة

الحذر والترقب:

يقول أ/ باشميل: «ولم تكن المدينة غافلة عما يجري ضدها في مكة وبين مضارب البدو في نجد، فقد كانت استخباراتها العسكرية على غاية من التيقظ والنشاط.

فقد كان رجالها يتتبعون حركات الوفد اليهودي منذ فصل من خيبر في اتجاه مكة، وكانت على علم تام بكل ما يجري بين الوفد اليهودي وبين قريش أولًا ثم غطفان ثانيًا.

فكان رجال هذه الاستخبارات يبعثون بمعلوماتهم الخطيرة عن مفاوضات الأحزاب، أولًا بأول.

فظل المسلمون على غاية من الحذر والترقب ينتظرون النتائج النهائية للمساعي التي كان يقوم بها وفد خيبر لدى تلك القبائل العربية المعادية للمسلمين.

وبمجرد حصول الوفد اليهودي على موافقة قريش وغطفان على إنشاء الاتحاد العسكري الثلاثي المؤلف من اليهود وغطفان وقريش تلقت المدينة من رجال استخباراتها هذا النبأ الخطير، كما تلقت المدينة بعد ذلك من رجال استخبارات جيشها ما يجب أن تحصل عليه من معلومات دقيقة عن مبلغ قوة جيوش الأحزاب وعدد جنوده وأسماء قادته ومتى سيكون ميعاد تحركه نحو المدينة».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٢٦-١٢٧].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَلَـمَّا فَصَلَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، خَرَجَ رَكْبٌ مِنْ خُزَاعَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ بِفُصُولِ قُرَيْشٍ، فَسَارُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ أَرْبَعًا، فَذَلِكَ حِينَ نَدَبَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ، وَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَ عَدُوِّهِمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ بِالجِدِّ وَالجِهَادِ، وَوَعَدَهُمْ النَّصْرَ إِنْ هُمْ صَبَرُوا وَاتَّقُوا، وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ. **[المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٤].**

جغرافية المدينة:

يقول الشيخ عبيد: «لكي نتعرف على ما يجري في المدينة نتعرف أولًا على جغرافيتها؛ ليتضح لنا ميدان المعركة، ونتعرف على ما يجري في الساحة.

المدينة محصورة بين جبلين، ففي الجنوب الغربي يوجد جبل (عير)، وفي أقصى الشمال يقع جبل (أُحُد)، وعلى بُعد المدينة بما يعادل «٥ كيلو متر» تقع مدينة قُباء، ثم تحيط الوديان بالمدينة من جهاتها الأربع، فكانت بيوت المدينة متلاصقة بالجبال بحيث يصعب على أي مهاجم للمدينة أن يهاجمها من أي ناحية إلا من الناحية الشمالية.

وكان يهود بني قريظة يسكنون في الشمال الشرقي من المدينة، وهي الجهة التي يسهل الدخول منها، واليهود بطبيعة الحال ليسوا أهلًا للثقة؛ لأنهم ليسوا أهل وفاء بالعهد». [غزوة الأحزاب لعبيد ١٩].

مشاورة الرسول ﷺ للصحابة رضي الله عنهم:

يقول د/ هيكل: «واتصل نبأ هذا السير بمحمد ﷺ والمسلمين معه في المدينة ففزعوا، ها هي ذي العرب كلها قد أجمعت أمرها لتسحقنهم ولتقضين عليهم ولتستأصلنهم، وها هي ذي قد جاءت في عُدة وعديد ما لها في حروب العرب جميعًا من قبل مثل، وإذا كانت قريش قد انتصرت في أُحُد عليهم لما خرجوا من المدينة وكانت دون هذه الأحزاب بمراحل في العدد والعدة، فماذا عسى أن يصنع المسلمون لمقابلة الألوف المؤلفة من رجال وخيل وإبل وأسلحة وذخيرة؟! لم يكن سبيل إلى غير التحصن بيثرب العذراء، على ما وصفها عبد الله بن أبي.

ولكن أيكفى هذا التحصن أمام تلك القوة الساحقة؟!». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤٠].

وفور حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدو، شرع الرسول ﷺ في اتخاذ الإجراءات الفورية الدفاعية اللازمة، ودعا إلى اجتماع عاجل حضره كبار قادة جيشه من المهاجرين والأنصار، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير الناجم عن مساعي اليهود الخبيثة.

خطة الدفاع عن المدينة:

يقول أ/ باشميل: «ولما كانت المعلومات قد أكدت أن الهدف الرئيس من الغزو هو احتلال المدينة نفسها، فقد دار البحث في مجلس الرسول ﷺ العسكري ـ بصفة رئيسة ـ حول ما يجب اتخاذه من خطوات فعالة حاسمة للدفاع عن العاصمة، وهل يخرج المسلمون للقاء الأحزاب خارج المدينة كما فعلوا في غزوة أُحُد أم يبقون متحصنين داخل المدينة؟

وأخيرًا، تقرر أن يتحصن المسلمون في المدينة للدفاع عنها لا سيما وأن الجيش الذي جاء لغزوهم لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل بينما لا يزيد جيش المدينة ـ في أكبر تقدير ـ على ثلاثة آلاف مقاتل، بينهم كثير من المنافقين الذين لا يؤمن جانبهم ساعة الحرب.

ولقد اختيرت المنطقة الشمالية من المدينة لتكون خطًّا للدفاع الرئيس فيها.

المشكلة الكبرى:

وبالرغم من توفيق القيادة الإسلامية في اختيار ذلك المكان للدفاع عن المدينة، والذي لا يوجد أصلح منه للصمود في وجه الغزاة فإن مشكلة ـ لدى وضع الخطط ـ قد اعترضت القادة المسلمين وأقلقت بالهم، وهي أنهم فكروا ـ لدى وضع خطة الدفاع عن المدينة ـ كيف يمكنهم الصمود في وجه جيوش

الأحزاب الجرارة ومنعها من احتلال المدينة إذا ما شدت عليهم شدة رجل والتحموا معها في معركة فاصلة في ذلك المكان الواسع الواقع عند مداخل المدينة الشمالية؟

فجيش المسلمين وإن كان رجاله يمتازون بالشجاعة النادرة التي مبعثها قوة العقيدة الصادقة، إلا أن كثرة العدد الغامرة الساحقة التي يتفوق بها جيش العدو، لابد من أن يحسب حسابها بتعقل؛ لأن الكثرة في أغلب الأحيان تغلب الشجاعة كما يقولون.

صاحب فكرة الخندق:

ولهذا كان المسلمون ـ وهم يبحثون خطة الدفاع عن المدينة ـ يفكرون في إيجاد وسيلة فعالة يتحاشون بها الالتحام الشامل المباشر مع جيوش الأحزاب الجرارة المتفوقة ـ عددًا وعدة ـ في معركة فاصلة ليتسنى لهم تجميده أو تعطيلها عن الحركة على النحو الواسع الذي تريد وترغب.

ولدى بحث هذا الموضوع، كان سلمان الفارسي ﷺ موجودًا ضمن هيئة أركان حرب الجيش الإسلامي للتشاور، فتقدم إلى القائد الأعلى النبي ﷺ بمشروع مهم عظيم، وافق عليه النبي ﷺ واغتبط به القادة من أصحابه الكرام، ولقد كان لتنفيذ هذا المشروع الدفاعي أكبر الأثر في تجميد نشاط جيوش الأحزاب وشل حركتها ثم فشل الغزو في النهاية.

لقد تمخضت تلك المشاورة عن رأي سديد أدلى به سلمان ﷺ، حيث أشار بحفر الخندق لكي يحول بين العدو وبين المدينة». [زاد المعاد ٣/ ٢٧١، السيرة الحلبية ١/ ٦٣١]. [الأحزاب لباشميل ١٢٧-١٢٩].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: يُقَالُ: إنَّ سَلمَانَ الفَارِسِيَّ ﷺ أَشَارَ بِهِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ.

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ العِلمِ أَنَّ المُهَاجِرِينَ يَوْمَ الخَنْدَقِ قَالُوا: سَلْمَانُ مِنَّا؛ وَقَالَتْ الأَنْصَارُ: سَلْمَانُ مِنَّا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢٢٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَشَاوَرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ مُشَاوَرَتَهُمْ فِي الحَرْبِ فَقَالَ: «**أَنَبْرُزُ لَـهُمْ مِن المَدِينَةِ، أَمْ نَكُونُ فِيهَا وَنُخَنْدِقُهَا عَلَيْنَا، أَمْ نَكُونُ قَرِيبًا وَنَجْعَلُ ظُهُورَنَا إِلَى هَذَا الجَبَلِ؟**» فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: نَكُونُ مِمَّا يَلِي بُعَاثَ إِلَى ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ إِلَى الجُرْفِ، فَقَالَ قَائِلٌ: نَدْعُ المَدِينَةَ خُلُوفًا، فَقَالَ سَلْمَانُ ﷺ: «**يَا رَسُولَ الله! إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ وَتَخَوَّفْنَا الخَيْلَ خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا، فَهَل لَكَ يَا رَسُولَ الله أَنْ نُخَنْدِقَ؟**» فَأَعْجَبَ رَأْيُ سَلمَانَ ﷺ المُسْلِمِينَ، وَذَكَرُوا حِينَ دَعَاهُمْ النَّبِيّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ أَنْ يُقِيمُوا وَلاَ يَخْرُجُوا، فَكَرِهَ الـمُسْلِمُونَ الخُرُوجَ وَأَحَبُّوا الثَّبَاتَ فِي المَدِينَةِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٤-٤٤٥].

ويقول د/ المدخلي: «ولم يرد في ذلك حديث صحيح غير أن الطبري قال: «حدثت عن محمد بن عمر قال: كان الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله

ﷺ وهو يومئذ حر، وقال: «**يَا رَسُولَ الله، إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ إِذَا حُوصِرْنَا خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا**».

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٥، تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٤٤، جامع البيان ٢١/ ١٣٠].

والواقدي وصفه أهل الحديث بأنه متروك مع سعة علمه.

وبذلك قال ابن هشام، ونقله عنه ابن كثير، وبه قال ابن الأثير.

وقد نقله الحافظ في الفتح حيث قال: وكان الذي أشار بذلك سلمان ﷺ فيما ذكر أصحاب المغازي منهم أبو معشر قال: «قال سلمان للنبي ﷺ: «**إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ إِذَا حُوصِرْنَا خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا**».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ١٤٢-١٤٣].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَتَنَافَسَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ فِي سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ ﷺ، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: **سَلْمَانُ مِنَّا!** وَكَانَ قَوِيًّا عَارِفًا بِحَفْرِ الخَنَادِقِ، وَقَالَتْ الأَنْصَارُ: **هُوَ مِنَّا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِهِ**، فَبَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ قَوْلُهُمْ فَقَالَ: «**سَلْمَانُ رَجُلٌ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ**».

وَلَقَدْ كَانَ يَوْمَئِذٍ يَعْمَلُ عَمَلَ عَشَرَةِ رِجَالٍ حَتَّى عَانَهُ (أي أصابه بالعين) يَوْمَئِذٍ قَيْسُ بْنُ أَبِي صَعْصَعَةَ، فَلُبِطَ بِهِ (أي صُرع وسقط إلى الأرض) فَسَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: «**مُرُوهُ فَلْيَتَوَضَّأْ لَهُ، وَلْيَغْتَسِلْ بِهِ، وَيُكْفِئْ الإِنَاءَ خَلْفَهُ**». فَفَعَلَ فَكَأَنَّمَا حُلَّ مِنْ عِقَالٍ.

فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ الفُضَيْلِ بْنِ مُبَشِّرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله ﷺ يَقُولُ: لَقَدْ كُنْتُ أَرَى سَلْمَانَ ﷺ يَوْمَئِذٍ وَقَدْ جَعَلُوا لَهُ خَمْسَةَ أَذْرُعٍ طُولًا وَخَمْسًا فِي الأَرْضِ، فَمَا تَحَيَّنْتُهُ حَتَّى فَرَغَ وَحْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ**. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٦-٤٤٧].

الخندق أعظم خط للدفاع عن المدينة:

لقد اقترح سلمان الفارسي ﷺ أن يسارع المسلمون إلى حفر خندق عميق يشمل كل المنطقة التي يتوقع أن ترتادها جيوش الأحزاب لاقتحام المدينة منها، على أن يتم حفر هذا الخندق قبل وصول جيوش الأحزاب إلى المكان الذي تبلغت القيادة في المدينة أنها قررت الوصول إليه، وهو السهل الواقع شمال غرب المدينة». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٢٩].

تفاصيل خطة الدفاع:

يقول أ/ باشميل: «تم الاتفاق بين قادة الجيش الإسلامي على خطة الدفاع عن المدينة، وهي كما يلي:

١ـ أن يبقى المسلمون في المدينة للدفاع عنها، وأن لا يخرجوا إلى الأحزاب خارجها.

٢ ـ أن تكون خطوط الدفاع الرئيسة في الطرف الشمالي من المدينة والواقع أمام جبل (سلع) على أن يكون هذا الجبل خلف ظهر القيادة الإسلامية.

٣ ـ أن يقوم المسلمون بحفر خندق عميق يكون حاجزًا بينهم وبين جيوش الأحزاب.

٤ـ أن يقوم المسلمون بإخلاء المدينة من النساء والأطفال والعجزة، على أن يجمعوهم في الحصون والآطام (**الأطم** بضمة وضمتين: القصر وكل حصن مبني بالحجارة وكل بيت مربع مسطح والجمع: آطام) المنيعة، بعيدين عن العدو، ولتسهل حمايتهم (وخاصة من يهود بني قريظة الواقعة منازلهم في المدينة والذين لا يأمن المسلمون جانبهم).

٥ ـ أن تقوم الدوريات الإسلامية بحراسة المدينة على التوالي، طول الليل حتى الصباح».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٣٠].

النساء والذراري في الحصون:

يقول د/ المدخلي: «وعندما قرر الرسول ﷺ حفر الخندق ـ بعد المشاورة ـ أمر بنقل النساء والذراري إلى الآطام الحصينة حتى لا يصيبهم مكروه؛ لأنه كان يتخوف عليهم من اليهود ـ بني قريظة ـ حيث كانت منازلهم مما يلي العوالي (جمع العالي ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال وقيل ثلاثة (وهو الصحيح)، وكانوا قد مالؤوا الأحزاب ووافقوهم على نقض العهد الذي أبرموه مع النبي ﷺ، فقد روى الطبراني بسنده عَنْ رَافِعِ بنِ خَدِيجٍ رضي الله عنه قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الخَنْدَقِ لَمْ يَكُنْ حِصْنٌ أَحْصَنُ مِنْ حِصْنِ بني حَارِثٍ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ وَالذَّرَارِيَّ فِيهِ، فَقَالَ: «**إِنْ أَلَمَّ بِكُنَّ** (أي إذا حصل ذلك وهو دخول أي غريب عنهم إليهن) **أَحَدٌ فَأَلْـمِعْنَ بِالسَّيْفِ**»، فَجَاءَهُنَّ رَجُلٌ مِنْ بني ثَعْلَبَةَ بن سَعْدٍ يُقَالُ لَهُ: بُجْدَانُ أَحَدُ بني جَحَّاشٍ عَلَى فَرَسٍ، حَتَّى كَانَ فِي أَصْلِ الحِصْنِ، ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ لِلنِّسَاءِ: **انْزِلَنْ إِلَيَّ خَيْرٌ لَكُنَّ**، فَحَرَّكْنَ السَّيْفَ، فَأَبْصَرَهُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، فَابْتَدَرَ الحِصْنَ قَوْمٌ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ بني حَارِثَةَ، يُقَالُ لَهُ: ظُهَيْرُ بن رَافِعٍ، فَقَالَ: يَا بُجْدَانُ أَبْرِزْ، فَبَرَزَ إِلَيْهِ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَرَسُهُ فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ رَأْسَهُ، فَذَهَبَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ».

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٣ في المغازي والسير (١٠١٤٤)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٤ /٢٦٨ رقم ٤٣٧٨] ورجاله ثقات. ورواه ابن جرير في تاريخه بسنده من طريق ابن إسحاق. تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٧٠- ٥٧١].

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ١٤٤-١٤٦].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَمَرَ ﷺ بِالذَّرَارِيِّ وَالنِّسَاءِ فَجُعِلُوا فِي الآطَامِ. **[السيرة لابن هشام ٢/ ٢٢٠].**

وروى البيهقي بسنده عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما قَالَ: جُعِلْتُ يَوْمَ الخَنْدَقِ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فِي الأُطُمِ، يَعْنِي: حِصْنًا، وَمَعِي عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، فَجَعَلَ يُطَأْطِئُ لِي فَأَصْعَدُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَأَنْظُرُ إِلَيْهِمْ كَيْفَ يَقْتَتِلُونَ، وَأُطَأْطِئُ لَهُ فَيَصْعَدُ فَوْقَ ظَهْرِي فَيَنْظُرُ، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَى أَبِي وَهُوَ يَحْمِلُ مَرَّةً هَاهُنَا وَمَرَّةً هَاهُنَا، فَمَا يَرْتَفِعُ لَهُ شَيْءٌ إِلَّا أَتَاهُ، فَلَـمَّا أَمْسَى جَاءَنَا إِلَى الأُطُمِ قُلْتُ: يَا أَبَةِ، رَأَيْتُكَ اليَوْمَ وَمَا تَصْنَعُ، قَالَ: وَرَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ جَمَعَ لِي أَبَوَيْهِ قَالَ: «**فِدَىً لَكَ أَبِي وَأُمِّي**».

[دلائل النبوة للبيهقي٣/ ٤٣٩-٤٤٠].

وعَنْ عِكْرِمَةَ : «أَنَّ صَفِيَّةَ كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٧ في المغازي (٣٧٩٧٧)، وقال الشيخ عوامة: «إسناده مرسل»].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَرَفَعَ المُسْلِمُونَ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ فِي الآطَامِ، وَرَفَعَتْ بَنُو حَارِثَةَ الذَّرَارِيَّ فِي أُطُمِهِمْ، وَكَانَ أُطُمًا مَنِيعًا، وَكَانَتْ عَائِشَةُ يَوْمَئِذٍ فِيهِ.

وَرَفَعَ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ النِّسَاءَ وَالذُّرِّيَّةَ فِي الآطَامِ، وَخَنْدَقَ بَعْضُهُمْ حَوْلَ الآطَامِ بِقُبَاءَ، وَحَصَّنَ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَلَفُّهَا (اللف: القوم المجتمعون)، وخَطْمَةُ، وَبَنُو أُمَيَّةَ، وَوَائِلٌ، وَوَاقِفٌ، فَكَانَ ذَرَارِيُّهُمْ فِي آطَامِهِمْ.

فَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبْجَرَ، عَنْ صَالِحِ بْنِ أَبِي حَسَّانَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي شُيُوخُ بَنِي وَاقِفٍ أَنَّهُمْ حَدَّثُوهُ أَنَّ بَنِي وَاقِفٍ جَعَلُوا ذَرَارِيَّهُمْ وَنِسَاءَهُمْ فِي أُطُمِهِمْ، وَكَانُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانُوا يَتَعَاهَدُونَ أَهْلِيهِمْ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ بِإِذْنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَنْهَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ، فَإِذَا أَلَحُّوا أَمَرَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا السِّلاحَ خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥١، وستأتي روايات أخرى في: هجوم اليهود على النساء].

المبحث الخامس
حفر الخندق

أين حفر الخندق؟:

يقول أ/ باشميل: «لقد كانت الخارطة التي وُضعت على أساس مشروع سلمان الفارسي رضي الله عنه لحفر الخندق تقضي بحفر خندق رئيس يمتد من الطرف الغربي لجبل «سلع» حتى طرف «حرة الوبرة» المطبقة على المدينة من الناحية الغربية، على أن يمر هذا الخندق بشكل قوس في الطرف الشرقي للحرة المذكورة، ثم يمتد على خط شبه مستقيم أمام جبل سلع متجهًا نحو الشرق حتى أطراف «حرة واقم» المطبقة على المدينة من الناحية الشرقية، فيفصل تمامًا بين معسكر الأحزاب الواقع في الناحية الشمالية حول أُحُد ومجمع الأسيال، وبين معسكر الإسلام الواقع أمام جبل سلع وعند مداخل المدينة الشمالية الواقعة ما بين الحرتين.

كما يتناول المشروع حفر خنادق جزئية ثانوية يرتبط بعضها ببعض تمتد من طرف الخندق الرئيس عند الطرف الغربي لجبل سلع وتتجه جنوبًا حتى مجمع وادي بطحان [(١)] ورانونا بحيث تجيء هذه الخنادق المترابطة خلف المسجد النبوي من الناحية الغربية.

وبموجب الخريطة الموضوعة للخندق شرع رجال الجيش في حفره فورًا، وكان الرسول القائد ﷺ يشترك معهم في الحفر، فكان يعمل كأي فرد من المسلمين حتى انتهى حفرُ الخندق.

وقد باشر جند الإسلام في الحفر بجد وتصميم ومثابرة، وكانت قيادة المدينة قد قررت بذل الجهد لإنجاز حفر الخندق قبل أن تصل جيوش الأحزاب إلى ضواحي المدينة، وذلك أن هذا الخندق هو الذي سيكون خط الدفاع الرئيس عن العاصمة؛ ولهذا كان لابد من إنجازه قبل وصول جيوش العدو.

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٣١-١٣٢].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي سَبْرَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَهْمٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَكِبَ فَرَسًا لَهُ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَارْتَادَ مَوْضِعًا يَنْزِلُهُ فَكَانَ أَعْجَبَ الْمَنَازِلِ إِلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ سَلعًا (الجبل المعروف بسوق المدينة) خَلْفَ ظَهْرِهِ، وَيُخَنْدِقَ مِنْ الْمَذَادِ (اسم أطم لبني حرام من بني سلمة غربي مسجد الفتح) إِلَى ذُبَابٍ (جبل بالمدينة له ذكر في المغازي والأخبار) إِلَى رَاتِجٍ (الجبل الذي أعلى جنب جبل بني عبيد غربي بطحان). **[المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٥]**.

---

(١) **بُطْحان** بضم فسكون عند المحدثين، وحكى أهل اللغة بَطِحان بفتح أوله وكسر ثانيه وهو: واد بالمدينة وهو أحد أوديتها الثلاثة: العقيق وبطحان وقناة. وقد روى الزبير بن بكار: بطحان على ترعة من ترع الجنة. ينظر : المغانم المطابة ٥٦، والنهاية في غريب الحديث ١/ ١٣٦. مرويات غزوة الخندق ١٩٤.

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَحَدَّثَنِي أَفْلَحُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: كَانَ الخَنْدَقُ الَّذِي خَنْدَقَ رَسُولُ الله ﷺ مَا بَيْنَ جَبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ إِلَى رَاتِجٍ، وَهَذَا أَثْبَتُ الأَحَادِيثِ عِنْدَنَا.

وَذَكَرُوا أَنَّ الخَنْدَقَ لَهُ أَبْوَابٌ، فَلَسْنَا نَدْرِي أَيْنَ مَوْضِعُهَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥١-٤٥٢].

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الـمُزَنِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَطَّ الخَنْدَقَ مِنْ أَحْمَرِ السَّبْخَتَيْنِ (١) طَرَفِ بَنِي حَارِثَةَ عَامَ حَزَّبَ الأَحْزَابَ حَتَّى بَلَغَ المَذَاحِجَ، فَقَطَعَ لِكُلِّ عَشَرَةٍ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَاحْتَجَّ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ فِي سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ، وَكَانَ رَجُلًا قَوِيًّا، فَقَالَ المُهَاجِرُونَ: سَلْمَانُ مِنَّا، وَقَالَتِ الأَنْصَارُ: سَلْمَانُ مِنَّا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ**».

[مجمع الزوائد ٦/ ١٨٩ في المغازي والسير (١٠١٣٧)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٦/ ٢١٢ رقم ٦٠٤٠]، وفيه كثير بن عبد الله المزني وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٦٩١ رقم ٦٥٤١، وقال الذهبي: «سنده ضعيف». دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤١٨].

الجيش هو الذي حفر الخندق:

يقول أ/ باشميل: «وكان الذي قام بحفر الخندق هم أفراد الجيش الإسلامي فقط بما فيهم النبي القائد ﷺ؛ لأنهم ليس لهم خدم ولا عبيد (كالأمم الأخرى) يسخرونهم لمثل هذا العمل العسكري الشاق.

وبالرغم من أن يهود بني قريظة هم من سكان يثرب ومواطنون ملزمون (بموجب المعاهدة المعقودة بينهم وبين المسلمين) بالمشاركة في حفر الخندق، كعمل من أعمال الدفاع عن المدينة، فإن هؤلاء اليهود لم يشارك منهم أحد في عملية حفر الخندق، وكان هذا أول عمل (غير ودي) ومخالفًا لنصوص المعاهدة قام به يهود بني قريظة.

ومن أجل إنجاز حفر الخندق (قبل وصول جيوش الأحزاب) أجهد الجيش نفسه في العمل، فكانوا يعملون في الحفر طيلة النهار ولا يستريحون إلا في الليل، وكان النبي القائد ﷺ يُشرف بنفسه على أعمال الحفر، ويحفر بيده الكريمة مع المسلمين حتى تم إنجاز الخندق». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٣٢-١٣٣].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ الله ﷺ وَمَا أَجْمَعُوا لَهُ مِن الأَمْرِ ضَرَبَ الخَنْدَقَ عَلَى الـمَدِينَةِ، فَعَمِلَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ تَرْغِيبًا لِلمُسْلِمِينَ فِي الأَجْرِ، وَعَمِلَ مَعَهُ الـمُسْلِمُونَ فِيهِ فَدَأَبَ فِيهِ وَدَأَبُوا، وَأَبْطَأَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَعَنْ الـمُسْلِمِينَ فِي عَمَلِهِمْ ذَلِكَ رِجَالٌ مِن الـمُنَافِقِينَ وَجَعَلُوا يُوَرُّونَ بِالضَّعِيفِ مِنْ العَمَلِ، وَيَتَسَلَّلُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ بِغَيْرِ عِلمٍ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَا إِذْنٍ.

---

(١) كذا في المجمع ٦/ ١٣٠ ـ أحمر السبختين ـ وفي بقية الكتب ورد غير ذلك، ولعله تصحيف فقد جاء عند الطبري في جامع البيان ٢١/ ١٣٣ ـ أحمر الشيخين ـ وفي تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٤٥ أجم الشيخين، وفي دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٠٠ الأجم ـ السمر ـ وهذا هو الحق لأن الأجم هي الحصون، وفيه (حتى توارت بآجام المدينة) أي حصونها واحدها أُجُم بضمتين. النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٦. مرويات غزوة الخندق ١٨٣.

وَجَعَلَ الرَّجُلُ مِنْ الـمُسْلِمِينَ إذَا نَابَتْهُ النَّائِبَةُ مِنَ الحَاجَةِ الَّتِي لَا بُدَّ لَهُ مِنْهَا، يَذْكُرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي اللُّحُوقِ بِحَاجَتِهِ، فَيَأْذَنُ لَهُ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ رَجَعَ إلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ عَمَلِهِ؛ رَغْبَةً فِي الخَيْرِ وَاحْتِسَابًا لَهُ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٦].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي سَبْرَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَهْمٍ...: فَعَمِلَ يَوْمَئِذٍ فِي الخَنْدَقِ، وَنَدَبَ النَّاسَ، فَخَبَّرَهُمْ بِدُنُوِّ عَدُوِّهِمْ، وَعَسْكَرَهُمْ إلَى سَفْحِ سَلعٍ، وَجَعَلَ المُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ مُسْتَعْجِلِينَ يُبَادِرُونَ قُدُومَ العَدُوِّ عَلَيْهِمْ، وَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ مَعَهُمْ فِي الخَنْدَقِ لِيُنَشِّطَ المُسْلِمِينَ، وَعَمِلُوا، وَاسْتَعَارُوا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ آلَةً كَثِيرَةً مِنْ مَسَاحِي (جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد)، وَكَرَازِينَ (جمع كرزن، وهو الفأس)، وَمَكَاتِلَ (جمع مكتل، وهو الزبيل الكبير، قيل إنه يسع خمسة عشر صاعًا)، يَحْفِرُونَ بِهِ الخَنْدَقَ ـ وَهُمْ يَوْمَئِذٍ سِلمٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَكْرَهُونَ قُدُومَ قُرَيْشٍ.

وَوَكَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكُلِّ جَانِبٍ مِنْ الخَنْدَقِ قَوْمًا يَحْفِرُونَهُ، فَكَانَ المُهَاجِرُونَ يَحْفِرُونَ مِنْ جَانِبِ رَاتِجٍ إلَى ذُبَابٍ، وَكَانَتْ الأَنْصَارُ تَحْفِرُ مِنْ ذُبَابٍ إلَى جَبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ، وَكَانَ سَائِرُ المَدِينَةِ مُشَبَّكًا بِالبُنْيَانِ.

فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ سَهْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كُنْتُ أَنْظُرُ إلَى المُسْلِمِينَ وَالشَّبَابُ يَنْقُلُونَ التُّرَابَ، وَالخَنْدَقُ بَسْطَةٌ (أي: قامة) أَوْ نَحْوُهَا، وَكَانَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَنْقُلُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ فِي المَكَاتِلِ، وَكَانُوا إذَا رَجَعُوا بِالمَكَاتِلِ جَعَلُوا فِيهَا الحِجَارَةَ يَأْتُونَ بِهَا مِنْ جَبَلِ سَلعٍ، وَكَانُوا يَجْعَلُونَ التُّرَابَ مِمَّا يَلِي النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، وَكَانَ يَسْطُرُونَ الحِجَارَةَ مِمَّا يَلِيهِمْ كَأَنَّهَا حِبَالُ التَّمْرِ ـ وَكَانَتْ الحِجَارَةُ مِنْ أَعْظَمِ سِلاحِهِمْ يَرْمُونَهُمْ بِهَا.

فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ مَرْوَانَ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ يَحْمِلُ التُّرَابَ فِي المَكَاتِلِ وَيَطْرَحُهُ وَالقَوْمُ يَرْتَجِزُونَ (يترنمون بالرَّجز من أوزان الشعر) وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

هَذَا الـجَمَالُ لا جَمَالُ خَيْبَرَ   هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ

وَجَعَلَ الـمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ إذَا رَأَوْا مِن الرَّجُلِ فُتُورًا ضَحِكُوا مِنْهُ. [المغازي للواقدي٢/ ٤٤٥-٤٤٦].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ عِيسَى، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَا كَانَ فِي الـمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إلَّا يَحْفِرُ فِي الخَنْدَقِ أَوْ يَنْقُلُ التُّرَابَ، وَلَقَدْ رُئِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ رضي الله عنهما ـ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما لا يَتَفَرَّقَانِ فِي عَمَلٍ وَلا مَسِيرٍ وَلا مَنْزِلٍ ـ يَنْقُلانِ التُّرَابَ فِي ثِيَابِهِمَا يَوْمَئِذٍ مِنْ العَجَلَةِ، إذْ لَمْ يَجِدَا مَكَاتِلَ لِعَجَلَةِ الـمُسْلِمِينَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٨-٤٤٩].

يقول أ/ باشميل: «وبالرغم من الهول وجو الرعب والفزع الذي يحيط المنطقة التي أصبحت كلها آذان في انتظار وصول جيوش الأحزاب التي سبقتها سيول من التخويف والترويع لأهل المدينة، بالرغم من ذلك كله، فقد كان المسلمون يعملون في حفر الخندق بثقة واطمئنان وثبات، قدوتهم الكبرى في ذلك

نبيهم الأعظم ﷺ الذي ـ هو بينهم يعمل ـ يتبسط معهم في الحديث ويداعب ويمازح في روح حلوة حانية لا يقول صاحبها إلا حقًّا.

وإنه لمنظر رائع حقًّا، محمد بن عبد الله النبي والقائد ﷺ يحفر التراب بالمسحاة في الخندق ويضرب بالفأس والمعول، وينحني ليجرف التراب ويحمله في المكتل على ظهره.

ويختلط بأصحابه كواحد منهم، ويرفع صوته مع المرتجزين وهم يرفعون أصواتهم بالرجز في أثناء العمل، فيشاركهم الترجيع، وقد كانوا يتغنون بأغاني ساذجة من وحي الحوادث الجارية.

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٣٦-١٣٧].

التنافس الشريف بين المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «ورغبة من القيادة العامة في إنجاز حفر الخندق بأسرع ما يمكن لجأت إلى بث روح التنافس الشريف بين المسلمين في الحفر.

فقد قسَّم الرسول ﷺ المساحات المطلوب حفرها خندقًا، بين أصحابه لكل عشرة منهم أربعين ذراعًا، عليهم أن ينجزوا حفرها ـ في حدود العمق والعرض الذي حددته القيادة لهم ـ بأسرع ما يمكن.

وقد بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع، أما عمق الخندق فلا يمكن أن يكون أقل من سبعة أذرع، والعرض ـ كذلك ـ لا يمكن أن يكون أقل من تسعة أذرع؛ لأن الخيل باستطاعتها أن تقتحم ما هو أقل من هذه المسافة.

وقد استغرق حفر الخندق (كما يقول ابن القيم) شهرًا كاملًا. [غزوة الأحزاب لباشميل ١٤١].

ما نزل في حق العاملين في الخندق:

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أُولَئِكَ مِنْ الـمُؤْمِنِينَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾[النور]، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِيمَنْ كَانَ مِنْ المُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الحِسْبَةِ وَالرَّغْبَةِ فِي الخَيْرِ وَالطَّاعَةِ لله ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى، يَعْنِي المُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَسَلَّلُونَ مِنْ العَمَلِ، وَيَذْهَبُونَ بِغَيْرِ إذْنٍ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور]. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٦].

عمل المنافقين التخريبي في الخندق:

يقول أ/ باشميل: «وبينما العمل يجري بجد ونشاط واجتهاد وإخلاص لحفر الخندق من جانب النبي ﷺ والصفوة من أصحابه، وبالرغم من حرص قيادة المدينة على إنجاز حفر الخندق، حتى يتم قبل

وصول جيوش الأحزاب، فإن قيادة المدينة قد واجهت ـ منذ اللحظة الأولى ـ متاعب وأعمالًا عليها طابع التخريب والتفتيت، من فئات ينتسبون إلى الإسلام وهم ليسوا منه في شيء ـ وهم المنافقون ـ قد كان لهم ـ منذ بدأت الاستعدادات لمعركة الخندق ـ أداور غير مشرفة وسيئة.

فقبل وصول الأحزاب، وأثناء عملية حفر الخندق كان هؤلاء المنافقون ـ الذين كانوا بحكم الظاهر جزءًا من الجيش الإسلامي ـ يتكاسلون في العمل أثناء عملية الحفر، وإن عملوا مع الجند، لا يعملون إلا الضعيف التافه من العمل.

وكانوا بالإضافة إلى هذا التكاسل، يقومون بأعمال تخريبية يشجعون بها ضعاف النفوس على التهاون في العمل في الخندق، بغية تأخير إنجاز الخندق حتى تصل جيوش الأحزاب.

بالرغم من الأوامر العسكرية المشددة التي تقضي بأن لا يترك أحد مكانه في العمل في الخندق إلا بإذن خاص من النبي القائد ﷺ، فقد كان هؤلاء المنافقون يتركون العمل ويتسللون منه إلى أهليهم دون أن يستأذنوا الرسول القائد ﷺ، فيكون لأعمالهم التخريبية هذه آثار سيئة على سير العمل في حفر الخندق.

أما المسلمون الصادقون فقد كانوا يقدرون الظروف الاستثنائية الخطيرة التي تستلزم مواصلة الحفر لإنجاز الخندق بأسرع ما يمكن، فكانوا لذلك لا يتركون العمل في الخندق إلا لضرورة قصوى تستدعي ذلك.

ومع ذلك فقد كانوا إذا نابت أحدهم نائبة من الحاجة التي لابد منها، لا يتركون العمل لقضائها، إلا بعد أن يأخذوا إذنًا خاصًّا من النبي القائد ﷺ امتثالًا لأمر الله تعالى الذي جاء فيه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾[النور].

فيأذن لهم النبي ﷺ في اللحاق بحاجتهم، فإذا قضوها عادوا إلى ما كانوا عليه من العمل في الخندق بأقصى سرعة رغبة منهم في الخير وحرصًا على إطاعة أوامر نبيهم الكريم ﷺ.

أما المنافقون فقد كانوا يتسللون من الخندق ويتركون العمل فيه، ويذهبون إلى حيث شاؤوا دون أن يستأذنوا النبي القائد ﷺ، يفعلون ذلك بقصد التخريب والتثبيط؛ لأنهم لا يؤمنون في قرارة أنفسهم بالنبي ﷺ ولا بما يدعو إليه بالرغم من تظاهرهم بالإسلام وانخراطهم في سلك جيشه، ذلك التظاهر الذي لم يكن إلا (تقية) تجعلهم ـ فقط ـ يتمتعون بحقوق المواطن المسلم، وهم في حقيقتهم بأنهم غير ملتزمين بالطاعة لأمر النبي ﷺ، وعلى أساس هذا الشعور كان تصرفهم المشين أثناء عملية حفر الخندق.

تنديد القرآن بالمنافقين:

ولقد ندَّد القرآن الكريم بهؤلاء المنافقين الذين يتركون العمل في الخندق بدافع التخريب، فيتركونه دون أن يستأذنوا النبي القائد ﷺ، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور].

وبالرغم من عمل المنافقين التخريبي وتكاسلهم عن العمل في الخندق، فإن عملهم الخبيث هذا لم يؤثر كثيرًا على سير عملية الحفر، فقد أجهد الصحابة أنفسهم في العمل حتى تم حفر الخندق كما أراد الرسول القائد ﷺ وقبل وصول جيوش الأحزاب بعدة أيام». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٣٨-١٤١].

ارتجاز المسلمين في حفر الخندق:

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الخَنْدَقِ، فَإِذَا المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ [قَرَّةٍ أَوْ] بَارِدَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ [خَدَمٌ] يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَلَـمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنْ النَّصَبِ (التعب والمشقة) وَالجُوعِ قَالَ:

اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ (١)

فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

[وَلَا نَفِرُّ وَلَا نَفِرُّ وَلَا نَفِرُّ]

[البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٤)، وفي المغازي (٤٠٩٩)، وفي الأحكام (٧٢٠١) بلفظ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الخَيْرَ خَيْرُ الآخِرَهْ»، و أحمد ٢٠/ ١٤١، ١٤٨، ٢٧٨، ٣٨٦ رقم ١٢٧٢٢، ١٢٧٣٢، ١٢٩٥١، ١٣١٢٧، ٢١/ ٣٨٥ رقم ١٣٩٥٥].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: جَعَلَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الخَنْدَقَ حَوْلَ الـمَدِينَةِ، وَيَنْقُلُونَ التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ (٢)[أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا يَقُولُونَ وَهُمْ يَحْفِرُونَ الخَنْدَقَ] وَهُمْ يَقُولُونَ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الإِسْلَامِ [الجِهَادِ] مَا بَقِينَا [حَيِينَا] أَبَدَا

قَالَ: يَقُولُ [فَأَجَابَهُمْ] النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يُجِيبُهُمْ:

اللَّهُمَّ إِنَّه لَا خَيْرَ [عَيْشَ] إِلَّا خَيْرُ [عَيْشَ] الآخِرَهْ فَبَارِكْ (٣) فِي الأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ

---

(١) وفي رواية أحمد: **اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرَ الآخِرَهْ فَأَصْلِحْ الأَنْصَارَ وَالـمُهَاجِرَهْ**

(٢) **المتن** هو الكتف (وقد جاء في رواية أخرى: على أكتافنا، وفي أخرى على أكتادنا، وكلاهما بمعنى واحد). مرويات غزوة الخندق ١٩١.

(٣) وفي رواية: **فَاغْفِرْ، فَأَكْرِمِ، فَأَصْلِحْ، فَانْصُرْ.**

قَالَ: يُؤْتَوْنَ بِمِلءِ كَفِّي مِنَ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ (يطبخ) لَهُمْ بِإِهَالَةٍ (الدهن مما يؤتدم به سواءً كان زيتًا أو شحمًا أو سمنًا، وقيل هو ما أذيب من الألية والشحم وقيل الدسم الجامد) سَنِخَةٍ (أي تغير طعمها ولونها من قدمها، وقيل: بنون وغين معجمة (أي نشغة) والنشغ القيء، أي يحصل لهم غثيان عند اذدرادها والأول أصوب) تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ القَوْمِ، وَالقَوْمُ جِيَاعٌ، [وَأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِخُبْزِ شَعِيرٍ عَلَيْهِ إِهَالَةٌ سَنِخَةٌ، فَأَكَلُوا مِنْهَا]، وَهِيَ بَشِعَةٌ (كريهة الطعم عند ازدرادها) فِي الحَلْقِ، وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ (يدل على أنها عتيقة جدًّا حتى عفنت وانتهت).

[وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّمَا الخَيْرُ خَيْرُ الآخِرَهْ**]. **[البخاري في المغازي (٤١٠٠)، وفي الجهاد والسير (٢٨٣٥، ٢٨٣٧، ٢٩٦١)، وفي المناقب (٣٧٩٥، ٣٧٩٦)، وفي الرقاق (٦٤١٣)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠٥)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٧)، ومسند أحمد ٢٠/ ٤١٨ رقم ١٣١٩١، ٢١/ ٢٣٦، ٤٥٤ رقم ١٣٦٤٦، ١٤٠٦٨].**

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي الْخَنْدَقِ، وَهُمْ يَحْفِرُونَ [وَهُوَ يَحْفِرُ]، وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ (فيه دلالة على صغر سن سهل ﷺ في ذلك الوقت، وأنه كان ومن في مثل سنه مخصصين لنقل التراب المحفور. مرويات غزوة الخندق ١٩٣) عَلَى أَكْتَادِنَا (**الكتد** بفتح التاء وكسرها: مجمع الكتفين وهو الكاهل. النهاية ٤/ ١٤٩. والمراد: نحمله على جنوبنا مما يلي الكبد)، [وَيَمُرُّ بِنَا]، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«**اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَهْ، فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ [لِلأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ]**».

[البخاري في المغازي (٤٠٩٨)، وفي المناقب (٣٧٩٧)، وفي الرقاق (٦٤١٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠٤)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٦) بلفظ: «فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ»، ومسند أحمد ٣٧/ ٤٧٢ رقم ٢٢٨١٥].

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﷺ قَالَتْ: مَا نَسِيتُ قَوْلَهُ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ وَهُوَ يُعَاطِيهِمُ اللَّبِنَ قَدِ اغْبَرَّ شَعْرُ صَدْرِهِ، وَهُوَ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ إِنَّ الخَيْرَ خَيْرُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ

وَجَاءَ عَمَّارٌ ﷺ فَقَالَ ﷺ: «**يَا ابْنَ سُمَيَّةَ تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ**». **[السنن الكبرى للنسائي ٧/ ٤٦٧ رقم ٨٤٩٢، ٨٤٩٣، ومسند أحمد ٤٤/ ٨٣، ٢٧٩ رقم ٢٦٤٨٢، ٢٦٦٨٠، وقال الشيخ الأرناؤوط عنهما: إسناده صحيح على شرط مسلم، ومجمع الزوائد ٦/ ١٩٣ في المغازي والسير (١٠١٤٣)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى [مسند أبي يعلى ٣/ ٢٠٩ رقم ١٦٤٥، وقال الشيخ أسد: إسناده حسن].**

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَعَمِلَ المُسْلِمُونَ فِيهِ حَتَّى أَحْكَمُوهُ وَارْتَجَزُوا فِيهِ بِرَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ يُقَالُ لَهُ جُعَيْلٌ، سَمَّاهُ رَسُولُ الله ﷺ عَمْرًا، فَقَالُوا:

سَمَّاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرًا وَكَانَ لِلْبَائِسِ يَوْمًا ظَهْرًا (١)

---

(١) **الظهر**: القوة والمعونة.

فَإِذَا مَرُّوا «بِعَمْرٍو» قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَمْرًا»، وَإِذَا مَرُّوا «بِظَهْرٍ» قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ظَهْرًا».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٧].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، قَالَ: كَانَ جُعَيْلُ بْنُ سُرَاقَةَ رَجُلًا صَالِحًا، وَكَانَ ذَمِيمًا قَبِيحًا، وَكَانَ يَعْمَلُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ فِي الخَنْدَقِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ غَيَّرَ اسْمَهُ يَوْمَئِذٍ فَسَمَّاهُ عَمْرًا، فَجَعَلَ الـمُسْلِمُونَ يَرْتَجِزُونَ وَيَقُولُونَ:

سَمَّاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرًا　　وَكَانَ لِلبَائِسِ يَوْمًا ظَهْرًا

قَالَ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لا يَقُولُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَقُولَ: «**عَمْرًا**».

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٧-٤٤٨].

وعَنْ سَلمَانَ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ضَرَبَ فِي الخَنْدَقِ وَقَالَ: «**بِسْمِ اللهِ وَبِهِ هُدِينَا، وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقِينَا، فَأَحَبُّ رَبًّا وَأَحَبُّ دِينًا**». [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤١٤].

النبي ﷺ يحمل التراب في الخندق:

قال الشيخ الغزالي: «أخذ النبي ﷺ يحفر بيده ويحمل الأتربة والأحجار على عاتقه، وتأسى به الرجال الكبار ممن لم يألفوا هذا العمل قط، فشهدت يثرب منظرًا عجيبًا، وجوهًا ناصعة تتألف منها فرق شتى تضرب بالفؤوس وتحمل المكاتل، وتتعرى من لباسها وزينتها لتلبس حللًا من نسج الغبار المتراكم والعرق واللغوب». [فقه السيرة للغزالي ٣٠٥].

ولقد كان النبي القائد ﷺ يعمل في حفر الخندق ويحمل التراب على ظهره كأنشط واحد في الجند.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ فِي الْخَنْدَقِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، أَخَذَ الْمِعْوَلَ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ اللهِ وَبِهِ بَدَيْنَا، وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقِينَا، أَلَا لَحَبَّذَا رَبًّا، وَحَبَّذَا دِينًا**»، ثُمَّ ضَرَبَ.

[الأحاديث المختارة للمقدسي ٦/ ١٥٩-١٦٠ رقم ٢١٥٩، وقال د/ دهيش: إِسْنَاده صَحِيح].

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ: ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْخَنْدَقِ [بِيَدَيْهِ]، ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ اللهِ وَبِهِ بَدِينَا، وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقِينَا، حَبَّذَا رَبًّا، وَحِبَّذَا دِينًا**». [بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث للهيثمي كتاب المغازي ٢/ ٧٠٢ رقم ٦٩٠، وإتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري كتاب سيرة سيدنا رسول الله ﷺ ٥/ ٢٣٠ رقم ٤٥٨٢، والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر كتاب السيرة والمغازي ١٧/ ٣٩٢ رقم ٤٢٧٤، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح... الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣١٨].

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ البَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ ﷺ يُحَدِّثُ قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الخَنْدَقِ، حَتَّى [أَغْمَرَ بَطْنَهُ أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ] وَارَى عَنِّي الغُبَارُ جِلدَةَ [بَيَاضَ] بَطْنِهِ [شَعَرَ صَدْرِهِ] [وَلَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ]، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ، فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ [عَبْدِ اللهِ] ابْنِ رَوَاحَةَ، وَهُوَ يَنْقُلُ مِنَ التُّرَابِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا (١)
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا (٢)
إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا (٣)

قَالَ: ثُمَّ يَمُدُّ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا (وفي رواية: وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ: أَبَيْنَا أَبَيْنَا).

[البخاري في المغازي (٤١٠٤، ٤١٠٦)، وفي الجهاد والسير (٢٨٣٧، ٢٨٣٦، ٣٠٣٤)، وفي القدر (٦٦٢٠)، وفي التمني (٧٢٣٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠٣)، ومسند أحمد ٣٠/ ٤٧٤، ٥٣٧-٥٣٩، ٦٠٩، ٦٢٠ رقم ١٨٥١٣، ١٨٥٧٠-١٨٥٧٢، ١٨٦٦٢، ١٨٦٨٤، والدارمي في السير (٢٤٥٥)، ومجمع الزوائد ٦/ ١٩٢ في المغازي والسير (١٠١٤٢)، وقال الهيثمي: رواه البزار وأبو يعلى [عن أنس بن مالك ﷺ] ورجاله ثقات].

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلبَرَاءِ ﷺ وَهُوَ يَمْزَحُ مَعَهُ: قَدْ فَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَأَنْتُمْ أَصْحَابُهُ؟! قَالَ البَرَاءُ ﷺ: إِنِّي لَأَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مَا فَرَّ يَوْمَئِذٍ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَوْمَ حُفِرَ الخَنْدَقُ وَهُوَ يَنْقُلُ مَعَ النَّاسِ التُّرَابَ وَهُوَ يَتَمَثَّلُ كَلِمَةَ ابْنِ رَوَاحَةَ...

[مسند أحمد ٣٠/ ٤٤٠ عن البراء بن عازب ﷺ رقم ١٨٤٨٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَكَانَ البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ ﷺ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، فَإِنَّهُ كَانَ أَبْيَضَ شَدِيدَ البَيَاضِ، كَثِيرَ الشَّعْرِ يَضْرِبُ الشَّعْرُ مَنْكِبَيْهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَوْمَئِذٍ يَحْمِلُ التُّرَابَ عَلَى ظَهْرِهِ حَتَّى حَالَ الغُبَارُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَإِنِّي لأَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ بَطْنِهِ.

وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ ﷺ: لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يَحْفِرُ فِي الخَنْدَقِ مَعَ المُسْلِمِينَ وَالتُّرَابُ عَلَى صَدْرِهِ وَبَيْنَ عُكَنِهِ (ما انطوى وتثنى من لحم البطن)، وَإِنَّهُ لَيَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

يُرَدِّدُ ذَلِكَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٩].

وروى الواقدي بسنده عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ:...وَكَانَ المُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ ثَلاثَةَ آلافٍ، فَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى رَسُولَ الله ﷺ وَإِنَّهُ لَيَضْرِبُ مَرَّةً بِالمِعْوَلِ، وَمَرَّةً يَغْرِفُ بِالمِسْحَاةِ التُّرَابَ، وَمَرَّةً يَحْمِلُ التُّرَابَ فِي المِكْتَلِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَوْمًا بَلَغَ مِنْهُ فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ اتَّكَأَ عَلَى حَجَرٍ عَلَى شِقِّهِ الأَيْسَرِ، فَذَهَبَ بِهِ النَّوْمُ، فَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَاقِفَيْنِ عَلَى رَأْسِهِ يُنَحِّيَانِ النَّاسَ أَنْ يَمُرُّوا بِهِ فَيُنَبِّهُوهُ، وَأَنَا قَرَّبْتُ مِنْهُ فَفَزِعَ وَوَثَبَ، فَقَالَ: «أَلا أَفْزَعْتُمُونِي»، فَأَخَذَ الكَرْزَنَ يَضْرِبُ بِهِ، وَإِنَّهُ لَيَقُولُ:

---

(١) وفي رواية: وَالله لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا صُمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
(٢) وفي رواية: فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنَّ الأُلَى قَدْ أَبَوْا عَلَيْنَا
(٣) وفي رواية: إِنَّ الأَعْدَاءَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا
وفي رواية: وَالمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا
وفي رواية: إِنَّ المَلَا قَدْ أَبَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالـمُهَاجِرَهْ
اللَّهُمَّ العَنْ عَضْلًا وَالقَارَهْ فَهُمْ كَلَّفُونِي أَنْقُلُ الحِجَارَهْ

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٣].

أَمَا إِنَّهُ نِعْمَ الغُلامُ:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَبَيْنَا الْمُسْلِمُونَ يَحْفِرُونَ، وَكَانَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ فِيمَنْ يَنْقُلُ التُّرَابَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: الحَمْدُ لله يَا رَسُولَ الله الَّذِي أَبْقَانِي حَتَّى آمَنْتُ بِكَ، إِنِّي عَانَقْتُ أَبَا هَذَا يَوْمَ بُعَاثَ، ثَابِتَ بْنَ الضَّحَّاكِ، فَكَانَتْ اللَّبْجَةُ بِهِ (من قولك: لبج به، أي صرع)، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ نِعْمَ الغُلامُ**»، وَكَانَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ قَدْ رَقَدَ فِي الخَنْدَقِ، غَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أُخِذَ سِلاحُهُ وَهُوَ لا يَشْعُرُ، وَهُوَ فِي قُرٍّ شَدِيدٍ ـ تُرْسُهُ وَقَوْسُهُ وَسَيْفُهُ ـ وَهُوَ عَلَى شَفِيرِ الخَنْدَقِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ يُطِيفُونَ بِالخَنْدَقِ وَيَحْرُسُونَهُ وَتَرَكُوا زَيْدًا نَائِمًا، وَلا يَشْعُرُونَ بِهِ حَتَّى جَاءَهُ عُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ ﷺ فَأَخَذَ سِلاحَهُ وَلا يَشْعُرُ حَتَّى فَزِعَ بَعْدَ فَقْدِ سِلاحِهِ، حَتَّى بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ فَدَعَا زَيْدًا فَقَالَ: «**يَا أَبَا رُقَادٍ، نِمْتَ حَتَّى ذَهَبَ سِلاحُكَ!**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ لَهُ عِلْمٌ بِسِلاحِ هَذَا الغُلامِ؟**» فَقَالَ عُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ ﷺ: أَنَا يَا رَسُولَ الله! وَهُوَ عِنْدِي، فَقَالَ: «**فَرُدَّهُ عَلَيْهِ**»، وَنَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُرَوَّعَ الْمُسْلِمُ أَوْ يُؤْخَذَ مَتَاعُهُ لاعِبًا جَادًّا (أي: لا يأخذه على سبيل الهزل ثم يحبسه فيصير ذلك جدًّا).

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٨].

وما أحلاها روح الدعابة واللطف التي مازح بها النبي الأعظم والقائد الأعلى ﷺ ذلك الغلام الصغير الذي غلبه النوم أثناء العمل، فنام حتى أُخذ منه سلاحه: «**يَا أَبَا رُقَادٍ، نِمْتَ حَتَّى ذَهَبَ سِلاحُكَ!**»، وجرس الدعابة الحلوة الحانية يتجلى في كلمة «**يَا أَبَا رُقَادٍ!**» التي داعب بها النبي القائد ﷺ ذلك الغلام الصغير، وصدق الله ﷻ الذي يقول في هذا النبي الكريم ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]. [غزوة الأحزاب لباشميل ١٣٨].

ظروف صعبة:

يقول أ/ باشميل: «وبالإضافة إلى أن عملية حفر الخندق (الذي لا يقل طوله عن خمسة آلاف ذراع) كانت ـ في حد ذاته ـ عملية شاقة للغاية، فإن الظروف المعيشية التي قام المسلمون فيها بحفر الخندق، كانت ظروفًا صعبة جدًّا.

فقد كان ذلك العام بالنسبة للمسلمين عام مجاعة، فكان أكثر المسلمين الذين يقومون بأعمال حفر لا يجدون القوت الضروري الذي يسدون به جوعتهم، بما في ذلك النبي الأعظم ﷺ، الذي كان وهو يقوم بأعمال الحفر يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع، وكان الطعام الرئيس، للذي يجدونه، هو التمر فقط».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٣٣].

ومما يدل على أن المسلمين كانوا عند حفر الخندق في ظروف معيشية صعبة، وفي حالة مجاعة شديدة ما رواه أحمد عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا حَفَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الخَنْدَقَ أَصَابَهُمْ جَهْدٌ شَدِيدٌ حَتَّى رَبَطَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَطْنِهِ حَجَرًا مِنَ الجُوعِ. [مسند أحمد ٢٢/ ١٢٨ رقم ١٤٢٢٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري رجاله ثقات رجال الشيخين غير أيمن المكي والد عبد الواحد فمن رجال البخاري].

وروى البيهقي بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: لَـمَّا حَفَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الخَنْدَقَ أَصَابَ النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ جَهْدٌ شَدِيدٌ، فَمَكَثُوا ثَلَاثًا لَا يَجِدُونَ طَعَامًا، حَتَّى رَبَطَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَطْنِهِ حَجَرًا مِنَ الجُوعِ. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٢٢، وبنحوه أحمد في المسند ٢٢/ ١٢٨ رقم ١٤٢٢٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أيمن المكي والد عبد الواحد فمن رجال البخاري].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: يُؤْتَوْنَ بِمِلءِ كَفِّي مِنْ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ القَوْمِ، وَالقَوْمُ جِيَاعٌ، وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الحَلقِ، وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ. [البخاري في المغازي (٤١٠٠)].

وبالإضافة إلى حالة المجاعة الشديدة التي كان عليها المسلمين عند حفر الخندق، كان البرد قارصًا والرياح شديدة مزعجة.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الخَنْدَقِ، **فَإِذَا الـمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَـهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَـهُمْ**، فَلَـمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنْ النَّصَبِ وَالجُوعِ قَالَ:

اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالـمُهَاجِرَهْ

فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

[البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٤)، وفي المغازي (٤٠٩٩)، وفي الأحكام (٧٢٠١) بلفظ: «**اللَّهُمَّ إِنَّ الخَيْرَ خَيْرُ الآخِرَهْ**»].

معجزات الرسول ﷺ في حفر الخندق:

أ ـ تكثيره الطعام ﷺ:

عن عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ أَيْمَنَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ جَابِرًا ﷺ فَقَالَ: إِنَّا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ (قطعة صلبة من الأرض لا يؤثر فيها المعول) شَدِيدَةٌ، فَجَاؤُوا النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ، فَقَالَ ﷺ: «**أَنَا نَازِلٌ**»، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ (مربوط من شدة الجوع) بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ المِعْوَلَ فَضَرَبَ، فَعَادَ كَثِيبًا (المجتمع من الرمل) أَهْيَلَ، أَوْ أَهْيَمَ.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، ائْذَنْ لِي إِلَى البَيْتِ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ (الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول)، فَذَبَحَتْ العَنَاقَ،

وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي البُرْمَةِ (القِدر من الحجر)، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ ﷺ: «**كَمْ هُوَ**»، فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: «**كَثِيرٌ طَيِّبٌ**»، قَالَ: «**قُلْ لَـهَا لَا تَنْزِعْ البُرْمَةَ وَلَا الخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ**»، فَقَالَ: «**قُومُوا**»، فَقَامَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، فَلَـمَّا دَخَلَ ـ جابر ﷺ ـ عَلَى امْرَأَتِهِ، قَالَ: وَيْحَكِ! جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: **هَلْ سَأَلَكَ؟** قُلْتُ: **نَعَمْ**، فَقَالَ ﷺ: «**ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا** (تزدحموا)»، فَجَعَلَ يَكْسِرُ الخُبْزَ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ (يغطي) البُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ، ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ: «**كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ**». [**البخاري في المغازي (٤١٠١)**].

وقد رواه البيهقي بسنده بألفاظ متقاربة فقال:... حَدَّثَنَا أَيْمَنُ المَخْزُومِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله ﷺ، يَقُولُ: كُنَّا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ الخَنْدَقَ، فَعَرَضَتْ فِيهِ كَذَّانَةٌ (**الكذانة** ككتانة: حجارة رخوة كالمدر، وأكذَّوا صاروا فيها و(الكذكذة) الحمرة الشديدة، وكذَّ خشن. القاموس ١/ ٣٧١ وهذا التفسير لا يستقيم مع ما هو معلوم من وقوف هذه الصخرة في طريقهم. مرويات غزوة الخندق ١٦٨)، وَهِيَ الجَبَلُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ كَذَّانَةً قَدْ عَرَضَتْ فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**رُشُّوا عَلَيْهَا**»، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَأَتَاهَا وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ مِنَ الجُوعِ، فَأَخَذَ المِعْوَلَ أَوِ المِسْحَاةَ، فَسَمَّى ثَلَاثًا ثُمَّ ضَرَبَ، فَعَادَتْ كَثِيبًا أَهْيَلَ، فَقُلْتُ لَهُ: ائْذَنْ لِي يَا رَسُولَ الله إِلَى المَنْزِلِ، فَفَعَلَ، فَقُلْتُ لِلمَرْأَةِ: هَل عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: عِنْدِي صَاعٌ (مكيال، وهو خمسة أرطال وثلث بالبغدادي) مِنْ شَعِيرٍ وَعَنَاقٍ، فَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ وَعَجَنَتْهُ، وَذَكَّتِ العَنَاقَ وَسَلَخَتْهَا، وَخَلَّيْتُ مِنَ المَرْأَةِ وَبَيْنَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ، فَجَلَسْتُ عِنْدَهُ سَاعَةً ثُمَّ قُلْتُ: ائْذَنْ لِي يَا رَسُولَ الله، فَفَعَلَ، فَأَتَيْتُ المَرْأَةَ فَإِذَا العَجِينُ وَاللَّحْمُ قَدْ أَمْكَنَا، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ عِنْدِي طُعَيِّمًا لَنَا، فَقُمْ يَا رَسُولَ الله أَنْتَ وَرَجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِكَ، فَقَالَ: «**وَكَمْ هُوَ؟**»، فَقُلْتُ: صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَعَنَاقٌ، فَقَالَ لِلمُسْلِمِينَ جَمِيعًا: «**قُومُوا إِلَى جَابِرٍ**»، فَقَامُوا، فَلَقِيتُ مِنَ الحَيَاءِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، فَقُلْتُ: جَاءَ بِالخَلقِ عَلَى صَاعِ شَعِيرٍ وَعَنَاقٍ.

فَدَخَلتُ عَلَى امْرَأَتِي أَقُولُ: افْتَضَحْتُ، جَاءَكِ رَسُولُ الله ﷺ بِالجُنْدِ أَجْمَعِينَ، فَقَالَتْ: هَل كَانَ سَأَلَكَ كَمْ طَعَامُكَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَتِ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَدْ أَخْبَرْنَاهُ مَا عِنْدَنَا، فَكَشَفَتْ عَنِّي غَمًّا شَدِيدًا، فَدَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**خُذِي وَدَعِينِي مِنَ اللَّحْمِ**»، فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَثْرُدُ، وَيَغْرِفُ اللَّحْمَ، ثُمَّ يُخَمِّرُ هَذَا، وَيُخَمِّرُ هَذَا، فَمَا زَالَ يُقَرِّبُ إِلَى النَّاسِ حَتَّى شَبِعُوا أَجْمَعِينَ، وَيَعُودُ التَّنُّورُ وَالقِدْرُ أَمْلَأَ مَا كَانَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُلِي وَأَهْدِي**»، فَلَمْ نَزَل نَأْكُلُ وَنُهْدِي يَوْمَنَا أَجْمَعَ. رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ عَنْ خَلَّادِ بْنِ يَحْيَى، عَنْ عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ أَيْمَنَ. [**دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤١٦-٤١٧، ٤٢٢-٤٢٤**].

وعن سَعِيدِ بْنِ مِينَاءَ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﭫ قَالَ: لَـمَّا حُفِرَ الخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصًا (الجوع) شَدِيدًا، فَانْكَفَأْتُ (انقلبت ورجعت) إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: **هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا،** فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا (مكيال قدر أربعة أقفزة، وهو وعاء من جلد) فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ (ما يألف البيت من الحيوان، والداجن أي سمينة وهي التي تترك في البيت ولا تفلت للمرعى ومن شأنها أن تسمن)، فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ، فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي، وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: **لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ،** فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: **يَا رَسُولَ اللهِ! ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ،** فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ [لَكُمْ] سُورًا** (سورا: وهو هنا الصنيع بالفارسية، كما جزم به البخاري، وقيل بالحبشية. سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥٧٠، أي طعامًا يدعو إليه الناس. واللفظة فارسية (وهي بالسين وليست بالصاد كما في بعض المصادر). النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٢٠)، **فَحَيَّ هَلًا** (كلمة استدعاء فيها حث، أي هلموا مسرعين) **بِهَلِّكُمْ [بِكُمْ]**»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ [عَجِينَتَكُمْ] حَتَّى أَجِيءَ**».

فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ! (هذه خصومة تحصل في مثل هذه الحال خوفًا من الفضيحة لقلة الأكل وكثرة الأضياف)، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ، فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينًا، فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «**ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي [مَعَكِ]، وَاقْدَحِي** (اغرفي) **مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا**»، وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا (أي شبعوا وانصرفوا)، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ (تغلي ويسمع غليانها) كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا [عَجِينَتَنَا] لَيُخْبَزُ [لَتُخْبَزُ] كَمَا هُوَ. [**البخاري في المغازي (٤١٠٢)، وفي الجهاد (٣٠٧٠)، ومسلم في الأشربة (٢٠٣٩)، والمستدرك للحاكم ٣/ ٣٠-٣١ في المغازي والسرايا (٤٣٢٤)، والدارمي في دلائل النبوة (٤٣)**].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﭫ قَالَ: عَمِلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الخَنْدَقِ، قَالَ: فَكَانَتْ عِنْدِي شُوَيْهَةٌ عَنْزٍ جَذَعٌ سَمِينَةٌ (عن ابن إسحاق: غَيْرُ جِدٍّ سَمِينَةٍ: أي غير كاملة السمن. السيرة لابن هشام ٢/ ٢١٨)، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ لَوْ صَنَعْنَاهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَأَمَرْتُ امْرَأَتِي، فَطَحَنَتْ لَنَا شَيْئًا مِنْ شَعِيرٍ وَصَنَعَتْ لَنَا مِنْهُ خُبْزًا، وَذَبَحَتْ تِلكَ الشَّاةَ فَشَوَيْنَاهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَلَـمَّا أَمْسَيْنَا وَأَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الِانْصِرَافَ عَنْ الخَنْدَقِ، قَالَ: وَكُنَّا نَعْمَلُ فِيهِ نَهَارًا [نَهَارَنَا]، فَإِذَا أَمْسَيْنَا رَجَعْنَا إِلَى أَهْلِنَا [أَهَالِينَا]، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! [إِنِّي] قَدْ صَنَعْتُ لَكَ شُوَيْهَةً كَانَتْ عِنْدَنَا، وَصَنَعْنَا مَعَهَا شَيْئًا مِنْ خُبْزِ هَذَا الشَّعِيرِ، فَأُحِبُّ أَنْ تَنْصَرِفَ مَعِي إِلَى مَنْزِلِي، وَإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ يَنْصَرِفَ مَعِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَحْدَهُ، قَالَ: فَلَـمَّا قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ، قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ أَمَرَ صَارِخًا فَصَرَخَ أَنْ انْصَرِفُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى بَيْتِ جَابِرٍ [بْنِ عَبْدِ اللهِ]، قَالَ: قُلْتُ: إِنَّا للهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ

رَاجِعُونَ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَقْبَلَ النَّاسُ مَعَهُ، قَالَ: فَجَلَسَ وَأَخْرَجْنَاهَا إِلَيْهِ، قَالَ: فَبَرَّكَ وَسَمَّى [اللهَ]، ثُمَّ أَكَلَ، وَتَوَارَدَهَا النَّاسُ، كُلَّمَا فَرَغَ قَوْمٌ قَامُوا وَجَاءَ نَاسٌ، حَتَّى صَدَرَ أَهْلُ الخَنْدَقِ عَنْهَا.

[مسند أحمد ٢٢/ ١٢٨ رقم ١٤٢٢٠، ٢٣/ ٢٧٦ رقم ١٥٠٢٨، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن من أجل ابن إسحاق وقد تابعه حنظلة بن أبي سفيان وهو ثقة من رجال الشيخين، و السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٨-٢١٩، وما بين المعكوفتين من السيرة].

وروى البيهقي بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﭭ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ثَلَاثَمِائَةِ رَجُلٍ نَحْفِرُ الخَنْدَقَ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ أَخَذَ حَجَرًا فَجَعَلَهُ بَيْنَ بَطْنِهِ وَإِزَارِهِ، يُقِيمُ بَطْنَهُ مِنَ الجُوعِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، ائْذَنْ لِي فَإِنَّ لِي حَاجَةً فِي أَهْلِي، فَأَتَيْتُ المَرْأَةَ فَقُلْتُ: قَدْ رَأَيْتُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أَمْرًا غَاظَنِي، فَهَل عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: هَذِهِ العَنَاقُ فَاذْبَحْهَا، وَهَذَا صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ فَاطْحَنْهُ، فَطَحَنْتُهُ وَذَبَحْتُ العَنَاقَ، وَقُلْتُ: اطْبُخِي حَتَّى آتِيَ رَسُولَ الله ﷺ فَاسْتَتْبَعْتُهُ، فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي قَدْ ذَبَحْتُ عَنَاقًا، وَطَحَنْتُ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، فَانْطَلِقْ مَعِي، فَنَادَى رَسُولُ الله ﷺ فِي القَوْمِ: «**أَلَا أَجِيبُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله**».

قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى المَرْأَةِ فَقُلْتُ: قَدِ افْتَضَحْتُ، جَاءَكِ رَسُولُ الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، فَقَالَتْ: بَلَّغْتَهُ وَبَيَّنْتَ لَهُ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: فَارْجِعْ إِلَيْهِ فَبَيِّنْ لَهُ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا هِيَ عَنَاقٌ، وَصَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، قَالَ: «**فَارْجِعْ وَلَا تُحَرِّكَنَّ شَيْئًا مِنَ التَّنُّورِ، وَلَا مِنَ القِدْرِ حَتَّى آتِيَهَا، وَاسْتَعِرْ صِحَافًا**».

فَدَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ فَدَعَا اللهَ ﻷ عَلَى القِدْرِ وَالتَّنُّورِ، ثُمَّ قَالَ: «**اخْرُجِي وَاثْرُدِي**»، ثُمَّ أَقْعَدَهُمْ عَشَرَةً عَشَرَةً، فَأَدْخَلَهُمْ فَأَكَلُوا، وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ، وَأَكَلْنَا وَأَهْدَيْنَا لِجِيرَانِنَا، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ ذَهَبَ ذَلِكَ.

[دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٢٤-٤٢٥].

وعَنْ عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ أَيْمَنَ المَكِّيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﭭ: حَدِّثْنِي بِحَدِيثٍ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ سَمِعْتَهُ مِنْهُ أَرْوِيهِ عَنْكَ، فَقَالَ جَابِرٌ ﭬ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفُرُهُ، فَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَطْعَمُ طَعَامًا، وَلَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَعَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ كُدْيَةٌ، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقُلْتُ: **يَا رَسُولَ الله! هَذِهِ كُدْيَةٌ قَدْ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ**، فَرَشَشْنَا عَلَيْهَا المَاءَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، فَأَخَذَ المِعْوَلَ أَوِ المِسْحَاةَ، ثُمَّ سَمَّى ثَلَاثًا، ثُمَّ ضَرَبَ فَعَادَتْ كَثِيبًا أَهْيَلَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ قُلْتُ: **يَا رَسُولَ الله! ايْذَنْ لِي**، قَالَ: فَأَذِنَ لِي، فَجِئْتُ امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: ثَكِلَتْكِ أُمُّكِ! فَقُلْتُ: **قَدْ رَأَيْتُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ شَيْئًا لَا صَبْرَ لِي عَلَيْهِ، فَهَل عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ**؟ فَقَالَتْ: **عِنْدِي صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ وَعَنَاقٌ**، قَالَ: فَطَحَنَّا الشَّعِيرَ، وَذَبَحْنَا العَنَاقَ، وَسَلَخْتُهَا وَجَعَلْتُهَا فِي البُرْمَةِ، وَعَجَنْتُ الشَّعِيرَ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَبِثْتُ سَاعَةً، ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُهُ الثَّانِيَةَ، فَأَذِنَ لِي، فَجِئْتُ فَإِذَا العَجِينُ قَدْ أَمْكَنَ، فَأَمَرْتُهَا بِالخَبْزِ وَجَعَلْتُ القِدْرَ

عَلَى الأَثَاثِي ـ قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: إِنَّمَا هِيَ الأَثَافِيُّ وَلَكِنْ هَكَذَا قَالَ ـ ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: **إِنَّ عِنْدَنَا طُعَيِّمًا لَنَا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَقُومَ مَعِي أَنْتَ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ مَعَكَ**، فَقَالَ: «**وَكَمْ هُوَ؟**»، قُلْتُ: صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ وَعَنَاقٌ، فَقَالَ: «**ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ وَقُلْ لَهَا: لَا تَنْزِعْ الْقِدْرَ مِنْ الأَثَافِيِّ وَلَا تُخْرِجْ الْخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ**»، ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ: «**قُومُوا إِلَى بَيْتِ جَابِرٍ**»، قَالَ: فَاسْتَحْيَيْتُ حَيَاءً لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: **ثَكِلَتْكِ أُمُّكِ! قَدْ جَاءَكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ!** فَقَالَتْ: **أَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ سَأَلَكَ كَمْ الطَّعَامُ؟** فَقُلْتُ: **نَعَمْ**، فَقَالَتْ: **اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَدْ أَخْبَرْتَهُ بِمَا كَانَ عِنْدَنَا**، قَالَ: فَذَهَبَ عَنِّي بَعْضُ مَا كُنْتُ أَجِدُ، وَقُلْتُ: لَقَدْ صَدَقْتِ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**لَا تَضَاغَطُوا** (تزاحموا)»، ثُمَّ بَرَّكَ عَلَى التَّنُّورِ وَعَلَى الْبُرْمَةِ، قَالَ: فَجَعَلْنَا نَأْخُذُ مِنْ التَّنُّورِ الْخُبْزَ، وَنَأْخُذُ اللَّحْمَ مِنْ الْبُرْمَةِ فَنُثَرِّدُ وَنَغْرِفُ لَهُمْ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لِيَجْلِسْ عَلَى الصَّحْفَةِ سَبْعَةٌ أَوْ ثَمَانِيَةٌ**»، فَإِذَا أَكَلُوا كَشَفْنَا عَنْ التَّنُّورِ وَكَشَفْنَا عَنْ الْبُرْمَةِ، فَإِذَا هُمَا أَمْلَأُ مَا كَانَا، فَلَمْ نَزَلْ نَفْعَلُ ذَلِكَ كُلَّمَا فَتَحْنَا التَّنُّورَ وَكَشَفْنَا عَنْ الْبُرْمَةِ وَجَدْنَاهُمَا أَمْلَأَ مَا كَانَا، حَتَّى شَبِعَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ، وَبَقِيَ طَائِفَةٌ مِنْ الطَّعَامِ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَصَابَتْهُمْ مَخْمَصَةٌ فَكُلُوا وَأَطْعِمُوا**»، فَلَمْ نَزَلْ يَوْمَنَا ذَلِكَ نَأْكُلُ وَنُطْعِمُ، قَالَ: وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُمْ كَانُوا ثَمَانَ مِائَةٍ، أَوْ قَالَ: ثَلَاثَ مِائَةٍ، قَالَ أَيْمَنُ: لَا أَدْرِي أَيُّهُمَا قَالَ. [سنن الدارمي في دلائل النبوة (٤٣)، وقال الشيخ أسد: إسناده ضعيف عبد الرحمن بن محمد المحاربي موصوف بالتدليس وقد عنعن. ومصنف ابن أبي شيبة ١٦/ ٤٤٨-٤٥١ رقم ٣٢٣٦٧].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما: فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَحْفِرُ وَرَأَيْتُهُ خَمِيصًا، وَرَأَيْتُ بَيْنَ عُكَنِهِ الغُبَارَ، فَأَتَيْتُ امْرَأَتِي فَأَخْبَرْتُهَا مَا رَأَيْتُ مِنْ خَمَصِ بَطْنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الشَّاةُ وَمُدٌّ مِنْ شَعِيرٍ، قَالَ جَابِرٌ: فَاطْحَنِي وَأَصْلِحِي، قَالَتْ: فَطَبَخْنَا بَعْضَهَا وَشَوَيْنَا بَعْضَهَا، وَخُبِزَ الشَّعِيرُ، قَالَ جَابِرٌ: ثُمَّ أَتَيْت رَسُولَ اللهِ ﷺ فَمَكَثْتُ حَتَّى رَأَيْتُ أَنَّ الطَّعَامَ قَدْ بَلَغَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ صَنَعْتُ لَكَ طَعَامًا فَأْتِ أَنْتَ وَمَنْ أَحْبَبْتَ مِنْ أَصْحَابِكَ، فَشَبَّكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصَابِعَهُ فِي أَصَابِعِي، ثُمَّ قَالَ: «**أَجِيبُوا، جَابِرٌ يَدْعُوكُمْ**»، فَأَقْبَلُوا مَعَهُ، فَقُلْتُ: وَاللهِ إِنَّهَا الفَضِيحَةُ! فَأَتَيْتُ الْمَرْأَةَ فَأَخْبَرْتُهَا، فَقَالَتْ: أَنْتَ دَعَوْتَهُمْ أَوْ هُوَ دَعَاهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَل هُوَ دَعَاهُمْ، قَالَتْ: دَعْهُمْ هُوَ أَعْلَمُ، قَالَ: فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَكَانُوا فِرَقًا، عَشَرَةٌ عَشَرَةٌ، ثُمَّ قَالَ لَنَا: «**اغْرِفُوا، وَغَطُّوا الْبُرْمَةَ، وَأَخْرِجُوا مِنْ التَّنُّورِ الْخُبْزَ ثُمَّ غَطُّوهُ**»، فَفَعَلنَا فَجَعَلْنَا نَغْرِفُ وَنُغَطِّي الْبُرْمَةَ ثُمَّ نَفْتَحُهَا، فَمَا نَرَاهَا نَقَصَتْ شَيْئًا، وَنُخْرِجُ الْخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ، ثُمَّ نُغَطِّيهِ فَمَا نَرَاهُ يَنْقُصُ شَيْئًا، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَأَكَلْنَا وَأَهْدَيْنَا، فَعَمِلَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ كُلُّهُمْ وَالنَّبِيُّ ﷺ، وَجَعَلَتْ الأَنْصَارُ تَرْتَجِزُ وَتَقُولُ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا ... عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالـمُهَاجِرَهْ

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٢-٤٥٣].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: احْتَفَرَ رَسولُ الله ﷺ الخَنْدَقَ، وَأَصْحَابُهُ قَدْ شَدُّوا الحِجَارَةَ عَلَى بُطُونِهِمْ مِنَ الجُوعِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**هَلْ دُلِلْتُمْ عَلَى رَجُلٍ يُطْعِمُنَا أَكَلَةً؟**»، قَالَ رَجُلٌ: نَعَمْ، قَالَ: «**أَمَا لا فَتَقَدَّمْ، فَدُلَّنَا عَلَيْهِ**»، فَانْطَلَقُوا إِلَى الرَّجُلِ فَإِذَا فِي الخَنْدَقِ يُعَالِجُ نَصِيبَهُ مِنْهُ، فَأَرْسَلَتِ امْرَأَتُهُ أَنْ جيءْ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أَتَانَا، فَجَاءَ الرَّجُلُ يَسْعَى، فَقَالَ: بِأَبِي وَأُمِّي، وَلَهُ مَعْزَةٌ وَمَعَهَا جَدْيُهَا، فَوَثَبَ إِلَيْهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الجَدْيُ مِنْ وَرَائِنَا**»، فَذَبَحَ الجَدْيَ، وعَمَدَتِ المَرْأَةُ إِلَى طَحِينَةٍ لَهَا فَعَجَنَتْها وَخبَزَتْ فَأَدْرَكَتِ القِدْرَ، فَثَرَدَتْ قَصْعَتَهَا، فقَرَّبَتْها إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِصْبَعَهُ فِيهَا، فَقَالَ: «**بِسْمِ الله، اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهَا، اطْعَمُوا**»، فَأَكَلُوا مِنْهَا حَتَّى صَدَرُوا وَلَمْ يَأْكُلُوا مِنْهَا إِلا ثُلُثَهَا وَبَقِي ثُلُثَاهَا، فَسَرَّحَ أُولَئِكَ العَشَرَةَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ: أَنِ اذْهَبُوا وسَرِّحُوا إِلَيْنَا بِعِدَّتِكُمْ، فَذَهَبُوا وَجَاءَ أُولَئِكَ العَشَرَةُ مَكَانَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنْهَا حَتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ قَامَ وَدَعَا لِرَبَّةِ البَيْتِ وَسَمَّتَ عَلَيْهَا (**سَمَّتَ وشَمَّتَ**: دعا) وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهَا، ثُمَّ تَمَشَّوْا إِلَى الخَنْدَقِ، فَقَالَ: «**اذْهَبُوا بنا إِلَى سَلْمَانَ**»، فَإِذَا صَخْرَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ قَدْ ضَعُفَ عَنْهَا، فَقَالَ نَبِيُّ الله ﷺ لأَصْحَابِهِ: «**دَعُونِي فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَهَا**»، فَقَالَ: «**بِسْمِ الله**»، فَضَرَبَهَا فَوَقَعَتْ فِلْقَةٌ ثُلُثُهَا، فَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ! قُصُورُ الرُّومِ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**»، ثُمَّ ضَرَبَ بِأُخْرَى فَوَقَعَتْ فِلْقَةٌ، فَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ! قُصُورُ فَارِسَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ**»، فَقَالَ عِنْدَهَا الـمُنَافِقُونَ: **نَحْنُ نُخَنْدِقُ عَلَى أَنْفُسِنَا وَهُوَ يَعِدُنا قُصُورَ فَارِسٍ وَالرُّومِ**.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٠-١٩١ في المغازي والسير (١٠١٤٠)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١١/ ٣٧٦-٣٧٧ رقم ١٢٠٥٢] ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبري وهما ثقتان. وقال الشيخ الصوياني: سنده حسن بما قبله (وهو حديث أبي سكينة، وسيأتي). الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٢٣].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ مِينَا، أَنَّهُ حُدِّثَ: أَنَّ ابْنَةً لِبَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ أُخْتَ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَتْ: دَعَتْنِي أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ، فَأَعْطَتْنِي حَفْنَةً مِنْ تَمْرٍ فِي ثَوْبِي، ثُمَّ قَالَتْ: **أَيْ بُنَيَّةُ اذْهَبِي إِلَى أَبِيكِ وَخَالِكِ عَبْدِ الله بْنِ رَوَاحَةَ بِغَدَائِهِمَا**، قَالَتْ: فَأَخَذْتُهَا، فَانْطَلَقْتُ بِهَا، فَمَرَرْتُ بِرَسُولِ الله ﷺ، وَأَنَا أَلْتَمِسُ أَبِي وَخَالِي، فَقَالَ ﷺ: «**تَعَالَيْ يَا بُنَيَّةُ، مَا هَذَا مَعَكِ؟**»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، هَذَا تَمْرٌ بَعَثَتْنِي بِهِ أُمِّي إِلَى أَبِي بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ وَخَالِي عَبْدِ الله بْنِ رَوَاحَةَ يَتَغَدَّيَانِهِ، قَالَ ﷺ: «**هَاتِيهِ**»، قَالَتْ: فَصَبَبْتُهُ فِي كَفَّيِّ رَسُولِ الله ﷺ فَمَا مَلأَتْهُمَا، ثُمَّ أَمَرَ بِثَوْبٍ فَبُسِطَ لَهُ، ثُمَّ دَحَا بِالتَّمْرِ عَلَيْهِ فَتَبَدَّدَ فَوْقَ الثَّوْبِ، ثُمَّ قَالَ لِإِنْسَانٍ عِنْدَهُ: «**اُصْرُخْ فِي أَهْلِ الخَنْدَقِ: أَنْ هَلُمَّ إِلَى الغَدَاءِ**»، فَاجْتَمَعَ أَهْلُ الخَنْدَقِ عَلَيْهِ، فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مَعَهُ، وَجَعَلَ

يَزِيدُ حَتَّى صَدَرَ أَهْلُ الخَنْدَقِ عَنْهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْقُطُ مِنْ أَطْرَافِ الثَّوْبِ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٨، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٢٧، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٢٠].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ رِيَاحِ الأَنْصَارِيُّ، عَنْ القَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ رَافِعٍ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ، قَالَ: كَانَ المُسْلِمُونَ قَدْ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ شَدِيدَةٌ، فَكَانَ أَهْلوهُمْ يَبْعَثُونَ إِلَيْهِمْ بِمَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، فَأَرْسَلَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ ابْنَتَهَا بِجَفْنَةِ تَمْرٍ عَجْوَةٍ فِي ثَوْبِهَا، فَقَالَتْ: **يَا بُنَيَّةُ اذْهَبِي إِلَى أَبِيك بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ وَخَالِك عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ بِغَدَائِهِمَا.**

فَانْطَلَقَتْ الجَارِيَةُ حَتَّى تَأْتِيَ الخَنْدَقَ، فَتَجِدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَالِسًا فِي أَصْحَابِهِ وَهِيَ تَلْتَمِسُهُمَا، فَقَالَ: «**تَعَالَيْ يَا بُنَيَّةُ مَا هَذَا مَعَكِ؟**»، قَالَتْ: بَعَثَتْنِي أُمِّي إِلَى أَبِي وَخَالِي بِغَدَائِهِمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَاتِيهِ**»، قَالَتْ: فَأَعْطَيْتُهُ فَأَخَذَهُ فِي كَفَّيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِثَوْبٍ فَبُسِطَ لَهُ وَجَاءَ بِالتَّمْرِ فَنَثَرَهُ عَلَيْهِ فَوْقَ الثَّوْبِ، فَقَالَ لِجُعَالِ بْنِ سُرَاقَةَ: «**نَادِ بِأَهْلِ الخَنْدَقِ أَنْ هَلُمَّ إِلَى الغَدَاءِ**»، فَاجْتَمَعَ أَهْلُ الخَنْدَقِ عَلَيْهِ يَأْكُلُونَ مِنْهُ حَتَّى صَدَرَ أَهْلُ الخَنْدَقِ وَإِنَّهُ لَيَفِيضُ مِنْ أَطْرَافِ الثَّوْبِ.

وَحَدَّثَنِي شُعَيْبُ بْنُ عُبَادَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُعَتِّبٍ، قَالَ: أَرْسَلَتْ أُمُّ عَامِرٍ الأَشْهَلِيَّةُ بِقَعْبَةٍ (إناء ضخم كالقصعة) فِيهَا حَيْسٌ (تمر ينزع نواه ويدق مع أقط، ويعجنان بالسمن باليد حتى يبقى كالثريد، وربما جعل معه سويق) إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي قُبَّتِهِ وَهُوَ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ فَأَكَلَتْ أُمُّ سَلَمَةَ حَاجَتَهَا، ثُمَّ خَرَجَ بِالبَقِيَّةِ فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى عَشَائِهِ فَأَكَلَ أَهْلُ الخَنْدَقِ حَتَّى نَهِلُوا وَهِيَ كَمَا هِيَ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٦-٤٧٧].

وعَنْ سَلمَى امْرَأَةِ أَبِي رَافِعٍ رضي الله عنه - مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ إِلَى أَبِي رَافِعٍ بِشَاةٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الخَنْدَقِ فِيمَا أَعْلَمُ، فَصَلَّاهَا أَبُو رَافِعٍ وَجَعَلَهَا فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهَا فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ رَاجِعًا مِنَ الخَنْدَقِ، فَقَالَ لَهُ: «**يَا أَبَا رَافِعٍ نَاوِلْنِي الذِّرَاعَ**»، فَنَاوَلْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَبَا رَافِعٍ نَاوِلْنِي الذِّرَاعَ**»، فَنَاوَلْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَبَا رَافِعٍ نَاوِلْنِي الذِّرَاعَ**»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَهَل لِلشَّاةِ إِلَّا ذِرَاعَانِ؟ فَقَالَ: «**لَوْ سَكَتَّ لَنَاوَلْتَنِي مَا سَأَلْتُكَ**». **[مجمع الزوائد ٨/ ٥٤٦-٥٤٧ في علامات النبوة (١٤١٣٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٤/ ٣٠٠-٣٠١ رقم ٧٦٣] ورجاله ثقات. وإتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ٧/ ١٠٠ في علامات النبوة (٦٤٦٨) عن ابن أبي شيبة وأبي يعلى].**

ب - الصخرة في الخندق:

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: مَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَهُمْ يَحْفِرُونَ الخَنْدَقَ ثَلَاثًا لَمْ يَذُوقُوا طَعَامًا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَاهُنَا كُدْيَةً مِنَ الجَبَلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رُشُّوهَا بِالمَاءِ**»، فَرَشُّوهَا، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخَذَ المِعْوَلَ أَوْ المِسْحَاةَ، ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ اللهِ**»، فَضَرَبَ ثَلَاثًا، فَصَارَتْ كَثِيبًا يُهَالُ، قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: فَحَانَتْ

مِنِّي التِفَاتَةٌ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ قَدْ شَدَّ عَلَى بَطْنِهِ حَجَرًا.

[مسند أحمد ٢٢/ ١٢١ رقم ١٤٢١١، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري رجاله ثقات رجال الشيخين غير أيمن المكي والد عبد الواحد فمن رجال البخاري].

وروى البيهقي بسنده عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: وَكَانَ فِي الحَفْرِ بِالخَنْدَقِ أَحَادِيثُ بَلَغَتْنِي فِيهَا عِبْرَةٌ فِي تَصْدِيقِ رَسُولِ الله ﷺ وَتَحْقِيقِ نُبُوَّتِهِ، وَعَايَنَ ذَلِكَ المُسْلِمُونَ مِنْهُ.

وَكَانَ مِمَّا بَلَغَنِي أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله رضي الله عنهما كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّهُ اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الخَنْدَقِ كُدْيَةٌ، فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَدَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ، فَتَفَلَ فِيهِ، ثُمَّ دَعَا بِمَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدْعُوَ، ثُمَّ نَضَحَ ذَلِكَ المَاءَ عَلَى تِلْكَ الكُدْيَةِ، وَقَالَ مَنْ حَضَرَهَا: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ، لَانْهَالَتْ حَتَّى عَادَتْ كَالكَثِيبِ مَا تَرُدُّ فَأْسًا وَلَا مِسْحَاةً. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤١٥، السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٧-٢١٨].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: أَصَابَ النَّاسُ كُدْيَةً يَوْمَ الخَنْدَقِ فَضَرَبُوا فِيهَا بِمَعَاوِلِهِمْ حَتَّى انْكَسَرَتْ، فَدَعَوْا رَسُولَ الله ﷺ فَدَعَا بِمَاءٍ فَصَبَّهُ عَلَيْهَا فَعَادَتْ كَثِيبًا. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٢].

وعَنِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بَالخَنْدَقِ فَأَخَذَ الكِرْزِينَ فَحَفَرَ بِهِ فَصَادَفَ حَجَرًا [فَصَلَّ الحَجَرَ] فَضَحِكَ [رَسُولُ الله ﷺ]، قِيلَ: مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ ﷺ: «**ضَحِكْتُ مِنْ نَاسٍ يُؤْتَى بِهِمْ مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ فِي النُّكُولِ** (أي: القيود، جمع نِكْل، ويجمع على أنكال، لأنها يُنكَل بها، أي: يُمنَع) [**الكُبُولِ** (جمع كبل، وهو قيد ضخم)] **يُسَاقُونَ إِلَى الجَنَّةِ [وَهُمْ كَارِهُونَ]**».

[مسند أحمد ٣٧/ ٥٠٦ رقم ٢٢٨٦١، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف، الفضيل بن سليمان ليس بالقوي. المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٩ وما بين المعكوفتين منه].

ج ـ نور الفتوح الإسلامية في ظلام الحصار والشدة:

عَنْ أَبِي سُكَيْنَةَ رَجُلٍ مِنَ المُحَرَّرِينَ (أي من الذين كانوا مملوكين فأعتقوا) عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لَـمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ عَرَضَتْ لَهُمْ صَخْرَةٌ حَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الحَفْرِ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَخَذَ المِعْوَلَ، وَوَضَعَ رِدَاءَهُ نَاحِيَةَ الخَنْدَقِ، وَقَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام]، فَنَدَرَ (سقط) ثُلُثُ الحَجَرِ، وَسَلْمَانُ الفَارِسِيُّ قَائِمٌ يَنْظُرُ، فَبَرَقَ مَعَ ضَرْبَةِ رَسُولِ الله ﷺ بَرْقَةٌ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ، وَقَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾، فَنَدَرَ الثُّلُثُ الآخَرُ، فَبَرَقَتْ بَرْقَةٌ، فَرَآهَا سَلْمَانُ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ، وَقَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾، فَنَدَرَ الثُّلُثُ البَاقِي، وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ وَجَلَسَ.

قَالَ سَلْمَانُ ﷺ: يَا رَسُولَ الله، رَأَيْتُكَ حِينَ ضَرَبْتَ مَا تَضْرِبُ ضَرْبَةً إِلَّا كَانَتْ مَعَهَا بَرْقَةٌ، قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «يَا سَلْمَانُ، رَأَيْتَ ذَلِكَ؟»، فَقَالَ: إِي وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «فَإِنِّي حِينَ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الأُولَى رُفِعَتْ (أظهرت) لِي مَدَائِنُ كِسْرَى وَمَا حَوْلَهَا، وَمَدَائِنُ كَثِيرَةٌ حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ»، قَالَ لَهُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ اللهَ أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا، وَيُغَنِّمَنَا دِيَارَهُمْ، وَيُخَرِّبَ بِأَيْدِينَا بِلَادَهُمْ، فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ بِذَلِكَ، «ثُمَّ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الثَّانِيَةَ، فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ قَيْصَرَ وَمَا حَوْلَهَا، حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ اللهَ أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا، وَيُغَنِّمَنَا دِيَارَهُمْ، وَيُخَرِّبَ بِأَيْدِينَا بِلَادَهُمْ، فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ بِذَلِكَ، «ثُمَّ ضَرَبْتُ الثَّالِثَةَ، فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ الحَبَشَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنْ القُرَى، حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ»، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «دَعُوا الحَبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ (تركوكم)، وَاتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ». [النسائي في الجهاد (٣١٧٦)، ومقولة الرسول ﷺ الأخيرة رواها أبو داود في الملاحم (٤٣٠٢)، وقال الشيخ الألباني عنهما: حسن].

وعَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنْ الخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا المَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ - قَالَ عَوْفٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَضَعَ ثَوْبَهُ - ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَأَخَذَ المِعْوَلَ فَقَالَ: «بِسْمِ الله»، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الحَجَرِ، وَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَالله إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ الله»، وَضَرَبَ أُخْرَى، فَكَسَرَ ثُلُثَ الحَجَرِ، فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَالله إِنِّي لَأُبْصِرُ المَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ الله»، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الحَجَرِ، فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ، وَالله إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا».

[مسند أحمد ٣٠/ ٦٢٥ رقم ١٨٦٩٤، ١٨٦٩٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف ميمون أبي عبد الله، ومجمع الزوائد ٦/ ١٨٩ في المغازي والسير (١٠١٣٨)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبد الله وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات»، وقال الشيخ العلي: «وحسَّن إسناده الحافظ في الفتح ٧/ ٣٩٧، حيث قال: ووقع عند أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن عن البراء ﷺ... فذكر الحديث،... وللحديث شواهد... وبهذا يكون الحديث كما قال الحافظ أو أكثر». قلت: ورواه البيهقي في الدلائل ٣/ ٤٢١].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِالخَنْدَقِ عَلَى المَدِينَةِ، فَأَتَاهُ قَوْمٌ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا صَفَاةً (الحجر الصَّلْد الضخم لا يُنبِتُ) لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَنْقُبُوهَا، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ، وَقُمْنَا مَعَهُ، فَأَخَذَ المِعْوَلَ فَضَرَبَ، فَلَمْ أَسْمَعْ ضَرْبَةً مِنْ رَجُلٍ كَانَتْ أَكْبَرَ صَوْتًا مِنْهَا، فَقَالَ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ! فُتِحَتْ فَارِسُ»، ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى مِثْلَهَا، فَقَالَ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ! فُتِحَتِ الرُّومُ»، ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى مِثْلَهَا، فَقَالَ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ! جَاءَ اللهُ بِحِمْيَرَ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا». [مجمع الزوائد ٦/ ١٩٠ رقم ١٠١٣٩، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٣/ ٢٧ رقم ٥٤، ١٤/ ٤٦ رقم ١٤٦٣٨] بإسنادين في أحدهما حيي بن عبد الله، وثقه ابن معين وضعفه

جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر ١٧/ ٣٩٦ رقم ٤٢٧٦، وقال محققه: «الحديث بهذا الإسناد ضعيف...، ولكن للحديث شواهد تشهد لهذا الحديث فيرتقي بها إلى الحسن لغيره...»، إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري ٥/ ٢٣٠ في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ (٤٥٨٤)].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحُدِّثْتُ عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: ضَرَبْتُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ الخَنْدَقِ، فَغَلُظَتْ عَلَيَّ صَخْرَةٌ، وَرَسُولُ الله ﷺ قَرِيبٌ مِنِّي؛ فَلَمَّا رَآنِي أَضْرِبُ وَرَأَى شِدَّةَ المَكَانِ عَلَيَّ نَزَلَ فَأَخَذَ المِعْوَلَ مِنْ يَدِي، فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً لَمَعَتْ تَحْتَ المِعْوَلِ بَرْقَةٌ، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الثَّالِثَةَ فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى، قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، مَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ لَمَعَ تَحْتَ المِعْوَلِ وَأَنْتَ تَضْرِبُ؟ قَالَ ﷺ: **«أَوَقَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ؟»** قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: **«أَمَّا الأَوَّلُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا اليَمَنَ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالمَغْرِبَ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الـمَشْرِقَ»**.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ حِينَ فُتِحَتْ هَذِهِ الأَمْصَارُ فِي زَمَانِ عُمَرَ رضي الله عنه، وَزَمَانِ عُثْمَانَ رضي الله عنه وَمَا بَعْدَهُ: **افْتَتِحُوا مَا بَدَا لَكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ مَا افْتَتَحْتُمْ مِنْ مَدِينَةٍ وَلَا تَفْتَتِحُونَهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَى اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مَفَاتِيحَهَا قَبْلَ ذَلِكَ.**

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٩].

قال البيهقي: قُلْتُ: وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ مِنْ قِصَّةِ سَلْمَانَ قَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَاهُ مَنْقُولًا عَنْ مُعَاذِ بْنِ أَبِي الأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ. [دلائل النبوة ٣/ ٤١٨].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عَبْدِ الله الحُكْمِيُّ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الحَكَمِ، قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه يَضْرِبُ يَوْمَئِذٍ بِالمِعْوَلِ فَصَادَفَ حَجَرًا صَلْدًا (الصلب الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره، وهو من الأرضين ما لا ينبت فيه شيء)، فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْهُ الـمِعْوَلَ، وَهُوَ عِنْدَ جَبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَذَهَبَتْ أَوَّلُهَا بَرْقَةً إِلَى اليَمَنِ، ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى فَذَهَبَتْ بَرْقَةً إِلَى الشَّامِ، ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى فَذَهَبَتْ بَرْقَةً نَحْوَ المَشْرِقِ، وَكُسِرَ الحَجَرُ عِنْدَ الثَّالِثَةِ، فَكَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ: وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ لَصَارَ كَأَنَّهُ سَهْلَةٌ (رمل ليس بالدقاق)، وَكَانَ كُلَّمَا ضَرَبَ ضَرْبَةً يَتْبَعُهُ سَلْمَانُ بِبَصَرِهِ فَيُبْصِرُ عِنْدَ كُلِّ ضَرْبَةٍ بَرْقَةً، فَقَالَ سَلْمَانُ: يَا رَسُولَ الله رَأَيْت الـمِعْوَلَ كُلَّمَا ضَرَبْتَ بِهِ أَضَاءَ مَا تَحْتَهُ، فَقَالَ ﷺ: **«أَلَيْسَ قَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ؟»** قَالَ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنِّي رَأَيْتُ فِي الأُولَى قُصُورَ الشَّامِ، ثُمَّ رَأَيْتُ فِي الثَّانِيَةِ قُصُورَ اليَمَنِ، وَرَأَيْتُ فِي الثَّالِثَةِ قَصْرَ كِسْرَى الأَبْيَضَ بِالمَدَائِنِ»**، وَجَعَلَ يَصِفُهُ لِسَلْمَانَ رضي الله عنه، فَقَالَ: صَدَقْتَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنَّ هَذِهِ لَصِفَتُهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ لَرَسُولُ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«هَذِهِ فُتُوحٌ يَفْتَحُهَا اللهُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي يَا سَلْمَانُ، لَتُفْتَحَنَّ الشَّامُ، وَيَهْرُبُ هِرَقْلُ إِلَى أَقْصَى مَمْلَكَتِهِ، وَتَظْهَرُونَ عَلَى الشَّامِ فَلا يُنَازِعُكُمْ أَحَدٌ، وَلَتُفْتَحَنَّ اليَمَنُ، وَلَيُفْتَحَنَّ**

هَذَا الـمَشْرِقُ وَيُقْتَلُ كِسْرَى بَعْدَهُ».

قَالَ سَلْمَانُ: فَكُلُّ هَذَا قَدْ رَأَيْتُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٩-٤٥٠].

قال البيهقي: قَالَ عَمْرُو بْنُ عَوْفٍ: كُنْتُ أَنَا، وَسَلمَانُ، وَحُذَيْفَةُ بْنُ اليَمَانِ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ، وَسِتَّةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فِي أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، فَحَفَرْنَا حَتَّى إِذَا بَلَغْنَا الثُّدِيَّ (وهذا العمق قد يكون أكثر من متر؛ لأن طول الرجل المتوسط متر ونصف فأكثر. مرويات غزوة الخندق ١٩٨) أَخْرَجَ اللهُ مِنْ بَطْنِ الخَنْدَقِ صَخْرَةً بَيْضَاءَ مُدَوَّرَةً، فَكَسَرَتْ حَدِيدَنَا، وَشَقَّتْ عَلَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا سَلمَانُ، ارْقَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبِرْهُ خَبَرَ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَإِنَّا إِنْ نَعْدِلِ عَنْهَا فَإِنَّ المَعْدَلَ قَرِيبٌ، وَإِمَّا أَنْ يَأْمُرَنَا فِيهَا بِأَمْرِهِ فَإِنَّا لَا نُحِبُّ أَنْ نُجَاوِزَ خَطَّهُ، فَرَقِيَ سَلْمَانُ رضي الله عنه حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَهُوَ ضَارِبٌ عَلَيْهِ قُبَّةً تُرْكِيَّةً، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِينَا أَنْتَ وَأُمِّنَا، خَرَجَتْ صَخْرَةٌ بَيْضَاءُ مِنَ الخَنْدَقِ مُدَوَّرَةٌ فَكَسَرَتْ حَدِيدَنَا، وَشَقَّتْ عَلَيْنَا حَتَّى مَا يَحِيكُ فِيهَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ، فَمُرْنَا فِيهَا بِأَمْرِكَ، فَإِنَّا لَا نُحِبُّ أَنْ نُجَاوِزَ خَطَّكَ، فَهَبَطَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ سَلمَانَ فِي الخَنْدَقِ، وَرَقِينَا عَنِ الشِّقَّةِ فِي شِقَّةِ الخَنْدَقِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المِعْوَلَ مِنْ سَلمَانَ، فَضَرَبَ الصَّخْرَةَ ضَرْبَةً صَدَعَهَا، وَبَرَقَتْ مِنْهَا بَرْقَةٌ أَضَاءَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، يَعْنِي لَابَتَيِ المَدِينَةِ، حَتَّى لَكَأَنَّ مِصْبَاحًا فِي جَوْفِ لَيْلٍ مُظْلِمٍ، فَكَبَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَكْبِيرَةَ فَتْحٍ، فَكَبَّرَ الـمُسْلِمُونَ.

ثُمَّ ضَرَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الثَّانِيَةَ فَصَدَعَهَا، وَبَرَقَ مِنْهَا بَرْقَةٌ أَضَاءَ لَهَا مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، حَتَّى لَكَأَنَّ مِصْبَاحًا فِي جَوْفِ لَيْلٍ مُظْلِمٍ، فَكَبَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَكْبِيرَةَ فَتْحٍ، وَكَبَّرَ الـمُسْلِمُونَ.

ثُمَّ ضَرَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الثَّالِثَةَ، فَكَسَرَهَا، وَبَرَقَ مِنْهَا بَرْقَةٌ أَضَاءَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، حَتَّى لَكَأَنَّ مِصْبَاحًا فِي جَوْفِ بَيْتٍ مُظْلِمٍ، فَكَبَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَكْبِيرَةَ فَتْحٍ، وَكَبَّرَ الـمُسْلِمُونَ.

ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ سَلمَانَ فَرَقِيَ، فَقَالَ سَلمَانُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ! لَقَدْ رَأَيْتُ شَيْئًا مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ، فَالتَفَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى القَوْمِ فَقَالَ: «**هَلْ رَأَيْتُمْ مَا يَقُولُ سَلمَانُ؟**» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِينَا أَنْتَ وَأُمِّنَا، قَدْ رَأَيْنَاكَ تَضْرِبُ، فَخَرَجَ بَرْقٌ كَالمَوْجِ، فَرَأَيْنَاكَ تُكَبِّرُ، وَلَا نَرَى شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**صَدَقْتُمْ، ضَرَبْتُ ضَرْبَتِي الأُولَى، فَبَرَقَ الَّذِي رَأَيْتُمْ، أَضَاءَتْ لِي مِنْهَا قُصُورُ الحِيرَةِ، وَمَدَائِنُ كِسْرَى، كَأَنَّهَا أَنْيَابُ الكِلَابِ، فَأَخْبَرَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام أَنَّ أُمَّتِي ظَاهِرَةٌ عَلَيْهَا، ثُمَّ ضَرَبْتُ ضَرْبَتِي الثَّانِيَةَ، فَبَرَقَ الَّذِي رَأَيْتُمْ، أَضَاءَتْ لِي مِنْهَا قُصُورُ الحُمْرِ مِنْ أَرْضِ الرُّومِ كَأَنَّهَا أَنْيَابُ الكِلَابِ، وَأَخْبَرَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام أَنَّ أُمَّتِيَ ظَاهِرَةٌ عَلَيْهَا، ثُمَّ ضَرَبْتُ ضَرْبَتِيَ الثَّالِثَةَ، فَبَرَقَ مِنْهَا الَّذِي رَأَيْتُمْ، أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ صَنْعَاءَ كَأَنَّهَا أَنْيَابُ الكِلَابِ، فَأَخْبَرَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام أَنَّ أُمَّتِي ظَاهِرَةٌ عَلَيْهَا، فَأَبْشِرُوا يَبْلُغُهُمُ النَّصْرُ، وَأَبْشِرُوا يَبْلُغُهُمُ النَّصْرُ، وَأَبْشِرُوا يَبْلُغُهُمُ النَّصْرُ**».

فَاسْتَبْشَرَ الْمُسْلِمُونَ وَقَالُوا: **الحَمْدُ لله مَوْعَودٌ صَادِقٌ بِأَنَّ اللهَ وَعَدَنَا النَّصْرَ بَعْدَ الحَصْرِ**، فَطَلَعْتِ الأَحْزَابُ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب]. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤١٩-٤٢٠].

د ـ بركة يده ﷺ:

روى الطبراني وأبو القاسم البغوي عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ ﵁ قَالَ: لَـمَّا أَجْرَى أَخِي عَلِيُّ بْنُ الْحَكَمِ فَرَسَهُ، فَدَقَّ جِدَارُ الْخَنْدَقِ سَاقَهُ، فَأَتَيْنَا بِهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ عَلَى فَرَسِهِ، فَقَالَ: «**بِسْمِ الله**»، وَمَسَحَ سَاقَهُ، فَمَا نَزَلَ عَنْهَا حَتَّى بَرَأَ. [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٢٢].

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ ﵁ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَأَنْزَى أَخِي عَلِيُّ بْنُ الْحَكَمِ فَرَسَهُ خَنْدَقًا، فَضَرَبَ الْفَرَسَ، فَدَقَّ جِدَارُ الْخَنْدَقِ سَاقَهُ، فَأَتَيْنَا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى فَرَسِهِ، فَمَسَحَ سَاقَهُ فَمَا نَزَلَ عَنْهَا حَتَّى بَرَأَ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ الْحَكَمِ ﵁ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ:

فَأَنْزَاهَا عَلَيَّ فَهْيَ تَهْوِي	**هَوِيَّ الدَّلْوِ مُتْرَعَةً بِسُدْلِ**
صُفُوفَ الخَنْدَقَيْنِ فَأَهْرَقَتْهُ	**هَوِيَّةَ مُظْلِمِ الحَالَيْنِ عَمْلِ**
فَعَصَّبَ رِجْلَهُ فَمَشَى عَلَيْهَا	**سُمُوَّ الصَّقْرِ صَادَفَ يَوْمَ طَلِّ**
فَقَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّى عَلَيْهِ	**مَلِيكُ النَّاسِ: هَذَا خَيْرُ فِعْلِ**
لَعًا لَكَ فَاسْتَمَرَّ بِهَا سَوِيًّا	**وَكَانَتْ بَعْدَ ذَاكَ أَصَحَّ رِجْلِ**

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُبَادَةَ: يُقَالُ إِذَا عَثَرَتِ النَّاقَةُ: لَعًا لَكِ؛ أَيِ: ارْتَفِعِي وَاسْتَعْلِي، قَالَ الْأَعْشَى:

بِذَاتِ لَوْثٍ عَفَرْنَاةٍ إِذَا عَثَرَتْ	**فَالتَّعْسُ أَدْنَى لَهَا مِنْ أَنْ يُقَالَ لَعَا**

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٤-١٩٥ رقم ١٠١٤٧، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه، ويعقوب بن محمد الزهري ضعفه الجمهور ووثقه ابن حبان].

هـ ـ النبوءة بقتل عمار بن ياسر ﵁:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي ـ أَبُو قَتَادَةَ ـ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لِعَمَّارٍ ﵁ حِينَ جَعَلَ يَحْفِرُ الخَنْدَقَ وَجَعَلَ يَمْسَحُ رَأْسَهُ وَيَقُولُ: «**بُؤْسَ [يَا وَيْسَ] ابْنِ سُمَيَّةَ! تَقْتُلُكَ فِئَةٌ بَاغِيَةٌ**». [مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩١٥)، والسنن الكبرى للنسائي ٥/ ١٥٦ رقم ٨٥٤٨].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي أَبُو قَتَادَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ: «**تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةُ**».

[مسند أحمد ٣٧/ ٢٩٨ رقم ٢٢٦١٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ بِبِنَاءِ المَسْجِدِ، فَجَعَلنَا نَنْقُلُ لَبِنَةً لَبِنَةً، وَكَانَ عَمَّارٌ يَنْقُلُ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، فَتَتَرَّبُ رَأْسُهُ، قَالَ: فَحَدَّثَنِي أَصْحَابِي وَلَمْ أَسْمَعْهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ جَعَلَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ وَيَقُولُ: «**وَيْحَكَ يَا ابْنَ سُمَيَّةَ! تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةُ**».

[مسند أحمد ١٧/ ٥٣ رقم ١١٠١١، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﷺ قَالَتْ: مَا نَسِيتُ قَوْلَهُ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَهُوَ يُعَاطِيهِمُ اللَّبِنَ، وَقَدْ اغْبَرَّ شَعْرُ صَدْرِهِ، وَهُوَ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ إِنَّ الخَيْرَ خَيْرُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالـمُهَاجِرَهْ

قَالَ: فَرَأَى عَمَّارًا، فَقَالَ: «**وَيْحَهُ [وَيْحَكَ] ابْنُ سُمَيَّةَ تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ**»، قَالَ: فَذَكَرْتُهُ لِمُحَمَّدٍ يَعْنِي ابْنَ سِيرِينَ، فَقَالَ: عَنْ أُمِّهِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، أَمَا إِنَّهَا كَانَتْ تُخَالِطُهَا، تَلِجُ عَلَيْهَا. [السنن الكبرى للنسائي ٧/ ٤٦٧ رقم ٨٤٩٢، ٨٤٩٣، ومسند أحمد ٤٤/ ٨٣، ٢٧٩ رقم ٢٦٤٨٢، ٢٦٦٨٠، وقال الشيخ الأرناؤوط عنهما: إسناده صحيح على شرط مسلم، ومجمع الزوائد ٦/ ١٩٣ في المغازي والسير (١٠١٤٣)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى [مسند أبي يعلى ٣/ ٢٠٩ رقم ١٦٤٥، وقال الشيخ أسد: إسناده حسن].

الفصل الثاني

الدروس والعبر المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة الأحزاب

(قبل المعركة)

المبحث الأول

الدروس العقائدية

١ ـ غزوة يهودية صِرْفة:

يقول أ/ وجدي: «إن الحالة القبلية التي كان عليها العرب لم تكن لتسمح لهم أن يُجمعوا على أمر يقومون به مجتمعين، وإن كان له أكبر تعلق بهم كافة، ولم يكونوا من الناحية الدينية أيضًا على شيء مما يدفع غيرهم إلى التكافل للذود عن عقائدهم الموروثة، فلم يكترثوا لظهور دين جديد يعيب عليهم وثنيتهم، ويُحقِّر آلهتهم، ويتوعدهم بالهلاك وسوء المنقلب.

هذه الحالة تكشف عن مبلغ التفكك الذي كانوا عليه، وعن خمود العاطفة الدينية فيهم، فإذا كانت قريش قد تحركت لمكافحة المسلمين في دار هجرتهم مرتين قبل هذه، فإن ذلك منها كان يرجع إلى عوامل اقتصادية؛ لإزالة العقبة التي أقامها المسلمون في طريقهم إلى الشام، ولولا ذلك لما حدَّث أحدٌ في قريش نفسه لغزو المسلمين في يثرب.

ولكن اليهود الذين نزلوا بين أظهرهم مهاجرين منذ أجيال، وتعلموا لغتهم، وتسموا بمثل أسمائهم، كانوا على غرار إخوانهم في جميع بقاع الأرض، يعرفون الوحدة الاجتماعية، والجامعة الدينية، ويدركون ما يُبتنى على انتشار دين جديد بيِّن المقاصد والغاية في البلاد العربية، من الوحدة الاجتماعية والسياسية، وهم مع كفرهم بهذا الدين كانوا يرون فيه خطرًا على وجودهم هنالك، وكانوا يظنون أن المسيحيين إذا كانوا على ما أُمروا به من الرحمة والعطف، يبالغون في اضطهادهم، فلا يُعقل أن يجيء أهل دين يكونون أرق قلبًا منهم؛ لذلك هالهم أن يستتب الأمر للإسلام في دار هجرته الجديدة، فلا يلبث أن تصبح له دولة وصَوْلَة، فيجدوا أنفسهم مضطرين للهجرة، وإلى أين هذه المرة، وليس في المعمور مَنْ يرحب بقادم عليهم من أهل ملة غيرهم؟

حملهم هذا كله أن ينتدب جماعة من عِليتهم، منهم سلام بن مشكم، وابن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، خرجوا من خيبر وقَدِموا على قريش في السنة الخامسة من الهجرة، وأخذوا يُحسِّنون لهم أن يؤلبوا العرب على حرب محمد ﷺ وجماعته؛ حتى يستأصلوهم أو يفرقوا وحدتهم، ويُبطلوا دعوتهم، خشية أن تصبح لهم دولة فلا يكون لهم ولا لغيرهم محيص عن الخضوع له، والدخول في دينه، وهو ما قد لا يرضاه منهم.

وما زال هذا الوفد يُحسِّنون لقريش هذا الأمر، ويُسوِّلونه لهم حتى زعموا أن ما عليه المشركون من الدين خير من الإسلام الذي يدعو إليه محمد ﷺ.

وكبير من أمة مُوحِّدة أن تداهن أمة وثنية إلى هذا الحد الشائن.

وقد سجَّل الكتاب الكريم هذا الخزي عليهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[النساء].

فَسُرَّ المشركون من هذه الشهادة وقَبِلوا دعوتهم، لا لأنهم يأبهون بالدين، ولكن ليتخلصوا من عدو منع عليهم التقلب في البلاد، وتلمس الرزق منها.

ثم جاء هذا الوفد بني غطفان وكلموهم في غزو المسلمين، وما كان ليهمهم هم أيضًا أمر الدين، ولكنهم رشوهم بمحصول تمر خيبر سنة، فقبلوا دعوتهم». [**السيرة المحمدية لوجدي ٢١٥-٢١٦**].

ويقول د/ بركات: «استقر بنو النضير، الذين لم تَخُرْ قواهم رغم إجلائهم ولم تضعضع معنوياتهم رغم هزيمتهم، في خيبر بعد فترة قصيرة نسبيًّا، ولابد أن زعماءهم تدارسوا الموقف بأكمله ـ في سلم خيبر وهدوئها ـ أن الدين الجديد لم يكن يهدد أهل مكة وحدهم، بل كان يهدد اليهود كذلك، ولو ترك الأمر للمسلمين لضربوا ضربة جديدة في الوقت الذي يختارونه.

ولم يكن باستطاعة اليهود وحدهم ولا باستطاعة أهل مكة وحدهم أن يقضوا على هذه الجماعة التي تتكون من أشخاص إن كانوا فقراء إلا أنهم ملتزمون، يدينون بولاء لا يهن لزعيم له عليهم سلطان مطلق، وقرر بنو النضير أن يبعثوا بوفد إلى مكة يتكون من عشرين من كبارهم وكان في هذا الوفد من الشخصيات البارزة سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن أبي الحقيق، وانضم إلى الوفد عدد من زعماء بني وائل، وهم بطن من بطون الخزرج، كانوا على صلة وثيقة باليهود، ووصل هذا الوفد إلى مكة في صيف سنة ٥ هـ/ ٦٢٦م ودعا قريشًا إلى الانضمام إليهم في هجوم شامل على المدينة للقضاء على الرسول ﷺ نهائيًّا، ورحبت قريش بدعوتهم إلى قتال الرسول ﷺ.

ومن مكة قصد هذا الوفد إلى غطفان ووجَّه إليهم نفس الدعوة وأبلغهم أن قريشًا قبلتها، وعرض الوفد عليهم من باب الترغيب نصف محصول خيبر من التمر مقابل انضمامهم إلى قريش».

[**محمد ﷺ واليهود لبركات ١٢٧-١٢٨**].

ويقول أ/ باشميل: «اتضح للقارئ الكريم من تتبع أحداث غزوة الأحزاب هذه، ودراسة تفاصيل أسبابها ومسبباتها وبواعثها وغاياتها، أن هذه الغزوة الخطيرة المريعة، ليست في حقيقتها إلا حملة يهودية

صِرْفة، قد مُونت بأموال إسرائيلية، وجاءت وفق تصميمات دقيقة مدروسة محكمة، وضعها مفكرون إسرائيليون تطفح نفوسهم بالحقد القاتل على الإسلام ونبي الإسلام.

فهذه الغزوة التاريخية الخطيرة، وإن كانت في الشكل والمظهر تحمل الطابع العربي القرشي والغطفاني، إلا أنها ـ في أهدافها العميقة ومراميها البعيدة وغاياتها الخبيثة ـ هي غزوة يهودية لحمًا ودمًا.

فكل الأدلة القاطعة، قد تقاطرت على أن هذه الغزوة ـ عندما وجهت لإبادة المسلمين وتهديم كيانهم من الأساس ـ لم يكن لها من محرك حقيقي فعال ـ منذ بدأت حتى فشلت ـ سوى اليهود واليهود فقط.

لقد كان حِرْصُ اليهود على الإطاحة بالمسلمين والقضاء على الإسلام ذاته قديمًا، قِدَم الصراع بين اليهودية والإسلام، هذا الصراع الذي كان قد بدأ منذ اللحظة التي بزغت فيها شمس الإسلام.

ولكن هذا الصراع الذي لم يتخذ طابع الوضوح والعنف، إلا عندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة، وأخذ حلفاء اليهود ـ الأوس والخزرج ـ يتسابقون إلى الدخول في هذا الدين بسرعة أذهلت اليهود وأقلقت بالهم وأقضت مضاجعهم.

لأنهم بمجرد وصول النبي ﷺ إلى يثرب شعروا باهتزاز سلطانهم الفكري والسياسي والمالي الذي به كانوا يسيطرون على سكان يثرب وما جاورها منذ قرون عديدة؛ وذلك لأن هؤلاء العرب ــ سواء في يثرب وما جاورها ـ كانوا في الجاهلية دون اليهود فيما يختص بالثقافة ومعرفة الأديان، والخبرة الاقتصادية وأساليب جمع المال وكنزه، فكان اليهود ـ لسذاجة هؤلاء الإعراب ـ يتحكمون فيهم اقتصاديًّا، عن طريق قروض الربا، التي هي دعائم اقتصاد اليهود في كل عصر وزمان، بالإضافة إلى أن هؤلاء اليهود كانوا قبل الإسلام مرجعًا لهؤلاء الأعراب في كثير من استفساراتهم الروحية، فكان ذلك مصدر سلطانهم على المنطقة.

ولذلك ـ وحسدًا للنبي ﷺ ـ قاموا بعدة محاولات لتنفير العرب عن الدين الجديد بشتى وسائل الكذب والتشكيك والإرجاف وكانت هذه محاولاتهم الأولى لمقاومة دعوة الإسلام.

ولكنهم فشلوا في هذه المحاولة فشلًا ذريعًا، حيث لم يمر على قدوم صاحب الرسالة العظمى محمد ﷺ إلى يثرب، ستة أشهر حتى أصبح أكثرية عرب هذه المنطقة يدينون بالإسلام ويبذلون المهج والأرواح في سبيل حمايته ونصرته، الأمر الذي جعل اليهود يلجؤون إلى العنف.

وفي خلال أربع سنوات قام اليهود للتخلص من الإسلام وحامل رسالته بعدة محاولات جريئة يائسة، ولكن هذه المحاولات كلها فشلت وعادت على هؤلاء اليهود بنتائج عكسية حيث كانت هذه المحاولات العدوانية سببًا في نفي قبيلتين كبيرتين من هؤلاء اليهود عن المدينة هما بنو قينقاع وبنو النضير.

وكانت آخر محاولة عدوانية خطيرة قام بها اليهود هي محاولة بني النضير اغتيال النبي ﷺ وهو آمن في ديارهم، الأمر الذي أدى إلى ضرب الحصار وإجلائهم عن يثرب وذلك قبل معركة الأحزاب بستة أشهر فقط، ولقد نزل بنو النضير مدينة خيبر التي كانت ـ منذ القدم ـ مركزًا للتجمع اليهودي.

لقد كان يهود بني النضير من أغنى أغنياء اليهود، وكانوا يتحكمون في اقتصاد منقطة يثرب وما جاورها تحكمًا كاملًا، وكان زعماؤهم ـ بالإضافة إلى هذا ـ يمتازون بالدهاء والمكر والحقد العارم على النبي ﷺ خاصة.

ولم يكن النبي ﷺ شديدًا في معاملتهم عندما نفاهم من المدينة بعد ضرب الحصار عليهم، فقد سمح لهم بأن ينقلوا معهم كل ما يقدرون على حمله من الأموال، ومن المعروف عن اليهود منذ القدم أن أكثر ما يكنزونه هو الذهب والفضة.

ولهذا فقد أوقر هؤلاء اليهود عشرات الجمال وحملوا معهم كل ما يملكون من ذهب وفضة وهو شيء عظيم، حتى إن أحد زعمائهم ـ هو سلام بن أبي الحقيق ـ حمل معه عند الجلاء خزينة كبيرة (جلدة ثور) مملوءة ذهبًا وفضة، وكان يضرب على هذه الخزينة قائلًا وكأنه يهدد المسلمين بالغزو: «**هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها**».

ولقد حاول اليهود فعلًا ـ عن طريق سلطانهم المالي ـ أن يخفضوا الأرض ويرفعوها، فلم تمض على إقامتهم في منفاهم الجديد خيبر ستة أشهر حتى خرجوا بمخطط جهنمي رهيب، يهدفون من وراء تنفيذه إلى سحق المسلمين في المدينة سحقًا كاملًا ليستعيد بنو إسرائيل من جديد سيطرتهم عن منطقة يثرب.

فقد رسم اليهود في خيبر للتخلص من المسلمين في يثرب مشروع غزو كبير، تقوم به قوة ضاربة متحدة من أقوى القبائل العربية المعادية للإسلام، وخاصة قريش وغطفان.

ولتحقيق هذا المشروع الخطير التي رُسمت خطوطه في خيبر قام زعماء اليهود ـ وعلى رأسهم حيي بن أخطب سيد بني النضير ـ بالسفر إلى مختلف الأقاليم العربية في الجزيرة، وطافوا على مختلف القبائل واجتمعوا بزعمائها شارحين لهم تفاصيل مشروعهم الكبير ومثيرين فيهم روح العداوة للمسلمين، مستخدمين ـ في الدرجة الأولى سلاح المال، سلاح اليهود الرئيس في كل عصر ـ وزمان ـ الإغراء لزعماء الأعراب وشرائهم بالرشاوى ليستجيبوا لهم، حتى إن هؤلاء اليهود جعلوا لقبائل غطفان النجدية جميع ما أنتجته خيبر من ثمار لسنة واحدة مقابل قبول هذه القبائل المشروع اليهودي والموافقة عليه.

ولقد نجح اليهود نجاحًا كبيرًا في مهمتهم، حيث وافقت قريش وغطفان ـ وهم أقوى وأعظم قبائل الجزيرة ـ على مشروع اليهود لغزو المدينة.

ولم يعد وفد خيبر من رحلته إلا وهو على رأس عشرة آلاف مقاتل، أربعة آلاف من قريش وأحلافها، وستة آلاف من غطفان وأحلافها.

وقد أنزل اليهود هذه الجيوش العظيمة بأطراف المدينة.. وأحلام العودة إلى المدينة والسيطرة عليها من جديد تستولي على كل مشاعرهم». [**غزوة الأحزاب لباشميل ٦-١٠**].

ويقول د/ الوكيل: «تعتبر هذه الغزوة ثمرة الحقد اليهودي الذي انطوت عليه نفوس قوم طُردوا من المدينة نتيجة للخيانة التي استهدفت حياة الرسول ﷺ، وبرغم تلك المحاولة الأثيمة التي كادت تهدم حياة أمة، وتقوض أركان دولة، فقد عاملهم الرسول ﷺ معاملة دلت على التسامح، وأظهرت عدالة الإسلام حيث سمح لهم بالخروج من المدينة سالمين، دون أن يعاملوا بمقتضى غدرهم، أو يؤخذوا بجريرتهم.

وقد رأينا أن زعماء بني النضير قد فضَّلوا التوجه إلى خيبر، وقد سمح لهم الرسول ﷺ بذلك، ولكنهم توجهوا وقد عزموا نكرًا، وبيَّتوا غدرًا، وقد أخذت نار الحقد تحرق قلوبهم، وتتأجج في صدورهم، كيف يخرجون من المدينة، ويتركون فيها أموالهم وديارهم يستمتع بها المسلمون؟

لابد من الانتقام، ولابد من استئصال شأفة المسلمين ليتمكنوا من العودة إلى المدينة، ويسترجعوا بيوتهم التي خرَّبوها قبل خروجهم، ويستردوا أرضهم التي تركوها لقمة سائغة للمسلمين، فماذا يفعلون؟

فكَّر زعماء اليهود في الاتصال بالعرب المعادين للمسلمين ليحرضوهم على قتالهم، ويزينوا لهم الدخول معهم في معركة لعلها تكون سببًا في القضاء على دولتهم، وتحقيقًا لما دار في رؤوسهم خرج حيي بن أخطب سيد بني النضير، وسلام بن مشكم، وكنانة بن أبي الحقيق، وهم زعماء اليهود في خيبر، وخرج معهم من بني وائل هوذة بن قيس وأبو عمار، وقد استغل هؤلاء اليهود ما في قلوب العرب من الثأر والحقد على الرجل الذي فرَّق جماعتهم - في زعمهم - وكلهم موتور حاقد.

توجه حيي بن أخطب يرافقه نفر من اليهود إلى مكة ليحرضوا قريشًا على حرب المسلمين، وتوجه كنانة بن الربيع يسعى في غطفان، ويحضهم على قتال رسول الله ﷺ على أن لهم نصف تمر خيبر.

[**السمهودي ١/ ٣٠٠، ٣٠١**].

ونجحت إلى حد ما فكرة اليهود في تأليب العرب على المسلمين، ولكنها كما سنرى لم تحقق الهدف منها، فأما غطفان فقد استجابت من غير تردد، حيث كان نصف تمر خيبر - كما ذكر السمهودي - أو تمر خيبر سنة كما ذكر الحلبي مغريًا لها بالخروج دون أدنى تفكير في العواقب.

وأما قريش فهو وإن كانت تتمنى إبادة المسلمين، وتتحين الفرصة للانقضاض عليهم، إلا أنهم قد جرَّبوا الحرب معهم، وتذكروا أيامهم الماضية في الوقائع السابقة، وهم وإن أحرزوا شيئًا من النصر في غزوة أُحُد إلا أن تعقب المسلمين لهم في اليوم التالي مباشرة، وعدم قدرتهم على مواجهتهم رغم ما بهم من الجراح، ثم خروج المسلمين إلى بدر في الموعد الذي حدده أبو سفيان معهم، وعدم خروج أبي سفيان بهم، كل ذلك عكر عليهم صفو النصر الموهوم، فترددوا في الأخذ بثأرهم، وخشوا عاقبة الخروج لحرب المسلمين.

وقد ظهر ذلك التردد في أسئلتهم الكثيرة التي طرحوها على حيي بن أخطب، فقد سألوا حييًّا عن بني النضير، فقال: تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم.

ثم سألوه عن بني قريظة، فقال: أقاموا بالمدينة مكرًا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم.

لم تكن قريش واثقة من إجابات ابن حيي، وازدادت حيرتهم، فأرادوا أن يستوثقوا مما سيُقدمون عليه، إنهم يرون أمر محمد ﷺ في ازدياد مستمر، ويرون أصحابه يكثرون، ومن دخل في دينه لا يفارقه رغم ما قد ينزل به من البلاء فشككهم ذلك في دينهم، وكان ذلك مثار سؤال وجهه أبو سفيان إلى حيي بن أخطب فقال: **يَا مَعْشَرَ يَهُودَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ الأَوَّلِ وَالعِلمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ**؟

واستغل اليهود الفرصة، وخافوا إن هم أجابوهم بما يطابق الحق والواقع نفروا منهم، ولم يتبعوهم؛ لهذا أجابوهم بما يرضيهم، لينشطوهم لما جاؤوا من أجله، وهو الاشتراك في حرب ضد المسلمين، فأجابوهم بما يرضيهم على حساب عقيدتهم، وفضَّلوا الوثنية على التوحيد الذي هو دينهم ودين آبائهم، وقالوا لقريش: **بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالحَقِّ مِنْهُ**».

[**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٧١-١٧٢**].

٢ ـ اليهود بين الأمس واليوم:

إن مما يلفت النظر أن اليهود الذين لم تنفع معهم كل سبل المعايشة السلمية من رسول الله ﷺ، كانوا هم المحرِّض الأول لهذه الغزوة، حيث أثاروا حفيظة المشركين تجاه المسلمين مرة أخرى بعد أن كادوا يسلِّمون بوجودهم كقوة حقيقية على أرض الواقع، وأخذوا في تأليب زعمائهم على رسول الله ﷺ، وبثوا في قلوبهم العداوة والكراهية للإسلام وأهله، مستغلين جهل هؤلاء بدين الله وشرعه، كما يفعل اليهود الآن مع الشعوب غير المؤمنة، حيث أوهموا الكثيرين منهم بأن المسلمين عدو لدود لهم.

يقول الشيخ عبيد: «فبين يدي القارئ غزوة الأحزاب، وقد قدمناها، للقارئ الكريم؛ لأنها ذات مغزى ودلالة وارتباط بما يجري على الساحة الدولية الآن من تعنت اليهود وصلفهم وغرورهم وعدم

التزامهم بالمواثيق الدولية واعترافهم بحق المواطنين الذين أخرجهم اليهود من ديارهم واستولوا على أموالهم، واليهود يعرف عنهم التاريخ أنهم لا يبالون بعهد أعطوه ولا يقيمون وزنًا لميثاق أبرموه؛ لأن العهود والمواثيق (عند اليهود) لا قيمة لها ولا اعتبار إلا إذا كانت هذه العهود والمواثيق تحقق لهم مصلحة أو تعود عليهم بالنفع ـ هذا خُلُقهم ـ منذ أن حلت اللعنة بهم على لسان داوود وعيسى بن مريم؛ لأنهم كانوا قد عصوا أمر الله وما زالوا يعتدون دائمًا على الضعفاء.

إن تصرفاتهم وسلوكهم في كل المجتمعات تجسد خِسَّتهم ولؤمهم وتُظهرهم أمام المجتمع العالمي ووجوههم كالحة من الغدر والخيانة ورصيدهم الهائل من المخازي والرذائل،، إنهم في لبنان يرتكبون الأعمال الوحشية والهمجية، وفي فلسطين يمسحون من الوجود قرى أهلها عُزَّل، ويبيدون عشرات الألوف من النساء والأطفال ويقفون بجوار الجثث يشربون الخمر ويرقصون وكأن شيئًا لم يكن؛ ولهذا فإن الخبراء في علم النفس يؤكدون أن كل فرد من الشعب اليهودي قد رسخ في ذهنه وامتزج في دمه أن مهمته في الحياة هي الإفساد والتخريب لكل ما هو غير إسرائيلي.

ويكفي للتدليل على ذلك أن الحركة الشيوعية ارتكب قادتها جرائم بشعة من التعذيب والقتل والإبادة كانت من الوحشية والهمجية بصورة لم يشهد التاريخ لها مثيلًا في مختلف عصوره، ومن الذي وضع هذه الخطة إنه (كارل ماركس) اليهودي المجرم الحاقد، كذلك أثبت التاريخ أن الذين وضعوا المخطط البشع للمجازر الوحشية التي ارتكبت في أول عهد الثورة الفرنسية والذين دبروا كل هذه المجازر إنما هم اليهود.

ولكي ندلل على ذلك نذكر أنه في عام ١٧٨٩م ألقى **الرئيس بنيامين فرنكلين** خطابًا عند وضع دستور الولايات المتحدة جاء فيه ما يلي:

هناك خطر عظيم يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية، ذلك الخطر العظيم هو خطر اليهود.

أيها السادة في كل أرض حلَّ بها اليهود أطاحوا بالمستوى الخُلُقي وأفسدوا الذمة التجارية فيها، ولم يزالوا منعزلين لا يندمجون بغيرهم، وقد أدى بهم الاضطهاد إلى العمل على خنق الشعوب ماليًّا كما هو الحال في البرتغال وإسبانيا، منذ أكثر من (١٧٠٠) عام.

وهم يندبون حظهم ويعنون بذلك أنهم قد طُردوا من ديار آبائهم، ولكنهم أيها السادة لن يلبثوا إذا ردت إليهم الدول اليوم فلسطين أن يجدوا أسبابًا تحملهم على ألا يعودوا إليها. لماذا؟ لأنهم طفيليات لا يعيش بعضهم على بعض ولا بد لهم من العيش بين المسيحيين وغيرهم ممن لا ينتمون إلى عرقهم فإذا لم يُبعد هؤلاء عن الولايات المتحدة بنص دستورها فإن سيلهم سيتدفق إلى الولايات المتحدة في غضون مائة

سنة إلى حد يقدرون معه على أن يحكموا شعبنا ويدمروه ويغيروا شكل الحُكم الذي بذلنا في سبيله دماءنا وضحينا له بأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا الفردية، ولن تمضي مائتا سنة حتى يكون مصير أحفادنا أن يعملوا في الحقول لإطعام اليهود على حين يظل اليهود في البيوتات المالية يفركون أيديهم مغتبطين.

وإنني أحذركم أيها السادة أنكم إن لم تُبعدوا اليهود نهائيًّا فلسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم في قبوركم، إن اليهود لن يتخذوا مثلنا العليا ولو عاشوا بين ظهرانينا عشرات أجيال، فإن الفهد لا يستطيع إبدال جلده الأرقط.

إن اليهود خطر على هذه البلاد إذا ما سُمح لهم بحرية الدخول فإنهم سيقضون على مؤسساتنا، وعلى ذلك لابد من أن يستبعدوا بنص الدستور. ا. هـ. [نشر هذه الوثيقة الأستاذ حسين أبو بكر القاضي المتخصص في الدراسات الإسلامية (سعودي الجنسية) ونشرت في جريدة الندوة بمكة في العدد ٥١١ بتاريخ ربيع الأول سنة ١٣٨٠ هـ وقد نشر النص الإنجليزي في حينه].

هذا كلام هام جدًّا لأنه صدر من أكبر زعماء الولايات المتحدة الأمريكية في القرن الثامن عشر وأعظم قادتها والمخلصين لها على الإطلاق، وهذه الوثيقة موجودة في معهد بنيامين فرانكلين في فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا، ويتبين من هذا أن كل القادة والمسؤولين الحريصين على سلامة أوطانهم وشعوبهم يحاولون تطهير أوطانهم وتنقية مجتمعاتهم من هؤلاء اليهود لعلمهم بحقيقة نفوسهم وما يتسمون به من الإفساد والتخريب والتدمير، فاليهود كالجسم الغريب الضار على جسد البشرية، فما حل اليهود على بلد إلا وارتكبوا من الجرائم والخيانات والدس بين الناس والوقيعة بينهم بأسلوب غير مسبوق، فكل تيارات التدمير الخُلُقي والانحراف العقائدي إنما هو في الغالب والأكثر من صنع التفكير اليهودي وتخطيطه.

إنه منذ اللحظة الأولى التي أشرق فيها نور الإسلام، ومنذ الساعة التي وصل فيها النبي محمد ﷺ إلى المدينة واليهود يكيدون للإسلام ويتربصون بالنبي ﷺ ويبثون من الأراجيف وينشرون من الأكاذيب ما تستهدف تشكيك الناس في صدق النبي ﷺ والتنفير من الدعوة الإسلامية، وبالرغم من التسامح الذي عامل به النبي ﷺ اليهود فإنهم لم يقابلوا هذا إلا بالحقد والحسد، فعندما ألقت (يثرب) كلها بزمام حكمها إلى شخصية سيدنا محمد ﷺ إلا وقام هذا النبي ﷺ على الفور بعقد معاهدة الدفاع المشترك والتعايش السلمي وعدم الاعتداء من أحد الطرفين على الآخر، وبرغم هذه المعاهدة المعقودة لكن اليهود ظلوا يقاومون الدعوة الإسلامية ويثيرون المتاعب في وجه حاملها، ومع ذلك قابل النبي ﷺ كل ذلك بحلم واسع وصبر جميل وتسامح عظيم حتى مع الذين تآمروا على حياته وقرروا اغتياله مرة بالحجر، وأخرى بوضع السم، وأخرى بدفع الأموال لمن يغتاله، ومع كل هذا ذهب في التسامح معهم إلى أبعد

الحدود فكان يعفو ويصفح ويمد يده بالمودة إليهم فلم يقابلوا هذه الأخلاق الكريمة إلا بالتآمر والغدر، فكان لابد من وقفة فيها الجد، يسمعهم فيها لغة السيف لأنهم دائمًا يرتكبون أشنع الجرائم وأخس صور الغدر خاصة عندما خانوا المواثيق، ونكثوا العهود، وداسوا على شرف الكلمة، وتعاهدوا مع الغزاة من قريش وغطفان وانضموا إليهم في غزوة الأحزاب، وخططوا وبدقة في وقت الأزمة الشديدة، وفي الساعات الحرجة لضرب المسلمين من الخلف خيانة وغدرًا مستهدفين القضاء على الإسلام واستئصال شأفته وإبادة المسلمين إبادة تامة غير مبالين بما أعطوا من عهد ولا ملتفتين إلى ما وقَّعوا عليه من مواثيق، لكن من حفر لأخيه حفرة وقع فيها، فإن المصير الذي خططوه للمسلمين ليدفعوهم إليه ويبيدوهم ارتد عليهم أنفسهم فكان جزاؤهم الإبادة؛ لأن غزوة الأحزاب انتهت والحمد لله لصالح المسلمين فكانت العقوبة التي تتناسب مع اليهود هي (الخيانة العظمى)، ولا بد أن ينالوا جزاءهم عليها، ولك أن تتأمل ما نزل باليهود لتعرف أن الخائن لابد أن ينال جزاءه مهما طال الوقت.

إن الدروس المستفادة والتي تبرز أمام أعيننا من وراء الغيب توضح لنا أن الرسول ﷺ لم يستعمل السيف إلا بعد أن استعمل كل الوسائل الممكنة من إدارة الحوار والتفاهم بالمعروف واستعمال العقل؛ لأن الإسلام دين سلام يمقت الحرب لأنها مدمرة للأحياء مهلكة للحرث والنسل، وهذه الدروس يجب أن نستفيد منها في وقتنا الراهن، وأن نعتمد على الله وعلى أنفسنا، وأن نحلل غزوات الرسول ﷺ لنستفيد منها، وأن نضع في اعتبارنا أن اللغة الوحيدة التي يفهمها اليهود هي لغة القوة، ولن تُحل مشكلة فلسطين إلا بالسيف.

فما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة، أما المؤتمرات الدولية وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن فهذه تحكمها قوة خفية فهي كذلك تحتاج إلى قوة، كذلك لا تحل القضية بالمؤتمرات المحلية المشحونة بالتشنجات والصراخ والعويل والخطب والقصائد، فكل ذلك في الهواء يضيع على الرمال والصخور، ولعلنا نذكر المثل العربي (**أَشْبَعْتُهُمْ شَتْمًا، وَرَاحُوا بِالإِبِلِ**).

ونحن لا ندري لمصلحة من هذا التهافت والاستخزاء، ألم نأخذ العبرة من الدول التي وجدت نفسها بعد اندحار الشيوعية فنهضت من كبوتها وأظهرت تنكرها للاتحاد السوفيتي وبدأت هذه الدول تستعيد شخصيتها كالصين ورومانيا وألبانيا والشيشان وكوسوفو وغير ذلك.

إن الأمة التي لا تحترم نفسها لا يمكن أبدًا أن تحترمها الأمم، والمسلمون اليوم والعرب معهم تنكروا لعقيدتهم وتناسوا حضارتهم فتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة على الثريد، وزرعت الدول الأجنبية دولة إسرائيل ـ التي لم تقبلهم أي دولة ـ في أرض العرب والمسلمين، ولو أن العرب والمسلمين تمسكوا

بدينهم وتدارسوا حضارتهم، وعرفوا تاريخ آبائهم وأجدادهم لفر اليهود أمامهم، وقالوا عن العرب والمسلمين ما قاله اليهود من قديم الزمان: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].

إن رسول الله ﷺ خاطب اليهود باللغة التي يفهمونها وكان من حوله رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ونحن عرب ومسلمون فإن عدنا إلى ديننا عادت إلينا قوتنا وهابنا العدو وخاف فـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وغزوة الأحزاب وما تبعها من غزوة بني قريظة كانتا السبب في تصفية العنصر اليهودي من المدينة المنورة، وتم تطهير تلك البقعة الطيبة الطاهرة من شرور هذا النوع الخبيث من البشر الذي لا يعرف إلا الشر.

نقدم ذلك مذكرين الأمة بأمجادها فإن الذكرى تنفع المؤمنين». [**غزوة الأحزاب لعبيد ٣-٩**].

٣ ـ الحقد اليهودي على البشرية منذ القدم:

يقول أ/ شاكر: «يحقد اليهود على الناس جميعًا، وليس عليهم في الأميين سبيل، وأكثر حقدهم على المسلمين، وقد حرصوا على ضرب الدعوة الإسلامية في مهدها الأول، ولكن لم يتمكنوا من ذلك بل رد كيدهم في نحرهم، وأجلوا عن المدينة فرقة بعد فرقة، فلما أجلي بنو النضير، زاد حقد قادتهم، وخاصة الذين أقاموا منهم بخيبر، إذ أن الإسلام تزداد قوته يومًا بعد يوم، وكلما أرادت فئة أن تغير على أبنائه، أصابته الضربة القاسية، ونزلت المصيبة بديارها وخرج المسلمون أقوى مما كانوا؛ لذا فكر الحاقدون أن يحزبوا الأحزاب من كل الجهات والقبائل، وأن يقوموا بحملة رجل واحد على المدينة، فيقضوا على الإسلام، ويجتثوا جذوره، وينالوا ثأرهم، فخرج لهذا الغرض من خيبر حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة ابن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي وغيرهم واتجهوا إلى مكة قاعدة قريش العدو الأول للمسلمين، ودعوها إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا لها: **إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ**، فسرت قريش، وأعدت العدة لتلك الحرب المرتقبة». [**التاريخ الإسلامي لشاكر ٢/ ٢٨٠-٢٨١**].

ويقول د/ المدخلي: «إن الحقد الذي تمكن في قلوب اليهود على البشرية عامة وعلى المؤمنين خاصة قديم، يرافق هذا الحقد عناد وصلف وكبرياء؛ وذلك لأنهم يعتقدون أنهم أهل السيادة في الأرض حيث قالوا إنهم أبناء الله وأحباؤه وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ الآية [المائدة: ١٨].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «قالوا: أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه، وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم ما يوافق هدفهم وحرفوه. [**تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤**].

ونجد أكبر شاهد على حقدهم وكراهيتهم للمؤمنين قوله تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ الآية [المائدة: ٨٢].

أما كراهتهم للعرب خاصة فهو واضح بالقرآن والسنة، ذلك أن القرآن حكى لنا أنهم يستبيحون أكل أموال العرب وليس عليهم سبيل في ذلك، بدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ الآية [آل عمران: ٧٥].

قال ابن كثير ؒ عند تفسير هذه الآية أي: «إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب، فإن الله قد أحلها لنا.

أقول: ولكن الله ﷻ كفانا شرهم والمجادلة معهم عند ادعائهم هذا، وذلك بتمام الآية السابقة حيث قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥﴾.

قال ابن كثير: «أي: وقد اختلقوا هذه المقالة وائتفكوها بهذه الضلالة، فإن الله قد حرَّم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بهت. [تفسير ابن كثير ١/ ٣٧٤].

ومع هذا فإننا إذا أردنا أن نتعرض لحقدهم وغرورهم الذي وضحه القرآن لطال بنا البحث، ولكن أردنا التنويه بخبثهم ودسهم وعدم انصياعهم مع أنه واضح للعيان».

فهذه أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب تقول عن أبيها وعمها عندما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة يحمل النور معه، وكان أهل الكتاب يعرفون علامات مبعثه وصفاته، ولكن العمى عمى القلب، فهذا حيي بن أخطب وهو القطب الدوار والخصم الألد الذي حرَّك أعداء هذا الدين لهذه الغزوة، وأثار كوامن قريش وألَّبهم ضد المسلمين وضد حامل هذه الرسالة الصافية صلوات الله وسلامه عليه.

تحدث أم المؤمنين صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ ﵂ فتقول فيما رواه ابْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، قَالَ: حُدِّثْتُ عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بِنِ أَخْطَبَ ﵂ أَنَّهَا قَالَتْ: «كُنْتُ أَحَبَّ وَلَدِ أَبِي إِلَيْهِ وَإِلَى عَمِّي أَبِي يَاسِرٍ، لَمْ أَلْقَهُمَا قَطُّ مَعَ وَلَدٍ لَهُمَا إِلَّا أَخَذَانِي دُونَهُ.

قَالَتْ: فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ، وَنَزَلَ قُبَاءً، فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ غَدَا (غدا: أي ذهب أول النهار نقيض الرواح، وقد غدا يغدو، والغدوة بالضم ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس والجمع غدوات. النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤٦، مختار الصحاح ٤٦٩) عَلَيْهِ أَبِي، حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وَعَمِّي أَبُو يَاسِرِ بْنُ أَخْطَبَ، مُغَلِّسِينَ (الغَلَس بفتحتين ظلمة آخر الليل، والتغليس: السير بغلس)، قَالَتْ: فَلَمْ يَرْجِعَا حَتَّى كَانَا مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، قَالَتْ: فَأَتَيَا كَالَّيْنِ (كلَّ الرجل والبعير من المشي يكل كلالًا وكلالة أي أعيا) كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى، قَالَتْ: فَهَشَشْتُ (الهشاشة بالفتح الارتياح والخفة للمعروف) إِلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَوَالله

مَا التَفَتَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، مَعَ مَا بِهِمَا مِنْ الغَمِّ، قَالَتْ: وَسَمِعْتُ عَمِّي أَبَا يَاسِرٍ وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ: **أَهُوَ هُوَ؟** قَالَ: **نَعَمْ وَاللهِ!** قَالَ: **أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ؟** قَالَ: **نَعَمْ**، قَالَ: **فَمَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ؟** قَالَ: **عَدَاوَتُهُ وَاللهِ مَا بَقِيتُ**». [السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥١٨- ٥١٩، ٢/ ٢٤١، الاكتفاء ١/ ٤٧٣، وفاء الوفاء ٢٦٩، ومن خلال هذا الحديث الذي دار بين زعيمي بن النضير يتضح للقارئ مدى البغض الشديد والحقد العارم الذي ينطوي عليه هؤلاء اليهود للنبي ﷺ ومدى تصميمهم على التخلص منه ومهما كانت الوسائل التي يكون بها هذا التخلص. غزوة الأحزاب لباشميل ٩].

والحديث بهذا الإسناد منقطع؛ لأن عبد الله بن أبي بكر بن حزم روى عن مجهول، الواسطة بينه وبين صفية.

والحديث وإن كان منقطعًا فالآيات والواقع الملموس من هذه الطائفة تؤيده، وقد دل كتاب الله على معنى هذا الحديث في أكثر من آية منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران].

قال ابن كثير: «هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أَخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوَّضوا ـ بتشديد الواو التي بعد العين ـ عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدُّون (نقيض فوق وهو الخسيس) الطفيف والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم». [تفسير ابن كثير ١/ ٤٣٦].

وقال الطبري عند تفسير هذه الآية: «واذكر أيضًا من هؤلاء اليهود وغيرهم من أهل الكتاب منهم يا محمد إذ أخذ الله ميثاقهم ليبين للناس أمرك الذي أخذ ميثاقهم على بيانه للناس في كتابهم الذي في أيديهم وهو التوراة والإنجيل، وأنك لله رسول مرسل بالحق ولا يكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم، يقول: فتركوا أمر الله وضيعوه ونقضوا ميثاقه الذي أخذ عليهم بذلك فكتموا أمرك وكذبوا بك واشتروا به ثمنًا قليلًا».

يقول: «وابتاعوا بكتابهم ما أخذ عليهم الميثاق أن لا يكتموه من أمر نبوتك عوضًا منه خسيسًا قليلًا من عوض الدنيا، ثم ذم جل ثناؤه شراءهم ما اشتروا به من ذلك فقال: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.
[جامع البيان ٤/ ٢٠٢].

ثم أورد الطبري رحمه الله حديثًا يؤيد ما سبق، حيث قال: حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة ذكر لنا أن أعداء الله اليهود يهود خيبر أتوا نبي الله ﷺ فزعموا أنهم راضون بالذي جاء به وأنهم متابعوه وهم متمسكون بضلالتهم، وأرادوا أن يحمدهم نبي الله ﷺ بما لم يفعلوا، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ

فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران]. [تفسير الطبري ٤/ ٢٠٨].

والحديث بهذا السند إلى قتادة حسن ولم يسم قتادة من ذكر له ذلك.

ومن الجدير بالإشارة أن اليهود يحقدون أشد الحقد على النبي ﷺ قبل أن يعرفوه حتى أنهم عندما سمعوا أوصافه قال بعضهم لبعض: اقتلوه.

ويشهد لذلك ما رواه ابن سعد من سند منقطع من أعلاه حيث قال: أخبرنا عمرو بن عاصم الكلابي أخبرنا همام بن يحيى عن إسحاق بن عبد الله أن أم النبي ﷺ لما دفعته إلى السعدية التي أرضعته، قالت لها: احفظي ابني، وأخبرتها بما رأت، فمر بها اليهود فقالت: ألا تحدثوني عن ابني هذا؟ فإني حملته كذا ووضعته كذا ورأيت كذا وصفت أمه قالت فقال بعضهم لبعض: «اقتلوه»، فقالوا: أيتيم هو؟ فقالت: لا هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا: لو كان يتيمًا لقتلناه».

[الطبقات الكبرى ١/ ١١٣، ١٢٠، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٩، السيرة النبوية ١/ ٥٤٦ وما بعدها].

وليس ذلك بمستبعد عن قوم وصفهم الله في كتابه بأنهم يقتلون أنبياءهم.

مما سبق من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة يتضح بعض الأدلة التي جاءت مبينة لما يُعرف به اليهود على مدى الأزمان من حقد دفين وعداوة ظاهرة للأمة الإسلامية ونبيها المصطفى ﷺ.

ذلك الحقد الذي أعمى قلوبهم وأحرقها، وشتت شملهم في الدنيا حيث نفاهم ﷺ من المدينة، وذلك بقوة الله التي تسانده حيث أخبر تعالى عن ذلك فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

ويجدر بنا ونحن بصدد الحديث عن حقدهم ودسائسهم أن نبين طوائف اليهود الذين تمركزوا في المدينة منذ زمن طويل، وهذه الطوائف هي: **بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة**، وكل طائفة من هذه الطوائف كان لها موقف مع النبي المصطفى ﷺ، وكانت كلها مواقف تنضح بالحقد والكراهية.

وكان من موقف بني قينقاع كما قال الحافظ مَا رَوَى اِبْنُ إِسْحَاقَ بِإِسْنَادٍ حَسَن عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَـمَّا أَصَابَ رَسُولُ الله ﷺ قُرَيْشًا يَوْم بَدْرٍ جَمَعَ يَهُودَ فِي سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، فَقَالَ: «**يَا يَهُودُ: أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ**»، فَقَالُوا: إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ القِتَالَ، وَلَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا الرِّجَالُ [تفسير ابن كثير ١/ ٣٥٠، السيرة النبوية ٢/ ٤٧]، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ

كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ [آل عمران]». [فتح الباري ٧/ ٣٣٢ بتصرف].

وهكذا يظهر أن أول من نقض العهد من اليهود هم بنو قينقاع.

[الطبقات الكبرى ٢/ ٢٩، فتح الباري ٧/ ٣٣٠].

قَالَ ابْنُ هِشَام: وَذَكَرَ عَبْدُ الله بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، عَنْ أَبِي عَوْنٍ قَالَ: كَانَ مِنْ أَمْرِ بَنِي قَيْنُقَاعَ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ العَرَبِ قَدِمَتْ بِجَلَبٍ (هو ما يجلبه الإنسان من بلد إلى بلد وذلك من التجارة) لَهَا، فَبَاعَتْهُ بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَجَلَسَتْ إِلَى صَائِغٍ بِهَا، فَجَعَلُوا يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ فَعَمِدَ الصَّائِغُ إِلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إِلَى ظَهْرِهَا، فَلَمَّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ سَوْءَتُهَا، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَتْ، فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِغِ فَقَتَلَهُ وَكَانَ يَهُودِيًّا، وَشَدَّتْ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ، فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ، فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٨].

وأثر ابن هشام فيه انقطاع من أسفله ومن أعلاه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، قَالَ: فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ.

وكان ذلك في شوال بعد وقعة بدر وأراد قتلهم فاستوهبهم منه كبير المنافقين ـ عبد الله بن أُبي ـ وكانوا حلفاءه، فوهبهم له وأخرجهم من المدينة إلى أَذْرِعَات (بلد في إطراف الشام تجاور أرض البلقاء).

قال ابن حزم: «وهم قوم عبد الله بن سلَام ـ مخفف ـ وكانوا في طرف المدينة، وكانوا سبعمائة مقاتل».

[ينظر رسالة: طوائف اليهود الثلاث في المدينة لأكرم حسين السندي]. [جوامع السيرة ١٥٤].

ثم نقض العهد بعد ذلك بنو النضير وكان رئيسهم حيي بن أخطب، والمشهور في كتب السيرة أن الرسول ﷺ نهض بنفسه إلى بني النضير مستعيناً بهم في دية القتيلين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه الذي نجا من حادثة بئر معونة.

فلما كلمهم ﷺ قالوا: «نعم»، فقعد رسول ﷺ مع أبي بكر وعمر وعلي ونفر من أصحابه إلى جدار من جدرهم»، فاجتمع بنو النضير وقالوا: «من رجل يصعد على ظهر البيت فيلقي صخرة على محمد فيقتله فيريحنا منه»، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فأوحى الله تعالى بذلك إلى رسول الله ﷺ فقام ولم يشعر بذلك أحد من أصحابه ممن كانوا معه، فلما استلبثه أصحابه رضي الله عنهم قاموا فرجعوا إلى المدينة، واتوا رسول الله ﷺ فأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه بما أرادته اليهود وأمر أصحابه بالتهيؤ لحربهم». [جوامع السيرة ١٨١، السيرة النبوية ٢/ ١٩٠].

لكن ابن حجر أورد غير هذا حيث قال: وَرَوَى اِبْنُ مَرْدَوَيْهِ قِصَّةَ بَنِي النَّضِيرِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ إِلَى مَعْمَرَ عَنْ الزُّهْرِيِّ: «أَخْبَرَنِي عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: كَتَبَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى عَبْدِ الله بْن أُبَيٍّ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ قَبْلَ بَدْرٍ يُهَدِّدُونَهُمْ بِإِيوَائِهِمْ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ أَنْ يَغْزُوهُمْ بِجَمِيعِ العَرَبِ، فَهَمَّ ابْنُ أُبَيٍّ وَمَنْ مَعَهُ بِقِتَالِ المُسْلِمِينَ، فَأَتَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا كَادَكُمْ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا كَادَتْكُمْ قُرَيْشٌ، يُرِيدُونَ أَنْ تُلْقُوا بَأْسَكُمْ بَيْنَكُمْ**»، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ عَرَفُوا الحَقَّ فَتَفَرَّقُوا.

فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ كَتَبَتْ كُفَّارُ قُرَيْش بَعْدهَا إِلَى اليَهُودِ: **إِنَّكُمْ أَهْلُ الحَلقَةِ وَالحُصُونِ**، **يَتَهَدَّدُونَهُمْ**، فَأَجْمَعَ بَنُو النَّضِيرِ عَلَى الغَدْرِ، فَأَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: **أُخْرُجْ إِلَيْنَا فِي ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِكَ وَيَلْقَاكَ ثَلَاثَةٌ مِنْ عُلَمَائِنَا، فَإِنْ آمَنُوا بِكَ اِتَّبَعْنَاكَ**، فَفَعَلَ ﷺ، فَاشْتَمَلَ اليَهُودُ الثَّلَاثَةُ عَلَى الخَنَاجِرِ، فَأَرْسَلَتْ اِمْرَأَةٌ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى أَخٍ لَهَا مِنْ الأَنْصَارِ مُسْلِمٍ تُخْبِرُهُ بِأَمْرِ بَنِي النَّضِيرِ، فَأَخْبَرَ أَخُوهَا النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِمْ»..

قال ابن حجر: «فَهَذَا أَقْوَى مِمَّا ذَكَرَ اِبْن إِسْحَاق مِنْ أَنَّ سَبَبَ غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ طَلَبُهُ ﷺ أَنْ يُعِينُوهُ فِي دِيَةِ الرَّجُلَيْنِ، لَكِنْ وَافَقَ اِبْن إِسْحَاق جُلُّ أَهْلِ المَغَازِي. [**فتح الباري ٧/ ٣٨٥**].

أما بنو قريظة فكان سبب محاصرتهم وقتلهم ما وقع منهم من نقض عهد النبي ﷺ وممالأتهم (**مالأه** بالمد ساعده على الأمر وشايعه) لقريش وغطفان ومطاوعتهم لعدو الله وعدو رسوله حيي بن أخطب حتى أنه لم يزل بسيدهم كعب ابن أسد يفتله في الذروة والغارب (أي يدور من وراء خديعته) حتى نقض عهده وأخلف وعده.

وكان مصير هذه الطائفة أن نزلت على حكم الصحابي الجليل سعد بن معاذ ﷺ، وكانوا حلفاءه ومواليه فحكم فيهم أن يقتل رجالهم ويسبى نساؤهم وذراريهم وتقسم أموالهم، فقال ﷺ: «**قضيت بحكم الله**». كما سيأتي تفصيله في غزوة بني قريظة.

أما يهود خيبر فقد نقضوا العهد وخرج إليهم ﷺ في بقية المحرم سنة سبع وحاصرهم حتى فتحها وغنم ما فيها. [**البداية والنهاية ٤/ ١٨١، فتح الباري ٧/ ٤٦٤، جوامع السيرة ٢١١**].

بعد أن رأينا طباع اليهود وأن ديدنهم الحقد والعداوة للإسلام والمسلمين مهما كلفهم ذلك، وأنهم لا زالوا ولن يزالوا يكيدون للمسلمين ويقتلونهم متى سنحت الفرصة لهم فهم مهما اضطُهدوا فعندما يفيقون يكون أول عمل لهم هو ضد المسلمين فقط.

ولا أدل على ذلك أن يهود إسبانيا عندما طردهم فرديناند ملك إسبانيا أنقذ السلطان بيازيد الثاني يهود إسبانيا من إبادة محققة، وقدمت لهم الحكومة العثمانية جميع الحقوق وأصبحوا في حالة مُرْضِية للغاية، فما عليهم إلا أن يدفعوا الجزية ويعيشوا في أمن واطمئنان.

على الرغم من كل ما قدمته الحكومة العثمانية وولاتها فقد توجه **اليهودي دافيد روبيني** عام ٥٠٥هـ إلى **البابا كليمنت السابع** وعرض عليه مشروع محالفة عسكرية مسيحية يهودية ضد المسلمين تقضي بما يلي:

(١) إنهاء العداء القائم بين المسيحيين واليهود على حساب المسلمين.

(٢) تعاون جيوش أوروبا مع جموع الشعب اليهودي الذين يقيمون داخل الدولة العثمانية للانقضاض عليها من الداخل وغزوها من الخارج واحتلال أراضيها.

(٣) تتولى الدولة المسيحية تزويد اليهود الذين يقيمون داخل الدولة الإسلامية بالأسلحة التي تساعدهم في الانقضاض على المسلمين. [السياسة اليهودية ـ مصطفى السعدني ١٩٥- ١٩٦ ط لبنان].

هذه هي أخلاق اليهود من قديم الزمان ولا زالت هي أخلاقهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وأخيرًا: قال الأستاذ محمد عزة دروزة: «ولليهود في العهد المدني شأن كبير متعدد النواحي لأنهم أول من اصطدم مع النبي ﷺ، ولقد شغلوا في القرآن المدني حيزًا واسعًا منذ بدء تنزيله».

ثم قال: «ولعل من الدلائل على أنهم أول من اصطدم مع النبي ﷺ ما جاء في الآيات الأولى من البقرة التي هي أول السور المدنية في ترتيب النزول فقد جاء في أولها: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة].

فقد قال جمهور المفسرين: «إن شياطينهم هم اليهود، ويدل هذا بوضوح على أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق وشجعوهم في مواقف الخداع». [سيرة الرسول ﷺ لدروزة ٢/ ١٢١].

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٨٥-١٠٢].

٤ ـ حقد اليهود على النبي ﷺ:

يقول د/ هيكل: «ولقد كان اليهود أبصر خصوم محمد ﷺ بتعاليمه وبمصير دعوته، وكانوا أكثرهم تقديرًا لما يصيبهم بانتصاره، فهم كانوا في بلاد العرب دعاة التوحيد، وكانوا ينافسون المسيحيين في سلطانهم ويأملون مغالبتهم والتغلب عليهم، ولعلهم كانوا على حق أن كانت السامية أميل بطبعها إلى فكر التوحيد، على حين كان التثليث المسيحي مما لا يسهل على هذه النفس الحامية مساغه، وهذا محمد ﷺ من صميم العرب ومن صميم الساميين، يدعو إلى التوحيد بعبارات قوية نفاذة تأخذ بمجامع الفؤاد، وتصل إلى أعماق القلب، وتسمو بالإنسان إلى ما فوق نفسه، وها هو ذا قد بلغ من القوة حتى أخرج بني قينقاع من المدينة، وحتى أجلى بني النضير عن ديارهم؟ فهل يتركونه وشأنه منصرفين إلى الشام وإلى وطنهم الأول بيت المقدس في أرض المعاد، أم تراهم يحاولون تأليب العرب عليه ليأخذوا بالثأر منه؟».

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٣٨].

ويقول أ/ باشميل: «إن غزوة الأحزاب الخطيرة هذه هي وإن كانت في الشكل والمظهر، غزوة قرشية غطفانية، إلا أنها في أهدافها البعيدة ومراميها العميقة هي غزوة يهودية لحمًا ودمًا، فاليد الحقيقية التي تكمن وراء هذه الحملة المخيفة الموجهة لإبادة المسلمين إبادة كاملة هي يد يهودية.

فغزوة الأحزاب الموجهة لاحتلال المدينة والقضاء على المسلمين وهدم الإسلام في عقر داره، قد جاءت وفق تصميمات مدروسة وضعها مفكرون إسرائيليون، كما أن تمويل هذه الحملة الخطيرة قد ساهم اليهود فيه مساهمة كبيرة.

لقد كان اليهود ـ وهم مصدر الفتن والقلاقل ومثيرو الحروب في كل عصر وزمان ـ هم الذين حزبوا تلك الأحزاب وحشدوا عشرة آلاف مقاتل من أعراب الجزيرة العربية لغزو المدينة واستئصال شأفة المسلمين فيها.

كما أن قريشًا ـ العدو العربي التقليدي للمسلمين ـ لها يد كبيرة في تنسيق هذا الغزو والتشجيع عليه والترحيب بفكرته التي جاءت من جانب اليهود.

أما قريش فقد كان نزاعها مع النبي ﷺ ودعوته نزاعًا قديمًا قدم الدعوة الإسلامية، وكان صراعها من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين صراعًا قديمًا مزمنًا يرجع عهده إلى أول ظهور الإسلام، وقد خاضت قريش ـ في سبيل تحقيق هذا الهدف ـ مع المسلمين معارك رهيبة أولها معركة بدر الكبرى وآخرها معركة أُحُد التي ـ بالرغم من انتصاره الوقتي فيها ـ لم تحقق لها هدفها المنشود.

أما اليهود فقد كانت العداوة والكره لكل من سواهم من البشر طبيعة متأصلة في نفوسهم، فما ظنك بمن جاء يحمل رسالة سماوية فيها الخطر كل الخطر على كيان هؤلاء اليهود المبني على الغش والدس والوقيعة والاستغلال.

لقد كان اليهود ـ دونما جدال ـ يُضمرون للنبي ﷺ ودعوته من الحقد والبغض والحسد ما هو أعمق مما تضمره قريش وأحلافها من أعراب الجزيرة، فكان اليهود ـ لذلك ـ أحرص من أعراب الجزيرة على محو الإسلام والقضاء على المسلمين.

وإذ كانت قريش في مكة قد استطاعت أول الأمر ـ لقوتها وضعف المسلمين ـ أن تنكل بهم وتفتن البعض منهم عن دينه تحت وسائل التعذيب بل وتجبر النبي ﷺ على مغادرة وطنه الأصلي (مكة) لجرأتها على الائتمار بقتله، فإن اليهود الذين يودون أن يفعلوا ذلك وأكثر بالنبي ﷺ وصحبه ﷺ، لم يكن في مقدورهم أن يفعلوا شيئًا من ذلك بمفردهم عندما جاءهم النبي ﷺ إلى يثرب.

لأنه ﷺ لم يصل إلى المدينة إلا وقد سبقه تكوين جبهة عسكرية قوية مُشَكَّلة من جميع القبائل القحطانية (الأوس والخزرج) في يثرب.

بالإضافة إلى مهاجري قريش المسلمين الذين تركوا مكة فرارًا بدينهم، وانضموا إلى معسكر يثرب، فكانت هذه الجبهة العسكرية القوية درع الرسول ﷺ الحربي الواقي الذي يحتمي به، الأمر الذي غاظ اليهود وقهرهم، وجعلهم يعجزون عن القيام منفردين بأي عمل عسكري وشبه عسكري ضد المسلمين كما كانت تفعل قريش؛ لأن هؤلاء اليهود بالرغم من قدمهم في الجزيرة هم عنصر أجنبي دخيل على الأمة العربية لم يستطع الامتزاج بهذه الأمة، بالرغم من إقامته بينها آلاف السنين.

وكل ما قام به اليهود في يثرب ضد النبي ﷺ ـ قبل غزوة الأحزاب ـ هو عمليات دس وتفريق بين المسلمين ومحاولات لإثارة الحرب الأهلية بينهم، وحركات عصيان ضيقة النطاق .. عمليات كلها باءت بالفشل.

وآخر محاولة جريئة قام بها اليهود هي محاولة بني النضير اغتيال النبي ﷺ وهو بين منازلهم، فكانت نهاية هذه المحاولة الفاشلة هي طرد يهود هذه القبيلة وإجلاؤهم عن المدينة نهائيًّا».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١١٥-١١٨].

٥ ـ لا حد للحقد اليهودي على الإسلام:

يقول أ/ دويدار: «لم يكن خروج بني النضير من المدينة بالأمر الهين على نفوسهم، ولا بالأمر الذي تنتهي آثاره بمجرد انتهائه، فقد كانت المدينة موطنهم وموطن آبائهم وأجدادهم منذ عهود بعيدة، وكان الأنصار من الأوس والخزرج هم الطارئين عليهم في عهود الآباء والأجداد، كما كان المهاجرون من قريش هم الطارئين عليهم في أيامهم الحاضرة.

وعلى رغم ما كان يبدو عليهم من مظاهر التجلد والاغتباط عند خروجهم، فإن قلوبهم كانت تغلي بالحقد على رسول الله ﷺ وأصحابه، أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم كارهين، وأرغموهم على ترك أرضهم ومنازلهم، وحصونهم وأسلحتهم، وزروعهم وثمارهم، وتجارتهم وأموالهم، وأنعامهم ودوابهم، ولم يسمحوا لهم أن يأخذوا من كل ذلك إلا بمقدار ما تستطيع أن تحمله الإبل من الأموال والمتاع.

فكان كل ما يفكرون فيه أن ينتقموا من أولئك الأعداء، وأن يمكنوا لهم ضربة قاصمة يستطيعون بها القضاء عليهم، أو يستطيعون بها على الأقل أن يُخرجوهم من حيث أخرجوهم.

هذا إلى ما كان يملأ قلوبهم من الحسد والبغضاء لذلك الرسول الذي جاء بدعوته إلى مدينتهم، فانتزع منهم تلك المكانة الدينية التي كانوا يستمتعون بها والتي كانوا يُدِلُّون بها على العرب المشركين في المدينة وفي غيرها من بلاد العرب وقبائلها.

وقد أخذت هذه الدعوة تظهر وتنتشر، ويزداد أنصارها على الأيام كثرة وقوة، حتى استطاعوا أن يُخرجوهم منها فريقًا بعد فريق، وهم أبناء البلاد وأهلها، وأصحاب الرأي والمكانة فيها.

من أجل هذا وذاك طوى اليهود نفوسهم على فكرة الانتقام، وجعلوا يتلمسون الفرصة للقضاء على محمد وصحبه، وعلى هذه الدعوة التي زاحمتهم في دينهم وغالبتهم في أوطانهم، وكانوا يعلمون أن قريشًا ومن حولهم من الأعراب كارهون لهذه الدعوة، ليس منهم إلا من يناوئها ويود القضاء عليها، وإن اختلفت بينهم الأسباب وتنوعت المقاصد، فجعل بنو النضير وَكْدَهم أن يؤلفوا بين أولئك الأحزاب، وأن يكوِّنوا منهم كتلة واحدة ينقضُّون بها على محمد ﷺ وصحبه، فيضربونهم ضربة رجل واحد، فيقضون عليهم في ساعة من نهار ثم يفرغون من أمرهم، وبذلك يستريح العرب واليهود جميعًا، ويعود السلام والأمن والطمأنينة إلى الجزيرة كما كان من قبل هذه الدعوة.

هكذا فكر بنو النضير، وعلى هذه النية أجمعوا أمرهم وعقدوا عزيمتهم، فخرج حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق في نفر من أشرافهم ووجوههم، يحزبون الأحزاب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، فقدموا مكة على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: **سَنكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ**.. وكأنما خامر الشك قريشًا في نية اليهود، فترددت في أن تمالئهم على محمد وهو واحد منها، أو كأنما خامرها الشك في أمر دينها فأرادت أن تطمئن إلى حقيقة الأمر فيه، وأن توازن بينه وبين دين محمد، ذلك الذي يدعو إلى عبادة الله وحده، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، وأن تتبين موقفها إن كانت على الحق أو على الباطل فيما تريد من حربه.. لعل قريشًا فكرت في شيء من ذلك، وقارنت بين موقفها وموقف محمد، فرأت أنها في كل ما كان بينها وبينه كانت هي البادية بالعدوان، وأن محمدًا وصحبه لم يكونوا إلا مدافعين عن أنفسهم وعن دعوتهم، وعن حقهم في نشر هذه الدعوة بين الناس، ليؤمن بها من يشاء ويكفر بها من يشاء.. نعم، ولعل شيئًا من ذلك هو الذي دفع قريشًا أن تقول لمن جاءها من أحبار بني النضير: «**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ الأَوَّلِ وَالعِلْمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ؟**» فلم يسع اليهود وهم في موقف الإغراء لقريش إلا أن يقولوا لهم: «**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ الأَوَّلِ وَالعِلمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ؟**»...

وهكذا دفعهم الحقد والحسد والعداوة للنبي ﷺ ودعوته إلى عدم التورع في الشهادة الفاجرة، بأن الشرك خير من التوحيد، وأن آلهة المشركين وأصنامهم خير من إله محمد رب العالمين، وأن ما عليه المشركون من عادات وتقاليد أهدى مما يدعو إليه محمد ﷺ، وهكذا أنكروا أساس دينهم الذي هو الإيمان بالله وحده، في سبيل محاربة النبي الداعي إلى ذلك الإيمان، والناهي عن الشرك والإثم والفواحش، فأنزل الله في ذلك قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

فلما قالت اليهود ذلك لقريش سرهم، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فجعلوا يتأهبون لذلك.

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى أتوا غطفان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأعلموهم أن قريشًا قد بايعوهم على ذلك، ووعدوا رجال غطفان أن يعطوهم ثمار خيبر من النخيل سنة، إذا تم لهم النصر على محمد ﷺ، فاستجابت لهم غطفان بكل بطونها.

وهكذا جعلوا يحزبون الأحزاب ويؤلِّبون القبائل ويجمعون كل من له عند رسول الله ﷺ ثأر، حتى اجتمع لهم ـ من قريش وغطفان وأسد وسُلَيْم ومن تابعهم من قبائل العرب ـ نحو من عشرة آلاف مقاتل، وسار هذا الجيش الكبير إلى المدينة، تحت إمرة أبي سفيان بن حرب، في شوال سنة خمس من الهجرة (فبراير ٦٢٧م)». [**صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٤١٦-٤١٨**].

ويقول د/ الغضبان: «وكان خروج بني النضير بأحقادهم وذلهم دافعًا لهم على تغيير الحلف، الذي نقضوه ليكون حلفهم الجديد مع عدو محمد ﷺ الأول قريش، وقد استطاعوا بنشاطهم السياسي أن يؤلبوا معظم العرب على حرب رسول الله ﷺ، فهم أقنعوا سليم وغطفان وقريش بحرب رسول الله ﷺ.

وواقع الحركة الإسلامية اليوم لابد من حربه مع اليهود عاجلًا أو آجلًا، والتعرف على التخطيط اليهودي الماكر في رغبته باستئصال شأفة المسلمين يفيدنا اليوم كثيرًا في هذه المعركة، فبنو النضير الذين أحنوا رقابهم لفترة مؤقتة، سرعان ما اشتعل مرجل الحقد في قلوبهم بعد الهزيمة، وراحوا يؤلبون العرب ضد الإسلام والمسلمين، ويتحالفون معهم لا على هزيمة محمد ﷺ فقط، إنما على استئصال شأفته، واليهود اليوم يتحالفون مع الحكام العرب حِلفًا غير معلن، ومن وراء ستار في ضرب الحركات الإسلامية في بلادهم ضربًا يستأصل شأفتها وينهيها من جذورها، وكثيرًا ما تصمت إسرائيل وتحقق الأمن مع بعض جاراتها العربيات ريثما يتمكن الحكام من إبادة المجاهدين في سبيل الله، وما أحداث حماة ولبنان إلا نماذج من هذه النماذج حيث تُدك المدن على أهلها، وتُدفن المساجد بأهليها، بترابها وركامها حتى لا يرتفع للإسلام صوت، أو تقوم قائمة، وما أشبه الليلة بالبارحة!

كما نفقه كذلك ما تبذله اليهودية من مال لذلك، وكم كان سلاح المال رائجًا عندها، فلقد فكرت أن تشتري الخليفة المسلم بالمال مقابل السماح لها بالهجرة إلى فلسطين، بل اشترت الإنجليز بالمال في الحرب العالمية الأولى مقابل وعد بلفور بالسماح لها بإقامة وطن يهودي في فلسطين، فهي هنا تتبرع بثمر خيبر عامًا كاملًا مقابل دخول غطفان الحرب ضد المسلمين، وهي تمد الأعداء بالبضائع ليحاربوا المسلمين، فلقد كانت أفريقيا سوقًا يهودية، وكان اعتراف سبع عشرة دولة أفريقية بإسرائيل هو الثمن.

وفي عالم السياسة لا وزن للمبادئ إلا عند المسلمين، واليهود أكثر الناس تناقضًا مع مبادئهم حين يكون لهم مصلحة في ذلك، مثلهم مثل النصارى والكافرين، بل هم أشد عداوة؛ ولذلك رأيناهم يفضلون المشركين الوثنيين على المسلمين الذين يؤمنون بالله وتحكيم كتابه، وهم يعلمون أن محمدًا ﷺ نبي مرسَل، ومع ذلك فهم يشهدون لقريش بصحة دينها الوثني.

وعلينا أن لا نغتر كثيرًا بالقواسم المشتركة بيننا وبين حلفائنا، فسرعان ما تتغير المصلحة فتسقط المبادئ، ويُرمى بها جانبًا أمام مصلحتهم.

والتضليل الفكري الذي يمارسه اليهود ضد المسلمين والإسلام في العالم يكاد يسد الأفق، ومن خلال الأفكار المطروحة في العالم تحت أي اسم لاجتثاث المسلمين من جذورهم، وما المحافل الماسونية والأفكار التحررية والوجودية، والماركسية، والعلمانية، إلا صورة من صور التضليل، إنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا.

ولئن كان دورهم في البداية رهيبًا، فلم يرعووا عن ذلك، بل راحوا يؤججون النار مع إخوانهم من بني قريظة لنقض العهد، وذلك في قلب المعركة، كما سنرى في المرحلة الثانية من الغزوة».

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٢٩٦-٢٩٨].

ويقول د/ فيض الله: «رأينا كيف أثار شيخ بني النضير حُيَيُّ بن أخطب حفيظة قريش ومَنْ تبعها ضد المسلمين، وكيف حرضهم على حربهم، وأقنعهم بأنه سيوحي إلى يهود بني قريظة، بنقض عهد محمد ﷺ، وقطع المدد عنه، بحيث ينفتح أمام المشركين واليهود الطريق إلى المدينة.

ولا غرابة في أن يسلك ذلك الشيطان هذا المسلك، حيال الرسول ﷺ والمؤمنين، فقد طُرد هو ومَنْ معه من اليهود من المدينة شر طرد، في غزوة بني النضير - كما رأينا - إنما تبدو الغرابة في استجابة بني قريظة لهذه الدعوة الإجرامية، من عدة أوجه:

(١) أن المسلمين كانوا أوفياء ليهود يثرب، وكانوا مسالمين، لم يُحدِثوا إزاءهم أي شغب، ولم يسيؤوا إليهم، حتى يفاجئهم هؤلاء اليهود بهذا الغدر الماكر اللئيم.

(٢) إنهم كانوا مرتبطين مع المسلمين بوثيقة، أشهد عليها الله ورسوله، وجاء فيها:

«**أن الله شهيد على مَنْ بر واتقى، وأن عليهم النصر على مَنْ حارب أهل هذه الصحيفة، وأنه لا يَحل نصر المُحْدِث وإيواؤه، وأن مَنْ نصره وآواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، لا يُؤخذ منه صرف ولا عدل...**».

وقد بر المؤمنون بهذه الوثيقة، وها هم أولاء اليهود من بني قريظة يغدرون وينقضون العهد اليوم، كما نقضه من قبلهم إخوانهم يهود بني النضير، ومن قبلهم إخوانهم بنو قينقاع، وهذا تسجيل تاريخي لا يقبل التغيير والتبديل، وواقع لا مرية فيه، يعلن في جلية، أنه لا قيمة للعهود والمواثيق عند اليهود بإطلاق.

(٣) أنهم تحالفوا مع المشركين، وهم يزعمون أنهم أهل التوحيد، فما وجه هذا الحلف، وما الصلة بين الموحدين وبين المشركين؟ لا شيء، سوى المصلحة والمادة، التي تغلب عندهم على الدين كله، فهم إذًا وثنيون كالمشركين، لكن هؤلاء يعبدون الأوثان، التي لا تضر ولا تنفع، وأولئك يعبدون الدرهم الرنَّان، فبه ينفعون وبه يضرون... ثم لا شيء سوى ترجيح الوثنية على الإسلام، وتفضيل الشرك على التوحيد، الذي يمثله الإسلام، الذي يزداد مع الزمن قوةً وعزةً، وسموًا ورفعة.

وقد استنكر بعض اليهود صنع بني النضير هذا، ومحالفتهم الشرك ضد الإسلام، فقال **الدكتور إسرائيل ولفنسون** في كتابه «**تاريخ اليهود في بلاد العرب** [١٤٢]»: «كان من واجب هؤلاء، أن لا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم؛ لأن بني إسرائيل كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم، بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نُكِبوا بنكبات لا تُحصى، من تقتيل واضطهاد، بسبب إيمانهم بإله واحد، في عصور شتى من الأدوار التاريخية، (هكذا على حد تعبيره) كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين، هذا فضلًا عن أنهم بالتجائهم إلى عُبَّاد الأصنام، إنما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام، وبالوقوف منهم موقف الخصومة».

هكذا خطَّأَ كاتبٌ يهودي قومَه في تفضيل الشرك على التوحيد، لكنه لم يحدد الباعث على هذا التفضيل، الذي وليه الاشتراك الفعلي في تأليب الشرك على الإسلام، والوقوف مع المشركين في حرب الموحدين.

لم يكن الباعث إلا خصومة اليهود مع الإسلام، وإشفاقهم من امتداد الفتح الإسلامي، وبسط نفوذه على أرجاء المعمورة، مما تتوارى معه الظلال اليهودية، ويضمحل السلطان اليهودي إزاءه، وتصبح عقيدة أن اليهود شعب الله المختار، أسطورة قديمة.

من أجل ذلك لم يكتف اليهود بتفضيل الشرك على التوحيد الذي يدعو إليه محمد ﷺ، بل إنها خفَّت للتشغيب والتأليب على محمد ﷺ، وشاركت في محاربته فعلًا.

وسنرى عما قليل، كيف لاقت قريظة جزاء عدوانها، وحاق بها من الخزي ما حاق ببني النضير وبني قينقاع قبلها». [**صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٢٤-٢٢٦**].

ويقول الشيخ أبو خوات: «ولقد جاز هذا الكذب والنفاق على المشركين ففرحوا بشهادة أهل الكتاب الأول ـ كما كانوا يسمونهم ـ ضد الإسلام مع أنهم يعبدون الله الواحد الذي يعبده المسلمون، ولكنه الحقد الأعمى والرغبة القاتلة في الانتقام مما أدى إلى أسف الدكتور ولفنسون اليهودي في كتابه

تاريخ اليهود ص١٤٢: «والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بني قريش الوثنيين، حيث فضَّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية».

ألا فما أشبه الليلة بالبارحة .. إنه الكراهية المتأصلة والعداء المستحكم الذي لا علاج له إلا بالفصل بين العرب واليهود بحيث لا تكون بينهما مصالح مشتركة ولا حدود مشتركة حتى يستريح العالم ويهدأ، وإلى أن يتم ذلك فلن تخلو فترة من أحداث بين العرب واليهود، ولن يفيد حل سلمي ولا حل عسكري غير حاسم بحيث يمكن معه إقامة اليهود مواطنين في دولة لا يكون لهم فيها حكم ولا سلطان، وسيرى من يعيش هذه الحقيقة وإن طال الزمان. هذه عبرة مكررة لا يمل هذا القلم من الكتابة فيها لأنها حقيقة الحياة في هذا الجزء من العالم الحديث». [**دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٨٦-٨٧**].

ويقول د/ زين السيد: «إن قوى الشر تعمل دائمًا من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين، ومن أجل الحصول على هذا الغرض الدنيء بذلت كل جهدها ملتمسة كل الأسباب التي توصلهم إلى ذلك، فقد كان رسول الله ﷺ قد أجلى بني قينقاع وبني النضير عن المدينة لنقضهم المعاهدة التي أبرمها معهم، ولم يكن خروجهم من المدينة بالأمر الهين على نفوسهم ولا بالأمر الذي تنتهي آثاره بمجرد انتهائه، كبر عليهم إكراههم على ترك ديارهم، فقد كانت المدينة في زعمهم موطنهم وموطن آبائهم منذ عهود بعيدة، وكان الأنصار من الأوس والخزرج هم الطارئون عليهم في عهود الآباء والأجداد، كما كان المهاجرون من مكة هم الطارئون عليهم في أيامهم الحاضرة، وعلى الرغم من أنهم حين أُخرجوا من المدينة كان يهيأ للناظر أنهم فازوا بنجاتهم من القتل وأصبحوا مستريحي الضمير إلا أن قلوبهم في الحقيقة كانت تغلي بالحقد والحسد والكراهية على رسول الله ﷺ وأصحابه، هؤلاء النفر الذين أخرجوهم من ديارهم كارهين، تاركين وراءهم أرضهم وزروعهم وحصونهم وأسلحتهم وأمتعتهم ودوابهم ولم يسمحوا لهم أن يأخذوا معهم إلا مقدار ما تحمله الإبل من الأموال والأمتعة، هؤلاء النفر باستماتتهم في الدفاع عن الحق وتشبثهم وأخذهم على أيدي معاديه وتهديدهم لمعانديه يتفننون في الكيد لهم ولم يألوا جهدًا في محاولة الانتقام، والدس والخديعة بعض ديدن اليهود، ومن هنا كان تخطيطهم وتدبيرهم القضاء على الإسلام والمسلمين، هذا إلى ما كان يملأ قلوبهم من الكراهية والبغضاء لذلك الرسول ﷺ حيث جاء بدعوته إلى المدينة فانتزع منهم مكانتهم الدينية التي كانوا يتعالون بها على العرب المشركين في المدينة وغيرها من أهل الجزيرة العربية، وقد أخذت هذه الدعوة تنتشر ويكثر أتباعها قوة وعددًا حتى أخرجوهم منها فريقًا بعد فريق أذلة صاغرين وهم أبناء الوطن الأصليين كما يدعون وأصحاب الكلمة فيه.

من أجل هذا أخذوا يعمدون إلى فكرة الانتقام من الرسول ﷺ والمسلمين ومن هذه الدعوة التي أجلتهم من دورهم وغالبتهم في أوطانهم، وكانوا يعلمون يقينًا أن قريشًا كارهة لهذا الدين الجديد ويودون القضاء عليه وعلى أتباعه، فجعل بنو النضير كل همهم أن يؤلفوا بين قريش والقبائل العربية المجاورة وأن يجمعوا منهم الأحزاب، وينقضوا على محمد ﷺ وصحبه فيقضون عليهم في ساعة من نهار ويفرغون من أمرهم، ويستريح العرب واليهود جميعًا ويعود الأمن والسلام والطمأنينة إلى ربوع الجزيرة العربية كما كان قبل ظهور الدين الجديد الذي أرق مضجعهم وفرق كلمتهم وانتزع السيادة منهم.

لقد بلغ العداء باليهود لمحمد ﷺ وأصحابه منتهاه حتى أعماهم عن رؤية الحق الواضح وجعلهم يسيرون في دياجير الظلم والظلام، وهم يعلمون مغبة أمرهم، واليهود في كل العصور أخذوا على عاتقهم الكيد للإسلام والمسلمين للنيل منه، ولعل المسلمين يتنبهون لمثل ذلك، كما ينبغي أن تظل الصورة واضحة في الأذهان، وأن يكونوا دائمًا في منتهى اليقظة والحذر من عدو يكيد ويدبر ويخطط بلا يأس ولا ملل وإن طال المدى، وتعاقبت الأعصر والأزمان وأن أبناءه وأحفاده ليسيرون على المنهج ونفس الخط يكملون المسيرة ويصلون إلى نهاية الشوط، ولن يردهم عن ديارنا ومقدساتنا كلام ولا شعارات وإنما يستأصل شأفتهم ويقضي على مؤامراتهم استمساك بحبل الله المتين وشد عرى الأخوة بيننا وتوثيق أواصر المحبة بين أبناء الأمة الإسلامية». [**دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٤٧، ١٦٤**].

ويقول الشيخ عبيد: «والقرآن الكريم ذكر هذا الحدث لما له من أهمية حيث يكشف عن الطوية الخبيثة والنفوس اللئيمة فيقول القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

هل حفظ التاريخ عن أحد من البشر أنه نزل في مثل هذا المستنقع الخبيث اللئيم».

[**غزوة الأحزاب لعبيد ١٨**].

٦ ـ كان غدر اليهود وفجور زعيمهم حيي بن أخطب وراء حشود الأحزاب:

يقول الشيخ عرجون: «أما أسباب غزوة (الأحزاب ـ الخندق) فهي معصوبة بغدر اليهود وحسدهم وتحريضهم أعداء المجتمع المسلم على مهاجمته لاستئصاله والقضاء عليه وعلى رسالته ودعوته، فهم الذين أشعلوا نارها، وأوروا زنادها، وحملوا لواءها، وانتهضوا لها ببواعث الحقد الأسود والحسد الذي ملأ صدورهم والغدر الذي كان ديدنهم.

وكان الذي تولَّى كبر تجميعهم من اليهود لعين السماء والأرض، فرعون الفراعين، وأكفر الكافرين، خبيث الأخْبَثِين حيي بن أخطب النَّضْري، وقد انضم إليه فجارهم: سلَّام بن مِشْكَم، وابن أبي الحُقَيْق،

وكنانة بن الربيع، وهؤلاء نضريون امتزج الغيظ والحنق بدمائهم، وأذاب الحسد كل ذرة من ذرات آدميتهم، وملأهم ضغينة، وانضوى تحت راياتهم الأرذلان: هوذة بن قيس وأبو عمار الوائليان، وكان بعض بني النضير عند إجلائهم قد خلَّف قومه وذهب إلى خيبر التي خرج منها ركب الشيطان بعدُ بتدبير أخبث المكر إلى مكة لتحريض بقايا غثاء الإنسانية في قريش ولفائفها على حرب النبي ﷺ ومهاجمته في داره ومدينته، والتقوا بطاغوت قريش وقائدها أبي سفيان بن حرب وغيره من زعماء أشتات الهاربين فرارًا من سيوف المسلمين.

محاورة استفتاء بين أخابث اليهود وبلهاء قريش:

وقال اليهود لهم: إنا جئناكم لنعاهدكم على أن نكون معكم على محمد حتى نستأصله، فقال لهم بلهاء قريش وطغامها: إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ ـ أف للرؤوس النخرة الخاوية والعقول البالية المهلهلة، والبلادة المتحجرة البلهاء ـ فقال لهم اليهود وهم منتشون من جهالاتهم البلهاء وبلادتهم الجهلاء، وأحسوا منهم بأنهم لا يحملون عقولًا في أدمغتهم تزن الأمور بميزان المعرفة والعلم، ولكنهم قوم كالأنعام بل هم أضل سبيلًا منها، فقالوا لهم وهم آمنون أن يُرَدَّ لهم قول: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

وأف للعقول الحاقدة التي أعماها الحقد حتى ألقاها بين أحضان الكذب الوضيع فهي تكذب في كذبها، وقد أنزل الله تعالى فيهم تعجيبًا لكل ذي عقل يحمل ذرة من سلامة التفكير من هؤلاء المرورين سائلين ومسؤولين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء]، فاجتمعوا واتَّحدوا لذلك.

ثم خرج مَنْ خرج من أخابث اليهود إلى غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ كما دعوا قريشًا لذلك، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم، وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة كما في رواية الواقدي، وعند غيره أن الذي خرج إلى غطفان هو كنانة بن الربيع وأنه جعل لهم نصف ثمر خيبر دون التقيد بزمن مخصوص، فاستجاب لهم الأحمق المطاع عُيَيْنَة بن حصن الفزاري، وجمع من قومه فزارة ومن تبعهم من أهل نجد ألف مقاتل وخرج بهم معهم.

لفائف من قبائل مختلفة استجابت لفجار اليهود وخرجوا مع موتوري قريش:

وخرج أبو سفيان بن حرب في بقايا قريش من الموتورين ومن انضم إليهم من الأحابيش في أربعة آلاف، ووافاهم طليحة بن خويلد الأسدي فيمن أطاعه من قومه، وتجمَّعوا حتى عسكروا بمَرِّ الظَّهران، ثم جاءتهم سُلَيم مددًا في سبعمائة رجل، يقودهم سفيان بن عبد شمس، وهو أبو أبي الأعور الذي كان مع

معاوية في صفين، وبعض الروايات يذكر أن قائد سُلَيم كان أبا الأعور نفسه لا والده سفيان، ثم هوى إليهم الحارث بن عوف المُرِّي في أربعمائة مقاتل من قومه بني مُرَّة، قال الزهري: إن الحارث بن عوف رجع ببني مُرَّة فلم يشهد غزوة الأحزاب مُرِّيٌّ، قال ابن سعد: والقول الأول أثبت؛ لأن هؤلاء المُرِّيين شهدوا الأحزاب بقيادة الحارث، وقد هجاه حسان بن ثابت ﷺ بذلك.

ويدل على شهودهم لها أن رسول الله ﷺ أدخل الحارث بن عوف قائد بني مُرَّة في مراوضته مع عُيَيْنَة بن حصن لكسر شوكة الأحزاب عن المسلمين.

وخرجت مع الأحزاب أشجع في أربعمائة رجل يقودهم مسعود بن رُخيلة، وقد بلغت عدة تجمعات الأحزاب عشرة آلاف، وكانوا على أتم الأهبة والاستعداد للقتال، تتوافر لهم إلى جانب كثافة أعدادهم البشرية من المقاتلين غزارة المؤن وكثرة السلاح ووفرة المركوب، إذ كان مع قريش وأحابيشها ومن تبعهم من شراذم القبائل من كنانة وتهامة ثلاثمائة فرس، وألف وخمسمائة بعير.

وقد عقدت قريش لواءها في دار الندوة، وجعلته في يد عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وكان عناج أمر الأحزاب وقيادتها العليا إلى أبي سفيان بن حرب، فهو صاحب أمرها الذي تَصْدُر عن رأيه.

وكان المسلمون ثلاثة آلاف مجاهد في سبيل الله، وهكذا كان التفاوت بين القوى الإسلامية والقوى المعادية لها تفاوتًا عظيمًا، بيد أن كثرة أعداد الأحزاب لا تحزمهم روابط متماسكة، فهم كثرة جوفاء، بينما كانت قلة عدد المسلمين لها عواصم من روابط محكمة أجلها رابطة الإيمان ووحدة الهدف، ومن ثم كان ميزان القوة المؤمنة أثقل وأرجح». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٤٤-١٤٦**].

٧ـ حزب الشيطان بين اليهود والمشركين:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر تصوير لجهود اليهود الأثيمة في تأليب أعداء المسلمين عليهم وجمعهم لحربهم، وهذا الخُلق الذميم قد اشتهروا به قديمًا وحديثًا.

ونجدهم في هذا الخبر مع علمهم اليقيني بصدق نبوة رسول الله ﷺ يخونون الأمانة ويُلَبِّسون الحقائق فيحكمون بأن دين قريش الوثني أفضل من دين المسلمين الإلهي، فهم عبيد المصلحة، فإذا كانت مصلحتهم الدنيوية تتحقق بالكذب والخيانة والغدر فإن هذه الأخلاق السيئة وأمثالها هي دينهم الذي يقدسونه ظاهرًا وإن كانوا يعرفون الحق باطنًا كمعرفتهم أبناءهم.

وقد لاقت سعاياتهم الخبيثة آذانًا صاغية من أعداء المسلمين في مكة، حيث الحقد المتراكم على المسلمين، والرغبة الأكيدة في القضاء على الدين الإسلامي الذي تجرعوا بسببه الذل والإهانة لما كفروا به وقاوموا أصحابه.

كما لقيت سعاياتهم قبولًا لدى القبائل الانتهازية التي تطمع في خيرات المدينة وتحلم بشرف الاستيلاء عليها». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٠١-١٠٢**].

ويقول د/ حبيشي: «لم يبق مع النبي ﷺ في المدينة من اليهود سوى بني قريظة وزعيمهم كعب بن أسد.

والنبي ﷺ كان قد عاهدهم كما علمت، والتزم الفريقان بعهدهم، لم يخرج واحد منهم على العهد.

وكان بنو قريظة قومًا يعملون بالزراعة وينشغلون بها، وبينهم وبين المسلمين من أنصار ومهاجرين نوع من المودة، وتبادل المنافع على نحو ما يكون بين الجار وجاره.

وقد علمت فيما سبق أن حيي بن أخطب، وعبد الله بن أبي بن سلول قد حاولا قبيل إجلاء بني النضير أن يحمل القرظيين على أن يدخلوا مع إخوانهم اليهود في نقض العهد مع النبي ﷺ، وإبطال معاهدة السلام المبرمة بينهم وبين المسلمين، وأن بني قريظة لم يستجيبوا لهذه المحاولة، وقالوا لعبد الله بن أبي: إنا مع النبي في معاهدة سلام، وإنا لم نر من الرجل إلا خيرًا.

واستمر يهود بني قريظة على مبدئهم هذا لا ينبذون إلى النبي ﷺ عهده، ولم يرهقهم النبي ﷺ في شيء.

غير أن الأمور لم تسر على ما يريد النبي ﷺ إلى آخر المدى، وهي لم تسر على ما يريد القرظيون إلى آخر الدهر؛ لأن أحد اليهود من بني النضير قد دارت في رأسه حمى تقليد آبائه وأجداده، فارتكس في حمأة الخيانة إلى أبعد مدى، لا يصلح معه أن يدافع عنه بعض الكتاب المحدثين من اليهود على استحياء، أو على غير استحياء، ولا ينفع معه أن يشهد لمثل هذا الدفاع أحد المسلمين الذي فضَّل أن لا يكون مع الحق يُسلم له قياده، بل قادته المنفعة إلى إشباع هواه.

والله يبعث كل إنسان منا على نيته، ويحاسبه على مقتضاها أو يغفر له كل ما انكشف من سوءته.

ارتكس بعض اليهود في حمأة الخيانة إلى الأذقان، وهو حيي بن أخطب زعيم بني النضير، الذين أجلاهم النبي ﷺ عن المدينة بسبب خيانتهم.

حين خرج حيي من المدينة متجهًا إلى الشمال، ترك بعض قومه يذهبون إلى الشام، ونزل هو وعصبة من رجاله معه بخيبر وما حواليها من مساكن اليهود.

ولم يكن اختيار حيي بنزوله بخيبر وما حولها عشوائيًّا، أو مجردًا عن الفكرة الدافعة إليه.

والفكرة الدافعة إليه هو: أنه أراد أن يفرِّغ نفسه لتأليب العرب في شمال المدينة وجنوبها ضد النبي ﷺ.

ففي شمال المدينة تتمركز غطفان ومن يدور في فلكهم من العرب، وفي جنوب المدينة قريش وحلفاؤهم.

وحيي يريد أن يؤلب هؤلاء وهؤلاء، وغير هؤلاء وهؤلاء على النبي ﷺ بعد أن يدخلهم جميعًا في حلف، يكون هو الذي يضع بنوده ويحدد إطاره.

غير أن حيي قد فكر طويلًا في الطريقة التي يتبعها في إغراء هؤلاء وهؤلاء.

ولم يستمر حيي طويلًا حتى أملى عليه شيطانه ما ينبغي عليه فعله، ووضح شيطانه أمامه الطريق وضوحًا تامًا لا يخطئ معالمه.

أما قريش: فإن نقاط الارتكاز في دعوتهم لا تحتاج إلى عبقري حتى يدركها.

فقريش كما علمت أصحاب مصالح تجارية يحتاجون إلى سوق يستوعب تجارتهم، والمدينة المنورة فيها من التكتل السكاني ما يغري أرباب الأموال بالحفاظ عليهم سوقًا مفتوحة تستوعب بضاعتهم وتربح أموالهم، وتجارتهم في الوقت نفسه تأخذ كل عام طريقها إلى الشام، وهي مضطرة للمرور على المدينة ذهابًا وإيابًا، وليس من مصلحتهم تزايد قوة النبي ﷺ في هذه البقعة من الأرض.

وقريش في الوقت نفسه بينهم وبين النبي ﷺ والمسلمين عداوات وثارات، خلَّفتها غزوة بدر الكبرى أولًا، وساهم فيها ما حدث يوم أُحُد.

وليس بصحيح ما توهمه بعض القرشيين، من أن معركة أُحُد قد أعادت إلى قريش هيبتها بين العرب، وإنما الصحيح أن معركة أُحُد قد ماعت، لا يحسب فيها النصر لأحد الفريقين على الآخر، وإنما كل فريق منهم يمكن له أن يعزي نفسه بقوله لإخوانه: لا تحزنوا فإنهم يألمون كما تألمون.

ويمتاز المسلمون المصابون في أُحُد بأنهم يرجون من الله ما لا ترجو قريش، وهم فوق ذلك قد تابعوا قريشًا بعد المعركة وساروا في أثرها يطاردونها، حتى ألجأوا زعيمها أبا سفيان أن يأمر أصحابه بأن يجدوا في المسير، حتى لا يدركهم المسلمون.

وبقيت ثارات قريش تلح عليهم أن ينتقموا لقتلاهم يوم بدر ويوم أُحُد، وبقيت هيبتهم في نفوس العرب والتي أضاعها النبي ﷺ من بين أيديهم تلح على قريش أن يعملوا على استردادها.

وقريش بعد كل ذلك وقبله سَدَنَةُ البيت العتيق وأصحاب الزعامة الدينية في مكة يؤمهم الناس حاجين ومعتمرين، ثم هم لا ينصرفون عن مكة إلا وقد أثروها ماديًّا واجتماعيًّا بالبيع والشراء، وإقامة الأسواق الأدبية والمهرجانات الثقافية.

أمور كثيرة، وأسباب متعددة تخلق المناخ المناسب يزرع فيه حيي بذور خُبثه، ويبذر فيه بذور حقده، ويغرس فيه شتلات الضغينة التي لا تنبت إلا مر الثمار.

وذهب حيي بالفعل إلى قريش يعدهم ويمنيهم، ويحملهم على الشر حملًا، وهم يُقبلون عليه مرة، وينصرفون عنه مرات، وهو طويل النفس في نفث سمومه، وينسج على منوال الفتنة الشر لُحمته وسداه.

وهو في كل محاولة يضغط على مثير من المثيرات التي تهيج قريشًا، حتى سألوه وهم في قمة هياجهم: أنتم يهود وأهل كتاب، وعندكم من العلوم الدينية ما ليس عندنا ولا عند محمد، وعندكم من معايير

الترجيح بين الديانات ما لا يخطئ في مجال الترجيح فتيلًا ولا قطميرًا، وإنا نسألك ونسأل حاخامات اليهود معك عنا وعن ديانتنا، وعن محمد ودينه، أينا أفضل عند الله، وأقوم للعيش على هذه الأرض، وأقدر على قيادة العرب، وأحق بالزعامة والقيادة؟

قال حيي ومن معه: يا معشر قريش إنه لا مجال للمقارنة، إنكم بوثنيتكم وعبادتكم للأصنام أفضل من محمد ومن معه على توحيدهم ونبذهم الشرك.

وقريش قد امتلأت زهوًا بما سمعته من شهادة أهل الكتاب وانحيازهم لهم.

أرأيت يا صاحبي إلى الشرك أين يذهب، وإلى الضلال والغاية التي ينتهي إليها؟!

أما أنا فإني أرى القرآن الكريم ينعي على هؤلاء النفر من اليهود صنيعهم، ويقبح فعلتهم حين يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء].

وأما أنا فإني قد اطلعت على كلام أبناء جلدتهم، فرأيت لبعضهم كلامًا يلومون فيه حيي وأتباعه أشد اللوم، حيث قبح صورتهم في التاريخ حين وقف يرجّح ـ على غير معيار ـ ديانة الوثنية في مكة على ديانة التوحيد في المدينة.

وهاك عبارته من كتاب تاريخ اليهود في بلاد العرب [ص ١٤٢] أنقل لك منه هذا النص، وهو موصول بما قبله: [.. لكن الذين يلامون عليه بحق والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بني قريش الوثنيين، حيث فضَّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية.

نعم إن ضرورات الحروب أباحت للأمم استعمال الحيل والأكاذيب والتوسل بالخدع والأضاليل للتغلب على العدو، ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش هذا فضلًا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة].

وأيًّا ما كان الأمر في تقييم حيي ومن شايعوه من اليهود، فإنه في كل حال قد عرف الطريقة إلى تأليب قريش على النبي ﷺ، ومعهم حلفاؤهم من بني كنانة وأهل تهامة، في صدورهم حماستهم تدفعهم الرغبة في تأمين تجارتهم وفتح أسواقهم، واسترداد هيبتهم ومكانتهم.

وأما غطفان: ومن شايعهم من أهل نجد، فلم يكن بينهم وبين النبي ﷺ ثارات ولا حروب، ولا حتى خلافات، وليست المدينة في طريقهم إن أرادوا أن يذهبوا إلى الشام أو يعودوا منها، ولا غير ذلك من الأمور التي ارتكز عليها حيي، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع حين ذهبوا إلى قريش يألبونهم على النبي ﷺ، ويغرونهم به.

وهنا يجد حيي ومن شايعه من الرجال أنفسهم في حاجة إلى أسلوب جديد يثيرون به غطفان ومن معهم ضد النبي ﷺ في المدينة.

وأجهد الرجال أنفسهم في البحث عن هذا الأسلوب، ولم يجدوا لذلك سبيلًا يصلون به إلى نفوسهم، سوى أن يجعلوا لهم جُعلًا، أو يحددوا لهم أجرًا.

والأجر المقترح عرضه على هؤلاء هو: أن يقولوا لغطفان ومن معهم: اجتمعوا معنا على قتال النبي ﷺ ولكم ثمار خيبر جميعها عامًا كاملًا.

وغطفان قد أغراهم هذا العرض من حيي ورفاقه، واجتمعت كلمتهم على أن يجيبوا اليهود على ما أرادوه.

ملاحظة لا تخطئك: وحين اجتمع لحيي ورفاقه من يهود بني النضير، ما أرادوه من تأليب العرب على النبي ﷺ ودعوته في المدينة، واجتمع له حلفاؤه من جنوب المدينة وشمالها، قابلته مشكلة لم تسعفه قريحته أن يتغلب عليها، وهي: أن العرب الذين ألبهم حيي ليسوا على هدف واحد في حروبهم ضد النبي ﷺ، إذ قد علمت أن لقريش أهدافها، ولغطفان ومن شايعهم من أهل نجد هدفها، الذي لا يعدو أن يكون جُعلًا ينالهم خيره، أو أجرًا يستحقونه بعد غلبتهم للنبي ﷺ أن يأخذوه.

وطالما توزعت الأهداف، واختلفت المقاصد، وتبعثرت الدوافع، فإن اجتماع الجنود يكون هشًا يطيح به قليل من الإعصار، وشيء من الوهن.

وإعضال آخر قد قابل حييًّا ورفاقه، وهو: أن العرب في طباعهم أن كل قبيلة منهم لا تسلم زمام قيادها إلى قبيلة أخرى بسهولة، وإنما كل قبيلة منهم ترى أنها أولى بالقيادة، وأقدر على الزعامة، وأن ما دونها من القبائل لا يتاح لهم إلا أن يتبعوها، ويسيروا في فلكها، ويخضعوا لزعامتها وقيادتها.

وتلك مشكلة متأصلة في العرب منذ القديم وإلى اليوم، وهي مشكلة أعيت حييًّا لم يستطع منها فكاكًا، ولم يجد له منها مخرجًا.

وهذه المشكلة التي أعيت حييًّا ورفاقه كانت أولى بشائر النصر للمسلمين، وطلائع الفوز لهذا الدين الجديد الذي أذاب هذه الخصلة في قلوب تابعيه، وأصبح الأوس والخزرج ـ على ما كان بينهم من خلاف في الجاهلية ـ يدينون بالقيادة للنبي ﷺ، لا يفكر واحد منهم في زعامة، ولا في عصبية، وإنما كل واحد منهم يريد أن يموت بين يدي النبي القرشي ﷺ، ويحظى بالشهادة والنبي ﷺ يشهد له بها.

والمهاجرون على اختلاف قبائلهم وتنوعها، قد رضوا أن يكون النبي ﷺ إمامهم لا يختلفون عليه، ولا يطمعون بين يديه إلا في رضا الله ﷻ.

وهكذا اجتمعت أمام حيي أمور أعيته وضايقته، فلم يكن له من بد إلا أن يتجاوزها، وأن يسرع بجمع الحلفاء في مدينة رسول الله ﷺ زاعمًا أنه بأيديهم سوف يبطش البطشة الكبرى».

[**رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١١٥-١٢١**].

٨ ـ انحراف اليهود عن التوحيد:

يقول د/ أبو فارس معلِّقًا على الحوار بين قريش واليهود:

١ـ إن سؤال قريش للوفد اليهودي عن دينها يدل على ضعف هذا الدين في نفوس أصحابه، وقلة ثقتهم به، وعدم اطمئنانهم لما يدينون به أنه الحق، فأرادوا أن تطمئنهم يهود ولو مجاملة بذلك.

٢ ـ ويؤخذ من موقف اليهود وجوابهم على سؤال قريش بأن لا وزن للدين عند اليهود إذا تعارض مع مصالحهم وأهوائهم، بل هم يزيفون الحقائق الدينية ويحرفون كلام الله لخدمة أغراضهم الخبيثة وأهوائهم المنحرفة، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦].

إن القارئ الكريم يلمس من هذا الموقف السياسة الميكيافلية عند اليهود، إذ الغاية تبرر الوسيلة، ومن ثم فلا ينظرون إلى نظافة الوسيلة ونبلها، فلا مانع لديهم أن يسلكوا كل وسيلة خسيسة قذرة ما دامت تساعد على تحقيق غايتهم، فلا غرو إذن أن يكذبوا ويقلبوا الحقائق ويفضلوا الكفر على الإيمان، والشرك على التوحيد من أجل إرضاء الكافرين ليستجيبوا إلى تحريضهم لقتال المسلمين.

٣ ـ إن المنطق الإيماني والمنطق العقلي يقضيان أن تتقارب وجهات نظر اليهود والمسلمين؛ لأن المشكاة واحدة، والمصدر واحد، فالقرآن من عند الله، والتوراة من عند الله، والوثنية ديانة تناقض العقيدة الربانية التي جاء بها القرآن والتوراة قبل أن تعبث بها أيدي اليهود.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف يفضل اليهود الوثنية وعبادة الأصنام على دين الإسلام الذي دعا الناس إلى الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك؟

نعم إن الذي أعمى أبصار يهود وبصائرهم عن هذه الحقيقة وغيرها حقدهم على الإسلام وأهله، وحسدهم لرسول الله ﷺ على نعمة الرسالة والنبوة التي مَنَّ الله عليه بها، قال تعالى فاضحًا نواياهم: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[النساء: ٥٤].

ولهذا الموقف وغيره استحقوا الطرد واللعنة من الله سبحانه، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[النساء]». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٨٥-٨٧**].

ويقول د/ الوكيل: «لقد كشفت هذه الإجابة عن حقد دفين طغى على كل مقدسات اليهود، وأعماهم عن أصل عقيدة التوراة وهو التوحيد، فتركوا عقيدتهم لإطفاء غل صدورهم، ونزل القرآن الكريم يندد بهذا الموقف المخزي، ولعنهم لعنا كبيرًا فقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

لم يكن القرآن الكريم وحده هو الذي وقف من اليهود هذا الموقف، بل إن كثيرين من بني جلدتهم قد عابوا عليهم موقفهم هذا، واعتبروه خروجًا على عقيدة اليهود ـ التوحيد ـ وتجافيًا لمبدأ أساسي من مبادئ الدين اليهودي، وكان من أبرز الذين عابوا على اليهود هذا الموقف المؤرخ الإسرائيلي في العصر الحديث الدكتور إسرائيل ولفنسون، كما سبق إيراد قوله». [**تاريخ اليهود لولفنسون ١٤٢ - ١٤٣**].

لم يرد اليهود من وراء هذا الكذب القبيح سوى تنشيط المشركين للدخول في حرب مع المسلمين، وقد تحقق لهم ذلك، وعقدوا اتفاقية عسكرية كان اليهود وقريش وغطفان من أبرز أعضائها».

[**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٧٣**].

٩ ـ الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل:

يقول د/ أبو خليل: «وقول اليهود هذا يخالف عقيدتهم ودينهم الداعي إلى عبادة الله الواحد، إن تقديمهم دين قريش وتحسينه، وجعله أهدى سبيلًا وهو الدين الوثني يوصلهم إلى هدفهم وغرضهم الذي يشغلهم ويفتت كبدهم، ألا وهو محاربة المسلمين وطردهم من المدينة، وإعادة إخوانهم إلى ديارهم، بل إن الهدف أبعد وأشمل: «**إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ**».

وكان خيرًا لهم أن يعيشوا مع المسلمين في عهودهم التي ضمنها الإسلام منذ وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة، حيث تمتعوا بحق المواطنة كاملًا، من مؤامراتهم ووقوفهم دائمًا في الصف المعادي للمسلمين.

ولكن، إن انتصار الوثنية في جزيرة العرب انتصار لأهدافهم، فمع المنة والفضل على قريش، يحققون أطماعهم المادية والسياسية.

يقول الأستاذ (ولفنسون) في كتابه تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ١٤٢: «والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بني قريش الوثنيين، حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية».

والذين قالوا لقريش هذا، هم سادة اليهود وزعماؤهم وعلماؤهم، فهم يمثلون قومهم كافة؛ لذلك فهم يستحقون عقابًا وتأديبًا.

وهذا يدل على أن العلم وحده لا يكفي، يحتاج الإنسان إلى نور العلم، وروح العلم، والتفاعل الصادق مع العلم وبالتالي اتباع العلم: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الجاثية].

ولذلك كان من الدعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ أَرِنِي الحَقَّ حَقًّا وَوَفِّقْنِي لِاتِّبَاعِهِ، وَأَرِنِي البَاطِلَ بَاطِلًا وَوَفِّقْنِي لِاجْتِنَابِهِ**».

العلم وحده غير كاف، فمع العلم يحتاج الإنسان إلى مخالفة الهوى، ومخالفة النفس لاتباع الحق أينما وجد.

ولم يضر الإسلام شيئًا عدم التزامهم واتباعهم له، وهم لو اتبعوه، ما خسروا شيئًا، فموسى ﷺ مقدَّس مكرَّم في القرآن الكريم، وهم يعرفون ويعلمون أنه رسول الله حقًّا وصدقًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[البقرة]».

[غزوة الخندق لأبي خليل ٦٦-٦٨].

١٠ ـ الكفر كله ملة واحدة:

يقول الشيخ المسند: «الكفر كله ملة واحدة، فمن لم يكن مع المؤمنين فهو ضدهم سواء كان منافقًا أو مشركًا أو ملحدًا أو كافرًا، فكل هؤلاء لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم.

وقد تظافر على حرب المسلمين المشركون والمنافقون واليهود، وكانوا جميعًا يتمنون أن يزول المسلمون لينتهي الإسلام من الأرض، ولكن الله أراد الإسلام لعباده دينًا لا دين لهم سواه، وهذا أعظم درس للمسلمين في حال الحرب وفي حال السلم حتى يأخذوا أهبتهم ويحسبوا حسابهم لمن بين أظهرهم ومن يجاورهم ومن يتعامل معهم، وليعلموا أن أعداءهم يعرفون الإسلام ويعلمون نهجه ويدركون أهداف المسلمين ويعلمون تمام العلم أنه لو ساد الإسلام في الأرض فلن يبقى لهم مجال للسيطرة على العالم؛ فلذلك يحاربونه ويتفقون ضد أهله، ويخططون لتعمية أهدافهم عن المسلمين وهم متفقون عليها سلفًا. ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾[الأحزاب]». [متى ينتصر المسلمون؟ للمسند ٧٧-٧٨].

ويقول د/ الزيد: «لقد خرج قادة اليهود من خيبر إلى مكة وإلى المشركين من قبائل العرب والتقوا جميعًا على حرب الرسول ﷺ، فمع اختلاف أديانهم وعقائدهم إلا أن حرب الإسلام والمعاداة لهذا الدين جمعتهم، فالكفر ملة واحدة وكلهم أعداء لهذا الدين لا يألون جهدًا في محاربته ومعاداته».

[فقه السيرة للزيد ٤٩٨].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد أكد هذه الحقيقة تضامن يهود بني النضير ويهود بني قريظة والمنافقين وكفار قريش وغطفان وسائر قبائل المشركين واجتماعهم جميعًا لحرب المسلمين واستئصال شأفتهم.

هذا وينبغي أن يعلم القارئ أن اليهود في نظر الإسلام كفار مخلَّدون في النار لقوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران].

وكذلك النصارى يُعتبرون كفارًا مخلَّدين في النار، وإن كان لهم أحكام خاصة في الحياة الدنيا كجواز نكاح نسائهم وحِل ذبائحهم». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٣].

ويقول الشيخ عرجون: «وهؤلاء الطوائف الذين كانوا في سابق التاريخ يقفون من الإسلام مواقف العداء قد تركوا ميراثهم في ذلك لربائبهم وتلاميذهم من الملاحدة والزنادقة والصليبية المتعصبة والشيوعية الفاجرة، واليهود الغادرين، والمنافقين الذين يظهرون في إطار العلم الاستشراقي، ومن أخذ عنهم من شباب الإسلام الجغرافي.

وكل أولئك داخل فيمن ذكرته الآيات التي جاءت في صدر سورة الأحزاب لمناسبة الحديث عن غزوتها التي كانت في الماضي آخر غزوات الهجوم الكفور على المجتمع المسلم، وقد شمر وارثو ضلالاتهم في أقطار الأرض ليقفوا من الإسلام اليوم مواقف غابريهم من أهل الكفر والضلال في شتى صوره وأشكاله، والكفر كله ملة واحدة، وشره النفاق». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٦٨].

ويقول د/ زين السيد: «ولا عجب أن يحدث ذلك التواطؤ من قوى الشر على حرب الإسلام ومحوه من الوجود؛ لأنه مستهدف من قِبَل أعدائه حيث إنهم يحاولون طمسه بشتى الوسائل سواء كان ذلك في القديم أو في الحديث، ولئن كان المسلمون قديمًا يعانون من قوى الشر فالمسلمون في العصر الحاضر يلقون نفس المعاناة من أصحاب المذاهب الهدامة وعلى رأسهم اليهود، فهم في كل زمان ومكان وراء كل زي من أزياء الفكر والعقيدة والسلوك ما دام لهم في رواجه منفعة، وهم أحرص على ترويجه إذا كان يحقق لهم المنفعة ويجلب لغيرهم الضرر، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة.

ولئن كان المسلمون قديمًا قد وقفوا بصلابة وشراسة في وجه أعدائهم حتى خيبوا آمالهم وهيأوا للإسلام سبيل الظهور والانتشار فأولى بالمسلمين اليوم أن يقتدوا بأسلافهم وأن يتعاونوا فيما بينهم ضد كل قوى الشر والطغيان التي تحاول بشتى الوسائل القضاء على الإسلام وطمس معالمه حتى يبدد المسلمون آمال هؤلاء الأعداء.

والإسلام قادر دومًا على الخروج من أية أزمة مهما استعصى حلها؛ لأنه النظام الذي يربط بين كل ألوان النشاط البشري ويوحد بينها في الاتجاه». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٥٠-١٥١].

ويقول أ/ رضوان: «استعد المسلمون لملاقاة أعظم قوة حشدها العرب واليهود ضدهم، واشترك فيها العرب واليهود معًا، وكان الهدف من حشد هذه القوة هو القضاء على الإسلام والمسلمين ورسول الإسلام، وإطفاء نور أمة الإسلام الذي أشرق بالتوحيد والرحمة والعقل والحكمة والإخاء والمساواة والحرية والتسامح والعلم والإيمان والحضارة، وتكريم الإنسان، والشورى بين الحاكم والمحكوم، وحرية الرأي والفكر والعقيدة». [**محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨٨**].

١١ ـ ديدن الكفار في جميع الأحوال تدمير الإسلام وإبادة أهله:

يقول د/ أبو فارس: «الكفار واليهود يحافظون على العهود مع المسلمين إذا كانوا ضعافًا، وهذه المحافظة ليست لطيب نفوسهم وحبهم للوفاء بالعهد والوعد والعقد، بل لعجزهم عن الأذى، وإلحاق الضرر بالمسلمين.

ومع هذا فلا يسكتون وهم ضعفاء، بل يسلكون أسلوب التشكيك باللسان وقد عجزوا عن استعمال السنان.

إن الكفار واليهود إذا شعروا بقوة لهم، وضعف المسلمين فإنهم لا يَرْقُبون في مؤمن إلًّا ولا ذِمَّة، وينقلبون إلى وحوش كاسرة، يفقدون آدميتهم.

وتمسُّك بني قريظة بالعهد بادئ ذي بدء لم يكن لطيب معدنهم، أو حبهم للوفاء بعهودهم، أو حسن سلوكهم، وإنما لأنهم كانوا يشعرون بضعفهم، وعدم قدرتهم على الوقوف في وجه المسلمين ومجابهتهم، ولما سنحت لهم الفرصة في ظنهم وتقديرهم وأنهم مع الأحزاب سيدمرون الإسلام ويبيدوا أهله، نقضوا العهد مع الرسول ﷺ ومزقوا الصحيفة التي كتبها لهم، بل وأنكروا أن هناك عهدًا بينهم وبين الرسول ﷺ، ونالوا منه ﷺ.

وهذا ديدنهم في جميع الأحوال.

والنصارى لا يقلون في خطرهم وحقدهم على رسول الله ﷺ عن اليهود، فلقد كرهوا رسول الله ﷺ من أول يوم وناصبوه العداء، وقتلوا سفيره الحارث بن عمير الأزدي ؓ، واشتبكوا مع المسلمين في مؤتة، وأخذوا يستعدون للانقضاض على الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية، فجهز النبي ﷺ جيشًا قوامه ثلاثون ألف مقاتل وسار إلى تبوك فلم تجرؤ الدولة الرومانية الصليبية أن تشتبك معه، وانسحبت جيوشها إلى العمق، فأخذ الجزية من الإمارات المحاذية لحدود الدولة الشمالية وعاد سالـمًا غانمًا.

وبعد أن التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وجاء الخلفاء من بعده قضوا على دولة الرومان في بلاد الشام في المعركة الحاسمة المشهورة معركة اليرموك.

سكن النصارى بعد ذلك لعدم قدرتهم على القتال إلا أنهم لم يسكنوا في مجال الفتنة والتشكيك، وبذر بذور الفتنة في صفوف المسلمين.

ويحدثنا التاريخ بأن رجلًا اسمه يوحنا الدمشقي كان يجمع النصارى في عهد بني أمية، في اجتماعات سرية، يلقنهم أساليبه الخبيثة في كيفية تشكيك المسلمين بعقائدهم، وبرسولهم محمد ﷺ، بإثارة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، وزواجه أكثر من أربع نسوة. [**الإمام أبو حنيفة ـ للشيخ محمد أبو زهرة**].

وظل الأمر على هذه الحالة حتى دب الضعف في صفوف المسلمين فانقلبوا وحوشًا كاسرة، تعاونوا مع الغزاة الفاتحين ضد المسلمين، فاضطهدوهم وآذوهم.

يحدثنا ابن تغري بردي الأتابكي في كتابه النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة عن موقف النصارى في بلاد الشام عندما غزا التتار بلاد الشام فيقول: (وذهب بعضهم إلى هولاكو وجاؤوا من عنده بفرمان يتضمن الوصية بهم، والاعتناء بأمرهم، ودخلوا بالفرمان من باب توما، وصلبانهم مرتفعة، وهم ينادون بارتفاع دينهم، واتضاع دين المسلمين، ويرشون الخمر على الناس وفي أبواب المساجد، وكانت النصارى في تلك الأيام ألزموا المسلمين بالقيام في دكاكينهم للصليب، ومن لم يقم أحدقوا به وأهانوه، وقام بعضهم وخطب وفضل دين النصارى ووضع من دين الإسلام). [**النجوم الزاهرة ٧/ ٨٠ ـ ٨١**].

هذه هي أخلاق النصارى، وهذا بعض ما تخفي صدورهم يظهر على أفواههم، ومن أفعالهم إذا ألمت بالمسلمين نازلة، قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

نعم إن التاريخ يحدثنا عن جرائمهم التي ارتكبوها ضد المسلمين حينما حانت الفرص لهم.

ماذا فعلوا بالمسلمين في الأندلس حينما أصبحت الجولة لهم؟!

يخبرنا عن أفعالهم البربرية المتوحشة كاتب نصراني فرنسي هو **الدكتور غوستاف لوبون**، فقد جاء في كتابه (**حضارة العرب**) في حوادث سنة ١٤٩٩ قوله: (وكان تعميد العرب كرهًا فاتحة ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بحرق الكثيرين، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر حرق الملايين من العرب دفعة واحدة، ونصح كردينال طليطلة التقي، الذي كان رئيسًا لمحاكم التفتيش بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالًا ونساء وشيوخًا وولدانًا... وقررت إسبانيا تهجير العرب من إسبانيا، فقتل أكثر مهاجري العرب في الطريق، فأبدى ذلك الراهب بيلدا ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع أولئك المهاجرين في أثناء هجرتهم، وهو الذي قتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠٠٠٠ مهاجر مسلم.

ويختتم كلامه قائلًا: ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين). [**حضارة العرب ص ٤٠٢**].

أما عن أفعالهم البشعة في بيت المقدس فيقول: (فكان من أحب ضروب اللهو إليهم قتلُ من يلاقونهم من الأطفال وتقطيعهم إربًا إربًا وشَيُّهم، كما روت آن كوفين بنت قيصر الروم».

[حضارة العرب ص ٣٩٨]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٣-١٤٦].

١٢ ـ أبو جهل يهود حيي بن أخطب:

يقول د/ الغضبان: «لقد كانت عبقرية التخطيط في هذه الغزوة لأبي جهل يهود حيي بن أخطب، واسم أبي جهل هذا أطلقه عليه المسلم العظيم محمد بن كعب القرظي ﷺ إذ يقول فيه: «**كَانَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ رَجُلًا مَشْؤُومًا، هُوَ شَأْمُ بَنِي النَّضِيرِ قَوْمُهُ وَشَأْمُ قُرَيْظَةَ حَتَّى قُتِلُوا، وَكَانَ يُحِبُّ الرِّئَاسَةَ وَالشَّرَفَ عَلَيْهِمْ، وَلَهُ فِي قُرَيْشٍ شَبَهٌ، أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ**». [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٥].

وأين كان حيي ومن معه حتى جاؤوا إلى مكة؟

يقول ابن إسحاق على أعقاب غزوة بني النضير: «فَكَانَ أَشْرَافُهُمْ مَنْ سَارَ مِنْهُمْ إِلَى خَيْبَرَ: سَلَامُ بْنُ أَبِي الحُقَيقِ وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الحُقِيقِ، وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، فَلَمَّا نَزَلُوهَا دَانَ لَهُمْ أَهْلُهَا».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٦٩].

فقد كان مركز تجمعهم خيبر، وانضم إليهم أبو عامر الفاسق الذي لم يستشف غِلَّه وغيظه في أُحُد حين خذله قومه ولم يجيبوه، وانضم إليهم سادة يهود بني وائل.

يقول الواقدي: «لَـمَّا أَجْلَى رَسُولُ الله ﷺ بَنِي النَّضِيرِ سَارُوا إِلَى خَيْبَرَ، وَكَانَ بِهَا مِنْ اليَهُودِ قَوْمٌ أَهْلُ عَدَدٍ وَجَلَدٍ وَلَيْسَتْ لَهُمْ مِنْ البُيُوتِ وَالأَحْسَابِ مَا لِبَنِي النَّضِيرِ ـ كَانَ بَنُو النَّضِيرِ سِرَّهُمْ وَقُرَيْظَةُ مِنْ وَلَدِ الكَاهِنِ مِنْ بَنِي هَارُونَ ـ فَلَـمَّا قَدِمُوا خَيْبَرَ خَرَجَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وَكِنَانَةُ بْنُ أَبِي الحُقَيْقِ، وَهَوْذَةُ بْنُ الحُقَيْقِ، وَهَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ الوَائِلِيُّ مِنْ الأَوْسِ مِنْ بَنِي خَطْمَةَ، وَأَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ فِي بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا إِلَى مَكَّةَ يَدْعُونَ قُرَيْشًا وَأَتْبَاعَهَا إِلَى حَرْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَقَالُوا لِقُرَيْشٍ: **نَحْنُ مَعَكُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمَّدًا**.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: هَذَا الَّذِي أَقْدَمَكُمْ وَنَزَعَكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ جِئْنَا لِنُحَالِفَكُمْ عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ وَقِتَالِهِ.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **مَرْحَبًا وَأَهْلًا، أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْنَا مَنْ أَعَانَنَا عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ**.

قَالَ النَّفَرُ: **فَأَخْرِجْ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا أَنْتَ فِيهِمْ وَنَدْخُلُ نَحْنُ وَأَنْتُمْ بَيْنَ أَسْتَارِ الكَعْبَةِ، حَتَّى نُلصِقَ أَكْبَادَنَا بِهَا، ثُمَّ نَحْلِفُ بِالله جَمِيعًا لا يَخْذُلُ بَعْضُنَا بَعْضًا، وَلتَكُونَن كَلِمَتُنَا وَاحِدَةً عَلَى هَذَا الرَّجُلِ مَا بَقِيَ مِنَّا رَجُلٌ**.

فَفَعَلُوا فتَحَالَفُوا عَلَى ذَلِكَ وَتَعَاقَدُوا». [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤١-٤٤٢].

إن الهدف الذي يشفي غيظ قلوب اليهود محددًا ولا يقبل التعدد، إنه الاستئصال التام من الجذور (**نَحْنُ مَعَكُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمَّدًا**)، وهو هدف لم يتغير ولم ولن يتبدل على مر العصور، وهذا الهدف قد

أعلنه حيي بن أخطب مذ لحظة وصول رسول الله ﷺ المدينة، حيث قال له أخوه أبو ياسر: **فَمَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ؟ قَالَ: عَدَاوَتُهُ وَاَللهِ مَا بَقِيتُ**».

والجانب الثاني العجيب هو هذه الجرأة السافرة على الله، والوقاحة في عملية تأكيد التحالف على الحرب، هو أن يخرج خمسون من بطون مكة مع هؤلاء البضعة عشر من اليهود ويدخلوا تحت أستار الكعبة متعاهدين متواثقين ـ وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة ـ على حرب محمد ﷺ.

وحيي بن أخطب طاغوت يهود يعلم أن محمدًا ﷺ حق منذ لحظة وصوله المدينة.

حيث قال له أخوه أبو ياسر: **أهو؟** قال: **هو هو.**

إنه هو هو الذي في كتبهم وأسفارهم، وهو الذي بشَّر به موسى وعيسى عليهما السلام، وهو الذي يتوكفون قدومه، وهو النبي الحق المرسل من عند الله، ومع ذلك يجرؤ أن يقود هؤلاء الطواغيت الصغار معه، وأن يقود قريش لحرب رسول الله ﷺ، بل يجرؤ أكثر من ذلك أن يدخل تحت أستار الكعبة، ويلصق كبده فيها معاهدًا قريشًا على حرب المصطفى ﷺ.

وهو يعلم أن محمدًا ﷺ حق، أما يخشى أن يمسخه الله وحزبه قردة خنازير كما مسخ أجداده، ولكن حب الزعامة يعمي ويصم.

ونقف عند هذا المشهد من جانب آخر، فالحلف بين اليهود أهل الكتاب الأول وبين عبدة الأصنام والأوثان على حرب النبي الذي بشَّرت به كتب اليهود، وهو حلف يحرص على ستار القداسة وستار الشرعية، ولا مكان لتغليظ العهد إلا عند الكعبة، لقد اكتفى أبو جهل قريش بالأخذ بحلق الكعبة، على أن يدعو قائلًا: **اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة.**

أما أبو جهل يهود فقد تجاوز أبا جهل قريش، ودعا إلى الالتصاق بالكعبة مباشرة لتوثيق الحلف والحرب ضد رسول الله ﷺ، فهل هناك أقدس من هذه الراية؟

واهتبلها أبو سفيان فرصته، ليأخذها فتوى من الأحبار والرهبان الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.

ولابد أن يشعر حَمَلة العقيدة، أن الحرب المسعورة التي يشنها عليهم الطواغيت من اليهود ومن الحاكمين كثيرًا ما تتخفى تحت أستار الدين، وكثيرًا ما تنطلق باسمه، وكثيرًا ما تحمل شعاراته، وهذا من أوقح النماذج التي تبرز ذلك، فهم يشهدون لعبدة الأوثان والأصنام بالهدى، وهم حَمَلة الكتاب الأول، وهم ورَّاث دين الله في الأرض، وقادهم الصراع على السلطة إلى هذه المواقع الآثمة.

والمبدأ الثالث الذي يبرز أمامنا في هذا الحلف الدنس هو الذي قرره أبو سفيان: **أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْنَا مَنْ أَعَانَنَا عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ،** فهي المفاصلة الكاملة بين الفريقين والحزبين، حزب محمد ﷺ وصحبه وحلفائه، وحزب الشيطان والطاغوت، وعلى رأسه حيي وبنو الحقيق، وأبو عامر الفاسق وأبو سفيان بن حرب.

ثلاثة مبادئ خارجة من إطار الزمان والمكان ما أحوج المؤمنين إلى أن يعوها:

المبدأ الأول: هدف أعداء الإسلام الاستئصال الشامل من الجذور: (**نحن معكم حتى نستأصل محمدًا، ولتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقي منا رجل**).

المبدأ الثاني: الرايات الدينية المزيفة التي تحارب الإسلام ودعاته باسم الدين وباسم الإسلام وبشعارات الإسلام: (فالعهد بين أستار الكعبة، وعلى رأسه أحبار يهود وورثة الحنيفية ودين إسماعيل كما يزعمون).

المبدأ الثالث: المفاصلة التامة بين الدعاة والطغاة (**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْنَا مَنْ أَعَانَنَا عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ**)». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٠-١٣].

١٣ ـ رعاية الله ﷻ ونصره لأوليائه:

يقول د/ المدخلي: «بعد أن اجتمع الوفد اليهودي بقيادة زعيمهم الحاقد حيي بن أخطب بقواد قريش وزعمائها، وبعد أن رجعوا فرحين بما جاء به ذلك الوفد المشؤوم الذي كشف الله أمره، ولعنه.

بعد ذلك كله اجتمع زعماء قريش في دار الندوة للمشاورة وخرجوا بقرار نهائي هو الموافقة على ما أراده اليهود منهم، وقد صادف هوى في نفوسهم ألا وهو استئصال الإسلام والقضاء على حامليه كما كانوا يعتقدون ذلك؛ لأن نظرتهم كانت تغتر بالعدد الكبير الذي حشدوه إلى أرض المعركة، ونسوا أن النصر من عند الله، وأنه هو الذي نصر المؤمنين مع قلتهم في بدرٍ وغيرها.

تجاهلوا ذلك كله، وكان يراودهم أمل متعلق بالكثرة الكاثرة التي ذهب اليهود من أجلها إلى غطفان وبقية القبائل المعادية للإسلام في ذلك الوقت.

ولكنهم كما قال الله ﷻ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

وهم مع ذلك لا يعلمون أن الله ﷻ قال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩].

والخندق في الحقيقة نصر من الله حيث ألهمهم الله إلى حفره وأعانهم على سرعة إنجازه، فكان حاجزًا حصينًا، ولكي يبين الله ﷻ لأعداء المسلمين من منافقين وكفار أن النصر بيد الله وليست بالكثرة، وأنه متى كان الله ﷻ مع فئة ولو قليلة تكون لها الغلبة في النهاية؛ ذلك لأن هذه الفئة القليلة تقاتل عن عقيدة سامية ومبدأ عظيم ألا وهو الإسلام». [مرويات الخندق للمدخلي ٢٠٩-٢١٠، ٣٢٠].

١٤ ـ توظيف العصبيات وتوجيهها لخدمة الإسلام:

يقول أ/ حوى: «أسوأ القادة هم الذين لا يستطيعون أن يسيطروا على العصبيات، فضلًا عن أن ينزلوا في حمأتها، وأفضل القادة هم الذين يعرفون خصائص الناس ويعرفون لكل حقه ويستطيعون أن يضعوا

الإنسان المناسب في المكان المناسب ويحسنون توجيه الطاقات، ولقد كان رسول الله ﷺ في كل شيء هو الأرقى، ومن ذلك هذا الجانب، فالجزيرة العربية مهد العصبيات، العصبية للأسرة وللشعب وللقبيلة، ورسول الله ﷺ محل قيادته المباشرة هم العرب، فكان لابد أن يسيطر على العصبيات وأن يصهرها بعصبية واحدة هي العصبية للإسلام وأهله، وأن يستفيد بعد ذلك من خصائص الناس ومن تنافسهم، وإنك لتجد كيف أن هذا كله قد تهيأ لرسول الله ﷺ فلم يفلت الزمام من يده مرة واحدة على كثرة المحاولات من يهود ومن المنافقين لإركاس الناس في هذه الحمأة، تجد ذلك في مواقف كثيرة وسنرى في أحداث السنة السادسة نموذجًا على ذلك، وفي تنافس الأوس والخزرج على الفضائل بما يخدم الإسلام نموذج على الجانب الآخر، ومقتل أبي رافع الذي فعله الخزرج لتكافئ الأوس في قتلها لكعب بن الأشرف بيان لهذا الجانب من حياته ﷺ في الاستفادة من العصبية بما يخدم الإسلام». [الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٧١٣].

١٥ ـ تسمية هذه الغزوة غزوة (الأحزاب) أوفق بلمحة القرآن:

يقول الشيخ عرجون: «وقد لَـمَّح القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ إلى تسمية هذه الغزوة باسم (الأحزاب) الذي يصور جوهرها في تكالب شراذم المشركين وفجَّار اليهود على المجتمع المسلم ليستأصلوه من فوق الأرض.

وتُسمى هذه الغزوة في مؤلفات الغزوات والسير غزوة (الخندق) تسمية لها باسم أول (تطور) في وسائل الدفاع الحربي أخذ به الإسلام في جهاده القتالي قبل أن يعرفه العرب؛ ليضع لمجتمعه معلـمًا من معالم الحركة المتجددة في ظل الترقي والأخذ بكل جديد صالح تتطلبه الحياة الثائرة المتجددة، باعتباره من أهم وأعظم جوانب التأهب والاستعداد لمواجهة أعداء الحق في منهج الجهاد القتالي لرسالة الإسلام، إذا ألجئ إليه المجتمع المسلم للدفاع عن دينه وعقيدته وكيانه، وإعلاء كلمة الله، ونشر رسالة الهدى والخير والإصلاح.

وقد عكس الإمام البخاري الوضع الإشاري الذي لَـمَّح إليه القرآن المجيد، فقال في الترجمة لها: بأن غزوة الخندق وهي الأحزاب، ولو عكس فقدم ما أَخَّر، وأَخَّر ما قدم لكان أوفق بلمح القرآن الحكيم.

وفي صنيعه هذا إيثار لتقديم الوسائل على المقاصد، وكان الأخذ بإشارة القرآن في تسمية هذه الغزوة غزوة (الأحزاب) أو ـ على الأقل ـ تقديم هذا الاسم على اسم (الخندق) أحرى وأقعد وأوفق.

لأن هذه التسمية التي أشار إليها القرآن تعبِّر تعبيرًا صادقًا عن الصورة التي وضع أعداء الله من المشركين وفجار اليهود هذه الغزوة في إطارها للأحداث التي جمعت حشود الشرك وعبيد الوثنية،

وأقامت دعائمها على القوة المادية من المؤن والسلاح، وأقامت عناصرها على التكالب المسعور لمهاجمة المجتمع المسلم في داره ومستقر دعوته.

ولعل الإمام البخاري رحمه الله ومن أخذ بطريقته آثر تقديم الوسيلة الجديدة اهتمامًا بالوسائل المحدثة، إيماء منه إلى أن (تطور) الحروب في حياة الأمم والدول يتطلب هذه الوسائل المتجددة باعتبارها سببًا من أسباب الأهبة والاستعداد الدفاعي المفاجئ للعدو، فيدهشه ويذهله، ويقلب عليه خططه في خوض الحروب والقتال؛ ولهذا قال فرسان الأعداء لما رأوا (الخندق) وهم يجولون بخيولهم ليشتبكوا مع كتائب المجتمع المسلم: **إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها**، وكذلك مما يلتمس للإمام البخاري في صنيعه أن الوسائل مقدمة بالطبع على المقاصد». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٣٥-١٣٦].

١٦ ـ الله أكبر .. إني أرى قصور الغرب والشرق:

يقول م/ أبو راس: «وهكذا عادت للمسلمين قوتهم بعد أن اندحرت طوائف الكفر واحدة تلو الأخرى، الأمر الذي أيقنت معه هذه الطوائف بأنها لن تسطيع أن تجابه الإسلام إلا إذا اتحدت ورمته عن قوس واحدة..

وكان أكثر «المتضررين» من رسوخ الإسلام وثباته أمام كل العواصف المجنونة التي حاولت أن تعصف به، طواغيت يهود جزيرة العرب الذين وقعوا فيما حفروه للإسلام من حفر، والذين ارتد كيدهم ومكرهم إلى نحورهم وهل يحيق المكر السيء إلا بأهله؟!

وتصدَّر لجَمْع فِرَق الكفر والطغيان، لحرب المسلمين وللقضاء عليهم نفر من قادة اليهود، ذهبوا إلى قريش يستنفرونهم لحرب رسول الله ﷺ قائلين لهم (**إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ**) وعندما انتهوا من إقناع قريش، ذهبوا إلى أعراب غطفان فعقدوا معهم ومع بعض القبائل الناقمة على الدين الجديد حلفًا مشابهًا، وهكذا نجح اليهود في جمع العرب الجاهليين لخنق من جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور ومن التفرق والتشتت، إلى الوحدة، نجحوا في جمع العرب لإطفاء مشعل النور الذي جاءهم من ربهم ليخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

ولا ألوم اليهود وهم يتحركون هذه الحركات «المكوكية» فهم يتحركون من أجل مصالحهم الدنيوية التي نذروا أنفسهم لها، وهم بحركتهم هذه يحاولون جاهدين الحفاظ على مركزهم في جزيرة العرب، ذلك أنهم اعتقدوا أن الإسلام الذي تحولت به الرسالة الربانية من بني إسحاق إلى بني إسماعيل سحبت المجد منهم، وأن هذه الرسالة إن كتب لها النجاح فإنها ستوحد العرب ليكونوا على أتقى قلب رجل منهم لتبور بذلك تجارة أسلحتهم التي كانوا يصنعونها ليقتل بها العربي أخاه العربي، ولكنني لا أفهم لماذا يستجيب العرب لليهود، ولماذا ينطلي عليهم سحرهم؟! واليهود الذين حرَّضوا العرب في جاهليتهم

الأولى هم اليهود الذين يحرِّضون العرب اليوم في جاهلية القرن العشرين أيضًا على شعلة النور وموكب الهداية، ذلك أن شعلة النور مصدرها واحد: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور].

وكذلك لأن موكب الهداية هدفه واحد إخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، من مهاوي الحسد إلى ربوع الحب لتسود المحبة بين الناس كل الناس، الأمر الذي سيدفع اليهود ثمنه غاليًا إذا عاش العالم في ظل خير أمة أخرجت للناس.

لقد همس اليهود في آذان خلفاء أبي جهل في الماضي بخطر الإسلام عليهم، وهم اليوم يهمسون في آذان خلفاء أبي جهل في الحاضر بخطر الإسلام عليهم، وهم اليوم يهمسون في آذان أحفاد أبي جهل وعلى نفس الموجات ولنفس الأهداف والأغراض، وقد يكون الهامسون ليسوا يهودًا في ظاهرهم؛ لأن العلمانية التي أرساها اليهود في أوربا ومن ثم في عالمنا الإسلامي أغفلت ذكر اسم الدين في البطاقات الشخصية! والأمثلة على ذلك كثيرة أقربها إلى الأذهان المستشار الألماني الغربي السابق «**هلموت شميت**» الذي صرح بعد فشله في الانتخابات الأخيرة التي أطاحت به «**إنه لا داعي للاستمرار في إخفاء عقيدته اليهودية؟!**».

وعلم الرسول ﷺ بالخطة وبالمكر اليهودي الذي استطاع أن يستقطب العرب ليسيروا في قرابة عشرة آلاف رجل، فلم يقيد الخوف رسول الله ﷺ ولا صحابته ولكنه دفعهم إلى الجلوس بهدوء ليستدركوا أمرهم ويضعوا خطة ترد كيد الكفر والطغيان إلى نحره بإذن الله ﷻ، فهذه المعركة ليست كغيرها من المعارك، والزج بالجماعة المسلمة في ساحة القتال في وسط هذه الجموع الحاقدة الباغية ضرب من الانتحار.

لقد استشار ﷺ أصحابه ﷢ ـ كما عودهم دائمًا ـ فأشار سلمان الفارسي ﷺ بحفر خندق عميق يحيط بالمدينة من ناحية السهل ويفصل بين المغيرين والمدافعين.

ولم يضيع ﷺ ولا أصحابه الوقت في تشكيل لجان عمل! ولجان متابعة! و..و.. ولكنه ﷺ يتقدم أصحابه لحفر الخندق.

لم يأمر الرسول ﷺ بحفر الخندق بينما يجلس هو في ظل ظليل، وماء وفير، وجو عليل، ولم يتقدم الرسول ﷺ الجمع ليقص شريط البدء بالحفر، ولم يكتف الرسول ﷺ بضرب الضربة الأولى بالمعول ثم الانصراف في وسط التصفيق والهتاف الكاذِبَيْن، ولكنه ﷺ كما قال البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ ﷺ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الخَنْدَقِ، حَتَّى [أَغْمَرَ بَطْنَهُ أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ] وَارَى

عَنِّي الغُبَارُ جِلدَةَ [بَيَاضَ] بَطْنِهِ [شَعَرَ صَدْرِهِ]، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ، فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ وَهُوَ يَنْقُلُ مِنْ التُّرَابِ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وكان الصحب الكريم يرددون خلف رسول الله ﷺ الكلمات الأخيرة من مقاطع هذا النشيد الخالد.

إن الشعور الحقيقي بالخطر على الإسلام والمسلمين هو الذي سلب النوم من جفون هؤلاء الرجال، وإن الشعور الحقيقي بالخطر على الإسلام والمسلمين هو الذي دفع هؤلاء الرجال صغيرهم وكبيرهم، قويهم وضعيفهم، صحيحهم وسقيمهم إلى العمل في حفر الخندق كل حسب طاقته وقدرته وإمكاناتهم.

وإن الرجولة الحقيقة هي التي تمثلت في شخص رسول الله ﷺ وفي أشخاص أصحابه وهم يعملون بكل اجتهاد وإخلاص مبعدين أنفسهم عن مواطن الرياء والسمعة!

لقد استغرق ﷺ في العمل مع أصحابه على الرغم من البرد القارس والأزمة الاقتصادية الخانقة التي كانت باقتراب الحصار من الممكن أن تعصف بالمدينة! لذا فلقد انتهج رسول الله ﷺ نهج رفع المعنويات، كما رأينا في بشاراته ﷺ في حفر الخندق.

وحديث الرسول ﷺ إلى أصحابه ليس حديث تخدير أعصاب، ولا حديث لفت أنظار، ووعود رسول الله ﷺ ليست كوعود القادمين من المجهول الذين وعدوا برمي العدو الصهيوني ومن يدعمه في البحر!

فالرسول القائد ﷺ يتلقى الأمر من صاحب الأمر، صاحب هذه الدعوة الحق ﷻ، وقادة الغفلة في هذه الأيام يتلقون الأمر والنهي من أعدائهم، أعداء أمتهم ودينهم.

لقد كانت كلمات رسول الله ﷺ كالفرقان حيث فرقت بين أهل الإيمان وبين أهل النفاق، أما المؤمنون فلقد قالوا كما حدثنا القرآن الكريم على لسانهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

وأما الواهنون، المتخاذلون، الضائعون، عبيد الدنيا، فلقد تندروا ببشريات رسول الله ﷺ وقالوا مقولتهم الفاجرة الكافرة: «**يخبركم أنه يبصر الحيرة ومدائن كسرى، وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا**» لينزل قول الحق يفضح نواياهم ويكشف حقيقة قلوبهم الزائغة المنحرفة ليقول فيهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

وكما هو موقف اليهود ثابتًا على مر العصور في مواجهة الدعوة والدعاة فإن موقف المنافقين لم يتغير.

الأمة الإسلامية تعاني من حصار يوشك أن يأخذ آخر أنفاسها!

الأمة الإسلامية تعاني من برود رهيب في المشاعر، وضيق «عجيب» في الاقتصاد ـ وأقول عجيب ـ لأنه مصطنع، إذا أن إمكانات العالم الإسلامي من الضخامة بمكان أن تجعل المواطن المسلم يعيش في أعلى مستويات المعيشة!

والأمة الإسلامية تعاني اتحاد الأعداء على اختلافهم في مواجهتها، اليوم تطعن أميركا لتطعننا روسيا غدًا، لتطعننا الصين بعد غد، لتطعننا أوروبا بعد بعد غد، وهكذا دواليك، وعصبة شريفة طاهرة من هذه الأمة قال فيها ﷺ: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ كَذَلِكَ**». [مسلم في الإمارة (١٩٢٠)].

تصيح بشعوبها بأن تعود إلى الإسلام إذ أنها ترى في الإسلام بريق الأمل المتجدد الذي سيمكنهم بإذن ربهم من قصور واشنطن، وقصور موسكو، وقصور بكين، وقصور العالم الغربي!

في الحين الذي يتغامز فيه منافقو هذه الأيام وهم يهمس بعضهم في آذان بعض: يعدوننا بهذا وقد استولى الغرب والشرق بكتلتيه على الفضاء الخارجي بعدما استولى على البر والبحر!

وتتعالى ضحكاتهم كلما ارتكسوا في شِباك العمالة المنصوبة من قِبَل الشرق والغرب، وما فعل المنافقون أيام رسول الله ﷺ ما فعلوه، وما قالوا ما قالوه إلا لضعف يقينهم بالله رب السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى!

وما يفعل منافقو هذه الأيام ما يفعلونه، ولا يقولون ما يقولونه، إلا لنفس السبب وإن صلوا وصاموا وزعموا أنهم حماة الدين وأولياء المؤمنين!». [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس **٢٣٩-٢٤٣**].

١٧ ـ لمحات من آيات الله التي أيد بها رسوله ﷺ في غزوة الأحزاب:

يقول الشيخ عرجون: «وقد كان في هذه الغزوة من آيات الله ومعجزاته الكونية أمور كثيرة، أكرم الله بها نبيه ﷺ، ولو لم يكن فيها إلا ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم مما لا يمكن أن يحوم حول حماه شيء من الشك من إرسال الريح والجنود، وما صنعت بجموع الشرك والوثنية، من جموع الأحزاب، وإلا ما روي في أصح الصحيح من أحاديث تكثير الطعام القليل وكفايته العدد الكثير حتى أشبعهم وانحرفوا عنه وهو كما وُضع، وإلا ما في الصحيح من أحاديث الكدية التي عرضت في حفر الخندق، فنزل إليها النبي ﷺ بالمِعْول وهو معصوب البطن بحجر من شدة الجوع، فضربها فصارت رمالًا سيَّالة، وإلا ما في حديث سلمان رضي الله عنه والبرقات التي برقت حين ضرب ﷺ الصخرة فرأى على ضوئها ﷺ ما يُفتح على أمته،

فصدَّقه الله وفتح ما فتح من البلاد التي وطَّد الله فيها ملك الأمة الإسلامية، وصارت بعد الوثنية أوطانًا للإسلام وهدايته؛ ولهذا كانت هذه الغزوة جديرة باسم غزوة الإعجاز الكوني والمعجزات الحسية والعقلية.

كما كان فيها من معالم منهج الرسالة ما سجلناه في أحداثها ووقائعها، ونبهنا عليه في آياتها حتى كانت غزوة جامعة لدروس الكفاح المرير، والنضال الخطير، والصبر على لأواء الحياة ومحنها، إلى جانب ما اشتملت عليه من فضل الله بإمداده نبيه ﷺ بنفحات المنن الكونية التي أنزلها حين استحكمت الخطوب، واكفهرت الكروب، ففرَّج بها مضائق البلاء والمحن، وقشع بريحها سحائب الكوارث، وختمها بتلطفه الذي مسح به عن صدور المؤمنين ما ألم بها من الهواجس والظنون، فعادوا أصفى بصائر وأصلب عزائم، وأرسخ إيمانًا وأعمق يقينًا، وأخلص نيات، وهم ينظرون إلى المستقبل بقلوب مشرقة وأفئدة منيرة، يرجون من الله تعالى ما وعدهم على لسان رسوله ﷺ في بشراه لهم بقوله: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا**».
[**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٠٢**].

١٨ ـ المعجزات ودلائل النبوة:

يقول د/ رزق الله: «إن مجموعة المعجزات التي أجرها الله ﷻ على يد نبيه محمد ﷺ أيام الخندق، سواء التي كانت في حفر الخندق، أو تكثير طعيم جابر ﵁، أو الرياح التي كانت نقمة على المشركين، لهي مجموعة أخرى في سلسلة المعجزات الكثيرة التي أيد الله بها نبيه؛ ليقطع الحجة لدى المعاندين من المنافقين والمشركين وكل صنف من أصناف أعداء الدين». [**السيرة النبوية لرزق الله ٤٥٧**].

ويقول د/ زين السيد: «إن الله ﷻ مانح رسوله ﷺ الكثير من المفوضات الإلهية في جميع الأوقات ومختلف الظروف لينزل السكينة على قلوب المؤمنين ويثبت النفوس الحائرة ويزيد المؤمنين إيمانًا ويقينًا، وفي وقت حفر الخندق وقد بلغ الجهد من المسلمين مبلغه، ظهر الكثير من خوارق العبادات على يد رسول الله ﷺ ليبعث في نفوس المؤمنين الأمل بتأييد الله تعالى له وعنايته بهم، وهنا ارتفعت الروح المعنوية بينهم، وعلموا أن الله ﷻ ناصر رسوله ﷺ.

وتاريخ العالم كله لا يعرف مثلًا واحدًا يشبه ما كانت عليه ثقة أتباع الرسول ﷺ به».
[**دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٥٧**].

ويقول د/ الحميدي: «في هذه الأخبار عبر عظيمة فيما جرى لرسول الله ﷺ من المعجزات.

فالمعجزة الأولى في تكثير الطعام بين يديه ﷺ قد جاء ذلك في حديث جابر ﵁ عند البخاري حيث دعا رسول الله ﷺ ورجلًا أو رجلين على طعامه فأكل منه أهل الخندق وهم عدة مئات، وكذلك في حديث ابن عباس ﵄ عند الطبراني، وأبلغ من ذلك ما جاء في حديث ابنة بشير بن سعد عند ابن

إسحاق حيث شبع أهل الخندق من تمرات لم يملأن كفَّي رسول الله ﷺ، وذلك مما أنزل تعالى في الطعام من البركة على يد رسوله ﷺ.

أما المعجزة الثانية ففي تليين الحجر لرسول الله ﷺ وانكساره بين يديه، ثم في إخباره ﷺ عما سيكون في المستقبل من فتح الشام وبلاد فارس واليمن.

وإن في ظهور هذه المعجزات على يدي رسول الله ﷺ ـ والمسلمون في تلك الحال الحرجة التي ابتُلي فيها المؤمنون وزُلزلوا زلزالًا شديدًا ـ حِكَمًا عظيمة، حيث قوَّى الله تعالى بها قلوب المؤمنين ورسَّخ إيمانهم حتى أيقنوا بأن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم، ليس في تلك المعركة وحدها وإنما في المعارك القادمة أيضًا حتى ينتشر دين الله تعالى، وتكون كلمته هي العليا.

كما أن في هذه المعجزات تبكيتًا للمنافقين واليهود الذين أرجفوا بالمؤمنين وخذَّلوهم، فإن أي عاقل يرى هذه المعجزات يُسلِّم بنبوة رسول الله ﷺ وأن الله ـ تعالى ـ معه بنصره وتأييده».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١١٣-١١٤].

ويقول د/ البوطي: «وأما المعجزة الخارقة في هذه القصة: فهي ما رأيتَ من انقلاب شاة جابر الضعيفة إلى طعام وفير كثير، شبع منه مئات الصحابة، وبقيت منه بقية كثيرة تركوها بعد أن أقترح النبي ﷺ على أهل البيت أن يتصدقوا بها!... لقد كانت هذه الخارقة العجيبة لرسول الله ﷺ تقديرًا إلهيًّا لمدى محبته ﷺ لأصحابه وإعراضه عن الأسباب المادية وشأنها في جنب قدرة الله وسلطانه.

والذي أريده من القارئ أن ينتبه بفكره إلى مثل هذه المؤيدات الإلهية التي كان يؤيد بها النبي ﷺ من وراء قيمة الأسباب المادية وسلطانها، فهي من أهم ما يبرز معالم شخصيته النبوية للدارس المتأمل، أريد من القارئ أن ينتبه بفكره إلى هذه الحقيقة، بمقدار ما يمعن بعضهم في الإعراض عنها، وإن قابلتهم وجهًا لوجه أثناء البحث، بأدلة ثابتة لا تقبل الشك». **[فقه السيرة للبوطي ٢٣٣].**

ومن المعجزات إخبار الرسول ﷺ بفتح اليمن وفارس والروم:

يقول د/ أبو فارس: «في جو من القلق والبرد الشديد والريح الهائجة، والنفوس المضطربة يعلن رسول الله ﷺ بأنه سيفتح الله على المسلمين بلاد فارس والشام واليمن، ويُقسم الرسول ﷺ أنه رأى بعد كل ضرب قصور تلك البلاد.

إنه يخبر عن أمر في ظاهر الغيب في وقت لم يطمئن المسلمون على أنفسهم، وإذا بهذا الأمر قد تحقق فعلًا، ألا يدل ذلك على نبوة سيدنا محمد ﷺ.

نعم لقد تحقق هذا الأمر الغيبي على يد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الذين بشَّرهم بهذا، ففتح الله على يديهم بلاد فارس وقصورها، وبلاد الشام وقصورها، وصنعاء وقصورها».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٠].

ويقول د/ أبو شهبة: «وقد صدَّق الله نبوءة نبيه، فكانت معجزة ظاهرة من معجزات النبي ﷺ، إذ لم يمض على هذه الحادثة إلا نحو ربع قرن حتى فُتحت هذه البلاد كلها، ودخلت تحت لواء الإسلام، ولذلك كان أبو هريرة ﷺ يقول حين فتحت هذه الأمصار: **افْتَتِحُوا مَا بَدَا لَكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ مَا افْتَتَحْتُمْ مِنْ مَدِينَةٍ وَلَا تَفْتَتِحُونَهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَى اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مَفَاتِيحَهَا قَبْلَ ذَلِكَ**. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٩].

وكنت أحب من المنكرين لنبوة سيدنا محمد ﷺ أن يتأملوا في هذه النبوءات التي صدَّقها الزمن، مع أنها قيلت في ظروف وملابسات ما كانت تشجع عليها، فإن أشد الناس تفاؤلًا ما كان يجول بخاطره أن يقول هذا، أو يفكر فيه، اللهم إلا أن يكون نبيًّا يوحى إليه.

ولا جائز لقائل أن يقول: لعلها رمية من غير رام فأصابت، لأنا نقول: إن تاريخ حياته ﷺ، وما عُرف عنه من الاتئاد والتروي في الأمور، وعدم المجازفة في القول، والبصر بالعواقب ونحو ذلك ما أقر به الأعداء والأصدقاء يرد هذا الجواز، ويبعده، فلم يبلق إلا أنها نبوءات صادقة من نبوءات الوحي، فاعتبروا يا أولي الأبصار!». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٧٩-٢٨٠].

ويقول الشيخ الصوياني: «معجزات تزيد الطاقة والإيمان، قدَّمها ﷺ لمن يحفرون الخندق، تلك المعجزات تفتح أبوابًا جديدة من الفرح والفرج للمؤمنين، وكأن ذلك الخندق ممر إلى الدنيا بأسرها، والمعاناة في حفره معاناة ولادة النور وانتشاره، أما بالنسبة للمنافقين، فكان ذلك الخندق طوقًا يخنقهم، هم كالكلاب ينتظرون من يمسك بطرف السلسلة ليتبعوه وهم يهزون أذيالهم منقادين أذلَّاء، كانت المعجزات تغيظهم وتدفعهم إلى مزيد من العناد والمكابرة، لكن أشد ما أغاظهم عند حفر الخندق هو تلك المعجزة التي لهج بها ﷺ ليس لمن يحفرون الخندق فقط، بل لأبنائهم ولمن بعد أبنائهم، ففي الوقت الذي يرتجف فيه المنافقون من الهلع، كان ﷺ يستبشر ويبشِّر بفتح فارس والروم واليمن.

يعد أصحابه بذلك وهو يضع الحجر على بطنه من الجوع، يقول ذلك لأصحابه وهو يحفر خندقًا يدافع به عن دولته الصغيرة التي لا تتجاوز حدودها حدود هذا الخندق، يبشِّرهم وهم جياع، بكنوز فارس والروم وقصور اليمن؛ لأنه نبي، ولأنها حقيقة قادمة كشمس الغد». [السيرة النبوية للصوياني ٣/ ٩٢-٩٣، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب١٣٢-١٥٤].

١٩ ـ الكفاءة والمعجزة:

يقول أ/ حوى: «في هذه الغزوة تظهر لك الكفاءة النبوية العالية، وتظهر المعجزات الخارقات، والمعجزات والكمالات هما النبوة والرسالة، وكثيرون من الناس وهم يتحدثون عن محمد ﷺ لا يُحسنون العرض المتكامل، فهم إما يبرزون الكفاءة على حساب المعجزة، وإما يظهرون المعجزة على حساب

الكفاءة، مع أن الكفاءة والمعجزة توأمان في حق الأنبياء جميعًا، وذلك كله مظهر الحكمة الربانية في اختيار الرسل، ومظهر التأييد الرباني للرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم بين توفيق وتأييد معجز أو سببي، ولكن يبقى لعالم الأسباب في حياة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ محله العريض؛ لأن الأصل في التكليف ليس الخارق وإنما هو عالم الأسباب، والرسل هم القدوة، والناس عامة محكومون بعالم الأسباب؛ ولذلك فأنت عندما تدرس المعجزات التي حدثت في هذه المرحلة لا تجدها تؤثر على قضايا الاقتداء المرتبطة بعالم الأسباب، بمعنى أن ما حدث في هذه الغزوة يمكن إدخاله في دائرة التفكير والتدبير والاستعانة بالله أولًا وأخيرًا، وبعضه لرسول الله ﷺ معجزة خاصة، وبعضه معجزة لرسول الله ﷺ ويمكن أن تطلبه من الله، وفضل الله واسع، مثال ذلك: تكثر الطعام القليل هو لرسول الله ﷺ معجزة، ونحن علينا أن ندبر الطعام لجندنا وهذا جزء من القدوة، والريح كانت معجزة لرسول الله ﷺ، ونحن ندعو الله أن يؤيدنا بما لا نحتسب، وفضل الله واسع». [**الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٦٩٩-٧٠٠**].

٢٠ ـ تحديد مهمة الرسالة الإسلامية:

يقول د/ أبو فارس: «ومن كلام الرسول ﷺ لأصحابه تلمس تبشيرهم بالنصر في معركة الأحزاب وغيرها وأن العاقبة ستكون للمسلمين، إن الأحزاب لا تعدل شيئًا بالنسبة لدولة فارس ودولة الروم، والله ﷻ سيَمُنُّ على المسلمين بفتحها على أيديهم، ألا فليطمئن المسلمون إلى نصر الله ووعده.

إنه أسلوب رائع في رفع معنويات المقاتلين، وفي نفس الوقت هو تحديد للرسالة التي يحملونها، إنها رسالة تحريرية، ليس تحرير الجزيرة العربية فحسب، وإن كانت لم تتحرر حتى تلك الساعة، إن رسالتهم هي تحرير الإنسان فوق كل أرض وتحت كل سماء، تحرير الإنسان الفارسي، تحرير الإنسان الرومي، تحرير الإنسان العربي، تحرير الإنسان من كل مكان». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٠-١١١**].

٢١ ـ ثقة المؤمن بربه:

يقول د/ أبو فارس: «أرأيت إلى قول رسول ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَالله إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَالله إِنِّي لَأُبْصِرُ المَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ، وَالله إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**».

نعم الحالة عسيرة والكرب شديد، ورغم هذا فليس هذا الذي ذكر على الله بعزيز، إن المدائن عاصمة أكبر دولة في العالم، دولة الفرس، والشام تقع تحت سلطان دولة من أعظم دول العالم، دولة الروم.

إن المسلمين في نفس الوقت من حصار شديد ومن ابتلاء عظيم، تشن عليهم حملات الإبادة، دماؤهم مهدورة، حياتهم مهددة، ومع هذا كله لم يساور الشك أحدًا من المسلمين بهذا النصر، إنها الثقة المطلقة

بالله وعظمته وقدرته وجبروته التي ينبغي على الداعية المسلم أن يستشعرها وألا تغيب عن ذهنه مهما كانت الظروف والأحوال.

إن كاتب هذه الأسطر ليؤمن إيمانًا راسخًا لا يتزعزع، رغم الظروف القاسية الصعبة التي يعانيها المسلمون، أن هذا الدين سينتصر، وستعلو رايته خفاقة على ربوع العالمين، ليس عنده أثاره من شك في ذلك، وأن المستضعفين سيتولون قيادة البشرية من جديد وأن القصر الأبيض والكرملين سترفرف عليها وعلى غيرهما راية الإسلام. هذا ما يؤمن به ويعمل له ويحيى له، ويموت عليه.

إن على الدعاة إلى الله أن يبشروا هذه الأمة بالنصر، ويبثوا فيها الأمل ويحيوها به، إن النصر لآت بإذن الله، ويسألونك متى هو قل عسى أن يكون قريبًا.

فيا شباب الإسلام أعدوا أنفسكم لهذا اليوم الذي تتشرفون فيه بحمل راية الحق هداة مهديين، لا ظالمين ولا مستعمرين، تنيرون القلوب المظلمة، والنفوس الحزينة، وتُسعدون البشرية من جديد». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١١-١١٢، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٨٩-٩٧].

٢٢ ـ المسلمون اليوم بحاجة إلى الأمل:

يقول د/ أبو فارس: «المخرِّبون في هذه الأمة أولئك الذين يبثون اليأس في النفوس، ويجتثون الأمل من القلوب، هؤلاء هم الأعداء حقًّا، ينبغي علينا أن نعرفهم وأن نحذرهم.

المسلمون اليوم بحاجة إلى من يطرد اليأس من قلوبهم، والسآمة والملل من نفوسهم، وواجب الدعاة أن ينتبهوا لهذا ويربوا الأمة عليه، إن هذه الأمة ستسعد نفسها وتسعد البشرية الشقية من جديد إن هي ثابت إلى رشدها وطبقت شريعة ربها، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج]». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٢].

ويقول د/ الزيد: «في هذه الغزوة وقد أقبلت جيوش الأحزاب من كل جهة وبدأ المسلمون يحفرون الخندق يطوقون به المدينة كي لا يدخلها العدو، يأتي الرسول المصطفى ﷺ وينزل في الخندق؛ ليكسر صخرة اعترضت طريق الحفر ويضرب بيده الشريفة بالمعول تلك الصخرة ويقول للناس والجيوش مقبلة من كل صوب، لتحاصر المدينة: «**اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**».

أيُّ تثبيت للقلوب الوجلة بعد هذا التثبيت، أي وعد للمؤمنين بعد هذا الوعد الصادق من المصطفى ﷺ، نعم هو رسول الله ﷺ، ولكن لماذا توقيت هذا الوعد ليقوله في هذا المكان؟ لماذا هذا التوقيت لهذا الوعد الصادق من الرسول ﷺ في هذه الشدة؟ والرسول ﷺ يواجه القبائل الزاحفة على المدينة يقول هذا القول! فتوقيتُه يحمل توجيهًا للأمة أن تركز على تثبيت القلوب وطمأنتها وإذهاب الفزع والخوف عنها في الشدائد.

إن الناس في الأزمات بحاجة إلى من يثبتهم، لا من يخوفهم، لا من يقول لها: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣]، ولا ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

إن الأمة بحاجة إلى مُثبتين لا مثبطين ومرجفين، إن الأمة بحاجة إلى من يقوي ثقتها وإيمانها بربها ويرسخ عقيدتها ويشدها نحو دين الله». [فقه السيرة للزيد ٤٩٩-٥٠٠].

٢٣ ـ المأدبة الربانية:

يقول د/ أبو فارس: «إن هذا الطعام القليل الذي لا يكفي لنفر قليل يبارك الله فيه فيكفي ألفًا من صحابة رسول الله ﷺ قد عضهم الجوع بنابه، إن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الذي جرى على يديه هذا نبي مرسل مؤيَّد بالمعجزات الخارقة حتى يزداد الذين آمنوا إيمانًا».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٢٠].

ويقول د/ الغضبان: «إنه ﷺ الذي يعد المسلمين بكنوز كسرى وقيصر، والذين استبشروا بموعود رسول الله ﷺ لهم، هم الذي يرون على يديه هذه المعجزات الخالدة، حيث يكفي طعام النفر القليل دون العَشَرة إلى طعام ألف من أصحابه (**وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ** (تغلي ويسمع غليانها) **كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ**)، فهؤلاء أهل الله وأولياؤه، صبروا على الجوع ثلاثًا ما ذاقوا ذواقًا، فأعد الله ـ تعالى ـ لهم هذه المأدبة الربانية، والضيافة الإلهية على يد عبده ورسوله محمد ﷺ، يتقوون بها على طاعة الله، وعلى العمل الشاق الدؤوب في حفر الخندق: «... **يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ**...».

[مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)].

ويبقى الخير البشري الذي يحس فيه العبد المؤمن بشعور رسوله ﷺ، وقد أصابه الجوع، وربط بطنه بالحجر، فيقوم بمأدبة تتناسب مع محمد ﷺ وخاصة أصحابه ليعلنها رسول الله ﷺ على الملأ كله: «**يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ! إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ لَكُمْ سُورًا فَحَيَّهَلًا بِكُمْ**».

إنه جابر بن عبد الله ابن الشهيد العظيم عبد الله بن عمرو بن حرام، وجابر لم ينس بعد ما صنع الله تعالى له بدَيْن أبيه، وما صنع له بجَمَله، يوم بارك الله به عنده حتى عاش أربعين عامًا ينعم ببركته.

ما أسعد هذا الجيل الذي شهد هذه المعجزات، فيصبح الإيمان في قلبه مثل الجبال الرواسي، ويرتبط به مصيره بمصير قائده وحبيبه، وإن أطفال هذا الجيل هم أسعد الناس، فما تنقل لنا تفصيلات المعجزة في الخندق، وتفصيل أخبارها إلا من أطفال هذا الجيل.

فهي عن جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب، وعائشة أم المؤمنين، وأمثالهم ممن كانوا ينبتون المنبت الحسن بين أحضان النبوة وعبيرها، وبنت بشير بن سعد، وابن عباس، وابن عمر، ومعظم هؤلاء أتيح لهم أن يحضروا المعركة للمرة الأولى في الخندق، ويحدثونا بذاكرتهم الوقادة بما شهدوا ويشهدون من عظمة النبوة ومعجزاتها وخيراتها.

لقد كنا صغارًا وكان يسلب لُبَّنا خطيب مفوه، أو داعية مؤثر، فيسيطر على تفكيرنا وجوارحنا، فكيف بهذا الجيل أبنائه وشبابه ونسائه، وهم يرون سيد ولد آدم ﷺ بين ظهرانيهم يعلم جاهلهم، ويطعم جائعهم، ويمدهم بنور القرآن كل يوم بما يوحي الله تعالى إليه، يعمل معهم، ويحفر معهم، ويحمل التراب على كتفه، ويربط بطنه من الجوع، ثم يدعوهم إلى تميرات فإذا هن طعام لأهل الخندق، ويدعوهم إلى عناق وصاع من شعير، فإذا هو يشبع الألف من العاملين المجاهدين في حفر الخندق، كيف يعيش هذا الجيل بهذا النبي العظيم؟ وكيف يتلقى منه؟ وكيف يقتدي به؟ وكيف يتربى على يديه؟

إننا مهما تحدثنا عن هذا الجانب أو غيره فنحن أعجز من أن نصف، وأعجز من أن نحس، وأعجز من أن نسعد.

إنما نحاول أن نلتمس وأن نعرف وهيهات هيهات:

إِنَّمَا مَثَّلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ كَمَا مَثَّلَ النُّجُومَ الْمَاءُ».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٨-٢٩، ٣٠].

٢٤ ـ نظر وبحث في آية التأسي به ﷺ:

يقول الشيخ عرجون: «جرت أحداث هذه الغزوة الممحِّصة للإيمان في طريق منهج الرسالة الخالدة رسالة الإسلام واضعة الخطوط القيادية التي أدار بها رسول الله ﷺ الموقف في إطار السياسة الحكيمة التي كَتبت دروسها التربوية أقلام الكفاح المرير، والنضال الخطير، والصبر على ما لا يُطاق من الشدائد والأزمات، واحتمال نوازل البلاء بجَلَد لا يَعرف الاستسلام، مع العمل الدؤوب البالغ في مشقته مبلغ الاستحالة البشرية، ولكن رعاية الله وعنايته هما اللتان ألقتا في قلوبهم مغالبة الحياة وأزماتها وشدائدها، وهما اللتان أمدتاهم بالمدد الروحي الذي أذاب في بؤرة إيمانهم كل محنة، وقهر كل بلاء وكارثة، فصبروا وصابروا واحتملوا، ورأوا في رسول الله ﷺ أعظم الأسوة، وهو معهم يشاركهم مشاركة فعلية مشقة العمل وشدائد المحن، وكان ﷺ يواسيهم بنفسه، فهو يجوع أشد مما جاعوا، ويعمل أكثر مما عملوا، ينقل

التراب حتى يغمر جلدة بطنه، إذا اشتدت عليهم في حفر الخندق صخرة نزل إليها، وما يزال بها يضربها بالمعول حتى تتزايل فتصبح كثيبًا أَهْيَل، وهو عاصب بطنه بحجر من شدة الجوع.

ولهذا وغيره كانت هذه الغزوة المليئة بالآيات والمعجزات متنزلًا لآية التأسي به ﷺ، فقال تبارك وتعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب].

فهذا تحريض للمجتمع المسلم في جميع أجياله، وأزمانه وأوطانه، على التسامي بأنفسهم وأخلاقهم وقوة إيمانهم ورسوخ يقينهم إلى آفاق البطولة الروحية والمادية التي تتطلبها المكانة القيادية الإنسانية التي نيطت بهذا المجتمع المسلم.

وهو تحريض لهذا المجتمع على الاعتصام بعظائم الأمور، وإعداد أقرانها لها، مهما تكن محفوفة بمخاطر المحن وشدائد البلاء.

وهو تحريض للمجتمع المسلم أينما كان وجوده من أرض الله على أن يتخذ من الصبر وقاية يتقي بها مزالق الهزاهز أمام أحداث الحياة كيفما كانت شكولها ومضائقها.

وحظ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من هذه الأسوة أن الله أشهدهم بذواتهم أعمال رسول الله ﷺ، وهي تجري على يديه حركات دائبة في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته إلى الإنسانية في أرجاء الحياة.

أما حظ مَنْ جاء بعدهم من أجيال المجتمع المسلم فهو حظ الحارس الأمين في الحفاظ على ما أُسندت إليه أمانة حفظه، وحراسته بمثل ما كان عليه مَنْ سلَّموا له الأمانة من العمل في الدفاع عن هذه الأمانة، وتبليغها ونشرها في الآفاق.

ولا يكون المؤمن أمينًا على القيام بحفظ أمانته إلا إذا علم قدرها، وعرف كيف يؤديها كما أُدِّيت إليه.

وأسلوب الآية الكريمة يجعل من ذات رسول الله ﷺ بوصفه رسولًا من الله نفس الأسوة لمجتمعه المسلم، فهو ﷺ بوصف أنه رسول الله ﷺ هو نفس الأسوة، فكل عمل من أعمال رسالته هو موضع للتأسي به، يجب على كل فرد من أفراد مجتمعه وأمته أن يتخذ هذا العمل أسوة له بقدر استعداده الفطري واستطاعته المكتسبة.

وهذه مبالغة قصد بها إفادة أن جميع ما يصدر عنه ﷺ إنما يصدر عنه بوصفه رسول الله، وهذا الوصف موجب لمتابعته في جميع ما يثبت عنه من الأقوال والأفعال على محاملها.

فرسالته ﷺ هي منبع التأسي به، وهذا المنبع موحد الإمداد بكل ما يكون فيه التأسي والاقتداء، وفي هذا غُنْية عن الحديث عن الخصائص البشرية التي مُنحها ﷺ فاختص بها واختصت به؛ لأن أمر هذه الخصائص خارج عن التقيُّد بوصف الرسالة إلا باعتبارها مخبرة عنه؛ لأن الأصل عموم التأسي، وهذا كالاستثناء المخصص للعموم.

نكتة بيانية في آية التأسي من متعلقات الإعجاز الأسلوبي: وفي الآية نكتة بيانية من متعلقات الإعجاز القرآني في هدايته وروعة أسلوبه، وهذه النكتة تعطي معنى التأسي به ﷺ صورة من قوة الإيمان ورسوخ اليقين في متابعته ﷺ تجعلها لباب الإيمان وزبدة الإخلاص.

وتلمح هذه النكتة في قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ بعد قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ الذي هو في مطلق معناه عين ما جاء بعده في إجمال هذا المعنى.

بيد أن قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ ربط تأسيهم بزبدة الإخلاص الذي هو مرتبة فوق مرتبة قوة الإيمان.

فإذا كان التأسي بالنسبة لصادقي الإيمان الذي صعد بهم إيمانهم إلى ذروة الإخاء كافيًا أن يقال فيه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ باعتبار عودة ضمير الخطاب إلى صادقي الإيمان، فإنه بالنسبة لعامة الأمة ممن لم يصل إيمانهم إلى درجة الإخلاص علمًا وعملًا غير كاف أن يقال فيه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ بل هو في حاجة إلى حياطته بشيء من التوثيق في داخل نفوسهم بشيء من الربط بما هو غيب لا يعرف مكان الإيمان منه، وليس ذلك إلا رجاء فضل الله ورحمته، ورجاء تفضله وإحسانه على كل مؤمن لقيه بعقيدة الإيمان، والرجاء مرتبة بين الإخلاص والإيمان.

ولهذا عقَّب ذلك بقوله: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾؛ لأن كثرة ذكر الله هي العروة الوثقى في الربط بين الإيمان، ورجاء فضل الله وإحسانه في اليوم الآخر». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٩٨-٢٠٠**].

٢٥ ـ خطورة المنافقين وكفرهم:

يقول الشيخ الصوياني: «هؤلاء المنافقون هم الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢].

أمرُ هؤلاء المنافقين محير ومزعج، لا تدري ماذا يريدون، ولا ما هو مبدأهم ولا هدفهم، ولا تستطيع تمييزهم بسهولة.

الكفر مرض والنفاق مرض، وجسد الدولة الإسلامية يستطيع الاحتياط والوقاية من مرض الكفر، لكن عندما يتسلل هذا المرض إلى الداخل، تبدأ رحلة طويلة ومريرة من العلاج وتناول الأدوية والعقاقير للقضاء عليه.

وفي غزوة الخندق كانت الدولة الإسلامية تحتاط بالخندق من الوثنيين، لكن من الصعب القضاء عليهم وهم يتظاهرون بالإيمان، لا سيما في هذا الوقت الذي انتهى ﷺ وأصحابه ﷺ من حفر الخندق، ووصل فيه أحزاب الأصنام إلى مشارف المدينة، وعسكروا أمام الخندق، وبدأ حصار قاسٍ

وشديد على المدينة، عندها بدأ المنافقون يظهرون كالبثور الكريهة المتقيِّحة على جسد المدينة، في هذه الظروف الحرجة ظهر نفاقهم وكفرهم وحقدهم على النبي ﷺ والصحابة ﭫ، ومع ذلك كله تمتَّع ﷺ وأصحابه ﭫ بأكبر قدر من ضبط النفس، وعدم التهوُّر بإيقاع أي عقوبة على أولئك المنافقين، الذين فاحت خيانتهم من خلال كلماتهم، ونظراتهم، وحركاتهم التي كانت تفتقد إلى أقل معاني الرجولة والنخوة.

تأزَّم الوضع، وبدأ المنافقون بالتململ، فقد ضاقوا مما يجري، وبدأت الأزمات تكشف عن حقيقتهم، وأحرقت نار الحرب تلك القشرة التي يختبئ كفرهم تحتها.

فضحتهم الحرب، وفضحهم الله بآيات كالسيوف على رقابهم، بدأوا يقدمون التماساتهم وأعذارهم بعدم القدرة على الصمود نظرًا للخطر الذي قد يحدث لأهلهم وبيوتهم، بعد أن رأوا السهام كالمطر على جيش المؤمنين، انسحب المنافقون الواحد تلو الآخر؛ هربًا من المعركة، كان منظرهم يجلب الإحباط والغضب لدى المؤمنين لولا ثقتهم بنصر الله ووعده، اشتدَّ الأمر على المؤمنين، وضاقت بهم السُّبل في أيام تعصف بالجوع والبرد والموت.

أعداء في الخارج أعلى المدينة، ويهود أسفلها، ومنافقون في داخلها ينسحبون كالجرذان، ويطالبون المؤمنين بالاستسلام والتسليم للوثنيين.

أولئك هم المنافقون، وتلك هي سفالتهم وانحطاطهم، مات فيهم كل شيء، حتى بقايا صفات الخير التي كان العرب في الجاهلية يتفاخرون بها، حتى تلك، ماتت داخل نفوسهم المتعفنة، خنقها عفن النفاق وأجهز عليها، وها هو العفن يتطاير في أجواء المدينة، يحاول التسلل إلى عزائم المؤمنين ليخنقها؛ ليبعثر في جنباتها الإحباط، إنهم الآن بين نسائهم يأكلون ويشربون ويبخلون بطعامهم على أولئك الصامدين أمام الخندق، وليتهم اكتفوا بذلك، إنهم يطالبون أولئك الفرسان بالانسحاب والاستسلام؛ لأن المعركة في نظرهم محسومة، وأبو سفيان سيحتل المدينة غدًا إن لم يقم بذلك اليوم.

أولئك المنافقون نسوا كل شيء، نسوا أن المدينة مدينتهم، نسوا عهدهم مع الله ورسوله، نسوا بيعتهم لله ورسوله، نسوا وعدهم بالصمود معه ﷺ وأن لا يفرُّوا من المعركة مهما كانت النتائج، هذا ما بدا للجميع من هؤلاء الأنذال.

أمَّا ما خفي فإن الله كشفه بهذه الآيات [١٠-١٩ من سورة الأحزاب] التي غرفت ما بداخلهم، ونشرته للجميع، لقد شرَّحتهم الآيات وبيَّنت للناس أي سرطان يتمدد في المدينة، فضحهم الله وبيَّن أنهم جاهزون لإعلان الكفر حالما يرون جيوشه تقتحم الخندق والمدينة، لكنهم لا يستطيعون ذلك الآن،

فالنبي ﷺ لا يزال هو القائد، وخوفهم منه وخوفهم من الموت واضح في أعينهم التي تدور كما تدور أعين الذي يعاني سكرات الموت وشدة النزع، ويشتد دوران أعينهم أكثر ما يشتد الآن، فالخوف في كل مكان، والجوع في كل مكان، والبرد في كل مكان، والقتال يشتد». [السيرة النبوية للصوياني ٣/ ٩٤-١٠١].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد كان موقف المنافقين في هذه الغزوة موقفًا قبيحًا، يدل على مرض قلوبهم وضعف نفوسهم، وخبث طويتهم، وسوء أخلاقهم ونواياهم، وحقدهم الذي يكتمونه في صدورهم، وإذا هو يظهر على ألسنتهم في ساعات الشدة، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر.

١ـ لقد كان المنافقون يكرهون أن يشاركوا المسلمين في حفر الخندق، رغم أنهم كانوا يتظاهرون بغير ذلك، إلا أن مواقفهم كانت تفضح نواياهم، فقد كانوا يهتبلون كل فرصة للهرب من الخندق بأسلوب مزر غير كريم، أشبه بأسلوب اللصوص الذين يتسللون خفية حتى لا يراهم أحد، قال تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[النور].

٢ ـ وقد لا تواتي هؤلاء المنافقين فرصة التسلل الخفي؛ لرؤية النبي ﷺ لهم، ولوجود المسلمين معهم، فحينئذ يبتكرون أسلوبًا آخر في الهروب، أسلوب الكذب وانتحال الأعذار الكاذبة ليأذن لهم رسول الله ﷺ بالغياب عن الخندق، وعدم المشاركة في حفره.

ومن صور ذلك ما ذكره ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره عن أوس بن قيظي قوله: يا رسول الله، إن بيوتنا لعورة من العدو ـ وذلك عن ملأ من رجال قومه ـ فأْذن لنا فلنرجع إلى دارنا».

[تفسير الطبري ٢١/ ١٣١].

وقد كشف الله تعالى هذا وأمثاله، وفضح أسرارهم وهتك أستارهم وأظهر زيف ادعائهم، فأنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[الأحزاب].

إنهم يزعمون كذبًا وزورًا أن بيوتهم بعيدة، وبحاجة إلى حماية من العدو وهم أولى الناس بحمايتها والمرابطة فيها، هذا زعمهم، لكن الحقيقة غير هذا، إن الذي دفعهم هو الجبن والفرار من القتال إلى اتخاذ هذا الموقف، فهم جبناء أنذال قد سيطر عليهم الهلع والجزع والخوف حينما علموا بقوة الأحزاب وكثرة عددهم وعدتهم.

فهم إذن منهزمون من داخلهم، خوَّارون لا طاقة لهم بقتال عدو وملاقاته، إنهم أصحاب فتنة وكيد، قال الله تعالى يكشف حقيقة نواياهم: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾[الأحزاب].

نعم إنهم لا همَّ لهم إلا الجري وراء الفتن وإيقاد نارها، وتشكيك أهل الحق بحقهم، إنهم يعملون جادين لانتصار أهل الشرك على أهل التوحيد، مع تظاهرهم بأنهم من أهل التوحيد، فهم لا قيمة لبيوتهم وأعراضهم عندهم في سبيل تحقيق غايتهم، وغايتهم القضاء على الإسلام وأهله.

قال أبو السعود في تفسيره: (لو كانت بيوتهم مختلة بالكلية، ودخلها كل من أراد من أهل الدعارة والفساد، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة، والرجفة الهائلة ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي الردة والرجعة إلى الكفر مكان ما سئلوا الآن من الإيمان والطاعة ﴿لَآتَوْهَا﴾ لأعطوها، غير مبالين بما دهاهم من الداهية الدهياء والغارة الشعواء، وقرئ (لأتوها) بالقصر ـ أي لفعلوها وجاؤوها، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ بالفتنة، أي: ما ألبثوها وما أخروها). [تفسير أبي السعود ٤/ ٤٠٦].

هذه الآية ترشدنا إلى أن المنافق لا يستطيع أن يخفي طبيعة النفاق عنده، وإن حاول ذلك، وموَّه متظاهرًا بحب الإسلام والطاعة للرسول ﷺ، فإنه لابد أن يكشف.

فهؤلاء قد عاهدوا الله ﷻ قبل الخندق على القتال في سبيله والثبات في الحرب، وقطعوا عهدًا على أنفسهم بذلك، على مسمع ومشهد من الرسول ﷺ والمسلمين، رياء ونفاقًا وطلبًا للجاه والسمعة، ولما جاء وقت التطبيق تولوا ونكصوا ونكسوا على رؤوسهم.

قال الله تعالى يصف هؤلاء: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب].

ورد الله عليهم أن لا مفرَّ لهم ولا ملجأ من الموت، فهو ملاقيهم لا محالة، وإن الفرار من الموت ليس سبيلًا للنجاة منه قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب].

٣ ـ ومن صور النفاق التي حدثت في هذه الغزوة الشك في وعد الله تعالى، ووعد رسوله ﷺ، والتشكيك فيهما، بل التكذيب، بأسلوب قبيح فيه من الاستهزاء والسخرية اللاذعة ما يدل على سوء نيتهم وخبث طويتهم، وفي هذا يحكي القرآن موقفهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[الأحزاب].

لقد وقفوا هذا الموقف المشين، وفاحت ألسنتهم بهذا النتن حينما أخبر الرسول ﷺ وهو يفتت الصخرة التي اعترضت في الخندق بأن الله سينصرهم وسيفتح على أيديهم بلاد فارس والشام واليمن فقال المنافقون: (**ألا تعجبوا، يحدثكم ويمنيكم، ويمدكم الباطل، يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور**

الحيرة، ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق من الفرق، ولا تستطيعون أن تبرزوا)، فأنزل الله قوله: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ الآية[الأحزاب: ١٢].

٤ـ التثبيط عن القتال: ولم يكتف المنافقون بالهرب من القتال، وعدم المشاركة في حفر الخندق والرباط فيه، بل أخذوا يثبطون المؤمنين عن القتال، ويشنون حربًا نفسية عليهم بأن لا قدرة لهم وهم قليلو العدد والعدة على مقاتلة جيوش الأحزاب الجرارة، فما عليهم إلا أن يستسلموا ويلقوا أسلحتهم.

وفي هذا تدمير للإسلام وللمسلمين، وهو الذي يرجونه ويسعون إليه.

هذا وقد أطلق عليهم القرآن اسمًا يناسب مقامهم وعملهم، فوصفهم بالمعوقين، قال سبحانه: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

قال قتادة: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحمًا لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا هذا الرجل فإنه هالك. [تفسير الطبري ٢١/ ١٣٩].

وروى ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره عن ابن زيد في قوله: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ ﴾ إلى آخر الآية قال: هذا يوم الأحزاب، انصرف رجل من عند رسول الله ﷺ، فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ونبيذ، فقال له: أنت هاهنا في الشواء والرغيف والنبيذ، ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف؟ فقال: هلم إلى هذا، فقد بلغ بك وبصاحبك، والذي يُحلف به لا يستقبلها محمد أبدًا، فقال: كذبت والذي يُحلف به، قال: وكان أخاه من أبيه وأمه، أما والله لأخبرن النبي ﷺ أمرك، قال: وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، قال فوجده قد نزل جبرائيل عليه السلام بخبره. [تفسير الطبري ٢١/ ١٣٩]، ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾[الأحزاب].

٥ ـ ومن صفات المنافقين التي تحدثت عنها سورة الأحزاب البخل والشح، وعدم الإنفاق في سبيل الله، وإنهم لا يملكون إلا سلاطة اللسان يؤذون بها المؤمنين؛ لهذا كله فهم كفار حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[الأحزاب: ١٩].

وشُغلهم الشاغل الجري وراء الفتنة والسؤال عن أحوال المسلمين ونتائج حروبهم مع أعدائهم، لا على سبيل التعاطف والاهتمام والتوادد إنما على سبيل التوقع للمسلمين الهزيمة فيفرحون لما أساء المسلمين (الآية التي تحدثت عن هذا في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾[الأحزاب])، كما قال

تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾[التوبة].

٦ـ والمنافقون بصفة عامة يتعاونون مع كل عدو للإسلام والمسلمين، بغض النظر عن دينه أو اعتقاده أو سلوكه أو عصبيته، إنهم يتخذون الكافرين أولياء يحبونهم ويناصرونهم على المسلمين، قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩﴾[النساء].

ومع هذا فهم يتظاهرون بودهم للمسلمين، وحرصهم ظاهرًا على التقرب منهم حتى لا تفوتهم بعض المنافع التي يهدفون إلى تحقيقها والوصول إليها.

وما هذا إلا على سبيل المناورة وخداع المؤمنين، ولكن هذه الأساليب الخادعة لا تنطلي على المؤمنين الصادقين، الذين ينظرون بنور الله، ويستضيؤون بكتاب الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ، ويستبصرون بسيرة رسول الله ﷺ مع هؤلاء وأمثالهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٤٢﴾[النساء]». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٢٣-١٢٨**].

٢٦ ـ ينشط النفاق في النوائب والأزمات:

يقول د/ فيض الله: «عرضتْ الفرصة للمنافقين حين ابتلي المؤمنون وزلزلوا، واشتد عليهم الكرب، واستبد بهم الهول، فأخذوا ضروبًا من الأساليب لإضعاف المسلمين، وتخذيلهم في هذه الحرب، إذ كانت حرب أعصاب:

(١) ففريق منهم، انطلقوا يتهكمون بالمسلمين، ويسخرون منهم، وعلى التخصيص بعد حديث الصخرة التي فَتَّتَتْها يد النبوة، والآمال التي عَلَقَتْ بها قلوب المؤمنين، والفتوح التي وُعِدُوا بها، حتى قال أحدهم: يعدكم بكنوز قصرى وقيصر، وأحدكم لا يَأْمَنُ على نفسه أن يذهب إلى الغائط، فهؤلاء الذين عناهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ۝١٢﴾ [الأحزاب].

(٢) وفريق آخر حرَّض المسلمين على ترك الصفوف: فمقامهم هنا غير حميد، ورباطهم غير مفيد، والعاقبة مجهولة، وبيوتهم غير محمية، وفيها ذراريهم ونساؤهم، وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن بقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ [الأحزاب: ١٣].

(٣) وفريق ثالث، استأذن النبي ﷺ صراحةً في العودة إلى ديارهم، بحجة أنها مكشوفة، يبغون حمايتها من العدو المهاجِم، والخطر الجامح، وقد كشف القرآن خُبثهم ومكرهم بصراحة، ولما هَمَّ رسول

الله ﷺ أن يأذن لهم، قال له سعد بن معاذ ﷺ: «**يا رسول الله، لا تأذن لهم، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا صنعوا هكذا**»، فلم يأذن لهم ﷺ.

وفي هذا الفريق يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

وتابَعَ القرآن مواجهتهم، فوصفهم بضعف العقيدة، والاستعداد التام للرِّدة والفتنة، عند أيسر طلب، ووصفهم بنقض العهد، الذي قطعوه على أنفسهم أمام الله، أن لا يفروا من الزحف يوم أُحُد، وهم اليوم يخلفون ما عاهدوا الله عليه، ويفرون من القتل والموت، وهما من قَدَرِ الله الذي لا مفر منه، والذي لا يتقدم ولا يتأخر، ولا ينفع الفرار من القَدَر المحتوم المكتوب المحدد.

(٤) وفريق رابع لاذ بالفرار، دون استئذان من النبي ﷺ في هذا الظرف الحرج، والهول المذعر، والمؤمنون معه على هذا الأمر الجامع، فنصت عليهم آيات في آخر سورة النور، ونفت عنهم صفة المؤمنين في هذه المناسبات، وهي الاستئذان، وصرحت بأنه عليم بتسللهم، ومخالفة أمر النبوة، وأوعدتهم بالفتنة في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة.

إن هذه المواقف المريبة، في هذه الظروف العصيبة التي تنذر بالإسلام والمسلمين، وفي الشدائد المرهقة المرهبة، كانت دأب المنافقين، ولا ريب أن المؤمن لا يقف مثلها، ولا تخطر منه ببال، وكان القرآن يغض النظر عنهم، في بدء الإسلام، والمسلمون ضعاف، والدعوة في المهد، فلما قوي المسلمون، وأطلت الدعوة على الجزيرة، واكتسحت المناوئين، عمد القرآن إلى كشفهم في كل مناسبة، فقد طال الزمن، وكثرت التجارب، وعُرفت الأعذار.

فليتعرف المسلمون المنافقين من خلال مواقفهم في الشدائد، وليصنفوا أصدقاءهم الأوفياء، والمنافقين في الصداقة، عند اشتداد الأزمات، فإنها المَحَكُّ الذي يُجَلِّي الحقائق، ويميز الأوفياء من المنتهزين».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٣١-٢٣٢].

٢٧ـ الشدائد والمحن تكشف عوار المنافقين:

يقول د/ الفنيسان: «لما اشتد الحصار على المؤمنين وتكالبت عليهم الأعداء من كل جانب كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب]، في هذا الموقف الضيق والحرج انطلق المنافقون بين صفوف المسلمين يَسخرون ويشمتون بالرسول ﷺ، يقولون: كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدُنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا.

فهم لا يعيشون إلا في الجو الملوث والماء العكر، كالخفافيش لا تتحرك إلا في الظلام».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٢].

ويقول د/ الحميدي: «وإننا حينما نقارن بين موقف المؤمنين وموقف المنافقين في هذا الخبر نعرف كيف أن الإسلام ينتقي أزكى العناصر البشرية فيصبُّها في قالب جماعة المسلمين حيث ينتُج عنها بعد ذلك العجائب مما يذهل أصحاب الفكر المتأمل والعقل المتبصر، سواء في مجال السلم حيث تقوم بعمران الأرض على قدم وساق، وهي تُتَوِّج أعمالها بنشر العدل بين الناس والرحمة بالضعفاء، أو في مجال الحرب حيث تبذل الغالي والنفيس في سبيل خدمة مبادئها السامية التي تخضع لها عقول أعدائها قبل أن تخضع لها رقابهم، وهذه الجماعة مع ذلك لا تقاوم أعداءها الذين صرحوا بعدائها فقط وإنما تقاوم أيضًا المنافقين الذين يُظهرون الولاء لها وهم يكيدون لها من داخلها بمختلف أنواع الكيد.

فهؤلاء المنافقون الذين في عهد رسول الله ﷺ يتسللون من الخدمة مع جماعة المؤمنين في أمر مهم وخطير يتوقف عليه أمن هذه الجماعة التي أظهر هؤلاء المنافقون انضمامهم لها والإيمان بمبادئها، فنهى الله تعالى المؤمنين عن أن يكونوا كهؤلاء المنافقين الذين يستهينون بأمر النبي ﷺ فيجعلون نداء الرسول ﷺ إياهم وتكليفهم بالعمل كنداء بعضهم بعضًا، بيد أن أمر النبي ﷺ أمر إلهي لا خيار للمسلم فيه ولا يجوز التردد في تنفيذه». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٠٩-١١٠**].

ويقول د/ الزيد: «في الأمور الجدية يظهر وينكشف المنافقون، ذلك أن حفر الخندق مع شدة الجوع وإقبال العدو والخوف على الذراري أمر لا يقدم عليه إلا الصادق، أما ما عدا ذلك فيتسللون إلى أهليهم ويتركون الرسول ﷺ، والله ﷻ يقول: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور]». [**فقه السيرة للزيد ٥٠٠-٥٠١**].

٢٨ ـ النفاق ظاهرة تتكرر في كل مجتمع:

يقول د/ أبو فارس: «ليست ظاهرة النفاق خاصة بفترة زمنية معينة، مضت وانقضت فليست محصورة مثلًا بعهد الرسول ﷺ، وانتهت بانتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وإنما هي ظاهرة تتكرر في كل مجتمع، وفي كل جماعة، وتستمر استمرار الحياة على وجه البسيطة، وتدوم دوام الصراع بين الحق والباطل، إذ الصراع يفرز أهل الحق أولياء الرحمن ويميزهم من غيرهم، أولياء الشيطان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء].

والنفاق صفة ذميمة في صاحبها يبطن في نفسه الكفر، ويتظاهر بالإيمان والإسلام ابتغاء مصلحة يريد تحقيقها، ومنفعة يرجوها، وهذا الصنف من الناس لا يتقن المواجهة، لضعف عزيمته أو خور في نفسه،

فيسلك طريقًا آخر للنيل من أهل الحق من المؤمنين، وهو طريق الطعن من الخلف مع التظاهر بالإسلام، ويحدث هذا عندما تكون الجماعة المؤمنة قوية وصرح المجتمع الإسلامي شامخًا عاليًا متماسكًا، والأمة الإسلامية خير أمة أُخرجت للناس.

ولكن هذه الخصلة لا تلبث أن تظهر بسرعة فائقة إذا ألمت بالجماعة المؤمنة محنة أو اعترضت سبيلها عقبات كأداء.

وما الابتلاء الذي يمن الله به على عباده المؤمنين إلا يهدف إلى تمحيص الصف المؤمن، وتنقيته من الأجسام الغريبة التي انضمت إليه.

هذا هو الهدف من الابتلاء، كما جاء في كثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٢٨-١٣٠].

٢٩ ـ الدعاء في الشدائد:

يقول د/ أبو فارس: «قوله ﷺ:

فَـأَنْزِلَنْ سَـكِينَةً عَلَيْنَـا وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

درس للدعاة في كل زمان ومكان أن يهرعوا إلى الله في كل وقت لاسيما وقت الشدة، ووقت القتال ومجادلة الأبطال.

إن المسلم يلح على الله في الدعاء بأن يثبت قلبه على الإيمان في وجه الشيطان، ويلح على الله بالدعاء بأن يثبت الأقدام إذا لاقى عدوه، فلا يفر فيستحق غضب الله تبارك وتعالى». **[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٦، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ١٠٦ - ١١٩].**

المبحث الثاني
الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ الحكمة ضالة المؤمن:

يقول أ/ وجدي: «لما أشار سلمان الفارسي ﷺ على رسول الله ﷺ بحفر الخندق، لم يتردد في الأخذ برأيه، فأمر بحفره وساعد فيه بنفسه، فضرب أكمل الأمثال للتعاون الفعلي بين القيادة العليا والجيش، وهو عمل خطير لم يسبق إليه، وخطورته تبدو من ناحية أدبية أخرى وهو عدم التورع من الأخذ بما ثبت نفعه ولو نقلًا عن المشركين.

وهو من ناحية ثانية يسوِّغ التجديد بل يحتمه ما دامت حاجة الجماعة تستدعيه.

وقد سار أصحاب النبي ﷺ وجميع من جاؤوا بعدهم على هذا السمت، فنقلوا كل ما رأوه من الأمور النافعة في هذه الجماعات التي احتكوا بها، ولم يدعوا العلوم والفلسفة حتى ما كان منها مهجورًا في بطون الكتب الأجنبية، فكلَّفوا بها يهودًا ونصارى ومجوسًا من عرفة اللغات قاموا بترجمتها وإذاعتها؛ فكان ذلك سببًا في تحويل المسلمين زعامة العلم والمدنية في الأرض قرونًا طويلة، وفي الإكبار والإعجاب الذي يحيط به المؤرخون العالميون تاريخهم الحافل بعظائم الأمور». [**السيرة المحمدية لوجدي ٢٢٢-٢٢٣**].

ويقول د/ السباعي: «وفي قبوله ﷺ إشارة سلمان ﷺ بحفر الخندق، وهو أمر لم تكن تعرفه العرب من قبل، دليل على أن الإسلام لا يضيق ذرعًا بالاستفادة مما عند الأمم الأخرى من تجارب تفيد الأمة وتنفع المجتمع، فلا شك أن حفر الخندق أفاد إفادة كبرى في دفع خطر الأحزاب عن المدينة، وقبول رسول الله ﷺ هذه المشورة، دليل على مرونته ﷺ، واستعداده لقبول ما يكون عند الأمم الأخرى من أمور حسنة، وقد فعل الرسول ﷺ مثل ذلك أكثر من مرة، فلما أراد إنفاد كتبه إلى الملوك والأمراء والرؤساء قيل له: إن من عادة الملوك ألَّا يقبلوا كتابًا إلا إذا كان مختومًا باسم مرسِله، فأمر على الفور بنقش خاتم له كتب عليه: محمد رسول الله، وصار يختم به كتبه، ولما جاءته الوفود من أنحاء العرب بعد فتح مكة تعلن إسلامها، قيل له: يا رسول الله، إن من عادة الملوك والرؤساء أن يستقبلوا الوفود بثياب جميلة فخمة، فأمر رسول الله ﷺ أن تشترى له حلة، قيل: إن ثمنها بلغ أربعمائة درهم، وقيل: أربعمائة بعير، وغدا يستقبل بها الوفود، وهذا هو صنيع الرسول ﷺ الذي أُرسل بآخر الأديان وأبقاها إلى أبد الدهر، فإن مما تحتمه مصلحة أتباعه في كل زمان وفي كل بيئة أن يأخذوا بأحسن ما عند الأمم الأخرى، مما يفيدهم، ولا يتعارض مع أحكام شريعتهم وقواعدها العامة، والامتناع عن ذلك جمود لا تقبله طبيعة الإسلام الذي يقول في دستوره الخالد: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزُّمَر]، ولا طبيعة رسوله الذي رأينا أمثلة عما أخذ من الأمم الأخرى، وهو القائل: «**الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**».

[الترمذي في العلم عن رسول الله ﷺ (٢٦٨٧)، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإبراهيم بن الفضل المدني المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه، وقال الشيخ الألباني: ضعيف جدًّا].

ويوم غفل المسلمون في العصور الأخيرة، وخاصة بعد عصر النهضة الأوروبية عن هذا المبدأ العظيم في الإسلام، وقاوموا كل إصلاح مأخوذ عن غيرهم مما هم في أشد الحاجة إليه، أصيبوا بالانهيار، وتأخروا من حيث تقدم غيرهم ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[الحج]. [السيرة النبوية للسباعي ١٠٩-١١٠].

ويقول د/ رزق الله: «إن حفر الخندق يدخل في مفهوم المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فينبغي على المسلمين اتخاذ وسائل القوة المتاحة مهما كان مصدرها؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها». [السيرة النبوية لرزق الله ٤٥٦].

ويقول د/ الزيد: «من قصة حفر الخندق نأخذ الاستفادة مما لدى الغير مما لا يتعارض مع ديننا، فقد أخذ الرسول ﷺ فكرة حفر الخندق من سلمان الفارسي رضي الله عنه الذي نقلها عن الفرس حيث قال: (**إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ وَتَخَوَّفْنَا الخَيْلَ خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا**)، فالاستفادة مما لدى الغير مطلوبة بشرط أن لا يقبل المسلم شيئًا يتعارض مع مبادئ دينه». [فقه السيرة للزيد ٤٩٩].

ويقول د/ البوطي: «لقد كان من جملة الوسائل الحربية التي استعملها المسلمون في هذه الغزوة حفر الخندق، ولقد كانت غزوة الأحزاب أول غزوة في التاريخ العربي والإسلامي يُحفر فيها الخنادق، إذ هو مما كان متعارفًا بين الأعاجم فقط، ولقد رأيتَ أن الذي اقترح ذلك في غزوة الأحزاب إنما هو سلمان الفارسي رضي الله عنه، وقد رأيتَ أن النبي ﷺ أُعجب بهذه الوسيلة الحربية وسرعان ما دعا أصحابه إلى القيام بتحقيقها.

وهذا من جملة الأدلة الكثيرة التي تدل على أن الحكمة هي ضالة المؤمن فحيثما وجدها التقطها، بل هو أولى بها من غيره، وأن الشريعة الإسلامية بمقدار ما تكره للمسلمين إتباع غيرهم وتقليدهم على غير بصيرة، تحب لهم أن يجمعوا لأنفسهم أطراف الخير كله والمبادئ المفيدة جميعها، أينما لاح لهم ذلك، وحيثما وُجد، فالقاعدة الإسلامية العامة في هذا الصدد، هي أن لا يعطل المسلم عقله الحر وتفكيره الدقيق في سلوكه وعامة شؤونه وأحواله، وإذا كان المسلم كذلك، فهو ولا ريب، لا يمكن أن يربط في عنقه زمامًا يسلم طرفه للآخرين فيقودوه حيثما أرادوا بدون وعي ولا بصيرة، وهو أيضًا لا يمكن أن يتجاهل أي مبدأ أو عمل أو نظام يسلِّم به العقل النيِّر والفكر الحر وينسجم مع مبادئ الشريعة الإسلامية، ليتجاوزه ولا يتعب نفسه بأخذه والاستفادة منه.

وهذا السلوك الذي شرعه الله للمسلم، إنما ينبع من أصل أساسي هو الكرامة التي فطر الله الإنسان عليها إذا اقتضت مشيئته أن يكون هو سيد المخلوقات، وما ممارسة العبودية لله تعالى والتزام أحكام شريعته إلا ضمان لحفظ هذه الكرامة والسيادة». [فقه السيرة للبوطي ٢٣٠-٢٣١].

٢ ـ تكريم القيادة للصالحين وذوي الكفاءات وتقريبهم:

يقول د/ الحميدي: «في قول رسول الله ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ**» ما يُشعر بأن سلمان رضي الله عنه من المهاجرين لأن أهل البيت من المهاجرين، ولكنه عبَّر بطريقة بارعة رفع فيها من شأن سلمان، وأشعر الفريقين بأن هناك فريقًا ثالثًا أعلى شأنًا من الفريقين، وإن كان ينتمي إلى أحدهما، فلا خصومة في سلمان رضي الله عنه؛ لأن شأنه أكبر من ذلك فإنه قد فاز باللحاق بالفريق الأعلى، وإنا لنجد في هذا التعبير العالي لمسات سامية أقنعت الفريقين، وأعلت من شأن رجل كان في قمة الشرف والرفعة في بلده الأول، ثم تقلب به الزمن حتى صار موئل المهانة والذل في عبودية رجل يهودي إلى أن تحرر منه، فكان في كلمة النبي ﷺ رد اعتبار له ومكافأة سخية على ما تخلى عنه من حياة الشرف والرفعة إلى حياة المهانة والذل من أجل أن يظفر بالإيمان بالنبي ﷺ وصحبته، فما أعظمك يا رسول الله ﷺ مربيًا وهاديًا!». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٠٨].

ويقول د/ أبو خليل: «لقد حسم رسول الله ﷺ الأمر، فلم يقبل له نسبًا إلى المهاجرين القرشيين، ولا إلى الأنصار من أوس وخزرج، فجعل نسبه إلى عقيدته، **فَسَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ**، أي منا، من المسلمين، وكفى بذلك نسبًا.

وبالمقابل، ليس كل من اتصل برسول الله ﷺ بنسب قربى شُرِّف، وكان من (أهل البيت)، كعمه أبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المَسَد].

يقول الشاعر محمد إقبال:

الشَّاعِرُ الهِنْدِيُّ يَهْمِسُ فِي أَدَبٍ	**إِنْ لَمْ يَسُؤْكُم يَا سَلاطِينَ العَرَبْ**
أَيُّ الشُّعُوبِ تَعَلَّمَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ	**سِرًّا مَلِيئًا بِالطَّرَافَةِ وَالعَجَبْ**
إِنَّ التَّوَلِّي لِلنَّبِيِّ بَرَاءَةٌ	**مِنْ عَمِّهِ الدَّانِي القَرِيبِ أَبِي لَهَبْ**
وَالعَالَمُ العَرَبِيُّ (١) **شَعْبٌ جَاءَ مِنْ**	**فَوْقِ الأُبُوَّةِ وَالبُنُوَّةِ وَالحَسَبْ**
وَامْتَدَّ فِي مَعْنَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	**لا فِي الحُدُودِ وَلا الثُّغُورِ وَلا النَّسَبْ**

---

(١) بعد أن أكرمه الله ﷻ برسوله ﷺ.

ومما يذكر هنا أيضًا، أن بعض السادات رأى عبد الله بن المبارك [(١)] في عزة ورفعة مع جماعة، فقال: **انظروا إلى حال آل محمد وعزة ابن المبارك!**

فقال ابن المبارك: **إن سيدنا لما لم يراع سنة جده ذل، وابن المبارك لما أطاع النبي ﷺ وسار سيرته، أعطاه الله عزًّا وشرفًا، واعلم أن عزة فرعون وشرفه انقلبا ذلًّا وهوانًا بسبب تكذيب موسى عليه السلام وإعراضه عن قبول دعوته، وهامان وإن كان سببًا صوريًّا في امتناعه عن القبول ونكوله عن الانقياد، لكن لم يكن في أصل جبلته** (طبيعته وأصله وما بني عليه) **استعداد لقبول الحق، فلا يغرنكم عزة الدنيا مع عدم الطاعة لأنه ينقلب يومًا ذلًّا وخسرانًا، وكثيرًا ما وقع في الدنيا، ورأيناه، فاقبل النصيحة مع مداومة حب العلم، وإلا فعند ظهور الحق ووجود الاستعداد والقابلية لا يبقى غير الاستسلام، وإن منعه العالم بأسرهم عن ذلك.**

[روح البيان ٥/ ٣٩٣، ط ١٣٣١هـ].

«**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**» شرف عظيم لسلمان رضي الله عنه، وبذلك يمكن لكل مسلم أن يكون شريفًا مرموقًا بغض النظر عن نسبه وقومه، قال ﷺ: «**أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ وَأَصْحَابُ اللَّيْلِ**». [**رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، والبيهقي في شعب الإيمان، وفي سند الحديث ضعف، راجع: فيض القدير للمناوي ١/ ٥٥٢**].

حملة القرآن علمًا وتطبيقًا وسلوكًا، وأصحاب الليل هم عشاق الله عز وجل، تجافت جنوبهم عن المضاجع، فقاموا لمناجاة ربهم وذكره، فهم أهل القرب والمحبة». [**غزوة الخندق لأبي خليل ٨٦-٨٨**].

٣ ـ رعاية الموهوبين:

يقول د/ الغضبان: «انضمت الطاقات والكفاءات العربية إلى الصف الإسلامي، ولا شك أن دور سلمان الفارسي رضي الله عنه في الإشارة بحفر الخندق، ودور نُعيم بن مسعود رضي الله عنه في تخذيل الأحزاب، وأثر هذه العبقريات الضخمة في تغيير مسار المعركة، لم يكن ليبرز لولا التربية النبوية العظيمة، فسلمان رضي الله عنه يرعاه رسول الله ﷺ، ويهيئ له الخلاص من الرق، ويقود المئات من المسلمين لعونه في المال والعمل، ولندع لسلمان رضي الله عنه وصف هذه المعونة: ثم قال رسول الله ﷺ: «**كاتِبْ يا سلمان**»، فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير (بالحفر أو المكان السهل يحفر فيه)، وبأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ: «**أعينوا أخاكم**» فأعانوني بالنخل بثلاثين ودية (جمع ودي، صغار الفسيل من النخل)، والرجل بعشرين والرجل بخمس عشرة حتى اجتمعت ثلاثمائة ودية، فقال: «**اذهب يا سلمان ففقِّر لها، فإذا فرغت فائتني أكون أنا أضعهم بيدي**»، ففقرت لها وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت منها جئته وأخبرته، فخرج معي إليها نقرب له الودي ويضعه بيده فو الذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي عليَّ

---

(١) عبد الله بن المبارك: ١١٨-١٨١ هـ، عاش حتى أيام الرشيد، عالم المشرق والمغرب لما جمع في أعماله من فَهْم رائع سليم للشريعة.

المال، فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة دجاجة من ذهب في بعض المغازي فقال: ما فعل الفارسي المكاتب؟ فدعيت له فقال: «**خذها فأدِّ بها ما عليك**»، قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليَّ، قال: «**خذها فسيؤدي الله عنك**»، فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية، وأوفيتهم حقهم وعُتقت، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرًّا، ثم لم يفتني معه مشهد.

[سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/ ٥١١ وقال المحقق فيه: «رجاله ثقات وإسناده قوي»].

فهو قبل الخندق عبد من العبيد، وقد كان من الممكن أن يُمضي عمره، رقيقًا مع الرقيق، لولا جاءت تلك الرعاية النبوية فحررته من هذا العالم المنكور والبئيس.

وسخرت طاقات المسلمين جميعًا لإنقاذه، بالجهد العضلي، والجهد المالي، والتبرع السخي بفسائل النخل، ولم ينسه رسول الله ﷺ، فكان أول ما ورد له بمقدار بيضة الذهب من الغنائم قال: «**أين الغلام الفارسي؟**» أو: «**ما فعل الفارسي المكاتب؟**»، فقد كان كل همه منصبًّا عليه ليخلصه من تلك العبودية من الغنائم فإذا به يشهد الخندق حرًّا، وإذا به يقلب الموازين كلها، حتى لتصعق قريش من فعلته، وتتحطم خططها كلها على أعتاب الخندق قائلين: هذه المكيدة ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدها، قالوا: إن معه رجلًا فارسيًّا، فهو الذي أشار عليه بهذا، قالوا: فمن هناك إذًا.

هذا ولم يقدم خبرته الحربية فقط، بل قدم خبرته الفنية المختصة في حفر الخندق كما في رواية الواقدي: وتنافس الناس يومئذ في سلمان الفارسي رضي الله عنه، فقال المهاجرون: سلمان منا! وكان قويًّا عارفًا بحفر الخندق.

وقالت الأنصار: هو منا ونحن أحق به، فبلغ رسول الله ﷺ قولهم فقال: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ**»، ولقد كان يومئذ يعمل عمل عشرة رجال. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٦، ٤٤٧].

وفي رواية الطبري: (فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي رضي الله عنه، وكان رجلًا قويًّا، فقالت الأنصار: سلمان منا، وقال المهاجرون: سلمان منا، فقال النبي ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ**».

[جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري ١٠/ ٥٨ هذا وإن كان في الروايتين ضعف، فقد ورد عن علي رضي الله عنه قوله عن سلمان رضي الله عنه: أدرك العلم الأول والعلم الآخر بحر لا يدرك مقره، وهو منا أهل البيت. وقال المحقق فيه: «رجاله ثقات». ينظر: سير أعلام النبلاء ١/ ٥٤١]. [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٥٤-٥٥].

٤ ـ توزيع العمل الميداني ووحدة المسؤولية:

يقول د/ الفنيسان: «لما خط رسول الله ﷺ الخندق، قسَّم أصحابه إلى عدة [حظائر] عشرة عشرة، وجعل على كل عشرة عريفًا، وأعطى لكل عشرة ٢٠ ذراعًا طولًا بعمق ٧ أذرع وعرض ١٢ ذراعًا، وإذا عرفتَ أن عدد المسلمين ثلاثة آلاف جندي لا غير، وقد حفروا الخندق بهذه المواصفات في مدة ستة أيام كما يقول ابن سعد، إذا عرفت ذلك بان لك أي جهد بذلوه فيه». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٠].

ويقول د/ أبو فارس: «نلاحظ أن رسول الله ﷺ قد قسم الخندق بين أصحابه إذ جعل لكل عشرة واجبًا أن يحفروا أربعين ذرعًا، ويمكننا أن ندرك أن العمل مهما كان عظيمًا شاقًا مضنيًا إذا قُسِّم إلى وحدات صغيرة وأقسام قليلة يصبح سهلًا على النفوس، ويهون عليها هذا العمل الضخم بتجزئته؛ ذلك لأن النفس حين تنهي جزءًا من العمل تستهين ببقيته أو على الأقل تتحمس لإنهائه.

وعن طريق تقسيم العمل يقبل الناس على التنافس في الخير، ويتسابقون في العمل، ويسارعون في بذل أقصى طاقاتهم لإتمامه وفيه يشعر كل إنسان بما أنتج.

والتقسيم أيضًا يدل على عقلية الرسول ﷺ المنظمة لكل الطاقات البشرية التي تحت يده.

فلا غرو إذن أن نعلم أن الخندق قد بلغ طوله خمسة آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع وعمقه سبعة أذرع، قد حفره المسلمون في جو بارد ممطر شديد الريح في مدة لم تبلغ شهرًا بل أقل من ذلك».

[الرسول العربي وفن الحرب ص ١٩٤]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٣-١٠٤].

٥ ـ القائد قدوة لمجتمعه يجوع معه ويشبع معه ويألم لألمه ويفرح لفرحه:

يقول د/ أبو فارس: «إن الرسول ﷺ لم يقف موقف المتفرج من الصحابة، وهم يحفرون الخندق في البرد الشديد والريح الشديد، ولم يقف موقف المشجِّع على الحفر بالكلام المعسول أو الأمر الصارم من برج عاجي، كما يفعل بعض الزعماء في هذا العصر، بل انطلق يشاركهم النصب والتعب، بحفرهم طوال أيام الخندق، يده مع أيديهم، حتى غطى التراب بطنه الشريف ﷺ». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٢].

ويقول د/ الحميدي: «لقد شارك رسول الله ﷺ أصحابه في حفر الخندق، فلقد كان قائدًا لأصحابه حتى في هذا العمل الشاق، ولقد بذل جهدًا كبيرًا في ذلك حتى كسى التراب جسده الشريف.

ويداهمه النوم ﷺ من شدة الإعياء والسهر، فينام مستندًا على حجر، ويشفق عليه صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيصرفان عنه الناس ليستغرق في نومه، ولكنه ينتبه من دبيب أقدام حوله فيلوم أصحابه على تركه نائمًا خشية أن يتأخر العمل في حفر الخندق، ولقد كان ﷺ كما سبق في غزوة أحد إذا جد الجد لا يشبهه أحد.

ونجده ﷺ يحرِّض أصحابه على الجد في العمل فيذكِّرهم بنعيم الآخرة ليجتهدوا في العمل الصالح الموصل إلى ذلك النعيم فيقول لهم وهم يحفرون الخندق:

اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ ... فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ

فيجيبونه بلسان المؤمن الواثق:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

وكان ﷺ وهو ينقل التراب يرتجز بشعر ابن رواحة المذكور في الخبر، وذلك ليشد من عزائم المسلمين.

لقد كان بإمكانه ﷺ أن يبقى في حصن منيع وأن يتخذ لنفسه حرسًا، وما أكثر الذين يفدونه بأرواحهم من أصحابه، ولو فعل ذلك لم يعترض عليه أحد، ولرأى الصحابة أن ذلك من حقه وأن من واجبهم أن يقوموا بحمايته، وأن يتولوا حماية المدينة بحفر الخندق، ولكنه ﷺ قدوة عليا لأمته فهو دائمًا يسابق أصحابه إلى البذل والتضحية ولا يوفر نفسه من الأعمال الشاقة.

إن مشاركة النبي ﷺ بنفسه في حفر الخندق مع أنه زعيم المسلمين وإمامهم وبين قوم يفدونه بأرواحهم لمن أقوى الأدلة على صفاته التربوية العالية وخلود عظمته عبر الأجيال، فلم يجعل من نفسه زعيمًا دنيويًّا يصدر الأوامر والنواهي وهو في معزل من عامة الناس بل شاركهم في السراء والضراء، يشبع إذا شبعوا ويجوع إذا جاعوا، ويعمل في المصالح العامة كما يعملون، وما هذا إلا مثل من أمثلة كثيرة لتواضعه وسلوكه التربوي العالي ﷺ». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٠٦-١٠٧**].

ويقول د/ الغضبان: «وما كان يمكن أن يتم الحفر بهذه السرعة، وبهذه الإمكانيات الهائلة، لو لم يكن القائد الحبيب ﷺ الركن الأساسي في التنفيذ، ليس تشريف الحضور فقط، وليس قطع الشريط فقط، وليس المرور على العمال فقط، بل هو سيد العمال ﷺ.

أي تربية في البناء تفوق هذه التربية، فلا داعي أن يتكلم أو يصدر الأوامر، ويلح ويهدد ويتوعد من ينكل عن العمل بالسجن أو الموت، أو اتهامه بالخيانة العظمى لإعدامه، حيث سهَّل دخول العدو للمدينة، إنما كان يكفي سيد ولد آدم ﷺ أن يكون بين الغبار والحجارة يحمل ويحفر ويقطع وينشر مع صحبه، وحين يرى من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان رسوله الحبيب ﷺ، وقد أغبر بطنه وعلاه التراب، يغرف بالمسحاة التراب، ويضرب مرة بالمعول، ومرة يحمل التراب في المكتل، هل يمكن أن يتردد لحظة، أو يتلكأ لحظة عن العمل إلا أن يكون منافقًا، مغموصًا في النفاق.

إن كثيرًا من الأمم قد اندثرت عندما جاءها مثل هذا الغزو، ولم تعد له عدته، واستبيحت بيضتها، وسُبي نساؤها، وقُتل رجالها، وإن عظمة القادة لتبرز في أمثال هذه المحن، فتواجه الأعاصير بأعاصير أعظم، وتحيط الهجوم منذ لحظاته الأولى». [**التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٣، ٢٤-٢٥**].

ويقول الشيخ عرجون: «هذا رشح من غيث النبوة في قيادة النبي ﷺ لمجتمعه المسلم في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وهو ﷺ أكرم خلق الله على الله، وأعزهم عنده، وأحبهم إليه يشارك أصحابه وجند كتائبه في حمل تراب الخندق حتى يواري التراب جلد بطنه، ويجوع معهم، ويبقى على الجوع كما بقوا أيامًا وليالي لا يذوقون فيها ذواقًا ولا يطعمون شيئًا، ولا يقدرون على شيء يقيم أصلابهم.

ويشتد به ﷺ الجوع حتى تلتصق بطنه بظهره، ويخشى أن يُعجزه ذلك عن العمل كما يعمل أصحابه فيشد على بطنه الحجر ليقيم به صلبه، ويرى ما عليه أصحابه من المسغبة وشدة الجوع وقسوة البرد، وهم يعملون في حفر الخندق بأنفسهم في غداة باردة، فيعللهم بالأناشيد الباعثة على حب العمل واحتمال مشقته والدأب عليه كما تعلل الأم الرؤوم فلذة كبدها وهي تراه يتلوى من الجوع وقد قلص ثديها وجف عن مَذقة ترضعه إياها، وأصحابه ﷺ ينسون ما بهم من آلام فيجاذبونه النشيد ويجيبونه بقولهم:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا　　　عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

ليقروا عينه ويشعروه ﷺ أنهم شروا أنفسهم في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وأنهم بايعوه ﷺ على الجهاد ما بقوا على ظهر الأرض تنبض قلوبهم بالحياة». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٥٢].

٦ ـ العدالة والمساواة في المجتمع الإسلامي:

يقول د/ البوطي: «وفيما استعرضناه من مشهد عمل الصحابة مع رسول الله ﷺ في حفر الخندق، عبر بالغة كبرى، توضح لك حقيقة المساواة التي يرسيها المجتمع الإسلامي بين جميع أفراده المسلمين، وتكشف لك عن أن العدالة والمساواة، ليستا في الاعتبار الإسلامي مجرد شعارات يُزين بها ظاهر المجتمع، أو يُوضع منه في إطار لامع براق، وإنما العدالة والمساواة هما الأساس الواقعي الذي تنبثق منه عامة القيم والمبادئ الإسلامية ظاهرًا وباطنًا.

فأنت تجد أن رسول الله ﷺ لم يندب المسلمين إلى حفر الخندق، ثم ذهب يراقبهم في قصر منيف له مستريحًا هادئًا، ولا أقبل إليهم في احتفال صاخب رنان ليمسك معول أحدهم بأطراف أصابعه، فيضرب به ضربة واحدة في الأرض إيذانًا ببدء العمل وتخييلًا لهم أنه قد شاركهم في ذلك، ثم يلقي المعول ويدير ظهره إليهم، ينفض عن حلته ما قد علق بها من ذرات غبار.

ولكن رسول الله ﷺ انخرط في العمل كأي واحد من أصحابه، حتى لبس ثوبًا من الأتربة والغبار على جسمه، فما تُفرقِّه عن أي عامل آخر من صحبه وإخوانه، يرتجزون لينشط بعضهم بعضًا، فيرتجز معهم، ويتعبون ويجوعون فيكون أولهم تعبًا وجوعًا، وتلك هي حقيقة ما أقامته الشريعة الإسلامية من مساواة بين الحاكم والمحكوم، والغنى والفقير، والصعلوك والأمير، وأنت لا تجد فرعًا من فروع الشريعة وأحكامها إلا قائمًا على هذا الأساس ضامنًا لهذا الحق.

وأعيذك أن تخطئ فتسمى هذه ديمقراطية في السلوك والحكم، فشتان ما بينهما من الفرق.

مصدر هذه العدالة والمساواة في الدين الإسلامي، هو العبودية لله تعالى، وهي صفة عامة شاملة للناس كلهم، تضعهم في صف واحد من المكانة والاعتبار، ومصدر ما يسمونه بالديمقراطية، تحكيم رأي الأكثرية أي تأليه رأي الأكثرية على الآخرين، مهما كانت طبيعة ذلك الرأي ومرماه.

من أجل هذا، لا تعوج الشريعة الإسلامية على شيء مما يسمى بالامتيازات لأي طبقة أو فئة من الناس، ولا تخص جماعة منهم بحصانة ما مهما كانت الدوافع والأسباب؛ لأن صفة العبودية لله تعالى من شأنها أن تُذيب كل ذلك وتلغيه من الاعتبار». [فقه السيرة للبوطي ٢٣١].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد تمثلت المساواة بين جميع المسلمين، وتحققت بشكل واضح في حفر الخندق، فلم يترفع أحد عن العمل، لقد شارك في الخندق الغني والفقير، والقائد والجندي، لم يتأخر أحد، ولم يؤذن لأحد بالتخلف إلا إذا كان منافقًا مخادعًا جبانًا صاحب فتنة، أما المسلمون فقد شاركوا في الخندق سواء.

إن هذا الدين لا يعرف التمييز العنصري، ولا يعرف المحاباة، فلا يحابي الأغنياء على الفقراء، ولا يعرف الصراع الطبقي فيؤيد طبقة على طبقة، إنه يوجب على أتباعه كلهم غنيهم وفقيرهم أن يكونوا كالجسد الواحد متعاونين متكافلين متضامنين، وهم أمام القانون سواء قولًا وعملًا.

هذا ما تحقق فعلًا في غزوة الأحزاب وفي حفر الخندق بالذات». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٨].

ويقول الشيخ عرجون: «هذا الموقف الإنساني النبيل وهذا الفعل الكريم من النبي ﷺ وأصحابه المجاهدين يضع هذا المجتمع المسلم في مكان حجر الزاوية من بناء كتائب الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، ويجعل من قيادته العظمى ممثلة في رسول الله ﷺ أفقها المتسامي الذي تتطلبه حياة مجتمع نيط به نشر رسالة الحق والخير والهدى والنور، وإقامة موازين العدل والتراحم بين عامة الناس وخاصتهم على أساس أقصى ما يتحمل الإنسان من الصبر على البأساء والضراء، ويجعله قائمًا على أرفع منازل التواسي بالخير بين القيادة وجنودها في العسر واليسر والمنشط والمكره، والشدة والرخاء؛ ليعلم الناس أن رسالة الإسلام لا تبيح للقادة والرؤساء والحكام والزعماء المتولِّين أمور قيادة الشعوب والأمم أن يستأثروا بالعيش الرغد الرخي الهني، والحياة المترفة المتنعمة، وهم يديرون شؤون أممهم من وراء جدران القصور، يتثاءبون من الكظة، ويتجشؤون من البِطْنة، وهم يعلمون أن شعوبهم المسلمة تعيش على شظف العيش وقفار اللقمة إن وجدوها وقدروا عليها، ويعيشون على عُرْي العورات في حَمَّارة القيظ وقرقرة الصقيع.

وحسب هؤلاء القادة عند أنفسهم أن يسلطوا على شعوبهم شراذم المرتزقة من المتفيهقين أصحاب اللَّسَن الخادع المنافق الكذوب ليقولوا عن السواد المظلم في حياة هذه الشعوب إنه بياض مضيء، وعن صُفرة الجوع إنها نضرة النعيم، وحسب هؤلاء القادة عند أنفسهم وعند المتنفعين بما في أيديهم من لعاعات الدنيا إذا جد الجد وطالبتهم الحياة قَسْرًا أن يقوموا بأداء واجباتهم إزاء شعوبهم، ويقفوا إلى جانبهم في دفع الظلم أن يتواروا وراء أسجاف من الخداع الكذوب في بيانات إذاعية تُكتب لهم بأقلام

النفاق، يتحدثون فيها عن الإسلام وهدايته، أو في احتفالات ألصقوها بالدين افتراء على الله وعلى دينه، وهم يعلمون أن هذه الاحتفالات التي تطنطن بها الإذاعات ودور الإعلام المأجورة ما أنزل الله بها من سلطان، وهم الممكَّنون في الأرض بما ملَّكهم الله من سلطان القيادة، وبما وضع في أيديهم من ثروات هائلة، هي في الحقيقة ملك لهذه الشعوب الجائعة العارية أخرجتها لهم أرضهم وسواعدهم، وسقتها دموعهم وعرقهم، وغذاها دمهم، وهؤلاء القادة الحاكمون مستخلفون فيها لإنفاقها فيما يحفظ على الشعوب حرية دينها وعقيدتها وشرف وطنها، ويتيح لها انطلاق حركاتها في هذا الوطن بما يكفل لها القيام بواجباتها في حماية الحق والعدل، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم]».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٥١-١٥٢].

ويقول د/ فيض الله: «رأينا في حفر الخندق، كيف أن النبي ﷺ شارك في الحفر مشاركة فعلية لا رمزية ـ كما يصنع بعض الحاكمين المتزعمين ـ حتى علا بطنه الغبار، ومسه الجوع، وتصبب منه العرق، وتعب كما تعب أصحابه، مع أنه سيد الخلق ﷺ، وصاحب الشرع، وهو الذي لو أمر أُطيع، ولو دعا أُجيب، ولو أشار هفت لإشارته قلوب وهام...

لكنه ﷺ كان رأسًا في الوحي، وفردًا من الناس فيما سواه، وعلى التخصيص في الأمر الجد الذي يحيق بالجماعة، فيقتضيها بذلًا أو عملًا أو جهدًا أو تحركًا، فقد كان أسبقهم فيه، وأكثرهم تحملًا لمسؤوليته، يُعرف ذلك من خلال سيرته، في أسفاره وغزواته، كهذه التي نحن بصددها، وفي رحلاته، أَوَ لم يقل ﷺ مرة لأصحابه ـ لما هموا أن يسقوه مما في بيوتهم، فقال: «**لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، اسْقُونِي مِمَّا يَشْرَبُ مِنْهُ النَّاسُ**».

[مسند أحمد ٣/ ٣٤١ عن ابن عباس رضي الله عنهما رقم ١٨٤١، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح. ونصه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَافَ بِالبَيْتِ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَاسْتَلَمَ الحَجَرَ بِمِحْجَنٍ كَانَ مَعَهُ، قَالَ: وَأَتَى السِّقَايَةَ فَقَالَ: «اسْقُونِي»، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا يَخُوضُهُ النَّاسُ، وَلَكِنَّا نَأْتِيكَ بِهِ مِنْ البَيْتِ، فَقَالَ ﷺ: «لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، اسْقُونِي مِمَّا يَشْرَبُ مِنْهُ النَّاسُ»].

بل يروي الأئمة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُ المَرِيضَ، وَيَشْهَدُ الجَنَازَةَ، وَيَرْكَبُ الحِمَارَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ العَبْدِ، وَكَانَ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِنْ لِيفٍ، عَلَيْهِ إِكَافُ** (برذعة) **لِيفٍ**». [الترمذي في الجنائز (١٠١٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٨)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

فهذان وذاك وغيرُها من أمثلة المساواة في الإسلام، كان النبي ﷺ يطبقها على نفسه فعلًا، قبل أن يصدرها للناس شرعًا وحكمًا، ولا يرى لنفسه ميزة على سواه إلا بالوحي، الذي يجعله أكثرهم مسؤولية، واضطلاعًا بالتَّبِعات الجِسَام، لا أن يعفيه من الواجبات، أو أن يستثنيه من التشريعات، إلا ما خصه به رب العالمين.

ومن ثم نهى عن إِطْرائه، كما فعلت النصارى بالمسيح ﷺ وقال ﷺ: «**لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** ﷺ، **إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ**». [وتمامه: قَالَ عَبْدُ الله بْنُ بُسْرٍ ﷺ: كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَصْعَةٌ يُقَالُ لَهَا الغَرَّاءُ، يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ، فَلَمَّا أَضْحَوْا وَسَجَدُوا الضُّحَى أُتِيَ بِتِلكَ القَصْعَةِ ـ يَعْنِي وَقَدْ ثُرِدَ فِيهَا ـ فَالتَفُّوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا كَثُرُوا جَثَا رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: مَا هَذِهِ الجِلسَةُ؟! قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:...». البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥)، وفي الحدود (٦٨٣٠)، والدارمي في الرقاق (٢٧٨٤)، وأحمد عن عمر ﷺ رقم ١٥٥، ١٦٥، ٣٣٣، ٣٩٣، واللفظ لأحمد].

فهو رسول الله، لا يشاركه في هذه الصفة أحد بعده، وهو عبد الله، والعبودية صفة مشتركة بينه وبين سائر العباد، في التكليف والالتزام، ومع ما فيها من معاني الذل والخضوع والتطامن، فإن العبودية لله وحده رفعة وتشريف، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن].

ولما خُيِّرَ ﷺ بين أن يكون نبيًّا ملكًا، وبين أن يكون نبيًّا عبدًا، اختار أن يكون نبيًّا عبدًا، واعتز بهذه العبودية فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَعَلَنِي عَبْدًا كَرِيمًا، وَلَمْ يَجْعَلنِي جَبَّارًا عَنِيدًا**».

[أبو داود في الأطعمة (٣٧٧٣)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٦٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

إن تحققه ﷺ بوصف العبودية هذا كاملًا، مع الرسالة، جعله الإنسان الكامل في إنسانيته؛ لا جرم كان لهذا قدوة الناس، وسيد العالمين ﷺ.

ومع ذلك، فليس لنا أن نُنْزِلَ بمقامه هذا، فنسويه بنا ـ ونقول: إنه عبد وبشر ـ يعبد الله مثلنا، ويفكر مثلنا، ويدبر مثلنا... تأدبًا؛ لأن عبوديته لا تُناغى (أي لا تُدَانَى)، ولا تُغَالَب، وبشريته ـ بكمالها ـ في القمة والذروة بالنسبة إلى سائر الخلق ﷺ». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٢٨-٢٢٩].

٧ ـ إعطاء المسؤول القدوة في تقدم فريق العمل:

يقول الشيخ الغزالي: «إن الدفاع عن الإسلام ومخافة الفتنة لو انتصر المشركون، جعلت الرسول ﷺ وصحابته يعالجون هذا العمل الثقيل ونفوسهم راضية مغتبطة مع ما يلقون فيه من عناء وصعوبة.

ولا تحسبنَّ عمل رسول الله ﷺ في تعميق الخندق وقذف أتربته من قبيل التمثيل الذي يحسنه بعض الزعماء في عصرنا. كلا. كلا.

إن الرجولة الكادحة الجادة في أنبل صورها كانت تقتبس من مسلك الرسول ﷺ في هذه المعركة.

يقول البراء: وَارَى عَنِّي الغُبَارُ جِلدَةَ بَطْنِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ.

أجل إنه استغرق في العمل مع أصحابه، فالرجولة الصادقة لا تعرف التمثيل».

[فقه السيرة للغزالي ٣٠٦].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد لاحظنا رسول الله ﷺ يشارك في حفر الخندق وهو في سن الشيخوخة بل ويتفوق على الشباب، فتكل سواعدهم ولا يكل وتضعف عزيمتهم وهو لا يضعف وقد شارف على إنهاء العقد السادس من عمره ﷺ، إذ كانت سنه ثمانية وخمسين عامًا.

لقد كان يختار أشق الأعمال وأصعبها في الخندق، بل كان الشباب يستعينون به إذا اعترضت سبيلهم كدية.

لقد كانت مشاركته حقيقية يحمل التراب ويحطم الصخور، مشاركة بعيدة عن الشكليات التي يسلكها كثير من الزعماء اليوم، إن كثيرًا من الحكام الجاهليين في جاهلية القرن العشرين يتكلف التواضع ويتظاهر بمشاركة العاملين عملهم فيضع حجر الأساس أو يغرس الشجرة تشجيعًا للناس على الزراعة، وتقوم أجهزة الإعلام بالدعاية العريضة، علمًا بأن أناسًا يحملون له الحجر أو الشجرة وآخرين يحفرون له الحفرة، ويقوم هو بوضع الحجر أو بغرس الشجرة بلباسه الأنيق دون أن يتغبر حذاؤه.

لا إن هذا الصنيع لا يدل على همة عالية من فاعله، ولا على تواضع جم من صاحبه، إنه التزييف والتزوير الذي تضحك منه الجماهير ولا تخدع به ولا تنطلي عليها الحيلة أبدًا.

إن التواضع الجم والهمة العالية تكون بمشاركة الناس فعلًا كما كان رسول الله ﷺ يفعل في الخندق وفي غير الخندق، بل كان يختار أشق الأعمال في سفره عند تجهيز الطعام، فإن اختار أحد أصحابه ذبح الشاة والآخر سلخها والثالث طبخها فقد اختار ﷺ جمع الحطب وهو أشق الأعمال كما ترى، لم يختر هذا مجاملة حتى يكفيه أصحابه، بل اختار هذا فعلًا وأصر على القيام به، وقد عرض أصحابه عليه أن يكفوه».
[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٢-١٠٣].

٨ ـ التواضع:

يقول د/ المدخلي: «مبدأ شرعي من مبادئ هذا الدين الحنيف وخلق كريم، ولقد وقف النبي ﷺ يوم عرفة في حجته التي تسمى حجة الوداع وقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ**». الحديث. [مسند الإمام أحمد ٣٨/ ٤٧٤ رقم ٢٣٤٨٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح، وقد جاء في صحيح مسلم ٤/ ٢١٩٩: **إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**. الحديث].

من هذا المنطلق يتبين أن التواضع من الرئيس لمرؤوسيه؛ ومن الكبير للصغير، بل التواضع من كل أحد مما دعا إليه الإسلام، وقد فعل ذلك ﷺ وطبق بنفسه هذا المبدأ العظيم.

حيث باشر بنفسه في هذه الغزوة حفر الخندق، ونقل التراب، وقد روى البراء بن عازب رضي الله عنه أنه ﷺ فعل ذلك حتى اغبر بطنه.

وما ذلك إلا لمعرفته بالله، وتواضعه لمن شرح صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره، حيث لا يُذكر الله ﷻ إلا ويذكر ﷺ.

وتواضعه ﷺ يتجلى دائمًا بين أصحابه سواء في الحرب أو في السلم وسنته مليئة بمثل ذلك».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤].

ويقول د/ أبو فارس: «التواضع الذي لاحظناه من رسول الله ﷺ وهو يكسر الخبز ويصب عليه المرق ويجعل عليه اللحم ويقربه إلى أصحابه حتى شبعوا.

أقول: لو كان قادة جيوشنا اليوم يفعلون لجنودهم ما كان يفعله الرسول ﷺ لجنده لتغير وجه التاريخ، وحققوا المعجزات في حبهم وإخلاصهم وتضحيتهم، بخلاف ما هم عليه من التدابر والتباغض والتشاحن والحقد، لما يراه الجندي من تكبر قائده عليه واتخاذه إياه خادمًا، وما يراه الضابط الصغير من تكبر الضابط الكبير عليه وتحقيره». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٢٠].

ويقول د/ الحميدي: «وفي خبر جابر ﷺ بيان لشيء من أخلاق النبي ﷺ العالية، حيث كان يتولى تقديم الطعام لأصحابه ﷺ حتى شبعوا، وفي هذا دلالة على تواضعه العظيم، والتواضع يعتبر من أعظم صفات الكمال في الإنسان». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١١٤].

٩ ـ كان صبر رسول الله ﷺ واحتماله فوق مستوى المحن في غزوة الأحزاب حتى جاء نصر الله:

يقول الشيخ عرجون: «كانت هذه الغزوة مليئة بالأحداث والوقائع التي كانت تمثل كثيرًا من معالم منهج الرسالة الخالدة في شدائدها وأزماتها ومحنها، والتي قابلها رسول الله ﷺ وهو القائد الأعظم بأعظم الصبر وقوة الاحتمال، فكان لأصحابه المجاهدين تحت لوائه أجلَّ قدوة وأعظم أسوة فيما تطلبته أحداث الغزوة من مواقف تعتمد على العزائم الصادقة والإيمان الراسخ واليقين الذي لا تزلزله كوارث البلاء والمحن.

هذه إلى جانب ما كان في أحداثها من معالم الغيب الإلهي الذي يمثل فضل الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى أصحابه في تفريج المضايق والنوازل والبلايا التي كانت تمحيصًا لهم وإظهارًا لقوة عزائمهم وإخلاصهم، وليكون فضل الله في تفريج النوازل والمحن تضميدًا لجراحهم، وبشرى لهم في مستقبل حياة مجتمعهم، وشحذًا لفضائلهم الإنسانية النبيلة، التي رباهم عليها قائدهم الأعظم ﷺ، ولتكون هذه الفضائل هي سلاحهم المعنوي في تحمل لأواء الحياة بصبر صبور، ونضال لا تُفَلُّ قناته، ولا تخضد شوكته، ولا تغمز كرامته، ولا يطمع في النَّيْل منه الطامعون، وتزداد قوتهم الروحية، التي تستمد عناصرها من إيمانهم بالله الذي يَرد بها كيد الكائدين، ويهبها من قوة العزيمة ما تتحدى به قوى أعدائها المادية، ومن قوة الإرادة ما تقهر به قوى حشودهم مهما تكاثرت وتكاثفت عددًا وعدة ».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٣٦-١٣٧].

١٠ ـ محبة الراعي للرعية والشفقة عليهم:

يقول د/ البوطي: «وفيما استعرضناه من مشهد عمل الصحابة مع رسول الله ﷺ في حفر الخندق عظة وعبرة أخرى تكشف لك عن مظهر النبوة في شخصية النبي ﷺ، وتضعك أمام مدى ما كانت تمتلئ به نفسه من محبة أصحابه والشفقة عليهم، وتعطيك مثالًا آخر للخوارق والمعجزات التي أكرم الله بها نبيه ﷺ.

فأما ما يتجلى من شخصيته النبوية في هذا المشهد، فذلك يبدو في مكابدته ﷺ للجوع الشديد أثناء عمله مع أصحابه، حتى إنه ليشد الحجر على بطنه، يتقي بذلك ما يجده الجائع من ألم الفراغ في معدته، ترى ما الذي يمكن أن يحمله على المعاناة لمثل هذه المشقة والجهد؟ أهو التطلع للزعامة؟ أم هي الرغبة في المال والملك؟ أم هو الطموح إلى أن يجد من حوله شيعة وأتباعًا؟... كل هذه المطامع، تناقض مناقضة صارخة هذا الذي يكابده ويعانيه، وما أبعد الرجل الذي يطمع في جاه أو ملك أو سلطان عن الصبر على تحمل مثل هذه الآلام.

إن الذي يحمله على تحمل كل ذلك إنما هو مسؤولية الرسالة والأمانة التي كُلِّف بتبليغها والسير بها إلى الناس في طريق هذه طبيعتها، فهذه الشخصية النبوية التي تتجلى في عمله ﷺ مع أصحابه في حفر الخندق.

وأما ما يبدو خلال ذلك من محبته الشديدة لأصحابه والشفقة عليهم، فإنك لتجده واضحًا في موقفه ﷺ من دعوة جابر رضي الله عنه له إلى طعامه القليل، ذلك الذي صنعه له.

لقد كان الذي دفع جابر رضي الله عنه إلى دعوته ﷺ، ما اكتشفه من شدة جوعه ﷺ حينما رأى الحجر المربوط على بطنه الشريف، ولم يكن في بيته من الطعام إلا ما يكفى لبضعة أشخاص، فاضطر إلى أن يجعل الدعوة على قدر ما عنده من طعام.

ولكن كيف يُتصور أن يترك النبي ﷺ أصحابه في غمرة العمل وهم يتضورون مثله جوعًا، لينفرد عنهم مع ثلاثة أو أربعة من أصحابه يستريحون ويأكلون، وإنه لأشفق على أصحابه من شفقة الأم على أولادها؟!

أما جابر رضي الله عنه فقد كان مضطرًّا إلى ما فعل، وكان ذلك منه طبيعيًّا، إذ أنه ـ كأي مفكر عادي من الناس ـ لم يكن يملك أن يتصرف إلا حسب ما لديه من الأسباب المادية، والطعام الذي لديه لا يكفي فيما يُجمع عليه عُرف البشر إلا لهذا العدد اليسير، فليختص به إذًا رسول الله ﷺ ومن يشاء من بعض أصحابه في حدود ضيقة.

ولكنه ﷺ لم يكن من شانه أن يتأثر بنظرة جابر رضي الله عنه إليه، فهو أولًا لا يمكن أن يتميز عن أصحابه بشيء من النعمة أو الراحة، وهو ثانيًا لا يمكن أن يأسر نفسه تحت سلطان الأسباب المادية وحدودها

التي أَلِفها البشر، فالله وحده مسبب الأسباب وخالقها، ومن اليسير عليه سبحانه أن يجعل من الطعام اليسير كثيرًا، وأن يبارك في القليل منه حتى يكفي القوم كلهم.

ومهما يكن، فقد رأى رسول الله ﷺ أنه وأصحابه متضامنون متكافلون يتقاسمون النعمة بينهم مهما قلَّت كما يتقاسمون بينهم المحنة مهما عظمت وكثرت...! فمن أجل ذلك أرسل جابرًا رضي الله عنه - بعد أن أبلغه بما عنده - إلى داره ليهيئ لهم الطعام، وانفتل هو إلى عامة القوم يناديهم أن يُقبلوا جميعًا إلى صنيعة كبرى لهم في دار جابر رضي الله عنه». [فقه السيرة للبوطي ٢٣١-٢٣٣].

١١- لا حد لاهتمام النبي ﷺ بأمر أصحابه رضي الله عنهم، وامتزاجه بهم إحساسًا وشعورًا:

يقول د/ فيض الله: «لم يكن الأمر مقصورًا على مشاركة النبي ﷺ أصحابه فعلًا في حفر الخندق، بل كان كأحدهم: مَسَّه الجوع كما مَسَّهم، فلم يذق طعامًا خلال ثلاثة أيام، كما لم يذوقوا هم ذواقًا، بل شوهد وهو يهوي بالمعول، وبطنه معصوب بحجر، من شدة الجوع.

وما كان لرسول الله ﷺ وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، أن يفعل غير ذلك، ولا أن يستأثر بطعام من دونهم.

كان له من الغنائم الخمس، وكان يرده فيهم، فكيف يتميز عنهم في المخمصة؟

فهل سمعتِ الدنيا بمثل هذه المساواة العملية؟ وهل وصلت المساواة في قُطر من الأقطار، أو إقليم من الأقاليم في الشرق والغرب إلى هذا المستوى الإنساني الرفيع؟ لا، لا يكون هذا، ولن يكون إلا لنبي مرسل، أو ولي مقرَّب، أو مُتَّبعٍ للرسل والأنبياء بحق.

إن هذه المصابرة المجاهدة الجماعية للجوع، إنما كانت في سبيل الله، فلهذا أكرم الله تعالى نبيه ﷺ فأطعمهم من جوع، حتى شبعوا جميعًا، بفضله ورحمته، حدث ذلك مرتين في هذه الغزوة، كما رأينا في حديث أخت النعمان بن بشير رضي الله عنه، وحديث جابر رضي الله عنه.

فهذا الأحاديث، وغيرها كثير في الصحاح، من دلائل النبوة، ومن المعجزات التي أيد الله تعالى بها نبيه ﷺ وأكرمه بها؛ ليزداد بها المؤمنون إيمانًا، وليُفتن بها الكافرون، ومرضى القلوب، وضعاف اليقين، وعجاف المسلمين.

وهو أيضًا يشير إلى مبلغ حفاوة النبي ﷺ بأصحابه وحبه لهم، ورأفته بهم، واضطلاعه بمسؤوليته عنهم، في دينهم ودنياهم، وأحوالهم الخاصة، وكل ما يجري في حياتهم، فيؤلمهم أو يحزنهم أو يسوؤهم، أو يؤذيهم، وهي مسؤولية لا يحمل مثلها إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام.

أرأيت كيف اكتشف جابر ﷺ جوع النبي ﷺ إذ رآه يحفر مع صحابته في الخندق، وهو جائع، يعصب بطنه بالحجر، يغالب به الجوع، فلم يطق لذلك المنظر صبرًا، فهرع إلى أهله ليجد ما يسد به جوعته، فلم يجد إلا ما يكفي بضعة أشخاص، فقصر الدعوة عليهم.

وما كان لرسول الله ﷺ أن يستأثر بالطعام والخير من دون الصحابة، والطعام في ظاهره لا يكفيهم جميعًا؛ لكن قدرة الله على تكثير القليل، ومباركة اليسير، فوق الظواهر الطبيعية، وأكبر من الأسباب والمسببات المادية، فالتمسها النبي ﷺ في هذا المقام، فكان له ما أراد، معجزة خارقة، شاة واحدة، بل شويهة أو سلخة، تكفي أهل الخندق الجياع، وهم في حدود الثلاثة آلاف ـ كما رأينا عدتهم في صدر الغزوة ـ وقد ناداهم النبي الرؤوف الرحيم ﷺ: «**يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ! إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا فَحَيَّهَلًا بِكُمْ**».

إنها عناية الله تعالى برسوله وبمن معه، جاءت في موضعها المناسب، حفروا الخندق، وبذلوا كل طوقهم في الإعداد للقوى الكافرة الغادرة الشرسة وهم جياع، يعملون في سبيل الله، ولنُصرة دينه، فأكرمهم بقدرته إكرامًا، ومسهم بجناح من رحمته، أحوج ما كانوا إليها، وكانوا بها جديرين».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٣٣-٢٣٥].

١٢ ـ في ارتجاز النبي ﷺ وأصحابه للأبيات من الشعر:

يقول د/ أبو فارس: «في ارتجاز النبي ﷺ وأصحابه للأبيات من الشعر يمكننا أن نستنبط ما يلي:

لو تأملنا البيت الذي كان يرتجزه الصحابة:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا   عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

علام يدل ذلك؟

إنهم يدركون حقيقة البيعة، ويستشعرون خطورتها، إنها بيعة طوقت أعناقهم أعطوها للرسول ﷺ، إن وفوا بها كانت لهم الجنة، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

الظرف عسير، والبرد شديد، والريح عاصفة، والأحزاب زاحفة، كل شيء يخيف، إن النفس لتطير شعاعًا لهول هذا الموقف، وإن الأبصار لتزيغ والقلوب لتكاد تبلغ الحناجر، ولكنها حين تذكر أن في عنقها بيعة وهذه البيعة تقتضي الوفاء مهما ادلهمت الخطوب وأحلولكت الليالي، سكنت هذه النفس، وهدأ من روعها؛ لهذا كانوا ينشدون (**نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا**) ولا بأس بأن يكرروا هذا، وأن يكرر معهم كل مؤمن ومؤمنة قد بايعوا الله على الإسلام والجهاد في سبيله والثبات على ذلك حتى يلاقوا الله على ذلك ولم يبدلوا تبديلًا.

نسأله جلت قدرته، وعزت عظمته، وتباركت أسماؤه أن يتقبل منا، وأن يثبتنا على الحق حتى نلقاه، وأن يتوفانا مؤمنين ويجعلنا من ورثة جنة النعيم، ويمن علينا بالشهادة مع الشاهدين».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٤-١٠٥].

١٣ـ في أبيات الشعر التي كان رسول الله ﷺ يرتجزها:

يقول د/ أبو فارس: «من أبيات الشعر التي كان رسول الله ﷺ يرتجزها نلاحظ ما يلي:

(أ) حرص النبي ﷺ على أن يذكِّر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بنعمة الله عليهم أن هداهم للإيمان، وشرح صدورهم له، ووفقهم للصدقة والصلاة، وما كانوا ليهتدوا لهذا لولا أن هداهم الله.

وحين يذكر المسلم نعم الله عليه في هذه الظروف الحالكة يستشعر الحنان والود والفضل من الله فيستحي من مخالفة أمره والفرار من القتال.

(ب) **الدين محرر الشعوب لا أفيون الشعوب**: حرِص النبي ﷺ على تكرار بيت الشعر التالي:

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

يدل على أن الإسلام يأبى الظلم، ولا يرضى لأهله أن يُظلموا، وهو في نفس الوقت لا يشن حروبه من أجل ظلم الناس بل من أجل جلب الخير لهم وإنقاذهم من الضلالة إلى الهدى ومن الظلمات إلى النور، بل إنه يفرض على أتباعه أن يحاربوا الظلم والظالمين، مهما كلفتهم هذه الحروب من أموال وأنفس.

وكأني برسول الله ﷺ قد أراد أن يعمق في نفوس الصحابة أن الأحزاب جاؤوا لظلمهم، ولابد أن يشعر المظلوم أنه مظلوم أولًا، فإذا ما شعر بذلك هب بكل ما لديه من قوة ليعصف بالظلم والظالمين، ويصليهم نارًا تلظى، نعم إن الإسلام يحرر الشعوب من الظلم.

(ج) هذا البيت الذي يقوله رسول الله ﷺ:

اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَهْ فَأَكْرِمْ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ

يذكِّر بقيمة الحياة الدنيا وقيمة الحياة الآخرة، وأن العمل ينبغي أن ينصبَّ للحياة الآخرة؛ لأنها الحياة الخالدة الأبدية، والحياة الدنيا بالنسبة للآخرة ليست بشيء يُذكر ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد].

وتكرار هذا البيت يحمس الصحابة ويشجعهم على بذل الجهد في الحفر والتصدي للأحزاب، فإن انتصروا فقد أنعم الله عليهم بالأجر والنصر، وإن استشهدوا كانت الحياة الآخرة والعيشة الهانئة السعيدة، وهم يعملون لها، ينبغي أن يكون الهدف للمسلم التعلق بالآخرة، والرغبة فيما عند الله من النعيم المقيم، والثواب العميم، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧].

ونحسب والله ﷻ أعلم أن الرسول ﷺ وهو يتلو على مسامع الأنصار والمهاجرين هذا البيت ويكرره أنه لم يكن خبط عشواء، بل كان اختياره لهذا البيت اختيارًا له مغزاه وهدفه، إنه يهدف إلى رفع معنويات

الصحابة القتالية، بأن يبصرهم بأن الحياة التي ينبغي أن يجاهد المسلم من أجلها هي الآخرة، حيث النعيم المقيم، والرضوان العميم، لا يركن للدنيا، بل يفزع للآخرة قائلًا:

رَكْضًا إِلَى اللهِ بِغَيْرِ زَادِ

وإذا تفاعل مع هذه الحقيقة ثبت في قتاله ثبوت الشُّمِّ الرواسي، لا يتزحزح قيد أنملة.

إنها التربية الإيمانية التي يربيها رسول الله ﷺ لأتباعه، فأثمرت وأينعت خير أمة أُخرجت للناس في كل مجالات الحياة وشتى ينابيع المعرفة والتربية والعلوم». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٥-١٠٨].

١٤ ـ تعاون الجميع إذا هوجمت البلاد:

يقول د/ المدخلي: «وفي ذلك حديث سهل بن سعد الساعدي وحديث أنس رضي الله عنهما وكلاهما في الحفر، وما دار فيه، ففيهما من العبر والدروس الشيء الكثير منها:

(١) أنهم باعوا أنفسهم لله عز وجل وحرصوا على كل خير يقربهم إليه، وكان الرسول ﷺ هو القدوة في ذلك.

(٢) مباشرة الرسول ﷺ الحفر بنفسه تحريضًا للمسلمين على العمل ليتأسوا به في ذلك، وحتى يبتعدوا عن الاتكالية وما يعقبها من تبعات.

(٣) فيهما إشارة إلى تحقير عيش الدنيا مهما بلغ لما يعرض له من التكدير وسرعة الفناء ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى]، ﴿وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى].

(٤) ترديده ﷺ بعض الكلمات إجابة لأصحابه لما كانوا يقولونه أثناء الحفر؛ وذلك مما ينشط حيث إن الإنسان إذا اشتغل في عمل جسماني شاق فالسكوت يشق عليه ويتعب بسرعة أكثر مما لو كان يتكلم حيث ينسيه الكلام التعب، وهذا مُجَرَّب.

(٥) ملاطفته ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم وهو الموصوف بقول ربه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]، حيث كان أصحابه يرتجزون أثناء الحفر وهو ﷺ يردد معهم».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٤٠-٤٤١].

١٥ ـ التعاون والتكافل بين المجتمع المسلم:

يقول د/ الزيد: «يدلنا حديث جابر رضي الله عنه، ودعوته للرسول ﷺ للطعام، ثم دعوة الرسول ﷺ لأهل الخندق بكاملهم، مدى ما كان عليه أولئك القوم من التعاون، وأنه كان لا ينفرد أحدهم بطعام عن الباقين [ينظر: أبو زهرة، خاتم النبيين ﷺ ٢/ ٩٢٧]، بل تعاون وتعاضد فيما بينهم وإيثار وشفقه، وهذا شأن المجتمع المسلم الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى». [فقه السيرة للزيد ٥٠٣].

ويقول د/ أبو فارس: «من سيرة الصحابة في حفر الخندق تجد التعاون بين الصحابة ﭫ بعد أن يقوموا بواجباتهم، فكانت كل مجموعة تنهي ما قسم لها رسول الله ﷺ من الخندق لا تخلد للراحة بل تسارع على الفوز لتساعد المجموعة التي لم تفرغ من عملها».

[ينظر: تفسير القرطبي ١٤/ ١٣٠]. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٨-١٠٩].

١٦ ـ الحرص على الوقت وخيرات الطبيعة:

يقول د/ أبو فارس: «مما يلفت النظر أن الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا ينقلون التراب بالمكاتل وفي ثيابهم إلى جبل سلع ثم يعودون ومكاتلهم وثيابهم قد ملئت حجارة، علام يدل هذا؟

إنه الاستفادة من الوقت واستغلاله استغلالًا تامًّا، لا تهدر لحظة من اللحظات في غير فائدة، إنهم لم يضيعوا شيئًا من الوقت في الذهاب والإياب، بل استثمروه ليحقق مصالحهم وليدرأ الأخطار عنهم.

لقد استفادوا أيضًا من طبيعة الأرض وسخَّروها لخدمة المسلمين في المعركة، الحجارة المدببة والمحددة سلاح يؤثر على العدو إذا رماه به، وهذا السلاح مبذول لا يكلف شيئًا، يمكن الحصول عليه بسهولة.

لقد فطن المسلمون لاستغلال طبيعة الأرض في حين أن غيرهم لم يستفد منها شيئًا، بل تغير طبيعة الأرض الذي فاجأه أبطل خطته وكل حيلة عنده». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٩].

١٧ ـ في الخطر المحدق، القائد يبث الثقة، ويرسخ اليقين، ويعلق القلوب بالأمل:

يقول الشيخ الغزالي: «وكان الفصل شتاء، والجو باردًا، وهناك أزمة في الأقوات تعانيها المدينة التي توشك أن تتعرض لحصار عنيف، وليس هناك أقتل لروح المقاومة من اليأس، فلو تعرَّض المحصور لسَوْراته القابضة فمزالق الاستسلام الذليل أمامه تنجرُّ به إلى الحضيض؛ لذلك اجتهد النبي ﷺ في تدعيم القوى المعنوية لرجاله، حتى يوقنوا بأن الضائقة التي تواجههم سحابة صيف عن قليل تنقشع.

ثم يستأنف الإسلام مسيره بعد، فيدخل الناس فيه أفواجًا، وتندكُّ أمامه معاقل الظلم، فلا يصدر عنها كيد ولا تخشى منها فتنة.

ومن أحكام السياسة أن يقارن هذا الأمل الواسع مراحل الجهد المضني».

[فقه السيرة للغزالي ٣٠٦-٣٠٧].

ويقول د/ فيض الله: «كان النبي ﷺ مستوثقًا من النصر، رغم الخطر الذي طَوَّقَ المدينة، يستشرفه من خلف السُّهُوبِ (الواسعة من الأرض)، ومن وراء السهول، ومن فوق السحاب، كان يتوقعه في كل تحرك له، حتى إنه لما أخذ المِعْوَلَ، فضرب به تلك الصخرة العاتية، التي استعصت على الصحابة، فالتمعت لها أطراف يثرب، أبصر النصر في وميض الالتماعات، لا النصر في وقعة الأحزاب التي تغشتهم بشرها المستطير، وجَمْعها المحتشد، بل في المستقبل القريب والبعيد، في الشرق والغرب، استيقن أن دعوته وفتوحه ستبلغ بلاد الشام، ومدائن العراق، وأبواب صنعاء.

ولا يكاد الفكر يتصور مبلغ وقع هذا القول من الصادق المصدوق ﷺ، في مثل هذه الشدة الخانقة في قلوب الصحابة رضي الله عنهم، بل لا يكاد يُتصور مقدار القوة والطاقة التي تشحن بها نفوسهم، والعزم الماضي المصمم الذي ينبث في هممهم، وكذلك كان شأن الرسول ﷺ، كما هو القاعدة في الإسلام: لا يحرز النصر إلا بعد الابتلاء البين، وبذل منتهى الطوق، ومكابدة المشاق، ومعاندة اليأس، ومصابرة اليقين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف].

«**وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**». [وتمامه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ - أَوْ يَا غُلَيِّمُ - أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ**»، فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، قَدْ جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**». مسند أحمد ٥/ ١٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما رقم ٢٨٠٣ وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح].

وغني عن البيان، أن إصدار هذه البشائر في هذا الظرف العصيب الرهيب، من معجزات النبوة الخارقة، التي يكرم الله تعالى بها رسله، ويثبت بها فؤادهم، وأفئدة المؤمنين الذين يتبعونهم.

إلى أنها تنطوي على دروس لنا عظيمة، وعِبَر قيمة، وهي أنه ينبغي أن يقارع المؤمن الخطوب، ويغالب اليأس ويدافعه، حتى لا يجد إلى نفسه سبيلًا، ولو كان في متهاوى السيوف، وملتقى الأسنة، فلا يجتمع في قلبه إيمان ويأس: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف]».

[**صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٢٩-٢٣٠**].

١٨ - الالتزام الكامل والطاعة المطلقة للقيادة:

يقول د/ الحميدي: «لقد ظهرت طاعة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ وتفانيهم في تنفيذ أوامره، فقد بذلوا جهدًا مكثفًا في حفر الخندق، حتى استطاعوا - على طوله - أن ينجزوه في أيام معدودة، وأن ينجحوا في سبق الكفار وتحصين المدينة قبل مجيئهم». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٠٧**].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد ظهر هذا - أيضًا - حينما اعترضت تلك الصخرة في الخندق فكسرت معاول الذين يحفرون في هذه الناحية، وخطر على بالهم العدول عنها وتركها، إلا أن هذا الخاطر لم يُترك له العنان، وكان إحساسهم مرهفًا، إنهم لا يَقدمون على شيء ولا يذرون شيئًا حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ، فإن أذن لهم تركوها وإلا فلا، فهو ﷺ أقدر على تقدير الموقف منهم، فإذا قضى أمرًا فليس لهم الخيرة من أمرهم». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٩**].

١٩ ـ الفائدة في ربط الحجر على البطن عند الجوع:

يقول د/ أبو فارس: «لقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يوم الخندق كان يربط على بطنه حجرًا من شدة الجوع، فهل لهذا الفعل فائدة؟

نعم إن ربط الحجارة على المعدة الخالية والأمعاء الخالية يخفف من حدة ألم الجوع، قال ابن حجر رحمه الله في فتح الباري [٨/ ٣٩٩]: «وَفَائِدَةُ رَبْطِ الحَجَرِ عَلَى البَطْنِ أَنَّهَا تُضْمَرُ مِنَ الجُوعِ، فَيُخْشَى عَلَى انْحِنَاءِ الصُّلبِ بِوَاسِطَةِ ذَلِكَ، فَإِذَا وَضَعَ فَوْقَهَا الحَجَرَ وَشَدَّ عَلَيْهَا العِصَابَةَ اسْتَقَامَ الظَّهْرُ، وَقَالَ الكَرْمَانِيُّ: لَعَلَّهُ لِتَسْكِينِ حَرَارَةِ الجُوعِ بِبَرْدِ الحَجَرِ؛ وَلِأَنَّهَا حِجَارَةٌ رِقَاقٌ قَدْرُ البَطْنِ تَشُدُّ الأَمْعَاءَ، فَلَا يَتَحَلَّلُ شَيْءٌ مِمَّا فِي البَطْنِ، فَلَا يَحْصُلُ ضَعْفٌ زَائِدٌ بِسَبَبِ التَّحَلُّلِ». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٧-١١٨].

٢٠ ـ الكرم:

يقول د/ أبو فارس: «إن موقف جابر رضي الله عنه يدل على طيب نفسه، وكرم أصله إذ قدم ما يملك ولو كان قليلًا، إنه صاع من شعير وسخلة صغيرة، إنه لا يرهق نفسه ولا يتكلف في الأمر، وهكذا ينبغي أن تكون حياة الدعاة بسيطة في المأكل والمشرب والملبس، حتى يُعلِّموا الناس البساطة والكرم دون تكلف أو تحرج». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٩].

٢١ ـ طيب نفس زوجة جابر رضي الله عنها ووفور عقلها:

يقول د/ أبو فارس: «ظهر هذا حينما دخل جابر رضي الله عنه عليها وقد دعا رسول الله ﷺ أهل الخندق، وقد غلب عليه الحياء لقلة الطعام الذي صنعته امرأته، وشكا لها الأمر بقوله: افتضحتُ، فَقَالَتْ: هَل كَانَ سَأَلَكَ كَمْ طَعَامُكَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَتِ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَدْ أَخْبَرْنَاهُ مَا عِنْدَنَا، قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: فَكَشَفَتْ عَنِّي غَمًّا شَدِيدًا.

لقد أدركتْ زوج جابر رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قد دعا القوم على طعام قليل، ولا يكفي هذا الطعام في الأحوال العادية لعُشر معشارهم، أما وقد دعاهم رسول الله ﷺ فستكون البركة وستكون المعجزة.

إن هذا الفهم والإدراك منها يدل على وفور عقلها وكمال فضلها كما قال ابن حجر رحمه الله في الفتح [٨/ ٤٠١]». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٩].

٢٢ ـ الابتلاء طريق النصر:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما أكده القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ووقائع الأحداث مع كل الرسل وخاتمهم محمد ﷺ، وعلى الجماعة المؤمنة التي تترسم خطى الأنبياء أن تعد نفسها لهذا، وألا تضجر من هذه الابتلاءات فهي بمثابة إعداد وتربية للنفوس المؤمنة وتمحيص للصف المؤمن، إذ لابد للنفل أن يسقط وإن كان عاليًا على الشجرة وفي قمتها، ولابد للثمرة الطيبة وإن كانت ملتصقة بالأرض أن تثبت أمام الرياح الهوج حتى تنضج وينتفع بها الناس.

نعم إن الابتلاء هو سنة الله في الدعوات، ولا تبديل لسنة الله». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٣٠].

لقد بذل المسلمون كل ما استطاعوا من أجل أن ينشروا الدين الذي نعتنقه الآن، ولو لم يفعلوا ذلك لقضى الأحزاب على دولة الإسلام في مهدها، وأحسب أن المسلمين الآن الذين يناصرون الإسلام لن ينتصروا على أحزاب العصر الحديث الذين يريدون القضاء على نور الله إلا إذا جدوا وشمروا عن ساعدهم وزجروا نائمهم، ورضوا بحمل التراب على أكتافهم وجلابيبهم كما فعل رسول الله ﷺ وأصحابه.

والابتلاء يدل على المحبة: يقول د/ أبو فارس: «والابتلاء بحد ذاته منحة من الله ﷻ لعباده المؤمنين، والمبتلون هم أحباء الله، ذلك لأن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه، ويُبتلى الرجل على قدر دينه، فإن وجد في دينه صلابة زِيد له في البلاء.

ولعل قائلًا يقول ويتساءل مستغربًا: وهل الابتلاء يدل على المحبة فعلًا؟ وكيف يكون ذلك؟ وما أمارته؟

هل حين يوضع الرجل في غياهب السجون والمعتقلات التي لم تدخلها الشمس منذ أن بُنيت ويذوق خلالها من صنوف التعذيب وأهواله ما لا يخطر على قلب بشر، حيث يُكوى بالنار، ويُضرب بسياط الكهرباء، وتُقلع أظافره، ويُضرب على مواطن العفة بقسوة ووحشية، ويُذاب في الأحماض بعضه أو كله، هل هذا كله يدل على حب الله ﷻ للمؤمنين؟!

نعم كل هذا يدل على حب الله للمؤمنين وإلا كيف نفسر ما يلي ونجيب عليه؟!

ألم يؤذ رسل الله جميعًا من الكفار؟!

ألم يدخل يوسف عليه السلام السجن ظلمًا وبهتانًا؟!

ألم يُبَعْ يوسف عليه السلام ويعيش حياة الخدم في قصر عزيز مصر؟!

ألم يُطارد موسى عليه السلام من فرعون الطاغية، الذي أصر على قتله والذين آمنوا معه؟!

ألم يُقتل يحيى عليه السلام إرضاء لبغي من بغايا بني إسرائيل؟!

ألم يُقتل والده زكريا عليه السلام من بني إسرائيل لثباته على الحق؟!

ألم يُطارد اليهود عيسى عليه السلام ويصمموا على قتله إلا أن الله نجاه منهم؟!

ألم يُحكم على خليل الله إبراهيم عليه السلام بالموت حرقًا؟!

ألم يُؤذ نوح عليه السلام من قومه؟!

ألم يعتد أهل مكة على رسولنا محمد ﷺ؟!

ألم يعتد سفهاء أهل الطائف عليه فأدموا جسمه الشريف ﷺ؟!

ألم تتآمر قريش على قتله ﷺ؟!

وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال].

ألم يحاول يهود بني النضير قتله ﷺ غيلة وغدرًا؟!

ألم تضع امرأة يهودية في خيبر السم له ﷺ في الطعام؟!

نعم فما من رسول من رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إلا ابتلي وأوذي من قومه، بل وحاولوا قتله، قال تعالى يقرر هذه الحقيقة: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾[غافر: ٥].

إن الأنبياء أشد الناس بلاء كما قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**». [مسند أحمد ٤٥/ ١٠ عن فاطمة عمة أبي عبيدة وأخت حذيفة رقم ٢٧٠٧٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح لغيره وهذا إسناد حسن، ورواه الحاكم ـ صحيح الجامع الصغير: ١٥٦٢، وفي رواية الطبراني في المعجم الكبير: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ**» صحيح الجامع الصغير ٩٩٤ و ٩٩٦، وينظر: صحيح الجامع الصغير رقم ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٥].

وإذا كان كل هذا حدث فماذا يعني؟

إنه الحب من الله كما جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلاهُ لِيَسْمَعَ صَوْتَهُ**».

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ١٤٥، رقم ٩٧٨٨].

تعال معي لنحلل هذا المشهد: والد شديد الحب لولده الصغير ولفرط حبه له يضمه إلى صدره ضمة شديدة لو استطاع أن يدخله ضلوعه لفعل، هذا حال الوالد، فما حال الولد؟ إنه يصرخ متضايقًا باكيًا شاكيًا هذا الأذى.

إن الطفل بفهمه القاصر، وعقله الناقص، وشعوره البدائي البسيط يغضب من أبيه ويظن أنه أراد خنقه وقتله، وربما غضب لهذا بعض الوقت، ونظر إلى أبيه على أنه المعتدي الظالم له.

أقول: هل كان الوالد يريد شرًّا بولده؟!

وهل فَهْمُ الولد يُعَدُّ سليمًا في نظر العقلاء؟!

لاشك أن من عنده أثارة من عقل أو فهم لا يخطر بباله أن الوالد يريد قتل ولده، نعم حصلت المضايقة، لكنها نتيجة حب في صدر الأب.

ولله المثل الأعلى، إن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه.

إن الذين يتضجرون من الابتلاء هم أطفال في تفكيرهم، أطفال في شعورهم، أطفال في تقديرهم للأمور، ينبغي أن يدركوا حقيقة الابتلاء ومغزاه، وأن يتصرفوا بناء على ذلك.

ينبغي أن يستعذبوا كل ما يلاقونه في سبيل الله، ويستقبلوه بنفوس رضية، وقلوب مطمئنة مستسلمة لله رب العالمين.

وختامًا نسأل الله تبارك وتعالى مقلب القلوب والأبصار ومثبتها على ما يختار أن يثبت أقدامنا إن لاقيناه، وأن يثبت قلوبنا على دينه، وإذا أراد بقوم فتنة أن يقبضنا إليه غير فاتنين ولا مفتونين».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٣٠-١٣٣].

٢٣ ـ التحلي بآداب الاستئذان:

يقول د/ الفنيسان: «وجه ذلك أن عددًا من المنافقين كانوا يخرجون من معسكر الرسول ﷺ ويعودون إلى المدينة دون أن يأذن لهم رسول الله ﷺ، فتراهم يحضرون في بعض فترات النهار ليشاهدهم الناس، ويتخلفون عنهم بالليل حيث لا يراهم أحد، وقد ذمهم الله سبحانه على تسللهم وعدم استئذانهم، ومدح في المقابل المؤمنين على ملازمتهم للرسول ﷺ ومرابطتهم في الخندق، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾[النور]». **[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٧-٢٢٨].**

٢٤ ـ كانت المشابه بين (أُحُد) و(الأحزاب) دروسًا تربوية للمجتمع المسلم:

يقول الشيخ عرجون: «كانت المشابه التي وصلت هذه الغزوة بغزوة (أُحُد) في أزماتها المستحكمة واستحكام شدائدها الضارية، وقسوتها الشرسة دروسًا تربوية كامنة في أحداث (أحد) ولا سيما في أسبابها، وتجمع لفائف الشرك المزري بالعقول، والوثنية المنحطة من هنا وهناك، وتأهبهم لمهاجمة المجتمع المسلم تأهبًا بلغ أقصى ما يستطاع التأهب به من رجال وأسلحة ومؤن ليستأصلوه ويستأصلوا دعوته إلى توحيد الله وإقامة منائر العدل على طريق الإنسانية في مسيرتها المقدورة لحياتها، ويقفوا مد انتشار الدعوة إلى الله التي حمل لواءها بعد الهجرة مجتمع جديد في تكوينه الروحي والمادي مما أغصَّهم وكشف أغشية قلوبهم وأحرق أكبادهم، وألبسهم لباس الذل والهوان.

بيد أن شدائد (أحد) التي تفتقت عنها وقائعها وأحداثها كانت شدائد تربوية وضعت للمجتمع المسلم ركائز جديدة أقام عليها بناء منهج الرسالة في مستقبل الحياة لتخليص المجتمع المسلم من رواسب التراث الجاهلي الذي كانت آثاره لا تزال قائمة في النفوس، هذا التراث الجاهلي القريب من أنفسهم مما كانت تعتمد عليه الجاهلية في حروبها، وكان هذا التراث يعتمد على القوة المادية وحدها، ولا يعرف غيرها، وهي قوة حشد التجمعات من الرجال، وكثرة السلاح ووفرة المؤن.

وقد كان مظهر هذه القوة المادية التي تصبغ بصبغتها التراث الجاهلي المترسب في حنايا النفوس ماثلًا في غزوة (بدر) و(أحد)، وقد عبَّرت عنه في (بدر) الكتائب المجاهدة بالتعجُّل لإنهاء المعركة قبل أن تبلغ مداها من النصر المؤزر الذي يقضي على قوة العدو قضاء مبرمًا لا تقوم له بعده قائمة، كما كان ماثلًا في الإسراع إلى جمع الغنائم وأخذ الأسرى في (بدر)، وفي عدم الوقوف عند أوامر القائد الأعظم ﷺ، والتسليم المطلق لمتابعة أوامره ووصاياه في (أحد) في سبيل نصر طائر غير مستقر على أرض صلبة لا تسوخ فيها أقدام المجاهدين في مستقبل الحياة وهم يحملون لواء دعوة الحق التي يقوم بناء صرحها على دعائم التوحيد وهدم صروح الشرك والوثنية، وخاصة إذا كان هذا القائد الأعظم هو رسول الله ﷺ المؤيَّد بالوحي، المسدَّد بتوفيق الله، العليم بمنادح الغيب الذي تجب متابعته في جميع أوامره، ووصاياه، متابعة لا ترتد قط إلى شيء من رواسب الجاهلية، تلك الرواسب التي كان من أهداف رسالة الإسلام العمل على تقويضها وتخليص المجتمع المسلم من شوائبها، وتركيبه في عناصره الجديد تركيبًا لا يجعل لتلك الشوائب المادية المظلمة الجاهلية أدنى سلطان في توجيه الوقائع والأحداث التي تتعرض لها رسالة الإسلام في مسيرتها الخالدة.

تذكير ببعض المشابه بين أحد والأحزاب: ولهذا ظهر شيء من التناقض الغريب في مسلك المجتمع المسلم في غزوة (أحد)، وأول ذلك ـ كما قدَّمنا ـ كان في عدم متابعة ما رآه رسول الله ﷺ من البقاء في المدينة، ومقاتلة أعدائه في طرقاتها وأسطح منازلها، حتى استكره المتحمسون للخروج رسول الله ﷺ ليخرج بهم لملاقاة عدوهم خارجها، فكان لهذه المخالفة التي حملت ذِرْوًا من ترسبات التراث الجاهلي، تمثَّل في حماسة الشباب الذين فاتهم فضل (بدر) ـ أكبر الأثر في سير الأحداث التي انتهت بأقسى محنة عرفتها غزوات الإسلام.

ثم جاءت مخالفة جمهور الرماة الذين وضعهم رسول الله ﷺ في أماكنهم ليحموا ظهر الجيش، فإنهم لم يكادوا يلمحون النصر يلوح في ميدان المعركة حتى تركوا أماكنهم وأسرعوا لجمع الغنائم مع المحاربين، ففتحوا بذلك ثغرة للعدو كرَّ منها على كتائب الإسلام، فانفرط عقدهم وشاعت بينهم الفوضى، حتى كان بعضهم يقتل بعضًا بغير علم من شدة ما اعتراهم من الدهش والمفاجأة، ثم فروا عن رسول الله ﷺ وتركوه في ميدان المعركة وحيدًا، وهو يرامي العدو بقوسه، حتى تشظَّت ونفدت سهامها وجعل يرميهم بالحجارة، وهو ثابت في مقامه ما يزول عنه قط.

فكانت هذه المخالفة لأوامر رسول الله ﷺ سببًا آخر في وقوع المحنة التي انتهت بالهزيمة، ثم جاءت المخالفة الثانية، وكانت ممثلة في التزيد في الحب العاطفي لرسول الله ﷺ الذي غطَّى على الحب الإيماني

المرتبط أوثق ارتباط بالمتابعة الصادقة والتسليم لأمر القيادة العظمى الفريدة في تاريخ البشرية، حتى انفلقت شغاف قلوبهم عن أقسى الجزع وأشد الهلع المذهل إثر إرجافة الشيطان وصرخته بأن محمدًا ﷺ قُتل، فلم يملك أحد منهم أن يتماسك ويثبت ويتثبت، ولكنهم أُخذوا عن أنفسهم، وأطلقوا سوقهم مع ريح الهرب لا يلوون على شيء، ورسول الله ﷺ في أخراهم يدعوهم (إليَّ، إليَّ) ليردهم إلى مواقفهم من المعركة، ثم تتابعت الحوادث الممحِّصة في أزماتها وشدائدها ومحنها بسرعة مذهلة لم تترك نَفَسًا يتردد، ولا سلامة إدراك لعقل يفكر، ولا لبطولة شجاع تظهر، ولا لبأس بئيس يفرِّج هذه الضوائق التي نزلت بكوارثها على كتائب الإسلام.

وقد نزل برسول الله ﷺ من البلاء والجراحات ما لم ينزل بأحد، فكان عبء هذه المعركة القاسية بأحداثها ووقائعها المريرة بآثارها على كاهله وحده ﷺ، حتى فاءت إليه فئة من ذوي البأس وصدق الإيمان بعد أن فاءت إليهم أنفسهم وذهب عنهم بعض ما عانوه من الهول المفزع، فأقبلوا إليه ﷺ الواحد تلو الواحد، ووقفوا يذودون عنه ﷺ حتى انصرف العدو عن ميدان القتال، ثم انصرف المسلمون إلى رحالهم ومنازلهم يكمدون جراحهم ويلتقطون أنفاسهم، وعادت إليهم نفحات الإيمان وعادت إليهم قوة عزائمهم، ووقر الدرس التربوي في نفوسهم حتى كان مسيرهم إلى حمراء الأسد وجراحهم تقطر دمًا، وكان هذا المسير مجدِّدًا لحياتهم وميلادًا جديدًا لهم.

وهكذا كانت دروس (أحد) في مرارة أزماتها لونًا من التربية البطولية التي لم تهزها أعاصير الهزيمة، فأفاد منها المجتمع المسلم ما كان له قوة جددت عزائم أفراده، ورفعت شأو إيمانه برسالته ودعوته إلى الحق والخير، وأخرجته نضيج الشخصية راسخ اليقين من أتون الرواسب الجاهلية التي ورثها فيما ورث من تراث هذه الجاهلية التي لم تكن ترى قوة في الحياة يقع بها التغالب سوى القوة المادية، وعلَّمته أن كتائب الإيمان لا تحارب أعداءها من فُجَّار الكفر بالقوة المادية وحدها، وإنما تحاربهم بقوة الإيمان بعقيدتها وحب التضحية بما تملك من نفس ومال في سبيل إقامة صرحها الذي يعتمد على ركائز المبادئ الإنسانية الرفيعة.

وهذا المعنى التربوي في منهج الرسالة هو الذي رسخه درس (أحد) في نفوس أفراد المجتمع المسلم، وهو الذي كان عدة هذا المجتمع في غزوة (الأحزاب).

كانت غزوة الأحزاب مدرسة تربية لا تنزل في مستواها التربوي عن مستوى مدرسة (أحد)، لكن دروس غزوة (الأحزاب) كانت دروسًا من لون آخر غير ألوان دروس (أُحُد)؛ لأن دروس (أحد) كانت

لتربية روح اليقظة البطولية الصابرة على بأساء الحرب وعض السيوف ومشارفة الموت في سبيل نشر الرسالة والدعوة إلى الله، والركون إلى صدق المتابعة لأوامر القيادة العظمى، والتحذير الزاجر من مخالفة أوامر هذه القيادة، ومحبتها محبة إيمانية لا تتزيد بثوران العواطف البشرية التي مسها طائف من الإرجاف المتكذِّب فخفَّ ثقلها في ميزان الصبر على لأواء المحن وكوارث البلاء، وانقلبت انتصاراتها هزائم، وباءت بالفشل ناكصة على أعقابها فرارًا من الموت، ولم تثبت فيها إلا قدم رسول الله ﷺ.

كانت دروس الأحزاب تربية نفسية للمجتمع المسلم في مستقبل حياته:

أما دروس (الأحزاب) فكانت تربية نفسية، تستهدف الصبر المرير على المحن النفسية من الجوع المُقعد، وفقدان الزاد المؤنس، والدأب على أشق الأعمال في حصار مضروب مستحكم من العدو، يملك على كتائب المجاهدين منافذ الحياة، مع مكايد المنافقين ودسائسهم الخبيثة وتسللهم لِواذًا متعللين بالأكاذيب الفاجرة، إلى جانب حماية النساء والعجزة والأطفال، وهم من وراء المجاهدين في آطام المدينة وحصون المنازل، خوفًا عليهم من غدر اليهود وخياناتهم.

وقد كان لهذه الدروس القاسية أعظم الأثر في موقف المجتمع المسلم أمام أعدائه في قوتهم المادية الهائلة التي أعدوها لمهاجمة المجتمع المسلم في داره ومدينته». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٣٧-١٤١**].

وفاء خزاعة لرسول الله ﷺ وإشارة سلمان ﷺ بحفر الخندق:

يقول الشيخ عرجون: «ولما استكمل الأحزاب تجمعهم، وأعدوا للسير عدته سبقهم ركب من خزاعة ـ وكانوا عَيْبة رسول الله ﷺ وأصحاب سرِّه، لا يخفون عليه شيئًا يتعلق بموقفه وموقف أعدائه إلا أعلموه به ـ فخرج هذا الركب إلى المدينة ليلقى رسول الله ﷺ فيخبره القوم، وأغذ الركب الخزاعي السير كأنما يطوي الأرض طيًّا، فوصل إلى المدينة في أربعة أيام، فأخبروه بما علموا من علم القوم الذي تحزبوا عليه وعلى مجتمعه، فندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في الأمر: أيبرز من المدينة خارجها أم يبقى فيها يحارب أعداءه في مداخلها وطرقاتها وأسطح منازلها؟ فأشار سلمان ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فأَعجب ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وأجابوا مغتبطين، وأحبوا الثبات في مدينتهم ليلقوا عدوهم في مداخلها، وأمرهم رسول الله ﷺ بالجد في حفر الخندق، والجد في حرب العدو الذين تحزبوا لقتالهم، وجاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ووعدهم رسول الله ﷺ بالنصر إن هم صبروا، واستعانوا بالله في جهادهم لإعلاء كلمة الله.

هذا موقف من مواقف المشابهة التي كانت بين (أحد) وأحداثها، وبين (الأحزاب) ووقائعها، وهو موقف يمثل أصدق تمثيل ما أفاده الصحابة من أول درس في غزوة (أحد)، إذ فريق منهم خالفوا رأي

رسول الله ﷺ في بقائه في المدينة ومقاتلة عدوه في مداخلها وطرقاتها، وهم الذين لم يدركوا فضل الجهاد في (بدر)، وكان أكثرهم شبابًا تغلب عليه الحماسة، فأبوا البقاء في المدينة، وتهيؤوا للخروج لملاقاة العدو خارجها خشية أن يُزَنُّوا بالجبن والخوف من مجابهة عدوهم، فيُعَيَّروا بذلك من أعدائهم، واستكرهوا رسول الله ﷺ على الخروج بهم لملاقاة عدوهم خارج المدينة، فكانت هذه المخالفة عنصرًا من عناصر أسباب ما أصابهم من المحن والبلاء في غزوة (أحد).

إفادة المجاهدين في غزوة الأحزاب من موقفهم في (أحد):

ولكن هذا الموقف بعينه يتجدد في غزوة (الأحزاب) فيشاور رسول الله ﷺ أصحابه المجاهدين هل يخرج بهم إلى عدوهم لملاقاته خارج المدينة؟ أو يبقى في طرقاتها وأسطح منازلها؟ وبهذا يتيح فرصة لكل مسلم كبير أو صغير، رجل أو امرأة أن يكون له نصيب في جهاد القتال، فالرجال المحاربون يقاتلون المهاجمين من الأعداء في طرقات المدينة وأزقتها ومداخلها، والنساء والأطفال يقذفونهم بالحجارة من فوق أسطح المنازل ومنافذ البيوت.

وهنا يتغير الموقف، ويتذكَّر الذين كانوا خالفوا رسول الله ﷺ في غزوة (أحد) وصمموا على الخروج لملاقاة عدوهم خارج مدينتهم، ويتذكروا ـ أيضًا ـ ما كان من آثار ضارة لحقت بالمجتمع المسلم من جراء موقفهم المخالف لرأي رسول الله ﷺ في (أحد)، فيرغبوا في البقاء في المدينة وملاقاة عدوهم في مداخلها وطرقاتها، وزادهم غبطة بهذا الموقف وتمسكًا به أن سلمان الفارسي رضي الله عنه أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فأعجبوا بالفكرة وأحبوا الثبات بالمدينة.

وجَدُّوا في حفر الخندق، وبذلوا فيه جهدًا مضاعفًا حتى أكملوه قبل أن يصل إليهم العدو بحشوده، فلما وصل ورأى الخندق وقف دَهِشًا مذهولًا، ولم يستطع الوصول إلى مجابهتهم والاشتباك معهم في قتال ميداني، واكتفى بالحصار يشتد فيه ويحيك حلقاته، فاحتمله المجاهدون بصبر وقوة عزيمة أرغموا بها العدو على الرحيل بعد طول انتظار أجهده دون أن ينال منهم نَيْلًا، بل كانوا هم الذين نالوا منه ما أدمى قلوبهم بقتل بعض صناديدهم وفرسانهم الذين أقحموا خيولهم، وأجالوها في بعض مواضعه، فنزل إليهم أبطال الإسلام علي والزبير وغيرهما فجندلوهم وقضوا عليهم، فقتل عليٌّ رضي الله عنه عمرو بن عبد ود، وقتل الزبير رضي الله عنه نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي.

هذا درس من دروس (أحد) أفاد منه المجاهدون في (الأحزاب) إذ كان في (أحد) سببًا من أسباب ما نزل بالمجاهدين من البلاء والمحن، وكان في (الأحزاب) عنصرًا من عناصر النصر الذي أيد الله به رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو درس خرج منه المجاهدون أصفى معدنًا وأقوى عزيمة وأرسخ إيمانًا وأهدى

سبيلًا؛ لأنهم صدقوا في متابعتهم لرسول الله ﷺ فنصرهم الله نصرًا عزيزًا أدال لهم به من أعدائهم».
[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٤٦-١٤٨].

ويقول د/ أبو خليل: «ومن الملاحظ أن الجو العام قبيل غزوة الخندق وأثناءها، يختلف اختلافًا كليًّا عن أجواء غزوة أُحُد، فهنا ـ في الخندق ـ التفاؤل والبِشر والحديث عن النصر الأكيد، رغم الخطر المحدق، وهناك ـ في أُحُد، الحذر والتنبيه والتركيز على عدم العصيان والمخالفة.

في الخندق، النصر الأكيد يلوح في الأفق، وانهزام الأحزاب أمر قرَّره رسول الله ﷺ مسبقًا وكأنه واقع ملموس:

(١) أمر ﷺ المسلمين بالجد، ووعدهم النصر إن هم صبروا.

(٢) «**أعطيت مفاتيح اليمن، أعطيت مفاتيح الشام والمغرب، أعطيت مفاتيح فارس، هذه فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان، أخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا**». فاستبشر المسلمون.

(٣) «**أبشروا بعون الله ونصره إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح، وليهلكن كسرى وقيصر، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده**».

(٤) «**والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة**».

(٥) حتى وبعد نقض بني قريظة عهدهم مع المسلمين: «**أبشروا يا معشر المسلمين نصرة الله تعالى وعونه**»، «**أبشروا بفتح الله ونصره**».

(٦) «**إن الله يرسل عليهم ريحًا وجنودًا، شكرًا.. شكرًا!**» وعرف السرور في وجهه الكريم ﷺ.

وأتبع ﷺ كل هذه البشائر بنبوءة حققها الله ﷻ عام ثمانية من الهجرة عند فتح مكة: «**لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**». [السيرة الحلبية ٢/ ٣٥١، السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢٣١، الكامل في التاريخ ٢/ ١٢٦]. [غزوة الخندق لأبي خليل ١٥٥-١٥٦].

٢٥ ـ أهمية التربية التجريبية الواقعية:

يقول أ/ سيد قطب: «في معترك الحياة ومصطرع الأحداث كانت الشخصية المسلمة تُصاغ، ويومًا بعد يوم وحدثًا بعد حدث كانت هذه الشخصية تنضج وتنمو، وتتضح سماتها، وكانت الجماعة المسلمة التي تتكون من تلك الشخصيات تبرز إلى الوجود بمقوماتها الخاصة، وقيمها الخاصة، وطابعها المميز بين سائر الجماعات.

وكانت الأحداث تقسو على الجماعة الناشئة حتى لتبلغ أحيانًا درجة الفتنة، وكانت فتنة كفتنة الذهب، تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف، وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها، فلا تعود خليطًا مجهول القيم.

وكان القرآن الكريم يتنزل في إبان الابتلاء أو بعد انقضائه، يصور الأحداث، ويلقي الأضواء على منحنياته وزواياه، فتنكشف المواقف والمشاعر، والنوايا والضمائر، ثم يخاطب القلوب وهي مكشوفة في النور، عارية من كل رداء وستار، ويلمس فيها مواضع التأثر والاستجابة، ويربيها يومًا بعد يوم، وحادثًا بعد حادث، ويرتب تأثراتها واستجاباتها وفق منهجه الذي يريد.

ولم يترك المسلمون لهذا القرآن، يتنزل بالأوامر والنواهي، وبالتشريعات والتوجيهات جملة واحدة، إنما أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات، والفتن والامتحانات، فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية لا تُصاغ صياغة سليمة، ولا تنضج نضجًا صحيحًا، ولا تصح وتستقيم على منهج إلا بذاك النوع من التربية التجريبية الواقعية، التي تحفر في القلوب، وتنقش في الأعصاب، وتأخذ من النفوس وتعطي في معترك الحياة ومصطرع الأحداث.

أما القرآن فيتنزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة ما يقع ودلالته، وليوجه تلك القلوب وهي منصهرة بنار الفتنة، ساخنة بحرارة الابتلاء، قابلة للطَّرْق، مطاوعة للصياغة!

ولقد كانت فترة عجيبة حقًّا تلك التي قضاها المسلمون في حياة الرسول ﷺ فترة اتصال السماء بالأرض اتصالًا مباشرًا ظاهرًا، مبلورًا في أحداث وكلمات، ذلك حين كان يبيت كلُّ مسلم وهو يشعر أن عين الله عليه، وأن سمع الله إليه، وأن كل كلمة منه وكل حركة، بل كل خاطر وكل نية، قد يصبح مكشوفًا للناس، يتنزل في شأنه قرآن على رسول الله ﷺ.

وحين كان كل مسلم يحس الصلة المباشرة بينه وبين ربه، فإذا حَزَبه أمر، أو واجهته معضلة، انتظر أن تُفتح أبواب السماء غدًا أو بعد غد ليتنزل منها حل لمعضلته، وفتوى في أمره، وقضاء في شأنه.

وحين كان الله سبحانه بذاته العلية، يقول: أنت يا فلان بذاتك قلت كذا، وعملت كذا، وأضمرت كذا، وأعلنت كذا، وكن كذا، ولا تكن كذا.. ويا له من أمر هائل عجيب! يا له من أمر هائل عجيب أن يوجه الله خطابه المعين إلى شخص معين.. هو وكل من على هذه الأرض، وكل ما في هذه الأرض، وكل هذه الأرض ذرة صغيرة في ملك الله الكبير!

لقد كانت فترة عجيبة حقًّا، يتملاها الإنسان اليوم، ويتصور حوادثها ومواقفها، وهو لا يكاد يدرك كيف كان ذلك الواقع، الأضخم من كل خيال!

ولكن الله لم يدع المسلمين لهذه المشاعر وحدها تربيهم، وتنضج شخصيتهم المسلمة، بل أخذهم بالتجارب الواقعية، والابتلاءات التي تأخذ منهم وتعطي، وكل ذلك لحكمة يعلمها، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

هذه الحكمة تستحق أن نقف أمامها طويلًا، ندركها ونتدبرها، ونتلقى أحداث الحياة وامتحاناتها على ضوء ذلك الإدراك وهذا التدبير.

وهذا المقطع من سورة الأحزاب يتولى تشريح حدث من الأحداث الضخمة في تاريخ الدعوة الإسلامية، وفي تاريخ الجماعة المسلمة، ويصف موقفًا من مواقف الامتحان العسيرة، وهو غزوة الأحزاب، في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة، الامتحان لهذه الجماعة الناشئة، ولكل قيمها وتصوراتها.

ومن تدبر هذا النص القرآني، وطريقة عرضه للحادث، وأسلوبه في الوصف والتعقيب، ووقوفه أمام بعض المشاهد والحوادث، والحركات والخوالج، وإبرازه للقيم والسنن، من ذلك كله ندرك كيف كان الله يربي هذه الأمة بالأحداث والقرآن في آن.

إن النص القرآني يغفل أسماء الأشخاص، وأعيان الذوات؛ ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع، ويُغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع؛ ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية، هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص، ولا تنقضي بانقضاء الملابسات، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلًا لكل جيل ولكل قبيل.

ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص، ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف، ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير.

ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها، وشهدوا أحداثها، فإنه كان يزيدهم بها خُبرًا، ويكشف لهم من جوانبها ما لم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها! ويلقي الأضواء على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبآت الضمائر، ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوالج المستكنة في أعماق الصدور.

ذلك إلى جمال التصوير، وقوته، وحرارته، مع التهكم القاصم، والتصوير الساخر للجبن والخوف والنفاق والتواء الطباع! ومع الجلال الرائع والتصوير الموحي للإيمان والشجاعة والصبر والثقة في نفوس المؤمنين.

إن النص القرآني مُعَدٌّ للعمل ـ لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب، ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك وفي كل تاريخ، مُعَدٌّ للعمل في النفس البشرية إطلاقًا كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه في الآماد الطويلة، والبيئات المنوعة، بنفس القوة التي عمل بها في الجماعة الأولى.

ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التي واجهتها أول مرة، هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة، وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات، وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها، تنتفض خلائق حية، موحية، دافعة، دافقة، تعمل في واقع الحياة، وتدفع بها إلى حركة حقيقية، في عالم الواقع وعالم الضمير.

إن القرآن ليس كتابًا للتلاوة ولا للثقافة.. وكفى.. إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة، وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة، متى وَجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب، ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السر العجيب!

وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات، ثم يقف الموقف، أو يواجه الحادث، فإذا النص القرآني جديد، يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط، ويجيب على السؤال الحائر، ويفتي في المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخافي، ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه، وإلى الاطمئنان العميق.

وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولا حديث». [**في ظلال القرآن لقطب ٥/ ٢٨٣١-٢٨٣٢، ٢٨٣٥-٢٨٣٦**].

المبحث الثالث

الدروس الفقهية

١ ـ حكم مشاورة الإمام لأهل الحل والعقد:

وكان ذلك في مشاورته ﷺ للصحابة ﵃ في كيفية صد المشركين بعد علمه باستعداداتهم.

وقد سبق تفصيلها في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى، وغيرها.

٢ ـ جواز الأخذ عن غير المسلمين فيما ليس من الدين:

يقول د/ أبو فارس: «لقد علمنا أن فكرة حفر الخنادق حول المدن فكرة فارسية كما صرح بذلك سلمان ﵁ لرسول الله ﷺ، وأخذ بها ﷺ مع علمه بذلك، وهذا دليل على مشروعية الأخذ عن غير المسلمين في وسائل الحرب وخططها، ما دامت هذه الوسائل والخطط في صالح المسلمين، والأخذ بها يعجل في النصر». **[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٧].**

ويقول د/ بربر: «لا يوجد مانع من الاستفادة من غير المسلمين في الخبرات العسكرية إذا كانت لديهم خبرات يمكن الاستفادة منها، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**».

[الترمذي في العلم عن رسول الله ﷺ (٢٦٨٧)، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإبراهيم بن الفضل المدني المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه، وقال الشيخ الألباني: ضعيف جدًّا].

والوسائل إن استخدمت في باطل فلها حكمه، وإن استخدمت في حق فلها حكمه، تضبطها قاعدة شرعية: للوسائل حكم المقاصد. **[الفروق للقرافي ٣/ ٤].**

وفقه الوسائل من أسباب التمكين المبني على السنن، ولن تجد لسنة الله تبديلًا ولا تحويلًا.

والحكم على الوسيلة باعتبار غلبة المصلحة أو المفسدة.

[قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام ١/ ٤٦].

وقد وردت مواقف تدل على مشروعية الاستفادة من وسائل غير المسلمين وتجاربهم، وخبراتهم العسكرية في الحروب، والأخذ بالأسباب المادية الجالبة للنصر.

ففي غزوة الأحزاب استفاد النبي ﷺ من تجربة الفرس في حفر الخنادق، لما ذكرها الصحابي الجليل سلمان الفارسي ﵁.

فحفر الخنادق خبرة عسكرية فارسية، جاء بها سلمان ﵁، فرضي بها النبي ﷺ؛ لما يتحقق بها من مصلحة للمسلمين.

فلا مانع من الاستفادة من تقنيات الأمم الأخرى وخبراتهم، بشرط ألا تخل باستقلالية الأمة وتميزها، فالميدان في هذه المعارف والتقنيات مفتوح للمنافسة، وكل أمة تبدأ من حيث انتهى مَنْ سبقها، وتبني دراساتها على تجارب غيرها.

وقد أخذ عمر بن الخطاب ﷺ ترتيب دواوين الجند من الفرس؛ لأن فيه مصلحة للمسلمين.

قال الماوردي : « والديوان: موضع لحفظ ما يتعلّق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمّال. [**الديوان: هو الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء، وأوّل من دوَّن الدواوين عمر وهو فارسيّ معرَّب. النهاية ٢/ ١٥٠**].

وأول من وضع الديوان في الإسلام عمر بن الخطاب ﷺ.

واختلف الناس في سبب وضعه له، فقال قوم: سببه أن أبا هريرة ﷺ قدِمَ عليه بمال من البحرين، فقال له عمر: ماذا جئت به؟ فقال: خمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر فقال له: أتدري ما تقول؟ قال: نعم، مائة ألفٍ خمس مرات، فقال عمر: أطيب هو؟ فقال: لا أدري، فصعد عمر ﷺ المنبر، فحمد الله تعالى وأثني عليه، ثم قال: أيها الناس، قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلًا، وإن شئتم عددنا لكم عدًّا، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت الأعاجم يدونون ديوانًا لهم، فدوّن أنت لنا ديوانًا.

وقال آخرون: بل سببه أن عمر ﷺ بعث بعثًا، وكان عنده الهرمز، فقال لعمر ﷺ: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلَّف منهم رجل وآجل بمكانيه، فمن أين يعلم صاحبك به، فأثبت لهم ديوانًا، فسأله عن الديوان حتى فسَّره لهم.

[ينظر: مصنَّف ابن أبي شيبة (٣٢٨٦٤)، والسنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٣٤٩].

وروى عابد بن يحيى عن الحارث بن نفيل أن عمر ﷺ استشار المسلمين في تدوين الديوان، فقال له عليٌّ بن أبي طالب ﷺ: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من المال، ولا تمسك منه شيئًا.

وقال عثمان بن عفان ﷺ: أرى مالًا كثيرًا يتبع الناس، فإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر.

فقال خالد بن الوليد ﷺ: قد كنت بالشام فرأيت ملوكها قد دوَّنوا ديوانًا، وجنَّدوا جنودًا، فدوَّن ديوانًا وجنِّد جنودًا، فأخذ بقوله، ودعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وكانوا من شباب قريش وقال: اكتبوا الناس على منازلهم...». **[الأحكام السلطانية للماوردي ٢٩٧-٢٩٨]**.

وقال الشيخ رشيد رضا: «وأما أخذ العلوم والفنون وأصول الصنائع عنهم فلا محذور وراءه، ولا محظور أمامه، ومن هي في أيديهم الآن من أهل المغرب أخذوها منا، فهذبوا ونقحوا واستنبطوا، وكنا

أخذناها من غيرنا فهذبناها ونقحنا، نعم لم نصل إلى مداهم وغايتهم التي انتهوا إليها الآن في استثمارها، واستدرار ضروع أنعامها، ولا نيأس من روح الله في السبق عند الكرة الأخرى ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ولا التفات لسفهاء الأحلام، المستغرقين في أودية الأحلام حيث يغمزون الناظرين في تلك الفنون ويلمزونهم، ولا شبهة لهم إلا أن من تُنقل عنهم ليسوا من المسلمين ...

فإن شرعًا أساسه الحكمة، ودعامته الفضيلة، وغايته سعادة الدارين والظفر بالحسنيين، يأمر بسلوك الجادة، وعدم الاستنكاف عن الاستفادة». [مجلة المنار ١/ ٥٥٢-٥٥٣].

الأمة الإسلامية في هذا العصر، وقعت بين فريقين متناقضين في الحكم على ما جاء من وسائل من الأمم الأخرى، فريق مغالٍ يرفض كل ما جاء من الأمم الأخرى، ليس له شيء إلا أنه جاء منهم، حتى لو لم يخالف شيئاً من عقيدتنا وشريعتنا، وفريق آخر مفرط يدعو للأخذ بكل ما جاء عنهم، حتى لو خالف عقيدتنا وشريعتنا، وكلاهما على غير الصواب، والقليل النادر هو من يزن ما جاء من تلك الأمم بميزان الشريعة، فما خالفها رُدَّ ولا كرامة، وما استطعنا تهذيبه حتى يصبح غير مخالف للشريعة هُذب وشُذب وعملنا به، وما لم يخالفها أخذناه وانتفعنا به، وهذا هو الموقف الوسط والصحيح، والله أعلم».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٤٩-٢٥١، وينظر درس: الحكمة ضالة المؤمن، من الدروس التربوية والأخلاقية، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٩٢-٣٠١].

٣ ـ جواز التجسس على الأعداء، وهو من قبيل الأخذ بالأسباب:

سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

[وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٥٢-٢٥٥].

٤ ـ جواز استعارة السلاح ولوازمه من غير المسلم:

يقول د/ الفنيسان: «استعار رسول الله ﷺ يوم الخندق من يهود بني قريظة ـ قبل أن ينقضوا عهدهم ـ عددًا من المساحي والمكاتل لاستخدامها في الحفر، كما ثبت في السنة أيضًا، أن النبي ﷺ استعار من صفوان بن أمية أدرعًا في غير هذه الغزوة (حُنَيْن)». [ينظر: مسند أحمد ٣/ ٤٠١] [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢١٩].

٥ ـ جواز التحالف مع غير المسلمين إن أمنوا جانبهم:

سبق تفصيله في الدروس المستفادة من غزوة الأبواء ٢ هـ.

٦ ـ يستحب البدء بالبسملة:

يقول د/ أبو فارس: «ويستفاد من حديث ضربة المعول أمر هو استحباب البدء بالبسملة عند أي عمل؛ ذلك لأن البسملة تُبارك في العمل، فكل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر أو أجذم.

أُخذ هذا الحكم من ذكر النبي ﷺ اسم الله قبل أن يضرب الصخرة بالمعول».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٠].

٧ ـ مشروعية تغيير الأسماء القبيحة بأسماء حسنة:

يقول د/ الفنيسان: «وذلك أن رجلًا من الصحابة يُدعى «جعيل بن سراقة» وقد أبدى نشاطًا في حفر الخندق، وكان ﷺ قصيرًا دميم الخِلقة، فسماه رسول الله ﷺ «عمرو»، فجعل الصحابة يرتجزون بهذا كما سبق بيانه. [ينظر: الإصابة ١/ ٢٣٩، وسيرة ابن هشام ٢/ ٢١٧]. [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢١٩].

ويقول د/ بربر: «فيسن أن تغير الأسماء القبيحة إلى أسماء حسنة.

[المجموع للنووي ٨/ ٣٢٨، والمهذب للشيرازي ١/ ٢٤٢، ومغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٩٤].

وقد غير ﷺ أسماء رجال ونساء كانت أسماؤهم قبيحة.

وقد بين النبي ﷺ أن العلة في تغيير الأسماء هي: التزكية، أو خوف التطير.

[تحفة الأحوذي للمباركفوري ٨/ ١٠٣].

وتغيير الاسم إلى غيره تدور عليه الأحكام الخمسة :

فيكون التغيير واجبًا: في حق من تَسَمَّى باسم ينافي عقيدة الإسلام : كعبد العزى، وعبد هبل، وعبد الكعبة، وغيرها. [ينظر: الفروع لابن مفلح ٣/ ٤٠٩].

قال ابن حزم : «اتفقوا على استحسان الأسماء المضافة إلى الله، كعبد الله وعبد الرحمن وما أشبه ذلك، واتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد العزى وعبد هبل وعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب». [ينظر: الفروع لابن مفلح ٣/ ٤٠٩].

ويكون التغيير مستحبًّا : إذا كان في الاسم تزكية، أو كان يحصل بالاسم تشاؤم.

ويباح التغيير: كتغيير الاسم إلى مثله، كتغيير عبد الرحمن إلى عبد الله، ونحو ذلك.

ويُكره التغيير: كتغيير اسم حسن إلى اسم مكروه، كتغيير سعيد إلى رباح، ونحو ذلك.

ويحرم التغيير: كتغيير اسم جائز ولو مع كراهة إلى اسم محرم، كتغيير رباح إلى عبد المسيح، ونحو ذلك». [الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٠١-٢٠٣].

ونظرًا لأهمية هذه المسألة، ولاستهتار الناس بهذا الأمر، فقد اهتم العلماء قديمًا وحديثًا بقضية اختيار الأسماء وتغييرها، وقد استفاض الإمام ابن القيم في عرض هذه المسألة، فأعرضها كاملة لأهميتها في حياتنا المعاصرة.

يقول الإمام ابن القيم: « **فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي الْأَسْمَاءِ وَالْكُنَى:**

ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللهُ**».

وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةُ**».

وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تُسَمِّيَنَّ غُلَامَكَ يَسَارًا وَلَا رَبَاحًا وَلَا نَجِيحًا وَلَا أَفْلَحَ؛ فَإِنَّكَ تَقُولُ: أَثَمَّتَ هُوَ؟ فَلَا يَكُونُ، فَيُقَالُ: لَا**».

وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ «غَيَّرَ اسْمَ عَاصِيَةَ، وَقَالَ: أَنْتِ جَمِيلَةٌ»، وَكَانَ اسْمُ جويرية بَرَّةً، فَغَيَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ باسْم جويرية، وَقَالَتْ زينب بنت أم سلمة: نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُسَمَّى بِهَذَا الِاسْمِ، فَقَالَ: «**لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمُ اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ**»، «وَغَيَّرَ اسْمَ أَصْرَمَ بِزُرْعَةَ»، «وَغَيَّرَ اسْمَ أَبِي الْحَكَمِ بِأَبِي شُرَيْحٍ»، «وَغَيَّرَ اسْمَ حَزْنٍ جَدِّ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَجَعَلَهُ سَهْلًا، فَأَبَى وَقَالَ: السَّهْلُ يُوطَأُ وَيُمْتَهَنُ».

قَالَ أبو داود: «وَغَيَّرَ النَّبِيُّ ﷺ اسْمَ الْعَاصِ وَعَزِيزٍ وَعَتَلَةَ وَشَيْطَانٍ وَالْحَكَمِ وَغُرَابٍ وَحُبَابٍ وَشِهَابٍ، فَسَمَّاهُ هِشَامًا، وَسَمَّى حَرْبًا سَلْمًا، وَسَمَّى الْمُضْطَجِعَ الْمُنْبَعِثَ وَأَرْضًا تُسَمَّى عَفْرَةً سَمَّاهَا خَضِرَةً، وَشَعْبَ الضَّلَالَةِ سَمَّاهُ شَعْبَ الْهُدَى، وَبَنُو الزِّنْيَةِ سَمَّاهُمْ بَنِي الرِّشْدَةِ، وَسَمَّى بَنِي مُغْوِيَةَ بَنِي رِشْدَةَ».

اخْتِيَارُ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَةِ لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ قَوَالِبُ لِلْمَعَانِي : فَصْلٌ فِي فِقْهِ هَذَا الْبَابِ :

لَـمَّا كَانَتِ الْأَسْمَاءُ قَوَالِبَ لِلْمَعَانِي، وَدَالَّةً عَلَيْهَا، اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا ارْتِبَاطٌ وَتَنَاسُبٌ، وَأَنْ لَا يَكُونَ الْمَعْنَى مَعَهَا بِمَنْزِلَةِ الْأَجْنَبِيِّ الْمَحْضِ الَّذِي لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِهَا، فَإِنَّ حِكْمَةَ الْحَكِيمِ تَأْبَى ذَلِكَ، وَالْوَاقِعُ يَشْهَدُ بِخِلَافِهِ، بَلْ لِلْأَسْمَاءِ تَأْثِيرٌ فِي الْمُسَمَّيَاتِ، وَلِلْمُسَمَّيَاتِ تَأَثُّرٌ عَنْ أَسْمَائِهَا فِي الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، وَالْخِفَّةِ وَالثِّقَلِ، وَاللَّطَافَةِ وَالْكَثَافَةِ كَمَا قِيلَ:

وَقَلَّمَا أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ ... إِلَّا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لَقَبِهْ

«وَكَانَ ﷺ يَسْتَحِبُّ الِاسْمَ الْحَسَنِ، وَأَمَرَ إِذَا أَبْرَدُوا إِلَيْهِ بَرِيدًا أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الِاسْمِ حَسَنَ الْوَجْهِ».

وَكَانَ ﷺ يَأْخُذُ الْمَعَانِيَ مِنْ أَسْمَائِهَا فِي الْمَنَامِ وَالْيَقَظَةِ كَمَا «رَأَى أَنَّهُ وَأَصْحَابَهُ فِي دَارِ عُقْبَةَ بنِ رَافِعٍ، فَأُتُوا بِرُطَبٍ مِنْ رُطَبِ ابْنِ طَابَ، فَأَوَّلَهُ بِأَنَّ لَهُمُ الرِّفْعَةَ فِي الدُّنْيَا، وَالْعَاقِبَةَ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ الدِّينَ الَّذِي قَدِ اخْتَارَهُ اللهُ لَهُمْ قَدْ أَرْطَبَ وَطَابَ، وَتَأَوَّلَ سُهُولَةَ أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ مِنْ مَجِيءِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو إِلَيْهِ».

«وَنَدَبَ جَمَاعَةً إِلَى حَلْبِ شَاةٍ، فَقَامَ رَجُلٌ يَحْلُبُهَا، فَقَالَ: «**مَا اسْمُكَ؟**» قَالَ: مرة، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَقَامَ آخَرُ، فَقَالَ: «**مَا اسْمُكَ؟**» قَالَ: أَظُنُّهُ حرب، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَقَامَ آخَرُ، فَقَالَ: «**مَا اسْمُكَ؟**»، فَقَالَ: يعيش، فَقَالَ: «احْلُبْهَا».

وَكَانَ يَكْرَهُ الْأَمْكِنَةَ الْمُنْكَرَةَ الْأَسْمَاءِ وَيَكْرَهُ الْعُبُورَ فِيهَا، كَمَا مَرَّ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَسَأَلَ عَنِ اسْمَيْهِمَا، فَقَالُوا: فَاضِحٌ وَمُخْزٍ، فَعَدَلَ عَنْهُمَا، وَلَمْ يَجُزْ بَيْنَهُمَا.

وَلَـمَّا كَانَ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ وَالْمُسَمَّيَاتِ مِنَ الِارْتِبَاطِ وَالتَّنَاسُبِ وَالْقَرَابَةِ مَا بَيْنَ قَوَالِبِ الْأَشْيَاءِ وَحَقَائِقِهَا، وَمَا بَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَامِ عَبَرَ الْعَقْلُ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا إِلَى الْآخَرِ كَمَا كَانَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ وَغَيْرُهُ يَرَى الشَّخْصَ، فَيَقُولُ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ اسْمُهُ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَلَا يَكَادُ يُخْطِئُ، وَضِدُّ هَذَا الْعُبُورُ مِنَ الِاسْمِ إِلَى مُسَمَّاهُ كَمَا سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه رَجُلًا عَنِ اسْمِهِ، فَقَالَ: جمرة، فَقَالَ: وَاسْمُ أَبِيكَ؟ قَالَ: شهاب، قَالَ:

مِمَّنْ؟ قَالَ: مِنَ الْحُرَقَةِ، قَالَ: فَمَنْزِلُكَ؟ قَالَ: بِحَرَّةِ النَّارِ، قَالَ: فَأَيْنَ مَسْكَنُكَ؟ قَالَ: بِذَاتِ لَظَى، قَالَ: اذْهَبْ فَقَدِ احْتَرَقَ مَسْكَنُكَ، فَذَهَبَ فَوَجَدَ الْأَمْرَ كَذَلِكَ، فَعَبَرَ عمر مِنَ الْأَلْفَاظِ إِلَى أَرْوَاحِهَا وَمَعَانِيهَا، كَمَا عَبَرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ اسْمِ سُهَيْلٍ إِلَى سُهُولَةِ أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، فَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ.

وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ بِتَحْسِينِ أَسْمَائِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِهَا، وَفِي هَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - تَنْبِيهٌ عَلَى تَحْسِينِ الْأَفْعَالِ الْمُنَاسِبَةِ لِتَحْسِينِ الْأَسْمَاءِ؛ لِتَكُونَ الدَّعْوَةُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ بِالِاسْمِ الْحَسَنِ، وَالْوَصْفِ الْمُنَاسِبِ لَهُ.

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ اشْتُقَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَصْفِهِ اسْمَانِ مُطَابِقَانِ لِمَعْنَاهُ، وَهُمَا أَحْمَدُ وَمُحَمَّدٌ، فَهُوَ لِكَثْرَةِ مَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ مُحَمَّدٌ، وَلِشَرَفِهَا وَفَضْلِهَا عَلَى صِفَاتِ غَيْرِهِ أَحْمَدُ، فَارْتَبَطَ الِاسْمُ بِالْمُسَمَّى ارْتِبَاطَ الرُّوحِ بِالْجَسَدِ، وَكَذَلِكَ تَكْنِيَتُهُ ﷺ لأبي الحكم بن هشام بأبي جهل، كُنْيَةٌ مُطَابِقَةٌ لِوَصْفِهِ وَمَعْنَاهُ، وَهُوَ أَحَقُّ الْخَلْقِ بِهَذِهِ الْكُنْيَةِ، وَكَذَلِكَ تَكْنِيَةُ اللهِ ﷻ لعبد العزى بأبي لهب؛ لَـمَّا كَانَ مَصِيرُهُ إِلَى نَارٍ ذَاتِ لَهَبٍ كَانَتْ هَذِهِ الْكُنْيَةُ أَلْيَقَ بِهِ وَأَوْفَقَ، وَهُوَ بِهَا أَحَقُّ وَأَخْلَقُ.

وَلَـمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَاسْمُهَا يَثْرِبُ لَا تُعْرَفُ بِغَيْرِ هَذَا الِاسْمِ غَيَّرَهُ بِطَيْبَةَ؛ لَـمَّا زَالَ عَنْهَا مَا فِي لَفْظِ يَثْرِبَ مِنَ التَّثْرِيبِ بِمَا فِي مَعْنَى طَيْبَةَ مِنَ الطِّيبِ، اسْتَحَقَّتْ هَذَا الِاسْمَ، وَازْدَادَتْ بِهِ طِيبًا آخَرَ، فَأَثَّرَ طِيبُهَا فِي اسْتِحْقَاقِ الِاسْمِ، وَزَادَهَا طِيبًا إِلَى طِيبِهَا.

وَلَـمَّا كَانَ الِاسْمُ الْحَسَنُ يَقْتَضِي مُسَمَّاهُ وَيَسْتَدْعِيهِ مِنْ قُرْبٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِبَعْضِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ وَتَوْحِيدِهِ: «**يَا بَنِي عَبْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ قَدْ حَسَّنَ اسْمَكُمْ وَاسْمَ أَبِيكُمْ**»، فَانْظُرْ كَيْفَ دَعَاهُمْ إِلَى عُبُودِيَّةِ اللهِ بِحُسْنِ اسْمِ أَبِيهِمْ.

وَبِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الْمُقْتَضِي لِلدَّعْوَةِ، وَتَأَمَّلْ أَسْمَاءَ السِّتَّةِ الْمُتَبَارِزِينَ يَوْمَ بَدْرٍ كَيْفَ اقْتَضَى الْقَدَرُ مُطَابَقَةَ أَسْمَائِهِمْ لِأَحْوَالِهِمْ يَوْمَئِذٍ، فَكَانَ الْكُفَّارُ: شيبة، وعتبة، والوليد، ثَلَاثَةُ أَسْمَاءٍ مِنَ الضَّعْفِ، فالوليد لَهُ بِدَايَةُ الضَّعْفِ، وشيبة لَهُ نِهَايَةُ الضَّعْفِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]، وعتبة مِنَ الْعَتَبِ، فَدَلَّتْ أَسْمَاؤُهُمْ عَلَى عَتَبٍ يَحِلُّ بِهِمْ، وَضَعْفٍ يَنَالُهُمْ، وَكَانَ أَقْرَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: علي، وعبيدة، والحارث ﭫ، ثَلَاثَةُ أَسْمَاءٍ تُنَاسِبُ أَوْصَافَهُمْ وَهِيَ الْعُلُوُّ، وَالْعُبُودِيَّةُ، وَالسَّعْيُ الَّذِي هُوَ الْحَرْثُ، فَعَلَوْا عَلَيْهِمْ بِعُبُودِيَّتِهِمْ وَسَعْيِهِمْ فِي حَرْثِ الْآخِرَةِ.

وَلَـمَّا كَانَ الِاسْمُ مُقْتَضِيًا لِمُسَمَّاهُ وَمُؤَثِّرًا فِيهِ كَانَ أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ مَا اقْتَضَى أَحَبَّ الْأَوْصَافِ إِلَيْهِ كَعَبْدِ اللهِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ إِضَافَةُ الْعُبُودِيَّةِ إِلَى اسْمِ اللهِ وَاسْمِ الرَّحْمَنِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ إِضَافَتِهَا إِلَى غَيْرِهِمَا، كَالْقَاهِرِ وَالْقَادِرِ، فَعَبْدُ الرَّحْمَنِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ عَبْدِ الْقَادِرِ، وَعَبْدُ اللهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ عَبْدِ رَبِّهِ؛ وَهَذَا لِأَنَّ التَّعَلُّقَ الَّذِي بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللهِ إِنَّمَا هُوَ الْعُبُودِيَّةُ الْمَحْضَةُ، وَالتَّعَلُّقُ الَّذِي بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ بِالرَّحْمَةِ

المَحْضَةِ، فَبِرَحْمَتِهِ كَانَ وُجُودُهُ وَكَمَالُ وُجُودِهِ، وَالْغَايَةُ الَّتِي أَوْجَدَهُ لِأَجْلِهَا أَنْ يَتَأَلَّهَ لَهُ وَحْدَهُ مَحَبَّةً وَخَوْفًا، وَرَجَاءً وَإِجْلَالًا وَتَعْظِيمًا، فَيَكُونُ عَبْدًا لله، وَقَدْ عَبَدَهُ لِمَا فِي اسْمِ الله مِنْ مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي يَسْتَحِيلُ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ، وَلَـمَّا غَلَبَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ وَكَانَتِ الرَّحْمَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْغَضَبِ، كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ عَبْدِ الْقَاهِرِ.

وَلَـمَّا كَانَ كُلُّ عَبْدٍ مُتَحَرِّكًا بِالْإِرَادَةِ، وَالْهَمُّ مَبْدَأُ الْإِرَادَةِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى إِرَادَتِهِ حَرَكَتُهُ، وَكَسْبُهُ، كَانَ أَصْدَقَ الْأَسْمَاءِ اسْمُ هَمَّام وَاسْمُ حَارِثٍ؛ إِذْ لَا يَنْفَكُّ مُسَمَّاهُمَا عَنْ حَقِيقَةِ مَعْنَاهُمَا، وَلَـمَّا كَانَ الْمُلْكُ الْحَقُّ لله وَحْدَهُ، وَلَا مَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ سِوَاهُ كَانَ أَخْنَعَ اسْمٍ، وَأَوْضَعَهُ عِنْدَ الله، وَأَغْضَبَهُ لَهُ اسْمُ «شَاهَانْ شَاهْ» أَيْ: مَلِكُ الْمُلُوكِ وَسُلْطَانُ السَّلَاطِينِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الله فَتَسْمِيَةُ غَيْرِهِ بِهَذَا مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْبَاطِلَ.

وَقَدْ أَلْحَقَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهَذَا «قَاضِي الْقُضَاةِ»، وَقَالَ: لَيْسَ قَاضِي الْقُضَاةِ إِلَّا مَنْ يَقْضِي الْحَقَّ، وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ الَّذِي إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ.

وَيَلِي هَذَا الِاسْمَ فِي الْكَرَاهَةِ وَالْقُبْحِ وَالْكَذِبِ سَيِّدُ النَّاسِ، وَسَيِّدُ الْكُلِّ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِرَسُولِ الله ﷺ خَاصَّةً كَمَا قَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ**»، فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ قَطُّ أَنْ يَقُولَ عَنْ غَيْرِهِ: إِنَّهُ سَيِّدُ النَّاسِ، وَسَيِّدُ الْكُلِّ، كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ.

وَلَـمَّا كَانَ مُسَمَّى الْحَرْبِ وَالْمُرَّةِ أَكْرَهَ شَيْءٍ لِلنُّفُوسِ، وَأَقْبَحَهَا عِنْدَهَا، كَانَ أَقْبَحُ الْأَسْمَاءِ حَرْبًا، وَمُرَّةَ، وَعَلَى قِيَاسِ هَذَا حَنْظَلَةُ وَحَزْنٌ، وَمَا أَشْبَهَهُمَا، وَمَا أَجْدَرَ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ بِتَأْثِيرِهَا فِي مُسَمَّيَاتِهَا، كَمَا أَثَّرَ اسْمُ «حَزْنٍ» الْحُزُونَةَ فِي سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ.

وَلَـمَّا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ سَادَاتِ بَنِي آدَمَ، وَأَخْلَاقُهُمْ أَشْرَفَ الْأَخْلَاقِ، وَأَعْمَالُهُمْ أَصَحَّ الْأَعْمَالِ، كَانَتْ أَسْمَاؤُهُمْ أَشْرَفَ الْأَسْمَاءِ، فَنَدَبَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ إِلَى التَّسَمِّي بِأَسْمَائِهِمْ، كَمَا فِي سُنَنِ أَبِي داود، وَالنَّسَائِيِّ عَنْهُ ﷺ: «**تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ**»، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ إِلَّا أَنَّ الِاسْمَ يُذَكِّرُ بِمُسَمَّاهُ وَيَقْتَضِي التَّعَلُّقَ بِمَعْنَاهُ لَكَفَى بِهِ مَصْلَحَةً، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ حِفْظِ أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَذِكْرِهَا، وَأَنْ لَا تُنْسَى، وَأَنْ تُذْكَرَ أَسْمَاؤُهُمْ بِأَوْصَافِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ.

فَصْلٌ عِلَّةُ النَّهْيِ عَنِ التَّسْمِيَةِ بِيَسَارٍ وَأَفْلَحَ وَنَجِيحٍ وَرَبَاحٍ :

وَأَمَّا النَّهْيُ عَنْ تَسْمِيَةِ الْغُلَامِ بِـ: يَسَارٍ وَأَفْلَحَ وَنَجِيحٍ وَرَبَاحٍ، فَهَذَا لِمَعْنًى آخَرَ قَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي الْحَدِيثِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «**فَإِنَّكَ تَقُولُ: أَثَمَّتَ هُوَ؟ فَيَقَالُ: لَا**» ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ هَلْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ مِنْ تَمَامِ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ أَوْ مُدْرَجَةٌ مِنْ قَوْلِ الصَّحَابِيِّ؟ وَبِكُلِّ حَالٍ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ لَـمَّا كَانَتْ قَدْ تُوجِبُ تَطَيُّرًا تَكْرَهُهُ النُّفُوسُ، وَيَصُدُّهَا عَمَّا هِيَ بِصَدَدِهِ كَمَا إِذَا قُلْتَ لِرَجُلٍ: أَعِنْدَكَ يَسَارٌ أَوْ رَبَاحٌ أَوْ أَفْلَحُ؟ قَالَ: لَا، تَطَيَّرْتَ أَنْتَ وَهُوَ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَعُ الطِّيَرَةُ لَا سِيَّمَا عَلَى الْمُتَطَيِّرِينَ، فَقَلَّ مَنْ تَطَيَّرَ إِلَّا وَوَقَعَتْ بِهِ طِيَرَتُهُ، وَأَصَابَهُ طَائِرُهُ كَمَا قِيلَ:

تَعَلَّمْ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا ... عَلَى مُتَطَيِّرٍ فَهُوَ الثُّبُورُ

اقْتَضَتْ حِكْمَةُ الشَّارِعِ الرَّؤُوفِ بِأُمَّتِهِ الرَّحِيمِ بِهِمْ أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِنْ أَسْبَابٍ تُوجِبُ لَهُمْ سَمَاعَ الْمَكْرُوهِ أَوْ وُقُوعَهُ، وَأَنْ يَعْدِلَ عَنْهَا إِلَى أَسْمَاءٍ تُحَصِّلُ الْمَقْصُودَ مِنْ غَيْرِ مَفْسَدَةٍ، هَذَا أَوْلَى، مَعَ مَا يَنْضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَعْلِيقِ ضِدِّ الِاسْمِ عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَمَّى يَسَارًا مَنْ هُوَ مِنْ أَعْسَرِ النَّاسِ، وَنَجِيحًا مَنْ لَا نَجَاحَ عِنْدَهُ، وَرَبَاحًا مَنْ هُوَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَيَكُونُ قَدْ وَقَعَ فِي الْكَذِبِ عَلَيْهِ وَعَلَى اللهِ.

وَأَمْرٌ آخَرُ أَيْضًا، وَهُوَ أَنْ يُطَالَبَ الْمُسَمَّى بِمُقْتَضَى اسْمِهِ فَلَا يُوجَدُ عِنْدَهُ فَيُجْعَلُ ذَلِكَ سَبَبًا لِذَمِّهِ وَسَبِّهِ كَمَا قِيلَ:

سَمَّوْكَ مِنْ جَهْلِهِمْ سَدِيدًا ... وَاللهِ مَا فِيكَ مِنْ سَدَادِ
أَنْتَ الَّذِي كَوْنُهُ فَسَادًا ... فِي عَالَمِ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ

فَتَوَصَّلَ الشَّاعِرُ بِهَذَا الِاسْمِ إِلَى ذَمِّ الْمُسَمَّى بِهِ، وَلِي مِنْ أَبْيَاتٍ:

وَسَمَّيْتُهُ صَالِحًا فَاغْتَدَى ... بِضِدِّ اسْمِهِ فِي الْوَرَى سَائِرًا
وَظَنَّ بِأَنَّ اسْمَهُ سَاتِرٌ ... لِأَوْصَافِهِ فَغَدَا شَاهِرًا

وَهَذَا كَمَا أَنَّ مِنَ الْمَدْحِ مَا يَكُونُ ذَمًّا وَمُوجِبًا لِسُقُوطِ مَرْتَبَةِ الْمَمْدُوحِ عِنْدَ النَّاسِ فَإِنَّهُ يُمْدَحُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ فَتُطَالِبُهُ النُّفُوسُ بِمَا مُدِحَ بِهِ وَتَظُنُّهُ عِنْدَهُ فَلَا تَجِدُهُ كَذَلِكَ فَتَنْقَلِبُ ذَمًّا، وَلَوْ تُرِكَ بِغَيْرِ مَدْحٍ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ هَذِهِ الْمَفْسَدَةُ وَيُشْبِهُ حَالُهُ حَالَ مَنْ وَلِيَ وِلَايَةً سَيِّئَةً، ثُمَّ عُزِلَ عَنْهَا، فَإِنَّهُ تَنْقُصُ مَرْتَبَتُهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ الْوِلَايَةِ، وَيَنْقُصُ فِي نُفُوسِ النَّاسِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَهَا، وَفِي هَذَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا مَا وَصَفْتَ امْرَأً لِامْرِئٍ ... فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَاقْصِدْ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ الظُّنُونُ ... فِيهِ إِلَى الْأَمَدِ الْأَبْعَدِ
فَيَنْقُصُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ ... لِفَضْلِ الْمَغِيبِ عَنِ الْمَشْهَدِ

وَأَمْرٌ آخَرُ: وَهُوَ ظَنُّ الْمُسَمَّى وَاعْتِقَادُهُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ كَذَلِكَ فَيَقَعُ فِي تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ وَتَعْظِيمِهَا، وَتَرَفُّعِهَا عَلَى غَيْرِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي نَهَى النَّبِيُّ ﷺ لِأَجْلِهِ أَنْ تُسَمَّى «بَرَّةً»، وَقَالَ: «**لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمُ اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ**»، وَعَلَى هَذَا فَتُكْرَهُ التَّسْمِيَةُ بِـ: التَّقِيِّ وَالْمُتَّقِي، وَالْمُطِيعِ وَالطَّائِعِ وَالرَّاضِي، وَالْمُحْسِنِ وَالْمُخْلِصِ وَالْمُنِيبِ وَالرَّشِيدِ وَالسَّدِيدِ.

وَأَمَّا تَسْمِيَةُ الْكُفَّارِ بِذَلِكَ فَلَا يَجُوزُ التَّمْكِينُ مِنْهُ وَلَا دُعَاؤُهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَلَا الْإِخْبَارُ عَنْهُمْ بِهَا، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَغْضَبُ مِنْ تَسْمِيَتِهِمْ بِذَلِكَ.

الْكُنْيَةُ : وَأَمَّا الْكُنْيَةُ فَهِيَ نَوْعُ تَكْرِيمٍ لِلْمَكْنِيِّ، وَتَنْوِيهٌ بِهِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَكْنِيهِ حِينَ أُنَادِيهِ لِأُكْرِمَهُ ... وَلَا أُلَقِّبُهُ وَالسَّوْءَةُ اللَّقَبُ

«وَكَنَّى النَّبِيُّ ﷺ صُهَيبًا بِأَبِي يَحْيَى، وَكَنَّى عَلِيًّا ﷺ بِأَبِي تُرَابٍ إِلَى كُنْيَتِهِ بِأَبِي الحَسَنِ، وَكَانَتْ أَحَبَّ كُنْيَتِهِ إِلَيْهِ، وَكَنَّى أَخَا أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَكَانَ صَغِيرًا دُونَ الْبُلُوغِ بأبي عمير».

وَكَانَ هَدْيُهُ ﷺ تَكْنِيَةُ مَنْ لَهُ وَلَدٌ، وَمَنْ لَا وَلَدَ لَهُ، وَلَمْ يَثْبُتْ عَنْهُ أَنَّهُ نَهَى عَنْ كُنْيَةٍ إِلَّا الْكُنْيَةَ بِأَبِي الْقَاسِمِ، فَصَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «**تَسَمَّوْا بِاسْمِي، وَلَا تَكَنَّوْا بِكُنْيَتِي**»، فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّكَنِّي بِكُنْيَتِهِ مُطْلَقًا، سَوَاءٌ أَفْرَدَهَا عَنِ اسْمِهِ أَوْ قَرَنَهَا بِهِ، وَسَوَاءٌ مَحْيَاهُ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، وَعُمْدَتُهُمْ عُمُومُ هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَإِطْلَاقُهُ، وَحَكَى البيهقي ذَلِكَ عَنِ الشَّافِعِيِّ، قَالُوا: لِأَنَّ النَّهْيَ إِنَّمَا كَانَ لِأَنَّ مَعْنَى هَذِهِ الْكُنْيَةِ وَالتَّسْمِيَةِ مُخْتَصَّةٌ بِهِ ﷺ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «**وَاللهِ لَا أُعْطِي أَحَدًا، وَلَا أَمْنَعُ أَحَدًا، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ**»، قَالُوا: وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ لَيْسَتْ عَلَى الْكَمَالِ لِغَيْرِهِ.

وَاخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي جَوَازِ تَسْمِيَةِ الْمَوْلُودِ بِقَاسِمٍ، فَأَجَازَهُ طَائِفَةٌ وَمَنَعَهُ آخَرُونَ، وَالْمُجِيزُونَ نَظَرُوا إِلَى أَنَّ الْعِلَّةَ عَدَمُ مُشَارَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا اخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْكُنْيَةِ، وَهَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي الِاسْمِ، وَالْمَانِعُونَ نَظَرُوا إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي نَهَى عَنْهُ فِي الْكُنْيَةِ مَوْجُودٌ مِثْلُهُ هُنَا فِي الِاسْمِ سَوَاءٌ، أَوْ هُوَ أَوْلَى بِالْمَنْعِ، قَالُوا: وَفِي قَوْلِهِ ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ**» إِشْعَارٌ بِهَذَا الِاخْتِصَاصِ.

الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ النَّهْيَ إِنَّمَا هُوَ عَنِ الْجَمْعِ بَيْنَ اسْمِهِ وَكُنْيَتِهِ، فَإِذَا أُفْرِدَ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ، فَلَا بَأْسَ.

قَالَ أبو داود: بَابٌ: مَنْ رَأَى أَنْ لَا يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي الزبير عَنْ جابر ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ تَسَمَّى بِاسْمِي فَلَا يَتَكَنَّ بِكُنْيَتِي، وَمَنْ تَكَنَّى بِكُنْيَتِي فَلَا يَتَسَمَّ بِاسْمِي**»، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَلَفْظُهُ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَجْمَعَ أَحَدٌ بَيْنَ اسْمِهِ وَكُنْيَتِهِ»، وَيُسَمِّي مُحَمَّدًا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ: فَهَذَا مُقَيَّدٌ مُفَسِّرٌ لِمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ نَهْيِهِ عَنِ التَّكَنِّي بِكُنْيَتِهِ قَالُوا: وَلِأَنَّ فِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا مُشَارَكَةٌ فِي الِاخْتِصَاصِ بِالِاسْمِ وَالْكُنْيَةِ، فَإِذَا أُفْرِدَ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ زَالَ الِاخْتِصَاصُ.

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: جَوَازُ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا، وَهُوَ الْمَنْقُولُ عَنْ مالك، وَاحْتَجَّ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ بِمَا رَوَاهُ أبو داود وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، عَنْ علي ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ وُلِدَ لِي وَلَدٌ مِنْ بَعْدِكَ أُسَمِّيهِ بِاسْمِكَ وَأُكَنِّيهِ بِكُنْيَتِكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَفِي سُنَنِ أَبِي داود عَنْ عائشة ﷺ قَالَتْ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، إِنِّي وَلَدْتُ غُلَامًا فَسَمَّيْتُهُ مُحَمَّدًا وَكَنَّيْتُهُ أَبَا الْقَاسِمِ فَذُكِرَ لِي أَنَّكَ تَكْرَهُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**مَا الَّذِي أَحَلَّ اسْمِي وَحَرَّمَ كُنْيَتِي**»، أَوْ «**مَا الَّذِي حَرَّمَ كُنْيَتِي وَأَحَلَّ اسْمِي**»، قَالَ هَؤُلَاءِ: وَأَحَادِيثُ الْمَنْعِ مَنْسُوخَةٌ بِهَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ.

الْقَوْلُ الرَّابِعُ: إِنَّ التَّكَنِّيَ بِأَبِي الْقَاسِمِ كَانَ مَمْنُوعًا مِنْهُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ جَائِزٌ بَعْدَ وَفَاتِهِ، قَالُوا: وَسَبَبُ النَّهْيِ إِنَّمَا كَانَ مُخْتَصًّا بِحَيَاتِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أنس ﷺ قَالَ: «نَادَى رَجُلٌ

بِالْبَقِيعِ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي لَمْ أَعْنِكَ إِنَّمَا دَعَوْتُ فُلَانًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلَا تَكَنَّوْا بِكُنْيَتِي**»، قَالُوا: وَحَدِيثُ علي رضي الله عنه فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ إِنْ وُلِدَ لِي مِنْ بَعْدِكَ وَلَدٌ، وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَمَّنْ يُولَدُ لَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَلَكِنْ قَالَ علي رضي الله عنه فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «وَكَانَتْ رُخْصَةً لِي».

وَقَدْ شَذَّ مَنْ لَا يُؤْبَهُ لِقَوْلِهِ، فَمَنَعَ التَّسْمِيَةَ بِاسْمِهِ ﷺ قِيَاسًا عَلَى النَّهْيِ عَنِ التَّكَنِّي بِكُنْيَتِهِ، وَالصَّوَابُ أَنَّ التَّسَمِّيَ بِاسْمِهِ جَائِزٌ، وَالتَّكَنِّيَ بِكُنْيَتِهِ مَمْنُوعٌ مِنْهُ، وَالْمَنْعُ فِي حَيَاتِهِ أَشَدُّ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا مَمْنُوعٌ مِنْهُ، وَحَدِيثُ عائشة رضي الله عنها غَرِيبٌ لَا يُعَارَضُ بِمِثْلِهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ، وَحَدِيثُ علي رضي الله عنه فِي صِحَّتِهِ نَظَرٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِيهِ نَوْعُ تَسَاهُلٍ فِي التَّصْحِيحِ، وَقَدْ قَالَ علي رضي الله عنه: إِنَّهَا رُخْصَةٌ لَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى بَقَاءِ الْمَنْعِ لِمَنْ سِوَاهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

التَّكَنِّي بِأَبِي عِيسَى: وَقَدْ كَرِهَ قَوْمٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ الْكُنْيَةَ بِأَبِي عِيسَى، وَأَجَازَهَا آخَرُونَ، فَرَوَى أبو داود عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ضَرَبَ ابْنًا لَهُ يُكْنَى أبا عيسى، وَأَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ تَكَنَّى بأبي عيسى، فَقَالَ لَهُ عمر: أَمَا يَكْفِيكَ أَنْ تُكْنَى بأبي عبدِ الله؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَنَّانِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَإِنَّا لَفِي جَلْجَتِنَا، فَلَمْ يَزَلْ يُكَنَّى بأبي عبد الله حَتَّى هَلَكَ».

وَقَدْ «كَنَّى ﷺ عائشة رضي الله عنها بأم عبدِ الله»، وَكَانَ لِنِسَائِهِ أَيْضًا كُنًى كأم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهن.

[زاد المعاد لابن القيم ٢/ ٣٠٥-٣١٩].

مصادر ومراجع للاستزادة :

(١) **تسمية المولود** ـ د/ بكر عبد الله أبو زيد ـ ط٣ دار العاصمة ـ الرياض ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م ـ ٧٢ص.

(٢) **حكمة النبي ﷺ في تغيير أسماء أصحابه** رضي الله عنهم ـ الشيخ عبد الحفيظ فرغلي القرني ـ هدية مجلة الأزهر ـ القاهرة ـ ربيع الأول ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م ـ ٩٥ص.

(٣) **الصحابة الذين غيَّر النبي ﷺ أسماءهم** ـ أ/ عبد الله البراهيم ـ مطبعة أضواء البيان ـ الرياض ١٤٢١هـ ـ ٩٦ ص.

(٤) **فضائل التسمية بأحمد ومحمد** ـ الإمام حسين بن أحمد بن عبد الله بن بكير (٣٨٨ هـ) ـ تح أ/ مجدي فتحي السيد ـ دار الصحابة ـ طنطا ـ مصر ١٤١١ هـ/ ١٩٩٠م ـ ٤٨ص.

(٥) **نهاية المرام في معرفة من سماه خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام** ـ الإمام يوسف بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي (٩٠٩هـ) ـ حققه وقدم له وعلق عليه أ/ صالح بن محمد بن عبد الفتاح بن عبد الخالق ـ إصدارات مجلة الوعي الإسلامي (٨٢) ـ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م ـ ٩٠ ص.

٨ ـ لا يجوز ترويع المسلم:

يقول د/ الفنيسان: «دليل ذلك: أن زيد بن ثابت ﷺ كان في الخندق ينقل التراب وأصابه التعب، فاستند إلى حجارة، فغلبته عينه فنام، فمر به أحد الصحابة، فأخذ سلاحه وهو نائم، فلما قام فزع، فقال له رسول الله ﷺ: (**يَا أَبَا رُقَادٍ!** ـ يريد ممازحته ـ «**نِمْتَ حَتَّى ذَهَبَ سِلاحُكَ!**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ لَهُ عِلمٌ بِسِلاحِ هَذَا الغُلامِ؟**» فَقَالَ عُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ ﷺ: أَنَا يَا رَسُولَ الله! وَهُوَ عِنْدِي، فَقَالَ: «**فَرُدَّهُ عَلَيْهِ**»، وَنَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُرَوَّعَ الْمُسْلِمُ أَوْ يُؤْخَذَ مَتَاعُهُ لاعِبًا جَادًّا (لا يأخذه على سبيل الهزل ثم يحبسه فيصير ذلك جدًّا)». [**ينظر: جامع الترمذي ٤/ ٤٦٣، ومسند أحمد ٥/ ٣٦٢**]. [**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٠**].

٩ ـ جواز خروج النساء في رفقة الغزاة:

يقول د/ الفنيسان: «كان رسول الله ﷺ إذا خرج في سفر أقرع بين نسائه، وفي غزوة الخندق ضُربت له خيمة من أدم، فكانت عائشة تمكث عنده أيامًا، ثم تعقبها أم سلمة، ثم زينب وهكذا...».

[**ينظر: فتح الباري ٥/ ٢٧٠**]. [**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٠، وقد سبق تفصيل الحديث في هذا في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة أُحُد**].

١٠ ـ عِلاجُ المُصَابِ بِالعَيْنِ [(١)]:

يقول د/ الفنيسان: «أبدى سلمان الفارسي ﷺ في الخندق نشاطًا ملحوظًا أكثر من غيره، فعانه ـ أي أصابه بالعين ـ قيس بن صعصعة، فقال ﷺ: «**مُرُوهُ** ـ يقصد العائن ـ **فَلْيَتَوَضَّأْ لَهُ، وَلْيَغْتَسِلْ بِهِ، وَيُكْفِئْ الإِنَاءَ خَلْفَهُ**»، وفي رواية: «**فَلْيَتَوَضَّأْ أَوْ يَغْتَسِلْ وَيَجْمَعْ وُضُوءَهُ فِي ظَرْفٍ، وَيَغْتَسِلُ بِهِ المَرِيضُ**»، ففعل ذلك، فقام من ساعته كأنما نشط من عقال. [**السيرة الحلبية ٢/ ٣١٣**].

---

(١) للتفصيل في موضوع الحسد ينظر ما يلي:

١- **إعجاز القرآن في علاج أمراض الجان: المس، السحر، الحسد، السرطان** ـ أ/ ناصر المنشاوي ـ دار الفجر للتراث ـ القاهرة ٢٠٠٠م ـ ١٧٠ص.

٢- **الحسد وكيف نتقيه** ـ أ/ إبراهيم محمد الجمل ـ مكتبة القرآن ـ مصر ١٩٨٢م ـ ١٥١ص.

٣- **السحر والحسد** ـ الشيخ محمد متولي الشعراوي ـ مؤسسة أخبار اليوم ـ مصر ١٩٩٠م ـ ١٣٤ ص.

٤- **العين حق** ـ أ/ محمد بن سنجاب الأثاري ـ دار التقوى ـ شبرا الخيمة ـ القاهرة د.ت ـ ١٢٨ص.

٥- **فتح المغيث في السحر والحسد ومس إبليس** ـ الشيخ أبو عبيدة ماهر بن صالح آل مبارك ـ دار علوم السنة للنشر ـ الرياض ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ـ ٢٢٤ ص.

٦- **فقه الحسد** ـ الشيخ أبو عبد الله مصطفى العدوي ـ دار السنة ـ الخبر ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ـ ٩٦ ص.

٧- **القول المعين في مرتكزات معالجين الصرع والسحر والعين** ـ أ/ أسامة بن ياسين المعاني ـ دار المعالي ـ عمان ـ الأردن ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ـ ٤٢٠ص.

٨- **المنهل المعين في إثبات الحسد والعين** ـ أ/ أسامة بن ياسين المعاني ـ دار المعالي ـ عمان ـ الأردن ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ـ ٣٤٢ص.

وأخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما أن النبي ﷺ قال: «**العَيْنُ حَقٌّ ـ زاد مسلم ـ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ القَدَرَ سَبَقَتْهُ العَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**». وكذلك رواها الترمذي وأبو داود والإمام مالك في الموطأ، وقد بحثها ابن القيم الجوزية وأطال فيها». [**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٠-٢٢١**].

ولأهمية هذا الموضوع ننقل بعضًا من كلام ابن القيم رحمه الله في الموضوع، حيث يقول تحت عنوان «**هَدْيُهِ ﷺ فِي عِلاجِ المُصَابِ بِالعَيْنِ**»: «رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**العَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ القَدَرَ لَسَبَقَتْهُ العَيْنُ**».

وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَخَّصَ فِي الرُّقْيَةِ مِنْ الـحُمَةِ** (هي إبرة العقرب ونحوه من ذوات السموم، أو السم نفسه) **وَالعَيْنِ وَالنَّمْلَةِ**.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**العَيْنُ حَقٌّ**».

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ يُؤْمَرُ العَائِنُ فَيَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ الـمَعِينُ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ ـ أَوْ أَمَرَ ـ أَنْ نَسْتَرْقِيَ مِنَ العَيْنِ.

وَذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ الزُّرَقِيِّ: أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ بَنِي جَعْفَرٍ تُصِيبُهُمْ العَيْنُ، أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ القَضَاءَ لَسَبَقَتْهُ العَيْنُ**». قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى مَالِكٌ رحمه الله عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ رضي الله عنه قَالَ: رَأَى عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ يَغْتَسِلُ فَقَالَ: وَاللهِ مَا رَأَيْتُ كَاليَوْمِ وَلَا جِلدَ مُخَبَّأَةٍ، قَالَ: فَلُبِطَ سَهْلٌ، فَأَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامِرًا، فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**عَلامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، أَلَا بَرَّكْتَ، اغْتَسِل لَهُ**»، فَغَسَلَ لَهُ عَامِرٌ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَمِرْفَقَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صَبَّ عَلَيْهِ، فَرَاحَ مَعَ النَّاسِ.

وَرَوَى مَالِكٌ رحمه الله أَيْضًا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ عَنْ أَبِيهِ هَذَا الحَدِيثَ، وَقَالَ فِيهِ: «**إِنَّ العَيْنَ حَقٌّ، تَوَضَّأْ لَهُ**»، فَتَوَضَّأَ لَهُ.

وَذَكَرَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ طَاوُوسٍ عَنْ أَبِيهِ مَرْفُوعًا: «**العَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ القَدَرَ لَسَبَقَتْهُ العَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِل**»، وَوَصْلُهُ صَحِيحٌ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: يُؤْمَرُ الرَّجُلُ العَائِنُ بِقَدَحٍ فَيُدْخِلُ كَفَّهُ فِيهِ، فَيَتَمَضْمَضُ، ثُمَّ يَمُجُّهُ فِي القَدَحِ، وَيَغْسِلُ وَجْهَهُ فِي القَدَحِ، ثُمَّ يُدْخِلُ يَدَهُ اليُسْرَى فَيَصُبُّ عَلَى رُكْبَتِهِ اليُمْنَى فِي القَدَحِ، ثُمَّ يُدْخِلُ يَدَهُ اليُمْنَى فَيَصُبُّ عَلَى رُكْبَتِهِ اليُسْرَى، ثُمَّ يَغْسِلُ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وَلَا يُوضَعُ القَدَحُ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ يُصَبُّ عَلَى رَأْسِ الرَّجُلِ الَّذِي تُصِيبُهُ العَيْنُ مِنْ خَلفِهِ صَبَّةً وَاحِدَةً.

وَالعَيْنُ عَيْنَانِ: عَيْنٌ إِنْسِيَّةٌ، وَعَيْنٌ جِنِّيَّةٌ، فَقَدْ صَحَّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ، فَقَالَ: «**اسْتَرْقُوا لَهَا، فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ**».

قَالَ الحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ الفَرَّاءُ: وَقَوْلُهُ: سَفْعَةٌ، أَيْ: نَظْرَةٌ، يَعْنِي: مِنْ الجِنِّ، يَقُولُ: بِهَا عَيْنٌ أَصَابَتْهَا مِنْ نَظَرِ الجِنِّ أَنْفَذُ مِنْ أَسِنَّةِ الرِّمَاحِ.

وَيُذْكَرُ عَنْ جَابِرٍ يَرْفَعُهُ: «**إِنَّ العَيْنَ لَتُدْخِلُ الرَّجُلَ القَبْرَ، وَالجَمَلَ القِدْرَ**».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ الجَانِّ، وَمِنْ عَيْنِ الإِنْسَانِ.

قَوْلُ مَنْ أَبْطَلَ الإِصَابَةَ بِالعَيْنِ: فَأَبْطَلَتْ طَائِفَةٌ مِمَّنْ قَلَّ نَصِيبُهُمْ مِنْ السَّمْعِ وَالعَقْلِ أَمْرَ العَيْنِ، وَقَالُوا: إِنَّمَا ذَلِكَ أَوْهَامٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِالسَّمْعِ وَالعَقْلِ، وَمِنْ أَغْلَظِهِمْ حِجَابًا، وَأَكْثَفِهِمْ طِبَاعًا، وَأَبْعَدِهِمْ مَعْرِفَةً عَنْ الأَرْوَاحِ وَالنُّفُوسِ وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا وَتَأْثِيرَاتِهَا، وَعُقَلَاءُ الأُمَمِ عَلَى اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ وَنِحَلِهِمْ لَا تَدْفَعُ أَمْرَ العَيْنِ، وَلَا تُنْكِرُهُ، وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي سَبَبِ وَجِهَةِ تَأْثِيرِ العَيْنِ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إِنَّ العَائِنَ إِذَا تَكَيَّفَتْ نَفْسُهُ بِالكَيْفِيَّةِ الرَّدِيئَةِ انْبَعَثَ مِنْ عَيْنِهِ قُوَّةٌ سُمِّيَّةٌ تَتَّصِلُ بِالمَعِينِ فَيَتَضَرَّرُ.

قَالُوا: وَلَا يُسْتَنْكَرُ هَذَا، كَمَا لَا يُسْتَنْكَرُ انْبِعَاثُ قُوَّةٍ سُمِّيَّةٍ مِنْ الأَفْعَى تَتَّصِلُ بِالإِنْسَانِ فَيَهْلَكُ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ اُشْتُهِرَ عَنْ نَوْعٍ مِنْ الأَفَاعِي أَنَّهَا إِذَا وَقَعَ بَصَرُهَا عَلَى الإِنْسَانِ هَلَكَ، فَكَذَلِكَ العَائِنُ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَى: لَا يُسْتَبْعَدُ أَنْ يَنْبَعِثَ مِنْ عَيْنِ بَعْضِ النَّاسِ جَوَاهِرُ لَطِيفَةٌ غَيْرُ مَرْئِيَّةٍ، فَتَتَّصِلُ بِالمَعِينِ وَتَتَخَلَّلُ مَسَامَّ جِسْمِهِ فَيَحْصُلُ لَهُ الضَّرَرُ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَى: قَدْ أَجْرَى اللهُ العَادَةَ بِخَلقِ مَا يَشَاءُ مِنْ الضَّرَرِ عِنْدَ مُقَابَلَةِ عَيْنِ العَائِنِ لِمَنْ يَعِينُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ قُوَّةٌ وَلَا سَبَبٌ وَلَا تَأْثِيرٌ أَصْلًا، وَهَذَا مَذْهَبُ مُنْكِرِي الأَسْبَابِ وَالقُوَى وَالتَّأْثِيرَاتِ فِي العَالَمِ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ سَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بَابَ العِلَلِ وَالتَّأْثِيرَاتِ وَالأَسْبَابِ، وَخَالَفُوا العُقَلَاءَ أَجْمَعِينَ.

الرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الإِصَابَةَ بِالعَيْنِ: وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ فِي الأَجْسَامِ وَالأَرْوَاحِ قُوًى وَطَبَائِعَ مُخْتَلِفَةً، وَجَعَلَ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا خَوَاصَّ وَكَيْفِيَّاتٍ مُؤَثِّرَةً، وَلَا يُمْكِنُ لِعَاقِلٍ إِنْكَارُ تَأْثِيرِ الأَرْوَاحِ فِي الأَجْسَامِ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ مَحْسُوسٌ، وَأَنْتَ تَرَى الوَجْهَ كَيْفَ يَحْمَرُّ حُمْرَةً شَدِيدَةً إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ مَنْ يَحْتَشِمُهُ وَيَسْتَحِي مِنْهُ، وَيَصْفَرُّ صُفْرَةً شَدِيدَةً عِنْدَ نَظَرِ مَنْ يَخَافُهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ شَاهَدَ النَّاسُ مَنْ يَسْقَمُ مِنْ النَّظَرِ، وَتَضْعُفُ قُوَاهُ، وَهَذَا كُلُّهُ بِوَاسِطَةِ تَأْثِيرِ الأَرْوَاحِ، وَلِشِدَّةِ ارْتِبَاطِهَا بِالعَيْنِ يُنْسَبُ الفِعْلُ إِلَيْهَا، وَلَيْسَتْ هِيَ الفَاعِلَةَ، وَإِنَّمَا التَّأْثِيرُ لِلرُّوحِ، وَالأَرْوَاحُ مُخْتَلِفَةٌ فِي طَبَائِعِهَا وَقُوَاهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا وَخَوَاصِّهَا، فَرُوحُ الحَاسِدِ مُؤْذِيَةٌ لِلمَحْسُودِ أَذًى بَيِّنًا؛ وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ تعالى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِهِ مِنْ شَرِّهِ، وَتَأْثِيرُ الحَاسِدِ فِي أَذَى المَحْسُودِ أَمْرٌ لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا مَنْ هُوَ خَارِجٌ عَنْ حَقِيقَةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَهُوَ أَصْلُ الإِصَابَةِ بِالعَيْنِ، فَإِنَّ النَّفْسَ

الخَبِيثَةَ الحَاسِدَةَ تَتَكَيَّفُ بِكَيْفِيَّةٍ خَبِيثَةٍ، وَتُقَابِلُ المَحْسُودَ فَتُؤَثِّرُ فِيهِ بِتِلْكَ الخَاصِّيَّةِ، وَأَشْبَهُ الأَشْيَاءِ بِهَذَا الأَفْعَى، فَإِنَّ السُّمَّ كَامِنٌ فِيهَا بِالقُوَّةِ، فَإِذَا قَابَلَتْ عَدُوَّهَا انْبَعَثَتْ مِنْهَا قُوَّةٌ غَضَبِيَّةٌ، وَتَكَيَّفَتْ بِكَيْفِيَّةٍ خَبِيثَةٍ مُؤْذِيَةٍ، فَمِنْهَا مَا تَشْتَدُّ كَيْفِيَّتُهَا وَتَقْوَى حَتَّى تُؤَثِّرَ فِي إِسْقَاطِ الجَنِينِ، وَمِنْهَا مَا تُؤَثِّرُ فِي طَمْسِ البَصَرِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الأَبْتَرِ وَذِي الطُّفْيَتَيْنِ مِنَ الحَيَّاتِ: «**إِنَّهُمَا يَلْتَمِسَانِ البَصَرَ، وَيُسْقِطَانِ الحَبَلَ**».

الحَاسِدُ أَعَمُّ مِنَ العَائِنِ: وَمِنْهَا مَا تُؤَثِّرُ فِي الإِنْسَانِ كَيْفِيَّتُهَا بِمُجَرَّدِ الرُّؤْيَةِ مِنْ غَيْرِ اتِّصَالٍ بِهِ؛ لِشِدَّةِ خُبْثِ تِلْكَ النَّفْسِ وَكَيْفِيَّتِهَا الخَبِيثَةِ المُؤَثِّرَةِ، وَالتَّأْثِيرُ غَيْرُ مَوْقُوفٍ عَلَى الاتِّصَالَاتِ الجِسْمِيَّةِ كَمَا يَظُنُّهُ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ وَمَعْرِفَتُهُ بِالطَّبِيعَةِ وَالشَّرِيعَةِ، بَل التَّأْثِيرُ يَكُونُ تَارَةً بِالاتِّصَالِ، وَتَارَةً بِالمُقَابَلَةِ، وَتَارَةً بِالرُّؤْيَةِ، وَتَارَةً بِتَوَجُّهِ الرُّوحِ نَحْوَ مَنْ يُؤَثِّرُ فِيهِ، وَتَارَةً بِالأَدْعِيَةِ وَالرُّقَى وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَتَارَةً بِالوَهْمِ وَالتَّخَيُّلِ، وَنَفْسُ العَائِنِ لَا يَتَوَقَّفُ تأثيرها على الرُّؤْيَةِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ أَعْمَى فَيُوصَفُ لَهُ الشَّيْءُ فَتُؤَثِّرُ نَفْسُهُ فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَرَهُ، وَكَثِيرٌ مِنَ العَائِنِينَ يُؤَثِّرُ فِي المَعِينِ بِالوَصْفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم]، وَقَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق]، فَكُلُّ عَائِنٍ حَاسِدٌ، وَلَيْسَ كُلُّ حَاسِدٍ عَائِنًا، فَلَمَّا كَانَ الحَاسِدُ أَعَمَّ مِنَ العَائِنِ كَانَتِ الِاسْتِعَاذَةُ مِنْهُ اسْتِعَاذَةً مِنَ العَائِنِ، وَهِيَ سِهَامٌ تَخْرُجُ مِنْ نَفْسِ الحَاسِدِ وَالعَائِنِ نَحْوَ المَحْسُودِ، وَالمَعِينِ تُصِيبُهُ تَارَةً وَتُخْطِئُهُ تَارَةً، فَإِنْ صَادَفَتْهُ مَكْشُوفًا لَا وِقَايَةَ عَلَيْهِ أَثَّرَتْ فِيهِ، وَلَا بُدَّ، وَإِنْ صَادَفَتْهُ حَذِرًا شَاكِيَ السِّلَاحِ لَا مَنْفَذَ فِيهِ لِلسِّهَامِ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ، وَرُبَّمَا رُدَّتِ السِّهَامُ عَلَى صَاحِبِهَا، وَهَذَا بِمَثَابَةِ الرَّمْيِ الحِسِّيِّ سَوَاءً، فَهَذَا مِنَ النُّفُوسِ وَالأَرْوَاحِ، وَذَاكَ مِنَ الأَجْسَامِ وَالأَشْبَاحِ، وَأَصْلُهُ مِنْ إِعْجَابِ العَائِنِ بِالشَّيْءِ، ثُمَّ تَتْبَعُهُ كَيْفِيَّةُ نَفْسِهِ الخَبِيثَةِ، ثُمَّ تَسْتَعِينُ عَلَى تَنْفِيذِ سُمِّهَا بِنَظْرَةٍ إِلَى المَعِينِ، وَقَدْ يَعِينُ الرَّجُلُ نَفْسَهُ، وَقَدْ يَعِينُ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ، بَل بِطَبْعِهِ، وَهَذَا أَرْدَأُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ، وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ مِنَ الفُقَهَاءِ: إِنَّ مَنْ عُرِفَ بِذَلِكَ حَبَسَهُ الإِمَامُ، وَأَجْرَى لَهُ مَا يُنْفِقُ عَلَيْهِ إِلَى المَوْتِ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ قَطْعًا.

عِلَاجُ المَعْيُونِ بِالتَّعَوُّذَاتِ وَالرُّقَى: وَالمَقْصُودُ: العِلَاجُ النَّبَوِيُّ لِهَذِهِ العِلَّةِ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ ﷺ قَالَ: مَرَرْنَا بِسَيْلٍ، فَدَخَلْتُ فَاغْتَسَلْتُ فِيهِ، فَخَرَجْتُ مَحْمُومًا، فَنُمِيَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا ثَابِتٍ يَتَعَوَّذْ**»، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي وَالرُّقَى صَالِحَةٌ؟ فَقَالَ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا فِي نَفْسٍ، أَوْ حُمَةٍ، أَوْ لَدْغَةٍ**».

وَالنَّفْسُ: العَيْنُ، يُقَالُ: أَصَابَتْ فُلَانًا نَفْسٌ، أَيْ عَيْنٌ، وَالنَّافِسُ: العَائِنُ.

وَاللَّدْغَةُ ـ بِدَالٍ مُهْمَلَةٍ وَغَيْنٍ مُعْجَمَةٍ ـ وَهِيَ: ضَرْبَةُ العَقْرَبِ وَنَحْوُهَا.

عِبَارَاتٌ مِنْ التَّعَوُّذَاتِ النَّبَوِيَّةِ: فَمِنْ التَّعَوُّذَاتِ وَالرُّقَى: الإِكْثَارُ مِنْ قِرَاءَةِ المُعَوِّذَتَيْنِ، وَفَاتِحَةِ الكِتَابِ، وَآيَةِ الكُرْسِيِّ.

وَمِنْهَا التَّعَوُّذَاتُ النَّبَوِيَّةُ، نَحْوُ: **أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ.**

وَنَحْوُ: **أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ.**

وَنَحْوُ: **أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، يَا رَحْمَن.**

وَمِنْهَا: **أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُون.**

وَمِنْهَا: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الكَرِيمِ، وَكَلِمَاتِك التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ تَكْشِفُ المَأْثَمَ وَالمَغْرَمَ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يُهْزَمُ جُنْدُكَ، وَلَا يُخْلَفُ وَعْدُكَ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ.**

وَمِنْهَا: **أَعُوذُ بِوَجْهِ اللهِ العَظِيمِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَبِكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، وَأَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى، مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ لَا أُطِيقُ شَرَّهُ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.**

وَمِنْهَا: **اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَأَنْتَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله، أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم.**

وَإِنْ شَاءَ قَالَ: **تَحَصَّنْتُ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِلَهِي وَإِلَهِ كُلِّ شَيْءٍ، وَاعْتَصَمْتُ بِرَبِّي وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَوَكَّلْتُ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَاسْتَدْفَعْتُ الشَّرَّ بِلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله، حَسْبِي اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، حَسْبِي الرَّبُّ مِنْ العِبَادِ، حَسَبِي الخَالِقُ مِنْ المَخْلُوقِ، حَسَبِي الرَّازِقُ مِنْ المَرْزُوقِ، حَسْبِي الَّذِي هُوَ حَسْبِي، حَسْبِي الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، حَسْبِي اللهُ وَكَفَى، سَمِعَ اللهُ لِمَنْ دَعَا، لَيْسَ وَرَاءَ اللهِ مَرْمَى، حَسْبِي اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيم.**

وَمَنْ جَرَّبَ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ وَالعُوَذَ عَرَفَ مِقْدَارَ مَنْفَعَتِهَا، وَشِدَّةَ الحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَهِيَ تَمْنَعُ وُصُولَ أَثَرِ العَائِنِ، وَتَدْفَعُهُ بَعْدَ وُصُولِهِ بِحَسَبِ قُوَّةِ إِيمَانِ قَائِلِهَا، وَقُوَّةِ نَفْسِهِ، وَاسْتِعْدَادِهِ، وَقُوَّةِ تَوَكُّلِهِ وَثَبَاتِ قَلْبِهِ، فَإِنَّهَا سِلَاحٌ، وَالسِّلَاحُ بِضَارِبِهِ.

مَا يَقُولُهُ العَائِنُ خَشْيَةً مِنْ ضَرَرِ عَيْنِهِ: وَإِذَا كَانَ العَائِنُ يَخْشَى ضَرَرَ عَيْنِهِ وَإِصَابَتَهَا لِلمَعِينِ، فَلْيَدْفَعْ شَرَّهَا بِقَوْلِهِ: **اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ**، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ لَـمَّا عَانَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ: «**أَلَا بَرَّكْتَ**»، أَيْ: قُلْتَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ.

وَمِمَّا يُدْفَعُ بِهِ إِصَابَةُ العَيْنِ قَوْلُ: **مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**، رَوَى هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَأَى شَيْئًا يُعْجِبُهُ، أَوْ دَخَلَ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِهِ، قَالَ: **مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**.

الرُّقْيَةُ لِلمَعِينِ: وَمِنْهَا رُقْيَةُ جِبْرِيلَ عليه السلام لِلنَّبِيِّ ﷺ الَّتِي رَوَاهَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: «**بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**».

كِتَابَةُ الآيَاتِ ثُمَّ شُرْبُهَا: وَرَأَى جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ أَنْ تُكْتَبَ لَهُ الآيَاتُ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ يَشْرَبَهَا.

قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا بَأْسَ أَنْ يَكْتُبَ القُرْآنَ وَيَغْسِلَهُ، وَيَسْقِيَهُ المَرِيضَ، وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ.

وَيُذْكَرُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ لِامْرَأَةٍ تَعَسَّرَ عَلَيْهَا وِلَادُهَا أَثَرٌ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ يُغْسَلُ وَتُسْقَى.

وَقَالَ أَيُّوبُ: رَأَيْتُ أَبَا قِلَابَةَ كَتَبَ كِتَابًا مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءٍ، وَسَقَاهُ رَجُلًا كَانَ بِهِ وَجَعٌ.

اسْتِغْسَالُ العَائِنِ لِلمَعِينِ وَالرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَهُ مِنَ الأَطِبَّاءِ:

وَمِنْهَا: أَنْ يُؤْمَرَ العَائِنُ بِغَسْلِ مَغَابِنِهِ وَأَطْرَافِهِ وَدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، وَفِيهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ فَرْجُهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ طَرَفُ إِزَارِهِ الدَّاخِلِ الَّذِي يَلِي جَسَدَهُ مِنَ الجَانِبِ الأَيْمَنِ، ثُمَّ يُصَبُّ عَلَى رَأْسِ المَعِينِ مِنْ خَلْفِهِ بَغْتَةً، وَهَذَا مِمَّا لَا يَنَالُهُ عِلَاجُ الأَطِبَّاءِ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ أَنْكَرَهُ، أَوْ سَخِرَ مِنْهُ، أَوْ شَكَّ فِيهِ، أَوْ فَعَلَهُ مُجَرِّبًا لَا يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ.

حِكْمَةُ الاسْتِغْسَالِ: وَإِذَا كَانَ فِي الطَّبِيعَةِ خَوَاصٌّ لَا تَعْرِفُ الأَطِبَّاءُ عِلَلَهَا البَتَّةَ، بَل هِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنْ قِيَاسِ الطَّبِيعَةِ تَفْعَلُ بِالخَاصِّيَّةِ، فَمَا الَّذِي يُنْكِرُهُ زَنَادِقَتُهُمْ وَجَهَلَتُهُمْ مِنَ الخَوَاصِّ الشَّرْعِيَّةِ، هَذَا مَعَ أَنَّ فِي المُعَالَجَةِ بِهَذَا الاسْتِغْسَالِ مَا تَشْهَدُ لَهُ العُقُولُ الصَّحِيحَةُ، وَتُقِرُّ لِمُنَاسَبَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ تِرْيَاقَ سُمِّ الحَيَّةِ فِي لَحْمِهَا، وَأَنَّ عِلَاجَ تَأْثِيرِ النَّفْسِ الغَضَبِيَّةِ فِي تَسْكِينِ غَضَبِهَا، وَإِطْفَاءِ نَارِهِ بِوَضْعِ يَدِكَ عَلَيْهِ، وَالمَسْحِ عَلَيْهِ، وَتَسْكِينِ غَضَبِهِ، وَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ، وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَقْذِفَكَ بِهَا فَصَبَبْتَ عَلَيْهَا المَاءَ وَهِيَ فِي يَدِهِ، حَتَّى طُفِئَتْ، وَلِذَلِكَ أُمِرَ العَائِنُ أَنْ يَقُولَ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ**»؛ لِيَدْفَعَ تِلكَ الكَيْفِيَّةَ الخَبِيثَةَ بِالدُّعَاءِ الَّذِي هُوَ إِحْسَانٌ إِلَى المَعِينِ، فَإِنَّ دَوَاءَ الشَّيْءِ بِضِدِّهِ، وَلَـمَّا كَانَتْ هَذِهِ الكَيْفِيَّةُ الخَبِيثَةُ تَظْهَرُ فِي المَوَاضِعِ الرَّقِيقَةِ مِنَ الجَسَدِ؛ لِأَنَّهَا تَطْلُبُ النُّفُوذَ فَلَا تَجِدُ أَرَقَّ مِنَ المَغَابِنِ وَدَاخِلَةِ الإِزَارِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ كِنَايَةً عَنِ الفَرْجِ، فَإِذَا غُسِلَتْ بِالمَاءِ، بَطَلَ تَأْثِيرُهَا وَعَمَلُهَا، وَأَيْضًا فَهَذِهِ المَوَاضِعُ لِلأَرْوَاحِ الشَّيْطَانِيَّةِ بِهَا اخْتِصَاصٌ.

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ غَسْلَهَا بِالمَاءِ يُطْفِئُ تِلكَ النَّارِيَّة، وَيَذْهَبُ بِتِلكَ السُّمِّيَّةِ.

وَفِيهِ أَمْرٌ آخَرُ، وَهُوَ وُصُولُ أَثَرِ الغَسْلِ إِلَى القَلبِ مِنْ أَرَقِّ المَوَاضِعِ وَأَسْرَعِهَا تَنْفِيذًا، فَيُطْفِئُ تِلكَ النَّارِيَّةَ وَالسُّمِّيَّةَ بِالمَاءِ، فَيُشْفَى الـمَعِينُ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ ذَوَاتَ السُّمُومِ إِذَا قُتِلَتْ بَعْدَ لَسْعِهَا خَفَّ أَثَرُ اللَّسْعَةِ عَنْ المَلسُوعِ، وَوَجَدَ رَاحَةً، فَإِنَّ أَنْفُسَهَا تَمُدُّ أَذَاهَا بَعْدَ لَسْعِهَا، وَتُوَصِّلُهُ إِلَى الـمَلسُوعِ، فَإِذَا قُتِلَتْ خَفَّ الأَلَمُ، وَهَذَا مُشَاهَدٌ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَسْبَابِهِ فَرَحُ الـمَلسُوعِ وَاشْتِفَاءُ نَفْسِهِ بِقَتْلِ عَدُوِّهِ، فَتَقْوَى الطَّبِيعَةُ عَلَى الأَلَمِ فَتَدْفَعُهُ.

وَبِالجُمْلَةِ: غَسْلُ العَائِنِ يُذْهِبُ تِلكَ الكَيْفِيَّةَ الَّتِي ظَهَرَتْ مِنْهُ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ غَسْلُهُ عِنْدَ تَكَيُّفِ نَفْسِهِ بِتِلكَ الكَيْفِيَّةِ.

حِكْمَةُ صَبِّ مَاءِ الاسْتِغْسَالِ عَلَى المَعِينِ: فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ ظَهَرَتْ مُنَاسَبَةُ الغَسْلِ، فَمَا مُنَاسَبَةُ صَبِّ ذَلِكَ المَاءِ عَلَى المَعِينِ؟ قِيلَ: هُوَ فِي غَايَةِ المُنَاسَبَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ المَاءَ مَاءٌ طُفِئَ بِهِ تِلكَ النَّارِيَّةُ، وَأُبْطِلَ تِلكَ الكَيْفِيَّةُ الرَّدِيئَةُ مِنْ الفَاعِلِ، فَكَمَا طُفِئَتْ بِهِ النَّارِيَّةُ القَائِمَةُ بِالفَاعِلِ طُفِئَتْ بِهِ وَأُبْطِلَتْ عَنْ المَحَلِّ المُتَأَثِّرِ بَعْدَ مُلَابَسَتِهِ لِلمُؤَثِّرِ العَائِنِ، وَالمَاءُ الَّذِي يُطْفَأُ بِهِ الحَدِيدُ يَدْخُلُ فِي أَدْوِيَةٍ عِدَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ ذَكَرَهَا الأَطِبَّاءُ، فَهَذَا الَّذِي طُفِئَ بِهِ نَارِيَّةُ العَائِنِ لَا يُسْتَنْكَرُ أَنْ يَدْخُلَ فِي دَوَاءٍ يُنَاسِبُ هَذَا الدَّاءَ.

وَبِالجُمْلَةِ: فَطِبُّ الطَّبَائِعِيَّةِ وَعِلَاجُهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى العِلَاجِ النَّبَوِيِّ كَطِبِّ الطُّرُقِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى طِبِّهِمْ، بَلْ أَقَلُّ، فَإِنَّ التَّفَاوُتَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الأَنْبِيَاءِ أَعْظَمُ، وَأَعْظَمُ مِنْ التَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الطُّرُقِيَّةِ بِمَا لَا يُدْرِكُ الإِنْسَانُ مِقْدَارَهُ، فَقَدْ ظَهَرَ لَك عَقْدُ الإِخَاءِ الَّذِي بَيْنَ الحِكْمَةِ وَالشَّرْعِ، وَعَدَمُ مُنَاقَضَةِ أَحَدِهِمَا لِلآخَرِ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الصَّوَابِ، وَيَفْتَحُ لِمَنْ أَدَامَ قَرْعَ بَابَ التَّوْفِيقِ مِنْهُ كُلَّ بَابٍ، وَلَهُ النِّعْمَةُ السَّابِغَةُ، وَالحُجَّةُ البَالِغَةُ.

لِلاحْتِرَازِ مِنْ الإِصَابَةِ بِالعَيْنِ سَتْرُ مَحَاسِنِ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِ العَيْنُ: وَمِنْ عِلَاجِ ذَلِكَ أَيْضًا وَالاحْتِرَازِ مِنْهُ: سَتْرُ مَحَاسِنِ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِ العَيْنُ بِمَا يَرُدُّهَا عَنْهُ، كَمَا ذَكَرَ البَغَوِيُّ فِي كِتَابِ «شَرْحِ السُّنَّةِ»: أَنَّ عُثْمَانَ ﷺ رَأَى صَبِيًّا مَلِيحًا، فَقَالَ: دَسِّمُوا نُونَتَهُ؛ لِئَلَّا تُصِيبَهُ العَيْنُ.

ثُمَّ قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ وَمَعْنَى: دَسِّمُوا نُونَتَهُ، أَيْ: سَوِّدُوا نُونَتَهُ، وَالنُّونَةُ: النُّقْرَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي ذَقَنِ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ.

وَقَالَ الخَطَّابِي فِي «غَرِيبِ الحَدِيثِ» لَهُ عَنْ عُثْمَانَ ﷺ: إِنَّهُ رَأَى صَبِيًّا تَأْخُذُهُ العَيْنُ، فَقَالَ: دَسِّمُوا نُونَتَهُ، فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: سَأَلتُ أَحْمَدَ بْنَ يَحْيَى عَنْهُ، فَقَالَ: أَرَادَ بِالنُّونَةِ: النُّقْرَةَ الَّتِي فِي ذَقَنِهِ.

وَالتَّدْسِيمُ التَّسْوِيدُ، أَرَادَ: سَوِّدُوا ذَلِكَ المَوْضِعَ مِنْ ذَقَنِهِ؛ لِيَرُدَّ العَيْنَ.

قَالَ: وَمِنْ هَذَا حَدِيثُ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ دَسْمَاءُ، أَيْ: سَوْدَاءُ. أَرَادَ الِاسْتِشْهَادَ عَلَى اللَّفْظَةِ، وَمِنْ هَذَا أَخَذَ الشَّاعِرُ قَوْلَهُ:

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الكَمَالِ إِلَى … عَيْبٍ يُوَقِّيهِ مِنْ العَيْنِ

ذَكَر رُقْيَةً تَرُدُّ العَيْنَ: وَمِنَ الرُّقَى الَّتِي تَرُدُّ العَيْنَ مَا ذُكِرَ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله السَّاجِيِّ أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ لِلحَجِّ أَوْ الغَزْوِ عَلَى نَاقَةٍ فَارِهَةٍ، وَكَانَ فِي الرِّفْقَةِ رَجُلٌ عَائِنٌ قَلَّمَا نَظَرَ إِلَى شَيْءٍ إِلَّا أَتْلَفَهُ، فَقِيلَ لِأَبِي عَبْدِ الله: احْفَظْ نَاقَتَكَ مِنْ العَائِنِ، فَقَالَ: لَيْسَ لَهُ إِلَى نَاقَتِي سَبِيلٌ، فَأُخْبِرَ العَائِنُ بِقَوْلِهِ، فَتَحَيَّنَ غَيْبَةَ أَبِي عَبْدِ الله، فَجَاءَ إِلَى رَحْلِهِ فَنَظَرَ إِلَى النَّاقَةِ فَاضْطَرَبَتْ وَسَقَطَتْ، فَجَاءَ أَبُو عَبْدِ الله فَأُخْبِرَ أَنَّ العَائِنَ قَدْ عَانَهَا، وَهِيَ كَمَا تَرَى، فَقَالَ: دُلُّونِي عَلَيْهِ، فَدُلَّ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: **بِسْمِ الله، حَبْسٌ حَابِسٌ، وَحَجَرٌ يَابِسٌ، وَشِهَابٌ قَابِسٌ، رَدَدْتُ عَيْنَ العَائِنِ عَلَيْهِ، وَعَلَى أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ:** ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾ [الملك]، فَخَرَجَتْ حَدَقَتَا العَائِنِ، وَقَامَتْ النَّاقَةُ لَا بَأْسَ بِهَا.

فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي العِلاجِ العَامِّ لِكُلِّ شَكْوَى بِالرُّقْيَةِ الإِلَهِيَّةِ:

رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ: مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ اشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا، أَوْ اشْتَكَاهُ أَخٌ لَهُ، فَلْيَقُلْ: رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، فَاجْعَل رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، وَاغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِل رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الوَجَعِ**»، فَيَبْرَأُ بِإِذْنِ الله.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟** فَقَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: **بِاسْمِ الله أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ الله أَرْقِيكَ.**

التَّوْفِيقُ بَيْنَ جَوَازِ الرُّقْيَةِ لِكُلِّ شَكْوَى وَبَيْنَ «لا رُقْيَةَ إِلا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»:

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا تَقُولُونَ فِي الحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**»، وَالحُمَةُ: ذَوَاتُ السُّمُومِ كُلُّهَا.

فَالجَوَابُ: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يُرِدْ بِهِ نَفْيَ جَوَازِ الرُّقْيَةِ فِي غَيْرِهَا، بَل المُرَادُ بِهِ: لَا رُقْيَةَ أَوْلَى وَأَنْفَعُ مِنْهَا فِي العَيْنِ وَالحُمَةِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الحَدِيثِ، فَإِنَّ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ رضي الله عنه قَالَ لَهُ لَمَّا أَصَابَتْهُ العَيْنُ: **أَوَ فِي الرُّقَى خَيْرٌ؟** فَقَالَ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا فِي نَفْسٍ أَوْ حُمَةٍ**»، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ سَائِرُ أَحَادِيثِ الرُّقَى العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ، أَوْ دَمٍ يَرْقَأُ**».

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ أَيْضًا: رَخَّصَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الرُّقْيَةِ مِنْ العَيْنِ وَالحُمَةِ وَالنَّمْلَةِ.

[زاد المعاد لابن القيم ٤/ ١٦٢-١٧٥].

١١ ـ يجب وضع الضعفة من النساء والذراري في مكان آمن وحصين:

يقول د/ الفنيسان: «وذلك أن رسول الله ﷺ يوم الخندق جمع النساء والصبيان ومن لا قتال عليهم في حصن من حصون المدينة يقال له «أطم حسان بن ثابت» وأمر بعض جنوده أن يتناوبوا حراسة الحصن وخاصة في الليل خوفًا من نقض اليهود». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢١].

١٢ ـ مشروعية القَسَم لتأكيد الخبر:

«هذا ما سمعناه في حديث جابر رضي الله عنه حين أقسم قائلًا: فَأُقْسِمُ بِالله لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٢٠].

١٢ ـ جواز التغني بالشعر:

يقول د/ أبو فارس: نعم يجوز التغني بالشعر إذا لم يكن الغناء مصحوبًا بالعزف على الآلات الموسيقية، أي مجردًا عن ذلك، فقد كان الصحابة يرتجزون والرسول ﷺ يقرهم على ذلك، بل هو كان يردد شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

وتكرار الشعر والتغني به له فائدة: أنه يخفف على النفس ويهون عليها الأعباء التي قد تلاقيها، وهذا ما كنا نلمسه عند آبائنا وهم في حقولهم يحصدون ويغنون أغاني المجد والجد الذي لا عبث فيه ولا هزل.

وإذا كانت الجِمال تطرب للحداء وتغذ السير ولا تشعر بطول المسافة وبُعْد الشُّقة وتعب السفر وهي تحمل الأثقال، فليس عجبًا أن يميل الإنسان إلى هذا النوع من الغناء الذي يروح عنه ويخفف من تعب الحياة ومشاقتها، ولعله من أجل هذا كان الصحابة يرتجزون». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٠٤، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٩٧-٢٠٠].

١٣ ـ الاستئذان بين الحكم الشرعي والأمر العسكري:

يقول د/ أبو فارس: إن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما لم يغادر الخندق حتى استأذن من رسول الله ﷺ، وأذن له.

والاستئذان بالإضافة إلى أنه حكم شرعي، ينبغي على المسلم التقيد به، فهو أمر عسكري في حال القتال أو الاستعداد له، فينبغي التقيد التام بالنظام والاستئذان؛ لأن مثل هذه الظروف تعلن فيها الطوارئ، ويبقى الجندي مستعدًا لأي ظرف طارئ ليل نهار، فهي تقضي بأن يقوم كل إنسان بما أوكل إليه من مهمات على وجه السرعة ودون تسويف. [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٨].

ويقول د/ بربر: «اختلف العلماء في حكم الانصراف من أرض المعركة بدون إذن من قائد الجيش إلى قولين:

القول الأول: ذهب جماهير العلماء من المالكية والحنابلة: إلى عدم جواز ترك ميدان المعركة إلا بإذن القائد، واشترطوا وجود العذر المبيح لذلك، وللقائد تقدير الموقف، فله أن يأذن وله أن يمنع، بحسب

مصلحة الجماعة. [ينظر: الاستذكار لابن عبد البر ٢/ ٣٤، والمغني لابن قدامة ٩/ ١٧٦، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ١٢١، وشرح الزرقاني ١/ ٣١٣، وعون المعبود لمحمد آبادي ٧/ ٣٢٥].

وتقديم مصلحة الجماعة على الفرد قاعدة شرعية. [ذكرها الصنعاني في سبل السلام ٣/ ٢٢، والمناوي في فتح القدير ٦/ ٣٠٨].

القول الثاني: روي عن الحسن البصري أنه قال: كان ذلك خاصًّا بالنبي ﷺ.

[فتح الباري لابن حجر ٦/ ١٢١].

وقد استدل جماهير العلماء على عدم جواز ترك ميدان المعركة إلا بإذن قائد الجيش بالأدلة التالية:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور].

وجه الدلالة في الآية: أن المؤمنين كانوا يسارعون إلى طاعة الله وجهاد عدوهم مع رسول الله ﷺ، فإذا عرض لأحدهم عذر استأذن في التخلف، فكان رسول الله ﷺ مخيَّرًا في الإذن لهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾. [عون المعبود لمحمد آبادي ٧/ ٣٢٥].

وهذا ما فهمه البخاري رحمه الله من الآية؛ ولذلك بوَّب في صحيحه بابًا سماه: باب استئذان الرجل الإمام لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ﴾.

[صحيح البخاري ٣/ ١٠٨٣].

قال ابن عبد البر: تأول أكثر أهل العلم ذلك على السرايا تخرج من العسكر لا تخرج إلا بإذن الإمام.

[الاستذكار لابن عبد البر ٢/ ٣٤].

وقال مجاهد: ذلك في الغزو. [السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٢٢٣، وسنن سعيد بن منصور ٢/ ٢٣١].

٢- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ فَتًى مِنَّا حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ، قَالَ: فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَكَانَ ذَلِكَ الْفَتَى يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ الله ﷺ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ فَيَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاسْتَأْذَنَهُ يَوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**خُذْ عَلَيْكَ سِلاحَكَ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيْظَةَ**»... [مسلم في السلام (٢٢٣٦)].

وجه الدلالة في الحديث: أن هذا الفتى لم ينصرف من المعركة إلا بعد أن أذن له النبي ﷺ بالانصراف، مع أنه قريب عهد بالزواج. [شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/ ٢٣٤].

٣- ولأن الأمير أعرف بحال الناس وحال العدو، ومكامنهم ومواضعهم وقُربهم وبُعدهم، فإذا خرج خارج بغير إذنه لم يأمن أن يصادف كمينًا للعدو فيأخذوه، أو طليعة لهم، أو يرحل الأمير بالمسلمين ويتركه فيهلك، وإذا كان بإذن الأمير لم يأذن لهم إلا إلى مكان آمن، وربما يبعث معهم من الجيش مَنْ يحرسهم ويطلع لهم. [المغني لابن قدامة ٩/ ١٧٦، والكافي في فقه ابن حنبل لابن قدامة ٤/ ٢٨٢].

أما اشتراط وجود العذر المبيح لذلك؛ فلقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

وجه الدلالة في الآية: ذم الله تعالى الذين استأذنوا وطلبوا الرجوع إلى منازلهم يوم الأحزاب، يريدون الفرار والهرب من المعركة. [ينظر: المغني لابن قدامة ٩/ ١٧٦، وتفسير الطبري ٢١/ ١٣٥].

قال ابن تيمية : «وكان قوم من هؤلاء يقولون، والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق، والنساء والصبيان في آطام المدينة: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة، أي مكشوفة، ليس بيننا وبين العدو حائل.

[مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٨/ ٤٥١].

أما دليل الحسن رحمه الله على خصوصية هذا الحكم بالنبي ﷺ، فقد يكون ممن يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

لكن الراجح هو قول جماهير العلماء: أن العبرة بعموم اللفظ وخصوص السبب. [ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٨٩، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٣٢، ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ١/ ٩٣، والمحصول للرازي ٤/ ٧٧، والمستصفى للغزالي ١/ ٢٣٦، وفتاوى السبكي ١/ ٤٤، والبحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ٢/ ٣٥٢، والقواعد والفوائد الأصولية وما يتعلق بها من أحكام للبعلي الحنبلي ١/ ٢٤٠، والإبهاج للسبكي ٢/ ١٨٤].

وقد يفهم من الآية التي في سورة التوبة أنها تمنع الاستئذان أثناء المعركة، وهي قوله تعالى : ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة].

فالآية فيها عتاب من الله ﷻ لنبيه ﷺ؛ لأنه أذن للمنافقين بالتخلف عن الغزو قبل أن يستبين الصادق من الكاذب. [الكشاف للزمخشري ٢/ ٢٦٢].

وقد قيل : إن الآية منسوخة. [أخرجه البيهقي في السنن الكبرى باب الاستئذان في القفول بعد النهي ٩/ ١٧٣].

فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قوله تعالى : ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة]، نسختها التي في النور، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور].

ويمكن الجمع بين الآيتين: أن المؤمنين كانوا يسارعون إلى طاعة الله وجهاد عدوهم من غير استئذان، فإذا عرض لأحدهم عذر استأذن في التخلف، فكان رسول الله ﷺ مُخيَّرًا في الإذن لهم بقوله: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾، وأما المنافقون فكانوا يستأذنون في التخلف من غير عذر، فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكون بغير عذر. [عون المعبود لمحمد آبادي ٧/ ٣٢٥].

الترجيح : الراجح ـ والله أعلم ـ جواز الاستئذان من المعركة لعذر بيِّن بخمسة شروط هي:

١- وجود الكفاية من المجاهدين في المعركة.

٢- موافقة الإمام أو قائد الجيش.

٣- ألا يكون الاستئذان سببًا للبلبلة والتثبيط داخل صفوف المقاتلين.

٤- أن لا يكون عدد المستأذنين كثيرًا، فقد يسبب الإرباك في صفوف المقاتلين، ويزرع في نفوسهم الخوف، ويشجع الأعداء عليهم.

٥- أن لا يكون المستأذن صاحب خبرة لا يجيدها غيره في الجيش ».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٠٥-١٠٩].

١٤ ـ حكم مَنْ دُعي إلى طعام ودعى معه غيره:

يقول د/ بربر: «الأصل عندما يُدعى الإنسان إلى طعام أن يذهب بمفرده، ولا يصحب معه أحدًا، إلا أن يأذن له صاحب الدعوة. [ينظر: الاستذكار لابن عبد البر ٨/ ٣٦١، وشرح النووي على صحيح مسلم ١٣/ ٢٠٨، وحاشية البجيرمي على شرح منهج الطلاب (التجريد لنفع العبيد) للبجيرمي ٣/ ٤٣٣].

قال مالك: «لا ينبغي لأحد إذا دعي إلى طعام أن يحمل معه غيره؛ لأنه لا يدري هل يُسَرُّ بذلك صاحب الطعام أم لا؟ إلا أن يقول له صاحب الطعام: **ادع من لقيت،** فإن قال له ذلك كان له أن يحمل معه غيره ». [الاستذكار لابن عبد البر ٨/ ٣٦١].

ودليل ذلك حديث أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ ﵁ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: أَبُو شُعَيْبٍ، وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ لَحَّامٌ (أي يبيع اللحم)، فَرَأَى رَسُولَ الله ﷺ فَعَرَفَ فِي وَجْهِهِ الْجُوعَ، فَقَالَ لِغُلَامِهِ: وَيْحَكَ، اصْنَعْ لَنَا طَعَامًا لِخَمْسَةِ نَفَرٍ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُوَ النَّبِيَّ ﷺ خَامِسَ خَمْسَةٍ، قَالَ: فَصَنَعَ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَدَعَاهُ خَامِسَ خَمْسَةٍ وَاتَّبَعَهُمْ رَجُلٌ، فَلَمَّا بَلَغَ الْبَابَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا اتَّبَعَنَا، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شِئْتَ رَجَعَ**»، قَالَ: **لَا، بَلْ آذَنُ لَهُ يَا رَسُولَ الله.**

[البخاري في المظالم (٢٤٥٦)، وفي الأطعمة (٥٤٣٤)، ومسلم في الأشربة (٢٠٣٦)، واللفظ له].

قال النووي : « المدعو إذا تبعه رجل بغير استدعاء ينبغي له أن لا يأذن له وينهاه، وإذا بلغ باب دار صاحب الطعام أعلمه به؛ ليأذن له أو يمنعه، وأن صاحب الطعام يستحب له أن يأذن له إن لم يترتب على حضوره مفسدة بأن يؤذي الحاضرين، أو يشيع عنهم ما يكرهونه، أو يكون جلوسه معهم مزريًا بهم لشهرته بالفسق ونحو ذلك». [شرح النووي على مسلم ١٣/ ٢٠٨].

ولكن جاء عنه ﷺ في غزوة الخندق أنه دعا أهل الخندق للطعام في بيت جابر ﵁ بدون إذنه، كما مر معنا في عرض الغزوة.

وقد بوب الإمام مسلم لهذا الحديث: «بَابُ مَا يَفْعَلُ الضَّيْفُ إِذَا تَبِعَهُ غَيْرُ مَنْ دَعَاهُ صَاحِبُ الطَّعَامِ، وَاسْتِحْبَابِ إِذْنِ صَاحِبِ الطَّعَامِ لِلتَّابِعِ». [مسلم في الأشربة (٢٠٣٦)].

وتبعه النووي في شرحه على صحيح مسلم. [شرح النووي على مسلم ١٣/ ٢٠٨].

ولعلهما من خلال التبويب أشارا إلى أن النبي ﷺ يثق برضا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ويتحقق بذلك تحققًا تامًّا، فهذا صحيح، وقد يكون السبب أن الجيش أصابته مجاعة، كما جاء في سياق الحديث، فجاز دعوة الكل.

لكن السبب الحقيقي في ذلك هو علمه ﷺ، ومعرفته أن الله تعالى سيجري على يديه البركة، فيكثر الطعام حتى يكفي كل مَنْ دعاه، ولذلك قال لجابر رضي الله عنه: «**لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ [عَجِينَتَكُمْ] حَتَّى أَجِيءَ**»؛ لينزعها بيده ﷺ، فتحل بها البركة ويكثر الطعام، وهو ما تم، فيكون هذا من خصوصياته ﷺ.

ويؤيد هذا الفهم ما جاء عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لأُمِّ سُلَيْمٍ: لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ الله ﷺ ضَعِيفًا، أَعْرِفُ فِيهِ الجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ خِمَارًا لَهَا فَلَفَّتِ الْخُبْزَ بِبَعْضِهِ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ يَدِي وَلَاثَتْنِي (لفت بعضه على رأسه وبعضه على إبطه من الالتياث وهو الالتفاف) بِبَعْضِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَتْنِي إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهِ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لِي رَسُولِ الله ﷺ: «**آرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ؟**»، فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**بِطَعَامٍ؟**»، فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِمَنْ مَعَهُ: «**قُومُوا**»، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: **يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، قَدْ جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّاسِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ!!** فَقَالَتِ: **اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**، فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ الله ﷺ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَلُمِّي يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا عِنْدَكِ**»، فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ فَفُتَّ، وَعَصَرَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً فَأَدَمَتْهُ (خلطته بالإدام وهو ما يؤكل مع الخبز أي شيء كان)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِيهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: «**ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ**»، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «**ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ**»، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «**ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ**»، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «**ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ**»، فَأَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا، وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ ـ أَوْ ثَمَانُونَ ـ رَجُلاً. [البخاري في المناقب (٣٥٧٨)، وفي الأطعمة (٥٣٨١)، وفي الأطعمة (٥٤٥٠)، وفي الأيمان والنذور (٦٦٨٨)، ومسلم في الأشربة (٢٠٤٠)].

فقول أم سليم رضي الله عنها له حين شكا لها أبو طلحة رضي الله عنه كثرة مَنْ حلَّ به من الناس: «**اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**»، أي أنه لم يأت بهم إلا وسيطعمهم، فقد فهمت أن هذا من خصوصياته ﷺ».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٠٧-٢١٠].

المبحث الرابع
الدروس السياسية

١ ـ معرفة طبيعة الغريزة العربية وحذر محمد ﷺ:

يقول د/ هيكل: «ومن اليسير عليك أن تُقدر ضرورة الحذر والحيطة بعد كل الذي رأيت من غدرات قريش وغير قريش بالمسلمين، ومن أن بلاد العرب كلها كانت في ذلك الحين، وكانت من بعد ذلك في أكثر أطوار تاريخها، أشبه بمجموعة جمهوريات مستقلة كل واحدة منها عن سائرها، تتخذ كل واحدة منها نظامًا هو أقرب ما يكون إلى نظام القبائل، وتضطر لذلك إلى الاحتماء بعادات وتقاليد لا يألفها تصورنا في الأمم المنظمة.

وكان محمد ﷺ أشد ما يكون حذرًا أن كان عربيًّا بقدر ما رُكِّب في الغريزة العربية من الحرص على الثأر، وقد كانت قريش وكان يهود بني قينقاع ويهود بني النضير وعرب غطفان وهذيل والقبائل المتاخمة للشام، تتربص كل واحدة منها بمحمد ﷺ وأصحابه الدوائر، وتود كل واحدة منها لو تستطيع أن تجد الفرصة لإدراك ثأرها من هذا الرجل الذي فرَّق العرب في دينها شِيَعًا، والذي خرج من مكة مهاجرًا لا حول له ولا قوة إلا ما يملأ نفسه الكبيرة من الإيمان، وها هو ذا في خمس سنوات قد أصبح له من الحول ومن القوة ما جعله مرهوب الجانب من أشد مدائن العرب ومن أشد قبائلها حولًا وقوة».

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٣٧-٣٣٨].

٢ ـ الوقوف على سياسة اليهود في الحجاز:

يقول د/ أبو خليل: «يمكن إجمال سياسة اليهود في الحجاز بثلاث نقاط:

١ـ المهادنة ما دام رسول الله ﷺ ظاهرًا قويًّا.

٢ـ الدس بالسر، والتحريض ضد المسلمين بالخفاء، للقضاء عليهم وعلى رسول الله ﷺ.

٣ ـ العداء الظاهر، ودعم القوى المعادية لرسول الله ﷺ علنًا عندما تسمح الظروف بذلك، وهي الظروف التي يتراءى لهم من خلالها قوة المشركين، وقرب انهيار المسلمين.

كل ذلك هدفه الحفاظ على المكانة المتميزة لهم عندما كان العرب في فُرقتهم وقبائليتهم، وصار هدف اليهود كما قال أحد الكتاب إبان الثورة الفرنسية: «**أهدي إلى كل من يطبق من العمال سياسة التخريب، سلامي الأخوي، وإعجابي القلبي**». [(روح الثورات والثورة الفرنسية) غوستاف لوبون، ترجمة محمد عادل زعيتر، مطبعة الشرق بدمشق، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م، ص٣٠٠].

يصعب تصديقهم ولو ادعوا بأن المحبة لغيرهم آخذة من نفوسهم مأخذها، فالحسد والحقد مرضان لازما تصرفاتهم في مسيرة تاريخهم.

والهدف هنا: تقويض أركان الدولة العربية الإسلامية، وأعمالهم هذه شواهد جلية واضحة تدل على عجزهم في المجابهة العلنية وجهًا لوجه». [غزوة الخندق لأبي خليل ٧٠].

٣ ـ الأحزاب الحلفاء لحرب الله ورسوله:

يقول د/ الغضبان: «ولم تنته مهمة اليهود وزعيمهم حيي في دفع قريش للمواجهة، بل كان تخطيطهم أعمق من ذلك وأبعد من ذلك، فقريش لن تستطيع أن تجند لحرب محمد ﷺ أكثر من أحابيشها وأكثر أقرب الناس رحمًا بها.

وقد بلغت قوتها أن تبرز ثلاثة آلاف رجل لغزو المدينة، وقد أثبتت غزوة أُحُد أن هذا الرقم لا يكفي لاستئصال الإسلام من المدينة والمسلمين، إذ فشل في تحقيق هذا الهدف قبل عامين، فلا بد من البحث عن حلفاء آخرين ينضمون للساحة، فمضت اليهود بزعامة كبير مجرميهم حيي إلى قبيلة غطفان كبرى القبائل العربية آنذاك أو من كبرياتها، وراحوا يدعونهم إلى حرب محمد ﷺ، وإذا كانت قريش ذات هدف في حرب النبي ﷺ؛ لتحافظ على كيانها وعلى وجودها، أما غطفان فلا تفهم إلا في لغة المصلحة، والغنيمة والمال.

واليهود بطبيعتهم المادية الحسية الغليظة وبأنانيتهم البغيضة يستطيعون التفاهم مع أمثال هذه النوعيات، ومن أجل هذا عرضوا نصف ثمار تمر خيبر على غطفان على الرواية الأولى، وتمر خيبر كله لعام كامل كما في رواية الواقدي مقابل دخولهم الحرب ضد رسول الله ﷺ، وكان أسرع الناس استجابة لهذا النداء اليهودي من سماه رسول الله ﷺ (الأحمق المطاع) في قومه عيينة بن حصن.

وعيينة بن حصن هذا هو وارث أمجاد أبيه وجده حذيفة بن بدر الذي طار صيته في حرب داحس والغبراء فهو الذي أشعل الحرب بين عبس وذبيان ووضع في وجه داحس من صدَّها أثناء السباق فسُبقت. فكلاهما عريق في البغي والجاهلية.

وإذا كان عيينة بن حصن موغر الصدر على المسلمين، وقد سبق أن وقعت بعض المعارك الجانبية بينه وبين المسلمين، فإن الحارث بن عوف المري الغطفاني كان له موقف آخر، أقرب إلى الحكمة والتعقل منه إلى الضغينة والحقد، ولم يكن يرى الاصطدام مع المسلمين، خصوصًا والتقارب كبير بين ديار الأوس والخزرج وديار غطفان، ولا معنى لفتح جبهة قريبة عليهم من المسلمين.

لقد كان الحارث بن عوف زعيمًا مرموقًا في بني غطفان، وهو المشهور بحكمته في الجاهلية قبل الإسلام، فإذا كان حصن بن حذيفة بطل حرب داحس والغبراء مع أبيه حذيفة بن بدر وهما أبوا عيينة، فإن الحارث بن عوف هو بطل المصالحة وحقن الدماء فيها، وهذا دوره بين الفريقين عبس وذبيان فساروا حتى نزلوا (بنو عبس) على الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري ليلًا ـ وكان عند حصن بن حذيفة (والد

عيينة) فلما عاد قيل له: هؤلاء أضيافك ينتظرونك، قال: بل أنا ضيفهم، فحياهم وهش إليهم، وقال: من القوم؟ قالوا: إخوانك من بني عبس، وذكروا ما لقوا وأقروا بالذنب، فقال: نعم وكرامة لكم، أكلم حصن بن حذيفة، وعاد إليه، فقيل لحصن: هذا أبو أسماء (الحارث) قال: ما ورد إلا لأمر، فدخل الحارث فقال: طرقت في حاجة، قال: أُعطيتَها، قال: بنو عبس وجدت وفودهم في منزلي، قال حصن: صالحوا قومكم، أما أنا فلا أدي ولا أتدى، قد قتل آبائي وعمومتي عشر من بني عبس.

وفي ذلك قال زهير بن أبي سلمى معلقته يمدح الحارث بن عوف، وهرم بن سنان ويذكر هذه الحرب ويقول:

سَعَى سَاعِيَا غَيْظِ بْنِ مُرَّةَ بَعْدَمَا ... تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ العَشِيرةِ بِالدَّمِ
فَأَقْسَمْتُ بِالبيْتِ الذي طَافَ حَوْلَهُ ... رِجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وجُرْهُمِ
يَمينًا لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَا ... عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ
تَدَارَكْتُما عَبْسًا وذُبْيَانَ بَعْدَما ... تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهم عِطرَ مَنْشَمِ
وَقَد قُلتُما إنْ نُدرِكِ السِّلمَ واسِعًا ... بِمَالٍ وَمَعْرُوْفٍ مِنَ الأمرِ نَسْلَمِ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْها على خَيرِ مَوْطِنٍ ... بَعيدَيْنِ فيها مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْثَمِ
عَظِيْمَيْنِ في عُليا مَعَدٍّ هُدِيْتُمَا ... وَمَنْ يَسْتَبِحْ كَنزًا مِنَ المَجْدِ يَعْظُمِ

فحكيم غطفان الحارث بن عوف المري قال: (تفرقوا في بلادكم ولا تسيروا إلى محمد، فإني أرى أن محمدًا أمره ظاهر، لو ناوأه من بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة).

ولكن رأي عيينة في الحرب كان أقوى، فلم يكن له خيار من متابعة قومه، كما تابع عتبة بن ربيعة قومه من قبل، وكان أول قتلى بدر من المشركين، بعد ما سعى في الصلح وحمل دية حليفه عامر بن الحضرمي.

أما بنو سُلَيم فلا عجب أن تنضم إلى المعركة، لسببين: أولهما: الثارات التي بينها وبين محمد ﷺ، وهي التي غدرت بالمسلمين في بئر معونة، واستجابت لعامر بن الطفيل في قتل شهداء بئر معونة، وثانيهما: للحلف القائم بين سُلَيم وقريش، فحلف سيدها سفيان بن عبد شمس هو مع حرب بن أمية والد أبي سفيان القائد الأعلى لجيش المشركين، والذي انتهت إليه زعامة قريش، وللحلف دوره الكبير في الحياة العربية، ومن أجل هذا كان موقف سليم واضحًا ابتداءً حين قالوا لليهود ووعدوهم أن يخرجوا إذا سارت قريش، ولم يكونوا بحاجة إلى تمر خيبر ليخرجهم من مضاربهم نحو غزو المدينة.

وحين ننظر إلى الأعداد الضخمة التي اجتمعت نحو يثرب، نجد أن المجموع الكلي يختلف عن المجموع التفصيلي، فالمجموع الكلي هو عشرة آلاف، والمجموع التفصيلي هو أربعة آلاف من قريش وحلفائها وأحابيشها، بزيادة ألف عن عدد غزوة أُحُد، وألف لسليم، ولغطفان ألفان تقريبًا من فزارة وأشجع ومرة،

فيكون العدد سبعة آلاف وهذا يعني: أن قبيلة أسد الضخمة والتي تنافس غطفان قد حشدت ثلاث آلاف حتى بلغ مجموع الأحزاب العتاة عشرة آلاف مقاتل، وأسد مثل غطفان سبق أن خاضت معارك جانبية ضد رسول الله ﷺ، وبين أسد وغطفان حلف واضح دائم حتى أنهما ليسميان الحليفين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**غِفَارُ وَأَسْلَمُ وَمُزَيْنَةُ، مَنْ كَانَ مِنْ جُهَيْنَةَ خَيْرٌ مِنْ الحَيَّيْنِ الحَلِيفَيْنِ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ، وَهَوَازِنَ وَتَمِيمٍ [دُبُرٌ لَـهُمْ] فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الخَيْلِ وَالوَبَرِ**».

[مسند أحمد ١٥/ ٥٠٥ رقم ٩٨١٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح، وهذا إسناد حسن، وفضائل الصحابة ﷺ للإمام أحمد برقم (١٤٧٢) ص ٨١٢، وقال محققه: إسناده حسن].

وهكذا اجتمعت الأحزاب من كل حدب وصوب على حرب الله ورسوله.

ولكن هل يكفي أن يشارك اليهود ببضعة عشر رجلًا منهم ويقودوا هذه الآلاف المؤلفة للموت؟ وحيي بن أخطب هل يكتفي بهذه المشاركات الوجدانية دون أن يخرج باليهود في أتون الحرب؟ إنه لن يستطيع الآن أن يقود أهل خيبر لهذه المواجهة، ولكن لا يزال في المدينة فصيل كبير من اليهود يمكن أن يشاركوا في الحرب هم بنو قريظة، لكنهم حلفاء محمد ﷺ فليزج بكل ما يملك من طاقة لتدمير هذا الحلف من الداخل، ولو نجح بذلك لتم تطويق محمد ﷺ والقضاء عليه كما قال جل شأنه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾[الأحزاب].

هؤلاء هم الأحزاب، وفي الميزان البشري يجب أن تسقط المدينة في أقل من أربع وعشرين ساعة حيث يطبق عليهم العدو من كل ناحية، أو تستسلم دون قتال، ولا نبالغ إذا قلنا: إن أعظم محنة عانى منها المسلمون في التاريخ الإسلامي كله هي هذه المحنة.

وهنا تبدو عظمة سيد ولد آدم ﷺ كيف واجه المحنة، وبأي صف واجهه، وما هو دور التربية التي تبدو ثمارها اليوم». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٣-١٦، ١٨].

٤ ـ أهمية المبادرة في العمل السياسي:

يقول أ/ حوى: «المبادرة في العمل السياسي تشكل جانبًا مهمًّا منه أو ركنًا من أركانه، والسياسي الناجح هو الذي يبادر في الوقت المناسب إذا وجد استعدادًا، ويفسد مبادرة خصمه إذا بادر الخصم إلى ما يضره، والسياسي المسلم مقيد دائمًا بالحق والعدل والحكم الشرعي والمصلحة، ولكن لابد أن يمتلك في حدود ذلك قوة المبادرة وقوة تجنب مبادرة الخصوم الضارة وما أصعب ذلك، والملاحظ أن حياة رسول الله ﷺ مليئة بالمبادرات، فمبادرته بكتابة العهود بينه وبين سكان المدينة، ومبادرته بالعقود، ومبادرته ضد

استعدادات الآخرين نماذج، وفي قصة الأحزاب تجد الذين أقدموا على مبادرة التجميع ضد رسول الله ﷺ هم اليهود، واليهود في كل زمان ومكان يمتلكون الجرأة على المبادرات، ولكن مبادرتهم تلك ضد رسول الله ﷺ كانت كارثة عليهم، وهذا من توفيق الله له ﷺ ثم من كمالاته، على كل الأحوال فإن على الحركة الإسلامية أن تبادر، وأن تمتلك القدرة على التصرف أمام مبادرات الخصوم».

[الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٧١٣-٧١٤].

٥ ـ أهمية الشورى في الإسلام والتزام الرسول ﷺ بها:

يقول د/ المدخلي: «الشورى في الإسلام مبدأ من مبادئ نظام الحكم الإسلامي، وعليه المعول عندما لا يوجد دليل من الكتاب أو السنة يحتم الأخذ بشيء معين.

وقد شاور الرسول ﷺ أصحابه كثيرًا، كما فعل ذلك الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم بعده.

والشورى مصطلح إسلامي لا ينبغي أن يُطلق على غير مدلوله الشرعي؛ لأن الشورى في الإسلام لها ميزات لا توجد في أي نظام آخر، أو أي قانون مستحدث. [مرويات غزوة بدر الكبرى لباوزير ١٤٢].

وهي خاصة بأهل الحل والعقد، فلا يدخل فيها من لا يستحقها؛ لأن ذلك يخل بهذا المبدأ العظيم، وفي غزوة الخندق حصلت المشاورة من النبي ﷺ لأصحابه حول خطة الدفاع التي يتخذونها حيال الجموع الزاحفة صوب المدينة، التي جاءت من بلادها عاقدة النية استئصال هذا الدين الحنيف الذي أصبح يهدد كيانهم ويبدد أصنامهم.

وقد أشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق وذلك لاقتناعه بأنها خطة عظيمة جيدة في هذا الظرف الخطير؛ والوقت القصير؛ ولأنها قد نفذت في بلاد فارس ونفعت.

واقتنع رسول الله ﷺ بهذا الرأي السديد، وسارع إلى تنفيذه، وسارع أصحابه رضي الله عنهم في هذا العمل العظيم، وأنجزوه في مدة وجيزة، حيث لا تستطيع الآلات الحديثة في هذا العصر المتطور ماديًا أن تفعل فعلهم إذا أخذنا في الحسبان أنهم حفروا من طرف الحرة الغربية الشرقي إلى طرف الحرة الشرقية الغربي.

علمًا بأن الحفر واسع وعميق بحيث لم تستطع الخيل اقتحامه مما يدل دلالة واضحة على عِظمه واتساعه، وما ذلك إلا بقدرة الله وقوته وتوفيقه لرسوله ﷺ ولأصحابه الكرام رضي الله عنهم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]». [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٣١-٤٣٢].

ويقول د/ الزيد: «لما علم الرسول ﷺ بخبر الأحزاب شاور أصحابه رضي الله عنهم، ولم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: (وقد قيل: إن الله أمر بها نبيه؛ لتأليف قلوب أصحابه وليقتدي به من بعده، وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحروب، والأمور الجزئية، وغير ذلك، فغيره ﷺ أولى بالمشورة) [السياسة الشرعية ص ١٥٨]». [فقه السيرة للزيد ٤٩٨].

ويقول د/ الغضبان: «إن تجربة أُحُد علَّمت الأمة المسلمة دروسًا عظامًا، ومن أهم هذه الدروس أن تدع قيادة المعركة وإستراتيجيتها لكبار القادة، وعلى رأسهم المصطفى ﷺ، ولكن الدرس الأهم الذي علمهم إياه القرآن أن حق إبداء الرأي مصون، والشورى مهمتها أن تستمع لكل الآراء، ولا حجر على رأي أحد.

وكان رأي سلمان ﵁ تأكيدًا للرأي الذي طرحه سيد القادة ﷺ إذ قال: «**أَنَبْرُزُ لَـهُمْ مِنْ الـمَدِينَةِ، أَمْ نَكُونُ فِيهَا وَنُخَنْدِقُهَا عَلَيْنَا**».

وكان رأي سلمان الفارسي ﵁ اعتمادًا على خبرته في حرب الفرس لغيرهم ـ والفرس عريقون في الحرب والمواجهة ـ أن اختار رأي البقاء في المدينة، وإقامة الخنادق حولها، قال: **يَا رَسُولَ الله! إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ وَتَخَوَّفْنَا الخَيْلَ خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا، فَهَل لَكَ يَا رَسُولَ الله أَنْ نُخَنْدِقَ؟** فَأَعْجَبَ رَأْيُ سَلْمَانَ ﵁ الـمُسْلِمِينَ.

وهذه خبرة جديدة لم يكن للعرب عهد بها، فقد كان جوابهم يوم أُحُـد كـما قـال عَبْـدُ الله بْـنُ أُبَيٍّ: «**يَـا رَسُولَ الله، كُنَّا نُقَاتِلُ فِي الجَاهِلِيَّـةِ فِيهَـا، وَنَجْعَـلُ النِّسَـاءَ وَالـذَّرَارِيَّ فِي هَـذِهِ الصَّـيَاصِي، وَنَجْعَـلُ مَعَهُـمْ الحِجَارَةَ، وَالله لَرُبَّمَا مَكَثَ الوِلدَانُ شَهْرًا يَنْقُلُونَ الحِجَارَةَ إِعْـدَادًا لِعَـدُوِّنَا، وَنُشَـبِّكُ المَدِينَـةَ بِالبُنْيَـانِ فَتَكُـونُ كَالحِصْنِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَتَرْمِي المَرْأَةُ وَالصَّبِيُّ مِنْ فَوْقِ الصَّيَاصِيِّ وَالآطَامِ وَنُقَاتِلُ بِأَسْيَافِنَا فِي السِّكَكِ**».

فقتال المدن عندهم هو داخل المدينة وفي السكك، ومن فـوق الصـياصي والآطـام، أمـا الحيلولـة دون دخول العدو للمدينة بإقامة الخنادق والمتاريس، فهذا ما لم تعهده الحرب العربية آنذاك.

والخبرة العربية القديمة في قتال المدن كما يقول ابن أبي: تحتاج إلى إعداد طويل وبطيء، كما يقول: فـربما مكث الولدان شهرًا ينقلون الحجارة إعدادًا لعدونا، ولكن عامل الوقت الآن هو أخطر العوامل، فـما هـي إلا أيام إلا وجيش العدو في المدينة، فلابد من الاستفادة من عامـل الوقـت هـذا في اتخـاذ القـرار المناسـب الذي تتغير نتيجة المعركة على ضوئه ». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢١-٢٢]».

ويقول د/ أبو فارس: «إن الرسول ﷺ لم ينفرد برأيه ويستبد بالأمر، فقد شاور الصحابة ﵃ في اختيار موقع القتال، فكان رأي الجميع التحصن بالمدينة.

والذي يدل على أهمية الشورى في هذا الدين هو إكثار النبي ﷺ منها، امتثالًا لأمر ربه سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، نزلت هذه الآية بعد غزوة أُحُد لتؤكد أمر الشورى مهما كانت نتيجتها حتى وإن أدى رأي الأغلبية أحيانًا إلى فشل؛ ذلك لأنه خير للأمة أن تفشل في واقعة من أن تخسر شخصيتها واستقلالها.

هذا وتتأكد الشورى في القرارات المصيرية كقرار الحرب، ينبغي ألا ينفرد به أحد؛ لأن القرارات المصيرية ينبغي أن يشارك فيها كل مؤهل للنظر في تقرير المصير بعقله الراجح ورأيه السديد».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٦-٩٧].

ويقول عميد/ كاخيا: «فقد كان ﷺ يلجأ إلى التشاور مع أصحابه وأفراد جيشه في كل أمر أو مسألة هامة تخص صالح المسلمين، وهذا ما رأيناه عندما قرر الدفاع والتحصن في المدينة المنورة مقابل جيش قريش المتفوق، وإقراره رأي سلمان الفارسي ﵁ بحفر الخندق في الجهة المفتوحة من المدينة المنورة؛ لمنع توغل العدو فيها وتحقيق الأمن الذاتي للأطفال والنساء والذراري، وكذلك قبوله لرأي كل من سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في عدم التفاوض مع قبيلة غطفان والمثابرة على الحرب كما سيأتي».

[الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٧٣].

٦ ـ مواجهة الأزمات بالعزيمة والتنفيذ:

يقول د/ الغضبان: «إن قادة الأمم هم الذين يستطيعون مواجهة الأزمات باستغلال الطاقات والأوقات، فقد انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ بعد أربعة أيام من انفصال قريش من مكة عن طريق وفد خزاعة حليفة النبي ﷺ، فلابد من الاستفادة بأقصى ما يمكن بعد اتخاذ القرار المناسب ليتم العمل قبل وصول قريش وحلفائها إلى المدينة ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

وقد اتجه الرأي عند المسلمين جميعًا بالأخذ برأي سلمان الفارسي ﵁.

لقد انتهت غزوة الخندق قبل أن تبدأ، فقد صعق المشركون لهذه الخطة الحربية التي لم يعهدوا مثيلًا لها في تاريخهم، ولابد أن نشير من جهة ثانية إلى أن المصطفى ﷺ يقطف الآن ثمار التربية الخالدة التي أنشأ عليها هذا الجيل الفريد في التاريخ، فاتخاذ القرار خطوة حاسمة ولا شك، لكن تنفيذ القرار والمتابعة الحية المستمرة له هي أخطر من القرار نفسه، فكان ﷺ يرعى بشخصه الكريم، ويوزع المسؤوليات كاملة، ويتابع التنفيذ خطوة خطوة، حتى قام ذلك الخندق العظيم الذي حطم على حجارته هجوم الأحزاب كلها». **[التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٢-٢٣].**

٧ـ معاونة الرسول الكريم ﷺ لأصحابه في حفر الخندق:

يقول عميد/ كاخيا: «فقد ساوى رسول الله ﷺ نفسه مع أصحابه عند حفر الخندق فكان ينقل التراب ويضرب بالفأس ويضع الحجر على بطنه من قلة الطعام وشدة الجوع، بل كان يعاونهم علي تفتيت الصخر بأن يضربها بالفأس بيديه الشريفتين بعد أن يضع عليها قليلًا من الماء ويدعو الله القوي الجبار فتنقلب بين يديه كالكثيب، وكان أيضًا يرتجز معهم الشعر الحماسي ترغيبًا بالعمل وابتغاء ثواب الآخرة كقوله ﷺ:

اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ ... فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالُمهَاجِرَهْ

فقالوا مجيبين له: **نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا**

[الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٧٣].

٨ـ خطأ الفهم وخطأ المقارنة:

يقول د/ أبو خليل: «يقول كلود كاهن: (وكان يتوجب على محمد ﷺ أن يؤمِّن أيضًا لطائفة المسلمين وجودها المادي، وأن يجعلها متلاحمة في ميادين القتال، وأن يصد غارات قريش التي أقلقها نشوء جماعة إسلامية معادية لها في المدينة، إلى أن تحين الساعة التي تدخل فيها قريش في الدولة الجديدة، أما أخبار (المغازي) التي يطيب للرواة أن ينقلوها لنا في كل تفاصيلها، فهي في بعض مظاهرها استمرار للغزوات القديمة التي اعتادت القبائل أن تشنها على بعضها).

[تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ١٣، نشر دار الحقيقة، ط٢].

خطأ في الفهم، وخطأ في المقارنة.

أولًا: ما اجتمع العرب قبل الإسلام كاجتماعهم هذا، الذي كان هدفه: «إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله».

ثانيًا: هدف غزوات العرب قبل الإسلام، الغزو للغزو ليس غير.. مال، سبي، غنائم، فروسية.

واليوم، استئصال الدين الجديد، هدف ديني سياسي، وبسبب طريق تجارة قريش المار من المدينة يُضاف هدف اقتصادي أيضًا فقوبلت الأحزاب بخطط محكمة مدروسة، وبمفاجأة أذهلتهم، وما عهدوها قبلًا في جاهليتهم.

ووجدت الأحزاب تماسكًا بين المسلمين وقيادتهم، ورأت السيطرة التامة للقيادة على الأحداث منذ اللحظة الأولى، فمنذ الساعات الأولى لحفر الخندق، لا مغادرة إلا بإذن مسبق، فحقق النبي ﷺ التلاحم المطلوب للوقوف في وجه عشرة آلاف مشرك ومَنْ وراءهم من اليهود ومكائدهم.

فالأمر تبدل، والأهداف تغيرت، وبالتالي ستكون النتائج أعم وأشمل على مر الزمن، وأهم وأبرز في مسيرة التاريخ». [غزوة الخندق لأبي خليل ١٠٠-١٠١].

المبحث الخامس

الدروس العسكرية

١ ـ أهمية رصد تحركات العدو في وضع الخطة:

سبق تفصيله في الدروس المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

٢ ـ القائد يتدارس الخطة ويختار موقع المعركة مع أركان حربه:

يقول د/ الفنيسان: «لما تأكد رسول الله ﷺ، ما أجمع عليه الأحزاب، جمع كبار الصحابة وذوي الرأي فيهم، وأخبرهم خبر العدو وما أجمعوا له، وشاورهم هل يخرجون إليهم فيلاقونهم خارج المدينة، أم يقاتلون وهم داخلها؟ فقال بعضهم نحارب داخلها ونحمي ذرارينا، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «**يَا رَسُولَ الله، إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ وَتَخَوَّفْنَا الخَيْلَ خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا**»، فاستصوب الرسول ﷺ رأيه واختار موقع المعركة لصالحه، فاستفاد من الحِرَّتَيْن الشرقية والغربية كحاجزين طبيعيين لا يمكن عبورهما، وحفر الخندق واصلًا بينهما، ونصب خيمته في منتصف الخندق على جبل صغير يقال له «ذوباب» ليتمكن من متابعة ومراقبة أصحابه وتشجيعهم وهم يحفرون». [**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٧-٢٣٨**].

ويستفاد من بحث الرسول ﷺ عن مكان ملائم لنزول الجند أهمية الموقع الذي ينزل فيه الجند، وأنه ينبغي أن يتوافر فيه شرط أساسي وهو الحماية التامة للجند؛ لأن ذلك له أثر واضح على سير المعركة ونتائجها. [**القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٢٦**].

٣ ـ تشجيع القائد جنده على التفكير للمصلحة العامة:

يقول د/ الرشيد: «كان النبي ﷺ يشجع أصحابه على التفكير البَنَّاء، الذي تتحقق من ورائه مصلحة عامة للمسلمين، فكان يُظْهِرُ التقديرَ والاحترامَ لمن حَقَّقَ شيئًا من ذلك، حتى يدفع الآخرين لكي يسلكوا هذا السبيل، وحين أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على النبي ﷺ بفكرة حفر الخندق، أعجبه هذا الرأي وأظهر التقدير الأدبي الرفيع لسلمان رضي الله عنه على تفكيره السَّديدِ الذي قَدَّمَ لجيش المسلمين أحدث أسلوب يمكن أن يُطَبِّقوه حتى يسلموا من كيد أعدائهم.

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ المُزَنِيُّ رضي الله عنه قَالَ:... احْتَجَّ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ فِي سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ، وَكَانَ رَجُلًا قَوِيًّا، فَقَالَ المُهَاجِرُونَ: سَلْمَانُ مِنَّا، وَقَالَتِ الأَنْصَارُ: سَلْمَانُ مِنَّا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ**». [**مجمع الزوائد ٦/ ١٨٩ في المغازي والسير (١٠١٣٧)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٦/ ٢١٢ رقم ٦٠٤٠]، وفيه كثير بن عبد الله المزني وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٦٩١ رقم ٦٥٤١، وقال الذهبي: «سنده ضعيف». دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤١٨**].

ويظهرُ ـ والله أعلم ـ أن لقول الرسول ﷺ هذا معنيين آخرين:

الأول: أنه ﷺ أراد أن يقطع دابر العصبيات التي يفتخر بها الناس، فإن قيمة المرء تكمن في تقديمه لكل ما يحقق للمسلمين مصلحةً عامةً بِغَضِّ النظر عن حسبه ونسبه.

الثاني: أنه ﷺ أراد بهذا القول أن يقتدي به قادة الجيوش الإسلامية في تشجيع جنودهم على التفكير في المصلحة العامة، وبذل الجهد فيما يحقق النفع للآخرين، يستوي في ذلك أن يكون هذا التشجيع ماديًّا أو أدبيًّا.

وفي ذلك دعوة لاكتشاف الطاقات والمواهب الكامنة في النفوس، حيث إن في ظهورها إلى واقع الحياة تحقيقًا للمصالح العامة ودفعًا للمفاسد الواقعة أو المتوقَّعة». [القيادة العسكرية للرشيد ٤٧٨-٤٧٩].

٤ ـ أجدى الوسائل لتجنب الاستئصال:

يقول أ/ حوى: «لقد قرر رسول الله ﷺ أن يدافع عن عاصمته، فهي معقله الأول والأخير على قلة العدد وكثرة العدو، وهذا يجعلنا أمام قاعدة مهمة أنه لا خيار في القتال عندما يصل العدو إلى العاصمة أو المعقل الأخير، أما إذا كان الانسحاب إلى معقل أو قيادة فهذا يدخل في التحيز إلى فئة، ولكن مع هذا فقد حرص الرسول ﷺ ألا يدخل في قتال تصادمي مع جيوش تفوق جيشه، وهذا يوصلنا إلى فكرة البحث عن أجدى الوسائل لتجنب الاستئصال، فليست مهمات القيادة أن تقاتل أو تجهز للقتال فقط بل من مهماتها أن تفكر في أن تكون خسائرها أقل إن فاتها أن تجعل خسائرها معدومة، فإذا عرفنا أنه لم يُقتل من المسلمين في غزوة الأحزاب إلا ستة أدركنا كيف أن مبدأ الاقتصاد في القوى كان مطبقًا على أرقاه عند رسول الله ﷺ وفي ذلك درس للقيادات التي لا تبالي بعدد الضحايا في المعارك الرئيسة أو الجانبية».

[الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٧١٢-٧١٣].

٥ ـ استخدام مبدأ الحشد:

حيث قرر رسول الله ﷺ أن يتخذ خطة الدفاع من المدينة وحفر الخندق ووضع قواته بين الخندق والمدينة، فكانت له المبادأة وحرية العمل بينما كانت قريش تتوقع أن يكون اللقاء في أُحُد».

[انتصارات عربية خالدة لفرج ٥١].

٦ ـ الظروف الصعبة لغزوة الخندق:

يقول عميد/ كاخيا: «إن تحضير وتنظيم معركة غزوة الخندق الدفاعية كان ـ حسب المراجع ـ في شهر شوال عام (٥هـ) ما يوافق كما رأينا في متن البحث شهري شباط (فبراير) وآذار (مارس) من عام (٦٢٧م) أي خلال فصل الشتاء البارد الذي يمر عادة على إقليم المدينة المنورة، وهذا ما تؤكده كتب السيرة النبوية أن حفر الخندق كان يتم في ليال باردة بل شديدة البرودة، وفي شروط مناخية صعبة، كما أن حصار المشركين للمدينة تم في ظروف جوية صعبة بل قارصة البرد وفق بعض المراجع الموثوق فيها».

[الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٧٢-٧٣].

٧ ـ أهمية البقاء في المدينة المنورة:

يقول الشيخ المسند: «بلغ الخبر رسول الله ﷺ مجزءًا، وكالعادة جمع أصحابه واستشارهم فأخذوا يديرون وجوه الرأي، وبعد جمع الأخبار علموا بتكالب الأعداء جميعًا فأحسوا بثقل الأمر وبأن هذه المرة هي القاضية لو تمكن الأعداء من تنفيذ خطتهم، ولم يختلفوا هذه المرة مطلقًا في أن البقاء في المدينة أمر ضروري للأمور التالية:

أولًا: إن العدد الذي سيأتيهم به المشركون عدد كبير لا ينسب إلى عددهم.

ثانيًا: إن عدوهم شرير متحمس مستعد، له ثأر كبير وقد وجد فرصته للانقضاض على الآمنين المسالمين.

ثالثًا: إنه أفسد المجتمع المتخفي في المدينة فجعله يظهر بغضبه وحقده على المسلمين، وليس أنكى ولا أعظم ولا أشد خطرًا من خيانة المجتمع أو الجيش من داخله». [متى ينتصر المسلمون؟ للمسند ٦٨-٦٩].

ويقول الشيخ عبيد: «وقَبِلَ رسول الله ﷺ هذه المشورة؛ لأن فيها الخير، ثم هي تحقق الآتي:

(أ) تحفظ الأمة الناشئة وتدفع عنها سطوة هذا الهجوم العام.

(ب) كثرة الأعداء وكثرة العُدة والعتاد في أيديهم، والمسلمون ليسوا مثلهم.

(ج) ضعف المسلمين وبرودة الجو وقلة المؤونة، وقلة العدد، فهم ثلاثة آلاف مقاتل.

(د) علاوة على ما قلنا فإن حفر الخندق دليل لا يقبل الشك أن محمدًا ﷺ مع صحبه لا رغبة لهم في القتال؛ لأنه يؤدي إلى الخراب والدمار، ومحمد ﷺ مع صحبه يعملون من أجل السلام وينشدون السلام ولا يريدون الحرب أبدًا؛ لأن الحرب عند المسلمين ضرورة يلجأون إليها كدفاع عن النفس وهم مضطرون». [غزوة الأحزاب لعبيد ١٩-٢٠].

٨ ـ الأخذ بتطورات العصر:

يقول د/ أبو فارس: «من أخذ النبي ﷺ برأي سلمان ﷺ في حفر الخندق نلمس المعاصرة منه وحرصه على أن يكون الجيش الإسلامي بقيادته جيشًا معاصرًا قد استوعب كل قضايا عصره من حيث التخطيط والتسليح وأساليب القتال، ففي هذه الغزوة ابتكر ﷺ أسلوبًا جديدًا في القتال هو التراشق بالسهام دون الالتحام مع تأمين ظهره، وحجز عدوه عنه بالخندق». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٧-٩٨].

ويقول د/ الفنيسان: «فوجئت قريش وحلفاؤها بوجود الخندق حول المدينة، وهذه وسيلة حديثة للدفاع لم يعتدها العرب من قبل، كانت سببًا في ارتباك خطة قريش مع حلفائها ووهن عزيمة قادتها وهزيمتهم». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٧].

ويقول د/ الصلابي: «لقد كانت خطة الرسول ﷺ في الخندق متطورة، ومتقدمة، حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم، بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريبًا عنهم؛ وبهذا يكون الرسول ﷺ هو أول من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام، وأبطل خطتهم التي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقان رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم».

[السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٦٠-٢٦١].

وقال الإمام السهيلي: «وَحَفْرُ الخَنْدَقِ لَمْ يَكُنْ مِنْ عَادَةِ العَرَبِ، وَلَكِنَّهُ مِنْ مَكَايِدِ الفُرْسِ وَحُرُوبِهَا؛ وَلِذَلِك أَشَارَ بِهِ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ ﷺ، وَأَوَّلُ مَنْ خَنْدَقَ الخَنَادِقَ مِنْ مُلُوكِ الفُرْسِ فِيمَا ذَكَرَ الطَّبَرِيُّ: مِنُوشِهْرُ بْنُ أبيرج بْنُ أَفْرِيدُونَ، وَقَدْ قِيلَ فِي أَفْرِيدُونَ إِنَّهُ ابْنُ إِسْحَاقَ ﷺ، وَأَكْثَرُهُمْ يَقُولُ فِيهِ هُوَ ابْنُ أَثْقِيَانَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ آلَةَ الرَّمْيِ، وَإِلَى رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً مِنْ مُلْكِهِ بُعِثَ مُوسَى ﷺ».

[الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣٠٦].

٩ ـ أهمية اختيار موقع الجيش:

يقول أ/ باشميل: «لقد كان اختيار المنطقة الشمالية من المدينة لتكون موقعًا رئيسًا للجيش الإسلامي، اختيارًا موفقًا من الناحية الإستراتيجية.

فقد كان ذلك المكان هو أصلح مكان يجب أن يعسكر فيه من يريد الدفاع عن المدينة لأنه الناحية الوحيدة المكشوفة التي لابد لأي غاز يريد احتلال المدينة من أن يتجه إليها.

لأن الجهات الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة الأخرى، والأبنية المتشابكة والحواجز الطبيعية الصعبة ـ كالجبال وغيرها ـ التي لا تسمح لقوات الأحزاب الكبيرة أن تقوم بإجراء أي قتال على نطاق واسع كما تريد، الأمر الذي يجعل قادة الأحزاب لا يفكرون في ارتياد تلك الجهات للهجوم على المدينة منها.

فالناحية الوحيدة الصالحة للقتال على أوسع نطاق (كما يريد قادة الأحزاب) هي الناحية الشمالية للمدينة حيث المسالك الواسعة والميادين الفسيحة، دونما حواجز طبيعية تذكر، وهذه الناحية هي التي قررت القيادة الإسلامية حفر الخندق فيها بصفة رئيسة». **[غزوة الأحزاب لباشميل ١٣٠-١٣١]**.

١٠ ـ الخنادق من وسائل الدفاع الثابتة:

يقول د/ عون:

(١) **تاريخها وتطورها**: الخندق من وسائل الدفاع القديمة عند الفرس والروم، يحفرونه حول مدنهم وحصونهم للدفاع عنها من خلفه، وكان ذلك عندهم كالمبدأ المقرر، ولكن العرب لم يعرفوه إلا عن الفرس، وبدليل أن اسمه فارسي معرَّب، فاسمه بالفارسية (كنده) بمعنى محفور.

[المعجم الفارسي للدكتور هنداوي. مطبعة مصر، والمعرَّب من كلام العرب للجواليقي ص٩٦].

وأول من استعمله من العرب هو الرسول ﷺ في غزوة الأحزاب، فإنه لما علم بخروج قريش وحلفائها من البدو، جمع أصحابه في مجلس حربي واستشارهم، فأشار عليه سلمان الفارسي ﷺ بحفر خندق حول المدينة، جريًا على عادتهم في بلادهم، فاستحسن الرسول ﷺ الفكرة، وخرج في ثلاثة آلاف من أصحابه، وارتاد موضع الخندق، وبعد التدبر استقر رأيهم على أن يُحفر في الجهة الشمالية من المدينة وهي الجهة المكشوفة منها، التي لا تحميها البيوت العالية [تاريخ الطبري ٣/ ٤٥]، فجعل الرسول جبل «سلع» خلف ظهره، وحفر الخندق ممتدًا من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، بعد أن قسم حفره بين أصحابه، وخصص لكل عشرة منهم أربعين ذراعًا، وخطَّه لهم حتى لا يعدلوا عنه».

[تاريخ الطبري ٣/ ٤٥، والإدريسي في التراتيب الإدارية ١/ ٣٧٦].

ولقد تجلت عقلية الرسول ﷺ الحربية في سرعة إنجازه، فإنه جعل كل أصحابه يعملون فيه، وساعدهم بآلات حفر كثيرة استعارها من بني قريظة، وأخرج الرمال والصخور ناحية المدينة؛ ليضمن عدم ردم الخندق بها إذا أخرجها جهة العدو، وليضمن لأصحابه ساترًا كافيًا يحاربون من خلفه، ويرمون عدوهم وهو في أرض مكشوفة أمامهم؛ ولذا فوجئ الأحزاب بالخندق لما شاهدوه وقالوا: «هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها».

ولقد ضرب الرسول ﷺ يومها أروع الأمثال للقائد القدير الحكيم، بأن شارك أصحابه في الحفر ونقْل الرمال؛ استنهاضًا للهمم، وتشجيعًا على العمل [بهجة النفوس لابن أبي جمرة ٣/ ١١٢ ـ ط الصاوي سنة ١٣٥٣ هـ، والسيرة الحلبية ٢/ ٣٣٢]، فأتموا حفره بهمة فائقة، في مدة متوسطها عشرون يومًا، مع اختلاف الروايات، وبعمق خمسة أذرع (ثلاثة أمتار تقريبًا) كما روى الحلبي [السيرة الحلبية ٢/ ٣٣٤، ٣٣٥]، أما عرض الخندق فلم أوفق لنص صريح فيه، ولكن المفهوم أنه عُمل ليحول بين الخيل والمدينة، وأظن أن قفزة الجواد الجيد تقارب الأمتار الستة؛ ولذا فيرجَّح أن عرضه كان في حدود ذلك المقياس؛ لأن بعض الخيل استطاعت عبوره، فقُتلت وقُتل أصحابها.

وإذا علمنا أن الرجل خصه في حفر الخندق أربعة أذرع، وأن الجند كانوا ثلاثة آلاف يومها، استطعنا أن نعرف أن طول الخندق كان حوالي ١٢ ألف ذراع، أي حوالي ستة كيلومترات أو يزيد، حُفرت في عشرين يومًا، بعمق ثلاثة أمتار وعرض ستة أمتار، ومن هنا نعلم مقدار الجهد الذي بُذل فيه.

وقد قام الرسول ﷺ بتخطيط خندقه، وعمل فيه بيده مع جنده، فلم يجعل الحفر قاصرًا على العبيد، كما كان يفعل البيزنطيون، وبث الحُرَّاس حوله بعد الفراغ منه، وكان هو يحرس بعض النقط المخيفة بنفسه؛ لأنه كان يحب أن يكون قدوة لجنده في العمل.

وأول من استخدم الخنادق في خلافة أبي بكر ﷺ وأكثر منها، هو العلاء بن الحضرمي ﷺ أثناء قتاله المرتدين بالبحرين، فقد روى الطبري وابن الأثير [**ينظر: الطبري ٣/ ٢٥٨، والكامل ٢/ ١٥٥**] وغيرهما أن المسلمين والمرتدين هناك، كانوا يحفرون الخنادق يتحصنون بها، ثم يتراوحون القتال منها.

وفي خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ومن بعده، اتسعت الفتوح وكثرت الجيوش الموجَّهة شرقًا وغربًا، فكان لابد من العناية بالتحصينات، التي تكون مانعًا من البيات والمفاجأة، وكثيرًا ما نصح الخلفاء قوادهم بالتزام الخنادق خشية البيات. [**الكامل ٥/ ١٦٧**].

فصاروا إذا نزلوا ليلًا في موقع خندقوا حول عسكرهم بالطريقة الرومية، تاركين للمرور بابين أو أربعة، متحصنين بالجسور والخنادق المائية [**كريمر: الشرق في حكم الخلفاء ص٣٠٦**]، وكانوا إذا حاصروا عدوا مخندقًا على نفسه، وأرادوا إشعاره بدوام الحصار، ضربوا خندقًا حول خندقه، لييأس من فك الحصار ويبادر بالتسليم، وقد طُبقت هذه الخطة في حصار مدينة «هيت» على شاطئ الفرات، فأسرع أهلها بالتسليم. [**الطبري ٣/ ١٨٨ والفاروق عمر ﷺ لهيكل ص١٧٥**].

ومن القواد الذين عُرفوا بالتزام الخنادق في الميدان المهلَّب بن أبي صفرة في حربه للخوارج؛ لأنه كانوا أهل جرأة ومكر في حروبهم.

وأحيانًا كان القائد يغتر بقوته ويهمل حفر الخنادق فينال منه عدوه ويوقع به لغفلته.

[**الكامل لابن الأثير ٤/ ١٦٤، ٦٥**].

وبتقدم الزمن لم يقف استخدام المسلمين للخنادق عند هذا الحد، بل صاروا يحفرونها حول المعسكرات الدائمة، وحول المدن والثغور المهمة، فكان الوالي إذا بنى مدينة مهمة، جعل لها خندقًا يحيط بسورها، وأحيانًا كانوا يحفرون خارج السور خندقين أو أكثر، فالحجاج بن يوسف لما فرغ من بناء مدينة «واسط» بين البصرة والكوفة حصنها بسور وخندقين، وأنفق عليها وعلى قصره والمسجد الجامع ٤٣ مليون درهم، وفرغ من بنائها بعد عامين. [**الكامل لابن الأثير ٤/ ١٦٨، والجندية لنعمان ثابت ص٣٠**].

بل لقد تدارك بعض الخلفاء ما فات أسلافَهم، فحصَّنوا المدن التي أقيمت في مراكز «إستراتيجية» هامة، قبل شيوع فكرة الخنادق، التي كانت تستغرق كثيرًا من الوقت والمال، فالخليفة «أبو جعفر المنصور» خندق على الكوفة والبصرة في عام ١٥٥هـ ـ (٧٧٢م) وضرب عليهما سورًا، وجعل ما أنفق على ذلك من أموال أهلهما، وكانتا قد بنيتا في عهد «الفاروق عمر ﷺ» بلا خنادق ولا أسوار. **[تاريخ الطبري ط المطبعة الحسينية ٨/ ٢٨٥، والكامل ٦/ ٢، وفي مختصر تاريخ البصرة للأعظمي أنه كتب بذلك إلى الهيثم فقام به. ط بغداد ١٩٢٧م]**.

وقد بنى بعد ذلك بثلاث سنوات مدينة الرصافة ومسجدها، وحفر حولها خندقها، وكذلك الشأن في المدن الهامة، تُحاط بالخنادق والأسوار تحصينًا لها.

[ينظر: الكامل ٦/ ٤٥، والمختصر لأبي الفدا ٢/ ٦ الطبعة الأولى].

استمر العمل بنظام الخنادق أيام الدولتين، الأموية والعباسية حتى نهاية القرن الثاني، وأدخلوا على الخنادق كثيرًا من التحسين، فصاروا يبنون عليها الجُدُر العالية، وصاروا يحفرون حول المدينة أكثر من خندق، ويبنون على كل خندق سورًا، وصاروا في حالة الخوف يحفرون حول الخندق حفائر تغطَّى بالقصب والقضبان والتراب **[الحسن بن عبد الله: آثار الأول ص٢١٥]**؛ لتقع فيها قوات الأعداء، ولقد روى ابن الأثير أن طاهر بن الحسين كان يخندق في بلاد فارس، وأنه أثناء حصاره «بغداد» في الحرب الأهلية بين «الأمين والمأمون» كان إذا استولى على درب خندق عليه وأقام الحيطان. **[الكامل جـ ص ص ٨٩، ٩٨، ٩٩ حوادث سنة ١٩٧هـ]**.

أما متى أُبطل نظام الخنادق: فهذا موضوع تعرض له «فون كريمر» وقرر أنه أُبطل في عهد «المأمون» العباسي، ولا أدري مدى هذا القول من الصواب، فإن صاحب «آثار الأول» وصاحب «كشف الكروب في أمر الحروب» أكثر من ذكر الخنادق، وطريقة ردمها بالمخالي المملوءة بالتراب، وهما متأخران عن القرن الثاني، مما يدل على استمرار العمل بذلك النظام بعد المأمون.

(٢) **طرق اقتحام الخنادق**: ما من أحد يجهل موقف قريش وأحلافها أمام خندق الرسول ﷺ الذي حفره حول المدينة، فكل محاولاتهم لاقتحامه كانت محاولات بدائية، كأن يدور حوله أبطالهم كخالد وغيره؛ ليقتحمه بجواده من أضيق أماكنه، ولم يفكر أحدهم في العمل على ردم جزء منه وعبوره؛ لأنه كان مكيدة غريبة عليهم لم يألفوها.

فلما فتح المسلمون الأقطار بعد الرسول ﷺ، أكثروا من استخدام الخنادق، ومارسوا القتال منها كثيرًا مهاجمين ومدافعين، ففُتحت أمامهم سبل الحيل في التغلب عليها، وعرفوا طرق عبورها، فكان خالد بن الوليد ﷺ إذا صادف خندقًا للعدو، يسرع بذبح الإبل المُسِنَّة التي معه، ثم يرميها ومعها رحالها في أضيق

مكان منه، ثم تعبر قواته فوقها، كما فعل في عبور خنادق الفرس في فتح «الأنبار» وغيرها، وكان يهدف من ذلك أيضًا إلى التخلص من تلك الإبل المُسِنَّة، التي كانت تعوق تقدم الجيش بحمل أولادها عليها.

[ينظر: تاريخ الطبري ٤/ ٢٠، والكامل ٢/ ١٦٥، وعبقرية خالد ﵁ ص١٨٠].

ثم رأينا المسلمين بعد ذلك، يضنون بلحوم الماشية أن تضيع في الخنادق، فكانوا يأكلون لحومها، ثم يملؤون جلودها بالرمال، ويرمونها في الخندق حتى يمتلئ ويتم لهم عبوره، وكان بعضهم يُطم الخندق بالبراذع والرحال، والزُّبل المملوءة بالرمال.

[الكامل لابن الأثير٥/ ٦٠، ٩٥، ٦/ ١٧٩ ومواضع متفرقة، والزبل هي القفف].

وكثيرًا ما رأينا خالد بن الوليد ﵁ في فتح دمشق وغيرها، يصادف الخنادق المملوءة بالمياه، فيعبرها سباحة على القِرَب المملوءة بالهواء بعد إحكام غلقها، فإذا أرادوا أن تعبر القوة الخندق، ألقوا فيه حُزمًا من فروع الأشجار، بعد ربطها بحجارة تجعلها ترسب في قاعه، حتى يمتلئ الخندق، ثم يعبره الجند، بعد أن يمهدوا طريقهم فوق الفروع بغرائر الرمال، فإن كان الخندق قليل العرض، طرحوا عليه الأبواب والألواح الخشبية، وجعلوا منها قنطرة، يعبرون فوقها. [آثار الأول ص٢١٤].

ولكي نعرف أثر التطور الزمني، في فكرة عبور الخنادق، يصح أن نستعرض هنا موقف قريش الذي مر آنفًا أمام خندق الرسول ﷺ، ثم نقرأ ما رواه ابن الأثير، وأبو الفدا عن ذلك الخندق نفسه في أواسط القرن الثاني، فقد ذكر أن محمد بن عبد الله المحض لما خرج بالمدينة عام ١٤٥هـ ـ ٧٧٤م عمل على تحصينها ضد قوات القائد العباسي عيسى بن علي، فأعاد حفر خندق الرسول ﷺ حولها، وبنى عليه جهة العدو جدارًا، وقف عليه حراس من أصحابه يدفعون عنه، فلما جاءت القوات العباسية، لم تقف حائرة أمام الخندق وقفة قريش، ولكن بعض قواد عيسى تقدم إلى جداره في مائة من جنده، فهدموه وانتهوا إلى الخندق، فنصبوا عليه أبوابًا خشبية ثم عبروه، فلما جاء عيسى في الجيش بعد قائده المتقدم، ألقى في الخندق الحقائب وغيرها، ثم طرح عليه الأبواب الخشبية، وعبرت فوقها الخيل والرجال.

[الكامل ٥/ ٢١٩، ٢٢٠ والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٣ ط المطبعة الحسينية].

وأحيانًا كان يشتد الدفاع عن الخندق، فيرمي أصحابه الذين يهاجمونه بالسهام وحجارة المجانيق، وفي تلك الحال كان المهاجم يبعد عنه، ثم يحفر تحت الأرض نفقًا يوصله إليه، فإذا انتهى إلى حائط الخندق عمل على ردمه، أو ثقب سور الحصن، ويظهر أن هذه الطريقة استخدمت بعد القرن الثاني، فإن راويها لم يحدد تاريخها، ولم يعين القائد الذي فعلها». [آثار الأول ص٢١٤، وراجع فكرة القرب الهوائية بالكامل ٥/ ٢٠٩ في فتح دمشق]. [الفن الحربي في صدر الإسلام لعون ١٩٠-١٩٥].

١١ ـ حجم الخندق ومدة حفره:

يقول أ/ باشميل: «فقد قسَّم الرسول ﷺ المساحات المطلوب حفرها خندقًا، بين أصحابه لكل عشرة منهم أربعين ذراعًا، عليهم أن ينجزوا حفرها (في حدود العمق والعرض الذي حددته القيادة لهم) بأسرع ما يمكن.

وقد بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع، أما عمق الخندق فلا يمكن أن يكون أقل من سبعة أذرع، والعرض (كذلك) لا يمكن أن يكون أقل من تسعة أذرع؛ لأن الخيل باستطاعتها أن تقتحم ما هوا أقل من هذه المسافة.

وقد استغرق حفر الخندق (كما يقول ابن القيم في الهدي النبوي) شهرًا كاملًا».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٤١].

ويقول د/ أبو خليل: «كم عدد المسلمين الذين اشتركوا في حفر الخندق؟

وبكم من الأيام أُنجز وتم حفره؟

تكاد المصادر تجمع على أن عدد المسلمين في الخندق ثلاثة آلاف.

[الاكتفاء ١/ ١١٤/ ب، ابن خلدون ٢/ ٢٩، البداية والنهاية ٤/ ١٠٢، السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ١٩٧، ابن هشام ٣/ ١٣١، السيرة الحلبية ٢/ ٣٣٥، الطبري ٢/ ٥٧٠، عيون الأثير ٢/ ٥٧].

وهذا الرقم موضع تساؤل: كان المسلمون في أُحُد قرابة ألف رجل حملوا السلاح، أفمن المعقول أنهم ازدادوا ثلاثة أضعاف في مدة قصيرة؟

يمكننا أن نجد الإجابة في جملة وردت في السيرة الحلبية، وهي أن الذين عملوا في الخندق ليس الرجال فقط: «وكانوا بأجمعهم من بلغ ومن لم يبلغ يعملون فيه». [السيرة الحلبية ٢/ ٣٣٥].

بهذه العبارة يمكننا تثبيت عدد المسلمين الذين عملوا في الخندق ثلاثة آلاف. **[ولكن رسول الله ﷺ استعرض عند وصول الأحزاب المجاهدين كلهم، ورد من كان دون الرابعة عشرة من عمره، وبذلك ينخفض عدد الجيش إلى ألف رجل، يزيدون أو ينقصون قليلًا، فليس من المعقول أن يزداد عدد المسلمين من أحد إلى الخندق ثلاثة أضعاف، وأشار ابن خلدون إلى ذلك: «وخرج ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، وقيل في تسعمائة فقط» ٢/ ٢٩].**

وتُجمع المصادر أن كل عشرة من المسلمين عملوا في حفر أربعين ذراعًا، فكان نصيب الفرد الواحد وسطيًّا أربعة أذرع.

٣٠٠٠ رجل، نصيب الواحد منهم ٤ أذرع، فيكون طول الخندق: ٣٠٠٠ × ٤ = ١٢٠٠٠ ذراع.

وقدر عَرْض الخندق بتسعة أذرع إلى ما فوقها، وليكن وسيطًا: ١٠ أذرع، وعمقه ٧ أذرع إلى عشرة.

والذراع هنا هو الذراع الشرعي، لقد أجمعت أقوال الفقهاء على أن طول الذراع ستة قبضات معتدلات، كل قبضة أربعة أصابع وكل إصبع بعرض ست حبات من الشعير وكل شعيرة بعرض ست شعرات من شعر البغل، وطول الذراع فقهًا: ٢ و٤٦ سم، أو: ٤٦٢و٠م.

[راجع كتاب: الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، لأبي العباس نجم الدين بن الرفعة الأنصاري، تحقيق د/ محمد أحمد إسماعيل الخروف، طبعة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. جامعة الملك عبد العزيز في مكة المكرمة].

لنحول المقاييس السابقة إلى أمتار:

١٢٠٠٠ ذراع × ٤٦٢ و ٠ =٥٥٤٤ م طول الخندق.

١٠ ذراع × ٤٦٢ و ٠ = ٦٢ و ٤ م متوسط عرضه.

٧ ذراع × ٤٦٢ و ٠ =٢٣٤ و ٣ م متوسط عمقه.

والطول المطلوب من كل فرد إنجازه:

٤ أذرع × ٤٦٢ و ٠ =٨٤٨و١ م.

أما حجم العمل المطلوب من كل فرد فهو:

٨٤٨و١ × ٦٢و٤ × ٢٣٤و٣ = ٦١١١١٥و٢٧ م٣.

ويمكن للعامل النشيط في أيامنا هذه أن ينجز ثلاثة أمتار مكعبة من الحفر، ويمكننا القول: إن هذا الرقم (٣ م٣) مقبول أيضًا للعاملين بالخندق على الرغم من أن أجسامهم كانت أقوى، ولكن بما أن الذين عملوا (من بلغ ومن لم يبلغ) يمكن وسيطًا قبول ثلاثة أمتار مكعبة كمية العمل اليومية.

كمية العمل: ٦١١١١٥و٢٧ كم٣، والإنجاز اليومي ٣م٣، ومن هذين الرقمين يمكننا معرفة عدد أيام العمل: ٦١١١١٥و٢٧ ÷ ٣ = ٢٠٣٧٠٥و ٩ أيام، أي ما بين ٩ إلى ١٠ أيام.

والمدة الطبيعية لوصول المسافر من نجد إلى الحجاز هي على الأقل ثمانية أيام، ولما كان الخبر وصل إلى رسول الله ﷺ بعد أربعة أيام: (أرسلت خزاعة بموكب قطع الطريق بين مكة والمدينة في أربع ليال بالخبر إلى رسول الله ﷺ)، يضاف إليها عشرة أيام مدة حفر الخندق، نقول على ضوء هذا: لم تصل الأحزاب إلى المدينة إلا بعد مرور أكثر من أربعة عشر يومًا، وهي المدة المعقولة لذهاب وفد اليهود من مكة إلى غطفان في نجد، وسير غطفان إلى المدينة لتلتقي بقريش». **[غزوة الخندق لأبي خليل ٩٠-٩٣]**.

ويقول د/ الوكيل: «قال ابن حجر: عند موسى بن عقبة أنهم أقاموا في عمل الخندق قريبًا من عشرين ليلة، وعند الواقدي أربعًا وعشرين، وفي الروضة للنووي خمسة عشر يومًا، وفي الهدى لابن القيم أقاموا شهرًا **[فتح الباري ٧/ ٣٩٤]**، وعند ابن سعد أنهم حفروه في ستة أيام.

وبتحقيق هذه الروايات نلاحظ أن أقربها إلى الصواب هي رواية النووي التي تنص على أن حفر الخندق استغرق خمسة عشر يومًا؛ لأن ما عداها من الروايات إما أن يترتب عليه جهد غير معقول لا يتحمله البشر، أو يكون المشركون قد وصلوا إلى المدينة قبل أن يُحفر الخندق، ولا داعي لكلا الأمرين ما دامت هناك رواية صحيحة، وهي أقرب إلى الواقع والمحتمل، وقد رجحتُ رواية النووي للأسباب الآتية:

(١) أن الرسول ﷺ لم يبدأ في حفر الخندق إلا بعد تهيؤ قريش للخروج، يقول ابن إسحاق: «فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ الله ﷺ وَمَا أَجْمَعُوا لَهُ مِنْ الأَمْرِ ضَرَبَ الخَنْدَقَ عَلَى المَدِينَةِ».

ولما كان الطريق من مكة إلى المدينة يحتاج ممن يسلكه إلى أحد عشر يومًا ليقطعه ركب ضخم، وجيش جرار مثل جيش أبي سفيان، وقد قطع الرسول ﷺ وجيشه الطريق نفسه في غزوة الفتح في تلك المدة الزمنية المذكورة، جاء في البداية والنهاية أن الرسول ﷺ خرج من المدينة قاصدًا مكة لليلتين خلتا من شهر رمضان، وكان الفتح لثلاث عشرة ليلة خلت منه، ثم قال: وعلى هذا تكون مدة السفر إحدى عشرة ليلة، وجاء فيها أيضًا عن البيهقي أن الفتح كان في عشر بقيت من رمضان، وهذا مبني على رواية ابن إسحاق، أنه ﷺ خرج لعشر مضين من رمضان. [ابن هشام ٤/ ٣٠، ابن كثير ٤/ ٢٨٦].

فإذا كان الطريق يحتاج من يقطعه لإحدى عشرة ليلة، والتهيؤ للخروج بجيش جرار يحتاج إلى ست أو سبع ليال قبل الخروج، يكون جيش أبي سفيان قد وصل إلى المدينة بعد سبع عشرة أو ثماني عشرة ليلة من بداية العمل في الخندق.

وعلى هذا لو كانت مدة الحفر عشرين يومًا على رأي موسى بن عقبة أو أكثر من ذلك على رأي الواقدي وابن القيم يكون المشركون قد وصلوا إلى المدينة، ولم يتم حفر الخندق بعد، وهذا ما لم يقل به أحد من المؤرخين، فيجب حمل الروايات التي ذكرت أن مدة الحفر كانت عشرين أو أربعة وعشرين أو شهرًا على أن الزمن المذكور هو زمن الحصار لا زمن الحفر.

(٢) إن طول الخندق أربعة آلاف ذراع تقريبًا ـ أي ما يساوي كيلوين من الأمتار ـ لأن الرسول ﷺ جعل لكل عشرة من الصحابة أربعين ذراعًا يحفرونها، ولما كان عدد المسلمين الذين حفروا فعلًا تسعمائة رجل على التحقيق كما ذكر ذلك ابن حزم ؒ كان ذلك هو طول الخندق، ويستحيل أن يكون الحفر قد وزع على كل الذين اشتركوا في الغزوة، لأن المؤرخين وأهل السير والمغازي يذكرون أن عدد المسلمين في هذه الغزوة ثلاثة آلاف رجل.

ولو كان الحفر قد اشترك فيه الجميع بالنسبة التي ذكرتها لبلغ طول الخندق ستة آلاف متر وهذا مستحيل؛ لأن الأرض التي حفر فيها الخندق لا تبلغ هذا القدر؛ ولهذا وجب الأخذ بقول ابن حزم من أن عدد الذين حفروا الخندق كان تسعمائة، ثم علق عليه بقوله: وهذا هو الصحيح بلا شك.

[جوامع السيرة ص ١٨٧].

وأما باقي ثلاثة الآلاف فكانوا يعملون في حمل ما يخرج من الحفر من التراب والحجارة كما جاء ذلك في صحيح البخاري. [البخاري ٧/ ٣٩٢].

ولا يسع الباحث إلا ترجيح هذا الرأي، وعليه لو جعلنا لكل عشرة منهم أربعين ذراعًا لبلغ طول الخندق «٣٦٠٠» ثلاثة آلاف وستمائة ذراع، ولو أضيف إليه الخندقان الفرعيان ـ من راتج إلى أجمة الشيخين ومن خُربى إلى طرف الحرة الغربية ـ لبلغ طوله أربعة آلاف ذراع تقريبًا.

ولو تركنا الخندقين الفرعيين، وفرضنا أن عرض الخندق عشرة أذرع؛ لأنه لو كان دون ذلك لعبرته الخيول بسهولة، وأن عمقه خمسة أذرع؛ لأنه لو كان أقل من ذلك ما تورط فيه نوفل بن المغيرة ولم يستطع الخروج حين سقط فيه.

وحيث إن الذراع يساوي خمسين سنتيمترًا تقريبًا، فيكون كل ذراعين مترًا، ولو ضربنا الطول في العرض في العمق = 0011× 5 × ٥ و٢ = ٠ و٢٢٥٠٠ لكان الناتج اثنين وعشرين ألفًا وخمسمائة متر مكعب، ولو قسمنا هذه الكمية على عدد الذين حفروا لخص كل واحد منهم خمسة وعشرون مترًا مكعبًا يحفرها في خمسة عشر يومًا ـ أي بمعدل كل يوم متر وثلثا متر مكعب، وهذا القدر مع الهمة العالية، وبذل الجهد مقدور للفرد بمعونة الله ﷻ.

ولو لاحظنا ما كان فيه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وهم يحفرون من الجوع الشديد، حتى شدوا الحجارة على بطونهم، وشد رسول الله ﷺ حجرين، ومكثوا ثلاثة أيام لا يذوقون طعامًا، كل ذلك مع شدة البرد والنصب [البخاري ٧/ ٣٩٢]، لو لا لاحظنا ذلك لعلمنا أن هذه الكمية كثيرة جدًّا على رجل في مثل هذه الظروف.

فإذا اعتبرنا مدة الحفر ستة أيام [ابن سعد القسم الأول ص ٢٤٨، السمهودي ٤/ ١٢٠٨]، فإن ذلك يلزم منه أن يحفر كل فرد في اليوم الواحد أربعة أمتار وسدس المتر المكعب، وهو ما لا طاقة لأحد به في مثل هذه الحال.

ولهذا وجب المسير إلى أن مدة الحفر كانت خمسة عشر يومًا؛ لأنها المدة التي يمكن إتمام العمل فيها قبل وصول العدو، كما يمكن لكل فرد أن يحفر حصته مع بذل الجهد والاستعانة بالله تعالى».

[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٧٦ -١٧٨].

ويقول الشيخ عرجون: «وقد اختلفت الروايات في تحديد الزمن الذي استغرقه حفر الخندق، وأصح ذلك وأرجحه ما ذهب إليه محمد بن سعد في الطبقات، وهو أنهم مكثوا في حفر الخندق ستة أيام، قال السمهودي: وهو المعروف.

وذكر موسى بن عقبة في مغازيه إنهم أقاموا في عمل الخندق قريبًا من عشرين ليلة، وذكر الواقدي أنهم أقاموا في حفرة أربعًا وعشرين ليلة، وهذا فرق كبير واختلاف عريض.

والظاهر أنه قد اشتبه على الرواة واختلط على بعضهم أمر حصار الأحزاب للنبي ﷺ وأصحابه بأمر الحفر، فجعلوا مدة الحصار هي مدة الحفر، والصواب ما ذهب إليه ابن سعد من أن مدة الحفر ستة أيام بلياليها كما أيده السمهودي بقوله: وهو المعروف، والخلاف الذي بين رواية ابن عقبة ورواية الواقدي إنما هو في مدة الحصار لا في مدة الحفر؛ لأن النبي ﷺ بدأ العمل في حفر الخندق والأحزاب كانوا قد أتموا أهبتهم وأعدوا للسير عدته، وكان ركب خزاعة قد سبقهم بالخبر إلى النبي ﷺ، وقطع المسافة بين مكة والمدينة في أربعة أيام.

ومن أبعد البعد أن يستغرق سيرهم ما قيل في مدة الحصار بتوهم أنها مدة الحفر، والخندق كان هو الوسيلة العظمى في مواقفة الأحزاب عند هجومهم، فلابد أن يكون قد أُعد وفُرغ منه قبل أن يصلوا إلى مكان المعركة.

ولعل الذين زعموا أن مدة الحفر طالت فنقلوا لها مدة الحصار، أنهم أدخلوا مدة حراسة الخندق وترميم ما عسى أن يكون قد وهي منه في مدة الحفر فقالوا ما قالوا».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٥٢-١٥٣].

١٢ ـ حقيقة عدد قوات المسلمين:

يقول الإمام الصالحي: «الصحيح المشهور أن الصحابة ﷺ كانوا في غزوة الخندق ثلاثة آلاف، ونقل في زاد المعاد عن ابن إسحاق أنهم كانوا سبعمائة.

قلت: ولا دليل في قول جابر ﷺ في قصة الطعام: «وكانوا ألفًا»؛ لأنه أراد الآكلين فقط لا عدة من حضر الخندق، والله تعالى أعلم». **[سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥٦٥].**

ويقول د/ المدخلي: «جيش المسلمين هو ذلك الجيش الذي ضحى بالغالي والنفيس في سبيل الله في سبيل الدفاع عن هذا الدين الحنيف دين الله الذي قال فيه سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران].

هذا الجيش رغم قلة عدده وعدته فقد كان كثيرًا قويًّا بإيمانه وبعقيدته.

وقد حصل في تقدير هذا الجيش خلاف على النحو التالي:

(١) قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ حَتَّى جَعَلُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلعٍ، فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، فَضَرَبَ هُنَالِكَ عَسْكَرَهُ، وَالْخَنْدَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْمِ. **[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٠].**

وتابعه في ذلك ابن سعد، والطبري، والبيهقي، وابن عبد البر، وابن الأثير، وابن سيد الناس، وابن كثير، وذكره الديار بكري، كما ذكره صاحب المواهب اللدنية.

(٢) قال ابن حزم: «وقد قيل تسعمائة فقط، قال: وهو الصحيح الذي لا شك فيه».

[جوامع السيرة ١٨٧].

(٣) قال الديار بكري: «بعد أن ذكر أن عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف قال وقيل: كان المسلمون ألفًا، هكذا بصيغة التمريض». [تاريخ الخميس ١/ ٤٨٠].

قلت: ولعل القائل بذلك ذهب إلى ما ورد في حديث جابر ﷺ حيث قال في سياق الحديث الذي فيه القصة التي أضاف فيها جابر ﷺ النبي ﷺ على عناق وصاع من شعير:... قَدْ جَاءَكِ رَسُولُ الله ﷺ بِأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ!... إلى أن قال: وَهُمْ أَلفٌ».

ولا يجزم بهذا أن عدد المسلمين كانوا ألفًا على ضوء هذا، وإنما هذا العدد هو الذي كان موجودًا مع رسول الله ﷺ في ذلك الوقت في مأدبة جابر ﷺ، ولعل أكثرهم كان قد استأذن منه ﷺ؛ لأنهم كانوا يتناوبون في الحفر كما هو معلوم.

أما ابن القيم فقد قال: «إنهم كانوا ثلاثة آلاف» ثم عقب قائلًا: وقال ابن إسحاق: «خرج في سبعمائة»، قال: «وهذا غلط من خروجه يوم أحد».

[زاد المعاد ٣/ ٢٧١، وبنفس هذا الرد قال المقريزي في الإمتاع ١/ ٢٦٦].

وقال القسطلاني: وكانوا ثلاثة آلاف، ثم قال: «قال الشافعي: ووهم من قال كانوا سبعمائة».

[المواهب اللدنية ١/ ١١١].

أما بالنسبة للرأي الثاني: فلم يشر أحد إليه، وهو الذي ارتضاه ابن حزم ورفض ما عداه، وإذًا فلعل الأولى الرأي القائل بأنهم كانوا ثلاثة آلاف لكثرة القائلين بذلك، والله أعلم.

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٢٢٤-٢٢٦].

ويقول أ/ باشميل: «وذكر ابن حزم في كتابه (جوامع السيرة) ص١٨٧ (وصححه) أن جيش المسلمين لم يزد على تسعمائة في غزوة الأحزاب.

وأقول.. هذا أقرب إلى الصواب، وخاصة بعد انسحاب المنافقين الذين كانوا يشكلون جزءًا كبيرًا من الجيش وتركهم المسلمين وشأنهم عندما اشتد الكرب وتأزمت الحالة، وتصويبنا لرأي الإمام ابن حزم يستند إلى الأمور المنطقية التالية:

(أ) أن الجيش الذي اشترك في معركة أُحُد (وهو كل القوة التي لدى الدولة في المدينة) لا يزيد على سبعمائة مقاتل، حيث لم يتخلف عن معركة أُحُد من يقدر على حمل السلاح.

(ب) من المؤكد أن المدة بين معركة الأحزاب وغزوة أحد لا تزيد على سنة واحدة [سبق بيان أن بينهما سنتين لا سنة واحدة، في المبحث الأول من الفصل الأول من هذا الباب]، ولم تكن هذه السنة إلا فترة صراع مرير بين الإسلام والوثنية في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وخاصة المناطق المحيطة بالمدينة.

(ج) لذلك يكون من المؤكد أن الداخلين في الإسلام (في تلك المدة) هم قليلون جدًّا، وعلى هذا يكون من المستعبد أن يرتفع عدد الجيش الإسلامي (في فترة صراع العصبية تلك) من سبعمائة مقاتل إلى ثلاثة آلاف مقاتل.

(د) مما يعضد الرأي الذي ذهب إليه ابن حزم هو أن المصادر التاريخية (كما في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما في البداية والنهاية) ذكرت أنه في الليالي الأخيرة الحاسمة من ليالي الخندق، لم يبق مع النبي ﷺ في وجه الأحزاب أمام الخندق سوى ثلاثمائة مقاتل أو نحوهم.

[سيأتي حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما هذا مفصلًا في الباب التالي من هذا الكتاب إن شاء الله].

(هـ) لو كان جيش المسلمين الذي ظل صامدًا في وجه الأحزاب طيلة ليالي الخندق، هو ثلاثة آلاف مقاتل، لما خاف المسلمون ذلك الخوف الشديد الذي بلغ حد الزلزال وبلوغ القلوب الحناجر، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

ذلك أن نسبة المسلمين تكون (إذا كان جيشه ثلاثة آلاف مقاتل في غزوة الأحزاب) واحدًا لثلاثة تقريبًا، وهذه ليست أول مرة تكون فيها نسبة المحاربين المسلمين واحدًا لثلاثة من المشركين، ففي معركة أُحُد كانت النسبة أقل من ذلك، حيث كانت نسبة المسلمين واحد لأربعة من المشركين (تقريبًا) حيث خرج من المدينة سبعمائة مقاتل اصطدموا في العراء (حيث لا خندق ولا أبنية ولا حرار تحميهم) بثلاثة ألاف مقاتل فأنزلوا بهم في الجولة الأولى هزيمة منكرة كادت تكون ساحقة لولا غلطة الرماة.

فكيف (إذن) يبلغ الخوف والفزع بالمسلمين إلى تلك الدرجة وهم متحصنون داخل المدينة وكأنهم في قلعة منيعة، ونسبة محاربيهم واحد لثلاثة فقط من محاربي الأحزاب، وهي نسبة أكثر من نسبتهم في معركة أحد التي قابلوا فيها جيش العدو، دون أن يشعروا بخوف أو فزع؟

فهل انخفضت نسبة الشجاعة والثبات والإقدام بين المسلمين بعد معركة أحد، حتى يبلغ بهم الخوف والفزع إلى تلك الدرجة في معركة الأحزاب، ونسبة عددهم إزاء عسكر الأحزاب فيها أكثر من نسبته إزاء عسكر مكة في معركة أحد؟.. الجواب الصحيح هو النفي (قطعًا) فالمسلمون بعد معركة أحد لم يزدادوا إلا شجاعة وثباتًا وإقدامًا وتضحية.

(إذن) وقد ثبت أن الخوف والفزع قد بلغ بين المسلمين إلى درجة الزلزال وبلوغ القلوب الحناجر في غزوة الأحزاب لابد من القول (أو الترجيح على الأقل) بأن مصدر ذلك الخوف والفزع الأساسي هو أن المسلمين (على شجاعتهم) كانوا (لكثرة عدوهم وقلتهم) كالجزيرة الصغيرة التي يحيط بها البحر الهائج ويهددها بالابتلاع في كل لحظة، وأن كثرة العدو الغامرة الهائلة التي بلغت فيها النسبة واحدًا من المسلمين لعشرة من المشركين مع تربص اليهود وتوقع المسلمين منهم نقض العهد وضربهم من الخلف، مع إرجاف المنافقين داخل الجيش، هي السبب الأكبر في ذلك الخوف والفزع الذي انتاب المسلمين بصورة لم يسبق لها مثيل.

وعلى هذا لابد من ترجيح القول الذي قال به الإمام ابن حزم، وهو أن جيش المسلمين الذي رابط وراء الخندق وصمد في وجه عشرة آلاف مقاتل من عساكر الأحزاب لم يزد على تسعمائة مقاتل.

ولا يستبعد أن يكون عدد الجيش الإسلامي أول الأمر ـ وعندما كان المنافقون يشكلون جزءًا منه ـ قد بلغ الألفين أو أكثر، وأنه بانخذالهم وتسللهم منه عندما بدأت جيوش الأحزاب تصل إلى المنطقة لم يبق فيه إلا تسعمائة من المؤمنين الصادقين الذين لم يجد الشك سبيلًا إلى نفوسهم، فيكون صحيحًا القول بأن الجيش الإسلامي الذي واجه الأعداء يوم الأحزاب لم يزد على تسعمائة مقاتل كما أكد ذلك الإمام ابن حزم، وبهذا (فقط) نستطيع أن نجد تفسيرًا مقنعًا لذلك الخوف الشديد الذي بلغ بالقلوب الحناجر».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٤٨-١٥٢].

ويقول د/ المجدوب: «وفيما يتعلق بعدد المقاتلين المسلمين الذين واجهوا الأحزاب واليهود، فإن الآراء قد اختلفت بشأنه: فهناك رأي يذهب إلى أنه كان سبعمائة مقاتل، وهناك رأي آخر يذهب إلى أن عددهم كان ثلاثة آلاف مقاتل، فضلًا عن الآراء الأخرى التي تذكر أعدادًا تتراوح بين الرقمين السابقين.

وفي رأينا أن القول بأن عدد المقاتلين المسلمين كان ثلاثة آلاف فيه مبالغة شديدة، ثم إن الفرق بين السبعمائة والثلاثة الآلاف فرق كبير جدًّا، ولا يعقل أن يكون البعض قد لاحظ أن جيش المسلمين كان سبعمائة، في حين يلاحظ البعض الآخر أنه كان ثلاثة آلاف؛ لأن الفرق بين الرقمين من الضخامة بحيث لا تخطئه العين.

وعمومًا فإن ملاحظتنا على العدد الذي ذكره المؤرخون من الفريقين تستند إلى الأسباب الآتية:

أولًا: أن عدد المسلمين الذي اشتركوا في غزوة أُحُد كان سبعمائة، ولما كانت المدة التي انقضت بين هذه الغزوة وبين غزوة الخندق حوالي عام، فإنه من غير المتصور أن يكون عددهم قد زاد بهذا الشكل ليصل إلى ثلاثة آلاف.

ثانيًا: أنه طبقًا لما قيل من أن توزيع العمل في حفر الخندق قد جرى على أساس أن لكل عشرة رجال من المسلمين أربعين ذراعًا، مما يعني أن طول الخندق كان اثني عشر ألف ذراع وهو ما يساوي تسعمائة ألف سم (الذراع = ٧٥سم) أو ٩٠٠٠ متر، أي ٩كم ونرجح أن هذا كان طول الجهة من المدينة الخالية من العوائق الطبيعية والحصون؛ لأنه لا يعقل أن يكون قطرها، المدينة تسعة كيلو مترات فقط، خاصة إذا لاحظنا أنها كانت مكونة من أحياء تفصل بينها في بعض الأحوال أميال.

والذي نرجحه أن الذين اشتركوا في حفر الخندق لم يكونوا كلهم من المقاتلين، وإنما اشترك معهم آخرون، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار اتساع الخندق وعمقه وطبيعة الأرض وغير ذلك، وأيضًا المدة التي استغرقها الحفر، وكذلك عدد ساعات العمل.

ثالثًا: أن غزوة خيبر، التي سيأتي ذكرها فيما بعد، على خطورتها ـ لبعدها من ناحية، ولكونها مستعمرة يهودية حصينة كل سكانها من اليهود ـ لم يزد عدد المقاتلين المسلمين الذين اشتركوا في غزوها على ١٤٠٠ راجل و ٢٠٠ فارس، وكان بينها وبين الأحزاب أكثر من عام، وبينها وبين أُحُد أكثر من عامين، أي أنها مدة كافية لأن يتضاعف المسلمون، خاصة بعد الانتصار الكبير في غزوة الأحزاب ثم في بني قريظة وفي غيرها، فضلًا عن صلح الحديبية.

ومع ذلك، وحتى لو أننا افترضنا أن عدد المسلمين الذين تصدوا للأحزاب كان قد بلغ في أول الأمر ثلاثة آلاف مقاتل، وهو ما ذكره البعض ـ فإن هذا الرقم ما لبث أن انخفض إلى الرقم الآخر، وهو السبعمائة، نتيجة لفرار المنافقين والخائفين الذين تأثروا بدعايات أتباع عبد الله بن أُبي بن سلول.

وهذا ما أردنا أن نبينه بالنسبة لما لاحظناه ويلاحظه من يقرأ التاريخ الإسلامي من تفاوت كبير بين البيانات، وبخاصة ما كان منها له علاقة بالغزوات والمعارك». [**المستوطنات اليهودية للمجدوب ٩٧-٩٩**].

١٣ ـ استخدام السواتر والمتاريس:

يقول د/ الفنيسان: «لما حفر المسلمون الخندق أمرهم الرسول ﷺ بأن يجعلوا التراب مما يليهم جهة جبل سلع حتى لا يتمكن العدو من دفنه والعبور عليه، وحتى يستعمله المسلمون ساترًا لهم من قبل العدو، كما أمرهم بنقل الحجارة من جبل سلع ووضعها على حافة الخندق على امتداده وذلك ليستخدمها المسلمون فيما إذا تسلل من الأعداء متسلل، وفعلًا وقع هذا». [**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٨**].

ويقول د/ الوكيل: «وأمرهم الرسول ﷺ بأن يجعلوا التراب الخارج من الحفر في جهة المسلمين، كذلك أمرهم بأن يجلبوا الحجارة من جبل سلع، ويضعوها إلى جوار الخندق، وكان لهذا العمل فائدتان هامتان تدلان على عبقرية عسكرية نادرة:

أما إحداهما: فإن هذا التراب الموجود على حافة الخندق من جهة المسلمين يعتبر ساترًا جيدًا، للرماة المسلمين، حيث يتمكنون من إيقاع خسائر بالعدو دون أن ينال منهم شيئًا، وكذلك فإن التراب والحجارة يكونان خط دفاع قوي بحيث لا يستطيع أحد عبور الخندق والوصول إلى جهة المسلمين، وقد حدث ذلك فعلًا لما حاول نوفل بن المغيرة عبور الخندق بفرسه فلم يستطع وسقط في الخندق.

وأما الثانية: فإن الحجارة المنقولة من جبل سلع إلى جوار الخندق تعتبر سلاحًا فعالًا يستعمله المسلمون وقت الحاجة ليردوا به المهاجمين، والذين يحاولون عبور الخندق.

وقد استفاد المسلمون من تلك الحجارة، فإنه لما سقط نوفل بن المغيرة في الخندق أخذ المسلمون يرمونه بتلك الحجارة، وهو يصيح ويقول: يا معشر العرب، موتة غير هذه، حينئذ نزل إليه الزبير بن العوام ﷺ وضربه بالسيف فشقه، وأثَّر السيف في كاهل فرسه.

قال المسلمون للزبير ﷺ: ما أمضى هذا السيف يا أبا عبد الله!

فقال ﷺ: إنه ليس السيف، ولكنه الساعد الذي يحمل السيف.

وهكذا كان هذا التخطيط وقاية للمسلمين، وسلاحًا يستعملونه وقت الحاجة، وردعًا للعدو فلا يدخل الخندق». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٧٩-١٨٠**].

١٤ ـ هل كان للخندق أبواب؟:

يقول د/ الوكيل: «ويقول اليعقوبي: إنهم جعلوا للخندق أبوابًا، وجعل الرسول ﷺ عليها حُرَّاسًا كل قبيلة رجل، وجعل الزبير بن العوام ﷺ قائد الحرس. [**اليعقوبي ٢/ ٥٠**].

ويبدو أن بعض المؤرخين قد ذكر الأبواب، مما جعل الواقدي يقول: إنه لا يعرف له أبوابًا، والظاهر أن الأمر قد التبس على من قال بأن للخندق أبوابًا؛ لأن فتح باب الخندق لم يكن في عهد الرسول ﷺ، ولكنه كان في عهد يزيد بن معاوية عندما أرسل جيشًا إلى المدينة ليؤدب المتمردين من أهلها، وفكر أهل المدينة في الخندق.

يقول الواقدي: إنه لما دنا عسكر يزيد تشاور أهل المدينة في الخندق، واختلفوا أيامًا، ثم عزموا على الخندق ـ خندق رسول الله ﷺ ـ وشبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، وقال حنظلة بن قيس الزرقي بعدما تكلم عن الخندق يوم الحرة: وفتح بعض بني حارثة طريقًا إلى الخندق من قبلهم لأهل الشام.
[**السمهودي ٤/ ١٢٠٦**].

ولعل هذا هو السبب في التباس الأمر على من ذكر أن للخندق أبوابًا، ولكن يعكر على ذلك ذكر الحُرَّاس وجعل الزبير ﷺ قائدًا عليهم؛ لأن الزبير ﷺ لم يشهد يوم الحرة حيث استشهد في خلافة علي ﷺ». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٨٠**].

١٥ ـ تأمين الذراري والنساء والصبيان من خطر الأعداء:

يقول د/ الرشيد: «لما علم النبي ﷺ بقُدُومِ جيش الأحزاب وأراد الخروج إلى الخندق، أمر بوضع ذراري المسلمين ونسائهم وصبيانهم من حصن بني حارثة، حتى يكونوا في مَأْمَنٍ من خطر الأعداء.

إن اتخاذ التدابير الأمنية لحماية المدنيين من أطفال ونساء في غاية الأهمية؛ لأن حماية الذراري والنساء والصبيان لها أثر على فعَّال على معنويات الجنود المقاتلين؛ لأن الجندي إذا اطمأن على سلامة زوجه وأبنائه، يكون مرتاح الضمير، هادئ الأعصاب، فلا يفكر فيهم فإنهم في مأمن، بل يسخر كل الطاقات الجسمية والعقلية للإبداع في فن القتال، والإقدام عليه.

أما إذا لم يطمئن على زوجه وأبنائه وعرضه وشعر بأن الخطر يهددهم، فإن أمره يضطرب، ومعنوياته تضعف، ويأخذ عليه القلق والفزع كل مأخذ، ويؤدي كل هذا إلى التراجع، وربما الانهيار، وبذلك تنزل الكارثة بالجميع. [غزوة الأحزاب ـ د/ أبو فارس ص ٩٨].

وفي فعل النبي ﷺ في هذا الشأن تعليمٌ للقادة العسكريين من بعده حتى يقتدوا به في هذا الأمر؛ لأن الجندَ حين يَأْمَنُونَ على عَوَائِلِهِم، ترتفع معنوياتُهم لقتال أعدائهم، فيتحقق من وراء ذلك النصر للأمة وتندفع عنها شُرُورُ أعدائها». [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٨٥].

١٦ ـ يقظة القيادة الدائمة:

يقول د/ أبو فارس: «اليقظة الدائمة التي كان رسول الله ﷺ يعيشها في غزواته ويربي أصحابه عليها، فهو يرسل دوريات الحراسة التي تجوب أطراف المدينة، فترهب الأعداء في الداخل كالمنافقين واليهود، وكذلك في الخارج حين يرون المسلمين في سهر دائم ويقظة تامة». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٨].

١٧ ـ القائد لا يميز نفسه عن أتباعه:

يقول د/ أبو فارس: «إن رسول الله ﷺ لم يرغب في خصِّ نفسه بطعام جابر رضي الله عنه دون غيره، بل دعا أهل الخندق كلهم، وهكذا يكون القائد لا يميز نفسه عن أتباعه، كما يفعل بعض القادة اليوم، يملؤون معداتهم بأشهى الأطعمة وألذها، وجنودهم يتضورون جوعًا، أو قد يمتازون عنهم بنوع الطعام وكميته، فالقادة في كثير من الجيوش الجاهلية يأكلون طعامًا خاصًّا لا يُصرف لجنودهم، وملابسهم تختلف جودة عن ملابس جنودهم».[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٩-١٢٠].

١٨ ـ رفع معنويات المقاتلين:

يقول عميد/ كاخيا: «ويتجلى ذلك في معاونته لهم ﷺ في حفر الخندق وفي الحراسة الليلية وفي التصدي للخطر خلال الأوقات الصعبة، وفي تطمينه بأنهم بعد هذه الغزوة سوف يغزون قريشًا، وفي

حسن معاملته لجنوده وأصحابه والرفق بهم، ودعائه إلى الله العلي القدير أن ينصر المسلمين، وبعد أن هيأ رسول الله ﷺ كل الأسباب المؤدية إلى النصر المبين قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب]». [الغزوات النبوية المطهرة لكاخيا ٧٤-٧٥].

١٩ ـ مشاركة القائد لجنده في الميدان من عوامل النصر في المعركة:

يقول د/ الفنيسان: «لما قرر الرسول ﷺ حفر الخندق، شارك أصحابه بنفسه في الحفر، وكان ينقل التراب معهم كما ينقلون، فلم يبق في خيمته «غرفة القيادة» يُصدر عليهم الأوامر العنترية، ويطالبهم بالطاعة العمياء، وكانت مشاركته لهم في السراء وفي الضراء لها أثر كبير بإنجاز حفر الخندق في مدة قليلة». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٧].

ويقول د/ الرشيد: «اجتمع على الصحابة رضي الله عنهم وهم يقومون بحفر الخندق ظروف صعبة، كان من أهمها الخوف من مداهمة الأحزاب لهم، فكان لابد من إنجاز هذا المشروع الكبير في أسرع وقت.

وقد شارك الرسول ﷺ الصحابةَ في هذا العمل المضني، فأخذ يعمل بيده الشريفة في حفر الخندق، كما مر تفصيله.

فعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة بهمة عالية لا تعرف الكَلَل، فأعطى القدوة الحسنة لأصحابه حتى بذلوا ما في وِسْعِهِم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن مشاركة النبي ﷺ لأصحابه في هذا العمل كانت مشاركة حقيقية، في تلك الظروف الصعبة، وليس المراد بها البدء بأول ضربة ثم بعد ذلك يدير ظهره لأصحابه فلا يرونه، أو أنه كان يقف موقف المشجع على الحفر بكلام معسول، أو أنه كان يكتفي بإصدار الأوامر الصارمة، كما يفعل معظم القواد في عصرنا الحديث.

إن شيئًا من ذلك لم يحدث، بل انطلق يشارك جنده التعب والمشقة، حتى غطى التراب بطنه الشريف.
[ينظر: غزو الأحزاب لأبي فارس ص ١٠٢-١٠٣].

ومن هذا الموقف يُسْتَفَادُ درسٌ عملي مهم: وهو أن مشاركة القائد جنده في عملهم، وتفانيه في ذلك سببٌ في رفع معنوياتهم، وبذل أقصى ما يستطيعون في إنجاز العمل الذي كُلِّفوا به.

أما إذا حدث العكس فإن الجند لا يبذلون من الجهد إلا بالقدر الذي يجنِّبهم محاسبة قائدهم لهم».
[القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٧٩-٤٨٠].

ويقول أ/ فرج: «كان الرسول القائد ﷺ يشاور رجاله في كل أمر، ويأخذ بالرأي الذي تبديه أو توافق عليه الأغلبية، كما كان الرسول القائد ﷺ أسوة طيبة ومثلًا أعلى لرجاله، كان بينهم كأحدهم وقد عمل في حفر الخندق بيديه فكان يرفع التراب ويدعو إلى مضاعفة الجهد.

إن الجنود يتأثرون بالقائد ويحذون حذوه، وكيفما يكون القائد تكون الجنود؛ ولهذا فإن التوجيهات الحديثة للقادة هي أن القيادة تحتم تقديم المثل الطيب قبل أية فضيلة أخرى، وأن يشارك القائد جنوده كل ظروف المعركة.

في هذا يقول فيلد مارشال سليم: «الضباط وجدوا ليقودوا الجنود»، وإني أناشدكم بصفتكم ضباط أن لا تأكلوا ولا تشربوا أو تدخنوا أو تجلسوا أو حتى تستندوا إلى شجرة، قبل أن تتأكدوا أن ذلك متاح لجنودكم». [انتصارات عربية خالدة لفرج ٥١-٥٢].

٢٠ ـ مشاركة القائد جنده في آلامهم وآمالهم:

يقول د/ الرشيد: «كان الرسول ﷺ يشارك الصحابة رضي الله عنهم في آلامهم وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجَمَّة دونهم.

ففي غزوة الأحزاب: نجد أنه ﷺ كان يعاني من آلام الجوع كغيره، بل أشد، حيث وصل به الأمر إلى أن ربط حجرًا على بطنه الشريف من شدة الجوع.

ثم إنه ﷺ كذلك شاركهم في آمالهم فحين وجد ما يَسُدُّ رمقه بعد هذا الجوع الذي استمرَّ ثلاثًا، لم يستأثر بذلك دونهم، بل أبت عليه نفسه الكريمة وقلبه الذي امتلأ عطفًا وحنانًا إلا أن يشاركه أصحابه في هذا الطعام، الذي صنعه جابر رضي الله عنه مع أنه كان قليلًا يكفي لرجلين أو ثلاثة لا غير.

وقد كان جابر رضي الله عنه مضطرًا إلى ما فعل، إذ إنه كأي مفكر عادي من الناس لم يكن يملك إلا أن يتصرف حسب ما يملك من الأسباب المادية.

ولما كان الطعام الذي لديه قليلًا لا يكفي إلا لهذا العدد اليسير، خَصَّ به رسول الله ﷺ ومن يشاء من بعض الصحابة في حدود ضيِّقة، ولكنه ﷺ لم يكن من عادته أن يتأثر بنظرة جابر رضي الله عنه تلك، فهو أولًا: لا يمكن أن يتميز عن أصحابه بشيءٍ من النعمة أو الراحة، وهو ثانيًا: لا يمكن أن يجعل نفسه أسيرًا للأسباب المادية التي أَلِفَها البشر، فالله تعالى هو مسبِّبُ الأسباب وخالقها، وهو القادر على أن يجعل من الطعام القليل كثيرًا، وأن يبارك في القليل منه حتى يكفي القوم الكثير.

فقد أكل أهل الخندق وكانوا ألفًا من طعام جابر رضي الله عنه القليل حتى شبعوا وبقى فيه بقية.

وبهذا يتبين أن الرسول ﷺ كان هو وأصحابه شركاء متضامنين، يتقاسمون النعمة بينهم مهما قَلَّتْ، كما أنهم كانوا يتقاسمون بينهم المحنة مهما عَظُمَتْ.

ولو أن هذا الطُّعَيمَ القليل الذي دعا إليه جابر رضي الله عنه الرسولَ القائد ﷺ، دُعِيَ إليه قائدٌ من قيادات الجيوش في عصرنا الحاضر، لما علم بذلك جنوده، فضلًا على أن يروه أو يَطْعَمُوه ـ إلا من رحم الله ـ بسبب الأنانية وحب الذات التي أصبحت من سمات هذا العصر.

وفيما فعله ﷺ عندما صبر على الجوع كغيره، وفي دعوته الصحابة إلى طعام جابر ﷺ، قدوةٌ لمن يأتي بعده من القادة.

إذ إن مشاركة القادة جنودهم في آلامهم وآمالهم: دليلٌ على المحبة القوية التي تجمع بينهم، وهذا له آثاره الطيبة في انقياد الجند لقادتهم، وبذل أقصى ما يستطيعون من جهد في الذود عن حياض الإسلام ومقدسات المسلمين». [**القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٨١-٤٨٢**].

٢١ ـ تخفيف القائد عن جنوده بما يُدخل عليهم السرور ويبعث فيهم النشاط:

يقول د/ الرشيد: «اقترن حفر الخندق بصعوبات جَمَّة، فقد كان الجو باردًا والريح شديدة، والحالة المعيشية صعبة، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة.

ويضاف إلى ذلك كلِّه: العمل المُضْني حيث كان الصحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم، ولا شك في أن هذا الظرف ـ بطبيعة الحال ـ يحتاج إلى قدرٍ كبير من الحزم والجد.

ولكن النبي ﷺ لم يَنْسَ في هذا الظرف أن هؤلاء الجند إنما هم بشر كغيرهم، لهم نفوسٌ بحاجةٍ إلى الراحة من عناء العمل، كما أنها بحاجة إلى من يُدْخِلُ عليها السرور، حتى تنسى تلك الآلام التي تعانيها فوق معاناة العمل الرئيس.

ولهذا نجد أن النبي ﷺ عَطَّرَ هذا الجو الذي يملأه الرعب ومشقة العمل بنوع من المرح البريء، بما كان يرتجز بكلمات ابن رواحة وغيرها كما مر بنا.

وإذا كانت الجمال تطرب للحداء وتواصل السير ولا تشعر بطول الطريق ومشقة السفر وهي تحمل الأثقال، فليس غريبًا أن يميل الإنسان إلى هذا النوع من الغناء ـ إن صحت تسميته بذلك ـ الذي يروِّح عن النفس همومها، ويبعث فيها النشاط، ويخفف عنها مما تعانيه من التعب.

ولعله من أجل هذا ـ والله أعلم ـ أقر النبي ﷺ الصحابة على هذه الأراجيز.

[**ينظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس ص ١٠٤-١٠٥**].

ولنا أن نتصور هذا الجو الذي يعمل فيه المسلمون والرسول ﷺ بينهم، يضرب بالفأس، ويجرف بالمِسْحَاة ويحمل في المِكْتَل، ويُرَجِّعُ معهم هذا الغناء ـ إن صَحَّتْ هذه التسمية ـ ولنا أن نتصور أَيَّةَ طاقةٍ يُطلقها هذا الجو في أرواحهم، وأي ينبوع يتفجر في كيانهم بالرضا والحماسة والثقة والاعتزاز.

[**في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٤٢**].

كما أن هذا الجو لم يَخْلُ من روح الدعابة والمزاح، فقد كان زيد بن ثابت ﷺ غلامًا صغيرًا، ينقل التراب أثناء حفر الخندق، وعندما نزل في الخندق أَحَسَّ بالدفء فغلبته عيناه حتى نام، فأخذ عمار بن حزم ﷺ سلاحه، فقام زيد فزعًا، فقال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا رُقَادٍ، نِمْتَ حَتَّى ذَهَبَ سِلاحُكَ!**».

وتتجلى روح الدعابة التي مازح بها النبي ﷺ هذا الغلام في قوله: «**يَا أَبَا رُقَادٍ!**».

ولقد كان لهذا التَّبَسُّط والمرح في ذلك الوقت، أثره في التخفيف عن الصحابة مما يعانونه نتيجة للظروف الصعبة التي يعيشونها، كما كان له أثره في بعث الهمة والنشاط، بإنجاز العمل الذي كُلِّفوا بإتمامه، قبل وصول عدوهم». [**القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٨٢-٤٨٥**].

ويقول أ/ الشامي: «تقرر حفر الخندق، وخطه رسول الله ﷺ، وعيَّن لكل جماعة ما يخصها، وبدأ المهاجرون والأنصار العمل في غداة باردة، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بهم من النصب والجوع والبرد، قال:

اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالـمُهَاجِرَهْ

وما إن سمع الصحابة رضي الله عنهم ذلك حتى أجابوه ﷺ بقولهم:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

كانت لفتة كريمة من رسول كريم، أراد ألا يكون صوت المعاول هو الذي يُسمع وحده، فهو يذكِّر بالتعب والجوع؛ ولذا رفع صوته مذكِّرًا بأن الغاية هي الدار الآخرة، ومن عرف ما قصد، هان عليه ما بذل، وأن ما يصيب المرء في الدنيا إلى زوال، وأجابه القوم بما استقر في نفوسهم، إنها البيعة على الجهاد الدائب المستمر.

إنها كلمة الحق، فالعيش عيش الآخرة؛ ولذا فها هو ﷺ في الخندق، يشارك القوم في الحفر، ويشاركهم بنقل التراب، قَالَ البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنه: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ وَخَنْدَقَ رَسُولُ الله ﷺ رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الخَنْدَقِ، حَتَّى وَارَى عَنِّي الغُبَارُ جِلدَةَ بَطْنِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ.

وأي جهد أكبر من هذا؟

كما شاركهم الجوع، بل ربما كان أكثرهم جوعًا كما مر في حديث جابر رضي الله عنه.

ويصل المشركون إلى المدينة فيكون نصيب الرسول ﷺ من العمل كنصيب أي فرد، إضافة إلى أعباء القيادة، حتى الحراسة ليلًا، قالت أم سلمة: وكان يحرس بنفسه في الخندق، وكنا في قر (برد) شديد. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٤**].

إنها القيادة في وسط الناس ومعهم في كل شيء، معهم في الحفر، معهم في نقل التراب، معهم في الجوع، معهم حتى في الرجز والإنشاد.

ويُدعى ﷺ إلى طعام جابر رضي الله عنه فيأبى أن تكون الدعوة خاصة به ـ وطعام جابر رضي الله عنه لا يكفي إلا الأفراد ـ ويدعو أهل الخندق، وتكون معجزة من معجزاته ﷺ.

وكل فرد من الأفراد في الجيش الكريم له مكانته في نفس القائد، فكان ﷺ يتفقدهم فردًا فردًا يطمئن عليهم بنفسه في الوقت الذي أقعد فيه الخوف والجوع والبرد الكثير منهم.

قال حذيفة: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلًا رجلًا حتى أتى عليَّ... [البداية والنهاية ٤/ ١١٤].

إن قيادة هذا وضعها لن يخذلها الله أبدًا، وإن جندًا هذه قيادتهم سيتفانون في سبيلها، وقد فعلوا.

إنه منهج الإسلام في القيادة ...». [من معين السيرة للشامي ٣١٠-٣١١].

٢٢ ـ تقدير حاجات الجند والإذن لهم في قضائها:

يقول د/ الرشيد: «مرَّت فترة حفر الخندق بظروف حاسمة تتطلب إنجاز العمل في أسرع وقت؛ لذا كانت مصلحة العمل تقتضي أن يستأذن الرجل عندما تَعْرِضُ له حاجةٌ، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على قدرٍ كبيرٍ من الأدب مع النبي ﷺ، فكانوا يستأذنونه في الانصراف إذا عَرَضَتْ لهم ضرورة.

روى ابن إسحاق وابن المنذر والبيهقي: أن النبي ﷺ لما سمع بقدوم الأحزاب ضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه، وأبطأ رجال من المنافقين وجعلوا يأتون بالضعيف من العمل فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق لحاجته، فيأذن له، وإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾[النور]. [لباب النقول للسيوطي ص ٦٢].

ومعنى الآية الكريمة: إذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لقضاء بعض حاجاتهم التي تَعْرِضُ لهم، فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ منهم في الانصراف عنك لقضائها واستغفر لهم.

[صفوة التفاسير للشيخ الصابوني ١٠/ ٣٢].

فكان النبي ﷺ بالخيار، إن شاء أذن له إذا رأى ذلك ضرورةً للمستأذِن، ولم يرَ فيه مَضَرَّةً على الجماعة، فكان يأذن أو يمنع، حَسْبَ ما تدعو إليه المصلحة ويقتضيه مقام الحال. [أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٠].

وتشير الآية الكريمة إلى أن مغالبةَ الضرورة، وعدم الانصراف هو اَلأَوْلَى، وأن الاستئذان والذِّهابَ فيهما قصور يقتضي استغفار النبي ﷺ أو أمير الجماعة بعده للمُسْتَأْذِنِ. [في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٣٥].

وذلك أن الاستئذان ـ وإن كان لعذر قوي ـ لا يخلو من شائبة تقديم أمر الدنيا على الدين.

[ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ٤/ ١٥١].

وفي الآية ـ أيضًا ـ التنبيه على أن الاستئذان إذا كان فيه أدنى دخل للاحتيال، أو يريد المستأذن أن يُؤْثِرَ مصلحتَه الفردية على المصلحة الجماعية، فإنه آثمٌ، وهذا يقتضي الاستغفارَ له.

[تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي ص ٢٣٠].

وينبغي أن يستفيد قادة الجيوش الإسلامية في عصرنا الحاضر من هذا الدرس، وعليهم أن يُقَدِّروا المصلحة العامة للجيش، فيأذنوا لمن كانت له ضرورةٌ لابد من قضائها، بقدر ما تنقضي ضرورته، وإذا كانت المصلحة في منع جندي بعينه من الذهاب ـ ولو كان قد استأذن ـ فإن لهم الحق في منعه.

وعلى القادة أن يراعوا في كلتا الحالتين المصلحة العامة وملابسات الظروف التي تعيشها تلك الجماعة». [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٨٥-٤٨٧].

٢٣ ـ إخلاص الجندي لقائده وحبه له:

«لقد رأى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما حجرًا مربوطًا على بطن رسول الله ﷺ، وهذا يعني أن الرسول ﷺ قد بلغ منه الجوع مبلغًا شديدًا، والجندي المحب لقائده لا يطيق أن يرى قائده يكابد آلام الجوع ويقدر أن يقدم له شيئًا من الطعام ويتأخر». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١١٨].

المبحث السادس

الدروس الدعوية

١ ـ الأخذ بالأسلوب النافع وإن كان الكفار يستعملونه:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا أن النبي ﷺ استشار أصحابه عما ينبغي فعله لمواجهة زحف المشركين على المدينة، وكان رأي سلمان الفارسي رضي الله عنه أن يحفروا حول المدينة خندقًا؛ معللًا ذلك بقوله: «**إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ وَتَخَوَّفْنَا الخَيْلَ خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا**»، فاستحسن النبي ﷺ رأيه وأخذ به، وأمر بحفر الخندق، وإن كان هذا الأسلوب من الحرب ومدافعة العدو كان من أساليب فارس.

ومعنى ذلك أن النافع من الأمور الدنيوية قد يعرفه الكفار عن طريق التجربة وأن لا مانع من فعله من قِبَل المسلمين.

فعلى الدعاة وجماعتهم أن يستفيدوا من وسائل وأساليب الكفرة فيما يتعلق بنشر الدعوة، أو في خططهم في مواجهة أعدائهم ونحو ذلك.

وهكذا فعل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما وضع الدواوين وهو ما كان يفعله الفرس في بلادهم». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٥٨].

٢ ـ على قادة جماعة الدعاة مشاركة أفرادها في أعمال الدعوة:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا أن النبي ﷺ شارك أصحابه في حفر الخندق وحمل التراب بنفسه الشريفة، وكان يشجعهم على عملهم ويذكِّرهم بالأجر والثواب الحسن من الله، وأن العيش الطيب الرغيد هو عيش الآخرة، فعلى قاعدة الجماعة المسلمة، قادة جماعة الدعوة، أن يشاركوا أعضاءها من الدعاة والأنصار فيما يقومون به من أعمال الدعوة مثل بناء دار لاجتماعاتهم، أو بناء مسجد خاص بهم أو عام لجميع المسلمين ونحو ذلك، وكذلك يشاركونهم وسائر أعضاء الجماعة في أعمال البر العامة كبناء مدرسة ونحو ذلك؛ لأن هذه المشاركة من أساليب الدعوة». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٥٨].

ويقول أ/ ياقوت: «وفي ذلك، الدرس الأوفى؛ لأصحاب المسؤوليات في العمل الجماعي الدعوي، أن يتقوا الله في أنفسهم وإخوانهم والدعوة، فتجد أحدهم يلقي على إخوانه التكاليف الثقال، وليس له من الأمر إلا القعود وقيل وقال، أو تراه يتكلف ويتعمَّل، ويتصنع المشاركة ثم ينستل من بينهم، تاركًا الجَمل بما حمل، ولا حياء ولا خفر، وبعد العمل تراه قد خرج من جحره؛ ليلقي نظرياته في العمل وينظّر تنظير العلماء، ويعَّقب تعقيب الحكماء، عما كان وعما ينبغي، وهو الخطيب المصقع والمتحدث المِفْلق، لكن... دون مشاركة جادة ومعاونة فاعلة». [السيرة النبوية لياقوت ٤١٨].

٣ـ التطبيق العملي للدعوة:

يقول د/ الزيد: «مشاركة الرسول ﷺ بنفسه مع أصحابه ﷺ في حفر الخندق، فقد كان ينقل التراب معهم ﷺ، وبهذا فعلى الداعية إلى الله إذا أَمر بخير أن يكون أول المبادرين إليه وأول المساهمين فيه، فلا يكفي بل ولا يصح أن يكون الداعية إلى الله آمرًا بالمعروف دون أن يكون هو أول العاملين به، والله ﷻ يقول: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة].

ولا شك أن التطبيق على النفس والبداءة بها أمر شاق ولكنه أقوى الأساليب للتأثير وإيجاد القدوة الحسنة لمن حوله». [فقه السيرة للزيد ٤٩٩].

ويقول أ/ ياقوت: « وهذا درس لقادة الدعوات الذين أفلحوا في التنظير، ولم يفلحوا في كسب احترام جماهير المدعوين، ونجحوا كواجهة دعائية ولم ينجحوا كقدوة تربوية، وأجادوا وأبانوا العلم والفكر والدعوة، وفشلوا فشلًا ذريعًا في نصب راية الدعوة في ميدان الحياة، فضلًا عن مجتمع الدعاة الأقران.

وخليق بجميع الدعاة كبارًا وصغارًا أن ينزلوا إلى ساحة المدعوين وإلى ميدان العمل ومشاركة الناس همومهم وتحطيم صخور أحزانهم بمعاول الإيمان والقرآن، وليَقُلْ ذلك الداعي الساكن في البرج العاجي: (أنا نازل)، أي إلى الشارع والحي والمجتمع، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

إن الفطنة والألمعية والجهبذة لن تفلح ما دامت نائمة في رؤوس العلماء والدعاة ولم تخرج إلى واقع الحياة! كزير الماء الذي أُحكم غلقة ولم يشرب منه أحد». [السيرة النبوية لياقوت ٤٢٥-٤٢٦].

٤ـ أمير الجماعة يعفي من العمل مَنْ لا يستطيعه وإن رغب فيه:

يقول د/ زيدان: «فقد ذكرنا أن النبي ﷺ رد ابن عمر ﷺ ولم يقبله في معركة أُحُد، ولكنه قَبِلَه في معركة الخندق لبلوغه سن الخامسة عشر من عمره، وهكذا ينبغي للجماعة المسلمة أن تعفي من العمل من لا يطيقه، وتعهد إليه بما يقدر عليه؛ لأن أعمال الدعوة كثيرة جدًّا، وقد يستطيع من لم يبلغ الحلم بعدُ القيام ببعض الأفعال». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٥٩].

٥ـ على جماعة الدعاة أن تبشر أنصارها بالنصر:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا أن النبي ﷺ بشر أصحابه بالنصر وبفتح بلاد الشام وفارس وهم يحفرون الخندق استعدادًا للدفاع عن المدينة أمام زحف المشركين إليها، ولا شك أن من المندوب إليه أن يفعل قادة الجماعة المسلمة ذلك بأن تذكِّر أعضاءها من الدعاة والأنصار بوعد الله بنصر المؤمنين، وبأن العاقبة لهم وإن كانوا الآن في ضيق وحرج وعسرة؛ لأن المصاعب والشدائد قد تُنسي المسلم ما وعد الله به المؤمنين من نصر وعون ويسر بعد عسر فيحتاج المسلم إلى تذكره أو تذكيرٍ بذلك». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٥٩].

ويقول أ/ ياقوت: « إن من أخلاقيات القيادة الإسلامية في ميادين القتال، التبشير بالنصر والتفاؤل بالظفر، والعمل الإعلامي الجاد المتواصل في بث روح الثقة في نصر الله ومدده..

أرأيتَ هذا النبي العظيم ﷺ وهو في كُربة الحرب، وقد تكالب القاصي والداني عليه، وأوشكت المدينة أن تكون كَلأً مباحًا للأعراب واليهود، تراه كالطود الشامخ والعَلَم الراسخ يثبِّت الأرض من حوله، ويرسِّخ الإيمان في جنده، وينشر أحاديث البشائر، وأخبار الفتوحات، وأناجيل النصر، وفتح أوربا وأسيا وأفريقيا... فيثبِّتَ الجند، ويخفف عنهم.. وهو بهذه الأحاديث التي تُحيي النفوس يسلِّيهم، ويُخَفِّض عنهم، ويخفض جناحه لهم، ويَرأفُ بهم، ويرحمهم.

فما أحوجنا إلى الداعية المُبشر لا المنفر، المُيسِّر لا المُعسِّر، المعتدل لا المتنطع، المتوسط لا المتكلف.

الداعية الذي يغرس في نفوس الناس والنشء بذار الإيمان والثقة بنصر الله، والذي يؤكد للناس مرارًا أن الدائرة للإسلام وأن الله متم نوره وأن الغلبة لدينه والعاقبة لأوليائه والتمكين لجنوده والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون». [السيرة النبوية لياقوت ٤٢٦، ٤٢٧].

٦ ـ المعجزات حق:

يقول د/ زيدان: «ومعجزات رسولنا ﷺ المادية حق نؤمن بها سواء ما أشار إليه القرآن كحادثة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج إلى السموات العلى، أو ما ورد في السنة النبوية، ومن هذه المعجزات المادية مثل تكثير الطعام وكفاية القليل منه مئات الجياع كما في دعوة جابر رضي الله عنه للنبي ﷺ مع رجل أو رجلين معه، فدعا النبي ﷺ المهاجرين والأنصار، وكانوا يعدون بالمئات، فكفاهم ما كان جابر رضي الله عنه قد هيأه من لحم عَنَاق وصاع من شعير كما ذكرنا، فعلى الدعاة إذا جاء ذِكْر المعجزات المادية في القرآن أو في السنة أن يبينوا للناس ضرورة الإيمان بها وعدم تأويلها بما يجعلها حدثًا عاديًا مع أنها خارق ومن أدلة نبوة سيدنا محمد ﷺ، وإن كان أعظم معجزاته على الإطلاق القران الكريم، ولكن معجزة القران لا تنفي معجزاته الأخرى صلوات الله وسلامه عليه». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٥٩].

٧ ـ توزيع الأعمال على الدعاة:

يقول د/ زيدان: «ويستحسن للجماعة المسلمة أن توزع أعمال الدعوة على الدعاة، وتجعل لكل واحد منهم أو جماعة منهم عملًا معينًا يقوم به سواء كان تعيين العمل من حيث نوعيته أو مكانه أو زمانه، فقد قسَّم رسول الله ﷺ حفر الخندق بين أصحابه فأعطى حفر كل أربعين ذراعًا لعشرة من أصحابه، وكان من فرغ من المسلمين من حصته في الحفر عاون غيره في الحفر، فحَفْرُ الخندق كان مقسومًا على المسلمين

فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ منه، فعلى قادة الجماعة المسلمة ـ جماعة الدعاة ـ أن يوزعوا أعمال الدعوة على الدعاة بحيث يكون كل واحد مسؤولًا عما يُناط به من عمل، وأن يُعان عليه إذا قصَّر فيه.

وتوزيع الأعمال أسلوب جيد للوفاء بمتطلبات النجاح في هذه الأعمال وإيقاعها على الوجه المطلوب، ومعرفة المقصِّر فيها ووجه هذا التقصير، كما يُعين على سير الجماعة بصورة منتظمة بعيدًا عن الفوضى وانعدام المسؤولية أو ضياعها». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦٠-٢٦١].

٨ ـ الأخذ بالأسباب ولكن مع التوكل على الله:

يقول د/ زيدان: «وفي حفر الخندق دليل واضح على الأخذ بالأسباب الدافعة للشر والعدوان، ولكن الثقة تكون بالله والاعتماد يكون على الله لا على الأسباب التي يباشرها أهل الإيمان، فعلى الجماعة المسلمة أن تأخذ بكل وسيلة مشروعة من شأنها أو يظن أنها يمكن أن تكون سببًا في دفع الأذى عنها، وإفشال خطط أعدائها في سعيهم الخبيث لإيذاء الجماعة، ولكن اعتمادها على الله لا على ما تباشره من أسباب.

والأسباب كما تكون مادية يمكن أن تكون غير مادية، ونستدل على هذا بما فعله نعيم بن مسعود ﵁ في تخذيله للمشركين وما فعله للوقيعة بين بني قريظة وبين جيش قريش وحلفائها، والأسباب التي تأخذ بها الجماعة تتناسب وما تريد الوصول إليه أو ما تريد حماية الجماعة منه، وهذا يختلف باختلاف الظروف والأحوال، وليكن معلومًا لدى الدعاة أن ما يتعلق بالجماعة وحمايتها وما يقرِّبها من أهدافها وبالتالي تعيين الأسباب المؤدية إلى ذلك، كل هذا متروك تقديره إلى أمير الجماعة أو قيادتها، ولا يجوز لأفرادها أن ينصبوا أنفسهم أوصياء على الجماعة فيعقبون على ما يقرره أميرها من اتخاذ أسباب معينة لتحقيق أغراض معينة».
[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦٤].

٩ ـ حرب الحيل والإبداعات:

يقول أ/ ياقوت: « لقد ظهرت أهمية الحيل الحربية في هذه الغزوة، وتبيَّن رجحان فكرة سلمان ﵁، وظهر لنا كيف أن عقل رجل واحد قد يُنجِّي أُمة من الهلاك كما في مثال حيلة الخندق التي كانت ثمرة تفكير رجل من المسلمين.

فكم من عقل سعدت به البشرية دهورًا، وكم من عقل تعست به الأرض قرونًا!

ولقد ظهر للمتبصر كيف أن تعب ساعة قد يريحَ دهرًا، وكسل لحظة قد يُتعبَ زمنًا، فهؤلاء الصحاب تعبوا أشد التعب في حفر الخندق فكان في ذلك مفازتهم، ولو تأخروا عن هذا العمل الشاق الهام لكان في ذلك هلاكهم.

فلا تكسل أبدًا، وتحيل كل حيلة ـ شرعية ـ في نصرة الإسلام». [السيرة النبوية لياقوت ٤٢٩].

١٠ ـ طاعة الدعاة لأمير جماعتهم:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا فيما سبق أن المؤمنين في حفر الخندق ما كان أحدهم يخرج وينصرف لقضاء حاجته إلا بعد أن يستأذن الرسول ﷺ ويأذن له، فإن لم يأذن له بقي ولم ينصرف، فمدحهم الله على ذلك، وجعل استئذانهم من علامة صدقهم في إيمانهم بالله ورسوله، وأن المنافقين كانوا يخرجون متخفين من غير استئذان الرسول ﷺ فذمهم الله تعالى على صنيعهم هذا وتوعدهم عليه.

وعلى هذا فينبغي للدعاة أن يلتزموا بهذا الأدب الإسلامي الرفيع، فإذا دعاهم أمير جماعتهم لأمر مهم يقتضي اجتماعهم ويتعلق بالدعوة وأعمالها فعليهم أن يستجيبوا لهذه الدعوة، ويحضروا حالًا ولا يخرجوا من هذا الاجتماع إلا بعد انفضاضه، وإن طرأت لأحدهم حاجة تقتضي خروجه من الاجتماع فلا يخرج حتى يستأذن الأمير للخروج، فإن أذن خرج وقضى حاجته وعاد، وإن لم يأذن بقي ولم يخرج.

ونستأنس لقولنا هذا ما ذكره الزمخشري في تفسيره وهو يفسر آية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور].

فقد قال الزمخشري وهو يفسرها: «وقالوا ـ أي العلماء ـ كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم: يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ولا يتفرقوا عنهم، والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام، إن شاء أذن وإن شاء أبى على حسب ما اقتضاه رأيه».

وأمير جماعة الدعاة يعتبر من مقدميهم في الدين والعلم، فينبغي أن يكون له حق الطاعة على أتباعه الدعاة، وأن لا يخرجوا من الاجتماع الذي دعا إليه إلا بعد انفضاضه، أما في أثنائه فلابد من الاستئذان وحصول الإذن للخروج كما قلنا». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦٦].

ويقول أ/ ياقوت: « وفي هذا دلالة على أهمية الاستئذان إذا ما أراد الجندي الانصراف عن العمل الجماعي لضرورة أو لحاجة.. فلا يجوز له ـ شرعًا ولا خُلقًا ولا عُرفًا ـ أن يتحول عن العمل الجماعي إلى العمل الفردي ـ أي من المصلحة العامة إلى المصلحة الخاصة ـ إلا بموافقة صريحة من القائد.

وفي ذلك المشهد درسٌ لهؤلاء الهزليين والكُسالى الذين يتخلفون عن المصلحة العامة لحساب مصلحتهم الشخصية، ويقدمون مستحب الفرد على واجب الأُمة، ويُبطؤون عن إخوانهم بغير عذر ولا إذن، ويُوَرّون بالعمل المتصنع الضعيف الشكلي، ويتسللون إلى بيوتهم ومصالحهم الشخصية تسلل الثعالب، هربًا من الأعمال، وتهربًا من الأعباء، وفرارًا من المصلحة العامة ـ تالله إن هؤلاء متبرٌ ما هم فيه، وفاسدٌ ما هم عليه، وهم أحوج إلى التوبة والأوبة من العبد الآبق!

إن القائم على ثغر من ثغور الإسلام لا ينام عن إخوانه، ولا يتهرب من مهامه، ولا يَكتنُّ في كِسر بيته وإخوانه يكابدون قيظ الحَرِ، وما أقبح التخلف والإهمال في أبناء الصحوة الإسلامية! أحَسِبَ هؤلاء أنهم كعامة الناس؟ فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود! فعليك ـ أخي ـ بغرس قيمة المشاركة وقيمة الاستئذان.

ولهؤلاء نقول: إن الله تعالى لم يذرأكم في هذه الأرض عَبَثًا، ولم يترككم فيها سُدًى، ولا يريد منكم من رزق فتَقْسمون، ولا قصور فتفخرون، ولا مراكب فتمرحون، وما بَينْ أحدكم وبين الجَنة والنار إلا الموتُ يأتيه اللحظة، أو بعد لحظة، وإنَّ طموحاتٍ تَنْقُصها اللحظةُ، ومشاريعًا دنيوية تَهْدِمها اللحظة، لجديرة بقِصَر العمر، وهوان الدنيا... فيالها حَسْرَةً على كل ذي غَفلة!». [السيرة النبوية لياقوت ٤١٨، ٤٢٣].

١١ ـ تربية الأمة على الأدب الإسلامي الجهادي:

يقول أ/ ياقوت: « إذا أردتَ أن تهدم شَعبًا فسلط عليه الأدب الرقيع، والشعر الرخيص، وقصص الجنس، وروايات العهر، وقصائد الخمر، فالأدب الخليع لا يقل ضراوة في الهدم من الصواريخ!

وإذا أردنا أن نؤسس جيشًا، ونبني أُمةً ـ وقد قال الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ [الأنفال:٦٠]ــ فإن من تمام الإعدادِ تربيةَ الجنود على الأدب الإسلامي الجهادي، والشعر العربي الحماسي، وأناشيد الشجاعة، ومقالات الإباء، وقصص البطولة.. و﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النساء:٨٤]!.

وفي هذه الغزوة، وقد بدأ الحصار، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتطايرت الظنون والشكوك، وساحت الأضاليل والأباطيل، نرى القائد العظيم والرئيس الحكيم يثبِّت جنده، ويربط على قلوبهم، ويشد على أيديهم، مستخدمًا في ذلك القصيدة الحماسية والطرفة الظريفة، والترنيمة اللطيفة.

ومثل هذا أيضًا، يدلل على قدرة القائد في الجمع بين الجد والترويح عن النفس، لاسيما في كربة الحرب وشدة الضنك..

وإنشاد الأناشيد والأشعار الجهادية في ثنايا المحن دائمًا تحقق عدة فوائد، أهمها :

(١) الترويح عن الجنود.

(٢) إلهاب مشاعر المسلمين بشكل إيجابي نحو العقيدة والوطن .

(٣) تقوية الصلة بين الجنود وقاداتهم، فضلًا عن الجنود وبعضهم.

فلفنون الأدب أهمية في معركتنا مع العدو، فكم من قصيدة أحيت الجهاد في قلوب موات، وكم من أنشودة شدا بها المجاهدون حتى بلغوا بها المعالي، فعليك بأشعار الشجاعة عند المتنبي، وديوان الحماسة لأبي تمام، وقصائد الزهد لأبي العتاهية وغيرها من الأدب القديم، إضافة إلى الكتابات الأدبية الجهادية ما مضى منها وما استجد». [السيرة النبوية لياقوت ٤٢١، ٤٢٣].

الباب الثاني

المرحلة الثانية من غزوة الأحزاب

(المعركة)

الفصل الأول: عرض المرحلة الثانية من غزوة الأحزاب (المعركة)

الفصل الثاني: الدروس والعبر المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة الأحزاب (المعركة)

الفصل الأول

عرض المرحلة الثانية من غزوة الأحزاب

«المعركة»

المبحث الأول

المسلمون والمشركون حول الخندق

مرابطة المسلمين خلف الخندق:

يقول أ/ باشميل: «بعد أن أتم المسلمون حفر خندقهم حول المدينة بقيت قواتهم خلفه مرابطة متيقظة في انتظار جيوش الأحزاب، بينما انتشرت دورياتهم المسلحة تطوف بمشارف المدينة مظهرة التهليل والتكبير لحراسة المدينة من أية مباغتة، وخاصة من ناحية يهود بني قريظة الذين (بالرغم من الحلف المعقود بينهم وبين المسلمين) كان المسلمون يتوقعون منهم الشر».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَالـمُسْلِمُونَ حَتَّى جَعَلُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلْعٍ، فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَضَرَبَ هُنَالِكَ عَسْكَرَهُ، وَالْخَنْدَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْمِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٠].

وروى البيهقي بسنده عن ابن إسحاق قَالَ: فَلَـمَّا نَزَلَ الـمُشْرِكُونَ خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى ضَرَبَ عَسْكَرَهُ بَيْنَ الخَنْدَقِ وَسَلعٍ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَالْمُشْرِكُونَ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ مِنْ أَحَابِيشِهَا، وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، وَأَهْلِ تِهَامَةَ، وَغَطَفَانَ، وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، حَتَّى نَزَلُوا بَابَ نُعْمَانَ إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ، فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ ظَهْرَهُ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى سَلْعٍ، وَالخَنْدَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القَوْمِ، وَأَمَرَ بِالذَّرَارِيِّ وَالنِّسَاءِ فَجُعِلُوا فِي الآطَامِ. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٢٨].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: وَكَانَ الخَنْدَقُ مَا بَيْنَ جَبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ بِخُرْبَى إِلَى رَاتِجٍ، فَكَانَ لِلمُهَاجِرِينَ مِنْ ذُبَابٍ إِلَى رَاتِجٍ، وَكَانَ لِلأَنْصَارِ مَا بَيْنَ ذُبَابٍ إِلَى خُرْبَى، فَهَذَا الَّذِي حَفَرَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ، وَشَبَّكُوا المَدِينَةَ بِالبُنْيَانِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَهِيَ كَالحِصْنِ.

وَخَنْدَقَتْ بَنُو عَبْدِ الأَشْهَلِ عَلَيْهَا فِيمَا يَلِي رَاتِجٍ إِلَى خَلفِهَا، حَتَّى جَاءَ الخَنْدَقُ مِنْ وَرَاءِ المَسْجِدِ، وَخَنْدَقَتْ بَنُو دِينَارٍ مِنْ عِنْدِ خُرْبَى إِلَى مَوْضِعِ دَارِ ابْنِ أَبِي الجُنُوبِ اليَوْمَ.

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَـمَّا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الخَنْدَقِ، وَكَانَ حَفَرَهُ سِتَّةَ أَيَّامٍ وَحَصَّنَهُ وَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ دُبُرَ سَلْعٍ، فَجَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ وَالخَنْدَقَ أَمَامَهُ وَكَانَ عَسْكَرُهُ هُنَالِكَ.

وَضَرَبَ قُبَّةً مِنْ أَدَمٍ وَكَانَتْ القُبَّةُ عِنْدَ الـمَسْجِدِ الأَعْلَى الَّذِي بِأَصْلِ الجَبَلِ ـ جَبَلُ الأَحْزَابِ ـ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْقِبُ بَيْنَ نِسَائِهِ فتَكُونُ عَائِشَةُ أَيَّامًا، ثُمَّ تَكُونُ أُمُّ سَلَمَةَ، ثُمَّ تَكُونُ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ، فَكَانَ

هَؤُلاءِ الثَّلاثُ اللَّاتِي يُعْقِبُ بَيْنَهُنَّ فِي الخَنْدَقِ وَسَائِرُ نِسَائِهِ فِي أُطُمِ بَنِي حَارِثَةَ، وَيُقَالُ: كُنَّ فِي المَسِيرِ (أطم بني عبد الأشهل، كان لبني حارثة) أُطُمٌ فِي بَنِي زُرَيْقٍ وَكَانَ حَصِينًا. وَيُقَالُ: كَانَ بَعْضُهُنَّ فِي فَارِعٍ (أطم كان في دار جعفر بن يحيى بباب الرحمة)، وَكُلُّ هَذَا قَدْ سَمِعْنَاهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٠-٤٥١، ٤٥٤].

النبي ﷺ يستعرض جيشه ويوزع الألوية:

وكان النبي ﷺ بعد حفر الخندق قد استعرض جيشه وقام بتنظيمه (كما هي عادته) فقسَّم الجيش إلى فرقتين:

١ ـ المهاجرين، وأعطى لواءهم لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه.

٢ ـ الأنصار، وأعطى لواءهم لسعد بن عبادة رضي الله عنه.

وكانت أغلبية الجيش تتألف (كما هي العادة) من الأنصار.

وعند استعراض الجيش، عُرِض عليه فتيان المسلمين الذين حاولوا الاشتراك في معركة الدفاع عن المدينة، وبعد استعراضهم أَمَرَ من لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره بأن يرجع إلى أهله ولم يسمح له بالانخراط في سلك الجيش، وأجاز من الفتيان من بلغ الخامسة عشرة، ومن هؤلاء الذين سمح لهم بالاشتراك في المعركة: عبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، والبراء بن عازب رضي الله عنهم.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ زَائِدَةَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَعْرِضُ الغِلْمَانَ وَهُوَ يَحْفِرُ الخَنْدَقَ، فَأَجَازَ مَنْ أَجَازَ وَرَدَّ مَنْ رَدَّ، وَكَانَ الغِلْمَانُ يَعْمَلُونَ مَعَهُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا وَلَمْ يُجِزْهُمْ، وَلَكِنَّهُ لَـمَّا لَحِمَ الأَمْرُ أَمَرَ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ إِلَى الآطَامِ مَعَ الذَّرَارِيِّ...

فَكَانَ مِمَّنْ أَجَازَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ: ابْنُ عُمَرَ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ، وَالبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٣].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ عَرَضَهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَمْ يُجِزْهُ، وَعَرَضَهُ يَوْمَ الخَنْدَقِ وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَهُ. [البخاري في الشهادات (٢٦٦٤)، وفي المغازي (٤٠٩٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٦٨)، وأبو داود في الخراج والفيء (٢٩٥٧)، وفي الحدود (٤٤٠٦)، والترمذي في الأحكام (١٣٦١)، وفي الجهاد (١٧١٢)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣١)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤٣)، ومسند أحمد ٨/ ٢٨٧، ومسند أبي عوانه ٤/ ٥٣-٥٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٩٥].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَوَّلُ يَوْمٍ شَهِدْتُهُ يَوْمُ الخَنْدَقِ. [البخاري في المغازي (٤١٠٧)].

أمير المدينة بالنيابة:

وكما هي عادته ﷺ عند العزم على خوض المعارك أصدر مرسومًا عين بموجبة ابن أم مكتوم رضي الله عنه ليكون أميرًا على المدينة حتى تنتهي معركة الأحزاب.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَاسْتَعْمَلَ عَلَى المَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ رضي الله عنه. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٠].

كما انتخبت لحراسة المدينة قوة خاصة، قسمها إلى فصيلتين، فصيلة أعطى قيادتها لزيد بن حارثة رضي الله عنه، والأخرى أعطى قيادتها لمسلمة بن أسلم رضي الله عنه [(١)]، وأمر هاتين الفصيلتين بأن تقوما بأعمال الدورية داخل المدينة وعلى مشارفها وخاصة ناحية الجنوب حيث تقع منازل بني قريظة الذين لم يكن المسلمون على ثقة منهم بالرغم من الحلف العسكري المعقود بين الفريقين.

وكان أخشى ما يخشاه المسلمون من ناحية يهود بني قريظة هو تعرضهم للنساء والذراري؛ ولذلك فإن الرسول ﷺ أمر بأن تُرفع النساء والصبيان في الحصون والآطام ليمتنعوا فيها.

شعار المسلمين في المعركة:

عَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّكُمْ تَلْقَوْنَ عَدُوَّكُمْ غَدًا، فَلْيَكُنْ شِعَارُكُمْ: حم لَا يُنْصَرُونَ [دَعْوَةُ نَبِيِّكُمْ]**». [المستدرك ٢/ ١١٧ في الجهاد رقم ٢٥١٤، ٢٥١٥، والسنن الكبرى للنسائي في عمل اليوم والليلة ٩/ ٢٢٨ رقم ١٠٣٧٦، ١٠٣٧٧].

وعَنِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنْ بُيِّتُّمْ فَلْيَكُنْ شِعَارُكُمْ: حم لاَ يُنْصَرُونَ**». [أبو داود في الجهاد (٢٥٩٧)، والترمذي في الجهاد (١٦٨٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا أُرَاهُمُ اللَّيْلَةَ إِلَّا سَيُبَيِّتُونَكُمْ، فَإِنْ فَعَلُوا فَشِعَارُكُمْ: حم لَا يُنْصَرُونَ**».

[مسند أحمد ٢٧/ ١٦٢ رقم ١٦٦١٥، ٣٨/ ٢٥٣ رقم ٢٣٢٠٤، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف. وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٢٧].

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ الْمُهَلَّبَ بْنَ أَبِي صُفْرَةَ يَقُولُ وَذَكَرَ الحَرُورِيَّةَ تَبْيِيتَهُمْ، فَقَالَ: قَالَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ حُفِرَ الخَنْدَقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ يُبَيِّتَهُمْ أَبُو سُفْيَانَ: «**إِنْ بُيِّتُّمْ فَإِنَّ دَعْوَاكُمْ: حم لَا يُنْصَرُونَ**». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٦ في المغازي (٣٧٩٥٤)، والسنن الكبرى للنسائي في عمل اليوم والليلة ٩/ ٢٢٩ رقم ١٠٣٧٩، والمستدرك ٢/ ١١٧ في الجهاد رقم ٢٥١٣، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين إلا أن فيه إرسالًا، فإذا الرجل الذي لم يسمه المهلب بن أبي صفرة البراء بن عازب رضي الله عنه].

---

(١) مسلمة بن أسلم بن حريش بمهملة بوزن (عظيم) الأنصاري، قال في الإصابة ذكره ابن عبد البر، وقال قتل شهيدًا يوم الجسر في فارس.

وعَنِ المُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ الْخَنْدَقِ: «**إِنِّي لَا أَرَى الْقَوْمَ إِلَّا مُبَيِّتِيكُمْ، فَإِنَّ شِعَارَكُمْ حم لَا يُنْصَرُونَ**».

[السنن الكبرى للنسائي في عمل اليوم والليلة ٩/ ٢٢٩ رقم ١٠٣٧٨].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ شِعَارُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ: **حم، لَا يُنْصَرُونَ**.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٦].

أمٌّ تحرض ابنها على القتال والشهادة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي أَبُو لَيْلَى عَبْدُ اللهِ بْنُ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلٍ الأَنْصَارِيُّ، أَخُو بَنِي حَارِثَةَ: أَنَّ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ؓ كَانَتْ فِي حِصْنِ بَنِي حَارِثَةَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، وَكَانَ مِنْ أَحْرَزِ حُصُونِ الْمَدِينَةِ، قَالَ: وَكَانَتْ أُمُّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ؓ مَعَهَا فِي الحِصْنِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ ؓ: وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْنَا الحِجَابُ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ مُقَلَّصَةٌ (قصيرة)، قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا ذِرَاعُهُ كُلُّهَا، وَفِي يَدِهِ حَرْبَتُهُ يَرْقُدُ (يسرع) بِهَا وَيَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلًا يَشْهَدْ الهَيْجَا حَمَلْ[1] ... **لَا بَأْسَ بِالمَوْتِ إِذَا حَانَ الأَجَلْ**

قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ[2]: **الحَقْ [بِرَسُولِ اللهِ] أَيْ بُنَيَّ، فَقَدْ وَاللهِ أَخَّرْتَ [تَأَخَّرْتَ]**.

فَقُلْتُ: **وَاللهِ يَا أُمَّ سَعْدٍ، لَوَدِدْتُ أَنَّ دِرْعَ سَعْدٍ كَانَتْ أَسْبَغَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ [عَلَى بَنَانِهِ]**.

قَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ: **يَقْضِي اللهُ مَا هُوَ قَاضٍ**، فَرُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ بِسَهْمٍ، فَقَطَعَ مِنْهُ الأَكْحَلَ [فَقَضَى لَهُ أَنْ أُصِيبَ يَوْمَئِذٍ، وَلَقَدْ جَاءَ الخَبَرُ بِأَنَّهُ قَدْ رُمِيَ، تَقُولُ أُمُّهُ: **وَا جَبَلَاهُ!**].

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٦ -٢٢٧، والمغازي للواقدي ٢/ ٤٦٩، وقال الشيخ الصوياني عن إسناد ابن إسحاق: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٢٨].

تحركات الأحزاب نحو المدينة وعدد قواتهم:

أما جيوش الأحزاب فبعد أن تكامل حشدها وتم تجهيزها تحرك بها قادتها نحو المدينة.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ تَبِعَهَا مِنْ أَحَابِيشِهَا أَرْبَعَةُ آلَافٍ، وَعَقَدُوا اللِّوَاءَ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، وَقَادُوا مَعَهُمْ ثَلَاثَمِائَةِ فَرَسٍ، وَكَانَ مَعَهُمْ مِنَ الظَّهْرِ أَلْفُ بَعِيرٍ وَخَمْسُمِائَةِ بَعِيرٍ.

---

(١) يقول د/ المدخلي: «ورد في بعض الأصول (جمل) بالجيم المعجمة ويبدو أنه تصحيف، والحق أنه حمل بن سعد بن حارثة بن معقل بن عليم بن جناب الكلبي. ينظر: الروض الأنف للسهيلي ٣/ ٢٨٠، فقه السيرة للغزالي هامش صفحة ٣٢٧. مرويات غزوة الخندق ٣٥١.

(٢) اسمها كبشة بنت رافع، وهذا يدل على تضحيتها وفدائها حيث تحث ابنها على الإسراع إلى الجهاد في سبيل الله. وينظر ترجمتها في: الاستيعاب ٤/ ٤٦٠. مرويات غزوة الخندق ٣٥١.

وَأَقْبَلَتْ سُلَيْمٌ فَلاقَوْهُمْ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ (مكان على مرحلة من مكان)، وَبَنُو سُلَيْمٍ يَوْمَئِذٍ سَبْعُمِائَةٍ يَقُودُهُمْ سُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ حَلِيفُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَهُوَ أَبُو أَبِي الأَعْوَرِ الَّذِي كَانَ مَعَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ بِصِفِّينَ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ يَقُودُهَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَخَرَجَتْ بَنُو أَسَدٍ وَقَائِدُهَا طَلحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيُّ، وَخَرَجَتْ بَنُو فَزَارَةَ وَأَوْعَبَتْ (أي خرجوا بأجمعهم في الغزو)، وَهُمْ أَلفٌ يَقُودُهُمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، وَخَرَجَتْ أَشْجَعُ وَقَائِدُهَا مَسْعُودُ بْنُ رُخَيْلَةَ وَهُمْ أَرْبَعُمِائَةٍ ـ لَمْ تُوعِبْ أَشْجَعَ، وَخَرَجَ الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ يَقُودُ قَوْمَهُ بَنِي مُرَّةَ وَهُمْ أَرْبَعُمِائَةٍ.

لَـمَّا أَجْمَعَتْ غَطَفَانُ السَّيْرَ أَبَى الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ المَسِيرَ وَقَالَ لِقَوْمِهِ: **تَفَرَّقُوا فِي بِلادِكُمْ، وَلا تَسِيرُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَإِنِّي أَرَى أَنَّ مُحَمَّدًا أَمْرُهُ ظَاهِرٌ، لَوْ نَاوَأَهُ مَنْ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ لَكَانَتْ لَهُ العَاقِبَةُ.**

فَتَفَرَّقُوا فِي بِلادِهِمْ وَلَمْ يَحْضُرْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ. وَهَكَذَا رَوَى الزُّهْرِيُّ وَرَوَتْ بَنُو مُرَّةَ.

حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، قَالا: شَهِدَتْ بَنُو مُرَّةَ الخَنْدَقَ، وَهُمْ أَرْبَعُمِائَةٍ وَقَائِدُهُمْ الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ المُرِّيُّ، وَهَجَاهُ حَسَّانُ وَأَنْشَدَ شِعْرًا، وَذَكَرُوا مُجَاوَرَةَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَئِذٍ، فَكَانَ هَذَا أَثْبَتَ عِنْدَنَا أَنَّهُ شَهِدَ الخَنْدَقَ فِي قَوْمِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ أَمْثَلَ تُقْيَةً مِنْ عُيَيْنَةَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٣-٤٤٤].

أما اليهود فقد كان جيشهم الذي كان من المتفق بين الوفد اليهودي وقريش أن يشترك مع جيوش الأحزاب هو جيش بني قريظة الواقع في الطرف الجنوبي للمدينة، والذي تعاهد حيي بن أخطب لقادة الأحزاب أن يوجه ضربته المميتة من الخلف للمسلمين ساعة الصفر.

القائد العام لجيوش الأحزاب:

وقد اتفق قادة جيوش الأحزاب على إسناد القيادة العامة لكل هذه الجيوش إلى أبي سفيان (صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف).

وقد كان الميعاد المتفق عليه بين قادة الأحزاب للتجمع حول المدينة هو شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة.

ففي أول هذا الشهر تكامل حشد جيوش الأحزاب حول المدينة، فرابطت هناك عشرة آلاف مقاتل من قريش وأحلافها وغطفان وأحلافها يساندهم حوالي ألفين من اليهود داخل المدينة وخارجها، ظلوا لهم كالاحتياطي، بينما لا يزيد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل على أكثر تقدير».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٤٧-١٤٨].

خطة الأحزاب لاحتلال المدينة:

يقول أ/ باشميل: «كانت الخطة التي وضعها قادة الأحزاب لاحتلال المدينة (باستشارة قادة اليهود) تقضي بأن يكون زحف جيوش الأحزاب على المدينة من الناحية الشمالية على هيئة قوس يمتد من الشمال الغربي حتى الشمال الشرقي، فيطبق هذا القوس ـ زحف سريع ساحق عارم ـ على عسكر الإسلام المرابط عند مداخل المدينة الشمالية.

على أن يتحرك ـ ساعة الصفر (كما هو المتفق عليه بين زعماء اليهود وقادة الأحزاب) تسعمائة مقاتل من يهود بني قريظة (حلفاء المسلمين) والواقعين في الطرف الجنوبي من المدينة وخلف ظهر الجيش الإسلامي، فيسددوا إلى الجيش الإسلامي الصغير ـ ساعة الالتحام، من الخلف ضربة قاتلة، وبهذا (وكما تتصور قيادة الأحزاب) يتم استئصال شأفة المسلمين بسهولة.

الخندق يحبط خطة الأحزاب:

وكانت خطة الأحزاب خطة دقيقة رهيبة محكمة كان من الممكن (لو نجحت) أن يحقق الغزو أهدافه فتجني قيادة الأحزاب ثمار هذه الخطة بسهولة بسحق المسلمين واستئصال شأفتهم لو لم يهد الله المسلمين إلى حفر الخندق.

إذ لولا هذا الخندق لكان من السهل على أحد عشر ألف مقاتل تحيط بتسعمائة مقاتل من كل مكان أن تقضي على هذا التسعمائة إذا ما اشتبكت معها في معركة فاصلة، وخاصة إذا كانت هذه التسعمائة بينها من يتربص بها الدوائر ويشيع روح الهزيمة بين صفوفها من المنافقين كما هو واقع المسلمين في المدينة.

ولكن المسلمين بحفر الخندق نسفوا خطة الأحزاب المرسومة للمعركة من الأساس وأبطلوا مفعولها، إذ حال هذا الخندق بين جيوش الأحزاب وبين الالتحام مع عسكر الإسلام في معركة فاصلة كما تريد، وكما هي الخطة المرسومة سلفًا للمعركة.

فقد وقف قادة الأحزاب حائرين أمام هذه المكيدة الكبيرة (الخندق) هذه المكيدة التي ما كان العرب يكيدونها ولا يعرفون عنها شيئًا في تاريخهم الطويل.

تجميد نشاط جيوش الأحزاب:

فقد جمد وجود هذا الخندق نشاط تلك الآلاف المؤلفة من جيوش الأحزاب، التي كما سنفصله لم تستطع مقاتلة المسلمين إلا عن طريق حركات تسلل انتحارية عبر (الخندق) كانت نتيجة الإقدام عليها إما القتل وإما الفرار كما حدث لفرسان عمرو بن ود الذين اقتحموا الخندق بأفراسهم كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

لقد ذهب قادة الأحزاب ومعهم رأس الفتنة ومثير عواصف هذا الغزو (حيي بن أخطب) ذهبوا بأنفسهم لارتياد واختيار موقع الهجوم العام على المدينة ليوزعوا الكتائب ساعة الزحف على أساس هذا الاختيار.

مكيدة ما كانت العرب تكيدها:

ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام مفاجأة عسكرية وبدعة حربية ذهلوا لها وصعقوا.. وجدوا أنفسهم أمام خندق وكأنه أفعى تكاد تلف المدينة من جميع نواحيها، خندق يبلغ طوله حوالي ألفي متر في سعة أربعة أمتار وعمق ثلاثة، ترابط على مشارفه وتطوف بنواحيه ليل نهار كتائب من جند الله كأنها الأُسْد الضواري في انتظار الفرائس. [ينظر: موضع الخندق من الخرائط العامة للمعركة في هذا الكتاب].

فأُسقط في يدي أولئك القادة، وأخذوا يطوفون بخيلهم (في ذهول وغيظ) حول الخندق لتفقده والكشف عليه فوجدوه أمنع خط دفاع أقامه المسلمون في وجههم.

فحاروا في هذه المكيدة الحربية العظيمة التي كانت سببًا في قلب خططهم رأسًا على عقب، وشل حركاتهم الواسعة التي كانوا ينوون القيام بها، والتي كانت مناط أملهم للإطباق على المدينة وسحق المسلمين فيها.

وبعد أن طاف قادة الأحزاب بجميع نواحي الخندق وتأكدوا من صعوبة اقتحامه، وقفوا على مشارفه فقالوا (وقد أخذ الغيظ منهم كل مأخذ): **وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ العَرَبُ تَكِيدُهَا**..

وفعلًا فقد كانت عملية الخندق بدعة حربية ما كان العرب يعرفونها في تاريخهم الطويل بالرغم من أنهم شعب محارب منذ عُرف.

ولكنَّ المشركين بالرغم من أن الخندق قد شل حركة جيوشهم وجعلهم يقفون أمامه مكتوفي الأيدي حائرين، فإنهم قد صمموا على البقاء وفرض الحصار الخانق على المدينة، والقيام بمناوشة المسلمين على الدوام بالتناوب ليلًا ونهارًا لإرهاقهم، وفي انتظار الفرص المواتية لاقتحام المدينة لا سيما وأنهم كانوا يتوقعون من اليهود ضرب المسلمين من الخلف.

أما المسلمون، فبالرغم من تحصنهم وراء الخندق التي كان أحسن وآمن دفاع أقاموه في وجه جيوش الأحزاب الجرارة الغامرة، فإنهم ظلوا على حذر وخوف؛ لأنهم كانوا يخشون غدر يهود بني قريظة الواقعة حصونهم خلف خطوطهم، كما يخشون قيام المنافقين الموجودين بينهم بحملات تثبيط وإرجاف يشيعون بها روح الهزيمة بين ضعاف الإيمان داخل الجيش». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٥٣-١٥٦].

منزل المشركين في الخندق:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَـمَّا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الخَنْدَقِ، أَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ حَتَّى نَزَلَتْ بِمُجْتَمَعِ الأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ (أرض بالمدينة بين الجرف وزغابة نزلها المشركون عام الخندق)، بَيْنَ الجُرُفِ [(١)] وَزَغَابَةَ [(٢)] فِي عَشَرَةِ آلَافٍ مِنْ أَحَابِيشِهِمْ وَمَنْ بَنِي كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ، وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، حَتَّى نَزَلُوا بِذَنَبِ نَقْمَى (موضع من أعراض المدينة كان لآل أبي طالب)، إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ. [السيرة لابن هشام ٢/ ٢١٩-٢٢٠].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: وَكَانَ القَوْمُ جَمِيعًا الَّذِينَ وَافَوْا الخَنْدَقَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَسُلَيْمٍ وَغَطَفَانَ، وَأَسَدٍ، عَشَرَةَ آلافٍ فَهِيَ عَسَاكِرُ ثَلاثَةٍ، وَعِنَاجُ [(٣)] الأَمْرِ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ، فَأَقْبَلُوا فَنَزَلَتْ قُرَيْشٌ بِرُومَةَ وَوَادِي العَقِيقِ فِي أَحَابِيشِهَا وَمَنْ ضَوَى إِلَيْهَا مِنْ العَرَبِ، وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانُ فِي قَادَتِهَا حَتَّى نَزَلُوا بِالزَّغَابَةِ إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ.

وَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تُسَرِّحُ رِكَابَهَا فِي وَادِي العَقِيقِ فِي عِضَاهِهِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ لِلخَيْلِ إِلَّا مَا حَمَلُوهُ مَعَهُمْ مِنْ عَلَفٍ ـ وَكَانَ عَلَفُهُمْ الذُّرَةَ ـ وَسَرَّحَتْ غَطَفَانُ إِبِلَهَا إِلَى الغَابَةِ فِي أَثْلِهَا وَطَرْفَائِهَا فِي عِضَاهِ الجُرُفِ، وَقَدِمُوا فِي زَمَانٍ لَيْسَ فِي العِرْضِ [(٤)] زَرْعٌ، فَقَدْ حَصَدَ النَّاسُ قَبْلَ ذَلِكَ بِشَهْرٍ، فَأَدْخَلُوا حَصَادَهُمْ وَأَتْبَانَهُمْ، وَكَانَتْ غَطَفَانُ تُرْسِلُ خَيْلَهَا فِي أَثَرِ الحَصَادِ ـ وَكَانَ خَيْلُ غَطَفَانَ ثَلاثَمِائَةٍ ـ بِالعِرْضِ، فَيُمْسِكُ ذَلِكَ مِنْ خَيْلِهِمْ، وَكَادَتْ إِبِلُهُمْ تَهْلِكُ مِنَ الهُزَالِ، وَكَانَتْ الـمَدِينَةُ لَيَالِيَ قَدِمُوا جَدِيبَةً.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٤].

---

(١) **الجرف**: بالضم ثم السكون موضع على ثلاثة أميال من المدينة من جهة الشام كانت به أموال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، قالوا: والذي سماه بهذا الاسم هو تُبَّع، مر به فقال: هذا جرف الأرض، وكان يسمى قبل ذلك: العرض بكسر العين. ينظر: معجم البلدان ٢/ ١٢٨، والمغانم المطابة ٨٨/ ٨٩. مرويات غزوة الخندق ٢١٥.

(٢) **زغابة**: قال ياقوت: بالفتح في الأول وبعد الألف باء موحدة، قال ابن إسحاق: «ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف» إلخ.

قال: ورواه أبو عبد البكري الأندلسي زعابة بضم الزاي وعين مهملة، وذكره الطبري فقال: بين الجرف والغابة، واختار هذه الرواية، وقال: لأن زغابة لا تعرف. وليس الأمر كذلك فإنه قد روي في الحديث المسند أنه ﷺ قال في ناقة أهداها إليه أعرابي فكافأه بست بكرات فلم يرض فقال ﷺ: «**ألا تعجبون لهذا الأعرابي أهدي إلي ناقتي أعرفها بعينها ذهبت مني يوم زغابة، وقد كافأته بست فسخط**» الحديث، وقد جاء ذكر زغابة في حديث آخر فكيف لا يكون معروفًا؟ فالأعرف إذًا عندنا زغابة بالغين المعجمة. ا.هـ. كلام ياقوت في معجم البلدان ٣/ ١٤١-١٤٢. وقد وافقه الفيروزآبادي في القاموس ١/ ٧٩. مرويات غزوة الخندق ٢١١.

(٣) **عِناج الأمر**: أي ملاكه ـ بكسر الميم وفتحها ـ هو ما يقوم به، ومعناه أنه كان صاحبهم ومدبر أمرهم والقائم بشأنهم، كما يحمل ثقل الدلو عناجها، وهو الحبل الذي يشد تحت الدلو، ثم يشد في العروة، ليكون عونًا لعراها فلا ينقطع. سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥٦٦.

(٤) يقال لكل واد فيه قرى ومياه: عرض، وقال الأصمعي: أخصب ذلك العرض وأخصبت أعراض المدينة وهي قراها التي في أوديتها، وقال شمر: أعراض المدينة بطون سوادها حيث الزروع والنخل. معجم البلدان ٦/ ١٤٦.

وكان الزعيم اليهودي الكبير محزِّب الأحزاب، حيي بن أخطب موجودًا مع الأحزاب يتنقل بين المعسكرين وعلى اتصال دائم بقادة الفريقين (غطفان وقريش) يرسم الخطط ويقدم المشورة.

أول شهيدين من المسلمين:

وكان النبي ﷺ قبل وصول جيش الأحزاب قد بعث رجلين من رجال استخبارات الجيش الإسلامي للاستطلاع ومعرفة تحركات العدو والحصول على المعلومات الكافية عنه.

والرجلان هما (سليط) و(سفيان بن عوف)، وقد وقع هذان الرجلان في قبضة العدو، حيث التقيا وهما يقومان بعملية الاستكشاف التقيا بدورية كبيرة مسلحة من دوريات جيوش الأحزاب الاستطلاعية فطوقهما رجال الدورية ثم قبضوا عليهما، ثم سلموهما لقيادة الأحزاب، وبمجرد علم هذه القيادة أن الرجلين عينٌ لمعسكر المدينة أمرت بإعدامهما فأعدما فورًا، وقد تمكن المسلمون من نقل جثتي هذين الشهيدين إلى المدينة فدفنهما النبي ﷺ في قبر واحد، فكانا أول شهيدين قتلا في معركة الأحزاب.

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٥٢].

عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ وَهْبٍ الْخُزَاعِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ سَلِيطًا، وَسُفْيَانَ بْنَ عَوْفٍ الْأَسْلَمِيَّ رضي الله عنهما طَلِيعَةَ (الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو أو مقدمة الجيش) يَوْمَ الْأَحْزَابِ، فَخَرَجَا حَتَّى إِذَا كَانَا بِالْبَيْدَاءِ (الصحراء) الْتَفَّتْ عَلَيْهِمْ خَيْلٌ لِأَبِي سُفْيَانَ، فَقَاتَلَا حَتَّى قُتِلَا، فَأُتِيَ بِهِمَا رَسُولَ الله ﷺ، فَدُفِنَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ، فَهُمَا الشَّهِيدَانِ الْقَرِيبَانِ [القَرِينَانِ].

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٥ في المغازي والسير (١٠١٤٨)، وقال الهيثمي: رواه البزار [كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/ ٣٣٢ رقم ١٨٠٥]، وفيه جماعة لم أعرفهم].

المبحث الثاني
نقض بني قريظة العهد

الحلف بين المسلمين واليهود:

يقول د/ حبيشي: «لم يبق مع النبي ﷺ في المدينة من اليهود سوى بني قريظة وزعيمهم كعب بن أسد.

والنبي ﷺ كان قد عاهدهم ـ كما علمت ـ والتزم الفريقان بعهدهم، لم يخرج واحد منهم على العهد.

وكان بنو قريظة قومًا يعملون بالزراعة وينشغلون بها، وبينهم وبين المسلمين من أنصار ومهاجرين نوع من المودة، وتبادل المنافع على نحو ما يكون بين الجار وجاره.

وقد علمت فيما سبق أن حيي بن أخطب، وعبد الله بن أبي بن سلول قد حاولا قبيل إجلاء بني النضير أن يحملا القرظيين على أن يدخلوا مع إخوانهم اليهود في نقض العهد مع النبي ﷺ، وإبطال معاهدة السلام المبرمة بينهم وبين المسلمين، وأن بني قريظة لم يستجيبوا لهذه المحاولة، وقالوا لعبد الله بن أبي: إنا مع النبي في معاهدة سلام، وإنا لم نر من الرجل إلا خيرًا.

واستمر يهود بني قريظة على مبدئهم هذا لا ينبذون إلى النبي ﷺ عهده، ولم يرهقهم النبي ﷺ في شيء». [**رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١١٥**].

ومن الجدير بالذكر أن حلفًا عسكريًّا ومعاهدة دفاع مشترك كانت ـ حتى وصول جيوش الأحزاب ـ معقودة بين المسلمين وبين يهود بني قريظة.

إلا أن زعيم بني النضير وسيدها حيي بن أخطب النضري قد أقنع يهود بني قريظة بنقض هذا العهد والانقضاض على المسلمين من الخلف ساعة الصفر كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

تردد العرب في البقاء والشتاء قارس:

يقول د/ هيكل: «أيقن أبو سفيان والذين معه أنهم مقيمون أمام يثرب وخندقها طويلًا دون أن يستطيعوا اقتحامها، وكان الوقت آنئذ شتاءً قارسًا برده، عاصفة رياحه، يخشى في كل وقت مطره، وإذا كان من اليسير أن يحتمي أهل مكة وأهل غطفان من ذلك كله بمنازلهم في مكة وفي غطفان، فالخيام التي ضربوا أمام يثرب لا تحميهم منه فتيلًا، وهم بعدُ قد جاؤوا يرتجون نصرًا ميسورًا لا يكلفهم غير يوم كيوم أُحُد، ثم يعودون أدراجهم يتغنون بأناشيد الفوز ويستمتعون باقتسام الغنائم والأسلاب.

وماذا عسى أن يُمسك غطفان عن أن تعود أدراجها وهي إنما اشتركت في الحرب لأن اليهود وعدتها ـ متى تم النصر ـ ثمارَ سنة كاملة من ثمار مزارع خيبر وحدائقها، وها هي ذي ترى النصر غير ميسور، أو هو على الأقل غير محقق، وهو يحتاج من المشقة في هذا الفصل القارس إلى ما ينسيها الثمار والحدائق!

فأما انتقام قريش لنفسها من بدر ومما لحقها بعد بدر من هزائم، فأمره مدرك على الأيام ما دام هذا الخندق يحول دون إمساك محمد ﷺ بالتلابيب، وما دامت بنو قريظة تمد أهل يثرب بالمؤونة إمدادًا يطيل أمد مقاومتهم شهورًا وشهورًا.

أفليس خيرًا للأحزاب أن يعودوا أدراجهم؟!

نعم! لكن جمع هؤلاء الأحزاب لحرب محمد مرة أخرى ليس بالأمر الميسور وقد استطاع اليهود، وحيي بن أخطب على رأسهم، أن يجمعوها هذه المرة للانتقام لأنفسهم من محمد ﷺ وأصحابه عما أوقع بهم وببني قينقاع من قبلهم، فإن أفلتت الفرصة فهيهات هيهات أن تعود، وإن انتصر محمد ﷺ بانسحاب الأحزاب فالويل ثم الويل لليهود.

خوف حيي من انسحاب الأحزاب:

قدَّر حيي بن أخطب هذا كله، وخاف مغبته، ورأى ألا مفر من أن يقامر بآخر سهم عنده، فأوحى إلى الأحزاب أنه مقنع بني قريظة بنقض عهد موادعتهم محمدًا ﷺ والمسلمين والانضمام إليهم، وأن قريظة متى فعلت انقطع المدد والميرة عن محمد ﷺ من ناحية، وفتح الطريق لدخول يثرب من ناحية أخرى».

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤١-٣٤٢].

خوف المسلمين من غدر اليهود:

يقول أ/ باشميل: «أخشى ما يخشاه قادة جيش المدينة داخليًّا هو غدر يهود بني قريظة عندما تتحرج الحالة؛ لأن ذلك يعني تعريض الكيان الإسلامي بأكمله لأشد الأخطار.

لأن انضمام يهود بني قريظة الذين توازي قواتهم (فقط) قوات الجيش الإسلامي بأكمله، يجعل المسلمين بين نارين.. اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب ـ بآلافهم العشرة ـ أمامهم.

ودخول بني قريظة المعركة ضد المسلمين وضربهم من الخلف يقلل من أهمية الخندق بالنسبة لجيوش الأحزاب؛ لأن الخندق إنما يكون ذا أهمية بالنسبة للدفاع عن المدينة إذا كان هناك قوة كافية من المسلمين تطوف حوله ليلًا ونهارًا لضرب أية قوة تحاول المغامرة باقتحامه عن طريق القفز بالخيل أو عن طريق الردم.

فضرب بني قريظة المسلمين من الخلف، وهم (أي بنو قريظة) قوة لا يستهان بها يجبر المسلمين أو قسمًا كبيرًا من قواتهم المرابطة في وجه الأحزاب على مشارف الخندق يجبرهم على ترك مراكزهم حول الخندق لمواجهة الهجوم اليهودي الآتي من الخلف.

وهذا دونما شك يسهل لقوات الأحزاب اجتياز الخندق ناحية المسلمين، بأعداد كبيرة، سواء عن طريق القفز بالخيل، أو عن طريق ردم الخندق في مواضع يستطيع رجال الأحزاب ردمها للعبور دون أن

يجدوا مقاومة تُذكر من المسلمين؛ لأن رجالهم سيكونون قليلين جدًّا بعد الهجوم اليهودي مما يجعل مراقبة الخندق وحراسته حراسة فعالة من الأمور الصعبة، لاسيما وأن الخندق يبلغ طوله حوالي ألفي متر، قد جندت قيادة المدينة كل جيشها (تقريبًا) لمراقبته وحراسة مشارفه.

ولقد حدث ما كان المسلمون يتوقعون حدوثه ويخشونه، سواء من ناحية نقض اليهود العهد وانضمامهم إلى جيوش الأحزاب، أو من ناحية انفضاض المنافقين من حول النبي ﷺ وتسللهم من الجيش ساعة الشدة وقيامهم بعمليات الإرجاف والتثبيط وبث روح الهزيمة بين المحاربين المسلمين.

كيف نقض اليهود العهد:

لقد كانت استخبارات الجيش الإسلامي تراقب مناطق بني قريظة مراقبة شديدة وتتبع حركاتهم وسكناتهم لتأتي بما يجد من أخبارها إلى النبي القائد ﷺ أولًا بأول، وذلك لئلا يؤخذ المسلمون على حين غرة.

فقد كانت القيادة الإسلامية في المدينة عند وصول الأحزاب على غاية من الحرج، وموقفها بلغ من الدقة إلى أبعد الحدود.

كان قادة جيش المدينة على يقين بأن شيطان بني النضير (حيي بن أخطب) سيتصل بيهود بني قريظة لتحريضهم على نقض العهد وحملهم على الانضمام إلى جيوش الأحزاب.

وقد أجمع أصحاب المغازي والسير على أن زعيم يهود بني قريظة (كعب بن أسد) ما كان راغبًا (مطلقًا) في نقض العهد الذي بينه وبين المسلمين ولم تكن له أية رغبة في الغدر بهم، خوفًا على اليهود من النتائج المخيفة التي ستترتب على نقض العهد والغدر بالمسلمين في تلك الظروف الخانقة التي بلغت فيها حالة المسلمين من الدقة والحراجة أقصى الدرجات؛ لأن اليهود لم يكونوا واثقين من تغلب الأحزاب على المسلمين.

ممانعة سيد قريظة في نقض العهد:

حتى إن كعبًا هذا عندما علم بقدوم حيي بن أخطب إلى ديار بني قريظة لمقابلته أمر بإقفال باب الحصن في وجهه ورفض أول الأمر مقابلته، وطلب منه مغادرة ديار بني قريظة والعودة من حيث أتى؛ لأنه يعلم أن مجيئه لم يكن إلا لحمل بني قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين، فكعب هذا يعرف مدى العداوة الشديدة التي يحملها حيي بن أخطب للنبي ﷺ خاصة.

ولكن هذا اليهودي الشرير (حيي بن أخطب) بالرغم من إقفال باب الحصن في وجهه وأمره بمغادرة ديار بني قريظة ظل (في مكر وخبث) لاصقًا بباب حصن سيد بني قريظة، طلبًا منه (وبإلحاح) أن يفتح له باب الحصن ليكلمه، حتى خجل من كلامه القارص الذي كان يوجهه إليه، ففتح له.

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٥٧-١٥٩].

شيطان بني النضير في صفوف بني قريظة:

ولكن شيطان بني النضير والعدو رقم واحد للإسلام والمسلمين ـ حيي بن أخطب ـ الذي تعهد لقادة قريش وغطفان ـ عندما حزَّبها وشجعها على حرب النبي ﷺ ـ وَفَد على بني قريظة يدعوهم إلى اغتنام فرصة وجود جيوش الأحزاب وحسَّن لهم الغدر بالمسلمين والمشاركة مع الأحزاب في استئصال شأفتهم، هذا الاستئصال الذي ما كان سيد بني النضير اليهودي الحاقد يشك لحظة في نجاح عمليته.

ولقد قاوم سيد بني قريظة كعب بن أسد هذه المحاولة الخطيرة طويلًا، وقبح لحيي بن أخطب فكرة ما يدعو إليه من الغدر بالمسلمين، وذكره بالعواقب الوخيمة التي سيتعرض لها شعب قريظة نتيجة هذا الغدر الذي يلح حيي بن أخطب في القيام به.

المناقشة بين الزعيمين اليهوديين:

لقد دارت بين سيد بني النضير وسيد بني قريظة حول هذا الموضوع الخطير المناقشة التالية:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَخَرَجَ عَدُوُّ الله حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ النَّضَرِيُّ، حَتَّى أَتَى كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ القُرَظِيَّ، صَاحِبَ عَقْدِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَعَهْدِهِمْ، وَكَانَ قَدْ وَادَعَ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى قَوْمِهِ، وَعَاقَدَهُ عَلَى ذَلِكَ وَعَاهَدَهُ، فَلَمَّا سَمِعَ كَعْبٌ حَيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ أَغْلَقَ دُونَهُ بَابَ حِصْنِهِ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، فَأَبَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُ، فَنَادَاهُ حُيَيٌّ: وَيْحَكَ [١] **يَا كَعْبُ! افْتَحْ لِي**، قَالَ: **وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! إِنَّكَ امْرُؤٌ مَشْؤُومٌ، وَإِنِّي قَدْ عَاهَدْتُ مُحَمَّدًا، فَلَسْتُ بِنَاقِضٍ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ إِلَّا وَفَاءً وَصِدْقًا**، قَالَ: **وَيْحَكَ افْتَحْ لِي أُكَلِّمْكَ**، قَالَ: **مَا أَنَا بِفَاعِلٍ**، قَالَ: **وَالله إِنْ أَغْلَقْتَ دُونِي الحِصْنَ إِلَّا تَخَوَّفْتَ عَلَى جَشِيشَتِكَ [٢] أَنْ آكُلَ مَعَكَ مِنْهَا**، فَأَحْفَظَ (أغضب) الرَّجُلَ، فَفَتَحَ لَهُ، فَقَالَ: **وَيْحَكَ يَا كَعْبُ! جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ، وَبِبَحْرٍ طَامٍ** (أي مرتفع، ويريد كثرة الرجال)، **جِئْتُكَ بِقُرَيْشٍ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا، حَتَّى أَنْزَلْتُهُمْ بِمُجْتَمَعِ الأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ، وَبِغَطَفَانَ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا حَتَّى أَنْزَلْتُهُمْ بِذَنَبِ نَقْمَى إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ، قَدْ عَاهَدُونِي وَعَاقَدُونِي عَلَى أَنْ لَا يَبْرَحُوا حَتَّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ.**

قَالَ: فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ: **جِئْتَنِي وَالله بِذُلِّ الدَّهْرِ، وَبِجَهَامٍ** (السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه) **قَدْ هَرَاقَ مَاءَهُ، فَهُوَ يُرْعِدُ وَيُبْرِقُ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ** [٣]، **وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً.**

---

(١) **ويح**: كلمة ترحُّم وتوجُّع تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها، وقد يقال بمعنى المدح والتعجب وهي منصوبة على المصدر. النهاية لابن الأثير ٥/ ٢٣٥.

(٢) **الجشيشة**: طعام يُصنع من البر يطحن غليظًا، ثم تجعل في القدور ويُلقى عليه لحم أو تمر أو تطبخ. النهاية لابن الأثير ١/ ٢٧٣، وهو الذي تقول له العامة: «دشيش» بالدال، والصواب بالجيم.

(٣) يعني بذلك كعب: أن جيوش الأحزاب على كثرتها وعظمتها ليست إلا كالسحاب العظيم الذي تصك رعوده الآذان ويخطف برقه الأبصار وليس فيه قطرة ماء.

فَلَمْ يَزَل حُيَيٌّ بِكَعْبٍ يَفْتِلُهُ فِي الذُّرْوَةِ وَالغَارِبِ (هـذا مثـل، وأصـله في البعـير يستصـعب عليـك، فتأخـذ القرادة من ذروته وغارب سنامه وتفتل هناك، فيجد البعير لذة فيأنس عنـد ذلـك. فضُــرب هـذا الكـلام مـثلًا في المراودة والمخاتلة)، حَتَّى سَمَحَ لَهُ، عَلَى أَنْ أَعْطَاهُ عَهْدًا مِنَ اللهِ وَمِيثَاقًـا: **لَـئِنْ رَجَعَـتْ قُـرَيْشٌ وَغَطَفَـانُ، وَلَمْ يُصِيبُوا مُحَمَّدًا أَنْ أَدْخُلَ مَعَكَ فِي حِصْنِكَ حَتَّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ.**

فَنَقَضَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَهْدَهُ، وَبَرِئَ مِمَّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. [السيرة لابن هشام ٢/ ٢٢٠-٢٢١].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي أَبُو أَيُّوبَ بْنُ النُّعْمَانِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ يَقُولُ لأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَلِقُرَيْشٍ فِي مَسِيرِهِ مَعَهُمْ: **إِنَّ قَوْمِي قُرَيْظَةَ مَعَكُمْ، وَهُمْ أَهْلُ حَلْقَةٍ وَافِرَةٍ، هُمْ سَبْعُمِائَةِ مُقَاتِلٍ وَخَمْسُونَ مُقَاتِلًا**، فَلَـمَّا دَنَوْا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ لِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ: **ائْتِ قَوْمَكَ، حَتَّى يَنْقُضُوا العَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ**، فَذَهَبَ حُيَيٌّ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ صَالَحَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ وَمَنْ بِالَمدِينَةِ مِنَ اليَهُودِ أَلَّا يَكُونُوا مَعَهُ وَلا عَلَيْهِ.

وَيُقَالُ: صَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ يَنْصُرُوهُ مِمَّنْ دَهَمَهُ مِنْهُمْ وَيُقِيمُوا عَلَى مَعَاقِلِهِمْ الأُولَى الَّتِي بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ (أي يكونوا على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها)، وَيُقَالُ: إِنَّ حُيَيًّا عَدَلَ مِنْ ذِي الحُلَيْفَةِ فَسَلَكَ عَلَى العَصَبَةِ حَتَّى طَرَقَ كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ، وَكَانَ كَعْبٌ صَاحِبَ عَقْدِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَعَهْدِهَا.

فَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ يُحَدِّثُ يَقُولُ: **كَانَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ رَجُلًا مَشْؤومًا، هُوَ شَأَمَ بَنِي النَّضِيرِ قَوْمَهُ وَشَأَمَ قُرَيْظَةَ حَتَّى قُتِلُوا، وَكَانَ يُحِبُّ الرِّئَاسَةَ وَالشَّرَفَ عَلَيْهِمْ، وَلَهُ فِي قُرَيْشٍ شَبَهٌ، أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ.**

فَلَـمَّا أَتَى حُيَيٌّ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ كَرِهَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ دُخُولَهُ دَارَهُمْ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيَهُ غَزَّالُ بْنُ سَمَوْأَلٍ، فَقَالَ لَهُ حُيَيٌّ: **قَدْ جِئْتُكَ بِمَا تَسْتَرِيحُ بِهِ مِنْ مُحَمَّدٍ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ حَلَّتْ وَادِي العَقِيقِ، وَغَطَفَانَ بِالزَّغَابَةِ.**

قَالَ غَزَّالُ: **جِئْتَنَا وَاللهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ**، قَالَ حُيَيٌّ: **لا تَقُلْ هَذَا**، ثُمَّ وُجِّهَ إِلَى بَابِ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ فَدَقَّ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُ كَعْبٌ، وَقَالَ: **مَا أَصْنَعُ بِدُخُولِ حُيَيٍّ عَلَيَّ رَجُلٌ مَشْؤُومٌ قَدْ شَأَمَ قَوْمَهُ وَهُوَ الآنَ يَدْعُونِي إِلَى نَقْضِ العَهْدِ**، قَالَ: فَدَقَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ كَعْبٌ: **إِنَّكَ امْرُؤٌ مَشْؤُومٌ قَدْ شَأَمْتَ قَوْمَكَ حَتَّى أَهْلَكْتَهُمْ، فَارْجِعْ عَنَّا فَإِنَّكَ إِنَّمَا تُرِيدُ هَلاكِي وَهَلاكَ قَوْمِي**، فَأَبَى حُيَيٌّ أَنْ يَرْجِعَ، فَقَالَ كَعْبٌ: **يَا حُيَيُّ، إِنِّي عَاقَدْتُ مُحَمَّدًا وَعَاهَدْتُهُ، فَلَمْ نَرَ مِنْهُ إِلَّا صِدْقًا، وَاللهِ مَا أَخْفَرَ لَنَا ذِمَّةً وَلا هَتَكَ لَنَا سِتْرًا، وَلَقَدْ أَحْسَنَ جِوَارَنَا.**

فَقَالَ حُيَيٌّ: **وَيْحَكَ! إِنِّي قَدْ جِئْتُكَ بِبَحْرٍ طَامٍ وَبِعِزِّ الدَّهْرِ، جِئْتُكَ بِقُرَيْشٍ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا، وَجِئْتُكَ بِكِنَانَةَ حَتَّى أَنْزَلْتُهُمْ بِرُومَةَ، وَجِئْتُكَ بِغَطَفَانَ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا حَتَّى أَنْزَلْتُهُمْ بِالزَّغَابَةِ إِلَى نَقْمَى، قَدْ قَادُوا الخَيْلَ وَامْتَطَوْا الإِبِلَ، وَالعَدَدُ عَشَرَةُ آلافٍ وَالخَيْلُ أَلْفُ فَرَسٍ، وَسِلاحٌ كَثِيرٌ، وَمُحَمَّدٌ لا يُفْلَتُ فِي فَوْرِنَا هَذَا، وَقَدْ تَعَاقَدُوا وَتَعَاهَدُوا أَلَّا يَرْجِعُوا حَتَّى يَسْتَأْصِلُوا مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ.**

قَالَ كَعْبٌ: **وَيْحَكَ! جِئْتَنِي وَاللهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ وَبِسَحَابٍ يَبْرُقُ وَيَرْعُدُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، وَأَنَا فِي بَحْرٍ لُـجِّيٍّ لا أَقْدِرُ عَلَى أَنْ أَرِيمَ دَارِي، وَمَالِي مَعِي، وَالصِّبْيَانُ وَالنِّسَاءُ فَارْجِعْ عَنِّي، فَإِنَّهُ لا حَاجَةَ لِي فِيمَا جِئْتَنِي بِهِ.**

قَالَ حُيَيٌّ: **وَيْحَكَ أُكَلِّمُكَ**، قَالَ كَعْبٌ: **مَا أَنَا بِفَاعِلٍ**، قَالَ: **وَاللهِ مَا أَغْلَقْت دُونِي إِلَّا لِجَشِيشَتِكَ أَنْ آكُلَ مَعَكَ مِنْهَا، فَلَكَ أَلَّا أُدْخِلَ يَدِي فِيهَا**، قَالَ: فَأَحْفَظُهُ، فَفَتَحَ البَابَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَل يَفْتِلُهُ فِي الذُّرْوَةِ وَالغَارِبِ حَتَّى لانَ لَهُ، وَقَالَ: **ارْجِعْ عَنِّي يَوْمَكَ هَذَا حَتَّى أُشَاوِرَ رُؤَسَاءَ اليَهُودِ**، فَقَالَ: **قَدْ جَعَلُوا العَهْدَ وَالعَقْدَ إِلَيْكَ فَأَنْتَ تَرَى لَـهُمْ**، وَجَعَلَ يُلِحُّ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَلَهُ عَنْ رَأْيِهِ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ: **يَا حُيَيُّ، قَدْ دَخَلْتُ فِيمَا تَرَى كَارِهًا لَهُ، وَأَنَا أَخْشَى أَلَّا يُقْتَلَ مُحَمَّدٌ وَتَنْصَرِفُ قُرَيْشٌ إِلَى بِلادِهَا، وَتَرْجِعُ أَنْتَ إِلَى أَهْلِكَ، وَأَبْقَى فِي عُقْرِ الدَّارِ وَأُقْتَلُ وَمَنْ مَعِي.**

فَقَالَ حُيَيٌّ: **لَكَ مَا فِي التَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سَيْنَاءَ، لَئِنْ لَمْ يُقْتَل مُحَمَّدٌ فِي هَذِهِ الفَوْرَةِ وَرَجَعَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ قَبْلَ أَنْ يُصِيبُوا مُحَمَّدًا، لأَدْخُلَنَّ مَعَكَ حِصْنَكَ حَتَّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ.**

فَنَقَضَ كَعْبٌ العَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَدَعَا حُيَيٌّ بِالكِتَابِ الَّذِي كَتَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمْ فَشَقَّهُ حُيَيٌّ، فَلَـمَّا شَقَّهُ حُيَيٌّ عَلِمَ أَنَّ الأَمْرَ قَدْ لَحَمَ وَفَسَدَ فَخَرَجَ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَهُمْ حِلَقٌ حَوْلَ مَنْزِلِ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ، فَخَبَّرَهُمْ الخَبَرَ.

يَقُولُ الزُّبَيرُ بْنُ بَاطَا: **وَا هَلاكَ اليَهُودِ! تُوَلِّي قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ وَيَتْرُكُونَنَا فِي عُقْرِ دَارِنَا وَأَمْوَالِنَا وَذَرَارِيِّنَا، وَلا قُوَّةَ لَنَا بِمُحَمَّدٍ، مَا بَاتَ يَهُودِيٌّ عَلَى حَزْمٍ قَطُّ، وَلا قَامَتْ يَهُودِيَّةٌ بِيَثْرِبَ أَبَدًا.**

ثُمَّ أَرْسَلَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ إِلَى نَفَرٍ مِنْ رُؤَسَاءِ اليَهُودِ خَمْسَةٍ: الزَّبِيْرَ بْنَ بَاطَا، وَنَبَّاشَ بْنَ قَيْسٍ، وَغَزَّالَ بْنَ سَمَوْأَلٍ، وَعُقْبَةَ بْنَ زَيْدٍ، وَكَعْبَ بْنَ زَيْدٍ، فَخَبَّرَهُمْ خَبَرَ حُيَيٍّ وَمَا أَعْطَاهُ حُيَيٌّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ فَيَدْخُلَ مَعَهُ فَيُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُ.

يَقُولُ الزَّبِيرُ بْنُ بَاطَا: **وَمَا حَاجَتُكَ إِلَى أَنْ تُقْتَلَ وَيُقْتَلَ مَعَكَ حُيَيٌّ**، قَالَ: فَأُسْكِتَ كَعْبٌ، وَقَالَ القَوْمُ: **نَحْنُ نَكْرَهُ نُزْرِي بِرَأْيِكَ أَوْ نُخَالِفُكَ، وَحُيَيٌّ مَنْ قَدْ عَرَفْتَ شُؤْمَهُ.**

وَنَدِمَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَلَى مَا صَنَعَ مِنْ نَقْضِ العَهْدِ وَلَحَمَ الأَمْرُ لَـمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى مِنْ حَرْبِهِمْ وَهَلاكِهِمْ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٤-٤٥٧].

يقول أ/ باشميل: «لما ألح حيي بن أخطب في كلامه وأخذ بأسلوبه الخادع الماكر يؤثر في نفوس القوم دعا سيد بني قريظة كعب بن أسد إلى اجتماع حضره جميع زعماء وقادة بني قريظة للتشاور في الأمر وبحث ما عرضه عليهم سيد بني النضير من الانضمام إلى جيوش الأحزاب ونقض العهد الذي بين قريظة والمسلمين.

أحد زعماء اليهود يحذر من نقض العهد:

وفي هذا المجلس تكلم أحد عقلائهم من القادة وهو عمرو بن سُعدى، فنصح بني قريظة وحذرهم مغبة نقض العهد، وذكرهم بوفاء محمد الدائم وصدقه في معاملته لهم، وأنهم ملزمون بالقتال إلى جانبه، فكيف يسوغ لهم (بدلًا من ذلك) أن يُشهروا السلاح في وجهه ويعينوا عدوه عليه؟ ثم طلب منهم الثبات على العهد وألا يصغوا لكلام حيي بن أخطب، بل وطلب منهم حمل السلاح إلى جانب المسلمين كما تفرض ذلك المعاهدة المعقودة بينهم، وطلب عمرو بن سعدى في هذا المجلس من قومه أن يقفوا على الأقل موقف الحياد إذا لم ينصروا النبي ﷺ قائلًا: «**إذا لم تنصروا محمدًا فاتركوه وعدوه**».

ولكن وساوس وتأثيرات حيي بن أخطب كانت أقوى من كل معارضة حيث ما زال ـ كما قال ابن إسحاق ـ يستدرج زعماء بني قريظة ويفتل كعبًا في الذروة والغارب حتى أجابوه إلى ما طلب، فوافقوا على نقض العهد والغدر بالمسلمين والانضمام إلى جيوش الأحزاب.

وذلك بعد أن أخذوا العهد والميثاق على سيد بني النضير حيي بن أخطب أن يبقى معهم في حصونهم ليصيبه ما أصابهم إذا رجعت قريش وغطفان دون أن تقضي جيوشها على المسلمين، وبعد أن أخذت قريظة العهد على حيي بن أخطب بهذا الخصوص، أعلن زعيمها كعب بن أسد نقضه للعهد وبرئ مما كان بينه وبين النبي ﷺ.

إعلان قريظة الغدر بالمسلمين:

استدعى كعب زعماء بني قريظة، ومنهم: الزبير بن باطا، وغزال بن ميمون، وشاس بن قيس، وعقبة بن زيد، وعمرو بن سعدي، وأحضر الصحيفة التي تتضمن نص العهد المعقود بين النبي ﷺ ويهود بني قريظة وطلب منهم الموافقة على تمزيقها إيذانًا بنقض العهد والانضمام إلى الأحزاب.

فوافق الجميع على ذلك، إلا الزعيم القرظي عمرو بن سُعدى، فإنه أبى ذلك وأعلن رفضه المشاركة في جريمة الغدر هذه قائلًا: «**والله لا أغدر بمحمد أبدًا**» وبقي على عهده، وسانده في موقفه النبيل هذا ثلاثة من هؤلاء اليهود وهم: ثعلبة وأسيد ابنا سعية، وأسد بن عبيد.

وقد كان موقف عمرو بن سعدى اليهودي هذا سببًا في نجاته عندما حاق بيهود بني قريظة مكرهم السيء وأعدمهم المسلمون بعد انصراف الأحزاب عن المدينة، أما الثلاثة الآخرون فقد خرجوا إلى النبي ﷺ، وأعلنوا إسلامهم.

تمزيق صحيفة المعاهدة:

أما كعب بن أسد فقد تغلب طيشه على عقله وحلمه فأصر مع زعماء قريظة على الغدر بالمسلمين فأخذوا الصحيفة التي تتضمن نص العقد الذي بينهم وبين المسلمين فمزقوها، وبهذا أصبحوا حربًا على النبي ﷺ وجزءًا من قوة الأحزاب.

وصول الخبر إلى النبي ﷺ:

ولما كانت ديار بني قريظة تحت مراقبة رجال الاستخبارات الإسلامية، فقد علم هؤلاء الرجال بالحدث الخطير الذي أحدثته قريظة الخائنة، فسارعوا بنقل الخبر إلى الرسول القائد ﷺ.

فجاؤوا إليه وهو في معسكره وراء الخندق، وبلّغوه (سرًّا) هذا الخبر الخطير، فشق عليه ذلك كثيرًا، إلا أنه كتم الخبر وأمر بألا يُشاع منه شيء. [غزوة الأحزاب لباشميل ١٦١-١٦٣].

الزبير بن العوام رضي الله عنه رجل المهمات الصعبة:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَبَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ فِي الخَنْدَقِ أَتَى عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ فِي قُبَّتِهِ ـ وَقُبَّةُ رَسُولِ الله ﷺ مَضْرُوبَةٌ مِنْ أَدَمٍ فِي أَصْلِ الجَبَلِ عِنْدَ المَسْجِدِ الَّذِي فِي أَسْفَلِ الجَبَلِ ـ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَالـمُسْلِمُونَ عَلَى خَنْدَقِهِمْ يَتَنَاوَبُونَ، مَعَهُمْ بِضْعَةٌ وَثَلاثُونَ فَرَسًا، وَالفُرْسَانُ يَطُوفُونَ عَلَى الخَنْدَقِ مَا بَيْنَ طَرَفَيْهِ يَتَعَاهَدُونَ رِجَالًا وَضَعُوهُمْ فِي مَوَاضِعَ مِنْهُ إِلَى أَنْ جَاءَ عُمَرُ رضي الله عنه فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله، بَلَغَنِي أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ نَقَضَتْ العَهْدَ وَحَارَبَتْ**، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَقَالَ: «**مَنْ نَبْعَثُ يَعْلَمُ لَنَا عِلمَهُمْ؟**»، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: **الزُّبَيرُ بْنُ العَوَّامِ**، فَكَانَ أَوَّلَ النَّاسِ بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ الزُّبَيرَ بْنَ العَوَّامِ رضي الله عنه، فَقَالَ: «**اذْهَبْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَذَهَبَ الزُّبَيرُ فَنَظَرَ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله، رَأَيْتُهُمْ يُصْلِحُونَ حُصُونَهُمْ وَيُدْرِبُونَ طُرُقَهُمْ، وَقَدْ جَمَعُوا مَاشِيَتَهُمْ**، فَذَلِكَ حِينَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيَّ**[(١)] **الزُّبَيرُ وَابْنُ عَمَّتِي**». [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٧].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: اشْتَدَّ الأَمْرُ يَوْمَ الخَنْدَقِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَلا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَانْطَلَقَ الزُّبَيرُ رضي الله عنه فَجَاءَ بِخَبَرِهِمْ، ثُمَّ اشْتَدَّ الأَمْرُ أَيْضًا، فَذَكَرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَابْنُ الزُّبَيْرِ حَوَارِيَّ**». [مسند أحمد ٢٢/ ٢٧٢ عن جابر رضي الله عنه رقم ١٤٣٧٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وسنن النسائي الكبرى ٥/ ٢٦٤ في السير (٨٨٤٢، ٨٨٤٣)].

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ القَوْمِ؟**»، فَقَالَ الزُّبَيرُ رضي الله عنه: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ القَوْمِ؟**»، فَقَالَ الزُّبَيرُ رضي الله عنه: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ القَوْمِ؟**»، فَقَالَ الزُّبَيرُ رضي الله عنه: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيرُ**».

[البخاري في المغازي (٤١١٣)، وفي الجهاد (٢٨٤٦)، والترمذي في المناقب (٣٧٤٥)، وسنن النسائي الكبرى ٥/ ٦٠ في المناقب (٢١١٨)، ٥/ ٢٦٤ في السير (٨٨٤١)، ٦/ ٣٣٩ في التفسير (١١١٥٩)].

---

(١) **حواري**: لفظة مفرد بمعنى الخالص والناصر. والياء فيه للنسبة. وأصل معناه البياض فهو منصرف منون، وحواري: أصله بالإضافة إلى ياء المتكلم. لكن حذفت الياء اكتفاء بالكسرة وقد تبدل فتحة للتخفيف.

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: نَدَبَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوارِيًّا وَحَوارِيَّ الزُّبِيرُ**»، قَالَ سُفْيَانُ: الحَوَارِيُّ النَّاصِرُ. [**البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٧، ٢٩٩٧)، وفي فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٣٧١٩)، وفي أخبار الآحاد (٧٢٦١)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٢٤١٥)، ومسند أحمد ٢٢/ ٢٠٠ رقم ١٤٢٩٧**].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما قَالَ: كُنْتُ يَوْمَ الأَحْزَابِ جُعِلْتُ أَنَا وَعُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ مَعَ النِّسَاءِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِالزُّبَيْرِ عَلَى فَرَسِهِ يَخْتَلِفُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، فَلَـمَّا رَجَعْتُ [رَجَعَ] قُلْتُ: يَا أَبَتِ رَأَيْتُكَ تَخْتَلِفُ، قَالَ: أَوَهَل [وَهَل] رَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: كَانَ [فَإِنَّ] رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ يَأْتِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ**»، فَانْطَلَقْتُ، فَلَـمَّا رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ الله ﷺ أَبَوَيْهِ، فَقَالَ: «**فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**». [**البخاري في المناقب (٣٧٢٠)، وسنن النسائي الكبرى ٥/ ٦٠ في المناقب (٨٢١٣)، وأحمد في المسند ٣/ ٣٩ عن الزبير بن العوام رضي الله عنه رقم ١٤٢٣**].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَعُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ يَوْمَ الخَنْدَقِ مَعَ النِّسْوَةِ فِي أُطُمِ حَسَّانَ، فَكَانَ يُطَأْطِئُ لِي مَرَّةً فَأَنْظُرُ، وَأُطَأْطِئُ لَهُ مَرَّةً فَيَنْظُرُ، فَكُنْتُ أَعْرِفُ أَبِي إِذَا مَرَّ عَلَى فَرَسِهِ فِي السِّلَاحِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

قَالَ: وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الله بْنُ عُرْوَةَ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي، فَقَالَ: وَرَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا وَالله لَقَدْ جَمَعَ لِي رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ أَبَوَيْهِ فَقَالَ: «**فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**».

[**مسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٢٤١٦)، ومسند أحمد ٣/ ٢٧ عن الزبير بن العوام رضي الله عنه رقم ١٤٠٩**].

وفد النبي ﷺ إلى بني قريظة:

لما جاء الزبير رضي الله عنه بخبر نقض بني قريظة للعهد استدعى رسول الله ﷺ حليف بني قريظة وسيد الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه وهو شاب لم يبلغ الأربعين من عمره، كما استدعى سيد الخزرج سعد بن عبادة رضي الله عنه وهما قطبا الأنصار، وعبد الله بن رواحة، وأسيد بن حضير، والجميع من الأنصار، وبعد أن حضروا كلفهم النبي ﷺ بأن يذهبوا إلى بني قريظة وأمرهم بأن يتصلوا رسميًّا بزعماء هؤلاء اليهود، ويسألوهم عما بلغهم من خبر نقضهم العهد.

وقد أمر النبي ﷺ رجال هذا الوفد بأن يكتموا الخبر عن الجيش إذا ما صح أن يهود بني قريظة قد نقضوا العهد وأعلنوا الحرب؛ وذلك لكي لا يؤثر هذا الخبر الخطير على معنويات الجند الإسلامي، الذي هو في حالة كرب وشدة لمواجهته الأحزاب على مشارف الخندق ليلًا ونهارًا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ الله ﷺ الخَبَرُ وَإِلَى الْمُسْلِمِينَ، بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذِ بْنِ النُّعْمَانِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الأَوْسِ، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ بْنِ دُلَيْمٍ، أَحَدَ بَنِي سَاعِدَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ الخَزْرَجِ

وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وَمَعَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، أَخُو بَنِي الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ، وَخَوَّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ، أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَقَالَ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا، أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ القَوْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالحَنُوا لِي لَـحْنًا** (اللحن: اللغز، وهو أن يخالف ظاهر الكلام معناه) **أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ**(فت في عضده، إذا أضعفه وأوهنه)، **وَإِنْ كَانُوا عَلَى الوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ**».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢١-٢٢٢].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، وَأُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ[1]، فَقَالَ: «**إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ نَقَضُوا العَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ وَحَارَبُوا، فَاذْهَبُوا فَانْظُرُوا إِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي حَقًّا؛ فَإِنْ كَانَ بَاطِلًا فَأَظْهِرُوا القَوْلَ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا فَتَكَلَّمُوا بِكَلامٍ تَلْحَنُونَ لِي بِهِ أَعْرِفُهُ لا تَفُتُّوا أَعْضَادَ الـمُسْلِمِينَ**». [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٨].

المشادة بين الوفد النبوي وبني قريظة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجُوا حَتَّى أَتَوْهُمْ، فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ، فِيمَا نَالُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: **مَنْ رَسُولُ اللهِ؟ لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدَ**، فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ وَشَاتَمُوهُ، وَكَانَ رَجُلًا فِيهِ حِدَّةٌ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ: **دَعْ عَنْكَ مُشَاتَمَتَهُمْ، فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى (أعظم) مِنَ الـمُشَاتَمَةِ**. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٢].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَلَـمَّا انْتَهَوْا إِلَى كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ وَجَدُوا القَوْمَ قَدْ نَقَضُوا العَهْدَ، فَنَاشَدُوهُمُ اللهَ وَالعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِمَ الأَمْرُ، وَأَلَّا يُطِيعُوا حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ.

فَقَالَ كَعْبٌ: **لا نَرُدُّهُ أَبَدًا، قَدْ قَطَعْتُهُ كَمَا قَطَعْتُ هَذَا القِبَالَ لِقِبَالِ نَعْلِهِ**، وَوَقَعَ كَعْبٌ بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ يَسُبُّهُ، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ: **تَسُبُّ سَيِّدَكَ يَا عَدُوَّ اللهِ؟ مَا أَنْتَ لَهُ بِكُفْءٍ، أَمَا وَاللهِ يَا ابْنَ اليَهُودِ، لَتُوَلِّيَنَّ قُرَيْشٌ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ مُنْهَزِمَةً وَتَتْرُكُكَ فِي عُقْرِ دَارِكَ، فَنَسِيرُ إِلَيْكَ فَتَنْزِلُ مِنْ جُحْرِكَ هَذَا عَلَى حُكْمِنَا، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ النَّضِيرَ كَانُوا أَعَزَّ مِنْكَ وَأَعْظَمَ بِهَذِهِ البَلْدَةِ، دِيَتُكَ نِصْفُ دِيَتِهِمْ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَا صَنَعَ اللهُ بِهِمْ، وَقَبْلَ ذَلِكَ بَنُو قَيْنُقَاعَ، نَزَلُوا عَلَى حُكْمِنَا**.

قَالَ كَعْبٌ: **يَا ابْنَ الحُضَيْرِ تُخَوِّفُونَنِي بِالمَسِيرِ إِلَيَّ؟ أَمَا وَالتَّوْرَاةِ، لَقَدْ رَآنِي أَبُوكَ يَوْمَ بُعَاثَ ـ لَوْلا نَحْنُ لأَجْلَتْهُ الخَزْرَجُ مِنْهَا، إِنَّكُمْ وَاللهِ مَا لَقِيتُمْ أَحَدًا يُحْسِنُ القِتَالَ، وَلا يَعْرِفُهُ نَحْنُ وَاللهِ نُحْسِنُ قِتَالَكُمْ**، وَنَالُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمِنَ المُسْلِمِينَ أَقْبَحَ الكَلامِ، وَشَتَمُوا سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ﷺ شَتْمًا قَبِيحًا حَتَّى أَغْضَبُوهُ.

---

(١) قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ، قَالَ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، وَسَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ، وَخَوَّاتَ بْنَ جُبَيْرٍ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ. قَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: وَالأَوَّلُ أَثْبَتُ عِنْدَنَا. المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٩.

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ: **دَعْهُمْ فَإِنَّا لَمْ نَأْتِ لِهَذَا، مَا بَيْنَنَا أَشَدُّ مِنَ الـمُشَاتَمَةِ ـ السَّيْفُ.**

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٨].

سعد بن معاذ ﷺ ينصح حلفاءه من اليهود:

لقد توجه سعد بن معاذ ﷺ إلى حلفائه (في محاولة أخيرة) ناصحًا إياهم بالرجوع عن غيهم ومحذرهم العواقب المخيفة التي ستترتب على إصرارهم على نقض العهد.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَكَانَ الَّذِي يَشْتُمُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ﷺ نَبَّاشُ بْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ: **عَضِضْتَ بِبَظْرِ أُمِّكَ** (البظر: لحمة بين شفري المرأة، وهي الغلفة التي تقطع في الختان، والعرب تطلق هذا اللفظ في معرض الذم فيقولون: امصص بظر أمك. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٣/ ١٨٩)، فَانْتَفَضَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ غَضَبًا، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ: **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ بَنِي النَّضِيرِ.**

قَالَ غَزَّالُ بْنُ سَمَوْأَلٍ: **أَكَلْتَ أَيْرَ أَبِيكَ** (أي ذَكَرُه)، قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ: **غَيْرَ هَذَا القَوْلِ أَحْسَنَ مِنْهُ.**

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٩].

فتمادى بنو قريظة في غيهم وصاروا ينالون من النبي ﷺ ويقعون فيه، وهنا يئس سعد بن معاذ ﷺ من عودة حلفائه إلى جادة الصواب، فعاد الوفد الإسلامي يحمل إلى النبي ﷺ تأكيد غدر اليهود ونقضهم العهد.

كلمة السر بين النبي ﷺ والوفد:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: ثُمَّ رَجَعُوا [سَعْدٌ وَسَعْدٌ وَمَنْ مَعَهُمَا] إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَـمَّا انْتَهَوْا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ: **عَضَلُ وَالقَارَةُ**، وَسَكَتَ الرَّجُلانِ ـ يُرِيدُ بِعَضَلَ وَالقَارَةَ غَدْرَهُمْ بِخُبَيْبٍ ﷺ وَأَصْحَابِ الرَّجِيعِ ـ ثُمَّ جَلَسُوا، فَكَبَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: «**أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**»، وَانْتَهَى الخَبَرُ إِلَى الـمُسْلِمِينَ بِنَقْضِ بَنِي قُرَيْظَةَ العَهْدَ فَاشْتَدَّ الخَوْفُ وَعَظُمَ البَلاءُ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٥٩، السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢١-٢٢٢].

المبحث الثالث

الموقف بعد نقض اليهود العهد

المسلمون في الموقف الحرج:

يقول أ/ الشامي: «لم يكن نقض العهد من قبل قريظة بالأمر الهين، إنه يعني وجود منفذ لقوات العدو يمكنها أن تعبر منه إلى المدينة، كما يعني انشغال قسم من قوات المسلمين في جبهة كانت موصدة مما يضطر المسلمين إلى تخفيف الحماية التي تحرس الخندق لتأمين المواجهة مع قريظة، وهذا ما يسهل ردم جزء من الخندق لانشغال المسلمين والعبور منه، وهكذا يصل المشركون إلى ما خططوا له...».

[من معين السيرة للشامي ٣٠٠-٣٠١].

النشاط العسكري للأحزاب:

يقول الشيخ الغزالي: «ووجم المسلمون حين عادت رسلهم تحمل هذه الأنباء المقلقة، ورَبت مشاعر الكره في صدورهم لأولئك اليهود؛ حتى لأصبحوا أشوه أمام أعينهم من عُبَّاد الأصنام، ووعوا أتم الوعي أن بني إسرائيل أقدموا على قرارهم هذا وهم يعلمون معناه وعقباه، يعلمون أنه محاولة متعمدة للإجهاز على هذه الأمة ودينها، وتسليمها إلى من يقتل رجالها، ويسترق نساءها، ويبيع ذراريها في الأسواق». [فقه السيرة للغزالي ٣١١].

ويقول د/ هيكل: «رجع رسل محمد ﷺ إليه بما رأوا، هنالك عظم البلاء واشتد الخوف، ورأى أهل المدينة طريق قريظة وقد فُتح للأحزاب فدخلوا عليهم واستأصلوهم، ولم يكن ذلك محض خيال ووهم، فهم رأوا قريظة تقطع المدد والميرة عنهم، ورأوا قريشًا وغطفان ـ منذ عاد حيي بن أخطب ينبئهم بانضمام قريظة إليهم ـ قد تغيرت نفسيتهم وأخذوا يعدون أنفسهم للقتال، وذلك أن قريظة استمهلت الأحزاب عشرة أيام تعد فيها عدتها على أن تقاتل الأحزابُ المسلمين في هذه الأيام العشرة أشد القتال، وذلك ما فعلوا، فقد ألفوا ثلاث كتائب لمحاربة النبي ﷺ، فأتت كتيبة ابن الأعور السلمي من فوق الوادي، وأتت كتيبة عيينة بن حصن من الجنب، ونصب له أبو سفيان من قبل الخندق». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤٣].

ويقول أ/ دويدار: «رجع حيي بن أخطب إلى جماعة المشركين يخبرهم بما تم له من حَمْل بني قريظة على الغدر بالمسلمين، فانتعشوا ونشطوا، وقويت روحهم المعنوية، وأعظموا نيرانهم مبالغة في تخويف المسلمين وإضعافًا لروحهم، وكان بنو قريظة قد طلبوا إلى حيي بن أخطب أن يدع لهم مهلة عشرة أيام يستعدون فيها، على أن تشتد كتائب الأحزاب في مناوشة المسلمين خلال هذه المدة، حتى يشغلوهم عن بني قريظة، فكثرت مناوشات الأحزاب، واشتدت مناوأتهم للمسلمين حتى أرهقوهم».

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ١٨٤-١٨٥].

ويقول أ/ باشميل: «لقد كان نشاط الأحزاب العسكري ـ قبل أن تنقض قريظة العهد الذي بينها وبين المسلمين ـ فاترًا إلى حد ما، فلم يكن هناك من عمل عسكري يُذكر سوى الطواف بالخيل للاستكشاف والإزعاج والإرهاب؛ لأن المشركين قد قطعوا الأمل في عبور الخندق بأعداد كبيرة تمكنهم من الالتحام في معركة فاصلة مع جيش المدينة؛ لأن هذا الجيش قد أصبح بأكمله يقوم بأعمال الدورية وحراسة مشارف الخندق.

ولكن لما تلقت الأحزاب (رسميًّا) انضمام يهود بني قريظة إليهم ازداد نشاطهم العسكري وصاروا يضاعفون من جولاتهم وتحفزاتهم الجدية حول الخندق حيث عاد إليهم الأمل في اقتحام مواقع المسلمين وراء الخندق بأعداد كبيرة بسهولة.

ذلك أن انضمام قريظة سيجبر أكثرية الجيش الإسلامي على ترك مواقعه التي يرابط فيها لحراسة مشارف الخندق، وإذا ما قامت القوات اليهودية ـ التي ليس بينها وبين المسلمين أي حاجز من خندق أو غيره ـ بالهجوم على معسكر المسلمين من الخلف كما هو المتفق عليه بين قادة قريش وغطفان وبين اليهود، فسيؤدي ذلك إلى إشغال عدد كبير من قوات المسلمين.

تدهور الحالة عند المسلمين:

لقد كان موقف القوات الإسلامية منذ وصول جيش الأحزاب ـ وقبل نقض اليهود العهد ـ موقفًا حرجًا (دونما شك)؛ لأنه مهما يُقال عن مناعة خط الدفاع الأول (الخندق) ومهما يمتاز به المسلمون من شجاعة وثبات وإقدام فإن وجود تسعمائة مقاتل من هؤلاء المسلمين أمام عشرة آلاف مقاتل كلهم غيظ وحقد على المسلمين، يتحفزون لابتلاعهم، كما يتحفز البحر الهادر المحيط بالجزيرة الصغيرة جدًّا لابتلاعها ـ هو أمر من الخطورة بحيث يجعل مركز قوة المسلمين الصغيرة من الحراجة بمكان يقض مضاجع القيادة المسؤولة عن هذه القوة ويجعلها في مركز حرج للغاية.

غير أن انضمام يهود بني قريظة إلى معسكر الأحزاب قد عقَّد الوضع داخل المعسكر الإسلامي وجعل الحالة فيه تسير من سيء إلى أسوأ.

بلغت الحالة أعلى درجات الحراجة والتأزم، فأصبح مصير الكيان الإسلامي كله في مهب العاصفة.

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٦٧-١٦٨].

«ألا ويل لليهود! ما كان أجدر محمدًا ﷺ بأن يقضي علي بني النضير وأن يستأصلهم بدل أن يذرهم يرتحلون موفورين، وأن يذر حييًا والذين معه يؤلبون العرب على المسلمين ليستأصلوهم، ألا إنها الطامة الكبرى والفزع الأكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله!». **[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤٤]**.

حراسة المدينة من هجوم بني قريظة:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنِ الحَارِثِ بْنِ الفُضَيْلِ قَالَ: هَمَّتْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَنْ يُغِيرُوا عَلَى بَيْضَةِ المَدِينَةِ لَيْلًا، فَأَرْسَلُوا حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ إِلَى قُرَيْشٍ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْهُمْ أَلْفُ رَجُلٍ وَمِنْ غَطَفَانَ أَلْفٌ فَيُغِيرُوا بِهِمْ، فَجَاءَ رَسُولَ اللهِ ﷺ الخَبَرُ بِذَلِكَ فَعَظُمَ البَلاءُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبْعَثُ سَلَمَةَ بْنَ أَسْلَمَ بْنِ حَرِيشٍ الأَشْهَلِيَّ فِي مِائَتَيْ رَجُلٍ وَزَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فِي ثَلاثِمِائَةٍ يَحْرُسُونَ المَدِينَةَ، وَيُظْهِرُونَ التَّكْبِيرَ وَمَعَهُمْ خَيْلُ المُسْلِمِينَ فَإِذَا أَصْبَحُوا أَمِنُوا.

فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَقُولُ: **لَقَدْ خِفْنَا عَلَى الذَّرَارِيِّ بِالمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَشَدَّ مِنْ خَوْفِنَا مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ، وَلَقَدْ كُنْتُ أُوفِي عَلَى سَلْعٍ فَأَنْظُرُ إِلَى بُيُوتِ المَدِينَةِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُمْ هَادِينَ حَمِدْتُ اللهَ عز وجل، فَكَانَ مِمَّا رَدَّ اللهُ بِهِ قُرَيْظَةَ عَمَّا أَرَادُوا أَنَّ المَدِينَةَ كَانَتْ تُحْرَسُ**. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٠].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي خَارِجَةُ بْنُ الحَارِثِ، عَنْ أَبِي عَتِيقٍ، عَنْ جَابِرٍ، وَحَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِقْسَمٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ خَوْفُنَا عَلَى الذَّرَارِيِّ بِالمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَشَدَّ مِنْ خَوْفِنَا مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى فَرَّجَ اللهُ ذَلِكَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٨].

خَوَّات بن جبير رضي الله عنه في مهمة خاصة:

عَنْ عِكْرِمَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «بَعَثَ خَوَّاتَ بْنَ جُبَيْرٍ رضي الله عنه إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى فَرَسٍ يُقَالُ لَهُ جَنَاحٌ».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٨ في المغازي (٣٧٩٨٠)، وقال الشيخ عوامة: «هذا مرسل، رجاله ثقات»].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ خَوَّاتٍ، عَنِ ابْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ خَوَّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ: دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ مُحَاصِرُو الخَنْدَقِ، فَقَالَ: «**انْطَلِقْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَانْظُرْ هَل تَرَى لَهُمْ غِرَّةً أَوْ خَلَلًا مِنْ مَوْضِعٍ فَتُخْبِرُنِي**».

قَالَ: فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَتَدَلَّيْتُ مِنْ سَلْعٍ وَغَرَبَتْ لِي الشَّمْسُ فَصَلَّيْتُ المَغْرِبَ، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى أَخَذْتُ فِي رَاتِجٍ، ثُمَّ عَلَى عَبْدِ الأَشْهَلِ، ثُمَّ فِي زُهْرَةَ، ثُمَّ عَلَى بُعَاثَ، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنَ القَوْمِ قُلْتُ: أَكْمُنُ لَهُمْ، فَكَمَنْتُ وَرَمَقْتُ الحُصُونَ سَاعَةً، ثُمَّ ذَهَبَ بِي النَّوْمُ فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا بِرَجُلٍ قَدْ احْتَمَلَنِي وَأَنَا نَائِمٌ فَوَضَعَنِي عَلَى عُنُقِهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَمْشِي، قَالَ: فَفَزِعْتُ وَرَجُلٌ يَمْشِي بِي عَلَى عَاتِقِهِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ طَلِيعَةٌ مِنْ قُرَيْظَةَ، وَاسْتَحْيَيْتُ تِلكَ السَّاعَةَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيَاءً شَدِيدًا، حَيْثُ ضَيَّعْتُ ثَغْرًا أَمَرَنِي بِهِ، ثُمَّ ذَكَرْتُ غَلَبَةَ النَّوْمِ.

قَالَ: وَالرَّجُلُ يُرْقِلُ (يسرع) بِي إِلَى حُصُونِهِمْ فَتَكَلَّمَ بِاليَهُودِيَّةِ فَعَرَفْتُهُ، قَالَ: أَبْشِرْ بِجَزْرَةٍ سَمِينَةٍ، قَالَ: وَذَكَرْتُ وَجَعَلْتُ أَضْرِبُ بِيَدِي ـ وَعَهْدِي بِهِمْ لا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ أَبَدًا إِلَّا بِمِعْوَلٍ فِي وَسَطِهِ، قَالَ: فَأَضَعُ

يَدِي عَلَى المِعْوَلِ فَأَنْتَزِعُهُ، وَشُغِلَ بِكَلامِ رَجُلٍ مِنْ فَوْقِ الحِصْنِ فَانْتَزَعْتُهُ فَوَجَأْتُ بِهِ كَبِدَهُ، فَاسْتَرْخَى وَصَاحَ: السَّبُعُ، فَأَوْقَدَتْ اليَهُودُ النَّارَ عَلَى آطَامِهَا بِشُعَلِ السَّعَفِ، وَوَقَعَ مَيِّتًا وَانْكَشَفَ، فَكُنْتُ لا أُدْرَكُ، وَأَقْبَلَ مِنْ طَرِيقِي الَّتِي جِئْتُ مِنْهَا.

وَجَاءَ جِبْرِيلُ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ظَفِرْتَ يَا خَوَّاتُ**»، ثُمَّ خَرَجَ فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: «**كَانَ مِنْ أَمْرِ خَوَّاتٍ كَذَا وَكَذَا**»، وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فَلَـمَّا رَآنِي قَالَ: «**أَفْلَحَ وَجْهُكَ**»، قُلْتُ: وَوَجْهُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**أَخْبِرْنِي خَبَرَكَ**» فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَكَذَا أَخْبَرَنِي جِبْرِيلُ**».

وَقَالَ القَوْمُ: هَكَذَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ خَوَّاتٌ: **فَكَانَ لَيْلُنَا بِالخَنْدَقِ نَهَارًا**.

قَالَ غَيْرُ صَالِحٍ: قَالَ خَوَّاتٌ: رَأَيْتُنِي وَأَنَا أَتَذَكَّرُ سُوءَ أَثَرِي عِنْدَهُمْ بَعْدَ مُمَالَحَةٍ وَخِلْصِيَّةٍ (**مالحت** فلانًا مماحلة: المِمالحة المواكلة. وفلان يحفظ حرمة المِمالحة وهي الرضاع. تاج العروس (ملح). والخلصية أراها بمعنى الإخلاص والمعاملة الحسنة بينهم، ولم أجد معناها الآن) مِنِّي لَـهُمْ، فَقُلْتُ: هُمْ يُمَثِّلُونَ بِي كُلَّ المَثْلِ حَتَّى ذَكَرْتُ المِعْوَلَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٠-٤٦٢].

المناوشات العسكرية مع اليهود:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَكَانَ هِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ يَقُولُ: أَقْبَلتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِي وَبَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَقَدْ نَكَبْنَا عَـنِ الجِسْرِ وَصَفْنَةَ (منزلة بني عطية بن زائدة) فَأَخَذْنَا عَلَى قُبَاءَ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِعَوْسَا (موضع بوادي رانونـا) إِذَا نَفَـرٌ مِنْهُمْ فِيهِمْ نَبَّاشُ بْنُ قَيْسٍ القُرَظِيُّ، فَنَضَحُونَا بِالنَّبْلِ سَاعَةً وَرَمَيْنَـاهُمْ بِالنَّبْـلِ، وَكَانَـتْ بَيْنَنَـا جِرَاحَـةٌ، ثُـمَّ انْكَشَفُوا عَلَى حَامِيَتِهِمْ، وَرَجَعْنَا إِلَى أَهْلِنَا، فَلَمْ نَرَ لَـهُمْ جَمْعًا بَعْدُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥١].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ، قَالَ: خَرَجَ نَبَّاشُ بْنُ قَيْسٍ لَيْلَةً مِنْ حِصْنِهِمْ يُرِيدُ المَدِينَةَ، وَمَعَهُ عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ مِنْ أَشِدَّائِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: **عَسَى أَنْ نُصِيبَ مِنْهُمْ غِرَّةً**، فَانْتَهَوْا إِلَى بَقِيعِ الغَرْقَدِ، فَيَجِدُونَ نَفَرًا مِنَ المُسْلِمِينَ مِنْ أَصْحَابِ سَلَمَةَ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ حَرِيشٍ ﷺ فَنَاهَضُوهُمْ فَرَامُوهُمْ سَاعَةً بِالنَّبْلِ ثُمَّ انْكَشَفَ القُرَيْظِيُّونَ مُوَلِّينَ.

وَبَلَغَ سَلَمَةَ بْنَ أَسْلَمَ ﷺ وَهُمْ بِنَاحِيَةِ بَنِي حَارِثَةَ، فَأَقْبَلَ فِي أَصْحَابِهِ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى حُصُونِهِمْ فَجَعَلُوا يُطِيفُونَ بِحُصُونِهِمْ حَتَّى خَافَتْ اليَهُودُ، وَأَوْقَدُوا النِّيرَانَ عَلَى آطَامِهِمْ وَقَالُوا: البَيَاتَ، وَهَدَمُوا قَرْنَيْ بِئْرٍ (**القرنان**: منارتان تبنيان على رأس البئر، ويوضع فوقهما خشبة فتعلق البكرة فيها. الصحاح ص ٢١٨٠) لَـهُمْ وَهَوَّرُوهَا (هدموها) عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا يَطْلُعُوا مِنْ حِصْنِهِمْ وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٢].

قريظة تتحرش بحصون نساء المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «ولقد أدركت قيادة الأحزاب ما يعانيه المسلمون من شدة وضيق وكرب وخوف، نتيجة تنظيمات الحصار الجديدة، فشددوا من ضغطهم وضاعفوا من نشاطهم، وأعطوا الإشارة ليهود بني قريظة بأن يبدؤوا التحرش بالمسلمين من الخلف، فيشغلوهم ويقلقوهم بالإغارة على الحصون التي قد جمعت القيادة الإسلامية فيها النساء والذراري عند إخلاء المدينة، وأن يكونوا على أتم الاستعداد ليقوموا ـ ساعة الصفر ـ بالهجوم العام على مواقع المسلمين وراء الخندق.

وقد نفذ اليهود ما طلب الأحزاب منهم، فصاروا يلقون المسلمين ويشوشون عليهم ـ مع ما هم فيه من كرب وبلاء ـ وبالإغارة على الحصون والآطام التي وضع المسلمون فيها نساءهم وأطفالهم.

ولا شيء أقلق لبال الإنسان من علمه بأن زوجته وأبناءه وبناته في خطر، ومهددون بأن يسبيهم العدو، ويأخذهم أسرى.

وهذا هو الذي قصد إليه العدو عندما أوحى إلى يهود بني قريظة بالهجوم على الحصون والآطام التي يتحصن فيها نساء المسلمين وأطفالهم، ولقد قام اليهود ـ فعلًا ـ بالإغارة على هذه الحصون والآطام.

هجوم اليهود على النساء:

فقد قام اليهود ـ في تلك الساعات الرهيبة من ليالي الأحزاب ـ بعدة محاولات للهجوم على تلك الحصون التي يعتصم بها النساء والأطفال.

ولما كانت الحصون ـ إياها ـ ليست بعيدة عن مواقع الجيش الإسلامي وراء الخندق، فإن المسلمين لم يتركوا حرسًا دائمًا خاصًّا يحرس هذه الحصون؛ لأن دوريات المسلمين تطوف باستمرار داخل المدينة وخاصة في الليل.

ولكن القيادة أوصت النساء أن يحركن السيوف في رأس الحصن إذا ما تعرضن لخطر الهجوم من قبل العدو، كإشارة لطلب النجدة، ليسارع المسلمون إلى نجدتهن». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٠٣-٢٠٤].

عَنْ رَافِعِ بن خَدِيجٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الْخَنْدَقِ لَمْ يَكُنْ حِصْنٌ أَحْصَنَ مِنْ حِصْنِ بني حَارِثٍ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ وَالذَّرَارِيَّ فِيهِ، فَقَالَ: «**إِنْ أَلَمَّ بِكُنَّ أَحَدٌ فَأَلْمِعْنَ بِالسَّيْفِ**»، فَجَاءَهُنَّ رَجُلٌ مِنْ بني ثَعْلَبَةَ بن سَعْدٍ يُقَالُ لَهُ: بُجْدَانُ أَحَدُ بني جَحَّاشٍ عَلَى فَرَسٍ، حَتَّى كَانَ فِي أَصْلِ الْحِصْنِ، ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ لِلنِّسَاءِ: **انْزِلَنْ إِلَيَّ خَيْرٌ لَكُنَّ**، فَحَرَّكْنَ السَّيْفَ، فَأَبْصَرَهُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، فَابْتَدَرَ الْحِصْنَ قَوْمٌ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ بني حَارِثَةَ، يُقَالُ لَهُ: ظُهَيْرُ بن رَافِعٍ، فَقَالَ: يَا بُجْدَانُ أَبْرِزْ فَبَرَزَ إِلَيْهِ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَرَسُهُ فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ رَأْسَهُ، فَذَهَبَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. [مجمع الزوائد ٦/ ١٩٣ في المغازي والسير (١٠١٤٤)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٤/ ٢٦٨ رقم ٤٣٧٨] ورجاله ثقات. وقد رواه ابن جرير في تاريخه بسنده من طريق ابن إسحاق. تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٧٠- ٥٧١].

محاولة اليهود الهجوم على نساء النبي ﷺ:

ولم يكتف اليهود بمحاولة الهجوم على نساء الصحابة في الحصون ومحاولة سبيهن، بل حاولوا الهجوم علي نساء النبي ﷺ وعلى من معهن من النساء في حصن آخر، بغية إزعاج المسلمين وإقلاقهم والتشويش عليهم، وهم يواجهون قوات الأحزاب الرئيسة على مشارف الخندق.

عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، خَرَجَ إِلَى الخَنْدَقِ (وفي البزار: أُحُد) فَجَعَلَ نِسَاءَهُ وَعَمَّتَهُ صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ فِي أُطُمٍ يُقَالُ لَهُ: فَارِغٌ، وَجَعَلَ مَعَهُمْ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ رضي الله عنه، وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الخَنْدَقِ، فَيَرْقَى يَهُودِيٌّ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى نِسَاءِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَى عَمَّتِهِ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ: **يَا حَسَّانُ قُمْ إِلَيْهِ حَتَّى تَقْتُلَهُ**، قَالَ: **لاَ وَالله، مَا ذَاكَ فِيَّ، وَلَوْ كَانَ ذَاكَ فِيَّ لَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ**، قَالَتْ صَفِيَّةُ: **فَارْبُطِ السَّيْفَ عَلَى ذِرَاعِي**، قَالَ: ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ حَتَّى قَتَلَتْهُ وَقَطَعَتْ رَأْسَهُ، فَقَالَتْ لَهُ: **خُذِ الرَّأْسَ فَارْمِ بِهِ عَلَى اليَهُودِ**، قَالَ: **مَا ذَاكَ فِيَّ**، فَأَخَذَتْ هِيَ الرَّأْسَ فَرَمَتْ بِهِ عَلَى اليَهُودِ، فَقَالَتِ اليَهُودُ: **قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ يَتْرُكُ أَهْلَهُ خُلُوفًا، لَيْسَ مَعَهُمْ أَحَدٌ**، فَتَفَرَّقُوا وَذَهَبُوا.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَرَّ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه، وَهُوَ يَقُولُ:

مَهْلًا قَلِيلًا يُدْرِكُ الهَيْجَا حَمَلٌ ... لاَ بَأْسَ بِهِ بِالمَوْتِ إِذَا حَانَ الأَجَلُ

قَالَتْ: وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَجْمَلَ مِنْهُ ذَلِكَ اليَوْمَ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ دِرْعٌ مُقَلَّصَةٌ، وَقَدْ تَزَوَّجَ فَبَنَى بِأَهْلِهِ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَيَّام، فَعَلَيْهِ أَثَرُ زَعْفَرَانَ.

قَالَ: وَكَانَ حَسَّانُ رضي الله عنه إِذَا شَدَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الكُفَّارِ يَفْتَحُ الأُطُمَ، وَإِذَا كَرُّوا رَجَعَ مَعَهُمْ.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٣ في المغازي والسير (١٠١٤٥)، وقال الهيثمي: رواه البزار [مسند البزار ٣/ ١٩١ رقم ٩٧٨]، وأبو يعلى باختصار [مسند أبي يعلى ٧/ ٢٦٤ رقم ٤٢٧٧]، وقال: فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فضرب لصفية بسهم كما كان يضرب للرجال، وإسنادهما ضعيف، وقد تقدم الحديث من رواية صفية في وقعة أحد. إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ٥/ ٢٣٢ في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ (٤٥٨٨)، وقال محققه: قال في المختصر (٧/ ٢٩-٣٠ رقم ٥٢٣٨): رواه البزار، وإسناده حسن].

وقد رواها الطبراني عن صفية رضي الله عنها، ولكنه جعلها في غزوة أحد، وهي نفس أحداث الرواية السابقة، فقال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، ثنا إِسْحَاقُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْفَرْوِيُّ، حَدَّثَتْنَا [حَدَّثَتْنِي] أُمُّ عُرْوَةَ بِنْتُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهَا، عَنْ جَدَّتِهَا صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنها، «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَـمَّا خَرَجَ إِلَى **أُحُدٍ** جَعَلَ نِسَاءَهُ فِي أُطُمٍ يُقَالُ لَهُ: فَارِعٌ، وَجَعَلَ مَعَهُنَّ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه، فَكَانَ حَسَّانُ رضي الله عنه يَطْلُعُ عَلَى [إِلَى] النَّبِيِّ ﷺ: فَإِذَا شَدَّ [اشْتَدَّ] عَلَى الْمُشْرِكِينَ أَشَدَّ [اشْتَدَّ] مَعَهُ [وَهُوَ] فِي الْحِصْنِ، وَإِذَا رَجَعَ رَجَعَ

وَرَاءَهُ، قَالَتْ: فَجَاءَ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ فَتَرَقَّى [فَرَقَى] أَحَدُهُمْ فِي الْحِصْنِ حَتَّى أَطَلَّ الْحِصْنَ عَلَيْنَا، فَقُلْتُ لِحَسَّانَ: **قُمْ إِلَيْهِ فَاقْتُلْهُ**، فَقَالَ: **مَا ذَاكَ فِيَّ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فِيَّ لَكُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ**، فَضَرَبَتْ صَفِيَّةُ رَأْسَهُ حَتَّى قَطَعَتْهُ [قَالَتْ صَفِيَّةُ: فَضَرَبْتُ رَأْسَهُ حَتَّى قَطَعْتُهُ]، فَلَمَّا قَطَعَتْهُ [قَطَعْتُهُ، قُلْتُ:]، قَالَتْ: **يَا حَسَّانُ، قُمْ إِلَى رَأْسِهِ فَارْمِ بِهِ إِلَيْهِمْ وَهُمْ مِنْ أَسْفَلِ الْحِصْنِ**، فَقَالَ: **وَاللهِ مَا ذَاكَ فِيَّ**، قَالَتْ: **فَأَخَذْتُ بِرَأْسِهِ فَرَمَيْتُهُ عَلَيْهِمْ**، فَقَالُوا: **قَدْ وَاللهِ عَلِمْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ [يَكُنْ] يَتْرُكْ أَهْلَهُ خُلُوفًا، لَيْسَ مَعَهُمْ أَحَدٌ**، وتَفَرَّقُوا، وَذَهَبُوا، قَالَتْ: وَمَرَّ [بِنَا] قَبْلَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَبِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ كَأَنَّهُ كَانَ مُعَرِّسًا قَبْلَ ذَلِكَ، وَهُوَ [يَرْتَجِزُ و] يَقُولُ:

مَهْلًا قَلِيلًا تَلْحَقِ [يَلْحَقُ] الهَيْجَا جَمَلْ [حَمَلْ]   لَا بَأْسَ بِالمَوْتِ إِذَا حَانَ [كَانَ] الْأَجَلْ

[مجمع الزوائد ٦/ ١٦٥ رقم ١٠٠٨٦، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير [٢٤/ ٣٢١ رقم ٨٠٩]، والأوسط [٤/ ١١٦ رقم ٣٧٥٤]، من طريق أم عروة بنت جعفر بن الزبير عن أبيها ولم أعرفها، وبقية رجاله ثقات].

قال ابن عساكر: قوله: «يوم أحد» وَهْمٌ، إنما كان ذلك يوم الخندق، كما روي من وجه آخر عن صفية.

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي، أنا أبو عاصم بن الحسن، أنا أبو عمر بن مهدي، أنا أبو العباس أحمد بن حمد بن عبدة، نا أحمد بن يحيى الصوفي، نا عبد الرحمن بن شريك، نا أبي، نا محمد بن إسحاق، حدثني يحيى بن عباد بن الزبير عن أبيه عن صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها أنها قالت: كنا مع حسان بن ثابت في حصن فارع والنبي ﷺ بالخندق فإذا يهودي يطوف بالحصن، فخفنا أن يدل على عورتنا، فقلت لحسان: **لو نزلت إلى هذا اليهودي فإني أخاف أن يدل على عورتنا**، فقال: **يا بنت عبد المطلب لقد علمت ما أنا بصاحب هذا**، قالت: فتحزمت، ثم نزلت فأخذت عمودًا فقتلته، ثم قالت لحسان: اخرج فاسلبه، قال: لا حاجة لي في سلبه.

وروي من وجه آخر عن يحيى ولم يذكر صفية في إسناده،... **[تاريخ دمشق لابن عساكر ١٢/ ٤٣٠-٤٣٣]**.

وعَنْ عُرْوَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَدْخَلَ النِّسَاءَ [نِسَاءَهُ] يَوْمَ الأَحْزَابِ أُطُمًا مِنْ آطَامِ المَدِينَةِ، وَكَانَ حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه رَجُلًا جَبَانًا [جَوَادًا]، فَأَدْخَلَهُ مَعَ النِّسَاءِ، وَأَغْلَقَ البَابَ، فَجَاءَ يَهُودِيٌّ، فَقَعَدَ عَلَى بَابِ الأُطُمِ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ بنتُ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ: **انْزِلْ حَسَّانُ إِلَى هَذَا العِلْجِ** (بالكسر العَيْرُ، والحِمارُ، وحِمارُ الوَحْشِ السَّمينُ القَوِيُّ، والرَّغِيفُ الغَليظُ الحَرْفِ، والرَّجُلُ من كُفَّارِ العَجَمِ، ج عُلوجٌ وأعْلاجٌ ومَعْلوجاءُ وعِلَجَةٌ) **فَاقْتُلْهُ**، فَقَالَ: **مَا كُنْتُ لأَجْعَلَ نَفْسِي خَطَرًا لِهَذَا العِلْجِ**، فَائْتَزَرْتُ بِكِسَاءٍ وَأَخَذْتُ فِهْرًا (بالكسر الحَجَرُ قَدْرَ ما يُدَقُّ به الجَوْزُ، أو ما يَمْلأُ الكَفَّ، ويُؤَنَّثُ ج أفهارٌ وفُهُورٌ)، فَنَزَلْتُ إِلَيْهِ، فَقَطَعْتُ رَأْسَهُ.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٤ في المغازي والسير (١٠١٤٦)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٤/ ٣١٩ رقم ٨٠٤] ورجاله إلى عروة رجال الصحيح ولكنه مرسل، وينظر للتفصيل : غزوتا الأحزاب وبني قريظة في ضوء الآيات القرآنية والروايات الحديثية للجبوري ١٥٦-١٥٩].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَحَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ قُرَيْشٍ، قَالَ ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ وَابْنُ جَعْفَرٍ: كَانَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَجُلًا جَبَانًا، فَكَانَ قَدْ رُفِعَ مَعَ النِّسَاءِ فِي الآطَامِ فَكَانَتْ صَفِيَّةُ فِي أُطُمِ فَارِعٍ، وَمَعَهَا جَمَاعَةٌ وَحَسَّانُ مَعَهُمْ، فَأَقْبَلَ عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ، وَرَأْسُهُمْ غَزَّالُ بْنُ سَمَوْأَلٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ نَهَارًا، فَجَعَلُوا يَنْقَمِعُونَ (يدخلون) وَيَرْمُونَ الحِصْنَ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ لِحَسَّانَ: **دُونَك يَا أَبَا الوَلِيدِ**، قَالَ: **لا وَالله لا أُعَرِّضُ نَفْسِي لِهَؤُلاءِ اليَهُودِ**، وَدَنَا أَحَدُهُمْ إِلَى بَابِ الحِصْنِ يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ فَاحْتَجَزَتْ صَفِيَّةُ بِثَوْبِهَا، ثُمَّ أَخَذَتْ خَشَبَةً فَنَزَلَتْ إِلَيْهِ فَضَرَبَتْهُ ضَرْبَةً شَدَخَتْ رَأْسَهُ فَقَتَلَتْهُ، فَهَرَبَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٢-٤٦٣**].

يقول أ/ باشميل: «وهكذا أقلق اليهود المسلمين بتحرشهم بالنساء والذراري، وزادوا من متاعبهم وضاعفوا من بلائهم، ولا شيء أشغل لبال الإنسان من أن تتعرض زوجته وأبناؤه وبناته لخطر السبي والأسر.

ولهذا اضطر المسلمون إلى أن يضاعفوا من قوات الحراسة لحماية نسائهم وأطفالهم من اليهود مما أنقص عدد قواتهم الرئيسة المرابطة على مشارف الخندق لمواجهة الأحزاب.

وشعر المشركون بالنقص الملموس في قوات المسلمين المواجهة لهم على الخندق، فاغتنموا الفرصة، فأطبقوا عليهم من كل ناحية وأشغلوهم إلى درجة الإرهاق والإعياء، وإلى درجة أنهم لم يتركوا لهم فرصة يستريحون فيها أو حتى يؤدون فيها فريضة الصلاة، إذ أجبروهم على المرابطة (ليلًا ونهارًا) على مشارف الخندق في حالة تعبئة لا يفارقهم السلاح.

فصار فرسان الأحزاب يطوفون (في استفزاز متزايد مرعدين ومبرقين) حول الخندق ويتجمعون بأعداد كبيرة حول المضائق طيلة ساعات الليل والنهار وبصورة مزعجة مخيفة لم يسبق لها مثيل مما أجبر المسلمين على البقاء في أسلحتهم مرابطين بصفة دائمة ليلًا ونهارًا على مشارف الخندق وخاصة النقط التي هي مظنة لأن يقتحمها سلاح فرسان الأحزاب، وضاعف المسلمون من نشاط دورياتهم التي أضناها (لقلة رجالها) الطواف المتواصل حول الخندق بصفة متعبة للغاية». [**غزوة الأحزاب لباشميل ٢٠٦-٢٠٧**].

بلوغ القلوب الحناجر:

يقول أ/ باشميل: «ولقد تحدث القرآن الكريم عن حالة الحرج والتدهور هذه ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزع وخوف وفزع في تلك المحنة الرهيبة أصدق وصف، حيث قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب]، فقد عظم البلاء على المسلمين وتضاعف الابتلاء، واشتد الخوف وانتاب الفزع كل القلوب (تقريبًا)، وبلغ الجزع بأفراد الجيش الصغير

(كما حدثنا القرآن) إلى درجة الزلزال، بعد أن أصبح هذا الجيش الإسلامي الصغير ـ بعد غدر اليهود ـ بين نارين: الأحزاب من الأمام، واليهود من الخلف.

وكأن الله تعالى أراد بهذا البلاء العظيم أن يمتحن هذه الأمة الناشئة التي ستنشئ على كاهلها أعظم دولة عرفها التاريخ، ويوكل إليها مهمة نشر أشرف عقيدة عرفتها الدنيا.

فقد ظهر بهذا الامتحان العظيم الطيب من الخبيث والصادق من الكاذب.

أما المؤمنون فقد ثبتوا على إيمانهم ولم يزدهم توتر الحالة وتدهور الموقف إلا تمسكًا بدينهم والتفافًا حول نبيهم». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٦٨-١٦٩].

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب:١٠]، قَالَتْ: كَانَ ذَاكَ يَوْمَ الخَنْدَقِ. [البخاري في المغازي (٤١٠٣)، ومسلم في التفسير (٣٠٢٠)].

وَعِنْدَ اِبْنِ مَرْدَوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ اِبْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قَالَ: عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: أَبُو سُفْيَان بْن حَرْب. [فتح الباري ٧/ ٤٦٢].

ظهور النفاق داخل جيش المدينة:

يقول أ/ باشميل: «أما الذين في قلوبهم مرض والذين يتسترون وراء التظاهر بالإسلام فقد كشفتهم هذه التطورات الخطيرة وظهروا ـ أمام هذا الامتحان العظيم ـ على حقيقتهم كذابين مخادعين يُظهرون ما لا يُبطنون.

فقد كانت فئات من هذا النوع الخبيث (كالطابور الخامس[1] داخل الجيش الإسلامي، يتظاهرون بالإسلام وهم ـ في حقيقتهم ـ يعملون ضد الإسلام ويتمنون زوال المسلمين، وهؤلاء هم المنافقون.

وكان ظهور هذا النوع الخبيث على حقيقته، بل وتظاهره (داخل الجيش الإسلامي) بميله نحو الأحزاب وإطلاقه الإشاعات والأراجيف ضد مقدرة المسلمين على الصمود في وجه العدو، كل ذلك ضاعف من بلاء المسلمين وجعل محنة جيش المدينة الصغيرة تستحكم حلقاتها.

ظهرت من داخل الجيش الإسلامي جماعة تناوئه وتتمرد على قيادته في تلك الساعات الحاسمة من تاريخه، وهذا من أخطر الأخطار التي تواجهها الجيوش المحاربة وتهددها بالدمار ـ حتى إن كانت ضخمة كبيرة ـ فكيف بجيش صغير تبلغ نسبة جنوده حيال أعدائه المحيطين به واحدًا لأحد عشر.

---

(١) **الطابور الخامس**، أو الرتل الخامس كما يطلق عليه في العراق، هم جماعة من الناس يكونون معك (ظاهريًا) ومع عدوك (سرًّا)، وأول ما استعمل في الحرب الإسبانية الأهلية بين الوطنيين من جهة وبين الشيوعيين، وكانت النتيجة استيلاء قوة فرانكو.

لقد ظنت فئة المنافقين الموجودين داخل الجيش الإسلامي ـ وخاصة بعد غدر قريظة وانضمامها إلى الأحزاب ـ ظنت هذه الفئة أن الكيان الإسلامي أصبح قاب قوسين أو أدنى من الانهيار.

ولذلك تجرأت تلك الفئة المنافقة، وصارت ـ داخل المعسكر الإسلامي ـ تتفوه بكلمات خطيرة من شأنها إشاعة الفزع وتحطيم الروح المعنوية بين صفوف الجيش التي استحكمت عليه حلقات المحنة».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٦٩-١٧٠].

مقالة المنافقين والبشارة النبوية في شدة المحنة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَعَظُمَ عِنْدَ ذَلِكَ البَلَاءُ وَاشْتَدَّ الخَوْفُ، وَأَتَاهُمْ عَدُوُّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، حَتَّى ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ ظَنٍّ، وَنَجَمَ النِّفَاقُ مِنْ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، حَتَّى قَالَ مُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْرٍ، أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ: **كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَأَحَدُنَا اليَوْمَ لَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الغَائِطِ.**

أَكَانَ مُعَتِّبٌ مُنَافِقًا؟:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَأَخْبَرَنِي مَنْ أَثِقُ بِهِ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ: أَنَّ مُعَتِّبَ بْنَ قُشَيْرٍ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَاحْتَجَّ بِأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٢، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٠٧-٢٠٩].

وعلى العموم فقد تفوه المنافقون بهذا القول المنكر، وقد أشار القرآن إلى الذين تفوهوا به فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

وهكذا كان وجود فئات المنافقين داخل الجيش الإسلامي ابتلاءً ثالثًا ابتُلي به المسلمون.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: وَنَجَمَ النِّفَاقُ، وَفَشِلَ النَّاسُ، وَعَظُمَ البَلاءُ، وَاشْتَدَّ الخَوْفُ، وَخِيفَ عَلَى الذَّرَارِيِّ وَالنِّسَاءِ، وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**﴾ [الأحزاب: ١٠] وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ وِجَاهَ العَدُوِّ لا يَسْتَطِيعُونَ الزَّوَالَ عَنْ مَكَانِهِمْ يَعْتَقِبُونَ خَنْدَقَهُمْ وَيَحْرُسُونَهُ.

وَتَكَلَّمَ قَوْمٌ بِكَلامٍ قَبِيحٍ، فَقَالَ مُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْرٍ: **يَعِدُنَا مُحَمَّدٌ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَأَحَدُنَا لا يَأْمَنُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى حَاجَتِهِ، وَمَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا.**

فَحَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ ابْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بِالبَيْتِ العَتِيقِ وَآخُذَ المِفْتَاحَ، وَلَيُهْلِكَنَّ اللهُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَلَتُنْفَقَنَّ أَمْوَالُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ**»، يَقُولُ ذَلِكَ حِينَ رَأَى مَا بِالْمُسْلِمِينَ مِنَ الكَرْبِ، فَسَمِعَهُ مُعَتِّبٌ فَقَالَ مَا قَالَ. [المغازي للواقدي٢/ ٤٥٩-٤٦٠].

القوة الثالثة ضد المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «فقد كان هؤلاء المنافقون ـ بالإضافة إلي قوة الأحزاب ويهود بني قريظة ـ قوة ثالثة ضد المعسكر الإسلامي، صارت عن قصد وإصرار ـ وخاصة بعد نقض اليهود العهد ـ تقوم بأعمال تخريبية داخل صفوف المسلمين مما زاد الطين بلة كما يقولون، وضاعف من متاعب القيادة العليا في الجيش الإسلامي.

فقد صار هؤلاء المنافقون، وخاصة بعد غدر اليهود واشتداد الحالة على المسلمين، صاروا وبصورة شبه علنية يبثون روح الفزع والتخاذل واليأس داخل صفوف جيش المدينة.

انسحاب المنافقين من الجيش:

ولم تكتف فئات المنافقين بالإرجاف والسخرية من الإسلام وبث روح الانهزام بين صفوف جيش المدينة بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث أخذوا في الانسحاب والتحريض على الانسحاب من الجيش في ذلك الظرف الدقيق الذي يمر به الكيان الإسلامي كله؛ هادفين من وراء ذلك إلى مساندة الأحزاب وتسهيل مهمتهم بطريق غير مباشر، وتحت ستار حماية منازلهم من غارات يهود بني قريظة.

ففي تلك الحالة التي بلغ فيها موقف المسلمين الذروة من الحرج، تقدم أحد هؤلاء المنافقين الموجودين في الجيش الإسلامي، فطلب ـ باسم ملأ من قومه ـ أن يسمح لهم الرسول القائد ﷺ بالانسحاب من المعسكر المواجه للأحزاب على مشارف الخندق بحجة أنهم بحاجة إلى حماية بيوتهم المكشوفة الواقعة في أطراف المدينة.

وما كان قصد هؤلاء المنافقين حماية بيوتهم، وإنما قصدهم الفرار ثم بث الفزع وروح الهزيمة والتذمر داخل الجيش الصغير الذي أحاط به عدوه من كل مكان». [**غزوة الأحزاب لباشميل ١٧١-١٧٢**].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَتَّى قَالَ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الحَارِثِ: **يَا رَسُولَ الله، إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ مِنَ العَدُوِّ** ـ وَذَلِكَ عَنْ مَلَأٍ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ ـ فَأْذَنْ لَنَا أَنْ نَخْرُجَ فَنَرْجِعَ إِلَى دَارِنَا، فَإِنَّهَا خَارِجٌ مِنَ المَدِينَةِ.
[**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٢**].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَاجْتَمَعَتْ بَنُو حَارِثَةَ فَبَعَثَ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ؛ وَلَيْسَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ مِثْلَ دَارِنَا، لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ غَطَفَانَ أَحَدٌ يَرُدُّهُمْ عَنَّا، فَأْذَنْ لَنَا فَلْنَرْجِعْ إِلَى دُورِنَا فَنَمْنَعْ ذَرَارِيَّنَا وَنِسَاءَنَا، فَأَذِنَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ فَرَجَعُوا بِذَلِكَ وَتَهَيَّؤُوا لِلانْصِرَافِ.

فَبَلَغَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﵁، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله، لا تَأْذَنْ لَهُمْ إِنَّا وَالله مَا أَصَابَنَا وَإِيَّاهُمْ شِدَّةٌ قَطُّ إِلَّا صَنَعُوا هَكَذَا**، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ لِبَنِي حَارِثَةَ: «**هَذَا لَنَا مِنْكُمْ أَبَدًا، مَا أَصَابَنَا وَإِيَّاكُمْ شِدَّةٌ إِلَّا صَنَعْتُمْ هَكَذَا**»، فَرَدَّهُمْ رَسُولُ الله ﷺ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٣**].

يقول أ/ باشميل: «وقد فضح القرآن الكريم هؤلاء المنافقين، حيث صرح بأن طلبهم الانسحاب من الجيش في ذلك الظرف الدقيق، لم يكن لحماية بيوتهم، وإنما كان القصد منه الفرار وتفتيت وحدة الجيش، وبث مزيد من الخوف والفزع في نفوس الجند، فبيوتهم لم تكن عورة (كما زعموا) وإنما هم كاذبون منافقون لا سيما وأن دوريات المسلمين داخل المدينة قد كلفت بحماية ديار هؤلاء، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[الأحزاب].

وهكذا ازدادت حالة المسلمين دقة وازداد موقفهم تحرجًا، بعد اكتشاف فئات المنافقين الذين ظهروا على حقيقتهم داخل صفوف الجيش، وصاروا يسخرون من المسلمين ويبثون روح الهزيمة واليأس داخل صفوفهم.

وبالرغم من أن الخندق قد جمد نشاط جيوش الأحزاب، وجعلها عاجزة عن القيام بأي هجوم جدي واسع، فإن النبي ﷺ كان (وخاصة بعد نقض اليهود العهد وانضمامهم إلى الأحزاب ونجوم النفاق داخل الجيش الإسلامي) يشعر بحراجة مركز جيشه ويخشى عليه ـ مع قلة رجاله بين فكي الكماشة الرهيبة التي تمثلها جيوش الأحزاب وبني قريظة، هذه الكماشة التي بدأت ـ وخاصة بعد غدر يهود بني قريظة ـ تضغط بعنف على عنق جيش المدينة نفسه الذي برزت ـ داخل صفوفه ـ فئات المنافقين، تثبط وتخذل وتنشر روح الهزيمة والعصيان داخل هذا الجيش الصغير الذي بلغت نسبته إلى أعدائه واحدًا لأحد عشر. [**غزوة الأحزاب لباشميل ١٧٣-١٧٤**].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَأَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ بِضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ، لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ إِلَّا الرَّمِيَّا بِالنَّبْلِ وَالحِصَارُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ الرَّمْيَا. [**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٢-٢٢٣**].

المبحث الرابع
محاولة النبي ﷺ تفريق الأحزاب

محاولة النبي ﷺ عقد صلح منفرد مع غطفان:

يقول أ/ الشامي: «لقد ثقلت الوطأة على المسلمين وحف بهم البلاء من كل جانب، فالأعداء يحيطون بهم من كل جانب ولا شك أن انحسار المنافقين من أرض المعركة كان له بعض الأثر، والهجوم متوقع بين لحظة وأخرى، كل ذلك دفع رسول الله ﷺ إلى التفكير في وسيلة يستطيع بها تخفيف الضغط الذي أصاب المسلمين». [من معين السيرة للشامي ٣٠٢].

ويقول أ/ باشميل: «ففي هذه الظروف الخانقة التي بلغت فيها الخطورة والاختناق بالجيش الإسلامي الذروة، وكان لابد للقائد الأعلى النبي ﷺ من أن يفكر في وسيلة تخفف ـ على الأقل ـ من الضغط الخانق الذي يتعرض له جيشه الصغير، والذي ينتظر أن يتعرض لمزيد من الأخطار المزلزلة إذا ما وفت قريظة الخائنة بوعدها للأحزاب وشنت قواتها الهجوم من الخلف على الجيش الإسلامي، الذي كان قد جند كل إمكانياته المحدودة للمرابطة وراء الخندق ومنع الأحزاب من اجتياز هذا الخندق.

ولهذا ـ وقبل أن تقوم قريظة بأي هجوم فِعلي على المسلمين ـ فكر النبي ﷺ ـ كقائد عسكري وسياسي ـ فكر في القيام بعمل يُحدث به الفرقة والاختلاف بين قادة الأحزاب، ليخفف من شدة وطأة الحصار العنيف المضروب على المدينة، وليفت في عضد اليهود ليؤخروا ـ على الأقل ـ عملية القيام بضرب المسلمين من الخلف، هذه العملية المخيفة التي كان الجيش الإسلامي يتوقعها بين لحظة وأخرى».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٧٤].

عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ قَالَ: جَاءَ الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ فَقَالَا لِرَسُولِ الله ﷺ عَامَ الخَنْدَقِ: **نَكُفُّ عَنْكَ غَطَفَانَ عَلَى أَنْ تُعْطِينَا ثِمَارَ المَدِينَةِ**، قَالَ: فَرَاوَضُوهُ حَتَّى اسْتَقَامَ الأَمْرُ عَلَى نِصْفِ ثِمَارِ المَدِينَةِ، فَقَالُوا: اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا، فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ، قَالَ: وَالسَّعْدَانِ: سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنهما جَالِسَانِ، فَأَقْبَلَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَا: «**أَشَيْءٌ أَتَاكَ عَنِ الله لَيْسَ لَنَا أَنْ نَعْرِضَ فِيهِ**، قَالَ: «**لَا، وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَصْرِفَ وُجُوهَ هَؤُلَاءِ عَنِّي وَيَفْرُغَ وَجْهِي لِهَؤُلَاءِ**»، قَالَ: قَالَا لَهُ: **مَا نَالَتْ مِنَّا العَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِنَا شَيْئًا إِلَّا بِشِرًى أَوْ قِرًى**». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٣-٣٨٤ في المغازي (٣٧٩٧١)، وقال الشيخ عوامة: «هو من مراسيل سعيد بن المسيب»].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ الحَارِثُ الغَطَفَانِيُّ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، نَاصِفْنَا تَمْرَ (بالمثناة الفوقية وهو التمر المعروف، وفي بعض المراجع «ثمر» بالمثلثة وهي تعم التمر وغيره. ينظر في ذلك: البداية والنهاية ٤/ ١٠٤، أسد الغابة ٢/ ٢٨٤) المَدِينَةِ ، وَإِلَّا مَلأْنَاهَا [مَلأْتُهَا] عَلَيْكَ خَيْلًا وَرِجَالًا، فَقَالَ ﷺ: «**حَتَّى أَسْتَأْمِرَ السُّعُودَ**: سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ وَسَعْدَ بنَ مُعَاذٍ»، يَعْنِي يُشَاوِرُهُمَا، فَقَالا: «**لَا وَالله مَا أَعْطَيْنَا الدَّنِيَّةَ** (هي

الخصلة الحقيرة المذمومة من الدنو) مِنْ أَنْفُسِنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَكَيْفَ وَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالإِسْلامِ؟!»، فَرَجَعَ إِلَيْهِ الحَارِثُ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: غَدَرْتَ يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: فَقَالَ حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه:

يَا حَارِ مَنْ يَغْدُرْ بِذِمَّةِ جَارِهِ ... مِنْكُـم فَإِنَّ مُحَمَّدًا لا يَغْدُرُ
إِنْ تَغْدُرُوا فَالغَدْرُ مِنْ عَادَاتِكُمْ ... وَاللؤْمُ يَنْبُتُ فِي أُصُولِ السَّخْبَرِ
وَأَمَانَةُ النَّهْدِي حَيْثُ لَقِيتَهَا ... مِثْلُ الزُّجَاجَةِ صَدْعُهَا لا يُجْبَرُ (١)

قَالَ: فَقَالَ الحَارِثُ: «كُفَّ عَنَّا يَا مُحَمَّدُ لِسَانَ حَسَّانَ، فَلَوْ مُزِجَ بِهِ مَاءُ البَحْرِ لـمَزَجَهُ».[مسند البزار ١٤/ ٣٣٧ رقم ٨٠١٧، والإصابة ٢/ ٣٦. قال البزار: «لا نعلم رواه عن محمد بن عمرو هكذا إلا عثمان ولم نسمعه إلا من عقبة». والحديث بهذا السند يعتبر حسنًا لذاته وقد ذكره ابن الأثير عند ترجمة سعد بن مسعود الأنصاري وكذا ذكره الحافظ].

ولفظ الطبراني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ الحَارِثُ الغَطَفَانِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، شَاطِرْنَا تَمْرَ الـمَدِينَةِ، قَالَ: «حَتَّى أَسْتَأْمِرَ السُّعُودَ»، فَبَعَثَ إِلَى سَعْدِ بن مُعَاذٍ، وَسَعْدِ بن عُبَادَةَ، وَسَعْدِ بن الرَّبِيعِ، وَسَعْدِ بن خَيْثَمَةَ، وَسَعْدِ بن مَسْعُودٍ، رَحِمَهُمُ اللهُ، فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّ الحَارِثَ يَسْأَلُكُمْ أَنْ تُشَاطِرُوهُ تَمْرَ المَدِينَةِ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ عَامَكُمْ هَذَا، حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَوَحْيٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَالتَّسْلِيمُ لأَمْرِ الله، أَوْ عَنْ رَأْيِكَ، أَوْ هَوَاكَ، فَرَأْيُنَا تَبَعٌ لِهَوَاكَ ورَأْيِكَ؟ فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ الإِبْقَاءَ عَلَيْنَا، فَوَالله لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَإِيَّاهُمْ عَلَى سَوَاءٍ مَا يَنَالُونَ مِنَّا تَمْرَةً إِلا بِشِرَىً، أَوْ قِرَىً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هُوَ ذَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُونَ»، قَالُوا: غَدَرْتَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ حَسَّانُ بن ثَابِتٍ رضي الله عنه:

يَا حَارِ مَنْ يَغْدُرْ بِذِمَّةِ جَارِهِ ... أَبَدًا [منكـم] فَإِنَّ مُحَمَّدًا لا يَغْدُرُ
وَأَمَانَةُ المَرْءِ [المريِّ (٢)] حَيْثُ لَقِيتَهَا ... كَسْـرُ الزُّجَاجَةِ صَدْعُهَا لا يُجْبَرُ
إِنْ تَغْدُرُوا فَالغَدْرُ مِنْ عَادَاتِكُمْ ... وَاللؤْمُ يَنْبُتُ فِي أُصُولِ السَّخْبَرِ (٣)

---

(١) ينظر في كل ذلك: ديوان حسان ١/ ١٣٧، ٢/ ١٢٧، أسد الغابة ١/ ٣٤٣، الإصابة ١/ ٢٨٦، النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٤٩.

(٢) يقصد الحارث بن عوف المري.

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ١٩١-١٩٢ في المغازي والسير (١٠١٤١)، وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني [في الكبير ٦/ ٢٨-٢٩ رقم ٥٤٠٩]، ورجال البزار والطبراني فيهما محمد ابن عمرو وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات.

قال الحافظ في الإصابة [٣/ ١٧٧]: قال ابن الأثير: في ذكر سعد بن خيثمة نظر؛ لأنه استشهد ببدر والخندق كانت بعدها بثلاث سنين.

قلت: لا يلزم من الغلط في سعد بن خيثمة الغلط في سعد بن مسعود، فإن ثبت الخبر فهو من كبار الأنصار بحيث كان يستشار في ذلك الوقت. ا.هـ. ==

اتصال النبي ﷺ بقيادة غطفان:

يقول أ/ باشميل: «اتصل الرسول القائد ﷺ بقائدي غطفان ـ سرًّا ـ وهما (عيينة بن حصن الفزاري) و(الحارث بن عوف المري) فقد أرسل إليهما ـ في جنح الظلام ـ أحد رجال استخباراته الأمناء الأذكياء ليبلغهما رغبته في الاجتماع بهما (سرًّا) في مقر قيادته وراء الخندق.

وكان النبي ﷺ ـ كقائد أعلى مسؤول وكسياسي محنك مجرب ـ أعلم الناس بنفسيات الرجال، وكان على علم تام بأهداف وغايات كل من القادة والزعماء الذين يقودون هذا الغزو الخطير الساحق.

فهو يعلم ـ مثلًا ـ أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء على ما يمكنهم الاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها.

ولهذا فإن الرسول القائد السياسي المحنك ﷺ، لم يحاول الاتصال بقادة الأحزاب من اليهود كحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع، أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب؛ لأن هدف أولئك الرئيس، لم يكن المال وإنما كان هدفهم، هدفًا سياسيًّا وعقائديًّا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله ـ فقط ـ بقادة غطفان، الذين ـ فعلًا ـ لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي ﷺ.

فقد استجاب القائدان الغطفانيان عيينة بن حصن والحارث بن عوف لطلب النبي القائد ﷺ وحضرا ـ مع بعض أعوانهما ـ إلى مقر قيادة النبي ﷺ، اجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد.

بنود الصلح المقترح:

ولدى وصولهما، شرع النبي ﷺ في مفاوضتهما، كانت هذه المفاوضة تدور ـ بصفة رئيسة ـ حول عرض تقدم به النبي ﷺ يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان، وأهم البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة هي:

١ـ عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الأحزاب.

٢ ـ توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضدهم (وخاصة في هذه الفترة).

٣ ـ تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها.

== وقال الشيخ الصوياني: سنده حسن وفي متنه زيادة غير صحيحة، وهي كلمة (سعد بن الربيع) وهي من أوهام ابن علقمة. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص٣١٧، صحيح السيرة النبوية للعلي ص ٢٧٢ رقم ٤٣٧.

٤ ـ يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من مختلف الأنواع، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة.

وقد وافق قائد غطفان (عيينة بن حصن والحارث بن عوف) على هذا العرض موافقة تامة إلا أنهما طلبا نصف ثمار المدينة بدل الثلث، ولكن النبي ﷺ (في هذه المفاوضة الأولية) أصر على الثلث.

فقبلت غطفان ذلك ورضوا بثلث ثمار المدينة، وتم (مبدئيًّا) الاتفاق على عقد الصلح، وفعلًا، حررت المعاهدة وسجلت بنودها، وكان كاتبها عثمان بن عفان ؓ، ولم يبق لإنفاذها إلا توقيع الطرفين عليها وإشهاد الشهود». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٧٤-١٧٧].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَى النَّاسِ البَلَاءُ بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ ـ كَمَا حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ ابْنِ قَتَادَةَ وَمَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ عُبَيْدِ الله بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ ـ إِلَى عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَإِلَى الحَارِثِ بْنِ عَوْفِ بْنِ أَبِي حَارِثَةَ الـمُرِّيِّ ـ وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ ـ فَأَعْطَاهُمَا ثُلُثَ ثِمَارِ الـمَدِينَةِ عَلَى أَنْ يَرْجِعَا بِمَنْ مَعَهُمَا عَنْهُ وَعَنْ أَصْحَابِهِ، فَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا الصُّلحُ حَتَّى كَتَبُوا الكِتَابَ، وَلَمْ تَقَعْ الشَّهَادَةُ وَلَا عَزِيمَةُ الصُّلحِ، إِلَّا المُرَاوَضَةَ فِي ذَلِكَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٣].

استشارة الأنصار:

يقول أ/ باشميل: «ويظهر أن النبي ﷺ قد اشترط موافقة سادة الأوس والخزرج من الأنصار على هذه الاتفاقية لتكون نافذة المفعول؛ لأن ثمار المدينة هي ملك للأنصار وحدهم، ولا يمكن التعهد بإعطاء أحد شيئًا من هذه الثمار دون موافقة مالكيها وخاصة إذا كان الأمر اجتهادًا سياسيًّا من النبي ﷺ، لا وحيًا من السماء.

ولهذا ـ وقبل التوقيع على هذه الاتفاقية ـ استدعى النبي ﷺ، سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وشرح لهما بحضور عيينة بن حصن والحارث بن عوف ـ ما دار بينه وبين هذين القائدين وما توصل إليه من اتفاق معهما تنسحب بموجبها وتفك الحصار عن المدينة جميع قبائل غطفان التي يتكون منها العمود الفقري لهذا الغزو الكبير، مقابل إعطائها ثلث ثمار المدينة.

ثم استشار النبي ﷺ السعدين في الأمر ـ وخاصة البند المتعلق بإعطاء ثلث ثمار المدينة لغطفان ـ وطلب منهما إبداء رأيهما الأخير في هذه الاتفاقية.

سادة الأنصار يرفضون الصلح:

وبعد أن استمعا إلى النبي ﷺ واطلعا على بنود الاتفاقية ـ لم يعجبهما ولم يرق لهما البند المتعلق بإعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة، فلم يلق قبولًا من نفسيهما بل استعظماه.

إلا أنهما كمؤمنين صادقين لا يبيحان لأنفسهما الخروج على أمر النبي ﷺ ـ حتى ولو كان فيه هلاكهما ـ أبلغا النبي القائد ﷺ أنهما ـ باسم الأنصار جميعًا ـ على أتم استعداد للموافقة على هذه الاتفاقية بكاملها إذا كان ذلك عن أمر الله ووحي منه.

أما إذا كان الأمر لا يعدو أن يكون رأيًا فيه مجال للأخذ والرد فإن لهما رأيًا غير الرأي الذي رآه النبي ﷺ، وهو أنهم يرفضان بصراحة إعطاء قبائل غطفان تمرة واحدة من ثمار المدينة على هذه الصورة».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٧٧-١٧٨].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَفْعَلَ بَعَثَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رضي الله عنهما فَذَكَرَ ذَلِكَ لَـهُمَا، وَاسْتَشَارَهُمَا فِيهِ، فَقَالَا لَهُ: **يَا رَسُولَ الله، أَمْرًا تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ العَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا؟** قَالَ ﷺ: «**بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَالله مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّنِي رَأَيْتُ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ** (اشتدوا عليكم) **مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا**».

والله لا نعطيهم إلا السيف:

فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه: **يَا رَسُولَ الله، قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ القَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِالله وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، لَا نَعْبُدُ اللهَ وَلَا نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلَّا قِرًى** (ما يُصنع للضيف من الطعام) **أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ وَهَدَانَا لَهُ، وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا، وَالله مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَالله لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.**

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَأَنْتَ وَذَاكَ**».

فَتَنَاوَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه الصَّحِيفَةَ فَمَحَا مَا فِيهَا مِنَ الكِتَابِ، ثُمَّ قَالَ: لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٣].

يقول أ/ باشميل: «وهكذا ازداد البلاء على المسلمين، فقد ضاعف رفض سادة الأنصار فكرة عقد الصلح المنفرد مع غطفان مقابل إعطائهم ثلث ثمار المدينة، ضاعف هذا الرفض من متاعب المسلمين العسكرية، وبدد الأمل في تخفيف الضغط عليهم، هذا التخفيف الذي كان هو المقصود بالدعوة إلى مصالحة غطفان.

إلا أن هذا الرفض من ناحية أخرى، أثبت للقادة المسؤولين في الجانبين ـ الأحزاب والمسلمين ـ أن هناك داخل الجيش الإسلامي الصغير، رجالًا يعدون بالآلاف، لا تزيدهم المحن إلا قوة، ولا البلايا إلا إيمانًا وثباتًا وتمسكًا بنبيهم والتفافًا حوله.

فارتفعت لهذا الموقف المتصلب نسبة الروح المعنوية بين المؤمنين الصادقين، وخرج قادة غطفان من معسكر الجيش الصغير، وصور أولئك الأسود الضواري الذين جاؤوا ليقولوا لقادة أقوى قوة ضاربة تبلغ نسبة رجالها إلى رجالهم أحد عشر لواحد، وقفوا ليقولوا لقادة هذه القوة التي تكاد تغرقهم بكتائبها الهائجة من كل مكان وقفوا ليقولوا لها في تحد واستخفاف : والله لا نعطيكم ثمرة واحدة من ثمار المدينة إلا ضيافة، فافعلوا ما يحلو لكم.

موقف رائع:

نعم عاد قادة غطفان من معسكر المسلمين، وقد أدركوا حقيقة كانوا يجهلونها كل الجهل، وهي أن الذي يصنع الانتصارات الحقيقية ويبعث الأمن والطمأنينة في النفوس ـ ساعة الروع ـ ليس كثرة الجيوش وقوتها، وإنما الذي يصنع كل ذلك هو قوة العقيدة وزخم الإيمان بالله تعالى، عاد قادة غطفان من معسكر الجيش الصغير وهذه الكلمات تدوي في آذانهم دويًّا، كلمة قالها سعد بن معاذ ـ سيد الأوس ـ أمام قادة غطفان، في ذلك الظرف الحرج الدقيق الذي بلغت فيه قلوب المسلمين الحناجر من شدة الكرب وتلاحق المحن وتقاطر البلايا، كلمة ما كان ليقولها لولا الإيمان الصادق أمام قادة تلك القوة الضاربة، إلا الذي يملك قياد عشرين ألف مقاتل على الأقل.

ولكن محور العجب هنا هو أن الذي قال هذه الكلمة التي تتفجر منها ينابيع الرجولة والشجاعة والأنفة والإيمان والثقة المتناهية بالنفس ليس وراءه أكثر من ثمانمائة مقاتل تقابلها في الجانب المعادي الآخر أحد عشر ألف مقاتل ومن ورائها احتياطي لا يقل عن ثلاثة آلاف مقاتل في خيبر والمدينة.

ولعل هذه الكلمة التي قالها سعد بن معاذ ﭬ للرسول القائد ﷺ بحضور قادة غطفان، كانت من أكبر الأسباب التي جعلت قادة هذه القبائل يعيدون النظر في مخططهم العدواني، فيتقلَّون بشأن المجازفة في مقاتلة المسلمين، فمن الجدير بالذكر أنه بعد عودة عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري من معسكر المسلمين وسماعهم الذي سمعوا من سعد بن معاذ ﭬ لم يكن لغطفان أي دور حربي ضد المسلمين، حيث ظلت قوات هذه القبائل مرابطة في معسكراتها حتى أذن القائد العام أبو سفيان بالرحيل وفكت الأحزاب الحصار عن المدينة». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٨٠-١٨٢].

تصوير الواقدي للمفاوضات:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، قَالَ: حُصِرَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِضْعَ عَشْرَةَ حَتَّى خَلُصَ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ الكَرْبُ وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تَشَأْ لا تُعْبَدُ**».

فَبَيْنَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الحَالِ أَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ وَإِلَى الحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ ـ وَلَمْ يَحْضُرْ الخَنْدَقَ الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ، وَلا قَوْمُهُ، وَيُقَالُ: حَضَرَهَا الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ.

قَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: وَهُوَ أَثْبَتُ القَوْلَيْنِ عِنْدَنَا، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَرْسَلَ إِلَيْهِ وَإِلَى عُيَيْنَةَ أَرَأَيْت إنْ جَعَلْتُ لَكُمْ ثُلُثَ تَمْرِ المَدِينَةِ تَرْجِعَانِ بِمَنْ مَعَكُمْ وَتُخَذِّلانِ بَيْنَ الأَعْرَابِ؟ قَالا: تُعْطِينَا نِصْفَ تَمْرِ المَدِينَةِ، فَأَبَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَزِيدَهُمَا عَلَى الثُّلُثِ فَرَضِيَا بِذَلِكَ، وَجَاءَا فِي عَشَرَةٍ مِنْ قَوْمِهِمَا حِينَ تَقَارَبَ الأَمْرُ، فَجَاؤُوا وَقَدْ أَحضَرَ رَسُولُ الله ﷺ أَصْحَابَهُ وَأَحْضَرَ الصَّحِيفَةَ وَالدَّوَاةَ، وَأَحْضَرَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنه فَأَعْطَاهُ الصَّحِيفَةَ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَكْتُبَ الصُّلحَ بَيْنَهُمْ، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ رضي الله عنه قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ الله ﷺ مُقَنَّعٌ فِي الحَدِيدِ.

فَأَقْبَلَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ رضي الله عنه إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَلا يَدْرِي بِمَا كَانَ مِنَ الكَلام، فَلَـمَّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَجَاءَ عُيَيْنَةُ مَادًّا رِجْلَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ، وَعَلِمَ مَا يُرِيدُونَ فَقَالَ: **يَا عَيْنَ الهِجْرِسِ اقْبِضْ رِجْلَيْكَ أَتَمُدُّ رِجْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله**؟ وَمَعَهُ الرُّمْحُ، وَالله لَوْلا رَسُولُ الله لأَنْفَذْتُ خُصْيَتَيْك بِالرُّمْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله إنْ كَانَ أَمْرًا مِنَ السَّمَاءِ فَامْضِ لَهُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَوَالله لا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ مَتَى طَمِعُوا بِهَذَا مِنَّا**؟ فَأُسْكِتَ رَسُولُ الله ﷺ، وَدَعَا سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فَاسْتَشَارَهُمَا فِي ذَلِكَ، وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَيْهِمَا، وَالقَوْمُ جُلُوسٌ فتكَلَّمَ بِكَلامٍ يُخْفِيهِ وَأَخْبَرَهُمَا بِمَا قَدْ أَرَادَ مِنَ الصُّلحِ.

فَقَالا: **إنْ كَانَ هَذَا أَمْرًا مِنَ السَّمَاءِ فَامْضِ لَهُ، وَإِنْ كَانَ أَمْرًا لَمْ تُؤْمَرْ فِيهِ وَلَكَ فِيهِ هَوًى فَامْضِ لِمَا كَانَ لَك فِيهِ هَوًى، فَسَمْعًا وَطَاعَةً، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا هُوَ الرَّأْيُ فَمَا لَـهُمْ عِنْدَنَا إِلَّا السَّيْفُ**.

وَأَخَذَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه الكِتَابَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي رَأَيْتُ العَرَبَ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، فَقُلْتُ أُرْضِيهِمْ وَلا أُقَاتِلُهُمْ**»، فَقَالا: **يَا رَسُولَ الله إنْ كَانُوا لَيَأْكُلُونَ العِلْهِزَ** [(١)] **فِي الـجَاهِلِيَّةِ مِنَ الجَهْدِ مَا طَمِعُوا بِهَذَا مِنَّا قَطُّ، أَنْ يَأْخُذُوا تَمْرَةً إِلَّا بِشِرَىً أو قِرَىً، فَحِينَ أَتَانَا اللهُ تَعَالَى بِكَ، وَأَكْرَمَنَا بِكَ، وَهَدَانَا بِكَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ، لا نُعْطِيهِمْ أَبَدًا إِلَّا السَّيْفَ**.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**شُقَّ الكِتَابَ**»، فَتَفَلَ سَعْدٌ فِيهِ ثُمَّ شَقَّهُ، وَقَالَ: بَيْنَنَا السَّيْفُ، فَقَامَ عُيَيْنَةُ، وَهُوَ يَقُولُ: **أَمَا وَالله لَلَّتِي تَرَكْتُمْ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الخُطَّةِ الَّتِي أَخَذْتُمْ، وَمَا لَكُمْ بِالقَوْمِ طَاقَةٌ**.

---

(١) قال في النهاية ٣/ ٢٩٣: هو شيء يتخذونه في سنين المجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه، وقيل كانوا يخلطون به القردان. وقيل: العلهز: شيء ينبت ببلاد بني سليم له أصل كالبردي. وينظر: السيرة الحلبية ٢/ ٢١٨.

فَقَالَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ﷺ: **يَا عُيَيْنَةُ أَبِالسَّيْفِ تُخَوِّفُنَا؟ سَتَعْلَمُ أَيُّنَا أَجْزَعَ وَإِلَّا فَوَاللهِ لَقَدْ كُنْتَ أَنْتَ وَقَوْمَكَ تَأْكُلُونَ العِلْهِزَ وَالرِّمَّةَ مِنَ الجَهْدِ فَتَأْتُونَ هَاهُنَا مَا تَطْمَعُونَ بِهَذَا مِنَّا إِلَّا قِرًى أَوْ شِرًى، وَنَحْنُ لا نَعْبُدُ شَيْئًا، فَلَـمَّا هَدَانَا اللهُ وَأَيَّدَنَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ سَأَلْتُمُونَا هَذِهِ الخُطَّةَ، أَمَا وَاللهِ لَوْلا مَكَانُ رَسُولِ اللهِ مَا وَصَلْتُمْ إِلَى قَوْمِكُمْ.**

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْجِعُوا، بَيْنَنَا السَّيْفُ**» رَافِعًا صَوْتَهُ، فَرَجَعَ عُيَيْنَةُ وَالحَارِثُ وَهُمَا يَقُولانِ: **وَاللهِ مَا نَرَى أَنْ نُدْرِكَ مِنْهُمْ شَيْئًا، وَلَقَدْ أُنْهِجَتْ لِلقَوْمِ بَصَائِرُهُمْ، وَاللهِ مَا حَضَرْتُ إِلَّا كُرْهًا لِقَوْمٍ غَلَبُونِي، وَمَا مَقَامُنَا بِشَيْءٍ مَعَ أَنَّ قُرَيْشًا إِنْ عَلِمَتْ بِمَا عَرَضْنَا عَلَى مُحَمَّدٍ عَرَفَتْ أَنَّا قَدْ خَذَلْنَاهَا وَلَمْ نَنْصُرْهَا.**

قَالَ عُيَيْنَةُ: **هُوَ وَاللهِ ذَلِكَ**، قَالَ الحَارِثُ: **أَمَا إِنَّا لَمْ نُصِبْ بِتَعَرُّضِنَا لِنَصْرِ قُرَيْشٍ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَاللهِ لَئِنْ ظَهَرَتْ قُرَيْشٌ عَلَى مُحَمَّدٍ لَيَكُونَنَّ الأَمْرُ فِيهَا دُونَ سَائِرِ العَرَبِ، مَعَ أَنِّي أَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ أَمْرًا ظَاهِرًا، وَاللهِ لَقَدْ كَانَ أَحْبَارُ يَهُودِ خَيْبَرَ وَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَنَّهُمْ يَجِدُونَ فِي كُتُبِهِمْ إِنَّهُ يُبْعَثُ نَبِيٌّ مِنَ الحَرَمِ عَلَى صِفَتِهِ**، قَالَ عُيَيْنَةُ: **إِنَّا وَاللهِ مَا جِئْنَا نَنْصُرُ قُرَيْشًا، وَلَوْ اسْتَنْصَرْنَا قُرَيْشًا مَا نَصَرَتْنَا وَلا خَرَجَتْ مَعَنَا مِنْ حَرَمِهَا، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَطْمَعُ أَنْ نَأْخُذَ تَمْرَ المَدِينَةِ فَيَكُونُ لَنَا بِهِ ذِكْرٌ مَعَ مَا لَنَا فِيهِ مِنْ مَنْفَعَةِ الغَنِيمَةِ مَعَ أَنَّا نَنْصُرُ حُلَفَاءَنَا مِنَ اليَهُودِ فَهُمْ جَلَبُونَا إِلَى مَا هَاهُنَا.**

قَالَ الحَارِثُ: **قَدْ وَاللهِ أَبَتِ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ إِلَّا السَّيْفَ، وَاللهِ لَتُقَاتِلُنَّ عَنْ هَذَا السَّعَفِ مَا بَقِيَ مِنْهَا رَجُلٌ مُقِيمٌ، وَقَدْ أَجْدَبَ الجَنَابُ وَهَلَكَ الخُفُّ وَالكُرَاعُ.**

قَالَ عُيَيْنَةُ: **لا شَيْءَ**، فَلَـمَّا أَتَيَا مَنْزِلَهُمَا جَاءَتْهُمَا غَطَفَانُ فَقَالُوا: **مَا وَرَاءَكُمْ؟** قَالُوا: **لَمْ يَتِمَّ الأَمْرُ رَأَيْنَا قَوْمًا عَلَى بَصِيرَةٍ وَبَذْلِ أَنْفُسِهِمْ دُونَ صَاحِبِهِمْ وَقَدْ هَلَكْنَا وَهَلَكَتْ قُرَيْشٌ، وَقُرَيْشٌ تَنْصَرِفُ وَلا تُكَلِّمُ مُحَمَّدًا وَإِنَّمَا يَقَعُ حَرُّ مُحَمَّدٍ بِبَنِي قُرَيْظَةَ إِذَا وَلَّيْنَا جَثَمَ عَلَيْهِمْ فَحَصَرَهُمْ جُمْعَةً حَتَّى يُعْطُوا بِأَيْدِيهِمْ.**

قَالَ الحَارِثُ: **بُعْدًا وَسُحْقًا، مُحَمَّدٌ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ اليَهُودِ.** [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٧-٤٨٠].

توتر الحالة ومضاعفة التيقظ:

يقول أ/ باشميل: «ومما لا جدال فيه أن التوتر بعد نقض قريظة العهد ورفض الأنصار فكرة عقد الصلح المنفرد مع غطفان ـ كما اقترح النبي ﷺ ـ قد بلغ الذروة.

وحسبانًا للطوارئ التي ينتظر المسلمون حدوثها نتيجة هذه التطورات الخطيرة، ضاعف المسلمون من يقظتهم واستعدادهم وصاروا يرهقون أنفسهم بالعمل المتواصل للدفاع عن كيانهم.

فقد وضعت قيادة المدينة المواقع الضيقة من الخندق ـ المحتمل اقتحامها من جهة خيل الأحزاب ـ تحت المراقبة الشديدة المتواصلة، خوفًا من أن تدفع نشوة الفرح بانضمام اليهود إلى جانب الأحزاب، بعض شجعانهم إلى اقتحام الخندق بالخيل.

حتى إن الرسول القائد ﷺ قد رابط بنفسه حول أخطر نقطة يتوقع المسلمون اقتحامها من قبل خيل الأحزاب، كما ضاعفت القيادة النبوية من نشاط دوريات الحراسة المتجولة على طول الخندق، كما كلفوا قوة أخرى من احتياطيهم بالمرابطة خلف خطوطهم الخلفية لمراقبة اليهود والصمود في وجههم إذا ما حاولوا الهجوم.

ولقد تضاعف الخوف واشتد الفزع وركضت القلوب بين الجنوب ـ رعبًا وهلعًا ـ حتى بلغت الحناجر، وأخذ المنافقون ـ في تلك الليالي المخيفة التي تحالفت فيها ـ على المسلمين ـ البلايا وتقاطرت فيها ضدهم الخطوب والرزايا ـ أخذ هؤلاء المنافقون يتسللون ـ هربًا ـ من مواقعهم داخل صفوف الجيش الإسلامي، تاركين هذا الجيش الصغير لمصيره في مهب العاصفة التي تنوشه رياحها الهوج بعنف وقسوة تنخلع لها القلوب.

ثبات العصبة المؤمنة:

وظلت الصفوة المختارة من صحابة محمد ﷺ الأبرار بجانب الرسول القائد العظيم ﷺ صامدة ثابتة، في تلك الليالي الحاسمات المثقلات بالمحن والكروب، في انتظار ما ستتمخض عنه هذه الليالي من أحداث خطيرة مقلقة، لا يعلم مداها إلا الله، وخاصة ما يتوقعه المسلمون من هجوم تقوم به قريظة الغادرة على الجيش الإسلامي من الخلف، كما هي الخطة المتفق عليها بين اليهود والأحزاب».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٨٢-١٨٣].

المبحث الخامس

التحول العسكري في المعركة

نقطة التحول في المعركة عسكريًّا:

يقول أ/ باشميل: «وبعد نقض قريظة العهد وانضمامها إلى الأحزاب، دخلت فعلًا الحرب في مراحل أكثر جدية من ذي قبل، فقد كانت مفاجأة قيادة المدينة لقيادة الأحزاب بحفر الخندق كخط أول للدفاع عن المدينة صدمة عنيفة جعلت قادة الأحزاب يفقدون الأمل في سحق المسلمين عن طريق الالتحام بهم في معركة فاصلة كما هي الخطة المرسومة للمعركة والمتفق عليها من الأساس.

ولكن الأمل في سحق المسلمين عن طريق الالتحام بهم في معركة فاصلة أخذ يعود إلى نفوس قادة الأحزاب، بعد أن تبلغوا من يهود بني قريظة رسميًّا انحيازهم إليهم واستعدادهم لضرب المسلمين من الخلف.

فأخذوا لذلك يضاعفون من تحفزاتهم ومحاولاتهم لاقتحام الخندق وعبوره نحو المسلمين، وضاعفوا من دورياتهم الاستفزازية على طول الخندق لإرهاب المسلمين وتحطيم معنوياتهم تمهيدًا للخطة الحاسمة التي يشنون فيها الهجوم العام المرتقب عليهم بالاشتراك مع يهود بني قريظة.

ولذلك فقد اتفق قادة قريش أبو سفيان بن حرب، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وضرار بن الخطاب الفهري، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي هبيرة، ونوفل بن عبد الله، اتفقوا على أن يقودوا عملية مناوشة المسلمين وإزعاجهم بأنفسهم.

فقد اتفق هؤلاء القادة على أن يكون لكل واحد منهم يوم، يقود فيه عمليات الاستفزاز والمناوشات على طول مشارف الخندق، فصار رجال كل قائد من هؤلاء القادة يقوم بهذه العمليات لمدة يوم وليلة دونما انقطاع». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٨٣-١٨٤].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَأَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ وَعَدُوُّهُمْ مُحَاصِرُوهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ، إِلَّا أَنَّ فَوَارِسَ مِنْ قُرَيْشٍ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدِّ بْنِ أَبِي قَيْسٍ، أَخُو بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَال: عَمْرُو بْنُ عَبْدِ بْنِ أَبِي قَيْسٍ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ الْمَخْزُومِيَّانِ، وَضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ الشَّاعِرُ ابْنُ مِرْدَاسٍ أَخُو بَنِي مُحَارِبِ بْنِ فِهْرٍ، تَلَبَّسُوا لِلْقِتَالِ، ثُمَّ خَرَجُوا عَلَى خَيْلِهِمْ حَتَّى مَرُّوا بِمَنَازِلِ بَنِي كِنَانَةَ، فَقَالُوا: تَهَيَّؤُوا يَا بَنِي كِنَانَةَ لِلحَرْبِ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ الْفُرْسَانُ الْيَوْمَ، ثُمَّ أَقْبَلُوا تُعْنِقُ بِهِمْ خَيْلُهُمْ حَتَّى وَقَفُوا عَلَى الْخَنْدَقِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: **وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَكِيدُهَا.**

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: فكَانَ المُشْرِكُونَ يَتَنَاوَبُونَ بَيْنَهُمْ، فَيَغْدُو أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فِي أَصْحَابِهِ يَوْمًا، [وَيَغْدُو خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ يَوْمًا] (زيادة من الطبقات لابن سعد ٢/ ٦٤)، وَيَغْدُو هُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ يَوْمًا، وَيَغْدُو عِكْرِمَةُ ابْنُ أَبِي جَهْلٍ يَوْمًا، وَضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ يَوْمًا، فَلا يَزَالُونَ يُجِيلُونَ خَيْلَهُمْ مَا بَيْنَ المَذَادِ إِلَى رَاتِجٍ، وَهُمْ فِي نَشَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِمْ يَتَفَرَّقُونَ مَرَّةً وَيَجْتَمِعُونَ أُخْرَى، حَتَّى عَظُمَ البَلاءُ وَخَافَ النَّاسُ خَوْفًا شَدِيدًا.

وَيُقَدِّمُونَ رُمَاتَهُمْ ـ وَكَانَ مَعَهُمْ رُمَاةٌ حِبَّانُ بْنُ العَرِقَةِ وَأَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَفْنَاءِ العَرَبِ ـ فَعَمَدُوا يَوْمًا مِنْ ذَلِكَ فَتَنَاوَشُوا بِالنَّبْلِ سَاعَةً وَهُمْ جَمِيعًا فِي وَجْهٍ وَاحِدٍ وِجَاهَ قُبَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، وَرَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ عَلَيْهِ الدِّرْعُ وَالمِغْفَرُ وَيُقَالُ: عَلَى فَرَسِهِ.

فَيَرْمِي حِبَّانُ بْنُ العَرِقَةِ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﷺ بِسَهْمٍ فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ، فَقَالَ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ العَرِقَةِ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**عَرَّقَ اللهُ وَجْهَكَ فِي النَّارِ**»، وَيُقَال: أَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ رَمَاهُ وَكَانَ دَارِعًا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٨-٤٦٩].

إلا أن هذه المناوشات الجديدة المنظمة ـ بسبب وجود الخندق ـ لم تتعد الجولان بالخيل والرمي بالنبل والقذف بالحجارة، مما لم يكن له أي أثر حاسم يذكر في سير المعركة.

قال الواقدي: فَحَدَّثَنِي أَيُّوبُ بْنُ النُّعْمَانِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ يَحْرُسُ الخَنْدَقَ فِي أَصْحَابِهِ، فَانْتَهَوْا إِلَى مَكَانٍ مِنَ الخَنْدَقِ تَطْفُرُهُ (**طفر**: وثب في ارتفاع، وطفر الحائط: وثبه إلى ما ورائه) الخَيْلُ، فَإِذَا طَلِيعَةٌ مِنَ المُشْرِكِينَ مِائَةُ فَارِسٍ أَوْ نَحْوُهَا، عَلَيْهِمْ عَمْرُو بْنُ العَاصِ يُرِيدُونَ أَنْ يُغِيرُوا إِلَى المُسْلِمِينَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ عَلَيْهَا بِأَصْحَابِهِ، فَرَمَوْهُمْ بِالحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ حَتَّى أَجْهَضُوا عَنَّا وَوَلَّوْا.

وَكَانَ فِي المُسْلِمِينَ تِلكَ اللَّيْلَةَ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ ﷺ، فَقَالَ لأُسَيْدٍ ﷺ: إِنَّ هَذَا مَكَانٌ مِنَ الخَنْدَقِ مُتَقَارِبٌ، وَنَحْنُ نَخَافُ تَطْفُرَهُ خَيْلُهُمْ، وَكَانَ النَّاسُ عَجِلُوا فِي حَفْرِهِ، وَبَادَرُوا فَبَاتُوا يُوَسِّعُونَهُ حَتَّى صَارَ كَهَيْئَةِ الخَنْدَقِ، وَأَمِنُوا أَنْ تَطْفُرَهُ خَيْلُهُمْ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ يَتَنَاوَبُونَ الحِرَاسَةَ، وَكَانُوا فِي قُرٍّ (برد) شَدِيدٍ وَجُوعٍ.

فَحَدَّثَنِي خَارِجَةُ بْنُ الحَارِثِ، عَنْ أَبِي عَتِيقٍ السُّلَمِيِّ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَحْرُسُ الخَنْدَقَ، وَخَيْلُ المُشْرِكِينَ تُطِيفُ بِالخَنْدَقِ وَتَطْلُبُ غُرَّةً وَمُضِيقًا مِنَ الخَنْدَقِ فَتَقْتَحِمُ فِيهِ، وَكَانَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ، وَخَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ هُمَا اللَّذَانِ يَفْعَلانِ ذَلِكَ يَطْلُبَانِ الغَفْلَةَ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَلَقِينَا خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ فِي مِائَةِ فَارِسٍ، قَدْ جَالَ بِخَيْلِهِ يُرِيدُ مَضِيقًا مِنَ الخَنْدَقِ يُرِيدُ أَنْ يَعْبُرَ فُرْسَانُهُ فَنَضَحْنَاهُمْ بِالنَّبْلِ حَتَّى انْصَرَفَ.

فَحَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﵁: أَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ تِلكَ اللَّيْلَةَ فِي مِائَةِ فَارِسٍ، فَأَقْبَلُوا مِنَ العَقِيقِ حَتَّى وَقَفُوا بِالْمُذَادِ وِجَاهَ قُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَذِرْتُ بِالقَوْمِ، فَقُلْتُ لِعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ، وَكَانَ عَلَى حَرَسِ قُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ قَائِمًا يُصَلِّي، فَقُلْتُ: أَتَيْتُ، فَرَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ، وَأَقْبَلَ خَالِدٌ فِي ثَلاثَةِ نَفَرٍ هُوَ رَابِعُهُمْ فَأَسْمَعُهُمْ يَقُولُونَ: هَذِهِ قُبَّةُ مُحَمَّدٍ ارْمُوا فَرَمَوْا، فَنَاهَضْنَاهُمْ حَتَّى وَقَفْنَا عَلَى شَفِيرِ الخَنْدَقِ، وَهُمْ بِشَفِيرِ الخَنْدَقِ مِنَ الجَانِبِ الآخَرِ، فَتَرَامَيْنَا، وَثَابَ إِلَيْنَا أَصْحَابُنَا، وَثَابَ إِلَيْهِمْ أَصْحَابُهُمْ وَكَثُرَتْ الجِرَاحَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، ثُمَّ اتَّبَعُوا الخَنْدَقَ عَلَى حَافَّتَيْهِ وَتَبِعْنَاهُمْ وَالـمُسْلِمُونَ عَلَى مَحَارِسِهِمْ فَكُلَّمَا نَمُرُّ بِمَحْرِسٍ نَهَضَ مَعَنَا طَائِفَةٌ، وَثَبَتَ طَائِفَةٌ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَاتِجٍ فَوَقَفُوا وَقْفَةً طَوِيلَةً، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ قُرَيْظَةَ يُرِيدُونَ أَنْ يُغِيرُوا عَلَى بَيْضَةِ المَدِينَةِ، فَمَا شَعَرْنَا إِلَّا بِخَيْلِ سَلَمَةَ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ حَرِيشٍ يَحْرُسُ فَيَأْتُونَ مِنْ خَلْفِ رَاتِجٍ، فَلاقَوْا خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ فَاقْتَتَلُوا وَاخْتَلَطُوا، فَمَا كَانَ إِلَّا حَلبُ شَاةٍ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى خَيْلِ خَالِدٍ مُوَلِّيَةً وَتَبِعَهُ سَلَمَةُ بْنُ أَسْلَمَ حَتَّى رَدَّهُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ.

فَأَصْبَحَ خَالِدٌ وَقُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ تَزْرِي عَلَيْهِ وَتَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا فِيمَنْ فِي الخَنْدَقِ وَلا فِيمَنْ أَصْحَرَ لَكَ، فَقَالَ خَالِدٌ: أَنَا أَقْعُدُ اللَّيْلَةَ وَابْعَثُوا خَيْلًا حَتَّى أَنْظُرَ أَيَّ شَيْءٍ تَصْنَعُ.

فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ أَبِي عَوْنٍ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: وَاللهِ إِنِّي لَفِي جَوْفِ اللَّيْلِ فِي قُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ إِلَى أَنْ سَمِعْتُ الهَيْعَةَ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: يَا خَيْلَ اللهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَعَلَ شِعَارَ الْمُهَاجِرِينَ: يَا خَيْلَ اللهِ، فَفَزِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِصَوْتِهِ فَخَرَجَ مِنَ القُبَّةِ، فَإِذَا نَفَرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ عِنْدَ قُبَّتِهِ يَحْرُسُونَهَا، مِنْهُمْ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ﵁، فَقَالَ: «**مَا بَالُ النَّاسِ؟**» قَالَ عَبَّادٌ ﵁: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا صَوْتُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، اللَّيْلَةَ نَوْبَتُهُ يُنَادِي: يَا خَيْلَ اللهِ، وَالنَّاسُ يَثُوبُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ نَاحِيَةِ حُسَيْكَةَ مَا بَيْنَ ذُبَابٍ وَمَسْجِدِ الفَتْحِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ ﵁: «**اذْهَبْ فَانْظُرْ، ثُمَّ ارْجِعْ إِلَيَّ إِنْ شَاءَ اللهُ فَأَخْبِرْنِي**»، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَقُمْتُ عَلَى بَابِ القُبَّةِ أَسْمَعُ كُلَّ مَا يَتَكَلَّمَانِ بِهِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمًا حَتَّى جَاءَهُ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ﵁، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ فِي خَيْلِ الْمُشْرِكِينَ مَعَهُ مَسْعُودُ بْنُ رُخَيْةَ بْنِ نُوَيْرَةَ بْنِ طَرِيفِ بْنِ سُحْمَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ هِلالِ بْنِ خَلاوَةَ بْنِ أَشْجَعَ بْنِ رَيْثِ بْنِ غَطَفَانَ، فِي خَيْلِ غَطَفَانَ، وَالْمُسْلِمُونَ يُرَامُونَهُمْ بِالنَّبْلِ وَالحِجَارَةِ.

قَالَتْ: فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَبِسَ دِرْعَهُ وَمِغْفَرَهُ وَرَكِبَ فَرَسَهُ وَخَرَجَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى أَتَى تِلْكَ الثُّغْرَةَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَجَعَ وَهُوَ مَسْرُورٌ، فَقَالَ: «**صَرَفَهُمُ اللهُ وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمُ الجِرَاحَةُ**».

قَالَتْ: فَنَامَ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ، وَسَمِعْتُ هَائِعَةً أُخْرَى، فَفَزِعَ فَوَثَبَ فَصَاحَ: «**يَا عَبَّادُ بْنَ بِشْرٍ!**»، قَالَ: لَبَّيْكَ، قَالَ: «**اُنْظُرْ مَا هَذَا**»، فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: هَذَا ضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ فِي خَيْلٍ مِنَ الـمُشْرِكِينَ مَعَهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ فِي خَيْلِ غَطَفَانَ عِنْدَ جَبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ، وَالـمُسْلِمُونَ يُرَامُونَهُمْ بِالحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ، فَعَادَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَبِسَ دِرْعَهُ وَرَكِبَ فَرَسَهُ، ثُمَّ خَرَجَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ إِلَى تِلْكَ الثُّغْرَةِ، فَلَمْ يَأْتِنَا حَتَّى كَانَ السَّحَرُ فَرَجَعَ وَهُوَ يَقُولُ: «**رَجَعُوا مَفْلُولِينَ قَدْ كَثُرَتْ فِيهِمْ الجِرَاحَةُ**»، ثُمَّ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ الصُّبْحَ وَجَلَسَ، فَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تَقُولُ: قَدْ شَهِدْتُ مَعَهُ مَشَاهِدَ فِيهَا قِتَالٌ وَخَوْفٌ ـ المُرَيْسِيعَ، وَخَيْبَرَ، وَكُنَّا بِالحُدَيْبِيَةِ، وَفِي الفَتْحِ، وَحُنَيْنٍ ـ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ أَتْعَبُ لِرَسُولِ الله ﷺ وَلا أَخْوَفُ عِنْدَنَا مِنَ الخَنْدَقِ، وَذَلِكَ أَنَّ الـمُسْلِمِينَ كَانُوا فِي مِثْلِ الحَرَجَةِ، وَأَنَّ قُرَيْظَةَ لا نَأْمَنُهَا عَلَى الذَّرَارِيِّ، وَالـمَدِينَةُ تُحْرَسُ حَتَّى الصَّبَاحِ يُسْمَعُ تَكْبِيرُ الـمُسْلِمِينَ فِيهَا حَتَّى يُصْبِحُوا خَوْفًا، حَتَّى رَدَّهُمْ اللهُ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَكَفَى اللهُ الـمُؤْمِنِينَ القِتَالَ.

حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ، قَالَ: كُنَّا حَوْلَ قُبَّةِ رَسُولِ الله ﷺ نَحْرُسُهُ وَرَسُولُ الله ﷺ نَائِمٌ نَسْمَعُ غَطِيطَهُ إِذْ وَافَتْ أَفْرَاسٌ عَلَى سَلْعٍ، فَبَصُرَ بِهِمْ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ﷺ فَأَخْبَرَنَا بِهِمْ، قَالَ: فَأَمْضِى إِلَى الخَيْلِ وَقَامَ عَبَّادٌ عَلَى بَابِ قُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ آخِذًا بِقَائِمِ السَّيْفِ يَنْظُرُنِي، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: خَيْلُ الـمُسْلِمِينَ أَشْرَفَتْ عَلَيْهَا سَلَمَةُ بْنُ أَسْلَمَ بْنِ حَرِيشٍ ﷺ، فَرَجَعْتُ إِلَى مَوْضِعِنَا، ثُمَّ يَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ: كَانَ لَيْلُنَا بِالخَنْدَقِ نَهَارًا حَتَّى فَرَّجَهُ اللهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٤-٤٦٨].

سعد بن أبي وقاص ﷺ يرمي رجلاً فيضحك النبي ﷺ:

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الخَنْدَقِ وَرَجُلٌ يَتَتَرَّسُ (يتوقى بالترس)، جَعَلَ يَقُولُ بِالتُّرْسِ هَكَذَا، فَوَضَعَهُ فَوْقَ أَنْفِهِ، ثُمَّ يَقُولُ هَكَذَا، يُسَفِّلُهُ بَعْدُ، قَالَ: فَأَهْوَيْتُ إِلَى كِنَانَتِي فَأَخْرَجْتُ مِنْهَا سَهْمًا مُدَمًّا (الذي أصابه الدم، فحصل في لونه سواد وحمرة مما رمى به العدو، ويُطلق على ما تكرر الرمي به)، فَوَضَعْتُهُ فِي كَبِدِ القَوْسِ (مقبضها وكبد كل شيء وسطه)، فَلَمَّا قَالَ هَكَذَا يُسَفِّلُ التُّرْسَ رَمَيْتُ فَمَا نَسِيتُ وَقْعَ القِدْحِ (عود السهم) عَلَى كَذَا وَكَذَا مِنَ التُّرْسِ، قَالَ: وَسَقَطَ، فَقَالَ بِرِجْلِهِ [هَكَذَا]، فَضَحِكَ نَبِيُّ الله ﷺ أَحْسِبُهُ قَالَ: حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: قُلْتُ: لِمَ [فَعَلَ؟] قَالَ: لِفِعْلِ الرَّجُلِ.

[مسند أحمد ٣/ ١٦٧ رقم ١٦٢٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف، مجمع الزوائد ٦/ ١٩٧ رقم ١٠١٥٣، وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزار إلا أنه قال: كان رجل معه ترسان وكان سعد راميًا فكان يقول كذا وكذا بالترسين يغطي جبهته فنزع له سعد بسهم فلما رفع رأسه رماه فلم يخط هذه منه ـ يعني جبهته ـ. والباقي بنحوه، ورجالهما رجال الصحيح غير محمد بن محمد بن الأسود وهو ثقة].

نقل المعركة إلى معسكر المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «ظل الحال هكذا مدة من الزمن قصيرة ـ ترام بالنبل وجولان بالخيل للإرهاب من جانب قريش، ودوريات مستمرة منظمة تطوف بالخندق من الجانبين ـ حتى تطور القتال قليلًا من جانب الأحزاب.

فقد قام فريق من فرسانهم الأشداء المغامرين باقتحام الخندق بخيلهم من ناحية ضيقة به، فنقلوا المعركة جزئيًّا إلى معسكر المسلمين وراء الخندق.

فقد اقتحم عمرو بن عبد ود العامري وعكرمة بن أبي جهل المخزومي وضرار بن الخطاب الفهري، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ونوفل بن عبد الله.. اقتحم هؤلاء الفرسان ـ وكلهم من قريش ـ بخيلهم مضيقًا في الخندق، فسارع إلى ملاقاتهم ذوو النجدة والبأس من المسلمين، فأخذوا عليهم أولًا الطريق الذي اجتازوه، فقطعوا عليهم خط الرجعة، حيث احتلوا فم المضيق الذي اقتحموه، ثم اشتبكوا معهم في معركة سريعة عنيفة حتى أبادوا أكثرهم، وأجبروا الباقين على الفرار». [**غزوة الأحزاب لباشميل ١٨٦**].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: ثُمَّ إِنَّ رُؤَسَاءَهُمْ أَجْمَعُوا أَنْ يَغْدُوَا جَمِيعًا، فَغَدَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ، وَخَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، وَعَمْرُو بْنُ العَاصِ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ، وَنَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ المَخْزُومِيُّ، وَعَمْرُو بْنُ عَبْدٍ وَنَوْفَلُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الدِّيلِيُّ، فِي عِدَّةٍ فَجَعَلُوا يُطِيفُونَ بِالخَنْدَقِ وَمَعَهُ رُؤَسَاءُ غَطَفَانَ ـ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَمَسْعُودُ بْنُ رُخَيْلَةَ وَالحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ؛ وَمِنْ سُلَيْمٍ رُؤَسَاؤُهُمْ وَمِنْ بَنِي أَسَدٍ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ.

وَتَرَكُوا الرِّجَالَ مِنْهُمْ خُلُوفًا، يَطْلُبُونَ مُضِيقًا يُرِيدُونَ يَقْتَحِمُونَ خَيْلَهُمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فَانْتَهَوْا إِلَى مَكَانٍ قَدْ أَغْفَلَهُ المُسْلِمُونَ فَجَعَلُوا يُكْرِهُونَ خَيْلَهُمْ وَيَقُولُونَ: **هَذِهِ المَكِيدَةُ مَا كَانَتْ العَرَبُ تَصْنَعُهَا وَلا تَكِيدُهَا**.

قَالُوا: إِنَّ مَعَهُ رَجُلًا فَارِسِيًّا، فَهُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِهَذَا.

قَالُوا: فَمَنْ هُنَاكَ إِذًا؟ فَعَبَرَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَنَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ، وَعَمْرُو بْنُ عَبْدٍ، وَقَامَ سَائِرُ المُشْرِكِينَ مِنْ وَرَاءِ الخَنْدَقِ لا يَعْبُرُونَ، وَقِيلَ لأَبِي سُفْيَانَ: أَلا تَعْبُرُ؟ قَالَ: قَدْ عَبَرْتُمْ فَإِنْ احْتَجْتُمْ إِلَيْنَا عَبَرْنَا. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٠**].

بين فارس الإسلام وفارس الجاهلية:

وكان عمرو بن عبد ود العامري (وهو كبش الكتيبة) قد حضر معركة بدر الكبرى وذاق مرارة الهزيمة بعد أن جُرح في المعركة، فنذر أن لا يمس رأسه دهنًا حتى يقتل محمدًا، ولهذا كان أول الفرسان المقتحمين بخيلهم الخندق نحو المسلمين، فالتقى به علي بن أبي طالب ﵁ فبارزه حتى قتله.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ تَيَمَّمُوا (قصدوا) مَكَانًا ضَيِّقًا (١) مِنَ الخَنْدَقِ، فَضَرَبُوا خَيْلَهُمْ فَاقْتَحَمَتْ (اقتحم في الأمر رمي بنفسه فيه من غير رويّة) مِنْهُ، فَجَالَتْ بِهِمْ فِي السَّبْخَةِ (هي الأرض الملحة النازة) بَيْنَ الخَنْدَقِ وَسَلعٍ، وَخَرَجَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فِي نَفَرٍ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ حَتَّى أَخَذُوا عَلَيْهِمُ الثُّغْرَةَ (الثلمة وهي موضع المخافة من أطراف البلاد) الَّتِي أَقْحَمُوا مِنْهَا خَيْلَهُمْ، وَأَقْبَلَتِ الفُرْسَانُ تُعْنِقُ (نوع من سير الإبل والخيل وهو الوسط بين السريع والبطيء) نَحْوَهُمْ، وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ قَدْ قَاتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى أَثْبَتَتْهُ الجِرَاحَةُ فَلَمْ يَشْهَدْ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الخَنْدَقِ خَرَجَ مُعْلِمًا (المعلم الذي يجعل له علامة يعرف بها) لِيُرَى مَكَانُهُ، فَلَمَّا وَقَفَ هُوَ وَخَيْلُهُ قَالَ: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَبَرَزَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فَقَالَ لَهُ: يَا عَمْرُو! إِنَّكَ قَدْ كُنْتَ عَاهَدْتَ اللهَ أَلَّا يَدْعُوكَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى إِحْدَى خَلَّتَيْنِ إِلَّا أَخَذْتَهَا مِنْهُ، قَالَ لَهُ: أَجَل، قَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ، وَإِلَى رَسُولِهِ، وَإِلَى الإِسْلَامِ، قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ، قَالَ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى النِّزَالِ، فَقَالَ لَهُ: لِمَ يَا ابْنَ أَخِي؟ فَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، قَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: لَكِنِّي وَاللهِ أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، فَحَمِيَ عَمْرٌو عِنْدَ ذَلِكَ، فَاقْتَحَمَ عَنْ فَرَسِهِ فَعَقَرَهُ وَضَرَبَ وَجْهَهُ (٢)، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ ﷺ، فَتَنَازَلَا وَتَجَاوَلَا، فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ ﷺ.

وَخَرَجَتْ خَيْلُهُمْ مُنْهَزِمَةً حَتَّى اقْتَحَمَتْ مِنَ الخَنْدَقِ هَارِبَةً. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٤-٢٢٥].

قال السهيلي: «وَوَقَعَ فِي مَغَازِي ابْنِ إِسْحَاقَ مِنْ غَيْرِ رِوَايَةِ ابْنِ هِشَامٍ عَنِ البَكَّائِيِّ فِيهَا زِيَادَةٌ حَسَنَةٌ رَأَيْت أَنْ أُورِدَهَا هُنَا تَتْمِيمًا لِلخَبَرِ. [رواه أيضًا الحافظ البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٤٣٨-٤٣٩].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: إِنَّ عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ خَرَجَ فَنَادَى: هَل مِنْ مُبَارِزٍ؟ فَقَامَ عَلِيٌّ ﷺ، وَهُوَ مُقَنَّعٌ فِي الحَدِيدِ، فَقَالَ: أَنَا لَهُ يَا نَبِيَّ اللهِ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ عَمْرٌو اجْلِسْ**»، وَنَادَى عَمْرٌو: أَلَا رَجُلٌ؟ وَهُوَ يُؤَنِّبُهُمْ وَيَقُولُ: أَيْنَ جَنَّتُكُمُ الَّتِي تَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ دَخَلَهَا؟ أَفَلَا تُبْرِزُونَ لِيَ رَجُلًا؟ فَقَامَ عَلِيٌّ ﷺ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**اجْلِسْ**»، ثُمَّ نَادَى الثَّالِثَةَ فَقَالَ:

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّدَا ... ءِ بِجَمْعِكُمْ: هَلْ مِنْ مُبَارِزْ؟
وَوَقَفْتُ إِذْ جَبُنَ المُشَجِّـ ... ـعُ مَوْقِفَ القِرْنِ المُنَاجِزْ
وَلِـذَاكَ إِنِّي لَمْ أَزَلْ ... مُتَسَرِّعًا قَبْلَ الهَزَاهِزْ (٣)

---

(١) قال بعض المؤرخين: «إن هذا المكان أغفله المسلمون، ويمكن أن يقال: إنه لصعوبة المكان وصلابته؛ ولأن المنطقة كما هو معروف ـ أكثرها صخرية ـ كان هذا المكان ضيقًا، والله أعلم». مرويات غزوة الخندق ٢٩٢.

(٢) هذا من تقاليد العرب المرعية ـ حتى في الجاهلية ـ وهو أنه ـ وقت المبارزة ولكي يتم التكافؤ ـ لابد من أن ينزل الفارس من على فرسه ليبارز خصمه راجلًا مثله.

(٣) **الهَزَاهِزُ**: الفتن يهتز فيها الناس.

إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الفَتَى وَالجُودَ مِنْ خَيْرِ الغَرَائِزْ

فَقَامَ عَلِيٌّ ﵁ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا لَهُ، فَقَالَ: «إِنَّهُ عَمْرٌو»، قَالَ: وَإِنْ كَانَ عَمْرًا، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَشَى إِلَيْهِ عَلِيٌّ ﵁ حَتَّى أَتَاهُ وَهُوَ يَقُولُ:

لَا تَعْجَلَنَّ فَقَدْ أَتَا كَ مُجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرُ عَاجِزْ
ذُو نِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ وَالصِّدْقُ مَنْجَى كُلِّ فَائِزْ
إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أُقِيـ ـمَ عَلَيْكَ نَائِحَةَ الجَنَائِزْ
مِنْ ضَرْبَةٍ نَجْلَاءَ يَبْـ ـقَى ذِكْرُهَا عِنْدَ الهَزَاهِزْ

فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا عَلِيٌّ، قَالَ: ابْنُ عَبْدِ مَنَافٍ؟ فَقَالَ: أَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: غَيْرُكَ يَا ابْنَ أَخِي، وَمِنْ أَعْمَامِكَ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ، فَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أُهَرِيقَ دَمَكَ، فَقَالَ عَلِيٌّ ﵁: لَكِنِّي وَاللهِ لَا أَكْرَهُ أَنْ أُهَرِيقَ دَمَكَ، فَغَضِبَ، فَنَزَلَ وَسَلَّ سَيْفَهُ كَأَنَّهُ شُعْلَةُ نَارٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَ عَلِيٍّ مُغْضَبًا، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ عَلَى فَرَسِهِ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﵁: كَيْفَ أُقَاتِلُكَ وَأَنْتَ عَلَى فَرَسِكَ؟ وَلَكِنِ انْزِل مَعِي، فَنَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَ عَلِيٍّ، وَاسْتَقْبَلَهُ عَلِيٌّ ﵁ بِدَرَقَتِهِ، فَضَرَبَهُ عَمْرٌو فِيهَا فَقَدَّهَا وَأَثْبَتَ فِيهَا السَّيْفَ، وَأَصَابَ رَأْسَهُ فَشَجَّهُ، وَضَرَبَهُ عَلِيٌّ ﵁ عَلَى حَبْلِ العَاتِقِ فَسَقَطَ، وَثَارَ العَجَاجُ، وَسَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ التَّكْبِيرَ، فَعَرَفَ أَنَّ عَلِيًّا قَدْ قَتَلَهُ، فَثَمَّ عَلِيٌّ ﵁ يَقُولُ:

أَعَلَيَّ تَقْتَحِمُ الفَوَارِسُ هَكَذَا عَنِّي وَعَنْهُ أَخِّرُوا أَصْحَابِي
اليَوْمَ تَمْنَعُنِي الفِرَارَ حَفِيظَتِي وَمُصَمِّمٌ فِي الرَّأْسِ لَيْسَ بِنَابِي
أَدَّى عُمَيْرٌ حِينَ أُخْلِصَ صَقْلُهُ صَافِي الحَدِيدَةِ يَسْتَفِيضُ ثَوَابِي
فَغَدَوْتُ أَلْتَمِسُ القِرَاعَ بِمُرْهَفٍ عَضْبٍ مَعَ البَتْرَاءِ فِي أَقْرَابِ
قَالَ ابْنُ عَبْدٍ حِينَ شَدَّ أَلِيَّةً وَحَلَفْتُ فَاسْتَمِعُوا مِنَ الكَذَّابِ
أَلَّا يَفِرَّ وَلَا يُهَلِّلَ فَالتَقَى رَجُلَانِ يَلْتَقِيَانِ كُلَّ ضِرَابِ

فَذَكَرَ أَبْيَاتًا آخِرهُنَّ:

عَبَدَ الحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ عَقْلِهِ وَعَبَدْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِ

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلِيٌّ ﵁ نَحْوَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُتَهَلِّلٌ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﵁: **هَلَّا سَلَبْتَهُ دِرْعَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي العَرَبِ دِرْعٌ خَيْرٌ مِنْهَا**، فَقَالَ: **إِنِّي حِينَ ضَرَبْتُهُ اسْتَقْبَلَنِي بِسَوْأَتِهِ فَاسْتَحْيَيْتُ ابْنَ عَمِّي أَنْ أَسْتَلِبَهُ**.

وَخَرَجَتْ خَيْلُهُمْ مُنْهَزِمَةً حَتَّى اقْتَحَمَتْ الخَنْدَقَ هَارِبَةً، فَمِنْ هُنَا لَمْ يَأْخُذْ عَلِيٌّ ﵁ سَلَبَهُ، وَقِيلَ: تَنَزَّهَ عَنْ أَخْذِهَا، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذَا قَتَلُوا القَتِيلَ لَا يَسْلُبُونَهُ ثِيَابَهُ. [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣١٦-٣١٩، والحاكم في المستدرك ٣/ ٣٢-٣٣ في المغازي والسرايا رقم ٤٣٢٩، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٣٠٨، ٩/ ١٣٢].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَجَعَلَ عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ يَدْعُو إِلَى البِرَازِ، وَيَقُولُ:

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّدَا ءِ لِجَمْعِكُمْ هَل مِنْ مُبَارِزْ

وَعَمْرٌو يَوْمَئِذٍ ثَائِرٌ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا فَارْتُثَّ جَرِيحًا فَلَمْ يَشْهَدْ أُحُدًا، وَحَرَّمَ الدُّهْنَ حَتَّى يَثْأَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبِيرٌ - يُقَالُ: بَلَغَ تِسْعِينَ سَنَةً.

فَلَمَّا دَعَا إِلَى البِرَازِ، قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: أَنَا أُبَارِزُهُ يَا رَسُولَ اللهِ! ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وَإِنَّ المُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمْ الطَّيْرُ؛ لِمَكَانِ عَمْرٍو وَشَجَاعَتِهِ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَيْفَهُ، وَعَمَّمَهُ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَعِنْهُ عَلَيْهِ**»، قَالَ: وَأَقْبَلَ عَمْرٌو يَوْمَئِذٍ وَهُوَ فَارِسٌ وَعَلِيٌّ ﷺ رَاجِلٌ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: إِنَّكَ كُنْتَ تَقُولُ فِي الجَاهِلِيَّةِ: لا يَدْعُونِي أَحَدٌ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْ ثَلاثٍ إِلَّا قَبِلْتُهَا، قَالَ: أَجَل.

قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُسْلِمَ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، أَخِّرْ هَذَا عَنِّي، قَالَ: فَأُخْرَى، تَرْجِعُ إِلَى بِلادِكَ، فَإِنْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ صَادِقًا كُنْتَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ غَيْرَ ذَلِكَ كَانَ الَّذِي تُرِيدُ، قَالَ: هَذَا مَا لا تَتَحَدَّثُ بِهِ نِسَاءُ قُرَيْشٍ أَبَدًا، وَقَدْ نَذَرْتُ مَا نَذَرْتُ وَحَرَّمْتُ الدُّهْنَ، قَالَ: فَالثَّالِثَةُ؟ قَالَ: البِرَازُ، قَالَ: فَضَحِكَ عَمْرٌو، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الخَصْلَةَ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنَ العَرَبِ يُرَوِّمُنِي عَلَيْهَا، إِنِّي لأَكْرَهُ أَنْ أَقْتُلَ مِثْلَكَ، وَكَانَ أَبُوكَ لِي نَدِيمًا، فَارْجِعْ فَأَنْتَ غُلامٌ حَدَثٌ، إِنَّمَا أَرَدْتُ شَيْخَيْ قُرَيْشٍ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ.

قَالَ: فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى المُبَارَزَةِ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، فَأَسِفَ عَمْرٌو وَنَزَلَ وَعَقَلَ فَرَسَهُ.

فَكَانَ جَابِرٌ ﷺ يُحَدِّثُ يَقُولُ: فَدَنَا أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ وَثَارَتْ بَيْنَهُمَا غَبَرَةٌ فَمَا نَرَاهُمَا، فَسَمِعْنَا التَّكْبِيرَ تَحْتَهَا فَعَرَفْنَا أَنَّ عَلِيًّا قَتَلَهُ، فَانْكَشَفَ أَصْحَابُهُ الَّذِينَ فِي الخَنْدَقِ هَارِبِينَ وَطَفَرَتْ بِهِمْ خَيْلُهُمْ، إِلَّا أَنَّ نَوْفَلَ بْنَ عَبْدِ اللهِ وَقَعَ بِهِ فَرَسُهُ فِي الخَنْدَقِ، فَرُمِيَ بِالحِجَارَةِ حَتَّى قُتِلَ، وَرَجَعُوا هَارِبِينَ وَخَرَجَ فِي أَثَرِهِمْ الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَنَاوَشُوهُمْ سَاعَةً. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٠-٤٧١].

قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: «وَقُتِلَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَوْمَ الخَنْدَقِ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، ثُمَّ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ حَسَلٍ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وَدِّ بْنِ نَصْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ حَسَلٍ، قَتَلَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ» .

[المستدرك على الصحيحين للحاكم في المغازي ٣/ ٣٦ رقم ٤٣٣١، وقال الشيخ الصوياني: حديثٌ حسنٌ وسنده ضعيف، لأنه مرسل ابن شهاب. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٢٦].

وقد ذَكَر المتقي الهندي خبر مبارزة علي ﷺ لعمرو، وذكر بأن المحاملي أورده في أماليه وفيه زيادةٌ هذا نصها: عن ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «سَمِعْتُ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ: جاءَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وَدٍّ فَجَعَلَ يَجُولُ بفرسه حتى جاوز الخَنْدَقَ ... إلى أن قال ﷺ: «**اخْرُجْ يَا عَلِيُّ**»، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: مَنْ أَنْتَ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أَنَا

عَلِيٌّ، فَقَالَ: إِنَّ أَبَاكَ كَانَ نَدِيمًا لِي، لَا أُحِبُّ قِتَالَكَ... إلى أن قال عمرو: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَقْتُلَ حَمْزَةَ فَسَبَقَنِي إِلَيْهِ وَحْشِيٌّ، ثُمَّ إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَقْتُلَ مُحَمَّدًا، قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: «فَانْزِلْ»، فَنَزَل، فَاخْتَلَفَا فِي الضَّرْبَةِ، فَضَرَبَهُ عَلِيٌّ ﷺ فَقَتَلَهُ». [كنز العمال ١٠/ ٤٥٦-٤٥٧ رقم ٣٠١٠٦].

وذكروا أيضًا أن عليًّا ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الخندق: «**اللَّهُمَّ، إِنَّكَ أَخَذْتَ عُبَيْدَةَ بْنَ الحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَحَمْزَةَ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ يَوْمَ أُحُدٍ، وهَذَا عَلِيٌّ، فَلاَ تَذَرْنِي فَرْدًا، وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ**».

[كنز العمال ١٠/ ٤٥٦ رقم ٣٠١٠٥ وعزاه إلى الديلمي].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فِي ذَلِكَ:

نَصَرَ الحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ ... وَنَصَرْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِي

فَصَدَدْتُ حِينَ تَرَكْتُهُ مُتَجَدِّلًا ... كَالجِذْعِ بَيْنَ دَكَادِكٍ وَرَوَابِي

وَعَفَفْتُ عَنْ أَثْوَابِهِ وَلَوْ أَنَّنِي ... كُنْتُ المُقَطَّرَ بَزَّنِي أَثْوَابِي (١)

لَا تَحْسَبُنَّ اللهَ خَاذِلَ دِينِهِ ... وَنَبِيِّهِ يَا مَعْشَرَ الأَحْزَابِ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَأَكْثَرُ أَهْلِ العِلمِ بِالشِّعْرِ يَشُكُّ فِيهَا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ. [السيرة لابن هشام ٢/ ٢٢٥].

قال الحاكم: سمعت الأصم، قال: سمعت العطاردي، قال: سمعت الحافظ يحيى بن آدم يقول: ما شبهت قتل علي عمرًا إلا بقوله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٣٥].

شعر حسان ﷺ في هرب عكرمة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَلْقَى عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ رُمْحَهُ يَوْمَئِذٍ وَهُوَ مُنْهَزِمٌ عَنْ عَمْرٍو، فَقَالَ حَسَّانُ ابْنُ ثَابِتٍ ﷺ فِي ذَلِكَ:

فَرَّ وَأَلْقَى لَنَا رُمْحَهُ ... لَعَلَّكَ عِكْرِمَ لَمْ تَفْعَلِ

وَوَلَّيْتَ تَعْدُو كَعَدْوِ الظَّلِيمِ (٢) **... مَا إِنْ تَجُورَ عَنْ المَعْدِلِ**

وَلَمْ تَلْقَ ظَهْرَكَ مُسْتَأْنِسًا ... كَأَنَّ قَفَاكَ قَفَا فُرْعُلِ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الفُرْعُلُ صَغِيرُ الضِّبَاعِ، وَهَذِهِ الأَبْيَاتُ فِي أَبْيَاتٍ لَهُ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٦].

(١) **المقطر**: هو الذي يلقي على قطره ـ وتقطر ـ تهيأ للقتال ورمي بنفسه من علو. **وبزَّني**: سلبني ثيابي أو أي شيء كان معي. القاموس المحيط ٢/ ١١٦، ١١٩.

(٢) **الظليم**: ذكر النعام.

انهزام الفرسان الفدائيين:

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن تم القضاء على فارس قريش قائد رعيل [1] الفدائيين من فرسانهم (عمرو بن عبد ود) فر باقي أفراد الرعيل القرشي وخرجت بهم خيلهم مسرعة تسابق الريح منهزمة نحو المضيق الذي اقتحموه من الخندق.

فطاردهم بعض فرسان المسلمين، ولحق الزبير بن العوام ﷺ بنوفل بن عبد الله فضربه بالسيف حتى شقه نصفين، ووصلت الضربة إلى كاهل الفرس. [**غزوة الأحزاب لباشميل ١٨٩-١٩٠**].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَيُقَالُ: حَمَلَ الزُّبَيرُ عَلَى نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الـمُغِيرَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى شَقَّهُ بِاثْنَيْنِ وَقُطِعَ أَنْدُوجُ سَرْجِهِ ـ وَالأُنْدُوجُ اللِّبْدُ الَّذِي يَكُونُ تَحْتَ السَّرْجِ ـ وَيُقَالُ: إِلَى كَاهِلِ الفَرَسِ، فَقِيلَ: يَا أَبَا عَبْدِ الله، مَا رَأَيْنَا سَيْفًا مِثْلَ سَيْفِكَ، فَيَقُولُ: وَالله مَا هُوَ بِالسَّيْفِ وَلَكِنَّهَا السَّاعِدُ، وَهَرَبَ عِكْرِمَةُ وَهُبَيْرَةُ فَلَحِقَا بِأَبِي سُفْيَانَ وَحَمَلَ الزُّبَيرُ عَلَى هُبَيْرَةَ فَضَرَبَ ثُفْرَ (السير في مؤخر السرج) فَرَسِهِ فَقَطَعَ ثُفْرَ فَرَسِهِ وَسَقَطَتْ دِرْعٌ كَانَ مُحْقِبَهَا الفَرَسَ، فَأَخَذَ الزُّبَيرُ الدِّرْعَ وَفَرَّ عِكْرِمَةُ وَأَلْقَى رُمْحَهُ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٠-٤٧١، ٤٧٢**].

وعَنْ عِكْرِمَةَ ﷺ قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الخَنْدَقِ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قُمْ يَا زُبَيْرُ»، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ : يَا رَسُولَ الله! وَاحِدِي، فَقَالَ: قُمْ يَا زُبَيْرُ! فَقَامَ الزُّبَيْرُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَيُّهُمَا عَلَا صَاحِبَهُ قَتَلَهُ**»، فَعَلَاهُ الزُّبَيرُ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ بِسَلَبِهِ، فَنَفَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٧ في المغازي (٣٧٩٧٨)، وقال الشيخ عوامة: «الحديث مرسل، وقد رواه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والبيهقي ...»].

يقول أ/ باشميل: «كما أن الزبير ﷺ أيضًا طارد فارسًا آخر من رعيل الفدائيين القرشيين ـ وهو هبيرة بن أبي وهب ـ فضرب ثغر فرسه فقطعه ولكنه تمكن من الفرار.

وقد حاول فارسان فدائيان من فرسان قريش الفدائيين الانتقام لقائدهم ـ عمرو بن عبد ود ـ وهما ضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب، حاول هذان الفارسان الفتك بعلي بن أبي طالب ﷺ، ولكنه صمد لهما وقاتلها حتى هزمهما.

وهكذا انتهت المعركة الجانبية ـ التي نقلها الفدائيون القرشيون إلى حيث يرابط المسلمون وراء الخندق ـ انتهت هذه المعركة الجانبية بالقضاء على كل أفراد رعيل الفرسان بأفراسهم، وهم ضرار بن الخطاب الفهري، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وعكرمة بن أبي جهل المخزومي، الذي ألقى برمحه عندما فر من المعركة.

---

(١) **الفصيل** يطلق على مجموعة من المشاة (٣٠-٤٠)، ويطلق على مثلها من الفرسان: رعيل. محمود شيت خطاب.

أما المسلمون فلم يُصب أحد منهم أثناء هذه المعركة الجانبية اللهم إلا جرح بسيط أصاب علي بن أبي طالب ﵁ في رأسه، وذلك عند مبارزته لعمرو بن عبد ود العامري». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٩٠-١٩١].

قريش تطلب جثة فارسها:

وبعد انتهاء المعركة الجانبية بعث قادة قريش إلى النبي ﷺ، يعرضون عليه عشرة آلاف ثمنًا لجثة فارسهم (عمرو بن عبد ود) أو نوفل بن عبد الله، فأبى النبي ﷺ أن يأخذ الثمن.

روى الإمام أحمد والترمذي والبيهقي عن ابن عباس ﵄ قال: قتل المسلمون يوم الخندق رجلًا من المشركين، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا بجسده، ونعطيكم اثني عشر ألفًا، فقال رسول الله ﷺ: «**لا خَيْرَ فِي جِيفَتِهِ وَلَا فِي ثَمَنِهِ، ادْفَعُوه إِلَيْهِمْ فَإِنَّهُ خَبِيثُ الجِيفَةِ خَبِيثُ الدِّيَةِ**»، فلم يقبل منهم شيئًا.

وذكر ابن عقبة: أن المشركين لما بعثوا يطلبون جسد نوفل بن عبد الله المخزومي حين قُتل، وعرضوا عليه الدية، فقال: **إنه خَبِيثُ الدِّيَةِ، فَلَعَنَهُ اللهُ وَلَعَنَ دِيَتَهُ، فَلَا أَرَبَ لَنَا فِي دِيَتِهِ، وَلَسْنَا نَمْنَعُكُمْ أَنْ تَدْفِنُوهُ**».

[سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥٣٥-٥٣٦].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَرَادُوا أَنْ يَشْتَرُوا جَسَدَ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبِيعَهُمْ إِيَّاهُ. [الترمذي في الجهاد (١٧١٥)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد].

وروى البيهقي بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، أَنَّ رَجُلًا، مِنَ الـمُشْرِكِينَ قُتِلَ يَوْمَ الأَحْزَابِ، فَبَعَثَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ أَنِ ابْعَثْ إِلَيْنَا بِجَسَدِهِ، وَنُعْطِيهِمُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا خَيْرَ فِي جَسَدِهِ، وَلَا فِي ثَمَنِهِ**». [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٤٠].

وعَنْ عِكْرِمَةَ ﵁ أَنَّ نَوْفَلًا أَوِ ابْنَ نَوْفَلٍ تَرَدَّى بِهِ فَرَسُهُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَقُتِلَ، فَبَعَثَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِدِيَتِهِ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «**خُذُوهُ؛ فَإِنَّهُ خَبِيثُ الدِّيَةِ، خَبِيثُ الـجِيفَةِ**».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٧-٣٨٨ في المغازي (٣٧٩٧٩)، وقال الشيخ عوامة: «هذا حديث مرسل رجال إسناده ثقات»].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَأَرْسَلَتْ بَنُو مَخْزُومٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَطْلُبُونَ جِيفَةَ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ الله يَشْتَرُونَهَا بِالدِّيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّمَا هِيَ جِيفَةُ حِمَارٍ**»، وَكَرِهَ ثَمَنَهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٤].

وروى أبو نعيم: أن رجلا من آل المغيرة قال: لأقتلن محمدًا، فأوثب فرسه في الخندق، فوقع، فاندقت عنقه، فقالوا: يا محمد ادفعه إلينا نواره، وندفع إليك ديته، فقال: «**خُذُوهُ، فَإِنَّهُ خَبِيثُ الدِّيَةِ**».

[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٣٦].

وقد حملت قريش جثة فارسها إلى معسكرها.

وبهذا فشل رعيل الفدائيين من فرسان مكة في مهمته وعاد يجر أذيال الخيبة والهزيمة بعد أن قتل المسلمون أكثر أفراد هذا الرعيل.

ويظهر أن قيادة الأحزاب قررت القيام بهذه المغامرة لاختبار مدى قوة المسلمين الحربية، ومعرفة ما إذا كان الحصار الخانق قد أثر على معنوياتهم أم لا؟

رد فعل الهزيمة في نفوس الأحزاب:

يقول أ/ باشميل: «وكانت تهدف قريش ـ على ما يظهر من وراء قيام فرسانها بهذه المغامرة، مواصلة القيام بمثل هذه الحركات الخاطفة ـ إذا ما نجحت التجربة التي قام بها الفرسان عبر الخندق ـ لأن قادة الأحزاب أدركوا أنه مع وجود الخندق حاجزًا بينهم وبين عدوهم يستحيل عليهم القيام بأي هجوم شامل على مواقع المسلمين وراء الخندق، وخاصة من ناحية المشاة الذين يشكلون الأغلبية الساحقة في جيوش الأحزاب؛ ولهذا قرر قادة الأحزاب الاعتماد على سلاح الفرسان ليكون هو السلاح الرئيس في المعركة التي كانوا ينوون نقلها إلى معسكر المسلمين ذاته، لا سيما وأنهم على موعد مع يهود بني قريظة ليضرب هؤلاء اليهود المسلمين من الخلف ساعة الصفر.

ولكن فشل رعيل الفرسان هذا في المغامرة التي قام بها رجاله، والتي انتهت بالقضاء على أكثرهم وفرار الباقين منهم، أكدت لقادة الأحزاب أن كل هذه الزلازل والمحن والبلايا التي أحاطت بالمسلمين (على قلتهم وكثرة عدوهم) لم يكن له أي تأثير على قوتهم المعنوية، وأن ذلك كله لم يزدهم إلا ثباتًا وضراوة وإيمانًا وتلهفًا للاستشهاد في سبيل الله.

توقف قريش عن مغامرات القفز بالخيل:

ولهذا كفت قيادة الأحزاب عن مغامراتها الحربية، فتوقفت عمليات قفز الفرسان الأشداء بخيلهم عبر الخندق، فلم يستطع فرسان الأحزاب القيام بأية مغامرة من هذا النوع ـ بعد تلك المغامرة الفاشلة التي قتل فيها المسلمون فارس قريش عمرو بن عبد ود ـ حتى انسحاب الأحزاب نهائيًا.

ولكن الأحزاب، إذا كانوا قد أوقفوا عمليات المغامرة عن طريق قفز الخيل عبر الخندق، فإنهم من ناحية أخرى قد شددوا الحصار على المسلمين وضاعفوا من عمليات الضغط عليهم، فكأنهم أرادوا الاعتماد على حرب الأعصاب المرهقة عن طريق إرهاب المسلمين وإزعاجهم والجلب عليهم بالخيل والرجل وكل وسائل الإعنات والتخويف لعل ذلك يوهن من قوة المسلمين المعنوية التي هي السلاح الوحيد الرئيس الذي بقي في أيديهم أمام هذه الجيوش الهائلة الجبارة التي تطبق عليهم من كل مكان.

(وفعلًا) لقد تقاطرت البلايا (من جديد) وتضخمت متاعب الجيش الصغير القابع وراء خطوطه خلف الخندق وكأنه نقطة يابسة بيضاء وسط بحر محيط هائج أسود، وبلغ الكرب والضيق والشدة (من جديد) بالرسول ﷺ وصفوة أصحابه الأوفياء مبلغًا عظيمًا لم يكن ليصمد معه ويثبت إلا من كان على مستوى محمد ﷺ وصحبه الأبرار رضي الله عنهم إيمانًا وعزيمة وثقة بالله واطمئنانًا بوعده».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٩٢-١٩٣].

خالد بن الوليد والهجوم على مقر قيادة الرسول ﷺ:

قام أسيد بن حضير رضي الله عنه في مائتين على شفير الخندق فكرت خيل المشركين يطلبون غرة (وعليها خالد بن الوليد) فناوشهم ساعة، فزرق وحشيٌّ (قاتل حمزة بن عبد المطلب) الطفيلَ بن النعمان بن خنساء الأنصاري، بمزراق، فقتله ـ كما قتل حمزة رضي الله عنه بأحد.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَلَـمَّا رَجَعُوا ـ بعد مقتل عمرو بن عبد ود ـ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: هَذَا يَوْمٌ لَمْ يَكُنْ لَنَا فِيهِ شَيْءٌ ارْجِعُوا، فَنَفَرَتْ قُرَيْشٌ فَرَجَعَتْ إِلَى العَقِيقِ، وَرَجَعَتْ غَطَفَانُ إِلَى مَنَازِلِهَا، وَاتَّعَدُوا يَغْدُونَ جَمِيعًا وَلا يَتَخَلَّفُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَبَاتَتْ قُرَيْشٌ يُعَبِّؤُونَ أَصْحَابَهُمْ، وَبَاتَتْ غَطَفَانُ يُعَبِّؤُونَ أَصْحَابَهُمْ وَوَافَوْا رَسُولَ الله ﷺ بِالخَنْدَقِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ.

وَعَبَّأَ رَسُولُ الله ﷺ أَصْحَابَهُ وَحَضَّهُمْ عَلَى القِتَالِ وَوَعَدَهُمْ النَّصْرَ إِنْ صَبَرُوا، وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ جَعَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِي مِثْلِ الحِصْنِ مِنْ كَتَائِبِهِمْ فَأَخَذُوا بِكُلِّ وَجْهٍ مِنَ الخَنْدَقِ.

فَحَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ مِقْسَمٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: قَاتَلُونَا يَوْمَهُمْ وَفَرَّقُوا كَتَائِبَهُمْ وَنَحَوْا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ كَتِيبَةً غَلِيظَةً فِيهَا خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، فَقَاتَلَـهُمْ يَوْمَهُ ذَلِكَ إِلَى هَوِيٍّ مِنَ اللَّيْلِ مَا يَقْدِرُ رَسُولُ الله ﷺ وَلا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَزُولُوا مِنْ مَوَاضِعِهِمْ، وَمَا يَقْدِرُ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى صَلاةِ الظُّهْرِ وَلا العَصْرِ وَلا الْمَغْرِبِ وَلا العِشَاءِ، فَجَعَلَ أَصْحَابُهُ يَقُولُونَ: يَا رَسُولَ الله مَا صَلَّيْنَا، فَيَقُولُ: «**وَلا أَنَا وَالله مَا صَلَّيْتُ**»، حَتَّى كَشَفَهُمْ اللهُ تَعَالَى فَرَجَعُوا مُتَفَرِّقِينَ.

فَرَجَعَتْ قُرَيْشٌ إِلَى مَنْزِلِهَا، وَرَجَعَتْ غَطَفَانُ إِلَى مَنْزِلِهَا، وَانْصَرَفَ الـمُسْلِمُونَ إِلَى قُبَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، وَأَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ عَلَى الخَنْدَقِ فِي مِائَتَيْنِ مِنَ الـمُسْلِمِينَ، فَهُمْ عَلَى شَفِيرِ الخَنْدَقِ إِذْ كَرَّتْ خَيْلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَطْلُبُونَ غُرَّةً، عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ؛ فَنَاوَشَهُمْ سَاعَةً، وَمَعَ الْمُشْرِكِينَ وَحْشِيٌّ، فَزَرَقَ الطُّفَيْلَ بْنَ النُّعْمَانِ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ بِمِزْرَاقِهِ فَقَتَلَهُ، فَكَانَ يَقُولُ: أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى حَمْزَةَ وَالطُّفَيْلَ بِحَرْبَتِي وَلَمْ يُهِنِّي بِأَيْدِيهِمَا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٢-٤٧٣].

شدة الحصار تمنع المسلمين من الصلاة:

وقد بلغت عملية الحراسة المتواصلة المضنية المرهقة التي يقوم بها النبي ﷺ وصفوة أصحابه القلائل في تلك الليالي الأخيرة المخيفة المرعبة، بلغت بهم من الجهد والإضناء والإشغال إلى درجة أن النبي ﷺ

وبعضًا من أصحابه (الذين كانوا يتولون مراقبة تحركات العدو وحراسة النقاط الإستراتيجية من الخندق) لم يتمكنوا من أداء صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء في أوقاتها.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يُصَلِّ يَوْمَ الخَنْدَقِ الظُّهْرَ وَالعَصْرَ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ.

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٢-٣٨٣ في المغازي (٣٧٩٧٠)، وقال الشيخ عوامة: «هذا من مراسيل سعيد بن المسيب، وهو معروف بالصحة، والإسناد إليه حسن»].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: حُبِسْنَا [شَغَلَنَا الـمُشْرِكُونَ] يَوْمَ الخَنْدَقِ [عَنِ الصَّلَاةِ] [عَنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ]، حَتَّى ذَهَبَ هَوِيٌّ مِنَ اللَّيْلِ [حَتَّى كَانَ بَعْدَ المَغْرِبِ بِهَوِيٍّ مِنَ اللَّيْلِ] [حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ]، حَتَّى كُفِينَا، وَذَلِكَ قَوْلُ الله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[الأحزاب]، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ بِلَالًا فَأَمَرَهُ فَأَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَأَحْسَنَ كَمَا كَانَ يُصَلِّيهَا فِي وَقْتِهَا، ثُمَّ أَقَامَ لِلعَصْرِ فَصَلَّاهَا كَذَلِكَ، ثُمَّ أَقَامَ المَغْرِبَ فَصَلَّاهَا كَذَلِكَ، ثُمَّ أَقَامَ العِشَاءَ فَصَلَّاهَا كَذَلِكَ، [وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي القِتَالِ مَا نَزَلَ]، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي صَلَاةِ الخَوْفِ [وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي الْقِتَالِ مَا نَزَلَ].

قَالَ حَجَّاجٌ: فِي صَلَاةِ الخَوْفِ: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾[البقرة: ٢٣٩].

[مسند أحمد ١٧/ ٢٩٣-٢٩٤ رقم ١١١٩٨، ١١١٩٩، ١٨/ ٤٥-٤٦، ١٨٧-١٨٨ رقم ١١٤٦٥، ١١٦٤٤، والنسائي في الأذان (٦٦١)، والدارمي في الصلاة (١٥٦٥)، وقال الشيوخ الأرناؤوط والألباني وأسد: إسناده صحيح].

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «إِنَّ المُشْرِكِينَ شَغَلُوا رَسُولَ الله ﷺ عَنْ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ يَوْمَ الخَنْدَقِ، حَتَّى ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى العَصْرَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى المَغْرِبَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى العِشَاءَ». **[الترمذي في الصلاة (١٧٩)، وقال الترمذي: وَفِي البَابِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَجَابِرٍ، «حَدِيثُ عَبْدِ الله لَيْسَ بِإِسْنَادِهِ بَأْسٌ، إِلَّا أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عَبْدِ الله»، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ فِي الفَوَائِتِ، أَنْ يُقِيمَ الرَّجُلُ لِكُلِّ صَلَاةٍ إِذَا قَضَاهَا، وَإِنْ لَمْ يُقِمْ أَجْزَأَهُ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ، وقال الشيخ الألباني: ضعيف، والنسائي في الأذان (٦٦٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح لغيره. ومسند أحمد ٦/ ١٧-١٨ رقم ٣٥٥٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه].**

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا [فِي غَزْوَةٍ] مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَحُبِسْنَا [فَحَبَسَنَا المُشْرِكُونَ] عَنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: نَحْنُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَفِي سَبِيلِ الله، [فَلَـمَّا انْصَرَفَ المُشْرِكُونَ] فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِلَالًا [مُنَادِيًا]، فَأَقَامَ [لِصَلَاةِ الظُّهْرِ] فَصَلَّى بِنَا الظُّهْرَ، ثُمَّ أَقَامَ [لِصَلَاةِ العَصْرِ] فَصَلَّى بِنَا الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقَامَ [لِصَلَاةِ المَغْرِبِ] فَصَلَّى بِنَا المَغْرِبَ، ثُمَّ أَقَامَ [لِصَلَاةِ العِشَاءِ] فَصَلَّى بِنَا الْعِشَاءِ، ثُمَّ طَافَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «**مَا عَلَى الْأَرْضِ عِصَابَةٌ يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ غَيْرُكُمْ**». **[النسائي في المواقيت (٦٢٢)، وفي الأذان (٦٦٣)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف، ومسند أحمد ٧/ ١١٤ رقم ٤٠١٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه].**

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه جَاءَ يَوْمَ الخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ الله! مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالله مَا صَلَّيْتُهَا**»، فَنَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بُطْحَانَ، فَتَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا، فَصَلَّى العَصْرَ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا المَغْرِبَ.

[البخاري في المغازي (٤١١٢)، وفي مواقيت الصلاة (٥٩٦، ٥٩٨)، وفي الأذان (٦٤١)، وفي صلاة الخوف (٩٤٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٣١)، والترمذي في الصلاة (١٨٠)، و النسائي في السهو (١٣٦٦)].

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الـمُسَيَّبِ أَنَّهُ قَالَ: مَا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ الظُّهْرَ وَالعَصْرَ يَوْمَ الخَنْدَقِ حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ.

قَالَ مَالِك: وَحَدِيثُ القَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ صَالِحِ بْنِ خَوَّاتٍ أَحَبُّ مَا سَمِعْتُ إِلَيَّ فِي صَلَاةِ الخَوْفِ.

[موطأ مالك في النداء للصلاة (٤٤٣)].

دعاء النبي ﷺ على المشركين بسبب شغلهم عن الصلاة:

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ [الخَنْدَقِ] قَالَ رَسُولُ الله ﷺ [وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى فُرْضَةٍ مِنْ فُرَضِ الخَنْدَقِ (هي المدخل من مداخله والمنفذ إليه)]: «**مَلَأَ اللهُ [اللَّهُمَّ امْلَأْ] قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا كَمَا حَبَسُونَا وَشَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الوُسْطَى [صَلَاةِ الوُسْطَى] حَتَّى غَابَتْ [آبَتْ] الشَّمْسُ**».

وَهِيَ صَلَاةُ العَصْرِ، ثُمَّ صَلَّاهَا بَيْنَ العِشَاءَيْنِ، بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ.

[البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣١)، وفي المغازي (٤١١١)، وفي تفسير القرآن (٤٥٣٣)، وفي الدعوات (٦٣٩٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٢٧)، وأبو داود في الصلاة (٤٠٩)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٨٤)، والنسائي في الصلاة (٤٧٣)، وابن ماجه في الصلاة (٦٨٤)، والدارمي في الصلاة (١٢٣٢)، ومسند أحمد ٢/ ٢٩، ٥٤، ٢٤٠، ٢٨٧، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٩، ٣٩٢، ٤٠٤، ٤٢٩،٤٣٢، ٤٣٣، ٤٤٣ رقم ٥٩١، ٦١٧، ٩١١، ٩٩٤، ١١٣٢، ١١٣٤، ١١٥٠، ١١٥١، ١٢٢١، ١٢٤٦، ١٢٩٩، ١٣٠٦، ١٣٠٨، ١٣٢٧].

وعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: شَغَلُونَا يَوْمَ الأَحْزَابِ عَنْ صَلَاةِ العَصْرِ، حَتَّى سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الوُسْطَى، صَلَاةِ العَصْرِ، مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ، وَبُيُوتَهُمْ، وَأَجْوَافَهُمْ نَارًا**».

[مسند أحمد ٢/ ٤٢٤، ٣٠٤ رقم ١٢٨٨، ١٠٣٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير شتير بن شكل فمن رجال مسلم].

وعَنْ عَبِيدَةَ [السَّلْمَانِيِّ] قَالَ: كُنَّا نَرَى أَنَّ صَلَاةَ الوُسْطَى صَلَاةُ الصُّبْحِ [الْفَجْرِ]، قَالَ: فَحَدَّثَنَا عَلِيٌّ رضي الله عنه أَنَّهُمْ يَوْمَ الأَحْزَابِ اقْتَتَلُوا وَحَبَسُونَا عَنْ صَلَاةِ العَصْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ امْلَأْ قُبُورَهُمْ نَارًا أَوْ امْلَأْ بُطُونَهُمْ نَارًا كَمَا حَبَسُونَا عَنْ صَلَاةِ الوُسْطَى**»، قَالَ: فَعَرَفْنَا يَوْمَئِذٍ أَنَّ صَلَاةَ الوُسْطَى صَلَاةُ العَصْرِ. [مسند أحمد ٢/ ٢٨٤، ٤٣٦ رقم ٩٩٠، ١٣١٤، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: حَبَسَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى احْمَرَّتْ الشَّمْسُ أَوْ اصْفَرَّتْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ [صَلَاةِ] الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ [حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ]، مَلَأَ اللهُ أَجْوَافَهُمْ، وَقُبُورَهُمْ، [وَبُيُوتَهُمْ] نَارًا، أَوْ قَالَ: حَشَا اللهُ أَجْوَافَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا**». [مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٢٨)، وابن ماجه في الصلاة (٦٨٦)، ومسند أحمد ٦/ ٢٥٦، ٣٨٠ رقم ٣٧١٦، ٣٨٢٩، ٧/ ٣٧٥-٣٧٦ رقم ٤٣٦٥].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ** - وَلَمْ يُصَلِّهَا يَوْمَئِذٍ حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ - **مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ نَارًا، أَوْ قُلُوبَهُمْ نَارًا، أَوْ بُيُوتَهُمْ نَارًا**». [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٣ رقم ١٠١٦١، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه أحمد ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات].

الجراحات بين كتيبتين مسلمتين:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَلَمَّا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قِتَالٌ جَمِيعًا حَتَّى انْصَرَفُوا، إِلَّا أَنَّهُمْ لا يَدْعُونَ يَبْعَثُونَ الطَّلائِعَ بِاللَّيْلِ يَطْمَعُونَ فِي الغَارَةِ، وَخَرَجَتْ بَعْدَ ذَلِكَ طَلِيعَتَانِ لِرَسُولِ الله ﷺ لَيْلًا، فَالتَقَيَا وَلا يَشْعُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَلا يَظُنُّونَ إِلَّا أَنَّهُمْ العَدُوُّ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ جِرَاحَةٌ، وَقَتْلٌ، وَلَسْنَا نَعْرِفُ مَنْ قَتَلَ وَلَمْ يُسَمَّ لَنَا، ثُمَّ نَادَوْا بِشَعَارِ الإِسْلامِ وَكَفَّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَكَانَ شَعَارُهُمْ: «**حم لا يُنْصَرُونَ**».

فَجَاؤُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**جِرَاحُكُمْ فِي سَبِيلِ الله، وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ**»، فَكَانُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا دَنَا الـمُسْلِمُونَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ نَادَوْا بِشَعَارِهِمْ لأَنْ يَكُفَّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلا يَرْمُونَ بِنَبْلٍ وَلا بِحَجَرٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٤].

مصادرة قافلة للعدو:

وقد استولى جيش المدينة على عشرين بعيرًا كانت محملة تمرًا وشعيرًا وتبنًا، أرسلها اليهود لقريش مددًا وتقوية، فصادرها المسلمون وأتوا بها إلى الرسول ﷺ فخفف الله بها من ضائقة المجاعة التي كان المسلمون فيها.

وكان الذي استولى على هذه القافلة دورية مسلحة من الأنصار كان قد خرج رجالها ليدفنوا ميتًا منهم في المدينة فصادفوا هذه القافلة.

قال الصالحي: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرٍ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرِ بْنُ رِفاعَةٍ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ أَبِي مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ أَبَا سُفْيانَ قَالَ لِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ: قَدْ نَفِدتْ عِلافَتُنَا فَهَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عَلَفٍ؟ فَقَالَ حَيَيٌّ: نَعَمْ، فَكَلَّمَ كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ، فَقَالَ: مَالُنَا مَالُكَ فَاصْنَعْ مَا رَأَيتَ، مُرِ الْقَوْمَ يَأْتُوا بِحَمُولَةٍ فَيَحْمِلُوا مَا أَرَادُوا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ حَيَيٌّ أَنْ ابْعَثُوا بِحَمُولَتِكُمْ تَحْمِلُ الْعَلَفَ، فَأَرْسَلُوا عِشْرِينَ بَعِيرًا، فَحَمَّلُوهَا شَعِيرًا وَتَمْرًا وَتِبْنًا، وَخَرَجُوا بِهَا إِلَى قُرَيْشٍ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِصَفْنَةَ وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْلُكُوا الْعَقِيقَ جَاؤُوا جَمْعًا مِنْ بَنِي

عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَهُمْ يُرِيدُونَ مَنَازِلَهُمْ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ يَطْلُبُونَهُمْ، وَهُمْ عِشْرُونَ رَجُلًا، فِيهِمْ أَبُو لُبَابَةَ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، وَعُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ، وَمَعْنُ بْنُ عَدِيٍّ، خَرَجُوا لِمَيِّتٍ لَهُمْ مَاتَ مِنْهُمْ فِي أُطُمِهِمْ لِيَدْفِنُوهُ، فَنَاهَضُوا الْحَمُولَةَ، وَقَاتَلَهُمْ الْقُرَشِيُّونَ سَاعَةً، وَكَانَ فِيهِمْ ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَمَنَعَ الْحَمُولَةَ، ثُمَّ جُرِحَ وَجَرَحَ، ثُمَّ أَسْلَمُوهَا، وَكَثَّرَهُمْ الْمُسْلِمُونَ، وَانْصَرَفُوا بِهَا يَقُودُونَهَا، حَتَّى أَتَوْا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَدَفَنُوا مَيِّتَهُمْ، ثُمَّ سَارُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِهَا، فَكَانَ أَهْلُ الْخَنْدَقِ يَأْكُلُونَ مِنْهَا، فَتَوَسَّعُوا بِذَلِكَ، وَأَكَلُوهُ حَتَّى نَفِدَ، وَنَحَرُوا مِنْ تِلْكَ الْإِبِلِ أَبْعِرَةً فِي الْخَنْدَقِ، وَبَقِيَ مِنْهَا مَا بَقِيَ حَتَّى دَخَلُوا بِهِ الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا رَجَعَ ضِرارُ بْنُ الْخِطَابِ أَخْبَرَهُمْ الْخَبَرَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: إِنَّ حُيَيًّا لَمَشْؤُومٌ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَطَعَ بِنَا، مَا نَجِدُ مَا نَتَحَمَّلُ عَلَيْهِ إِذَا رَجَعْنَا. [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٣٩-٥٤٠].

أبو سفيان ونشاط خيل المشركين:

ولقد تزايد نشاط خيل المشركين، فكانت هذه الخيل تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح، فتخلفها أعداد أخرى طول النهار حتى الليل، وأصحابها يطمعون في أن يأخذوا المسلمين على حين غرة، مما جعل البلاء يشتد والجهد ينال منهم إلى قرب درجة الإعياء.

فقد أجبرهم في ليالي الخندق الأخيرة نشاط خيل المشركين المتزايد حول الخندق على السهر طول الليل حتى الصباح، وذلك للقيام بأعمال الدورية لحراسة مشارف الخندق خوفًا من أن تأخذهم خيل العدو على حين غرة.

وقد كان الرسول القائد ﷺ ـ عندما اشتد ضغط خيل الأحزاب ـ يقوم بنفسه ليلًا لحراسة أخطر نقطة في الخندق يخشى المسلمون أن يأتيهم المشركون عن طريقها.

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِالخَنْدَقِ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَاهَدُ ثُغْرَةً مِنَ الجَبَلِ يَخَافُ مِنْهَا فَيَأْتِي فَيَضْطَجِعُ فِي حِجْرِي، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَسَمَّعُ، فَسَمِعَ حِسَّ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ الحَدِيدُ، فَانْسَلَّ فِي الجَبَلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ هَذَا؟**»، قَالَ: **أَنَا سَعْدُ، جِئْتُكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ**، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبِيتَ فِي تِلكَ الثُّغْرَةِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حِجْرِي حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: **لا أَنْسَاهَا لِسَعْدٍ**. [مجمع الزوائد ٦/ ١٩٦-١٩٧ في المغازي والسير (١٠١٥٢)، وقال الهيثمي: رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف، وفي الصحيح طرف منه].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَكَانَتْ عَائِشَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ لَيْلَةً، وَنَحْنُ بِالخَنْدَقِ لا أَزَالُ أُحِبُّهُ أَبَدًا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْتَلِفُ إِلَى ثُلْمَةٍ فِي الخَنْدَقِ يَحْرُسُهَا، حَتَّى إِذَا آذَاهُ البَرْدُ جَاءَنِي فَأَدْفَأْته فِي حُضْنِي، فَإِذَا دَفِئَ خَرَجَ إِلَى تِلكَ الثَّلْمَةِ يَحْرُسُهَا وَيَقُولُ: «**مَا أَخْشَى أَنْ يُؤْتَى النَّاسُ إِلَّا مِنْهَا**».

فَبَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي حُضْنِي قَدْ دَفِئَ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا يَحْرُسُنِي**»، قَالَتْ: إِلَى أَنْ سَمِعْتُ صَوْتَ السِّلَاحِ وَقَعْقَعَةَ الحَدِيدِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ هَذَا؟**» فَقَالَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: «**عَلَيْكَ بِهَذِهِ الثُّلْمَةِ فَاحْرُسْهَا**».

قَالَتْ: وَنَامَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٣].

لقد اطمأن الرسول ﷺ إلى أن تلك النقطة الخطيرة الحساسة قد أصبحت تحت حراسة فارس يثق به، فنام، وكان متعبًا من شدة السهر، نومًا هادئًا فترة من الليل حتى غط في نومه ﷺ.

النبي ﷺ يقوم بأعمال الدورية:

وبعد أن أخذ النبي ﷺ قسطًا من النوم قام - قبل انقضاء الليل - وصلى ركعتين ثم خرج من خيمته، واتجه نحو مشارف الخندق ليشارك في القيام بأعمال الدورية، وترصد العدو الذي كان لا يكف عن الطواف بخيله حول الخندق طول الليل.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ ﵂: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي الخَنْدَقِ فَلَمْ أُفَارِقْهُ مَقَامَهُ كُلَّهُ، وَكَانَ يَحْرُسُ بِنَفْسِهِ فِي الخَنْدَقِ، وَكُنَّا فِي قُرٍّ شَدِيدٍ فَإِنِّي لأَنْظُرُ إِلَيْهِ قَامَ فَصَلَّى مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي قُبَّتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَنَظَرَ سَاعَةً فَأَسْمَعُهُ يَقُولُ: «**هَذِهِ خَيْلُ المُشْرِكِينَ تُطِيفُ بِالخَنْدَقِ مَنْ لَهُمْ؟**» ثُمَّ نَادَى: «**يَا عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ**»، فَقَالَ عَبَّادٌ ﵁: لَبَّيْكَ، قَالَ: «**أَمَعَكَ أَحَدٌ؟**» قَالَ: نَعَمْ أَنَا فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي كُنَّا حَوْلَ قُبَّتِكَ.

قَالَ: «**فَانْطَلِقْ فِي أَصْحَابِكَ فَأَطِفْ بِالخَنْدَقِ فَهَذِهِ خَيْلٌ مِنْ خَيْلِهِمْ تُطِيفُ بِكُمْ يَطْمَعُونَ أَنْ يُصِيبُوا مِنْكُمْ غِرَّةً، اللَّهُمَّ ادْفَعْ عَنَّا شَرَّهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ، وَاغْلِبْهُمْ لا يَغْلِبُهُمْ غَيْرُكَ**»، فَخَرَجَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فِي أَصْحَابِهِ، فَإِذَا بِأَبِي سُفْيَانَ فِي خَيْلٍ مِنَ المُشْرِكِينَ يُطِيفُونَ بِمَضِيقِ الخَنْدَقِ، وَقَدْ نَذَرَ بِهِمْ المُسْلِمُونَ فَرَمَوْهُمْ بِالحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ، فَوَقَفْنَا مَعَهُمْ فَرَمَيْنَاهُمْ حَتَّى أَذْلَقْنَاهُمْ (أضعفناهم) بِالرَّمْيِ فَانْكَشَفُوا رَاجِعِينَ إِلَى مَنْزِلِهِمْ، وَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَجِدُهُ يُصَلِّي فَأَخْبَرْتُهُ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ ﵂: فَنَامَ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ، فَمَا تَحَرَّكَ حَتَّى سَمِعْتُ بِلالًا يُؤَذِّنُ بِالصُّبْحِ وَبَيَاضِ الفَجْرِ فَخَرَجَ فَصَلَّى بِالمُسْلِمِينَ، فَكَانَتْ تَقُولُ: يَرْحَمُ اللهُ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ، فَإِنَّهُ كَانَ أَلْزَمَ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ لِقُبَّةِ رَسُولِ الله ﷺ يَحْرُسُهَا أَبَدًا. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٣-٤٦٤].

شدة أيام غزوة الأحزاب:

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، قَالَتْ: كَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الخَنْدَقِ.

[البخاري في المغازي (٤١٠٣)، ومسلم في التفسير (٣٠٢٠)].

وروى البيهقي بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، قَالَ: قَوْمُ أَبِي سُفْيَانَ يَوْمَ الأَحْزَابِ.

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب]، قَالَ: هُمْ بَنُو حَارِثَةَ قَالُوا: بُيُوتُنَا مُخْلِيَّةٌ، نَخْشَى عَلَيْهَا السَّرِقَةَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ [الأحزاب: ٢٢]، قَالَ: ذَلِكَ أَنَّ اللهَ ﷻ قَالَ لَهُمْ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]، فَلَمَّا مَسَّهُمُ البَلَاءُ حَيْثُ رَابَطُوا الأَحْزَابَ فِي الخَنْدَقِ، وَتَأَوَّلَ المُؤْمِنُونَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَزِدْهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا.

وعَنْ قَتَادَةَ ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، قَالَ: أَنْزَلَ اللهُ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾، قَالَ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]. [**دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٣٣-٤٣٥**].

وعن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: خَفِيَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ إِلَّا عَلَى سِتَّةِ نَفَرٍ: أَرْبَعَةِ نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ: طَلحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَعَلِيٍّ وَسَعْدٍ، وَمِنَ الأَنْصَارِ: أَبُو دُجَانَةَ وَالحَارِثُ بنُ الصِّمَّةِ. [**مجمع الزوائد ٦/ ١٩٦ في المغازي والسير (١٠١٥١)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٢/ ٣٨١ رقم ١٣٤١٠] وفيه جماعة لم أعرفهم**].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي قُدَامَةُ بْنُ مُوسَى، عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ قُدَامَةَ، عَنْ أَبِيهَا، قَالَ: بَعَثْنَا ابْنَ أُخْتِنَا ابْنَ عُمَرَ يَأْتِينَا بِطَعَامٍ وَلُحُفٍ وَقَدْ بَلَغَنَا مِنَ الجُوعِ وَالبَرْدِ، فَخَرَجَ ابْنُ عُمَرَ حَتَّى إِذَا هَبَطَ مِنْ سَلعٍ - وَذَلِكَ لَيْلًا - غَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ حَتَّى أَصْبَحَ، فَاهْتَمَمْنَا بِهِ فَخَرَجْتُ أَطْلُبُهُ فَأَجِدُهُ نَائِمًا، وَالشَّمْسُ قَدْ ضَحَّتْهُ، فَقُلْتُ: الصَّلاةَ! أَصَلَّيْتَ اليَوْمَ؟ قَالَ: لا، قُلْتُ: فَصَلِّ، فَقَامَ سَرِيعًا إِلَى المَاءِ، وَذَهَبْتُ إِلَى مَنْزِلِنَا بِالمَدِينَةِ فَجِئْتُ بِتَمْرٍ وَلِحَافٍ وَاحِدٍ، فَكُنَّا نَلبَسُ ذَلِكَ اللِّحَافَ جَمِيعًا - مَنْ قَامَ مِنَّا فِي المَحْرَسِ ذَهَبَ مَقْرُورًا، ثُمَّ رَجَعَ حَتَّى يَدْخُلَ فِي اللِّحَافِ حَتَّى فَرَّجَ اللهُ ذَلِكَ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٥-٤٧٦**].

وروى ابن أبي شيبة عن عروة مرسلًا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ صَافَّ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، قَالَ: وَكَانَ يَوْمًا شَدِيدًا لَمْ يَلْقَ الْمُسْلِمُونَ مِثْلَهُ قَطُّ، قَالَ: وَرَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ وَأَبُو بَكْرٍ مَعَهُ جَالِسٌ، وَذَلِكَ زَمَانُ طَلْعِ النَّخْلِ، قَالَ: وَكَانُوا يَفْرَحُونَ بِهِ إِذَا رَأَوْهُ فَرَحًا شَدِيدًا؛ لِأَنَّ عَيْشَهُمْ فِيهِ، قَالَ: فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ رَأْسَهُ فَبَصُرَ بِطَلْعَةٍ وَكَانَتْ أَوَّلَ طَلْعَةٍ رُئِيَتْ، فَقَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ: طَلْعَةٌ يَا رَسُولَ الله! مِنَ الفَرَحِ، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ

الله ﷺ فتبسَّمَ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا تَنْزِعْ مِنَّا صَالِحَ مَا أَعْطَيْتَنَا، أَوْ صَالِحًا أَعْطَيْتَنَا**».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٩ في المغازي (٣٧٩٦٣)، وقال الشيخ عوامة: «الخبر من مراسيل عروة بإسناد صحيح»، كنز العمال للمتقي الهندي ١٠/ ٤٥٥ رقم ٣٠١٠١].

دعاء الرسول ﷺ وقت الشدة:

عندما تضافرت المحن وتحالفت البلايا عليه ﷺ وعلى أصحابه ﭫ، وعندما تطورت عمليات الحصار واشتد ضغطها في الليالي الأخيرة من الخندق، ورأى ﷺ شدة الخوف الذي عليه أصحابه دعا ربه، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى ﭭ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ وَزَلْزِلْ بِهِمْ**». [البخاري في التوحيد (٧٤٨٩)].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى ﭭ قَالَ: دَعَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، [مُجْرِيَ السَّحَابِ]، اللَّهُمَّ اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**».

[البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٣)، وفي المغازي (٤١١٥)، وفي الدعوات (٦٣٩٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، والترمذي في الجهاد (١٦٧٨)، وابن ماجه في الجهاد(٢٧٩٦)، ومسند أحمد ٣١/ ٤٥٣ رقم ١٩١٠٧].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى ﭭ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا [العَدُوَّ] انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، قَالَ: «**[يَا] أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا [وَاسْأَلُوا] اللهَ [تَعَالَى] العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**».

[البخاري في الجهاد (٢٩٦٦) ومواضع أخرى، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١)، ومسند أحمد ٣١/ ٤٦٠ رقم ١٩١١٤].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﭭ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى مَسْجِدَ ـ يَعْنِي الأَحْزَابَ ـ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ وَقَامَ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ مَدًّا يَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُصَلِّ، قَالَ: ثُمَّ جَاءَ وَدَعَا عَلَيْهِمْ وَصَلَّى.

[مسند أحمد ٢٣/ ٣٩٢ رقم ١٥٢٣٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف لإبهام الراوي عن جابر ﭬ].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﭭ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا فِي مَسْجِدِ الفَتْحِ ثَلَاثًا: يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَيَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، فَاسْتُجِيبَ لَهُ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ، فَعُرِفَ البِشْرُ فِي وَجْهِهِ.

قَالَ جَابِرٌ ﭬ: فَلَمْ يَنْزِلْ بِي أَمْرٌ مُهِمٌّ غَلِيظٌ إِلَّا تَوَخَّيْتُ تِلكَ السَّاعَةَ فَأَدْعُو فِيهَا، فَأَعْرِفُ الإِجَابَةَ.

[مسند أحمد ٢٢/ ٤٢٥ رقم ١٤٥٦٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف، كثير بن زيد ليس بذاك القوي].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﭬ قَالَ: قُلنَا يَوْمَ الخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ الله! هَل مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ، فَقَدْ بَلَغَتْ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ، قَالَ ﷺ: «**نَعَمْ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا**»، قَالَ: فَضَرَبَ اللهُ ﻷ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَزَمَهُمْ اللهُ ﻷ بِالرِّيحِ. [مسند أحمد ١٧/ ٢٧ رقم ١٠٩٩٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف].

وهذا يدل على أن حالة المسلمين بلغت من التحرج ـ أمام محاولات الأحزاب الأخيرة المنظمة ـ أقصى الدرجات وأنهم صاروا في خوف شديد وكرب عظيم لا مثيل له أبدًا.

خالد بن الوليد واقتحام الخندق:

يقول أ/ باشميل: «وفي ليلة من ليالي الأحزاب العصيبة حاول خالد بن الوليد مع مجموعة من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحية ضيقه منه ويأخذهم على حين غرة.

ولكن دوريات المسلمين حالت بينه وبين ما يهدف إليه، فقد كان المسلمون أعرف من المشركين بالمناطق الضيقة من الخندق، والتي يتوقعون أن تقتحمها خيل الأحزاب في غلس الظلام.

ولهذا كانت هذه المناطق تحت حراسة دوريات المسلمين المستمرة اليقظة، فعندما حاول خالد ابن الوليد اقتحام ذلك المضيق من الخندق بخيله وجد نفسه أمام دورية مسلحة كبيرة من المسلمين بقيادة أسيد بن حضير الأنصاري الذي كان في مائتين من أصحابه، فتراجع خالد بن الوليد عن اقتحام المضيق.

إلا أن خيل خالد ناوشت المسلمين تلك الليلة، وكانت المناوشة طبعًا عبر الخندق بالنبال والحرب، وقد استشهد في تلك المناوشة الليلية، الطفيل بن النعمان، قتله وحشي الحبشي (قاتل حمزة يوم أحد) زرق الطفيل بحربة عبر الخندق فأصابت منه مقتلًا.

أبو سفيان يقود الخيل بنفسه:

وقد بلغ نشاط خيل المشركين في الليالي الأخيرة من الخندق حدًّا خطيرًا، أرهق المسلمين وأجهدهم، فقد تولى القائد العام لجيوش الأحزاب، أبو سفيان بنفسه، القيام بعمليات التطواف بالخيل حول الخندق ـ إذ قاد الفرسان بنفسه ـ وصار بالاشتراك مع خيل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص يتجول بخيل الأحزاب في أعداد كبيرة وفي استفزاز وعناد وإصرار حول مضايق الخندق.

ويظهر أن قيادة الأحزاب انتابها السأم والملل بعد أن ظلت جيوشها أكثر من عشرين يومًا حائرة لا تدري ماذا تصنع حيال هذه المكيدة الحربية العظيمة الخندق، الذي يسر للمسلمين مهمة الدفاع عن مدينتهم إلى أبعد الحدود، فقد بقيت طيلة هذه المدة عشرة آلاف مقاتل من جيوش الأحزاب معطلة الحركة غير قادرة على القيام بأي عمل عسكري يُذكر ضد المسلمين.

وليس أبعث على التذمر بين الجنود ـ وخاصة في ذلك العصر ـ من تجميدهم في معسكراتهم سيما إذا كانوا بعيدين عن أهليهم وأوطانهم.

المحاولة الأخيرة لاحتلال المدينة:

ويظهر أن قيادة الأحزاب لهذا كله قد قررت ـ بالرغم من فشل كل المحاولات التي قامت بها للعبور ناحية المسلمين ـ أن تقوم بمحاولة أخيرة لإجبار المسلمين على خوض معركة فاصلة، وكانت المحاولة

هذه المرة أكبر من كل المحاولات التي سبقتها، وكانت مسبوقة بتخطيط ودراسة اشترك فيها كبار قادة الأحزاب الذين كانوا كقادة جيوش مسؤولين يقدرون خطورة بقاء جيوشهم الجرارة تلك معطلة الحركة في معسكراتها بعيدة عن أوطانها وأهاليها، لا سيما وأن المحارب البدوي الذي هو عماد جيوش الأحزاب لم يتعود إلا على الحرب السريعة الخاطفة التي لا تزيد في أطول أوقاته على يوم واحد.

فقد جاء كل قادة الفرق من قريش بكل ما تحت يدهم من سلاح الفرسان إلى مشارف الخندق، ومن ورائهم كثير من المشاة وقفوا خلفهم كاحتياطي لدعوته عند اللزوم.

تفاصيل الخطة الجديدة:

وصار قادة هذه الفرق من الفرسان يجولون بخيلهم بانتظام وحسب تكتيك معين وفق خطة مرسومة، وكانوا يديمون الجولان والتحفز حول المضايق من الخندق، التي يتصورون أنه بإمكانهم السيطرة عليها من الجانبين عن طريق قفز الخندق بأعداد كبيرة من فرسانهم، في أماكن متقاربة، بحيث يمكنهم ـ إذا ما نجحوا في القفز بأعداد كبيرة من الخيل ـ أن يقيموا الجيش من فرسانهم نقطة ارتكاز قوية على مشارف الخندق في مناطق معينة من ناحية المدينة.

وبهذا يسيطر سلاح فرسانهم على مناطق إستراتيجية من الخندق تكون تحت حراستهم من الجانبين، ويقوم سلاح الفرسان الذي يتمكن من احتلال مناطق معينة ناحية المسلمين بالصمود في وجه المسلمين إذا ما أرادوا إجلاءهم عن هذه المناطق.

وبتنفيذ هذه الخطة يتمكن رجال الأحزاب ـ تحت حراسة سلاح الفرسان المتمركزين على مشارف الخندق من ناحية المدينة ـ من ردم مناطق ضيقة من الخندق قد حددت، وبردم هذه المناطق يتمكن مشاة الأحزاب ـ الذين يشكلون أكثرية جيوشهم ـ من عبور الخندق بسهولة إلى حيث يعسكر المسلمون.

وبهذا يتمكن قادة الأحزاب من التعجيل بالمعركة الفاصلة كما يريدون.

فقد كان لدى قادة الأحزاب ما يشبه اليقين بأن الغلبة ستكون لهم على المسلمين، وخاصة بعد انضمام يهود بني قريظة إليهم وتهديدها للمسلمين من الخلف، إذا ما التحمت جيوشهم الضخمة الهائلة مع جيش المدينة الصغير في معركة فاصلة شاملة، الأمر الذي كانت تتحاشاه قيادة المدينة وتعمل على تجنبه بكل معاني الكلمة، والذي ـ لكي لا يحدث ـ قامت قيادة المدينة الحازمة الواعية بحفر الخندق ليكون عازلًا طبيعيًّا منيعًا يفصل بينهم وبين جيوش الأحزاب.

ومن أجل تنفيذ هذا المخطط الجديد، تضاعف ضغط المشركين على موقع الجيش الإسلامي وراء الخندق بصفة عامة، وصار أبو سفيان القائد العام لجيوش الأحزاب ـ الذي كان يكتفي بإرسال فصائل من سلاح الفرسان لمناوشة المسلمين ـ يشرف بنفسه على عمليات هذا الضغط، ويقود بنفسه سلاح الفرسان الذي هو السلاح الرئيس في عملية الضغط والإرهاق هذه.

وهكذا ـ وبعد فترة من الجمود استمرت عدة أيام جَنَّد الأحزاب إمكانياتهم كمحاولة أخيرة لإجبار المسلمين على الاشتباك معهم في معركة فاصلة يستأصلون فيها شأفة المسلمين.

ونتيجة لهذه المحاولة الجبارة الأخيرة من قِبَل الأحزاب، بلغ الضغط على المسلمين الذروة، فاشتد البلاء عليهم أكثر من أي وقت مضى، وأخذ الضيق والكرب والخوف منهم كل مأخذ.

فقد أجهدتهم تنظيمات الحصار الجديدة إجهادًا شديدًا مع ما يعانون من شدة الجوع وقسوة البرد القارس والتخوف من أن يهجم عليهم اليهود من الخلف وهم بين براثن هذه المحنة الشديدة.

أشد ليالي الخندق:

ونتيجة لتلاحق عوامل البلاء ضد المسلمين انسحبت فئات أخرى من ضعاف الإيمان من صفوف الجيش الإسلامي، ولم يبق مع محمد ﷺ في ليالي المصير الحالكة تلك ـ صامدًا في وجه العاصفة ـ سوى قلة قليلة من صفوة أصحابه الذين قد ربطوا مصيرهم بمصيره، مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن معاذ وطلحة بن عبيد الله ومن على مستوى هؤلاء شجاعة ويقينًا وإيمانًا.

ولقد بلغ الضيق والجهد والكرب والخوف ـ حتى من هذه الصفوة لشدة ما حاق بهم ـ شأوًا بعيدًا إلى درجة أنهم في تلك اللحظات الأخيرة من محنة الغزو المرعب، جاؤوا إلى النبي القائد ﷺ وأفصحوا له بصراحة عما يعانونه من شدة الخوف والضيق والكرب.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قُلْنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ الله، هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ، فَقَدْ بَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، قَالَ ﷺ: «**نَعَمْ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا**»، قَالَ: فَضَرَبَ اللهُ عز وجل وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَزَمَهُمْ اللهُ عز وجل بِالرِّيحِ. [**مسند أحمد ١٧/ ٢٧ رقم ١٠٩٩٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف**].

وفي تلك اللحظات التي تعاظم فيها البلاء على المسلمين جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فبشره بقرب انهزام الأحزاب، وأن الله سيرسل عليهم ريحًا وجنودًا من عنده.

وقد ذهب الرسول ﷺ ليطمئنهم وأخبرهم بما أخبره به جبريل عليه السلام من قرب نهاية الأحزاب، وصار ﷺ يرفع يديه نحو السماء قائلًا: «**شكرًا شكرًا**». [**غزوة الأحزاب لباشميل ١٩٧-٢٠٢**].

درجة الانهيار:

يقول أ/ باشميل: «وبعد حوالي اثنتين وعشرين ليلة من الحصار الخانق الشديد بلغت حالة المسلمين المحصورين من الخطورة إلى درجة ليس بعدها إلا الانهيار.

فكل شيء كان ـ في تلك الساعات ـ يوحي بالانهيار الكلي داخل صفوف الجيش الصغير الغارق في خضم كتائب الأحزاب الهائجة التي تحيط به من كل جانب، ويشعر بأن المسلمين هم قاب قوسين أو أدنى من الفناء أو الاستسلام لعدوهم الجبار المحاصر بدون قيد ولا شرط، لولا الإيمان الذي حصنهم الله به وجعله أقوى سلاح يواجهون به عدوهم الذي يفوقهم في كل شيء مادي أضعافًا مضاعفة.

ليالي الرعب المخيفة:

فقد ارتفع ضغط عوامل البلاء والكرب ضد الجيش الصغير المحصور إلى درجة لم يكن لبشر أن يتحملها.

قريش وأحلافها بقواتهم العديدة الجبارة الغامرة المجهزة أحسن تجهيز تكاد ـ لكثرتها وقلتهم ـ يبتلعهم خضم جيشها الهائج المتحفز حولهم في كل مكان.

ويهود بني قريظة الغادرون الخونة يتحفزون ويستعدون ـ في نشوة وفرح ـ للانقضاض على جيش المدينة الصغير الرابض في خوف وقلق وراء استحكاماته الدفاعية خلف الخندق.

وعوامل الطبيعة التي أبى الله إلا أن تكون في تلك الليالي الفاصلة على هذا الجيش الصغير الممتحن قاسية مزعجة، البرد القارس الشديد والجوع المضني والنقص المخيف في الألبسة الواقية من البرد القاتل، والريح الهائجة ذات الصفير المزعج في الظلام الدامس، والمنافقون يتسللون لواذًا من صفوف الجيش المحصور الممتحن، ويثيرون بأراجيفهم الخوف والفزع في النفوس تاركين محمدًا ﷺ وصفوة أصحابه الأوفياء القلائل في مهب العاصفة.

إن الكرب والضيق والخوف قد بلغ بالمسلمين إلى درجة الاختناق ـ وبلغت القلوب الحناجر ـ وأن كل شيء مادي كان يوحي ـ على نحو ساحق ـ بأن المسلمين كانوا أمام ذلك الحصار الخانق الرهيب قاب قوسين أو أدنى من الفناء أو الاستسلام بدون قيد أو شرط لقوات الأحزاب الضاربة المحاصرة.

وأن الصفوة المختارة من صحابة محمد ﷺ ـ على متانة إيمانهم وشدة يقينهم ـ قد وقفوا ـ أمام تلك البلايا المتلاحقة والرزايا المتشابكة والزلازل المتواصلة ـ حائرين لا يدرون كيف المخرج من تلك الورطة القاتلة المستحكمة». [**غزوة الأحزاب لباشميل ٢١٠-٢١٦**].

المبحث السادس

داهية الخندق نعيم بن مسعود رضي الله عنه

التحول الخطير في الموقف:

يقول أ/ باشميل: «وهكذا وبينما وقف صفوة أصحاب محمد ﷺ بعد أكثر من عشرين ليلة كلها مشحونة بالمحن والبلايا والخطرات والرزايا، نعم بينما وقفت هذه الصفوة المختارة تنظر في قلق وخوف متزايد إلي ميزان المصير، وشوكته تهتز على الصفر تنذر بالميل نحو نهايتهم المفزعة؛ إذ برجل واحد يهديه الله للإسلام في تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ الإسلام.

ثم يُسَخِّر الله مواهب هذا الرجل الألمعي في الذكاء والدهاء ليغير بخدعة سياسية بارعة مجرى الأحداث الخطيرة، فيقلب موازين القوى لصالح القلة المؤمنة الصابرة الثابتة في مهب العاصفة، فتحدث المعجزة، فيهزم الله الأحزاب ويكتب النصر المؤزر للمسلمين.

فقد فعل دهاء الرجل بقيادات الأحزاب وجيوشها أكثر مما تفعله الجيوش الجرارة.

فكان صنيع هذا الداهية العظيم من أكبر العوامل التي أدت إلى تشتيت قوى الأحزاب وعودة الغزاة خائبين متنافرين إلى ديارهم دون أن يحققوا شيئًا من أهدافهم.

فبمجهود هذا الرجل ومكره السياسي وإخلاصه لدينه الذي لم يمض في دخوله فيه أكثر من أربع وعشرين ساعة تمكن من إشاعة الفرقة بين فئات الأحزاب ويهود بني قريظة.

فبذر بمهارة فائقة بذور الشك والريبة في نفوس قادة الأحزاب واليهود بعضهم ضد بعض حتى انعدمت الثقة بين هؤلاء الزعماء والقادة، فتصدعت جبهاتهم، وتفتتت وحدتهم مما جعل قادة قريش وغطفان يحنقون على اليهود ويفكون الحصار عن المدينة، كل منهم عائد إلى بلاده، تاركين يهود بني قريظة الناكثين الغادرين لمصيرهم المحتوم الذي انتهى بإبادتهم.

الرجل الذي غيَّر مجرى الأحداث:

وهذا الرجل الذي شاء الله أن تتحطم على يديه وحدة الأحزاب الغازية المعتدية هو نعيم ابن مسعود رضي الله عنه، وهو من قبيلة غطفان النجدية التي يمثل رجالها أكبر أجنحة الاتحاد القرشي الغطفاني اليهودي العسكري، الذي جاء لاحتلال المدينة وسحق المسلمين فيها.

فقد كان نعيم بن مسعود هذا من وجوه القوم والشخصيات البارزة المشهورة في المحيط العربي الوثني اليهودي الغازي.

ولكن لحكمة أرادها الله ـ في الليلة التي تلتها ليلة الأحزاب الأخيرة ـ فتح الله قلب هذا الرجل للإسلام وهو في معسكر الأحزاب.

نعيم بن مسعود رضي الله عنه في المعسكر النبوي:

وعندما أشرق قلبه بنور الإسلام كتم الأمر في نفسه، ثم انسل من معسكر الأحزاب أمام الخندق واتجه على غلس الظلام نحو معسكر الرسول ﷺ حيث يرابط بجنده وراء الخندق.

وهناك تشرَّف بمقابلة الرسول الأعظم ﷺ في مقر قيادته وأبلغه ـ سرًّا ـ أن الله قد هداه للإسلام، وأبلغه أنه يضع نفسه تحت تصرفه، وأنه على أتم الاستعداد للقيام بأي عمل يأمره به ﷺ».

[غزوة الأحزاب لباشميل ٢١٦-٢١٨].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ فِيمَا وَصَفَ اللهُ مِنَ الخَوْفِ وَالشِّدَّةِ لِتَظَاهُرِ عَدُوِّهِمْ عَلَيْهِمْ وَإِتْيَانِهِمْ إِيَّاهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودِ بْنِ عَامِرِ بْنِ أُنَيْفِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ قُنْفُدِ بْنِ هِلَالِ بْنِ خَلَاوَةَ بْنِ أَشْجَعَ بْنِ رَيْثِ بْنِ غَطَفَانَ، أَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله، إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْت**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّل عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**(١). [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٩].

داهية الخندق عند بني قريظة:

يقول أ/ باشميل: «كان نعيم بن مسعود من الشخصيات المألوفة المعروفة بين بني قريظة وكان نديمًا لهم في الجاهلية وصديقًا، وهو الذي تحدث في الجاهلية في حانة من حانات اليهود في المدينة (قبل تحريم الخمر) وهو سكران عن قافلة لكفار مكة سلكت طريق العراق إلى الشام، وكان في الحانة أحد الصحابة من استخبارات الجيش الإسلامي، فسارع بنقل الخبر إلى النبي القائد ﷺ فجهز حملة عسكرية أعطى قيادتها لزيد بن حارثة رضي الله عنه، وأمره باعتراض هذه القافلة عند عودتها من الشام، وقد نجح زيد بن حارثة رضي الله عنه في الاستيلاء علي هذه القافلة. (٢)

كيف انخدعت قريظة بداهية الخندق:

ولما وصل نعيم بن مسعود إلى حصون بني قريظة ـ وهم لم يعلموا بإسلامه ـ بدأ في حياكة خيوط الخدعة الكبيرة التي أدى نجاحها إلى تشتيت شمل الأحزاب وانهزامهم وتخليص المسلمين من ذلك الكرب العظيم». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢١٨-٢١٩].

---

(١) وجاء في السيرة الحلبية ٢/ ١٠٩ أن نعيم بن مسعود قال: يا رسول الله إني أقول (أي ما يقتضيه الحال) وإن كان خلاف الواقع، قال: قل ما بدا لك فأنت في حل، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديمًا، قال: فلما رأوني رحبوا بي وعرضوا عليَّ الطعام والشراب، فقلت: إني لم آت لشيء من هذا، إنما جئتكم تخوفًا عليكم لأشير عليكم برأي....ثم أورد الكلام الذي أوردناه في صلب هذا الكتاب.

(٢) ينظر تفاصيل هذه السَّرِيَّة في «سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى القُرْدة» ٣ هـ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ ـ وَكَانَ لَـهُمْ نَدِيمًا فِي الجَاهِلِيَّةِ ـ فَقَالَ: **يَا بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي إِيَّاكُمْ وَخَاصَّةَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**، قَالُوا: **صَدَقْتَ، لَسْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ**، فَقَالَ لَـهُمْ: **إِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ، البَلَدُ بَلَدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَحَوَّلُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاؤوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ، وَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بِغَيْرِهِ، فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ، فَإِنْ رَأَوْا نُهْزَةً** (أي فرصة) **أَصَابُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَحِقُوا بِبِلَادِهِمْ وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ بِبَلَدِكُمْ، وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ إِنْ خَلَا بِكُمْ، فَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ القَوْمِ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رُهُنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ، يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ، عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُنَاجِزُوهُ**، فَقَالُوا لَهُ: **لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ**. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٩-٢٣٠].

يقول أ/ باشميل: «ويظهر أن قريظة الغادرة قد بدأ الخوف والفزع ينتابها وبدأت تشعر بالحاجة الماسة إلى ضمانات تحميها من أن ينزل بها عقاب الخيانة الصارم الذي بدأ شبحه المخيف يقلق بالها.

ولهذا فقد وقع نعيم بن مسعود من نفوس زعماء بني قريظة موقع الرضا والقبول، فشكر اليهود لنعيم بن مسعود مسعاه عندما تقدم إليهم بتلك النصيحة قائلين: لقد أشرت بالرأي، وقرروا التمسك بما أشار به عليهم.

نعيم الداهية في مقر قيادة الأحزاب:

وبعد أن تأكد داهية الخندق نعيم بن مسعود من نجاح المرحلة الأولى من الخطة التي رسمها لنسف التحالف الوثني اليهودي، وتأكد لديه أن يهود بني قريظة قد انخدعوا بما قاله لهم، ولم يشكوا في أنه ناصح أمين لهم، توجه فورًا إلى القيادة المشتركة في معسكر الأحزاب أمام الخندق ليكمل المرحلة الأخيرة من الخطة التي رسمها لتفريق كلمة الأحزاب وإشاعة الفُرقة والتخاصم بينهم وبين يهود بني قريظة.

ولما وصل نعيم إلى مقر القيادة المشتركة للأحزاب، طلب الاجتماع أولًا وعلى انفراد بالقائد العام لجيوش الأحزاب أبي سفيان وهيئة أركان حربه من القرشيين.

وحينما اجتمع بهم ـ وهم طبعًا لا يعلمون إسلامه ـ أخبرهم بأنه ما جاء إلا لأمر جلل، يتعلق بسلامتهم وسلامة جيوشهم، وأن حبه لهم وحرصه على سلامتهم وسمعة جيوشهم رأى أنه لزامًا عليه أن يخبرهم بأمر خطير علمه قِبَل حلفائهم يهود بني قريظة». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٢١].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، فَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ: **قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي لَكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمَّدًا، وَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ قَدْ رَأَيْتُ عَلَيَّ حَقًّا أَنْ أُبَلِّغَكُمُوهُ نُصْحًا لَكُمْ فَاكْتُمُوا عَنِّي**، فَقَالُوا: **نَفْعَلُ**، قَالَ: **تَعْلَمُونَ أَنَّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ**

أَرْسَلُوا إِلَيْهِ أَنْ قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا، فَهَل يُرْضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنَ القَبِيلَتَيْنِ، مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَنُعْطِيَكَهُمْ فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، ثُمَّ نَكُونَ مَعَكَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَـهُمْ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ: أَنْ نَعَمْ، فَإِنْ بَعَثَتْ إِلَيْكُمْ يَهُودُ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رُهُنًا مِنْ رِجَالِكُمْ فَلَا تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ مِنْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٠].

انخداع الأحزاب بداهية الخندق:

وبعد أن ترك هذا الداهية العظيم ﷺ نفوس القادة القرشيين نهبًا لنوازع الشك والريبة والحقد على حلفائهم الجدد بني قريظة، توجه فورًا إلى قومه غطفان، وفي معسكر هذه القبيلة العظيمة طلب على انفراد بزعمائها وقادتها: عيينة بن حصن الفزاري، وطليحة بن خويلد الأسدي، والحارث بن عوف المري.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى غَطَفَانَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ، إِنَّكُمْ أَصْلِي وَعَشِيرَتِي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَلَا أَرَاكُمْ تَتَّهِمُونِي، قَالُوا: صَدَقْتَ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ، قَالَ: فَاكْتُمُوا عَنِّي، قَالُوا: نَفْعَلُ، فَمَا أَمْرُكَ؟ ثُمَّ قَالَ لَـهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ، وَحَذَّرَهُمْ مَا حَذَّرَهُمْ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٠].

وهكذا نجح نعيم بن مسعود ﷺ في حبك خديعته الكبرى نجاحًا كاملًا.

وفد الأحزاب إلى بني قريظة:

يقول أ/ باشميل: «اهتم أركان القيادة المشتركة من الأحزاب (قريش وغطفان) لهذه الأنباء التي نقلها نعيم بن مسعود (الذي ما كانوا يشكون لحظة بأنه على دينهم) اهتمامًا بالغًا وانزعجوا لها كثيرًا، بعد أن وقع في نفوسهم صدق ما نقل إليهم نعيم بن مسعود، فباتوا بشر ليلة من القلق وقد امتلأوا حنقًا وغيظًا على بني قريظة.

وبهذا نجح هذا الداهية العظيم في وضع مواد التفجير في المواقع الحساسة من صرح التحالف بين الأحزاب وبين يهود بني قريظة حتى نسفه نسفًا كاملًا.

فبعد أن وصل الصحابي الألمعي نعيم بن مسعود ﷺ إلى هذه الدرجة من شحن نفوس الفريقين (اليهود والأحزاب) بما لا مزيد عليه من الشك والريبة وعدم الثقة في بعضهم البعض اتفقت قيادة الأحزاب المشتركة ـ وكان ذلك مساء يوم الجمعة ـ على أن تبعث إلى بني قريظة وفدًا من قادتها وزعمائها ليتصل ببني قريظة موضوع الأنباء التي نقلها نعيم بن مسعود ﷺ.

ولكي يصلوا إلى الحقيقة ويعرفوها ـ بطريق غير مباشر ـ كلفوا وفدهم بأن يطلب من اليهود الاستعداد للدخول في المعركة مع المسلمين وأن يبلغهم أن صباح يوم السبت هو الوقت المحدد للهجوم العام على المسلمين.

وفعلًا توجه وفد الأحزاب إلى منازل بني قريظة تلك الليلة في جنح الظلام، وقد تسلل رجال الوفد هذا سرًّا إلى منازل بني قريظة الواقعة خلف خطوط المسلمين، وذلك خوفًا من دوريات المسلمين التي كانت تطوف حول المدينة طول الليل». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٢٣-٢٢٤].

الأحزاب تطلب الهجوم وقريظة تطلب الرهائن:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْسٍ، وَكَانَ مِنْ صُنْعِ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ أَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَرُؤُوسُ غَطَفَانَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ: عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ، فَقَالُوا لَهُمْ: إِنَّا لَسْنَا بِدَارِ مُقَامٍ، قَدْ هَلَكَ الخُفُّ وَالحَافِرُ، فَاغْدُوا لِلْقِتَالِ حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، وَنَفْرُغَ مِمَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ: إِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ وَهُوَ يَوْمٌ لَا نَعْمَلُ فِيهِ شَيْئًا، وَقَدْ كَانَ أَحْدَثَ فِيهِ بَعْضُنَا حَدَثًا، فَأَصَابَهُ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكُمْ، وَلَسْنَا مَعَ ذَلِكَ بِالَّذِينَ نُقَاتِلُ مَعَكُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُعْطُونَا رُهُنًا مِنْ رِجَالِكُمْ، يَكُونُونَ بِأَيْدِينَا ثِقَةً لَنَا حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، فَإِنَّا نَخْشَى إِنْ ضَرَّسَتْكُمْ (نالت منكم، كما يصيب ذو الأضراس بأضراسه) الحَرْبُ، وَاشْتَدَّ عَلَيْكُمْ القِتَالُ أَنْ تَنْشَمِرُوا (تنقبضوا وتسرعوا إلى بلادكم) إِلَى بِلَادِكُمْ وَتَتْرُكُونَا، وَالرَّجُلُ فِي بَلَدِنَا، وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِذَلِكَ مِنْهُ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٠-٢٣١].

ظهور الخلاف بين الأحزاب واليهود:

وبعد أن سمع وفد قيادة الأحزاب هذا الجواب من حلفائهم اليهود لم يجر معهم أية مناقشة، بل عاد أدراجه إلى مقر القيادة المشتركة وأخبر قادة الأحزاب بما سمع من جواب من يهود بني قريظة.

وهنا لم يبق أي شك لدى هذه القيادة في صدق ما قاله لهم نعيم بن مسعود ﷺ من أن هؤلاء اليهود قد بيتوا الغدر بهم وأنهم لم يطلبوا الرهائن منهم إلا ليسلموهم للنبي ﷺ لضرب أعناقهم كدليل على ولائهم للمسلمين وتكفيرًا عن جريمة نقض العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ.

وهنا تحول الشك في نفوس الأحزاب إلى يقين بأن يهود بني قريظة قد غدروا بهم واتفقوا مع المسلمين عليهم وأنهم لا شك مسلموا رهائنهم للنبي ﷺ إذا استلموهم منهم.

الأحزاب يرفضون إعطاء الرهائن:

لذلك فاضت نفوس قادة الأحزاب بالغيظ والنقمة على اليهود فأرسلوا إليهم في الحال وفدًا آخر ليبلغهم رفض ما طلبوا من رهائن ويطلب منهم تنفيذ الاتفاقية بالهجوم على المسلمين، إن أرادوا.

وقد أسرع الوفد بالذهاب ثانيًا إلى ديار بني قريظة، وأبلغهم باسم قيادة الأحزاب المشتركة رفض ما طلبوا من تسليم الرهائن ـ وأن هذا الطلب هو دليل عدم الثقة وطعن في شرف كلمة قيادة الأحزاب التي أعطوها لليهود.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ الرُّسُلُ بِمَا قَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ، قَالَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ: وَاللهِ إِنَّ الَّذِي حَدَّثَكُمْ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ، فَأَرْسِلُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ: **إِنَّا وَاللهِ لَا نَدْفَعُ إِلَيْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا مِنْ رِجَالِنَا، فَإِنْ**

كُنْتُمْ تُرِيدُونَ القِتَالَ فَاخْرُجُوا فَقَاتِلُوا، فَقَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ، حِينَ انْتَهَتْ الرُّسُلُ إِلَيْهِمْ بِهَذَا: إِنَّ الَّذِي ذَكَرَ لَكُمْ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ، مَا يُرِيدُ القَوْمُ إِلَّا أَنْ يُقَاتِلُوا، فَإِنْ رَأَوْا فُرْصَةً انْتَهَزُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ انْشَمَرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ، وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ فِي بَلَدِكُمْ، فَأَرْسَلُوا إِلَى قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ: **إِنَّا وَاللهِ لَا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُعْطُونَا رُهُنًا، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ**.

وَخَذَّلَ اللهُ بَيْنَهُمْ، وَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ الرِّيحَ فِي لَيَالٍ شَاتِيَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ البَرْدِ، فَجَعَلَتْ تَكْفَأُ قُدُورَهُمْ وَتَطْرَحُ أَبْنِيَتَهُمْ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٠-٢٣١].

شيطان بني النضير يحاول رأب الصدع:

ولقد حاول زعيم يهود بني النضير ورأس الفتنة (حيي بن أخطب) إنقاذ الموقف المتدهور بين الأحزاب وبني قريظة، فذهب إلى يهود بني قريظة محاولًا إقناعهم بالاشتراك في الهجوم على المسلمين، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل، فقد أصر بنو قريظة على موقفهم المتشدد قائلين لحيي ابن أخطب: «**والله لا نقاتل معهم حتى يدفعوا إلينا سبعين رجلًا من قريش وغطفان رهنًا عندنا**».

وبهذا تم إحكام آخر فصل من فصول الخدعة الكبرى التي نسج خيوطها الداهية العظيم نعيم بن مسعود ﷺ، فاستحكمت حلقات الأزمة بين اليهود وقيادات الأحزاب وأصبح من المستحيل التوفيق بينهما، وبدأ المسلمون يتنفسون الصعداء.

تصوير الواقدي لدور نعيم بن مسعود ﷺ:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَاصِمٍ الأَشْجَعِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: كَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَهْلَ شَرَفٍ وَأَمْوَالٍ وَكُنَّا قَوْمًا عَرَبًا، لا نَخْلَ لَنَا وَلا كَرْمَ وَإِنَّمَا نَحْنُ أَهْلُ شَاةٍ وَبَعِيرٍ، فَكُنْتُ أَقْدُمُ عَلَى كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ، فَأُقِيمُ عِنْدَهُمْ الأَيَّامَ أَشْرَبُ مِنْ شَرَابِهِمْ وَآكُلُ مِنْ طَعَامِهِمْ، ثُمَّ يُحَمِّلُونَنِي تَمْرًا عَلَى رِكَابِي مَا كَانَتْ، فَأَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي، فَلَمَّا سَارَتْ الأَحْزَابُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سِرْتُ مَعَ قَوْمِي، وَأَنَا عَلَى دِينِي، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَارِفًا، فَأَقَامَتْ الأَحْزَابُ مَا أَقَامَتْ حَتَّى أَجْدَبَ الجَنَابُ وَهَلَكَ الخُفُّ وَالكُرَاعُ، وَقَذَفَ اللهُ ﷻ فِي قَلْبِي الإِسْلَامَ، وَكَتَمْتُ قَوْمِي إِسْلَامِي، فَأَخْرُجُ حَتَّى آتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ وَأَجِدُهُ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَآنِي جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «**مَا جَاءَ بِكَ يَا نُعَيْمُ؟**» قُلْتُ: **إِنِّي جِئْتُ أُصَدِّقُكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَوَاللهِ لا تَأْمُرُنِي بِأَمْرٍ إِلَّا مَضَيْتُ لَهُ، قَوْمِي لَا يَعْلَمُونَ بِإِسْلَامِي وَلَا غَيْرُهُمْ**.

قَالَ: «**مَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تُخَذِّلَ النَّاسَ فَخَذِّلْ**»، قَالَ: قُلْتُ: **أَفْعَلُ، وَلَكِنْ يَا رَسُولَ اللهِ، أَقُولُ فَأْذَنْ لِي**، قَالَ: «**قُلْ مَا بَدَا لَكَ، فَأَنْتَ فِي حِلٍّ**».

قَالَ: فَذَهَبْتُ حَتَّى جِئْتُ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَلَمَّا رَأَوْنِي رَحَّبُوا وَأَكْرَمُوا وَحَيَّوْا، وَعَرَضُوا عَلَيَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، فَقُلْتُ: **إِنِّي لَمْ آتِ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا؛ إِنَّمَا جِئْتُكُمْ نَصَبًا بِأَمْرِكُمْ وَتَخَوُّفًا عَلَيْكُمْ لأُشِيرَ عَلَيْكُمْ بِرَأْيٍ،**

وَقَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي إِيَّاكُمْ وَخَاصَّةَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، فَقَالُوا: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ، وَأَنْتَ عِنْدَنَا عَلَى مَا تُحِبُّ مِنَ الصِّدْقِ وَالبِرِّ.

قَالَ: فَاكْتُمُوا عَنِّي، قَالُوا: نَفْعَلُ، قَالَ: إِنَّ أَمْرَ هَذَا الرَّجُلِ بَلاءٌ - يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - صَنَعَ مَا قَدْ رَأَيْتُمْ بِبَنِي قَيْنُقَاعَ وَبَنِي النَّضِيرِ وَأَجْلاهُمْ عَنْ بِلادِهِمْ بَعْدَ قَبْضِ الأَمْوَالِ، وَكَانَ ابْنُ أَبِي الحُقَيْقِ قَدْ سَارَ فِينَا فَاجْتَمَعْنَا مَعَهُ لِنَصْرِكُمْ، وَأَرَى الأَمْرَ قَدْ تَطَاوَلَ كَمَا تَرَوْنَ، وَإِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَنْتُمْ وَقُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ مِنْ مُحَمَّدٍ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، أَمَّا قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ فَهُمْ قَوْمٌ جَاؤُوا سَيَّارَةً حَتَّى نَزَلُوا حَيْثُ رَأَيْتُمْ، فَإِنْ وَجَدُوا فُرْصَةً انْتَهَزُوهَا، وَإِنْ كَانَتْ الحَرْبُ أَوْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ انْشَمَرُوا إِلَى بِلادِهِمْ، وَأَنْتُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، البَلَدُ بَلَدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، وَقَدْ غَلُظَ عَلَيْهِمْ جَانِبُ مُحَمَّدٍ، أَجْلَبُوا عَلَيْهِ أَمْسِ إِلَى اللَّيْلِ فَقَتَلَ رَأْسَهُمْ عَمْرَو بْنَ عَبْدٍ، وَهَرَبُوا مِنْهُ مُجَرَّحِينَ، وَهُمْ لا غَنَاءَ بِهِمْ عَنْكُمْ لِمَا تَعْرِفُونَ عِنْدَكُمْ، فَلا تُقَاتِلُوا مَعَ قُرَيْشٍ وَلا غَطَفَانَ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رَهْنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ؛ تَسْتَوْثِقُونَ بِهِ مِنْهُمْ إِلَّا يُنَاجِزُوا مُحَمَّدًا.

قَالُوا: أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ عَلَيْنَا وَالنُّصْحِ، وَدَعَوْا لَهُ وَتَشَكَّرُوا، وَقَالُوا: نَحْنُ فَاعِلُونَ.

قَالَ: وَلَكِنْ اُكْتُمُوا عَنِّي، قَالُوا: نَعَمْ نَفْعَلُ.

ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا سُفْيَانَ قَدْ جِئْتُكَ بِنَصِيحَةٍ فَاكْتُمْ عَنِّي، قَالَ: أَفْعَلُ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ قُرَيْظَةَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَأَرَادُوا إِصْلاحَهُ وَمُرَاجَعَتَهُ، أَرْسَلُوا إِلَيْهِ وَأَنَا عِنْدَهُمْ إِنَّا سَنَأْخُذُ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا نُسَلِّمُهُمْ إِلَيْكَ تَضْرِبُ أَعْنَاقَهُمْ وَتَرُدَّ جَنَاحَنَا الَّذِي كَسَرْتَ إِلَى دِيَارِهِمْ - يَعْنُونَ بَنِي النَّضِيرِ - وَنَكُونُ مَعَكَ عَلَى قُرَيْشٍ حَتَّى نَرُدَّهُمْ عَنْكَ، فَإِنْ بَعَثُوا إِلَيْكُمْ يَسْأَلُونَكُمْ رَهْنًا فَلا تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَحَدًا، وَاحْذَرُوهُمْ عَلَى أَشْرَافِكُمْ، وَلَكِنْ اُكْتُمُوا عَنِّي وَلا تَذْكُرُوا مِنْ هَذَا حَرْفًا، قَالُوا: لا نَذْكُرُهُ.

ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى غَطَفَانَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ، إِنِّي رَجُلٌ مِنْكُمْ فَاكْتُمُوا عَنِّي، وَاعْلَمُوا أَنَّ قُرَيْظَةَ بَعَثُوا إِلَى مُحَمَّدٍ - وَقَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ - فَاحْذَرُوا أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَحَدًا مِنْ رِجَالِكُمْ، وَكَانَ رَجُلًا مِنْهُمْ فَصَدَّقُوهُ.

وَأَرْسَلَتْ اليَهُودُ غَزَّالَ بْنَ سَمَوْأَلٍ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ: إِنَّ ثَوَاءَكُمْ قَدْ طَالَ، وَلَمْ تَصْنَعُوا شَيْئًا وَلَيْسَ الَّذِي تَصْنَعُونَ بِرَأْيٍ، إِنَّكُمْ لَوْ وَعَدْتُمُونَا يَوْمًا تَزْحَفُونَ فِيهِ إِلَى مُحَمَّدٍ فَتَأْتُونَ مِنْ وَجْهٍ، وَتَأْتِي غَطَفَانُ مِنْ وَجْهٍ، وَنَخْرُجُ نَحْنُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ لَمْ يُفْلِتْ مِنْ بَعْضِنَا، وَلَكِنْ لا نَخْرُجُ مَعَكُمْ حَتَّى تُرْسِلُوا إِلَيْنَا بِرِهَانٍ مِنْ أَشْرَافِكُمْ يَكُونُونَ عِنْدَنَا، فَإِنَّا نَخَافُ إِنْ مَسَّتْكُمُ الحَرْبُ وَأَصَابَكُمْ مَا تَكْرَهُونَ شَمَّرْتُمْ وَتَرَكْتُمُونَا فِي عُقْرِ دَارِنَا، وَقَدْ نَابَذْنَا مُحَمَّدًا بِالعَدَاوَةِ.

فَانْصَرَفَ الرَّسُولُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِمْ شَيْئًا، وَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **هَذَا مَا قَالَ نُعَيْمٌ.**

فَخَرَجَ نُعَيْمٌ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَقَالَ: **يَا مَعْشَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ! أَنَا عِنْدَ أَبِي سُفْيَانَ حَتَّى جَاءَ رَسُولُكُمْ إِلَيْهِ يَطْلُبُ مِنْهُ الرِّهَانَ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: لَوْ طَلَبُوا مِنِّي عَنَاقًا مَا رَهَنْتُهَا، أَنَا أَرْهَنُهُمْ سَرَاةَ أَصْحَابِي يَدْفَعُونَهُمْ إِلَى مُحَمَّدٍ يَقْتُلُهُمْ، فَارْتَئُوا آرَاءَكُمْ حَتَّى تَأْخُذُوا الرَّهْنَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُقَاتِلُوا مُحَمَّدًا وَانْصَرَفَ أَبُو سُفْيَانَ تَكُونُوا عَلَى مُوَاعَدَتِكُمْ الأُولَى.**

قَالُوا: **تَرْجُو ذَلِكَ يَا نُعَيْمُ؟** قَالَ: **نَعَمْ،** قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ: **فَإِنَّا لا نُقَاتِلُهُ، وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ لِهَذَا كَارِهًا وَلَكِنَّ حُيَيًّا رَجُلٌ مَشْؤومٌ.**

قَالَ الزَّبِيرُ بْنُ بَاطَا: **إِنْ انْكَشَفَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ عَنْ مُحَمَّدٍ لَمْ يُقْبَلْ مِنَّا إِلَّا السَّيْفُ.**

قَالَ نُعَيْمٌ: **لا تَخْشَ ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ،** قَالَ الزَّبِيرُ: **بَلَى وَالتَّوْرَاةِ، وَلَوْ أَصَابَتْ اليَهُودُ رَأْيَهَا وَلَحَمَ الأَمْرُ لَتَخْرُجَنَّ إِلَى مُحَمَّدٍ وَلا يَطْلُبُونَ مِنْ قُرَيْشٍ رَهْنًا، فَإِنَّ قُرَيْشًا لا تُعْطِينَا رَهْنًا أَبَدًا، وَعَلَى أَيِّ وَجْهٍ تُعْطِينَا قُرَيْشٌ الرَّهْنَ وَعَدَدُهُمْ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِنَا، وَمَعَهُمْ كُرَاعٌ وَلا كُرَاعَ مَعَنَا، وَهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى الهَرَبِ وَنَحْنُ لا نَقْدِرُ عَلَيْهِ؟ وَهَذِهِ غَطَفَانُ تَطْلُبُ إِلَى مُحَمَّدٍ أَنْ يُعْطِيَهَا بَعْضَ تَمْرِ الأَوْسِ وَتَنْصَرِفُ فَأَبَى مُحَمَّدٌ إِلَّا السَّيْفَ، فَهُمْ يَنْصَرِفُونَ بِغَيْرِ شَيْءٍ.**

فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةُ السَّبْتِ كَانَ مِمَّا صَنَعَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ أَنْ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنَّ الجَنَابَ قَدْ أَجْدَبَ، وَهَلَكَ الكُرَاعُ وَالخُفُّ، وَغَدَرَتْ اليَهُودُ وَكَذَبَتْ، وَلَيْسَ هَذَا بِحَيْنِ مُقَامٍ فَانْصَرِفُوا،** قَالَتْ قُرَيْشٌ: **فَاعْلَمْ عِلْمَ اليَهُودِ وَاسْتَيْقِنْ خَبَرَهُمْ.**

فَبَعَثُوا عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ حَتَّى جَاءَ بَنِي قُرَيْظَةَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ مَسَاءَ لَيْلَةِ السَّبْتِ، فَقَالَ: **يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ، إِنَّهُ قَدْ طَالَ المُكْثُ، وَجَهَدَ الخُفُّ وَالكُرَاعُ، وَأَجْدَبَ الجَنَابُ، وَإِنَّا لَسْنَا بِدَارِ مُقَامَةٍ، اُخْرُجُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ حَتَّى نُنَاجِزَهُ بِالغَدَاةِ.**

قَالُوا: **غَدًا السَّبْتُ لا نُقَاتِلُ وَلا نَعْمَلُ فِيهِ عَمَلًا، وَإِنَّا مَعَ ذَلِكَ لا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ إِذَا انْقَضَى سَبْتُنَا حَتَّى تُعْطُونَا رِهَانًا مِنْ رِجَالِكُمْ يَكُونُونَ مَعَنَا لِئَلَّا تَبْرَحُوا حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، فَإِنَّا نَخْشَى إِنْ أَصَابَتْكُمْ الحَرْبُ أَنْ تُشَمِّرُوا إِلَى بِلادِكُمْ وَتَدَعُونَا وَإِيَّاهُ فِي بِلادِنَا، وَلا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، مَعَنَا الذَّرَارِيُّ وَالنِّسَاءُ وَالأَمْوَالُ.**

فَرَجَعَ عِكْرِمَةُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ، فَقَالُوا: **مَا وَرَاءَكَ؟** قَالَ: **أَحْلِفُ بِاللهِ إِنَّ الخَبَرَ الَّذِي جَاءَ بِهِ نُعَيْمٌ حَقٌّ، لَقَدْ غَدَرَ أَعْدَاءُ اللهِ.**

وَأَرْسَلَتْ غَطَفَانُ إِلَيْهِمْ مَسْعُودَ بْنَ رُخَيْلَةَ فِي رِجَالٍ مِنْهُمْ بِمِثْلِ رِسَالَةِ أَبِي سُفْيَانَ فَأَجَابُوهُمْ بِمِثْلِ جَوَابِ أَبِي سُفْيَانَ، وَقَالَتِ اليَهُودُ حَيْثُ رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنْهُمْ: **نَحْلِفُ بِاللهِ إِنَّ الخَبَرَ الَّذِي قَالَ نُعَيْمٌ لَحَقٌّ،** وَعَرَفُوا أَنَّ قُرَيْشًا لا تُقِيمُ فَسُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَكَرَّ أَبُو سُفْيَانَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: **إِنَّا وَاللهِ لا نَفْعَلُ، إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ القِتَالَ فَاخْرُجُوا فَقَاتِلُوا،** فَقَالَتْ اليَهُودُ مِثْلَ قَوْلِهِمْ الأَوَّلِ، وَجَعَلَتْ اليَهُودُ تَقُولُ: **الخَبَرُ مَا قَالَ نُعَيْمٌ.**

وَجعَلَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ تَقُولُ: **الخَبَرُ مَا قَالَ نُعَيْمٌ**، وَيَئِسَ هَؤُلاءِ مِنْ نَصْرِ هَؤُلاءِ، وَيَئِسَ هَؤُلاءِ مِنْ نَصْرِ هَؤُلاءِ، وَاخْتَلَفَ أَمْرُهُمْ فَكَانَ نُعَيْمٌ يَقُولُ: **أَنَا خَذَّلْتُ بَيْنَ الأَحْزَابِ حَتَّى تَفَرَّقُوا فِي كُلِّ وَجْهٍ، وَأَنَا أَمِينُ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى سِرِّهِ**، فَكَانَ صَحِيحَ الإِسْلامِ بَعْدُ.

فَحَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَـمَّا قَالَتْ قُرَيْظَةُ لِعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ مَا قَالَتْ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ لِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ: **أَيْنَ مَا وَعَدْتَنَا مِنْ نَصْرِ قَوْمِكَ؟ قَدْ خَلَّوْنَا وَهُمْ يُرِيدُونَ الغَدْرَ بِنَا**، قَالَ حُيَيٌّ: **كَلَّا وَالتَّوْرَاةِ، وَلَكِنَّ السَّبْتَ قَدْ حَضَرَ، وَنَحْنُ لا نَكْسِرُ السَّبْتَ، فَكَيْفَ نُنْصَرُ عَلَى مُحَمَّدٍ إِذَا كَسَرْنَا السَّبْتَ؟ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الأَحَدِ أُغْدُوا عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ بِمِثْلِ حَرْقِ النَّارِ**.

وَخَرَجَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَقَالَ: **فِدَاءَكُمْ أَبِي وَأُمِّي، إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ اتَّهَمَتْكُمْ بِالغَدْرِ وَاتَّهَمُونِي مَعَكُمْ، وَمَا السَّبْتُ لَوْ كَسَرْتُمُوهُ لِمَا قَدْ حَضَرَ مِنْ أَمْرِ عَدُوِّكُمْ؟**

قَالَ: فَغَضِبَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ، ثُمَّ قَالَ: **لَوْ قَتَلَـهُمْ مُحَمَّدٌ حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ مَا كَسَرْنَا سَبْتَنَا**.

فَرَجَعَ حُيَيٌّ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، فَقَالَ: **أَلَمْ أُخْبِرْكَ يا يَهُودِيُّ أَنَّ قَوْمَكَ يُرِيدُونَ الغَدْرَ؟**

قَالَ حُيَيٌّ: لا وَالله مَا يُرِيدُونَ الغَدْرَ، وَلَكِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الخُرُوجَ يَوْمَ الأَحَدِ.

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **وَمَا السَّبْتُ؟** قَالَ: **يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِهِمْ يُعَظِّمُونَ القِتَالَ فِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّ سَبْطًا مِنَّا أَكَلُوا الحِيتَانَ يَوْمَ السَّبْتِ فَمَسَخَهُمُ اللهُ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ**، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **لا أَرَانِي أَسْتَنْصِرُ بِإِخْوَةِ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ**، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **قَدْ بَعَثْتُ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ وَأَصْحَابَهُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: لا نُقَاتِلُ حَتَّى تَبْعَثُوا لَنَا بِالرِّهَانِ مِنْ أَشْرَافِكُمْ، وَقَبْلَ ذَلِكَ مَا جَاءَنَا غَزَّالُ بْنُ سَمَوْأَلٍ بِرِسَالَتِهِمْ**، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **أَحْلِفُ بِاللَّاتِ إِنْ هُوَ إِلَّا غَدْرُكُمْ، وَإِنِّي لأَحْسَبُ أَنَّكَ قَدْ دَخَلتَ فِي غَدْرِ القَوْمِ**.

قَالَ حُيَيٌّ: وَالتَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سَيْنَاءَ مَا غَدَرْتُ، وَلَقَدْ جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ قَوْمٍ هُمْ أَعْدَى النَّاسِ لِمُحَمَّدٍ وَأَحْرَصُهُمْ عَلَى قِتَالِهِ، وَلَكِنْ مَا مُقَامُ يَوْمٍ وَاحِدٍ حَتَّى يَخْرُجُوا مَعَكَ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **لا وَالله وَلا سَاعَةً، لا أُقِيمُ بِالنَّاسِ انْتِظَارَ غَدْرِكُمْ**، حَتَّى خَافَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ، فَخَرَجَ مَعَهُمْ مِنَ الخَوْفِ حَتَّى بَلَغَ الرَّوْحَاءَ، فَمَا رَجَعَ إِلَّا مُتَسَرِّقًا لِمَا أَعْطَى كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ مِنْ نَفْسِهِ لَيَرْجِعَنَّ إِلَيْهِ، فَدَخَلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ حِصْنَهُمْ لَيْلًا، وَيَجِدُ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ زَحَفَ إِلَيْهِمْ سَاعَةَ وَلَّتِ الأَحْزَابُ.

فَحَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِي كَعْبٍ القُرَظِيِّ، قَالَ: كَانَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ أَسَدٍ حِينَ جَاءَهُ وَجَعَلَ كَعْبٌ يَأْبَى، فَقَالَ حُيَيٌّ: **لا تُقَاتِلِ حَتَّى تَأْخُذَ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِهَانًا عِنْدَكُمْ**، وَذَلِكَ مِنْ حُيَيٍّ خَدِيعَةً لِكَعْبٍ حَتَّى يَنْقُضَ العَهْدَ، وَعَرَفَ أَنَّهُ إِذَا نَقَضَ العَهْدَ لَحَمَ الأَمْرُ.

وَلَمْ يُخْبِرِ حُيَيٌّ قُرَيْشًا بِالَّذِي قَالَ لِبَنِي قُرَيْظَةَ، فَلَـمَّا جَاءَهُمْ عِكْرِمَةُ يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ السَّبْتَ قَالُوا: **لا نَكْسِرُ السَّبْتَ، وَلَكِنْ يَوْمَ الأَحَدِ، وَلا نَخْرُجُ حَتَّى تُعْطُونَا الرُّهَانَ**، فَقَالَ عِكْرِمَةُ: **أَيُّ رِهَانٍ؟**، قَالَ كَعْبٌ: **الَّذِي شَرَطْتُمْ لَنَا**، قَالَ: **وَمَنْ شَرَطَهَا لَكُمْ؟** قَالُوا: **حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ**، فَأَخْبَرَ أَبَا سُفْيَانَ ذَلِكَ، فَقَالَ لِحُيَيٍّ: **يَا يَهُودِيُّ، نَحْنُ قُلْنَا لَكَ كَذَا وَكَذَا؟** قَالَ: **لا وَالتَّوْرَاةِ، مَا قُلْتُ ذَلِكَ**، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **بَلْ هُوَ الغَدْرُ مِنْ حُيَيٍّ**، فَجَعَلَ حُيَيٌّ يَحْلِفُ بِالتَّوْرَاةِ مَا قَالَ ذَلِكَ.

حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ يَعْقُوبَ، عَنْ عَمِّهِ قَالَ: قَالَ كَعْبٌ: **يَا حُيَيُّ، لا نَخْرُجُ حَتَّى نَأْخُذَ مِنْ كُلِّ أَصْحَابِكَ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ سَبْعِينَ رَجُلًا رَهْنًا فِي أَيْدِينَا**، فَذَكَرَ ذَلِكَ حُيَيٌّ لِقُرَيْشٍ وَلِغَطَفَانَ وَقَيْسٍ، فَفَعَلُوا وَعَقَدُوا بَيْنَهُمْ عَقْدًا بِذَلِكَ حَتَّى شَقَّ كَعْبٌ الكِتَابَ، فَلَـمَّا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ تَسْتَنْصِرُهُ، قَالَ: **الرَّهْنُ**، فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ وَاخْتَلَفُوا لِمَا أَرَادَ اللهُ ﷻ.

وَحَدَّثَنِي مَعْمَرٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: أَرْسَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ أَنْ ائْتُوا، فَإِنَّا سَنُغِيرُ عَلَى بَيْضَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ، فَسَمِعَ ذَلِكَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ وَكَانَ مُوَادِعًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ عِنْدَ عُيَيْنَةَ حِينَ أَرْسَلَتْ بِذَلِكَ بَنُو قُرَيْظَةَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ، فَأَقْبَلَ نُعَيْمٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهَا وَمَا أَرْسَلَتْ بِهِ قُرَيْظَةُ إِلَى الأَحْزَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلَعَلَّنَا أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ**»، فَقَامَ نُعَيْمٌ بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِلْكَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ: وَكَانَ نُعَيْمٌ رَجُلًا لا يَكْتُمُ الحَدِيثَ، فَلَـمَّا وَلَّى مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاهِبًا إِلَى غَطَفَانَ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ: **يَا رَسُولَ اللهِ مَا هَذَا الَّذِي قُلْتَ؟ إِنْ كَانَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى فَامْضِهِ، وَإِنْ كَانَ هَذَا رَأْيًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ فَإِنَّ شَأْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ هُوَ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَقُولَ شَيْئًا يُؤْثَرُ عَنْكَ**، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَلْ هُوَ رَأْيٌ رَأَيْتُهُ، الحَرْبُ خُدْعَةٌ**»، ثُمَّ أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَثَرِ نُعَيْمٍ، فَدَعَاهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرَأَيْتَ الَّذِي سَمِعْتَنِي قُلْتُ آنِفًا؟ أُسْكُتْ عَنْهُ فَلا تَذْكُرْهُ**»، فَانْصَرَفَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى جَاءَ عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ، وَمَنْ مَعَهُ مِنْ غَطَفَانَ، فَقَالَ لَـهُمْ: **هَلْ عَلِمْتُمْ مُحَمَّدًا قَالَ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا كَانَ حَقًّا؟** قَالُوا: **لا**، قَالَ: **فَإِنَّهُ قَالَ لِي فِيمَا أَرْسَلَتْ بِهِ إِلَيْكُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ: «فَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ»، ثُمَّ نَهَانِي أَذْكُرُهُ لَكُمْ**.

فَانْطَلَقَ عُيَيْنَةُ حَتَّى لَقِيَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، فَأَخْبَرَهُ خَبَرَ نُعَيْمٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَـهُمْ: **إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي مَكْرِ بَنِي قُرَيْظَةَ**، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **نُرْسِلُ إِلَيْهِمْ الآنَ فَنَسْأَلُهُمْ الرَّهْنَ فَإِنْ دَفَعُوا الرَّهْنَ إِلَيْنَا فَقَدْ صَدَقُونَا، وَإِنْ أَبَوْا ذَلِكَ فَنَحْنُ مِنْهُمْ فِي مَكْرٍ**، فَجَاءَهُمْ رَسُولُ أَبِي سُفْيَانَ فَسَأَلَـهُمْ الرَّهْنَ لَيْلَةَ السَّبْتِ، فَقَالُوا: **هَذِهِ لَيْلَةُ السَّبْتِ وَلَسْنَا نَقْضِي فِيهَا وَلا فِي يَوْمِهَا أَمْرًا، فَأَمْهِلْ حَتَّى يَذْهَبَ السَّبْتُ**، فَخَرَجَ الرَّسُولُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ وَرُؤُوسُ الأَحْزَابِ مَعَهُ: **هَذَا مَكْرٌ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَارْتَحِلُوا فَقَدْ طَالَتْ**

إِقَامَتُكُمْ، فَآذَنُوا بِالرَّحِيلِ، وَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ الرِّيحَ حَتَّى مَا يَكَادُ أَحَدُهُمْ يَهْتَدِي لِمَوْضِعِ رَحْلِهِ، فَارْتَحَلُوا فَوَلَّوْا مُنْهَزِمِينَ.

وَيُقَالُ: إِنَّ حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ، قَالَ لأَبِي سُفْيَانَ: **أَنَا آخُذُ لَكَ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ سَبْعِينَ رَجُلًا رَهْنًا عِنْدَكَ حَتَّى يَخْرُجُوا فَيُقَاتِلُوا، فَهُمْ أَعْرَفُ بِقِتَالِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ**، فَكَانَ هَذَا الَّذِي قَالَ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ طَلَبَ الرَّهْنَ.

قَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: وَأَثْبَتُ الأَشْيَاءِ عِنْدَنَا قَوْلُ نُعَيْمٍ الأَوَّلِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٨٠-٤٨٧].

وقال ابن إسحاق: حَدَّثني يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂: «أَنَّ نُعَيْمًا كَانَ رَجُلًا نَمُومًا، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «**إِنَّ الْيَهُودَ بَعَثَتْ إِلَيَّ إِنْ كَانَ يُرْضِيك أَنْ تَأْخُذَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رُهُنًا نَدْفَعُهُمْ إِلَيْك فَتَقْتُلُهُمْ فَعَلْنَا**»، فَرَجَعَ نُعَيْم مُسْرِعًا إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ، فَقَالُوا: **وَاللهِ مَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّهُمْ لَأَهْلُ غَدْرٍ**. وَكَذَلِكَ قَالَ لِقُرَيْش، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ خِذْلَانِهِمْ وَرَحِيلِهِمْ».

[فتح الباري ٧/ ٤٦٥، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٠].

انهيار الاتحاد الوثني اليهودي:

يقول أ/ باشميل: «إن الشقاق قد حصل بين الأحزاب وحلفائهم الجدد (يهود بني قريظة) وظن بعضهم ببعض سوءًا، ووصل الخلاف والتنافر بين الفريقين (اليهود والأحزاب) إلى درجة أصبح الحلف العسكري المعقود بينهما في حكم المنتهي، وصار كل منهما يُحمِّل الآخر مسؤولية انفصام عرى هذا الحلف.

وعندما وصل الخلاف والتنافر إلى هذه الدرجة، فَكَّرت القيادة المشتركة للأحزاب في إنهاء الحصار المضروب على المدينة والرجوع بجيوشها كل إلى بلاده، وترك اليهود وشأنهم، ليلقوا مصيرهم الرهيب، لا سيما وأن التذمر والاستياء أخذ يظهر في معسكر الأحزاب الذي ظل جنوده (وهم أكثر من عشرة آلاف) قرابة ثلاثين يومًا معوقين مجمدين أمام الخندق لا يستطيعون القيام بأي عمل عسكري حاسم ضد المسلمين، وهذا مما يبعث السأم والضيق في نفوس هؤلاء القوم الذين لم يألفوا طيلة حياتهم (في الحروب) التجميد والمرابطة أمام المدن، وإنما ألفوا الحروب الخاطفة والغارات السريعة التي لا تستغرق عملية القيام بها سوى يوم أو بعض يوم.

يضاف إليها أنه في الوقت الذي استحكم الخلاف فيه بين اليهود والأحزاب هبت على المنطقة التي يعسكر فيها الأحزاب رياح هوج كانت لقوتها تقتلع الخيام وتهدم الأبنية وتكفأ القدور ولا تترك نارًا تشتعل». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٢٩-٢٣٠].

المبحث السابع
ليالي الخندق الأخيرة

الليالي الحاسمة:

يقول أ/ باشميل: «حقًّا، لقد كانت تلك الليالي الأخيرة الحاسمة من ليالي الأحزاب الرهيبة مختبرًا صهر الله في بوتقة محنها وبلاياها أمة محمد ﷺ مرة أخرى ليعلم ـ وهو الأعلم بعباده ـ الصادق من الكاذب ويميز الخبيث من الطيب.

وفعلًا لم يثبت مع نبيه ﷺ في خضم تلك البلايا المتلاحقة والمحن المتحالفة التي أخذ بعضها برقاب بعض، إلا ذوو الإيمان الراسخ رسوخ شوامخ الجبال، والذي لا يزعزعه شيء مهما عظم، حتى إن بعض المؤرخين ذكر أنه لم يبق في الليالي الأخيرة من ليالي الخندق الحاسمة مع النبي القائد ﷺ إلا حوالي ثلاثمائة مقاتل فقط، وماذا عسى أن يفعل ثلاثمائة رجل ينقصهم كل شيء مادي إلا الإيمان أمام أحد عشر ألف مقاتل يفوقونهم في كل شيء مادي؟». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢١٢].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: بَعَثَنِي خَالِي عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ لِآتِيَهُ بِلِحَافٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَاسْتَأْذَنْتُهُ وَهُوَ بِالْخَنْدَقِ، فَأَذِنَ لِي، وَقَالَ: «**مَنْ لَقِيتَ مِنْهُمْ فَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا**»، وَكَانَ ذَلِكَ فِي بَرْدٍ شَدِيدٍ، فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ النَّاسَ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا، قَالَ: فَلَا وَالله مَا عَطَفَ عَلَيَّ مِنْهُمُ اثْنَانِ، أَوْ وَاحِدٌ.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٦ رقم ١٠١٥٠، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير [١٢/ ٣٦٨ رقم ١٣٣٦٩]، والأوسط [٥/ ٢٧٤ رقم ٥٢٩٩]، ورجاله رجال الصحيح. وصحح الحافظ ابن حجر إسناد. فتح الباري لابن حجر ٧/ ٤٠٢ حديث رقم ٤١٠٥، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٣].

ورواه الطبري بسنده عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: أَرْسَلَنِي خَالِي عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ لَيْلَةَ الْخَنْدَقِ فِي بَرْدٍ شَدِيدٍ وَرِيحٍ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: ائْتِنَا بِطَعَامٍ وَلِحَافٍ، قَالَ: فَاسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ الله ﷺ، فَأَذِنَ لِي، وَقَالَ: «**مَنْ لَقِيتَ مِنْ أَصْحَابِي فَمُرْهُمْ يَرْجِعُوا**»، قَالَ: فَذَهَبْتُ وَالرِّيحُ تَسْفِي كُلَّ شَيْءٍ، فَجَعَلْتُ لَا أَلْقَى أَحَدًا إِلَّا أَمَرْتُهُ بِالرُّجُوعِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: فَمَا يَلْوِي أَحَدٌ مِنْهُمْ عُنُقَهُ.

قَالَ: وَكَانَ مَعِي تُرْسٌ لِي فَكَانَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُهُ عَلَيَّ، وَكَانَ فِيهِ حَدِيدٌ، قَالَ: فَضَرَبَتْهُ الرِّيحُ حَتَّى وَقَعَ بَعْضُ ذَلِكَ الْحَدِيدِ عَلَى كَفِّي، فَأَنْفَذَهَا إِلَى الْأَرْضِ. [تفسير الطبري ١٩/ ٢٦، وتفسير ابن كثير ٦/ ٣٨٥].

استطلاع حذيفة رضي الله عنه الأخبار يوم الخندق:

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: قَالَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنهما: **يَا أَبَا عَبْدِ الله، رَأَيْتُمْ رَسُولَ الله ﷺ، وَصَحِبْتُمُوهُ؟** قَالَ: **نَعَمْ، يَا بْنَ أَخِي**، قَالَ: **فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟** قَالَ: **وَالله لَقَدْ كُنَّا**

نَجْهَدُ، قَالَ: **وَاللهِ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَلَجَعَلْنَاهُ [وَلَحَمَلْنَاهُ] عَلَى أَعْنَاقِنَا**، قَالَ: فَقَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ وَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ هَوِيًّا ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «**مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ يَشْتَرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ**»، فَمَا قَامَ رَجُلٌ [مِنَ الْقَوْمِ، ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «**مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ**»، فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعَ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَشِدَّةِ الْجُوعِ وَشِدَّةِ الْبَرْدِ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي، فَقَالَ: «**يَا حُذَيْفَةُ، فَاذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ، فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا**»، قَالَ: فَذَهَبْتُ، فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لَا تَقِرُّ لَهُمْ قِدْرٌ وَلَا نَارٌ وَلَا بِنَاءٌ، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ؟ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ، لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ [وَالْخُفُّ]، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ بَلَغَنَا مِنْهُمْ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَاللهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلَاثٍ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: لَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي، وَلَوْ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ.

قَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَحَّلٍ [مَرَاجِلَ] [قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الْمَرَاجِلُ ضَرْبٌ مِنْ وَشْيِ الْيَمَنِ]، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ [رِجْلَيْهِ] وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنَّهُ لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ وَانْشَمَرُوا [رَاجِعِينَ] إِلَى بِلَادِهِمْ. **[البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٦)، ومسند أحمد ٣٨/ ٣٥٩ عن حذيفة ﷺ رقم ٢٣٣٣٤، وما بين المعكوفتين زيادة من السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣١-٢٣٣]**.

وروى البيهقي بسنده عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا، قَالَ لِحُذَيْفَةَ: يَا حُذَيْفَةُ، نَشْكُو إِلَى اللهِ صُحْبَتَكُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَأَنَّكُمْ أَدْرَكْتُمُوهُ وَلَمْ نُدْرِكْهُ، وَرَأَيْتُمُوهُ وَلَمْ نَرَهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: وَنَحْنُ نَشْكُو إِلَى اللهِ ﷻ إِيمَانَكُمْ بِهِ وَلَمْ تَرَوْهُ، وَاللهِ مَا نَدْرِي يَا ابْنَ أَخِي لَوْ أَدْرَكْتَهُ كَيْفَ كُنْتَ تَكُونُ، لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْخَنْدَقِ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ مَطِيرَةٍ، وَقَدْ نَزَلَ أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ بِالْعَرْصَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ رَجُلٌ يَذْهَبُ فَيَعْلَمُ لَنَا عِلْمَ الْقَوْمِ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ؟**»، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ رَجُلٌ يَذْهَبُ فَيَعْلَمُ لَنَا عِلْمَ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ رَفِيقَ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**» فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «**مَنْ رَجُلٌ يَذْهَبُ فَيَعْلَمُ لَنَا عِلْمَ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ رَفِيقِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**» فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنَّا أَحَدٌ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ الله، ابْعَثْ حُذَيْفَةَ، فَقُلْتُ: دُونَكَ وَالله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا حُذَيْفَةُ**»، فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَقَالَ: «**هَل أَنْتَ ذَاهِبٌ؟**» فَقُلْتُ: وَالله مَا بِي أَنْ أُقْتَلَ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ أُؤْسَرَ، فَقَالَ: «**إِنَّكَ لَنْ تُؤْسَرَ**»، فَقُلْتُ: مُرْنِي يَا رَسُولَ الله بِمَا شِئْتَ، فَقَالَ ﷺ: «**اذْهَبْ حَتَّى تَدْخُلَ بَيْنَ ظَهْرَيِ القَوْمِ، فَأْتِ قُرَيْشًا فَقُلْ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ إِذَا كَانَ غَدًا أَنْ يَقُولُوا: أَيْنَ قُرَيْشٌ؟ أَيْنَ قَادَةُ النَّاسِ؟ أَيْنَ رُؤُوسُ النَّاسِ؟ فَيُقَدِّمُوكُمْ فَتَصْلَوَا القِتَالَ، فَيَكُونُ القَتْلُ فِيكُمْ، ثُمَّ ائْتِ بَنِي كِنَانَةَ فَقُلْ: يَا مَعْشَرَ بَنِي كِنَانَةَ، إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ إِذَا كَانَ غَدًا أَنْ يَقُولُوا: أَيْنَ بَنُو كِنَانَةَ؟ أَيْنَ رُمَاةُ الحَدَقِ؟ فَيُقَدِّمُوكُمْ فَتَصْلَوَا القِتَالَ، فَيَكُونُ القَتْلُ فِيكُمْ، ثُمَّ ائْتِ قَيْسًا فَقُلْ: يَا مَعْشَرَ قَيْسٍ، إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ إِذَا كَانَ غَدًا أَنْ يَقُولُوا: أَيْنَ قَيْسٌ؟ أَيْنَ أَحْلَاسُ الخَيْلِ؟ أَيْنَ الفُرْسَانُ؟ فَيُقَدِّمُوكُمْ فَتَصْلَوَا القِتَالَ، فَيَكُونُ القَتْلُ فِيكُمْ**»، وَقَالَ لِي: «**لَا تُحْدِثُ فِي سِلَاحِكَ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي فَتَرَانِي**»، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى دَخَلتُ بَيْنَ ظَهْرَيِ القَوْمِ، فَجَعَلتُ أَصْطَلِي مَعَهُمْ عَلَى نِيرَانِهِمْ، وَجَعَلتُ أَبُثُّ ذَلِكَ الحَدِيثَ الَّذِي أَمَرَنِي بِهِ رَسُولُ الله ﷺ، حَتَّى إِذَا كَانَ وِجَاهَ السَّحَرِ قَامَ أَبُو سُفْيَانَ فَدَعَا اللَّاتَ وَالعُزَّى وَأَشْرَكَ، ثُمَّ قَالَ: لِيَنْظُرْ رَجُلٌ مَنْ جَلِيسُهُ، وَمَعِي رَجُلٌ مِنْهُمْ يَصْطَلِي عَلَى النَّارِ، فَوَثَبْتُ عَلَيْهِ، فَآخُذُ بِيَدِهِ مَخَافَةَ أَنْ يَأْخُذَنِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَقُلْتُ: أَوْلَى.

فَلَـمَّا دَنَا الصُّبْحُ نَادَى: أَيْنَ قُرَيْشٌ؟ أَيْنَ رُؤُوسُ النَّاسِ؟ فَقَالُوا: أَيْهَاتَ هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ البَارِحَةَ، أَيْنَ بَنُو كِنَانَةَ؟ وَأَيْنَ الرُّمَاةُ؟ فَقَالُوا: أَيْهَاتَ هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ البَارِحَةَ، أَيْنَ قَيْسٌ؟ أَيْنَ أَحْلَاسُ الخَيْلِ؟ أَيْنَ الفُرْسَانُ؟ فَقَالُوا: أَيْهَاتَ هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ البَارِحَةَ، فَتَخَاذَلُوا، وَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ تِلكَ الرِّيحَ، فَمَا تَرَكَتْ لَـهُمْ بِنَاءً إِلَّا هَدَّمَتْهُ، وَلَا إِنَاءً إِلَّا أَكْفَأَتْهُ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ وَثَبَ عَلَى جَمَلٍ لَهُ مَعْقُولٍ، فَجَعَلَ يَسْتَحِثُّهُ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ، وَلَوْلَا مَا أَمَرَنِي بِهِ رَسُولُ الله ﷺ فِي سِلَاحِي لَرَمَيْتُهُ أَدْنَى مِنْ تِلكَ، فَجِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَجَعَلتُ أُخْبِرُهُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَعَلَ يَضْحَكُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى جَعَلتُ أَنْظُرُ إِلَى أَنْيَابِهِ. [**دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٥٤-٤٥٥، وأخرجه أبو نعيم في الدلائل ٤٣٣، وابن عساكر، وابن إسحاق، وذكره ابن هشام في السيرة ٣/ ١٨٦-١٨٧، وابن مردويه، السيرة الشامية ٤/ ٥٤٧-٥٤٩**].

وروى البيهقي بسنده عَنْ عَبْدِ العَزِيزِ ابْنِ أَخِي حُذَيْفَةَ قَالَ: ذَكَرَ حُذَيْفَةُ مَشَاهِدَهُمْ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ جُلَسَاؤُهُ: **أَمَا وَالله لَوْ كُنَّا شَهِدْنَا ذَلِكَ لَفَعَلنَا وَفَعَلنَا** (هذا كلام من لم يعايش المحنة والابتلاء فهو يتكلم من مكان آمن)، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: لَا تَمَنَّوْا ذَلِكَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا لَيْلَةَ الأَحْزَابِ وَنَحْنُ صَافُّونَ قُعُودٌ، أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الأَحْزَابِ فَوْقَنَا، وَقُرَيْظَةُ اليَهُودِ أَسْفَلَ مِنَّا، نَخَافُهُمْ عَلَى ذَرَارِيِّنَا، وَمَا أَتَتْ عَلَيْنَا لَيْلَةٌ قَطُّ أَشَدُّ ظُلْمَةً وَلَا أَشَدُّ رِيحًا، فِي أَصْوَاتِ رِيحِهَا أَمْثَالُ الصَّوَاعِقِ وَهِيَ ظُلْمَةٌ، مَا يَرَى أَحَدٌ مِنَّا إِصْبَعَهُ، فَجَعَلَ

الْمُنَافِقُونَ يَسْتَأْذِنُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَيَقُولُونَ: إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ، وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ، فَمَا يَسْتَأْذِنُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَذِنَ لَهُ، فَيَأْذَنُ لَهُمْ، فَيَتَسَلَّلُونَ، وَنَحْنُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ إِذِ اسْتَقْبَلَنَا (أي استعرضنا واحدًا واحدًا كأنه يتخير) رَسُولُ الله ﷺ رَجُلًا رَجُلًا حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ، وَمَا عَلَيَّ جُنَّةٌ (السترة والوقاية ومنه حديث: والصوم جنة) مِنَ العَدُوِّ، وَلَا مِنَ البَرْدِ، إِلَّا مِرْطٌ (الكساء، ويكون من صوف، وربما كان من الخزّ أو غيره) لِامْرَأَتِي مَا يُجَاوِزُ رُكْبَتَيَّ، قَالَ: فَأَتَانِي وَأَنَا جَاثٍ عَلَى رُكْبَتَيَّ، فَقَالَ: «**مَنْ هَذَا؟**» فَقُلْتُ: حُذَيْفَةُ، فَقَالَ: «**حُذَيْفَةُ؟**»، قَالَ: فَتَقَاصَرْتُ بِالأَرْضِ، فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، كَرَاهِيَةَ أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «**قُمْ**»، فَقُمْتُ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ كَائِنٌ فِي القَوْمِ خَبَرٌ، فَأْتِنِي بِخَبَرِ القَوْمِ**»، قَالَ: وَأَنَا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ فَزَعًا، وَأَشَدِّهِمْ قُرًّا، فَخَرَجْتُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ فَوْقِهِ، وَمِنْ تَحْتِهِ**»، قَالَ: فَوَالله مَا خَلَقَ اللهُ فَزَعًا وَلَا قُرًّا فِي جَوْفِي إِلَّا خَرَجَ مِنْ جَوْفِي، فَمَا أَجِدُ مِنْهُ شَيْئًا، قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ قَالَ: «**يَا حُذَيْفَةُ، لَا تُحْدِثَنَّ فِي القَوْمِ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي**».

فَخَرَجْتُ حَتَّى إِذَا دَنَوْتُ مِنْ عَسْكَرِ القَوْمِ نَظَرْتُ فِي ضَوْءِ نَارٍ لَهُمْ تَوَقَّدُ، وَإِذَا رَجُلٌ أَدْهَمُ ضَخْمٌ يَقُولُ بِيَدِهِ عَلَى النَّارِ، وَيَمْسَحُ خَاصِرَتَهُ وَيَقُولُ: الرَّحِيلَ الرَّحِيلَ، وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَبَا سُفْيَانَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَانْتَزَعْتُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي أَبْيَضَ الرِّيشِ، فَأَضَعُهُ عَلَى كَبِدِ قَوْسِي (مقبضها وكبد كل شيء وسطه) لِأَرْمِيَهُ فِي ضَوْءِ النَّارِ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ: «**لَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي**»، فَأَمْسَكْتُ وَرَدَدْتُ سَهْمِي فِي كِنَانَتِي، ثُمَّ إِنِّي شَجَّعْتُ نَفْسِي حَتَّى دَخَلتُ الْمُعَسْكَرَ، فَإِذَا أَدْنَى النَّاسِ مِنِّي بَنُو عَامِرٍ يَقُولُونَ: يَا آلَ عَامِرٍ، الرَّحِيلَ الرَّحِيلَ، لَا مُقَامَ لَكُمْ، وَإِذَا الرِّيحُ فِي عَسْكَرِهِمْ، مَا تُجَاوِزُ عَسْكَرَهُمْ شِبْرًا، فَوَالله إِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتَ الحِجَارَةِ فِي رِحَالِهِمْ، وَفَرَسَتْهُمُ الرِّيحُ تَضْرِبُهُمْ بِهَا.

ثُمَّ خَرَجْتُ نَحْوَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا انْتَصَفَ بِيَ الطَّرِيقُ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، إِذَا أَنَا بِنَحْوٍ مِنْ عِشْرِينَ فَارِسًا أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مُعْتَمِّينَ (يشير بذلك إلى الملائكة وقد أرسلهم الله للتضييق على الكفار)، فَقَالُوا: **أَخْبِرْ صَاحِبَكَ أَنَّ اللهَ كَفَاهُ القَوْمَ**، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ فِي شَمْلَةٍ يُصَلِّي، فَوَالله مَا عَدَا أَنْ رَجَعْتُ رَاجَعَنِي القُرُّ، وَجَعَلتُ أُقَرْقِفُ (أرعد من البرد)، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَأَسْبَلَ عَلَيَّ شَمْلَتَهُ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا حَزَبَهُ [1] أَمْرٌ صَلَّى، فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَ القَوْمِ، وَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي تَرَكْتُهُمْ يَتَرَحَّلُونَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ الآية [الأحزاب: ٩].

---

(١) أي إذا نزل به أمر مهم، وقد روى هذا الإمام أحمد ٥/ ٣٨٨، والنسائي ١/ ٢٨٩ وحزبه كلمة واحدة وليست مركبة من (حز) و(به) كما يتوهم البعض. مرويات غزوة الخندق ٤٠٣.

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ سَرِيعٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ ﵄، فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا، وَذَكَرَ فِيهِ دُعَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِالحِفْظِ، وَذَكَرَ أَنَّ عَلْقَمَةَ بْنَ عُلَاثَةَ نَادَى: يَا عَامِرُ، إِنَّ الرِّيحَ قَاتِلَتِي وَأَنَا عَلَى ظَهْرٍ، وَأَخَذَتْهُمْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَصَاحَ أَصْحَابُهُ، فَلَـمَّا رَأَى ذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ أَمَرَهُمْ فَتَحَمَّلُوا، وَلَقَدْ تَحَمَّلُوا وَإِنَّ الرِّيحَ لَتَغْلِبُهُمْ عَلَى بَعْضِ أَمْتِعَتِهِمْ.

فَقَالَ عَلقَمَةُ بْنُ مَرْثَدٍ: عَنْ عَطِيَّةَ الكَاهِلِيِّ قَالَ: قَدْ كَانَ فِي الحَدِيثِ: إِنَّهُ لَـمَّا رَجَعَ حُذَيْفَةُ مَرَّ بِخَيْلٍ عَلَى طَرِيقِهِ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، فَخَرَجَ لَهُ فَارِسَانِ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَالَا: **ارْجِعْ إِلَى صَاحِبِكَ فَأَخْبِرْهُ أَنَّ اللهَ قَدْ كَفَاهُ إِيَّاهُمْ بِالْجُنُودِ وَالرِّيحِ**، وَتَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

هَكَذَا أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ، فِيمَا أَدَّى مِنَ الحَدِيثِ بِاليَاءِ. **[دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٥١-٤٥٤]**.

وروى البيهقي بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ ﵄ أَنَّ النَّاسَ، تَفَرَّقُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَأَتَى [فَأَتَانِي] رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا جَاثٍ مِنَ البَرْدِ، قَالَ: «**يَا ابْنَ اليَمَانِ، قُمْ فَانْطَلِقْ إِلَى عَسْكَرِ الأَحْزَابِ، فَانْظُرْ إِلَى حَالِهِمْ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا قُمْتُ إِلَيْكَ إِلَّا حَيَاءً مِنْكَ مِنَ البَرْدِ، قَالَ: «**فَانْطَلِقْ يَا ابْنَ اليَمَانِ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْكَ مِنْ حَرٍّ وَلَا بَرْدٍ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيَّ**»، قَالَ: فَانْطَلَقْتُ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، فَوَجَدْتُ أَبَا سُفْيَانَ يُوقِدُ النَّارَ فِي عُصْبَةٍ حَوْلَهُ، قَدْ تَفَرَّقَ الأَحْزَابُ عَنْهُ، قَالَ: حَتَّى إِذَا جَلَسْتُ فِيهِمْ، قَالَ: فَحَسَّ أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ دَخَلَ فِيهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، قَالَ: يَأْخُذُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِيَدِ جَلِيسِهِ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي عَلَى الَّذِي عَنْ يَمِينِي فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، ثُمَّ ضَرَبْتُ بِيَدِي عَلَى الَّذِي عَنْ يَسَارِي فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَكُنْتُ فِيهِمْ هُنَيَّةً، ثُمَّ قُمْتُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِيَدِهِ أَنِ ادْنُ، فَدَنَوْتُ، ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَيَّ أَيْضًا: «ادْنُ»، فَدَنَوْتُ حَتَّى أَسْبَلَ عَلَيَّ مِنَ الثَّوْبِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي [لِيُدَفِّئَنِي]، فَلَـمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: «**ابْنَ اليَمَانِ! اقْعُدْ، مَا الخَبَرُ [خَبَرُ النَّاسِ]؟**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فِي عُصْبَةٍ يُوقِدُ النَّارَ، قَدْ صَبَّ اللهُ عَلَيْهِ [عَلَيْهِمْ] مِنَ البَرْدِ مِثْلَ الَّذِي صَبَّ عَلَيْنَا، وَلَكِنَّا نَرْجُو مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُو [يَرْجُونَ].

[دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٥٠-٤٥١، والمستدرك للحاكم ٣/ ٣١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، مجمع الزوائد ٦/ ١٩٧-١٩٨ في المغازي والسير (١٠١٥٤)، وقال الهيثمي: رواه البزار ورجاله ثقات. وفي الصحيح لحذيفة ﵁ حديث بغير هذا السياق].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: وَكَانَ حِصَارُ الخَنْدَقِ فِي قُرٍّ شَدِيدٍ وَجُوعٍ، فَكَانَ حُذَيْفَةُ بْنُ اليَمَانِ ﵄ يَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا فِي الخَنْدَقِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ البَرْدِ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْنَا البَرْدُ وَالجُوعُ وَالخَوْفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ القَوْمُ جَعَلَهُ اللهُ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ**»، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: **يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ**

الله ﷺ **الجَنَّةَ وَالرُّجُوعَ**، فَما قَامَ مِنَّا رَجُلٌ، ثُمَّ عَادَ يَقُولُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وَمَا قَامَ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ وَالقُرِّ وَالخَوْفِ، فَلَـمَّا رَأَى رَسُولُ الله ﷺ ذَلِكَ لا يَقُومُ أَحَدٌ، دَعَانِي، فَقَالَ: «**يَا حُذَيْفَةُ**»، قَالَ: فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ القِيَامِ حِينَ فَوَّهَ بِاسْمِي، فَجِئْتُهُ وَلِقَلْبِي وَجَبَانٌ فِي صَدْرِي، فَقَالَ: «**تَسْمَعُ كَلامِي مُنْذُ اللَّيْلَةَ وَلا تَقُومُ؟**» فَقُلْتُ: لا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنْ قَدَرْتُ عَلَى مَا بِي مِنَ الجُوعِ وَالبَرْدِ، فَقَالَ: «**اذْهَبْ فَانْظُرْ مَا فَعَلَ القَوْمُ، وَلا تَرْمِينَ بِسَهْمٍ وَلا بِحَجَرٍ وَلا تَطْعَنُ بِرُمْحٍ وَلا تَضْرِبَنَّ بِسَيْفٍ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيَّ**».

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا بِي يَقْتُلُونِي وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ يُمَثِّلُوا بِي، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَيْسَ عَلَيْكَ بَأْسٌ**»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لا بَأْسَ عَلَيَّ مَعَ كَلامِ رَسُولِ الله ﷺ الأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ: «**اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي القَوْمِ فَانْظُرْ مَاذَا يَقُولُونَ**»، فَلَـمَّا وَلَّى حُذَيْفَةُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ**»، فَدَخَلَ عَسْكَرَهُمْ فَإِذَا هُمْ يَصْطَلُونَ عَلَى نِيرَانِهِمْ، وَإِنَّ الرِّيحَ تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَفْعَلُ لا تُقِرُّ لَـهُمْ قَرَارًا وَلا بِنَاءً، فَأَقْبَلتُ فَجَلَسْتُ عَلَى نَارٍ مَعَ قَوْمٍ فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: احْذَرُوا الجَوَاسِيسَ وَالعُيُونَ، وَلِيَنْظُرْ كُلُّ رَجُلٍ جَلِيسَهُ، قَالَ: فَالتَفَتُّ إِلَى عَمْرِو بْنِ العَاصِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ وَهُوَ عَنْ يَمِينِي، فَقَالَ: عَمْرُو بْنُ العَاصِ، وَالتَفَتُّ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ.

ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: إِنَّكُمْ وَالله لَسْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الخُفُّ وَالكُرَاعُ وَأَجْدَبَ الجَنَابُ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَغْنَا عَنْهُمْ الَّذِي نَكْرَهُ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَالله مَا يَثْبُتُ لَنَا بِنَاءٌ وَلا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، وَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ وَجَلَسَ عَلَى بَعِيرِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلاثِ قَوَائِمَ، فَما أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا بَعْدَ مَا قَامَ، وَلَوْلا عَهْدُ رَسُولِ الله ﷺ إِلَيَّ: لا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَ، ثُمَّ شِئْتُ، لَقَتَلتُهُ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٨٨-٤٩٠].

قُمْ يَا نَوْمَانُ:

عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَاتَلتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ (أي بالغت في نصرته كأنه أراد الزيادة على نصرة الصحابة ﷺ)، فَقَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ (استفهام إنكاري أي فعلنا ما نستطيع وهو ما لا تقدر عليه) لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ [برد شديد]، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ**»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ**»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ**»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «**قُمْ يَا حُذَيْفَةُ! فَأْتِنَا بِخَبَرِ القَوْمِ**»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ،

قَالَ ﷺ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ القَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ** (أي لا تفزعهم عليَّ ولا تحركهم عليَّ، وقيل: معناه لا تنفرهم، والمراد: لا تحركهم عليك فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضررًا علي لأنك رسولي وصاحبي (من صحيح مسلم) ٣/ ١٤١٤ هامش الصفحة. مرويات غزوة الخندق ٣٩٦)»، فَلَـمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ (أي أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس) حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ (يدفئه) بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ القَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ: «**وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الحَمَّامِ، فَلَـمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ القَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ (بردت)، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ الله ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَل نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَـمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ ﷺ: «**قُمْ يَا نَوْمَانُ**». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٨)].

المبحث الثامن
نهاية المعركة

فك الحصار عن المدينة نهائيًّا:

يقول الشيخ الغزالي: «ضاق الأعراب النازلون بالعراء ذرعًا لهذا المقام الغريب، لقد خيَّموا حول أطراف يثرب أيامًا لا تؤذن بدايتها بانتهاء، وهم لم يجيؤوا ليستنفدوا أقواتهم أمام خندق صعب الاجتياز، وجبال رابَط المسلمون أمامها، واستقتلوا دون أن يقترب أحد منها.

ثم إن الجو اغبرت أرجاؤه، وترادفت أنواؤه، وهبت الرياح نكباء موحشة الصفير، تكاد في هبوبها تطوي الخيام المبعثرة وتطير بها في الآفاق!

والصلة بين أولئك الحلفاء لا تغري بدوام الثقة، إن غطفان وقبائل نجد أقبلت يحدوها السَّلب والنهب، وهي قد قبلت العودة من حيث أتت عندما أُغريت ببعض ثمار المدينة لولا أن المسلمين كبر عليهم أن يطعموهم منها رهبًا.

وماذا صنعت قريظة؟

نقضت الموثق ونكصت عن الهجوم منتظرة من العرب أن يقوموا هم به!

وفي ليلة شاتية عاتية لفحت سبراتها الوجوه والجلود، وأقعدت الرجال في أماكنهم ينشدون الدفء، ويفرون من القر المتساقط على الصخور والرمال، اتجهت نيات القوم إلى اتخاذ قرار حاسم في هذا القتال الفاشل؟

وكأنما كان زئير الرياح الهوج سوطًا يلهب المهاجمين حتى لا يتوانوا في الخلاص من هذا الموقف، ونظر رسول الله ﷺ من وراء أسوار المدينة، وحوله أصحابه جاثمون في مكامنهم يرمقون الأفق بحذر، ويرقبون الغيب بأمل، والظلام البارد الثقيل يرين على كل شيء في الصحراء المترامية».

[فقه السيرة للغزالي ٣١٥-٣١٦، ٣١٨].

قال ابن سعد: أَخْبَرَنَا أَبُو الْوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: كَانَ يَوْمُ الْخَنْدَقِ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ: فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ كِنَانَةَ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ غَطَفَانَ، وَطُلَيْحَةُ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، وَأَبُو الْأَعْوَرِ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، وَقُرَيْظَةُ كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ، فَنَقَضُوا ذَلِكَ وَظَاهَرُوا الْمُشْرِكِينَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، فَأَتَى جِبريلُ ﷺ ومَعَهُ الرِّيحُ، فَقالَ ﷺ حينَ رَأى جِبريلَ ﷺ: «أَلا أَبشِروا»، ثَلاثًا، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ فَهَتَكَتِ الْقِبَابَ، وَكَفَأَتِ

الْقُدُورَ، وَدَفَنَتِ الرِّحَالَ (جمع رحل وهو مركب يوضع على ظهر البعير. القاموس ٣/ ٣٨٣)، وَقَطَعَتِ الأَوْتَادَ، فَانْطَلَقُوا لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[الأحزاب: ٩]... [**الطبقات لابن سعد ٢/ ٦٧ رقم ١٦٧٤**].

وقال البيهقي: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَسَنِ الْقَاضِي، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا وَرْقَاءُ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، قَالَ: يَعْنِي رِيحَ الصَّبَا، أُرْسِلَتْ عَلَى أَحْزَابِ يَوْمِ الْخَنْدَقِ، حَتَّى كَفَأَتْ قُدُورَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهَا، وَنَزَعَتْ فَسَاطِيطَهُمْ حَتَّى أَظْعَنَتْهُمْ، ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، يَعْنِي: الْمَلَائِكَةَ، قَالَ: وَلَمْ تُقَاتِلِ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَئِذٍ. [**دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٤٨**].

وقال السيوطي: وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾[الأحزاب:١٠]، قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، وَقَدْ حُصِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهْرًا، فَخَنْدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ بِقُرَيْشٍ وَمَنْ مَعَه مِنَ النَّاسِ حَتَّى نَزَلُوا بِعَقْوَةِ (العَقْوَة: الساحة وما حول الدار والمحلة. اللسان ع ق و) رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَقْبَلَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ أَخُو بَنِي بَدْرٍ بِغَطَفَانَ وَمَنْ تَبِعَهُ حَتَّى نَزَلُوا بِعَقْوَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَاتَبَتِ الْيَهُودُ أَبَا سُفْيَانَ فَظَاهَرُوهُ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ الرُّعْبَ وَالرِّيحَ، فَذُكِرَ أَنَّهُمْ كَانُوا كُلَّمَا بَنَوْا بِنَاءً قَطَعَ اللهُ أَطْنَابَهُ، وَكُلَّمَا رَبَطُوا دَابَّةً قَطَعَ اللهُ رِبَاطَهَا، وَكُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا أَطْفَأَهَا اللهُ، حَتَّى لَقَدْ ذُكِرَ لَنَا: أَنَّ سَيِّدَ كُلِّ حَيٍّ يَقُولُ: يَا بَنِي فُلَانٍ هَلُمَّ إِلَيَّ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا عِنْدَهُ قَالَ: **النَّجَاةَ، النَّجَاةَ، أُتِيتُمْ**؛ لِـمَا بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الرُّعْبِ. [**الدر المنثور في التفسير بالمأثور ١١/ ٧٤٧-٧٤٨**].

وقال البلاذري: ثُمَّ إِنَّ اللهَ تُعَالَى نَصَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيهِمْ بِالرِّيحِ، وَكَانَتْ رِيحًا صَفْرَاءَ فَمَلَأَتِ عُيُونَهُمْ، فَدَاخَلَهُمْ الْفَشَلَ وَالْوَهَنَ وَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ، وَانْصَرَفُوا إِلَى مُعَسْكَرِهِمْ، وَدَامَتْ عَلَيهِمْ الرِّيحَ، وَغَشِيَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ تَطْمُسُ أَبْصَارَهُمْ، فَانْصَرَفُوا ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[الأحزاب].

قَالَ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ دِحْيَةَ: هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ بَعَثَهَا اللهُ تَعَالَى فَنَفَثَتْ فِي رَوْعِهِمْ الرُّعْبَ وَالْفَشَلَ، وَفِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ الْقُوَّةَ وَالْأَمَلَ، وَقِيلَ: إِنَّمَا بَعَثَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ تَزْجُرُ خَيْلَ الْعَدُوِّ وَإِبِلَهُمْ، فَقَطَعُوا مُدَّةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَارِّينَ مُنْهَزِمِينَ. [**سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٤٥-٥٤٦**].

هنا أصدر أبو سفيان القائد العام لجيوش المشركين أمره بالارتحال، كما رأينا في حديث حذيفة ﷺ السابق.

الأحزاب تنظم انسحابها:

وعندما عزم الأحزاب على الانسحاب وإنهاء الحصار، قرر القائد العام أبو سفيان أن يكون الانسحاب منظمًا لا فوضى فيه ولا اضطراب، وأن يكون في حماية قوات مسلحة منظمة تتولى الإشراف عليه.

ولذلك أصدر أبو سفيان إلى قائد سلاح الفرسان في الجيش القرشي ـ خالد بن الوليد ومساعده عمرو بن العاص ـ أمرهما بأن يتوليا الإشراف على تنظيم هذا الانسحاب، ويقوما بحماية مؤخرة الجيش المنسحبة من أن يقوم المسلمون بضربها ساعة الانسحاب.

فامتثل عمرو، وخالد، أمر القائد العام وسارعا إلى انتخاب مائتين من الخيالة، ثم تمركز هؤلاء الخيالة في المنطقة الواقعة بين مؤخرة معسكر الأحزاب وبين المسلمين، وصاروا يضربون بخيلهم في تلك المنطقة، ويماشون الجيش المنسحب وهو على تعبئة واستعداد، لحمايته من أي غارة يقوم بها عسكر الإسلام، وظلت كتيبة الفرسان القرشية هكذا حتى اكتمل انسحاب جيوش الأحزاب من مواقعها أمام الخندق تمامًا، وابتعدت عن منطقة الخطر.

ومن حديث حذيفة ﷺ السابق قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ وَجَلَسَ عَلَى بَعِيرِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلاثِ قَوَائِمَ فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا بَعْدَ مَا قَامَ، وَلَوْلا عَهْدُ رَسُولِ الله ﷺ إِلَيَّ لا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَ، ثُمَّ شِئْتُ، لَقَتَلْتُهُ، فَنَادَاهُ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ إِنَّكَ رَأْسُ القَوْمِ وَقَائِدُهُمْ تَقْشَعُ وَتَتْرُكُ النَّاسَ؟ فَاسْتَحْيَى أَبُو سُفْيَانَ، فَأَنَاخَ جَمَلَهُ وَنَزَلَ عَنْهُ وَأَخَذَ بِزِمَامِهِ وَهُوَ يَقُودُهُ، وَقَالَ: ارْحَلُوا، قَالَ: فَجَعَلَ النَّاسُ يَرْتَحِلُونَ وَهُوَ قَائِمٌ حَتَّى خَفَّ العَسْكَرُ، ثُمَّ قَالَ لِعَمْرِو بْنِ العَاصِ: **يَا أَبَا عَبْدِ الله، لا بُدَّ لِي وَلَكَ أَنْ نُقِيمَ فِي جَرِيدَةٍ مِنْ خَيْلٍ بِإِزَاءِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، فَإِنَّا لا نَأْمَنُ أَنْ نُطْلَبَ حَتَّى يَنْفُذَ العَسْكَرُ.**

فَقَالَ عَمْرٌو: أَنَا أُقِيمُ، وَقَالَ لِخَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ: مَا تَرَى يَا أَبَا سُلَيْمَانَ؟ فَقَالَ: أَنَا أَيْضًا أُقِيمُ، فَأَقَامَ عَمْرٌو وَخَالِدٌ فِي مِائَتَيْ فَارِسٍ، وَسَارَ العَسْكَرُ إِلَّا هَذِهِ الجَرِيدَةُ عَلَى مُتُونِ الخَيْلِ.

قَالُوا: وَذَهَبَ حُذَيْفَةُ إِلَى غَطَفَانَ فَوَجَدَهُمْ قَدْ ارْتَحَلُوا، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ.

وَأَقَامَتْ الخَيْلُ حَتَّى كَانَ السَّحَرُ ثُمَّ مَضَوْا فَلَحِقُوا الأَثْقَالَ وَالعَسْكَرَ مَعَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ بِمَلَلَ فَغَدَوَا إِلَى السَّيَّالَةِ.

وَكَانَتْ غَطَفَانُ لَـمَّا ارْتَحَلَتْ وَقَفَ مَسْعُودُ بْنُ رُخَيْلَةَ فِي خَيْلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَوَقَفَ الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ فِي خَيْلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَوَقَفَ فُرْسَانٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ فِي أَصْحَابِهِمْ، ثُمَّ تَحَمَّلُوا جَمِيعًا فِي طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ وَكَرِهُوا أَنْ يَتَفَرَّقُوا حَتَّى أَتَوْا عَلَى الـمِرَاضِ، ثُمَّ تَفَرَّقَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ إِلَى مَحَالِّـهَا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٠-٤٩١].

«وهكذا أفلح المسلمون في فصم عُرَى التحالف بين الأحزاب المجتمعة عليهم، فما مضت أسابيع ثلاثة على ذلك الحصار المضروب حتى دب القنوط والتخاذل في صفوف المهاجمين، على حين بقيت جبهة المدافعين سليمة لم تثلم». [فقه السيرة للغزالي ٣١٨].

«وهكذا انقشعت الغمة، وخلص الله المسلمين من براثن المحنة، وقطف المؤمنون الصادقون ثمار صدقهم وصبرهم وثباتهم مع نبيهم الحبيب في تلك الليالي الرهيبة المرعبة التي زاغت فيها الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، فقد أخذت جيوش الأحزاب في فك الحصار عن المدينة، وأخذت كتائبهم تولي الأدبار تجر أذيال الخيبة والخسران، لم تجن من غزوها الكبير هذا سوى التعب والنصب».

[غزوة الأحزاب لباشميل ٢٣٣].

مدة حصار الأحزاب:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ ابْنِ الـمُسَيَّبِ، قَالَ: كَانَ مُحَاصَرَةُ الـمُشْرِكِينَ رَسُولَ الله ﷺ فِي الخَنْدَقِ بِضْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا.

وَحَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ مِقْسَمٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، قَالَ: عِشْرِينَ يَوْمًا، وَيُقَالُ: خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَهَذَا أَثْبَتُ ذَلِكَ عِنْدَنَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩١].

وقال الصالحي: اختلف في مدة إقامة المشركين على الخندق، فقال سعيد بن المسيب في رواية يحيى بن سعيد: أقاموا أربعًا وعشرين ليلة، وقال في رواية الزهري: بضع عشرة ليلة.

وروى محمد بن عمر عن جابر بن عبد الله: أنها كانت عشرين يومًا.

وقال محمد بن عمر: أثبت الأقاويل أنها كانت خمسة عشر يومًا، وجزم به ابن سعد والبلاذري والنووي في الروضة والقطب.

وقال في زاد المعاد: شهرًا، وقال ابن إسحاق: بضعًا وعشرين ليلة قريبًا من شهر.

[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٦٢].

أبو سفيان يكتب إلى النبي ﷺ عند الانسحاب:

ويقول المؤرخون: إن قائد عام جيش الأحزاب (أبا سفيان) قبل انسحابه، كتب إلى النبي ﷺ خطابًا يعيب فيه عليه الاحتماء بالخندق، ويذكر له أنه لولا مكيدة الخندق لما بقي للمسلمين من وجود، وقد بعث أبو سفيان هذا الخطاب مع أبي سلمة الخشني.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِي وَجْزَةَ، قَالَ: لَـمَّا مَلَّتْ قُرَيْشٌ الْمُقَامَ وَأَجْدَبَ الجَنَابُ، وَضَاقُوا بِالخَنْدَقِ وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ عَلَى طَمَعٍ أَنْ يُغِيرَ عَلَى بَيْضَةِ الْمَدِينَةِ، كَتَبَ كِتَابًا فِيهِ: **بِاسْمِكَ**

اللَّهُمَّ، فَإِنِّي أَحْلِفُ بِاللَّاتِ وَالعُزَّى، لَقَدْ سِرْتُ إِلَيْكَ فِي جَمْعِنَا، وَإِنَّا نُرِيدُ أَلَّا نَعُودَ إِلَيْكَ أَبَدًا حَتَّى نَسْتَأْصِلَكَ، فَرَأَيْتُكَ قَدْ كَرِهْتَ لِقَاءَنَا، وَجَعَلتَ مَضَايِقَ وَخَنَادِقَ، فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا؟ فَإِنْ نَرْجِعْ عَنْكُمْ فَلَكُمْ مِنَّا يَوْمٌ كَيَوْمِ أُحُدٍ، تُبْقَرُ فِيهِ النِّسَاءُ.

وَبَعَثَ بِالكِتَابِ مَعَ أَبِي أُسَامَةَ الجُشَمِيِّ، فَلَـمَّا أَتَى بِالكِتَابِ دَعَا رَسُولُ الله ﷺ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ رضي الله عنه، فَدَخَلَ مَعَهُ قُبَّتَهُ فَقَرَأَ عَلَيْهِ كِتَابَ أَبِي سُفْيَانَ.

وَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ: «**مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ.**

أَمَّا بَعْدُ: فَقَدِيمًا غَرَّكَ بِالله الغَرُورُ، أَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ سِرْتَ إِلَيْنَا فِي جَمْعِكُمْ وَأَنَّكَ لا تُرِيدُ أَنْ تَعُودَ حَتَّى تَسْتَأْصِلَنَا، فَذَلِكَ أَمْرٌ اللهُ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَيَجْعَلُ لَنَا العَاقِبَةَ حَتَّى لا تَذْكُرَ اللاَّتَ وَالعُزَّى، وَأَمَّا قَوْلُكَ: مَنْ عَلَّمَكَ الَّذِي صَنَعْنَا مِنَ الخَنْدَقِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَلْـهَمَنِي ذَلِكَ لِمَا أَرَادَ مِنْ غَيْظِكَ بِهِ وَغَيْظِ أَصْحَابِكَ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ تُدَافِعُنِي بِالرَّاحِ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ أَكْسِرُ فِيهِ اللَّاتَ، وَالعُزَّى، وَإِسَافَ وَنَائِلَةَ وَهُبَلَ حَتَّى أُذَكِّرُكَ ذَلِكَ».

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَعْفَرٍ، فَقَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّ فِي الكِتَابِ: **وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي لَقِيتُ أَصْحَابَكَ بِأَحْيَاءَ، وَأَنَا فِي عِيرٍ لِقُرَيْشٍ فَمَا حَصَرَ أَصْحَابُكَ مِنَّا شَعْرَةً وَرَضُوا بِمُدَافَعَتِنَا بِالرَّاحِ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ فِي عِيرِ قُرَيْشٍ حَتَّى لَقِيتَ قَوْمِي، فَلَمْ تَلقَنَا، فَأَوْقَعْت بِقَوْمِي وَلَمْ أَشْهَدْهَا مِنْ وَقْعَةٍ، ثُمَّ غَزَوْتُكُمْ فِي عُقْرِ دَارِكُمْ فَقَتَلْتُ وَحَرَقْتُ - يَعْنِي غَزْوَةَ السَّوِيقِ - ثُمَّ غَزَوْتُكَ فِي جَمْعِنَا يَوْمَ أُحُدٍ، فَكَانَتْ وَقْعَتُنَا فِيكُمْ مِثْلَ وَقْعَتِكُمْ بِنَا بِبَدْرٍ، ثُمَّ سِرْنَا إِلَيْكُمْ فِي جَمْعِنَا وَمَنْ تَأَلَّبَ إِلَيْنَا يَوْمَ الخَنْدَقِ، فَلَزِمْتُمُ الصَّيَاصِيَ وَخَنْدَقْتُمُ الخَنَادِقَ.** [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٢-٤٩٣].

«الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلا يَغْزُونَنَا»:

وهكذا، وبعد حصار خانق شديد دام حوالي شهر بلغت فيه حالة المسلمين من الضيق والتعب والإرهاق حد الإعياء والزلزلة، هزم الله الأحزاب وكبت الخونة الغادرين من يهود بني قريظة، وكتب النصر للمؤمنين الصابرين، وكان نصرًا ساحقًا عظيمًا دون أن يتكبد المسلمون في سبيله خسارة من الرجال تذكر، وهذا الذي عناه الله تعالى بقوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وبعد أن تمت عملية انسحاب جيوش الأحزاب من معسكراتها حول المدينة، أصدر النبي ﷺ أمره إلى جيشه بالعودة إلى المدينة، فأخذ هذا الجيش في ترك مواقعه واتجه نحو المدينة، بعد أن تنفس الصعداء وتخلص من ذلك الكرب العظيم الذي لم يشهد مثله في تاريخه.

ورجعت الطمأنينة إلى النفوس، وظهرت خيبة الأحزاب بعدما أقبلت من كل فج لتجتاح يثرب، وظهرت صلابة المسلمين في مواجهة الأزمات المرهقة؛ ولقد أبلغ النبي ﷺ أصحابه ﵃ (وهم يتركون مواقعهم خلف الخندق) بأن هذه الغزوة التي قام بها الأحزاب ستكون آخر عملية عسكرية يقوم بها الأعداء ضد المسلمين، وأن الجيش الإسلامي سيكون (بعد هذه الغزوة) هو الغازي دائمًا.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ حِينَ أَجْلَى الأَحْزَابَ عَنْهُ [لَـمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ]: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا [يَغْزُونَا]، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**». [البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣٠/ ٢٤٠، ٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ٤٥/ ١٨٤ رقم ٢٧٢٠٦].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﵄ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ الأَحْزَابِ وَقَدْ جَمَعُوا لَهُ جُمُوعًا كَثِيرَةً، فَقَال رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا يَغْزُوكُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَكِنْ تَغْزُوهُمْ**». [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٢ في المغازي والسير (١٠١٥٧)، وقال الهيثمي: رواه البزار [كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/ ٣٣٦ رقم ١٨١٠]، ورجاله ثقات. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٤٦٨: إسناده حسن. صحيح السيرة النبوية للعلي ص ٢٧٩].

قال ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَـمَّا انْصَرَفَ أَهْلُ الخَنْدَقِ عَنِ الخَنْدَقِ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِيمَا بَلَغَنِي: «**لَنْ تَغْزُوكُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّكُمْ تَغْزُوهُمْ**»، فَلَمْ تَغْزُهُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ هُوَ الَّذِي يَغْزُوهَا، حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٤].

وفعلًا، فإن المسلمين ـ بعد غزوة الأحزاب ـ لم يتعرضوا لأي غزو من قبل العدو، وإنما كانوا هم الذين يقومون بغزو الأعداء، حتى تمت لهم السيطرة الكاملة على جزيرة العرب، وهكذا فإن محمدًا ﷺ، لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم] صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

فشل الأحزاب واندحارهم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**». [البخاري في المغازي (٤١١٤)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٢٤)، ومسند أحمد ١٣/ ٤٢٨ رقم ٨٠٦٧، ١٤/ ١٨٩ رقم ٨٤٩٠، ١٦/ ٢٥٦ رقم ١٠٤٠٦].

النصر بالصَّبَا:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**».

[البخاري في الاستسقاء (١٠٣٥)، وفي بدء الخلق (٣٢٠٥)، وفي أحاديث الأنبياء (٣٣٤٣)، وفي المغازي (٤١٠٥)، ومسلم في الاستسقاء (٩٠٠)، ومجمع الزوائد ٦/ ٨٣ في المغازي والسير (٩٩٣٢)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله ثقات، وعن ابن عباس ﵄ رقم ٩٩٣٣ وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين رجال أحدهما ثقات. وغير ذلك كثير من كتب السنة].

وروى البيهقي بسنده عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، قَالَ: يَعْنِي رِيحَ الصَّبَا، أُرْسِلَتْ عَلَى أَحْزَابِ يَوْمِ الخَنْدَقِ، حَتَّى كَفَأَتْ قُدُورَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهَا، وَنَزَعَتْ فَسَاطِيطَهُمْ حَتَّى أَظْعَنَتْهُمْ، ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يَعْنِي: الْمَلَائِكَةَ، قَالَ: وَلَمْ تُقَاتِلِ المَلَائِكَةُ يَوْمَئِذٍ. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٤٨].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: أَتَتِ الصَّبَا (ريح ومهبها المستوى أن تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار. **الدبور**: الريح التي تقابل الصبا، وقال النووي: هي الريح الغربية) الشَّمَالَ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، فَقَالَ: مُرِّي حَتَّى نَنْصُرَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَتِ الشَّمَالُ: إِنَّ الحُرَّةَ لا تَسْرِي بِلَيْلٍ، فَكَانَتِ الرِّيحُ الَّتِي نُصِرَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ الصَّبَا. [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٢-٢٠٣ في المغازي والسير (١٠١٥٨)، وقال الهيثمي: رواه البزار [مسند البزار ١١/ ٣٩ رقم ٤٧٢١] ورجاله رجال الصحيح. وكشف الأستار البزار ٢/ ٣٣٦ رقم ١٨١١، وقال البزار: رواه جماعة عن داود عن عكرمة مرسلًا، ولا نعلم أحدًا وصله إلا حفص ورجل من أهل البصرة وكان ثقة يقال له: خلف بن عمرو].

وقال الصالحي: وروى ابن أبي حاتم وأبو نعيم والبزار برجال الصحيح، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الأَحْزَابِ جَاءَتْ الشَّمَالُ إِلَى الجَنُوبِ فَقَالَتْ: انْطَلِقِي فَانْصُرِي اللهَ وَرَسُولَهِ، فَقَالَتْ الجَنُوبُ: إِنَّ الحُرَّةَ لا تَسْرِي بِاللَّيْلِ، فَغَضِبَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا فَجَعَلَهَا عَقِيمًا، وَأَرْسَلَ الصَّبَا، فَأَطْفَأَتْ نِيرَانَهُمْ وَقَطَعَتْ أَطْنَابَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**».

[سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥٤٥].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يَقُولُ: جَاءَتِ الجَنُوبُ إِلَى الشَّمَالِ، فَقَالَتْ: انْطَلِقِي بِنَصْرِ الله وَرَسُولِهِ، فَقَالَتْ الشَّمَالُ: إِنَّ الحُرَّةَ لا تَسْرِي بِلَيْلٍ، فَبَعَثَ اللهُ عز وجل الصَّبَا، فَأَطْفَأَتْ نِيرَانَهُمْ وَقَطَعَتْ أَطْنَابَ فَسَاطِيطِهِمْ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٧٦].

جرح سعد بن معاذ رضي الله عنه يوم الخندق:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي أَبُو لَيْلَى عَبْدُ الله بْنُ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلٍ الأَنْصَارِيُّ، أَخُو بَنِي حَارِثَةَ: أَنَّ عَائِشَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها كَانَتْ فِي حِصْنِ بَنِي حَارِثَةَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَكَانَ مِنْ أَحْرَزِ حُصُونِ المَدِينَةِ. قَالَ: وَكَانَتْ أُمُّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنها مَعَهَا فِي الحِصْنِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْنَا الحِجَابُ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ مُقَلَّصَةٌ (قصيرة)، قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا ذِرَاعُهُ كُلُّهَا، وَفِي يَدِهِ حَرْبَتُهُ يَرْفُلُ بِهَا وَيَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلًا يَشْهَدْ الهَيْجَا حَمَل   لا بَأْسَ بِالمَوْتِ إِذَا حَانَ الأَجَل

قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: **الحَقْ أَيْ بُنَيَّ، فَقَدْ وَالله أَخَّرْتَ**؛ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّ سَعْدٍ وَالله لَوَدِدْتُ أَنَّ دِرْعَ سَعْدٍ كَانَتْ أَسْبَغَ (أكمل وأطول) مِمَّا هِيَ، قَالَتْ: وَخِفْتُ عَلَيْهِ حَيْثُ أَصَابَ السَّهْمُ مِنْهُ، فَرُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ بِسَهْمٍ فَقَطَعَ مِنْهُ الأَكْحَلَ (عرق في الذراع ويسمى عرق الحياة وهو في وسط الذراع ويقال أن في

كل عضو منه شعبة فهو في اليد الأكحل وفي الظهر الأبهر وفي الفخذ النساء إذا قطع لم يرقأ الدم. ينظر: النهاية في غريب الحديث ٤/ ١٥٤، فتح الباري ٧/ ٤١٣. مرويات غزوة الخندق (٣٥١)، رَمَاهُ ـ كَمَا حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ ـ حِبَّانُ بْنُ قَيْسِ بْنِ العَرِقَةِ أَحَدُ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، فَلَمَّا أَصَابَهُ قَالَ: خُذْهَا مِنِّي وَأَنَا ابْنُ العَرِقَةِ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: **عَرَّقَ اللهُ وَجْهَكَ فِي النَّارِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا، فَإِنَّهُ لَا قَوْمَ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ مِنْ قَوْمٍ آذَوْا رَسُولَكَ وَكَذَّبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهُ لِي شَهَادَةً، وَلَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنَيَّ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ.**

مَنْ قَاتِلُ سَعْدٍ رضي الله عنه؟:

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا أَصَابَ سَعْدًا يَوْمَئِذٍ إِلَّا أَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ، حَلِيفُ بَنِي مَخْزُومٍ.

قَالَ أَبُو أُسَامَةَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا لِعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ:

أَعِكْرِمَ هَلَّا لُـمْتَنِي إِذْ تَقُولُ لِي ... فِدَاك بِآطَامِ المَدِينَةِ خَالِدُ

أَلَسْتَ الَّذِي أَلْزَمْتَ سَعْدًا مُرِشَّةً ... لَهَا بَيْنَ أَثْنَاءِ المَرَافِقِ عَانِدُ (١)

قَضَى نَحْبَهُ مِنْهَا سُعَيْدٌ فَأَعْوَلَتْ ... عَلَيْهِ مَعَ الشُّمْطِ العَذَارَى النَّوَاهِدُ (٢)

وَأَنْتَ الَّذِي دَافَعْت عَنْهُ وَقَدْ دَعَا ... عُبَيْدَةُ جَمْعًا مِنْهُمْ إِذْ يُكَابِدُ

عَلَى حِينِ مَا هُمْ جَائِرٌ عَنْ طَرِيقِهِ ... وَآخَرُ مَرْعُوبٌ عَنِ القَصْدِ قَاصِدُ

وَاللهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: إِنَّ الَّذِي رَمَى سَعْدًا رضي الله عنه خَفَاجَةُ بْنُ عَاصِمِ بْنِ حِبَّانَ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٦-٢٢٨].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: خَرَجْتُ يَوْمَ الخَنْدَقِ أَقْفُو آثَارَ النَّاسِ، قَالَتْ: فَسَمِعْتُ وَئِيدَ الأَرْضِ وَرَائِي ـ يَعْنِي حِسَّ الأَرْضِ ـ قَالَتْ: فَالتَفَتُّ فَإِذَا أَنَا بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ الحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ يَحْمِلُ مِجَنَّهُ (ترس)، قَالَتْ: فَجَلَسْتُ إِلَى الأَرْضِ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا أَطْرَافُهُ، فَأَنَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أَطْرَافِ سَعْدٍ، قَالَتْ: وَكَانَ سَعْدٌ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ، قَالَتْ: فَمَرَّ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلًا يَشْهَدْ الـهَيْجَا حَمَل ... مَا أَحْسَنَ الـمَوْتَ إِذَا حَانَ الأَجَل

قَالَتْ: فَقُمْتُ فَاقْتَحَمْتُ حَدِيقَةً، فَإِذَا فِيهَا نَفَرٌ مِنَ الـمُسْلِمِينَ، وَإِذَا فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ سَبْغَةٌ [تَسْبِغَةٌ] لَهُ ـ يَعْنِي مِغْفَرًا (هو ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد) ـ فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه:

---

(١) **مرشة**: يعني رمية أصابته فأطارت رشاش الدم منه. **العاند**: العرق الذي لا ينقطع منه الدم.

(٢) **الشمط**: هي التي خالط شعرها الشيب. **العذارى**: الأبكار. **النواهد**: جمع ناهد، وهي التي ظهر نهدها.

[وَيْحَكِ] مَا جَاءَ بِكِ؟ لَعَمْرِي وَاللهِ إِنَّكِ لَجَرِيئَةٌ، وَمَا يُؤْمِنُكِ أَنْ يَكُونَ بَلَاءٌ أَوْ يَكُونَ تَحَوُّزٌ (الحرب أو الأسر)؟ قَالَتْ: فَمَا زَالَ يَلُومُنِي حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنَّ الأَرْضَ انْشَقَّتْ لِي سَاعَتَئِذٍ فَدَخَلتُ فِيهَا.

قَالَتْ: فَرَفَعَ الرَّجُلُ السَّبْغَةَ [تَسْبِغَةٌ] عَنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ، فَقَالَ: يَا عُمَرُ، وَيْحَكَ! إِنَّكَ قَدْ أَكْثَرْتَ مُنْذُ اليَوْمَ، وَأَيْنَ التَّحَوُّزُ أَوْ الفِرَارُ إِلَّا إِلَى اللهِ ﷻ.

قَالَتْ: وَيَرْمِي سَعْدًا رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ [حِبَّانُ] ابْنُ العَرِقَةِ بِسَهْمٍ لَهُ فَقَالَ لَهُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ العَرِقَةِ، فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَقَطَعَهُ، فَدَعَا اللهَ ﷻ سَعْدٌ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ قُرَيْظَةَ**»، قَالَتْ: وَكَانُوا حُلَفَاءَهُ وَمَوَالِيَهُ فِي الجَاهِلِيَّةِ، قَالَتْ: فَرَقِي [فَرَقَأَ] كَلْمُهُ...

[مسند أحمد ٤٢/ ٢٦ رقم ٢٥٠٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: بعضه صحيح، وجزء منه حسن، وهذا إسناد فيه ضعف، عمرو بن علقمة لم يرو عنه غير ابنه محمد، ومجمع الزوائد ٦/ ١٩٩-٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٥)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه، رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات. وقال الشيخ الصوياني: حسن. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٠].

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ قَالَ: لَمَّا أُصِيبَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ بِالرَّمْيَةِ يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَجَعَلَ دَمُهُ يَسِيلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَجَعَلَ يَقُولُ: **وَانْقِطَاعَ ظَهْرَاهُ**، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَهْ يَا أَبَا بَكْرٍ**»، فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ: «**إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٩ في المغازي (٣٧٩٦٤)، وقال الشيخ عوامة: «رواه أحمد في فضائل الصحابة ﷺ رقم ١٥٠٢ عن يحيى القطان عن شعبة، به، وهذا إسناد جيد، وعمرو بن شرحبيل من أجلاء المخضرمين، وإرساله لا يضر عند بعض الأئمة». وقال محقق فضائل الصحابة: «مرسل رجاله ثقات»].

علاج سعد ﷺ وأمنيته:

وعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: أُصِيبَ سَعْدٌ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ، رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ: حِبَّانُ بْنُ العَرِقَةِ، وَهُوَ حِبَّانُ بْنُ قَيْسٍ مِنْ بَنِي مَعِيصِ بْنِ عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، رَمَاهُ فِي الأَكْحَلِ، [فَحَوَّلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى المَسْجِدِ]، فَضَرَبَ [عَلَيْهِ] النَّبِيُّ ﷺ خَيْمَةً فِي المَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ... [البخاري في المغازي (٤١٢٢)، وفي الصلاة (٤٦٣)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٩)، وأبو داود في الجنائز (٣١٠١)، والنسائي في المساجد (٧١٠)، ومسند أحمد ٤٠/ ٣٣٦ رقم ٢٤٢٩٤، والمصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٨ في المغازي (٣٧٩٦١)].

وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ فِي أَكْحَلِهِ، قَالَ: فَحَسَمَهُ (أي كواه ليقطع دمه، وأصل الحسم القطع) النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ بِمِشْقَصٍ (أي حديد طويل غير عريض كنصل السهم)، ثُمَّ وَرِمَتْ، فَحَسَمَهُ الثَّانِيَةَ.

[مسلم في السلام (٢٢٠٨)، ومسند أحمد ٢٢/ ٢٤٦ رقم ١٤٣٤٣، ٢٣/ ٣٤٣ رقم ١٥١٤٤].

وعَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: رُمِيَ يَوْمَ الأَحْزَابِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ، فَقَطَعُوا أَكْحَلَهُ أَوْ أَبْجَلَهُ (عرق في باطن الذراع، وقيل: هو عرق غليظ في الرجل فيما بين العصب والعظم. **وأكحله**: مثلها)، فَحَسَمَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّارِ فَانْتَفَخَتْ يَدُهُ، فَتَرَكَهُ فَنَزَفَهُ الدَّمُ، فَحَسَمَهُ أُخْرَى فَانْتَفَخَتْ يَدُهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا تُخْرِجْ نَفْسِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي** (تفرحني وتسرني) **مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَاسْتَمْسَكَ عِرْقُهُ، فَمَا قَطَرَ قَطْرَةً حَتَّى نَزَلُوا عَلَى

حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ... [الترمذي في السير (١٥٨٢)، والدارمي في السير (٢٥٥١)، ومسند أحمد ٢٣/ ٩٠ رقم ١٤٧٧٣، وقال الشيوخ الألباني والداراني والأرناؤوط: صحيح].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ يَوْمَ **قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ**، فَقُطِعَ أَكْحَلُهُ، فَحَسَمَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَتغَيَّر [فتعفَّرَ] وَانْتَقَض، فَحَسَمَهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ سَعْدٌ ﷺ: «**اللَّهُمَّ لَا تَنْزِعَ نَفْسِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ**». [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٣ في المغازي والسير (١٠١٥٩)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٦/ ٧ رقم ٥٣٢٦]، وفيه عبد الكريم أبو أمية، وهو ضعيف].

وعَنْ عُرْوَةَ ـ يعني ابن الزبير ـ أَنَّ سَعْدَ بن مُعَاذٍ ﷺ رُمِيَ يَوْمَ الخَنْدَقِ رَمْيَةً، فَقَطَعَتِ الأَكْحَلَ مِنْ عَضُدِهِ، فزَعَمُوا أَنَّهُ رَمَاهُ حِبَّانُ بن قَيْسٍ، أَحَدُ بني عَامِرِ بن لُؤَيٍّ، ثُمَّ أَخُو بني العَرِقَةِ، وَيَقُولُ آخَرُونَ: رَمَاهُ أَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ.

فَقَالَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ ﷺ: **رَبِّ اشْفِنِي مِنْ بني قُرَيْظَةَ قَبْلَ المَمَاتِ**، فَرَقَأَ الكَلْمُ (التأم) بَعْدَمَا قَدِ انْفَجَرَ.

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٦)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه عن عائشة متصل الإسناد، رواه الطبراني [في الكبير ٦/ ٧ رقم ٥٣٢٧] مرسلًا وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف. وقال محقق المعجم الكبير: قلت: وهذا من الضعيف].

جِنُّ المدينة:

عَنْ أَبِي السَّائِبِ مَوْلَى هِشَامِ بْنِ زُهْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلتُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ، فَسَمِعْتُ تَحْرِيكًا تَحْتَ سَرِيرٍ فِي بَيْتِهِ فَإِذَا حَيَّةٌ، فَقُمْتُ لِأَقْتُلَهَا، فَأَشَارَ أَبُو سَعِيدٍ ﷺ أَنْ اجْلِسْ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَشَارَ إِلَى بَيْتٍ فِي الدَّارِ فَقَالَ: أَتَرَى هَذَا البَيْتَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهِ فَتًى حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ، فَخَرَجَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى الخَنْدَقِ، فَبَيْنَا هُوَ بِهِ إِذْ أَتَاهُ الفَتَى يَسْتَأْذِنُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، ائْذَنْ لِي أُحْدِثُ بِأَهْلِي عَهْدًا، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَقَالَ: «**خُذْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَانْطَلَقَ الفَتَى إِلَى أَهْلِهِ، فَوَجَدَ امْرَأَتَهُ قَائِمَةً بَيْنَ البَابَيْنِ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ لِيَطْعُنَهَا، وَأَدْرَكَتْهُ غَيْرَةٌ، فَقَالَتْ: لَا تَعْجَل حَتَّى تَدْخُلَ وَتَنْظُرَ مَا فِي بَيْتِكَ، فَدَخَلَ فَإِذَا هُوَ بِحَيَّةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى فِرَاشِهِ، فَرَكَزَ فِيهَا رُمْحَهُ، ثُمَّ خَرَجَ بِهَا فَنَصَبَهُ فِي الدَّارِ، فَاضْطَرَبَتْ الحَيَّةُ فِي رَأْسِ الرُّمْحِ، وَخَرَّ الفَتَى مَيِّتًا، فَمَا يُدْرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا: الفَتَى أَم الحَيَّةُ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: «**إِنَّ بِالمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا فَآذِنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ**». [موطأ مالك في الجامع (١٨٢٨)، والمغازي للواقدي ٢/ ٤٧٤-٤٧٥].

رجوع النبي ﷺ إلى المدينة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاق: «وَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ انْصَرَفَ عَنِ الخَنْدَقِ رَاجِعًا إِلَى المَدِينَةِ وَالمُسْلِمُونَ وَوَضَعُوا السِّلَاحَ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٣].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَلَـمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ بِالخَنْدَقِ أَصْبَحَ وَلَيْسَ بِحَضْرَتِهِ أَحَدٌ مِنَ العَسَاكِرِ قَدْ هَرَبُوا وَذَهَبُوا، وَجَاءَ رَسُولَ الله ﷺ الثَّبَتُ أَنَّهُمْ انْقَشَعُوا إِلَى بِلادِهِمْ، وَلَـمَّا أَصْبَحُوا أَذِنَ رَسُولُ الله ﷺ لِلمُسْلِمِينَ فِي الانْصِرَافِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، فَخَرَجُوا مُبَادِرِينَ مَسْرُورِينَ بِذَلِكَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩١].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: بَعَثَنِي خَالِي عُثْمَانُ بن مَظْعُونٍ لآتِيَهُ بِلِحَافٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَاسْتَأْذَنْتُهُ وَهُوَ بَالخَنْدَقِ، فَأَذِنَ لِي، وَقَالَ: «**مَنْ لَقِيتَ مِنْهُمْ قُل لَـهُمْ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا**»، وَكَانَ ذَلِكَ فِي بَرْدٍ شَدِيدٍ، فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ النَّاسَ، فَقُلْتُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا، قَالَ: فَلا وَالله مَا عَطَفَ عَلَيَّ مِنْهُمُ اثْنَانِ أَوْ وَاحِدٌ.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٦ في المغازي والسير (١٠١٥٠)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير [١٢/ ٣٦٨ رقم ١٣٣٦٩]، والأوسط [٥/ ٢٧٤ رقم ٥٢٩٩]، ورجاله رجال الصحيح. وقال أ/ حوى: «الظاهر أن الناس لم يلتفتوا لكلمة ابن عمر لصغره؛ ولأن الإذن كان قد حصل مباشرة قبل ذلك، والبرد شديد». الأساس في السنة ـ السيرة ٢/ ٦٨٩].

وَعَنْ نَافِعٍ قَالَ: قِيلَ لابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَيْنَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي يَوْمَ الأَحْزَابِ؟ قَالَ: كَانَ يُصَلِّي فِي بَطْنِ الشِّعْبِ عِنْدَ خَرِبَةٍ هُنَاكَ، وَلَقَدْ أَذِنَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الانْصِرَافِ لِلنَّاسِ، ثُمَّ أَمَرَنِي أَنْ أَدْعُوَهُمْ، فَدَعَوْتُهُمْ. [مجمع الزوائد ٦/ ١٩٥-١٩٦ في المغازي والسير (١٠١٤٩)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٢/ ٣٦٩ رقم ١٣٣٧٠] ورجاله ثقات. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٢].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَكَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ تَعْلَمَ بَنُو قُرَيْظَةَ رَجْعَتَهُمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، فَأَمَرَ بِرَدِّهِمْ وَبَعَثَ مَنْ يُنَادِي فِي أَثَرِهِمْ، فَمَا رَجَعَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَكَانَ مِمَّنْ يَرُدُّهُمْ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، أَمَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ عَبْدُ الله: فَجَعَلتُ أَصِيحُ فِي أَثَرِهِمْ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ: إِنَّ رَسُولَ الله أَمَرَكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا، فَمَا رَجَعَ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مِنَ القُرِّ وَالجُوعِ، فَكَانَ يَقُولُ: كَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ يَرَى سُرْعَتَهُمْ، وَكَرِهَ أَنْ يَكُونَ لِقُرَيْشٍ عُيُونٌ.

قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله رضي الله عنهما: أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَرُدَّهُمْ فَجَعَلتُ أَصِيحُ بِهِمْ فَمَا يَرْجِعُ أَحَدٌ، فَانْطَلَقْتُ فِي أَثَرِ بَنِي حَارِثَةَ، فَوَالله مَا أَدْرَكْتُهُمْ حَتَّى دَخَلُوا بُيُوتَهُمْ وَلَقَدْ صِحْتُ، فَمَا يَخْرُجُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنْ جَهْدِ الجُوعِ، وَالقُرِّ، فَرَجَعتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَلقَاهُ فِي بَنِي حَرَامٍ مُنْصَرِفًا، فَأَخْبَرْتُهُ فَضَحِكَ ﷺ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٩١-٤٩٢].

وعَنْ كَعْبِ بن مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَـمَّا رَجَعَ مِنْ طَلَبِ الأَحْزَابِ، فَنَزَلَ المَدِينَةَ، نَزَعَ [وَضَعَ] لأْمَتَهُ، وَاغْتَسَلَ، وَاسْتَجْمَرَ. [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٤ في المغازي والسير (١٠١٦٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط [٨/ ١٣٥] ورجاله ثقات، ورقم ١٠١٦٤ وقال الهيثمي: رواه الطبراني [في المعجم الكبير ١٩/ ٨٠] ورجاله رجال الصحيح غير ابن أبي الهذيل وهو ثقة، والمطالب العالية لابن حجر ١٧/ ٣٨٣ في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ (٤٢٧٢)، ونسبه لإسحاق بن راهويه، وقال ابن حجر: إسناده حسن].

فيمن استشهد يوم الخندق:

عن ابن شهاب قال: استشهد يوم الخندق من الأنصار: أنس بن معاذ بن أوس بن عبد عمرو، ومن الأنصار ثم من بني سلمة: ثعلبة بن عتمة. [**مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٦ في المغازي والسير (١٠١٧٠)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [في المعجم الكبير ١/ ٢٦٥ رقم ٧٧٠] ورجاله رجال الصحيح، وقد تقدم حديث سعد بن معاذ ﷺ والقرينين**].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمْ يُسْتَشْهَدْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الخَنْدَقِ إِلَّا سِتَّةُ نَفَرٍ:

١ ـ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ [رَمَاهُ حِبَّانُ بْنُ العَرِقَةِ فَمَاتَ، وَيُقَالُ: رَمَاهُ أَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ].

٢ ـ وَأَنَسُ بْنُ أَوْسِ بْنِ عَتِيكِ بْنِ عَمْرٍو [بْنِ عَبْدِ الأَعْلَمِ بْنِ زَعُورَاءَ بْنِ جُشَمِ بْنِ عَبْدِ الأَشْهَلِ قَتَلَهُ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، رَمَاهُ بِسَهْمٍ].

٣ ـ وَعَبْدُ الله بْنُ سَهْلٍ [الأَشْهَلِيُّ، رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عُوَيْفٍ فَقَتَلَهُ]. ثَلاثَةُ نَفَرٍ.

٤ ـ وَمِنْ بَنِي جُشَمَ بْنِ الخَزْرَجِ، ثُمَّ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ الطُّفَيْلُ بْنُ النُّعْمَانَ [قَتَلَهُ وَحْشِيٌّ، وَكَانَ وَحْشِيٌّ يَقُولُ: أَكْرَمَ اللهُ بِحَرْبَتِي حَمْزَةَ وَالطُّفَيْلَ].

٥ ـ وَثَعْلَبَةُ بْنُ غَنَمَةَ [بْنِ عَدِيِّ بْنِ نَابِي، قَتَلَهُ هُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ المَخْزُومِيُّ]. رَجُلَانِ.

٦ ـ وَمِنْ بَنِي النَّجَّارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي دِينَارٍ: كَعْبُ بْنُ زَيْدٍ أَصَابَهُ سَهْمُ غَرْبٍ فَقَتَلَهُ [وَكَانَ قَدْ أُرْتُثَّ يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ فَصَحَّ حَتَّى قُتِلَ فِي الخَنْدَقِ، قَتَلَهُ ضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ. فَجَمِيعُ مَنْ أُسْتُشْهِدَ مِنَ الـمُسْلِمِينَ سِتَّةُ نَفَرٍ].

[**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٢-٢٥٣، وما بين المعكوفتين زيادات من المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٥-٤٩٦**].

ويقول أ/ باشميل: «كان كل شهداء المسلمين في هذه المعركة (ثمانية فقط)، وكلهم من الأنصار، إذ لم يُقتل أحد من المهاجرين في هذه المعركة، هؤلاء الشهداء الستة الذين ذكرهم ابن إسحاق والواقدي، وهناك شهيدان لم يذكرهما ابن إسحاق والواقدي، قُتلا وهم يقومان بأعمال الاستكشاف لمعرفة تحركات جيوش العدو، قتلتهما دورية لجيوش الأحزاب، كانت تقوم بأعمال الاستطلاع بالقرب من المدينة.

عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ وَهْبٍ الْخُزَاعِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ سَلِيطًا، وَسُفْيَانَ بْنَ عَوْفٍ الْأَسْلَمِيَّ ﷺ طَلِيعَةً (الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو أو مقدمة الجيش) يَوْمَ الْأَحْزَابِ، فَخَرَجَا حَتَّى إِذَا كَانَا بِالْبَيْدَاءِ (الصحراء) الْتَفَّتْ عَلَيْهِمْ خَيْلٌ لِأَبِي سُفْيَانَ، فَقَاتَلَا حَتَّى قُتِلَا، فَأُتِيَ بِهِمَا رَسُولَ الله ﷺ، فَدُفِنَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ، فَهُمَا الشَّهِيدَانِ الْقَرِيبَانِ [الْقَرِينَانِ].

[**مجمع الزوائد ٦/ ١٩٥ في المغازي والسير (١٠١٤٨)، وقال الهيثمي: رواه البزار [كشف الأستار ٢/ ٣٣٢ رقم ١٨٠٥]، وفيه جماعة لم أعرفهم**].

وقد ذكر هذين الشهيدين ـ أيضًا ـ ابن برهان الدين في كتابه (السيرة الحلبية ٢/ ١٠١)، ولم يذكر ابن برهان الدين في كتابه هل هذان الشهيدان من المهاجرين أم من الأنصار، والأقرب إلى الصواب أنهما من

الأنصار؛ لأنه يستبعد (جدًّا) أن يرسل النبي ﷺ من يستطلع له أخبار العدو، في أرض هو ليس من أهلها؛ لأن الأنصار أدرى بتلك المناطق من المهاجرين، فمن المستبعد أن يرسل النبي ﷺ مهاجريًّا للقيام بالاستكشاف في تلك المناطق.

وقد بحثت عن ترجمة لهذين الشهيدين في «الإصابة»، و«الاستيعاب»، و«طبقات ابن سعد الكبرى» فلم أجد لهما شيئًا. [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٣٨-٢٣٩].

قتلى لم يُعرف عددهم:

يقول أ/ باشميل: «وعلاوة على هؤلاء الثمانية الذين استشهدوا من المسلمين فإن هناك قتلى وجرحى آخرين من المسلمين، أصيبوا (خطأ) في ليلة من ليالي الخندق.

فقد ذكر المؤرخون أن دوريتين للمسلمين خرجتا (ليلًا) لحراسة مشارف الخندق، فالتقتا ـ ولا يشعر بعضهم ببعض ـ فظنت كل دورية أن الأخرى من العدو، فاصطدموا، وكانت بينهم جراحة وقتل، ثم نادوا بشعار الإسلام «حم لا ينصرون» فكف بعضهم عن بعض، ولما بلغ الخبر رسول الله ﷺ قال: «**جِرَاحُكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ**».

[سبق تفصيل ذلك في المبحث السادس بعنوان «الجراحات بين كتيبتين مسلمتين»].

إلا أن أحدًا من المؤرخين لم يذكر عدد وأسماء القتلى أو الجرحى الذين أصيبوا في هذه الحادثة، والله أعلم». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٤٠].

قتلى المشركين:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ:

١ ـ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ: مُنَبِّهُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ السَّبَّاقِ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ، أَصَابَهُ سَهْمٌ فَمَاتَ مِنْهُ بِمَكَّةَ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: هُوَ عُثْمَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ مُنَبِّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ السَّبَّاقِ.

٢ ـ وَمِنْ بَنِي مَخْزُومِ بْنِ يَقَظَةَ نَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، [قَتَلَهُ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَيُقَالُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ] سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَبِيعَهُمْ جَسَدَهُ وَكَانَ اقْتَحَمَ الْخَنْدَقَ، فَتَوَرَّطَ فِيهِ فَقُتِلَ فَغَلَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى جَسَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا حَاجَةَ لَنَا فِي جَسَدِهِ وَلَا بِثَمَنِهِ**»، فَخَلَّى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَعْطَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بِجَسَدِهِ عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ فِيمَا بَلَغَنِي عَنِ الزُّهْرِيِّ.

٣ ـ وَمِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، ثُمَّ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ حِسْلٍ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ، قَتَلَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَحَدَّثَنِي الثِّقَةُ أَنَّهُ حُدِّثَ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: قَتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ وَابْنَهُ حِسْلَ بْنَ عَمْرٍو.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ، وَيُقَالُ: عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٣-٢٥٤، وما بين المعكوفتين زيادات من المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٦].

المبحث التاسع

سياق قصة الخندق من مغازي ابن عقبة ﵀

جاء في دلائل النبوة للحافظ البيهقي: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الحَافِظُ ، قَالَ: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الفَضْلِ بْنِ مُحَمَّدٍ الشَّعْرَانِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا جَدِّي، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ الحِزَامِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ ابْنُ فُلَيْحٍ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، ح وَأَخْبَرَنَا أَبُو الحُسَيْنِ بْنُ الفَضْلِ القَطَّانُ، بِبَغْدَادَ، وَاللَّفْظُ لَهُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَتَّابٍ العَبْدِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا القَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ الْمُغِيرَةِ ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ عَمِّهِ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ قَالَ: خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ وَقُرَيْشٌ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي العَرَبِ، مَعَهُمْ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وَاسْتَمَدُّوا عُيَيْنَةَ ابْنَ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ، فَأَقْبَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ غَطَفَانَ، وَبَنُو أَبِي الحُقَيْقِ كِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الحُقَيْقِ سَعَى فِي غَطَفَانَ وَحَضَّهُمْ عَلَى القِتَالِ عَلَى أَنَّ لَـهُمْ نِصْفَ ثَمَرِ خَيْبَرَ، فَزَعَمُوا أَنَّ الحَارِثَ بْنَ عَوْفٍ أَخَا بَنِي مُرَّةَ قَالَ لِعُيَيْنَةَ بْنَ بَدْرٍ وَغَطَفَانَ: **يَا قَوْمِ أَطِيعُونِي وَدَعُوا قِتَالَ هَذَا الرَّجُلِ، وَخَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ مِنَ العَرَبِ**، فَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ وَقَطَعَ أَعْنَاقَهُمُ الطَّمَعُ، فَانْقَادُوا لِأَمْرِ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ عَلَى قِتَالِ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَتَبُوا إِلَى حُلَفَائِهِمْ مِنْ أَسَدٍ، فَأَقْبَلَ طُلَيْحَةُ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَهُمَا حَلِيفَانِ: أَسَدٌ وَغَطَفَانُ، وَكَتَبَتْ قُرَيْشٌ إِلَى رِجَالٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ أَشْرَافٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ، فَأَقْبَلَ أَبُو الأَعْوَرِ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ مَدَدًا لِقُرَيْشٍ، فَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ فِي آخِرِ السَّنَتَيْنِ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ قَبَائِلِ العَرَبِ، وَأَبُو الأَعْوَرِ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ، فَهُمُ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللهُ الأَحْزَابَ.

فَلَـمَّا بَلَغَ خُرُوجُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ فِي حَفْرِ الخَنْدَقِ، وَخَرَجَ مَعَهُ الـمُسْلِمُونَ، فَوَضَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَهُ فِي العَمَلِ مَعَهُمْ، فَعَمِلُوا مُسْتَعْجِلِينَ يُبَادِرُونَ قُدُومَ العَدُوِّ، وَرَأَى الـمُسْلِمُونَ إِنَّمَا بَطَشَ رَسُولُ الله ﷺ مَعَهُمْ فِي العَمَلِ لِيَكُونَ أَجَدَّ لَـهُمْ وَأَقْوَى لَـهُمْ بِإِذْنِ الله ﷻ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَضْحَكُ مِنْ صَاحِبِهِ إِذَا رَأَى مِنْهُ فَتْرَةً (ضعفًا)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يَغْضَبِ اليَوْمَ أَحَدٌ مِنْ شَيْءٍ ارْتَجَزَ بِهِ مَا لَمْ يَقُلْ قَوْلَ كَعْبٍ أَوْ حَسَّانَ، فَإِنَّهُمَا يَجِدَانِ مِنْ ذَلِكَ قَوْلًا كَثِيرًا**»، وَنَهَاهُمَا أَنْ يَقُولَا شَيْئًا يُحْفِظَانِ (يغضبان) بِهِ أَحَدًا.

فَذَكَرُوا أَنَّهُ عَرَضَ لَـهُمْ حَجَرٌ فِي مَحْفَرِهِمْ، فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ مِعْوَلًا مِنْ أَحَدِهِمْ فَضَرَبَهُ بِهِ ثَلَاثًا، فَكُسِرَ الحَجَرُ فِي الثَّالِثَةِ، فَزَعَمُوا أَنَّ سَلْمَانَ الخَيْرَ الفَارِسِيَّ ﵁ أَبْصَرَ عِنْدَ كُلِّ ضَرْبَةٍ بُرْقَةً ذَهَبَتْ فِي ثَلَاثِ وُجُوهٍ، كُلَّ مَرَّةٍ يُتْبِعُهَا سَلْمَانُ بَصَرَهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَلْمَانُ لِرَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: **رَأَيْتُ كَهَيْئَةِ البَرْقِ، أَوْ مَوْجِ المَاءِ، عَنْ ضَرْبَةٍ ضَرَبْتَهَا يَا رَسُولَ الله ذَهَبَتْ إِحْدَاهُنَّ نَحْو المَشْرِقِ، وَالأُخْرَى نَحْوَ الشَّامِ، وَالأُخْرَى نَحْوَ اليَمَنِ**، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَقَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ

الله ﷺ: «**فَإِنَّهُ أُبِيضَ لِي فِي إِحْدَاهِنَّ مَدَائِنُ كِسْرَى وَمَدَائِنُ مِنْ تِلكَ البِلَادِ، وَفِي الأُخْرَى مَدِينَةُ الرُّومِ وَالشَّامِ، وَفِي الأُخْرَى مَدِينَةُ اليَمَنِ وَقُصُورُهَا، وَالَّذِي رَأَيْتُ النَّصْرُ يَبْلُغُهُنَّ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، وَكَانَ سَلْمَانُ رضي الله عنه يَذْكُرُ ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ.

قَالَ: وَكَانَ سَلْمَانُ رضي الله عنه رَجُلًا قَوِيًّا، فَلَـمَّا وَكَّلَ رَسُولُ الله ﷺ بِكُلِّ جَانِبٍ مِنَ الخَنْدَقِ، قَالَ الـمُهَاجِرُونَ: يَا سَلْمَانُ، احْفُرْ مَعَنَا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: لَا أَحَدَ أَحَقُّ بِهِ مِنَّا، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّمَا سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ**».

[أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٩٨، وقال الذهبي: سنده ضعيف].

وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَـمَّا قَتَلَ الأَسْوَدَ العَنْسِيَّ كَذَّابَ صَنْعَاءَ فَيْرُوزُ الدَّيْلَمِيُّ، وَقَدِمَ قَادِمُهُمْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَدْ أَسْلَمُوا، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَنْ نَحْنُ؟ قَالَ: **أَنْتُمْ إِلَيْنَا أَهْلَ البَيْتِ وَمِنَّا**.

فَلَـمَّا قَضَوْا حَفْرَ خَنْدَقِهِمْ، وَذَلِكَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ، وَهُوَ عَامُ الأَحْزَابِ وَعَامُ الخَنْدَقِ، أَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ، فَنَزَلُوا بِأَعْلَى وَادِي قَنَاةَ مِنْ تِلْقَاءِ الغَابَةِ (موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة).

وَغَلَّقَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ حِصْنَهُمْ، وَتَأَشَّمُوا بِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ وَقَالُوا: **لَا تَكُونُوا مِنْ هَؤُلَاءِ القَوْمِ فِي شَيْءٍ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لِمَنْ تَكُونُ الدَّبْرَةُ، وَقَدْ أَهْلَكَ حُيَيٌّ قَوْمَهُ فَاحْذَرُوهُ**.

وَأَقْبَلَ حُيَيٌّ حَتَّى أَتَى بَابَ حِصْنِهِمْ، وَهُوَ مُغْلَقٌ عَلَيْهِمْ، وَسَيِّدُ اليَهُودِ يَوْمَئِذٍ كَعْبُ بْنُ أُسَدٍ، فَقَالَ حُيَيٌّ: **أَثَمَّ كَعْبٌ**؟ قَالَتِ امْرَأَتُهُ: **لَيْسَ هَا هُنَا، خَرَجَ لِبَعْضِ حَاجَاتِهِ**، فَقَالَ حُيَيٌّ: **بَل هُوَ عِنْدَكِ، مَكَثَ عَلَى جَشِيشَتِهِ** [1] **يَأْكُلُ مِنْهَا، فَكَرِهَ أَنْ أُصِيبَ مَعَهُ مِنَ العَشَاءِ**.

فَقَالَ كَعْبٌ: **ائْذَنُوا لَهُ فَإِنَّهُ مَشْؤُومٌ، وَالله مَا طَرَفْنَا [طَرَفَنَا] بِخَيْرٍ**.

فَدَخَلَ حُيَيٌّ فَقَالَ: **إِنِّي جِئْتُكَ وَالله بِعِزِّ الدَّهْرِ إِنْ لَمْ تَتْرُكْهُ عَلَيَّ، أَتَيْتُكَ بِقُرَيْشٍ [وَسَادَتِهَا وَقَادَتِهَا]، وَسُقْتُ إِلَيْكَ الحَلِيفَيْنِ: أَسَدٌ وَغَطَفَانُ**.

فَقَالَ كَعْبُ ابْنُ أَسَدٍ: **إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا جِئْتَ بِهِ كَمَثَلِ سَحَابَةٍ أَفْرَغَتْ مَا فِيهَا ثُمَّ انْطَلَقَتْ، وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ، دَعْنَا عَلَى عَهْدِنَا لِهَذَا الرَّجُلِ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ رَجُلًا أَصْدَقَ وَلَا أَوْفَى مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَالله مَا أَكْرَهَنَا عَلَى دِينٍ، وَلَا غَصَبَنَا مَالًا، وَلَا نَنْقِمُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَعَمَلِكَ شَيْئًا، وَأَنْتَ تَدْعُو إِلَى الـهَلَكَةِ، فَنُذَكِّرُكَ اللهَ إِلَّا مَا أَعْفَيْتَنَا مِنْ نَفْسِكَ**.

---

(١) جشيشة: طعام يُصنع من البر يطحن غليظًا، ثم تجعل في القدور ويُلقى عليه لحم أو تمر أو تطبخ. النهاية لابن الأثير ١/ ٢٧٣، وهو الذي تقول له العامة: «دشيش» بالدال، والصواب بالجيم.

فَقَالَ: **وَاللهِ لَا أَفْعَلُ وَلَا يَخْتَبِزُهَا مُحَمَّدٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَلَا نَفْتَرِقُ نَحْنُ وَهَذِهِ الجُمُوعُ حَتَّى نَهْلَكَ.**

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَعْدٍ القُرَظِيُّ: **يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، إِنَّكُمْ قَدْ حَالَفْتُمْ مُحَمَّدًا عَلَى مَا قَدْ عَلِمْتُمْ أَنْ لَا تَخُونُوهُ، وَلَا تَنْصُرُوا عَلَيْهِ عَدُوًّا، وَأَنْ تَنْصُرُوهُ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ، فَأَوْفُوا عَلَى مَا عَاهَدْتُمُوهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَخَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ وَاعْتَزِلُوهُمْ.**

فَلَمْ يَزَل بِهِمْ حُيَيٌّ حَتَّى شَأَمَهُمْ، فَاجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ فِي الغَدِ عَلَى أَمْرِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، غَيْرَ أَنَّ بَنِي سَعْيَةَ أَسَدًا وَأُسَيْدًا وَثَعْلَبَةَ خَرَجُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، زَعَمُوا.

وَقَالَتِ اليَهُودُ: **يَا حُيَيُّ، انْطَلِقْ إِلَى أَصْحَابِكَ، فَإِنَّا لَا نَأْمَنُهُمْ، فَإِنْ أَعْطَوْنَا مِنْ أَشْرَافِهِمْ مِنْ كُلِّ مَنْ جَاءَ مَعَهُمْ رَهْنًا، فَكَانُوا عِنْدَنَا، فَإِذَا نَهَضُوا لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ خَرَجْنَا نَحْنُ فَرَكِبْنَا أَكْتَافَهُمْ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَاشْدُدِ العَقْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.**

فَذَهَبَ حُيَيٌّ إِلَى قُرَيْشٍ فَعَاقَدُوهُ عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا إِلَيْهِ السَّبْعِينَ، وَمَزَّقُوا صَحِيفَةَ القَضِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَهُمْ، وَنَبَذُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالحَرْبِ وَتَحَصَّنُوا.

فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَعَبَّأَ أَصْحَابَهُ لِلقِتَالِ، وَقَدْ جَعَلَهُمُ المُشْرِكُونَ فِي مِثْلِ الحِصْنِ بَيْنَ كَتَائِبِهِمْ، فَحَاصَرُوهُمْ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَأَخَذُوا بِكُلِّ نَاحِيَةٍ حَتَّى مَا يَدْرِي الرَّجُلُ أَتَمَّ صَلَاتَهُ أَمْ لَا، وَوَجَّهُوا نَحْوَ مَنْزِلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَتِيبَةً غَلِيظَةً يُقَاتِلُونَهُمْ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ، فَلَـمَّا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ ـ صَلَاةُ العَصْرِ ـ دَنَتِ الكَتِيبَةُ، فَلَمْ يَقْدِرِ النَّبِيُّ ﷺ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ أَنْ يُصَلُّوا الصَّلَاةَ عَلَى نَحْوِ مَا أَرَادُوا، فَانْكَفَأَتِ الكَتِيبَةُ مَعَ اللَّيْلِ، فَزَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ العَصْرِ، مَلَأَ اللهُ بُطُونَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا**».

فَلَـمَّا اشْتَدَّ البَلَاءُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ نَافَقَ نَاسٌ كَثِيرٌ وَتَكَلَّمُوا بِكَلَامٍ قَبِيحٍ، فَلَـمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا فِيهِ النَّاسُ مِنَ البَلَاءِ وَالكَرْبِ، جَعَلَ يُبَشِّرُهُمْ وَيَقُولُ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُفْرَجَنَّ عَنْكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنَ الشِّدَّةِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بِالبَيْتِ العَتِيقِ آمِنًا، وَأَنْ يَدْفَعَ اللهُ ﷻ إِلَيَّ مَفَاتِيحَ الكَعْبَةِ، وَلَيُهْلِكَنَّ اللهُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَلَتُنْفِقُنَّ كُنُوزَهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ**».

وَقَالَ رَجُلٌ مِمَّنْ مَعَهُ لِأَصْحَابِهِ: **أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ مُحَمَّدٍ؟ يَعِدُنَا أَنْ نَطُوفَ بِالبَيْتِ العَتِيقِ، وَأَنْ نَقْسِمَ كُنُوزَ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَنَحْنُ هَاهُنَا لَا يَأْمَنُ أَحَدُنَا أَنْ يَذْهَبَ الغَائِطَ، وَاللهِ لَـمَا يَعِدُنَا إِلَّا غُرُورًا.**

وَقَالَ آخَرُونَ مِمَّنْ مَعَهُ: **ائْذَنْ لَنَا فَإِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ.**

وَقَالَ آخَرُونَ: **يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا.**

وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ أَخَا بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ، وَخَوَّاتَ بْنَ جُبَيْرٍ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ لِيُكَلِّمُوهُمْ وَيُنَاشِدُوهُمْ فِي حِلْفِهِمْ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى أَتَوْا بَابَ حِصْنِ بَنِي

قُرَيْظَةَ اسْتَفْتَحُوا، فَفُتِحَ لَـهُمْ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِمْ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى الْمُوَادَعَةِ وَتَجْدِيدِ الحِلفِ فَقَالُوا: **الآنَ وَقَدْ كَسَرُوا جَنَاحَنَا**، يُرِيدُونَ بِجَنَاحِهِمُ المَكْسُورَةِ بَنِي النَّضِيرِ، ثُمَّ أَخْرَجُوهُمْ وَشَتَمُوا النَّبِيَّ ﷺ شَتْمًا، فَجَعَلَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يُشَاتِمُهُمْ، فَأَغْضَبَهُمْ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: **إِنَّا وَاللهِ مَا جِئْنَا لِهَذَا، وَلَمَا بَيْنَنَا أَكْثَرُ مِنَ الْمُشَاتَمَةِ**، ثُمَّ نَادَاهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ فَقَالَ: **إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ يَا بَنِي قُرَيْظَةَ، وَأَنَا خَائِفٌ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ بَنِي النَّضِيرِ، أَوْ أَمَرَّ مِنْهُ**، فَقَالُوا: **أَكَلتَ أَيْرَ أَبِيكَ**، فَقَالَ: **غَيْرُ هَذَا مِنَ القَوْلِ كَانَ أَجْمَلَ وَأَحْسَنَ مِنْهُ**.

فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ يَئِسُوا مِمَّا عِنْدَهُمْ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وجُوهِهِمُ الكَرَاهِيَةَ لِمَا جَاؤُوا بِهِ، فَقَالَ: «**مَا وَرَاءَكُمْ؟**» فَقَالُوا: **أَتَيْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخَابِثِ خَلقِ اللهِ وَأَعْدَاهُ للهِ** ﷻ **وَلِرَسُولِهِ** ﷺ، وَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي قَالُوا، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكِتْمَانِ خَبَرِهِمْ.

وَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَهُمْ فِي بَلَاءٍ شَدِيدٍ يَخَافُونَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، فَقَالُوا حِينَ رَأَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ مُقْبِلًا: **مَا وَرَاءَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:** «**خَيْرٌ فَأَبْشِرُوا**»، ثُمَّ تَقَنَّعَ بِثَوْبِهِ فَاضْطَجَعَ وَمَكَثَ طَوِيلًا، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ البَلَاءُ وَالخَوْفُ حِينَ رَأَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ اضْطَجَعَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ خَيْرٌ، ثُمَّ إِنَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا بِفَتْحِ اللهِ وَنَصْرِهِ**».

فَلَـمَّا أَصْبَحُوا دَنَا القَوْمُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَكَانَ بَيْنَهُمْ رَمْيُ النَّبْلِ وَالحِجَارَةِ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ لَا تُعْبَدُ**».

وَأَقْبَلَ نَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الـمَخْزُومِيُّ، وَهُوَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ لِيُقْحِمَهُ الخَنْدَقَ، فَقَتَلَهُ اللهُ وَكَبَتَ بِهِ الـمُشْرِكِينَ، وَعَظُمَ فِي صُدُورِهِمْ، وَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: **إِنَّا نُعْطِيكُمُ الدِّيَةَ عَلَى أَنْ تَدْفَعُوهُ إِلَيْنَا فَنَدْفِنَهُ**، فَرَدَّ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنَّهُ خَبِيثٌ خَبِيثُ الدِّيَةِ، فَلَعَنَهُ اللهُ وَلَعَنَ دِيَتَهُ، فَلَا أَرَبَ لَنَا بِدِيَتِهِ، وَلَسْنَا مَانِعِيكُمْ أَنْ تَدْفِنُوهُ**».

وَرُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ رَمْيَةً فَقَطَعَتْ مِنْهُ الأَكْحَلَ (عرق في وسط الذراع يكثر فصده) مِنْ عَضُدِهِ، وَرَمَاهُ ـ زَعَمُوا ـ حَيَّانُ بْنُ قَيْسٍ أَخُو بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي العَرِقَةِ، وَيَقُولُ آخَرُونَ: أَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ حَلِيفُ بَنِي مَخْزُومٍ.

وَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ: «**رَبِّ اشْفِنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ قَبْلَ المَمَاتِ**»، فَرَقَأَ الكَلْمُ (جف الجرح) بَعْدَ مَا كَانَ قَدِ انْفَجَرَ.

وَصَبَرَ أَهْلُ الإِيمَانِ عَلَى مَا رَأَوْا مِنْ كَثْرَةِ الأَحْزَابِ وَشِدَّةِ أَمْرِهِمْ، وَزَادَهُمْ يَقِينًا لِمَوْعِدِ اللهِ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ الَّذِي وَعَدَهُمْ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، ثُمَّ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَرْسَلَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ: **أَنْ قَدْ طَالَ**

ثَوَاؤُنَا هَاهُنَا، وَأَجْدَبَ مَنْ حَوْلَنَا، فَمَا نَجِدُ رَعْيًا لِلظَّهْرِ، وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ فَيَقْضِيَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَمَاذَا تَرَوْنَ؟ وَبَعَثَتْ بِذَلِكَ غَطَفَانُ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ: أَنْ نِعْمَ مَا رَأَيْتُمْ، فَإِذَا شِئْتُمْ فَانْهَضُوا، فَإِنَّا لَا نَحْبِسُكُمْ إِذَا بَعَثْتُمْ بِالرَّهْنِ إِلَيْنَا.

وَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَشْجَعَ يُقَالُ لَهُ: نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ، يُذِيعُ الأَحَادِيثَ، وَقَدْ سَمِعَ الَّذِي أَرْسَلَتْ بِهِ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَالَّذِي رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَارَ إِلَيْهِ وَذَلِكَ عِشَاءً، فَأَقْبَلَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قُبَّةً لَهُ تُرْكِيَّةً، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا وَرَاءَكَ؟» قَالَ: إِنَّهُ وَاللهِ مَا لَكَ طَاقَةٌ بِالقَوْمِ وَقَدْ تَحَزَّبُوا عَلَيْكَ وَهُمْ مُعَاجِلُوكَ، وَقَدْ بَعَثُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ أَنَّهُ قَدْ طَالَ ثَوَاؤُنَا، وَأَجْدَبَ مَا حَوْلَنَا، وَقَدْ أَحْبَبْنَا أَنْ نُعَاجِلَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُمْ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَنْ نِعْمَ مَا رَأَيْتُمْ، فَإِذَا شِئْتُمْ فَابْعَثُوا بِالرَّهْنِ ثُمَّ لَا يَحْبِسُكُمْ إِلَّا أَنْفُسُكُمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ شَيْئًا فَلَا تَذْكُرْهُ»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: «إِنَّهُمْ قَدْ أَرْسَلُوا إِلَيَّ يَدْعُونَنِي إِلَى الصُّلحِ وَأَرُدُّ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ».

فَخَرَجَ نُعَيْمٌ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى غَطَفَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ، وَعَسَى اللهُ أَنْ يَصْنَعَ لَنَا»، فَأَتَى نُعَيْمٌ غَطَفَانَ فَقَالَ: إِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ، وَإِنِّي قَدِ اطَّلَعْتُ عَلَى غَدْرِ يَهُودَ، تَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يَكْذِبْ قَطُّ، وَإِنِّي سَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ صَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ إِخْوَانَهُمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَيَدْفَعُونَ إِلَيْهِ الرَّهْنَ.

ثُمَّ خَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الأَشْجَعِيُّ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَقُرَيْشًا فَقَالَ: اعْلَمُوا أَنِّي قَدِ اطَّلَعْتُ عَلَى غَدْرِ يَهُودَ، إِنِّي سَمِعْتُ مُحَمَّدًا يُحَدِّثُ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ صَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ إِخْوَانَهُمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا إِلَيْهِ الرَّهْنَ، وَيُقَاتِلُونَ مَعَهُ، وَيُعِيدُونَ الكِتَابَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ.

فَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى أَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَقَالَ: أَشِيرُوا عَلَيَّ، وَقَدْ مَلُّوا مُقَامَهُمْ، وَتَعَذَّرَتْ عَلَيْهِمُ البِلَادُ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ نَرْجِعَ وَلَا نُقِيمَ، فَإِنَّ الحَدِيثَ عَلَى مَا حَدَّثَكَ نُعَيْمٌ، وَاللهِ مَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ، وَإِنَّ القَوْمَ لَغُدُرٌ.

وَقَالَتِ الرَّهْنُ حِينَ سَمِعُوا الحَدِيثَ: وَاللهِ لَا نَأْمَنُهُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا، وَلَا نَدْخُلُ حِصْنَهُمْ أَبَدًا.

وَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنْ نَعْجَلَ حَتَّى نُرْسِلَ إِلَيْهِمْ فَنَتَبَيَّنَ مَا عِنْدَهُمْ.

فَبَعَثَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَيْهِمْ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، وَفَوَارِسَ، وَذَلِكَ لَيْلَةَ السَّبْتِ، فَأَتَوْهُمْ فَكَلَّمُوهُمْ فَقَالُوا: إِنَّا مُقَاتِلُونَ غَدًا فَاخْرُجُوا إِلَيْنَا، قَالُوا: إِنَّ غَدًا السَّبْتُ، وَإِنَّا لَا نُقَاتِلُ فِيهِ أَبَدًا، فَقَالَ عِكْرِمَةُ: إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ الإِقَامَةَ، هَلَكَ الظَّهْرُ وَالكُرَاعُ، وَلَا نَجِدُ رَعْيًا، فَقَالَتِ اليَهُودُ: إِنَّا لَا نَعْمَلُ يَوْمَ السَّبْتِ عَمَلًا بِالقِتَالِ، وَلَكِنِ امْكُثُوا إِلَى يَوْمِ الأَحَدِ، وَابْعَثُوا إِلَيْنَا بِالرَّهْنِ، فَرَجَعَ عِكْرِمَةُ وَقَدْ يَئِسَ مِنْ نَصْرِهِمْ.

وَاشْتَدَّ البَلَاءُ وَالحَصْرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَشَغَلَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ فَلَا يَسْتَرِيحُونَ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا، وَأَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَبْعَثَ رَجُلًا فَيَخْرُجَ مِنَ الخَنْدَقِ فَيَعْلَمَ مَا خَبَرُ القَوْمِ، فَأَتَى رَسُولُ الله ﷺ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «**هَلْ أَنْتَ مُطَّلِعٌ القَوْمَ؟**» فَاعْتَلَّ فَتَرَكَهُ، وَأَتَى آخَرَ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَحُذَيْفَةُ ابْنُ اليَمَانِ ﷺ يَسْمَعُ مَا يَقُولُ رَسُولُ الله ﷺ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ صَامِتٌ لَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا بِهِ مِنَ الضُّرِّ وَالبَلَاءِ، فَأَتَاهُ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ لَا يَدْرِي مَنْ هُوَ فَقَالَ: «**مَنْ هَذَا؟**» قَالَ: **أَنَا حُذَيْفَةُ بْنُ اليَمَانِ**، قَالَ: «**إِيَّاكَ أُرِيدُ، أَسَمِعْتَ حَدِيثِي مُنْذُ اللَّيْلَةِ وَمَسْأَلَتِي الرِّجَالَ لِأَبْعَثَهُمْ فَيَتَخَبَّرُونَ لَنَا خَبَرَ القَوْمِ؟**» قَالَ حُذَيْفَةُ: **وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنَّهُ لَبِأُذُنَيَّ**، قَالَ: «**فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُومَ حِينَ سَمِعْتَ كَلَامِي؟**» قَالَ: **الضُّرُّ وَالجُوعُ**، فَلَـمَّا ذَكَرَ الجُوعَ ضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**قُمْ حَفِظَكَ اللهُ مِنْ أَمَامِكَ، وَمِنْ خَلفِكَ، وَمِنْ فَوْقِكَ، وَمِنْ تَحْتِكَ، وَعَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيْنَا**»، فَقَامَ حُذَيْفَةُ ﷺ مُسْتَبْشِرًا بِدُعَاءِ رَسُولِ الله ﷺ، كَأَنَّهُ احْتُمِلَ احْتِمَالًا، فَمَا شَقَّ مِنْ جُوعٍ، وَلَا خَوْفٍ، وَلَا دَرَى شَيْئًا مِمَّا أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ البَلَاءِ، فَانْطَلَقَ حَتَّى أَجَازَ الخَنْدَقَ مِنْ أَعْلَاهُ، فَجَلَسَ بَيْنَ ظَهْرَي الْمُشْرِكِينَ، فَوَجَدَ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَمَرَهُمْ أَنْ يُوقِدُوا النِّيرَانَ وَقَالَ: **لِيَعْلَمَ كُلُّ امْرِئٍ مَنْ جَلِيسُهُ**، فَقَبَضَ حُذَيْفَةُ عَلَى يَدِ رَجُلٍ عَنْ يَمِينِهِ فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانٌ، وَقَبَضَ يَدَ رَجُلٍ عَنْ يَسَارِهِ قَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانٌ، وَبَدَرَهُمْ بِالْمَسْأَلَةِ خَشْيَةَ أَنْ يَفْطِنُوا لَهُ.

ثُمَّ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَذِنَ بِالرَّحِيلِ، فَارْتَحَلُوا وَحَمَلُوا الأَثْقَالَ فَانْطَلَقَتْ، وَوَقَفَتِ الخَيْلُ سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ الصِّيَاحَ وَالإِرْصَاءَ مِنْ قِبَلِ قُرَيْشٍ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِمْ، فَأَتَاهُمُ الخَبَرُ بِرَحِيلِهِمْ، فَانْقَشَعُوا (ذهبوا وافترقوا) لَا يَلْوُونَ عَلَى شَيْءٍ.

وَقَدْ كَانَ اللهُ ﷻ قَبْلَ رَحِيلِهِمْ قَدْ بَعَثَ عَلَيْهِمْ بِالرِّيحِ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، حَتَّى مَا خَلَقَ اللهُ لَـهُمْ بَيْتًا يَقُومُ، وَلَا رُمْحًا، حَتَّى مَا كَانَ فِي الأَرْضِ مَنْزِلٌ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ وَلَا أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ ذَلِكَ، فَأَقْشَعُوا وَالرِّيحُ أَشَدُّ مَا كَانَتْ، مَعَهَا جُنُودُ الله لَا تُرَى كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ.

وَرَجَعَ حُذَيْفَةُ ﷺ بِبَيَانِ خَبَرِ القَوْمِ، فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، وَكَذَلِكَ فَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ خَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَأَصْحَابُهُ فَقَتَلُوا كَعْبَ بْنَ الأَشْرَفِ، فَلَمْ يَزَل قَائِمًا يُصَلِّي حَتَّى فَرَغُوا مِنْهُ وَسَمِعَ التَّكْبِيرَ، وَلَـمَّا دَنَا حُذَيْفَةُ ﷺ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَدْنُوَ حَتَّى أَلصَقَ ظَهْرَهُ بِرِجْلِ رَسُولِ الله ﷺ، فَثَنَا ثَوْبَهُ حَتَّى دَفِئَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ القَوْمِ، فَأَخْبَرَهُ الخَبَرَ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ فَتَحَ اللهُ ﷻ لَـهُمْ، وَأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ، فَرَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ شَدِيدًا بَلَاؤُهُمْ مِمَّا لَقُوا مِنْ مُحَاصَرَةِ العَدُوِّ، وَكَانُوا حَاصَرُوهُمْ فِي شِتَاءٍ شَدِيدٍ، فَرَجَعُوا مَجْهُودِينَ فَوَضَعُوا السِّلَاحَ.

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الحَافِظُ ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ البَغْدَادِيُّ ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عُلَاثَةَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ خَالِدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الأَسْوَدِ ، عَنْ عُرْوَةَ، فَذَكَرَ هَذِهِ القِصَّةَ بِمَعْنَى مَا ذَكَرَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ.

وَلِمَا ذَكَرَا فِي مَغَازِيهِمَا مِنْ هَذِهِ القِصَّةِ شَوَاهِدُ فِي الأَحَادِيثِ المَوْصُولَةِ، وَفِي مَغَازِي مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ ابْنِ يَسَارٍ، وَنَحْنُ نَذْكُرُهَا بِعَوْنِ الله تَعَالَى مُفَرَّقَةً فِي أَبْوَابٍ.

[دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٩٨-٤٠٧، المغازي لموسى بن عقبة، جمع د/ باقشيش ٢١٤-٢٢٢].

المبحث العاشر

ما قيل من الشعر في غزوة الأحزاب [(١)]

شِعْرُ ضِرَارٍ: قَالَ ضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ بْنِ مِرْدَاسٍ، أَخُو بَنِي مُحَارِبِ بْنِ فِهْرٍ، فِي يَوْمِ الخَنْدَقِ:

وَمُشْفِقَةٍ تَظُنُّ بِنَا الظُّنُونَا *** وَقَدْ قُدْنَا عَرَنْدَسَةً طَحُونَا [(٢)]

كَأَنَّ زُهَاءَهَا أُحُدٌ إِذَا مَا *** بَدَتْ أَرْكَانُهُ لِلنَّاظِرِينَا [(٣)]

تَرَى الأَبْدَانَ فِيهَا مُسْبَغَاتٍ *** عَلَى الأَبْطَالِ وَاليَلَبَ الحَصِينَا [(٤)]

وَجُرْدًا كَالقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ *** نَؤُمُّ بِهَا الغُوَاةَ الخَاطِئِينَا [(٥)]

كَأَنَّهُمْ إِذَا صَالُوا وَصُلْنَا *** بِبَابِ الخَنْدَقَيْنِ مُصَافِحُونَا [(٦)]

أُنَاسٌ لَا نَرَى فِيهِمْ رَشِيدًا *** وَقَدْ قَالُوا أَلَسْنَا رَاشِدِينَا

فَأَحْجَرْنَاهُمُ شَهْرًا كَرِيتًا *** وَكُنَّا فَوْقَهُمْ كَالقَاهِرِينَا [(٧)]

نُرَاوِحُهُمْ وَنَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ *** عَلَيْهِمْ فِي السِّلَاحِ مُدَجَّجِينَا [(٨)]

بِأَيْدِينَا صَوَارِمُ مُرْهَفَاتٌ *** نَقُدُّ بِهَا المَفَارِقَ وَالشُّؤُونَا [(٩)]

كَأَنَّ وَمِيضَهُنَّ مُعَرَّيَاتٍ *** إِذَا لَاحَتْ بِأَيْدِي مُصَلِّتِينَا [(١٠)]

ووَمِيضُ عَقِيقَةٍ لَمَعَتْ بِلَيْلٍ *** تَرَى فِيهَا العَقَائِقَ مُسْتَبِينَا [(١١)]

فَلَوْلَا خَنْدَقٌ كَانُوا لَدَيْهِ *** لَدَمَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَا

وَلَكِنْ حَالَ دُونَهُمْ وَكَانُوا *** بِهِ مِنْ خَوْفِنَا مُتَعَوِّذِينَا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٤-٢٦٩.

(٢) **العرندسة**: الشديدة القوة، يريد: كتيبة. **الطحون**: التي تطحن كل ما مرت به.

(٣) **زهاؤها**: تقدير عددها.

(٤) **الأبدان** (هنا): الدروع. **مسبغات**: كاملة. **اليلب**: الترس أو الدرق.

(٥) **الجرد**: الخيل العتاق. **القداح**: سهام. **المسومات**: المرسلة، ويقال: هي الغالية الأسوام. **نؤم**: نقصد.

(٦) **المصافحة**: أخذ الرجل بيد الرجل عند السلام.

(٧) **أحجرناهم**: حصرناهم. **شهرًا كريتًا**: تامًّا كاملًا.

(٨) **المدجج** (بفتح الجيم وكسرها): الكامل السلاح.

(٩) **الصوارم**: السيوف. **مرهفات**: قاطعة. **نقد**: نقطع. **المفارق**: مجمع مفرق وهو حيث يفرق الشعر في أعلى الجبهة. ويريد «بالشئون» مجمع العظام أعلى الرأس.

(١٠) **الوميض**: اللمعان. **المصلت**: الذي جرد سيفه من غمده.

(١١) **العقيقة**: السحابة التي تنشق عن البرق.

فَإِنْ نَرْحَل فَإِنَّا قَدْ تَرَكْنَا ... لَدَى أَبْيَاتِكُمْ سَعْدًا رَهِينَا
إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ سَمِعْتَ نَوْحَى ... عَلَى سَعْدٍ يُرَجِّعْنَ الـحَنِينَا (١)
وَسَوْفَ نَزُورُكُمْ عَمَّا قَرِيبٍ ... كَمَا زُرْنَاكُمْ مُتَوَازِرِينَا (٢)
بِجَمْعٍ مِنْ كِنَانَةَ غَيْرِ عُزْلٍ ... كَأُسْدِ الغَابِ قَدْ حَمَتِ العَرِينَا (٣)

كَعْبٌ ﷺ يَرُدُّ عَلَى ضِرَارٍ: فَأَجَابَهُ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ، أَخُو بَنِي سَلِمَةَ، فَقَالَ:

وَسَائِلَةٍ تُسَائِلُ مَا لَقِينَا ... وَلَوْ شَهِدَتْ رَأَتْنَا صَابِرِينَا
صَبَرْنَا لَا نَرَى للهِ عِدْلًا ... عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَا
وَكَانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزِيرَ صِدْقٍ ... بِهِ نَعْلُو البَرِيَّةَ أَجْمَعِينَا
نُقَاتِلُ مَعْشَرًا ظَلَمُوا وَعَقُّوا ... وَكَانُوا بِالعَدَاوَةِ مُرْصِدِينَا (٤)
نُعَاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا ... بِضَـرْبٍ يُعْجِلُ الْمُتَسَرِّعِينَا
تَرَانَا فِي فَضَافِضَ سَابِغَاتٍ ... كَغُدْرَانِ الْمَلَا مُتَسَـرْبِلِينَا (٥)
وَفِي أَيْمَانِنَا بِيضٌ خِفَافٌ ... بِهَا نَشْفِي مِرَاحَ الشَّاغِبِينَا (٦)
بِبَابِ الخَنْدَقَيْنِ كَأَنَّ أُسْدًا ... شَوَابِكُهُنَّ يَحْمِينَ العَرِينَا (٧)
فَوَارِسُنَا إِذَا بَكَرُوا وَرَاحُوا ... عَلَى الأَعْدَاءِ شُوسًا مُعْلَمِينَا (٨)
لِنَنْصُرَ أَحْمَدًا وَاللهَ حَتَّى ... نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَا
وَيَعْلَمَ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا ... وَأَحْزَابٌ أَتَوْا مُتَحَزِّبِينَا
بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ ... وَأَنَّ اللهَ مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَا
فَإِمَّا تَقْتُلُوا سَعْدًا سِفَاهًا ... فَإِنَّ اللهَ خَيْرُ القَادِرِينَا

---

(١) **النوحي**: جماعة النساء اللاتي ينحن.

(٢) **متوازرين**: متعاونين.

(٣) **العزل**: الذين لا سلاح معهم، الواحد، أعزل. **الغاب**: جمع غابة، وهي الأجمة. **العرين**: موضع الأسد.

(٤) **المرصد**: المعد للأمر عدته.

(٥) **الفضافض**: الدروع المتسعة. **سابغات**: كاملة. **الملا** (مقصور): المتسع من الأرض. **متسربلون**: لابسون الدروع.

(٦) **المراح**: النشاط.

(٧) **الشوابك**: التي يتشبث بها فلا يفلت.

(٨) **الشوس**: جمع أشوس، وهو الذي ينظر نظر المتكبر بمؤخر عينه. **المعلم** (بفتح اللام وكسرها): الذي أعلم نفسه بعلامة الحرب ليشتهر بها.

سَيُدْخِلُهُ جِنَانًا طَيِّبَاتٍ تَكُونُ مُقَامَةً لِلصَّالِحِينَا
كَمَا قَدْ رَدَّكُمْ فَلًّا شَرِيدًا بِغَيْظِكُمْ خَزَايَا خَائِبِينَا [١]
خَزَايَا لَمْ تَنَالُوا ثَمَّ خَيْرًا وَكِدْتُمْ أَنْ تَكُونُوا دَامِرِينَا [٢]
بِرِيحٍ عَاصِفٍ هَبَّتْ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ تَحْتَهَا مُتَكَمِّهِينَا [٣]

شِعْرُ ابْنِ الزِّبِعْرَى: وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزِّبِعْرَى السَّهْمِيُّ فِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ:

حَتَّى الدِّيَارِ مَحَا مَعَارِفَ رَسْمِهَا طُولُ الْبِلَى وَتَرَاوُحُ الْأَحْقَابِ [٤]
فَكَأَنَّمَا كَتَبَ الْيَهُودُ رُسُومَهَا إِلَّا الْكَنِيفَ وَمَعْقِدَ الْأَطْنَابِ [٥]
قَفْرًا كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ تَلْهُو بِهَا فِي نِعْمَةٍ بِأَوَانِسٍ أَتْرَابِ [٦]
فَاتْرُكْ تَذَكُّرَ مَا مَضَى مِنْ عِيشَةٍ وَمَحَلَّةٍ خَلَقِ الْمَقَامِ يَبَابِ [٧]
وَاذْكُرْ بَلَاءَ مَعَاشِرَ وَاشْكُرْهُمُ سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ مِنَ الْأَنْصَابِ [٨]
أَنْصَابِ مَكَّةَ عَامِدِينَ لِيَثْرِبٍ فِي ذِي غَيَاطِلَ جَحْفَلٍ جَبْجَابِ [٩]
يَدَعُ الْحُزُونَ مَنَاهِجًا مَعْلُومَةً فِي كُلِّ نَشْرٍ ظَاهِرٍ وَشِعَابِ [١٠]
فِيهَا الْجِيَادُ شَوَازِبٌ مَجْنُوبَةٌ قُبُّ الْبُطُونِ لَوَاحِقُ الْأَقْرَابِ [١١]
مِنْ كُلِّ سَلْهَبَةٍ وَأَجْرَدَ سَلْهَبٍ كَالسَّيِّدِ بَادَرَ غَفْلَةَ الرُّقَّابِ [١٢]

---

(١) **الفل**: القوم المنهزمون. **الشريد**: الطريد.

(٢) **دامرين**: هالكين.

(٣) **العاصف**: الريح الشديدة. **المتكمه**: الأعمى الذي لا يبصر.

(٤) **الأحقاب**: الدهور، الواحد: حقب.

(٥) **الكنيف**: الحظيرة والزرب الذي يصنع للإبل، وسمي كنيفًا، لأنه يكنفها، أي يسترها. **الأطناب**: الحبال التي تشد بها الأخبية وبيوت العرب. ويريد «**بمعقدها**»: الأوتاد التي تربط بها.

(٦) **الأتراب**: جمع ترب وهن المتساويات في السن.

(٧) **اليباب**: القفر.

(٨) قال أبو ذر: «**الأنصاب** هنا: الحجارة التي يعلم بها الحرم. والأنصاب (أيضًا): حجارة كانوا يذبحون لها ويعظمونها».

(٩) يريد «**بذي غياطل**»: جيشًا كثير الأصوات. **الغياطل**: جمع غيطة، وهي الصوت هنا. **جحفل**: جيش. **وجبجاب**: كثير.

(١٠) **الحزون**: جمع حزن، وهو ما ارتفع من الأرض. **المناهج**: جمع منهج، وهو الطريق البين. **النشر**: المرتفع من الأرض، ويقال فيه نشز أيضًا. (وهي رواية). **الشعاب**: جمع شعب، وهو المنخفض بين جبلين.

(١١) **الشوازب**: الضامرة. **المجنوبة**: المقودة. **قب**: ضامرة. **لواحق**: ضامرة: (أيضًا). **الأقراب**: جمع قرب، وهو الخاصرة وما يليها.

(١٢) **السلهبة**: الطويلة. **السيد**: الذئب.

جَيْشٌ عُيَيْنَةُ قَاصِدٌ بِلِوَائِهِ   فِيهِ، وَصَخْرٌ قَائِدُ الأَحْزَابِ
قَرْمَانُ كَالبَدْرَيْنِ أَصْبَحَ فِيهِمَا   غَيْثَ الفَقِيرِ وَمَعْقِلَ الهُرَّابِ (١)
حَتَّى إِذَا وَرَدُوا المَدِينَةَ وَارْتَدَوْا   لِلمَوْتِ كُلَّ مُجَرَّبٍ قَضَّابِ (٢)
شَهْرًا وَعَشْرًا قَاهِرِينَ مُحَمَّدًا   وَصِحَابُهُ فِي الحَرْبِ خَيْرُ صِحَابِ
نَادَوْا بِرِحْلَتِهِمْ صَبِيحَةَ قُلْتُمُ   كِدْنَا نَكُونُ بِهَا مَعَ الخُيَّابِ
لَوْلَا الخَنَادِقُ غَادَرُوا مِنْ جَمْعِهِمْ   قَتْلَى لِطَيْرٍ سُغَّبٍ وَذِئَابِ (٣)

حَسَّانُ ﷺ يَرُدُّ عَلَى ابْنِ الزِّبَعْرَى: فَأَجَابَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيُّ ﷺ، فَقَالَ:

هَلْ رَسْمُ دَارِسَةِ المَقَامِ يَبَابِ   مُتَكَلِّمٌ لِمُحَاوِرٍ بِجَوَابِ (٤)
قَفْرٌ عَفَا رِهَمُ السَّحَابِ رُسُومَهُ   وَهُبُوبُ كُلِّ مُطِلَّةٍ مِرْبَابِ (٥)
وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِهَا الحُلُولَ يَزِينُهُمْ   بِيضُ الوُجُوهِ ثَوَاقِبُ الأَحْسَابِ (٦)
فَدَعِ الدِّيَارَ وَذِكْرَ كُلِّ خَرِيدَةٍ   بَيْضَاءَ آنِسَةِ الحَدِيثِ كَعَابِ (٧)
وَاشْكُ الهُمُومَ إِلَى الإِلَهِ وَمَا تَرَى   مِنْ مَعْشَرٍ ظَلَمُوا الرَّسُولَ غِضَابِ
سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَيْهِ وَأَلَّبُوا   أَهْلَ القُرَى وَبَوَادِيَ الأَعْرَابِ (٨)
جَيْشٌ عُيَيْنَةُ وَابْنُ حَرْبٍ فِيهِمْ   مُتَخَمِّطُونَ بِحَلْبَةِ الأَحْزَابِ (٩)
حَتَّى إِذَا وَرَدُوا المَدِينَةَ وَارْتَجَوْا   قَتْلَ الرَّسُولِ وَمَغْنَمَ الأَسْلَابِ
وَغَدَوْا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِهِمْ   رُدُّوا بِغَيْظِهِمْ عَلَى الأَعْقَابِ (١٠)
بِهُبُوبِ مُعْصِفَةٍ تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ   وَجُنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الأَرْبَابِ (١١)

---

(١) **قرمان**: فحلان سيدان. **معقل الهراب**: ملجؤهم.

(٢) **ارتدوا**: تقلدوا. **كل مجرب**: أي كل سيف قد جرب. **القضاب**: القاطع.

(٣) **سغب**: جائعة.

(٤) **اليباب**: القفر. **المُحاور**: الذي يراجعك ويتكلم معك.

(٥) **عفا**: تغير ودرس. **رهم**: جمع رهمة، وهي المطر. **مطلة**: مشرقة. **مرباب**: دائمة ثابتة.

(٦) **الحلول**: البيوت المجتمعة. **ثواقب**: مشرقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق:٣].

(٧) **الخريدة**: المرأة الناعمة. **الكعاب**: التي نهد ثديها في أول ما ينهد.

(٨) **ألَّبوا**: جمعوا.

(٩) **متخمطون**: مختلطون. قال أبو ذر: «ويقال: المتخمط: الشديد الغضب المتكبر». **الحلبة**: جماعة الخيل التي تعد للسباق.

(١٠) **الأيد**: القوة.

(١١) **المعصفة**: الريح الشديدة.

فَكَفَى الإِلَهُ المُؤْمِنِينَ قِتَالَـهُمْ وَأَثَابَهُمْ فِي الأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ

مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا فَفَرَّقَ جَمْعَهُمْ تَنْزِيلُ نَصْـرِ مَلِيكِنَا الوَهَّابِ

وَأَقَرَّ عَيْنَ مُحَمَّدٍ وَصِحَابِهِ وَأَذَلَّ كُلَّ مُكَذِّبٍ مُرْتَابِ

عَاتِي الفُؤَادِ مُوَقَّعٍ ذِي رِيبَةٍ فِي الكُفْرِ لَيْسَ بِطَاهِرِ الأَثْوَابِ [(١)]

عَلِقَ الشَّقَاءُ بِقَلْبِهِ فَفُؤَادُهُ فِي الكُفْرِ آخِرُ هَذِهِ الأَحْقَابِ

كَعْبٌ ﷺ يَرُدُّ عَلَى ابْنِ الزِّبَعْرَى: وَأَجَابَهُ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ أَيْضًا، فَقَالَ:

أَبْقَى لَنَا حَدَثُ الحُرُوبِ بَقِيَّةً مِنْ خَيْرِ نِحْلَةِ رَبِّنَا الوَهَّابِ [(٢)]

بَيْضَاءَ مُشْـرِفَةَ الذُّرَى وَمَعَاطِنًا حُمَّ الـجُذُوعِ غَزِيرَةَ الأَحْلَابِ [(٣)]

كَاللُّوبِ يُبْذَلُ جَمُّهَا وَحَفِيلُهَا لِلجَارِ وَابْنِ العَمِّ وَالـمُنْتَابِ [(٤)]

وَنَزَائِعًا مِثْلَ السِّـرَاجِ نَمَى بِهَا عَلَفُ الشَّعِيرِ وَجِزَّةُ الـمِقْضَابِ [(٥)]

عَرِيَ الشَّوَى مِنْهَا وَأَرْدَفَ نَحْضَهَا جُرْدُ الـمُتُونِ وَسَائِرُ الآرَابِ [(٦)]

قُودًا تَرَاحُ إِلَى الصِّيَاحِ إِذْ غَدَتْ فِعْلَ الضِّرَاءِ تَرَاحُ لِلكُلَّابِ [(٧)]

وَتَحُوطُ سَائِمَةَ الدِّيَارِ وَتَارَةً تُرْدِي العِدَا وَتَؤُوبُ بِالأَسْلَابِ [(٨)]

حُوشُ الوُحُوشِ مَطَارَةٌ عِنْدَ الوَغَى عُبْسُ اللِّقَاءِ مُبِينَةُ الإِنْجَابِ [(٩)]

عُلِفَتْ عَلَى دَعَةٍ فَصَارَتْ بُدَّنًا دُخْسَ البَضِيعِ خَفِيفَةَ الأَقْصَابِ

---

(١) **عاتي الفؤاد**: قاسيه. **موقع**: ذو هيب، وأصلة من التوقيع في ظهر الدابة، وهو انسلاخ يكون فيه.

(٢) **النِّحلة**: العطاء.

(٣) **الذرى**: العالي، ويعني بها الآطام. ويعني «**بالمعاطن**»: منابت النخل عند الماء، تشبيهًا لها بمعاطن الإبل، وهي مباركها حول الماء. **حم**: سود. ويريد «**بالجذوع**» أعناقها. **الأحلاب**: ما يحلب منها.

(٤) **اللوب**: جمع لوبة، وهي الحرة، وهي أرض ذات حجارة سود. **جمها**: ما اجتمع من لبنها. **والمنتاب**: القاصد الزائر.

(٥) **النزائع**: الخيل العربية التي حُملت من أرض أخرى. **السراح**: الذئاب، الواحد سرحان. **جزة المقضاب**: أي ما يجز لها من النبات فتطعمه. **المقضاب**: من القضب، وهو القطع.

(٦) **الشوى**: القوائم. **النحض**: اللحم. **جرد المتون**: ملحمة الظهور. **الآراب**: جمع إرب، وهو كل عضو مستقل بنفسه.

(٧) **قود**: طوال، الواحد: أقود وقوداء. **تراح**: تنشط. **الضراء**: الكلاب الضارية الصيد. **الكلاب**: الصائد صاحب الكلاب، الكلاب، الواحد: كالب.

(٨) **السائمة**: الماشية المرسلة في المرعى إبلًا كانت أو غيرها. **تردي**: تهلك. **تؤوب**: ترجع.

(٩) **الحوش**: النافرة. **المطارة**: المستخفة. **الوغى**: الحرب. **الإنجاب**: الكرم والعتق.

(١٠) **البدن**: السمان. **دخس**: كثيرة اللحم. **البضيع**: اللحم. **الأقصاب**: الأمعاء، الواحد قصب.

يَغْدُونَ بِالزَّغْفِ الْمُضَاعِفِ شَكَّةٌ ... وَبِمُتْرَصَاتٍ فِي الثِّقَافِ صِيَابِ (١)

وَصَوَارِمٍ نَزَعَ الصَّيَاقِلُ غَلْبَهَا ... وَبِكُلِّ أَرْوَعَ مَاجِدِ الأَنْسَابِ (٢)

يَصِلُ الْيَمِينَ بِمَارِنٍ مُتَقَارِبٍ ... وُكِلَتْ وَقِيعَتُهُ إِلَى خَبَّابِ (٣)

وَأَغَرِّ أَزْرَقَ فِي الْقَنَاةِ كَأَنَّهُ ... فِي طُخْيَةِ الظَّلْمَاءِ ضَوْءُ شِهَابِ (٤)

وَكَتِيبَةٍ يَنْفِي الْقِرَانُ قَتِيرَهَا ... وَتَرُدُّ حَدَّ قَوَاحِذِ النُّشَّابِ (٥)

جَأْوَى مُلَمْلَمَةٍ كَأَنَّ رِمَاحَهَا ... فِي كُلِّ مَجْمَعَةٍ ضَرِيمَةُ غَابِ (٦)

يَأْوِي إِلَى ظِلِّ اللِّوَاءِ كَأَنَّهُ ... فِي صَعْدَةِ الْخَطِّيِّ فَيْءُ عُقَابِ (٧)

أَعْيَتْ أَبَا كَرِبٍ وَأَعْيَتْ تُبَّعًا ... وَأَبَتْ بَسَالَتُهَا عَلَى الأَعْرَابِ (٨)

وَمَوَاعِظٌ مِنْ رَبِّنَا نُهْدَى بِهَا ... بِلِسَانِ أَزْهَرَ طَيِّبِ الأَثْوَابِ (٩)

عُرِضَتْ عَلَيْنَا فَاشْتَهَيْنَا ذِكْرَهَا ... مِنْ بَعْدِ مَا عُرِضَتْ عَلَى الأَحْزَابِ

حِكَمًا يَرَاهَا الْمُجْرِمُونَ بِزَعْمِهِمْ ... حَرَجًا وَيَفْهَمُهَا ذَوُو الأَلْبَابِ (١٠)

جَاءَتْ سَخِينَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَا ... فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ (١١)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: حَدَّثَنِي مَنْ أَثِقُ بِهِ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ يَحْيَى بْنِ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: لَـمَّا قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه:

جَاءَتْ سَخِينَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَا ... فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ

---

(١) **الزغف**: الدروع اللينة. **المترصات**: الشديدات. **صياب**: صائبة.

(٢) **صوارم**: سيوف قاطعة. **غلبها**: خشونها وما عليها من الصدأ. **الأروع**: الذي يروع بكماله وجماله. **الماجد**: الشريف.

(٣) **المارن**: الرمح اللين. **وقيعته**: صنعته وتطرقه وتحديده. **خباب**: اسم قين صانع للسيوف.

(٤) يعني **بالأغر الأزرق**: سنانًا. **الطخية**: شدة السواد.

(٥) **القران**: تقارن النبل واجتماعه. **القتير**: مسامير حلق الدرع، ويريد الدروع. **قواحذ النشاب**: النبال التي تصيب الأفخاذ.

(٦) **جيوي** (الأصل فيه المد وقصر للضرورة): يخالط سوادها حمرة. **ململمة**: مجتمعة. **الضريمة**: اللهب المتوقد.

(٧) **الصعدة**: القناة المستوية. **الخطي**: الرماح. **الفيء**: الظل.

(٨) **أبو كرب وتبع**: ملكان من ملوك اليمن. **بسالتها**: شدتها.

(٩) **الأزهر**: الأبيض.

(١٠) **حرجًا**: حرامًا. **الألباب**: العقول.

(١١) **سخينة**: لقب قريش في الجاهلية، وذكروا أن قصيًّا كان إذا ذبح ذبيحة أو نحر نحيرة بمكة أتى بعجزها فصنع منه خزيرة ـ وهو لحم يطبخ ببر، فيطعمه الناس، فسميت قريش بها سخينة، وقيل: إن العرب كانوا إذا أسنتوا أكلوا العلهز، وهو الوبر والدم، وتأكل قريش الخزيرة، فنفست عليهم ذلك، فلقبوهم سخينة. (الروض).

قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ شَكَرَكَ اللهُ يَا كَعْبُ عَلَى قَوْلِكَ هَذَا**».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ فِي يَوْمِ الخَنْدَقِ:

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُمَعْمِعُ بَعْضُهُ ... بَعْضًا كَمَعْمَعَةِ الأَبَاءِ المُحْرَقِ (١)

فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً تُسَنُّ سُيُوفُهَا ... بَيْنَ المَذَادِ وَبَيْنَ جَزْعِ الخَنْدَقِ (٢)

دَرِبُوا بِضَـرْبِ المُعْلِمِينَ وَأَسْلَمُوا ... مُهُجَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِرَبِّ المَشْـرِقِ (٣)

فِي عُصْبَةٍ نَصَـرَ الإِلَهُ نَبِيَّهُ ... بِهِمْ وَكَانَ بِعَبْدِهِ ذَا مَرْفِقِ (٤)

فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تَخُطُّ فُضُولُهَا ... كَالنُّهْيِ هَبَّتْ رِيحُهُ المُتَرَقْرِقِ (٥)

بَيْضَاءَ مُحْكَمَةٍ كَأَنَّ قَتِيرَهَا ... حَدَقُ الجَنَادِبِ ذَاتِ شَكٍّ مُوثَقِ (٦)

جَدْلَاءَ يَحْفِزُهَا نِجَادُ مُهَنَّدٍ ... صَافِي الحَدِيدَةِ صَارِمٍ ذِي رَوْنَقِ (٧)

تِلْكُمْ مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسَنَا ... يَوْمَ الهِيَاجِ وَكُلَّ سَاعَةِ مَصْدَقِ

نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُـرْنَ بِخَطْوِنَا ... قُدُمًا وَنُلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

فَتَرَى الجَمَاجِمَ ضَاحِيًا هَامَاتُهَا ... بَلْهَ الأَكُفَّ كَأَنَّهَا لَمْ تُخْلَقِ (٨)

نَلْقَى العَدُوَّ بِفَخْمَةٍ مَلْمُومَةٍ ... تَنْفِي الجُمُوعَ كَقَصْدِ رَأْسِ المَشْـرِقِ (٩)

وَنُعِدُّ لِلأَعْدَاءِ كُلَّ مُقَلَّصٍ ... وَرْدٍ وَمَحْجُولِ القَوَائِمِ أَبْلَقِ (١٠)

---

(١) **المعمعة**: صوت التهاب النار وصريفها. **الأباء**: القصب، ويقال: الأغصان الملتفة.

(٢) **المأسدة**: موضع الأسود، ويعني بها هنا موضع الحرب. **المذاد**: موضع بالمدينة حيث حفر الخندق، وقيل: هو بين سلع وخندق المدينة. **الجزع**: الجانب.

(٣) **المعلمون**: الذين يعلمون أنفسهم في الحرب بعلامة يعرفون بها. **المهجات**: الأنفس، واحده: مهجة. **لرب المشرق**: يريد لرب المشرق والمغرب، فحذفه للعلم به.

(٤) **العصبة**: الجماعة.

(٥) **السابغة**: الدروع الكاملة. **تخط فضولها**: ينجر على الأرض ما فضل منها. **النهي**: الغدير، وكل موضع يجتمع فيه الماء، وجمعها أنهاء ونهي. **المترقرق**: الذي تصفقه الريح، فيجيء ويذهب.

(٦) **القتير**: مسامير الدروع. **الجنادب**: ذكور الجراد. **الشك**: إحكام السرد.

(٧) **الجدلاء**: الدرع المحكمة النسج. **يحفزها**: يرفعها ويشمرها. **النجاد**: حمائل السيف. **صارم**: قاطع. **الرونق**: اللمعان.

(٨) **الجماجم**: الرؤوس. **ضاحيًا**: بارزًا للشمس. **بله**: اسم فعل بمعنى اترك ودع، ويصح نصب «الأكف» به، أو جره على أنه أنه مصدر مضاف له.

(٩) **الفخمة**: الكتيبة. **الململومة**: المجتمعة: **المشرق**: جبل بين الصريف والعصيم من أرض ضبة (معجم البلدان).

(١٠) **المقلص**: الفرس الخفيف.

تُرْدِي بِفُرْسَانٍ كَأَنَّ كُمَاتَهُمْ ... عِنْدَ الهِيَاجِ أَسُودُ طَلٍّ مُلْثِقِ [(١)]
صُدُقٌ يُعَاطُونَ الكُمَاةَ حُتُوفَهُمْ ... تَحْتَ العَمَايَةِ بِالوَشِيجِ المُزْهِقِ [(٢)]
أَمَرَ الإِلَهُ بِرَبْطِهَا لِعَدُوِّهِ ... فِي الحَرْبِ، إِنَّ اللهَ خَيْرُ مُوَفِّقِ
لِتَكُونَ غَيْظًا وَحُيَّطًا ... لِلدَّارِ إِنْ دَلَفَتْ خُيُولُ النُّزَّقِ [(٣)]
وَيُعِينُنَا اللهُ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ ... مِنْهُ وَصِدْقِ الصَّبْرِ سَاعَةَ نَلْتَقِي
وَنُطِيعُ أَمْرَ نَبِيِّنَا وَنُجِيبُهُ ... وَإِذَا دَعَا لِكَرِيهَةٍ لَمْ نُسْبَقِ
وَمَتَى يُنَادِ إِلَى الشَّدَائِدِ نَأْتِهَا ... وَمَتَى نَرَ الحَوْمَاتِ فِيهَا نُعْنِقِ [(٤)]
مَنْ يَتَّبِعْ قَوْلَ النَّبِيِّ فَإِنَّهُ ... فِينَا مُطَاعُ الأَمْرِ حَقُّ مُصَدَّقِ
فَبِذَاكَ يَنْصُرُنَا وَيُظْهِرُ عِزَّنَا ... وَيُصِيبُنَا مِنْ نَيْلِ ذَاكَ بِمِرْفَقِ
إِنَّ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ مُحَمَّدًا ... كَفَرُوا وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ المُتَّقِي

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَنْشَدَنِي بَيْتَهُ: **تِلْكُمْ مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسَنَا**
وَبَيْتَهُ: **مَنْ يَتَّبِعْ قَوْلَ النَّبِيِّ**، أَبُو زَيْدٍ.
وَأَنْشَدَنِي: **تَنْفِي الجُمُوعَ... كَرَأْسِ قُدْسِ المَشْرِقِ** [(٥)].
قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه فِي يَوْمِ الخَنْدَقِ:

لَقَدْ عَلِمَ الأَحْزَابُ حِينَ تَأَلَّبُوا ... عَلَيْنَا وَرَامُوا دِينَنَا مَا نُوَادِعُ [(٦)]
أَضَامِيمَ مِنْ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ أَصْفَقَتْ ... وَخِنْدِفَ لَمْ يَدْرُوا بِمَا هُوَ وَاقِعُ [(٧)]
يَذُودُونَنَا عَنْ دِينِنَا وَنَذُودُهُمْ ... عَنِ الكُفْرِ وَالرَّحْمَنُ رَاءٍ وَسَامِعُ [(٨)]
إِذَا غَايَظُونَا فِي مَقَامٍ أَعَانَنَا ... عَلَى غَيْظِهِمْ نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَاسِعُ

---

(١) **تردي**: تسرع. **الكماة**: الشجعان. **الطل**: الضعيف من المطر. **الملثق**: ما يكون من الطل من زلق وطين، والأسد أجوع ما تكون وأجرأ في ذلك الحين.

(٢) يريد **بالعماية**: سحابة الغبار وظلمته. **الوشيج**: الرماح. **المزهق**: المذهب النفوس، وقد وردت هذه الكلمة بالراء المهملة.

(٣) **حيط**: جمع حائط، وهو اسم الفاعل من حاط يحوط. **دلفت**: قربت. **النزق**: الغاضبون السيئو الخلق، الواحد: نازق.

(٤) **الحومات**: مواطن القتال، الواحدة: حومة. **نعنق**: نسرع.

(٥) أشار السهيلي إلى أن هذه الرواية أولى وقال: لأن قدسًا جبل معروف من ناحية المشرق.

(٦) **تألبوا**: تجمعوا. **نوادع**: نصالح ونهادن.

(٧) **أضاميم**: جماعات انضم بعضها إلى بعض، ويروى: أصاميم، والأصاميم: الخالصون في أنسابهم. **أصفقت**: اجتمعت وتوافقت على الأمر.

(٨) **يذودوننا**: يدفعوننا ويمنعوننا.

وَذَلِكَ حِفْظُ اللهِ فِينَا وَفَضْلُهُ ... عَلَيْنَا وَمَنْ لَمْ يَحْفَظِ اللهُ ضَائِعُ
هَدَانَا لِدِينِ الحَقِّ وَاخْتَارَهُ لَنَا ... وَللهِ فَوْقَ الصَّانِعِينَ صَنَائِعُ

قَالَ ابْنُ هِشَام: وَهَذِهِ الأَبْيَاتُ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ فِي يَوْمِ الخَنْدَقِ:

أَلَا أَبْلِغْ قُرَيْشًا أَنَّ سَلعًا ... وَمَا بَيْنَ العُرَيْضِ إِلَى الصِّمَادِ (١)
نَوَاضِحُ فِي الحُرُوبِ مُدَرَّبَاتٌ ... وَخُوصٌ ثُقِّبَتْ مِنْ عَهْدِ عَادِ (٢)
رَوَاكِدَ يَزْخَرُ المُرَّارُ فِيهَا ... فَلَيْسَتْ بِالجِمَامِ وَلَا الثِّمَادِ (٣)
كَأَنَّ الغَابَ وَالبَرْدِيَّ فِيهَا ... أَجَشُّ إِذَا تَبَقَّعَ لِلحَصَادِ (٤)
وَلَمْ نَجْعَل تِجَارَتَنَا اشْتِرَاءَ الحَمِيـ ... ـرِ لِأَرْضِ دَوْسٍ أَوْ مُرَادِ (٥)
بِلَادٌ لَمْ تُثَرْ إِلَّا لِكَيْمَا ... نُجَالِدَ إِنْ نَشَطْتُمْ لِلجِلَادِ (٦)
أَثَرنَا سِكَّةَ الأَنْبَاط فِيهَا ... فَلَمْ تَرَ مِثْلَهَا جَلْهَاتِ وَاد (٧)
قَصَرْنَا كُلَّ ذِي حُضْرٍ وَطُولٍ ... عَلَى الغَايَاتِ مُقْتَدِرٍ جَوَادِ (٨)
أَجِيبُونَا إِلَى مَا نَجْتَدِيكُمْ ... مِنْ القَوْلِ المُبَيَّنِ وَالسَّدَادِ (٩)
وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ ... لَكُمْ مِنَّا إِلَى شَطْرِ المَذَادِ (١٠)

---

(١) **سلع**: جبل بسوق المدينة. **العريض**: واد بالمدينة، قال أبو ذر: «ويحتمل أن يكون تصغير عرض، واحد الأعراض، وهي أودية خارج المدينة فيها النخل والشجر». **الصماد** (بالفتح والكسر): جبل، قال أبو ذر: «ويمكن أن يكون جمع صمد، وهو المرتفع من الأرض».

(٢) يعني **بالنواضح**: حدائق نخل تسقى بالنضح. **الخوص**: الآبار الضيقة. **ثقبت**: حفرت.

(٣) **رواكد**: ثابتة دائمة. **يزخر**: يعلو ويرتفع. **والمرار**: نهر، قال أبو ذر: ومن رواه «المداد» يعني الماء الذي يمدها. **الجمام**: جمع جمة، وهي البئر الكثيرة الماء. **الثماد**: الماء القليل.

(٤) **الغاب**: الشجر الملتف. **البردي**: نبات ينبت في البرك تصنع منه الحصر الغلاظ. **أجش**: عالي الصوت. **تبقع**: صارت فيه بقع صفر.

(٥) **دوس ومراد**: قبيلتان من اليمن.

(٦) **لم تثر**: لم تحرث.

(٧) **السكة**: النخل المصطف. **الأنباط**: قوم من العجم. أي حرثناها وغرسناها كما تفعل الأنباط في أمصارها لا تخاف عليها كيد كائد. **جلهات الوادي**: ما استقبلك منه إذا نظرت إليه من الجانب الآخر، الواحد: جلهة، وقال السهيلي: «جلهات الوادي: ما كشفت عنه السيول فأبرزته، وهو من الجله، وهو انحسار الشعر عن مقدم الرأس».

(٨) **الحضر**: الجري. ويريد «**بذي الحضر**» الخيل. ويروى: «**خطر**» أي قدر.

(٩) **نجتديكم**: نطلب.

(١٠) **الشطر**: الناحية والقصد. **المذاد**: موضع بالمدينة حيث حفر الخندق، وقيل: هو بين سلع وخندق المدينة.

نُصَبِّحُكُمْ بِكُلِّ أَخِي حُرُوبٍ ... وَكُلِّ مُطَهَّمٍ سَلِسِ القِيَادِ [(١)]
وَكُلِّ طِمِرَّةٍ خَفِقٍ حَشَاهَا ... تَدِفُّ دَفِيفَ صَفْرَاءِ الجَرَادِ [(٢)]
وَكُلِّ مُقَلَّصِ الآرَابِ نَهْدٍ ... تَمِيمِ الخَلْقِ مِنْ أُخُرٍ وَهَادِي [(٣)]
خُيُولٌ لَا تُضَاعُ إِذَا أُضِيعَتْ ... خُيُولُ النَّاسِ فِي السَّنَةِ الجَمَادِ [(٤)]
يُنَازِعْنَ الأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ ... إِذَا نَادَى إِلَى الفَزَعِ المُنَادِي [(٥)]
إِذَا قَالَتْ لَنَا النُّذُرُ اسْتَعِدُّوا ... تَوَكَّلْنَا عَلَى رَبِّ العِبَادِ
وَقُلْنَا لَنْ يُفَرِّجَ مَا لَقِينَا ... سِوَى ضَرْبِ القَوَانِسِ وَالجِهَادِ [(٦)]
فَلَمْ تَرَ عُصْبَةً فِيمَنْ لَقِينَا ... مِنَ الأَقْوَامِ مِنْ قَارٍ وَبَادِي [(٧)]
أَشَدَّ بَسَالَةً مِنَّا إِذَا مَا ... أَرَدْنَاهُ وَأَلْيَنَ فِي الوِدَادِ [(٨)]
إِذَا مَا نَحْنُ أَشْرَجْنَا عَلَيْهَا ... جِيَادَ الجُدْلِ فِي الأُرَبِ الشِّدَادِ [(٩)]
قَذَفْنَا فِي السَّوَابِغِ كُلَّ صَقْرٍ ... كَرِيمٍ غَيْرِ مُعْتَلِثِ الزِّنَادِ [(١٠)]
أَشَمٍّ كَأَنَّهُ أَسَدٌ عَبُوسٌ ... غَدَاةً بَدَا بِبَطْنِ الجِزْعِ غَادِي [(١١)]
يُغَشِّي هَامَةَ البَطَلِ المُذَكَّى ... صَبِيَّ السَّيْفِ مُسْتَرْخِي النِّجَادِ [(١٢)]

---

(١) **المطهم**: الفرس التام الخلق.

(٢) يقال: **دف الطائر**: إذا حرك جناحيه ليطير. **صفراء الجراد**: الحيفانة منها، وهي التي ألقت سرأها، أي بيضها، وهي أخف أخف طيرانًا.

(٣) **المقلص**: المنشمر الشديد. **الآراب**: قطع اللحم، الواحدة، أربة (بضم الهمزة). **النهد**: الغليظ. **الهادي**: العنق، يريد أنه تام تام الخلق من مقدمه ومؤخره.

(٤) **السنة الجماد**: سنة القحط.

(٥) **مصغيات**: مستمعات.

(٦) **القوانس**: أعالي بيض الحديد.

(٧) **القاري**: من كان من أهل القرى. **البادي**: من كان من أهل البادية.

(٨) **البسالة**: الشدة والشجاعة.

(٩) **أشرجنا**: ربطنا. **الجدل**: جمع جدلاء، وهي الدرع المحكمة النسج. **الأرب**: جمع أربة، وهي العقدة الشديدة. ويروى: **الأزب**. بالزاء، وهو الشديد الضيق.

(١٠) **السوابغ**: الدروع الكاملة. **اعتلث الرجل زندًا**: أخذه من شجر لا يدري أيوري أم لا، يصفه بحسن الاستعداد للحرب.

(١١) **الأشم**: العزيز، وأصله من الشمم، وهو ارتفاع قصبة الأنف. **بدا**: ظهر. وفي رواية: «ندى»، وندى الصوت: ارتفع، يريد إذا ارتفع صوت غاد طالب الغوث. ويروى: «يرى». **الجزع**: جانب الوادي وما انعطف منه.

(١٢) **المذكي**: الذي بلغ الغاية في القوة. **صبي السيف**: وسطه. **النجاد**: حمائل السيف.

لِنُظْهِرَ دِينَكَ اللّهُمَّ إِنَّا بِكَفِّكَ فَاهْدِنَا سُبُلَ الرَّشَادِ

مُسَافِعٌ يَبْكِي عَمْرًا فِي شِعْرِهِ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ مُسَافِعُ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ وَهْبِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ جُمَحَ يَبْكِي عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ، وَيَذْكُرُ قَتْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِيَّاهُ:

عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ كَانَ أَوَّلَ فَارِسٍ ... جَزِعَ الْمَذَادِ وَكَانَ فَارِسَ يَلْيَلِ [(١)]

سَمْحُ الْخَلَائِقِ مَاجِدٌ ذُو مِرَّةٍ ... يَبْغِي الْقِتَالَ بِشِكَّةٍ لَمْ يَنْكُلِ [(٢)]

وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ حِينَ وَلَّوْا عَنْكُمْ ... أَنَّ ابْنَ عَبْدٍ فِيهِمْ لَمْ يَعْجَلِ

حَتَّى تَكَنَّفَهُ الْكُمَاةُ وَكُلُّهُمْ ... يَبْغِي مَقَاتِلَهُ وَلَيْسَ بِمُؤْتَلِي [(٣)]

وَلَقَدْ تَكَنَّفَتْ الأَسِنَّةُ فَارِسًا ... بِجَنُوبِ سَلعِ غَيْرَ نَكْسٍ أَمْيَلِ [(٤)]

تَسَلُ النِّزَالَ عَلِيَّ فَارِسَ غَالِبٍ ... بِجَنُوبِ سَلْعٍ، لَيْتَهُ لَمْ يَنْزِلِ

فَاذْهَبْ عَلِيٌّ فَمَا ظَفِرْتَ بِمِثْلِهِ ... فَخْرًا وَلَا لَاقَيْتَ مِثْلَ الْمُعْضِلِ [(٥)]

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِفَارِسٍ مِنْ غَالِبٍ ... لَاقَى حِمَامَ الْمَوْتِ لَمْ يَتَحَلْحَلِ [(٦)]

أَعْنِي الَّذِي جَزَعَ الْمَذَادَ بِمُهْرِهِ ... طَلَبًا لِثَأْرِ مَعَاشِرٍ لَمْ يُخْذَلِ

مُسَافِعٌ يُؤَنِّبُ الْفُرْسَانَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَمْرٍو:

وَقَالَ مُسَافِعٌ أَيْضًا يُؤَنِّبُ فُرْسَانَ عَمْرٍو الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، فَأَجْلَوْا عَنْهُ وَتَرَكُوهُ:

عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ وَالْجِيَادُ يَقُودُهَا ... خَيْلٌ تُقَادُ لَهُ وَخَيْلٌ تُنْعَلُ [(٧)]

أَجْلَتْ فَوَارِسُهُ وَغَادَرَ رَهْطُهُ ... رُكْنًا عَظِيمًا كَانَ فِيهَا أَوَّلُ [(٨)]

عَجَبًا وَإِنْ أَعْجَبْ فَقَدْ أَبْصَرْتُهُ ... مَهْمَا تَسُومُ عَلِيٌّ عَمْرًا يَنْزِلُ [(٩)]

---

(١) **جزع**: قطع. **والمذاد**: موضع. **يليل**: واد ببدر.

(٢) **المرة**: الشدة والقوة. **الشكة**: السلاح. **لم ينكل**: لم يرجع من هيبة ولا خوف.

(٣) **تكنفه**: أحاط به. **ليس بمؤتلي**: ليس بمقتصر.

(٤) **سلع**: جبل بسوق المدينة، قال الأزهري: موضع قرب المدينة (راجع معجم البلدان). **النكس**: الضعيف من الرجال. **الأميل**: الذي لا رمح معه، وقيل: الذي لا ترس معه.

(٥) **المعضل**: الأمر الشديد.

(٦) **لم يتحلحل**: لم يبرح مكانه.

(٧) **تنعل**: تلبس النعال من الحديد لتقوى.

(٨) **أجلت**: تفرقت وولت.

(٩) **تسوم**: تطلب وتكلف.

لَا تَبْعَدَنَّ فَقَدْ أُصِبْتَ بِقَتْلِهِ وَلَقِيتَ قَبْلَ المَوْتِ أَمْرًا يَثْقُلُ
وَهُبَيْرَةُ المَسْلُوبُ وَلَّى مُدْبِرًا عِنْدَ القِتَالِ مَخَافَةً أَنْ يُقْتَلُوا
وَضِرَارُ كَانَ البَأْسُ مِنْهُ مُحْضَرًا وَلَّى كَمَا وَلَّى اللَّئِيمُ الأَعْزَلُ (١)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ بِالشِّعْرِ يُنْكِرُهَا لَهُ.

وَقَوْلُهُ: «عَمْرًا يَنْزِلُ» عَنْ غَيْرِ ابْنِ إِسْحَاقَ.

هُبَيْرَةُ يَبْكِي عَمْرًا وَيَعْتَذِرُ مِنْ فِرَارِهِ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ هُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ يَعْتَذِرُ مِنْ فِرَارِهِ وَيَبْكِي عَمْرًا، وَيَذْكُرُ قَتْلَ عَلِيٍّ ﷺ إِيَّاهُ:

لَعَمْرِي مَا وَلَّيْتُ ظَهْرِي مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ جُبْنًا وَلَا خِيفَةَ القَتْلِ
وَلَكِنَّنِي قَلَّبْتُ أَمْرِي فَلَمْ أَجِدْ لِسَيْفِي عَنَاءً إِنْ ضَرَبْتُ وَلَا نَبْلِي
وَقَفْتُ فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ لِي مُقَدَّمًا صَدَدْتُ كَضِرْغَامٍ هِزَبْرٍ أَبِي شِبْلِ (٢)
ثَنَى عِطْفَهُ عَنْ قِرْنِهِ حِينَ لَمْ يَجِدْ مَكَرًّا وَقِدْمًا كَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي (٣)
فَلَا تَبْعَدَنْ يَا عَمْرُو حَيًّا وَهَالِكًا وَحُقَّ لِحُسْنِ المَدْحِ مِثْلُكَ مِنْ مِثْلِي
وَلَا تَبْعَدَنْ يَا عَمْرُو حَيًّا وَهَالِكًا فَقَدْ بِنْتَ مَحْمُودَ الثَّنَا مَاجِدَ الأَصْلِ (٤)
فَمَنْ لِطِرَادِ الخَيْلِ تُقْدَعُ بِالقَنَا وَلِلْفَخْرِ يَوْمًا عِنْدَ قَرْقَرَةِ البُزْلِ (٥)
هُنَالِكَ لَوْ كَانَ ابْنُ عَبْدٍ لَزَارَهَا وَفَرَّجَهَا حَقًّا فَتًى غَيْرُ مَا وَغْلِ (٦)
فَعَنْكَ عَلِيٌّ لَا أَرَى مِثْلَ مَوْقِفٍ وَقَفْتَ عَلَى نَجْدِ المُقَدَّمِ كَالفَحْلِ (٧)
فَمَا ظَفِرَتْ كَفَّاكَ فَخْرًا بِمِثْلِهِ أَمِنْتَ بِهِ مَا عِشْتَ مِنْ زَلَّةِ النَّعْلِ

هُبَيْرَةُ يَبْكِي عَمْرًا فِي شِعْرِهِ:

وَقَالَ هُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ يَبْكِي عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ، وَيَذْكُرُ قَتْلَ عَلِيٍّ ﷺ إِيَّاهُ:

---

(١) **الأعزل**: الذي لا سلاح معه.

(٢) **الضرغام**: الأسد. **الهزبر**: الشديد. **والشبل**: ولد الأسد.

(٣) **العطف**: الجانب. **القرن**: الذي يقاومك في شدة أو قتال.

(٤) **الثنا**: الذكر الطيب. ويروى: النثا.

(٥) **تقدع**: تكف. **القرقرة**: من أصوات فحول الإبل. **والبزل**: الإبل القوية، ضربه مثلًا للمفاخرين إذا رفعوا أصواتهم بالفخر.

(٦) **الوغل**: الفاسد من الرجال.

(٧) **فعنك**: اسم فعل بمعنى تباعد. **النجد**: الشجاع.

لَقَدْ عَلِمَتْ عُلْيَا لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ... لَفَارِسُهَا عَمْرٌو إِذَا نَابَ نَائِبُ

لَفَارِسُهَا عَمْرٌو إِذَا مَا يَسُومُهُ ... عَلِيٌّ وَإِنَّ اللَّيْثَ لَا بُدَّ طَالِبُ (١)

عَشِيَّةَ يَدْعُوهُ عَلِيٌّ وَإِنَّهُ ... لَفَارِسُهَا إِذْ خَامَ عَنْهُ الكَتَائِبُ (٢)

فَيَا لَـهْفَ نَفْسِي إِنَّ عَمْرًا تَرَكْتُهُ ... بِيَثْرِبَ لَا زَالَتْ هُنَاكَ المَصَائِبُ

حَسَّانُ ﷺ يَفْتَخِرُ بِقَتْلِ عَمْرٍو:

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ يَفْتَخِرُ بِقَتْلِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ:

بَقِيَّـتُكُمْ عَمْـرٌو أَبَحْنَـاهُ بِالقَنَـا ... بِيَثْـرِبَ نَحْمِـي وَالحُـمَاةُ قَلِيـلُ

وَنَحْـنُ قَتَلْنَـاكُمْ بِكُـلِّ مُهَنَّـدٍ ... وَنَحْنُ وُلَاةُ الحَرْبِ حِينَ نَصُولُ

وَنَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ بِبَدْرٍ فَأَصْبَحَتْ ... مَعَـاشِرُكُمْ فِي الهَـالِكِينَ تَجُـولُ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبَعْضُ أَهْلِ العِلمِ بِالشِّعْرِ يُنْكِرُهَا لِحَسَّانَ ﷺ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ أَيْضًا فِي شَأْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ:

أَمْسَى الفَتَى عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ يَبْتَغِي ... بِجُنُوبِ يَثْرِبَ ثَأْرَهُ لَمْ يُنْظَرِ (٣)

فَلَقَدْ وَجَدْتَ سُيُوفَنَا مَشْهُورَةً ... وَلَقَدْ وَجَدْتَ جِيَادَنَا لَمْ تُقْصَـرِ (٤)

وَلَقَدْ لَقِيتَ غَدَاةَ بَدْرٍ عُصْبَةً ... ضَرَبُوكَ ضَرْبًا غَيْرَ ضَرْبِ الحُسَّـرِ (٥)

أَصْبَحْتَ لَا تُدْعَى لِيَوْمِ عَظِيمَةٍ ... يَا عَمْرُو أَوْ لِجَسِيمِ أَمْرٍ مُنْكَرِ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبَعْضُ أَهْلِ العِلمِ بِالشِّعْرِ يُنْكِرُهَا لِحَسَّانَ ﷺ (٦).

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ أَيْضًا:

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا هِدْمٍ رَسُولًا ... مُغَلْغَلَةً تَخُبُّ بِهَا المَطِيُّ (٧)

---

(١) **يسومه:** يكلفه.

(٢) **خام:** جبن ورجع.

(٣) **لم ينظر:** لم يمهل ولم يؤخر.

(٤) **لم تقصر:** لم تكف.

(٥) **الحسر:** جميع حاسر، وهو الذي لا درع له، ويروي «الخشر» بالخاء والشين المعجمتين، وهم الضعفاء من الناس، كما يروي: «الخسر» بالخاء المعجمة والسين المهملة، وهو جمع خاسر.

(٦) وقد بحثنا عنها في ديون حسان فلم نجدها.

(٧) **المغلغلة:** الرسالة تحمل من بلد إلى بلد. **تخب:** تسرع.

أَكُنْتُ وَلِيُّكُمْ فِي كُلِّ كُرْهٍ　　　وَغَيْرِي فِي الرَّخَاءِ هُوَ الوَلِيُّ
وَمِنْكُمْ شَاهِدٌ وَلَقَدْ رَآنِي　　　رُفِعْتُ لَهُ كَمَا اُحْتُمِلَ الصَّبِيُّ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَتُرْوَى هَذِهِ الأَبْيَاتُ لِرَبِيعَةَ بْنِ أُمَيَّةَ الدَّيلِيِّ، وَيُرْوَى فِيهَا آخِرُهَا:

كَبَبْتَ الخَزْرَجِيَّ عَلَى يَدَيْهِ　　　وَكَانَ شِفَاءُ نَفْسِي الخَزْرَجِيُّ

وَتُرْوَى أَيْضًا لِأَبِي أُسَامَةَ الجُشَمِيِّ.

المبحث الحادي عشر

خرائط غزوة الأحزاب

(١)

أطلس تاريخ الإسلام لمؤنس ٦٩.

(٢)

معركــة الخنــدق

ذو القعدة سنة خمس للهجرة

نيسان عام 627 م

الخنــدق

أطلس تاريخ العرب والإسلام للكاتب ص ١٦.

(٣)

أطلس السيرة لأبي خليل ١٣٧، وأطلس القرآن لأبي خليل ٢٣٦.

(٤)



أطلس الحديث النبوي لأبي خليل ٧٠.

(٥)



أطلس الحديث النبوي لأبي خليل ٢١٢.

(٦)

غزوة الأحزاب شوال سنة ٥ هـ

يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ﴿٩﴾ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴿١٠﴾ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴿١١﴾

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴿٢١﴾ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴿٢٢﴾

الغابة
جبل ثور
جبل أحد
جبل
عينين
جبل
غطفان
القناة
وادي
مكان الخندق
الجيش الاسلامي بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم
جبل
وادي
وادي العقيق
الحماوات
حرة الوبرة
بطحان
مخطط تقريبي لغزوة الأحزاب شوال سنة ٥ هـ
البقيع
حرة واقم
وادي
مهزور
العوالي
مساكن بني قريظة
قباء
جبل عير
ذو الحليفة
جزء من مكان الخندق المندرس
غزوة الأحزاب

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ١٧٥.

(٧)

غزوة الأحزاب (الخندق)

حدائق الأنوار لبحرق ٥٤١.

(٨)

مخطط الخندق غزوة الأحزاب

جبل احد

جيش الأحزاب

دورية متحركة

دورية ثابتة

خندق دفاعي ٢كم

انسحاب جيش الأحزاب

دورية ثابتة

دورية ثابتة

مقر قيادة الجيش الاسلامي

دورية متحركة

جبل عسير

الجيش الاسلامي : ٣٠٠٠ - ٧٥٠ جيش الأحزاب : ١٠,٠٠٠

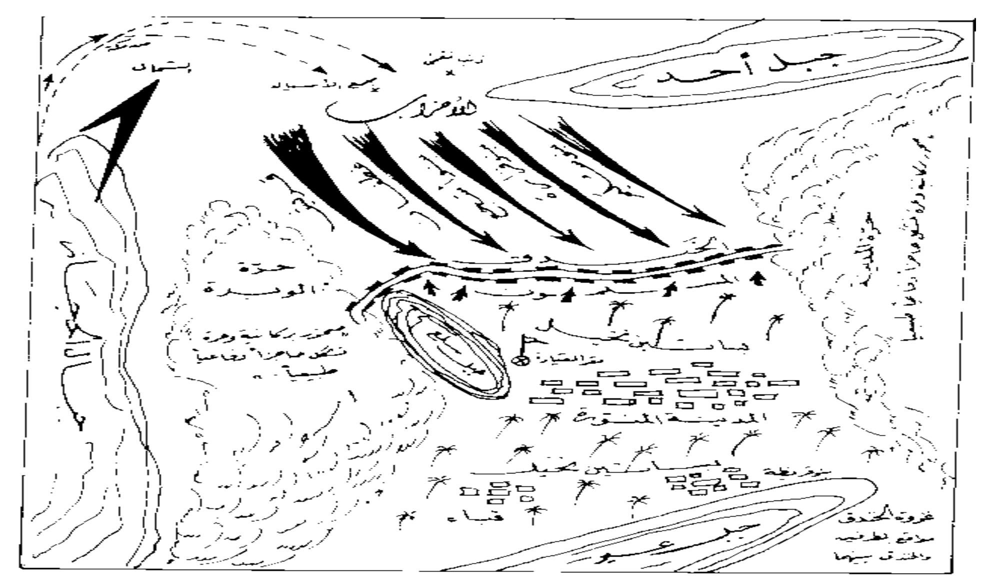
طول الخندق : ٢كم عرض الخندق : ٤م عمق الخندق : ٣م

الإدارة العسكرية في حروب الرسول محمد ﷺ لوتر ٢١٧.

(٩)

غزوة الخندق لأبي خليل ٨٩

(١٠)



غزوة الخندق لأبي خليل ٩٦

(١١)

غزوة الأحزاب

(الخندق)

شوال ٥ هـ - ٦٢٧م

جبل أحد

وادي العقيق

المشركون

الخندق

باتجاه الشمال

جبال الحجاز

حرة واقم

جبل سلع

المسلمون

حرة الوبرة

البقيع

المدينة المنورة

بساتين

قباء

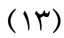
حصون قريظة

الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٧٦.

(١٢)

خريطة غزوة الأحزاب

الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٦٧٧.


(١٣)

سيف الله خالد بن الوليد ﵁ لأكرم ص ٨١.

(١٤)

شمال
جبل أحد
غطفان
قريش
عينين
قريش وحلفاؤها
أراضي بركانية
حرة واقم
هجوم الأحزاب
الخندق
شيخان
تل ضباب
المسلمون
جبل بني عبيد
سلع
المدينة
بنو قريظة

غـــزوة الخنـــدق

مأخوذة من كتاب سيف الله خالد بن الوليد ـ الجنرال أ. أكرم ص ٤٦ ، ٨١

أولو العزم من الرسل لعمر ٢/ ٥٨٠

(١٥)

جيش الأحزاب «المشركون»
أسد
فزارة
غطفان
أشجع
سليم
قريش
حرة واقم
الخندق
جيش المسلمين
جبل سلع
حرة الوبرة
المدينة المنورة
البقيع
بساتين المدينة
إلى بدر
قباء
بنو قريظة
إلى مكة

قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ١٧٧.

(١٦)

قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية لعرموش ٧٥.

(١٧)

كبرى المعارك والفتوحات الإسلامية الكبرى لمرسي ٣٢.

(١٨)

جبال أحد

جبل عينين

قريش
(٤٠٠ رجلا)

غطفان
(٢٠٠٠ رجلا)

بقية الأحزاب
(٧٠٠ رجلا)

الخندق

جبل الشيخين

بنو حارثة

جبل ذباب

بنو عبد الأشهل

جبل بني عبيد

المعسكر الرئيسي للمسلمين

جبل سالع

حرة واقم
(اللابة الشرقية)
صخور بركانية وعرة

مسجد الرسول

بنو النجار

حرة وبرة
(اللابة الغربية)
صخور بركانية وعرة

بنو ساعدة

بنو زريق

بنو واقف

بنو بياضة

بنو الحارث

بنو قينقاع سابقا

بنو قريظة

بنو عوف

بنو النضير
سابقا

(١٩)

أحد
وادي القناة
وادي العقيق
وادي بطحان
الشيخين
سلع
بنو عبد الأشهل
بنو عبيد
بنو ساعدة
المدينة
بنو قينقاع
بنو قريظة
عمرو ابن عوف
قباء
عير

المدينة
جبال
تدفقات لافا
مسجد الرسول
الخندق
هجوم الأحزاب

المدينة في زمن معركة الأحزاب

محمد ﷺ واليهود لبركات ١٢٩.

الفصل الثاني
الدروس والعبر المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة الأحزاب
«المعركة»
المبحث الأول
الدروس العقائدية

١ ـ ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾[الطلاق]، ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[الشرح]:

يقول د/ الوكيل: «وجاء الذين ذهبوا يستطلعون الخبر في بني قريظة، فألحنوا لرسول الله ﷺ لحنًا فَهِمَ منه أن قريظة قد نقضت عهدها، فرفع ﷺ صوته قائلًا: «**اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**».

إن الرسول ﷺ أحس بعد نقض قريظة العهد بأنه لم يعد للمسلمين نصير إلا الله ﷻ، وحينئذ سيتجه المسلمون إليه وحده، فقد انقطعت الآمال إلا منه، وخاب الرجاء إلا فيه، وهو ﷻ أجل وأكرم من أن يدع عباده لأعدائهم، فلابد أنه ينصرهم، وكذلك أدرك الرسول ﷺ بعد نقض قريظة عقدها بأن الأمر قد اشتد شدة ليس بعدها إلا الفرج؛ لأن الأمور إذا وصلت هذا الحد من الضيق فلابد أن يعقبه الفرج القريب؛ لهذا كبَّر ﷺ وبشر المسلمين بالنصر». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٨٢**].

٢ ـ الثقة بنصر الله ﷻ:

يقول أ/ رضوان: «وحينما أقبل السعدان ومن معهما وأخبروا رسول الله ﷺ بغدر اليهود من بني قريظة لم يتزلزل كما تزلزل المسلمون، ولم يضطرب كما يضطرب أعظم القادة عند مثل هذا النبأ، بل نطق بما يدل خير دلالة على أنه رسول الله رب العالمين حقًّا وصدقًا. فصاح عند سماعه الخبر الرهيب: «**اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**».

حقًّا، الله أكبر من كل قوة، ومن كان الله معه، فالنصر يسير في ركابه حتمًا، مهما تضافرت القوى، وتكالب الأعداء.

لقد بشَّر الرسول القائد ﷺ أمته عند حفر الخندق، بأن الله سيفتح على أمته اليمن والشام والمغرب والمشرق، وسوف ينصرهم الله على جيوش كسرى وقيصر كبيري ملوك الأرض، وزعيمي أعظم قوتين في ذلك الزمان، ووعدُ الله ﷻ حق، وبشارة الرسول ﷺ واقعة لا محالة.

وثقة الرسول ﷺ في النصر في هذا الموقف الرهيب، تدل خير دلالة على صدقه، وإيمانه الكامل بنصر الله له ولأمته.

وثباتُه ورباطة جأشه ﷺ في تلك المحنة، تدل على عظمة قيادته، وأنه حقًّا أعظم قواد العالم في جميع العصور، فأي قائد في التاريخ نزلت به مثل تلك الكارثة، ثم صاح في جنوده بأن النصر حليفهم بكل ثقة وإيمان وتأكيد؟!... كلا. لم يعرف العالم مثل هذا القائد مطلقًا». [محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٩٢-٩٣].

ويقول د/ زين السيد: «مِنْ نَهْجِ الإسلام أنه يُعوِّد المسلم على القوة في مواجهة الأحداث والمفاجآت التي تؤثر في عامة الناس تأثيرًا سيئًا قد يؤدي إلى اليأس والقنوط، والقرآن يربي في المؤمنين الثقة بأن الله ﷻ جاعل للشدة فرجًا وللضيق سعة ومخرجًا، لا يستسلم المؤمن للآلام النفسية التي تصيبه وتضايقه، بل يتحول شعوره من اليأس والألم إلى التفاؤل والأمل، فالله تعالى يقول في محكم القرآن: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾[الطلاق].

والإسلام يوطن المؤمنين دائمًا على الاعتزاز بالله والثقة به حتى لا يقع في نفوسهم خوف مما سوى الله تعالى، إن قوى الأرض كلها لا تخيف لأنها قوى مسخَّرة لا تستمد من نفسها ولا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا، والقوة التي ينبغي أن تُخاف هي القوة التي بيدها كل شيء هي المانحة حقًّا، والمانعة حقًّا، فخوفها إذن هو الخوف الواجب وخشيتها هي السبيل، فالخوف لا يكون إلا من الله ومما يخوف به الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾[الرعد].

وأمر الله لا يغلبه من المادة والدنيا أمور». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٥٣-١٥٤].

٣ ـ سمة الجدية لهذا الدين:

يقول د/ أبو فارس: «من عبارة علي ﷺ لعمرو بن عبد ود: **(لَكِنِّي وَاللهِ أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ)** ومبارزته له بعد حواره تعطينا بصورة واضحة بارزة سِمَة من سمات هذا الدين، هذه السمة هي سمة الجدية، نعم إن عليًّا ﷺ علَّمه الإسلامُ أن يقابل الحجة بالحجة والفكرة بالفكرة، وعلَّمه كذلك أن يواجه الذين يغلقون عقولهم عن التفكير ويغمضون عيونهم عن الحق ويَصمون آذانهم عن سماع صوت الحق وتدبره واتباعه، ويتعجرفون بعد ذلك مغترين بقوتهم، لقد علَّمه أن يواجه هؤلاء بالوسيلة التي تؤدبهم، ألا وهي القوة، لقد استخدم أسلوب المنطق والعقل والحكمة فلم يُجْدِ فاستخدم بعد ذلك أسلوب القوة فأجدى وتخلص من هذه العقبة». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٣-١٧٤].

٤ ـ إثبات الكرامة للأولياء:

يقول د/ أبو فارس: «إن ما حدث لحذيفة بن اليمان ﷺ عندما سار للأحزاب في جو بارد ماطر شديد الريح وإذا به لا يشعر بهذا الجو البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمام، وتلازمه هذه الحالة مدة بقائه بين الأحزاب وحتى عاد إلى رسول الله ﷺ، هو معجزة لرسول الله ﷺ، ومحض كرامة من الله ﷻ لحذيفة ﷺ.

ونحن المسلمين نؤمن بالكرامات، ونعتقد بحصولها لأولياء الله الصالحين».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩٤].

٥ ـ تجريد الوحدانية لله:

يقول أ/ رضوان: «كانت الطبيعة بأمر الله خالق القوى والقدر، القاهر الجبار، تحارب مع المسلمين، حيث كان الوقت شتاء، اشتد برده بأمر خالق السموات والأرض، حتى كاد يحوِّل الأجساد إلى قطع ثلجية بيضاء لامعة، واشتدت العواصف بأمر الواحد القهار، حتى كادت تقلع الجبال من قبضة الأرض الحديدية، وأوشكت أن تجعل الأشجار كالريش تعلو به الرياح، ويتلاعب به الهواء، وكست السحب القاتمة السواد، الثقيلة الحركة، المنتفخة البطن كامرأة حامل في أيامها الأخيرة، وجه السماء، وأطفأت أنوار الشمس، وأوحت بقرب ولادتها، سيولًا من الماء المكتسح لكل ما أمامه، ونزلت جحافل من الملائكة لتكون مع المسلمين، ولحماية المسلمين من أعدائهم، والملَك الواحد فيه من القوة ما يستطيع به دمار الكرة الأرضية بنفخة واحدة، أو ضربة منفردة.

وهذه عوامل قاهرة، كاسحة، لم تضعها قريش وحلفاؤها في حسبانها؛ لأن خيامهم الواهية كخيط العنكبوت، لا تستطيع حمايتهم من سهام الشتاء المذيبة للعظام، وعواصفه الرملية المغلقة للعيون، المختلطة بالطعام والشراب، وكذلك لا تستطيع تلك الخيام وقايتهم من سياط الأمطار الهاطلة بقوة، وعنفوان وغزارة، فكانوا ينتفضون من جنود الشتاء المتسللة إلى أجسادهم في خفة كطيور ضعيفة فوق الأشجار، اخترقت قطرات المياه المتدفقة من بحار السماء ريشها الضعيف، ووصلت إلى لحمها الأحمر الطري.

أما جنود الإسلام العظام، فكانوا بالقرب من ديارهم ومساكنهم في وضع إستراتيجي أفضل كثيرًا من أعدائهم.

لا يبالون بطول أيام المعركة، تدفئهم رحمة الله وعنايته، ويرسل إيمانهم أشعة الدفء الممتعة إلى أجسادهم، وتحنو الطبيعة الباسمة بأمر الله عليهم حنو النسوة المرضعات على الأطفال الصغار، الذين يستكنون في أحضانهم، ويتناولون في وداعة أثداءهن المترعة باللبن الأبيض، الدافئ المنساب في شرايينهم ببذور الحياة، والنمو.

وانساب رحيق اليأس المر إلى قلوب الأعداء، فقد كانوا يتوقعون القضاء على المسلمين في يوم واحد مثل يوم أُحُد، فإذا بهم يرون ذلك حلمًا بعيدًا يتلاشى بين ضباب اليأس وسحاب العجز والإحباط».

[محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨٩-٩٠].

ويقول د/ الغضبان: «إن الريح من جنود الله تنطلق إعصارًا عاتيًا تدمر كل شيء بأمر ربها، وتتحرق شوقًا لنصرة الله ورسوله، وتعرض على أختها الدبور أن تمضي معها، فتتعلل، ويغضب الله عليها فيجعلها عقيمًا؛ لأنها لم تسارع إلى نصرة الله ورسوله، وتنزل ملائكة السماء بدور مهم هو بث الرعب في قلوب العدو، فقد استغاث عبد الله ورسوله محمد ﷺ بجبار السموات والأرض على جبابرة الأرض.

فالله تعالى شأنه هو الذي أنهى المعركة بجنوده وريحه، وكانت المعركة كما لخصها القرآن الكريم بآية واحدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾[الأحزاب].

ولخص ختامها بكلمة واحدة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾[الأحزاب].

وعاد رسول الله ﷺ يعلن هذا التجرد لله من الأحزاب بقوله: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**». [**البخاري في المغازي (٤١١٤)**].

ثم جعلها كلمة لازمة له طيلة حياته ذاكرًا نعمة الله عليه، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَفَلَ مِنْ غَزْوٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ يُكَبِّرُ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ مِنَ الأَرْضِ ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، سَاجِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**».

[**البخاري في العمرة (١٧٩٧)**].

وبهذا التجريد الخالص لله ـ الواحد الأحد ـ الذي نزَّل النصر من عنده بملائكته وريحه، آب المسلمون في الأرض بعدها وإلى يوم القيامة بالقائد الأعظم والقيادة الفذة في الوجود يصفها الله تعالى بقوله: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾[الأحزاب]، فهو قدوة المؤمنين في الأرض بكل طبقاتهم إلى يوم الدين». [**التربية القيادية للغضبان ٤/ ٣٧-٣٩**].

٦ ـ صدق الالتجاء إلى الله تعالى وإخلاص العبودية له:

يقول د/ البوطي: «كيف وبأي وسيلة انتصر المسلمون وانهزم المشركون في هذه الغزوة؟!

لقد رأينا الوسيلة التي التجأ إليها الرسول ﷺ وأصحابه في غزوة بدر، هي نفس الوسيلة التي التجأ إليها في الخندق، إنها وسيلة التضرع إلى الله تعالى والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، بل لقد كان هو العمل المتكرر الدائم الذي ظل الرسول ﷺ يفزع إليه كلما لقي عدوًّا، أو سار إلى جهاد، وهي الوسيلة التي تعلو في تأثيرها على كل الأسباب والتهييآت المادية الأخرى، وهى الوسيلة التي لا تصلح حالُ المسلمين إلا إذا قامت على أساسها بعناية كاملة.

أما كيف انهزم المشركون على كثرتهم، بعد ثبات المؤمنين وصبرهم وصدق التجائهم إلى الله تعالى، فقد وصف الله الكيفية في كتابه المبين إذ قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

إن هذا المعنى الذي يتكرر في غزوات الرسول ﷺ، ليس يعني إغراء المسلمين بالمغامرة والجهاد دون استعداد وتأهب، وإنما هو لإيضاح أن على المسلم أن يعلم أن في مقدمة أسباب النصر المختلفة صدق الالتجاء إلى الله تعالى وإخلاص العبودية له، فلن تُجْدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوفر هذه الوسيلة بعينها، وإذا تحققت في أعمال المسلمين هذه الوسيلة فحدِّث عن معجزات النصر ولا حرج.

وإلا فمن أين جاءت هذه الريح العاصفة تعصف بمعسكر المشركين وحدهم، دون أن يشعر بها المسلمون إلى جانبهم؟!..هي هناك تقلب قدورهم وتطير خيامهم وتقلع أوتادها، وتزلزل أفئدتهم بالرعب، وهي هنا ريح باردة رخاء، تنعش ولا تؤذي أحدًا!...». [فقه السيرة للبوطي ٢٣٤-٢٣٥].

٧ـ الريح التي سلطها الله ﷻ على الأحزاب:

يقول د/ المدخلي: «في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم أن الريح التي نُصر بها رسول الله ﷺ هي (الصبا).

والصبا كما قال الحافظ: «هي بفتح المهملة وتخفيف الموحدة الريح الشرقية، وضدها الدبور وهي الريح الغربية؛ ذلك لأنه حصل خلاف حول الريح التي نصرت رسول الله ﷺ، فمع كون الأحاديث صرحت بأنها هي الصبا جاءت بعض الأحاديث بأن الحوار حصل بين الشمال والجنوب، وحصل اختلاف حول التي أبت من نصر رسول الله ﷺ فقيل: إن التي أبت هي الشمال وقيل إنها الجنوب».

لكن الحافظ بين أن هذا الخلاف ليس له معنى وأن الصبا والدبور متعاكسان يقابلان الشمال والجنوب وهذا كلامه: الصبا: يقال لها القبول بفتح القاف لأنها تقابل باب الكعبة إذ مهبها من مشرق الشمس، وضدها الدبور وهي التي أهلكت بها قوم عاد».

قال الحافظ ومن لطيف المناسبة: «كون القبول نصرت أهل القبول وكون الدبور أهلكت أهل الأدبار، وأن الدبور أشد من الصبا.

قال: «ولما علم الله رأفة نبيه ﷺ بقومه رجاء أن يسلموا سلط عليهم الصبا؛ فكانت سبب رحيلهم عن المسلمين لما أصابهم بسببها من الشدة، ومع ذلك فلم تهلك منهم أحدًا ولم تستأصلهم».

ومن الرياح أيضًا: «الجنوب والشمال فهذه الأربع تهب من الجهات الأربع، وأي ريح هبت من بين جهتين منها يقال لها النكباء بفتح النون وسكون الكاف بعدها موحدة ومد». [فتح الباري ٢/ ٥٢١].

وقال الحافظ في موضع آخر: «وقيل: إن الصبا هي التي حملت قميص يوسف عليه السلام إلى يعقوب عليه السلام قبل أن يصل إليه وإنها هي التي تؤلف السحاب وتجمعه». [فتح الباري ٦/ ٣٠١].

وقال الهمداني: «رياح المشرق القبول وهي الصبا، ويقابلها من المغرب الدبور، والجنوب تهب من اليمن، ويقابلها الشمال، وما هب بين الجنوب والقبول يسمى النكباء، وما بين الجنوب والدبور الداجن، وما بين الشمال والدبور وهي مقابلة النكباء: «أزيب... وساق الكلام إلى أن قال: اثنتا عشرة ريحًا لاثني عشر برجًا». [صفة جزيرة العرب ٣٠٠]، وتبعه في هذا المسعودي». [التنبيه والأشراف ص ١٦].

وهكذا يتبين أن لله تعالى جنودًا أقوياء: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر]، فقد سلط الله تعالى هذا النوع من جنده فزلزلت الأعداء، وأزعجهم هذا الوضع وخاصة بعد أن حصل ما حصل من التخذيل بينهم وبين حلفائهم اليهود، وظن بعضهم ببعض سوءًا، ووصل الخلاف والتنافر بين الفريقين إلى درجة أصبح الحلف العسكري المعقود بينهما في حكم المنتهي، وصار كل فريق يحمل الآخر مسؤولية انفصام عرى هذا الحلف.

عندئذ سلط الله عليهم القوة الإلهية، وقد فكرت عندئذ القيادة المشتركة للأحزاب في إنهاء الحصار المضروب على المدينة، والرجوع بجيوشها كلٌّ إلى بلاده، وترك اليهود وشأنهم ليلقوا مصيرهم الرهيب، وفي النهاية وعندما أذن الله وأراد نصر أوليائه هبت على المنطقة التي يعسكر فيها الأحزاب رياح قوية كانت لقوتها تقتلع الخيام وتهد الأبنية وتكفأ القدور، ولا تترك نارًا تشتعل».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤١٢-٤١٥].

٨ ـ بيان العذاب الدنيوي الذي لحق بجيوش الأحزاب:

يقول د/ الفنيسان: «بما أرسل الله عليهم من الريح العاصفة الشديدة التي نسفت عليهم التراب ورمتهم بالحجارة، فأطفأت نيرانهم، وكفأت قدورهم، وقطعت أطناب خيامهم، وما سمعوا في جنبات المعسكر من التكبير وقعقعة السلاح، علاوة على ما بثه الله من الرعب في قلوبهم».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٩].

٩ ـ الأخذ بالأسباب من تمام العقيدة:

يقول د/ الصلابي: «ودعاء رسول الله ﷺ ربه، واعتماده عليه وحده، لا يتناقض أبدًا مع التماس الأسباب البشرية للنصر، فقد تعامل ﷺ في هذه الغزوة مع سنة الأخذ بالأسباب، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصار، وغير ذلك من الأمور التي ذكرناها. [ينظر: فقه السيرة النبوية للغضبان ص٥٠٣].

إن رسول الله ﷺ يعلمنا سنة الأخذ بالأسباب، وضرورة الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له؛ لأنه لا تجدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوافر وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء

والاستغاثة، فقد كان الدعاء والتضرع إلى الله من الأعمال المتكررة الدائمة التي فزع إليها رسول الله ﷺ في حياته كلها». [ينظر: فقه السيرة للبوطي ص٢٢٢]. [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٧٤].

ويقول د/ المجدوب: «تتابعت الأيام والحصار مستمر، الكفار من الأمام واليهود من الخلف، والأحوال تزداد سوءًا، وأخذ الرسول العظيم ﷺ يفكر ويدبر ويدعو الله أن يُفرج الكرب، ويُذهب الخوف والفزع من نفوس المسلمين، وفي نفس الوقت يحاول أن يأخذ بالأسباب ليُعَلِّم المسلمين أن النصر والنجاح والفلاح لا تكون إلا بالعمل والبذل والتضحية وإعمال الفكر، وأن الإسلام ليس تصريحًا أبديًّا للمسلمين باحتكار النصر والرفعة والثروة والجاه دون جهد أو عناء». [المستوطنات اليهودية للمجدوب٩٥].

ويقول الشيخ أبو خوات: «كدرس عام نستطيع الانتفاع به من الغزوات كلها: «علينا أن نعمل جهدنا في سبيل تحقيق أغراضنا الحقة، ثم نطلب النصر والتأييد من الله»، هذا الدرس قدر مشترك بين الغزوات كلها بل بين الأعمال التي يناط بنا جماعيًّا أو فرديًّا تحقيقها.

فالإنسان لم يعط قابلية التعلم والقدرة على التفكير عبثًا، وإنما ليستعمل كل القدرات الممنوحة له فيما تصلح له، فالمسلمون هنا علموا بأن حييًّا وزملاءه قد ضربوا في كل أرض العرب يجمعون لرسول الله ﷺ حتى اجتمع على حربه عدد لم يحدث مثيله في معركة من قبل، فاستعملوا العلم والتجربة فحفروا الخندق بينهم وبين الأعداء المشركين، ولما علموا بنقض اليهود عهدهم، ولما انفض المنافقون، ولم يبق منهم إلا المخلصون لم يهنوا ولم يستسلموا، وإنما وقفوا يدافعون عن وطنهم وعن مبادئهم وعن شرفهم وكرامتهم، وكانوا متفرغين للمعركة لم يشغلهم عنها شاغل، حتى إن الصلاة قد فاتتهم في بعض الأيام الخمسة عشر، وصلاهم النبي ﷺ قضاء بعد.

وإلى هنا أدوا واجبهم الدفاعي كأحسن ما يؤدى، ولقد أمدهم الله بسببين للنصر: بشري لم يدبروه، وطبيعي من عند الله لم يصنعوه له...

فأما الأول: فقد هدى الله نعيم بن مسعود رضي الله عنه للإيمان، وتمكن من مقابلة النبي ﷺ فعرض عليه إسلامه الذي لم يعلم به أحد من قومه، وطلب أن يكلفه أي عمل يسهم به في النصر، فجاءه الأمر: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**»، وصدع نعيم رضي الله عنه بالأمر وتصرف من ذات نفسه حتى أوقع بين اليهود والمشركين، وشكك كلًّا منهما في وفاء الآخر بما تعاهدا عليه، وتمكن من جعل اليهود ينفضون أيديهم من العهد بعد أن طلبوا من المشركين رهائن فأبى المشركون وصدَّقوا ما قاله لهم نعيم رضي الله عنه.

وبذلك تفرق أمرهم بعد أن كان مجتمعًا، وصارت كل قبيلة تفكر لنفسها وتتساءل: ما مقامنا هنا بعد غدر يهود ورجوعهم عن العهد، ثم ترحل.

والسبب الثاني: الإلهي، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩] اشتدت الريح حتى هدمت بناءهم وكفأت قدورهم وشعر كل منهم أن مكانه ليس بدار مقام.

يقول حذيفة الذي دخل متخفيًا في صفوفهم: «فَدَخَلتُ فِي القَوْمِ وَالرِّيحُ وَجُنُودُ الله تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ: لَا تَقِرُّ لَـهُمْ قِدْرٌ وَلَا نَارٌ وَلَا بِنَاءٌ».

وهكذا أيها المسلم عليك ألا تترك ثغرة ينفذ منها عدوك مع شدة الحذر وحسن التدبير بما وهبك الله من علم وعقل، ثم توكل على الله يجعل لك مع العسر يسرًا ومن الضيق فرجًا... رحل الجيش كله، ودخل حيي بن أخطب في حصن سيد قريظة كعب بن أسد، وبقي الأمر بين المسلمين من جانب، وبين اليهود من جانب آخر». **[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٩٠-٩٢، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٥٨-٨٨].**

١٠ ـ العُصبة المؤمنة حول القائد الأعظم ﷺ:

يقول د/ الغضبان: «القائد الأعظم بلا عصبة مؤمنة عاجز عن أن يفعل شيئًا، ولا أدل على هذه الفكرة من قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، فموسى عليه السلام أحد خمسة هم أعظم أهل الأرض، وهم أولو العزم من الرسل، وها هو يبلغ قومه أمر الله تعالى لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة].

فهم قد اختارهم الله تعالى كما اختار هذه العصبة المسلمة، وجعل فيهم من المميزات والخصائص ما يؤهلهم لهذه المسؤولية، فجعل فيهم الأنبياء، وجعلهم ملوكًا، فهم قادة إذن وشخصيات قيادية، وصدر لهم الأمر من قائدهم الأعلى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وحذرهم من مغبة التراجع أو التباطؤ؛ إذ تكون عاقبته الخسارة ﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ وهو أعظم قادة الأرض وسادتها بعد المصطفى ﷺ، غير أن العصبة المؤمنة حوله تخاذلت وجبنت، فلم يعفها هذا الموقف من العزيمة أولًا، ثم العقوبة الربانية بعد ذلك، وحيل بينها وبين النصر أربعين عامًا، وشردت في التيه، وعلى رأسها كليم الله موسى عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

لقد تخلت القاعدة الصلبة كلها، وخذلت قائدها الأعظم، فلم يعفها شرفها وماضيها، وعبقريتها من العقوبة بطلب قائدها عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة].

هذه هي القاعدة الصلبة التي كانت حول موسى عليه السلام، فكيف كانت القاعدة الصلبة والعصبة المؤمنة حول رسول الله ﷺ وقد صدر لها الأمر بالمواجهة؟!

لقد صدرت الأوامر النبوية بحفر الخندق وتوزيعه بين المهاجرين والأنصار، على قوم لم يسبق لهم أن قاموا بمثل هذه المهمة، فهم يكلفون بها لأول مرة حتى أن آلات الحفر لا يملكونها، والجوع قد خيم عليهم فلا طعام ولا زاد، والبرد القارس ينهش منهم ولا مأوى لهم منه إلا بيوتهم. فكيف تم التنفيذ؟

(أ) لم يتعللوا بعدم وجود آلات الحفر، ليتخلصوا من هذه المهمة الشاقة، ويطالبوا قيادتهم بعقد مصالحة مع العدو قبل أن يستبيح بيضتهم، فتغلبوا على هذه المهمة (واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة من مساحٍ وكرازين ومكاتل يحفرون به الخندق، وهم يومئذ سلم للنبي ﷺ، أي بنو قريظة).

(ب) ولم يقوموا بعصيان مدني ليسقطوا به الحكومة نتيجة الأزمة الاقتصادية الخانقة، وإجبارهم على العمل وهم هلكى من الجوع، كما فعل قوم موسى عليه السلام يوم أعلنوا عصيانهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ فقد خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، وفي الرواية الثانية: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا　　　عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

إنها ليست مظاهرة لإسقاط الحكومة، بل مبايعة على الموت والفداء والجهاد.

قال: يقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللَّهُمَّ إِنَّه لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الآخِرَهْ　　　فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ

وما أسعدهم في دعوة نبيهم لهم.

أما طعامهم قال أنس رضي الله عنه: يُؤْتَوْنَ بِمِلءِ كَفِّي مِنَ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ القَوْمِ، وَالقَوْمُ جِيَاعٌ، وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الحَلقِ، وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ.

ولعل هذا الطعام إنما تقدمه السجون في أيامنا للمجرمين، بينما نقدم المآدم الضخمة والولائم الضخمة لصنعاء الحكومة والعاملين فيها.

وعلى المؤمنين الصادقين أن يحفروا الخندق وبالسرعة المطلوبة، وبالمدة المقررة بهذا الطعام البشع في الحلق، ذي الريح المنتنة، ومع ذلك كانوا أشد ما يكونون التزامًا بأمر حبيبهم المصطفى ﷺ.

(ج) ولم يثيروا حربًا شعواء على تشغيلهم الأشغال الشاقة، دون خبرة مسبقة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ

فقالوا مجيبين له:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

إنه المجتمع الذي يقوم على الحب، والذي لم تشهد البشرية له مثيلًا، ويقوم على الإيمان، ومن الإيمان يستمد الحاكم فيه سلطته.

وأمام هذا الصبر على التعب، والصبر على الجوع، والصبر على البرد، كانت الاستضافة الربانية الأولى والثانية التي تحدثنا عنها فيما سبق، ورفعت وتيرة الإيمان إلى القمة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ (١٢٤)﴾ [التوبة].

وأدى المؤمنون مهمتهم بنجاح فائق وحُفر الخندق خلال المدة المقررة، ونفذت الخطة الحربية خلال ستة أيام، ومن اللحظات الأولى لوصول الخبر إلى المدينة، كان بدء العمل بها، فلم تضع لحظة واحدة.

واستمر الحصار خمسة عشر يومًا وجاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وكانت المحنة الرهيبة أن نقض بنو قريظة العهد، وفُتحت جبهة داخلية، فأصبح المسلمون وذراريهم ونساؤهم تحت رحمة اليهود، فكيف كان موقف العصبة المؤمنة؟!

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا (٢٢) ﴾ [الأحزاب].

هذا هو الوصف الرباني لهم، وهذا هو الثناء الإلهي عليهم.

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ إلى آخر الآية قال: إن الله تعالى قال لهم في سورة البقرة: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ (٢١٤)﴾ [البقرة]. [الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٥٨٥].

فقد وصلوا إلى ذروة المحنة، وجاءهم مثل الذين خلوا من قبلهم: ﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا (١١)﴾ [الأحزاب]، وقال النبي ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ (٢١٤)﴾.

فقد استبشر المؤمنون بأن وصولهم إلى ذروة المحنة والزلزلة يعني اقتراب نصر الله، وهو وعد الله ورسوله، ويفسر القول الثاني في التفسير القول الأول، فوعد الله هو في آية البقرة، ووعد رسوله هو في قلب الخندق وأثناء الحفر.

فقد روى كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال: خطب رسول الله ﷺ عام ذكرت الأحزاب فقال: «**أخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها ـ يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى ـ فأبشروا بالنصر**»، فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعد صادق، إذ وُعدنا بالنصر بعد الحصر، فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ذكره الماوردي، ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ قال الفراء: وما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيمانًا وتسليمًا،... والمعنى: ما زادتهم الرؤية إلا إيمانًا بالرب وتسليمًا للقضاء، قاله الحسن... ولما اشتد الأمر على المسلمين وطال المقام في الخندق قام ﷺ على التل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي، وتوقع ما وعده الله من النصر... ورفع رسول الله ﷺ يده يقول: «**يَا صَرِيخَ المَكْرُوبِينَ، وَيَا مُجِيبَ المُضْطَرِّينَ، اكْشِفْ هَمِّي وَغَمِّي وَكَرْبِي، فَقَدْ تَرَى حَالِي وَحَالَ أَصْحَابِي**»، فنزل جبريل عليه السلام وقال: «**إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك**»، فخر رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه، وأرخى عينيه وهو يقول: «**شكرًا شكرًا كما رحمتني ورحمت أصحابي**»، وأخبره جبريل عليه السلام أن الله تعالى مرسل عليهم ريحًا فبشر أصحابه بذلك.

[الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٧/ ١٥٧ الآية ٢٢ من سورة الأحزاب].

وقد مر ـ في عرض الغزوة ـ الكثير مما مر بالمسلمين، فلقد مستهم البأساء والضراء وصبروا حين البأس صبر الأبطال العظام.

لقد حفروا بسواعدهم وعرق جبينهم الخندق، وحموه بسيوفهم ورماحهم، وذادوا عنه وعن المدينة بدمائهم وأموالهم حتى رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا.

وصبروا في البأساء والضراء وحين البأس، وجاءهم نصر الله، واستحقوا ثناء الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

ووعى المؤمنون درس أُحُد، فلم يستطع معسكر النفاق وحزبه أن ينزل رجلًا واحدًا من الصف المؤمن إلى جواره، بينما استطاع معسكر الإيمان، أن ينتزع الكثير من معسكر النفاق ويضمهم تائبين، مخلصين، معتصمين بالله ويصبحوا أعضاء في الصف المؤمن، وتم حصار حزب النفاق حتى ليكاد يختنق من المؤمنين، وإنما انتشى وانتفش، وعربد يوم رأى أحبابه من اليهود، والمشركين قد جاؤوا لمدده.

لقد نجح الصف المؤمن في توحيد كلمته وخلاصه من حب الدنيا وإرادتها التي أدين بها في أُحُد، ونجح في معركة العقيدة التي خاضها، فتبرأ من حوله وقوته، وما زادته المحنة إلا إيمانًا وتسليمًا، وقد خلص من حظ نفسه كلها، وهو يرى قائده يضرع قبل النصر بقوله: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اهْزِمْ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلزِلهُمْ**».

وبعد إجابة الدعاء والاحتفال بالنصر يقول: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، سَاجِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**». [البخاري في العمرة (١٧٩٧)].

وجعلها ملازمة له في حياته كلها، كلما قفل من الغزو أو الحج أو العمرة، لتبقى دائمًا حية يقظة في قلوب المؤمنين». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٤٠-٤٥، ٨٧].

ويقول د/ زين السيد: «ما أجمل هؤلاء الأبطال الذين تربوا على يدي أستاذ الإنسانية نبيه الأكبر ﷺ.

والذي كان لهم شرف التخرج في مدرسة المعلم الأول فيها، لقد علموا أن العزة في الجهاد فجاهدوا، وأن الذل في الركون إلى الدنيا فلم يمكنوها أن تغزو قلوبهم ولبوا نداء الحق عندما دعاهم قائلًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران].

فكانوا جديرين بهذه الأوسمة الربانية الرفيعة حقيقة بتلك الدرجات العالية التي جمعها القرآن الكريم في قوله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة].

ولعل المحن هي البوتقة التي تنصهر فيها النفوس لينفي خبيثها ويصنع طيبها: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [الرعد: ١٧] فما التقى الحق في ميدان من الميادين إلا زهق الباطل وولى الأدبار؛ لأن الباطل لم يستيقظ إلا في غفلة أهل الحق: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ﴾ [الأنبياء: ١٨] لقد أنزل الله السكينة وثبَّت الأقدام وربط على القلوب فانهزم أعداء الله وانتصرت جيوش الحق وكان للانتصار الباهر الذي حققه البطل المسلم في غزوة الخندق وغيرها آثار كبيرة، وأهداف عليا؛ لأن يثرب كانت أول المدن الإسلامية تكوينًا وامتدادًا وأكبر من هذا كله أن النصر في هذه الغزوة جاء عقيب ليل شديد الظلمة، قارس البرودة عندما أوشك اليأس أن ينسج خيوطه على النفوس، حينما جاء الأحزاب من كل جانب وحاصروا المدينة واشتد الخوف بالمسلمين حتى بلغت القلوب الحناجر كما صور لنا ذلك القرآن الكريم: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب] جاء النصر ليبدد ظلمة هذا الليل البهيم ويقيم في نفوس المؤمنين الأمل بمستقبل إسلامي مشرق ويبنى في القلوب صروح الفوز والنصر باذخة عالية لا يعرف اليأس إليها سبيلًا». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٤٣-١٤٤].

١١ ـ خطورة النفاق على الصف المسلم:

يقول الشيخ المسند: «للمنافقين دور كبير في الحرب كما لهم دور في السلم وهدفهم دائمًا التخريب والانضواء في صفوف المسلمين مُبطنين ما لا يُظهرون، إن أصاب المسلمين خير قالوا نحن معكم، وإن أصابهم بلاء قالوا لم نكن معكم، وفرحوا به، وهم أعين سوء تنقل أخبار المسلمين السيئة إلى أعدائهم.

وقد دفعهم النفاق والخوف والخور إلى سلوك هذا المسلك فهم يقولون: نريد أن نجعل لنا يدًا مع هؤلاء وهؤلاء فصاروا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بل أدركوا غضب الله ومقته ولم يدركوا رضاء أحد من الفريقين.

والنفاق مرض خبيث يكمن في النفوس ولا يظهر إلا عند الحاجة؛ ولذلك لم ينته من المجتمع الإسلامي ولم يتمكن المسلمون من القضاء عليه.

وفي هذه المعركة اتفق منافقو المدينة مع قريش أن يكونوا معهم وأن ينقضوا على المسلمين من الخلف عندما تنشب المعارك واستعدوا لذلك وساروا على التخطيط الذي وضعه المشركون وهو هجوم المشركين من المقدمة وانبعاث المنافقين من الوسط ومدد اليهود من الخلف، ولكن باءت كل هذه الأفكار بالفشل، وكُبت أعداء الله ولم يحققوا ما اتفقوا عليه ما عدا التخذيل وإثارة الشكوك والظنون، وقد أثبت الله تعالى في ذكر أخبار هذه المعركة صفات يتحلى بها المنافقون نلخصها هنا ليستفيد منها المسلمون ويحذروا مَنْ يتصف بها فمنها: تكذيب الله ورسوله وإنكار ما وعد به: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[الأحزاب].

ومنها: الإرجاف بمن حولهم ومحاولة التأثير على المسلمين: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾[الأحزاب: ١٣].

ومنها: الفرار والهرب من المعركة والبعد عن مواقع الخطر وانتحال الأعذار: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾[الأحزاب].

ومنها: عدم ثبات الإيمان في قلوبهم واستعدادهم للتحول والنفير والنكوص عن الأيمان وعما عاهدوا عليه: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾[الأحزاب].

ومنها: نكث العهد وإخلاف الاتفاق: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾[الأحزاب].

ومنها: أنهم أصحاب وجهين يصبحون بوجه ويمسون بآخر، ويتلونون كما تتلون الحرباء، ويلينون إلى أشد أنواع اللين ويقسون في الظاهر إلى أشد القسوة، إذا لمحوا طريقًا يدركون به عَرَضًا من الدنيا فهم

أبخل الناس وأشدهم حبًّا للمال لأنه هو هدفهم: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾[الأحزاب: ١٩].

ومنها: عدم الانتفاع بهم ولو كانوا كثرة، فهم مع المسلمين بأبدانهم لكن قلوبهم ليست معهم حتى إنهم يسألون عن أخبار المؤمنين وهم بين أظهرهم ولا يدرون ما يجري إذا لم يكن لهم مصلحة مالية: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾[الأحزاب]».

[متى ينتصر المسلمون؟ للمسند ٧٣-٧٦].

١٢ ـ حزب النفاق والتربية القرآنية:

يقول د/ الغضبان: «سنتان فقط من الجهد الدؤوب في التربية، نلاحظ من خلالهما كيف خفت حزب النفاق، وانكمش على نفسه بعد أن انتشى في أُحُد، وعاد بثلث الجيش جهارًا نهارًا، وانتفش بسلامته، وسلامة أعضائه حيث أصاب الضر والبلاء المسلمين. فما هو حجم هذا الحزب اليوم؟

لو تتبعنا كتب السيرة والتراجم لنبحث عن دور حزب النفاق، في هذه المعركة لأعيانا البحث حتى نجد ثلاث روايات، ولولا أن القرآن أثبت هذا الأمر، لشككنا في وجود الحزب كله، لضعف الروايات من الناحية الحديثية.

لو طبقنا المعايير الحديثية، في الروايات السابقة جميعًا، لوجدنا أنها تفتقر إلى السند الصحيح، والذي يثبتها ولو وضعنا في تبني هذا الخط، لكان علينا ألا نذكر هذا الموضوع إطلاقًا، لعدم ثبوته في نصوص السيرة، ولكن القرآن الكريم لم يثبته فقط، وإنما تحدث عنه في ثماني آيات طوال، استغرقت نصف الحديث عن غزوة الأحزاب، وبني قريظة مجتمعين، ومن هنا نرى خطورة الإصرار على ألا نقبل في السيرة، إلا النصوص الصحيحة القطعية، كما نفعل في الحديث الذي نستنبط منه الأحكام الشرعية؛ ولهذا رأينا أن علماء الحديث الكبار، الذين كتبوا في السيرة، لم يطبقوا منهجهم المعتمد في الحديث فيها، وإنما نقلوا كثيرًا من الروايات لمن لا يروون لهم إطلاقًا في الحديث، وهذا ما ذكره الدكتور العمري ـ حفظه الله ـ الذي تبنى هذا الخط فقال: وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم، في السخرية، والإرجاف والتخذيل، ولكن القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير[السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري ٢/ ٤٢٤]، وفقْه المحدثين الكبار في هذا المجال جعلهم يبتعدون عن الروايات الضعيفة أو الموضوعة، ويختارون الروايات الأخرى، التي تمثل الخط العام لكتاب السير، وفي الوقت الذي لا يأخذون للواقدي رواياته شيئًا في مجال الحديث النبوي، نراهم يأخذون عنه في كل أحداث السيرة، ولا يكاد يخلو موضوع لا يروى له فيه.

وبالأخذ بروايتي المفسرين، نجد أكبر رقم ذُكر للمنافقين هو ثمانون وهم الذين رجعوا إلى المدينة دون

إذن رسول الله، وقد توعدهم القرآن الكريم لموقفهم هذا بقوله ﷻ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور].

وهدد الذين يمضون بدون إذن، بخروجهم من الإيمان، حيث ربط الاستئذان بالإيمان حصرًا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾ [النور].

والرواية الثانية التي تذكر أن عدد الذين قالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا سبعون، ومع الأخذ بهذه الرواية وسابقتها يمكن القول: إن النسبة انخفضت كثيرًا عما كانت عليه في أُحُد فنسبة سبعين إلى ثلاثة آلاف تختلف كثيرًا عن نسبة ثلاثمائة إلى تسعمائة. ففي أُحُد تكاد تُجمع الروايات على انسحاب ثلث الجيش الإسلامي مع عبد الله بن أبي، وهذا العدد هو غير المنافقين الذين بقوا في الجيش، وأظهروا نفاقهم بعد هجوم خالد ومحنة الجيش الإسلامي، وهذا يؤكد عظمة التربية التي تمت من خلال القرآن الكريم، وعلى يدي رسول الله ﷺ حتى ليبقى أمرًا نشازًا ومستنكرًا وجود النفاق والمنافقين، وفي قلب هذه المحنة التي اشتد فيها الخوف إلى أقصاه، كُشفت هذه النفوس الخبيثة التي وصفها القرآن الكريم بأن فيها مرضًا، وكان هذا المرض هو الشك في الله ورسوله وصدق موعوده.

[نقلًا عن المنهج التربوي للسيرة النبوية ـ التربية الجهادية ١/ ٢٣٠ للمؤلف [د/ الغضبان].

ونتساءل بعد هذا كله: لم أخذ الحديث عن المنافقين هذا الحجم الضخم رغم ضآلة وجودهم وقلتهم، بعد أن تقلص عددهم في الصف الإسلامي من ثلاثين في المائة إلى اثنين في المائة؟

والجواب واضح، إنها التربية القرآنية التي تريد أن تنهي هذا الحزب كله، ومن أجل ذلك، لم يقف القرآن عند حجمهم وعددهم، وإنما راح يتابع مواقفهم النفسية من وراء هذه المقولات التي يقولونها، والتي لا يدع القرآن الكريم منها شاردة ولا واردة إلا ويسجلها، ويحصي عليهم أنفاسهم، ويسجل حركاتهم وقناعاتهم ومشاعرهم.

«فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد، وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون، فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم، فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمُّل، وروَّع نفوسهم ترويعًا لا يثبت له إيمانهم المهلهل! فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين!

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة، وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء، فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان!». [**في ظلال القرآن** ٥/ ٢٨٣٨].

ونمضي مع القرآن الكريم في تربيته لهذا الحزب المتفكك الذي لم يصل إلى مستوى الولاية التنظيمية في صفة ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٦٧]، بينما ذكر المؤمنين بقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ١]، ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[الأحزاب].

أما ظروف هذا القول فهي كما رواها البيهقي في الدلائل والطبري في تفسيره، وابن حجر في الفتح في ظروف حفر الخندق التي سبق تفصيلها في عرض الغزوة.

فالمنافقون يعملون مرغمين كارهين في الخندق، وهم كالون من التعب والإعياء، وقلوبهم تفح سمًا على محمد ﷺ، الذي جاءهم بهذا البلاء، فقد كانوا آمنين من أي اعتداء خارجي، وها هم الآن تعصف بهم الأهوال، فقريش، وحلفاؤها على وشك الوصول لإبادتهم والمسلمين، ولكن ما يفعلون وقومهم قد تفانوا جميعًا بحب محمد ﷺ، واعتنقوا هذا الدين الذي نسوا به حياتهم، وأهلهم، وبلدهم، وليس من العقلاء الكبار من بقي على وعيه ـ حسب ظنهم السيء ـ إلا عبد الله بن أبي، وقد تحطم منذ قليل، وافتضح بعد غزوة بني المصطلق، وحديث الإفك.

وها هم يسمعون محمدًا ﷺ يتحدث عن كنوز كسرى وقيصر، في الوقت الذي يحفرون الخندق، خوفًا من مداهمة عدوهم لهم، وها هم الأحزاب قد جاؤوا من الحجاز ونجد، ويجرون فرسان العرب وشجعانهم لاستئصال محمد وحزبه، وانتشر الرعب والفزع لدى الجميع حتى ما يأمن أحد أن يخرج إلى حاجته.

ولعل المنافقين بقوا يكظمون غيظهم، عند وصول الأحزاب من قريش وغطفان، وأسد، وسليم، فقد لا يتمكن هؤلاء من تجاوز الخندق، وبقي الحديث همسًا وغمزًا ولمزًا في صفوفهم، فلم تبدو البيئة المناسبة بعد لهذا الحديث، وقد يُقضى عليهم لو وقفوا وحدهم يرجفون ويشككون.

لكن متى انتقل هذا الحديث إلى العلن، وأصبح تحديًا سافرًا بعد أن كان صوتًا مخنوقًا؟!

نقدر أن ذلك تم بعد نقض قريظة العهد، كما في رواية موسى بن عقبة. فقال سعد بن عبادة رضي الله عنه: عضل والقارة ـ يعني كغدر عضل والقارة ـ بأصحاب الرجيع.

فالمنافقون إذن عندما استحكمت حلقات المحنة، ورأوا أنهم قد حصروا من كل جانب، كما ذكر القرآن الكريم: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب].

في قلب هذا الزلزال، وفي قلب هذا الخوف الذي أصبح سمة عامة في الجيش كله، جاءت بشارة رسول الله ﷺ بالنصر بعد الحصر، وتفتح البيت العتيق، وأخذ مفتاحه، وهلاك كسرى وقيصر، وإنفاق كنوزهما في سبيل الله.

فأما المؤمنون فقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

أما المنافقون فقد أصبح لهم أرض خصبة يعيشون فيها، وهم يتوقعون أن نهاية محمد قد أزفت، فمن الذي ينقذه من قريظة والأحزاب، وقد أحاطوا به من فوقه ومن أسفل منه، عندما انتقل الهمس إلى الذيوع والعلن، وقالوا: ألا تعجبون من محمد يعدنا أن نطوف بالبيت العتيق، وأن نقسم كنوز فارس والروم، ونحن ها هنا لا يأمن أحدنا أن يذهب إلى حاجته. والله لما يعدنا إلا غرورًا.

وحيث جاء التعبير القرآني بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: ١٢]، فهذا يعني أنه لسان حالهم جميعًا، سيان كان القائل معتب بن قشير أو غيره، وحده أو كان معه آخرون، لكن هذه القناعة قناعة المنافقين جميعًا، وقناعة الذين في قلوبهم مرض.

وأن يعير المنافقون بالكفر، فهذا لا يضيرهم كثيرًا فهؤلاء الأحزاب العشرة آلاف جميعهم كفار، غير أن هذا يؤثر عليهم في المجتمع الإسلامي، وحيث ارتفعت معنوياتهم باحتمال انتصار اليهود والأحزاب، فلن يخافوا من سمة الكفر، حين تصبح المدينة محتلة من اليهود، والأحزاب العربية الكبرى.

لكن الذي يندى له الجبين أن يعيروا بالجبن، وهذه هي الحلقة الثانية من ملاحقتهم في أعماق نفوسهم: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣]، فهي دعوة صريحة للاستسلام للعدو.

وقال آخرون ممن معه: ائذن لنا فإن بيوتنا عورة ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾، فهو وصم لهم بالكذب، ووصم لهم بالجبن، فهم يريدون الفرار من المواجهة مع العدو وحربه، وهم كاذبون حين يزعمون أن هدفهم المحافظة على بيوتهم من غطفان، والله تعالى يقول: إن هدفهم ليس حماية بيوتهم إنما هدفهم الفرار من المعركة، والدليل على ذلك: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب].

إنه فضح لهم بالجبن وبالكذب، وبنقض العهد، وواحدة من هذه تسقط الرجل في مجتمعه سواء كان المجتمع جاهليًا ـ بجاهلية تلك الأيام ـ أو مسلمًا، فالنتيجة واحدة، إذ يؤكد القرآن أن الكافرين، لو احتلوا المدينة وأخذوا الأرض والعرض، لارتدوا كفارًا، وأجابوا الأحزاب ليفتنوا عن دينهم فهو الفرار من

المواجهة، والرجولة تقتضي مواجهة العدو في الديار، وعلى الحدود، وفي كل مكان فهم قد فقدوا قيم الرجولة كلها غير فقدانهم الإيمان الأصلي.

وتتم التربية القرآنية الخالدة لهذا الجيب الفارق في الخور والضعف والذل، ليرفعه من وهدته فيقول له: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب].

فالأجل محتوم، والنار ولا العار، وأين الهروب من الله؟ ويحرص القرآن الكريم على عدم تعميم صفة الجبن والكذب، والنكث بهم جميعًا، إنما يتحدث عن طائفة منهم قالت هذا الكلام، وكذبها السيد العظيم سعد بن معاذ سيد الأوس قبل أن ينزل تكذيبها من فوق سبع سموات.

إن التجارب السابقة التي خاضها سيد الأوس مع هذا الفريق من بني حارثة، جعله يدرك أبعاد هذا الإذن فقال: يا رسول الله، لا تأذن لهم، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة قط إلا صنعوا هكذا، ثم أقبل عليهم فقال: يا بني حارثة، هذا لنا منكم أبدًا ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا.

وحتى لا تكون القضية اتهامًا من سيد الأوس لهم، وحتى لا يبيعوا بطولات هوائية، وحتى لا تبلغ بهم القحة أن يخدعوا رسول الله ﷺ جاء القرآن ليفضحهم، ويفضح نواياهم، هذا من جهة، ومن جهة ثانية بعدهم بعد هذه الإدانة الكاملة إلى مراجعة مواقفهم. ومراجعة مواقعهم فيقول لهم: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب].

إن التعميم الوحيد الذي مس المنافقين جميعًا هو ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب]، هو واقع ينضح بنفس كل واحد منهم، لكنه نعى على المدعين كذبًا بحماية دورهم وهم فريق من بني حارثة.

ولبني حارثة موقفان مشينان في الجاهلية والإسلام، عفا الله تعالى عنهم يوم أُحُد في محاولة لرفعهم إلى المستوى الإيماني المطلوب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران]، وكانت إحدى الطائفتين بني حارثة، حيث أخرج الله خبيئة نفوسهم، ولكن الله تعالى عصمهم في اللحظة الأخيرة، وأما الموقف المشين في الجاهلية، وهو الذي تحدث عنه سعد بقوله: يا بني حارثة، هذا لنا منكم أبدًا ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا.

وبالعودة إلى بطون الكتب نجد هذا الموقف في حرب بعاث: (تخلف عن الأوس بنو حارثة، فبعثوا إلى الخزرج: إنا والله لا نريد قتالكم، فبعثوا إليهم أن ابعثوا إلينا برهائن منكم يكونون في أيدينا، فبعثوا إليهم اثني عشر رجلًا). [أيام العرب في الجاهلية، لجاد المولى وزملائه ٧٦ هامش].

فالذين فقدوا الأصالة في الجاهلية بقوا على ضعفهم، وارتفع الإسلام بفريق منهم، وبقي الفريق الآخر ساقطًا، فمعدن الرجولة عنده مهترئ في الجاهلية والإسلام.

و«**النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**».

[**البخاري في الأنبياء (٣٣٨٣)، ومواضع أخرى، ومسلم في فضائل الصحابة ﷺ (٦٦١٥) ومواضع أخرى**].

وسعد ﷺ الذي ينعى عليهم هذا الخور في الجاهلية هو الذي غيَّر بقومه بني عبد الأشهل، نهاية معركة بعاث، ثم غير بقومه تاريخ الأرض من الجاهلية إلى الإسلام، ويبقى الخوار نزلًا في أي مكان كان، وعظمة التربية القرآنية ألا تعم مواقف الضعف، وتفسح المجال للأفق البعيد كي يمضي نحوه المتثاقلون.

ولا يدع القرآن الكريم أي جيب خبيث دون أن يعرِّيه، ويكشف زيفه، حتى لا يتخيل ذلك الجيب أنه خدع الله ورسوله: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب]، هذا الجيب النتن هو الذي قبع في بيته، ورفض الخروج إلى المعركة وحاول أن يثني عزائم إخوانه عن الخروج للمواجهة.

أخرج ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَن قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ قَالَ: هَؤُلَاءِ نَاسٌ من الْمُنَافِقين كَانُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمْ: مَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ إِلَّا أَكَلَةُ رَأْسٍ، وَلَوْ كَانُوا لَحْمًا لَالْتَهَمَهُمْ أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ، دَعُوا هَذَا الرَّجُلَ فَإِنَّهُ هَالِكٌ } ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أَي: مِنَ الْمُؤمنِينَ ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أَي: دَعُوا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فَإِنَّهُ هَالِكٌ وَمَقْتُولٌ ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ قَالَ: لَا يَحْضُرُون الْقِتَالَ إِلَّا كَارِهِينَ، وَإِنْ حَضَرُوهُ كَانَتْ أَيْدِيهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَقُلُوبُهُمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ. [**الدر المنثور للسيوطي ١١/ ٧٥٦**].

وعند القرطبي فيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم المنافقون، قالوا للمسلمين: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، وهو هالك ومن معه فهلم إلينا.

الثاني: أنهم اليهود من بني قريظة، قالوا لإخوانهم من المنافقين: هلم إلينا، أي تعالوا إلينا، وفارقوا محمدًا فإنه هالك، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحدًا.

والثالث: ما حكاه ابن زيد: أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ بين الرماح والسيوف فقال له أخوه ـ وكان من أمه وأبيه ـ: هلم إليَّ قد تُبع بك وبصاحبك ـ أي قد أُحيط بك وبصاحبك ـ، فقال له: كذبت، والله لأخبرنه بأمرك، وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾. [تفسير القرطبي ٧/ ١٥٤].

وأيًّا كان الأمر فهي سمة لفريق من المنافقين تشخِّصهم كأنما هم لمس اليد ورأي العين، كما سيأتي بيانها في العرض القرآني للغزوة.

لقد حشد القرآن الكريم كل هذا الحشد من الوصف، وكل هذه التعرية، حتى لتفوق آياته الحديث عن المعركة كلها، حتى يفتت هذا الحزب، ويذوب ويفقد أي مبرر لوجوده فلهؤلاء السبعين أو الثمانين من الثلاثة آلاف، تتركز الآيات وينزل الوحي، وتفضح الخبايا، وتكشف العورات، وتُفتح طرق مغادرة هذا الحزب النتن، بالإقناع والحجة لا بالسيف والذبح، بينما انصب القصاص على معسكر العدو الذي نكث العهد، وخان الأمانة، وتبجح بالكفر، فقتلت المقاتلة، وسبيت الذرية، وقسمت الأموال، أما هنا فلابد من الحرب الإعلامية العنيفة حينًا والرخية حينًا لتدعوهم إلى التوبة والخلاص من هذا الرجس، وبذلك يخضع المنافقون للتربية كما يخضع المؤمنون، ويحرص الإسلام على ألا يبقى في الصف الإسلامي كله منافق واحد، ويحرص الإسلام على ألا يعمم الخطيئة إلا عندما تكون عامة، وذلك عند قوله ﷻ عنهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب]، بينما يدع الحديث بعدها عن الطائفة وعن الفريق منهم، وعن المعوقين المجهولين عن الناس، لا عند الله الذي لا تخفى عليه خافية، وهو في الوقت نفسه تحذير لضعاف الإيمان أن يقعوا في هذه الحمأة، أو يتأثروا بهذه الأجواء النتنة؛ لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور». [**التربية القيادية للغضبان ٤/ ٨٨-١٠٠ باختصار**].

١٣ ـ بين المصادفة والمعجزة:

يقول د/ أبو خليل: «جاء في (تاريخ العرب والإسلام) [(١)]: «وصادف أن هبت في الليلة نفسها رياح شديدة باردة كفأت قدورهم ورمت بآنيتهم على الأرض، فزاد تشتت كلمة الأحزاب، وقويت رغبتهم في الرحيل عن المدينة».

فالأمر مصادفة، وأذكر هنا شرح العبارة كما قدمها لنا مؤلف الكتاب عام ١٩٦٣م، حيث قال: فتدخلت عوامل الطبيعة، فصادف أن هبت رياح شديدة باردة ..

وبعد تجاوز ما في العبارة من تمييع لنصر الله، واستهتار لمعجزة خارقة أيد الله بها نبيه، نقول: عوامل الطبيعة ليست عاقلة مدركة حتى تتصرف هنا ولا تتصرف هناك، فالريح التي هبت على الأحزاب ـ كما مر تفصيله ـ (لم تتجاوز عسكر المشركين)! فلِمَ تُخَرِّب الرياح هنا ولا تُخَرِّب هناك؟ لِمَ تقلع وتطفئ وتكفئ وتلقي في معسكر الأحزاب ولا تفعل ذلك في جانب المسلمين، ولو عملت الرياح في المنطقة كلها آنذاك وشمل آثارها المسلمين والأحزاب لقبلنا عبارة الكتاب التي ذكرنا، ولكنها لم تجاوز عسكر الأحزاب في شدتها وأذاها، مع أن المسلمين بجوارهم، وعلى بعد مئات الأمتار فقط، يفصل بينهما الخندق وضفتاه!

---

(١) تاريخ العرب والإسلام: ص ٩٧. كتاب في جامعة دمشق لطلاب السنة الثالثة، كلية الآداب ـ قسم التاريخ.

ويغنينا عن التعليق أكثر قوله ﷻ: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف]، ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾ [القمر]». [غزوة الخندق لأبي خليل ١٣٠-١٣٢].

١٤ ـ اليقظة الإسلامية ترعب أعداء الأمة:

يقول د/ زين السيد: «إن المُنَقِّب في بطون التاريخ إذا عجم عود الأحداث، ونخل مخزونها، وقدح زنادها يعلم أن من أهم الأسباب التي دفعت القرشيين إلى تكوين جيوش الأحزاب بقصد العدوان هي اليقظة الإسلامية؛ لأن الإسلام ذلك العملاق الذي تضاءلت أمامه كل مظاهر الحياة وزخرفها يحمل من عوامل التقدم والعزة ما يجعله كفيلًا بأن ينشر نفسه بنفسه فهو الحق الثابت الذي قال الله في شأنه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد].

إنه الحق لأنه وحي الله وإرشاده وتوجيهه: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس].

هذا السبب وغيره مما ذكرناه من قبل هو الذي دعا أهل مكة إلى تكوين هذه الحملة، لقد تحركت الجيوش إلى «يثرب» المدينة المنورة واستقر الرأي على أن يحتلوها ويبيدوا الإسلام والمسلمين، وأراد الله أن يكون هذا القرار الذي استقروا عليه مخيبًا لآمالهم، فلقد تحركت الجيوش فعلًا وحاصرت المدينة، ولكن لم يدم هذا الحصار طويلًا، فقد دب الخلاف بين قادة الأعداء وترامت الأنباء إليهم بأن يهود بني قريظة أرادوا خذلانهم حيث طلبوا رهائن من رجالاتهم، وأن اليوم يوم السبت ولا يجوز لهم المحاربة فيه كما قالوا وكما هي عقيدة اليهود.

ورجعت الحملة التي كانت تريد بالإسلام شرًّا، رجعت تجر وراءها أذيال الخيبة والندامة، رجعت بخُفَّـيْ حُنين: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

وناهيك بالآثار الطيبة التي كان لها الدافع القوي في مواصلة الجهاد بالنسبة للمسلمين، فبعد فشل الحملة ورجوع جيوشها خائبة ارتفعت معنويات المسلمين وازدادت نفوسهم حماسًا للجهاد، وقويت أرواحهم لمواصلة الكفاح: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب].

فالجهاد عز، ونصرة الإسلام شرف وسعادة، والغزو في سبيل الله خير دائم وأجر لا ينقطع... عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله ــ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي**

سَبِيلِهِ ـ كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ، وَتَوَكَّلَ اللهُ لِلمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ: أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ». [البخاري في الجهاد (٢٧٨٧) ومواضع أخرى، ومسلم في الإمارة (١٨٧٨) وغيرهما].

ومن المؤكد الذي لا شك فيه أن انتصارات الرسول ﷺ في ميداني الحرب النفسية والحرب السياسية لا يمكن مضارعتها». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٤٤-١٤٥].

١٥ ـ النصر الإلهي في قلب المحن:

يقول د/ الغضبان: «بعدما رأينا الجهد البشري في البذل رجالًا ونساءً، والجهد البشري في البناء والتخطيط، ووجدنا أنه المدى الأقصى الذي يملكه البشر في عالمهم، يصبح من المناسب جدًّا أن نتحدث عن سمة النصر الإلهي في قلب المحن، والعون الرباني في خضم المعارك، فالله تعالى لا يفعل بعذاب عباده شيئًا، والله تعالى وعد بنصر جنده وعباده الصالحين.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص].

ولنلحظ تحقيق هذه الإرادة الربانية في نصر هذا الدين من خلال نماذج كثيرة، على رأسها نصر الله للمؤمنين في غزوة الأحزاب». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٤١٦-٤١٧].

١٦ ـ النصر يتنزل للمؤمنين الصادقين:

يقول الشيخ المسند: «النصر للمسلمين مهما طال الزمن أو جال الباطل وظهر أو ران على الحق ضباب فإنه سيزول وينتصر المسلمون.

وقد كانت نتيجة الحرب الجماعية الإبادية التي خطط لها أعداء الإسلام في (الأحزاب) أن انتصر المسلمون وخذل الكافرون وأظهر الله المسلمين وخذل كل أعدائهم، فاندحر المنافقون وانكشفوا أمام المسلمين.

وانهزم المشركون بعد محاولات وعناء واستماتة وباؤوا بالفشل والأسى وعادوا إلى قومهم يجرون ذيل الخيبة والهوان، وذهب كل إرغائهم وإزبادهم وتوعدهم وتكبرهم ووعودهم لمن تحزب معهم، وكانت الدائرة على اليهود الذين نكثوا العهد وقلبوا ظهر المجن لمن أمنوهم ووثقوا بهم، وعدوهم منهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، يعيشون معهم في بلد واحد، لكنهم جلبوا الشر لأنفسهم ولم يدركوا سوى القتل

والتشريد، بعد أن انهزم المشركون الذين زينوا لهم نكث العهد والخيانة. ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

وهنا وبعد أن نوقن بأن النتيجة هي النصر للمؤمنين يجب أن نستعرض صفات المؤمنين الذين نُصروا في هذه الغزوة فمنها:

أولًا: أنهم مؤمنون إيمانًا صادقًا يدك الجبال وثابتًا لا يتزعزع أبدًا؛ ولذلك كانت كل الصفات التي يصف الله بها حزبه بصفة المؤمنين لا المسلمين، وهذا شرط في النصر... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾، ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ﴾.

ثانيًا: التصديق بما وعد به الله ورسوله مهما قست عليهم البلواء وعدم التغير أو التبدل والثبات على المبدأ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾.. وطاعة القائد طاعة مطلقة صادرة من القلب والاعتقاد فيها المبادرة والمبادأة، وشاهد ذلك في عهد رسول الله ﷺ وفي هذه المعركة قصة أمين سر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

ثالثًا: سمو الهدف والبقاء مع الله تعالى في حال الخوف والرجاء والحرب والسلم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

رابعًا: شكر الله تعالى على نعمته وتذكرها دائمًا؛ لأن تذكر النعمة عنوان الشكر ولأن شكرها استدامة لها؛ ولذلك يؤكد الله تعالى هذا المعنى في نفوسهم بعد انتهاء الحرب فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ وفي ختام هذه الآية ينبه الله تعالى إلى أمر مهم في علاقة العباد به تعالى، وهو أن شكر النعمة وأداء العبادة يجب أن يكون من القلب خالصًا لله تعالى لأنه يعلم ما تكنه الصدور وما تخفيه وما يقصد بالأعمال وسوف يجازى على قدر الحقيقة لا على الظاهر فقط.

وهذا فيه إجابة عن طائفة من الأسئلة التي تتردد على الألسن، ونحاول الإجابة عنها في هذا البحث، وهي لماذا ومتى وكيف ينتصر المسلمون؟

ومن الإجابة أن الله تعالى مطلع على سرائرهم ويعلم حقيقتها، ومطلع على أعمالهم ويعرف الهدف منها، وهو يعلم أن كثيرًا منهم يُظهرون ما لا يسرون، ويَدَّعُون ما لا يعملون، ويقولون ولا يعملون؛ فلذلك يجازيهم على قدر نياتهم وأعمالهم، وينصرهم بمقدار ذلك». [متى ينتصر المسلمون؟ للمسند ٧٨-٨٣].

ويقول د/ المدخلي: «حقيقة إنها نعمة، وأيما نعمة! حيث انقشعت الغمة، وخلص الله المسلمين من براثن المحنة، وقطف المؤمنون الصادقون ثمار صدقهم، وصبرهم، وثباتهم، مع نبيهم الحبيب ﷺ في تلك الليالي الرهيبة، المرعبة، التي زاغت فيها الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، فقد أخذت جيوش الأحزاب في فك الحصار عن المدينة.

وأخذت كتائبهم تولي الأدبار تجر أذيال الخيبة والخسران لم تجن من غزوها الكبير هذا سوى التعب والنصب، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج]؛ ذلك لأن المسلمين رغم قلتهم وقلة عتادهم فقد نصرهم الله؛ لأنهم كانوا يدافعون عن عقيدة سامية ارتضاها الله لهم، لا كما يدافع المسلمون اليوم عن الحزب والوطن والتراب ويزعمون أنهم ينصرون بسبب إخلاصهم لتلك المبادئ الفانية.

وهذا والله هو من أسباب الخذلان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويتبين من مجريات الأمور والأحداث في هذه الغزوة وغيرها من الغزوات «أن النصر في المعارك لا يكون بكثرة العدد ووفرة السلاح، وإنما يكون بقوة الروح المعنوية لدى الجيش.

وقد كان الجيش الإسلامي في هذه المعارك يمثل العقيدة النقية والإيمان الصادق والفرح بالاستشهاد والرغبة في ثواب الله وجنته.

كما يمثل الفرحة من الانعتاق من الضلال والفرقة والفساد، بينما كان جيش المشركين يمثل فساد العقيدة وتفسخ الأخلاق، وتفكك الروابط الاجتماعية، والانغماس في الملذات.

والعصبية العمياء للتقاليد البالية والآباء الماضين والآلهة المزيفة، انظر إلى ما كان يفعله الجيشان قبل بدء القتال.

فقد حرص المشركون قبل بدء معركة بدر مثلًا على أن يقيموا ثلاثة أيام يشربون فيها الخمور، وتغني لهم القيان، وتضرب لهم الدفوف، وتشعل عندهم النيران لتسمع العرب بما فعلوا فتهابهم.

وكانوا يظنون ذلك سبيلًا إلى النصر، بينما كان المسلمون قبل بدء أي معركة يتجهون إلى الله بقلوبهم يسألونه النصر، ويرجونه الشهادة، ويشمون روائح الجنة، ويخر الرسول ﷺ ساجدًا مبتهلًا يسأل ربه أن ينصر عباده المؤمنين، وقد ابتهل كثيرًا في هذه الغزوة ودعا الله حتى نصره، وكانت النتيجة أن انتصر الأتقياء الخاشعون وانهزم اللاهون العابثون». [السيرة النبوية للسباعي ١١٤-١١٥].

والذي يقارن بين أرقام المسلمين في أي معركة وبين أرقام المشركين يجد دائمًا أن المشركين أكثر من المسلمين أضعافًا مضاعفة، ومع ذلك فقد كان النصر حليف المسلمين رغم ذلك كله».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٠٣، ٤٤٧-٤٤٩].

١٧ ـ إثبات صدق النبي ﷺ فيما أخبر به:

وذلك في حديث الرسول ﷺ: (الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ):

يقول د/ الفنيسان: «قاله بعد منصرف الأحزاب، وقد ظهر ما قاله جليًّا، فما عادت قريش ولا حلفاؤها لغزو المدينة مرة أخرى، فبعد غزوة الخندق انتهى دور الدفاع في حروب الرسول ﷺ ومعاركه، وبدأ دور الهجوم والامتداد لنشر الدعوة والجهاد في سبيل الله.

فلم يمض زمن طويل حتى اعتمر الرسول ﷺ فصدوه عن البيت، ووقعت الهدنة «صلح الحديبية» ثم نقضتها قريش، فغزا المسلمون مكة وفتحوها، ولم تقم لقريش قائمة بعدها».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٨-٢٤٩].

١٨ ـ الواقع المعاصر في ضوء غزوة الأحزاب:

يقول د/ الفنيسان: «جاءت جيوش الأحزاب من كل حدب وصوب وحاصرت المدينة كما ذكر الله ﷻ: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٠] يدفعها الحقد الدفين ويحدوها الأمل في القضاء على دعوة الحق في مهدها، وحفر الرسول ﷺ الخندق حول المدينة في بضعة أيام، وبقي هو وأصحابه مرابطين فيه قرابة شهر من الزمان، وقد نقضت يهود بني قريظة عهدها مع المسلمين وانضموا مع جيوش الأحزاب، وانتهز المنافقون في المدينة هذا الظرف فراحوا يثبطون عن القتال، ويشيعون قالة السوء بين المسلمين، وقد أصابهم من الفزع والرعب والخوف ما ذكره الله في كتابه في سورة الأحزاب المسماة باسم هذا الحدث؛ ليستلهم منها أهلُ كل عصر معاني عصرهم، في كل جيل وفي كل قبيل.

وتلك سمة من سمات القرآن الكريم، تقرأ الآية التي نزلت في حادثة مضت، وكأنها قد نزلت اليوم، وكلما عاودت تلاوة الآيات وتمعنت في أسرار التعبير فيها ظهرت لك معانٍ جديدة لم تخطر على بالك من قبل، وإن كنتَ من ذوي العلم والعرفان، فـ «النص القرآني معد للعمل لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب، ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك، وفي كل تاريخ، معد للعمل في النفس البشرية إطلاقًا كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه في الآماد الطويلة، والبيئات المنوعة، بنفس القوة التي عمل بها في الجماعة الأولى.

ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التي واجهتها أول مرة، هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة، وهنا تتحول تلك النصوص

من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات، وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها، تنتفض خلائق حية، موحية، دافعة، دافقة، تعمل في واقع الحياة، وتدفع بها إلى حركة حقيقية، في عالم الواقع وعالم الضمير.

إن القرآن ليس كتابًا للتلاوة ولا للثقافة، وكفى، إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة، وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة، متى وجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب، ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السر العجيب!

وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات، ثم يقف الموقف، أو يواجه الحادث، فإذا النص القرآني جديد، يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط، ويجيب على السؤال الحائر، ويفتي في المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخافي، ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه، وإلى الاطمئنان العميق». [**في ظلال القرآن ٦/ ٥٤**].

ويقول أحد الكتاب المعاصرين: «انظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد بيانًا قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بخسة التقتير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية: «نقية» لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، «وافية» لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه، ففي كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كل حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته من جمله وأوضاع جمله من آياته سر الحياة الذي ينتظم المعنى بأداته.. وبالجملة ترى كما يقول الباقلاني: «محاسن متوالية وبدائع تترى.. وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من التفوق والملامسة والإحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كد خاطر ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلامًا ولغات، بل ترى صورًا وحقائق ماثلة، وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبرًا، ووقفت على معناه بإزاء معنى جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهًا عدة كلها صحيح أو محتمل الصحة، كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعًا، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع، ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت.

وهكذا نجد كتابًا مفتوحًا مع الزمان يأخذ كل منهم ما يسر له، بل ترى محيطًا مترامي الأطراف لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال.

ألم تر كيف وسع الفرق الإسلامية على اختلاف منازعها في الأصول والفروع؟ وكيف وسع الآراء العلمية على اختلاف وسائلها في القديم والحديث؟ وهو على لينه للعقول والأفهام صلب متين، لا

يتناقض ولا يتبدل، يحتج به كل فريق لرأيه ويدعيه لنفسه، وهو في سموه فوق الجميع يطل على معاركهم حوله وكأن لسان حاله يقول لهؤلاء: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء] انتهى . [**النبأ العظيم لدراز ص ١١١ فما بعدها**].

وسنستعرض سمات كل من المؤمنين والمنافقين واليهود في آيات الأحزاب فنقول:

(١) **المؤمنون**: امتنَّ الله ﷻ على المؤمنين بأن رد عنهم جيوش الأحزاب بعد أن كادت تستأصلهم وتقضي على بيضتهم، ويأمرهم أن يتذكروا نعمة الله عليهم سواء من حضر الواقعة أو غاب عنها.

يقول أ/ سيد قطب: «إن النص القرآني يغفل أسماء الأشخاص، وأعيان الذوات؛ ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع، ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع؛ ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية، هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص، ولا تنقضي بانقضاء الملابسات، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلًا لكل جيل ولكل قبيل، ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص، ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف، ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير.

ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها، وشهدوا أحداثها، فإنه كان يزيدهم بها خبرًا، ويكشف لهم من جوانبها ما لم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها! ويلقي الأضواء على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبآت الضمائر، ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوالج المستكنة في أعماق الصدور.

ذلك إلى جمال التصوير، وقوته، وحرارته، مع التهكم القاصم، والتصوير الساخر للجبن والخوف والنفاق والتواء الطباع! ومع الجلال الرائع والتصوير الموحي للإيمان والشجاعة والصبر والثقة في نفوس المؤمنين». [**في ظلال القرآن ٦/ ٥٤**].

ونادى المؤمنين بوصف الإيمان وهو أشرف لقب إليهم؛ ليكون ذلك أدعى إلى ذكر النعمة وتذكرها، وذكر الأمر بعد النداء فيه عناية بالتذكر واهتمام به؛ لأن النداء إنما هو إيقاظ وتنبيه يهيء المأمور لتلقي الأمر وتنفيذه على أحسن وجه، والتصريح بذكر النعمة في الآية لغرض الامتنان ووجوب شكرها لا باللسان، ولكن بالقلب والجوارح.

والله سبحانه الذي رد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، هو في الوقت نفسه القادر على أن يمد بنصره حملة رسالته والقائمين على دعوته وأن يرد عنهم عدوان الكافرين والمنافقين القريبين منهم والبعيدين ممن يتشدقون بالإصلاح، وهو منهم براء.

وأجملت القصة في الآية أيما إجمال في كلمتين لا ثالث لهما: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ ... فَأَرْسَلْنَا﴾ فقد أجمل المعركة بدءًا وختامًا، وأشار إلى ثلاثة عناصر حاسمة فيها بإجمال موجز أيضًا هي:

الأول: مجيء جنود الأحزاب مجتمعة.

الثاني: إرسال الله عليهم الريح والجنود التي لم يرها المؤمنون.

الثالث: تنزُّل نصر الله المرتبط بعلمه وتقديره وبسر القلوب وحركات الجوارح.

ثم ذكر الفزع والكرب الذي أطبق المدينة وطرق بيوتها بيتًا بيتًا، وكاد أن ينفذ إلى قلوب أهلها قلبًا قلبًا بعد أن أطبقت جيوش المشركين من جانب، وقبائل يهود من جانب آخر، وجنود الطابور الخامس (اصطلاح حديث يُطلق على كل مَنْ يؤيد في الداخل دولةً أجنبية معادية أو يعمل لحسابها) «المنافقون» من الداخل توهن العزائم، وتنشر الشائعات، وتبث الرعب بين صفوف المؤمنين، وقد أطبق الهول عليهم، فجعل العيون زائغة لا ترى، والقلوب، مضطربة لا تعي، وكثرت الظنون، وانتشرت الهواجس، وصار ذلك حديث الناس بمجالسهم وشغلهم الشاغل، وكان الله يريد بهذا أن يبلي المؤمنين بلاءً حسنًا، وقد كان ما أراده الله وصدق الله العظيم: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب].

ورغم هذا الهول كله، فإنه لا زالت طائفة من المؤمنين تمثل الصورة الحية المضيئة وسط الظلام الحالك، واثقة بربها راضية بقضائه ومستيقنة بنصره مع هذه المخاوف والزلازل والاضطرابات، فأثنى الله عليها بثباتها والتفافها حول قائدها، وعرَّض بالمتخلفين عن القتال مع الرسول ﷺ، فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]، وهذه الآية تمهيد لوصف ما كان من المؤمنين في غزوة الخندق، بعد أن وصف ما كان من المنافقين فيها، ففي الجملة المضافة ﴿فِى رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ تكريم وتنويه بمكانة الرسول ﷺ الداعية إلى التأسي به، والأسوة بالرسول ﷺ لا شك أنها بحد ذاتها حسنة، وإنها نص على وصفها بالحسن ليكون التصريح بالحسن حاثًا وباعثًا على الاقتداء به ﷺ، وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ فيه وصف المؤمنين الذين يرجونه ويخافونه، وتنويه ببسالتهم وصبرهم على البلاء في سبيله، حيث مَنْ تعلق قلبه بالله استعذب في سبيله كل ما يلقاه من شدائد ومحن يأمن بها يوم الفزع الأكبر، والتصريح بذكر الله ووصفه بالكثرة يدل على أن نفوسهم قد اطمأنت في هذا اليوم الشديد العصيب، وأن أعمالهم ومواقفهم لم تكن إلا لله، فتراهم يعملون وهم يرددون ذكر الله دائمًا لا يفترون، ولما وصف موقفهم مع الرسول ﷺ في قوة وصلابة ويقين في قوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ بدأ بذكر أوصافهم مفصلة من اقتدائهم بالقدوة الحسنة والأسوة الفاضلة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ

إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]، وبين هذه الآية والتي قبلها تقابل بالإجمال والتفصيل، فالآية الأولى ذكرت ثلاث صفات للمؤمنين وهي:

(١) رجاء الله وخوفه.

(٢) الإيمان باليوم الآخر.

(٣) ذكر الله كثيرًا.

والآية الثانية ساقت أمثلة حيةً واقعيةً لتلك الصفات الأساسية، هي:

(١) منهم من ينتظر: مثل واقعي لصفة الرجاء والخوف في الآية الأولى.

(٢) ومنهم من قضى نحبه: مثل حي متجسد للإيمان باليوم الآخر الذي دفعه إلى الموت.

(٣) الثبات وعدم التبديل، ثمرة لذكر الله ومراقبته، وتدل آية: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ على مدى الصبر والثبات على الحق ومقاومة الباطل، وقد كان منهم بلا تباطؤ أو تسويف نتيجة الإيمان بالله والثقة بنصره القريب، واسم الإشارة «هذا» جاء مذكرًا مع أن حقه أن يؤنث، فكأن القوم أعجلوا أنفسهم بالثناء على الله ورسوله لما رأوا تحقق ما وعدوا به، قال الآلوسي: «وهذا إشارة عند بعض المحققين إلى ما عاهدوه من غير أن يخطر ببالهم لفظ «ربه» أو «عليه»، فضلًا عن تذكيره أو تأنيثه، فإنهما من أحكام اللفظ، نعم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذي هو ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فإن ذلك العنوان أول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة». [روح المعاني ٢١/ ١٦٩].

ويجوز أن يكون اسم الإشارة هذا مرادًا به الخطب والبلاء، وفي هذه الحالة أيضًا تجسيد للهول والبلاء في وجدان المؤمنين، وكأنه شيء شاخص يحس ويلمس ويشار إليه بالبنان، وعبر بلفظ «هذا» القريب بدل «ذلك» الموضوع للبعيد للإشعار بقرب الهول منهم وإحاطته بهم كإحاطة السوار بالمعصم، والوعد المشار إليه بهذه الآية هو قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]».

فمتى ما زُلزل المؤمنون وضاقت عليهم الأرض بما رحبت تنزَّل نصر الله عليهم، وها هم أمام الأحزاب قد ابتلوا وزلزلوا، فأيقنوا بتنزل نصر الله كما وعد.

وكرر لفظ الجلالة والرسول ﷺ تعظيمًا وتذكيرًا بالألوهية والرسالة، وطمأنينة للقلوب المؤمنة بالله ورسوله، وقد كان الرسول ﷺ وصحابته يرفعون أصواتهم بالتكبير والتهليل أثناء الحروب، وكم زَلزلت تكبيراتهم جنبات معسكر أعدائهم.

وكم قال رسول الله ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**».

[حديث صحيح. ينظر: البخاري مع الفتح ٧/ ٤٦٧].

وكم نادى مناديهم: «**هُبِّي رِيحَ الجَنَّةِ، إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ**». [المصدر السابق ٦/ ٢١].

وكم هتف هاتفهم: «**غَدًا نَلقَى الأَحِبَّهْ مُحَمَّدًا وَحِزْبَهْ**». [مسند أحمد ٣/ ١٠٥].

وكم قال قائلهم: «**لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ**». [مسلم ٣/ ١٥١١].

وكم أنشدوا:

مَا أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ للهِ مَصْرَعِي

[صحيح البخاري مع الفتح ٦/ ١٦٦].

﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ مصدر في سياق النفي يفيد العموم، أي فلم يبدلوا أي تبديل حتى في ساعة الكرب والشدة التي هي مظنة ضعف النفس البشرية عادة، بل حفظوا عهدهم وثبتوا على دينهم حتى استشهدوا في سبيله ولقوا ربهم عليه.

ولا شك أننا في مثل هذه المواقف بحاجةٍ إلى أن تستشعر القلوب هيبة الحق وقوة الصدق وبرد اليقين، وتلك صفات لرجال لا يرغبون التعريف بأنفسهم أو التشهير بعملهم فوق منصات الخطابة، أو خلف مكبرات الصوت، أو أمام عدسات التصوير، بل كل منهم جندي مجهول يعمل بلا صخب ولا ضجيج ولا دعاية، بل نراهم يرون أن المفاخرة وحب السمعة، وأن يُمدح المرء بما لم يفعل كذبٌ ورياءٌ يُحبط العمل، وفاعل هذا لا يستحق وصف الرجولة؛ لأن الرجولة الحقة إنما تكون بالصدق والوفاء، ومن لم يدخل في ميادين الصدق، فقد خرج من ميادين الرجولة، وكم من الناس اليوم تنكروا عند البلاء، وقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، وقد ولوا مدبرين وفروا، ومن الناس من يحرِّف عهده ويتخفف من التزاماته بتعليلات أو تبريرات تتفق مع هواه.

(٢) **المنافقون**: [إن آيات سورة الأحزاب أشارت إلى حالة النفاق وما تولد عنه من القلق في النفوس، والجبن في القلوب، وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب، والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول ﷺ للانصراف عن ميدان العمل والقتال بحجج واهية؛ زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك مواقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام].

[السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٢٥].

المنافقون دائمًا في كل جيل وزمان على بُغض الدين وكراهية أهله يتجمعون، وعلى أساس مصالحهم الشخصية يتعارفون، ولو قدر أن خرج في عصرنا اليوم واحد من أولئك المنافقين الذين شهدوا غزوة الأحزاب وتنزلت فيهم هذه الآيات، لو قدر وخرج لعرف إخوانه المعاصرين وطرق عليهم منازلهم بيتًا بيتًا، وأخذ مكانه في صفوفهم، ولعاش معهم حياة تآلف وتعاطف ومحبة وألفة لا ينكرهم ولا ينكرونه، وصدق رسول الله ﷺ: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**». [حديث صحيح. ينظر: البخاري مع الفتح ٦/ ٣٦٩].

وجاء في حديث ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ المَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الوَهْنَ**»، قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الوَهْنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ**».

[أبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح، ومسند أحمد ٣٧/ ٨٢ رقم ٢٢٣٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن. ينظر: صحيح الجامع الصغير رقم ٨١٨٣].

وها هو التاريخ يعيد نفسه اليوم، وصدقت نبوة الرسول ﷺ فتحزبت على المسلمين دول الكفر، فاجتمعت كلمة الشيوعيين في الغرب بزعامة روسيا، وكلمة اليهود والنصارى في الغرب بزعامة أمريكا.

وهناك تشابه بين أحزاب الأمس التي حاصرت المدينة وبين أحزاب اليوم التي أطبقت على العالم الإسلامي.

بالأمس كان تسليح الأحزاب بدائيًّا بسيطًا، واليوم نجد أسلحة أحزاب اليوم معقدة مركبة جهنمية.

بالأمس حاصروا المدينة فحسب، واليوم تحاصر أحزاب الشيطان بكل وسائلها مجتمعة عواصم الدول الإسلامية.

بالأمس كان المنافقون يعيشون في وقت تنزل الوحي، فهم يتحاشون أن ينزل قرآن يفضحهم بأعيانهم، أما اليوم فالمنافقون قد أمنوا أن تُعرف نياتهم أو تُكشف سوءاتهم بأعيانهم، فازدادوا خبثًا على خبثهم.

بالأمس كانت وسائل ترويج دعاوي المنافقين قليلة لا تعدو وسائل شخصية محدودة تُعد على رؤوس الأصابع، أما اليوم فقد ابتكر الأحزاب لأذنابهم المنافقين بيننا وسائل كثيرة ضخمة لترويج النفاق من صحافة وإذاعة وسينما وتلفاز وكتاب.

بالأمس لم يكن لليهود ـ وهم أصدقاء المنافقين وحلفاؤهم ـ دولة تحميهم، أما اليوم فقد قامت لهم أكثر من دولة تناصرهم وتأويهم.

بالأمس كانت جنود المسلمين التي حاربت جيوش الأحزاب قوية بإيمانها واثقة بربها مطبقة لأحكام دينها، أما جيوش المسلمين اليوم فقد عُزل معظمها عن الدين، فلا تكاد تعرف إلا اسمه، ونُفخت فيها دعوى الوطنية، وأُخمدت فيها روح الجهاد في سبيل الله، ورُبِّيت فيها شهوة الجنس والمتاع، وأُميت فيها الحنان للجنة والشوق للقاء الله.

بالأمس كان المنافقون يقابلهم مؤمنون أقوياء بإيمانهم فلم تنطل عليهم حيل المنافقين وأساليبهم، وإن انطلت مرةً على أحدهم سرعان ما يكتشفها بنفسه أو يدله عليها أحد إخوانه المؤمنين، أما اليوم فيكاد لا يقابل النفاق إلا إيمان هزيل ضعيف لا يقوى على مقاومته.

بالأمس كان تنظيم النفاق والمنافقين بدائيًّا في أول نشأته، واليوم قد تعددت أنواعه من نفاقٍ فردي، إلى نفاق اجتماعي، إلى نفاقٍ سياسي، وأصبح النفاق على حد قول الشاعر:

لَقَدْ كَانَ فِينَا الظُّلْمُ فَوْضَى فَهُذِّبَتْ ... حَوَاشِيهِ حَتَّى صَارَ ظُلْمًا مُنَظَّمَا

تلك بعض سماتهم في القديم والحديث، وصدق الله العظيم: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

من صفات المنافقين التثبيط عن دعوة الإصلاح وموكب الخير، لا يعرفون إلا السلبيات والتخرصات، فهم أشبه ما يكونون بجبهة الرفض أو المعارضة بدون دليل أو مبرر، انظر إليهم في قول الله عنهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ نفي ورفض وتخرص وادعاء بدون دليل مقنع يُرى أو يحس، وما زادهم ذلك إلا رجسًا على رجسهم، أما المؤمنون على العكس منهم تمامًا، اسمع قول الله عنهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ إيجاب وتصديق ومعهم الدليل على ما يقولون، إنه «هذا» مشيرين إلى الهول والخطب العظيم الذي أحاط بهم، لقد نظروا إلى الغيب من خلال نور الله الذي أعطاهم، فَهِمُوا قول الله في غير هذا المقام: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة] فمتى ما مستهم البأساء والضراء وخبطتهم الفتنة العمياء وزلزلوا، عرفوا أن نصر الله قريب منهم، وهم في هذه الغزوة قد فُتنوا ومستهم البأساء والضراء وزُلزلوا زلزالًا شديدًا، فحق لهم أن يتنزل نصر الله عليهم، وقد كان.

والمنافقون اليوم ـ أحفاد أولئك الماضين ـ يرددون ما قاله أولئك مع اختلاف اللفظ واتحاد المعنى يقولون: ماذا قدَّم لنا تمسُّكنا بديننا سنين طويلة؟ وأي شيء أضر بالشرق والغرب تنكُّره لدينه وكفره به؟

إن أوروبا لم تتقدم إلا بعد الثورة الصناعية والقضاء على الدين ورجاله، ويقولون: إن الدين أفيون الشعوب، فإذا أردنا التقدم والحضارة فلا بد أن نترك الدين كما تركه أولئك، يقولون مثل هذا ولسان حالهم يردد مع أسلافهم ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ فهم يرفضون وبشدة كل قديم ولو كان يحيي العباد ويعمر البلاد، ولو حملَتْه الأيدي المتوضئة والقلوب النيرة، ويستقبلون وبشغف كل جديد ولو كان فيه موت وخراب، ولو مدته إليهم الأيدي التي صفعتهم ولا زالت، أما المؤمنون الواعون اليوم - والأصل في المؤمن أن يكون واعيًا - وقد أطبقت عليهم الحضارتان الشرقية والغربية بما فيها من البريق الزائف، فلم تستهوهم مغريات الجنس والمال الحرام فيها، ولم يرفضوا إنتاجها المادي ويروه رجسًا وفسقًا، بل كل ما وصل إليهم من علم أو اكتشاف في ظاهر الحياة زادهم إيمانًا مع إيمانهم، وتذكروا قول أسلافهم البررة، ورددوه معهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ مشيرين إلى مثل قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]، وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]، فهم لا يعرفون الرفض المطلق لكل علم أو فن، فهم إيجابيون بكل ما تدعو إليه الإيجابية من معنى، فهم ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨].

والمنافقون بالأمس نادوا المؤمنين المرابطين مع رسول الله ﷺ بالخندق، نادوهم بالشعار الوطني الجاهلي القديم ﴿يَثْرِبَ﴾ بدل اسم المدينة الجديد الذي سماها به رسول الله ﷺ، نادوهم بذلك ليوهنوا رابطة الإخاء الإسلامي التي تربط بين الحبشي والقرشي ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾.

ومنافقو العصر الحاضر، قد رفعوا بيننا **شعار القومية والوطنية**، وأهملوا شعار الإخاء والدين، ونادوا بدلًا منه برابطة التراب والطين، فإذا سألهم سائل: ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى، فإذا قيل لهم: أي حضارة قامت للعرب قبل الإسلام، وهل تُخرِّجون من القومية العربية صهيبًا وبلالًا وسلمان؟ إذا قيل لهم ذلك لم يجدوا جوابًا إلا الترضي عن أولئك أمامنا مجاملة ونفاقًا، وإذا قيل لهم: إن أوروبا قد لفظت القومية منذ زمن، والعصر اليوم عصر اتحادات ومنظمات وهيئات، فلم لا تدعون إلى مثل هذه الهيئات والمنظمات؟ راحوا يوصوصون بأذنابهم إلى أسيادهم، ومنهم يستلهمون الجواب.

والمنافقون بالأمس سموا الفرار والتولي من الزحف (رجوعًا) تزيينًا لفعلتهم وتلبيسًا على العامة، حيث إن لفظ الرجوع أخف على النفس الضعيفة وأولى للقبول من لفظ الفرار أو التولي، وها نحن نجد إخوانهم اليوم يغيِّرون الحقائق تلبيسًا على العامة، فيسمون الهزيمة نصرًا، والقتال في سبيل عروبتهم

جهادًا، وتضفي أجهزة الإعلام على الخائن لدينه وأمته ألقاب الفاتح المنتصر، ولئن قال المنافقون ما قالوه بالأمس وقد رأوا المعركة عيانًا وشاهدوها وفروا منها ملتمسين لأنفسهم العذر ـ ولا عذر لهم ـ فإن منافقي عصرنا على اختلاف طبقاتهم يعيشون في حالة أمن وسلام، ويفرون من وهم المخاطر إلى ذل حياة لا يتمتعون فيها إلا قليلًا، يحسبون كل صيحة عليهم فيقدمون ضروبًا من الخضوع والاستسلام، ويعطون الذلة من أنفسهم راضين غير مكرهين ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

بالأمس فر المنافقون من القتال بدعوى حفظ البيوت والمحارم، وهم كاذبون، ولو اقتَحمت عليهم جيوش الأحزاب بيوتهم من كل جوانبها يسألونهم قتال محمد ﷺ وأصحابه لطاروا معهم مؤيدين، وما انتظروا إلا بقدر ما يأخذون أسلحتهم، أو بقدر ما يسألون الفتنة فيجيبون.

أما منافقو اليوم فهم يتشدقون بأنهم حماة الوطن، وحُرَّاس الفضيلة، وحملة الدعوة، وقادة الأمة، وأنهم أحفاد خالد وسعد، وسيقاتلون العدو الغاصب أو المستعمر حتى آخر رمق، فإذا ما نفجت فيهم نافجة من الروس أو الأمريكان وحلفائهما من شرق أو غرب، راح ساستهم يباركون الخطة الجديدة والمشروع الأمريكي أو الروسي المرسل إليهم صورته، وقام خطباؤهم وكُتَّابهم يؤولون ذلك ويلوون فيه ألسنتهم ليحسبوه من الإسلام وما هو من الإسلام.

فكم سمعنا من الكُتَّاب المتفرنجين من يدعو إلى أخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها وعُجَرِهَا وَبُجَرِهَا؟ وكم سمعنا من زعيم بح صوته وهو ينادي بالفصل بين الصهيونية واليهودية وأننا لا نحارب اليهود ولكننا نحارب الصهيونية؟ فهل بعد هذا الغباء غباء أو بعد هذا التبرير تبرير؟ اللهم غفرًا.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

بالأمس كان الرجل من المنافقين يقول لصاحبه: اجلس ولا تخرج، ويكاتبون من خرج من عسكر المسلمين أن ائتونا فإنا ننتظركم، وذات يوم انصرف رجل من المؤمنين إلى المدينة فوجد أخًا له شقيقًا في النسب ـ ومن المنافقين في الاعتقاد ـ جالسًا يشوي لحمًا، فقال المؤمن لأخيه: أنت ها هنا ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف؟! فقال له أخوه المنافق: هلم إليَّ فقد أُحيط بك وبصاحبك، والذي يُحلف به لا يستقبلها محمد ـ يعني لن يرجع إلى المدينة بل سيقتل ويهزم جمعه ـ فقال له: كذبت، والذي يُحلف به لأخبرن رسول الله ﷺ بخبرك، فرجع ليخبره فوجد الوحي قد سبقه بهذه الآية.

أما المعوقون في عصرنا اليوم من المنافقين فهم كثيرون ـ لا كثَّرهم الله ـ يثبطون الهمم، ويوهنون العزائم، ويشككون ناشئة المسلمين في دينهم، يتجمعون على الشر أحزابًا، شعارهم كشعار أسلافهم:

﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، نحن لسنا بالطائشين ولا المتعجلين، نحن نعرف الأسباب ومسبباتها، وندرك القضايا بكلياتها، ونعلم بواطن السياسة العالمية وظواهرها، فإذا ما قيل لهم لماذا لا تعتمدون على أنفسكم في تدبير شؤون حياتكم السياسية والاجتماعية والاقتصادية على أساس من الدين؟ وعلام تأبون إلا الارتباط بمعسكر شرقي أو غربي؟ قالوا بلسان الحال والمقال على السواء: نحن نسعى إلى هذا ولكن بالتدرج، وسياسة «الخطوة خطوة» والارتباط بأحد المعسكرين العملاقين! ألم يقرأ هؤلاء قول الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ يقول الزمخشري في معناها: «قربوا أنفسكم إلينا»ا.هـ، فهم دائمًا في كل عصر يكونون عصابة «وطابورًا خامسًا» داخل الجماعة المسلمة يحاربون الحق ويعوقون مسيرة الخير، وهذا العمل منهم أخطر من التثبيط نفسه؛ لأن التثبيط في حد ذاته هو في الأصل ـ فعل فردي، وعادة ما يكون في اللسان، بينما هو هنا كيان جماعي تترابط أفراده، وتتشابه لا في قسمات الوجوه وملامح النفوس فحسب، وإنما في طبيعة الحقد والمكر والالتواء، وفق ما تتطلبه شهوة البطن والفرج وإرادة الشيطان: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب].

ومن صفات المنافقين الأجداد، أن شبح الحرب وما فيها من الضيق والشدة يتراءى في مخيلتهم حتى بعد أن ذهبت الأحزاب ورجعوا إلى بلادهم، فهم لجبنهم يحسبون الأحزاب لم تذهب بعد، وحتى بعد أن علموا فهم لا يودون ذكر الأحزاب في مجالسهم، ولو كانت عن طريق القصص والذكريات، فيتمنون من قلوبهم ـ لو فُرض أن عادت الأحزاب مرةً أخرى ـ أنهم يعيشون بعيدين عن المدينة يتنقلون في الصحراء بين خيام الأعراب، يسألون الغادي والرائح عن أخباركم سؤال الغريب للغريب، وكأن لم يكن لهم بالمسلمين سابق صلة تُذكر ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب].

ولئن كان المنافقون في الماضي يودون أنهم بادون في الأعراب، فإنهم اليوم لا يقلون عنهم في تنكرهم للمبادئ والقيم والروابط التي ربطتهم بالمسلمين، إن المعاصرين اليوم أكثرهم يتمنون من قلوبهم أن

يتيهوا في عواصم أوروبا وأمريكا وينسوا آلام شعوبهم ومشاكل أمتهم، فإذا ما نزلت بأحدهم نازلة شخصية، أو أراد أن يروي فضوله يومًا ما، راح يسأل عن الإسلام وأحكامه رهبان النصارى ومستشرقي اليهود، فإذا رجع إلى وطنه رجع وهو لا يكاد يعرف من دينه إلا الشكوك والشبهات، يدعو إليها ويدافع عنها ويقررها ما استطاع إلى ذلك حسب مركزه الاجتماعي وقوته الشخصية.

ورغم هذا كله فقد هيأ الله للدعوة إلى كتابه شبابًا عفيفة عن الشر أعينهم، قصيرة عن الباطل أرجلهم، يدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يخافون في الله لومة لائم، رغم موجة الإلحاد التي اجتاحت ولا زالت تجتاح العالم الإسلامي كله، فقد برزت ظاهرة التدين في الشعوب عامة، وبين صفوف الشباب منهم خاصة، رغم توفر كل المغريات ووسائل الفتنة التي هي في متناول أيديهم لو شاؤوا، وصدق رسول الله ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ، ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ، حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ المَسِيحَ الدَّجَّالَ**». [أبو داود في الجهاد (٢٤٨٤)، ومسند أحمد ٣٣/ ١٤٩ رقم (١٩٩٢٠)، وقال **الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح**].

(٣) **من صفات اليهود**: اليهود هم الذين جمَّعوا جيوش الأحزاب وساقوها إلى المدينة لحرب محمد ﷺ وأصحابه، حيث قامت جماعة منهم يطوفون على قبائل الجزيرة قبيلة قبيلة، فجاؤوا إلى قريش ـ وقد وُترت في أعز أبنائها في بدر وأُحُد ـ فسألت قريشٌ وفدَ يهود عنهم وعن محمد ﷺ، قالوا: أفديننا خير أم دينه؟ فقال اليهود ـ وكأنهم لا يعرفون ـ: ما دينكم وما دين محمد؟ فوصفوا لهم دينهم ودين محمد ما شاء لهم أن يصفوا، فقال لهم اليهود: بل أنتم أفضل منه، ودينكم خير من دينه، فأنزل الله في شأنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء].

وبينما جيوش الأحزاب تحاصر الخندق، نقضت يهود بني قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ، فزاد الخطر والبلاء على المسلمين، فلما هُزمت الأحزاب، حاصر المسلمون بني قريظة في حصونهم عدة ليالٍ، حتى اضطروهم إلى النزول، فنزلوا كما حكى الله عنهم: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

فمن صفات اليهود في آيات الأحزاب التي نتحدث عنها ما يلي:

(١) **الإفساد في الأرض**: بإشعال الحروب وزرع الفتن والخلافات بين الشعوب والأمم، فما قامت فتنة أو أُشعلت حرب في التاريخ إلا واليهود من ورائها، وما هذه الانقلابات المتوالية في الحكومات

العربية والإسلامية، وما هذا الصراع الذي يثار من حين لآخر بين أفراد الشعب الواحد، إلا ثمرة من ثمرات اليهود وتخطيطهم [ينظر: اليهود في القرآن ٥٢]، ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون قاطبة: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة].

(٢) **الجبن والخوف:** فلا تعرف الشجاعة إليهم سبيلًا، فلا يكاد يسير اليهودي بمفرده إلا وهو يحمل السلاح بيده، ولا يقف أمام خصمه إلا وخلفه ترسانة من السلاح: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٣ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾ [الحشر].

فلم تنفع الحصون المنيعة بني قريظة، لم تنفعهم شيئًا لما حاصرهم المسلمون ونزل بهم أمر الله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

(٣) **الشح والبخل:** فهم عَبَدَة العجل، وأَكَلة السحت، وأحرص الناس على حياة، يعبدون الدرهم والدينار، قلوبهم قد أُشبعت حب الدنيا، فلا تعرف الرحمة إليها سبيلًا، وأيديهم ممسكة بالدرهم والدينار لا تنفق منه فلسًا أو مليمًا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾ [آل عمران].

(٤) **الفُرْقة والخلاف:** جاء حيي بن أخطب اليهودي زعيم بني النضير إلى كعب بن أسد زعيم بني قريظة يطلب منه أن ينقض عهده مع المسلمين، فلم يجبه أول الأمر، ولم يزل به يفتله في الذروة والغارب حتى نقض العهد بعد أن أعطاه من نفسه الأيمان الغلاظ: لئن انتصر محمد ليدخلن مع بني قريظة في حصونهم، فيكون مصيره مصيرهم، وقد قال المنافقون من قبل لإخوانهم يهود بني النضير هذه المقالة نفسها فلم تغن عنهم شيئًا: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١٢﴾ [الحشر].

(٥) **الرعب في قلوبهم ولو تحصنوا ببروج مشيدة:** لقد ورد لفظ قذف الله الرعب في قلوب اليهود في موضعين من القرآن الكريم: أحدهما في سورة الأحزاب: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦﴾.

والموضع الثاني في سورة الحشر عن يهود بني النضير: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر]، فالرعب سلاح يؤيد الله به

المؤمنين على أعدائهم، ففي بني قريظة أعقبه مباشرة القتل والأسر فيهم، وفي بني النضير أعقبه الطرد والنفي والذلة بأن هدموا بيوتهم بأيديهم التي بنوها.

والنصر بالرعب من خصائص هذه الأمة، يقول رسول الله ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**».

[البخاري في التيمم (٣٣٥)، وفي الصلاة (٤٣٨)، وفي الجهاد والسير باب قول النبي ﷺ نُصرت بالرعب، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)].

وفي لفظ لأحمد: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَيُرْعَبُ مِنِّي العَدُوُّ عَنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ**».

[مسند أحمد ٣٥/ ٢٢٤ عن أبي ذر الغفاري ﷺ رقم ٢١٢٩٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن إسحاق وقد توبع وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين].

وفي لفظ لمسلم: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى العَدُوِّ**». [مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)].

وفي رواية: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى عَدُوِّي مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ: شَهْرٍ خَلفِي وشَهْرٍ أَمَامِي** ».

[سبل السلام ١/ ١٢٦].

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

(٦) **أورث الله أرض اليهود وأموالهم المسلمين:** والتوريث تمليك، فلا يجوز للمالك أن يضيع ملكه، ولا الوارث أن يفرط فيما ورث، وها نحن نجد اليهود قد جاسوا خلال الديار، وأفسدوا فيها، بعد أن داسوا قيم أهلها وأخلاقهم أو كادوا، يدفعهم حقد مرير على الإسلام وأهله، وخوف رهيب من يقظته في نفوس أبنائه، لقد حاولوا تدمير الإسلام أكثر من مرة: حاولوا في الحروب الصليبية، ففشلوا، فعادوا يخططون من جديد لينهضوا.. ثم كروا علينا بجيوش حديثةٍ وفكرٍ جديد، بعد أن صنعوا من أبناء المسلمين ـ والعرب منهم خاصة ـ عملاء لهم ينطقون باسمهم، وينفذون مخططهم بسهولة ويسر، فقام هؤلاء العملاء المأجورون يضطهدون أممهم وشعوبهم بكل وسائل الإفساد والتخريب، حتى أماتوا فيهم روح الشهامة والرجولة، وأطفأوا فيهم جذوة الإيمان وشعلة الجهاد في سبيل الله، وداسوا كرامة شعوبهم ودنسوها قبل أن تطأ يهود أرضهم وتدنس مقدساتهم.. وهكذا دائمًا من عميت بصائرهم عن جادة الحق تنعكس كل المعايير في نفوسهم، فيرون الذلة عزةً، والعزة مهانةً، والعدو صديقًا، والصديق عدوًّا، وصدق الله العظيم: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج].

ولا غرابة أن يُرى النفاق كما رُأي بالأمس مثبطًا للهمم، داعيًا إلى الفرار، تاركًا لليهود ومن ساندهم أن يطفؤوا شعلة الإيمان، ويفرقوا جَمْع المسلمين لو استطاعوا.

ولا علاج لما نحن فيه إلا بثبات الفئة المؤمنة، وفرارها إلى الله تعالى واستعانتها به، وتوكلها عليه، متذكرة نعمة الله حين جاءت إلى مدينة رسول الله ﷺ جنود فأرسل عليهم ريحًا وجنودًا، وبلغت الشدة

مبلغها كما وصف الله: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ ولم تزدد الفئة المؤمنة إلا تصديقًا بوعد الله ورسوله ﷺ وإيمانًا وتسليمًا.

ويهود اليوم هم يهود الأمس، جاؤوا بحقدهم على الإسلام وأهله، وألَّبوا قوى الشر على مقدسات الإسلام، ولا علاج لأمرهم إلا بالثبات على دين الله، والتضحية في سبيله، فإن أقوى الأسلحة التي يخافونها ويعملون على إبعادها هي قوة الإسلام.

وقد أعانهم إخوانهم من المنافقين في الديار الإسلامية، فعملوا على إبعاد الإسلام عن ساحة القضية، وأقاموا حروبهم تحت شعارات حققت الهزائم لهم وصنعت النصر لعدوهم.

إن علاج الأمر كله في أن نتأمل خطى رسول الله ﷺ وأصحابه في هذه الغزوة؛ لنأخذ بالأسباب التي أخذوا، ونصدق كما صدقوا، ونثبت كما ثبتوا، ونزداد ـ مع تضافر الأعداء ـ إيمانًا وتسليمًا، وما هي إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب]». [غزوة الأحزاب للفنيسان ١٩٣-٢١٦].

١٩ ـ معركة الخندق واستنطاق التجربة في الحاضر (١):

نزلت آيات من سورة الأحزاب لتتحدث عن معركة فاصلة حاسمة بين المشركين والمسلمين، وهي معركة الخندق، وتُسمى بمعركة الأحزاب، والتي حدثت في شهر شوال، ونحن إذ نستعرض بشكل سريع هذه المعركة فمن أجل أن نقارن بين واقع المسلمين في الماضي وبين واقعهم في الحاضر، وطبيعة الأوضاع التي كانت تسيطر على تلك المرحلة من حياة المسلمين، سواء لجهة الدور الذي لعبه أعداء الإسلام والجهات المندسَّة في داخل المجتمع الإسلامي من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، ممن كانوا يمثلون القوة النفاقية التي تنسق مع المشركين، وتعمل على إثارة الفتنة في داخل الواقع الإسلامي، أو لجهة نصر الله المسلمين بعد أن أُصيبوا بزلزال نفسي وخوف حقيقي، ومن بعد حصار لم يشهدوا له مثيلًا في كل تاريخ صراعهم مع المشركين، لكن الله ﷻ كان معهم وهيَّأ لهم العوامل الطبيعية التي ساهمت في تحقيق الانتصار، في حين كانت مفاجأة للمشركين وصدمة كبيرة لهم.

الإمداد الغيبي: فالله تعالى يبدأ هذه الآيات بعرض الواقعة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ ﴾ [الأحزاب: ٩]، عندما هاجمتهم جنود المشركين وحلفاؤهم

---

(١) موقع التاريخ على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) نقلًا عن موقع بينات، بدون ذكر اسم الكاتب.

من اليهود كانت النتيجة أن أرسل الله عليهم ريحًا قاسية شاتية أثارت الرمال، فأضحى الإنسان معها لا يرى صاحبه، مما أفقدهم التماسك، وجعل أبا سفيان يأمر جنوده بالرحيل.

ويحدِّثنا الله ﷻ أنه أرسل جنودًا لم يروها، وهي كناية عن الملائكة التي عملت على إيجاد نوع من التوازن في الموقف، ولم يبين الله لنا الطريقة؛ لأنه غَيْب من غَيْب الله أخبرنا الله به ولا نملك تفاصيله؛ ولذلك فإن علينا أن نؤمن به وإن لم نعرف كلَّ مفرداته ودقائقه، ويصوِّر القرآن الكريم لنا كيف كانت حالة المسلمين؛ لأنه يريد أن يعطينا الصورة حتى نتمثلها في المستقبل في كل صراعاتنا مع أعداء الله، وهذه هي قيمة القصة القرآنية التي لا تريد أن تُدخلنا في التفاصيل كلها على طريقة القصص التي يلهو بها الناس، ولكنها تريد أن تركز على مفاصل القضايا التي يمكن أن تحدث في أية حالة من الحالات؛ ليتعلم المسلمون على مدى التاريخ كيف يواجهون الحالات المماثلة، وبالطريقة التي لا يسقطون فيها أمام الحصار والضغط، بل يتطلعون إلى غيب الله بالإضافة إلى ما يتحركون فيه.

إنَّ المشكلة التي قد يعيشها المسلمون وغيرهم من الناس أنهم يرتبطون بالجانب الحسي من الأشياء، يعني دائمًا أننا نُدخل في الحسابات ما يملك العدو وما نملك نحن، العدو أقوى منَّا سلاحًا ونحن أضعف منه، العدو يملك امتدادات في الساحة الدولية، ونحن لا نملك مثل هذه الامتدادات، العدو يجتمع على باطله ونحن نتفرق عن حقنا، فالله ﷻ لا يمنعنا من أن ندخل في الحسابات المادية، ولكنه يعرِّفنا أن هنالك حالة غيبية إلهية، يجب أن ننفتح من خلالها على الله، ولكن بعد أن نصبح على أتمِّ حالات الاستعداد لنقول له انصرنا على القوم الكافرين، لنقول له أعطنا من غيبك، كما فعل المسلمون في بدر: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾ [الأنفال].

ومن هنا، علينا كمسلمين، ومن خلال إيماننا بالله ﷻ، في كل تاريخ صراعاتنا، أن لا نغفل الإمداد الغيبي الذي يمد الله به عباده المؤمنين إذا أخلصوا له، ولو فكَّر كل واحد منَّا في كل تاريخ حياته، لرأى أن الله ﷻ كان يرعاه بطريقة لم يحسب لها حسابًا، وكان يرزقه من حيث لا يحتسب، وكان يحرسه من حيث لا يحترس، وكان يخلِّصه من البلاء في الوقت الذي يظن فيه أنه ليس هناك خلاصٌ من البلاء، ليدرس كل واحد منكم تاريخ حياته، وسيجد أن في حياته إمدادًا غيبيًا إلهيًا لا يعرف من أين أتى، وكيف تحرك.

هذا الإمداد الغيبي الإلهي هو أمرٌ يمثل الحقيقة، إنْ على مستوى واقع المسلمين الفردي، أو على مستوى واقعهم الجماعي؛ ولهذا نجد أن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق]، قد يبتلينا الله، ولكنَّه في الوقت نفسه يخرجنا من مآزق كثيرة ومن مشاكل كبيرة، لا ندري عوامل نشوئها والمؤثرات التي تركتها؟!

لقد أودع الله في الحياة سننًا كونية وقوانين طبيعية، ولكن الله لم يجعل الناس يعيشون تحت ضغط هذه السنن والقوانين بشكل حديدي، بل إنه ﷻ يهيئ لهم سبيل الفرج والرحمة: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾[الطلاق]، ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح]، ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف].

ويركِّز ﷻ دائمًا على هذا المعنى، وأن على الإنسان أن يعيش على أساس أن لا تضغط عليه الأشياء المادية؛ ولهذا لا يمكن لمؤمن أن ينتحر؛ لأن مسألة الانتحار إنما تنطلق عندما يختنق الإنسان في ظروفه من كل جهة، والإنسان المؤمن لا يمكن أن يختنق أبدًا: ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف].

ولهذا أُحب أن أخاطب الشباب قبل الكبار؛ لأن تجارب الكبار في الحياة تجعلهم يحسون بسعتها أكثر من الشباب، خصوصًا من كان منهم في سنِّ المراهقة، ولم يملك تجربة كبيرة في الحياة، فيتصور أنها محصورة في جانب دون غيره من الجوانب، فيما الحياة تتسع لكل المراحل، من الضيق إلى السعة، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الشقاء إلى السعادة؛ ولذلك فإن عملية اليأس ليست واقعية من خلال طبيعة الحياة، لكن بعض الناس هو من يسجن نفسه في دائرة لا يسعى للخروج منها إلى دائرة أخرى، على الرغم من توفر الفرص والظروف.

وفي مسألة الإيمان بالله، فإن الكون كله يتسع لك؛ لأن ﴿ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ [البقرة]، إذ لا مشكلة إلا ولها حلٌّ، فالله لا يمكن أن يبتلينا دون أن يوجد لنا حلولًا لمشاكلنا، لكنه ﷻ لا يتصرف في الكون على أساس مصلحة الفرد، وإنما يتصرف على أساس المصلحة العامة والحكمة العامة للناس، وقد يرى سبحانه أن من المصلحة العامة أن يبتليك دون أن يحل لك المشكلة، وفي هذا الإطار لا تستطيع أن تقول إن هذه المشكلة لا حلَّ لها؛ لأن ﴿ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ [البقرة]، وأن يعمل الله أو لا يعمل فهذا راجع إلى حكمته ﷻ.

الزلزال الشديد: كانت وقعة الخندق تمثل مشكلة من أصعب المشاكل التي مرت على المسلمين؛ ولذلك سنحاول أن نرسم صورة الواقع الذي سبق وقوعها، لنلج بعد ذلك إلى الآيات لنعيش أجواءها، حيث كان مجتمع المدينة يضم في تشكيلته ـ عندما هاجر الرسول ﷺ ـ إلى جانب الأوس والخزرج عددًا من القبائل اليهودية من بني قريظة وبني قينقاع وبني النضير، وكان هؤلاء يمتلكون مواقع إستراتيجية مهمة، كما كان يوجد خارج المدينة اليهود من غطفان وخيبر والمشركون من القبائل، خاصة قريشًا.

ولما كان رسول الله ﷺ يعطي الأولوية في صراعه للمشركين، فإنه عندما دخل المدينة أقام معاهدة بين اليهود وبين المهاجرين ومختلف عوائل المدينة، وكانت بذلك أوَّل وثيقة تركز معنى الدولة، وعلى هذا الأساس دخل اليهود في عهد مع النبي ﷺ الذي كان عندما يخرج إلى الغزوات يشعر بالاطمئنان لوجود هذا العهد، بحيث لا ينقضه هؤلاء؛ لأن هناك تعايشًا بينهم وبين المسلمين آنذاك، ولكن بعض اليهود من بني النضير أو من آخرين فكَّر أن بمستطاعه أن يخلق حربًا جديدة بين المشركين وبين النبي ﷺ حسب رواية، أو كما جاء في رواية أخرى، حيث كان المشركون يفكرون بالهجوم على المدينة واقتلاع الإسلام من مواقعه الأساسية، وجاء اليهود ليثيروهم، أو لينسِّقوا معهم، ورحبت قريش باليهود الذين لعبوا دورًا مثيرًا في قضية الصراع، حتى إنه يقال بأن قريشًا عندما سألت اليهود عن الأهدى، فجاء رد اليهود بأنكم الأهدى، وقد قال تعالى عن هذه المسألة: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾[النساء].

وقد زجَّت قريش كلَّ طاقاتها في المعركة، يعضدها أحلافها في الجزيرة العربية، بعد أن انضمَّت إليها جماعات اليهود، ولم يبق إلا بنو قريظة خارج هذا التحالف؛ لأنها كانت مرتبطة بميثاقٍ مع المسلمين؛ ولذا حاول اليهود من بني النضير دفع قريظة إلى نقض العهد مع النبي ﷺ فامتنعت عن ذلك، ولكن الاستمرار في حالات الإقناع مكَّنهم أخيرًا من إقناعها بنقضه، بعد أن أغروهم بأن محمدًا ﷺ سيسقط جراء الحشد الهائل الذي تقدمت به قريش وأحلافها في المدينة.

سمع النبي ﷺ بالذي حصل، فأرسل شخصًا ليتأكد من صحة القضية التي سرعان ما اكتشف بأنها صحيحة، وهنا أصبح الاحتراز واجبًا: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، ما جعل المسلمين يعيشون حالةً من الإرباك؛ لأنهم أصبحوا محاصرين من جميع الجهات، وعاشوا الرعب والخوف ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، حيث كان يشعر الشخص عندما يرتجف قلبه ويخفق خفقات سريعة، كأن قلبه وصل إلى حنجرته من شدة الاهتزاز، وهذا ما أدخل المسلمين في حالة من الظن بالله ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾، إذ فقدوا كل أمل لهم بالنصر وهم على هذه الحال من الحصار المستحكم، كما فقدوا الأمل بالبقاء.

حرج المنافقين: كانت هذه محطة ابتلاء ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، في هذا الواقع الجديد ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ زلزالًا نفسيًّا، ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الذين وقعوا في حرج شديد، ما جعلهم يستغيثون بهذا وذاك ليركزوا مفاهيمهم ويخربوا الحالة الإيمانية في نفوس المؤمنين إن استطاعوا، ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا

وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾، فهم عندما وجدوا أنهم لا يستطيعون حراكًا من بيوتهم شككوا بأقوال النبي ﷺ الذي كان يعدهم بأنهم سيصلون إلى مدائن كسرى وقيصر، ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من هؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض، ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ وهو اسم المدينة قبل أن تُسمى بالمدينة، ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ لا مجال لكم، ﴿فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾، تحت ستار أن البيوت مكشوفة؛ لكي يسمح لهم النبي ﷺ بالخروج من المعركة، ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ﴾.

وقد كانوا يبغون من ذلك الفرار ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾، يعني جاؤوا من جميع الجوانب، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا﴾ أما في حال طُلب منهم أن يخلقوا الفتنة في داخل المجتمع المسلم للتنسيق مع المشركين لجاؤوا مسرعين ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾، يقول هؤلاء الناس الذين يخافون ويستأذنون النبي ﷺ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ﴾ أن يبقوا صامدين في وجه التحديات ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، فلو فررتم من الموت أو القتل فإن الموت ملاقيكم ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

الأسوة الحسنة: ويعطينا الله ﷻ صورة الجانب الآخر: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ كيف كان صامدًا وقويًا وصلبًا، فلم يهتز ولم يسقط، مع أنه كان هو المقصود بالدرجة الأولى من كل هذه الأحزاب، وعليكم أن تقتدوا به لتكونوا الأقوياء كما هو قوي، وتكونوا في مواقع الصلابة والشجاعة كما كان هو في مواقع الصلابة والشجاعة ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾، هذه الأحزاب التي اجتمعت من كل البلاد: ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾، بأننا سنجابه كل المشركين وكل أعداء الله؛ لأنه ﷻ كتب علينا الجهاد؛ لذلك قال ستدعون إلى قوم ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ﴾ [الفتح: ١٦]، وفي مواجهة التحديات ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾، إذ لا يسقط المؤمن أمام كل التحديات، لانفتاحه على الله ﷻ، على طريقة نبي المؤمنين وإمامهم الذي يقول لصاحبه: «**لا تحزن إن الله معنا**».

مواجهة الاختراق بحفر الخندق: قدَّم القرآن الكريم لنا الصورة التي استطاع فيها المشركون أن يخترقوا المسلمين، ومواجهة المسلمين لهذا الاختراق، وهذه حالة موجودة في حياة كل المؤمنين المجاهدين الذين قد يخترق العدو صفوفهم من خلال بعض نقاط الضعف، فيسيطر على مواقعهم، وهنا لا بد أن

يستعدوا ليواجهوا هذا الاختراق بطريقة يجعلون فيها العدو يلاقي الهزيمة، وهذا ما واجهه النبي محمد ﷺ بمشاورة أصحابه، كما كان الله ﷻ يأمر بذلك ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فأشار عليهم سلمان الفارسي ﷺ بحفر الخندق لعدم الالتحام مع العدو كما كان متبعًا في بلاد فارس، فأخذ النبي ﷺ بهذه الفكرة، وبدأ المسلمون بحفر الخندق وهو على رأسهم، واستكمل حفر الخندق، وما إن وصل المشركون إلى المدينة حتى فوجؤوا به؛ لأن هذه الطريقة في الحرب لم تكن مألوفة من قبل لدى العرب.

بدأ المشركون يفكرون باقتحامه، خاصة وأن القتال اقتصر على النبل والحجارة التي كان يرميها كل فريق على الآخر، ولكن كان هناك منطقة ضيقة في الخندق سمحت لعمرو بن عبد ود ومعه عدة أشخاص من اجتياز الخندق، ولكن بعضهم سقط في الخندق فرماه المسلمون وقتلوه.

وعمرو هذا كان أحد أبطال العرب، وربما جُرح في بدر، ونذر أنه سينتقم ويقتل محمدًا ﷺ، وقد لبث طوال هذه المدة يداوي جراحاته، أو أن هناك ظروفًا قد حالت دون اشتراكه في الحروب التي سبقت الخندق.

ولعلَّ عمرًا ـ كما كل المشركين ـ كان يتصور أن المسلمين لا يستطيعون مقاومة هذه الحملة، وبذلك يتحقق ما قطعه على نفسه من قتل محمد ﷺ؛ ولذلك ما إن اجتاز الخندق حتى وقف قائلًا للمسلمين بسخرية: إذا كنتم تقولون إن مَنْ يُقْتل منكم يذهب إلى الجنة، فمن يحب أن يذهب إلى الجنة، فأنا مستعد أن أقتله، وهو يصول ويجول ويرتجز ويقول:

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّدَا ... ءِ بِجَمْعِكُمْ: هَل مِنْ مُبَارِزْ؟

معركة الإيمان والشرك: والنبي ﷺ يقول: «**من لعمرٍ وقد ضمنت له على الله الجنة**»، فلا يقوم أحدٌ إلا علي ﷺ، فقال له: اجلس، ثم قال: أنا له يا رسول الله، وهكذا كان ينادي رسول الله ﷺ ولا يقوم أحدٌ إلا علي ﷺ، والنبي ﷺ يأمره بالجلوس، حتى قال له في المرة الثالثة: «أنت له»....وانطلق علي ﷺ، فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، قال: لقد كان أبوك صديقًا لي، وأنا لا أحب أن أقتلك، فليبرز لي غيرك، قال له: ولكني أحب أن أقتلك.

لأن الموقع ليس موقع علاقات شخصية، بل موقع رسالة، واشتدت العصبية بعمرو.

ويقال: إن الإمام عليًا ﷺ قال له: «إن كنتَ تقول ما دعاني أحد من العرب ممن أريد أن أبارزه إلى ثلاث خصال إلا أجبته إلى واحدة، قال له: نعم، فقال علي: أولًا: أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ لأننا لا نريد أن نقاتل أحدًا إلا بعد أن ندعوه إلى الإسلام ونقيم عليه الحجة، قال له: دع هذه، لو أردنا أن نقولها لقلناها بمكة، قال: إذًا أن ترجع بهذا الجيش من حيث أتيت، قال: ماذا تقول عني

نساء قريش، بأني جئت ولم أفِ بنذري، هذا ليس واردًا، ثم قال: أن تنزل للبراز، أنت فارس وأنا راجل، وذلك حتى نكون في وضع متكافئ.

وكانت النتيجة أن صرع علي ﷺ عمرًا وقتله وفرَّ من كان معه من الرجال ووقع بعضهم في الخندق، ثم جاءت الريح العاتية الشاتية القوية العاصفة، وخرَّبت كل تشكيلات قريش والأحزاب ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾.

اكتسب المسلمون قوة بذلك، ما مكَّن النبي ﷺ أن يندفع فيما بعد إلى بني قريظة فيجليهم عن المدينة، وبذلك لم يبقَ فيها أحد من اليهود، أما الذين كانوا في خيبر فقد استطاع النبي ﷺ أن يهزمهم بعد ذلك.

متى يحافظ اليهود على عهودهم؟: أما إيحاءات هذه القضية، فالإيحاء الأول هو أن اليهود لا عهد لهم، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ﴾ [البقرة:١٠٠]، ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧]، وإذ خاطبهم الله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، ولكن اليهود لا يعاهدون إلا إذا كانوا في موقع الضعف، وعندما يجدون من أنفسهم القوة ينقضون عهدهم.

[يقول الشيخ الغزالي: «وتبين أن حرص قريظة الأول على التزام العهد كان خوفًا من عواقب الغدر فقط، فلما ظنت أن المسلمين أُحيط بهم من كل جانب وأنها لن تؤاخذ على خيانة، أسفرت عن خيانتها، وانضمت إلى المشركين المهاجمين.

ومسلك بني إسرائيل بإزاء المعاهدات التي أمضوها قديمًا وحديثًا يجعلنا نجزم بأن القوم لا يدعون خستهم أبدًا، وأنهم يرعون المواثيق ما بقيت هذه المواثيق متمشية مع أطماعهم ومكاسبهم وشهواتهم، فإذا وقفت تطلعهم الحرام نبذوها نبذ النواة، ولو تَركت الحمير نهيقها، والأفاعي لدغها، ترك اليهود نقضهم للعهود.

وقد نبه القرآن إلى هذه الخصلة الشنعاء في بني إسرائيل وأشار إلى أنها أحالتهم حيوانًا لا أناسي، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال]». [فقه السيرة للغزالي ٣١١، ٣١٤].

[ويقول أ/ الشامي: «ولم يكن امتناع كعب ـ أولًا ـ عن نقض العهد، شرفًا ومروءة ووفاء، ولكنه قد رأى بأم عينيه ما آل إليه حال بني النضير وبني قينقاع، فلا يريد أن يصير إلى ما صاروا إليه.. فلما أقنعه حيي بأن الكسب محقق وأن القوة الموجودة على أبواب المدينة لا يمكن جمعها بعد اليوم، وأنها الفرصة

التي لا تعوض، وأن شرف النصر في هذه المعركة سيعود إليه.. فها هي قريش وغطفان ومن معهما لا يستطيعون القيام بأي عمل.. وأن انضمامه إليهم هو الذي سيحرز لهم النصر فيكون له شرفه، وذهب التطبع وعاد الطبع اليهودي إلى أصالته في الخيانة واللؤم». [من معين السيرة للشامي ٢٩٩-٣٠٠].

[ويقول د/ أبو فارس: «إن اليهود لا يحافظون على العهود مع المسلمين إلا إذا كانوا ضعافًا، وهذه المحافظة كما ترى ليست لطيب معدنهم، وحسن طويتهم، وحبهم للوفاء بالعهد والوعد والعقد، بل لعجزهم عن إلحاق الأذى بمن يكرهونه ويعاهدونه.

ومع هذا فإنهم رغم ضعفهم لا يسكتون ولا يتوقفون عن الكيد لكنهم يسلكون أسلوب التشكيك باللسان، وقد عجزوا عن استعمال السنان.

إن اليهود يُظهرون المسالمة عند ضعفهم، وينقلبون وحوشًا كاسرة عندما يستأنسون في أنفسهم القوة والغلبة وعند غيرهم الضعف والقابلية للهزيمة.

فأنت ترى أن كعب بن أسد زعيم بني قريظة قد كان مسالمًا لرسول الله ﷺ ولما شعر بقوته وقوة الأحزاب أعداء المسلمين يمكن أن ترجح على قوة المسلمين قد انقلب شريرًا يمزق الصحيفة، ويؤذي هو وقومه رسول الله ﷺ بالشتم القبيح، ويوجه الإهانة لسيد الأوس وللوفد الذي جاء إليهم وهو في دارهم.

لماذا تردد كعب بن أسد في نقض العهد؟: إن تردد كعب بن أسد زعيمهم في نقض العهد الذي كان بينه وبين الرسول ﷺ لم يكن نابعًا من مروءة الرجال، وخلق الوفاء؛ بل لأنه كان يشك في قدرة الأحزاب على سحق المسلمين وإفنائهم والقضاء عليهم، إذ لا خلاف في الهدف بين اليهودي كعب بن أسد القرظي، وبين أبي سفيان، وسائر قادة الأحزاب، فالجميع يهدفون إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، ويتحينون الفرص المواتية لذلك، ولكن الاختلاف كان في تقدير الظروف والإمكانات، فهل الظروف مواتية ومناسبة للانقضاض؟ وهل الإمكانات المتوافرة تحقق الهدف الخبيث المشترك؟

ولما أقنعه حيي بن أخطب بأن الفرصة سانحة، والظروف مواتية، والإمكانات متوافرة كافية سارع إلى نقض العهد، وتمزيق الصحيفة، واتخاذ التدابير العسكرية مع الأحزاب، الكفيلة في ظنه ووهمه لسحق المسلمين والتخلص منهم، تأمل قول حيي لكعب: **(جئتك بما تستريح به من محمد)**، وتأمل قوله أيضًا **(ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر)**». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٣-٢٥].

فقد نقض اليهود العهد عندما رأوا المشركين جاهزين للهجوم على المدينة لإسقاطها، وأبدوا استعدادهم للتنسيق مع أيٍّ كان؛ لأنهم يعتبرون الإسلام في كل مواقعه يختزن حيوية في فكره وفي سياسته

وفي اقتصاده، الأمر الذي يمنعهم من تحقيق أهدافهم والوصول إلى أطماعهم وتأكيد شخصيتهم، سيما وأنهم يرون أنفسهم شعب الله المختار المؤهَّل للسيطرة على العالم.

وهذا ما يجب أن نعيشه ونتحسَّب له أمام كلِّ دعوات «السلام» مع «إسرائيل» ومع يهود العالم؛ لأنه إذا لم نقل: إن كل يهود العالم ينسّقون مع «إسرائيل» ويحاربون كل المسلمين اقتصاديًّا وسياسيًّا وثقافيًّا لمصلحة «إسرائيل»، فعلى الأقلِّ فإن أكثرية اليهود كذلك.

ولو سلَّمْنا جدلًا بأن الصلح يُشكل مسألة واقعية على المستوى السياسي، كما يقول بعض الناس الذين يتحدثون عن الواقعية، فإن هذا بخلاف ما ينطق به تاريخنا الإسلامي، وقرآننا الكريم الذي يقول: إنه ليس لليهود عهد؛ لأنهم ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧]، وإذا كانوا يتحدثون الآن عن «السلام» ويزايدون في بعض الحالات، فهم يتحدَّثون عن القوى الإسلامية التي تقف ضدَّ «إسرائيل»؛ لأنها لا تعترف بشرعية وجودها ولا تهادنها بشيء، سواء كان الإسلاميون في فلسطين من أبطال الانتفاضة أو الإسلاميون في لبنان من أبطال المقاومة، أو الإسلاميون في سائر أنحاء العالم؛ لأن مشكلة هؤلاء ـ حسب زعمها ـ أنهم ضد «السلام»، وهي حمامة «السلام»، قاصدة من وراء كل ذلك إثارة الغرب والرأي العام الدولي، بأن هؤلاء هم دعاة حرب لا دعاة «سلام».

لذلك لابد لنا كمسلمين أن نحمل في عقولنا وفي قلوبنا هذه الفكرة القرآنية عن اليهود، وقد بيَّن الله تعالى ذلك: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ [المائدة: ٨٢].

بناءً لما تقدم، علينا أن نعي حقيقة التحالف الذي وقع بين المشركين واليهود في وقعة الأحزاب؛ لأن هذه حقيقة قرآنية وسياسية على مستوى الزمن كلِّه؛ ولذا يجب أن نستوحي مفاهيمنا السياسية في علاقاتنا بكل المحاور الموجودة في العالم من الحقائق القرآنية، والقرآن عندما يحدثنا عن اليهود يحدثنا عن تجربة من زمن موسى عليه السلام إلى زمن النبي ﷺ ناهيك عن التجارب الأخرى التي يتحدث عنها التاريخ، ما يجعلنا نرتكز على قاعدة مفادها أن حالة العنصرية والعدوانية متجذِّرة في الشخصية اليهودية.

إزاء هذا الواقع علينا أن نثقف أولادنا على أساس أن اليهود يشكلون خطرًا حقيقيًّا على الإسلام وعلى المسلمين في كل قضاياهم؛ لأنه إذا قُدِّر للعبة الدولية أن تحقق أهدافها من خلال عملية الصلح بين العرب وإسرائيل، فإن أمريكا سوف تُدخل إسرائيل في كل الواقع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والمالي والأمني من خلال المفاوضات المتعددة الجنسيات، أو من خلال المفاوضات الثنائية، وذلك عن طريق فرض الأنظمة، وعندما يدخلون إلى بلادنا تحت عنوان «السلم»، فإنهم سيحققون بذلك ما عجزوا عن تحقيقه بالحرب.

هذه المسألة هي برسم كلِّ المسلمين في العالم، فمثلًا إذا كنت ملتزمًا إسلاميًّا، هل تشتري الخمر لتشربه؟ هل تأكل لحم الخنزير؟ هل تأكل لحم الميتة؟

إنك تقول: لا يمكن ذلك، إن التعامل مع إسرائيل وإيجاد حالة تطبيعية معها هو تمامًا كأكل لحم الخنزير، وكشرب الخمر؛ لذلك نقول حتى للناس الذين يعيشون في المناطق التي تسيطر عليها «إسرائيل»، أو الناس الذين تدفعهم إلى أن يهرِّبوا البضائع «الإسرائيلية»، إن ذلك حرام وإن المال الذي تأكلونه من ذلك سحت.

وبما أن المسألة لا تقتصر على الجانب السياسي فحسب، فإننا نكون بذلك قد عملنا على تقوية «إسرائيل» من الناحية الاقتصادية، وهذا يعني أننا نمدها بالقوة اللازمة لتهزم قوتنا، وبالقوة العسكرية لتقتل أهلنا وأطفالنا ونساءنا وشيوخنا، وهذا ما يقوم به الذين يتجندون «لإسرائيل» عسكريًّا.

والنقطة الثانية التي نستطيع أن نستفيدها من موقعة الخندق، هي أن المشركين كانوا في موقع الكثرة المحاصرة للمسلمين، بينما كان المسلمون أقل عددًا وعُدة ومحاصَرين، ومع ذلك فإن الله هزم الكثرة وأعز القلة، وشرَّد المحاصِرين وأعزَّ المحاصَرين، وهذه هي الحالة التي نقرأ خلاصتها دائمًا في التعقيب: «**لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**».

ومن خلال هذه الصورة، علينا أن نفهم أنه ليس من الضروري أن تولد لنا الهزيمة يأسًا؛ لأننا إذا أخذنا بأسباب القوة فيما نريد أن نحقق لأنفسنا القوة، فقد نستطيع أن نهزمهم بطريقة وبأخرى، فإذا استطعنا أن نهزمهم في المواقع الصغيرة، فإن ذلك يعني أننا طوَّرنا قوتنا، ونستطيع أن نهزمهم في المواقع الكبيرة.

ولذلك علينا دائمًا أن نفكر كأمة ولا نفكر كأفراد؛ لأننا إذا فكرنا كأفراد نشعر بالضعف، أما إذا فكرنا كأمة فإننا لا ريب سنشعر بالقوة، وعلينا أن لا نفكر فقط بالجانب المادي من حياتنا، بل أن نفكر بالجانب الروحي أيضًا الذي يربطنا بالله ﷻ.

وعلى هذا الأساس، ينبغي أن نفكر ونمتلك الوعي السياسي الذي نحيط من خلاله بخلفيات الأمور وعمق القضايا والأشخاص، علينا أن لا نفكر لحظة واحدة أن الذين يسيطرون على الواقع العربي وعلى كثير من الواقع الإسلامي يمثلون الضمانة للعرب وللمسلمين في قضايا الحرية والعزة والكرامة والعدالة؛ لأن الكثيرين منهم موظفون لدى الاستكبار العالمي، بحيث لا يعتبرون أن إسرائيل تشكل خطرًا عليهم، إنما يجدون الخطر كل الخطر في الإسلام ـ الذي يحكمون باسمه ـ إذا تحرك من أجل أن يؤكد مفاهيمه وشريعته. ا.هـ.

المبحث الثاني
الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ حيي بن أخطب يعبث بالقيم:

يقول د/ حبيشي: «علم حيي أن الحلفاء مختلفون في أهدافهم، فمنهم من يقاتل حمية، ومنهم من يقاتل مأجورًا على ما علمتَ.

وعلم حيي والذين معه من أقطاب اليهود، أن العرب الذين قرروا حرب النبي ﷺ لم يجتمعوا على قائد واحد منهم، يسلمون له قيادهم، يأتمرون بأمره، وينتهون حيث نهى، وهذه نقاط ضعف قد تفت في عضد الحلفاء في لحظة واحدة من عشية أو ضحاها.

وحين علم حيي هذه المسألة وتلك، رأى أن يحتاط للمعركة، وأن يسرع بنتائجها، ففكر وقدَّر، وتأمل وتدبر، فلم يجد إلا أن يحاول أن يضغط على النبي ﷺ من الداخل، حتى يُلجئه إلى بعثرة قواته، فيسحب جزءًا منها لحماية ممتلكات المسلمين ونسائهم وذراريهم من وراء ظهورهم، وحينئذ يعطي الحلفاء فرصة لاقتحام الخندق والتمكن من النبي ﷺ ورفاقه.

وانتهى حيي من تفكيره إلى أنه لا يمكن أن يحقق له هذا الهدف إلا يهود بني قريظة، وزعيمهم كعب بن أسد.

غير أن الطريق إلى إقناع اليهود من بني قريظة صعب ووعر، إذ إن العلاقة بين النبي ﷺ وبين هذا الحي من اليهود علاقة ممتازة.

فهم قد دخلوا معه في معاهدات سلام، والتزموا ببنودها، ووفى لهم النبي ﷺ والمسلمون معه بعهودهم أحسن الوفاء وأكمله.

وهم قد دخلوا معه ومع المسلمين في علاقات اجتماعية ومجاملات الجوار، بحيث كانوا يتبادلون المنافع، ويتعاورون أدوات الزراعة يتبادلونها فيما بينهم، وما زال عند النبي ﷺ والمسلمين المساحي والمكاتل التي استعارها المسلمون منهم في حفر الخندق.

وهم قبل ذلك وبعده أصدقاء للأنصار، خاصة هذا الحي من الأوسيين، والذين كانت تربطهم بهم علاقات استمرت إلى هذا التاريخ لا تشوبها شائبة.

وهذه أمور يكفي بعضها لوضع العراقيل أمام حيي ورفاقه، لو أنهم أرادوا أن يقنعوا بني قريظة كي يخرجوا على النبي ﷺ نابذين له العهد، يخلعون عروة السلام من أعناقهم.

ومع ذلك فإن حييًا لم ييأس، ولم يعبأ بمثل هذه العراقيل، حيث رأى من نفسه ومن رفاقه القدرة باصطناع الحيلة على أن يتجاوز كل صعوبة.

ولم يكن أمام حيي من وقت يضيعه، فإن العيبين اللذين لاحظهما في جيوش الحلفاء من تبعثر الأهداف وتعددها، ومن تعدد القادة، لم تُبق له وقتًا يضيعه.

وأسرع حيي إلى آطام بني قريظة وحصونهم متخذًا من الظلام سترًا يستتر به، ومن الليل جملًا يمتطيه، ودار بينهما الحوار الذي رأينا.

ردود فعل موقف حيي: فتل حيي لبني قريظة في الذروة والغارب، وظل يمارس فتله لهم حتى استأنس البعض منهم.

وكان لفعلته هذه ردود فعل مختلفة.

أما زعيم القوم وهو كعب بن أسد، فقد نزل على رأي حيي بعد أن أعنته وأرهقه في الجدال والحوار، ووافقه على كره منه، وأعلن أنه مستعد لنقض عهد رسول الله ﷺ والخروج عليه.

ولم يكن هذا رأي جميع القرظيين، إذ يرى البعض منهم أن في نقض العهد مع النبي ﷺ مجافاة للخلق الرشيد، والسلوك المستقيم، ونقض العهد فوق ذلك مضاد لمصلحتهم، ومناوئ لأمنهم وأمانهم.

وقام البعض منهم يعترض على حيي وكعب، ويرد عليهما رأيهما بسلطان الحجة المقنعة، وسطوة الإقناع الذي يعززه الدليل.

ومن هؤلاء عمرو بن سعدى الذي وعظهم وخوفهم سوء فعالهم، وذكَّرهم ميثاق رسول الله ﷺ وعهده، وقال لهم: إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه، فأبوا.

وهناك طائفة أخرى لم تكن على رأي كعب، ولا هي وقفت عند حدود رأي عمرو بن سعدى، وإنما اتخذت القرار الرشيد الذي يناسبها في مثل هذه الظروف.

وليس هناك رأي أرشد من رأي يسوق الإنسان باختياره إلى أن يأمن على نفسه وماله وذريته، فيعتنق ما اقتنع به من الدين الجديد الذي جاء به النبي ﷺ، وبشَّر بمقدمه التوراة والإنجيل جميعًا مع ذكر صفاته التي يعرفها كل يهودي لا ينكر منها شيئًا.

اتخذت هذه الطائفة قرارها الرشيد، فخرجت إلى النبي ﷺ، وأعلن كل واحد منها إسلامه بين يديه، فعصم بإسلامه دمه وماله وولده، حيث خرج إلى رسول الله ﷺ من بني قريظة بنو سعية: أسد وأُسيد (أُسيد: هكذا بضم الهمزة تصغيرًا، وقيل بفتحها على وزن أمير) وثعلبة فكانوا معه وأسلموا.

ومهما كان هناك من اختلاف ردود الفعل، فإن كعبًا ومن شايعه على رأيه كانوا يتوجسون خيفة من الموقف بتمامه، خاصة ما قد علموه من الحلفاء من اختلاف الهدف وتبعثر القيادة.

وقد حاولوا أن يؤمنوا خوفهم ببعض المواثيق يأخذونها على حيي ومن معه، منها: أن حييًا يبقى معهم في حصنهم له مالهم وعليه ما عليهم، فإن هم واجهوا مصيرًا لا يريدونه، فعلى حيي أن يواجه معهم نفس

المصير، ومنها: أنه يجب على حيي أن يأخذ الرهائن من قريش وغطفان وسائر الحلفاء ويدفع بهم إلى بني قريظة، حتى إذا ما فر الحلفاء من وجه النبي ﷺ، واضطر بنو قريظة إلى أن يعتذروا للنبي ﷺ ويكفروا عن فعلتهم، كان معهم هؤلاء الرهائن من كبراء الحلفاء يدفعون بهم إلى النبي ﷺ تطيب بهم نفسه، ويغفر لهم ما ارتكبوه من الآثام.

ووافق حيي على شروط القوم وأعطاهم على ذلك العهد والميثاق، وأعلن بنو قريظة الخروج على النبي ﷺ، ونبذ عهده إليه». [**رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٢٢-١٢٧**].

٢ ـ الرسول ﷺ والمسلمون أهل عهد ووفاء:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما أقر به اليهود ـ يهود بني قريظة على لسان زعيمهم كعب بن أسد، فهم باعترافه لا ينقضون عهدًا لأن الله ﷻ أمرهم بالوفاء، وحرَّم عليهم الغدر ونقض العهد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[المائدة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾[الإسراء]». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٧**].

ويقول د/ أبو فارس أيضًا: «إن رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أوفياء بالعهد، لا يخيسون به، ولا ينكثون عقدًا عقدوه، هذا ما شهد به الأعداء قبل الأصدقاء، ونطق به زعيم يهود بني قريظة، فهو يقول لحيي: «**فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً**».

ليس هذا الخلق وهذه السجية سجية المسلمين مع اليهود، بل هي صفاتهم الحميدة الملازمة لهم، لا تغادرهم في أحلك الظروف وأقساها، وإنما اتصفوا بهذه الصفات النبيلة، وتخلقوا بهذه الأخلاق الكريمة؛ لأن الإسلام يعلمهم إياها، ويُوجب عليهم أن يتحلوا بها، حتى يستحقوا الأجر الجزيل من الله تبارك وتعالى، وإن هم تخلوا عنها فليسوا أمناء على دعوته ودينه، ومن ثم لا يستحقون الاستخلاف في الأرض.

إن دينهم يحرم عليهم الغدر ويعد ذلك من خصال المنافقين التي لا تليق بالمؤمنين وما ينبغي لهم أن يفعلوها، فقد قال ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا، أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ، حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**».

[**البخاري في المظالم (٢٤٥٩)**].

ومن الجدير بالذكر أن صفات المنافقين التي ذكرها الحديث النبوي الشريف قد تعلموها من أساتذتهم اليهود، أو بعبارة القرآن من شياطينهم، قال تعالى يتحدث عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾[البقرة].

قال غير واحد من المفسرين: المراد بشياطينهم اليهود، فهم الذين يعلِّمونهم هذه الأساليب الشيطانية ويُنَظِّرون لهم ويفكرون». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٥-٢٦**].

٣ ـ الاتعاظ بالغير:

يقول د/ أبو فارس: «بنو قريظة أشقياء لم يتعظوا بغيرهم، بل اتعظوا بأنفسهم، إن ما جرى لبني قينقاع وبني النضير من ثمار مُرَّة لنقضهم العهد كان كافيًا لبني قريظة أن يعتبروا، فلا يسيروا إلى حتفهم بظلفهم كما يقولون.

لقد كان بنو قينقاع وبنو النضير أكثر نفيرًا وأموالًا، فما أغنت عنهم أموالهم، ولا أولادهم شيئًا، فأُخرجوا صاغرين من المدينة، يجرون أذيال الهزيمة والخيبة، فكيف يَقْدُم بنو قريظة على جريمتهم النكراء ولا يكون مصيرهم سيئًا، وزادُهم الصاب والعلقم.

أقول: بأن هذا الدين سينتصر بإذن الله، وستكون له صولة وجولة، وتصونه دولة، لها قوتها الضاربة، وجيوشها الغازية بإذن الله، تنشر دينه، وتبلِّغه للناس كافة، وعلى الذين يقاومون الإسلام ودعاة الإسلام وأتباع الإسلام أن يعتبروا ويتعظوا، فإن جند الله هم الغالبون، والعاقبة للمتقين: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾[الشعراء]». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٦**].

٤ ـ من طبائع اليهود الخيانة والغدر:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان من بنود الوثيقة الدستورية التي كتبها الرسول ﷺ ينظم فيها أحوال شعب المدينة وفئاته: «**لَا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا، وَإِنَّ بَيْنَهُمْ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ**».

واليهود هم من فئات الشعب في المدينة المعنيين بهذه الوثيقة، والعهد يُلزمهم بمعاداة قريش ومن ناصر قريشًا، ومأمورون بالدفاع عن المدينة إذا دهمها عدو، ولكنهم لم يفوا بالتزاماتهم.

لم يكتف بنو قريظة بعدم الالتزام بوثيقة العهد وبنودها بل تجاوزوا الحد ووقفوا مع الأحزاب التي جاءت تهاجم المدينة، وقد تعهدوا بالدفاع عنها، وقفوا مع قريش التي حرمت الاتفاقية أو الوثيقة التعاون معها ومع من ناصرها، وقفوا بكل إمكاناتهم ضد المسلمين، وضد الدولة الإسلامية، التي ضمنت لهم الحرية الدينية والاعتقادية والتعبدية، وصانت دماءهم وأعراضهم وأموالهم، هل هذا الإحسان يُجزى بالخيانة والغدر؟! وهل هذا الوفاء يُقابَل بالتآمر؟!

لقد صدق رسول الله ﷺ حين قال: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ [فَافْعَل] مَا شِئْتَ**». [**البخاري في الأدب (٦١٢٠)، وفي أحاديث الأنبياء (٣٤٨٣ و٣٤٨٤)، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٩)، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٣)، وأحمد في المسند ٢٨/ ٣١٨، ٣٢٥، ٣٣٢ رقم ١٧٠٩١، ١٧٠٩٨، ١٧١٠٧، ٣٧/ ٣٣ رقم ٢٢٣٤٥...**].

إنه انعدام الحياء والمروءة والشهامة والرجولة والوفاء». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٦-٢٧**].

ويقول د/ أبو فارس أيضًا: «إن أطراف العهد حينما يعقدون عهدًا بينهم، يطمئن كل طرف من الآخر، ويأمن كل طرف غدرته وأذاه، وإذا بهذا الذي اطمأن إليه، وأمن جانبه يفاجئه بطعنة من الخلف وهو غير مستعد لها، ولا متوقعًا إياها، أليس هذه خصلة ذميمة وعملًا مشينًا يشين صاحبه، إن أصحاب المروءة من الرجال يرفضون هذا التصرف سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، فهو مستقبح عند العقلاء، والأتقياء، إذ الخيانة والغدر محرمة عند جميع الشرائع السماوية، والقوانين الوضعية، بل وتضع لها عقوبة زاجرة». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٠٠**].

ويقول د/ أبو خليل: «وبنقض بني قريظة لعهودهم مع رسول الله ﷺ، أصبح المسلمون غير مطمئنين على مصير ذراريهم وأولادهم الذين في مؤخرة الجيش في الحصون والآطام.

وعقاب وتأديب بني قريظة أمر أصبح في الحسبان، مع أن رسول الله ﷺ، ليس عاجزًا عن الصفح، ولكن استحق بنو قريظة بجدارة عقابًا مناسبًا؛ لنقضهم العهد وتمزيقهم الصحيفة والنبي ﷺ والمسلمون في أشد الساعات حرجًا.

لقد كان حيي بن أخطب يمثل الحقد الذي اشتعل في قلوب اليهود ووجَّه سياستهم، لعلهم اعتقدوا أنهم يملكون الحقيقة المطلقة فصاروا لا يطيقون التسامح مع من لم يكن على دينهم، ومالوا إلى إبقاء سيطرتهم على المجتمع العربي تحقيقًا لمصالحهم المادية والسياسية، فمالوا إلى إلزام الناس بهذه الزعامة، ولم يتأخروا عن الغدر والقتل والخيانة إذا قدروا عليه.

وبعد الخندق سنرى أن آمالهم ضاعت في أمانيهم». [**غزوة الخندق لأبي خليل ١٠٣-١٠٤**].

٥ ـ التحذير من الصديق المشؤوم السيئ:

يقول د/ أبو فارس: «لقد ظهر لنا من موقف حيي بن أخطب مع كعب بن أسد وإقناعه بنقض العهد ما أثَّر على مستقبل كعب وقومه بني قريظة، إذ ارتكبوا الخيانة العظمى نتيجة إغرائهم بها حتى نالوا ما نالوا جزاء وفاقًا لما عملوا وما اقترفوا.

إن صديق السوء يضر ولا ينفع، ويؤذي صاحبه، ويتخلى عنه في النهاية في الدنيا والآخرة، قال تعالى يحكي لنا أثر الصديق السيئ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾[الفرقان].

فها هو ذا أبو جهل الصديق المشؤوم السيئ يكون سببًا في حرمان عقبة بن أبي معيط نعمة الإيمان وحسن الختام.

أقول: لقد كان بوسع كعب أن يجنب نفسه وقومه العاقبة الوخيمة لو تجنب أقران السوء كحيي وغيره.

والمسلم مطلوب منه شرعًا أن يبتعد عن قرين السوء ويهجره، ومطلوب منه أن يختار القرين الخيِّر ويحرص على مصاحبته والاستفادة منه». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٧].

٦ ـ رد الأخبار إلى أولي الأمر قبل إشاعتها:

يقول د/ أبو فارس: «من موقف عمر بن الخطاب ﷺ في إخباره للرسول ﷺ بما سمع من خبر بني قريظة درس نستنبطه، هذا الدرس: إذا سمع المسلم خبرًا ينبغي ألا يفشيه ويتحدث به بين الناس حتى ولو كانوا مسلمين؛ لأنه قد يؤذيهم ويخدم مخططات العدو من حيث لا يشعر، والواجب أن يرده إلى أولي الأمر للدراسة والتحليل واتخاذ الموقف المناسب.

وهذا الدرس في غاية الأهمية بالنسبة للجماعة المسلمة التي تبلِّغ دين الله للناس، وتصارع الجاهلية وأهل الجاهلية.

ولقد أرشدنا الله ﷻ إلى هذا الدرس في القرآن الكريم بعد أن حذر من إشاعة الخبر الذي يتعلق بأمن الجماعة، وعاب من يفعل ذلك، قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾[النساء: ٨٣]». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٨].

٧ ـ التأكد من صحة الخبر:

يقول د/ أبو فارس: «نعم إن المسلم إذا سمع خبرًا من الأخبار ينبغي أن يستوثق من صحة الخبر قبل أن يتصرف أي تصريف من التصريفات، فيُعامل الناس بناء على خبر مظنون قد لا يكون دقيقًا أو صحيحًا، وهذا ظلم للآخرين، وبناء الأحكام على الظن كما ترى ظلم يرفضه الشارع الحكيم وينكره: «**يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَـمُوا**».

[حديث قدسي رواه الإمام مسلم في صحيحه، مختصر مسلم للمنذري رقم ١٨٢٨].

ولقد نهى الشارع عن اتباع الظن قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾[النجم]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٨].

٨ ـ حُسْنُ الاختيار يدل على المعرفة بمعادن الرجال:

يقول د/ أبو فارس: «لقد اختار رسول الله ﷺ نفرًا يستطلعون الخبر بشأن بني قريظة ونقضهم لعهد رسول الله ﷺ، فكان اختيارًا موفقًا، إذ كان النفر من الأنصار الذين يعرفون بني قريظة، وبعضهم كان حليفًا لهم في الجاهلية، وهم أعرف باليهود من المهاجرين، وكلمتهم ربما تكون مسموعة أكثر من المهاجرين عند اليهود، لا سيما سعد بن معاذ ﷺ زعيم الأوس، وسعد بن عبادة ﷺ زعيم الخزرج.

نعم إن النبي ﷺ يختار الرجل المناسب للعمل المناسب، وهكذا كان في اختياره للنفر من الأنصار، فهم أقدر الناس على التفاهم مع اليهود والتعامل معهم». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٩].

٩ ـ اليهود قوم بذيؤون:

يقول د/ أبو فارس: «من مقابلة يهود بني قريظة للوفد وكلامهم له، يلاحظ المرء قلة أدبهم، وسوء أخلاقهم، وبذاءة لسانهم مع زعماء الأوس والخزرج واعتدائهم بألسنتهم الفاحشة البذيئة على رسول الله ﷺ الذي بشَّر به أنبياؤهم وأوجب الله عليهم الإيمان به وتصديقه واتباعه وتوقيره واحترامه.

إن هذا الدين يؤدب أصحابه وأتباعه ويربيهم على حسن الخلق، وعفة اللسان، ونظافة اليد والفرج، وعدم الإساءة للناس بالقول الفاحش البذيء، بل وعدم مقابلة هذا الفحش والتفحش الذي يصدر عنهم بمثله.

وها هو ذا سعد بن معاذ ﷺ زعيم الأوس يعطينا الصورة المشرقة لهذا الأدب، ولهذا الخلق، فيواجه اليهود وهم يوجهون إليه العبارة البذيئة: (**أَكَلْتَ أَيْرَ أَبِيك**) بالكلام التالي: **غَيْرَ هَذَا القَوْلِ أَحْسَنَ مِنْهُ**».

[**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٠، الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٣٤**].

ويقول د/ أبو فارس أيضًا: «إن لليهودي طبيعة ينفرد بها عن جميع الناس، ولليهودي خلق وسلوك شاذ يتميز به عن غيره، وسرعان ما يكتشفه غيره، ومما يُعرف عن اليهود بذاءة اللسان وسوء الأدب في مخاطبة الناس إذا كانوا أقوياء، أو آنسوا في أنفسهم القوة، تأمل عبارة يهود بني قريظة لسيد الأوس سعد بن معاذ ﷺ وهو حليفهم في الجاهلية، وله عليهم فضل، حينما آنسوا قوة في أنفسهم مع غيرهم يتخلون عنه ويوجهون له كلامًا هو: ... إنه كلام فاحش بذيء لا يصدر إلا عن أناس لا خلاق لهم.

وإن الكاتب ليذكر كلامًا قريبًا من هذا قاله رئيس الوزراء اليهودي (بيغن) في الكنيست عندما تحدث عن علاقة الدولة اليهودية مع دولة عربية مجاورة، وتكلم بحق رئيسها كلامًا لا أقول يشبه ما نطق به اليهودي القرظي، ولكنه كان أفحش وأوقح، ومن المؤسف أن رئيس هذه الدولة قتل نفسه من أجل عمل سلام مع بيغن، وصدق رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ [فَافْعَل] مَا شِئْتَ**». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٣٣**].

١٠ ـ عدم إفشاء أمور السوء:

يقول د/ الزيد: «أوصى الرسول ﷺ الصحابة الذين ذهبوا إلى بني قريظة، ليتأكدوا من الخبر بأن يلحنوا له لحنًا يفهمه الرسول ﷺ ولا يفهمه الصحابة الآخرون إن كانت بنو قريظة نقضت العهد، وإن كانوا لم ينقضوا العهد أعلنوا ذلك للناس، وهكذا أمور السوء لا تُعلن ولا يُتحدث بها ولا تُفشَى بين الناس، فإن هذا من الإرجاف والتخويف للناس وهو أمر يسُرُّ العدوَ، ويَفرح به، ويُحزن المؤمنين، أما لو كان الأمر على عكس ذلك حينما يكون أمر خير، فإنه يُعلن لتقوية نفوس المسلمين؛ ولهذا ينبغي على الشخص أن يحفظ لسانه من الحديث حتى ولو كان الحديث صدقًا، فليس كل ما يُعلم يقال، وليس كل

ما يُقال يُقال على كل حال، فإن المؤمن كيِّسٌ فَطِنٌ يدرك آثار كلامه، فإذا كان يؤدي إلى ضرر كف عن الحديث بل وكتمه ومنع الناس من الحديث فيه». [فقه السيرة للزيد ٥٠٢].

١١ ـ إظهار الجلادة والصبر في أوقات المحن:

يقول د/ أبو فارس: «إن استقبال النبي ﷺ لخبر نقض العهد كان في غاية السلامة والحكمة، إذ لم يظهر عليه تأثر وارتباك، فيؤثِّر هذا في معنويات المسلمين المقاتِلين، بل أشاع الأمل في النفوس، وبشرهم بنصر الله، فقال: **اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَبْشِرُوا بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**.

إن الذي استوقفني وشد أعصابي، وأوقف شعر رأسي، وأصاب جلدي قشعريرة من عبارة الرسول ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ!**»، نعم عبارة: **اللهُ أَكْبَرُ!** في هذا الموطن، وفي هذا الوقت العصيب، وفي هذا الظرف المضطرب، والبرد الشديد، والتآمر من الأعداء، واجتماع طواغيت الكفر على التصدي لرسول الله ﷺ وأصحابه لتحطيمهم وإبادتهم.

إني أستشعر (**اللهُ أَكْبَرُ!**) بمعناها الذي سرى في أوصال كل مقاتل، وجرى في عروقه، نعم (**اللهُ أَكْبَرُ!**) من الأحزاب، الله أقوى من كل القوى، الله أكبر من قريش، الله أكبر من يهود بني قريظة، الله أكبر من كل شيء على وجه هذه الأرض، ليس لأحد بالله من طاقة، ورسول الله ﷺ والمسلمون يلوذون به، ويلجأون إليه، فلا تستطيع قوة في الأرض أن تهزمهم وهو معهم، يحتمون بحماه، ويلتزمون أمره، ويطيعون رسوله.

إن رسول الله ﷺ كان في كل خطوة يخطوها من خطواته العسكرية يعتقد بأنه سينتصر؛ لأنه صاحب حق يعتز بالانتساب إليه، ويتشرف بحمله، ويبذل كل ما في وسعه للوقوف بجانبه، ولديه استعداد لأن يتحمل المسؤولية كاملة نتيجة حمله لهذا الحق، فهو أكثر ثقة في الله وفي نصره، وفي تأييده، وعونه، مهما علا الباطل وانتفش وارتفع، وأصبح له جنود وأعوان. [المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية ٥/ ٥٨].

وإذا كان الله معنا ينصرنا على قوى الكفر، فإنها بشارة النصر والأمل، يزفها رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أَبْشِرُوا بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**».

ومن هنا كانت البشارة بعد ذلك لهم لأنهم مع الله ويقاتلون في سبيل الله ولن يتخلى الله عنهم.

نعم لقد كان في الجو ما يؤلم ويحزن، ويُقلق النفس ويؤرق العين، ويشغل البال، من تكالب الأحزاب على المسلمين، وحصارهم مدة طويلة، ونقض بني قريظة العهد، لكن الواجب على القائد الشجاع، أن يتجاوز هذا كله، وأكثر منه، ويُظهر تجلده وصبره ويتجمل بهما، هذا ما علمنا إياه رسول الله ﷺ من سيرته النبوية العطرة، وغزواته العسكرية المظفرة، وهكذا ينبغي أن يكون كل قائد محارب ينتسب لهذا

الدين، ويعتز به، وهكذا ينبغي أن يكون كل قائد يحمل الراية ويقود المسيرة، وهكذا ينبغي أن يكون كل داعية مصلح، لا تفت في عضده المشاكل، ولا تصده العقبات عن الاستمرار في الطريق حتى النصر أو الشهادة، إنه يحمل الراية ويقود المسيرة، والناس يثبتون بثباته، وينهزمون بانهزامه، فليتعلم من رسول الله ﷺ الثبات أمام الملمات، والمحافظة على المعنويات عند أتباعه وجنوده».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥١-١٥٢، الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٣٤-٣٦].

١٢ ـ المؤمن ينظر بنور الله:

يقول د/ أبو فارس: «إن تهديد سعد بن معاذ ﷺ ليهود بني قريظة، بسوء العاقبة، نتيجة نقضهم العهد مع الرسول ﷺ ومع المسلمين، يدل على فراسة سعد ﷺ، واطمئنانه رغم كل الظروف القاسية، إلى نصر الله ﷻ، ومن ثم تأديب هؤلاء الخونة الغادرين الذين تمالأوا مع الأحزاب الكافرة على رسول الله ﷺ.

ولقد تحقق هذا التهديد والوعيد الذي أراد سعد ﷺ أن ينبههم إلى خطورته إن هم استمروا عليه، نعم لقد تحقق كل هذا وعلى لسان سعد بن معاذ ﷺ ويده، وقد طلبوه ليحكم بينهم وبين الرسول ﷺ، طمعًا في مساعدته ومحاباته لأنه كان حليفهم في الجاهلية، فحكم بقتل محاربيهم وسبي نسائهم وذراريهم وأن تكون أموالهم غنيمة للمسلمين ». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٢].

١٣ ـ المحنة الكبرى:

يقول د/ المجدوب: «وكيف لا يعظم البلاء ويشتد الخوف وقد وجد المسلمون أنفسهم فجأة بين عدوين لدودين عقدا العزم على استئصالهم والقضاء على الإسلام؟ إن كل ما واجهوه من أخطار لا يُقارن بهذا الخطر، حتى يوم أُحُد لم يكن الخطر بهذا القدر، فهم لم يحاصروا بعشرة آلاف مقاتل من تحتهم، وبألف أو يزيد من فوقهم، هم مقاتلو بني قريظة والنضير.

ولن يجد الإنسان وصفًا لحالة المسلمين في هذا الموقف العصيب أدق وأعظم من وصف القرآن الكريم لهم: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

لقد أُصيب المسلمون بالذهول، واختنقت أنفاسهم حتى كادت تزهق أرواحهم لما علموا بما دُبِّر لهم، ليس ذلك وحسب، بل إن هؤلاء الرجال الذين لم يهتز إيمانهم بالله أبدًا في أي موقف مهما كان عصيبًا ساورتهم الظنون بشأن تأييد الله لهم، وغلب على ظنهم أنه قد تخلى عنهم.

ومما زاد الطين بلَّة ذلك النشاط المحموم الذي قام به المنافقون وسط المسلمين لتثبيط عزائمهم وتحطيم معنوياتهم: فمنهم المولول النادب لحظِّه وحظ أولاده، ومنهم الهارب يتعلل بالخوف على بيته وأولاده،

ولقد ندد الله تعالى بهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب].

لقد كانت محنة شديدة بكل المقاييس، ولم يكتف يهود بني قريظة بالانضمام إلى الأحزاب وتهديد ظهر جيش المسلمين، بل أطلقوا عملاءهم خلف المسلمين يتجسسون عليهم للتعرف على ترتيباتهم ويخيفون النساء والأطفال وكبار السن من الرجال الذين تركهم المسلمون وراءهم حتى لا يتعرضوا للإصابة في حالة نشوب المعركة». [المستوطنات اليهودية للمجدوب ٩٣-٩٥].

١٤ ـ الأثر النفسي لنقض بني قريظة العهد:

يقول أ/ الشامي: «كان الرسول ﷺ حريصًا ألا يصل خبر نقض العهد من قريظة إلى عامة المسلمين حفاظًا على معنوياتهم، ولكن الخبر وصل فعلًا، ولعل السبب في ذلك هو حرص اليهود على إضعاف المسلمين، وما زال اليهود على صلة وثيقة بالمنافقين وعن طريقهم شاع الخبر وانتشر.

ونستطيع أن نجمل ما ترتب على نقض قريظة العهد بالأمور التالية:

(١) فقد عظم البلاء على المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم فكانوا كما وصف القرآن الكريم: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

(٢) قويت عزيمة المشركين بعد فتور، واشتدت هممهم بعد ركود، فشددوا الحصار على المسلمين ودنوا منهم، وكان الترامي بالنبل والحجارة، ولم يستطع المسلمون مغادرة أماكنهم، ففاتتهم صلاة العصر- فصلوها بعد المغرب وقال ﷺ: «**مَلأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا كَمَا حَبَسُونَا وَشَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ**».

(٣) وفي هذا الجو القاتم نجم النفاق وظهر أهله، وانطلقت مقالات السوء من أفواههم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

ويتمادى النفاق ببعضهم فيدعو إلى الرجوع للمدينة، ويستأذن بعضهم الآخر مدعين أن بيوتهم في خطر من مداهمة العدو: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

وبهذا تبرز على مسرح الأحداث فئة في صفوف المسلمين تُظاهر الأعداء بسلوكها وتصرفاتها وتزيد الموقف حراجة.

(٤) وإزاء الوضع الجديد كان لا بد من تعديل في توزيع قوات المسلمين حسب المعطيات الجديدة للمعركة، فأرسل ﷺ دوريات للحراسة في المدينة، يقول ابن سعد: وكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم رضي الله عنه في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة، ويُظهرون التكبير، وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة». [من معين السيرة للشامي ٣٠١-٣٠٢].

ويقول د/ زين السيد: «المعلوم أن بني قريظة مجرد قبيلة من اليهود وهي أمام المسلمين لا تشكل خطرًا، فهم أقل وأذل من أن يؤبه بهم، ولكن لنقضهم العهد في هذا الوقت بالذات وفتحهم ثغرة خلفية في الجبهة أبلغ الأثر النفسي، وما أصعبه من موقف وما أشده من خطب ذلك الذي واجهه المؤمنون آنئذ، خطر خارجي محدق ومتحفز ماثل فيمن تحزبوا وتمالؤوا من عصابات الكفر الذين رمت بهم جزيرة العرب وقذفتهم كحمم الغضب المتوهج والملتهب، ولا قصد ولا غرض ولا أرب إلا الإجهاز على هذا الدين الجديد، ثم على المستوى الداخلي وضع اقتصادي شائك فقر مدقع وصل إلى حد ربط الحجر والحجرين من شدة الجوع، طاقات بُذلت واستنفدت في حفر الخندق، وجماعات من المنافقين المرجفين في المدينة ينفثون خورهم وضعفهم ويبثون خوفهم وفزعهم، في وسط هذا الجو المدلهم الذي طال ليله وأظلم يأتي نقض بني قريظة للعهد والميثاق، ترى ما عساه أن يبلغ وقع هذا النبأ، وما عساه أن يؤثر في نفوس المؤمنين الذين يرصدون بكل حسم حركة عدوهم الذي يتوقعون انحداره عليهم من أعلاهم، ثم ها هو ذا أسفلهم يدور عليهم ويقلب لهم ظهر المجن، وما أصعبها من محن وما أشد ضراوة الحرب النفسية التي واجهها المسلمون، أمامهم جحافل البغي والعدوان بعدد لا قِبل لهم به، وبينهم معاناة البؤس ومكابدة المغبة ومواجهة تصدع النفاق وتفتت الشقاق.

لم يدر بخلدهم أنهم سيبتلون بمثلها، ها هي ذي ظهورهم مكشوفة، وقلوبهم بالغة حناجرهم، وأبصارهم زائغة، ومواقفهم حائرة، أي ضرب يتقون؟ أم أي عدو يواجهون؟ وله في كل نَفَسٍ مائة ألف فرج قريب.

أما طبيعة البشر فقد غرس فيها انفعالات مختلفة كالخوف والأمان إذا وجد السبب لأيهما، ولكن قد يوجد ما يهز تلك الطبيعة ويقويها حتى بحاسة الإيمان، وهذا ما كان من المؤمنين حين أحسوا بالخوف عند سماعهم لنقض بني قريظة العهد، ولكن ما لبثوا أن اطمأنوا حين سمعوا إشارة النبي ﷺ لهم بالنصر». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٦٦].

١٥ ـ سيطرة الروح المعنوية من عوامل كسب المعركة:

يقول الشيخ الغزالي: «وقع ثِقْل المقاومة على أصحاب الإيمان الراسخ والنجدة الرائعة، كان عليهم أن يكبتوا مظاهر القلق التي انبعثت وتكاثرت في النفوس الخوَّارة الهَلُوع، وأن يشيعوا موجة من الإقدام والشجاعة تغلب أو توقف نزعات الجبن والتردد التي بدت هنا وهنالك، وطبائع النفوس تتفاوت تفاوتًا كبيرًا لدى الأزمات العضوض.

منها الهش الذي سرعان ما يذوب ويحمله التيار معه كما تحمل المياه الغثاء والأوحال، ومنها الصلب الذي تمر به العواصف المجتاحة، فتنكسر حدَّتها على متنه وتتحول رغوة خفيفة وزَبَدًا.

أجل من الناس من يهجم على الشدائد ليأخذها قبل أن تأخذه، وعلى لسانه قول الشاعر:

تَأَخَّرْتُ أستبقي الحياةَ فلم أجدْ لِنفسي حياةً مِثل أن أتقدَّما

ومنهم من إذا مسه الفزع طاش لبه فولَّى الأدبار، وكلما هاجه طلب الحياة وحب البقاء أوغل في الفرار.

وقد نعى القرآن الكريم على هذا الصنف الجزوع موقفه في معركة الأحزاب فقال: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب].

وعندما حاولت قريش اقتحام الخندق، وعندما حاولت احتلال بيت النبي ﷺ، وعندما عجمت عود المرابطين تبحث عن نقطة رخوة؛ لتثب منها إلى قلب المدينة، كان أولئك المؤمنون الراسخون سراعًا إلى داعي الفداء، يجيؤون من كل صوب ليستيقن العدو أن دون مرامه الأهوال».

[فقه السيرة للغزالي ٣١٢-٣١٣].

ويقول د/ الفنيسان: «إن الروح القتالية العالية التي يتمتع بها جيش المسلمين كان لها الأثر البالغ في كسب المعركة لصالحهم، ويدل على هذا أنه قد أُصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه في الخندق بجروح خطيرة، لكنه وإن ـ منعته حسًّا عن مواصلة القتال ـ فإنها لم تمنعه شعورًا ورغبةً في مواصلة الجهاد في سبيل الله، حيث يقول: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا، فَإِنَّهُ لَا قَوْمَ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ مِنْ قَوْمٍ آذَوْا رَسُولَكَ وَكَذَّبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهُ لِي شَهَادَةً، وَلَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنَيَّ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ**». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤١-٢٤٢].

١٦ ـ قوة الرباط الاجتماعي بين المسلمين:

يقول أ/ وجدي: «إن ثبات جماعة المسلمين إزاء هذه الكارثة الفادحة، وهم من بيئات مختلفة، ومتأثرون بأحقاد قديمة لا تزال صورها حية في نفوسهم، يدل على مبلغ قوة الرباط الاجتماعي الذي كان

يجمعهم، فأهل يثرب كانوا من الأوس والخزرج، وهما قبيلتان كانتا في حالة تناحر منذ عشرات من السنين، وفي حالة نزاع مع القبائل اليهودية التي كانت قريبة منهم، ومعهم بضع عشرات من أهل مكة آمنوا بالنبي ﷺ، وهاجروا معه فرارًا بدينهم وحياتهم، ولم يتوقع أهل يثرب ولا أحد ممن كانوا معهم أن يصبحوا في يوم من الأيام هدفًا لمجموعة من القبائل يُرى ببداهة العقل أنهم لا يقوون عليها، أفلا يكون ثباتهم على ترابطهم حيال هذه النازلة دالًّا دلالة لا تقبل النقض على قوة الرابطة التي كانت تجمع بينهم، قوة لا توجد وسيلة في الأرض تستطيع أن تحلها، أو أن تُضعف من استحكامها، وأية وسيلة أفعل من هذه الوسيلة، وهي أن تتألب أقوى القبائل العربية عليها، يقودها قواد مشهورون بسعة الحيلة في إدارة المعارك، وفرسان معروفون بشدة البأس في مجالدة الأبطال، والصبر على الأهوال؟».

[السيرة المحمدية لوجدي ٢٢٢].

١٧ ـ المعنوية العالية للصحابة رضي الله عنهم في المفاوضات:

يقول د/ أبو فارس: «موقف سعد بن معاذ رضي الله عنه ومن معه أمام وفد غطفان يدل على المعنوية العالية التي كان يتمتع بها، تأمل قول سعد: **يَا رَسُولَ الله! قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ القَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِالله وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، لَا نَعْبُدُ اللهَ وَلَا نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلَّا قِرَىً** (ما يُصنع للضيف من الطعام) **أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ وَهَدَانَا لَهُ، وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا، وَالله مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَالله لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.**

ولقد كان لهذه المعنوية العالية أثر قوي في نفوس قادة غطفان حين رأوا إصرارًا عجيبًا على القتال من الأنصار، وأن غطفان لن تأكل حبة تمر إلا على أجساد أهل المدينة الذين عُرفوا بقوة البأس وشدة الشكيمة (صبر عند الحرب صدق عند اللقاء)، وهذا ما لا قوة لغطفان به.

نعم كان هذا الموقف حربًا نفسية آتت أكلها، جعلت وفد غطفان يعود يائسًا من إحراز أي كسب مادي أو معنوي.

أقول: إن هذه المعنوية العالية التي كان الوفد يتمتع بها كانت نتيجة طبيعية للعقيدة التي اعتنقوها التي رَبَّت فيهم العزة والرجولة والشهامة والشجاعة.

إن هذا الدين يأبى الضيم والخنوع ولا يرضى لأهله الاستكانة والخضوع لأهل الخنوع.

إن هذا الدين يُرضع معتنقيه لبان العزة والكرامة من أول يوم، إنهم وُلدوا أحرارًا وليس لواحد أن يستعبدهم، إنهم شجعان وليس لواحد أن يستضعفهم.

إن هذا الدين يقول لكل واحد من أتباعه:

إن الله يريدك أسدًا فلا تكن هِرًّا.

إن دينك رجولة وحرية فكن رجلًا حرًّا.

إن معك إسلامًا هو البحر فدع السراب.

إن بين يديك شمسًا فلا يصرفك عنها قناديل». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٦-١٥٧].

ويقول أ/ الشامي: «وهكذا انتهت هذه المفاوضة، ولا شك أن الرسول ﷺ كان مسرورًا بموقف السعدين، فهو إنما يصنع ما يصنع من أجلهم ـ وقد رأى العرب قد رمتهم عن قوس واحدة ـ أما إن كانت المعنويات بهذا المستوى الذي يحمله السعدان فلا حاجة، فما يزال في النفوس الرصيد الكبير للصبر على الشدة.

كانت المفاوضة اختبارًا غير مباشر لمعنويات القوم ومدى مقاومتها.. فكانت صلبة قاسية رغم كل تلك الظروف.. وهذا ما طمأن الرسول ﷺ إلى سلامة الموقف، موقف المؤمنين الصابرين».

[من معين السيرة للشامي ٣٠٣].

١٨ ـ رغبة المسلمين في قتال الأحزاب:

يقول د/ أبو فارس: «لقد تبين من موقف السعدين أن المسلمين راغبون في قتال الأحزاب، ومتحمسون لذلك، ومصرون على ذلك رغم قسوة الظروف، وهذا الأمر يشجع القائد على الاستمرار في القتال، والاطمئنان إلى جنده وثباتهم عند التخطيط والتنفيذ.

ولعل الرسول ﷺ كان يبغي من استشارة السعدين في أمر ثمار المدينة وإعطاء ثلثها إلى غطفان إلى معرفة مدى رغبة الأنصار في القتال، فكان الجواب: والله لا نعطيهم إلا السيف، فسُرَّ ـ الرسول ﷺ لهذه الإجابة، ووافقه عليها قائلًا: أنت وذاك». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٨].

«وهذا يوضح ما للإيمان من سلطان على النفوس، وماله من عزة وقوة في المواقف الحاسمة، فموقف سعد رضي الله عنه يدل على اليقين التام بالله، والثقة الكاملة به، مع التصديق التام الكامل بنبوة محمد ابن عبد الله ﷺ». [غزوة الخندق لأبي خليل ١١١].

١٩ ـ الدفاع عن الحق:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من قصة السعدين أن المسلم ينبغي ألا يتنازل عن شيء من حقه لعدو من أعداء الله تبارك وتعالى، وعليه أن يقف مدافعًا عن هذا الحق، وأن دفاعه عن هذا الحق يُعد جهادًا ويؤجر عليه، وإن قُتل من دونه يُعد شهيدًا في الشهداء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي، قَالَ: «**فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ**»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «**قَاتِلْهُ**»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ:

«**فَأَنْتَ شَهِيدٌ**»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «**هُوَ فِي النَّارِ**». [**مسلم في الإيمان (١٤٠)**].

[**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٨**].

ويقول أ/ وجدي: «إن عدم تخاذلهم حيال هذه الجموع الزاخرة التي خفَّت لقتالهم، وقلة اكتراثهم لإجماع قبائل العرب واليهود على استنكار ما هم عليه، يبين عن إيمانهم الراسخ بأن ما هم عليه هو الحق، وأن ما عليه خصومهم هو الباطل، وهو أمر يلفت نظر البسيكولوجيين ويحيرهم، فإن الخمس السنين التي قضوها في الإسلام، وهم من شعب معروف بضعف العاطفة الدينية، وبعدم التعصب لأي مذهب من المذاهب الفلسفية، يعتبر من الانقلابات الأدبية التي لم يُعهد ما يشبهها في تاريخ النفسية الإنسانية، فإن هذه المدة القصيرة لا تكفي لأن تحمل نفوس جماعة قليلة العدد للاستماتة في الدفاع عن عقيدة، والاستشهاد في سبيلها، لا سيما الغارة ظهرت فيها الحمية الجاهلية كاشرة عن أنيابها، معتزمة أن تخوض غمرة حرب ماحقة لا رحمة فيها ولا هوادة، فالوقوف حيال هذا التوثب الجنوني لا يُشعر بالشجاعة البالغة أقصى حدودها فحسب، ولكن يُشعر بنزعة من التضحية لا توجد إلا في أدوار الانتقالات الذريعة في تاريخ الاجتماع البشري، فكل متأمل في موقفي هاتين الطائفتين، وفي الروحين اللتين تقودهما إلى التناحر، كان يحكم لأول وهلة أن هذه الطائفة القليلة تضحي بنفسها في سبيل عقيدتها، فإن قُدِّر لها النصر بورك لها في وجودها، وثبتت عقيدتها، وآلت إليها الدولة في نهاية الأمر». [**السيرة المحمدية لوجدي ٢٢١**].

٢٠ ـ الاستسلام لله ﷻ والأدب مع رسوله ﷺ:

يقول د/ الحميدي: «وفي خبر المفاوضات مواقف منها:

قول سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما: «**يَا رَسُولَ الله، أَمْرًا تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ العَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا؟**»، يعتبر غاية في الاستسلام لله تعالى، والأدب مع النبي ﷺ وطاعته، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله ـ تعالى ـ فلا مجال لإبداء الرأي بل لابد من التسليم والرضا.

والثاني: أن يكون شيئًا يحبه رسول الله ﷺ باعتباره رأيه الخاص، فرأيه مقدم وله الطاعة في ذلك.

والثالث: أن يكون شيئًا عمله الرسول ﷺ لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم، فهذا هو الذي يكون مجالًا للرأي.

ولما تبين للسعدين من جواب لرسول الله ﷺ أنه أراد القسم الثالث أجاب سعد بن معاذ رضي الله عنه بجواب قوي كبت به زعيمي غطفان حيث بين أن الأنصار لم يُذلُّوا لأولئك المعتدين في الجاهلية فكيف وقد أعزهم الله ـ تعالى ـ بالإسلام.

وقد أُعجب النبي ﷺ بجواب سعد ؓ وتبين له منه ارتفاع معنوية الأنصار واحتفاظهم بالروح الجهادية القوية، فألغى بذلك ما بدأ به من الصلح من غطفان.

وفي المحاورة التي ذكرها الواقدي في روايته بين زعيمي غطفان يتبين لنا انخفاض مستوى الروح القتالية لديهم وأنهم في تردد من أمرهم وندم على ما أقدموا عليه من موافقة قريش واليهود على غزو المدينة، وكان هذا التردد وضآلة أملهم في الحصول على تمر المدينة مما جعل مجهودهم في القتال ضعيفًا».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٢٤-١٢٥].

٢١ ـ الاستهانة بصغائر الأمور يفتح أبواب عظائمها من العواقب الوخيمة:

يقول الشيخ عرجون: «تيمَّم المشركون مكانًا ضيقًا من الخندق، وأكرهوا خيولهم على اقتحامه فاقتحمت بهم فأجالوها فيه، فخرج إليهم علي بن أبي طالب ؓ في نفر من أبطال المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيولهم، وأقبلت الفرسان تُعْنق نحوهم.

وهنا ننبه على العواقب الوخيمة التي تخلفها الغفلة أو الاستهانة بصغائر الأمور فيما يجب فيه الاحتياط، وليس في مواقف الحياة موقف يتأكد فيه الاحتياط مثل مواقف الحروب ومواقفة الأعداء.

وهذه الثغرة ـ كما يقول ابن سعد في طبقاته ـ أغفلها المسلمون، فلم يُحكموا أمرها كما أحكموا سائر مواضع الخندق، فكانت مقحمًا لخيول الأعداء، ولو أحكموها وتيقظوا لها ما كان هناك منفذ للاقتحام، وهذا الإهمال أو الغفلة مما يأباه منهج الرسالة، هذا المنهج الذي يوجب على كل مسلم أن يكون حذرًا متيقظًا في عمله غير مستهين بصغائر الأمور ولا نؤوم عن كبارها، فإن معظم النار من مستصغر الشرر».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٧١].

٢٢ ـ موازنة بين شجاعة متثبتة بعواصم الإيمان وأخرى متهورة فاجرة:

يقول الشيخ عرجون: «وقصة مبارزة علي ؓ عمرو بن عبد ود العامري قصة من روائع البطولة الإسلامية؛ لأنها تمثل الشجاعة البطولية في نموذجيها.

النموذج الأول: الشجاعة البطولية المتثبتة بثوابت الإيمان، المستعصمة بعواصمه، وهي شجاعة تعتمد على روح الفدائية المحفوفة بالرجاء في فضل الله، وإمداده بقوة روحية إيمانية تتضاءل أمامها أضخم القوى المادية الجاهلية التي تتجلى مظاهرها في صراع عضلي وسلاح مشحوذ.

النموذج الثاني: شجاعة بطولية متهورة حمقاء، لا تستند إلى مدد داخلي سوى الغرور المسعور والشهرة الطنانة، والسوابق المتوازية مع أقرانها في اندفاع أهوج، لا يقدِّر العواقب قدرها وصراع أحمق معتوه، يتفزز في توثب طائش.

والنموذج الأول كان يمثله في هذه القصة علي رضي الله عنه، فإنه لم يكد يسمع نداء عمرو: هل من مبارز؟ حتى نهض يعرض نفسه على رسول الله ﷺ أن يكون هو المبارز لهذا البطل المغرور بقوته وسوابقه في ميادين المعارك الجاهلية التي لا ترتكز إلا على عضل مفتول وساعد مجدول.

وكان يمثل هذا النموذج عمرو بن عبد ود العامري بصلفه وحمقه وجاهليته، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه متحفزًا لمنازلة هذا الطاغية الذي تحدى كتائب المسلمين أن يُخرجوا إليه رجلًا لمبارزته، فكان علي رضي الله عنه كلما سمع صرخته يطلب المبارزة ينهض ليأذن له رسول الله ﷺ في مبارزته، ويقول: أنا له يا رسول الله! فيستجلسه رسول الله ﷺ». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٧٢**].

ويقول أ/ كولن: «إن اختيار علي بن أبي طالب رضي الله عنه لمقاتلة الفرسان الذين عبروا الخندق اختيار موفق يدل على الفطنة ـ كان هذا الاختيار تطوعًا وليس جبرًا ـ ويدل على أنه كان يعرف من يختار وأين يختاره». [**النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/ ١٠٣**].

٢٣ ـ الفدائية العالية من الإمام علي رضي الله عنه:

يقول د/ الحميدي: «هذا الخبر يبين شجاعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإقدامه الجريء على المهالك، فلقد كان عمرو بن عبد ود من المشهورين بالشجاعة والخبرة الحربية، فالإقدام على مبارزته مغامرة لا يقدم عليها من له في الحياة رغبة.

وإذا نظرنا إلى المتبارزين من ناحية الكفاءة الحربية نجد أن بينهما فرقًا كبيرًا، فعمرو بن عبد ود يمتاز بعدة عوامل ترجح كفته، منها شهرته المستفيضة بالشجاعة والقوة، وهذه الشهرة تمنحه قوة معنوية بينما تُضعف من قوة خصمه وتصيبه بالرعب والهلع، ومنها خبرته الحربية فهو متقدم في السن، وكلما كان الإنسان أكثر ممارسة للحرب كان أكثر خبرة وأقدر على اتقاء ضربات الخصم واغتنام فرص الهجوم.

ولكن مع صغر سن علي رضي الله عنه وقلة خبرته الحربية فإنه أقدم على مبارزة ذلك الرجل العنيف الشجاع، فنصره الله ـ تعالى ـ عليه فأرداه قتيلًا، وكان ذلك كافيًا لإرهاب أصحابه الذين فروا وتركوا الميدان.

وهكذا حدث ما يشبه الخوارق حيث أقدم شاب حديث السن والخبرة على مبارزة فارس عظيم من أشهر فرسان العرب، كما يفيد ذلك ما جاء في رواية أخرى لابن إسحاق ذكرها السهيلي، وفيها أن عمرو بن عبد ود حينما دعا إلى المبارزة برز له علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له رسول الله ﷺ: **إِنَّهُ عَمْرٌو اجْلِسْ**، قالها مرتين، وفي الثالثة قال علي: **وَإِنْ كَانَ عَمْرًا**، فأذن له رسول الله ﷺ.

وإنه لمشهد عظيم وامتحان رهيب يظهر فيه الإيمان الراسخ والشجاعة الفذة حيث تتم المبارزة على ملأ من الطرفين ويكون لنتائجها الأثر البالغ في رفع المعنويات أو تحطيمها، ولقد ضرب المسلمون أروع

الأمثال في ذلك حيث كان الأبطال وأقوياء الإيمان يتسابقون إلى ساحة الميدان وتكون لهم الغلبة في أكثر الأحوال، بل إنه من النادر جدًّا أن يتفوق عليهم الأعداء في هذا المجال؛ لأنه يستحيل أن يوجد من يبذل طاقته كاملة ويتمنى الموت غيرُ المسلمين حيث إن ما يقصده المسلمون هو رضوان الله تعالى والسعادةُ الأخروية، وإن مما يوقن به المؤمن أن مما يعجل بحصوله على ذلك أن يزجَّ بنفسه في المخاطر من أجل إعزاز دين الله تعالى، أما غير المسلم فإن الذين يقصدهم بتضحيته لا يستفيد منهم إلا في هذه الحياة الدنيا، ومن الطبيعي أن يحرص على استبقاء نفسه ليفوز بثمرات نصره، وهذا يعوقه عن بذل القدر الكافي من الطاقة فيتفوق عليه المسلم المخلص بإذن الله تعالى». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٢٧-١٢٩**].

ويقول د/ أبو فارس: «وتتبين لنا قوة الروح المعنوية التي كان يتمتع بها علي بن أبي طالب ﷺ، إذ وقف يتحدى بطل الأحزاب الذي لا يجاريه أحد في القوة والتجربة وقد بلغ تسعين عامًا يجندل الأبطال، وتتجنب لقاءه الأبطال، وإذا بعلي ﷺ الفتى يتصدى له ويتحداه ويذيقه طعم الردى مجندلًا على الأرض». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٣**].

ويقول د/ الغضبان: «إن ابن السادسة والعشرين ربيعًا أشفق عليه بطل قريش عمرو بن عبد ود من الموت، وطلب إليه أن يعود أدراجه وليأت لمقابلة ومبارزة أعمامه أو شيخي قريش: أبي بكر وعمر.

لكن عليًّا ﷺ الفارس الأول في مدرسة النبوة لم يكن بطلًا مجربًا فحسب، بل كان داعية عظيمًا قبل البطولة، فها هو يعرض الإسلام على عمرو على أمل أن يضم هذا الفارس الضخم للإسلام، وحين أعجزه ذلك انطلق معه من فكرة تحييده بحيث يدخره للمستقبل لكن عمرًا أبى عليه هذا وذاك، وحين كان لابد من المواجهة فقد أشعل نار غضبه وتحداه لقتله، وكما تقول بعض الروايات: إن رسول الله ﷺ أعطاه سيفه ذا الفقار، وألبسه درعه الحديدي، وعممه بعمامته، وقال: «**اللَّهُمَّ أَعِنْهُ عَلَيْهِ**»، وفي لفظ: «**اللَّهُمَّ هَذَا أَخِي وَابنُ عَمِّي فَلاَ تَذَرْنِي فرداً، وأنت خير الوارثين**». [**السيرة النبوية لابن هشام ـ مقتطفات ٣/ ٣١١- ٣١٤**].

وزاد في رواية أنه ﷺ رفع عمامته إلى السماء وقال: «**إِلَهِي! أَخَذْتَ عُبَيْدَةَ مِنِّي يَوْمَ بَدْرٍ، وَحَمْزَةَ يَوْمَ أُحُدٍ، وهَذَا أَخِي وَابنُ عَمِّي، فَلاَ تَذَرْنِي فرداً، وأنت خير الوارثين**».

[**كنز العمال للمتقي الهندي ١٠/ ٤٥٦-٤٥٧ وعزاه للديلمي**].

إنهم الثلاثة أبطال بدر الذين جندلوا أئمة الكفر يوم بدر، عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وقد مضى عبيدة ﷺ شهيدًا يوم بدر، ومضى حمزة ﷺ شهيدًا يوم أُحُد، وها هو علي ﷺ خاتمة العقد، إنهم أعز أهله وذويه عليه، وأخص خاصته، فلا غرو أن يدعو الله بنصر علي ﷺ على العدو الألد الأشد عمرو بن عبد ود.

هؤلاء الأطفال في أيام البعثة، هم الأبطال في أيام الخندق، وهم ثمرة التربية النبوية العظيمة».

[**التربية القيادية للغضبان ٤/ ٤٨-٤٩**].

ويقول أ/ فرج: «وفي هذا اللقاء تتضح أهمية الإيمان وفضل الشجاعة الأدبية، فلا العدد ولا السلاح تغني عن الإيمان والشجاعة والقوى المعنوية للأفراد وللجماعات وللجيوش وللشعوب.

أين إذن تكمن القوة الحقيقية؟

لم يختلف القادة والمراقبون والمؤرخون في الماضي والحاضر في أن القوة الحقيقية تكمن في النفوس، وأن أهم أسلحة الحرب، الرجال ذوو البسالة.

وكيف تكسب المعارك بغير شجاعة الرجال وتصميمهم على الفوز.

بل كيف لا تكسب المعارك إذ خاض غمارها الرجال وهم في ثقة ورضا وتصميم على النصر أو الشهادة». [انتصارات عربية خالدة لفرج ٤٣-٤٤].

٢٤ ـ حكمة تأني رسول الله ﷺ بالإذن لعلي ﷺ في مبارزة عمرو بن عبد ود:

يقول الشيخ عرجون: «ولعل الحكمة في ذلك كانت هي التفاوت الكبير بينهما في السن وطرائق الحياة وتجارب الحروب، فقد كان علي ﷺ إذ ذاك في مَيْعة الشبوبية الصاعدة التي استحوذ عليها الإسلام بعقيدته وشرائعه وآدابه، فشغلها به منذ إنشائها بين أحضانه في تربية إنسانية جادة صارمة لا تعرف الفراغ العابث ولا العبث الفارغ الذي تستغرقه الفتوة المتصعلكة في أسواق الجاهلية ومحافلها وحروبها للسلب والنهب وسفك الدماء والتباهي بالقوة العضلية ومصارعة الفتيان، استجابة لموروث التراث الجاهلي الذي لا يشغله في حياة الناس شيء، ولا يشغل من حياة الناس شيئًا.

ولكن حياة علي ﷺ الإسلامية الخالصة المخلصة لم تكن تسمح له في تقاربها من الرجولية المكتملة بجولات المصارعات الجاهلية التي اتخذها الفارغون من أضراب عمرو بن عبد ود العامري ديدنهم لترضي صلفهم وغرورهم وبطرهم واستكبارهم في الأرض.

وظل بطل الإسلام علي ﷺ مستوفزًا متحفزًا وهو يسمع صرخات عمرو الداعية إلى المبارزة وقد خلطها بتأنيب المسلمين وتعييرهم بالجبن، وعندئذ وقف علي وهو يقول: أنا له يا رسول الله، فيقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ عَمْرٌو، اجْلِسْ**».

ولم يقصد رسول الله ﷺ ـ فيما يظهر لنا ـ إخافة علي ﷺ وإرعابه، وهو ﷺ أعرف الناس به وبشجاعته وبطولته، وقوة بأسه؛ لأنه ربيبه وراضع ثدي نبوته وبطل أبطال دعوته وحامي حمى رسالته، ومجندل صناديد المشركين في (بدر)، وإنما قصد ﷺ إثارة حمية البطولة ونخوتها في نفس علي ﷺ، لينازل قرنه وهو يرى آمال رسول الله ﷺ متعلقة به فيستحضر أقصى غايات بأسه وشجاعته.

ومن ثَمَّ أجاب رسولَ الله ﷺ بكل ما في نفسه من ثقة وقوة بأس، ليزيد من طمأنة رسول الله ﷺ في تحقيق آماله من هذه المبارزة الفريدة فقال: **وَإِنْ كَانَ عَمْرًا**.

ويأذن له النبي ﷺ، ويدعو له ويعممه ويعطيه سيفه، ويمشي بطل الإسلام علي رضي الله عنه إلى قرنه بطل الجاهلية مقنّعًا بالحديد، فيحاوره محاورة يُحفظه بها ويستثير غيظه وغضبه استثارة يغلي منها دماغه، وينزل عن فرسه مُحْنقًا ويسل سيفه من غمده كأنه شعلة نار، ويتجاولان، ويضرب عمرو عليًّا ضربة يتقيها علي بدرقته، فيقدها سيف عمرو ويثبت فيها، ويضربه علي على عاتقه فيصرعه، ويعلن التكبير، ثم يُقبل على رسول الله ﷺ متهللًا، ويشرق وجه رسول الله ﷺ، ويحمد الله تعالى بما يليق بجلاله.

وفي هذه القصة من معالم منهج الرسالة الخالدة ما يجب أن يتعلمه شباب الإسلام، في معاهده ومدارسه ليستخلصوا من وقائعها وأحداثها ما فيها من آيات بطولية باهرة، لا تتقيد بما عُرف في الزمن الغابر، ولكنها تتكيف على حساب زمانها وأطوار الحياة». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٧٣-١٧٤**].

٢٥ ـ رباطة جأش الصحابة رضي الله عنهم :

يقول د/ الحميدي: «خبر خوات بن جبير رضي الله عنه وذلك اليهودي يعتبر مثلًا من الأمثلة العالية في رباطة الجأش والمقدرة على التفكير السليم مع رهبة مواجهة الموت، بل مواجهة ما هو أفظع من ذلك بالنسبة للمسلمين وهو ذل الأسر وما يتبع ذلك بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم من مساومة النبي ﷺ في الأسرى، وقد كان اليهود حريصين على أخذ المسلمين أسرى ليساوموا فيهم فيما لو حاصرهم المسلمون، ولكنهم لم يتمكنوا من شيء من ذلك.

ولقد كان ذلك اليهودي في غاية الفرح حينما رأى صحابيًّا نائمًا فاحتمله أسيرًا بعد ما جرده من سلاحه، ولقد كان أخذ المسلمين أسرى وهم محاربون من الأمور البعيدة المنال في عهد الصحابة، ولو أن ذلك اليهودي نبَّه خوات بن جبير لوجده أسدًا مرعبًا.

ولقد كان ذلك السلاح الخفي الذي يحمله اليهود في أوساطهم سببًا في نجاة خوات بن جبير رضي الله عنه ووقوع ذلك اليهودي صريعًا.

وهكذا تحول سلاح النجاة هلاكًا، وتحول سلاح الهلاك نجاة بقدرة الله ـ تعالى ـ الذي ثبَّت قلب خوات بن جبير رضي الله عنه وألهمه تذكر ذلك السلاح الخفي.

وقول اليهودي حينما طعنه خوات بن جبير رضي الله عنه: «السَّبُع» يفيد بأن ذلك اليهودي قد اعتقد بأن سبعًا قد هجم عليه فبقر بطنه ولم يكن يتوقع بأن أسيره قد اختلس مغْولَه بتلك الخفَّة والخفية وأنه هو الذي قضى عليه». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٢٠**].

٢٦ ـ تأملات في دعاء الرسول ﷺ:

يقول الشيخ الغزالي: «والله ـ تبارك وتعالى ـ لا يقبل الدعاء من متواكل كسول، وما يستمع لشيء استماعه لهتاف مجتهد أن يبارك له سعيه، أو دعاء صابر أن يجمِّل له العاقبة.

وقد أفرغ المسلمون جهدهم في الدفاع عن رسالتهم ومدينتهم حتى لم يبق في طوق البشر مُدَّخر، فبقي أن تتدخل العناية العليا لتقمع صَعَر الظالم وتقيم جانب المظلوم». [فقه السيرة للغزالي ٣١٥].

ويقول د/ الغضبان: «وحين تقصر قادة الأرض جميعًا وتصغر بين يدي إمام القادة في الوجود، يبقى أنقى قلب خلق الله الذي يتصل بالله تعالى، صلة الرجاء والتضرع أن يزيل الكرب، ويرفع البلاء، وينزل النصر بعد بذل كل الجهد البشري الممكن.

وهذا الدعاء وهذا التضرع لرب العالمين من سيد الخلق وأعبد الخلق وأتقى الخلق، استجاب الله تعالى له، وتجاوبت الريح مع هذا النداء». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٣٦-٣٧].

ويقول د/ أبو فارس: «والذي يتأمل أدعية الرسول ﷺ السابقة والظروف التي كانت تلابسها وتحيط بها يلاحظ أمورًا منها:

(١) شدة الكرب التي حلت بالمسلمين في هذه الغزوة، ولقد أسهبت كتب السير والتاريخ في هذا كثيرًا فلا داعي لذكره هنا مفصلًا.

(٢) إذا فُقدت الأسباب المادية للنصر، فإن الإنسان الجاهلي يفقد الأمل فيه، يستسلم لليأس، وتنهار قواه ومعنوياته، أما المسلم وإن كانت الأسباب المادية التي يملكها ضعيفة، فإنه لا يستسلم لليأس، ولا يعرف القنوط إلى قلبه سبيلًا، ويبقى مؤملًا بالنصر؛ لأنه يعتقد أن النصر من عند الله بعد أن يبذل الأسباب المادية التي يستطيعها، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١٢٦﴾ [آل عمران]، فهو والحالة هذه يلجأ إلى الله متخشعًا متذللًا، منكسرًا إلى واهب النصر وباذله الله رب العالمين، فهو منزل الكتاب، سريع الحساب، هازم الأحزاب ومزلزلهم.

(٣) أن النصر لا يكون إلا بعد الصبر والابتلاء والكرب، وهكذا كان الأمر في هذه الغزوة، وليعلم الدعاة أن الله سيجعل بعد عسر يسرًا، وبعد الضيق مخرجًا، وبعد الصبر على الشدة فرجًا، وصدق الله سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح].

(٤) نلاحظ من أدعية الرسول ﷺ في هذه الغزوة أهمية هذه الغزوة، وخطورتها بالنسبة للحركة الإسلامية في عهد النبوة وما بعدها، إذ هي معركة فاصلة، وتقرير مصير الحركة الإسلامية، يدلك على هذا قول الرسول ﷺ: **اللهم إنك إن تشأ لا تعبد،** أي إن تهلك هذه العصابة في هذه الغزوة ينعدم الخير وينعدم أنصاره ويسود الشر ويكثر أهله.

(٥) يعلِّمنا الرسول ﷺ حسن الأدب مع الله في الدعاء، إذ ربط كل ما يتوقعه وكل ما يجري وسوف يجري من أحداث ونتائج بمشيئة الله ﷻ، جلت قدرته، وعزت عظمته، وتباركت أسماؤه.

وهكذا ينبغي على المؤمن ألا يفارقه هذا الشعور لحظة واحدة، خاصة وهو يُقبل على الله بالرجاء ويلح على الله بخالص الدعاء».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٨٢-١٨٣، وقد سبق تفصيله في الدروس المستفادة من غزوتي بدر الكبرى وأحد].

٢٧ ـ التضرع والدعاء من أهم الأسباب الموجبة للنصر:

يقول د/ الفنيسان: «وجه ذلك أنه لما اشتد الأمر على المسلمين دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، [مُجْرِيَ السَّحَابِ]، اللَّهُمَّ اهْزِمْ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**»، وقام في الناس فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**».

وكان من دعائه ﷺ: «**يَا صَرِيخَ المَكْرُوبِينَ، وَيَا مُجِيبَ المُضْطَرِّينَ، اكْشِفْ هَمِّي وَغَمِّي وَكَرْبِي، فَإِنَّكَ تَرَى مَا نَزَلَ بِي وَبِأَصْحَابِي**».

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: قُلنَا يَوْمَ الخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَل مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ، فَقَدْ بَلَغَتْ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ، قَالَ ﷺ: «**نَعَمْ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا**»، قَالَ: فَضَرَبَ اللهُ ﷻ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَزَمَهُمْ اللهُ ﷻ بِالرِّيحِ. [مسند أحمد ١٧/ ٢٧ رقم ١٠٩٩٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف].

وما إن لبث حتى نزل جبريل ﵇ يبشره أن الله سيرسل عليهم ريحًا وجندًا من جنده فتزلزلهم».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٦-٢٢٧].

٢٨ ـ الاستعانة بالصلاة:

يقول د/ الحميدي: «في قول حذيفة ﵁ عن رسول الله ﷺ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى**» [أبو داود في التطوع (١٣١٩)، وقال الشيخ الألباني: حسن، وأحمد ٣٨/ ٣٣٠ رقم ٢٣٢٩٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف]، بيان لسنة من سنن رسول الله ﷺ في مواجهة الشدائد حيث يلجأ إلى الصلاة ودعاء الله سبحانه أن يفرج ذلك الكرب الذي نزل.

وهذه هي سنة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كما جاء في حديث أخرجه الإمام أحمد وفيه: «**وَكَانُوا يَفْزَعُونَ إِذَا فَزِعُوا إِلَى الصَّلَاةِ**». [مسند أحمد ٣١/ ٢٦٨ عن صهيب بن سنان ﵁ رقم ١٨٩٣٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم]». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٥٠].

٢٩ ـ ينبغي على المسلم أن يضع نفسه وإمكانياته وقدراته تحت تصرف قيادته:

يقول د/ أبو فارس: «وذلك حتى تستفيد من طاقاته وطاقات غيره وتوظفها لتحقيق المصلحة العامة للجماعة الإسلامية، والأمة المسلمة.

هذا ما نفهمه من كلام نعيم بن مسعود ﵁ لرسول الله ﷺ: **يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ**». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٨٠].

٣٠ ـ النصح للمسلمين بما لدى الفرد من إمكانات:

يقول أ/ الشامي: «جاء نعيم بن مسعود ﵁ ليعلن إسلامه بكلمات: **يَا رَسُولَ الله! إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ**، ويدرك ﷺ مرمى قوله: «**وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي**»، فهذا جانب يُستفاد منه في هذه الأوقات العصيبة، ويقول ﷺ: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**».

وبهذا يوجهه إلى السبيل الذي يمكن أن يؤدي دوره فيه، ذلك أن انضمامه إلى رسول الله ﷺ لن يكون له جدوى أكثر من أن يزيد في عدد أصحابه رجلًا واحدًا، أما ما قام به مستفيدًا من التوجيه الكريم فإنه يعدل عمل فرقة بكاملها.

وهكذا تكون الاستفادة من الطاقات، حيث يوضع كل فرد في مكانه الملائم.

وقد استفاد الصحابة الكرام ﵃ فيما بعد من هذا الدرس القيم ووضع كل رجل في المكان المناسب له، وقدر الرجال أقدارهم (ونذكر على سبيل المثال قول أبي بكر ﵁ في القعقاع ﵁: «**لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل**» عن الإصابة)، وبهذا سادت دولة الإسلام في تلك الفترة الوجيزة».

[من معين السيرة للشامي ٣١٣].

ويقول د/ الحميدي: «ذلك التوجيه العظيم من رسول الله ﷺ لنعيم بن مسعود ﵁ قد هداه النبي ﷺ فيه إلى الطريق الذي يسلكه في حرب الكفار ونصر المسلمين، وأعطاه المفاتيح اللازمة لذلك حيث وجهه إلى بذل جهده في تخذيل الأحزاب، وأبان له أن الكذب في هذه الحال عمل صالح لأنه في الحرب، وقد يكون كسب الحرب في خدعة يدبرها فرد واحد لأعدائه.

وهذا مثال على حسن تصرف النبي ﷺ واغتنامه الفرص المناسبة لكسب المواقف لصالح المسلمين وتوجيه الرجال بما يتناسب مع كفاءاتهم، فقد كان نعيم ﵁ معروفًا قبل ذلك بالمقدرة الفائقة على المخادعة والرأي الحصيف الذي يؤثر به على الناس.

إنها كلمات معدودات صدرت من النبي ﷺ في إجابة هذا الرجل ولكنها كلمات خالدات، كلمات لها أثر بالغ في توجيه هذا الجندي المحنك الذي تبوأ منزلة عالية من الثقة بين العرب، والنبي ﷺ يعلم بثاقب بصره وعظيم خبرته بالرجال أن هذا الجندي الذي كسبه الصف الإسلامي ولم يعلم الكفار بإسلامه بإمكانه أن يقوم بجهد كبير من التخذيل عن المسلمين والإيقاع بين الكفار، ففتح له الطريق الذي يمكن بولوجه منه أن يقدِّم للمسلمين خدمة عالية تغير من موازين المعركة.

لقد وعى نعيم بن مسعود ﵁ هذا التوجيه النبوي وطبَّقه على أوسع نطاق، فقام من تَوِّه يفكر بالخطة الحكيمة التي يستطيع بها أن يوغر صدور يهود بني قريظة على الأحزاب من قريش وغطفان، وأن يوغر

صدور الأحزاب على بني قريظة؛ وذلك لانتزاع الثقة فيما بينهم وجعل كل فريق يتهم الآخر ويشك في نواياه، فقام بخطة التخذيل بين الأعداء التي جاءت في هذا الخبر.

إن هذا الخبر يعتبر مثلًا عاليًا في السياسة الحربية، حيث توصل نعيم بن مسعود ﷺ إلى تدبير مُحكَم فرَّق به بين الأحزاب، وكان عاملًا مساعدًا في التأثير عليهم ودفعهم إلى الرحيل بعد العامل الأول المهم الذي كان بتسليط الله تعالى عليهم جنوده من الملائكة ـ عليهم السلام ـ والريح الشديد».

[**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٤٢-١٤٤**].

ويقول د/ أبو فارس: «وهذا الذي قام به نعيم بن مسعود ﷺ إذ استطاع أن يوجد الفُرقة بين الأحزاب، ومن ثم فقد انعدمت الثقة بينهم، ورحلوا دون تنفيذ ما اتفقوا عليه.

ويؤخذ من هذا الاستفادة من أصحاب الطاقات الفعالة كنعيم بن مسعود ﷺ، بعد مسح شامل لهذه الطاقات وتصنيفها وتوظيفها في الجانب المناسب الذي تُنتج فيه.

وهكذا كان الرسول ﷺ يعرف أصحابه واحدًا واحدًا وميزات كل صحابي ومناقبه وخصائصه، ويختار للعمل من الصحابة ما يُنتج فيه، فإذا اختلف العمل اختار أناسًا آخرين حسب الطاقات والمناقب والخصائص التي تُطلب في المنفذ لهذا العمل أو ذاك». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٩**].

ويقول أ/ كولن: «لم يكن قد مضى على إسلام نعيم بن مسعود ﷺ سوى بضعة أيام، فانظروا إلى فطنة الرسول ﷺ إذ عرف أن نعيمًا ﷺ سيستطيع القيام بهذه المهمة الكبيرة وأنه أهل لها، وفعلًا قام نعيم ﷺ بأداء تلك المهمة أفضل أداء». [**النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/ ١٠٥**].

ويقول د/ المدخلي: «إن دور نعيم ﷺ في هذه الغزوة عظيم، خاصة إذا عرفنا أنه في أول أيام دخوله في الإسلام، وقد اشتهر هذا الدور عند المؤرخين، بيد أني رغم ذلك لم أجد سندًا يؤكده ويؤيده، ولكنه مستفيض عند المؤرخين، وقد كان دوره حاسمًا في القضية حيث شتت الله شملهم، وفرَّق جمعهم، وأرسل الله عليهم الريح، وجنودًا من عنده، وكان السبب في زعزعة الأحزاب هو نعيم ﷺ بعد الله ﷻ».

[**مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٧١**].

٣١ ـ استخدام المعلومات السابقة والاستفادة منها:

يقول د/ أبو فارس: «لقد استطاع نعيم بن مسعود ﷺ، أن يستخدم المعلومات السابقة الموجودة عند الأعداء ويستفيد منها، فقد كان نديمًا لبني قريظة وهو من غطفان، فهم أهله يحبهم ويريد لهم الخير، وقريش تعرفه وتحبه ويحبها وهي مقتنعة أنه يريد لها الخير، ويعمل لتحقيق مصلحتها وينصح لها.

كل هذه المعلومات استخدمها كمقدمة لتتولد الثقة بين هذه القبائل وبين نعيم؛ لأن تولد الثقة بين نعيم وقبائل الأحزاب تعني تصديقه في كل ما يقول والأخذ عنه بما يشير انطلاقًا من حرصه على مصلحتهم وحبهم وودهم والعمل لجلب الخير لهم». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٩-١٨٠**].

٣٢ـ التربية النبوية العظيمة لنعيم بن مسعود ﷺ:

يقول د/ الغضبان: «دخل نُعيم بن مسعود ﷺ التاريخ في غزوة الأحزاب، وحقق بعبقريته ما تعجز الجيوش عن تحقيقه.

وانضمت الطاقات والكفاءات العربية إلى الصف الإسلامي، ولا شك أن دور نُعيم بن مسعود ﷺ في تخذيل الأحزاب، وأثر هذه العبقريات الضخمة في تغيير مسار المعركة، لم يكن ليبرز لولا التربية النبوية العظيمة.

وذلك نُعيم بن مسعود، كان يمكن أن يحفظ عنه التاريخ أنه لا يكتم سرًّا، وأنه كان يصانع الناس ويداريهم كما قال عن نفسه: كنا قومًا عربًا لا نخل لنا ولا كرم وإنما نحن أهل شاء وبعير، فكنت أقدم على كعب بن أسد فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم، وآكل من طعامهم، ثم يحملونني تمرًا على ركابي ما كانت، فأرجع إلى أهلي.

هذا رجل كان همه من الدنيا أن يستضاف عند بني قريظة، ويحافظ على صداقاته مع محمد ﷺ، وقريش وقريظة، ويحقق ثروة وصيتًا وشهرة، فإذا بالإسلام ينقله من هذا السفح ليغدو عبقريًّا من عباقرة الحرب، يضع طاقاته في سبيل الله ويفتت جيش الأحزاب.

يقول عنه الحافظ ابن حجر في الإصابة: (نعيم بن مسعود.. ابن أشجع يكنى أبا سلمة الأشجعي.. صحابي مشهور له ذكر في البخاري، أسلم ليالي الخندق وهو الذي أوقع الخلف بين الحيين قريظة وغطفان في وقعة الخندق، فخالف بعضهم بعضًا وجلوا عن المدينة... قُتل نعيم في أول خلافة علي ﷺ قبل قدومه البصرة في وقعة الجمل، وقيل: مات في خلافة عثمان. والله أعلم).

[الإصابة للحافظ ابن حجر ٣/ ٦/ ٢٤٩].

ونشير من طرف آخر إلى عظمة التربية والتوجيه النبوي لنعيم بن مسعود ﷺ وقد أعلن إسلامه.

إن من الممكن أن يكون إسلام نُعيم ﷺ خدعة من العدو، ليجد ثغرة داخل الصف الإسلامي، والقائد العسكري لابد أن يضع في حسبانه مثل هذا الاحتمال في قلب المعركة وهو على رأس أشجع من غطفان، هذا من جهة ومن جهة ثانية على افتراض أن الأصل صدق نعيم في إسلامه كما يقول لرسول الله ﷺ: **إِنِّي جِئْتُ أُصَدِّقُكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ يَا رَسُولَ الله، فَوَالله لا تَأْمُرُنِي بِأَمْرٍ إِلَّا مَضَيْتُ لَهُ.**

هل يقول له القائد الأعظم والمربي الأعظم: أشهر إسلامك لعله يفت في عضد الناس، أم يقول له: قم باغتيال أحد القيادات الكبرى في جيش العدو، أم يقول له: حاول أن تجر قومك إلى الانضمام إلينا أو

من تستطيع ذلك منهم وعدد أشجع أربعمائة في الجيش، أم يقول له: اذهب فقم على ثغرة من ثغور الخندق، وانضم إلى المقاتلين.

كل هذه الاحتمالات واردة، لكن ما هو جدواها بالنسبة للمعركة؟ بالتأكيد لا تغني شيئًا ولا تعني شيئًا في ميزان المعركة أمام التحام الأحزاب كلها من قريش وغطفان وبني قريظة في خطة الإبادة المعتمدة عند المشركين، لقد أدرك ﷺ بعظمته الخالدة كل هذه الحسابات، واحتمالات الخديعة من نُعيم ﵁، ثم رسم له الخطة التي يتحرك من خلالها، والهدف الأساسي فيها، تاركًا له التفاصيل كاملة، ومدخلًا في حسابه احتمالات عدم صدقه في الإسلام وقال ﷺ له بعد قوله: وقومي لا يعلمون بإسلامي ولا غيرهم، قال: «**مَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تُخَذِّلَ النَّاسَ فَخَذِّلْ**»، قُلت: **أَفْعَلُ، وَلَكِنْ يَا رَسُولَ اللهِ! أَقُولُ فَأْذَنْ لِي**، قَالَ: «**قُلْ مَا بَدَا لَكَ فَأَنْتَ فِي حِلٍّ**».

وعند ابن إسحاق في روايته: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**».

فأن يكون فردًا مقاتلًا في الصف، فهو رجل واحد، أما عمله فهو في قلب صفوف العدو، والحرب ليست في الضرب والطعن فقط، بمقدار ما هي خطط حربية، وإيقاع في العدو، ولأهمية التخطيط والدهاء والعبقرية في القيادة لخصها ﷺ بأهم عنصر فيها «**فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**»[1]، كقوله ﷺ: «**الحَجُّ عَرَفَةُ**».

وضمن الخطة النبوية، والتوجيه العظيم تحرك نعيم ﵁ وحقق هدفه بذكاء بارع، ومزق صف الأحزاب وأفسد صفهم.

إننا إذا ذكرنا أن أعظم انتصار حققته قريش وزعماء بني النضير هو هذا الحلف الضخم الذي شاركت به غطفان وأسد وقريش وكنانة وبنو قريظة، فسيكون أعظم إنجاز ولا شك هو تدمير هذا الحلف، ويكفي أن نذكر أن رسول الله ﷺ قد راوض بني غطفان سرًّا على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة مقابل تخليهم عن الحرب.

ونشير أخيرًا إلى أهمية الكتمان ودوره في تنفيذ هذه المخططات وكيف أن الرجل المزروع في قلب العدو هو القادر على أن يفتت هذا العدو، أو يقي الحركة الإسلامية من مخططاته.

ونقول: إن شخصية نُعيم بن مسعود ﵁ التي عُرفت بأنه لا يكتم الحديث، وما رواه عروة عن عائشة في تقييم هذه الشخصية، وأن نعيمًا كان رجلًا نمومًا، هو نفسه بهذه المواصفات حقق هذا الإنجاز الضخم عندما أصبح جنديًّا مسلمًا يأتمر بأمر نبيه محمد ﷺ، وكيف كان يحرص خلال تنفيذ الخطة على السرية التامة، على توصية أطراف الحلف كلها بكتمان المعلومات التي يقدمها له».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ٥٤، ٥٦-٥٧].

---

(١) من الملاحظ أن النص: «الحرب خدعة» هو حديث صحيح رواه أحمد والبخاري ومسلم، وهو عند مسلم برقم (١٧٣٩، ١٧٤٠).

ويقول د/ زين السيد: «كان هذا النصر من أَجَلِّ ما حققه ذلك البطل المسلم نعيم بن مسعود الأشجعي ﷺ، وظل هذا الصحابي الجليل يواصل الإصلاح ويقيم آيات الجهاد، ويرفع رايات الشرف في ساحة الحق، سلام عليك في دار الخلد: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النبأ] لما حققته من جمع الشمل وإقامة وحدة إسلامية، ولما أجراه الله على يديك من النصر الباهر بعد ما ابتُلي الناس وزُلزلوا زلزالًا شديدًا». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٤٤].

٣٣ ـ خدعة نعيم ﷺ وما أحدثته في ميزان الحرب آنذاك:

يقول د/ زين السيد: «لقد وقف الجيش المسلم خلف الخندق، يحمل ذهولًا ضخمًا، ويعيش آلامًا نفسية لم يعشها بشر من قبل، ودخل سباقًا رهيبًا مع الزمن، ومع العدو الموعود داخل المدينة من اليهود بعد نقضهم للعهد، وخارجها من الأحزاب، واستطاعت زحمة الحرب النفسية والدعائية أن تصنع في نفوس بعض المسلمين الإحساس بالعجز تجاه قواتهم والشعور بالقلق والانهيار من قدراتهم وهم كثيرو العدد والعُدة، وحرمان العدو من المفاجأة يتطلب وجود استطلاع قوي مستمر لخداعه وبعثرة قواته وتفتيتها، وذلك يحرم العدو من تحقيق الحشد والإخلال، وإرباك التعاون يصيب تنفيذ أعمال القطع والعزل، وبذلك ترتبك قواته بالتأثير على عقل القادة، وتحقيق ذلك يحرم العدو من الإحساس بالأمن، وتحقيق النصر يجب أن يتم من خلال الانهيار النفسي وليس المعركة، فالنصر شيء كسبه نفسي أولًا وقبل كل شيء، وكما قيل: فإن القوى المادية لا تمثل في حقيقة الأمر سوى قبضة السيف الخشبية بينما تمثل القوى المعنوية الحد اللامع والقاطع لهذا السيف، وإفقاد العدو لتوازنه المادي والمعنوي يعتبر عملًا أوليًّا ضروريًّا بالإمكان القضاء عليه نهائيًّا.

وفي هذا الجو الرهيب يظهر صمود النبي ﷺ وأصحابه وضاء مشرقًا يستثير الدهشة والإعجاب والتقدير.

ولذا قام النبي ﷺ على الفور بكل ما تمكنه من جهد وعمل هو وأصحابه، وابتكر أسلوبًا جديدًا بمواجهة العدوان الزاحف ليكون عونًا لهم على مواصلة الصمود إلى نهاية الشوط، وجعل رسول الله ﷺ يفكر في الوسيلة إلى الخلاص، وبطبيعة الحال لم تكن الوسيلة مواجهة العدو، فماذا تكون يا ترى؟

إن الله ﷻ ناصر نبيه، فجاء الفرج بعد الشدة والسعة بعد الضيق، وبالرغم من أن الإنسان هو سيد مصيره وقدره في بعض الأحيان، فإن قدر الله يقع عليه في أحيان أخرى، وإذا أراد الله نفاذ أمر هيأ له الأسباب، فساقت الأقدار نعيم بن مسعود ﷺ ليتم على يديه عمل فردي، ولكنه ذو تأثير قوي؛ لأنه أمر يتعلق بالخدعة في الحرب، وهذا الأمر يتوقف كثيرًا على الذكاء والشخصية والفطنة القوية.

وبهذه الخطة البارعة في خداع الأعداء استطاع نعيم بن مسعود ﷺ أن يخلِّص الجيش الإسلامي من فناء محقق، وكان هذا درسًا قاسيًا للطغاة حطم ما تبقى في نفوسهم من عنجهية وطغيان وصلف وغرور، كما كان تعبيرًا صادقًا عن أن الله ﷻ لن يتخلى عن دعوته، ولن يدعها نهبًا لأعدائها، وأوقع الله الرعب في قلوب العدو الذي ولى هاربًا ولم يعقب، وتم النصر الذي قَلَب موازين العالم الذي خدع طويلًا بالدعايات المسمومة، فهب مبهورًا يعيد تقدير حساباته على ضوء الحقيقة الناصعة الجديدة وصدق الله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم].

والمهم في هذا الاتصال هو مدى ثقة يهود بني قريظة داخل المدينة والأحزاب خارجها في مصدر الأخبار التي ينقلها إليهم نعيم بن مسعود ﷺ؛ لأن هذه الثقة هي الأساس التي يبني عليها الناس تصديق المخبر وعدم تصديقه للرسالة التي قام بها، خاصة إذا كان موضوع الحديث غير معروف لديهم سلفًا، ومن هنا كان التأثير فيهم أكبر في عرض وجهات النظر.

والحق أن اعتماد الرسول ﷺ على هذه الشخصية بعد الله ﷻ كان اعتمادًا كبيرًا يدل على حسن سياسته ﷺ، وعلى عظيم حكمته في معالجة المواقف الحرجة التي كانت تمر به في حياته، وما ذلك إلا بتوفيق الله ﷻ وحسن توجيهه ﷺ». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٦٧، ١٧٠].

٣٤ ـ معاناة الليالي الأخيرة في الخندق:

يقول د/ الحميدي: «في الأخبار التي وردت في هذه الأيام الأخيرة تبينت لنا جهود كبيرة في ليالي ذلك الحصار من رسول الله ﷺ وأصحابه، وذلك في حراسة الخندق والمرابطة حوله حتى لا يتجاوزه المشركون، وكان ﷺ لا ينام الليل إلا قليلًا وبشكل متقطع للهمِّ الكبير الذي يحمله لأصحابه ودولته الصغيرة المحاربة من كل جانب.

وكان الأعداء يوجهون كتائبهم الكثيرة على طول الخندق ليشغلوا المسلمين جميعًا ويَحولوا بينهم وبين الراحة مؤمِّلين أن يحصلوا من بعضهم على غفلة أو استسلام لنوم؛ ليستطيعوا القيام بردم الخندق والإغارة بخيلهم على جيش المسلمين المفرَّق للحراسة والحماية في مقابل الخندق داخل المدينة، ولكنهم فشلوا في كل محاولاتهم بالرغم من قلة عدد المسلمين وقلة إمكاناتهم المادية وسعة المنطقة التي كان عليهم أن يحموها من الأعداء، وهذا دليل على قوة شعور الصحابة بالمسؤولية وتجردهم من الأنانية، واليقظة التامة من قائدهم الأعلى ﷺ وقادتهم الذين ينوبون عنه في إدارة العمل الجهادي.

وخبر أم سلمة ﵂ يبين شدة ضغط المشركين في هجومهم الليلي، فقد فزع النبي ﷺ من نومه مرتين في ليلة واحدة ـ على قلة نومه ـ ولبس سلاحه وذهب هو ومن معه من الصحابة إلى موضع الخطر حتى اطمأن على وضع المسلمين، ورأى اندحار المشركين.

وإن في رسول الله ﷺ قدوة حسنة للقادة حيث لم يلزم مكان قيادته ويكتفي بإصدار الأوامر، بل كان يذهب بنفسه إلى مواضع الخطر ـ بالرغم من كفاءة قادته ـ ليطمئن طمأنينة كاملة، ولِيَسُنَّ للقادة من بعده المنهج الحكيم في إدارة المعارك الحربية.

هذا ولم تقتصر جهود المسلمين على الجهاد الدفاعي، بل كان لهم هجوم بالرماية، كما رأينا في موقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهذا مثل من أمثلة مهارة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في الرماية حيث أصاب أحد رماة المشركين من بُعْد لوجود الخندق والمسافة بينه وبين المسلمين وبينه وبين المشركين، بالرغم من كون ذلك الرامي مترسًا بترسين». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٣٥-١٣٧**].

٣٥ ـ الخوف أمر فطري للنفس البشرية:

يقول د/ الغضبان: «فهل يوجد إغراء للمسلم الملتزم بدينه أعظم من هذا الإغراء، الرفقة لرسول الله ﷺ في الجنة والعودة سالمًا من المهمة، هذا الخوف والبرد، الذي بلغ هذا المدى، يعطينا صورة أمينة عن النفس البشرية، فكثيرًا ما يتحدث الواعظون والدعاة عن الإيمان، وأثره على المسلم، وعن العقيدة، وأثرها في تكوين النفس، فيقولون في ذروة المد الشعوري: إن المؤمن الحقيقي لا يخاف، ولا يمكن أن يخاف، فهو لا يخاف أحدًا إلا الله، ويشككون بالمؤمن لو اعتراه الخوف، أو اعتراه الضعف، وهذه صورة تخالف النصوص الثابتة الصحيحة، فقد أكد القرآن في أكثر من موضع أن المؤمن الصادق يخاف، والمؤمنون الصادقون يخافون ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٦]، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

وهذه النصوص الصحيحة في الخندق تؤكد هذا المعنى، إنما الفرق هو كيف يتصرف المؤمن إذا خاف، وما هي دوافع خوفه، وقصة حذيفة رضي الله عنه تعطينا الصورة الصحيحة للموقف.

فهو وإخوانه المؤمنون لم يستجيبوا لدواعي التنافس، وغلب الخوف من العدو دواعي الإغراء بالسلامة، والجنة في هذه اللحظات الرعيبة، لكن الأمر عندما تحدد، وطلب من حذيفة ـ رضوان الله عليه ـ بشخصه أن يمضي إلى العدو انتهى كل تفكير لديه بالتردد ولم يعد مخيرًا باتخاذ الموقف.

لقد تربى هذا الجيل، على ألا يقول حين يصدر إليه الأمر، لكننا نذكر بالمقابل أنها المرة الوحيدة في تاريخ السيرة أن ينتدب رسول الله ﷺ المسلمين لأمر، ولا يوجد من يستجيب له، وهذا يعني أننا الآن في ذروة المحنة، التي وصل إليها المسلمون في تاريخهم كله.

ولابد أن نذكر مع ذلك صعوبة المهمة وخطورتها، وهي أن يدخل في العدو وحده، العدو المتربص، المتوثب للقتل، وليس العدو الغافي الذي لا يدري بتسلله ودخوله، وكان صريحًا ـ رضوان الله عليه ـ بين يدي سيده، فيما يخاف منه فيقول له: والله ما بي أن أقتل، ولكن أخشى أن أؤسر، فقال: «**إِنَّكَ لَنْ تُؤْسَرَ**».

وحين استجاب الجندي العظيم لأمر قائده ونبيه ﷺ التزامًا بأمره رغم كل هذه المخاوف الرهيبة تولاه الله تعالى بعنايته ورعايته». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٨١-٨٢].

٣٦ ـ بين التصور والواقع:

يقول أ/ الشامي: «عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ قَالَ: قَالَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رضي الله عنهما: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَصَحِبْتُمُوهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: وَاللهِ لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ، قَالَ: وَاللهِ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَلَجَعَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا، قَالَ: فَقَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: يَا ابْنَ أَخِي، وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالخَنْدَقِ ... ثم ذكر حديث تكليفه بمهمة الذهاب إلى معسكر المشركين.

هذا تابعي يلتقي بالصحابي حذيفة رضي الله عنه ويتخيل أنه لو وُجد مع رسول الله ﷺ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصحابة الكرام رضي الله عنهم، والخيال شيء والواقع شيء آخر، والصحابة رضي الله عنهم بشر، لهم طاقات البشر، وقدراتهم، وقد قدموا كل ما يستطيعون، فلم يبخلوا بالأنفس فضلًا عن المال والجهد، وقد وضع ﷺ الأمور في نصابها بقوله: «**خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي**» [إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ٧/ ٣٣٧ في المناقب (٦٩٩٤)، ونسبه لابن حبان في صحيحه]، فبيَّن أن عملهم لا يعدله عمل.

إن الذين جاؤوا من بعدُ، فوجدوا سلطان الإسلام ممتدًا، وعاشوا في ظل الأمن والرخاء والعدل، بعيدين عن الفتنة والابتلاء، هم بحاجة إلى نقلة بعيدة، يستشعرون من خلالها أجواء الماضي بكل ما فيه من جهالات وضلالات وكفر، وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصحابة رضي الله عنهم حتى قام الإسلام في الأرض.

روى الإمام أحمد بسنده عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: جَلَسْنَا إِلَى المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ رضي الله عنه يَوْمًا، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ: طُوبَى لِهَاتَيْنِ العَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَاللهِ لَوَدِدْنَا أَنَّا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ، وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ، فَاسْتُغْضِبَ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ، مَا قَالَ إِلَّا خَيْرًا! ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: **مَا يَحْمِلُ الرَّجُلُ عَلَى أَنْ يَتَمَنَّى مَحْضَرًا غَيَّبَهُ اللهُ عَنْهُ، لا يَدْرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ فِيهِ، وَاللهِ! لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْوَامٌ أَكَبَّهُمُ اللهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، لَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ، أَوَلَا تَحْمَدُونَ اللهَ إِذْ أَخْرَجَكُمْ لَا تَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ مُصَدِّقِينَ لِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ، قَدْ كُفِيتُمْ البَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ، وَاللهِ! لَقَدْ بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فِي فَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرَوْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَقَ بِهِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الوَالِدِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَرَى وَالِدَهُ وَوَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ قُفْلَ قَلْبِهِ لِلإِيمَانِ، يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ، وَإِنَّهَا لَلَّتِي قَالَ** عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

[مسند أحمد ٣٩ / ٢٣١ عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه رقم ٢٣٨١٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير يعمر بن بشر وهو ثقة، وصححه الحافظ ابن كثير في التفسير ٦/ ١٤٢].

إن كلا الرجلين الذي تحدث إلى حذيفة ﷺ، والذي تحدث إلى المقداد بن الأسود ﷺ لم يدفعهما إلى الحديث إلا التعبير عن الحب لرسول الله ﷺ، وكلاهما لم يفهما ذلك فلسفة بل عملًا، فالأول قال: **مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ**، وقال الثاني: **وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ**..

ليت الذين يدَّعون محبة الرسول ﷺ يترجمون ذلك في أعمالهم فتكون متساوقة مع ما أمر به ﷺ وحينئذ يبرهنون على الصدق في قولهم». [من معين السيرة للشامي ٣١٥-٣١٧].

٣٧ ـ كان حذيفة ﷺ أجمع لصفات الفدائي المغامر العليم بمهمته:

يقول الشيخ عرجون: «وذهب حذيفة ﷺ إلى جموع الأحزاب ودخل بينهم ـ والظلام الشديد يستره ـ دخول الفدائي الذي يكتنفه الموت من جميع أكنافه ويحتويه من سائر جوانبه وهو لا يبالي، ولكن حذيفة ﷺ كان حاذق الرأي، خبيرًا بتصرف الأمور إذا تأزمت، سريع البادرة، ثابت اليقين، راسخ الإيمان، فَطِن الفطرة، ذكي الفؤاد، متماسك الشخصية.

وهذه هي الصفات التي يجب أن تتوافر في الأفراد والجماعات الذين يكونون موضع الثقة الخاصة للقيادة عند اشتداد الأزمات واستحكام الأخطار.

وقد عَرف حذيفة ﷺ عن جموع الأحزاب كل أمرهم، ظاهره وخفيه؛ لأنه داخلهم مداخلة لم تترك لهم سرًّا إلا كشفته ولا خبيئًا إلا أعلنته.

وقد وقعت له فيهم عجائب دلت على أن اختياره لهذه المهمة الخطيرة كان من متنزل التوفيق، فقد عَرف ما هم فيه من الاضطراب والضياع، والرعب والفزع واستغلاق الأمور أمامهم استغلاقًا شل تفكيرهم، ولم يجدوا للخلاص من حالهم إلا الاستعداد للهرب.

ورجع حذيفة ﷺ للنبي ﷺ فأخبره خبر القوم، فكان ذلك مما أنعش نفوس المؤمنين ورفع ثقل ما نزل بهم من البلاء والمحن، ولو لم يكن لحذيفة ﷺ إلا موقفه من أبي سفيان وهو يُصْلي خاصرته بالنار من شدة البرد وتمكنه من قتله لولا تذكره قول النبي ﷺ: «**لَا تُحْدِثَنَّ فِي القَوْمِ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي**»، وفي رواية: «**لَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**» لكفاه في مفاخر الإيمان واليقين، وليس موقفه وهو يسمع أبا سفيان وقد أحس بعنصر غريب بين جموع الأحزاب: **ليعرف كل امرئ مَنْ جليسه**، وإذا بحذيفة مبادرًا إلى مَنْ إلى جانبه الأيمن، فيقول له: من أنت؟ فيقول: معاوية بن أبي سفيان، ويضرب بيده على من على شماله ويقول له: من أنت؟ فيقول: عمرو بن العاص، وهما أدهى العرب وأحضرهم بديهة، فيسبقهما حذيفة ﷺ ببادرته ويسكتهما عنه، ويخرج عنهما دون أن يعرفا عنه شيئًا ـ بأقل منزلة في منازل الرسوخ واليقين من موقفه مع أبي سفيان». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٩٧-١٩٨].

٣٨ ـ ما يؤخذ من قصة حذيفة ﷺ:

يقول د/ أبو فارس:

(١) إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بشر من البشر، ليسوا بملائكة يخيفون ويرعبون ولا يخافون، بل تعتريهم حالات الضعف البشري أحيانًا، فربما خافوا، وأبطأوا في الإقدام أحيانًا، وهذا ما حدث لهم حينما تأخروا عن إجابة الرسول ﷺ وطلبه.

(٢) حديث حذيفة بن اليمان ﷺ هذا يدل على تواضعه إذ أخبر عن ضعفٍ اعتراه، والإنسان العادي يحب أن تُستر نقاط ضعفه وتظهر نقاط القوة فيه؛ حتى يُمدح عليها، ويشبع غروره بنفسه.

(٣) في قول الرسول ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فائدة هي: ينبغي على القائد أن يسلك أسلوب الحض والتشجيع والتحبيب في النواحي العسكرية، فيكون التنفيذ عن رضا وطواعية، فهو الأجدى والأهدى وفي هذه الحالة الناس مخيرون غير ملزمين، فإن تقاعسوا فلا يُلام واحد منهم، ولا يُعد جانيًا أو مرتكبًا لمخالفة شرعية، فإذا لم يجد القائد من يقوم بالعمل طوعًا، لتقاعس الهمم، يأتي هنا دور إصدار الأمر العسكري، والتكليف به لأي فرد أو مجموعة من الأفراد، وليس للمكلف بهذا الأمر أن يتردد أو أن يستنكف، بل عليه واجب السمع والطاعة والالتزام وتنفيذ ما طُلب منه مهما كانت النتائج.

(٤) نرى في أمر النبي ﷺ حوافز تشجع النفس على القيام به، تأمل معي قوله ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» هي منزلة عظيمة أن يكون هذا الذي يستجيب لهذا الحض مع الرسول ﷺ يوم القيامة؛ ذلك لأن دعاء الرسول ﷺ مستجاب.

ويستفاد من هذا أن لا بأس بوجود الحوافز التي تشجع المقاتل على القتال، حتى وإن كانت مادية، كيف لا؟ والرسول ﷺ يقول: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**».

[البخاري في فرض الخُمس (٣١٤٢)، وفي المغازي (٤٣٢٢)، وفي الأحكام (٧١٧٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥١)، وأبو داود في الجهاد(٢٧١٧)، والترمذي في السير(١٥٦٦٢)، ومالك في الموطأ كتاب الجهاد (٩٩٠)].

(٥) اختيار النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان ﷺ ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب يدل على معرفته الدقيقة بمعادن الرجال، واختيار المعدن الذي يثبت ويصلح لهذه الأعمال الخطيرة.

فهذا العمل يُكلِّف حذيفة ﷺ حياته، إذ لو اكتشفه الأعداء ـ وهذا محتمل ـ لكانت عقوبته الموت صبرًا، ومع هذا أقدم على تنفيذ ما أُمر به.

وهو بالإضافة إلى ذلك لبق ذكي خفيف الحركة، سريع التخلص من المآزق الحرجة.

(٦) إن الأمر العسكري الذي وجهه رسول الله ﷺ إلى حذيفة ﷺ كان واضحًا ومحددًا، فنفذه حذيفة ﷺ وعاد سالمًا، وهذا ينبغي أن يُلاحظ في أي أمر عسكري، فلا يكون فيه عدة مطالب متناقضة، ينسخ آخرها أولها، فلا يتحقق شيء منها». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩١-١٩٣].

٣٩ ـ جوانب من مهمة حذيفة ﷺ:

يقول أ/ الشامي: «ولابد لنا من وقفة عند مهمة حذيفة ﷺ والتي سبق ذكرها في حديثه المتقدم، وأكتفي بالإشارة إلى ثلاثة جوانب منها:

(أ) عُرضت المهمة على الصحابة، وكان الجزاء لها رفقة النبي ﷺ في الجنة، ومع ذلك لم يستجب أحد، ثم أُمر حذيفة ﷺ بها، فقام مستجيبًا رغم كل الصعوبات التي منعته من الإسراع إليها مع ما عرض لها من جزاء.

وكان عليه أن يؤدي المهمة تنفيذًا للأمر، وهنا تتغير حاله النفسية فيذهب الخوف، والبرد، حتى قال: فَوَالله مَا خَلَقَ اللهُ فَزَعًا وَلَا قُرًّا فِي جَوْفِي إِلَّا خَرَجَ مِنْ جَوْفِي، فَمَا أَجِدُ مِنْهُ شَيْئًا، وفي رواية مسلم: فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ.

إن الحرص على تنفيذ الأمر وأداء المهمة جعله وكأنه لا خوف من حوله، ولا برد، ولا ريح.

(ب) ووضع السهم في كبد القوس، وأراد أن يرمي أبا سفيان بعد أن تعرف عليه، ولكنه ذكر قول الرسول ﷺ في وصيته له: «**لَا تُحْدِثَنَّ فِي الْقَوْمِ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي**» فيمسك امتثالًا للأمر وانضباطًا مع الوصية، رغم ما في نفسه تجاه أبي سفيان حامل لواء الكفر يومئذ.

(ج) وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصحابي الكريم، وقد دخل في القوم، وقال أبو سفيان: **ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص** ... [شرح الزرقاني ٢/ ١٢٠].

وهكذا بَدَرهم بالمسألة حتى لا يتيح لهم فرصة ليسألوه، وبهذا تخلص من هذا المأزق الحرج، الذي ربما كان أودى بحياته..». [من معين السيرة للشامي ٣١٧-٣١٨].

٤٠ ـ أهمية تلطف القيادة وجنودها بأفراد الصف:

يقول د/ فيض الله: «روت كتب السنة أن حذيفة ﷺ لما قفل راجعًا من مهمته التي كلفه بها رسول الله ﷺ في تلك الليلة الشديدة البرد، العاصفة الريح، الحالكة الظلمة، وجد النبي ﷺ قائمًا يصلي في مِرطٍ ـ كساء فضفاض ـ لبعض نسائه، فلما بصر به أشار إليه بالاقتراب، وطرح عليه طرف المرط الذي كان يصلي فيه؛ ليقيه عادية البرد، ثم أتم صلاته وهو فيه، حتى إذا تحلل من صلاته أخبره بالذي كان.

فيروى أنه أبقاه مشتملًا بها حتى أصبح، فناداه الرسول ﷺ مداعبًا قائلًا: «**قُمْ يَا نَوْمَانُ**».

[مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٨)].

أرأيت إلى لطف هذا النبي العظيم ﷺ وترفقه بأصحابه؟ إن صلاة الليل، وحلاوة المناجاة، لم تمنعه من التلطف بهذا الشاب الكشاف، الذي جاء بأحسن الأنباء، وأصدق الأخبار، وأهمها، فشمله بكسائه الذي يصلي فيه، ليدفئه، وتركه ملفوفًا به حتى أتم صلاته، بل حتى بعد أن أفضى إليه بالمهمة، وأشرق الصبح الجميل؛ فلما وجبت المكتوبة أيقظه بلطف وخفة ودعابة، قائلًا: هيا يا نومان، دعابة تَقْطُرُ حلاوةً، وتَفِيضُ بالحنان، وتسيل رقة.

إنها صورة نموذجية للرأفة والرحمة، اللتين تحلى بهما فؤاد الرسول ﷺ وتطبيق فريد رفيع لهما في أصحابه الكرام، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

إنها درس كبير للمعلمين الذين يتصدرون لتعليم الناس العامة منهم والخاصة، في الجامع والجامعة، في المعهد والمدرسة، يرشدهم إلى التحلي بالرأفة والحلم، في مجالس العلم؛ لينمو الغرس، ويثمر الدرس، ويُؤْتِي التعليمُ أُكُلَه». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٤٦-٢٤٧].

٤١ ـ اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب:

يقول د/ زين السيد: «إن تصرف القيادة الرشيدة لا يظهر في شيء قدر ما يظهر في معرفة الرجال وسبر أغوارهم ووضع كل شيء في محله، ولقد كان رسول الله ﷺ الأسوة العليا للبشر وخير من يعرف أن لكل مقام مقالًا ولكل موقف رجالًا، ولقد كان رسول الله ﷺ أكثر الخلق فراسة في اختيار الرجل المناسب للمقام المناسب، والإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي لابد أن يتعرض للصراع النفسي، وثقة الناس بالقائد الرسول ﷺ كانت متناهية في جميع الأحوال، وأراد النبي ﷺ أن يتعرف على أخبار القوم والأمر خطير جدًّا ولا يقوم به إلا من يبيع نفسه لله تعالى، وكان اختيار الرسول ﷺ لحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما عن علم ويقين بما يفعل، وحدَّث بعد ذلك بما رأى في تلك الليلة.

لقد اختار الرسول ﷺ الرجل المناسب للمقام المناسب، وكان بحق أهلًا لهذا الاختيار، ويظهر ذلك واضحًا أثناء تأديته لمهمته.

الموقف الأول: حين قال أبو سفيان: يا معشر قريش لينظر امرؤ مَنْ جليسه، فكان حذيفة أول من أجاب لهذا النداء، وسأل من بجواره؛ لأنه بذكائه، وقوه حفيظته علم أنه لو لم يسأل من بجانبه لبُدئ هو بالسؤال عن اسمه، فإن صدق علم أمره، وإن احتال للأمر وذكر اسمًا غير اسمه، وهذا كذب، والكذب جائز في هذا الموقف فلربما لا يكن لهذا الاسم الذي ذكر وجود في القوم فيقع ما لا تحمد عقباه، ومن هنا كان مسارعًا في سؤال من بجواره للخروج من هذا المأزق الحرج.

وأما الموقف الثاني: فحين قال له الرسول ﷺ: «**وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا**» وكان في إمكان حذيفة رضي الله عنه أن يقتل أبا سفيان بسهم، ولكنه لم يفعل ذلك حرصًا على تنفيذ أمر الرسول ﷺ له ألا يحدث شيئًا حتى يرجع، وهو يعلم يقينًا أن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، لقد سبق في علم الله تعالى أن أبا سفيان سيكون من المؤمنين وتحقق ذلك في فتح مكة، وتنفيذًا لمراد الله تعالى، كان الأمر من رسول الله ﷺ لحذيفة رضي الله عنه ألا يحدثن في معسكر العدو شيئًا؛ لذا امتنع حذيفة رضي الله عنه من إطلاق السهم إلى أبي سفيان ليتحقق المراد الإلهي، وهناك غير أبي سفيان من كان مع الأحزاب من أسلم بعد وحسن إسلامه؛ ولذا ظل حتى سعد بالإسلام.

نعم إنه الأسلوب التربوي الصحيح من الرسول القائد ﷺ علم بثاقب فكره ميزة كل منهم فوضعه في مكانه اللائق به لتحقيق التوازن نحو أهداف عليا لا يمكن بأي حال من أن يصل إليها فكر البشر العادي». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٧١-١٧٣].

٤٢ ـ حرص الأفراد على الجهاد والشوق للشهادة:

يقول د/ الحميدي: «في خبر إصابة سعد بن معاذ رضي الله عنه يظهر لنا مثل من رغبة الصحابة رضي الله عنهم الشديدة في الجهاد في سبيل الله تعالى، وشوقهم البالغ للشهادة، ويتبين لنا من دعاء سعد بن معاذ رضي الله عنه أنه كان يعيش تلك الساعات التي تَلَت إصابته بين أملين كبيرين، أحدهما جهاد القوم الذين آذوا رسول الله ﷺ وأخرجوه وحاربوه، والآخر أن تحصل له الشهادة من جُرحه ذلك، فربما لا يُصاب بعد ذلك فلا تحصل له الشهادة.

إن هذه الأماني السامية والأهداف العالية تُظهر لنا تفوق الصحابة رضي الله عنهم في الإيمان الراسخ والعلم بالآخرة علم اليقين الذي يكاد أن يشبه علم المشاهدة.

وقد استجاب الله تعالى دعاء سعد الثاني، فنال الشهادة من جرحه ذلك بعدما أقر عينه من بني قريظة كما سيأتي، ولم يُبْقه تعالى لحرب قريش؛ لأنه في علمه سبحانه أن الحرب بين المسلمين وقريش قد انتهت».
[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٣٩].

إن الجهاد الحق هو الذي يكون في سبيل الله، وإعلاء كلمة الحق، وليس لمغنم من مغانم الدنيا أو لطلب سمعة أو رياسة أو جاه أو سلطان، وهذا ما تدل عليه عبارة سعد رضي الله عنه **(فأجاهدهم فيك)**».
[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٦].

٤٣ ـ مكانة سعد رضي الله عنه العالية في قلب رسول الله ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان رسول الله ﷺ يحب سعد بن معاذ رضي الله عنه حبًّا شديدًا، وقد كان يقربه إليه، فقد كان يحرس عريش رسول الله ﷺ في بدر، وكان صاحب رأي وحكمة يأخذ الرسول ﷺ برأيه، فلم يعجبه أن ينشغل المسلمون في بدر في أخذ الأسرى، بل كان يرى الإثخان في القتل، وفي هذه الغزوة يأمر

الرسول ﷺ بأن تُضرب خيمة في المسجد لسعد رضي الله عنه حتى يكون قريبًا من رسول الله ﷺ، فيزوره الرسول ﷺ ويعوده دبر كل صلاة، ألا يدل هذا على حب رسول الله ﷺ لسعد رضي الله عنه.

إن سعدًا رضي الله عنه كان يصر على حرب قريش، ويسأل الله عز وجل أن يبقيه لحربها إن بقيت حرب بينهم ليس لأنه بين الأوس وهو زعيمهم وبين قريش ثارات وذحول وأحقاد ويريد أن ينتقم لنفسه أو لعشيرته، إنما لأن قريشًا طردت رسول الله ﷺ وكذبته». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٦**].

ويقول د/ أبو فارس: «حب رسول الله ﷺ له وعنايته به، وحرصه على أن يكون قريبًا منه دليل على منزلة سعد بن معاذ رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ، ومكانته رضي الله عنه في نفس رسول الله ﷺ، وهذه الأمور كلها شهادات تزكية من رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ رضي الله عنه، وإذا كان المرء يحشر مع من أحب يوم القيامة، فإن سعد بن معاذ رضي الله عنه يحب رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يحب سعد بن معاذ رضي الله عنه.

ونحن نحب رسول الله ﷺ ونرجو من الله أن يحشرنا في زمرة نبينا محمد ﷺ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقًا». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٢٦**].

٤٤ ـ أهمية تمتع الأفراد بقوة الإيمان وثبات العزائم:

يقول الشيخ عرجون: «وقد تجلت في غزوة الأحزاب قوة الإيمان وثبات العزائم في مواقف أصحاب رسول الله ﷺ، وتحملهم قسوة الحوادث، وصبرهم على شدة الجوع والبرد، ودأبهم على العمل الشاق، وتيقظهم لحركات أعدائهم ومواجهة هذه الحركات بما يوائمها من ثبات الإيمان وإخلاص اليقين، متخذين من مواقف رسول الله ﷺ أسوة يتأسون بها، حتى كان لهم من ذلك دروس عملية في تربية المجتمع المسلم ليتخذها نبراسًا في كل جيل من أجياله المتعاقبة، ولتعلم هذه الأجيال القادمة أن طلائع الإسلام أقامت شوامخ صروح هذا الدين على دعائم المحن والكفاح المناضل وصرامة العزائم ووزن الدنيا في واقعها بميزانها الحقيقي، فلا يركنون إليها ولا إلى أهلها؛ لأنها سريعة التقضي والزوال، ووزن الآخرة بميزانها الإلهي في خلودها وثوابها وعقابها، وما أعد فيها للصابرين على البلايا في سبيل إعلاء كلمة الله، ليجعلوا من هذا الصبر قوة تقف في وجه الباطل والشر والفساد، فتهون عليهم أنفسهم في سبيل إقامة معالم الحق، ونشر رسالته في آفاق الأرض، إنقاذًا للبشرية من أوضار الشرك ورجس الوثنية، وضلال العقول والأفكار التي تنبت على أرض الإلحاد والتزندق والانحراف بالفطرة الأصيلة عن سننها من الصفاء والنقاء، حتى ترتد بهذا الانحراف على أعقابها لتعيش على مواريث الجاهلية وتراثها المرذول المترسب في حنايا تفكيرها التقليدي الذي لا يقيم وزنًا للحق والعدل، ولكنه عاش ويعيش محكومًا بالتعبد للمادة المظلمة الظالمة التي لا يعنيها من الحياة إلا تحقيق رغائب الشهوات مدفوعة إليها ببطون كظيظة، وأبدان مترهِّلة، وأفكار مهلهلة وعقول مستعبدة». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٦٩-١٧٠**].

٤٥ ـ القصور الاجتماعي والديني عند العرب المشركين:

يقول أ/ وجدي: «إن قريشًا وسائر العرب كانوا بسبب ما هم عليه من القصور الاجتماعي والديني قليلي الاكتراث لما يحدث بعيدًا عنهم من التطورات لطائفة أخرى، حتى ما كان منه عائدًا بالضرر على معاشهم، وهذا الضعف في الشعور نتج من حالة التفكك التي كانوا عليها، والمجتمع كالفرد إن يتم تألفه، ويكمل تشكله، لا تظهر فيه خصائص الاجتماع ولا حوافظه، ولولا أن رجالًا من اليهود انتدبوا لإهاجة قريش وبعض القبائل المحالفة لهم على الغارة على المسلمين، لما فعلوا، ولما كانوا دُفعوا إليها دفعًا بإغراء غيرهم، فإن ما حدث من ثورة الريح في تلك المنطقة كان كافيًا في إرجاعهم عن قصدهم، نعم إن العواصف التي ثارت في سنة ١٥٨٨م على أسطول فيليب الثاني ملك إسبانيا، أمام شواطئ إنجلترا، كفت هذه المملكة شره، وكان أقوى أسطول في العالم، وقد دُعي (أرمادا)، ومعناها الذي لا يُقهر، ولكن كان لخيبته سبب مادي، وهو أن تلك العواصف حطمت أكثره على صخور الجزر البريطانية فلم يعد يصلح لعمل، فعاد ما سلم منه على أسوأ حال.

ولكن الريح الباردة التي ثارت على الجيوش المتحالفة لم تُحدث من الخسائر المادية ما يقتضي أن يُرجعها أدراجها، وقد دل الكتاب الكريم على ذلك بقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وهذه الجنود هي العوامل الروحانية التي نفثت الرعب في قلوبهم، وسولت لهم النكوص على أعقابهم، فلو كانت تلك الريح تكفي وحدها في خَذْلهم لما عززها الله بهذه العوامل.

والذي يدل على أن العرب كانوا في قصور بعيد المدى من الناحيتين الاجتماعية والدينية، أن بني غطفان قَبِلوا أن يأخذوا ثلث تمر المدينة ثمنًا لخيانة حلفائهم، مستهينين بالغرض الكبير الذي دعا إلى تآلفهم، وليس هذا بعجيب في حياة القبائل». [**السيرة المحمدية لوجدي ٢٢٠-٢٢١**].

٤٦ ـ المرأة المسلمة في المعركة:

يقول الشيخ المسند: «للمرأة المسلمة دور كبير في الحرب تحضر فيه طعامهم وشرابهم وتضمد الجرحى منهم، وتجمع عليهم الشارد من أسلحتهم الخفيفة وتناولهم بعضها وهي في سترها واحترامها... وقد شهدت النساء مواقع حربية مع المسلمين أما في هذه المعركة فقد عملن كثيرًا واختلف ترتيب موقعهن إذ قسمن إلى قسمين:

الأول: النشط الذي يساعد بنقل الماء وسقى العاملين في الخندق والتحضير للمحاربين.

الثاني: المعذورات وكبيرات السن والأطفال فلم يتركن هذه المرة في بيوتهن بل وزعن إلى فرقتين: الأولى تقف في سطوح المنازل معها الحجارة تستعد لرمي أي مار من الأعداء، ومعها بعض الصبيان، والثانية جُمعت في مكان كبير وجعل عليها حارسات من النساء؛ وذلك لأن العدو هذه المرة قد يخرج من

بيوت المدينة من المنافقين أو اليهود، وفعلًا حدث ما توقع المسلمون فإن يهوديًا دار حول الحصن الذي فيه الفرقة ويسمى (حصن فارع) فخافت النساء فقامت إليه (صفية بنت عبد المطلب) ومعها عمود فلطمته به من قفاه فأردته قتيلًا، ثم سحبته مع نسوة معها إلى مكان بعيد عن الحصن.

وهكذا يكون دور المرأة المسلمة نافعًا ومتخصصًا يُبقي لها احترامها وحياءها وعفتها وهو لا يمنعها من المشاركة فيما ينفع المسلمين، ويوم كانت المرأة مدركة لواجبها ووظيفتها وحدود اختصاصها كانت أكثر نفعًا وأعظم سعادة وأهنأ بالًا.. أما اليوم فقد حاول بعض الرجال إقلاقها والتشويش عليها وصرفها عن الأفضل إلى الارتباك والحيرة وخوض ميادين تتعبها ولا تنفعها ولا تنفع المسلمين ...».

[متى ينتصر المسلمون؟ للمسند ٧٢-٧٣].

ويقول د/ أبو خليل: «وكان للمرأة العربية المسلمة دورها الطيب الفعال في غزوة الخندق، لقد حملت تربية عالية، وخلقًا رفيعًا، وطهرًا وعفافًا، وخاضت أحداث الخندق بهذه الصفات بكل جدارة وفعالية:

(١) **المرأة المسلمة الممرضة: رفيدة الأنصارية** (وقيل رفيدة الأسلمية، أي أنصارية من أسلم): وكان رسول الله ﷺ حين أصاب سعدًا رضي الله عنه السهم بالخندق، قال لقومه: «**اجْعَلُوهُ فِي خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ**»، وكانت خيمة رفيدة في مسجده ﷺ، حيث داوت رفيدة الجرحى، محتسبة نفسها على خدمة جرحى المسلمين، وكان رسول الله ﷺ يمر بسعد رضي الله عنه وهو في خيمة رفيدة فيقول: «**كيف أمسيت؟ وكيف أصبحت؟**»، فيخبره.

(٢) **المرأة المسلمة المقاتلة:** صفية بنت عبد المطلب التي أحبطت تطويقًا مخططًا له، وقصمت ظهر بني قريظة عندما قتلت العين المرسل لاستطلاع الآطام التي حلت بها النساء المسلمات وأولادهن، وكما مر معنا، أيقنت بنو قريظة عندها أن المسلمين قد خصصوا جزءًا من قواتهم لحماية الظعن والمؤخرة، فعدلوا عن القيام بأي عمل حربي في مؤخرة الجيش الإسلامي، فقمعوا في حصونهم لا يفكرون بالخروج خوفًا ورعبًا وتحسبًا.

(٣) **المرأة المسلمة مُطْعِمة الجند:** كما قدمت المرأة المسلمة الطعام للمجاهدين وهي على يقين أن ما تقوم به واجب عليها تبتغي منه الأجر والثواب، والعون لجند الله:

- ابنة بشير بن سعد أخت النعمان بن بشير، جاءت بها تملك من التمر.
- زوجة جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، صنعت الطعام لرسول الله ﷺ، فأكل منه جند الخندق كلهم.
- أم عامر الأشهلية صنعت حيسًا أكل منه رسول الله ﷺ، ثم أكل منه أهل الخندق عن آخرهم».

[غزوة الخندق لأبي خليل ١٥٦-١٥٨].

كما يظهر دور المرأة المسلمة في مشاركة المسلمين في جهادهم، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم، وبعدت عنهم أرزاقهم، وقل عنهم القوت، وأصاب الناس جوع وحرمان حتى كان

رسول الله ﷺ والمسلمون معه يشدون على بطونهم الحجارة من شدة الجوع، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطعام. [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٨٢ نقلًا عن: المرأة في العهد النبوي ـ د/ عصمة الدين كركر ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٩٩٣م ـ ص ١٧٥].

٤٧ ـ تصويب الخبر عن جبن حسان رضي الله عنه:

يقول د/ أبو فارس: «تذكر بعض كتب السيرة كالسيرة النبوية لابن هشام أن حسان بن ثابت رضي الله عنه جَبُنَ عن المشاركة في غزوة الأحزاب، وأنه كان ينام مع النساء والصبيان في الآطام، بل لم يجرؤ على ملاقاة يهودي قد اقترب من الحصن الذي يأوي إليه صبيان المسلمين ونساؤهم، وقد استغاثت صفية بنت عبد المطلب به فخاف ولم يخرج، فقامت صفية إلى اليهودي فقتلته.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ عَبَّادٍ قَالَ: كَانَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي فَارِعٍ، حِصْنِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ؛ قَالَتْ: وَكَانَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه مَعَنَا فِيهِ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، قَالَتْ صَفِيَّةُ: فَمَرَّ بِنَا رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ، فَجَعَلَ يُطِيفُ بِالْحِصْنِ، وَقَدْ حَارَبَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ، وَقَطَعَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَحَدٌ يَدْفَعُ عَنَّا، وَرَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ فِي نُحُورِ عَدُوِّهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُمْ إِلَيْنَا إِنْ أَتَانَا آتٍ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا حَسَّانُ! إِنَّ هَذَا الْيَهُودِيَّ كَمَا تَرَى يُطِيفُ بِالْحِصْنِ، وَإِنِّي وَالله مَا آمَنُهُ أَنْ يَدُلَّ عَلَى عَوْرَتِنَا مَنْ وَرَاءَنَا مِنْ يَهُودَ، وَقَدْ شُغِلَ عَنَّا رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَانْزِلْ إِلَيْهِ فَاقْتُلْهُ، قَالَ: يَغْفِرُ اللهُ لَكِ يَا ابْنَةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَالله لَقَدْ عَرَفْتِ مَا أَنَا بِصَاحِبِ هَذَا، قَالَتْ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ، وَلَمْ أَرَ عِنْدَهُ شَيْئًا، احْتَجَزْتُ، ثُمَّ أَخَذْتُ عَمُودًا، ثُمَّ نَزَلْتُ مِنَ الْحِصْنِ إِلَيْهِ فَضَرَبْته بِالْعَمُودِ حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَتْ: فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْهُ رَجَعْتُ إِلَى الْحِصْنِ، فَقُلْتُ: يَا حَسَّانُ، انْزِلْ إِلَيْهِ فَاسْلُبْهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي مِنْ سَلَبِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَجُلٌ، قَالَ: مَا لِي بِسَلَبِهِ مِنْ حَاجَةٍ يَا ابْنَةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٨].

وهذا لا يصح لأمرين:

الأول: من حيث الإسناد: فالخبر ليس مسندًا، وقد علَّمنا علماؤنا الأوائل في المنهاج العلمي الذي اتبعوه في الأخبار أنه لا يؤخذ بالخبر إلا إذا كان له إسناد، ولا يؤخذ المسند إلا إذا كان إسناده صحيحًا.

وهذا الخبر ليس مسندًا إسنادًا صحيحًا، ومن ثم فهو ساقط لا يصح ولا يجوز أن يروى فيُساء إلى صحابي من صحابة رسول الله ﷺ، وشاعر كان ينافح عن الدعوة الإسلامية وعن رسول الله ﷺ عمره كله.

الثاني: لو كان حسان بن ثابت رضي الله عنه معروفًا بالجبن الذي ذُكر عنه، لهجاه أعداؤه ومبغضوه بهذه الخصلة الذميمة، لا سيما الذين كان يهاجيهم، فلم يسلم من هجائه أحد من زعماء الجاهلية.

[ينظر: الروض الأنف للسهيلي ٣/ ٢٨، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ١٨٦].

والرسول ﷺ كان يؤيده ويدعو له، ويشجعه على هجاء زعماء المشركين».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩٧-١٩٨].

وقد جاء هذا الخبر مسندًا عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، خَرَجَ إِلَى الخَنْدَقِ فَجَعَلَ نِسَاءَهُ وَعَمَّتَهُ صَفِيَّةَ بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ فِي أُطُمٍ يُقَالُ لَهُ فَارِعٌ وَجَعَلَ مَعَهُمْ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ ﷺ، وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الخَنْدَقِ، فَيَرْقَى يَهُودِيٌّ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى نِسَاءِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَى عَمَّتِهِ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ: **يَا حَسَّانُ قُمْ إِلَيْهِ حَتَّى تَقْتُلَهُ**، قَالَ: **لاَ وَالله، مَا ذَاكَ فِيَّ، وَلَوْ كَانَ ذَاكَ فِيَّ لَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ**، قَالَتْ صَفِيَّةُ: **فَارْبُطِ السَّيْفَ عَلَى ذِرَاعِي**، قَالَ: ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ حَتَّى قَتَلَتْهُ وَقَطَعَتْ رَأْسَهُ، فَقَالَتْ لَهُ: **خُذِ الرَّأْسَ فَارْمِ بِهِ عَلَى اليَهُودِ**، قَالَ: **مَا ذَاكَ فِيَّ**، فَأَخَذَتْ هِيَ الرَّأْسَ فَرَمَتْ بِهِ عَلَى اليَهُودِ، فَقَالَتِ اليَهُودُ: **قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ يَتْرُكُ أَهْلَهُ خُلُوفًا، لَيْسَ مَعَهُمْ أَحَدٌ**، فَتَفَرَّقُوا وَذَهَبُوا.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَرَّ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ، وَهُوَ يَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلاً يُدْرِكُ الهَيْجَا حَمَلٌ ... لاَ بَأْسَ بِالمَوْتِ إِذَا حَانَ الأَجَلُ

قَالَتْ: وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَجْمَلَ مِنْهُ ذَلِكَ اليَوْمَ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ دِرْعٌ مُقَلَّصَةٌ، وَقَدْ تَزَوَّجَ فَبَنَى بِأَهْلِهِ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ، فَعَلَيْهِ أَثَرُ زَعْفَرَانَ.

قَالَ: وَكَانَ حَسَّانُ ﷺ إِذَا شَدَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الكُفَّارِ يَفْتَحُ الأُطُمَ، وَإِذَا كَرُّوا رَجَعَ مَعَهُمْ.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٣-١٩٤ في المغازي والسير (١٠١٤٥)، وقال الهيثمي: رواه البزار [مسند البزار ٣/ ١٩١ رقم ٩٧٨ وفيه «أُحُد»] وأبو يعلى باختصار وقال: فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فضرب لصفية بسهم كما كان يضرب للرجال، وإسنادهما ضعيف، وقد تقدم الحديث من رواية صفية في وقعة أحد. إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ٥/ ٢٣٢ في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ (٤٥٨٨)، وقال محققه: قال في المختصر (٧/ ٢٩-٣٠ رقم ٥٢٣٨): رواه البزار، وإسناده حسن].

وعَنْ هِشَامِ بن عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَدْخَلَ النِّسَاءَ يَوْمَ الأَحْزَابِ أُطُمًا مِنْ آطَامِ المَدِينَةِ، وَكَانَ حَسَّانُ بن ثَابِتٍ ﷺ رَجُلا جَبَانًا، فَأَدْخَلَهُ مَعَ النِّسَاءِ، وَأَغْلَقَ الْبَابَ فَجَاءَ يَهُودِيٌّ، فَقَعَدَ عَلَى بَابِ الأُطُمِ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ بنتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ: انْزِلْ يَا حَسَّانُ إِلَى هَذَا الْعِلْجِ فَاقْتُلْهُ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لأَجْعَلَ نَفْسِي خَطَرًا لِهَذَا الْعِلْجِ، فَائْتَزَرْتُ بِكِسَاءٍ وَأَخَذْتُ فِهْرًا، فَنَزَلْتُ إِلَيْهِ فَقَطَعْتُ رَأْسَهُ.

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٤ في المغازي والسير (١٠١٤٦)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٤/ ٣١٩ رقم ٨٠٤] ورجاله إلى عروة رجال الصحيح ولكنه مرسل. وقال الشيخ العلي: الحديث ضعيف. صحيح السيرة ٢٧٦].

ولكنها أيضًا روايات ضعيفة.

وقال السهيلي: وَذَكَرَ حَدِيثَ حَسَّانَ ﷺ حِينَ جُعِلَ فِي الآطَامِ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَمَا قَالَتْ لَهُ صَفِيَّةُ فِي أَمْرِ اليَهُودِيِّ حِينَ قَتَلَتْهُ وَمَا قَالَ لَهَا، وَمَحْمَلُ هَذَا الحَدِيثِ عِنْدَ النَّاسِ عَلَى أَنَّ حَسَّانَ كَانَ جَبَانًا شَدِيدَ الجُبْنِ،

وَقَدْ دَفَعَ هَذَا بَعْضُ العُلَمَاءِ، وَأَنْكَرَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ حَدِيثٌ مُنْقَطِعُ الإِسْنَادِ، وَقَالَ: لَوْ صَحَّ هَذَا لَهُجِيَ بِهِ حَسَّانُ، فَإِنَّهُ كَانَ يُهَاجِي الشُّعَرَاءَ كَضِرَارٍ وَابْنِ الزِّبَعْرَى، وَغَيْرِهِمَا، وَكَانَ يُنَاقِضُونَهُ وَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ، فَمَا عَيَّرَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِجُبْنٍ، وَلَا وَسَمَهُ بِهِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى ضَعْفِ حَدِيثِ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَإِنْ صَحَّ فَلَعَلَّ حَسَّانَ أَنْ يَكُونَ مُعْتَلًّا فِي ذَلِكَ اليَوْمِ بِعِلَّةٍ مِنْ شُهُودِ القِتَالِ، [وخاصة وأنه طاعن متقدم بالسن]، وَهَذَا أَوْلَى مَا تَأَوَّلَ عَلَيْهِ، وَمِمَّنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ هَذَا صَحِيحًا أَبُو عُمَرَ رحمه الله فِي كِتَابِ الدُّرَرِ لَهُ. [الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣٢٤].

وروى ابن عساكر بسنده عن ابن الكلبي: أن حسان بن ثابت رضي الله عنه كان لسنًا شجاعًا، فأصابته علة أحدثت فيه الجبن، فكان بعد ذلك لا يقدر أن ينظر إلى قتال ولا يشهده. [تاريخ دمشق ١٢/ ٤٣٣].

وقال ابن سراج: إن سكون الشعراء عن تعييره بذلك من علامة نبوة رسول الله ﷺ، لكون حسان شاعره ﷺ. [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٥٦٤، وينظر للتفصيل: غزوتا الأحزاب وبني قريظة في ضوء الآيات القرآنية والروايات الحديثية للجبوري ١٥٦-١٥٩، والمسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢١٠-٢١٢].

٤٨ ـ أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أول مستشفى إسلامي حربي في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرسول ﷺ خيمة في مسجده الشريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر ﷺ أن تكون رفيدة الأسلمية الأنصارية رئيسة ذلك المستشفى النبوي الحربي، وبذلك أصبحت أول ممرضة عسكرية في الإسلام.

[ينظر: المستشفيات الإسلامية ـ د/ عبد الله السعيد ص ٤٣]. [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٨٦].

٤٩ ـ مَنْ به ضيعة من المسلمين:

«وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ جَعَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه فِي خَيْمَةٍ لِامْرَأَةٍ مِنْ أَسْلَمَ (وقيل إنها أنصارية. ينظر: الإصابة وشرح المواهب)، يُقَالُ لَهَا: رُفَيْدَةُ، فِي مَسْجِدِهِ، كَانَتْ تُدَاوِي الجَرْحَى، وَتَحْتَسِبُ بِنَفْسِهَا عَلَى خِدْمَةِ مَنْ كَانَتْ بِهِ ضَيْعَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَ لِقَوْمِهِ حِينَ أَصَابَهُ السَّهْمُ بِالخَنْدَقِ: «**اجْعَلُوهُ فِي خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ**».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩، وأصل الحديث في الصحيحين (خ ٤١٢٢، م ١٧٦٩)].

يقول أ/ الشامي: «ويفهم من النص السابق أن من أُصيب من المسلمين، إن كان له أهل اعتنى به أهله، وإن لم يكن له أهل، جيء به إلى المسجد حيث ضُربت خيمة فيه لمن كانت به ضيعة من المسلمين.

وسعد بن معاذ الأوسي رضي الله عنه ليس به ضيعة، ولكن لما أراد الرسول ﷺ الاطمئنان عليه باستمرار، جعله في تلك الخيمة التي أُعدت لمن به ضيعة وليس له أهل؛ ذلك أن هؤلاء هم في رعاية رسول الله ﷺ، وإلا فلمَ ضُربت الخيمة في المسجد، وكان بالإمكان ضربها في أي مكان آخر؟

إن سعد بن معاذ ﷺ يكرم لمآثره وما بذله في سبيل الله تعالى، فيكون هذا التكريم أن يجعل في خيمة أعدت لمن به ضيعة، وهكذا حينما يرتفع السادة يجعلون مع المغمورين الذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى فاستحقوا أن يكونوا في رعاية رسول الله ﷺ.

وهذا منهج نبوي كريم أصبح دستورًا للمسلمين على مدى الزمن.

وهذه تعاليم الإسلام يتنزل بها القرآن الكريم، وتؤكدها السنة واقعًا عمليًّا ثم قولًا يكون منهجًا ودستورًا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾** [الأحزاب: ٦]، **فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، فَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلَاهُ**». [**البخاري في التفسير (٤٧٨١)**].

وهكذا تلتقي هذه المعاني في سورة الأحزاب، التي كانت مقدمتها موضوع هذه الغزوة، فيكون المسلمون بين درس «الأسوة» وبين الرعاية النبوية قد عاشوا الحياة الإيمانية التي تنزلت الآيات بتسجيلها؛ لتكون منهجًا للمسلمين مدى الزمن». [**من معين السيرة للشامي ٣١٨-٣١٩**].

٥٠ ـ الأثر الاقتصادي في المعركة:

يقول أ/ الشامي: «لا شك أن الجانب الاقتصادي له الأثر الكبير في المعركة، أي معركة، وكثيرًا ما كان عاملًا مهمًّا في النصر، أو الفشل والهزيمة.

وإن غزوة الخندق فُرضت على المسلمين من وقت شدة، ولم يكن لهم إمكانية في تغيير موعدها، وكان عليهم أن يواجهوا الموقف بكل ما فيه من أوضاع لم تكن في صالحهم، وكلها كانت كذلك:

(أ) **فالغذاء**: لم يكن متوفرًا، ولعل حديث جابر ﷺ المتقدم، يعطينا الصورة التي كان عليها المسلمون من الجوع، ونضيف إليه ما رواه البخاري عن أنس ﷺ قال ـ وهو يبين طعام الناس يومئذ: «**يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنَ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيِ الْقَوْمِ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ، وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الحَلقِ، وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ**».

إنه غذاء غير مناسب في كميته، وغير مناسب في طعمه، وكذا في رائحته.

(ب) **اللباس**: ولم يكن وضعهم، من حيث اللباس، أحسن حالًا من الطعام، فقد كانوا في قلة منه، حتى كان الكثير منهم يلبس الواحد منهم ثوب امرأته، قال حذيفة ﷺ يصف نفسه حينما أمره ﷺ أن يأتي بخبر القوم:... وَمَا عَلَيَّ جُنَّةٌ (أي ما يقيني من العدو والبرد) مِنَ العَدُوِّ، وَلَا مِنَ البَرْدِ، إِلَّا مِرْطٌ لِامْرَأَتِي مَا يُجَاوِزُ رُكْبَتَيَّ. [**البداية ٤/ ١١٤ من رواية الحاكم والبيهقي، والمرط: الكساء**].

بل إن رسول الله ﷺ نفسه كان كذلك، ففي حديث حذيفة رضي الله عنه المتقدم:.. ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مَرَاجِلَ [قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: المَرَاجِلُ ضَرْبٌ مِنْ وَشْيِ اليَمَنِ]، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ [رِجْلَيْهِ] وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ المِرْطِ ...

وهكذا كان وضع أكثر المسلمين.

(ج) **العتاد**: والأمر الثالث: السلاح والعتاد وهو عامل أساسي في أي معركة، ولم يكن وضعه ووجوده لدى المسلمين إلا كما هي الحال في الطعام واللباس، ولنأخذ على سبيل المثال: سيد الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه، ونترك الكلام لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وكانت يوم الخندق فِي حِصْنِ بَنِي حَارِثَةَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَكَانَ مِنْ أَحْرَزِ حُصُونِ المَدِينَةِ، وَكَانَتْ أُمُّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه مَعَهَا فِي الحِصْنِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْنَا الحِجَابُ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ مُقَلَّصَةٌ (قصيرة)، قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا ذِرَاعُهُ كُلُّهَا... قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّ سَعْدٍ وَالله لَوَدِدْتُ أَنَّ دِرْعَ سَعْدٍ كَانَتْ أَسْبَغَ (أكمل وأطول) مِمَّا هِيَ، قَالَتْ: وَخِفْتُ عَلَيْهِ حَيْثُ أَصَابَ السَّهْمُ مِنْهُ، فَرُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ بِسَهْمٍ فَقَطَعَ مِنْهُ الأَكْحَلَ.

وصبر المسلمون على هذا كله، وواجهوا به قوة هي أضعافهم، وثبتوا وانتصروا، وذلك بفضل الإيمان الذي وقر في صدورهم.

وأثبت المسلمون في الميدان العملي في هذه المعركة أن العامل الاقتصادي ليس هو كل شيء، وأن هناك من العوامل الأخرى، ما يغطي النقص في هذا الجانب حال وجوده، إن وجود الرسول ﷺ مع أصحابه في كل شيء، يتحمل معهم ما يتحمله كل فرد منهم، من جوع وبرد ونقص في الثياب والعتاد.. خفف عنهم الكثير، وأكد في نفوسهم إمكانية الصبر، كيف لا وهو الأسوة لهم، أفلا يصبرون كما يصبر؟ ويتحملون كما يتحمل؟

إنه ليس من قبيل المصادفات أن يرد قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١] ضمن الآيات التي وردت في سورة الأحزاب، والتي نزلت بمناسبة هذه الغزوة، فهي تلفت النظر إلى الأسوة فيه بالصبر على المشاق وتحمل المآسي وهذا لا يمنع عموم الآية، ولكنه يوجه إلى جانب مهم في فهم الآية الكريمة.

وبهذا تجاوز المسلمون الأزمة الاقتصادية في هذه المعركة كما تجاوزوها في غيرها، فأثبتوا فعالية البديل منها عند الضرورة». [من معين السيرة للشامي ٣١٣-٣١٥].

٥١ ـ حرص القيادة على هداية الأعداء:

يقول د/ الغضبان: «لقد فقد أبو سفيان ـ القائد البطل المحنك ـ أعصابه في اللحظات الأخيرة، وتصرَّف في توتر ظاهر حين ركب جمله وهو معقول، فما أطلقه إلا بعد أن قام، ولولا مواجهة عكرمة له لكان انسحابًا فوضويًّا لا يليق بالقادة الكبار أمثاله.

وعاد فسيطر على الموقف، وكتب رسالة لرسول الله ﷺ، أودعها كل ما عنده من دهاء وعبقرية، ولكنها مع ذلك لم تُخف أبدًا وضعه النفسي المتزلزل.

ورغم الحرب النفسية التي حاول أبو سفيان أن يشنها على رسول الله ﷺ بالتهديد بالعودة ثانية، وإيقاع مجزرة كمجزرة أُحُد، ومحاولة النَّيْل من المسلمين في خوفهم من المواجهة، لكن من الواضح في الرسالة كذلك، أن الحسرة تنهش قلبه لعجزه عن تحقيق شيء من أهدافه، ومن جهة ثانية اعترافه غير المباشر بعظمة الخطة النبوية في الخندق، والتي أجهضت الهجوم الشرس من الأحزاب على المدينة.

ويأتي جواب سيد القادة محمد ﷺ بحيث يسد الأفق أمام خصمه أبي سفيان.

ولا نبالغ إذا قلنا: إن هذه الرسالة هي أول الدفقات الإيمانية في قلب أبي سفيان فهي رسالة إلى كيانه كله، وليست رسالة تحد وإذلال، ففي الوقت الذي يكشف فيه أبو سفيان عن خبيئة نفسه وأنه ما جاء إلا مستأصلًا قاصدًا إفناء محمد وصحبه، كان الرد النبوي العظيم أنه سيستأصل الشرك من عند أبي سفيان ولا يستأصله هو، «**وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك**» فهو نصر العقيدة وليس نصر الزعامة والجبروت والقوة، وأبو سفيان غير مستأصل، فرسول الله ﷺ يذكِّره بذلك، ومن بديع عظمة الله أن يمر الزمن، ويكون أبو سفيان هو رسول محمد ﷺ إلى كسر اللات في الطائف مع المغيرة بن شعبة رضي الله عنهما.

وفي الوقت الذي يصر فيه أبو سفيان على التهديد، بيوم كيوم أحد تبقر فيه النساء، ويصر فيه على الذبح، والقتل، والسحل، يتحدث سيد الخلق ﷺ عن دخوله مكة فاتحًا، لا ذابحًا، وأبو سفيان يدافعه بالأيدي والأكف؛ لأنه عاجز عن استعمال سلاحه، وجبروته، وقوته، دون تهديد بقتله، وذبحه وسحله.

وفي الوقت الذي يتأجج أبو سفيان غضبًا لنفسه وقومه وعشيرته يرتفع به ﷺ هازًّا أوتار قلبه، ومزلزلًا كيانه؛ لينتبه إلى جبار السماوات والأرض خالق الخلق، ومالك الملك، فلم يحدثه ﷺ عن عبقريته الفذة في الخندق، أو عبقرية سلمان الفارسي رضي الله عنه الذي انضم إليه، أو عظمة جنده الذين نفذوا الخندق بهذه السرعة العجيبة المذهلة، وكلها أمور تستأهل الذكر، وتستأهل الفخر، لكن الأهم عند سيد القادة والدعاة في الوجود ﷺ أن يدخل أبو سفيان في الإسلام فقال له: «**وَأَمَّا قَوْلُكَ: مَنْ عَلَّمَكَ الَّذِي صَنَعْنَا مِنَ الخَنْدَقِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَلْهَمَنِي ذَلِكَ لِمَا أَرَادَ مِنْ غَيْظِكَ بِهِ وَغَيْظِ أَصْحَابِكَ**» فهو نصر رباني خالص من الله تعالى الذي يدفع الضر ويجيب المضطر.

وفي الوتيرة العالية نفسها، وحين يتحدث أبو سفيان برسالته عن الاستئصال والإبادة: «**وَأَنَّكَ لا تُرِيدُ أَنْ تَعُودَ حَتَّى تَسْتَأْصِلَنَا**»، ويقتضي جواب هذا الكلام ما يناسبه، بأن النبي ﷺ سوف يستأصله، وأهله، وعشيرته، ويزيلهم من الوجود، عاد بهذا القلب الحاقد ليمسح عنه الران الذي غلفه، وحال بينه وبين

الإيمان، عاد به إلى الله تعالى مالك الملك، وخالق الخلق: «**وَأَنَّكَ لا تُرِيدُ أَنْ تَعُودَ حَتَّى تَسْتَأْصِلَنَا، فَذَلِكَ أَمْرٌ اللهُ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَيَجْعَلُ لَنَا العَاقِبَةَ حَتَّى لا تَذْكُرَ اللاَّتِ وَالعُزَّى**» فالله تعالى ينجي، والله تعالى ينصر، والله تعالى يفرِّج الكرب، والله تعالى مع المؤمنين وليس مع أبي سفيان ولاته وعزاه التي افتخر بها في أُحُد فقال: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال ابن الخطاب ﷺ بلسان رسول الله ﷺ: «**اللهُ مَوْلانَا وَلا مَوْلَى لَكُمْ**»، وحين اعتبر معركة الشرك قد انتصرت فقال: اعل هبل، فجاء الجواب: «**اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**».

ولننظر إلى آثار هذه الرسالة في نفسه بعد ذلك.

انتهى أبو سفيان عسكريًّا على أثر هذه الرسالة، وأيس من النصر، وراح يعيد إصلاح أوضاعه الاقتصادية فمضى في تجارة إلى الشام، غير عابئ بنتائج غيابه الذي قد يكلفه خسارة قيادته، وعندما كان صلح الحديبية وأصبحت مكة في خطر داهم كان قائدها ماض في تجارته إلى الشام، وصالحت محمدًا ﷺ على دخوله مكة في العام القادم، وعلى إيقاف الحرب بينه وبينها عشر سنين.

وبدأ أبو سفيان بعد عودته في الخط التنازلي نحو المصالحة من آثار تلك الرسالة التي زلزلت كيانه، وعندما بلغه أن محمدًا ﷺ قادم لغزو مكة بدأ يدافعه بالراح مصداقًا لما في الرسالة، وهو الذي بلَّغ قومه: يا معشر قريش قد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ولا طاقة، فمن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وهو الذي وقَّع صك الاستسلام مع محمد ﷺ دون قيد ولا شرط.

وحين نقف عند روايات إسلامه نجد ظل الرسالة حيًّا بين أيدينا، وأن معركة العقيدة قد حسمت في النهاية لصالح الإسلام (فَانْطَلَقَ عَبَّاسٌ بِأَبِي سُفْيَانَ، حَتَّى أَدْخَلَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ عَبَّاسٌ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي قَدِ اسْتَنْصَرْتُ إِلَهِي، وَاسْتَنْصَرْتُ إِلَهَكَ فَوَاللهِ، مَا لَقِيتُكَ مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا ظَهَرْتَ عَلَيَّ، فَلَوْ كَانَ إِلَهِي مُحِقًّا، وإِلَهَكَ مُبْطِلًا لَظَهَرْتُ عَلَيْكَ، فَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ...).

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٥٠ رقم ١٠٢٤١، وقال الهيثمي : رواه الطبراني [المعجم الكبير ٨/ ٦ رقم ٧٢٦٣] مرسلًا، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن وفيه ضعف، ومغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير برواية أبي الأسود عنه ص ٢١٠].

لقد انتهى أبو سفيان بعد الخندق، وهُزم نفسيًّا، وكان مرور الزمن هو الذي أخَّر إيمانه حتى الفتح، ولم يكن من السهل عليه أن ينتقل من القائد العام للمشركين إلى جندي عام في الصف الإسلامي، لولا النهاية الحتمية لأفول قوته، والتي شهدها على أعتاب الخندق». **[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٠٢-١٠٥].**

٥٢ ـ نكبة الأحزاب وما ترتب عليها في الأوساط المختلفة:

يقول د/ زين السيد: «إن قوى الشر والظلم والطغيان المتمثلة في الأحزاب آنذاك عددًا وعدة، جاؤوا وكلهم بطر وخيلاء، وليست لهم قيادة موحدة ولا هدف يعملون من أجله إلا محو الإسلام والمسلمين من أرض الجزيرة العربية، محو الإسلام الذي يرونه يعلو ويزداد يومًا بعد يوم، ولكنهم فوجؤوا بأسلوب جديد في الخطة القتالية، إذ وجدوا أمامهم خندقًا حول المدينة، وهذه مكيدة جديدة لم تكن العرب تكيدها من قبل، ولكن هذا من صنع الله الذي أتقن كل شيء فأنار العقول وزكاها وجعل الأرض للصالحين من عباده.

وأرسل الله ريحًا شديدة كفأت القدور وأطفأت النيران، واقتلعت الخيام، كل هذا كان له أثره في إحداث الارتباك في صفوف الأحزاب وارتدوا على أعقابهم خاسرين، وانتصر المسلمون انتصارًا حاسمًا، ووقى الله بهذا النصر الإسلام والمسلمين خطر هذا السيل المدمر، وثبَّت الله به أولياءه المؤمنين: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

وترتب على هذه النكبة التي مني بها الأحزاب أمور كثيرة هي في الحقيقة خدمة للإسلام والمسلمين، بينما عادت بالبوار على العاتين المتجبرين.

إن هذه النكبة كان لها الأثر النفسي العصيب على نفوس الأحزاب، لقد جاؤوا بكل قواهم المختلفة بعد تعاون وتضافر من أجل أن ينتهوا من القضاء على الإسلام وأهله في ساعة من نهار، لكنهم الآن يرون أنفسهم وقد عادوا خائبين بل مهزومين، وهنا يعمل الأثر النفسي عمله في نفوسهم، كيف استطاعت القوة الضعيفة الضئيلة في نظرهم التي كان في اعتبارهم أن يقضوا عليها بعد انقضاضة بسيطة، كيف استطاعت أن تهزمهم الهزيمة المنكرة؟ والإنسان المنهزم من نده أو ممن هو أقوى منه ربما لا يحس بالحسرة كثيرة، وإنما يحس بها قاتلة حينما يُهزم ممن يراه أضعف منه، فلا تعجب أن يصورهم القرآن أثناء رجوعهم في أبلغ تصوير قائلًا: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾، ولفظة ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي مغيظين وقد أكل الغيظ قلوبهم حينما رأوا أنفسهم منهزمين أمام الضعفاء في نظرهم، وقوله: ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ﴾ أي ما كانوا يظنونه في نظرهم، إذ الخير الذي كانوا يودونه هزيمة المسلمين والقضاء عليهم، وسماه القرآن ذلك باعتبار ظنهم ثم يسخر منهم.

أما في الأوساط العامية فقد انتشر على أسماع العالم آنذاك أن تلك القوة الضعيفة التي تتقوقع في المدينة استطاعت أن تهزم أهل مكة ومن حولهم، وترتب على ذلك أن تداعت سمعة هؤلاء في نظر العالم، وأصبحوا لا يحسب لهم حساب.

أما محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم فبانتصارهم على من هم أقوى منهم أصبحوا في نظر العالم ذوي بأس وسلطان، وينظر إليهم بعين الاعتبار، مما كان له أثر عظيم بعد ذلك في الفتوحات الإسلامية المختلفة».

[دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٧٣-١٧٥].

٥٣ ـ نتائج غزوة الخندق:

يقول الشيخ أبو زهرة: «كانت لهذه الغزوة نتائج طيبة:

(أ) إذ رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وقد بذلوا أقصى ما يستطيعون فيها، جمعوا العرب ليغزوا المدينة فما رجعوا إلا بستة من القتلى، يقابلهم ثلاثة فيهم فارسهم وقد قتله فارس المسلمين علي كرم الله وجهه.

وإن أثر هذا أن ألقى اليأس في قلوبهم من أن ينالوا من النبي ﷺ، وما كانوا ليستطيعوا أن يقوموا بمثل ما قاموا به، فكان لسان حالهم يقول: لا نستطيع لمحمد سبيلًا، ولقد قال النبي ﷺ: «**لَنْ تَغْزُوكُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّكُمْ تَغْزُوهُمْ**»، ولقد أشار القرآن الكريم بذلك، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

(ب) وأن العرب الذين كانوا قد طمعوا في المؤمنين بعد غزوة أُحُد التي أشاع المشركون فيها أن محمدًا ﷺ وصحبه قد هُزموا، قد استكانوا ولم يعودوا طامعين في نصر، بل نأى بهم الخوف عن أن ينالوا منالًا، أو يدبروا أمرًا، فلا يفكروا في اعتداء أو غدر، أو ممالأة، وأن ذلك اليأس قد يدفعهم إلى التفكير فيما يدعو إليه محمد ﷺ؛ ولذلك كثر الذين يجيؤون إلى النبي ﷺ داخلين في الإسلام أفواجًا وفرادى، إذ إن الغواشي قد زالت، ومن ذلك كانت وفود القبائل العربية يجيؤون يتعرفون الإسلام.

(ج) وأن الآيات المادية قد تؤثر في أولئك الماديين الحسيين، وخصوصًا إذا كانت في موطن الفزع، فإنها إذا جاءت من غير سبب يألفونه ويعرفونه، فإنها قد تأخذ عقولهم إلى التفكير السليم وتخلعها من الوثنية، إذ يدخل إليها نور الحق شيئًا فشيئًا، والنور كلما دخل أشرق، وإذا أشرق اتجهوا إلى الحق وطلبوه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

(د) وأن اليهود قد ظهرت نياتهم لمرأى العين، وانكشفت وصار ما تخفيه صدورهم أمرًا معروفًا، فقد كانت هذه الشديدة، التي ادلهمت مبينة ما يبيته اليهود للمؤمنين، بل تكشفت الوجوه ولم تسترها همزة النفاق، وصاروا وجهًا لوجه أمام النبي ﷺ.

(هـ) وقد بينت واقعة الخندق أن أهل الباطل جمعهم متفرق، فقد اجتمعوا، ولكن سرعان ما اختلفت نوازعهم بين المشركين أنفسهم، بما أبداه غطفان من الميل للصلح والعودة، وبما كان بين المغيرين والقرظيين». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٩٧-٧٩٨].

ويقول د/ آل عابد: «كانت غزوة الأحزاب من الغزوات الهامة التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم، وقد وجد فيها المسلمون شدة وخوفًا، ومن أهم النتائج لهذه الغزوة:

(أ) انتصار المسلمين، وانهزام أعدائهم وتفرقهم، ورجوعهم مدحورين بغيظهم قد خابت أمانيهم وآمالهم.

(ب) تغير الموقف لصالح المسلمين، فانتقلوا من موقف الدفاع إلى الهجوم، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ حيث قال: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**». [**البخاري في المغازي (٤١١٠)**].

(ج) كشفت هذه الغزوة يهود بني قريظة وحقدهم على المسلمين وتربص الدوائر بهم، فقد نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها.

(د) كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين وحقيقة المنافقين وحقيقة يهود بني قريظة، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصًا للمسلمين وإظهار حقيقة المنافقين واليهود.

(هـ) كانت غزوة بني قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب، حيث تم فيها محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأقساها».

[**حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ٢/ ٤٤١-٤٤٢**].

ويقول د/ أبو خليل: «سيكون انتصار الخندق وانتصار بني قريظة، وغيرهما من انتصارات لاحقة سببًا لإقبال أفراد من القبائل المحيطة بالمدينة المنورة إلى الإسلام، وكان واحدهم بعد إسلامه يعود إلى قومه داعيًا بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الدين الجديد، لا سيما وأن القبائل شعرت بعد الخندق أن المبادأة أضحت بيد المسلمين. وهذه حقيقة.. فسينتقل المسلمون من انتصار إلى انتصار حتى يضم الإسلام تحت جناحيه أرجاء الجزيرة العربية، ضم توحيد وعدالة وألفة». [**غزوة الخندق لأبي خليل ١٥٨**].

ويقول أ/ شقرة: «لكل غزوة من غزوات الرسول ﷺ نتيجة تنتهي إليها، ومن مجموع نتائج هذه الغزوات يكون الهدف الكلي لها، الذي وضعه الرسول ﷺ بأمر من ربه ﷻ، وليس يملك أحد من البشر مهما بلغ من قوة النفاذ في الرأي والحكمة، وقوة البدن والجماعة أن يصوغ هدفًا أسمى وأقدر على توحيد جماعة المجاهدين، وشحن قلوبهم بالحماسة من هذا الهدف، بل إنه ليس من حقه ذلك، وهو: «**أن يكون الدين كله في الأرض لله وحده**».

ونتيجة غزوة الأحزاب أوجزها ربنا سبحانه بقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب].

وبإمعان قليل للنظر نرى أن هذه الآية إلى جانب ذكرها النتيجة قد أشارت بكل جزء منها إلى جانب من جوانب أحداث الغزوة، وقد أسلفنا تفصيلها فلا نعيده.

أما الآية فقد أوجزت نتيجة الغزوة في أمور أربعة وهي:

أولًا: رجوع الذين كفروا عن المدينة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

ثانيًا: فشلهم الذريع في تحقيق أي نجاح: ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾.

ثالثًا: وضع إصر القتال عن المؤمنين: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾.

رابعًا: أن يكونوا على ذكر دائم بفضل الله عليهم: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

ومن خلال الآيات التي عرضت للحديث عن غزوة الأحزاب تبدو لنا المعجزة الإلهية التي تصدت للأحزاب وهم في أوج كبريائهم وخيلائهم، فردتهم على أعقابهم خاسرين، وحفظ الله للنبي ﷺ الجُهد الضخم الذي كان سيُبذل في هذه الغزوة؛ ليظل مذخورًا لغزوات أخرى مسطورة في صفحة الغيب، شاهدًا للإيمان على مضائه وقوته، ولأهل الإيمان على تمكّنهم واستخلافهم في الأرض، عنوان عدالة وعزة وسؤدد ». [**السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٣٩٨-٣٩٩**].

ويقول الشيخ عبيد: «بعد هذه الرحلة في تلك الحقبة التاريخية وهذه الأحداث التي سيطرت على الجزيرة العربية، استتب الأمر للمسلمين، وبدأ المشركون في مكة يحاولون استرجاع اللحظات التي مرت بهم، عندما حضر إليهم وفد اليهود، وأثار في قلوبهم الحمية، وأغراهم بالنصر لأنهم كما زعم اليهود أن دين الوثنية خير من دين محمد ﷺ، ولقد تورط المشركون بسبب هذه الفتوى وجمعوا جموعهم وحزبوا معهم الأحزاب، وبسبب الكبر الذي في نفوسهم والغطرسة التي في قلوبهم ظنوا أنهم ذاهبون إلى رحلة يعودون بعدها بصيد ثمين (والصيد هو القضاء على الإسلام واقتلاع جذوره)، ولكن شاءت مشيئة الله وهو العلي الأعلى أن ينتصر الحق لأن الله ﷻ بيده الأمر وهو سبحانه القائل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر].

ولقد انتصر المسلمون نصرًا لم يكن في حسبان أحد؛ لأن موازين الناس تحكم بأن النصر للكثرة في العَدد والعتاد، وغاب عن الناس أن عوامل النصر قد تكون بأسباب إلهية، وأسلحة ربانية مثل النوم، فالنوم يلقيه الله على الإنسان فتهدأ نفسه وتقوى عزيمته ويزداد تصميمًا في قضاء ما يهدف إليه يقول ربنا في هذا: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، كما أن المطر من السماء قد يكون من الأسلحة فينزل على الأرض فتتماسك به ثم يستعمله المسلمون في شربهم وطهارتهم ليقوموا بأداء الصلاة، يقول ربنا: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال].

إن ركب السماء دائمًا ينزل على المؤمنين يُكثِّر جمعهم ويقوي عزيمتهم لأن من وصل نفسه بالله، حماه الله وقوَّاه، وإلى هذا أشار الحق سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

تلك بعض عوامل النصر، ولا ننسى أن الأسلحة الإلهية التي كانت في غزوة الأحزاب أسلحة جديدة، والحق سبحانه يذكِّر بها الناس فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب].

إن المسلمين يثقون في الله ومع هذه الثقة المطلقة فهم يخططون وبكل الوسائل الممكنة لأن الله أمرهم بذلك، فالإنسان منا عليه أن يعمل على قدر طاقته الممكنة، ولا يتكاسل، ولا يجبن، ولا يتخاذل، وهو في أثناء تخطيطه يستعمل قواه العقلية كما يستعمل قواه البدنية ليصل إلى ما يريد، فإن احتاج إلى مساعدة فالله عونه ومعينه؛ لأنه سبحانه لا يتخلى عن المؤمنين إذا صدقت نياتهم واستعملوا كل الوسائل الممكنة والمتاحة أمامهم، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، ويقول الحق سبحانه: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج].

كما أن المؤمن الذي يثق في الله يدرك تمامًا ما قاله الحق سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران]، ولقد أكدت الأحداث التاريخية أن المسلمين في الصدر الأول بقيادة النبي ﷺ عندما التزموا بالأوامر الإلهية وتمسكوا بالقيم الأخلاقية العالية والآداب النبيلة الرفيعة نزل عليهم الخير كله وحل في ركابهم، انتصروا في بدر وهم قلة، وكما يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران].

وأكد الحق سبحانه للمؤمنين أن الموقف لا يحسب بالكثرة في العدد أو العُدة وإنما يحسب بالرجال، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فالرجل ينظر إلى قلبه ومدى علاقته بربه إن كان طاهر النفس حسن الصلة بالله يحب للناس ما يحب لنفسه عنده إيثار وكرم وسماحة، فمثل هذا الرجل يزن عشرة من الرجال الآخرين واقرأ في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال].

إن المشركين في مكة بدأوا يعيدون حساباتهم ولقد تناقلت الأخبار بأن محمدًا ﷺ سيطر على الجزيرة العربية؛ لأن الأنباء تطايرت تحكي أن الأحزاب رجعوا بُخُفَّيْ حُنين، وأن الخونة من اليهود نالوا جزاءهم

وبدأوا يدرسون غزوة الأحزاب ويحللون ما فيها؛ لأنها بكل المقاييس تعطي دلالة قوية على فراسة الرسول ﷺ وبُعد نظره، وأنه قائد يتسم ببُعد النظر وصدق الفراسة والتنبؤ، وأن خبرته السياسية وكفاءته في ذلك جعلته يؤدي دورًا في كل موقف صعب يحتاج إلى خبرة وكياسة وفطنة، وهنا كانت تظهر هذه العبقرية الفذة في مثل:

(١) عندما أرسل إلى غطفان يعرض عليهم ثلث ثمار المدينة؛ لأنه عرف أن الطمع في نفوسهم وأنهم جاؤوا محاربين من أجل المال، ودائمًا الرجل المستأجر أو الأجير، ليست عنده همة صاحب الحق.

(٢) توجيه النبي ﷺ لنعيم بن مسعود ﷺ بأن يقوم بأداء دور غير مسبوق.

(٣) حفر الخندق في أول الأمر، وهو سلاح مبتكر لم تعرفه العرب ولم ينزل في أي معركة من قبل؛ لذلك كان ظهور هذا السلاح من العوامل التي غيرت سير المعركة.

(٤) إرساله ﷺ وفدًا بزعامة سعد بن معاذ ﷺ إلى يهود بني قريظة يستحثهم للدفاع عن الوطن ويطالبهم بتنفيذ بنود المعاهدة المعقودة بينه وبينهم، أمر له دلالته في بُعد النظر.

(٥) ما حدث عند حفر الخندق من إرهاصات؛ لإعطاء الثقة في نفوس المسلمين وإدخال الأمن عليهم وتهيئتهم لتحقيق الأمل أمر له دلالته في تنشيط النفوس ودفع الروح المعنوية في الجند.

(٦) ما حدث من معجزات رآها الجميع، من تكثير طعام جابر ﷺ، وماء الشرب، وغير ذلك من الأمور التي جاءت في بطون الكتب الكبرى، كل ذلك له دلالته على صدق النبي ﷺ وأنه مؤيَّد من الله الذي أمره أن يأخذ في الوسائل، أما النتائج فهي من عند الله وهو سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

إن غزوة الأحزاب تحتاج منا كمسلمين أن نحلل تفاصيلها وأحداثها وما جرى فيها ليكون المسلم على بينة بأن نبي الإسلام سيدنا محمدًا ﷺ لم يكن يحب الحرب، وإنما كان يضطر لخوضها، دفاعًا عن نفسه وعن الكيان الإسلامي، وعن الوطن، إنه كان يحمل راية السلام بيمينه وينادي على الناس في كل زمان ومكان أن يدخلوا تحت راية السلام؛ لأنه وسيلة التقدم والازدهار، في حالة السلم يعيش الناس في سعادة وأمن، وينتجون، ويزرعون، ويعمرون، ويتاجرون، وهذا هو الهدف الأساسي من استخلاف الله الإنسان في الأرض؛ لذلك جاء في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة].

والذي يقرأ تاريخ هذا النبي العظيم يعرف عنه ﷺ أنه عاش في حياته مسالمًا يكره الحرب ويبغضها، ولا يحب إراقة الدماء؛ لأنه الرحمة المهداة، لكن إذا أُجبر عليها خاضها بذمة وشرف وأمانة والتزام بالمثل الإنسانية العالية، يحرِّم قتل الأطفال والنساء والشيوخ وينهى عن تقطيع الشجر ومنع الماء عن الخصوم، وينهى أصحابه عن التبول أو التغوط في الماء الجاري أو الراكد أو في الطريق العام أو في الظل.

فالحرب عنده وسيلة؛ لهذا فهو يحاول أن يحافظ على القيم الإنسانية والأخلاق الكريمة.

إن غزوة الأحزاب فيها دروس متعددة تبين أن الإسلام دين بقوانينه سبق كل القوانين، ولعلنا إذا قمنا بعمل دراسة عن وثيقة حقوق الإنسان التي تفتخر بعض الدول وتتباهى بأنها صاغت بنودًا تسمو بالكيان الإنساني وترفع قدر الإنسان وتعلي شأنه نرى أن هذه الدول هي التي تقتل الأطفال والنساء والشيوخ والعُزَّل وتُسهم في إشعال الحرب هنا وهناك، فإن ذكرتهم بها قالوا، قالوا لك: هناك محكمة العدل الدولية ومجلس الأمن الدولي، فإن ذهبت إلى هناك وجدت البطء في الإجراءات، وإن كان ميزان الحق إلى جانبك ظهر «الفيتو» كَسَيْفٍ مسلَّط على رقاب الضعفاء، وإن سألتهم: أين الحق والعدل؟ قالوا لك: حسبما تكون المصلحة فهذا هو قانون العدل، هذا ما حدث في القرن العشرين، عصر السماء المفتوحة، ومئات القنوات الفضائية التي تبث برامج التليفزيون ليكون هناك غسيل مخ لملايين البشر؛ لأن المعارك الآن، انتقلت من ساحات الحرب إلى شاشات التليفزيون، وشبكات الإنترنت، وموجات الإذاعات، هذا ما حدث في القرن العشرين، ونحن الآن دخلنا في القرن الواحد والعشرين ولا ندري ما هو مخبأ لنا في عقول العلماء والمبتكرين والمنتجين؛ لأن الزمن لن يتوقف، وهنا يتأتى السؤال: أين دور المسلمين؟

التاريخ يؤكد أنهم الذين تفوقوا في كل ميدان، فالساحة الآن أمامهم، خاصة وأن المجتمع الدولي يشيد الآن بكفاءة المسلمين، وفي مقدمتهم العالم النابغة أحمد زويل، فهل آن لنا أن ندرس التاريخ المضيء حتى لا نكون ممن قال الله فيهم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام].

فليحذر الذين يخالفون أمر الله؛ لأننا نؤمن بأن السماء لا تعطي بركتها إلا للجادين العاملين، وتجود الأرض بخيراتها لهم؛ لأن الله سبحانه وعد في الزبور من بعد الذكر أن الأرض والسماء له سبحانه وأن من يرثها من الناس هم الصالحون.

ونأمل أن يفهم المسلمون هذا وأن يثقوا في ربهم وهو القائل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء].

صدق الله العظيم ... وبلغ رسوله الكريم». **[غزوة الأحزاب لعبيد ٨٨-٩٤]**.

ويقول أ/ حوى: «لقد انتهت غزوة الأحزاب في الظاهر بسلامة الفريقين وتكافئهما، ولكن الأمر في حقيقته كان غير ذلك، فلقد سجل رسول الله ﷺ في هذه الغزوة انتصارًا من أعظم انتصاراته، لقد كان هو المنتصر الأكبر على الساحة جميعها سياسيًّا وعسكريًّا وإعلاميًّا ونفسيًّا، فعندما يرجع جيش مقداره

عشرة آلاف وهو أضخم جيش عرفته الجزيرة العربية حتى يومها، دون أن يحقق شيئًا ضد جيش قوامه ثلاثة آلاف فذلك وحده خسارة لهذا الجيش، فإذا ما أضيف إلى ذلك أن هذه أول تجربة لتجميع العرب المشركين ضد محمد ﷺ، وكانت تجربة فاشلة فهذا يعني أنها لن تتكرر وذلك ربح آخر، ولئن ترتب على هذه الغزوة استئصال قريظة بسبب غدرها فذلك يعني أن المسلمين لن يؤتوا مرة أخرى من داخلهم وذلك ربح، فإذا ما اجتمع مع ذلك أن قريشًا رجعت يائسة لأنها مع غيرها لن تستطيع أن تفعل شيئًا فكيف بها وحدها؟ وإذن فقريش لن تعيد الكرة وذلك كذلك ربح، وهكذا نجد رسول الله ﷺ وهو يدلف إلى السنة السادسة في أفضل وضع سياسيًّا وعسكريًّا، وسنرى كيف أنه استفاد من هذه الظروف كلها أيما استفادة فحقق في السنة السادسة أعظم انتصار في تاريخ الدولة الإسلامية الناشئة».

[الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٧١٤-٧١٥].

ويقول د/ المدخلي: «بالنظر في وقائع هذه الغزوة، وبالرجوع والتفكير في مقدماتها، وعندما ترى أو تسمع اجتماع تلك الجيوش الجرارة يحدوها الحقد والكراهية وترفرف عليها فكرة استئصال شوكة الإسلام والمسلمين، تلك الفكرة التي كان اليهود سببًا في رواجها وانتشارها بين جيوش الأحزاب، عندما تنعم النظر في ذلك كله وترجع إلى المقاييس المادية ـ الأكثر يغلب الأقل ـ وتنسى قدرة الله ﷻ.

تعلم علم اليقين أن عشرة آلاف أو أكثر تستطيع أن تهزم عدوها والذي كان يبلغ عدده على الأكثر وفي أغلب الأقوال ثلاثة آلاف.

لكن الله سبحانه قوي عزيز، فقد أمد هذه القلة بنصر من عنده، وأعانهم بجند من جنده، وزودهم بثبات وطمأنينة فهوّن أمامهم المصائب والمحن، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾.

إذن فالمقاييس عنده تختلف، إذ إنها ليست على حسب الكثرة أو القوة، ولكن القلوب التي ملئت بتوحيده ﷻ، وملئت بالتقوى التي تهون أمامها الدنيا وزخارفها أصبح الواحد منهم يتصور الجنة وكأنه ينظر إليها، ومنهم من بُشِّر بها وهو على قيد الحياة؛ فرخصت أنفسهم في سبيل الله لما أعد لهم ﷻ من نعيم مقيم، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فكانوا يخرجون سراعًا مع النبي ﷺ ولا تهمهم قلتهم وكثرة عدوهم؛ لأن الله سبحانه كان يشد من أزرهم، فيرسل معهم جندًا من جنوده الكثيرة، فقد أرسل معهم في بدر كما هو معلوم ملائكته فحاربت مع المسلمين.

وفي هذه الغزوة يخبر الله ﷻ أنه رد الكافرين بغيظهم لم ينالوا ما أرادوا مما اجتمعوا عليه، وذلك أنهم أرادوا في الواقع استئصال تلك القلة المباركة، فقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ ﴾.

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد، لكنه قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فسلَّط عليهم هواء فرَّق شملهم كما كان سبب اجتماعهم من الهوى وهم أخلاط من قبائل شتى أحزابًا وآراء.

فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم لم ينالوا خيرًا لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعداوة وهمهم بقتله واستئصال جيشه، فقال تعالى: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ ﴾ [الأحزاب:٢٥]. [**تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٦ - ٤٧٧**].

كان ذلك نتيجة واستجابة من الله لدعاء نبيه ﷺ على الأحزاب، فقد دعا عليهم كما مر في عرض الغزوة بقوله: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، [مُجْرِيَ السَّحَابِ]، اللَّهُمَّ اهْزِمْ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**».

وقد قال الحافظ أثناء شرحه لهذا الحديث: قوله: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ... إِلَخْ**».

أَشَارَ بِهَذَا الدُّعَاءِ إِلَى وُجُوهِ النَّصْرِ عَلَيْهِمْ، فَبِالكِتَابِ إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [التوبة]، وَبِمُجْرِيَ السَّحَابِ إِلَى القُدْرَةِ الظَّاهِرَةِ فِي تَسْخِيرِ السَّحَابِ حَيْثُ يُحَرِّكُ الرِّيحَ بِمَشِيئَةِ الله تَعَالَى، وَحَيْثُ يَسْتَمِرُّ فِي مَكَانه مَعَ هُبُوب الرِّيحِ، وَحَيْثُ تُمْطِرُ تَارَةً وَأُخْرَى لَا تُمْطِر، فَأَشَارَ بِحَرَكَتِهِ إِلَى إِعَانَةِ المُجَاهِدِينَ فِي حَرَكَتِهِمْ فِي القِتَالِ، وَبِوُقُوفِهِ إِلَى إِمْسَاكِ أَيْدِي الكُفَّارِ عَنْهُمْ، وَبِإِنْزَالِ المَطَرِ إِلَى غَنِيمَة مَا مَعَهُمْ حَيْثُ يَتَّفِقُ قَتْلُهُمْ، وَبِعَدَمِهِ إِلَى هَزِيمَتهمْ حَيْثُ لَا يَحْصُلُ الظَّفْرُ بِشَيْء مِنْهُمْ، وَكُلّهَا أَحْوَال صَالِحَة لِلمُسْلِمِينَ.

وَأَشَارَ بِهَازِمِ الأَحْزَابِ إِلَى التَّوَسُّلِ بِالنِّعْمَةِ السَّابِقَةِ، وَإِلَى تَجْرِيدِ التَّوَكُّلِ، وَاعْتِقَادِ أَنَّ اللهَ هُوَ المُنْفَرِد بِالفِعْلِ، وَفِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَى عِظَمِ هَذِهِ النِّعَمِ الثَّلَاثِ، فَإِنَّ بِإِنْزَالِ الكِتَاب حَصَلَتْ النِّعْمَةُ الأُخْرَوِيَّة وَهِيَ الإِسْلَام، وَبِإِجْرَاءِ السَّحَابِ حَصَلَتْ النِّعْمَةُ الدُّنْيَوِيَّة وَهِيَ الرِّزْق، وَبِهَزِيمَةِ الأَحْزَاب حَصَلَ حِفْظ النِّعْمَتَيْنِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: اللَّهُمَّ كَمَا أَنْعَمْت بِعَظِيم النِّعْمَتَيْنِ الأُخْرَوِيَّة وَالدُّنْيَوِيَّة وَحَفِظْتهمَا فَأَبْقِهِمَا.

وَرَوَى الإِسْمَاعِيلِيُّ فِي هَذَا الحَدِيث مِنْ وَجْه آخَر أَنَّهُ ﷺ دَعَا أَيْضًا فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّنَا وَرَبُّهُمْ، وَنَحْنُ عَبِيدُكَ، وَهُمْ عَبِيدُكَ، نَوَاصِينَا وَنَوَاصِيهِمْ بِيَدِكَ، فَاهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**»، وَلِسَعِيدِ بْن مَنْصُور مِنْ طَرِيق أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوه لَكِنْ بِصِيغَةِ الأَمْر عَطْفًا عَلَى قَوْله: «**وَسَلُوا اللهَ العَافِيَةَ: فَإِنْ بُلِيتُمْ بِهِمْ فَقُولُوا اللَّهُمَّ**»، فَذَكَرَهُ وَزَادَ: «**وَغُضُّوا أَبْصَاركُمْ وَاحْمِلُوا عَلَيْهِمْ عَلَى بَرَكَة الله**».

[**فتح الباري ٦/ ١٥٧**].

ثم كفى الله المؤمنين القتال، ونصر عبده، وأعز جنده؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**».

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش. [تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٧].

وهكذا حصل حيث إن المشركين لم يغزوا المسلمين بعدها، بل غزاهم المسلمون في بلادهم، أشار إلى ذلك الحديث الصحيح: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ** ».

مما تقدم نرى أن هذه الغزوة كانت نتيجتها هي انتصار المسلمين، وانهزام أعدائهم، وتفرقهم، ورضاهم من الغنيمة بالإياب. (١)

وقد أخبر الرسول ﷺ بأنهم ـ أي الأحزاب ـ أو كفار قريش لن يغزوا المسلمين بعد هذه الغزوة، وهذا عَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ حيث حصل ذلك حتى فتح مكة تلك التي أخرجه كفارها في بداية ظهور الإسلام، وخرج منها خائفًا يترقب، ولكنه بقوة الله وتأييده رجع إليها فاتحًا رافعًا راية التوحيد، حامدًا ربه شاكرًا له». [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤١٧-٤٢٥].

لقد انتهت غزوة الأحزاب التي أشعل نارها اليهود لتقدم للمسلمين خيرًا ما كانوا يتوقعونه، وعلموا أنه لن يجرؤ أحد من المشركين على مهاجمة المدينة مرة أخرى؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بجمع أقوى مما أتوا به في الأحزاب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ** ».

ولتقدم لمن بعدهم دليلًا على أن نصر الله قريب، وإن يئسوا من مجيئه.

وقد سجل الله ﷻ ذلك في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

ولتُعلم المسلمين أيضًا أن أي خطر ينزل بهم يمكن مواجهته، والتغلب عليه، لو جدوا في الأمر كما جد رسول الله ﷺ والمؤمنون معه.

وليعلموا أيضًا أن النصر ينتظر منهم فقط استنفاد الأسباب وبعدها لن يتأخر عليهم لحظة واحدة.

٥٤ ـ أثر الحرب النفسية في غزوة الأحزاب في صفوف المسلمين والمشركين:

يقول د/ زين السيد: «إن اليهود كعادتهم لا عهد لهم ولا ذمة، ولا يلتزمون بمواثيق، ولقد أعلنوا عداوة لا هوادة فيها، وكراهية لا حب معها، وهم كما نعلم أهل مكر وخداع وتدبير وحيل، ومناورات ومجادلات

---

(١) قال في مجمع الأمثال ١/ ٢٩٥، وأول من قاله امرؤ القيس بن حجر في قوله:

ولقد طوفت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

ويقال عند القناعة بالسلامة.

على مر السنين والأزمان في القديم وفي الحديث، لقد جندوا أنفسهم لعداوة هذا الدين وأهلـه، والكيـد لكـل من اعتنقه، والعالم في مختلف العصور يعاني من هؤلاء معاناة شديدة، وقد اجتمع لـديهم سـلاح بـه يقـاتلون، هو سلاح التدبير والمكر والخداع، وقاموا بأعمال لها خطورتها ضد المسـلمين في غـزوة الأحـزاب، وسـأتناول بعضًا من مواقفهم كحرب نفسية للمسلمين في هذا الموضع، هذا أولًا، وأما ثانيًا فأتحـدث عـما قـام بـه النبـي ﷺ وصحبه من حرب نفسية إيجابيه مضادة، وأثر ذلك في صفوف المسلمين والمشركين.

أولًا: إن الحرب النفسية والدعاية المضادة كانت ولا تزال سلاح اليهـود في وجـه الحـق في كـل زمـان يحاورون به ويحورونه، ويغيرون أوضاعه شأن الباطل لا يعدم سلاحًا يسله ولو ناقض نفسه.

وقد ينتصر أهل الباطل على أهل الحق عندما يأنسون منهم ضعفًا أو يلمسون فيهم انحرافًا، ويحـاولون بانتصارهم أن يطمسوا الكثير من معالمه، ويبـدلوا نظمـه، وقـد يفلحـون في ذلـك شـيئًا مـا، ولكـن هـذا الانتصار كما هو هزيمة لأهل الحق، هو في الوقت نفسه هزيمة لأهل الباطل، فإن هذا الكون الذي نعـيش فيه قد قام على الحق وحده: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الـروم: ٨]، وتَغَلُّـبُ أهل الباطل ضياع لأهل الحق وأهل الباطل معًا، فإن تغلبهم إنما هو تغلب الهوى، والهـوى فسـاد وإفسـاد لهذا الكون: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وعندئذ تكون بداية النهاية كما يُقال.

كان للحديث الذي دار بين اليهود ومشركي مكة والقبائل المجاورة أثره في نفسياتهم، فتجمعوا بقيـادة أبي سفيان بن حرب، وعيينة بن حصن الفزاري، وتقدموا تجاه المدينة لاستئصـال الإسـلام وأهلـه ومحـوه من الوجود كما يرون، وعلم الرسول ﷺ بالخبر، ووضـع مخططـه النـاجح الـذي اتخـذه سـلاحًا بتـارًا إلى أقصى حد ضد الأحزاب، وبذلت المحاولات الناجحة لزعزعة ثقة قريش وغطفان في إمكان النصر عـلى المسلمين، فقام ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وبدأ فعلًا في التنفيذ، وقد حقق تخطيط الرسول ﷺ أهدافـه بلا قتال بمعونة الله ﷻ.

ثانيًا: قَدِمَ الأحزاب بعددهم وعدتهم، ونزلوا شرقي المدينة قريبًـا مـن أُحُـد، ونزلـت طائفـة مـنهم في أعالي المدينـة، كـما قـال الله تعـالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠﴾ [الأحزاب].

ولما يئسوا من طول الحصار احتالوا للأمر لينفذوا مخططهم الأثيم، وكان بالمدينة طائفة من اليهود «يهود بني قريظة» لهم عهد من رسول الله ﷺ وذمة، فذهب إليهم حيي بن أخطب النضري، ولم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالأوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال،

وكان كما قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب] لأن مؤخرة الجيش المسلم صارت مكشوفة للعدو، ولما علم الرسول ﷺ بهذا الخبر قال مُطَمْئِنًا الجند المؤمن: أبشروا بنصر الله ووعده يا معشر الصحابة، وقال المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

وفي تلك الساعات الحرجة أرسل بنو قريظة أحدهم ليستطلع الأخبار بالمدينة، ولكنه لم يرجع إليهم بشيء، يقول ابن الأثير في تاريخه الكامل: «وكانت صفية عمة النبي ﷺ في فارع حصن حسان بن ثابت رضي الله عنه، وكان حسان فيه مع النساء ... قالت: فأتانا أناس من اليهود، فقلت لحسان: هذا اليهودي يطوف بنا ولا نأمنه أن يدل على عوراتنا، فانزل إليه فاقتله، فقال: والله ما أنا بصاحب هذا، قالت: فأخذت عمودًا ونزلت إليه فقتلته، ثم رجعت فقلت لحسان: انزل إليه فخذ سلبه فإنني يمنعني منه أنه رجل، فقال: والله ما لي بسلبه حاجة ».

وروى القصة ابن هشام مع اختلاف في الألفاظ.

يقول ل/ خطاب معلقًا على هذه الحادثة: «إن قتل هذا اليهودي أنقذ المسلمين من خطر داهم، إذ جعل اليهود يفكرون أن في داخل المدينة حرَّاسًا أشداء من المسلمين، وليس من السهل التغلب على هذه الحراسة الشديدة؛ لذلك قبع يهود في حصونهم لا يفكرون في الخروج». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣١**].

أقول: إن هذا الموقف البطولي من صفية عمة الرسول ﷺ حسم الأمر وقطع التردد والاضطراب حيث لا مجال فيه لاستشارة أحد، ولا تصلح فيه منافسة، وارتفعت روحهم المعنوية، وبدت تباشير النصر واضحة لكل ذي عينين.

يقول ابن سعد: «وكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم في مائتي رجل وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ويُظهرون التكبير؛ وذلك أنه كان يخاف على النساء والذرية من بني قريظة بعد نقضهم للعهد».

فحيثما قام لهم سلطان فهم خطر، والإسلام كما هو دين رحمة فهو كذلك دين القوة والعزة، لا يقبل الضيم ولا يرضى المهانة ولا ينام على الظلم.

ثالثًا: إن أهم ما يحرص عليه الإنسان في هذه الحياة عدم تعرض نفسه للخطر أو الغدر، فهو يحافظ عليها ويرعاها، ويبذل كل ما يستطيع من أجل حمايتها والدفاع عنها، هذه طبيعة الإنسان وفطرته، ولكن أصحاب المبادئ الحقة والدعوات الصادقة يقدمون أنفسهم فداء لدعوتهم، فالذين شرح الله قلوبهم للإيمان، وخالط شغافها، وسرت فيه لا تزعزعهم الأحزاب مهما عظمت، ولا تزلزل العواصف أقدامهم

مهما قويت، فالنفس هينة رخيصة ما دامت تُبذل في سبيل العقيدة، والموت ليس بالخطر الذي يُهاب مـا دام ذلك دفاعًا عن الرسول ﷺ ودعوته.

فبعد نقض بني قريظة لعهدها مع رسول الله ﷺ قويت نفسية الأحزاب وألَّفوا كتائبهم لمهاجمة المدينـة، ووجهوا إلى رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد، فقاتلوهم يومهم ذلك إلى هوي من الليل، مـا يقدرون أن يزولوا من موضعهم، ولا صلى رسول الله ﷺ ولا أصحابه ظهرًا، ولا عصـرًا، ولا مغربًـا ولا عشاء حتى كشفهم الله، فرجعوا متفرقين إلى منازلهم وعسكرهم، وانصرف المسـلمون إلى قبـة رسـول الله ﷺ، فأمر بلالًا ﵁ فأذَّن وأقام الظهر فصلوا، ثم أقام بعدُ كل صلاة إقامة إقامة، وصلى هـو وأصـحابه مـا فاتهم من الصلوات، وقال: «**شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ العَصْرِ، مَلَأَ اللهُ بُطُونَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا**».

حيث زُلزلت القلوب وفزع الناس أشد الفزع، لقد رأوا الموت بعيونهم قادمًـا مـن سـيوف الأحـزاب خارج المدينة، ومن منازل بني قريظة داخل المدينة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فجعل رسول الله ﷺ يدعو ربه قائلًا: **اللهم إني أنشـدك عهـدك ووعـدك، الله إنـك إن تشـأ لا تعبـد، اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم ولا يغلبهم غيرك**».

[الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٧٣، وصور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ص ٤٢٧ مع زيادة في الألفاظ].

ومن الوجهة النفسية أؤكد أهمية الدافع، فعندما يتوفر الدافع تظهر الطاقـة الخلاقـة فـداء في سـبيل الله ﷻ، وقد وعد الله جنوده المخلصين أن يكون لهم في الشدة سندًا ونصيرًا، فزودهم بالقوى المادية الطبيعيـة كالريح والمطر، كما زودهم بقوى باطنية خفية وهي القوى المعنوية التي لا يمكن أن توجد أبدًا إلا في جنـد الإسلام، ومنها إرسال الملائكة تثبيتًا ومددًا، واطمئنان القلوب إلى نصر الله في الـدنيا والثـواب الجزيـل في الآخرة، والسكينة التي يملأ الله بها قلوب المؤمنين، والرعب الـذي يمـلأ الله بـه قلـوب الكـافرين، نـرى ذلك واضحًا جليًّا في حديث رسول الله ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**».

وعن ابن عباس ﵄: الصبا: وهي الريح الشرقية، والدبور: وهي الريح الغربية.

إن قال قائل: تهب الريح الشرقية فلا تأتي بالنصر، وتهب الرياح الغربية فلا تحمـل الـدمار ولا الوبـاء، قلنا: إن ذلك مرهون بتعلق قدرة الله به وجاء وفق مقتضيات الحكمة البالغـة، فسـاعة أن يثبـت صـاحب المبدأ بمبدئه ويثبت بالحق الذي هو عليه ينصره الله بما شـاء وكيـف شـاء، ومـن ذا عسـاه أن ينكـر سرعـة الرياح وقوة الأعاصير ومدى فداحة ما تجلِّيه من تدبير، فسبحان من بيده مقاليد السموات والأرض.

رابعًا: وأراد الرسول ﷺ أن ينهي هذه الحرب فقام بعمل مضاد للتأثير عـلى آراء وعواطـف ومواقـف الجماعات العدائية من غطفان والتخذيل بينهم، فبعث ﷺ إلى عيينة بـن حصـن بـن حذيفـة بـن بـدر وإلى

الحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان، فصالحهما على ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة في ذلك... إلخ.

هذا ما قام به الرسول ﷺ من محاولات لتخفيف الأمر على المسلمين شفقة عليهم لفرط رحمته بهم، ومع ذلك لا يُمضي هذا العمل حتى يستشيرهم ثم ينزل على رأيهم فيما أشاروا به، ومن هذا الموقف يتبين لنا صدق إيمان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ومحبتهم لرسولهم ﷺ، مع ارتفاع روحهم المعنوية وثقة بما عند الله تعالى، وهذا هو الإيمان الرفيع الذي لم تشهد الدنيا له مثيلًا في غير صحابة رسول الله ﷺ.

ويأتي دور الحرب النفسية بأوسع معانيها في خدعة نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه، حيث جاء إلى رسول الله ﷺ مسلمًا بدون علم أهله وعشيرته قائلًا: مرني بما شئت يا رسول الله، فقال له الرسول ﷺ: **«إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ»**، وقام نعيم بن مسعود رضي الله عنه بدوره كاملًا في التخذيل بين اليهود والأحزاب، وفي إزالة الثقة فيما بينهم كما سبق ذكره.

وعندئذ وصل هؤلاء إلى درجة من الحيرة والقلق، وأصبحوا لا يستطيعون أن يميزوا بين ما هو صادق، وما هو كاذب، وبهذا الأسلوب نشر نعيم رضي الله عنه إشاعته لإيجاد جو من عدم الثقة بين بني قريظة والمشركين، وأصبح من السهل تحطيم التعاون اللازم؛ وذلك نتيجة مباشرة لازدياد الشك، فإن الشائعة لا تثبت أي شيء بل تؤدي عملها فقط ولوا استطاعت أن تخلق جوًّا من عدم الثقة.

وفعلًا تحقق هذا وتفرقت قلوب الأحزاب وزالت الثقة بينهم، فقال أبو سفيان بن حرب: ألا أراني أستعين بإخوة القردة والخنازير. [**الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٦٩**].

وهكذا كانت دعوة نعيم رضي الله عنه البارعة سببًا في تفرق جمع الأعداء، وكان من صنع الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين أن بعث ريحًا شديدة وأمطارًا غزيرة في ليلة قارسة البرد فتوترت أعصاب الأحزاب وجن جنونهم، وألقى الله الرعب والفزع في قلوبهم، فرجعوا إلى بلادهم خاسرين: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر].

وكان هذا بمثابة تمهيد للقضاء على يهود بني قريظة كما سأتحدث عنه الآن.

خامسًا: ذكرتُ فيما مضى أن الرسول ﷺ أرسل حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما ليستطلع خبر القوم، ثم رجع وأخبر الرسول ﷺ برحيلهم، ففرح الرسول ﷺ بهذا الخبر وسجد لله شكرًا، ثم هتف وهتفت وراءه أصحابه: **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ»**.

وكان غدر يهود بني قريظة ونقضهم للعهد المبرم بينهم وبين الرسول ﷺ سببًا في إعادة الأمل قويًا في نفوس المشركين فَعَلَتْ روحهم المعنوية، وكان هو السبب الأوحد في زلزلة المسلمين وخوفهم، وكان لابد أن يُكال لهم بنفس الكيل الذي اكتالوا به.

من هذا نرى أن رسول الله ﷺ سارع إلى تصفية الأحياء اليهودية بالقضاء على بني قريظة في غزوة الأحزاب، ثم القضاء على أحيائهم في خيبر وغيرها على الطريق إلى الشام.

إن تحقيق النصر الحاسم والغلبة على الأعداء يتم من خلال الانهيار النفسي قبل المعركة وبعدها لا أثناءها فحسب.

لقد اختار بنو قريظة بأنفسهم سعد بن معاذ ﷺ، وكان قبل إسلامه حليفًا لهم لكي يحدد العقوبة التي يستحقونها على خيانتهم ونقض ميثاق الرسول ﷺ أكثر من مرة، فاختار سعد ﷺ العقوبة التي قدرها الله تعالى عليهم، فقد حكم سعد ﷺ بقتل ذكور بني قريظة وسبي نسائهم وذراريهم.

سادسًا: وقبل أن أنتهي من هذا الفصل لا يفوتني أن أذكر جانبًا من الحرب النفسية في غزوة الأحزاب وهو هام، وذلك أن المنافقين الذين يضمرون العداوة للإسلام والمسلمين ويدبرون ما يستطيعون تدبيره بأساليب المكر والخداع أملًا في أن يقضوا على الإسلام وأهله، ومواقفهم في غزوة الأحزاب بالذات تنبئ عن سوء نيتهم وهم يثبطون الهمم ويضعفون العزائم، لقد جاء على ألسنتهم ما ينبئ عن سوء معتقداتهم حين شككوا في وحي الله إلى رسوله ﷺ قائلين: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾ [الأحزاب].

وخطوة ثانية هي انتحالهم الأعذار الكاذبة لترك المسلمين في ساحة القتال وحدهم أمام العدو الغاشم، وهم بذلك يحاولون أن يُضعفوا المؤمنين معنويًا وأن يؤثروا عليهم نفسيًا، فقد ذكَّرهم الحق بالمواثيق التي أخذوها على أنفسهم، ولكن ظلام قلوبهم حال بينهم وبين أن يستمعوا إلى الحق، ولكن من فضل الله على المؤمنين أن نصرهم بفضله، وباءت كل تدبيرات المنافقين بالفشل الذريع.

وبعد: فإن العالم الآن قد طغت عليه سحب المادية واحتواه ضباب الشك ونكَّد عليه حياته وهمُ الباطل، فهو يخاف من كل شيء يترقبه، فهو مضطرب يتهدده القلق النفسي ويود أن يشفى منه، وليس هناك شفاء إلا الإيمان بالله تعالى، والمؤمنون وحدهم هم الذين لا يُصابون بمرض القلق النفسي، إن المؤمن قد وثق بربه إذ يقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النور].

والمؤمن الحق هو الذي يأنس بالله ويشتغل بذكره، ويطمئن له قلبه، ويجد فيه سعادة حياته وراحة نفسه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ [الرعد].

إن المؤمنين يأتون بإيمانهم في أوقات المحن ويرجون رحمة الله في ساعات لا يثبت فيها غيرهم، ثم إن الله تعالى يعطي المؤمنين به من المدد الواسع ما لا تدركه البصائر ولا الأبصار، ويمنحهم من العون في أقصى الظروف ما يفرج به كربهم ويهون به عليهم، وما ذلك إلا بفضل الإيمان، وليس هذا مجرد كلام نظري، وإنما هو واقع عملي جسده وعبر عنه أصدق تعبير تسلسل الأحداث في غزوة الأحزاب، بل جسده ويجسده ما يتعرض له أهل الحق في مواجهتهم للباطل وأهله».

[دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٧٧-١٨٦].

المبحث الثالث

الدروس الفقهية

١ ـ ينبغي للإمام إذا خرج للغزو أن يقيم في البلد نائبًا عنه:

يقول د/ الفنيسان: «وهذه سُنَّة الرسول ﷺ في كل غزوة من غزواته، وفي هذه الغزوة استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ﵁». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢١].

ويقول د/ المدخلي: «وهذا مبدأ إسلامي مشروع شرعه النبي ﷺ في عهده، فالاقتداء به في ذلك مشروع.

وقد كان ﷺ في كل غزوة، وفي كل سفر يعزم عليه يعين نائبًا على المدينة يقوم بالصلاة بأهلها ممن تخلفوا عن القتال لعجز، أو إعالة ضعفاء، أو تمريض مرضى، وغير ذلك من رعاية شؤون أهل المدينة.

وفي هذه الغزوة عين ﷺ ابن أم مكتوم ﵁، وقد استخلفه النبي ﷺ على المدينة ثلاث عشرة مرة، وكان يستخلفه على المدينة يصلي بالناس في عامة غزواته». [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٣٢].

ويقول د/ بربر : «إن من أهم واجبات الإمام إذا خرج بنفسه إلى المعركة، أن يؤمن الجبهة الداخلية للدولة عند خروجه، وأن يستخلف بعده القوي الأمين الذي يحافظ عليها، ويقوم بالواجبات نيابة عن الإمام حتى يعود، يكون مددًا لهم ويحافظ على مصالح البلد، فلا تحدث اضطرابات سياسية، أو اقتصادية، أو أمنية، تؤثر على نفوس الجنود في المعركة فيصابوا بالهزيمة والانكسار.

[فقه الجهاد للقرضاوي ١/ ٦٦١].

لكن الوضع قد تغير اليوم، فلم يعد الإمام أو ما يسمى برئيس الدولة هو من يقود المعركة، فقد أصبح للجيش قائدًا هو من يدير المعركة، والإمام ومساعدوه من الوزراء وأصحاب الولايات يديرون شؤون البلد، لكن قد يسافر الإمام خارج البلد أو يُصاب بعجز، أو مرض، عندها يفوض صلاحياته لنائبه، أو أحد نوابه إن كان له أكثر من نائب، أو حتى رئيس وزرائه بحسب ما ينص عليه دستور بلده».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٧٣].

٢ ـ استعراض الإمام للجيش قبل وقوع القتال:

يقول د/ المدخلي: «كما في حديث ابن عمر ﵄ أن النبي ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه الحديث.

وقد وقع هذا من النبي ﷺ في بدر، وأُحُد وغيرهما.

وخروج صغيري السن لم يحدث إلا عند أولئك الذين يستشعرون قيمة الشهادة وتهون أنفسهم في سبيل الله طمعًا فيما عنده من مغفرة ورضوان.

أما في هذه العصور المتأخرة التي طغى فيها حب الحياة وحب متاعها الفاني فلربما لا يخرج كبار السن إلا بالقوة ويدفعون إلى الخير دفعًا.

قال الحافظ: «وَعِنْدَ المَالِكِيَّةِ وَالحَنَفِيَّةِ لَا تَتَوَقَّفُ الإِجَازَةُ لِلقِتَالِ عَلَى البُلُوغِ، بَل لِلإِمَامِ أَنْ يُجِيزَ مِنَ الصِّبْيَانِ مَنْ فِيهِ قُوَّةٌ وَنَجْدَةٌ، فَرُبَّ مُرَاهِقٍ أَقْوَى مِنْ بَالِغٍ.

وَحَدِيثُ اِبْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، وَلَا سِيَّمَا الزِّيَادَة الَّتِي جَاءَتْ عَنْ اِبْن جُرَيْجٍ «عُرِضْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْم الخَنْدَقِ فَلَمْ يُجِزْنِي، وَلَمْ يَرَنِي بَلَغْتُ». [فتح الباري ٥/ ٢٧٩].

وفي الحديث أيضًا من العبر: حسن أخلاقه ﷺ ومعرفته التامة بأحوال أصحابه واحترامه لهم ولأبنائهم رغم عظم الرسالة والأعباء التي حملها، ولا غَرْوَ فقد قال ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا [وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا]**». [الترمذي في البر والصلة (١٩١٩-١٩٢١)، ومسند أحمد ١١/ ٥٢٧، ٥٢٩ رقم ٦٩٣٥، ٦٩٣٧، ٣٧/ ٤١٦ رقم ٢٢٧٥٥ وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح].

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٣٩-٤٤٠].

٣ ـ حكم اشتراك الأولاد في الجيش، ودورهم فيه:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: **عَرَضَنِي رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ (أُحُدٍ) فِي القِتَالِ، وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمْ يُجِزْنِي، وَعَرَضَنِي يَوْمَ (الخَنْدَقِ) وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَنِي.**

قَالَ نَافِعٌ: فَقَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ خَلِيفَةٌ فَحَدَّثْتُهُ هَذَا الحَدِيثَ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَحَدٌّ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ، فَكَتَبَ إِلَى عُمَّالِهِ أَنْ يَفْرِضُوا لِمَنْ كَانَ ابْنَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَمَنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ فَاجْعَلُوهُ فِي العِيَالِ». [البخاري رقم (٢٦٦٤، ٤٠٩٧)، ومسلم (١٨٦٨) واللفظ له، والترمذي (١٧١١). وجاء في مختار الصحاح ص ٣٩٩: «عيال الرجل: من يعوله وواحد العيال: عيل، كجيد»].

وقد سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة أحد.

٤ ـ يُسن استعراض الغلمان وإجازة المطيق منهم للحرب:

يقول د/ الفنيسان: «كانت سُنَّة رسول الله ﷺ أن يستعرض الغلمان في كل غزوة، فيَقبل من يقبل، ويَرد من يرد، وفي غزوة الخندق كان ممن استعرض فأجيز عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢١].

٥ ـ البلوغ شرط في وجوب المشاركة في القتال:

وقد سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة أحد.

ويقول د/ بربر: «وهذا الحكم من أعظم الأحكام التي أظهرت معاني الرحمة والإنسانية في هذا الدين العظيم، وكثيرًا ما نسمع اليوم عن منظمات حقوق الإنسان في الغرب، وهي تتكلم عن حقوق الأطفال،

وتدعو إلى منع تجنيدهم قبل سن البلوغ، وكأنها صاحبة السبق إلى إقرار هذا المبدأ، ونسي العرب وعملاؤه دين الرحمة والإنسانية وهو يقر هذا المبدأ قبل ١٤٠٠عامًا، حينها كان الغرب يعيش في القرون الوسطى التي سحقت فيها كل قيم الإنسانية، ومع ذلك تجد أعداء هذه الأمة، ومن سار في ركابهم من أبنائها، يلصقون تهم التطرف والإرهاب، وغيرها من التهم الباطلة بهذا الدين العظيم، فلا حول ولا قوة إلا بالله ». [**الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٣٤-١٣٥**].

٦ ـ حكم الشعار في الغزوة:

سبق تفصيل الحديث عنها في الدروس العسكرية المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة بدر الكبرى، تحت عنوان: «**أهمية الشارة والشعار في المعارك**».

[**وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٥٦-٢٥٧**].

٧ ـ يجوز للأمير أو القائد أن يتخذ له حرسًا:

يقول د/ الفنيسان: «وجه ذلك أن رسول الله ﷺ نادى عباد بن بشر ﷺ فقال: «**يَا عَبَّادَ ابْنَ بِشْرٍ**»، فَقَالَ عَبَّادٌ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**أَمَعَكَ أَحَدٌ؟**» قَالَ: نَعَمْ، أَنَا فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي كُنَّا حَوْلَ قُبَّتِكَ رَسُولَ الله!

فبعثه يطيف بالخندق وأبقى أصحابه عنده». [**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٧**].

٨ ـ مقتل طليعة المسلمين شهادة:

«الذي يُقتل من المسلمين في مهمة عسكرية كالمرسَلِ في مهمة استخبارية أو استكشافية يموت شهيدًا له أجر الشهداء، حي عند ربه يُرزق». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩١**].

٩ ـ جواز التورية في الكلام أو اللحن:

يقول د/ أبو فارس: «أخذنا هذا من قوله ﷺ للنفر الذين أرسلهم لاستطلاع خبر بني قريظة: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا، أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ القَوْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ**».

واللحن كما مر هو التورية في الكلام إذ يقصد المتكلمُ معنى يتبادر لذهن السامع معنى غيره.

واللحن في الكلام هو العدول بالكلام عن الوجه المعروف لدى الناس إلى وجه لا يعرفه إلا صاحبه، واللحن التورية والألغاز. [**الروض الأنف ٣/ ٢٧٨**].

والتورية في الكلام أن يقصد المتكلم في كلامه معنى لا يدركه كثير من الناس المخاطبين، بل قد يفهمون معنى غيره، وهو المعنى المتبادر للذهن.

وطريقة إخبار السعدين الرسول ﷺ بحقيقة موقف بني قريظة كانت في غاية التوفيق إذ وريا في كلامهما، فقالا: **عَضَلٌ وَالقَارَةُ**.

ويمكن لكل مسلم أن يسلك هذا الأسلوب في كل عصر ومصر، وهو مشروع ومستحب بشريطة ألا يظلم أحدًا من الناس في كلامه أو يضيع حقًّا من حقوقه».

أقول: إن التورية مشروعة ثبتت مشروعيتها بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه محمد ﷺ القولية والفعلية، ولقد عمل بها الصحابة رضوان الله عليهم في حوادث كثيرة، لكن المشروعية ليست على عمومها وإطلاقها، وإنما يقيد جوازها بألا تؤدي إلى ظلم الناس وضياع حقوقهم».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٩، ١٥١، الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٣١-٣٢، وقد سبق تفصيله في الدروس التربوية، والفقهية، والعسكرية من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى].

١٠ ـ حكم الفرار من المعارك:

قام المنافقون بالانسحاب من المعسكر المواجه للأحزاب على مشارف الخندق بحجة أنهم بحاجة إلى حماية بيوتهم المكشوفة الواقعة في أطراف المدينة.

وما كان قصد هؤلاء المنافقين حماية بيوتهم، وإنما قصدهم الفرار ثم بث الفزع وروح الهزيمة والتذمر داخل الجيش الصغير الذي أحاط به عدوه من كل مكان».[غزوة الأحزاب لباشميل ١٧١-١٧٢].

وقد سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة بدر الكبرى.

[وينظر للتفصيل أيضاً: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١١٠-١٢٨].

١١ ـ حكم الإرجاف في المعركة:

يقول د/ بربر: «**أولًا: تعريف الإرجاف:**

أ- الإرجاف في اللغة: من رجف، والرجفان الاضطراب الشديد، ورجف الشيء يرجف رجفًا ورجوفًا ورجفانًا ورجيفًا، وأرجف: خفق واضطرب اضطرابًا شديدًا.

[ينظر: لسان العرب لابن منظور ٩/ ١١٢، والمصباح المنير للفيومي ١/ ٢٢٠].

والإرجاف: الأخبار، وقد أرجفوا في الشيء: أي خاضوا فيه. [لسان العرب لابن منظور ٩/ ١١٣].

وأرجف القوم: إذا خاضوا في الأخبار السيئة، وذكر الفتن، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب:٦٠]، وهم الذين يفترون الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطراب.

[ينظر: لسان العرب لابن منظور ٩/ ١١٣، والمعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية ١/ ٣٣٢، وتاج العروس للزبيدي ٢٣/ ٣٢٥، والمصباح المنير للفيومي ١/ ٢٢٠].

ب- الإرجاف في الاصطلاح: قال ابن عباس ﷺ: الإرجاف التماس الفتنة، وإشاعة الكذب والباطل؛ للاغتنام به. [تفسير القرطبي ١٤/ ٢٤٦، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٢٤١].

فالإرجاف بث ونشر الأخبار الكاذبة المثبطة والمحبطة، بغرض إحداث الاضطراب، وزعزعة الثقة والأمن والإيمان في نفوس المؤمنين.

والمرجفون هم الذين يخبرون المؤمنين بما يسوؤهم من عدوهم، فيقولون إذا خرجت السرايا: قُتلوا، أو هُزموا، أو العدو قد أتاكم.

[تفسير القرطبي ١٤/ ٢٤٥، والتسهيل لعلوم التنزيل للغرناطي ٣/ ١٤٤، وتفسير ابن كثير ٣/ ٥٢٠].

ثانيًا: حكم الإرجاف وعقوبته:

أ- حكم الإرجاف: قال تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

أجمع المسلمون على حرمة إيذاء المسلم بقول أو فعل. [ينظر: بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٧٧، وسبل السلام للصنعاني ٣/ ١٣٩، وشرح الزرقاني ٤/ ٣١٦]؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب].

أي بغير جناية واستحقاق للأذى. [الكشاف للزمخشري ٣/ ٥٦٩].

وقوله ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**».

[البخاري في الإيمان (١٠)، وفي الرقاق (٦٤٨٤)، ومسلم في الإيمان (٤١)].

والإرجاف حرام شرعًا؛ لأن فيه أذية للمسلمين، والله تعالى يقول: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

فدلت الآية على تحريم الإيذاء بالإرجاف. [تفسير القرطبي ١٤/ ٢٤٦].

قال الشافعي: «غزا رسول الله ﷺ فغزا معه من يُعرف نفاقه، فانخزل عنه يوم أُحُد بثلاثمائة، ثم شهدوا معه الخندق، فتكلموا بما حكى الله ﷻ من قولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب]، ثم غزا بني المصطلق فشهدها معه منهم عدد، فتكلموا بما حكى الله ﷻ من قولهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، وغير ذلك مما حكى الله من نفاقهم».

[أحكام القرآن للشافعي ٢/ ٢٦، ومعرفة السنن والآثار للبيهقي ٦/ ٥٠٨].

ب- هل يُمنع المرجف من الخروج مع الجيش؟:

لا خلاف بين العلماء في وجوب منع المرجف من الخروج مع الجيش، إن لزم على خروجه فساد في القتال، أو طمع في المسلمين. [ينظر: المهذب للشيرازي ٢/ ٢٣٠، وحاشيتا قليوبي وعميرة على شرح جلال الدين المحلى على منهاج الطالبين ٤/ ٢١٨، وأحكام القرآن للشافعي ٢/ ٢٦، ومعرفة السنن والآثار للبيهقي ٦/ ٥٠٨، وكشف المخدرات لعبد الرحمن الحنبلي ١/ ٣٤٦، والمغني لابن قدامة ٩/ ١٦٦، والكافي في فقه ابن حنبل لابن قدامة ٤/ ٢٦٣، ومطالب أولي النهى للبهوتي ٢/ ٥٣١، وشرح منتهى الإرادات للبهوتي ١/ ٦٣٠].

والأدلة على منع المرجف من الخروج كثيرة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة].

وجه الدلالة في الآية: أخبرنا ﷻ أنه كره انبعاثهم فثبطهم إذ كانوا على هذه النية، فكان فيها ما دل على أن الله ﷻ أمر أن يمنع مَنْ عُرف بما عُرفوا به من أن يغزوا مع المسلمين؛ لأنه ضرر عليهم، والخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف. [**أحكام القرآن للشافعي ٢/ ٢٨، وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٣٦٦**].

٢- ولأن رسول الله ﷺ لم يكن يخرج بهم أبدا، لما نزل عليه قول الله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة]. [**معرفة السنن والآثار للبيهقي ٦/ ٥٠٨**].

ولأن هؤلاء مضرة على المسلمين، ولا يؤمنوا على أسرار الجيش، وإن حصل الالتحام فروا وسببوا ارتباكًا للجيش، فمصلحة المسلمين تقتضي منعهم. [**المغني لابن قدامة ٩/ ١٦٦**].

٣- ولأن المرجف يبث من الأخبار الكاذبة ما يكون سببًا في إضعاف معنويات المسلمين.

ج- عقوبة المرجف:

اختلف العلماء في عقوبة المرجف في قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب].

إذا كان مقيمًا على النفاق والإرجاف إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: قال الطبري: الأمر بقتلهم وأخذهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف. [**ينظر: تفسير الطبري ٢٢/ ٤٨، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٣٠٥، والتمهيد لابن عبد البر ١٠/ ١٥٤، وتفسير القرطبي ١٤/ ٢٤٧**].

القول الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لنغرينك بهم: لنسلطنك عليهم، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلًا بالنفي. [**أحكام القرآن للجصاص ٥/ ٢٤٥، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٣٠٥**].

القول الثالث: قال الشوكاني: الآية دعاء عليهم بأن يؤخذوا ويقتلوا تقتيلًا، وليس حكمًا. [**فتح القدير للشوكاني ٤/ ٣٠٥**].

الترجيح: الراجح ـ والله أعلم ـ أن الأمر عائد إلى الإمام، يراعي فيه مصلحة الجماعة المسلمة، فقد تقتضي المصلحة التحذير منهم بدون عقوبة، ويكتفي بالدعاء عليهم إذا لم يتسببوا بقتل مسلم.

وهو ما تعامل به النبي ﷺ مع المنافقين في زمانه، فلم يقتلهم مع أنهم يستحقون القتل، فقد أرجفوا في غزوة الأحزاب والمسلمون في أضيق حال، وفي غيرها من الغزوات، ومع هذا لم يقتلهم ﷺ، وعلل ذلك بقوله ﷺ: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**».

[البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٤)].

أو النفي في حالة انتفت العلة ـ حديث الناس ـ التي يستخدمها أعداء الإسلام لتشويه صورة الإسلام، فيكون هذا العمل صدًّا لهم عن دين الله تعالى.

أما في حال تسببوا بقتل مسلم، فلا مناص من قتل من تسبب في ذلك.

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٢٩-١٣٣].

١٢ ـ حكم سفر الواحد بمفرده:

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ القَوْمِ؟**»، فَقَالَ الزُّبَيرُ رضي الله عنه: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ القَوْمِ؟**»، فَقَالَ الزُّبَيرُ رضي الله عنه: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ القَوْمِ؟**»، فَقَالَ الزُّبَيرُ رضي الله عنه: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيرُ**». [البخاري في المغازي (٤١١٣)، وفي الجهاد (٢٨٤٦)، والترمذي في المناقب (٣٧٤٥)].

يقول د/ بربر: « اختلف العلماء في حكم سفر الواحد بمفرده إلى ثلاثة أقوال :

القول الأول: قول المالكية والحنابلة: يكره الوحدة في السفر.

[ينظر: التمهيد لابن عبد البر ٢٠/ ٦، وكشف القناع للبهوتي ١/ ٧٩، ومطالب أولي النهى للرحيباني ١/ ٦٣، وشرح الزرقاني ٤/ ٥٠٠، وعمدة القاري للعيني ١٤/ ٢٤٧، وزاد المعاد لابن القيم ٢/ ٤٩٩].

وقيَّد مالك الكراهة في سفر القصر. [ينظر: شرح الزرقاني ٤/ ٥٠٠].

القول الثاني: قال ابن المنير: يجوز سفر الرجل وحده بلا كراهة للضرورة والمصلحة، والنهي عن السفر وحده إنما هو من حيث لا تدعو الحاجة إلى ذلك.

[ينظر: فتح الباري لابن حجر ٦/ ١٣٨، عمدة القاري للعيني ١٤/ ١٤٢].

القول الثالث: قال مجاهد: يجوز سفر الرجل وحده مطلقًا بلا كراهة. [ينظر: شرح الزرقاني ٤/ ٥٠٠].

أدلة القول الأول: استدل مَن قال بكراهة سفر الواحد بمفرده بالأدلة التالية:

١- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ، مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ**». [البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٨)].

وجه الدلالة في الحديث: تحذيره ﷺ عن الوحدة في سير الليل، فدل على كراهته.

[ينظر: عمدة القاري للعيني ١٤/ ٢٤٧].

وقد نوقش: لا يوجد في الحديث ما يدل على الكراهة، وغاية ما يدل عليه استحباب الرفقة في سير الليل.

٢- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ خَيْبَرَ فَتَبِعَهُ رَجُلَانِ وَرَجُلٌ يَتْلُوهُمَا يَقُولُ: ارْجِعَا حَتَّى أَدْرَكَهُمَا فَرَدَّهُمَا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَيْنِ شَيْطَانَانِ، فَاقْرَأْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ السَّلَامَ، وَأَعْلِمْهُ أَنَّا فِي جَمْعِ صَدَقَاتِنَا، لَوْ كَانَتْ تَصْلُحُ لَهُ لَبَعَثْنَا بِهَا إِلَيْهِ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَهُ، «فَنَهَى عِنْدَ ذَلِكَ عَنِ الْخَلْوَةِ». [المستدرك في الجهاد ٢/ ١١١ رقم ٢٤٩٤، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ومسند أحمد ٤/ ٣٠٨ رقم ٢٥١٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن، ٤/ ٤٥٢ رقم ٢٧١٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح].

وجه الدلالة في الحديث: فنهى عن الخلوة أي السفر مفردًا، وحملوا النهي على الكراهة. [فتح الباري لابن حجر ٦/ ٣٤٥].

٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**الْوَاحِدُ شَيْطَانٌ، وَالِاثْنَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ**».

[المستدرك في الجهاد ٢/ ١١٢ رقم ٢٤٩٦، وقال الذهبي: على شرط مسلم، وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما ـ صحيح ابن خزيمة في المناسك ٤/ ١٥٢ رقم ٢٥٧٠، وقال الشيخ الأعظمي: إسناده حسن، وقال ابن حجر: حسن الإسناد. ينظر: فتح الباري لابن حجر ٦/ ٥٣].

وجه الدلالة في الحديث: مثَّل المسافر الواحد بالشيطان، والاثنين بالشيطانين؛ لأن كلًّا منهما متعرض لذلك، وقيل: سميا بذلك؛ لأن كل واحد من القبيلين يسلك سبيل الشيطان في اختياره الوحدة في السفر. [شرح الزرقاني ٤/ ٥٠٠].

وفي هذا الحديث كراهة الوحدة في السفر. [التمهيد لابن عبد البر ٢٠/ ٦].

أدلة القول الثاني: استدل مَن أجاز سفر الواحد بمفرده بلا كراهة إذا دعت الضرورة أو المصلحة بالأدلة التالية:

١- حديث جابر رضي الله عنه المتقدم، وفيه بعث رسول الله ﷺ الزبير رضي الله عنه إلى بني قريظة وحده، فهو دليل على جواز سفر الرجل وحده للضرورة بلا كراهة. [ينظر: فتح الباري لابن حجر ٦/ ٥٣].

٢- قال ابن المنير: السير لمصلحة الحرب أخص من السفر، والخبر ورد في السفر، فيؤخذ من حديث جابر جواز السفر منفردًا للضرورة والمصلحة التي لا تنتظم إلا بالانفراد، كإرسال الجاسوس والطليعة، والكراهة لما عدا ذلك، ويحتمل أن تكون حالة الجواز مقيدة بالحاجة عند الأمن، وحالة المنع مقيدة بالخوف حيث لا ضرورة، وقد وقع في كتب المغازي بعث كل من: حذيفة، ونعيم بن مسعود، وعبد الله بن أنيس، وخوَّات بن جبير، وعمرو بن أمية، وسالم بن عمير، وبسيسة، في عدة مواطن، وبعضها في الصحيح». [فتح الباري لابن حجر ٦/ ١٣٨].

أدلة القول الثالث: أما مَن أجاز سفر الواحد منفردًا في كل الأحوال بلا كراهة فاستدل بالتالي:

١- حديث جابر رضي الله عنه السابق، فالرسول ﷺ بعث الزبير رضي الله عنه إلى بني قريظة وحده، مع وجود الخوف، فقد ردد النبي ﷺ: «**مَنْ يَأْتِينَا [يَأْتِينِي] بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟**» ثلاثًا، ولم يجبه إلا الزبير رضي الله عنه.

٢- وقالوا: حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق الذي فيه أن الواحد شيطان لم يقله النبي ﷺ، ولكن قال عمر رضي الله عنه: «**كُونُوا فِي أَسْفَارِكُمْ ثَلَاثَةً، إِنْ مَاتَ وَاحِدٌ وَلِيَهُ اثْنَانِ، الْوَاحِدُ شَيْطَانٌ، وَالِاثْنَانِ شَيْطَانَانِ**»، يحتاط للمسلمين. [شرح الزرقاني على الموطأ ٤/ ٥٠٠].

وقد نوقش: أن حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوع إلى النبي ﷺ.

[تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطي ٢/ ٢٤٨، والحديث مرفوع، كما سبق في تخريجه].

الترجيح: الراجح ـ والله أعلم ـ هو جواز سفر الرجل وحده بلا كراهة للضرورة أو المصلحة، والنهي عن السفر وحده، إنما هو حيث لا تدعو الحاجة إلى ذلك جمعًا بين الأدلة.

وقد تغير الحال في هذا الزمان، فقد أصبحت المواصلات مهيأة ولله الحمد، فيستطيع المسافر من خلال الهاتف المحمول الإخبار عن مكانه وما يحدث له، بل وينقل ذلك بالصوت والصورة، وكذلك أصبح السير في السيارات أو القطارات وغيرها من وسائل المواصلات أكثر أمانًا مما كانت عليه المواصلات في الزمن الماضي.

فالعلة من النهي: الاستيحاش؛ لأن الإنسان إذا سار بمفرده أحس بالوحشة.

[شرح الزرقاني على الموطأ ٤/ ٥٠٠].

وقيل: إنما كره ذلك؛ لأن الواحد لو مات في سفره ذلك لم يجد من يقوم عليه، وكذلك الاثنان إذا ماتا أو أحدهما لم يجد من يعينه. [فتح الباري لابن حجر ٦/ ٥٤].

وسواء كانت العلة الوحشة، أو خوف الموت وحيدًا، فمع وجود المواصلات الحديثة انتفت العلتان، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا. [ينظر: إعلام الموقعين لابن القيم ٤/ ١٠٥].

لكن الأفضل والأولى ألا يسافر وحيدًا».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢١١-٢١٤].

١٣ ـ حكم التثبت من نقض المعاهد للعهد:

يقول د/ بربر: «يجب على المسلمين التثبت من نقض المعاهد للعهد؛ لأن التثبت في الأمور وعدم الاستعجال منهج إسلامي متميز يحفظ على المجتمع تماسكه وتآلفه، ويحميه من الأخطاء والزلات التي يتبعها فساد عريض؛ ولأجل ذلك نبه القرآن الكريم على حكم هذا المنهج العظيم فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات].

وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء].

ففي الآيتين أمر بعدم مباشرة الحرب إلا بعد التبين.

قال الشافعي: «أمر الله من يمضي أمره على أحد من عباده أن يكون مستبينًا قبل أن يمضيه».

[الأم للشافعي ٧/ ٩٤].

وقال الجصاص: «فيه أمر بالتثبت لئلا يصيب بجهالة، فاقتضى النهي عن الإقدام إلا بعد العلم؛ لئلا يصيب القوم بجهالة». **[أحكام القرآن للجصاص ٥/ ٢٧٨]**.

وهو المنهج الذي تعامل به النبي ﷺ مع بني قريظة عندما نقضوا العهد، كما في حديث جابر ﷺ المتقدم، فقد قاله النبي ﷺ عند إرسال الزبير بن العوام ﷺ لكشف خبر بني قريظة، هل نقضوا العهد أم لا؟ **[السيرة الحلبية للحلبي ٢/ ٦٥١]**.

ولم يكتف النبي ﷺ بذلك، بل أراد مزيدًا من الاستيثاق، فبعث سعد بن معاذ ﷺ، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة ﷺ، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير ﷺ، قال ﷺ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا، أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا** (**اللحن**: اللغز، وهو أن يخالف ظاهر الكلام معناه) **أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ**(فت في عضده، إذا أضعفه وأوهنه)، **وَإِنْ كَانُوا عَلَى الوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ**». **[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٢]**.

فبنو قريظة هم حلفاء الأوس، وإذا كان أحد قادرًا على ثنيهم على عزمهم نقض العهد فهما سيدا الأوس والخزرج، فالمهمة مزدوجة، وهي التأكد من صحة الخبر، ومحاولة ثنيهم عن غدرهم، وتحميلهم مغبة هذا الغدر **[التربية الجهادية للغضبان ٢/ ١٩٤]**».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣٠٦-٣٠٧].

١٤ ـ حكم كتمان بعض المعلومات عن الجيش:

يقول د/ بربر: «يشرع لقائد الجيش أن يُخفي من أمره ما أمكن إخفاؤه حتى عن جنوده؛ لئلا يعلم به عدوه. **[ينظر: الكافي في فقه ابن حنبل لابن قدامة ٤/ ٢٦٦، والمبدع لابن مفلح ٣/ ٣٣٩، وكشف القناع للبهوتي ٣/ ٦٥، وسبل السلام للصنعاني ٤/ ٤٨، ونيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٥٦، وشرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٠٠]**.

فقد كان في إظهار خبر نقض بني قريظة للعهد فت في عضد المسلمين، فأخفاه ﷺ استبقاءً لهم، بل تجاوز ذلك إلى بعث روح الطمأنينة فيهم، حيث كبَّر وبشَّرهم بالنصر.

[زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٧٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٣٠].

لأن من الأخبار ما يكون صحيحًا، لكنه غير صالح للنشر، ثم ما كان منها صالحًا للنشر لا يصح أن يُنشر بصورة ترعب المسلمين، وتزيد من وجلهم؛ لأن ذلك في الحقيقة استدراج من العدو؛ للوقوع في أسر الحرب الإعلامية التي ما هي إلا طليعة العدو في حربه المتواصلة علينا.

وقد تحلى رسول الله ﷺ بصفة الكتمان في عامة غزواته، وكانت صفة بارزة له في غزواته كلها.
[السيرة النبوية للصلابي ١/ ٣٩٦].

فقد جاء في حديث كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلاَّ وَرَّى بِغَيْرِهَا ... **[البخاري في الجهاد والسير (٢٩٤٨)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)]**.

قال النووي: «ينبغي لأمير الجيش إذا أراد غزوة أن يوري بغيرها لئلا يسبقه الجواسيس ونحوهم بالتحذير، إلا إذا كانت سفرة بعيدة فيستحب أن يعرفهم البعد ليتأهبوا» **[شرح النووي على مسلم ١٧/ ١٠٠]**.

وقال ابن الأمير الصنعاني: « وكانت توريته أنه إذا أراد قصد جهة سأل عن طريق جهة أخرى إيهامًا أنه يريدها، وإنما يفعل ذلك؛ لأنه أتم فيما يريده من إصابة العدو، وإتيانهم على غفلة من غير تأهبهم له».
[سبل السلام ٤/ ٤٨].

فعنصر المفاجأة في الحروب يعتبر من أهم العناصر التي تربك العدو، وتؤدي إلى انهزامه، ولا يمكن أن يكون هذا العنصر فاعلًا إلا مع تمام السرية والكتمان من قِبل القيادة، وأخطر ما يفتك بالجيوش هو انكشاف أسرارها وخططها؛ ولذلك عمل الصهاينة، ومعهم الغرب الصليبي على اختراق معظم الجيوش العربية والإسلامية، ومعرفة كل معلوماتها، بينما العرب والمسلمون لا يعرفون عن جيوش أعدائهم شيئًا، ولكنهم بفضل الله تعالى عجزوا عن معرفة أسرار وخطط وقدرات كتائب المقاومة الفلسطينية، فتفاجأوا بقدراتهم في الحروب الأخيرة، وخاصة في معركة العصف المأكول، فقد فاجأتهم بأسلحة جديدة وفاعلة، كالأنفاق، والتسلل والإنزال خلف خطوط العدو، والقدرات الصاروخية الكبيرة، والطائرات بدون طيار المسماة أبابيل، وغيرها، مما أجبر الكيان الصهيوني على وقف العدوان، والرضوخ لشروط المقاومة ». **[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٩٩-٣٠٠]**.

١٥ ـ مشروعية الشورى وموضوعها وإلزاميتها:

يقول د/ أبو فارس: «ونستنبط من استشارة الرسول ﷺ لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة ﭫ ثلاثة أمور:

الأمر الأول: الشورى مشروعة في الإسلام.

الأمر الثاني: موضوع الشورى في الإسلام هو الأمر الاجتهادي.

أما المسائل التي نص عليها في كتاب الله ﷻ أو سنة رسول الله ﷺ، أو أجمعت الأمة عليها فلا مجال للشورى فيها؛ لأن الشورى اجتهاد، ولا اجتهاد في مورد النص.

وهذا هو مدلول سؤال سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة رضي الله عنهما وجواب الرسول ﷺ عليهما، حين قال له: **يَا رَسُولَ الله، أَمْرًا تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ العَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا؟** فقال رسول الله ﷺ: «**لَوْ أُمِرْتُ بِشَيءٍ لَمْ أَسْتَأْمِرْكُمَا فِيهِ، وَلَكِنْ هَذَا رَأْيٌ أَعْرِضُهُ عَلَيْكُمَا**».

[الأموال لأبي عبيد ٢٣٥-٢٣٦].

تأمل معي قوله ﷺ: «**لَوْ أُمِرْتُ بِشَيءٍ لَمْ أَسْتَأْمِرْكُمَا**» أي لو كان الأمر من عند الله ما طلبت رأيكما وشاورتكما، إنما الذي أعرضه هو رأي اجتهادي أريد أن أسمع رأيكما فيه، فلما علما ذلك ذكرا رأيهما فيه، وعارضا ما كان يراه رسول الله ﷺ.

الأمر الثالث: نتيجة الشورى مُلزمة: ونعني بهذا إذا شاور الأمير مجموعة من أهل الحل والعقد، وكان رأيهم بعد تبادل الآراء والأخذ والعطاء قد استقر على أمر والأمير خالف ما استقر رأيهم عليه، فإن عليه أن يلتزم بأمر الأكثرية، وإن خالفت رأيه.

هذا ما حدث فعلًا في غزوة الأحزاب إذ كان الرسول ﷺ يرى أن يعطي غطفان ثلث ثمار المدينة على أن يعودوا عن حصار المدينة، ويخذلوا عن المسلمين، وكتب هذا بالأحرف الأولى، فلما استشار السعدين خالفا رأيه ورأيا ألا يعطوا غطفان حبة تمر، فأخذ الرسول ﷺ برأيهما وترك رأيه قائلًا: أنت وذاك، فأخذ سعد بن معاذ رضي الله عنه الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب.

ويذكر الأستاذ الشيخ محمود شلتوت رحمه الله أن سعد بن معاذ رضي الله عنه قد مزق الصحيفة، ويعقب على هذا بقوله: (وهذه الحادثة تضع تقليدًا دستوريًا هامًّا، وهو أن الحاكم ـ ولو كان رسولًا معصومًا ـ يجب عليه ألا يستبد بأمر المسلمين، ولا أن يقطع برأي في شأن هام، ولا أن يعقد معاهدة تُلزم المسلمين بأي التزام دون مشورتهم، وأخذ آرائهم، فإن فعل كان للأمة حق إلغاء كل ما استبد به من دونهم، وتمزيق كل معاهدة لم يكن لهم فيها رأي)(١). [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٩-١٦٠**].

ويقول أ/ حوى: «والقضية الثانية هي إلزامية الشورى، فههنا نرى أن رسول الله ﷺ نزل على رأي السعدين وهما ممثِّلا الأنصار، وبعض الروايات تذكر أن هذا النزول كان بعد أن كتب رسول الله ﷺ العقد ولكنه لم يمضه، وكذلك نزل ﷺ على رأي الأكثرية يوم أُحُد، هذا النزول على رأي ممثلين لجهة أو على رأي الأكثرية يجعلنا نقول بإلزامية الشورى للأمير، ولكنها إلزامية تخضع لقواعد فصلناها في

---

(١) من توجيهات الإسلام ٥٢٢- ٥٢٣، وينظر بحث نتيجة الشورى في النظام السياسي في الإسلام للمؤلف (د/ أبو فارس)، فقد أسهبت فيه بذكر الأدلة على ذلك.

أكثر من مكان في كتبنا، فالشورى ينبغي أن تُعطى لأهلها، وإذا أُعطيت لأهلها فرأي أكثريتهم ملزم في نفي الضرر أو في استجلاب المصلحة، ومن ذلك يعطي الأمير فرصة تعميم الشورى على دائرة أدنى أو أعلى، ولكن يبقى رأي الأكثرية هو الملزم، وكل ذلك على ضوء القواعد الدستورية أو النظامية المتفق عليها بين المسلمين، وإنما نشترط هذا لأن بعض العلماء لا يرى إلزامية الشورى للأمير، فإذا ما وجد شرط الإلزامية لم يعد لأحد متكأ في رفض شورى الأكثرية من أهلها (**فالمسلمون عند شروطهم**).

[ذكره البخاري معلقًا (٤/ ٤٥١) ٣٧ في الإجارة باب أجر السمسرة، وأبو داود مطولًا (٣/ ٣٠٤)، في الأقضية، باب في الصلح، عن أبي هريرة بلفظ (على شروطهم)].

وعندئذ فللمرشح للإمرة الحق في أن يقبل الإلزامية فيكون أميرًا أو يرفض فلا يكون، وللذين يرفضون إلزامية الشورى نقول: إن رسول الله ﷺ نزل على رأي الأكثرية يوم أُحُد وهو يعلم أن رأيهم خطأ، وها هو هنا نزل على رأي ممثلي الأنصار وهم أصحاب العلاقة مع أنه كان مقتنعًا بوجهة النظر الأخرى، أليس هذا يدل في حده الأدنى على سنية النزول على رأي الأكثرية صاحبة العلاقة، فإذا كانت المسألة في حدها الأدنى سنة، ألا يحق للمسلمين أن يعتمدوها؟ ألم يشترط الخضر على موسى عليه السلام وهو - أي الخضر - دونه؟ والتزم موسى، ألا يكفي هذا للقول: بأن المسلمين إذا اشترطوا على أميرهم أن ينزل على شوراهم فلهم ذلك! أليس مصلحة المسلمين في عصرنا تستدعي ذلك، وهل يسع عصرنا إلا هذا؟ على أنه لا مانع أن يفوض المسلمون من شاؤوا في أمر أو حكم فضلًا عن أن يفوضوا أميرهم، وفي حادثة حكم سعد رضي الله عنه في بني قريظة مأنس لمن يرى ذلك». **[الأساس في السنة - السيرة لحوى ٢/ ٦٨٦-٦٨٧].**

وقد سبق تفصيلها في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى، وغيرها.

[وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٦٩-٢٨٧].

١٦ - حكمة الاستشارة في مفاوضات غطفان:

يقول د/ البوطي: «ما هي الحكمة تُرى في استشارته ﷺ لبعض أصحابه في أن يعرض صلحًا على غطفان، قوامه إعطاؤهم ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفوا عن تأييد قريش ومن معهم، ويرجعوا عن حرب المسلمين، وما هي الدلالة التشريعية التي تؤخذ من تفكيره هذا؟

أما الحكمة، فهي أن النبي ﷺ كان يريد أن يطمئن إلى مدى ما يتمتع به أصحابه الصادقون من القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله وتوفيقه رغم هذا الذي فوجؤوا به من اجتماع أشتات المشركين عليهم في كثرة ساحقة، إلى جانب ما طلعت به بنو قريظة في الوقت نفسه من نقض العهود والمواثيق، وقد كان من عادته ﷺ - كما رأيت - أنه لم يكن يحب أن يسوق أصحابه إلى الحرب أو مغامرة لا يجدون في أنفسهم شجاعة كافية لخوضها، أو لا يؤمنون بجدواها، وقد كان هذا من أبرز أساليبه التربوية ﷺ لأصحابه،

فمن أجل ذلك عرض على أصحابه هذا الرأي، وأنبأهم أنه ليس تبليغًا من الله تعالى، وإنما هو شيء يبديه لهم كي يكسر عنهم شوكة المشركين، إذا كانوا لا يجدون في أنفسهم طاقة على مقابلتهم.

وأما الدلالة التشريعية في هذه الاستشارة فهي محصورة في مجرد مشروعية مبدأ الشورى في كل ما لا نص فيه، وهي بعد ذلك لا تحمل أي دلالة على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم إذا ما اقتحموها باقتطاع شيء من أرضهم أو خيراتهم لهم، إذ مما هو متفق عليه في أصول الشريعة الإسلامية أن الذي يُحتج به من تصرفاته ﷺ إنما هو أقواله وأفعاله التي قام بها، ثم لم يَرِد اعتراض عليها من كتاب الله تعالى، فأما ما كان من ذلك في حدود الاستشارة والرأي المجرد فلا يُعتبر دليلًا بحال، إذ الاستشارة أولًا: يمكن أن يكون المقصود منها مجرد استطلاع لما في النفوس كما ذكرنا، أي فهي ممارسة لعمل تربوي بحت، وهي ثانيًا: حتى ولو انتهت بعمل تنفيذي، يمكن أن يَرد على عقبه اعتراض من كتاب الله تعالى فلا تبقى فيه أي دلالة تشريعية.

على أن علماء السيرة نصُّوا كما قد رأيت على أن النبي ﷺ لم يُبرم صلحًا مع غطفان، ولم تقع شهادة ولا عزيمة على الصلح، وإنما الأمر كان مراوضة لم يتجاوزها.

نقول هذا لأن فئة مجهولة في عصرنا هذا، أخذت تزعم زعمًا شنيعًا في منتهى الغرابة، وهو: أنه يجب على المسلمين أن يدفعوا (الجزية)! إلى غير المسلمين إذا اقتضت الحاجة، مستدلة على ذلك بأنه ﷺ قد استشار أصحابه في غزوة الخندق أن يفعل ذلك!

وبقطع النظر عن هذا الذي أوضحناه من أن مضمون الرأي المعروض على بساط الاستشارة لا يعتبر دليلًا تشريعيًّا، فلسنا ندري ما الصلة بين الجزية وما يمكن أن يتصالح عليه فريقان متحاربان؟

فإن قلت: فهب أن المسلمين اضطروا ـ بسبب من أسباب الضعف ـ إلى الخروج عن بعض أموالهم حفظًا على حياتهم وحذرًا من أن تُستأصل شأفة المسلمين، أفليس لهم أن يفعلوا ذلك؟

فالجواب أن هنالك حالات كثيرة تُستلب فيها أموال المسلمين وتصبح غنائم لأعدائهم، ويستعدي فيها الكافرون على بلاد المسلمين وخيراتهم فيتمكنون فيها ويسيطرون عليها، ومعلوم ـ بالبداهة ـ أن المسلمين لا يخضعون لشيء من ذلك عن طريق الاختيار واتباع الفتوى، وإنما يلجؤون إلى ذلك إلجاءً ويُحملون عليه كرهًا، وهم مع ذلك يتربصون بأعدائهم الفرص السانحة، وأنت خبير أن أحكام الشريعة الإسلامية إنما يُخاطب بها من لم يكن مكرهًا ولا مُلجأً ولا صبيًّا أو مجنونًا.

وإذًا فمن العبث انتزاع هذه الحالة التي هي من وراء حدود التكليف كما يقرَّر على أساسها حكم تكليفي يختار على أساس الرأي والمصلحة والمراوضة». [فقه السيرة للبوطي ٢٣٣-٢٣٤].

ويقول د/ أبو شهبة: «ويرى بعض المؤرخين أن عرض الرسول ﷺ عهد الصلح هذا لم يقصد به العرض حقيقة، وإنما سبرًا لغور الأنصار، وتعرفًا لمبلغ استعدادهم للذود عن المدينة، والتضحية بالنفس في سبيل العقيدة، وقد ظهر له ﷺ أن الأخطار والمخاوف وتكالب عوامل الشر لم تزدهم إلا إيمانًا وصلابة في الدفاع عن دينهم». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٨٥].

١٧ ـ جواز التفاوض مع العدو:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من مقابلة رسول الله ﷺ لقائدي غطفان والتفاوض معهما جواز الاجتماع مع القادة من غير المسلمين والتفاوض معهم حول القتال وغيره، وهذا ليس عيبًا ولا حرامًا كما ترى، وإنما العيب كل العيب والحرام كل الحرام التفريط بحق الأمة والتهاون في مصالحها، وهدر كرامتها وتمريغ سمعتها في الوحل». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٨].

ويقول أ/ حوى: «وفي قوله: «**إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ**» دليل على أن رسول الله ﷺ كان يستهدف في عمله السياسي ألا يجتمع الأعداء عليه صفًّا واحدًا، وموقفه هنا دليل على أن هذا كان هدفًا له، وهذا يصل بنا إلى عدد من الأمور:

أ ـ أن تحاول الحركة الإسلامية التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

ب ـ أن محاولة التحالف مع بعض الأطراف لا حرج منها، فالهدف الإستراتيجي ـ للقيادة المسلمة ـ حيِّد من تستطيع تحييده، اجعل في جانبك من تستطيع كسبه، فتِّش عن المتعاطفين معك مهما كانت الأسباب، واجعل ثقتك في هذا بالله أولًا وأحكم التوكل عليه، ولا تنس القيادة الفتوى والشورى والمصلحة الآنية والمستقبلية للإسلام والمسلمين». [الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٦٨٧،].

١٨ ـ متى يجوز دفع المال لأعداء المسلمين:

يقول د/ أبو فارس: «ومن الأحكام التي تستنبط من هذه الحادثة جواز دفع المسلمين مبلغًا من المال لأعدائهم، إذا كانوا أقوياء ولا قدرة للمسلمين على قتالهم وردهم ودحرهم وقهرهم، شريطة أن يكون ذلك مؤقتًا يزول بزوال هذه الحالة الطارئة.

هذا ويجب على الحاكم المسلم أو القائد أن يعمل ليل نهار لإزالة هذه الحالة، وبأسرع وقت ممكن؛ لأنها هي الاستثناء، وجاءت على سبيل الرخصة، والأصل أن يأخذ المسلمون الجزية من غيرهم إن هم أصروا على ما هم عليه من الدين الذي ورثوه عن آبائهم.

قال السهيلي في الروض الأنف: «وَذَكَرَ مَا هَمَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مُصَالَحَةِ الأَحْزَابِ عَلَى ثُلُثِ تَمْرِ المَدِينَةِ، وَفِيهِ مِنَ الفِقْهِ جَوَازُ إِعْطَاءِ المَالِ لِلعَدُوِّ، إِذَا كَانَ فِيهِ نَظَرٌ لِلمُسْلِمِينَ وَحِيَاطَةٌ لَـهُمْ، وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدٍ هذا

الخَبَرَ، وَأَنَّهُ أَمْرٌ مَعْمُولٌ بِهِ، وَذَكَرَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه صَالَحَ مَلِكَ الرُّومِ عَلَى الكَفِّ عَنْ ثُغُورِ الشَّامِ بِمَالٍ دَفَعَهُ إِلَيْهِ، قِيلَ: كَانَ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَأَخَذَ مِنَ الرُّومِ رُهُنًا، فَغَدَرَتْ الرُّومُ، وَنَقَضَتْ الصُّلحَ، فَلَمْ يَرَ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه قَتْلَ الرَّهَائِنِ، وَأَطْلَقَهُمْ، وَقَالَ: وَفَاءٌ بِغَدْرٍ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ بِغَدْرٍ[1]، قَالَ: وَهُوَ مَذْهَبُ الأَوْزَاعِيِّ وَأَهْلِ الشَّامِ أَلَّا تُقْتَلَ الرَّهَائِنُ، وَإِنْ غَدَرَ العَدُوُّ». [الروض الأنف ٦/ ٣١٥-٣١٦].

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٥-١٥٦].

ويقول د/ الرشيد: «ومصالحة النبي ﷺ مع قائدي غطفان تُعد من باب السياسة الشرعية التي تراعي مقتضيات الأحوال، بدليل قوله ﷺ للصحابة: «**فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ عَامَكُمْ هَذَا، حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ**»، فلو كان هذا الحكم باقيًا لما قيَّده بالعام نفسه، وقال: «**حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ**».

وقد قرر العلماء جواز دفع مال للعدو إذا كان ذلك يحقق مصلحةً عامة للمسلمين أو يدفع عنهم كيد أعدائهم.

ولا شك في أن عزم النبي ﷺ على عقد صلح مع قبيلة غطفان إنما كان لعذر، وقد وضع الفقهاء قاعدة في هذا الشأن، وهي قولهم: (ما جاء لعذر بطل بزواله).

[ينظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٨٤، والأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٨٦].

ومما يتفرع عن هذه القاعدة أن ما قام على الضرورة فإنه يزول بزوالها.

[ينظر: الوجيز في القواعد الفقهية ـ د/ محمد البرنو ص ١٤٩].

ففي هذه الغزوة جازت مصالحة الأعداء وذلك بإعطائهم قدرًا معينًا من تمر المدينة؛ دفعًا لكيدهم؛ وذلك لتعذر قتالهم في هذا الظرف لضعف المسلمين وقوة أعدائهم.

أما إذا زال هذا العذر وذلك بأن كان المسلمون في حالة قوة وغلبة يستطيعون معها قتال أعدائهم فإنه يبطل هذا الحكم، ولا يُعطى الكفار شيئًا من أموال المسلمين؛ لأن في هذا التصرف ذلةً وصغارًا على المؤمنين، وفيه ـ أيضًا ـ معونة للكفار على حربهم للإسلام وأهله».

[القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤١٤-٤١٥].

ويقول أ/ حوى: «فلو أن كيان المسلمين في قُطر أو في العالم تعرض لخطر الاستئصال، أو أن أمنهم أصبح في خطر فهل لهم في هذه الحالة أن يعطوا تنازلات مادية ولو بأن يدفعوا مالًا؟ الظاهر من الحديث

---

(١) الذي جاء في كتاب الأموال ص ٢٣٦ ما يلي: قال أبو عبيد: قد فعل مثل ذلك معاوية في إمارته.

قال أبو عبيد: حدثني هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو وسعيد بن عبد العزيز: أن الروم صالحت معاوية على أن يؤدي إليهم مالًا، وارتهن معاوية منهم رهنًا، فجعلهم ببعلبك، ثم إن الروم غدرت فأبى معاوية والمسلمون أن يستحلوا قتل ما في أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم، واستفتحوا بذلك عليهم، وقالوا: وفاء بغدر خير من غدر بغدر، وقال: قال الأوزاعي في مثل ذلك: لا تقتل الرهن بغدرهم.

أن ذلك جائز ولكنه ليس مفروضًا، وقد نص فقهاء الحنفية على هذه المسألة فأجازوا دفع المال للعدو إذا أصبح يهدد الوجود الإسلامي.

والمسألة في عصرنا قد تأخذ طابعًا أكثر تعقيدًا فقد تصبح في خطر خفي أو تتعرض لخطر خفي وَجِهَةٍ ما هي القادرة على الإنقاذ، وهي لا تفعل إلا بشروط، فإذا كانت الشروط مادية بحتة فللمسلمين ذلك، ولهم ألا يفعلوا والفتوى من أهلها، والشورى والمصلحة هي التي تحكم هذه الأمور، وقد تشتبك المصالح وتتعارض مصالح الأمة والأفراد، والحاكم والمحكوم، وكل ذلك ينبغي أن يخضع إلى موازنات عند أهل التقوى لتقرير ما هو المصلحة في النهاية». [**الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٦٨٥-٦٨٦، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ١١٦-١١٨، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٩٦-٢٩٨، والمسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٧٦-٢٩١، وأحكام الصلح بالمال في الفقه الإسلامي ليوسف ١٤٦-١٤٨**].

١٩ ـ يجوز للأمير إذا صالح بعض أعدائه أن يُطلع على هذا كبار رجاله وقادته:

يقول د/ الفنيسان: «وذلك أن الرسول ﷺ في الخندق لم يمض اتفاقه مع غطفان حتى أطلع عليه السعدين، وكبار الصحابة رضي الله عنهم ». [**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٢-٢٢٣**].

٢٠ ـ جواز المبارزة (١):

يقول د/ المدخلي: «وهي ملاقاة الند (بالكسر المثل وبالفتح الطيب) من المشركين أمام الصفوف واحدًا لواحد.

وقد حصل في هذه الغزوة المباركة لقاء هام بين علي رضي الله عنه وبين أعتى أعداء الله عمرو بن عبد ود، حتى إن المؤرخين أثبتوا جميعًا بأنه فارس قريش وأحد شجعانها المبرزين.

والمبارزة جائزة وبالجواز قال الجمهور، وخالف في ذلك الحسن البصري».

[**مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٣٣-٤٣٤**].

ويقول د/ الرشيد: «قَسَّم الفقهاء المبارزة من حيث حكمها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: المستحبة: وهي ما إذا خرج عِلْجٌ يطلب البراز فإنه يُستحب لِمَنْ يعلم من نفسه القوة والشجاعة أن يبارز؛ لأن في ذلك منافحة عن المسلمين وإظهارًا لقوتهم.

الثاني: المباحة: وهي أن يبتدئ الرجل الشجاع بطلبها، فتُباح في هذه الحالة، ولا تُستحب لأنه لا حاجة إليها، ولا يأمن أن يُغلب فيكسر قلوب المسلمين، إلا أنه طالما كان شجاعًا واثقًا من نفسه أمام خصمه أُبيح له أن يبارز؛ لأنه بحكم الظاهر غالبًا.

---

(١) سبق تفصيل أنواع المبارزة وحكمها في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة بدر الكبرى.

الثالث: المكروهة: وهي أن يبرز الضعيف الذي لا يثق من نفسه، فتُكره له المبارزة؛ لِما فيها من كسر قلوب المسلمين بقتله». [ينظر: المغني لابن قدامة ٩/ ٢١٧، الفروع للشيخ أبي عبد الله محمد بن مفلح ٤/ ٢٨٣ ط دار مصر للطباعة ١٣٨٨هـ، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للشيخ أبي الحسن بن سليمان المرداوي، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي ٤/ ١٧٤ ط مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٥ هـ]. [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ١٣٥، وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٢٠٩-٢١١، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٧٤ - ١٧٨].

٢١ ـ لا تجوز المعاوضة على جسد الميت الكافر [(١)]:

يقول د/ المدخلي:

أ ـ الكثيرون من أهل المغازي والسير يذكرون بأن الرسول ﷺ لم يأخذ الدية ـ في الكافر الذي قُتل في الخندق ـ بل دفعه إليهم، وقال بأنه خبيث الجثة، وتؤيدهم الآثار التالية:

قال المتقي الهندي وعزاه لابن أبي شيبة: «عن عكرمة أن نوفلًا ـ أو ابن نوفل ـ تردى به فرسه يوم الخندق فقتل، فبعث أبو سفيان إلى النبي ﷺ بديته مائة من الإبل، فأبى النبي ﷺ وقال: «**خُذُوهُ فإِنَّهُ خَبِيثُ الدِّيَةِ خَبِيثُ الـجُثَّةِ**». [كنز العمال ١٠/ ٤٥٥].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ﷺ أنه قال: قتل المسلمون يوم الخندق رجلًا من المشركين فأعطوه بجيفته مالًا، فقال رسول الله ﷺ: «**ادْفَعُوا إِلَيْهِمْ جِيفَتَهُ فَإِنَّهُ خَبِيثُ الدِّيَةِ خَبِيثُ الجُثَّةِ**»، فلم يقبل منهم شيئًا». والحديث ضعيف لوجود نصر بن باب فيه.

قال ابن كثير: «وقد رواه البيهقي من حديث حماد بن سلمة عن حجاج وهو ابن أرطأة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس أن رجلًا من المشركين قتل يوم الأحزاب فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا بجسده ونعطيك اثني عشر ألفًا، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا خَيْرَ فِي جَسَدِهِ، وَلَا فِي ثَمَنِهِ**».

وقد رواه الترمذي عن ابن عباس: «أن المشركين أرادوا أن يشتروا جسد رجل من المشركين فأبى النبي ﷺ أن يبيعهم». قال الترمذي: «غريب لا نعرفه إلا من حديث الحكم».

[سنن الترمذي ٣/ ١٢٩، وفي الميزان ٣/ ٦١٥ قال: حسنه الترمذي وهو غريب].

ولعل استغراب الترمذي أتى بسبب أبي حمد الزبيري فإنه يخطئ في حديث الثوري والرواية هنا عنه.

أما كلام أهل المغازي في ذلك فهو كما قال البيهقي: «وذكر ابن إسحاق في موضع آخر من هذا الكتاب عقب قتل الزبير لنوفل ـ أن عليًّا طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات في الخندق»، إلى أن قال: وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف، فقال ﷺ: «**هُوَ لَكُمْ لا نَأْكُلُ ثَمَنَ المَوْتَى**» ا.هـ.

---

(١) ينظر: سنن البيهقي ٩/ ١٣٣، والسيرة الحلبية ٢/ ٣٢٠.

وقال الديار بكري: «وفي معالم التنزيل: طلب المشركون جيفة نوفل بالثمن، فقال رسول الله ﷺ: «**خُذُوهُ فإنَّهُ خَبِيثُ الجِيفَةِ خَبِيثُ الدِّيَةِ**».ا.هـ

ب ـ في مقابل القائلين بعدم جواز بيع جيفة الكافر واعتمادهم على الآثار الواردة جاء عند الحاكم ما يخالف ذلك حيث أورد بسنده حديثًا يدل على الجواز وأخذ الدية.

حيث روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قُتل رجل من المشركين يوم الخندق فطلبوا أن يواروه، فأبى رسول الله ﷺ حتى أعطوه الدية».

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

والحديث ضعيف لضعف ابن أبي ليلى، ثم إن الحكم ثبت أنه لم يرو عن مقسم إلا خمسة أحاديث ليس هذا منها قال الذهبي: حسنه الترمذي.

وقال عبد الحق في أحكامه وابن القطان: إسناده ضعيف، ومنقطع لا سماع للحكم من مقسم إلا لخمسة أحاديث ما هذا منها، وضعفاه من جهة ابن أبي ليلى وقول الترمذي أولى.

ثم إن هناك اضطرابًا في الإسناد، فقد جاء عند الترمذي بسند فيه ابن أبي ليلى، وجاء فيه أن الرسول ﷺ رفض ديته، وقال: **إنه خبيث الدية خبيث الجثة.**

وعلى ذلك تبين أن الصحيح هو: عدم جواز بيع جيفة الكافر أو أخذ ديته، قال الحافظ أثناء شرحه لتبويب البخاري حيث قال: (باب طرح جيف المشركين في البئر ولا يؤخذ لهم ثمن) ثم قال: «قَوْلُهُ: (وَلَا يُؤْخَذُ لَـهُمْ ثَمَنٌ) أَشَارَ بِهِ إِلَى حَدِيث اِبْن عَبَّاس «أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَرَادُوا أَنْ يَشْتَرُوا جَسَد رَجُل مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبِيعهُمْ». [**فتح الباري ٦/ ٢٨٢ كتاب الجزية**].

ثم قال: وذكر ابن إسحاق في المغازي: «أن المشركين سألوا النبي ﷺ أن يبيعهم جسد نوفل بن عبد الله بن المغيرة، وكان اقتحم الخندق، فقال النبي ﷺ: «**لَا حَاجَةَ لَنَا بِثَمَنِهِ وَلَا جَسَدِهِ**».

وبهذا وغيره مما تقدم يتضح أن الرسول ﷺ لم يأخذ مقابل جثة نوفل لا دية ولا ثمنًا، بل إنه أعطاهم، وقال: **إنه خبيث الدية خبيث الجثة**، وفي رواية قال: «**لَعَنَهُ اللهُ وَلَعَنَ دِيَتَهُ**».

وقد جاء في كتب الحديث ما يمنع ذلك فقد عنون البخاري بقوله: باب (طرح جيف المشركين في البئر ولا يؤخذ لهم ثمن) وفي ذلك دليل على أنه لا يجوز بيع جيفة المشرك.

قال الحافظ: «قَوْلُهُ: (وَلَا يُؤْخَذُ لَـهُمْ ثَمَنٌ) أَشَارَ بِهِ إِلَى حَدِيث اِبْن عَبَّاس «أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَرَادُوا أَنْ يَشْتَرُوا جَسَد رَجُل مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبِيعهُمْ». [**فتح الباري ٦/ ٢٨٢ كتاب الجزية**].

وقال المباركفوري: «فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ بَيْعُ جِيفَةِ الْمُشْرِكِ، وَإِنَّمَا لَا يَجُوزُ بَيْعُهَا وَأَخْذُ الثَّمَنِ فِيهَا لِأَنَّهَا مَيْتَةٌ لَا يَجُوزُ تَمَلُّكُهَا وَلَا أَخْذُ عِوَضٍ عَنْهَا، وَقَدْ حَرَّمَ الشَّارِعُ ثَمَنَهَا وَثَمَنَ الْأَصْنَامِ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه». [**تحفة الأحوذي ٥/ ٣٧٦**]. [**مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٠٦-٣١٢، ٤٣٤**].

ويقول د/ بربر: «وقد كان المسلمون في حروبهم يتركون الكفار ينقلون جثث قتلاهم ليدفنوها حسب طريقتهم في الدفن، فقد قام المشركون يوم أحد بدفن قتلاهم، وتارة يقوم المسلمون أنفسهم بدفن قتلى عدوهم، كما فعلوا في غزوة بدر، حيث قاموا بسحب جثث قتلى عدوهم ودفنها في القليب.

وقد سبق الإسلام الأنظمة الدولية الحديثة التي تدعو إلى الرأفة في الحروب، وإغاثة الجرحى الموجودين في ميدان القتال، والعمل على إخلاء الجرحى والقتلى، ونقلهم إلى أماكن خاصة، وهذه الصورة من المعاني الإنسانية التي راعاه هذا الدين العظيم، فهو يحترم جثث الإنسان، حتى لو كان عدوًّا، ولكن أعداء الإسلام يعملون على تشويه هذا الدين، وأبناءُ الإسلام غافلون عن إبراز مثل هذه المعاني العظيمة.

لكن يجوز للمسلمين مبادلة جثث قتلى العدو بجثث قتلى المسلمين، إذا كان لدى العدو جثث لشهداء المسلمين، أو مبادلتهم بأسرى من المسلمين إن كان لديهم أسرى، وهذا من باب المعاملة بالمثل».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٠٤-٢٠٦، وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٢٥٦-٢٥٧، والمسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٣١-٢٣٦].

٢٢ ـ مقاييس الإسلام في الحلال والحرام:

يقول أ/ الشامي: «عرضت قريش فداءً مقابل جثة عمرو بن عبد ود، فقال ﷺ: «**ادْفَعُوا إِلَيْهِمْ جِيفَتَهُ، فَإِنَّهُ خَبِيثُ الجِيفَةِ، خَبِيثُ الدِّيَةِ، فلم يقبل منهم شيئًا**». **[البداية والنهاية ٤/ ١٠٧]**.

حدث هذا وأزمة الاقتصاد كما قدمنا، والمسلمون في ضنك من العيش، ومع ذلك فالحلال حلال والحرام حرام، إنها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من الناس المحسوبين على المسلمين الذين يحاولون إيجاد المبررات لأكل الربا وما شابهه؟». **[من معين السيرة للشامي ٣١٨]**.

٢٣ ـ إذا قتل المسلم أخاه في المعركة خطأ فلا إثم على القاتل، والمقتول شهيد:

أُصيب في غزو الأحزاب: كَعْبُ بْنُ زَيْدٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي دِينَارٍ، أَصَابَهُ سَهْمُ غَرْبٍ فَقَتَلَهُ. **[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٣]**، ولم يفرده النبي ﷺ عن الشهداء بحكم، فدل على أنه شهيد.

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٤٤-٤٧].

يقول د/ الفنيسان: «وجه ذلك أنه خرجت أيام الخندق طائفة من الأنصار يستطلعون خبر العدو، فقابلتها طائفة من المهاجرين خرجت للغرض نفسه، لم يعرف بعضهم بعضًا، ولا يشكون أن مقابلهم هو العدو، فتقاتلا وكانت بينهم جراحة وقتل، ثم نادى الأنصار بشعارهم «**حم لا يُنْصَرُونَ**»، فكف بعضهم عن بعض فجاؤوا إلى الرسول ﷺ يخبرونه الخبر، فقال: (**جِرَاحُكُمْ فِي سَبِيلِ الله وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ**)». **[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٣-٢٢٤، وينظر للتفصيل درس: حُكم من قُتل خطأً من المسلمين في المعركة، في المبحث الرابع من الدروس المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة أحد، وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٤٤-٤٧].**

٢٤ ـ يجوز سب المشركين وشتمهم:

خاصة إذا أشغلوا المسلمين عن قُربة من القربات كالصلاة مثلًا، وهذا ما ورد في أحداث الغزوة أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ جَاءَ يَوْمَ الخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ.

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٨].

٢٥ ـ جواز الدعاء على أحياء المشركين وموتاهم بشكل عام:

فقد صح عن النبي ﷺ في أحاديث الغزوة أنه دعا على المشركين بشكل عام فقال: «**مَلَأَ اللهُ [اللَّهُمَّ امْلَأْ] قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا**». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٠].

٢٦ ـ السبب في تأخير النبي ﷺ الصلاة ذلك اليوم:

يقول د/ المدخلي: «قال الحافظ ابن حجر: «وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي سَبَبِ تَأْخِيرِ النَّبِيِّ ﷺ الصَّلَاة ذَلِكَ الْيَوْمَ؟ فَقِيلَ: كَانَ ذَلِكَ نِسْيَانًا، وَاسْتَبْعَدَ أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ مِنَ الجَمِيعِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ لَهُ بِمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي جُمْعَةَ «أَنَّ رَسُول الله ﷺ صَلَّى المَغْرِبَ يَوْمَ الأَحْزَابِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: **هَل عَلِمَ رَجُلٌ مِنْكُمْ أَنِّي صَلَّيْتُ العَصْرَ**؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله! فَصَلَّى العَصْرَ، ثُمَّ صَلَّى المَغْرِبَ».

وَفِي صِحَّةِ هَذَا الحَدِيثِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ لِعُمَر ﷺ: «**وَاللهِ مَا صَلَّيْتُهَا**»، وَيُمْكِنُ الجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِتكَلُّفٍ.

وَقِيلَ: كَانَ عَمْدًا لِكَوْنِهِمْ شَغَلُوهُ فَلَمْ يُمَكِّنُوهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ أَقْرَبُ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ وَقَعَ عِنْدَ أَحْمَدَ وَالنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيث أَبِي سَعِيد ﷺ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ فِي صَلَاةِ الخَوْفِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي هَذَا الحُكْمِ هَل نُسِخَ أَمْ لَا كَمَا سَيَأْتِي فِي كِتَابِ صَلَاةِ الخَوْفِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. [فتح الباري ٢/ ٦٩].

وكونهم تركوها عمدًا هو الأقرب كما ذكر ذلك الحافظ لأنهم شغلوه ﷺ فلم يمكنوه من ذلك؛ لأنه قد بلغ الضيق والجهد والكرب والخوف بهذه الصفوة المباركة شأوًا بعيدًا إلى درجة أنهم في تلك اللحظات الأخيرة من محنة الغزو المرعب جاؤوا إلى النبي ﷺ وأفصحوا له بصراحة عما يعانونه من شدة الخوف والضيق والكرب، فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قُلنَا يَوْمَ الخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ الله، هَل مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ، فَقَدْ بَلَغَتْ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ، قَالَ ﷺ: «**نَعَمْ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا**»، قَالَ: فَضَرَبَ اللهُ ﷻ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَزَمَهُمْ اللهُ ﷻ بِالرِّيحِ.

وهذا الحديث رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره عن أبيه عن أبي عامر وقد حسنه الألباني.

وخلاصة القول: أن فوات الصلاة أو الصلوات عليهم في تلك الأيام كانت قبل نزول الأمر بصلاة الخوف، وقد صرح بذلك الحافظ وغير واحد، وأن نزولها كان في غزوة ذات الرقاع. (غزوة ذات الرقاع ذكرها ابن سعد قبل الخندق، ولكن الراجح ما رجحه البخاري وبعده الحافظ وصاحب أضواء البيان. قلت: سبق الحديث عن غزوة ذات الرقاع في مجموعة (غزوة أحد)، وعرضت أقوال العلماء في ذلك، وملت إلى الرأي القائل بأنها كانت قبل غزوة الخندق. فلينظر هناك).

وقد نقل الحافظ الاختلاف فيها وأثبت أنها بعد الخندق كما ذكر ذلك ابن عبد البر، ورجح ذلك الشنقيطي حيث قال: «واعلم أن التحقيق أن غزوة ذات الرقاع بعد خيبر وإن جزم جماعة كبيرة من المؤرخين بأن غزوة ذات الرقاع قبل خيبر».

قال: «والدليل على ذلك الحديث الصحيح أن قدوم أبي موسى الأشعري ﷺ على النبي ﷺ حين خيبر مع الحديث الصحيح أن أبا موسى ﷺ شهد غزوة ذات الرقاع».

وقد قال البخاري ﷺ: «باب غزوة ذات الرقاع وهي غزوة محارب خصفة من بني ثعلبة من غطفان فنزل نخلًا وهي بعد خيبر لأن أبا موسى الأشعري ﷺ جاء بعد خيبر».

ثم قال ﷺ: بل التحقيق أن صلاة الخوف ما شرعت إلا بعد الخندق». [أضواء البيان ١/ ٣١٠- ٣١٢].

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٤٣-٣٤٥].

٢٧ ـ الخلاف في الصلاة التي فاتت النبي ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «نلاحظ أن الأخبار المتقدمة جاء في أحدها أنه فاتته ﷺ صلاة العصر، وفي خبر آخر فاتته ﷺ صلاة الظهر والعصر، وفي خبر ثالث فاتته ﷺ صلاة الظهر والعصر والمغرب، وهذه الأخبار يمكن الجمع بينها بأن القتال كان يومًا يشغل المسلمين عن صلاة العصر، ويومًا آخر يشغل عن ثلاث صلوات، ويومًا ثالثًا يشغل عن أربع صلوات، فيستمر القتال طوال اليوم وجزءًا من الليل».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٩-١٧٠].

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: كُنَّا فِي غَزْوَةٍ، فَحَبَسَنَا الْمُشْرِكُونَ عَنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ وَالعَصْرِ وَالمَغْرِبِ وَالعِشَاءِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُنَادِيًا فَأَقَامَ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ فَصَلَّيْنَا، وَأَقَامَ لِصَلَاةِ العَصْرِ فَصَلَّيْنَا، وَأَقَامَ لِصَلَاةِ المَغْرِبِ فَصَلَّيْنَا، وَأَقَامَ لِصَلَاةِ العِشَاءِ فَصَلَّيْنَا، ثُمَّ طَافَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «**مَا عَلَى الأَرْضِ عِصَابَةٌ يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ غَيْرُكُمْ**». **[النسائي في الأذان (٦٦٣)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف]**.

يقول د/ المدخلي: «وفي هذا دليل على أن الذي فاتهم من الصلوات أربع وهذا لا ينطبق على العشاء لأن وقتها ممتد قال الحافظ: لأن العشاء لم تكن فاتت.

قال: قال اليعمري: من الناس من رجح ما في الصحيحين وصرح بذلك ابن العربي فقال: إن الصحيح أن الصلاة التي شغل عنها رسول الله ﷺ واحدة هي العصر.

قلت: ويؤيده حديث علي في مسلم شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر.

قال: ومنهم من جمع بأن الخندق كانت وقعته أيامًا، فكان ذلك في أوقات مختلفة في تلك الأيام.

قال: وهذا أولى، قلت: ويقربه روايتي أبي سعيد وابن مسعود وليس فيهما تعرض لقصة عمر ﷺ، بل فيهما أن قضاءه وقع بعد خروج وقت المغرب.

وهذا أولى بمعنى أنه إذا لم نرجح ما في الصحيحين فالمصير إلى الجمع أفضل خروجًا من المعارضة».

[فتح الباري ٢/ ٧٠]، [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٤٢].

٢٨ ـ الصلاة الوسطى هي صلاة العصر [(١)]:

يقول د/ المدخلي: «وقد نقل ابن العربي [في أحكام القرآن ١/ ٢٢٥] خلافًا في الصلاة الوسطى وأي صلاة كانت على الآتي:

(١) إنها الظهر، قاله زيد بن ثابت ﷺ.

(٢) إنها العصر، قاله علي ﷺ في إحدى روايتيه.

(٣) إنها المغرب، قاله البراء ﷺ.

(٤) إنها العشاء الآخرة.

(٥) إنها الصبح، قاله ابن عباس وابن عمر وأبو أمامة ﷺ والرواية الصحيحة عن علي ﷺ.

(٦) إنها الجمعة.

(٧) إنها غير معينة.

قال: «وكل قول من هذه الأقوال مستند إلى ما لا يستقل بالدليل.

فأما من قال إنها الظهر فلأنها أول صلاة فُرضت.

وأما من قال إنها العصر فتعلق بحديث علي ﷺ: «**شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الوُسْطَى صَلَاةِ العَصْرِ مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ أَوْ أَجْوَافَهُمْ نَارًا**».

وأما من قال إنها المغرب فلأنها وِتْرٌ بين أشفاع.

وأما من قال إنها الصبح فلأنها في وقت متوسط بين الليل والنهار قاله ابن عباس ومالك، وقال غيرهما هي مشهودة، والعصر وإن كانت مثلها فتزيد الصبح عليها بوجهين:

أحدهما: أنها أثقل الصلوات على المنافقين.

والثاني: أن في الموطأ عن عائشة ﷺ (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين).

---

(١) ينظر: فتح الباري ٧/ ٤٠٥.

قال: «وهذا يدل على أن الصلاة الوسطى غير صلاة العصر، ويعارض حديث علي ﷺ ويبين أن المراد أنها كانت وسطى بين ما فات وبقي».

وأما من قال إنها الجمعة فلأنها تختص بشروط زائدة وهذا يدل على شرفها وفضلها.

وأما من قال إنها غير معينة فلتعارض الأدلة وعدم الترجيح، وهذا هو الصحيح.

قال: وهذا هو الصحيح، فإن الله خبأها في الصلوات كما خبأ ليلة القدر في رمضان، وخبأ الساعة التي في يوم الجمعة، وخبأ الكبائر في السيئات ليحافظ الخلق على الصلوات، ويقوموا جميع شهر رمضان، ويلزموا الذكر في يوم الجمعة كله، ويجتنبوا جميع الكبائر والسيئات. [أحكام القرآن ١/ ٢٢٥-٢٢٦].

أقول: رحم الله ابن العربي كيف يرجح أن الصلاة الوسطى مبهمة مع صريح الأدلة التي جاءت في الصحيحين وغيرهما وقد صرحت أنها صلاة العصر؛ ولذلك ذكر الحافظ ابن كثير كل الأقوال في ذلك وتبين من خلال ما نقله أنها صلاة العصر. [ينظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٩٠- ٢٩١].

وقد جاء التصريح بأن الصلاة الوسطى هي العصر في هذه الغزوة، وقد أخرج الحديث المصرح بتعيين الصلاة الوسطى كل من: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، وعبد بن حميد، وأحمد، ورواه الطبراني عن ابن عباس. [مرويات غزوة الخندق ٣٢٦- ٣٢٩].

ويقول الإمام ابن كثير: «وقد استدل طائفة من العلماء بهذه الأحاديث على كون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، كما هو منصوص عليه، وألزم القاضي الماورديُّ مذهب الشافعي بهذا؛ لصحة الحديث، وقد حررنا ذلك نقلًا واستدلالًا عند قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة]. [البداية والنهاية ٦/ ٥٣].

٢٩ ـ تأخير الصلوات عن أوقاتها لعذر القتال:

يقول أ/ باشميل: «وقد استدل كثير من أئمة الإسلام ـ ومنهم الإمام الأوزاعي ومكحول ـ بهذا الصنيع الذي صنع رسول الله ﷺ على جواز تأخير الصلوات عن أوقاتها لعذر القتال، إلا أن آخرين ـ ومنهم الإمام الشافعي ـ قالوا: إن في ذلك نسخ بما أنزل الله تعالى في صلاة الخوف، والذي به أباح للمحارب أن يصلي ـ أثناء القتال ـ كيفما اتفق له بشرط أن لا يؤثر ذلك في سير القتال لصالح العدو.

وقد أبى كثير من العلماء المحققين التسليم بالنسخ لأن صلاة الخوف قد شرعت قبل معركة الخندق، حيث صلاها المسلمون في غزوة (ذات الرقاع) وفي عسفان، وهما غزوتان قام بهما المسلمون بقيادة النبي ﷺ قبل غزوة الخندق.

وقد تردد الإمام ابن كثير ـ وهو من كبار فقهاء الشافعية ـ في قبول القول بالنسخ قائلًا: وهو (أي القول بالنسخ) مشكل، ثم قال: قال ابن إسحاق.. وجماعة ذهبوا، إلى أن النبي ﷺ صلى صلاة الخوف بعسفان، قد ذكرها ابن إسحاق (وهو إمام المغازي) قبل الخندق وكذلك ذات الرقاع، ذكرها قبل الخندق، فالله أعلم». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢١٠].

وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الصنيع على جواز تأخير الصلاة لعذر القتال، كما هو مذهب مكحول والأوزاعي...». [البداية والنهاية ٦/ ٥٣].

وقد استفاض د/ محمد خير هيكل في مناقشة هذه المسألة بقوله: «تبحث كتب الفقه كيف تؤدى الصلوات الواجبة في حالة الخوف من العدو فيما يسمى بصلاة الخوف، أو صلاة شدة الخوف.

وليس الغرض هنا تناول هذه المسألة بالبحث، وإنما الغرض هو أن القيادات في الجيش الإسلامي قد تحتاج إلى أن تأمر أفراد هذا الجيش في حالة الحرب، بتأخير الصلوات الواجبة عن مواعيدها المقررة شرعًا، إلى ما بعد الانتهاء من الحرب.. فهل مثل هذا الإجراء أمر سائغ في الشرع؟ وهل يجوز للأفراد من هذا الجيش أن يؤخروا الصلوات عن أوقاتها المحددة بحجة الاشتغال بأمر الحرب، ولو لم تصدر إليهم أوامر بهذا الخصوص؟ أم لابد من أداء تلك الصلوات في الأوقات المرهونة بها، على حسب الإمكان، ولو بالإيماء والإشارة، سواء كان هذا المصلي يطير في الجو، أم يغوص في البحر، أم كان على الأرض يمشي على قدميه، أو يقبع داخل آلته الحربية يقودها، ويقاتل بها.. أو ما شاكل ذلك؟ هذا هو موضوع المطلب الذي بين يدينا، الذي سنوجز معالجته في نقطتين اثنتين هما:

١ـ النقطة الأولى: الآراء الفقهية في هذه المسألة، مع الأدلة.

٢ـ النقطة الثانية: الرأي الذي نرجحه في هذه المسألة.

النقطة الأولى: الآراء الفقهية في هذه المسألة، مع الأدلة:

(١) **رأي الأحناف، وبعض الفقهاء**: ذكر الأحناف بأن أداء الصلاة الواجبة في حالة الاشتغال بأعمال الحرب من مشي، أو ضرب، وما إلى ذلك، مما يسمى بصلاة شدة الخوف ـ تعتبر صلاة باطلة، وعلى هذا، فيجب على المقاتلين إذا اضطروا لشغل الوقت بالأعمال الحربية، أن يؤخروا الصلاة الواجبة في ذلك الوقت إلى ما بعد الانتهاء من الحرب.. هذا ما صرح به الأحناف في كتبهم، وما نقلته عنهم كتب المذاهب الأخرى. [ينظر: بدائع الصنائع ١/ ٢٤٤- ٢٤٥، وفتح القدير ٢/ ١٠٠- ١٠٢، وحاشية ابن عابدين ١/ ٨٨٧، والمجموع للنووي ٤/ ٤٣٣، والمغني لابن قدامة ٢/ ٢٧٠].

ـ ففي كتب الأحناف جاء في البداية والهداية، ما نصه: «ولا يقاتلون في حال الصلاة، فإن فعلوا بطلت صلاتهم، لأنه ﷺ شُغل عن أربع صلوات يوم الخندق [(١)]، ولو جاز مع القتال ـ لما تركها».

[فتح القدير: ٢/ ١٠٠- ١٠٢].

ـ وفي السير الكبير وشرحه، أيضًا، جاء ما يلي: «وصلاة الخوف إنما تكون إذا كانوا مواقفين للعدو، وأما في حال المسايفة (مفاعلة من الطرفين: أي: الضرب بالسيوف)، والمطاعنة (مفاعلة من الطرفين: أي: الطعن بالرماح)، والرمي، فلا تستقيم الصلاة؛ لأن هذا عمل، ولا تستقيم الصلاة مع الاشتغال بعمل ليس منها، ولكنهم يؤخرون الصلاة إلى أن يفرغوا من ذلك؛ لأن ما يفوتهم من الصلاة يمكنهم تداركه بعد هذا، وما يفوتهم بالاشتغال بالصلاة، والكف عن القتال في هذه الحالة لا يمكنهم تداركه.

والأصل فيه حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: حبسنا يوم الخندق عن الصلاة إلى هوي (أي: ساعة) من الليل...

ثم قال: وفيه دليل على جواز تأخير الصلاة لشغل القتال».

[شرح السير الكبير ١/ ٢٢٧- ٢٢٨، وينظر: فتح الباري / ٤٣٦].

ـ جاء في (المغني) من كتب الحنابلة، ما نصه: (وقال أبو حنيفة، وابن أبي ليلى: لا يصلي مع المسايفة، ولا مع المشي؛ لأن النبي ﷺ لم يصل يوم الخندق، وأخَّر الصلاة». [المغني لابن قدامة ٢/ ٢٧٠].

وجاء في المجموع للنووي، من كتب الشافعية، ما نصه: «في مذاهب العلماء في صلاة شدة الخوف: هي جائزة بالإجماع، إلا ما حكاه الشيخ أبو حامد، عن بعض الناس أنها لا تجوز، بل يجب تأخير الصلاة حتى يزول الخوف، كما فعل النبي ﷺ يوم الخندق». [المجموع للنووي ٤/ ٤٣٣].

وبعد، فهذا هو رأي الأحناف، وبعض الفقهاء في مسألة تأخير الصلوات عن أوقاتها إذا اضطر المقاتلون إلى ذلك بسبب اشتغال الوقت بأعمال الحرب.. ودليلهم هو تأخير النبي ﷺ للصلوات المفروضة، أيام الخندق، إلى حصول التمكن من أدائها.

---

(١) الحديث في سنن الدارمي ١/ ٤٣٠ رقم (١٥٢٤) «عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوى من الليل، حتى كفينا. وذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب] فدعا النبي ﷺ بلالًا، فأمره فأقام فصلى الظهر، فأحسن كما كان يصليها في وقتها، ثم أمره فأقام العصر، فصلاها، ثم أمره فأقام المغرب فصلاها ثم أمره فأقام العشاء، فصلاها وذلك قبل أن ينزل: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وبنحوه أخرجه النسائي عن (أبي سعيد) أيضًا ٢/ ١٧، وصححه الألباني، فتح الباري ٢/ ٦٨، وكذا في صحيح مسلم رقم (٦٣١)، وفي موطأ مالك، أن الظهر والعصر هما اللتان جرى تأخيرهما إلى ما بعد المغرب (تنوير الحوالك ١/ ١٤٩). ويقول النووي في هذا الصدد: «طريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أيامًا، فكان هذا في بعض الأيام، وهذا في بعضها». شرح مسلم للنووي ٣/ ٣٢٩.

(٢) **رأي الجمهور**: يرى الجمهور ـ من الفقهاء المالكية والشافعية والحنابلة ـ أنه لا يجوز تأخير الصلوات عن مواعيدها المقررة بسبب الاشتغال بالحرب، بل يجب أن تؤدى في أوقاتها حسب الإمكان، ولو في حالة المشي، والركض، والركوب، وضرب العدو.. يومئ المصلي في الركوع والسجود إيماء، ولا يشترط استقبال القبلة، إذا لم يتيسر له ذلك. وأجاز (المالكية) فيها الكلام أيضًا، بما يحتاج إليه في الحرب، من أمر، ونهي، وتحذير...

ـ وفي هذا الصدد، جاء عند المالكية، ما يلي: «حين المسايفة، أو مناشبة الحرب فتؤخر الصلاة حتى يخاف فوات وقتها، ثم يصلي كيف أمكن مشيًا، وركوبًا، وركضًا، إيماء بالركوع والسجود، إلى القبلة وغيرها، ولا يمنع ما يحتاج إليه من قول وفعل؟».

[القوانين الفقهية ص ٩٨، وينظر: الشرح الكبير للدردير ١/ ٣٩٤، ومنح الجليل ١/ ٤٥٦].

ـ وبنحو ذلك، قال الشافعية، فيما عدا جواز الكلام؛ لأنه لا حاجة إليه، ونصوا على تحريم تأخير الصلاة عن وقتها.

جاء في (المجموع) للنووي بصدد ذلك ما يلي: «يجب أن يصلي صلاة شدة الخوف، سواء التحم القتال أم لا، ولا يجوز تأخيرها عن الوقت، هذا مذهبنا، ومذهب الجمهور». [المجموع للنووي ٤/ ٤٣٣].

ـ وجاء عند الحنابلة بنحو ما جاء عند الشافعية في هذا المسألة [ينظر: المغني لابن قدامة ٢/ ٢٧٠]، إلا أن هناك رواية أخرى عندهم تقول بجواز تأخير الصلاة حال التحام القتال.

[ينظر: الشرح الكبير للمقدسي ٢/ ١٣٩، وزاد المعاد ٣/ ٢٥٣].

ـ وقال ابن حزم في صلاة الخوف: «أما تأخيرها عن وقتها فلا يحل البتة؛ لأنه لم يسمح الله تعالى في تأخيرها، ولا رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة/ ٢٣٩].

[المحلى لابن حزم ٥/ ٣٥].

هذا ما يقال في مذهب الجمهور في هذه المسألة.

والآن، لا بد من معرفة ما يلي:

الأمر الأول: دليل الجمهور على صحة الصلاة مع المشي، والركوب، والقتال والاكتفاء بالإشارة والإيماء، والاتجاه إلى أي جهة حسب الإمكان.

الأمر الثاني: جواب الجمهور على دليل الأحناف في تأخير الصلاة عن أوقاتها بسبب الانشغال بالحرب.

ـ أما بالنسبة للأمر الأول: فقد وردت نصوص شرعية في الترخص بترك بعض أركان الصلاة حال القتال، وقيس عليها غيرها مما يضطر إلى تركه من الأركان.

يقول الله تعالى بصدد الصلاة في حالة الخوف الشديد: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾ [البقرة].

جاء في تفسير الطبري: «فإن خفتم من عدو لكم، أيها الناس! تخشونهم على أنفسكم، في حال التقائكم معهم، أن تُصَلُّوا قيامًا على أرجلكم بالأرض، قانتين لله(1)، فصلوا رجالًا (2) مشاة على أرجلكم، وأنتم في حربكم، وقتالكم، وجهاد عدوكم، أو ركبانًا على ظهور دوابكم، فإن ذلك يجزيكم حينئذ من القيام منكم قانتين». [تفسير الطبري ٢/ ٣٥٥].

هذا ما قاله الطبري.. وبنحو ذلك جاء في (روح المعاني) للآلوسي.. وهو ـ أعني: الآلوسي ـ وإن كان من الأحناف إلا أنه جنح في تفسيره لهذه الآية إلى تأييد رأي الشافعية والجمهور، في هذه المسألة. قال ما نصه: «واستدل الشافعي رضي الله عنه بظاهر الآية على وجوب الصلاة حال المسايفة، إن لم يمكن الوقوف، وذهب إمامنا [أي: أبو حنيفة] إلى أن المشي، وكذا القتال يُبطلها، وإذا أدى الأمر إلى ذلك أَخَّرها، ثم صلاها آمنًا» ثم يقول: «وأنت تعلم ـ إذا أنصفت ـ أنَّ ظاهر الآية صريحة مع الشافعية».

[روح المعاني للآلوسي ٢/ ١٥٧-١٥٨، سنن ابن ماجه ١/ ٣٩٩ رقم ١٢٥٨].

أي: مع القول بصحة الصلاة حال القتال مع ما يُحتاج إليه من ترك بعض الأركان، والقيام ببعض الأعمال تبعًا للضرورة الحربية.

ـ هذا ومما يدل على أن الآية التي نحن بصددها هي بخصوص الصلاة في شدة الخوف، ما جاء في سنن ابن ماجه: «عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ، في صلاة الخوف... الحديث إلى أن قال النبي ﷺ: فإن كان خوف أشد من ذلك ـ فرجالًا، أو ركبانًا».

[سنن ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٥٨) وقال الشيخ الألباني: صحيح].

أي: فليصلوا صلاة شدة الخوف، راجلين، أو راكبين.

ـ وفي رواية، عند البخاري لهذا الحديث عن (ابن عمر) أيضًا، عن النبي ﷺ قال: «**وإن كان أكثر من ذلك، فليصلوا قيامًا، وركبانًا**». [**صحيح البخاري رقم (٩٤٣) فتح الباري ٢/ ٤٣١**].

وفي رواية عند البخاري أيضًا عن ابن عمر، كذلك: «فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ هُوَ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ، صَلَّوْا رِجَالًا، قِيَامًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ، أَوْ رُكْبَانًا، مُسْتَقْبِلِي القِبْلَةِ، أَوْ غَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا».

---

(١) إشارة للآية السابقة على هذه الآية، وهي: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ يقول القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢١٤): «قيل: إن أصل القنوت في اللغة: الدوام على الشيء، ومن حيث كان أصل القنوت في اللغة الدوام على الشيء جاز أن يُسمى مديم الطاعة قانتًا، وكذلك من أطال القيام والقراءة والدعاء في الصلاة، أو أطال الخشوع والسكوت كل هؤلاء فاعلون للقنوت».

(٢) الرجال: جمع راجل، أو رجل... إذا عدم المركوب، ومشى على قدميه... والرجل الذي هو اسم الجنس يجمع أيضًا على رجال. تفسير القرطبي ٣/ ٢٢٣.

قَالَ مَالِكٌ: قَالَ نَافِعٌ: لاَ أُرَى عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ».

[صحيح البخاري رقم (٤٥٣٥) فتح الباري ٨/ ١٩٩].

ـ وفي صحيح ابن خزيمة، جاء هذا الحديث بالجزم في رفعه إلى النبي ﷺ هكذا «قال نافع: إن ابن عمر روى ذلك عن رسول الله ﷺ». [صحيح ابن خزيمة ٢/ ٣٠٦ رقم (١٣٦٦)].

جاء في فتح الباري: «وَالمَعْنَى: أَنَّ اَلخَوْفَ إِذَا اِشْتَدَّ، وَالعَدُوُّ إِذَا كَثُرَ فَخِيفَ مِنَ اَلاِنْقِسَامِ [أي: إلى طائفتين، طائفة تحرس، وطائفة تصلي أو تتابع الإمام] جَازَتْ اَلصَّلَاةُ حِينَئِذٍ بِحَسَبِ اَلإِمْكَانِ، وَجَازَ تَرْكُ مُرَاعَاةِ مَا لَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ مِنَ اَلأَرْكَانِ، فَيَنْتَقِلُ عَنِ اَلقِيَامِ إِلَى اَلرُّكُوعِ، وَعَنِ اَلرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ إِلَى اَلإِيمَاءِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَبِهَذَا قَالَ اَلجُمْهُور». [فتح الباري ٢/ ٤٣٣].

ـ ومن الأحاديث التي تثبت وقوع الصلاة بالإيماء في شدة الخوف ـ ما جاء في سنن أبي داود في قصة الصحابي (عبد الله بن أُنيس ﷺ) الذي كلفه النبي ﷺ بقتل (خالد بن سفيان الهذلي)، المقيم في جهة «عرفات»؛ لأنه كان يجمع الجموع لحرب المسلمين.. ومما جاء في الحديث، قول عبد الله بن أُنيس ﷺ: «...فرأيته [أي: رأيت الهذلي المأمور بقتله] وحضرتْ صلاة العصر... فانطلقت أمشي، وأنا أصلي، أومئ إيماء، نحوه.. ـ إلى أن قال: ـ حتى إذا أمكنني علوتُه بسيفي، حتى برد».

[سنن أبي داود رقم (١٢٤٩)، وهو حديث حسن، وإسناده جيد، كما جاء في (فتح الباري ٢/ ٤٣٧) وتفسير ابن كثير ١/ ٢٩٥. أقول: وهذا الحديث، وإن كان فيه عنعنة (ابن إسحاق): «محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر» إلا أنه في رواية (البيهقي)، قد صرح فيه بالتحديث: «عن محمد بن إسحاق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير»، وبذلك زالت شبهة التدليس. ينظر: سنن البيهقي ٣/ ٢٥٦، جامع الأصول الهامش ٥/ ٧٥٠].

أي: تم القضاء عليه.

يقول الشوكاني: معلقًا على حديث (عبد الله بن أنيس ﷺ): «ومثل هذا، من هذا الصحابي المبعوث في هذا الأمر المهم ـ لا يخفى على رسول الله ﷺ.

وفيه دليل على أنه يفعل ما أمكنه، ولو بمجرد الإيماء، وإلى غير القبلة». [1]

---

(١) السيل الجرار للشوكاني ١/ ٣١٤، وقارن بقوله ـ أي: الشوكاني نفسه ـ في نيل الأوطار ٣/ ٣٦٧، ولا يتم الاستدلال على ذلك [أي: جواز الصلاة عند شدة الخوف، بالإيماء] بحديث عبد الله بن أنيس إلا على فرض أن النبي ﷺ قرره على ذلك. وإلا فهو فعل صحابي لا حجة فيه «أقول: وهذا الفرض هو الظاهر، وذلك أن الصحابي لا يفعل ذلك في عهد النبي ﷺ إلا إذا كان مثل هذا الأمر مشروعًا، من قبل. أو يفعله باجتهاده، ثم يسأل عنه النبي ﷺ، وما دام الصحابي أخبر بالقصة، بعد عهد النبي ﷺ على الوجه الذي رواها به، فإن غلبة الظن أن صلاته تلك على نحو ما أداها كانت صلاة مشروعة. هكذا. [عبد الله بن أنيس: روى عن النبي ﷺ، وروى عنه أولاده.. ومات في الشام سنة ٥٤ هـ». الإصابة: ٢/ ٢٧٠، رقم ٤٥٥٠].

ـ ومن الوقائع التي تثبت صلاة المسلمين على عهد الصحابة، في الخوف، وهم في حالة الركوب على الدواب ـ ما جاء في «مصنف ابن أبي شيبة» قال: «كان ثابت بن السمط [(١)] أو السمط بن ثابت في مسير في خوف، فحضرت الصلاة، فصلوا ركبانًا. فنزل الأشتر [(٢)]، فقال: [أي: الأمير، ثابت...] ما له؟ قالوا: نزل فصلى، قال: ما له خالف؟ خولف به!». [مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٤٦١].

هذا، وقد عللت كتب الفقه لرأي الجمهور في الصلاة في شدة الخوف، كيفما تيسر، والترخص في ترك ما يترك من الأركان، والقيام بما يقام به من الأعمال التي تلزم للقتال ـ عللت كتب الفقه لهذا الرأي بشدة الحاجة، والضرورة، والقياس على ما جاءت النصوص الشرعية في الترخص به من ذلك».

[ينظر: الشرح الكبير للدردير ١/ ٣٩٤، ومنح الجليل ١/ ٤٥٦، والمجموع للنووي ٤/ ٤٢٦، والمغني لابن قدامة ٢/ ٢٧٠ -٢٧١، والشرح الكبير للمقدسي ٢/ ١٣٨].

هذا ما يتصل بأدلة الجمهور في الصلاة في شدة الخوف كيفما تيسر.

وأما بالنسبة للأمر الثاني: بم أجاب الجمهور على قول الأحناف بأن ترك النبي ﷺ لبعض الصلوات في غزوة الخندق، وقضاءها فيما بعد ـ يدل على جواز تأخير الصلوات عن أوقاتها بسبب الانشغال بالحرب؟

ـ أجاب الجمهور عن ذلك، بقولهم ـ كما في المجموع: «أما قصة الخندق فمنسوخة، فإنها كانت قبل نزول آية الخوف، كما سبق، ويجب أن يصلي صلاة شدة الخوف، سواء التحم القتال أم لا، ولا يجوز تأخيرها عن الوقت. هذا مذهبنا ومذهب الجمهور». [المجموع للنووي ٤/ ٤٣٣].

ـ وبمثل هذا جاء في المغني لابن قدامة، قال: «وأما تأخير الصلاة يوم الخندق، فروى «أبو سعيد» أنه كان قبل نزول صلاة الخوف». [المغني لابن قدامة ٢/ ٢٧١].

هذا، ويعتمد الأحناف فيما ذهبوا إليه من تأخير الصلاة بسبب الحرب على أن النبي ﷺ كان قد صلى الخوف في «غزوة ذات الرقاع»، وهذه كانت قبل «غزوة الخندق»، وبما أن الرسول ﷺ ترك صلاة الخوف في الخندق وأخر الصلاة ـ فإن هذا يدل على أنه إنما ترك صلاة الخوف لأنه لم يكن يستطيع أداءها من غير أن يشتغل بأعمال القتال، مما يدل بالتالي: على عدم صحة الصلاة مع الاشتغال بالحرب، وعليه: فيجب تأخيرها لذلك.

يقول الجصاص ـ من أئمة الأحناف ـ في هذا: «فإن قيل: ما أنكرتَ من أن يكون النبي ﷺ إنما لم يصل يوم الخندق؛ لأنه لم يكن نزلت صلاة الخوف؟ قيل له: قد ذكر «محمد بن إسحاق» و«الواقدي» جميعًا أن

---

(١) «ثابت بن السمط: قال ابن حبان: هو أخو شرحبيل، صدوق، من الثالثة»، أي: من الطبقة الوسطى من التابعين. [تقريب التهذيب: رقم (٨١٦) ص ١٣٢].

(٢) الأشتر النخعي: (٣٧ هـ) مالك بن الحارث من أنصار علي بن أبي طالب ﷺ. [ينظر: الأعلام للزركلي ٦/ ١٣١].

«غزوة ذات الرقاع» كانت قبل الخندق [(١)]، وقد صلى النبي ﷺ فيها [في ذات الرقاع] صلاة الخوف، فدل ذلك على أن ترك النبي ﷺ صلاة الخوف [أي في الخندق] إنما كان للقتال؛ لأنه يمنع صحتها، وينافيها.

[أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٦٣-١٦٤].

والخلاصة: أن الجمهور يوجب أداء الصلوات في أوقاتها في حالة الحرب، على حسب الإمكان، بينما يرى الأحناف وجوب تأخيرها إلى ما بعد الانتهاء من القتال، إذا حالت الحرب دون أدائها على الوجه المشروع.

ونأتي إلى النقطة الثانية: الرأي الذي نرجحه في هذه المسألة: هل يجوز تأخير الصلاة عن وقتها بسبب الانشغال بالحرب، أم لا يجوز؟

ما نرجحه في هذه المسألة يتوقف على أمور ليست من غرضنا هنا، إلا أنه لابد من الإشارة إلى ما تشتد حاجتنا إليه منها، كما لابد من الترجيح في بعض الأمور المختلف فيها؛ من أجل التوصل في النهاية إلى ما نرجحه في المسألة التي نحن بصددها.. وعلى هذا، نقول:

(١) بصدد الخوف من العدو، هناك نوعان من الصلاة، تؤدى الفريضة على نحوهما:

ـ صلاة تسمى «صلاة الخوف» وهي تؤدي جماعة على أشكال متعددة معينة، جاء تفصيلها في كتب الفقه والحديث، وليس فيها ضرب ولا قتال.. ومنها الصلاة الواردة في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢].

وهذا النوع من صلاة الخوف قد أقره الجمهور بمن فيهم الأحناف في الجملة، إلا الحسن بن زياد، وأبا يوسف في قوله الآخر عنه (ينظر: بدائع الصنائع ١/ ٢٤٢ هذا، وحجة أبي يوسف: أن صلاة الخوف خاصة بالصلاة جماعة، مع رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وعلى هذا، فلا تُصلى إذا لم يكن موجودًا)، وإلا المزني من الشافعية. (ينظر: المجموع للنووي ٤/ ٤٠٥، هذا، وحجة المزني أن النبي ﷺ لم يصل في الخندق صلاة الخوف، بل أخر الصلاة، ثم قضاها، على اعتبار أن صلاة الخوف كانت مشروعة قبل ذلك ـ وهذا يدل على نسخ صلاة الخوف، في نظره!).

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (الروض الأنف: ٣/ ٢٤٦) أقول: قد اختُلف في زمن وقوع «غزوة ذات الرقاع» هل هي قبل الخندق أو بعد ذلك؟ وسبق الترجيح في هذه المسألة. [ينظر: فتح الباري ٧/ ٤١٦- ٤١٧]، وينظر [«فقه السيرة» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص٢٣٥-٢٣٦] هذا ـ ويعتمد القول بتأخير «غزوة ذات الرقاع» على «غزوة الخندق» بأن (أبا موسى الأشعري ﷺ) ذكر أنه قد حضر «غزوة ذات الرقاع» وهو لم يقدم على النبي ﷺ إلا في «خيبر» سنة ٧ هـ، بينما كانت الخندق سنة ٤هـ.

وأجيب: بأن الغزوة التي حضرها هي غزوة أخرى سميت بهذا الاسم أيضًا. أقول: ما دام قد ثبت بسند صحيح، وعند الجميع أن «جابر بن عبد الله» قد حضر «غزوة ذات الرقاع» وأن من أخبار «ذات الرقاع» التي حضرها «جابر» ما يدل ـ كما سبق ـ على أنها قد وقعت قبل «غزوة الخندق» فإنه لابد من أن يصار إلى القول بأن هناك «ذات رقاع أخرى» هي التي حضرها «أبو موسى».. ولا شيء يمنع من ذلك. وبهذا يكون العمل بكل الروايات ما دامت كلها صحيحة. وكما هو مقرر في الأصول: إعمال الدليلين خير من إعمال أحدهما وإهمال الآخر. وينظر: فتح الباري ٧/ ٤١٨، ٤١٩.

ـ وهناك نوع آخر من الصلاة في الحرب يسمى «صلاة شدة الخوف» وهذه الصلاة يسقط فيها من الأركان، ويقع فيها من المشي والضرب والطعان ما يستلزمه قتال العدو، أو الخوف منه.

وعلى هذه الصلاة فسَّر الجمهور قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩]. كما ورد ذكر هذه الصلاة في بعض الأحاديث كما تقدم.

وهذه الصلاة في شدة الخوف هي التي أنكرها الأحناف، على نحو ما سبق بيانه. (قال الأحناف: قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ ليس فيه تصريح بجواز المشي، والقتال؛ لأن الرجال تطلق على المترجلين الواقفين على أرجلهم، وليس بالضرورة أن يكونوا في حالة مشي، وضرب وطعن. ينظر: أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٦٤).

ـ هذا، والراجح: أن صلاة الخوف هي صلاة مشروعة بعد الرسول ﷺ كما كانت في عهده، بدليل استمرار الصحابة على العمل بها في عصرهم بدون نكير. [ينظر: المجموع للنووي ٤/ ٤٠٦].

ـ كما أن الراجح أن صلاة شدة الخوف هي أيضًا مشروعة عملًا بظاهر الآية: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، فإن الخوف في هذه الآية مطلق، ولم تقيد بكونه بلا قتال، ولا مشي، وعلى هذا، فهو يصدق على الخوف الذي يقع فيه المشي والقتال، كما يصدق على الخوف الذي لا يقع فيه شيء من ذلك، على حسب حالة الخوف، وعلى حسب ما يضطر معه المصلي إلى أعمال يقوم بها، أو أركان يسقطها.. ثم إن حديث عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه: «الذي بعثه النبي ﷺ في مهمة اغتيال «الهذلي» الذي كان في ناحية عرفات ـ يثبت صحة الصلاة المفروضة في شدة الخوف مع المشي، والإيماء.. كما جاء في القصة.

(٢) الذي يبدو أن صلاة الخوف كانت مشروعة قبل غزوة الخندق.. وذلك تبعًا لرأي ابن إسحاق وغيره، في أن «غزوة ذات الرقاع» التي صلى فيها النبي ﷺ صلاة الخوف إنما كانت قبل «غزوة الخندق». وقد ساق «ابن إسحاق» أحداث السيرة، في هذا الصدد، على نحو يؤيد ما ذهب إليه، وهذه مقتطفات مما جاء في سيرته: غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ أَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ بِالمدِينَةِ بَعْدَ غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ شَهْرَ رَبِيعٍ الآخَرِ، وَبَعْضَ جُمَادَى، ثُمَّ غَزَا نَجْدًا يُرِيدُ بَنِي مُحَارِبٍ وَبَنِي ثَعْلَبَةَ مِنْ غَطَفَانَ...

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَتَّى نَزَلَ نَخْلًا («نخل... وهو مكان من نجد، من أرض غطفان...». تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٣/ ٣٨، وفي فتح الباري: «هو مكان من المدينة على يومين». ٧/ ٤١٨)، وَهِيَ غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَقِيَ بِهَا جَمْعًا عَظِيمًا مِنْ غَطَفَانَ، فَتَقَارَبَ النَّاسُ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ، وَقَدْ خَافَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّاسِ صَلَاةَ الخَوْفِ، ثُمَّ انْصَرَفَ بِالنَّاسِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ مِنْ نَخْلٍ، عَلَى جَمَلٍ لِي ضَعِيفٍ... [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٦].

ثم ذكر جابر ﷺ في هذا الحديث للنبي ﷺ أنه تزوج ـ بعد استشهاد أبيه في «أُحُد» ـ امرأة ثيبًا؛ لتقوم على خدمة سبع أخوات له صغار، تركهن أبوه من بعده، معللًا لماذا فضَّل الزواج بامرأة ثيب كبيرة على الزواج بفتاة بكرٍ صغيرة، بأن الثيب الكبيرة ذات التجربة أصلح للعناية بأخواته الصغار من غيرها.

هذا، وبعد ذلك أورد ابن إسحاق أحداث «غزوة الخندق» ـ ومما جاء فيها حديث تكثير طعام جابر ﷺ.

أقول: من هذا السياق في ترتيب الأحداث الثابتة ـ يتجلى ترجيح رأي «ابن إسحاق» في أن «غزوة ذات الرقاع» التي وقعت فيها صلاة الخوف ـ كانت متقدمة على غزوة الخندق.. وخلاصة القول في الوصول إلي هذه النتيجة مما تقدم هو:

ـ أن «غزوة ذات الرقاع» قد صلى فيها النبي ﷺ صلاة الخوف، وهذا ما لم ينكره أحد.

ـ ثم إن «جابرًا» كان في هذه الغزوة «ذات الرقاع» حديث عهد بعرس (على حد تعبير «جابر ﷺ» نفسه، كما في بعض روايات البخاري (رقم ٥٠٧٩) فتح الباري ٩/ ١٢١)، في زواجه بامرأة ثيب كبيرة، من أجل العناية بأخواته الصغار السبع اللواتي تركهن له أبوه، بعدما استشهد في «أُحُد».

ـ ثم في غزوة الخندق، تظهر «زوجة جابر» في الصورة وهي تطبخ طعامًا للنبي ﷺ.. وهذا يدل على تقدم «غزوة ذات الرقاع» التي وقعت فيها «صلاة الخوف»، وكان فيها «جابر» حديث عهد بعرس.. وتأخر «غزوة الخندق» التي صنعت فيها «زوجة جابر» الطعام للنبي ﷺ.

وبناء على ذلك يثبت أن النبي ﷺ قد أخر الصلوات في «غزوة الخندق» في حين كانت «صلاة الخوف» مشروعة، آنئذ، قبل هذه الغزوة.

(٣) أما بالنسبة لصلاة شدة الخوف، التي يجوز فيها التحرك والقتال، والاكتفاء بالإيماء ـ بدل الركوع والسجود ـ فلم يرد أن النبي ﷺ صلاها في غزوة الخندق، وقد صرح أبو سعيد الخدري ﷺ ـ كما تقدم ـ بأن الآية المتعلقة بها ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ لم تكن قد نزلت بعد. [1]

---

(١) ينبغي أن يذكر هنا أن آية شدة الخوف هي عقب آية ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ وقد ورد أن النبي ﷺ قال في غزوة الخندق: شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر [صحيح مسلم رقم ٦٢٨] وهذا قد يشير إلى أن آية شدة الخوف، وهي مترتبة على آية الصلاة الوسطى ـ قد نزلت معها، وأن كليهما قد نزل قبل الخندق، أو أثناء هذه الغزوة على أقل تقدير.. الأمر الذي قد يتعارض مع حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بأن آية الخوف ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ لم تكن قد نزلت بعد..

الجواب: إن حديث: شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر لا يدل بالضرورة على الإشارة إلى آية معروفة، إذ من المحتمل أن يكون الرسول ﷺ قد سماها بذلك في غزوة الخندق، ثم نزل الوحي فيما بعد بهذه التسمية، وبهذا تكون هذه الآية، والتي بعدها ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ لم يكن الوحي قد نزل بهما إلى حين غزوة الخندق. ويحتمل أن آية الصلاة الوسطى كانت وحدها هي التي نزل بها الوحي قبل الخندق، ثم نزلت فيما بعد آية ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ فوضعت عقبها لعلاقتها ==

(٤) جاء في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما... عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﵄ قَالَ: نَادَى فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ - يَوْمَ انْصَرَفَ عَنِ الأَحْزَابِ -: «**أَنْ لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الظُّهْرَ** (في صحيح البخاري أن الصلاة كانت «صلاة العصر» رقم ٤١١٩ (فتح الباري ٧/ ٤٠٧-٤٠٨)، وينظر الجمع بين الروايتين في فتح الباري ٧/ ٤٠٩، وفي شرح صحيح مسلم للنووي ٧/ ٣٨٥) **إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَتَخَوَّفَ نَاسٌ فَوْتَ الوَقْتِ فَصَلُّوا دُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَالَ آخَرُونَ: لاَ نُصَلِّي إِلاَّ حَيْثُ أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنْ فَاتَنَا الوَقْتُ! قَالَ: فَمَا عَنَّفَ وَاحِدًا مِنَ الفَرِيقَيْنِ. **[مسلم رقم (١٧٧٠)]**.

وفي رواية عن الطبراني: «فَاخْتَصَمَ النَّاسُ فِي غَزْوَتِهَا فِي صَلَاةِ العَصْرِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: صَلُّوا فَإِنَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يُرِدْ أَنْ تَتْرُكُوا الصَّلاةَ! وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ عَزَمَ عَلَيْنَا أَنْ لا نُصَلِّيَ العَصْرَ حَتَّى نَأْتِيَ بني قُرَيْظَةَ، وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي عَزْمَةٍ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِثْمٌ، فَصَلَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمُ العَصْرَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَطَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ تُصَلِّ حَتَّى أَتَوْا بني قُرَيْظَةَ بَعْدَمَا غَابَتِ الشَّمْسُ، فَصَلَّوْهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، فَلَمْ يُعَنِّفْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاحِدَةً مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ». **[رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٧٩، ورجاله رجال الصحيح غير أبي هذيل، وهو ثقة (مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٤ رقم ١٠١٦٤)، وجاء في المستدرك للحاكم أيضًا بنحو هذا السياق عن عائشة ﵂، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي ٣/ ٣٥]**.

قال في فتح الباري: «وَحَاصِلُ مَا وَقَعَ فِي القِصَّةِ أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ حَمَلُوا النَّهْيَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَلَمْ يُبَالُوا بِخُرُوجِ الوَقْتِ تَرْجِيحًا لِلنَّهْيِ الثَّانِي عَلَى النَّهْيِ الأَوَّلِ: وَهُوَ تَرْكُ تَأْخِيرِ الصَّلَاةِ عَنْ وَقْتِهَا، وَاسْتَدَلُّوا بِجَوَازِ التَّأْخِيرِ لِمَنْ اُشْتُغِلَ بِأَمْرِ الحَرْبِ بِنَظِيرِ مَا وَقَعَ فِي تِلْكَ الأَيَّام بِالخَنْدَقِ... وَذَلِكَ لِشُغْلِهِمْ بِأَمْرِ الحَرْبِ، فَجَوَّزُوا أَنْ يَكُون ذَلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ شُغْلٍ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الحَرْبِ، وَلَا سِيَّمَا وَالزَّمَانُ زَمَانُ التَّشْرِيعِ، وَالبَعْضُ الآخَرُ: حَمَلُوا النَّهْيَ عَلَى غَيْرِ الحَقِيقَةِ، وَأَنَّهُ كِنَايَةٌ عَنِ الحَثِّ وَالِاسْتِعْجَالِ وَالإِسْرَاعِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَدْ اِسْتَدَلَّ بِهِ الجُمْهُورُ عَلَى عَدَم تَأْثِيم مِنِ اجْتَهَدَ؛ لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يُعَنِّفْ أَحَدًا مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ،... وَأَغْرَب اِبْنُ المُنَيِّرِ فَادَّعَى أَنَّ الطَّائِفَةَ الَّذِينَ صَلَّوْا العَصْرَ لَـمَّا أَدْرَكَتْهُمْ فِي الطَّرِيقِ إِنَّـمَا صَلَّوْهَا، وَهُمْ عَلَى الدَّوَابِّ... ثم قال ابن حجر: وَدَعْوَى أَنَّهُمْ صَلَّوْا رُكْبَانًا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، وَلَمْ أَرَهُ صَرِيحًا فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ هَذِهِ القِصَّةِ. **[فتح الباري ٧/ ٤١٠، وينظر: شرح مسلم للنووي ٧/ ٣٨٥-٣٨٦]**.

(٥) جاء في صحيح البخاري: «وَقَالَ أَنَسٌ ﵁: حَضَرْتُ عِنْدَ مُنَاهَضَةِ حِصْنِ (تُسْتَرَ) («أعظم مدينة بخوستان ...». مراصد الاطلاع ١/ ٢٦٣) عِنْدَ إِضَاءَةِ الفَجْرِ، وَاشْتَدَّ اشْتِعَالُ القِتَالِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلَاةِ، فَلَمْ نُصَلِّ إِلاَّ بَعْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ، فَصَلَّيْنَاهَا وَنَحْنُ مَعَ أَبِي مُوسَى ﵁، فَفُتِحَ لَنَا.

== بها، كما يحتمل أن الآيتين في الصلاة الوسطى، وفي شدة الخوف - نزلتا كلتاهما في غزوة الخندق بعدما تم تأخير الصلوات.. فعبر ﷺ - بناء على ذلك - عن سخطه على الكفار بقوله: شغلونا عن الصلاة الوسطى، وفي الوقت نفسه يصدق قول أبي سعيد الخدري ﵁ بأن آية صلاة شدة الخوف ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ لم تكن قد نزلت قبل تأخير الصلوات. أي: إنما نزلت بعيد التأخير وإن كان نزولها بصدد غزوة الخندق.

وَقَالَ أَنَسٌ ﷺ: وَمَا يَسُرُّنِي بِتِلكَ الصَّلاَةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. [فتح الباري ٢/ ٤٣٤].

قال في فتح الباري: «وَالَّذِي يَتَبَادَرُ إِلَى اَلذِّهْنِ مِنْ هَذَا أَنَّ مُرَادَهُ اَلِاغْتِبَاطُ بِمَا وَقَعَ، فَالْمُرَادُ بِالصَّلَاةِ عَلَى هَذَا هِيَ اَلْمَقْضِيَّةُ اَلَّتِي وَقَعَتْ، وَوَجْه اِغْتِبَاطِهِ كَوْنهمْ لَمْ يَشْتَغِلُوا عَنِ اَلعِبَادَةِ [أي: صلاة الفجر] إِلَّا بِعِبَادَةٍ أَهَمَّ مِنْهَا عِنْدَهُمْ [أي: الجهاد، في خصوص ذلك الظرف بالذات] [1]، ثُمَّ تَدَارَكُوا مَا فَاتَهُمْ مِنْهَا فَقَضَوْهُ...».

[فتح الباري ٢/ ٤٣٥].

ثم رد ابن حجر على من زعم بأن قصد أنس ﷺ مما قال هو تأسفه على صلاة الفجر التي فاتت عن وقتها بسبب الانشغال بالفتح، وأنه يخالف أبا موسى الأشعري ﷺ في اجتهاده في تأخير الصلاة عن ميعادها لأجل فتح الحصن، أي: كان أنس بن مالك ﷺ يفضل ترك حصار الحصن، والابتعاد عنه لأداء صلاة الفجر في ميعادها، ثم العودة إلى الحصار والقتال.

أقول: رد ابن حجر على ذلك بقوله: «لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَصَلَّى أَنَسٌ ﷺ وَحْدَهُ وَلَوْ بِالإِيمَاءِ، لَكِنَّهُ وَافَقَ أَبَا مُوسَى ﷺ وَمَنْ مَعَهُ فَكَيْفَ يُعَدُّ مُخَالِفًا؟». [فتح الباري ٢/ ٤٣٦].

أقول: بعد كل ما تقدم، فإننا نرجح ـ في المسألة التي نعالجها ـ ما يلي:

ـ في حالة الحرب، يجوز أداء الصلاة في مواعيدها على نحو صلاة الخوف، أو صلاة شدة الخوف على حسب الحالة التي تعين هذه الصلاة، أو تلك، بما لا يترتب عليه ضرر يلحق بالمسلمين، أو تفويت لمصلحة الجهاد والقتال.

ـ كما يجوز من ناحية أخرى، تأخير الصلوات عن مواعيدها المقررة على أن تُقضى فيما بعد إذا استدعت الضرورة الحربية ذلك.

ـ ويجوز أيضًا للقيادات الإسلامية، في حالة الحرب أن تصدر أمرها للمقاتلين المسلمين بعدم الانشغال عما هم فيه من نحو مواصلة ضرب للعدو، أو مراقبة دائمة لأجهزة معينة تتعلق بأمر الحرب، أو ما شاكل ذلك.. ـ أن لا ينشغلوا عما هم فيه ولو بأداء الصلاة وذلك عملًا بما يدل عليه أمر النبي ﷺ للصحابة بعدم الصلاة إلا في «بني قريظة»، فإن سكوته ﷺ عن بيان مراده من ذلك الأمر: هل هو تأخير الصلاة، فعلًا عن مواعيدها؟ أم هو مجرد الحث والاستعجال، بدون تأخير للصلاة؟ أقول: إن سكوته ﷺ عن بيان مراده، فيما بعد، وقد علم أن بعض الصحابة قد فهم من كلامه تأخير الصلاة فعلًا عن

---

(١) ما ذكره ابن حجر من تقديم الجهاد على الصلاة بوقتها في الأهمية في ذلك الظرف، قد يشير إلى ما جاء في صحيح مسلم في ترجمة تأخير الصلاة بصدد غزوة بني قريظة، إذ جاء في الترجمة: باب المبادرة إلى الغزو، وتقديم أهم الأمرين المتعارضين!». صحيح مسلم ٣/ ١٣٩١.

ميعادها.. ـ هذا السكوت من النبي ﷺ، في هذه الحالة ـ هو دليل على تقرير مثل هذا الفهم. وبالتالي: فإن لصاحب السلطة أن يأمر بما يقوم على مثل هذا الفهم، إذا دعت الضرورات الحربية إلى ذلك.

هذا، ويتأيد هذا الرأي بما سبق من أن النبي ﷺ أخر بعض الصلوات في الخندق، مع أن صلاة الخوف كانت مشروعة من قبل ـ كما تقدم.

كما يتأيد هذا الرأي أيضًا، بتأخير الصحابة، في عهد الخلافة الراشدة، لصلاة الفجر أثناء حصارهم لحصن «تُستر» إلى أن أتموا الفتح!

وإلى هذا الرأي في جواز تأخير الصلاة عن أوقاتها بسبب الانشغال بالحرب، مال الإمام البخاري.

[ينظر: فتح الباري ٢/ ٤٣٦. وكتاب (الإمام البخاري وصحيحه) للدكتور عبد الغني عبد الخالق ص١٤٦، وتفسير ابن كثير ٢٩٥- ٢٩٦].

هذا، وقد مال بعض المشتغلين في الحقل الإسلامي من الكُتَّاب، والفقهاء المعاصرين، إلى هذا الرأي أيضًا في جواز تأخير الصلاة بسبب الانشغال بالحرب.

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه «فقه السيرة»: «ومن العلماء من أهدر الوقت المعيَّن للصلاة بعذر القتال، وذلك مذهب البخاري وغيره، وهذا ـ عندي ـ أدنى إلى الصواب، فإنَّ ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد من أهم ما يحدِّد رسالة المسلم في الحياة، بل إنه لا يفهم دينه فهمًا صحيحًا إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب...

وقد رأى رسول الله ﷺ أن مباغتة بني قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم ويقووا حصونهم، هو الواجب الأول في تلك الساعة فلا ينبغي أن ينشغل المسلم عنه ولو بالصلاة.

فحدود وقت الصلاة تذوب أمام ضرورات القتال». **[فقه السيرة للشيخ الغزالي ص ٣٣٧].**

ويقول أ.د/ وهبة الزحيلي في موسوعته الفقهية: «الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ١٣٠» ما يلي: «ومن أخَّر الصلاة عن وقتها لعذر مشروع لا إثم عليه، ومن العذر خوف العدو».

ثم استشهد على ذلك بتأخير النبي ﷺ لبعض الصلوات في غزوة الخندق. **[الجهاد والقتال في السياسة الشرعية لهيكل ٢/ ١٣٦٥-١٣٨٠، وينظر للتفصيل أيضاً: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٣٦-٥٤، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٧-٢٤].**

٣٠ ـ تُقْضَى الصلاة المكتوبة إذا تُركت عمدًا أو سهوًا:

يقول د/ البوطي: «لقد فاتت النبي ﷺ صلاة العصر كما قد رأيت في هذه الموقعة لشدة انشغاله، حتى صلاها قضاء بعدما غربت الشمس، وفى روايات أخرى غير الصحيحين أن الذي فاته أكثر من صلاة واحدة، صلاها تباعًا بعدما خرج وقتها وفرغ لأدائها.

وهذا يدل على مشروعية قضاء الفائتة، ولا ينقض هذه الدلالة ما ذهب إليه البعض من أن تأخير الصلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزًا إذ ذاك ثم نُسخ حينما شُرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالًا وركبانًا عند التحام القتال بينهم وبين المشركين، إذ النسخ ـ على فرض صحته ـ ليس واردًا على مشروعية القضاء، وإنما هو وارد على صحة تأخير الصلاة بسبب الانشغال، أي أن نسخ صحة التأخير ليس نسخًا لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضًا، بل هي مسكوت عنها، فتبقى على مشروعيتها السابقة، على أن الذي يقتضيه الدليل القطعي هو أن صلاة الخوف شرعت قبل هذه الغزوة كما مر تحقيق ذلك عند الحديث عن غزوة ذات الرقاع.

ومن أدلة هذه المشروعية أيضًا ما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال عند منصرفه إلى المدينة من غزوة الأحزاب: «**أَنْ لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ (أَوْ الظُّهْرَ) إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فأدرك بعضهم وقت الصلاة في الطريق فقال البعض: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فصلاها الفريق الأول بعد وصولهم إلى بني قريظة قضاء.

وإذا ثبت وجوب قضاء المكتوبة بعد فواتها، فسيان أن يكون السبب نومًا أو إهمالًا أو تركًا متعمدًا، إذ لم يَرِد ـ بعد ثبوت الدليل العام على وجوب قضاء الفائتة عمومًا ـ أي دليل يخصص مشروعية القضاء ببعض أسباب التفويت دون بعضها الآخر، والذين تركوها في طريقهم إلى بني قريظة لم يكونوا نائمين ولا ناسين... فمن الخطأ إذًا أن تخصص مشروعية قضاء الفائتة المكتوبة ـ مع ذلك ـ بما عدا التفويت المتعمد... وهو أشبه ما يكون بمن يخصصها ببعض المكتوبات دون بعض، بدون أي مخصص شرعي، وربما توهم البعض أنه قد ثبت دليل يخصص عموم أدلة مشروعية القضاء وهو المفهوم المخالف لحديث: «**مَنْ نَسِيَ صَلَاةً [أَوْ نَامَ عَنْهَا] فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كَفَّارَةَ لَـهَا إِلَّا ذَلِكَ**».

[البخاري في مواقيت الصلاة (٥٩٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٨٤)، وأبو داود في الصلاة (٤٤٢)، والترمذي في مواقيت الصلاة عن رسول الله ﷺ (١٧٨)، وابن ماجه في الصلاة (٦٩٥، ٦٩٦)].

ولكن هذا وهم لا ينبغي أن يدخل على طالب علم متبصر، فالمقصود بالحديث ليس هو أمر الناسي والنائم بقضاء الصلاة، دون غيرها، ولكن المقصود التركيز على القيد، وهو (إذا ذكرها)، وذلك للتنبيه إلى أنه لا يشترط لمن فاتته صلاة وأراد تداركها أن ينتظر حلول وقتها من اليوم الثاني ثم يؤديها إذ ذاك، بل عليه أن يبادر إلى قضائها بمجرد التذكر، في أي وقت كان، فإذا عرفت أن هذا هو مقصود رسول الله ﷺ كما تدل على ذلك صيغة الحديث نفسها وكما ذكر علماء الحديث ذلك وشرَّاحه، عرفتَ أنه لا دلالة تشريعية تتعلق بالمفهوم المخالف للنوم أو النسيان في الحديث». [**فقه السيرة للبوطي ٢٣٥-٢٣٦**].

ويقول د/ فيض الله: «ما كان لنا أن نتطرق إلى هذا المبحث لأنه فقهي محض، مرده إلى كتب الفقه المذهبية.

لكن ورد في الصحيح في هذه الغزوة أن النبي ﷺ فاتته صلاة العصر يوم الأحزاب، فقال: «**شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الوُسْطَى صَلَاةِ العَصْرِ مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ أَوْ أَجْوَافَهُمْ نَارًا**».

ثم صلاها بين العشاءين، مع العلم بأن صلاة الخوف كانت مشروعة، كما رأينا قبلًا.

والحديث صريح في وجوب قضاء الفائتة بإطلاق، وهو إجماع فقهاء المذاهب الأربعة وغيرهم، لم يشذ إلا داود، الذي قال بعدم قضاء فائتة العمد، جريًا على أصله في الاقتصار على ظاهر النصوص، ومن ذلك حديث: «**مَنْ نَسِيَ صَلَاةً [أَوْ نَامَ عَنْهَا] فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لاَ كَفَّارَةَ لَـهَا إِلَّا ذَلِكَ**».

وصرَّح المالكية بأن هذه المقالة لم تُنْقَل عن أحد سواه، وأن روايتها عن مالك شاذة؛ وبالغ بعضهم فَكَفَّر من قال بعدم وجوب قضاء الفائتة.

وداود معروف بالجمود، وقد قال بعض المترجمين من العلماء: إن مذهب داود بدعة ظهرت بعد المائتين، وحديث الخندق هذا حُجة عليه، فقد شغلت الحرب النبي ﷺ عن الصلاة، لم يَنَمْ عنها ولم يَنْسَهَا، وقضاها مع ذلك، وهي مما لم يشمله حديثه الذي اعتمد عليه، على أن حديثه هذا ليس فيه ما يدل على الحصر من حيث العربية، لكنه خرج مخرج الغالب، فالشأن في المسلم ألا يترك الصلاة إلا كذلك، نومًا أو نسيانًا.

ومع ذلك فإن التخصيص بالوصف والشرط لا يدل على نفي الحكم عما لم يوجد فيه ذلك الوصف أو الشرط، كما تقرر في الأصول.

ومن اللطيف أن ننص هنا ـ للتوثيق وتجنيب الشذوذ ـ على أن الشافعية ـ رحمهم الله تعالى ـ قالوا بندب قضاء النفل المؤقت، قياسًا على قضاء الفرائض، بجامع التوقيت».

لكن داود خالف الإجماع بإنكاره القياس، الذي هو الاجتهاد في كلام الشافعي، فتورط في مخالفات ومفارقات عجيبة.

فانظر يا أخي، رعاك الله، كم بين التفتح والاجتهاد، وبين التجمد والانغلاق من فرق، في المسلك والأثر؟

وفقني اللهُ وإياك، لاتباع سبيل أهل العلم والاجتهاد، وجنبنا الابتداع، ومشاقة الله والرسول، بمخالفة إجماع المؤمنين، والله ولي التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل». [صور وعبر لفيض الله ٢٤٩-٢٥٠].

٣١ ـ السنة قضاء الفوائت مرتَّبة، وأداؤها في جماعة أفضل:

يقول د/ أبو فارس: «تُصلى الصلاة الفائتة قضاء قبل الصلاة التي حضر وقتها، ففي الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ صلى العصر قضاء في وقت المغرب ثم صلى صلاة المغرب في وقتها.

فقضاء الصلوات الفائتة يكون على الترتيب، فلو فاتته صلاة الظهر والعصر وحل وقت المغرب فإنه يقضي أولًا صلاة الظهر ثم العصر ثم يصلي المغرب حاضرًا.

وهذا الذي فعله رسول الله ﷺ في غزوة الخندق كما رأيت». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٩، وينظر للتفصيل في ذلك: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٥٤-٥٨، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٥-٣٣].

٣٢ ـ من فاتته أكثر من صلاة استحب له أن يؤذن للأولى ويقيم لكل واحدة:

يقول د/ الفنيسان: «دليله حديث عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﵁: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ شَغَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ يَوْمَ الخَنْدَقِ، فَأَمَرَ بِلالًا فَأَذَّنَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى العَصْرَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى المَغْرِبَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى العِشَاءَ. [النسائي في الأذان (٦٦٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

هذا الحديث وإن كان في سنده أبو عبيدة بن مسعود، ولم يسمع من أبيه كما قاله الترمذي، فإنه يعضده حديث عمر بن الخطاب عند البخاري في وضوئهم من بطحان، وصلاتهم الفوائت».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٤].

قلت: وقد سبق حديث أبي سعيد الخدري ﵁، وهو صحيح، ولفظه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: حُبِسْنَا [شَغَلَنَا الْمُشْرِكُونَ] يَوْمَ الخَنْدَقِ [عَنِ الصَّلَاةِ] حَتَّى ذَهَبَ هَوِيٌّ مِنَ اللَّيْلِ [حَتَّى كَانَ بَعْدَ المَغْرِبِ بِهَوِيٍّ مِنَ اللَّيْلِ] حَتَّى كُفِينَا، وَذَلِكَ قَوْلُ الله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب]، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ بِلالًا فَأَمَرَهُ فَأَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَأَحْسَنَ كَمَا كَانَ يُصَلِّيهَا فِي وَقْتِهَا، ثُمَّ أَقَامَ لِلعَصْرِ فَصَلَّاهَا كَذَلِكَ، ثُمَّ أَقَامَ المَغْرِبَ فَصَلَّاهَا كَذَلِكَ، ثُمَّ أَقَامَ العِشَاءَ فَصَلَّاهَا كَذَلِكَ، [وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي القِتَالِ مَا نَزَلَ]، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ فِي صَلَاةِ الخَوْفِ ـ قَالَ حَجَّاجٌ: فِي صَلَاةِ الخَوْفِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩]. [مسند أحمد ١٧/ ٢٩٣-٢٩٤ رقم ١١١٩٨، ١١١٩٩، ١٨/ ٤٥-٤٦، ١٨٧-١٨٨ رقم ١١٤٦٥، ١١٦٤٤، والنسائي في الأذان (٦٦١)، وقال الشيخان الأرناؤوط والألباني: صحيح].

ويقول د/ المدخلي: «قد اختلف العلماء في ذلك على ما يلي:

١ـ مالك والشافعي والأوزاعي وأصحابهم قالوا فيمن فاتته صلاة أو صلوات حتى خرج وقتها: إنه يقيم لكل واحدة إقامة ولا يؤذن.

٢ ـ الثوري قال: ليس عليه في الفوائت أذان ولا إقامة.

٣ ـ أبو حنيفة وأصحابه قالوا: من فاتته صلاة واحدة صلاها بأذان وإقامة فإن لم يفعل فصلاته تامة.

٤ ـ قال محمد بن الحسن: إذا فاتته صلوات فإن صلاهن بإقامة إقامة كما فعل النبي ﷺ يوم الخندق فحسن، وإن أذن وأقام لكل صلاة فحسن ولم يذكر خلافًا.

٥ ـ أحمد بن حنبل وأبو ثور وداود بن علي قالوا: يؤذن ويقيم لكل صلاة فاتته على ما روي عن النبي ﷺ إذ نام عن الصلاة، وهذا هو الراجح، ثم عقب قائلًا: حجة من قال: إنه يقيم لكل صلاة فاتته ولا يؤذن لها أن رسول الله ﷺ حبس يوم الخندق عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء إلى هوي من الليل ثم أقام لكل صلاة ولم يؤذن.

وروى هذا الخبر عن النبي ﷺ أبو سعيد الخدري وابن مسعود وقد تقدم.

ثم أورد حديث ابن مسعود كما ورد عند الترمذي بنفس السند إلا أنه قال: هكذا قال له هشيم في هذا الحديث، فأذن ثم أقام فصلى الظهر فذكر الأذان للظهر وحدها قال: «وكذلك رواه أبو بكر بن أبي شيبة عن هشيم سواء، وخالفه هشام الدستوائي، فقال فيه: فأمر بلالًا فأقام فصلى الظهر ولم يذكر أذانًا للظهر ولا لغيرها.

ثم ذكر رحمه الله سندًا آخر له ولكنه عن أبي عبيدة وقد ثبت أنه لم يسمع من أبيه وفيه: فأمر رسول الله ﷺ بلالًا فأقام فصلى الظهر، وفي آخره ثم طاف علينا فقال: «**مَا عَلَى الأَرْضِ عِصَابَةٌ يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ غَيْرُكُمْ**» [النسائي في الأذان (٦٦٣)، وضعفه الشيخ الألباني]، إلا أنه لم يصرح عند أحمد بأن ذلك كان يوم الخندق، وعلى كل حال وعلى ضوء ما تقدم فالحديث منقطع. [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٤٠-٣٤١، وينظر للتفصيل في ذلك: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٥٩-٦٤، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣٤-٣٩].

٣٣ ـ جواز قضاء الفوائت بوضوء واحد:

يدل على هذه الأحاديث المذكورة في الحكمين السابقين وغيرهما. [ينظر: فتح الباري ٧/ ٤٠٥].

٣٤ ـ حكم الدعاء في المعركة:

يقول د/ بربر: «عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، [مُجْرِيَ السَّحَابِ]، اللَّهُمَّ اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**». [البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٣)، وفي المغازي (٤١١٥)، وفي الدعوات (٦٣٩٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، والترمذي في الجهاد (١٦٧٨)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٦)، ومسند أحمد ٣١/ ٤٥٣ رقم ١٩١٠٧].

اتفق العلماء على استحباب الدعاء في المعركة. [شرح النووي على مسلم ١٢/ ٤٧].

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران:١٤٧].

ولدعائه ﷺ على الأحزاب، كما سبق في حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما.

قال النووي: «فيه استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار». [شرح النووي على مسلم ١٢/ ٤٧].

وكما كان من دعاء الرسول ﷺ يوم بدر الكبرى وغيرها.

قال ابن القيم: «كان ﷺ إذا لقي عدوه وقف ودعا واستنصر الله ﷻ». [زاد المعاد ٣/ ٩٧].

فالمؤمن دائم الصلة بربه ﷻ، يدعوه دائمًا في السراء والضراء، والشدة والرخاء؛ استجابة لأمره تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

وعند لقاء العدو الحاجة ماسة إلى الدعاء واستنصار الله على الأعداء، والاستجابة أقرب وأسرع عند اللقاء، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ، أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا**». [أبو داود في الجهاد (٢٥٤٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

ولأن الدعاء فيه طمأنينة للنفوس، وهو من أهم عوامل انتصار المسلمين على أعدائهم، فالمسلم يُرجع الأمر كله إلى الله تعالى القوي العزيز الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وعندها يكون قد استجلب النصر من مالكه، قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران].

« وهذا السلاح الروحي لا يملكه الجيش المسلم وحده، بل تملكه الأمة كلها؛ ولهذا ينبغي أن تشارك الأمة جيوشها بالدعاء لها بالنصر وتثبيت الأقدام، كما تدعو على أعدائهم، أن يردَّ الله كيدهم في نحورهم، ويعيد سهامهم المسمومة إلى صدورهم، وأن ينزل عليهم بأسه الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين، وهذا مطلوب من الأمة عامة، ومن أئمة مساجدها، وخطبائها جُمَعها خاصة». [فقه الجهاد للقرضاوي ١/ ٦٥٤].

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لربر ١٤٢-١٤٤، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٦٥-٢٧٥].

٣٥ ـ حكم تمني لقاء العدو:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا [الْعَدُوَّ] انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، قَالَ: «**[يَا] أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا [وَاسْأَلُوا] اللهَ [تَعَالَى] الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ**

الكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ».

[البخاري في الجهاد (٢٩٦٦) ومواضع أخرى، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١)، ومسند أحمد ٣١/ ٤٦٠ رقم ١٩١١٤].

يقول د/ بربر: «اختلف العلماء في حكم تمني لقاء العدو إلى قولين:

القول الأول: قول ابن دقيق العيد، وابن حجر، والنووي: يكره تمني لقاء العدو. [ينظر: إحكام الأحكام لابن دقيق العيد٤/ ٢٢٤، وفتح الباري لابن حجر ١٣/ ٢٢٤، وشرح النووي على مسلم ١٢/ ٤٥].

القول الثاني: قول ابن مفلح من الحنابلة: يحرم تمني لقاء العدوة.

[ينظر: الفروع وتصحيح الفروع لابن مفلح ٦/ ١٩٥].

فمن ذهب إلى كراهة تمني لقاء العدو، قال: النهي في الحديث السابق يُحمل على الكراهة، والكراهة تكون إذا وقع الشك في المصلحة، أو حصول الضرر، أو أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر، ولما فيه من احتمال المخالفة لما وعد الإنسان من نفسه، وإلا فالقتال فضيلة وطاعة.

[ينظر: إحكام الأحكام لابن دقيق العيد ٤/ ٢٢٤، وشرح النووي على مسلم ١٢/ ٤٦، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ١٥٦، وعون المعبود لمحمد آبادي ٧/ ٢١١، ومرقاة المفاتيح لعلي القاري ٧/ ٤٣٩].

ومن ذهب إلى حرمة تمني لقاء العدو، قال: النهي في الحديث ظاهره التحريم [الفروع وتصحيح الفروع لابن مفلح ٦/ ١٩٥]، وإذا صرف النهي إلى غير التحريم صار مؤولًا. [الأصل في النهي: أنه حقيقة في التحريم مجازٌ فيما سواه من الكراهة وغيرها. ينظر: البرهان في أصول الفقه للجويني ١/ ٢٨٠].

وقالوا: إنما النهي عن تمني لقاء العدو؛ لما فيه من صورة الإعجاب والاتكال على النفوس، والوثوق بالقوة، وقلة الاهتمام بالعدو، وكل ذلك يباين الاحتياط والأخذ بالحزم.

[ينظر: الفتاوى الكبرى الفقهية لابن حجر الهيتمي ٤/ ١١، وعمدة القاري للعيني ١٤/ ٢٧٤، وعون المعبود لمحمد آبادي ٧/ ٢١١، وشرح النووي على مسلم ١٢/ ٤٥، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ١٥٦].

قال ابن الجوزي: «اعلم أن تمني لقاء العدو يتضمن أمرين:

أحدهما: استدعاء البلاء.

والثاني: ادعاء الصبر.

وما يدري الإنسان كيف يكون صبره على البلاء، والمدَّعي متوكل على قوته، معرض بدعواه عن ملاحظة الأقدار وتصرفها، ومن كان كذلك وُكل إلى دعواه، كما تمنى الذين فاتتهم غزاة بدر فلم يثبتوا يوم أُحُد، وكما أعجبتهم كثرتهم يوم حنين فهزموا، وقد نبه هذا الحديث على أنه لا ينبغي لأحد أن يتمنى البلاء بحال». [كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي ٣/ ٤٢٩].

الترجيح: الراجح ـ والله أعلم ـ هو قول من قال بكراهة تمني لقاء العدو، بدليل قوله ﷺ في أخر الحديث: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**»، فهو ترغيب بالقتال [ينظر: عون المعبود لمحمد آبادي ٧/ ٢١١، ومرقاة المفاتيح لعلي القاري ٧/ ٤٣٩]، وقرينة صارفة للنهي من التحريم إلى الكراهة. [صيغة النهي تدل على التحريم وتحتمل غيره من الكراهة والتنزيه، والمختار أن النهي المجرد عن القرينة يقتضي التحريم، فإذا وجدت القرينة صرفته إلى غير التحريم. ينظر: الإبهاج للسبكي ٢/ ٦٧].

ودليل آخر: حديث أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: **يَا رَسُولَ اللهِ! غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنْ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ؟**

[البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٥)، وفي المغازي (٤٠٤٨)، والترمذي في التفسير (٣٢٠١)، ومسند أحمد ٢٠/ ٣٦٦ رقم ١٣٠٨٥، ٢١/ ٢٤٢ رقم ١٣٦٥٨].

فقد اعتذر إلى النبي ﷺ بحسرة على عدم قتاله يوم بدر، وأظهر الشوق لقتال المشركين في معركة قادمة، وأقره النبي ﷺ على ذلك ولم ينكر عليه».

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٤٥-١٤٧].

٣٦ ـ يسن للأمير أن يتولى قسم الغنيمة بنفسه:

يقول د/ الفنيسان: «وجه هذا أن حيي بن أخطب اليهودي طلب من أبي سفيان عشرين بعيرًا يوقرها تمرًا وشعيرًا وتبنًا، تقوية لقريش، ففعل، وبينما طائفة من الأنصار راجعة من الخندق إلى المدينة لحاجة لهم، فاستاقوها بأحمالها إلى رسول الله ﷺ، فقسمها الرسول ﷺ بينهم وتوسع بها أهل الخندق، ولما بلغ أبا سفيان الخبر قال: إن حييًّا لمشؤوم قطع بنا ما نجد ما نحمل عليه إذا رجعنا». [السيرة الحلبية ٢/ ٣٣٩].

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٦].

٣٧ ـ حكم الخداع والكذب في الحرب:

ويظهر هذا فيما فعله نعيم بن مسعود ﷺ للتفريق بين الأحزاب.

وقد سبق تفصيلها في الدروس العسكرية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

[وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٥٨-٢٦٨، والمسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٣٩-٢٤٤].

٣٨ ـ حكم نشر الشائعات في صفوف العدو:

يقول د/ بربر: « إن خلخلة صفوف العدو، وتفريق وحدتهم من الأمور المهمة في سياسة القتال للوصول إلى هزيمة العدو، وتشتيت شملهم، وما عقدوا العزم عليه؛ لأن الترابط إذا حصل في صفوف العدو كان ذلك خطرًا على المسلمين، وصعب معه الوصول إلى هزيمتهم.

فلابد للمسلمين من إعداد أناس متخصصين في الحرب النفسية؛ ليبثوا في العدو الأفكار والأخبار التي تزلزلهم وترعبهم من المسلمين، وتزرع الإحباط والخذلان في صفوفهم.

[فقه الجهاد للقرضاوي ١/ ٦٤٣].

وهو ما فعله نعيم بن مسعود ﷺ كما سبق في عرض الغزوة.

فتخذيل العدو وبث الفرقة بينهم، مما يؤدي إلى خذلانهم وانهزامهم، أمر مطلوب من قائد الجيش المسلم.

وهو الدور الذي قام به معبد الخزاعي، عندما رأت قريش أن ترجع للقتال بعد غزوة أُحُد، فجاءهم معبد الخزاعي، وكانت خزاعة حلفاء النبي ﷺ، وكان قد رأى حال أصحاب النبي ﷺ وما هم عليه، ولما رأى عزم قريش على الرجوع ليستأصلوا أهل المدينة، احتمله خوف ذلك، وخالص نصحه للنبي ﷺ وأصحابه، على أن خوَّف قريشًا بأن قال لهم: قد تركت محمدًا وأصحابه بحمراء الأسد في جيش عظيم، قد اجتمع له من كان تخلف عنه، وهم قد تحرقوا عليكم، فالنجاء النجاء، فإني أنهاك عن ذلك، قال: فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، وقذف الله في قلوبهم الرعب، ورجعوا إلى مكة خائفين مسرعين، ورجع النبي ﷺ في أصحابه إلى المدينة منصورًا، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران]. [فتح الباري لابن حجر ٧/ ٣٧٤، وتفسير القرطبي ٤/ ٢٧٨].

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣٠١-٣٠٢].

٣٩ ـ يجوز للمرء أن ينطق بما لا يعتقد إذا كان في ذلك نفع للمسلمين أو ضرر بالكفار:

«وهذا واضح في قصة نعيم بن مسعود ﷺ مع الأحزاب حيث ذهب لكل قبيلة وقال لهم: لقد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمدًا، وخاصة ما بيني وبينكم». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٨-٢٢٩، وقد سبق تفصيله بعنوان: جواز الكذب على الأعداء، في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة أحد]

٤٠ ـ جواز الحلف من غير استحلاف:

«دليله حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ جَاءَ يَوْمَ الخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالله مَا صَلَّيْتُهَا...**» الحديث. [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٥].

٤١ ـ لا يعدل عن الوضوء إلى التيمم مع وجود الماء:

يقول د/ المدخلي: «أي أن الوضوء قد أوجبه الله ﷻ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[المائدة: ٦].

قال الحافظ: «وَالوُضُوءُ بِالضَّمِّ هُوَ الفِعْلُ، وَبِالفَتْحِ المَاءُ الَّذِي يُتَوَضَّأُ بِهِ عَلَى الـمَشْهُورِ فِيهِمَا».
[فتح الباري ١/ ٢٣٢].

والوضوء واجب إلا في حالات نادرة.

والرسول ﷺ لم يترك الوضوء حتى في أثناء الحروب؛ ذلك لأنه لما كان في هذه الغزوة وفاتته صلاة العصر كما مر في الأحاديث الصحيحة عمد ﷺ عندئذ إلى بطحان ليتوضأ، وترك التيمم مع أنه في وقت حرب وأوضاع حرجة؛ ولأنه هو المشرِّع ﷺ؛ ولوجود الماء قريبًا منه لم يترك الوضوء لما فيه من الأجر العظيم.

قال الحافظ: «وَتَمَسَّكَ بِهَذِهِ الآيَةِ [آية المائدة] مَنْ قَالَ: إِنَّ الوُضُوءَ أَوَّلُ مَا فُرِضَ بِالمَدِينَةِ، فَأَمَّا مَا قَبْلَ ذَلِكَ فَنَقَلَ اِبْنُ عَبْدِ البَرِّ اِتِّفَاقَ أَهْلِ السِّيَرِ عَلَى أَنَّ غُسْلَ الجَنَابَةِ إِنَّمَا فُرِضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِمَكَّة كَمَا فُرِضَتِ الصَّلَاة، وَأَنَّهُ لَمْ يُصَلِّ قَطُّ إِلَّا بِوُضُوءٍ.

قَالَ: وَهَذَا مِمَّا لَا يَجْهَلُهُ عَالِمٌ. وَقَالَ الحَاكِمُ فِي المُسْتَدْرَكِ: وَأَهْلُ السُّنَّةِ بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَى دَلِيلِ الرَّدِّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الوُضُوءَ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ المَائِدَةِ، ثُمَّ سَاقَ حَدِيثَ اِبْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «دَخَلَتْ فَاطِمَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي، قَالَتْ: هَؤُلَاءِ المَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ تَعَاهَدُوا لِيَقْتُلُوكَ، فَقَالَ: «**ائْتُونِي بِوَضُوءٍ**»، فَتَوَضَّأَ... الحَدِيث».

قُلْتُ: وَهَذَا يَصْلُحُ رَدًّا عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وُجُودَ الوُضُوءِ قَبْل الهِجْرَةِ، لَا عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وُجُوبَهُ حِينَئِذٍ، وَقَدْ جَزَمَ اِبْنُ الجَهْمِ المَالِكِيُّ بِأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الهِجْرَةِ مَنْدُوبًا، وَجَزَمَ اِبْنُ حَزْم بِأَنَّهُ لَمْ يُشْرَعْ إِلَّا بِالمَدِينَةِ، وَرُدَّ عَلَيْهِمَا بِمَا أَخْرَجَهُ اِبْنُ لَهِيعَةَ فِي المَغَازِي الَّتِي يَرْوِيهَا عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ يَتِيمِ عُرْوَةَ عَنْهُ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام عَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ الوُضُوءَ عِنْدَ نُزُولِهِ عَلَيْهِ بِالوَحْيِ، وَهُوَ مُرْسَلٌ، وَوَصَلَهُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقِ اِبْنِ لَهِيعَة أَيْضًا لَكِنْ قَالَ: عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ عَنْ أَبِيهِ، وَأَخْرَجَهُ اِبْنُ مَاجَهْ مِنْ رِوَايَةِ رِشْدِين بْنِ سَعْدٍ عَنْ عَقِيلٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ نَحوه، لَكِنْ لَمْ يَذْكُرْ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فِي السَّنَدِ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ مِنْ طَرِيقِ اللَّيْثِ عَنْ عَقِيلٍ مَوْصُولًا، وَلَوْ ثَبَتَ لَكَانَ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ، لَكِنَّ المَعْرُوفَ رِوَايَةُ اِبْنِ لَهِيعَةَ.
[فتح الباري ٢/ ٢٣٢]. [مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٣٥-٤٣٦].

٤٢ ـ الاستعانة بالعيون والمراقبين [(١)]:

وفي إرسال حذيفة رضي الله عنه إلى معسكر الأحزاب «جواز استعمال العيون، وإرسالها للتعرف على حالة الأعداء، ومدى استعدادهم، وكيفية تحركاتهم؛ حتى يكون المسلمون على علم بأعدائهم فيعد المسلمون

(١) سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

لكل أمر عدته، ولا ينبغي للمسلمين أن يغفلوا عن تحركات أعدائهم وما يكيدونه للإسلام وأهله».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٤٣٩].

ويقول د/ البوطي: «يجوز للإمام أن يستعين في الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين، يبثهم بين الأعداء ليكتشف المسلمون خططهم وأحوالهم وليتبينوا ما هم عليه من قوة في العُدة والعَدد، ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك، بشرط ألا تنطوي الوسيلة على الإضرار بمصلحة هي أهم من مصلحة الاطلاع على حال العدو، وربما استلزمت الوسيلة تكتمًا أو نوعًا من المخادعة أو التحايل، وكل ذلك مشروع وحسن من حيث إنه واسطة لابد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم».

[فقه السيرة للبوطي ١٧٣، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٢٤٥-٢٦٤].

٤٣ ـ جواز لبس الرجل ما يقيه من سهام العدو:

يقول د/ الفنيسان: «دليل هذا قول عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: خَرَجْتُ يَوْمَ الخَنْدَقِ أَقْفُو آثَارَ النَّاسِ، قَالَتْ: فَسَمِعْتُ وَئِيدَ الأَرْضِ وَرَائِي ـ يَعْنِي حِسَّ الأَرْضِ ـ قَالَتْ: فَالتَفَتُّ فَإِذَا أَنَا بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ الحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ يَحْمِلُ مِجَنَّهُ (ترسًا)، قَالَتْ: فَجَلَسْتُ إِلَى الأَرْضِ، **فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا أَطْرَافُهُ**، فَأَنَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أَطْرَافِ سَعْدٍ، قَالَتْ: وَكَانَ سَعْدٌ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ، قَالَتْ: فَمَرَّ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلًا يُدْرِكُ الهَيْجَا حَمَل ... مَا أَحْسَنَ المَوْتَ إِذَا حَانَ الأَجَل.

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣١].

٤٤ ـ جواز التطبب وعلاج المرضى في المسجد:

يقول د/ الفنيسان: «وذلك أن سعد بن معاذ ﵁، لما أُصيب في أكحله يوم الخندق، قال الرسول ﷺ: «**اجْعَلُوهُ فِي خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ**»، وكانت خيمتها ﵂ مضروبة في مسجد الرسول ﷺ تداوي بها الجرحى ممن لم يكن له من يقوم عليه، وإنما وضع سعد ﵁ فيها مع أن قومه يقومون بمداواته، لما علله به الرسول ﷺ بقوله: «**حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ**».

فالمسجد في الإسلام علاوة على كونه مكانًا للعبادة، هو مدرسة للتعليم، ودار للرعاية، ومستشفى للعلاج». **[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣١، الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٢٦،، وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٢٥٤-٢٥٥، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣٠٣-٣٠٤].**

٤٥ ـ جواز النوم في المسجد:

«فلقد كانت خيمة رفيدة الأسلمية في المسجد، وكان ينام فيها سعد بن معاذ ﵁، وغير سعد ﵁ ممن تعالجه رفيدة ﵂». **[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٢٦].**

٤٦ ـ جواز تمريض النساء للرجال:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كانت رفيدة الأسلمية ﵂ تعتني بسعد بن معاذ ﵁ في خيمتها، وتقوم على شؤونه على مرأى ومشهد من رسول الله ﷺ، بل إن رسول الله ﷺ هو الذي أمر بأن يكون سعد بن معاذ ﵁ في خيمة رفيدة الأسلمية ﵂.

أقول: إن هذه الكلام لا يؤخذ على إطلاقه، فإذا كانت المرأة طاعنة في السن فلا بأس بذلك، أما إذا كانت شابة، أو المريض شابًّا فلا تعالج الشابة الشاب إلا عند الضرورة، وعدم وجود رجل يعالج رجلًا، وضمن شروط وقيود، بحيث يؤمن جانب كل واحد منهما، ولا تكون خلوة بينهما، ولا ينكشف أحدهما أمام الآخر.

وباختصار: تُراعى الأحكام الشرعية الأخرى من حيث اللباس والزينة والستر والكلام وعدم الخلوة وغيرها، مما لها صلة بهذا الشأن». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٢٦-١٢٧، وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ١٦٤-١٦٥**].

٤٧ ـ جواز العلاج بالكي:

يقول د/ أبو فارس: «وهذا أخذناه من فعل الرسول ﷺ إذ حسم رسول الله ﷺ جرح سعد بن معاذ ﵁ بالنار ثلاث مرات.

وأقول أيضًا: يمكننا أن نعتبر الكي بالكهرباء يقوم بنفس الدور الذي تقوم به النار».

[**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٢٧**].

ويقول د/ بربر: «الكي: هو إحراق الجلد بحديدة ونحوها، وهو علاج معروف لكثير من الأمراض، وفي المثل: أخر الطب الكي، أو أخر الدواء الكي. [**ينظر: لسان العرب لابن منظور ١٥/ ٢٣٥**].

لا خلاف بين العلماء على كراهية الكي قبل المرض؛ لأنه ينافي التوكل.

[**ينظر: الذخيرة للقرافي ١٣/ ٣٠٨، والمجموع للنووي ٦/ ١٦٣، وحاشية البجيرمي ٣/ ٣١٨، ومغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٠١، والفروع لابن مفلح ٢/ ١٣٦، وشرح العمدة لابن تيمية ١/ ٢٨٩، وفتح الباري لابن حجر ١٠/ ١٥٥، وشرح الزركشي ١/ ١٠٩، وشرح معاني الآثار للطحاوي ٤/ ٣٢٥**].

لحديث الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ﵁، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَمْ يَتَوَكَّلْ مَنِ اسْتَرْقَى أَوِ اكْتَوَى**».

[**المستدرك في الرقى والتمائم (٨٢٧٩)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ومسند أحمد ٣٠/ ١٤٠ رقم ١٨٢٠٠، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن**].

واختلفوا في الكي بعد المرض إلى قولين:

القول الأول: ذهب جماهير العلماء من: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة: إلى جواز الكي بلا كراهة إذا دعت الحاجة إليه، ككي الجرح إذا فسد، والعضو إذا قُطع، فإن كان الكي لأمر محتمل فهو

خلاف الأولى. [ينظر: الفتاوى الهندية للنظام ٥/ ٣٥٦، والتمهيد لابن عبد البر ٢٤/ ٦٥، والذخيرة للقرافي ١٣/ ٣٠٧، والمجموع للنووي ٩/ ٥٨، ومغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٠١، والفروع لابن مفلح ٢/ ١٣٦، وشرح العمدة لابن تيمية ١/ ٢٨٩، وشرح النووي على مسلم ٣/ ٩١، وفتح الباري لابن حجر ١٠/ ١٥٥].

قال ابن عبد البر: «وعليه جمهور العلماء، ما أعلم بينهم خلافًا أنهم لا يرون بأسًا بالكي عند الحاجة إليه... وقد قيل: إن الذي نهي عنه من الكي هو ما يكون منه قبل نزول البلاء حفظًا للصحة، وأما بعد نزول ما يحتاج فيه إلى الكي فلا». [التمهيد لابن عبد البر ٢٤/ ٦٥-٦٦].

القول الثاني: قول عند الحنابلة: يكره الكي مطلقًا، والكراهة هنا للتنزيه وليست للتحريم.

[ينظر: شرح العمدة لابن تيمية ١/ ٢٨٩، والفروع لابن مفلح ٢/ ١٣٦، ونيل الأوطار للشوكاني ٩/ ٩٦].

أدلة القول الأول: استدل من ذهب إلى جواز الكي بلا كراهة إذا دعت الحاجة إليه بالأدلة التالية:

١- عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ طَبِيبًا، فَقَطَعَ مِنْهُ عِرْقًا، ثُمَّ كَوَاهُ عَلَيْهِ». [مسلم في السلام (٢٢٠٧)].

٢- وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ فِي أَكْحَلِهِ، قَالَ: فَحَسَمَهُ (أي كواه ليقطع دمه، وأصل الحسم القطع) النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ بِمِشْقَصٍ (أي حديد طويل غير عريض كنصل السهم)، ثُمَّ وَرِمَتْ، فَحَسَمَهُ الثَّانِيَةَ. [مسلم في السلام (٢٢٠٨)، ومسند أحمد ٢٢/ ٢٤٦ رقم ١٤٣٤٣، ٢٣/ ٣٤٣ رقم ١٥١٤٤].

٣- عَنْ أَنَسٍ ﷺ، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَوَى أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ مِنَ الشَّوْكَةِ (داء كالطاعون، وقيل: الذبحة)».

[الترمذي في الطب (٢٠٥٠)، وقال الشيخ الألباني :صحيح، والمستدرك في معرفة الصحابة ﷺ ٣/ ٢٠٧ رقم ٤٨٥٩، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصحيح ابن حبان ١٣/ ٤٤٣ رقم (٦٠٨٠)، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري].

وجه الدلالة في الأحاديث السابقة: فعله ﷺ يدل على جواز الكي بلا كراهة؛ لأنه ﷺ يفعل الأفضل طوال حياته.

٤- عَنْ عَبْدِ الله بنِ مَسْعُودٍ ﷺ، أَنَّ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ صَاحِبًا لَنَا مَرِيضٌ فَوُصِفَ لَنَا الْكَيُّ أَفَنَكْوِيهِ؟ فَسَكَتَ ثُمَّ عَادَ، ثُمَّ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ: «**اكْوُوهُ إِنْ شِئْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَارْضِفُوهُ** (هو الشَّيُّ)».

[المستدرك في الرقى والتمائم ٤/ ٤٦٢ رقم ٨٢٨٣، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي].

وجه الدلالة في الحديث: «**اكْوُوهُ إِنْ شِئْتُمْ**»، فأباح لهم الكي.

وحملوا أحاديث النهي عن الكي على ابتداء الكي قبل حدوث العلة، كما يفعله الأعاجم، أو على ما فيه خطر، أو لم يغلب على الظن نفعه. [نيل الأوطار للشوكاني ٩/ ٩٦، وشرح الزركشي ١/ ١٠٩].

أدلة القول الثاني: استدل من قال: يكره الكي مطلقًا بالأدلة التالية:

١- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ، وَأَنَا أَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ**». [البخاري في الطب (٥٦٨١)].

وجه الدلالة في الحديث: «**وَأَنَا أَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ**»، فهو نهي كراهة، وأمر بالأخذ بالأفضل، وهو التوكل على الله. [الذخيرة للقرافي ١٣/ ٣٠٧].

وقد نوقش: « أن رسول الله ﷺ ما زال يرقي نفسه إلى آخر مرض موته، وكوى وأمر بالكي، ولا يترك رسول الله ﷺ الأفضل طول عمره... وهذا الحديث محمول على أن هذه العلاجات من الكي وغيرها، تارة تستعمل مع تعين أسبابها المقتضية لاستعمالها، وتارة مع الشك فيها مع القطع بعدم الحاجة إليها، كما يفعل الترك للكي لتهيج الطبيعة، فهذه الحالة الأخيرة هي المرادة بالحديث؛ لأنه إيلام وعيب حينئذ، فحسن المدح بتركه، أما الحالة الأولى فلا». [الذخيرة للقرافي ١٣/ ٣٠٨].

٢- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - أَوْ يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ - خَيْرٌ فَفِي: شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ**». [البخاري في الطب (٥٦٨٣)، ومسلم في السلام (٢٢٠٥)].

وجه الدلالة في الحديث: عدم محبته ﷺ للكي يدل على أن الأولى عدم فعله. [نيل الأوطار ٩/ ٩٦].

وقد نوقش: أن قوله ﷺ: «**وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ**»، هو من جنس تركه أكل الضب، مع تقريره أكله على مائدته، واعتذاره بأنه يعافه. [فتح الباري لابن حجر ١٠/ ١٣٩].

٣- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ**»، ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَأَفَاضَ القَوْمُ، وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ، أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ، فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ، فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**» فَقَالَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ رضي الله عنه: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**». [البخاري في الطب (٥٧٠٥)، ومسلم في الإيمان (٢١٨)].

وجه الدلالة في الحديث: الذي يكتوي تفوته فضيلة دخول الجنة مع السبعين ألف بلا حساب أو عذاب؛ لأنه لم يتوكل حق التوكل؛ لأن مَنْ لم يسترق ولم يكتو أشد توكلًا وإخلاصًا منه.

[الاستذكار لابن عبد البر ٨/ ٤١٧].

وقد نوقش: أن معنى لا يكتوون: أي لا يعتقدون أن الشفاء من الكي، كما كان عليه اعتقاد أهل الجاهلية، فالنهي لأجل أنهم يرون أن الشفاء منه، وأما من اعتقد أنه سبب وأن الشافي هو الله فلا بأس به، ولا يناقض التوكل، بل هو كسائر الأدوية. [ينظر: عمدة القاري للعيني ٢١/ ٢٤٥، ومرقاة المفاتيح للقاري ٤/ ٧٢].

٤- عَنْ عِمْرَانِ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ: ... وَقَدْ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ، حَتَّى اكْتَوَيْتُ، فَتُرِكْتُ، ثُمَّ تَرَكْتُ الْكَيَّ فَعَادَ.

وجه الدلالة في الأثر: قال النووي: «ومعنى الحديث أن عمران بن الحصين ﷺ كانت به بواسير، فكان يصبر على ألمها، وكانت الملائكة تسلم عليه لفضله وصلاحه، فاكتوى فانقطع سلامهم عليه، ثم ترك الكي فعاد سلامهم عليه». [المجموع للنووي ٦/ ١٦٣، وشرح النووي على مسلم ٨/ ٢٠٦].

وقد نوقش: يحتمل أن الكي الذي كان عمران ﷺ ينهي عنه: هو الكي الذي يفعل قبل حلول البلاء. [شرح معاني الآثار للطحاوي ٤/ ٣٢٤].

٥- أن في ذلك تعذيبًا بالنار، ولا يجوز أن يعذب بالنار إلا رب النار؛ ولأن الكي يبقى منه أثر فاحش، ولما فيه من الألم الشديد والخطر العظيم. [نيل الأوطار للشوكاني ٩/ ٩٥، والدراري المضية للشوكاني ١/ ٣٩٤، وفتح الباري لابن حجر ١٠/ ١٣٨].

وقد نوقش: أن الكي المنهي عنه يُحمل على ما فيه خطر، أو لم يغلب على الظن نفعه، ولو كان تعذيبًا بالنار ما فعله رسول الله ﷺ، ولا أصحابه ﷺ. [شرح الزركشي ١/ ١٠٩].

الترجيح: والراجح ـ والله أعلم ـ هو قول الجمهور، بجواز الكي بلا كراهة إذا دعت الحاجة إليه جمعًا بين الأدلة، فتحمل أحاديث النهي على من اكتوى قبل وقوع المرض، وتُحمل أحاديث الإباحة على من اكتوى لحاجة.

قال الحافظ ابن حجر: «ويؤخذ من الجمع بين كراهته ﷺ للكي وبين استعماله له أنه لا يُترك مطلقًا، ولا يُستعمل مطلقًا، بل يستعمل عند تعينه طريقًا إلى الشفاء، مع مصاحبة اعتقاد أن الشفاء بإذن الله تعالى». [فتح الباري لابن حجر ١٠/ ١٣٨].

وقال الشوكاني: «أحاديث الكي التي في هذا الباب قد تضمنت أربعة أشياء:

أحدها: فعله، ثانيها: عدم محبته، ثالثها: الثناء على من تركه، رابعها: النهي عنه.

ولا تعارض فيها بحمد الله، فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته لا يدل على المنع منه، والثناء على تاركيه يدل على أن تركه أفضل، والنهي عنه إما على سبيل الاختيار من دون علة، أو عن النوع الذي يحتاج معه إلى كي». [نيل الأوطار للشوكاني ٩/ ٩٦].

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢١٥-٢٢٠].

٤٨ ـ جواز أن يتمنى المسلم أن يُقتل شهيدًا:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ هذا من دعاء سعد بن معاذ ﷺ أن يفجر جرحه وأن يجعل موته فيها إن وضع الحرب بين المسلمين وبين قريش، واستجابة دعائه، وعدم إنكار الرسول ﷺ ذلك عليه، بل أقره ﷺ على ذلك.

وهذا الفقه لا يتعارض مع نهي النبي ﷺ عن تمني الموت في الحديث الذي يرويه أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، وَلاَ يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لاَ يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا**».

[مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٨٢)، ومسند أحمد ١٣/ ٥١٥ رقم ٨١٨٩].

أقول: إن النبي ﷺ نهى عن تمني الموت هنا؛ لأن الباعث على ذلك اليأس، والضر يصيب الإنسان، فلا يصبر عليه.

وهذا المعنى ذكره رسول الله ﷺ حيث قال: «**لَا يَتَمَنَّيَنَّ [يَدْعُوَنَّ] أَحَدٌ مِنْكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلمَوْتِ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي**».

[البخاري في الدعوات (٦٣٥١)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٨٠)، وأبو داود في الجنائز (٣١٠٨)، والترمذي في الجنائز (٩٧٠)، والنسائي في الجنائز (١٨٢٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٥)، ومسند أحمد ١٩/ ٤١، ٧٣ عن أنس بن مالك ﷺ رقم ١١٩٧٩، ١٢٠١٥]. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٣٠، وغزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٦، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٤٨-١٥٢].

٤٩ ـ من الجهاد في سبيل الله جهاد الكفار باللسان:

يقول د/ الفنيسان: «دليل هذا عند البخاري من حديث البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ: «**اهْجُ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ**». [البخاري في المغازي (٤١٢٤)].

وعن جَابِرٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ وَرَدَّ اللهُ الـمُشْرِكِينَ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ يَحْمِي أَعْرَاضَ الْمُسْلِمِينَ؟**» قَالَ كَعْبُ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، وَقَالَ ابنُ رَوَاحَةَ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، قال ﷺ: «**إِنَّكَ تُحْسِنُ الشِّعْرَ**»، فَقَالَ حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ ﷺ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، قال ﷺ: «**نَعَمْ، اهْجُهُمْ أَنْتَ، وَسَيُعِينُكَ عَلَيْهِمْ رُوحُ القُدُسِ**». [كنز العمال للمتقي الهندي ٣/ ٨٦٥ رقم ٨٩٦٩، ١٠/ ٤٤٤ رقم ٣٠٠٨٢، وقال السيوطي: (رواه ابن منده، وابن عساكر، ورجاله ثقات)]. [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٧].

المبحث الرابع

الدروس السياسية

١ ـ اختيار الرجل الكفء في المهام السياسية (١):

يقول د/ أبو فارس: «وبعبارة شائعة بين الناس نقول: **اختيار الرجل المناسب للمهمة المناسبة، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب**، هذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ في كل موقف، وفي كل غزوة، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ عندما سمع أن بني قريظة قد نقضت العهد فماذا فعل؟

لقد اختار الزبير بن العوام ﷺ طليعة استكشافية، يستطلع له الخبر، فيراقب حركة بني قريظة، ويرصدها، ويأتيه بها، فينبغي أن يكون متخفيًّا بعيدًا عن الأنظار.

وحينما اختار رسول الله ﷺ الوفد الذي سيقابل يهود بني قريظة اختارهم من الأنصار أي من أهل المدينة ليس من بينهم واحد من المهاجرين، إن هذا لم يكن فلتة عارضة، وإنما كان نتيجة تفكير وتقديرًا للأمور، إذ طبيعة كل مهمة من المهمتين تختلف عن الأخرى.

أما الاستكشاف العسكري، فلا بد أن توكل مهمته إلى عسكري متمرس ذكي، خفيف الحركة، دقيق الملاحظة، قادر على جمع المعلومات وتحليلها، وغير معروف ما أمكن لدى العدو حتى لا يكشف أمره، ويعطله عن غرضه الذي جاء من أجله، ولقد قام الزبير بن العوام ﷺ بمهمته خير قيام دون أن يشعر به أحد، إذ كان دقيق الملاحظة والاستنتاج.

فأخبر أن بني قريظة يصلحون حصونهم، ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم.

وحينما أراد أن يستوثق من صحة الخبر الذي سمعه عمر بن الخطاب ﷺ أرسل نفرًا من أهل المدينة وعلى رأسهم سيد الأوس سعد بن معاذ، وسيد الخزرج سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ كان حليفهم في الجاهلية، وكان بينهم وبينه مودة، ومعاملة وتعاون، وسعد بن عبادة كما تعلم أيضًا معروف عندهم، ومكانته معلومة.

نعم اختيار رسول الله ﷺ الرهط كله من الأنصار ولم يكن من بينهم واحد من المهاجرين؛ لأن هؤلاء الرهط الذين اختارهم رسول الله ﷺ أدرى الناس باليهود، وأقدر الناس على اختيار أسلوب الحديث معهم في هذا الموقف الحرج؛ لأنهم تعاملوا مع اليهود سنين طويلة قبل الإسلام وبعده، ولهم مكانتهم، كما أن مهمتهم محدودة، وواضحة تتلخص في التأكد من صحة الأخبار بشأن نقض بني قريظة للعهد؛

---

(١) سبق تفصيله في الدروس المستفادة من سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ، تحت عنوان: «**اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب**».

ولمكانتهم هذه دخلوا حصون بني قريظة واستقبلهم بنو قريظة فيها، ولربما لاحظوا تغيرًا لأحوالهم من خلال الاطلاع أثناء الدخول والجلوس معهم.

وفي تصوري لو كان الوفد من المهاجرين أو بعضه منهم لما اطمأنوا إليهم، ولما استقبلوهم، ولا أدخلوهم حصونهم، بل ولما أجابوهم بشيء، وأخفوا كل شيء عنهم ولم يكترثوا بهم، ولربما غدروا بهم وآذوهم». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٩-٣١**].

ويقول الشيخ عرجون: «وفي بعث السعدين ومن معهما لون من الحكمة السياسية، يمثل معلمًا من معالم منهج الرسالة الخالدة التي قصد إليها رسول الله ﷺ في أخذه بني قريظة بغدرهم ونقضهم لعهده ﷺ.

ذلك أنه ﷺ حين بعث حواريه الزبير بن العوام ؓ إلى بني قريظة ليتعرف حالهم ـ فذهب إليهم الزبير ؓ ورجع إلى رسول الله ﷺ يخبره أنهم على أخبث حال يضمرون الغدر وينقضون العهد ـ لم يشك لحظة في صدق خبر الزبير عنهم، ولكنه ﷺ كان على أكمل العلم بما بين الأنصار وطوائف اليهود من روابط جاهلية لم تنفصم عراها، وكانت هذه الروابط تبرز عند مناسباتها في أوقات الأزمات والمحن، وكان بين الأنصار من الأوس والخزرج تنافس، وكان فيهم حمية لهذه الروابط، يكرهون أن تمس من غيرهم، وكثيرًا ما كان يقع التقاول والتصاول بين الحيين من جراء هذه الروابط الجاهلية.

فرأى رسول الله ﷺ أن يحتاط ويجعل أمر بني قريظة في أخذهم بغدرهم قائمًا على أخبار حلفائهم ومواليهم من الأنصار الذين أصبحوا سادة المجتمع المدني، حتى إذا أُخذوا بغدرهم كان أخذهم بأيدي من يرتبطون بهم ويدافعون عنهم.

ولذلك اختار القرظيون تحكيم سعد بن معاذ ؓ في نهاية أمرهم، بعد أن حاصرهم النبي ﷺ حصارًا شديدًا، ولكن سعد بن معاذ ؓ كان رجلًا قوي الإيمان راسخ اليقين، غسل الإيمان قلبه من تلك الروابط الجاهلية، فلم تأخذه فيهم لومة لائم، وحكم فيهم بحكم الله تعالى الذي ارتضاه رسول الله ﷺ والمؤمنون، وقد كان الأوس قوم سعد بن معاذ ؓ يرجون منه أن يحسن إليهم وينقذهم من أسوأ مصير ينتظرهم، فقالوا له: **يَا أَبَا عَمْرٍو، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيكَ، فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ إِنَّمَا وَلَّاكَ ذَلِكَ لِتُحْسِنَ فِيهِمْ**، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ ؓ: **لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي الله لَوْمَةُ لَائِمٍ**.

هذه سياسة حكيمة رسمت للمجتمع المسلم جانبًا من جوانب منهج الرسالة الخالدة ليكون دعامة الدعائم الاجتماعية في سياسة المجتمع المسلم في مستقبل حياته». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٥٦-١٥٧**].

٢ ـ اليهود على هدف واحد مهما اختلفت وجهاتهم:

يقول د/ الغضبان: «إننا كثيرًا ما نسمع لدى دعاة القومية عن التفريق بين الصهيونية واليهودية، وأنهم يحاربون الصهيونية، أما اليهودية فلا، بل يعتبرون كثيرًا من اليهود أنصارًا لهم، وهم يحصرون معركتهم مع الصهيونية في فلسطين الأرض المغتصبة، فإذا حُلت مشكلة الأرض، بتحرير أو اعتراف، فلا خلاف بين القوميين واليهود، ودعاة القومية علمانيون ليسوا ضد دين أو تجمع ديني، بل هم ضد دعاة اغتصاب الأرض العربية وتسليمها لليهود، بل يحالفون هذه النماذج كذلك.

لهؤلاء جميعًا نسوق هذا النموذج الحي من انتهاء اليهود إلى معسكر واحد، في النهاية، وقد يكون بعضهم أشد حقدًا من بعض، لكنهم أعداء في النهاية محاربون، وناكثون للعهد ناقضون كذلك، وإن كان المسلمون وهم يتعاهدون أو يتحالفون لا يُعاملون أعداءهم على ضوء تاريخهم فقط، لكنها البلاهة التامة أن يغيب هذا التاريخ الأسود عن الذهن، فلا يُوضع في الحسبان، وبلغت البلاهة ببعض دعاة القومية حدًا أنهم لا يعرفون شيئًا عن تاريخ اليهود مع المسلمين، وحين يدرسونهم في التاريخ، يتحدثون عن تاريخهم في أوربا وروسيا، وأنحاء العالم، أما في أرض العرب، وفي حربهم مع المسلمين فلا، وينسون أو يتناسون أو يتباهلون أن الشوكة اليهودية لم تنتزع من الأرض العربية إلا بالإسلام، وعلى يد رسول الله ﷺ، وانتهى الوجود العسكري أربعة عشر قرنًا من الزمان، ولم يعودوا للظهور إلا عندما غاب الإسلام عن الوجود والحكم، وعادوا يثأرون لقريظة وخيبر.

لقد التقت كلمة اليهود جميعًا النضير وقريظة وقينقاع الذين تبقوا في خيبر على استئصال الوجود الإسلامي، جيَّشوا الجيوش، وحزَّبوا الأحزاب، ووحَّدوا صفهم لحرب المسلمين.

والطبيعة اليهودية هنا تظهر في حالة ضعف أعدائها: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة]، فهم وافون بالعهود طالما أنهم ضعاف أذلة، وهم ناكثون للعهد حين يجدون الفرصة مواتية للانقضاض، لقد كانوا يقولون: **مَنْ محمد؟ لا عهد بيننا وبين محمد.**

وذلك عندما ذكَّرهم السعدان بحلفهم مع رسول الله ﷺ.

ولم يمر على المسلمين ظرف أسوأ من ظروف الأحزاب يوم الأحزاب، وما كان العهد إلا لذلك اليوم، ومع ذلك نقضوا عهدهم في اللحظة الحاسمة، ورغم وجود بوادر الخير لدى زعيمهم كعب فهو في النهاية يهودي غادر لا يرضيه شيء أكثر من إنهاء الوجود الإسلامي، وتم له من يوافقه على ذلك، إنه الهدف النهائي لليهود والنصارى مهما أظهروا على الطريق من سلام وود: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ

حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

فهم يرفضون المعايشة مع الإسلام فكرًا وواقعًا طالما أنهم قادرون على ذلك».

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٢٩٩-٣٠١].

٣ ـ الثقة في القيادة:

يقول أ/ حوى: «في كثير من الأحيان تضطر القيادات السياسية والعسكرية لمواقف لابد منها، وفي مثل هذه المواقف لا يفرق بين الخائن والأمين إلا الثقة، فمن وثق قال عن قائده: أمين، ومن لم يثق قال عنه: خائن؛ ولذلك لا يصح بالنسبة للقيادات الإسلامية أن تخدش الثقة، والقيادات الإسلامية في هذه الحالة بين أمرين: إما أن تستقيل، أو تتنزه عن مواطن الشبهات، وما عدا ذلك فإنه خيار صعب وقد يكون فاسدًا، وعلى كل الأحوال فهذا يجعلنا نؤكد على أنه يجب أن تبذل كافة الجهود لتبني الثقة في القيادات على أرقاها، فذلك هو الطريق الوحيد للوصول إلى القرار الحكيم، نقول هذا بمناسبة أن رسول الله ﷺ عرض على غطفان ثلث ثمار المدينة في مقابل أن يتميزوا عن قريش، صحيحٌ أن ذلك لم يُبرم، ولكن هل أثر عرض رسول الله ﷺ على الثقة فيه؟ ترى من يستطيع الآن من القيادات الإسلامية أن يعرض عروضًا ما على الكافرين بسبب ظروف صعبة ثم لا يكون محل تهمة لدى إخوانه؟ هذا الوضع يجب أن تتحرر الحركة الإسلامية منه، يجب أن يكون تقديرها للموقف سليمًا وعلى ضوء ذلك تتخذ قرارها المناسب، كائنًا ما كان ما دام شرعيًا وفيه مصلحة، وعليها أن تربي الصف على الثقة، وعلى القيادات أن تكون جديرة بهذه الثقة». [الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٧١٤].

٤ ـ التفاوض مع الأعداء لمصلحة الإسلام:

يقول د/ المجدوب: «وكان مما فعله ﷺ أنْ تفاوض مع غطفان فعرض أن تنسحب من الحِلف مقابل أموال تُدفع لها، وكما هي عادة الرسول ﷺ في كل ما ليس بوحي، قد شاور أصحابه فاعترضوا فأوقف المفاوضات، وإن كان مجرد إجرائها قد أحدث أثرًا سيئًا في نفوس الحلفاء حيث تسرب الشك إلى نفوس زعماء قريش في مدى إخلاص غطفان للهدف الذي جاؤوا من أجله، كما أن غطفان كانت قد ملت من الانتظار دون شن هجوم على المسلمين، في حين أن اليهود ـ كعادتهم ـ ينتظرون أن تبدأ الأحزاب الهجوم، وتتلقى الصدمات الأولى بما تحتمله من خسائر في الأرواح والعتاد، ثم يتحركوا هم ليصولوا ويجولوا في ميدان المعركة التي أوشكت أن تنتهي فيمعنوا قتلًا في المسلمين وسلبًا لأموالهم، وبعد ذلك يتحدثوا عن بطولات مقاتليهم وبلاء جيوشهم». [المستوطنات اليهودية للمجدوب ٩٥-٩٦].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد كان تحرك الرسول ﷺ نحو غطفان، ومفاوضتها من أجل الرجوع عن المدينة موفقًا في غاية التوفيق؛ ذلك لأنها أضعف حلقات الحلف، لبداوتها، واعتمادها على الترحال، وضعف قدرتها الاقتصادية، وهي لم تخرج ابتداء من أجل مبدأ فكري تلتزمه وتقاتل عنه، إنما خرجت من أجل مغنم تحصل عليه، إما من يهود خيبر أو من المسلمين إن هي انتصرت عليهم؛ ولهذا فمن السهل عليها أن تترك الأحزاب في أي وقت تحقق فيه هدفها، وهو المال.

إن الرسول ﷺ باتصاله بوفد غطفان، ومفاوضته لهم كان يرمي ـ والله أعلم ـ إلى إيجاد شرخ في بناء الأحزاب، وزلزلته، وتمزيق هذه الوحدة، وتصديعها، ثم يترتب على ذلك إضعاف قدرتها على البقاء طويلًا في مواجهة المسلمين.

وهذا المعنى الذي فهمناه من قول رسولنا ﷺ: «**إِنِّي لَـمَّا رَأَيْتُ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ أَرَدْتُ أَنْ أُخَذِّلَ عَنْكُمْ**».

لقد رأى رسول الله ﷺ أن يعطي ثلث ثمار المدينة لقائدي غطفان شريطة الرجوع إلى مضاربها، وعدم القتال، وهذا اجتهاد منه ﷺ وقد لا يتوصل ﷺ في اجتهاد، لا سيما في مجال الحروب إلى ما هو الأفضل والأَوْلى، وإذ رأى رأيًا وظهر أن خلافه هو الأَوْلى رجع إلى الأفضل والأَوْلى.

وقد يختلف الصحابة في أمر اجتهادي مع رسول الله ﷺ، ولا ينكر عليهم ذلك، وليس لهم أن يخالفوه في شيء بعد مماته ﷺ إن اجتهد في مسألة، والوحي سكت عنها ولم ينكرها، فإن السكوت من الوحي عليه يدل على إقراره له، فأصبح وحيًا لا تجوز مخالفته». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٤-١٥٥**].

ويقول د/ قلعجي: «لقد رأينا أن خطة رسول الله ﷺ تهدف إلى تفريق كلمة العدو المهاجم، بالمال، أو بالموادعة، أو بالمكيدة، وهنا رأى ﷺ أن يستخدم سلاح المال مع غطفان، فإن نجحت هذه الوسيلة يكون العدو قد خسر ثلث قوته تقريبًا، وهذا ليس بالأمر الهين، وإذا ما نجحت هذه الطريقة أو طريقة أخرى مع كتلة أخرى من كتل العدو... أمكن لرسول الله ﷺ أن يبرز لقتال الباقي من جيش العدو.

ولكن بعض الصحابة رضي الله عنهم رأى في ذلك بعض الصَّغار؛ ولذلك رفض هذا العرض الذي عرضه رسول الله ﷺ، وإنما عرض رسول الله ﷺ الأمر عليهم لأنهم هم الذين سيتحملون نتائجه، فلما رأى فيهم العزة والتصميم على الشهادة أو النصر صرف النظر عنه، ولكنه لم يفلته قبل أن يستغل نتائجه أحسن استغلال، فأشاع نبأ هذا الاتفاق مع غطفان بين صفوف الأحزاب، فحطم بذلك تماسك قوات الأحزاب وزعزع وحدتها وتماسكها، ولم يكتف بهذا بل أخذ يواصل التفكير في تدبير مكيدة يدبرها للعدو تفرق كلمته، فوجدها في نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه». [**قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ١٨١**].

ويقول د/ حبيشي: «وأيًّا ما كان الأمر الذي صدر عن النبي ﷺ، فإن مفاوضة غطفان على هذا النحو لو قد حدثت، لكان فيها خير للنبي ﷺ ومن معه، وخير لغطفان.

أما خير هذه المحاولة بالنسبة للنبي ﷺ والمسلمين، فإن أقرب آثارها أنهم سيجلون عن المدينة، فيتنفس المسلمون شيئًا من الصعداء، ويلتفتون إلى قريش شمال الخندق، وإلى بني قريظة جنوبه التفاتة فيها من التمكين من هؤلاء وهؤلاء قدر غير يسير، وأما الخير الذي سيعود على غطفان فهو أنهم سيقبضون ثلث ثمار المدينة دون إجهاد لأمتهم، ودون إراقة دماء من أفرادهم، وهذا أفضل لهم من أن يأخذوا كل ثمار خيبر مع فقدهم لبعض الرجال، وإهلاكهم للخف والحافر، وإجهادهم لما بقي من الرجال.

والشيء العجيب أن إسرائيل ولفنسون ومشرفه (مشرفه هو د/ طه حسين) قد اضطربت بين يديهم العبارات، وجاء نسيج الأسلوب مهلهلًا، وظهر الفصام بين لغة الأداء لديهم، والمعاني التي يريدونها حين زهدوا في قصة نعيم، وعمدوا إلى حديث مصالحة النبي ﷺ وغطفان يحمِّلونه ما لا يحتمل، ويشبهونه بما لا يناظره من وقائع تاريخ الرومان.

ولسنا نريد أن نشغل بالك بما يلوي به هؤلاء أعناقه من روايات التاريخ، حتى يحقق أغراضًا قد خطط لها سلفًا». [يراجع: تاريخ اليهود ـ ولفنسون ص١٤٥ وما بعدها]. [رسالة من النبي ﷺ لحبيشي ١٣٤].

٥ ـ أهمية حنكة القيادة السياسية:

يقول الشيخ عرجون: «بيد أن رسول الله ﷺ رأى ازدياد الحصار على أصحابه إلى جانب ما هم فيه من شدة البلاء وتعاظم المحنة، فأراد ﷺ أن يصنع شيئًا يكسر به شوكة الأعداء في تكالبهم ليفرق جموعهم ويشتت تحزبهم، فبعث إلى الأحمق المطاع عُيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري ـ وكانا زعيمي أكبر كتائب الأحزاب بعد قريش وأحابيشها ليطمعهما في غنيمة سهلة يأخذونها ويرجعان بمن معهما من قومهما ومن تبعهما من غيرهم عن الحرب، فراوضهما ﷺ مراوضة مطمعة على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة، فانتفخت أوداجهما، وربا سحرهما فرحًا بهذا العرض الذي أطفأ حرارة عزيمتيهما على الحرب، وأصابهما بالتخاذل عن تحزبهما للحرب وخوض نيرانها، وأظهرا الرضا والفرح بذلك، وكتب بذلك الكتاب ولم يُشهد عليه ولم يوقع عليه، ودار الحوار الذي ذكرناه في عرض الغزوة بين رسول الله ﷺ والسعدين.

نفحات الإيمان تشحذ العزائم: وهذه قصة تمثل واقعة من وقائع أحداث غزوة الخندق، وهي نموذج من نماذج السياسة الحكيمة المحكمة التي أدار رسول الله ﷺ بها الموقف، وقد بلغ ذروة المحنة، وقد أراد ﷺ بهذه السياسة أن يبرز جانبًا من جوانب منهج رسالته في التحرك لفك الأزمات عند استحكامها وتأزماتها لتكون لأجيال المجتمع المسلم درسًا تربويًّا من دروس التربية المنهجية عند اشتداد البلاء.

حكمة هذه السياسة الحكيمة التي أنقذ بها رسول الله ﷺ موقف المجاهدين، وآراء العلماء في معنى (الحرب خدعة): لم يكن يخفى على رسول الله ﷺ أن هؤلاء الأحزاب الذين جمعتهم المطامع المادية، والحرص المسعور، والحقد الأسود الذي أحرق أكباد من جمعوهم من أشرار اليهود وأخبث خبائثهم، والذي ملأ قلوب بقايا الغثاء من فُلَّال قريش غيظًا محنقًا على رسول الله ﷺ وعلى مجتمعه المسلم في تركيبه الجديد بعد الهجرة والمؤاخاة الإيمانية والتكافلية بين المهاجرين والأنصار، مما جعل هذا المجتمع قوة يُخشى بأسها ـ أن هذ الجموع التي لم يكن لها هدف موحد في تجميعها وتحزُّبها، ولم يكن بينهم وصائل تربطها في مواقفتها لكتائب المجتمع المسلم في حرب ضارية شرسة إذا أعطت أخذت، وإذا أخذت فلا عوض لما تأخذ ـ سبيلها في كسر شوكتها وتفريق جمعها هو سبيلها في تحزبها، وهي قد تحزبت لتغنم وتنهب وتسلب، فإذا جاءت الغنيمة ربحًا بغير تجارة، وكسبًا بغير عمل، وأخذًا بغير بذل، كان ذلك هو مطلبها الأكثر في مقاصد زعماء من تحزبوا ومجيئهم ليشترك أقوامهم في حرب ضروس تطحن قلوب المجازفين بأنفسهم تحت رحاها ليغنم غيرهم ويبوؤوا هم بالخسران المبين.

فإذا جاءت الغنيمة سهلة لبعض هؤلاء المتحزبين وأُهمل الآخرون فلم يحصلوا على شيء، بل لم يعرض شيء إظهارًا للاستهانة بهم وتحقيرهم وإذلالهم وإضعاف قوتهم مشى الحقد والحسد والشكوك إلى قلوب المحرومين المنبوذين الذين أُهملوا فلم يُعَدُّوا في العير ولا في النفير، وتنابز الحاقدون مع الذين دُعوا إلى لا شيء، ولكن عبث بهم في خداع حربي، والحرب خدعة، يجب على سُوَّاسها أن يكونوا في يقظتهم على أكمل العلم بما يضعف قوة العدو من مسالك السياسة الحكيمة.

قال الزرقاني: وأصل الخداع إبطان أمر وإظهار خلافه، وفيه التحريض على أخذ الحذر في الحرب والندب إلى خداع الكفار وإن من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه.

وقال النووي: اتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون في نقض عهد أو أمان فلا يجوز.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: ويقع الخداع بالتعريض وبالكمين ونحو ذلك، وفي الحديث الإشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة؛ ولذا اقتصر على ما يشير إليه بهذا الحديث.

وقال ابن المنير: معنى الحرب خدعة أن الحرب الجيدة لصاحبها الكاملة في مقصودها إنما هي المخادعة، لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر.

وإذا استولى الحقد والحسد والشكوك على النفوس أذابتها، ومزقت أوصالها فلم تعد تصلح لتجمع يستهدف شيئًا من توافه الأمور في الحياة، بَله حرب ضارية اتخذت لها كل أهبة إلا أهبة الصدق والولاء في الإخلاص بين المتحزبين، إخلاصًا يوحد بينهم وحدة لا تعرفها خدع الحروب.

وفي اتخاذ الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري وصاحبه الحارث بن عوف المري حجر الزاوية لهذه السياسة الحكيمة نموذج لما خص به رسول الله ﷺ من العلم بأسرار النفوس الإنسانية وتطلعاتها المختلفة التي تستهويها الخدع الحربية والوعود المادية، فتخلع عليها جلابيب زعامة المتحزبين، وتريهم أنهم هم المقدَّمون في مصائر الأمور.

وعيينة وصاحبه الحارث لم يكونا في واقعهما من ذيَّاك الطراز الذي تُعصب به الأمور وتُعقد عليه العقد والعهود، ولكنهما كانا طعمة لصيد حذر إن جرى الحديث مع غيرهم كأبي سفيان بن حرب، فإنه كان في دهيه ومعرفته لمواقع المكايد أثقل من أن يستخف فيخدع، وكانت له في المجتمع المسلم تِرات وأحداث أدمت قلوب قريش وهو زعيمها وصاحب كلمتها وقائدها في حروبها بعد (بدر)، فليس من السهل بيعها في سوق النسيان أو التناسي بشيء من متاع زائل لا يغسل بمائه دماء قريش في (بدر).

بيد أن الأحمق المطاع وصاحبه لم يكن لهما في سوابق الأحداث وجود، فهما أسرع في الاستجابة إلى حل عقدة التحزب لينفرط عقد التحزب بين الأحزاب، ولم يكونا يستهدفان من انتظامهما في سلك الأحزاب إلا الحصول على كسب رخيص، فاتُّخذا مطية ذلولًا لطبيعتهما وطبيعة موقفهما.

اختيار عيينة وصاحبه الحارث المري كان لونًا من السياسة القيادية لفصم عرى الروابط بين جموع الأحزاب: وقد كان المقصود الحقيقي من الحديث معهما في هذا الإطار، واختيارهما له هو إحداث تخلخل في عواصم التحزب وتمزق في روابط التجمع، وإحلال الشك في هذه العواصم والروابط لتنفصم عراها وتتبدد وسائلها وتتبعثر حشودها الظالمة.

ولم يقصد النبي ﷺ أن يجعل من هذا الحديث والمراوضة مع عيينة والحارث حقيقة مصالحة تجري بينه ﷺ وبينهما، وإنما أراد ﷺ ـ فيما يظهر لنا ـ هذا المعنى الذي أبرزناه ليكون مبعث شك في روابط التحزب التي تربط هذه الحشود المتكالبة على حرب المجتمع المسلم.

وأما بالنسبة لكتائب الجهاد من المجتمع المسلم فقد أراد ﷺ ـ فيما يظهر لنا أيضًا ـ إثارة النخوة الإيمانية فيهم، وشحذ وتجديد قواهم، وتمحيص يقينهم وتثبتهم على الجادة أمام نوازل البلاء والمحن، وكشف حقيقة أعدائهم، وأنهم لم يكونوا في تجمعهم وتحزبهم يستهدفون غاية يقاتلون لتحقيقها، وإنما جاؤوا ليشتروا الدنيا بالآخرة والكفر بالإيمان.

وقد يكون في قول النبي ﷺ وهو يرد على سعد بن معاذ ﷺ في مشاورته: «**بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاللهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّنِي رَأَيْتُ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ** (اشتدوا عليكم) **مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا**» ما يشير إلى أنه ﷺ أراد أن يتخذ في الموقف بعد أن تعقدت فواصله نوعًا من السياسة التي تمزق شمل المتحزبين، وتفرق جموعهم، وتشتت كلمتهم، فيخفف تكالبهم على المجتمع المسلم، وتُضعف قوة تجمعهم دون أن يجعل لهم سبيلًا إلى مدينته وثمارها أو التحكم في أمر من أمورها.

وفي موقف الصحابة ﷺ في مشاورتهم وإفصاحهم لرسول الله ﷺ عن قوة عزيمتهم يظهر صدق إيمانهم ورسوخ يقينهم، وثبات أقدامهم؛ لأنهم سألوا رسول الله ﷺ إن كان ما يعرضه عليهم للمشاورة أمرًا من عند الله، فهم مسلِّمون لأمر الله، لا يخالفونه، وإن كان ما يعرضه عليهم أمرًا يحبه ﷺ فيصنعونه محبة فيما يحبه ويرضيه، وإن كان ما يعرضه عليهم أمرًا يريد به ﷺ الرحمة بهم والشفقة عليهم لما يراه قد حل بهم من شديد البلايا وعظيم المحن، فإننا لا نرضى لأنفسنا بتقبله والرضا به، وثارت نخوتهم الإيمانية، ورأى ﷺ قوة عزائمهم، وقال لسعد بن معاذ ﷺ وهو متكلم القوم: «**فأنت وذاك**»، وأسرع سعد إذ رأى الرضا في وجه رسول الله ﷺ إلى الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة، وقال كلمته المعبرة عن صادق إيمانهم وصوارم عزائمهم: «**لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا، وَاللهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ**»، وأقر الله عين رسول الله ﷺ بصدق إيمان أصحابه وقوة عزائمهم».

[**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٧٦-١٨٠**].

٦ ـ الاستماع للرأي الآخر:

يقول د/ أبو فارس: «نتعلم من رسول الله ﷺ أن نستمع للرأي الذي يخالف رأينا ونعوِّد أنفسنا عليه، كما نعودها على مناقشة ما عندنا وما نسمع ثم نقرر ما نريد لا على سبيل التشهي، ولكن على سبيل معرفة الحق واتباعه، والقادة هم أولى الناس بهذا، فهم مدعوون إلى أن تتسع صدورهم لسماع الرأي المخالف لهم، وأن يفكروا فيه، فلعل فيه الخير والبركة والفلاح، وعليهم ألا يتحرجوا من الأخذ بآراء الآخرين إن وافقت الصواب وإن كانت مخالفة لآرائهم، فالحكمة ضالة المسلم أنى وجدها التقطها».

[**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٥**].

٧ ـ رأي ونظر في رواية لتأويلها ـ إذا صحت ـ تأويلاً يضعها في إطار السياسة المحكمة:

يقول الشيخ عرجون: «في غمرة هذه الشدائد التي أخذت بخناق المحاصَرين والمحاصِرين جاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى رسول الله ﷺ، وكان نعيم رجلًا نمومًا كما ذكره ابن حجر عن ابن

إسحاق من حديث عائشة ـ قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان عن عروة، عن عائشة ﵂ أن نعيمًا كان رجلًا نمومًا ـ أي ينم الحديث وينقله ـ قال الزرقاني: وكان نعيم رجلًا نمومًا ـ وأن النبي ﷺ قال له: «**إِنَّ اليَهُودَ بَعَثَتْ إِلَيَّ: إِنْ كَانَ يُرْضِيك أَنْ تَأْخُذَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رُهُنًا نَدْفَعُهُمْ إِلَيْك فَتَقْتُلُهُمْ فَعَلْنَا**»، فرجع نعيم مسرعًا إلى قومه فأخبرهم، فقالوا: **والله ما كذب محمد عليهم، وإنهم لأهل غدر**، وكذلك قال نعيم لقريش فكان ذلك سببًا في خذلانهم ورحيلهم.

هذه الرواية ـ إن صحت ـ فهي من قبيل السياسة الحربية التي يكون فيها الرأي أنفع من الشجاعة والمواجهة، وتدخل تحت معنى حديث (الحرب خدعة).

وكان النبي ﷺ يتطلع إلى كشف الكرب عن أصحابه، فلما جاءه نعيم وكان يعلم من حاله قبل الإسلام أن صدره يضيق بحديث سمعه دون أن يفشيه ويتحدث به، فذكر له النبي ﷺ ما ذكر عن اليهود بأسلوب التعريض والتورية، فأخذ نعيم ما ألقى إليه رسول الله ﷺ من الحديث، فنقله إلى بعض زعماء غطفان وقريش، وبدأ الفشل يسري بين حشود الأحزاب فافترقت كلمتهم وانفرط عقدهم».

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٨١].

٨ ـ بحث وتحقيق في روايات قصة نعيم بن مسعود ﵁:

يقول الشيخ عرجون: «قصة نعيم بن مسعود الأشجعي ﵁ في غزوة الأحزاب، وتخذيله لهم عن موافقة المجتمع المسلم بقيادة النبي ﷺ قصة مستفيضة، مشهورة متعالمة، وقع على روايتها إجماع أهل المغازي والسير، وذكرها كثير من المحدثين.

قال ابن حجر في الفتح: وَذَكَرَ أَهْلُ المَغَازِي سَبَبَ رَحِيلِهِمْ، وَأَنَّ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ الأَشْجَعِيَّ أَلْقَى بَيْنَهُمُ الفِتْنَةَ فَاخْتَلَفُوا، وَذَلِكَ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ بِذَلِكَ.

وقد قدمنا أن ابن إسحاق ذكر فيها روايتين، أولاهما من طريق يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ ﵂: «أَنَّ نُعَيْمًا كَانَ رَجُلًا نَمُومًا، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «**إِنَّ اليَهُودَ بَعَثَتْ إِلَيَّ إِنْ كَانَ يُرْضِيك أَنْ تَأْخُذَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رُهُنًا نَدْفَعُهُمْ إِلَيْك فَتَقْتُلُهُمْ فَعَلْنَا**»، فَرَجَعَ نُعَيْم مُسْرِعًا إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ، فَقَالُوا: **وَاللهِ مَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّهُمْ لَأَهْلُ غَدْرٍ**. وَكَذَلِكَ قَالَ لِقُرَيْش، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ خِذْلَانِهِمْ وَرَحِيلِهِمْ». [فتح الباري ٧/ ٤٦٥].

وهذه الرواية ذكرها ابن حجر في الفتح، وهي بأسلوبها التي رُويت به لا يمكن أن تُقبل لتدخل تحت معنى حديث (الحرب خدعة)؛ لأن العلماء ـ كما قدمنا ـ استثنوا من عموم ذلك أمورًا لا يجوز أن يشملها المقصود من الحديث، وذلك بأن يكون الخداع فيه نقض عهد أو أمان، وهذا من قبيل التمثيل والشاهد.

وصريح الكذب أوجب أن يُستثنى من الجواز؛ لأنه مما اتفق عليه العلماء سلفًا وخلفًا أن الأنبياء معصومون عن الكذب لا يقع منهم قط.

ولهذا قلنا بأن هذه الرواية ـ إن صحت ـ وجب أن تكون إنما جاءت بأسلوب المعاريض والتورية، فتصرَّف فيها الرواة بما يُفهم منه أن رسول الله ﷺ قال ذلك بالأسلوب الذي أبعده عن التعريض توهمًا منهم أنه داخل في معنى (الحرب خدعة).

ويدل على تصرُّف الرواة ـ إن صحت الرواية، وأن النبي ﷺ لم يقل ذلك مبتدئًا به نعيمًا رضي الله عنه ـ مجيء هذا الكلام نفسه في الرواية الثانية من روايتي ابن إسحاق، وهي الرواية المشهورة المستفيضة بين أهل العلم، على لسان نعيم في حديثه مع أبي سفيان بن حرب إذ قال له: **إن يهود ندموا على ما صنعوا وأرسلوا إلى محمد: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، أيرضيك أن نأخذ من أشراف قريش وغطفان رجالًا تضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم**، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ: «**نعم**».

وقد نقد ابن كثير هذه الرواية، فقال: وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصة نعيم بن مسعود ـ أي في الرواية الثانية ـ أحسن مما ذكره موسى بن عقبة.

وقد أورده عنه البيهقي في الدلائل فإنه قال: وَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَشْجَعَ يُقَالُ لَهُ: نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ، يُذِيعُ الأَحَادِيثَ، وَقَدْ سَمِعَ الَّذِي أَرْسَلَتْ بِهِ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَالَّذِي رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَارَ إِلَيْهِ وَذَلِكَ عِشَاءً، فَأَقْبَلَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قُبَّةً لَهُ تُرْكِيَّةً، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا وَرَاءَكَ؟»، قَالَ: **إِنَّهُ وَاللهِ مَا لَكَ طَاقَةٌ بِالقَوْمِ وَقَدْ تَحَزَّبُوا عَلَيْكَ وَهُمْ مُعَاجِلُوكَ، وَقَدْ بَعَثُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ أَنَّهُ قَدْ طَالَ ثَوَاؤُنَا، وَأَجْدَبَ مَا حَوْلَنَا، وَقَدْ أَحْبَبْنَا أَنْ نُعَاجِلَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُمْ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَنْ نِعْمَ مَا رَأَيْتُمْ، فَإِذَا شِئْتُمْ فَابْعَثُوا بِالرَّهْنِ ثُمَّ لَا يَحْبِسُكُمْ إِلَّا أَنْفُسُكُمْ**، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ شَيْئًا فَلَا تَذْكُرْهُ**»، قَالَ: **نَعَمْ**، قَالَ ﷺ: «**إِنَّهُمْ قَدْ أَرْسَلُوا إِلَيَّ يَدْعُونَنِي إِلَى الصُّلحِ وَأَرُدُّ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**».
[دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٠٤-٤٠٥].

قال ابن كثير: وقد ذكرنا فيما تقدم: أنهم إنما نقضوا العهد على يدي حيي بن أخطب بشرط أن يأتيهم برهائن تكون عندهم توثقة.

قال البيهقي: فَخَرَجَ نُعَيْمٌ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى غَطَفَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ، وَعَسَى اللهُ أَنْ يَصْنَعَ لَنَا**»، فَأَتَى نُعَيْمٌ غَطَفَانَ فَقَالَ: **إِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ، وَإِنِّي قَدِ اطَّلَعْتُ عَلَى غَدْرِ يَهُودَ، تَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يَكْذِبْ قَطُّ، وَإِنِّي سَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ صَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ إِخْوَانَهُمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَيَدْفَعُونَ إِلَيْهِ الرَّهْنَ**. [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٠٥].

فبادر القوم وأرسلوا إلى بني قريظة عكرمة وجماعة معه، واتفق ذلك ليلة السبت، يطلبون منهم أن يخرجوا للقتال معهم فاعتلت اليهود بالسبت، ثم أيضًا طلبوا الرهن توثقة فأوقع الله بينهم واختلفوا.

ولم يكن ابن كثير في نقده لرواية موسى بن عقبة التي أوردها البيهقي عنه في دلائله صريحًا، ولم يبين الجهة التي كانت بها رواية ابن إسحاق المطولة المفصلة أحسن من رواية موسى بن عقبة، وهي أيضًا رواية ذكرها ابن إسحاق.

ومغازي موسى بن عقبة أوثق عند أئمة هذا الشأن من سيرة ابن إسحاق ومغازيه فيها.

واكتفى ابن كثير بسوقه الرواية على ما فيها مما لا ينبغي أن يسند إلى رسول الله ﷺ من صريح الكذب إدخالًا له تحت قوله ﷺ: «**الحرب خدعة**»، وأنه قال لنعيم بن مسعود: «**إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ شَيْئًا فَلَا تَذْكُرْهُ**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: «**إِنَّهُمْ قَدْ أَرْسَلُوا إِلَيَّ يَدْعُونَنِي إِلَى الصُّلحِ وَأَرُدُّ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**».

وقد عقَّب ابن كثير على رواية موسى بن عقبة التي أوردها البيهقي بما يُشعر بعدم اطمئنانه إلى قبول هذه الرواية بما جاء فيها من نسبة الكذب إلى رسول الله ﷺ، وهو معصوم عنه بإجماع العلماء من السلف والخلف إلا شراذم لا يُعتد بخلافهم.

فقال في تعقيبه: قلت: وقد يحتمل أن تكون قريظة لما يئسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله ﷺ يريدون منه الصلح على أن يرد بني النضير إلى المدينة.

وهذا الاحتمال واضح جدًّا في إرادة ابن كثير صرف الرواية عن ظاهرها لتبرأ مما نسبته إلى النبي ﷺ مما لا يليق بعصمته في نبوته.

أما الرواية الثانية من روايتي ابن إسحاق، وهي المشهورة بين أهل العلم وأصحاب السير والمغازي والمعتمدة عندهم، وقد ساقها ابن سعد في طبقاته بتصرف غير مخلٍّ، وليس فيها عنده ذكر أن اليهود بعثوا للنبي ﷺ بأنهم ندموا على نقض عهده، ولا أن ذلك كان من نعيم في حديثه مع أبي سفيان بن حرب، وعدم ذكر ذلك أقرب إلى سياق القصة وجوها، وأنسب بترك حرية التصرف في الموقف إلى نعيم بن مسعود يزنه بميزان ما يحتف به من أحوال، وهو صاحبه الذي عرض على النبي ﷺ أن يقوم بما يستطيع تحقيقًا لقول النبي ﷺ حينما عرض عليه نفسه: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّمَا الحَرْبُ خَدْعَةٌ**».

ومن ثم رأينا أن سياق ابن سعد للقصة موجزة خالية من التفاصيل التي تختلف فيها الروايات أقعد وأحكم.

قال ابن سعد: «وكان نعيم بن مسعود الأشجعي ﷺ قد أسلم فحسن إسلامه، فمشى بين قريش وقريظة وغطفان، وأبلغ هؤلاء عن هؤلاء كلامًا، وهؤلاء عن هؤلاء كلامًا، يرى كل حزب منهم أنه

ينصح له، فقبلوا قوله، وخذَّلهم عن رسول الله ﷺ، واستوحش كل حزب من صاحبه، وطلبت قريظة من قريش الرهن حتى يخرجوا فيقاتلوا معهم، فأبت ذلك قريش واتهموهم، واعتلت قريظة عليهم بالسبت، وقالوا: لا نقاتل فيه لأن قومًا منا عدوا في السبت فمسخوا قردة وخنازير، فقال أبو سفيان بن حرب: **ألا أراني أستعين بإخوة القردة والخنازير**؟ وبعث الله الريح ليلة السبت ففعلت بالمشركين وتركت، لا تقر لهم بناء ولا قِدْرًا». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٨٣-١٨٧**].

٩ ـ مُثُل وشواهد من منهج الرسالة في قصة نعيم بن مسعود رضي الله عنه:

يقول الشيخ عرجون: «وفي قصة نعيم رضي الله عنه يوم الأحزاب مُثُل وشواهد من منهج الرسالة الخالدة جعلت منها إطارًا لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم إذا تفاقمت به الأزمات، واستحكمت الشدائد، وأحاطت به الكوارث، وقاسيات البلايا والمحن، واكتنفته المآزق، وتملكه الرعب والجزع، واستولى عليه الخوف والهلع، واستحوذ عليه الاضطراب والفزع، وسدت في وجهه أبواب المخارج من المضايق.

وجعلت منه إطارًا لما كشفت عنه الأحداث من محكم السياسة التي تصرفت في دائرتها قيادة هذا المجتمع من حسن التدبير، وإحكام الرأي في كيد الأعداء الذي أُخرج في إبَّانه بعد أن توافرت دواعيه.

وأول ذلك أن تلجأ القيادة الحكيمة إلى الرأي الرصين الحكيم تستشيره وتوقظه ليتحرك في اتجاه النظر في بؤره المجمعة لقوة الأعداء، ومصادرها وعناصر تركيبها حتى تتعرف إلى ما فيها من شروخ يسترها النفاق والدعاوي الكاذبة، فتعمد إلى كشفها وتسليط سياسة تمزيق الروابط بين عناصر تلك القوة التركيبية حتى تتفكك وسائل الترابط الزائفة بين تلك القوة المتورمة في حشود العدو.

وجوب إعداد قوة مخابرات تعمل بمهارة جريئة متثبتة: ويسبق ذلك إعداد العناصر القوامة بما يُطلب منها في شأن تفريق كلمة العدو لتؤدي واجبها دون أن يتنبه لها العدو، مما يوجب أن يؤخذ وهو مستغرق في غفلة الغرور عن تدبير ما يُدبر له.

وإذا دلف إلى القيادة عنصر من عناصر الكيد والمكر بالعدو وجب على القيادة أن تضع هذا العنصر ـ دون شعور منه تحت مخبار التجربة بعيدًا عن جو ما يكلَّفه من عظائم الأحداث.

وإذا أظهرت التجربة صحة الوضع في هذا العنصر الطارئ وجب على القيادة أن تسرع إلى انتهاز الفرصة المتاحة لاستغلالها في سرعة وإتقان، ومباعدة للشك والاسترابة مع اليقظة المتوثبة بالمشاعر المرهفة.

وهذا هو الجانب المنهجي في هذه القصة الذي أقامه رسول الله ﷺ على دعائم السياسة الحكيمة المحكمة التي يجب أن تكون سطرًا في دروس التربية للقادة والدعاة في رسالة الإسلام.

فقد جاءه نعيم بن مسعود ﷺ مسلمًا يكتم إيمانه، وقال للنبي ﷺ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ**»، وكانت الأمور قد بلغت بالمسلمين المدى من الشدائد والمحن والتأزمات، وكان رسول الله ﷺ يترقب الفرج ويستشرفه من آفاق العزة الإلهية، فأسرع إلى توجيه نعيم مثيرًا في نفسه مشاعر الصدق والإخلاص في أن يعمل عملًا يسجله له تاريخ الجهاد الإسلامي، ويرفع به عن المجتمع المسلم آصار الحصار والشدائد، ويدخل على قلب رسول الله ﷺ السرور بتفريج ضائقة أصحابه، وقال له رسول الله ﷺ في توجيهه: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ**» أي فماذا تستطيع أن تفعل وحدك في تراكم المعضلات والبلايا التي أحاطت بكتائب الجهاد.

وهذا في الحقيقة إغراء يحرك الحمية في نفس نعيم، وقد أشار إليه رسول الله ﷺ إلى ما يستطيع أن يعمله من عمل قد يكون انفراده به مساعدًا على نجاحه فيه فقال له: «**خَذِّل عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ**».

حمل نعيم ﷺ هذا التوجيه القيادي من القائد الأعظم رسول الله ﷺ، ومضى به إلى الأحزاب يكيدهم ويمكر بهم ويخادعهم حتى أنجز فيهم ما أراده رسول الله ﷺ، فألقى بينهم بذور الشك، وجعل بأسهم بينهم، مع ما أنزل الله تعالى من آيات غيبية معجزة لنبيه ﷺ، من الريح التي أكفأت قدورهم وهدمت بنيانهم، مع شدة البرد التي أهرأت أجسامهم بصقيعها، فترحلوا مدحورين».

[**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٨٧-١٨٩**].

١٠ ـ سِرِّية المداولات:

يقول د/ أبو فارس: «ونستفيد من موقف نعيم بن مسعود ﷺ وحديثه مع بني قريظة وغطفان وقريش أنه كان حريصًا على أن تبقى المداولات سرية ومكتومة جدًّا؛ لأن هذا يساعد على تنفيذ المهمة، أما إشاعة أسرار المداولات فقد يؤدي إلى نتائج ضارة تعصف بكل العمل، وتقضي على كل الجهود المضنية التي بُذلت.

لقد كان نعيم ﷺ يكرر عبارته لبني قريظة وقريش وغطفان: (اكتموا عني)، أي اكتموا خبر مجيئي لكم، وحديثي معكم، واقتراحي عليكم.

وقد أوقع في قلوب المشركين أن كتمان هذا الأمر يحقق مصلحتهم وأن نشر هذا الأمر يفوت عليهم مصالح كثيرة.

نعم لابد أن يستفيد من هذا الدرس الزعماء والقادة وكبار الموظفين، فلا يتحدثون بأسرارهم لمن ليس له علاقة من قريب أو بعيد بأعمالهم، وتصل الأمور إلى حد إفشاء أسرار خطرة جدًّا إلى الأزواج بحيث تصبح الأسرار أحاديث المجالس النسوية». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٨٠**].

١١ ـ مواقف النبوة في هذه الغزوة تدل على تمتع بالحكمة السامية والسياسة الراشدة:

يقول د/ فيض الله: «كان تصرف النبي ﷺ في مواجهة أحداث هذه الغزوة، بأقواله وأفعاله، في غاية الحكمة، وبُعد النظر، وعمق الفكرة، وإصابة الهدف، وقد كان فيها ـ لذلك ـ دروس وعبر للحاكمين والدعاة والقادة، نذكر منها:

(١) مشاركة النبي ﷺ في الخندق، لم تقتصر على حفر التربة، وفلق الصخر، ونقل التراب، مما يدل على المساواة الفعلية، في المشاقِّ والمشاكل والمهام والهموم، بين الراعي والرعية، بل إنها تجاوزت ذلك إلى الحدب الظاهر، والعطف الحاني، والرأفة البالغة بالصحابة المؤمنين، فكان يرتجز معهم قول ابن رواحة، كما أسلفنا ـ وهو يعمل ويحمل، ويمد صوته بآخر القافية، وذلك ليخفف عنهم مشقة العمل، وألم الجوع، وشدة المعاناة.

وتمت كلمة الله في نبيه ﷺ إذ قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

فهل يحفظ المسؤولون هذا الدرس لمن يتولونهم، فيرأفون بهم، ويحنون عليهم ولا يقسون، ويرحمونهم ولا يظلمون؟

(٢) أثبت حادث الصخرة، إلى جانب وصل المؤمنين بربهم، وربط ثقتهم بالله، في كل حال، وفي حال الكرب المطبق، والبلاء النازل، على التخصيص ـ إطلاع الله نبيه ﷺ على بعض شؤون الغيب، وأحداث الأيام، وتقلبات العالم، ومصير العوالم في المستقبل؛ فأراه أُمَدَ فتوح المسلمين في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب؛ ورأوا قصور كسرى وبصرى، وأبواب صنعاء، يدخلها الفاتحون المسلمون، وشمول دعوته هذه الآفاق البعيدة، والأمصار العنيدة، والحضارات العتيدة.

وهذا قليل من كثير من المغيبات التي أظهر الله عليها قلب النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن].

وكما قال في قصة التحريم: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم].

وفي السنة الكثير من ذلك:

(أ) ففي الصحيح عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: لَقَدْ خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ خُطْبَةً، مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلاَّ ذَكَرَهُ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ، إِنْ كُنْتُ لأَرَى الشَّيْءَ قَدْ نَسِيتُ، فَأَعْرِفُ مَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَآهُ فَعَرَفَهُ. **[البخاري في القدر (٦٦٠٤)، ومسند أحمد ٣٨/ ٣٠٧-٣٠٨ رقم ٢٣٢٧٤].**

(ب) اطلع ﷺ ليلة المعراج على العوالم، والسماوات السبع، ودخلها واحدة فواحدة، ورأى سدرة المنتهى، وعجائبها، وسمع صريف الأقلام، ورأى العرش، والكرسي، وعاين سعتهما، وقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ، وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ، عِنْدَ الكُرْسِي، إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلقَاةٍ فِي فَلَاةٍ، وَإِنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِي، كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الحَلَقَةِ**». [رواه ابن مردويه وابن جرير].

(ج) واطلع على مشارق الأرض ومغاربها، فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا...**».

[مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، وأبو داود في الفتن (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢١٧٦)، ومسند أحمد ٢٨/ ٣٣٩ رقم ١٦١١٥، و٣٧/ ٧٨، ١١٨ رقم ٢٢٣٩٥، ٢٢٤٥٢].

وفي حديث آخر: «**مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيتُهُ إِلاَّ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي حَتَّى الجَنَّةَ وَالنَّارَ...**».

[البخاري في العلم (٨٦)].

(د) وتحدث عن القتلى والفتن قبل وقوعها، فعَنْ أُسَامَةَ ﷺ قَالَ: أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُطُم ـ مرتفع ـ مِنْ آطَامِ المَدِينَةِ، فَقَالَ: «**هَل تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ القَطْرِ**».

[البخاري في فضائل المدينة (١٨٧٨)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٥)، ومسند أحمد ٣٦/ ٧٨ رقم ٢١٧٤٨].

وفي آخر: عَنْ عُمَرَ ﷺ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالأَمْسِ يَقُولُ: «**هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ**».

فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ مَا أَخْطَؤُوا الحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

[مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٧٤٠٢)، ومسند أحمد ١/ ٣١٣ رقم ١٨٢].

(هـ) وأخبر عن بعض الرجال وعن أسرارهم بالغيب، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ، قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ»، وفي بعض الروايات أنه جاء سعد بن مالك ﷺ.

[مسند أحمد ٢٠/ ١٢٤ رقم ١٢٦٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح].

وعَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الأَسَدِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِوَابِصَةَ ﷺ: «**جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ البِرِّ وَالإِثْمِ؟**»، قَالَ: قُلتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ، وَقَالَ: «**اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، اسْتَفْتِ قَلبَكَ يَا وَابِصَةُ ـ ثَلَاثًا ـ البِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ**». [الدارمي في البيوع (٢٥٧٥)، ومسند أحمد ٢٩/ ٥٢٣-٥٢٨، ٥٣٢-٥٣٣ رقم ١٧٩٩٩، ١٨٠٠١، ١٨٠٠٦، وقال الشيخان أسد والأرناؤوط: إسناده ضعيف].

وقد أطلت بعض الشيء في هذا الموضوع، وهو إطلاع النبي ﷺ على بعض المغيبات، لأن في نفوس أبنائنا الطلاب، وبعض المسلمين شيئًا منه، فأردت بذلك ترسيخ إيمانهم به، وتزويدهم بحصيلة تمسح كل شك فيه.

ثم، في إعلان النبي ﷺ وهو يفتت الصخرة بمِعْوَلِه، عن هذا الغيب، وما كشف له من أقاليم الأرض، بالطول والعرض، حكمة عظيمة، وسياسة راشدة حكيمة، جاءت في موقعها المناسب، وهي تثبيت قلوب المؤمنين التي هزتها الأحزاب، وتبديد مخاوفهم التي أثارتها السيوف العارضة، والتهديدات المتلاحقة، والجيوش المحدِقة بالمدينة.

ولهذا لم يترك المنافقون هذا الإعلان بلا تعليق مضاد، وتندُّر مُسِف، وإرجاف مخذِّل ـ كما رأينا.

(٣) ينبغي التحقيق عن الأخبار، والتثبت من كل ما يُنقل، وعلى التخصيص في الحروب ـ كما قال القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] وقد قرئ: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾.

وفي غزوة الأحزاب لم يتلق النبي ﷺ خبر نقض بني قريظة عهدهم، بل بعث سعد بن معاذ ﷺ وآخرين معه لاستجلاء موقفهم حقيقة.

ولم يقتصر على ذلك، فإنه أمر الوفد بأن لا يجهروا بقولهم، إن عرفوا منهم الغدر، بل يلغزوا له لغزًا؛ وبيَّن أن الجهر بذلك من شأنه أن يفت في عضد الناس، ويضعفهم، أحوج ما يكونون إلى القوة، ورَباطة الجأش.

وهذا أصل في (الشَّفْرَة) التي تستعمل في الحرب والأسرار في أيامنا.

ثم إنه ﷺ لم يبتئس، أو لم يعلن ابتئاسه من نقض بني قريظة عهدهم، بل قدَّر سنة الله في عاقبة أهل الغدر، ومغبة الغادرين، فتفاءل واستبشر؛ وقد أراه الله من قبل ما يفتح الله لدعوته من الأرض، ويتسلم من مفاتيحها، فرفع صوته قائلًا: **أبشروا بفتح الله ونصره.**

(٤) فكَّر النبي ﷺ أن يُهادن غطفان، بعد أن سئمت طول الحصار غير المجدي، على ثلث ثمار المدينة، مقابل انسحابها عن الأحزاب، فأبى الصحابة أن يعطوهم إلا السيف في نهاية المشورة والمطاف.

وفي هذا العرض درس آخر من دروس تربية الحكام، وأخذهم بمبدأ الشورى، وصرْفهم عن الاستبداد بالرأي، وكان هذا هدي النبي ﷺ في سائر أحواله وأمره.

وفيه أيضًا استعجام عود الصحابة، واختبار مبلغ قوتهم وصلابتهم في المعركة؛ وقد اشتد الخَطْب، والتحمت الجيوش، واسْتُصْعِبَ النصرُ؛ وهذا أيضًا من أساليب التربية الحربية؛ ويؤيده أنه صرح لهم بأن هذا تصرف شخصي منه، وليس بلاغًا من رب العالمين.

والسؤال الذي يثور في هذا الصدد، هو أنه: هل يجوز للمسلمين إذا اقتضت الحاجة أن يتنازلوا للكفار عن بعض أموالهم، حفظًا على حياتهم، أو خوفًا من استئصالهم، بناءً على هذا العرض النبوي على الصحابة؟

والجواب: أن النبي ﷺ قد عرض هذا على الصحابة، وفكر فيه، لكنه لم يفعله؛ والحجة الشرعية في أقواله وأفعاله ﷺ، فلا تقوم به حجة، ونظيره مقاله في حديث آخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلاَةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَظْمًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ، لَشَهِدَ العِشَاءَ**».

[البخاري في الأذان (٦٤٤)، وفي الأحكام (٧٢٢٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٥١)، وأبو داود في الصلاة (٥٤٨)، والنسائي في الإمامة (٨٤٨)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٩١)، والدارمي في الصلاة (١٢٧٤)، ومسند أحمد ١٤/ ٤٧١ رقم ٨٨٩٠، ١٥/ ٢٩٤ رقم ٩٤٨٦، ١٦/ ٥١٠ رقم ١٠٨٧٧].

فقد هَمَّ أن يحرق بيوت تاركي الجماعة، وصرح به لكنه لم يفعله، فلا يجوز تحريق بيوت تاركي الجماعات بإجماع؛ وإنما الحديث لتنظيم صلاة الجماعة، والترهيب من تركها بلا عذر، فكذلك الأمر هنا، لا يجوز ـ في الأحوال العادية ـ ترك المسلمين القتال، وبذل المال للأعداء.

نعم إذا اضطر المسلمون إلى ترك القتال، ومصالحة عدوهم، لكثرة العدو، وقلتهم، وقلة سلاحهم، بحيث إنه لا تكافؤ فيه مطلقًا، وخافوا من استئصال شأفتهم، واستيقنوا أنه لا طاقة لهم بمواجهة عدوهم، جازت لهم مهادنته، بمال أو بغير مال، تخلصًا منه؛ وهذا من باب الضرورات التي يجوز فيها ما لا يجوز في غيرها، فالأصل فيها المنع.

والضرورة كما هو معلوم في علم الأصول، نازلة لا مدفع لها إلا بارتكاب محظور يباح شرعًا لدرئها.

ومع ذلك فقد نَصَّ فقهاء الحنفية على جواز الصبر في هذه الحال؛ لأن فيه بذل النفس ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وأدلة هذه المسألة من السنة وواقع الحرب الإسلامية، مبسوطة في كتب الفقه، يراجعها فيها من يشاء».

[صور وعبر لفيض الله ٢٣٥-٢٤١، وينظر للتفصيل: الجوانب التربوية المستنبطة من غزوة الأحزاب لنحاس ٩٣-١٠١].

١٢ ـ دولة ثابتة الدعائم:

يقول د/ عويس: «هذه الهزات الخارجية بعد أُحُد لم تغير من امتداد الدعوة الإسلامية شيئًا! كانت الدعوة تشق طريقها في ليل الحياة الجاهلية كما تشق أشعة الشمس طريقها في الصباح.

لقد كانت قدرًا لابد منه، وإن اعترضته بعض الغيوم.

وفي ظلال الرسول ﷺ كان المسلمون يتفيؤون معاني الأمن والرضا والشعور بالسكينة كلما حزبهم أمر من الأمور.

كان النبي ﷺ واثقًا كل الثقة من وعد ربه وكان يتصرف على هذا الأساس ومع أن العامين اللذين أعقبا أُحُدًا كانا مفعمين بالمتاعب، إلا أن ظلال النبوة الكريمة قد حولت هذه المتاعب إلى معنى جميل يكتنف الحياة في المجتمع الإسلامي الناشئ المجاهد، بل حولت هذه المتاعب إلى نصر حقيقي، وإلى تدعيم أكيد لأركان الدولة الناشئة!

دولة قادرة على الحوار: لقد تم ـ بإيجاز ـ تحويل المدينة إلى جزيرة إسلامية خالصة، ليس فيها «جماعة» تقف ـ كقوة متميزة ـ ضد الجماعة الإسلامية.

فالقوة المتميزة الداخلية الكبرى كانت تتمثل في اليهود.

ولم يكن خطرهم متمثلًا في وجودهم المتميز فحسب، بل تمثل خطرهم في طبيعتهم المعروفة عبر تاريخهم كله!

ومنذ اللحظة الأولى لدولة المسلمين في المدينة، وعلى الرغم من الصحيفة، فإن اليهود أخذوا يدخلون في حوار غير كريم مع الجماعة الإسلامية الناشئة!

والحوار حق لكل الناس، بشرط أن يقوم على أساس إظهار الحقائق، ويهدف إلى الوصول للحق!

لكن أساليب اليهود ـ سابقًا ولاحقًا ـ في الحوار، كانت هدامة، بل كانت أسلوبًا استفزازيًّا إعلاميًّا يعتمد الكذب و«المكيافيلية» الدنيئة.

ـ لقد أنكروا النصوص المتعلقة بالنبي في التوراة، وتعمدوا إخفاءها، وهذا مخالف لأصول الحوار الكريم الهادف.

إنهم قابلوا أسلوب القرآن الكريم في الحوار، ذلك الأسلوب الذي يبدأ بتكريم الخصم لتهدئة روعه، ولا يضيره أن يعترف بالحق الموجود مع الخصم إن كان معه الحق (القرآن مدح بني إسرائيل حين استحقوا ذلك، وناداهم بيا بني إسرائيل ـ أي يا أبناء عبد الله ورسوله يعقوب)!

لقد قابلوا هذا الأسلوب ـ باستثناء بعض أحبارهم المخلصين الذين أسلموا ـ بالتشهير والتحريف والمعارضة بالباطل، وإنكار ما عندهم بشأن النبي محمد ﷺ وصفاته، بل إنهم ـ وهم أهل كتاب ـ كانوا يقفون فكريًّا (وعمليًّا بالطبع) مع الوثنيين المنكرين لكل الأديان!

ـ بل بلغ الأمر أن قال الحارث بن زيد لهم: هلموا نحتكم إلى توراتكم، فرفضوا، وقد كان بعضهم يتظاهر بالإسلام، ثم يعلن كفره بعد ذلك، ليحط من قدر الإسلام، ويُظهر أنه إنما تركه من علم وخبرة به!

ـ وقد شَطُّوا في عداوتهم الفكرية، واجترائهم على آداب الحوار، فعمدوا إلى استبدال بعض ألفاظ القرآن الكريم بغير ما أنزل الله، لكن الله كشفهم وحفظ كتابه، فحاولوا تغيير المعاني وتحميلها ما لا تحتمل من تأويل، بما يتفق مع أهوائهم المنحرفة!

ـ هذه الحرب الفكرية المتجاوزة لقواعد الحوار العلمي الكريم.

ـ هذه الحرب المصحوبة ـ في الوقت نفسه ـ بتخطيطات وتكتلات سرية، واستفزازات علنية، ومحاولات مستمرة لإثارة الجاهلية القديمة بين الأوس والخزرج.

ـ هذه الحرب اليهودية، ما كان يمكن مهادنتها والعيش معها تحت شعار «حل سلمي عادل» أو «اتفاقية».. أبدًا.

ـ وهؤلاء اليهود الذين حوَّلوا «صحيفة النبي ﷺ» إلى حبر على ورق، ليسوا أهلًا لأية اتفاقية.. بعد ذلك!

فليس أحدكم أكرم خلقًا من الرسول ﷺ.

ولا توجد صحيفة أعدل من صحيفته.

ولم يثبت ـ تاريخيًّا ـ أن اليهود قد غيَّروا جلدتهم.

وأي صلح «حقيقي» يبرمه حاكم مع هؤلاء الخونة هو تعبير عن غفلة وجهالة بأبسط معطيات التاريخ!

ـ ليكن هناك صلح إستراتيجي (تكتيكي مرحلي) معهم.

ـ ليكن في حالة من حالات الهزيمة والخوف والفشل.

ـ لكن الظن بأن اليهود أهل للصلح والسلام العادل الدائم.. هذا الظن أقل من أن يوصف بأردأ التعبيرات الممكنة!

هكذا نتعلم من ظلال النبوة التي لا تمتد إلا فوق أرض الحقيقة، ولا يستظل بها إلا الباحثون عن الحق.. والحق المجرد!

دولة قادرة على الحرب والنصر: وقد انتهى الصراع الداخلي بين اليهود والمسلمين ـ في مرحلته الأولى ـ بإجلاء بني قينقاع ـ كما ذكرنا ـ وهم أبرز العناصر المؤثرة ـ جغرافيًا ـ في داخل المدينة، بعد أن تجرأوا فاعتدوا على كرامة امرأة مسلمة، وبعد أن استفزوا الرسول ﷺ بكلمات تشبه التهديد!

ولم تَحُل هزات «أُحُد» و«يوم الرجيع» و«بئر معونة» التي تلت أُحُدًا، من الاستمرار في إجلاء القوى المناوئة الداخلية، فكان إجلاء بني النضير، خطوة أخرى بعد إجلاء بني قينقاع!

والذي يبدو أن هذه الهزات قد أطمعت يهود بني النضير في المسلمين، فائتمروا على قتل الرسول ﷺ ـ وهو في دارهم ـ وكلَّفوا «عمر بن جحاش» إلقاء حجر على الرسول ﷺ من فوق سطح إحدى دورهم، أثناء وجوده ﷺ بينهم!

لكن الرسول ﷺ تنبه لمكرهم، وانصرف دون أن يعرفوا أنه عرف مؤامراتهم، ثم أرسل إليهم «محمد بن مسلمة الأوسي ﷺ» يخبرهم بنقضهم العهد، ويأمرهم بالخروج من المدينة!

كان الخبر صاعقة وقعت على رؤوس التكتل المعادي للإسلام في داخل المدينة كلها، فجلاء بني النضير يعني رجحان كفة المسلمين، وسيطرتهم تمامًا على المدينة.

ولقد شعر المنافقون بالحبل يقترب من أعناقهم، بعد أن سمعوا الخبر، ولقد حاول عبد الله ابن أُبي بن سلول ـ زعيم النفاق ـ تحريض بني النضير على العصيان، لكن موقف الرسول ﷺ كان أحزم وأسرع، بحيث لم يترك فرصة لالتحام هؤلاء الأعداء، ولقد امتلأت قلوبهم جميعًا بالرعب، حين رأوا المسلمين يستبسلون في حصار بني النضير، ويحرقون بيوتهم، ويقطعون نخيلهم وينكلون بهم أشد تنكيل!

ـ وبدت المدينة، بعد جلاء بني النضير، ومن قبلهم بنو قينقاع، بدت ـ بحق ـ جزيرة إسلامية، للإسلام فيها الكلمة العليا!

ولقد تأكد ـ لدى التكتلات المعادية كلها ـ أن الصراع مع المدينة، بطرق تأليب الجبهة الداخلية أسلوب فاشل، وأنه لابد من أسلوب آخر، يعتمد الوضوح والتجميع والحرب المباشرة التي تضم أطراف التكتل المعادي للإسلام كلها..!

وكانت غزوة الأحزاب أو الخندق، هي التعبير الضخم عن هذا الاتجاه، وبانتصار المسلمين في هذه الموقعة الفاصلة ـ وليس قبل ذلك ـ يمكن أن نقول: إن دولة الإسلام في المدينة، قد تخطت مرحلة الدفاع، وأصبحت ثابتة الأركان، تملك زمام المبادرة!». [**في ظلال الرسول ﷺ لعويس ١٣١ - ١٣٦**].

١٣ ـ الخندق.. قمة مرحلة الدولة:

يقول د/ عويس: «كانت غزوة الأحزاب غزوة قاسية، انصهرت في بوتقتها المعادن التي أخرجها الإسلام فظهر منها ما كان سليمًا أصيلًا اشتمل عليه الإسلام كل كيانه، وظهر كذلك ما كان مزيفًا لا يملك إلا طلاء خارجيًا، ولم يملك الإسلام عليه كل كيانه بعد.

وفي هذه الغزوة أخرجت الجزيرة العربية ـ بكل أطراف الوجود فيها ـ كل ما ادخرت من حقد، وكل ما أضمرته نحو القوة الإسلامية الناشئة من نوايا الهلاك والتدمير والقضاء الشامل عليها.

اجتمع المشركون المكيون الذين ظهر عندهم النور فطردوه، واجتمع المشركون من سائر الجزيرة الذين رأوا النور يُطرد من بيته الأول، فطاردوه هم كذلك.

واجتمع اليهود، منبع الحقد على التراث النبوي كله.

وأطبقت الحلقة على المسلمين، وزُلزلوا زلزالًا شديدًا.

ومن بين مخالب الظلام استخلص الله شمعة من الشموع التي توهجت فجأة، وكان من قدر الله أن أخرج المسلمين على يدها من بين هذا الظلام الجاهلي المطبق!

وكانت هذه الشمعة هي ذلك الرجل الوثني الذي أسلم في هذه الظروف الكئيبة، هي «نعيم بن مسعود ﵁».. من غطفان!

وعندما جاء نعيم يعرض على الرسول ﷺ إسلامه، لفت الرسول ﷺ نظره إلى أنه فرد واحد، وإلى أن قيمته تتركز في مدى إعمال فكره فقط، وقال له ـ بالتالي ـ قولته المشهورة: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ**».

ونجح نعيم ﵁ بهذه السياسة المناسبة في الإيقاع بين قريش واليهود، وعلَّمنا بنجاحه كيف أن الشمعة الصغيرة قد تبدد ظلام ليل كلوح!.. وتم نصر الله، وحفظ المسلمون قصة نعيم ﵁، وتجاهلوها في معارك كثيرة بعد ذلك!

إن نعيم بن مسعود ﵁ لم يتقدم لهذا العمل الفدائي، ولم يدخل هذا الدين، في ظروف عادية، يحتمل فيها أية شبهة مصلحية مادية، وما كان أحد يستطيع التكهن بالمستقبل الذي ينتظر هؤلاء الناس، بل إن بعض المسلمين أنفسهم قد أظلمت الدنيا في وجوههم.

إن إيمان نعيم ﵁ إيمان نموذجي يصلح كأبلغ رد على الماديين الجدليين الذين يلتمسون لكل رأي أو فكرة محركًا ماديًّا..!

لقد انضم نعيم ﵁ وهو يعلم أنه إنما ينضم إلى قافلة معرَّضة للإبادة، وأنه سينال نصيبه من هذه الإبادة، لكن فطرة نعيم ﵁ كانت نقية غير مشوهة، وبالتالي، فلم يفهم أن العقيدة تخضع لظروف مادية خارجية تتقلب في النفس والعقل تبعًا لها، إنما هي قضية تغيير النفس والعقل تغييرًا جذريًّا داخليًّا لا يقبل التبعية لعامل خارجي، مادي أو غير مادي!

ولقد بدأ نعيم ﵁ يخدم عقيدته الجديدة ـ في ظل التوجيه الكبير للرسول ﷺ ـ بدراسة الظروف المحيطة بالمعركة دراسة واعية مستوعبة، ولم ينس في الوقت نفسه الإمكانات المتاحة، باعتباره صديقًا لليهود، وباعتباره محل ثقة أهل مكة، كما أنه بالتأكيد قد استفاد من أفكاره السابقة التي يمكن أن يكون قد أثَّر فيها وعيه بأساليب اليهود الذين امتازوا بالتخطيط والدراسة والعمل الواسع الذكي، بالإضافة إلى إفادته من تراث قبيلته «غطفان»!

والذين يعيشون في ظروف الخندق ـ كالمسلمين سابقًا أو لاحقًا ـ مُلزمون في عملهم برسم خريطة لأعدائهم، ووضع كل منهم في مكانه الملائم على الخريطة، مع ملاحظة التمييز بالألوان المختلفة بين الأعداء العقائديين، وبين أعداء الفكر والسياسة والاقتصاد وما إلى ذلك، مع أخذ الإمكانات المتاحة بعين التقدير، مضافًا إلى ذلك ما يقدمه العلم، وما يعطيه التاريخ!

ومن الجدير بالإشارة في نهاية رحلة بناء الرسول ﷺ للدولة، من خلال هذه المعابر التاريخية، التي انتهت بالخندق.

ـ الجدير بالإشارة والتأكيد أن أعداء الإسلام الذين واجهوا المسلمين في الخندق، هم أنفسهم القوالب الفكرية التي يواجهها المسلمون اليوم، إنهم الأحزاب ذاتها.. اليهود... والوثنيون الماديون (الشيوعيون) المتضافرون مع اليهودية.. والمنافقون المتظاهرون بالإسلام، من ذيول التبشير، ورؤساء العشائر القومية وملوك الطوائف المنتشرين في ساحة العالم الإسلامي الفسيح!

إن هؤلاء الأحزاب ـ قدامى ومُحْدَثين ـ هم الجاهلية التي لن تقبل معايشتنا إلا برضوخنا لظلامها وضلالها وضياعها: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]!

إنهم الجاهلية المحيطة بالخندق.. الخندق الذي لم نصنعه بعد، والذي ما زال فكرة غائمة في ضمير المسلمين المبعثرين، الباحثين عن «سلمان ﷺ» يفكر، وعن «نعيم ﷺ» ينفذ! حتى تسير القافلة الإسلامية المحاصرة باتجاه النصر المأمول، وحتى تُبنى الدولة الإسلامية المرتقبة، في ظلاله ﷺ امتدادًا لدولته الأولى، دولة الهجرة، دولة ما بعد الخندق! ». [**في ظلال الرسول ﷺ لعويس ١٣٦-١٣٩**].

١٤ ـ الخندق ميلاد حضارة:

يقول د/ عويس: «من الخندق دائمًا تولد الحضارات المبدعة.

ولم توجد حضارة وُلدت قبل معاناة الحمل والوضع والتعرض لمبضع الجراح.

وكانت الفترة التي بدأت بالهجرة، وانتهت بالخندق هي الفترة التي تعرض المسلمون فيها لآلام الحمل كأشد ما تكون المعاناة.

وثمة موقفان واضحا الدلالة على ميلاد الحضارة في الخندق لم يلقيا حقهما من التحليل الكافي، برغم ورودهما في معظم مصادر السيرة الزكية:

أولهما: يرويه سلمان الفارسي ﷺ ـ ودوره في الخندق مشهور ـ عندما غلظت عليه صخرة، وكان رسول الله ﷺ قريبًا منه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحُدِّثْتُ عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: ضَرَبْتُ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الخَنْدَقِ، فَغَلُظَتْ عَلَيَّ صَخْرَةٌ، وَرَسُولُ الله ﷺ قَرِيبٌ مِنِّي؛ فَلَمَّا رَآنِي أَضْرِبُ وَرَأَى شِدَّةَ المَكَانِ عَلَيَّ نَزَلَ فَأَخَذَ المِعْوَلَ مِنْ

يَدِي، فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً لَمَعَتْ تَحْتَ المِعْوَلِ بَرْقَةٌ، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الثَّالِثَةَ فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى، قَالَ: قُلت: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله! مَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ لَمَعَ تَحْتَ المِعْوَلِ وَأَنْتَ تَضْرِبُ؟ قَالَ ﷺ: «**أَوَقَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلمَانُ؟**» قَالَ: قُلتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**أَمَّا الأَوَّلُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا اليَمَنَ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالمَغْرِبَ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا المَشْرِقَ**».

وثانيهما: تلك القولة القوية الدلالة التي قالها الرسول ﷺ لما انصرف عن الخندق: «**لَنْ تَغْزُوكُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّكُمْ تَغْزُوهُمْ**»، فكان ذلك حتى فتح الله مكة.. وما بعدها.

هكذا في أصعب لحظات الصراع الدموي.. كانت تولد ـ في ظلال النبوة ورؤيتها التاريخية التي لا تخطئ ـ الاستشرافات المستقبلة للحضارة الجديدة الممتدة الواسعة التي ستدين على سعتها وتباينها لفكر وسلوك النبي الكريم ﷺ وللصفوة القادرة، صانعة الخندق وحارسته.

[في ظلال الرسول ﷺ لعويس ١٤٦-١٤٧].

ويقول د/ زين السيد: «إن انتصار الإسلام في غزوة الخندق هو دون شك ميلاد جديد للرسالة المحمدية والأمة الإسلامية والدولة الفتية؛ لأن إيمان الجند بالله كان أمضى من الحسام وأقوى من الحديد، وأحمس من النار؛ لأنه من قوة الله، وفيه الملائكة والروح، ووراءه الأمل والنجاح.

وهكذا انتهت هذه الحرب بطرد الأحزاب المجتمعين خارج الخندق وانتصر المسلمون عليهم بفضل الله أولًا، ثم بما قام بعضهم من التخذيل بين الصفوف مما جعلهم قوة يُخشى بأسها، وشوكة في جانب كل من تسول له نفسه من الأعراب وغيرهم الذين كانوا يهدفون القضاء على الإسلام، والواقع أن المسلمين نالوا شرفًا وفخارًا بصمودهم وبطولاتهم فأصبحوا قوة مرهوبة الجانب يُخشى بأسها ويحسب حسابها.

وفي صبيحة يوم الأحزاب، وقد اطمأن النبي ﷺ إلى انصرافهم إلى بلادهم خائبين خاسرين عاد مع أصحابه إلى المدينة يملأ قلوبهم الفرح والسرور بما منحهم الله من الظفر والنصر المبين وبدأوا دورًا في الحياة جديدًا.

إن غزوة الخندق كانت معركة حاسمة فلو قُدر للأحزاب واليهود الانتصار فيها لتغير بذلك وجه التاريخ الإسلامي، فإن اليهود استطاعوا أن يجمعوا الأحزاب حول المدينة بمعاونة بني قريظة للقضاء على المسلمين، وهذا التجمع فرصة لن تتكرر أبدًا، وفَشَلُ الأحزاب في هذه المرة معناه أنهم لن يجتمعوا بعد هذا أبدًا، وأن اليهود لن يستطيعوا القضاء على المسلمين منفردين بعد عجزهم عليهم مجتمعين، ولهذه النتيجة أثر حاسم في انتشار الإسلام فيما بعد.

لقد انتقل المسلمون من دور الدفاع إلى دور الهجوم في نفس اليوم الذي انتهت فيه غزوة الخندق.

[الرسول القائد ﷺ لمحمود شيت خطاب ٢٢٩ بتلخيص شديد].

وساق النبي ﷺ إلى صحابته بشارة اطمأنت بها نفوسهم واستراحت لها قلوبهم، وهي ما رواه البخاري: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**».

فوقع الأمر كما قال النبي ﷺ فلم تغزهم قريش بعد ذلك أبدًا، وكان النبي ﷺ هو الذي يغزوها حتى فتح الله عليه مكة». [دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب للسيد ١٧٥-١٧٦].

١٥ ـ حضارة زاحفة:

يقول د/ عويس: «ظهرت المدينة بعد الخندق ـ عملاقًا شب عن طوق الخوف من ضربات الداخل والخارج معًا، وقد بدأت تتجلى للعيون دولة فكرة زاحفة لا مجرد مدينة متناقضة الهوية مع العالم المحيط بها..

لقد سقطت قلاع اليهود الثلاث في داخلها..

ولقد فشل التجمع الجاهلي الذي أحاط بها إحاطة السوار بالمعصم، وأحس المسلمون بدبيب حياة جديدة في أوصالهم.

ولم تبعد الأيام، فقد بدأ شعور الوجود يعتمل في نفوس المسلمين، وبدأت مخيلاتهم ـ وهم الذين كانوا يعيشون في معتقل أسواره اليهود والوثنيون ـ ترنو لزيارة محاضن طفولتهم وأماكن مناسكهم التي أبيحت للناس جميعًا إلا أصحاب الحق الشرعي.

وكان الرسول ﷺ أسبقهم وأصدقهم إحساسًا، فرأى في منامه أنه دخل المسجد الحرام.

وانحسرت من الشعور والوجدان، قبل أن تنحسر على المستوى المادي الإستراتيجي سياسة الدفاع... وبدأت موجة الهجوم والرغبة في الأخذ بالثأر، وإيقاف الجاهلية عند حدودها ـ تأخذ مداها في المستويين النفسي والخارجي للمسلمين.

ولم يمض غير ستة أشهر ـ بعد الخندق ـ حتى بدأ الرسول ﷺ تنفيذ الإستراتيجية الجديدة.

[في ظلال الرسول ﷺ لعويس ١٤٨].

المبحث الخامس
الدروس العسكرية

١ ـ الخطة النبوية:

يقول د/ أبو فارس: «ولما وصل خبر مسير الأحزاب إلى رسول الله ﷺ جمع الصحابة من المهاجرين والأنصار، وأخبرهم بمسير الأحزاب، وتداول معهم الأمر فكان أمامه موقفان: إما أن يخرج ﷺ والمسلمون خارج المدينة لقتال الأحزاب، وإما أن يتحصن في المدينة ويتبع أسلوب القتال الدفاعي في المعركة.

ولقد اختار رسول الله ﷺ الموقف الثاني؛ ذلك لأن قوة الأحزاب ضخمة، وعددهم أضعاف عدد المسلمين، وعدتهم كذلك، فكفتهم راجحة، ولابد أن يعوض رسول الله ﷺ هذا بأن يختار موقعًا حصينًا يأوي إليه ويقاتل منه، ومن المعلوم عسكريًّا أن موقع المدافِع المتحصِّن أقوى من موقف المقاتِل المهاجِم؛ لأن الثاني مكشوف للأول، سهل الإصابة، بخلاف المتحصِّن فإنه غير مكشوف، من الصعب بل من العسير إصابته والقضاء عليه.

وحين استقر رأي رسول الله ﷺ والمسلمين على عدم المصادمة الخارجية والتحصن بالمدينة أشار سلمان الفارسي ﷺ بحفر خندق في الجهة المكشوفة من المدينة، يحول بين العدو وبين دخول المدينة، وفكرة حفر الخندق حول المدن فكرة عسكرية فارسية أخذها سلمان ﷺ عن قومه وأشار على رسول الله ﷺ بها بقوله: «**يَا رَسُولَ الله، إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ إِذَا حُوصِرْنَا خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا**».

والذي يزور المدينة يلاحظ أنها محاطة بالجبال الوعرة الشاهقة والمساكن المتلاحقة التي تشكل بمجموعها حصنًا منيعًا يصعب الدخول منه من ثلاث جهات، وهناك الجهة الشمالية مكشوفة يتوقع الهجوم على المدينة منها، فينبغي أن تحصن هذه الجهة.

لقد كان من خطة الرسول ﷺ أن يعسكر أمام جبل سلع ليحمي ظهره، ويحفر الخندق أمامه ليصد هجمات الأحزاب.

وشيء مهم كان يشغل رسول الله ﷺ والمسلمين معه هو أمن النساء والصبيان، فأصدر ﷺ أمرًا بوضعهم في أماكن آمنة.

وإضافة إلى ذلك فقد خصص رسول الله ﷺ فرقة لحراسة المدينة مكونة من ثلاثمائة مقاتل، ثم شكل فرقة أخرى مكونة من مائتين، وظل المسلمون يحرسون الخندق لا تغفل أعينهم عنه لحظة واحدة، بما فيهم رسول الله ﷺ». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٥-٩٦**].

٢ ـ كيفية وضع الخطة الحربية:

يقول أ/ فرج: «إن قائد جيش المسلمين ﷺ حين ألقى نظرة على الموقف بدأ يضع خطته على أساس الحقائق التالية:

أولًا: بالنسبة للعدو:

١ـ العدو متفوق في العدد والعدة والخيل والإبل.

٢ـ العدو يتخذ خطة الهجوم ويملك حرية الحركة والمناورة.

٣ـ التحالف ينبئ بشدة التصميم على خوض معركة كبيرة وإحراز نصر حاسم.

٤ ـ أنها معركة الثأر من بدر وأُحُد.

ثانيًا: بالنسبة لجيش المسلمين:

١ـ أقل عددًا وعدة.

٢ ـ يتخذ خطة الدفاع، فلا يملك ميزة المبادأة وحرية العمل.

٣- الروح المعنوية لدى المدافعين أقل منها عند المهاجمين، وكلما طال أمد الحصار كان ذلك في غير مصلحة المدافعين.

٤ـ على الرغم من الإيمان الصادق الذي تشربت به نفوس المسلمين إلا أن هناك عددًا من القوم لم يكتمل دينهم ولم تكتمل عقيدتهم ولم يصدق جهادهم.

٥ـ أن المعركة المرتقبة توشك أن تكون ذات أثر خطير؛ ولهذا رأى «القائد» أن يستخدم الحيلة وأن يصرف بعض الحلفاء ـ والحرب خدعة ـ فأراد ذلك حتى يجنب قومه معركة عنيفة ومصيرًا شديدًا.

ولكن «القائد» لم ينفرد باتخاذ القرار وإنما دعا معاونيه ـ أي أركان حربه ـ يستشيرهم فيما عقد عليه العزم، فراجعوه في الرأي وخالفوه في الاتجاه ولكن بأسلوب بلغ الغاية في احترام القائد وتقديس حرية الرأي، وأيضًا فإن «القائد» أرسى الديمقراطية في جيشه وبلغ الغاية في النزول على رأي الجماعة عندما استمع لهم واقتنع بحجتهم ووثق برجاحة فكرهم». [**انتصارات عربية خالدة لفرج ٤١-٤٢**].

٣ ـ القيادة الحازمة الرشيدة:

يقول ل/ خطاب: «عالجنا أسلوب القيادة المرتبك عند الأحزاب ويهود، مما كان له أسوأ الأثر في نتيجة معركتهم.

وبقدر ما كانت قيادة الأحزاب واهنة، كانت قيادة المسلمين قوية حازمة رشيدة.

قرَّر الرسول ﷺ البقاء في المدينة المنورة، وأمر بحفر الخندق، وانتخب منطقة الحفر في السهول الكائنة شمال المدينة، ووزع أعمال الحفر بالتساوي بين أصحابه، وسيطر على العمل، فلا يستطيع أحد ترك واجبه إلا بأمر منه، حتى أنجز أعمال حفر الخندق قبل وصول المشركين إلى المدينة المنورة.

واشتغل هو بنفسه بالحفر كبقية أصحابه تمامًا، بل استأثر دونهم بالأماكن الصلبة في منطقة حفر الخندق التي لم يستطع أصحابه التغلب عليها، كفلق الصخور القاسية!

ثم قسَّم واجبات احتلال الموضع بين أصحابه، بحيث لا يغفل أحد عن شبر من الخندق ليلًا ونهارًا، على الرغم من برودة الطقس؛ وقد كان هو بنفسه لا يترك مقرَّه إلا ليقوم بتفتيش الحرَّاس والمواضع الدفاعية وليحرض المؤمنين على القتال ويرفع من معنوياتهم.

وأمَّن حرسًا قويًّا للذراري الذين تركهم في دور المدينة.

وأهم من ذلك كله سيطرته على أصحابه عندما تأزَّم الموقف حين وصلت الأحزاب إلى ضواحي المدينة بقوات متفوقة على المسلمين، وحين نكثت قريظة عهدها، فأصبح الخطر يهدِّد المسلمين من داخل المدينة وخارجها». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣٦-٢٣٧**].

ويقول د/ الصلابي: «كانت هناك مجموعة من الأنصار تقوم بحراسة النبي ﷺ في كل ليلة على رأسهم عباد بن بشر ﵁، فالنبي ﷺ هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة، فهو الذي يرسم الخطط ويراقب تنفيذها فهو الذي:

(أ) أمر بحفر الخندق بعد أن تمت المشاورة في ذلك، فاختار مكانًا مناسبًا لذلك، وهي السهول الواقعة شمال المدينة، إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

(ب) قسَّم أعمال حفر الخندق بين الصحابة، كل أربعين ذراعًا لعشرة من الصحابة، ووكل بكل جانب جماعة يحفرون فيه.

(ج) سيطر ﷺ على العمل، فلا يستطيع أحد ترك عمله إلا بإذن منه ﷺ.

(د) قسم ﷺ واجبات احتلال الموضع بنفسه، بحيث تستمر الحراسة على كل شبر من الخندق ليلًا ونهارًا، ثم إنه ﷺ كان يقوم بمهمة الإشراف العام على الجند بتشجيعهم ورفع معنوياتهم.

(هـ) استطاع ﷺ لما يتمتع به من حنكة وبراعة سياسية مستمدة من شخصيته النبوية أن يمسك بزمام الأمور، وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج الذي حدث لهم عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة، وأصبح الخطر يهدد المدينة وما حولها [**ينظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ص١١**].

فقد توحدت قيادة المسلمين تحت زعامته ﷺ، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة والفوز بها».

[**السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٦٤**].

٤ ـ استخدام مبدأ المفاجأة:

المفاجأة هي: إحداث موقف لا يكون العدو مستعدًّا له، ويكون في الزمان والمكان والخطة.

يقول د/ الفنيسان: «وهو اصطلاح عسكري يُقصد به مباغتة العدو لإجباره على تبديل خطته، وقد فاجأ المسلمون أعداءهم في المكان والزمان والخطة، حيث كانت قريش تتوقع أن يكون ميدان القتال في أُحُد فكان الخندق مفاجأة لهم في المكان والخطة، فلما وقفوا أمام الخندق بُهتوا وقالوا: **وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَكِيدُهَا**.

واستعمل المسلمون عامل الزمان بمفاجأة بني قريظة بسرعة لم يتوقعونها فوهنت عزائمهم وشلت معنوياتهم فاستسلموا». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٨-٢٣٩].

ويقول عميد / فرج: «لقد وقفت كتائب الأحزاب حائرة أمام الخندق لا تدري ماذا تفعل؟!

لقد كانت الصورة في ذهنهم أنهم سيصلون إلى المدينة ثم يكون نزال يستغرق يومًا أو بعض يوم، ثم يعودون، وقد انتهت مهمتهم، وفرغوا من أمر محمد ﷺ وأصحابه ﭫ، ولكن وضحت لهم الصورة بكل ملامحها، وتبين لهم أن الأمر ليس كما ظنوا، ومن هنا فقد بدأوا يعيدون تخطيطهم للغد ولما بعد الغد.

ترى ما هو رأي الفكر العسكري الحديث في هذا الموقف؟

قلنا: إن وجود الخندق كان مفاجأة، ومن هنا يبدأ الحديث.

فالمقصود بالمفاجأة اضطرار العدو للقتال في ظروف لا تمكنه من استخدام جميع قواته وموارده التي يتطلبها الموقف، ويقول كلاوزفتن: ليست المفاجأة بالوسيلة الوحيدة للحصول على التفوق العددي فقط، بل تعتبر أيضًا عنصرًا قائمًا بذاته، نظرًا لما لها من التأثير المعنوي الذي يؤدي عند نجاحه إلى إحداث الارتباك في صفوف الأعداء.

والمفاجأة أنواع، أهمها المفاجأة الإستراتيجية، وهى تعني أن القائد الماهر هو الذي يجتهد في أن يضع خصمه في الموضع الذي يصبح فيه مسلوب الإرادة مسيَّرًا ضد رغباته وإرادته، وتقوم هذه المفاجأة على عاملين هما: سرية الخطة، وسرعة إنجازها.

وفي ضوء هذا المعنى نستطيع أن نقول: إن رسول الله ﷺ قد حقق المفاجأة الإستراتيجية حين استجاب إلى الرأي القائل بحفر الخندق، وحين دعا إلى سرعة الحفر، ولقد ساعد المسلمون بصدق جهدهم وصبرهم على تحقيق هذه المفاجأة.

ولقد أسقطت هذه المفاجأة كل تدبير أعدته القوى المضادة، فقد وجدت الأحزاب نفسها في وضع لا يخطر على بالهم، وليس لهم به علم، فارتج الأمر عليهم، وأصبحوا مسلوبي الإرادة أمام نوع جديد من أساليب الحرب، هذا فوق التأثير المعنوي الذي فرضته هذه المفاجأة على نفسياتهم ومشاعرهم.

ومن جانب آخر فإن وجود الخندق يتطلب نوعًا خاصًا من القتال، ولا يمكن لجيش كبير العدد كجيش الأحزاب أن يشترك كله في هذا النوع من القتال؛ لأن القتال في مثل هذا الموقف يتطلب أعدادًا محدودة، تكون مهمتها اجتياز الخندق، ومن هنا يكون رسول الله ﷺ قد حرم الأحزاب من استخدام جميع قواتها، وبالتالي تظل هذا القوات في مواقعها دون واجبات قتالية؛ مما يساعد على تسلل الملل إلى النفوس فتضعف المعنويات وتهبط الرغبة القتالية ويفقد المقاتل حماسة القتال.

زد على ذلك أن القوات القليلة العدد التي قد تستطيع عبور الخندق تكون مع قلة عددها ومع اهتمامها بأن يتم العبور في سلامة وأمن غير معدة للقتال؛ لأنها ستكون هدفًا سهلًا، يتيسر صيده بالنبال والرماح والسهام.

وهكذا تكون قد تحققت كل أساليب النجاح للمسلمين وتأكدت كل أسباب الفشل أمام الأحزاب».

[**العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٨٣-٢٨٤**].

٥ ـ من أهم أسلحة الحرب إعداد المفاجآت التي لا يتوقعها العدو:

يقول د/ فيض الله: «كان السلاح المعروف في الحرب في صدر الإسلام، هو السيف والسهام والنبال والقسي، وما يتصل بها، وكان الاعتماد على الدُّرْبة في استعمالها، والعضلات القوية المفتولة التي تهزها، عند المبارزة.

لكن حفر الخندق الذي اقترحه سلمان الفارسي ﷺ والذي حَصَّنَ المنطقة المكشوفة من المدينة، وأيأس الأحزاب من دخولها، هو المفاجأة التي ما كانوا يُقَدِّرُونَهَا، ولا تخطر ببالهم.

لقد حال الخندق دون الالتقاء والمبارزة الفعلية، إلا بين أفراد، وقهر الأحزاب، وأقعدهم أيامًا طوالًا حول المدينة، لا يجدون السبيل إليها، وعَرَّضهم بذلك لعض الجوع، وعصف الريح، ولسع البرد، فسرى اليأس إلى قلوبهم، فارتدوا على أعقابهم خاسرين.

كانت فكرة الخندق اقتراحًا تقدم به ذلك المسلم الفارسي، وسرعان ما لقي الموافقة والتأييد من المسلمين، ومن سيد المرسلين ﷺ، فانطلقوا يحفرون بقيادته ومساعدته مستبشرين، وهم يغنون ويرتجزون.

وهذا يدل على أن الرسول ﷺ كان في أصحابه أخًا لهم، وواحدًا منهم، يأخذ برأيهم، ويعمل باقتراحهم، ويحسن ما يحسنون، ـ فيما لم ينزل به وحي ـ، فلا استبداد، ولا تسلط، ولا سيطرة ولا تعال.

كما يشير إلى أن الرسول ﷺ والصحابة، يسيرون في درب واحد، ويستهدفون مقصدًا واحدًا، هو نُصرة هذا الدين، وحياة هذه الدعوة، فما لم يتنزل فيه الوحي، يبقى باب الرأي فيه مفتوحًا لجميعهم، في

ميادين الإدارة والسياسة والحرب والسلم وغيرها، يتداولون ويتشاورون ويفكرون ويقترحون، والرأي السليم، الذي يحقق مصلحة الدين، أو مصلحة الدعوة، ولا مصلحة وراءهما، هو الذي يرضى عنه جميعهم، وهو الذي يكبرونه ويقدرونه وينفذونه.

كما يشير أيضًا إلى أن الإسلام لم يقصد إلى التنصيص على كل حادثة، ولا أن يضع حُكْمًا لكل ما يَجِدُّ من الأحوال والظروف، بل وضع القواعد والمبادئ، وترك للمسلمين حرية التفكير والنظر والتأمل، والرجوع إلى أعظم موهبة أنعم الله بها عليهم، بعد الإسلام، وهي العقل، فليفكروا، ولينظروا وليتأملوا، ما وسعهم الأمر، وما لم يتنزل الشرع، وهذا من أوضح الدلائل على أن هذه الشريعة حية خالدة، تلائم مواكب التقدم والمدنية والحضارة، بما شرع لها الخالق، وبما تفيض به قرائح أفكارها، ومن ثم كانت هذه الأمة المسلمة، أمة فريدة نموذجية في تاريخ البشرية، لم يُعرف لها نظير، ولا يُعرف لها نظير...

وانظر بعد ذلك، واحكم وأنت مصيب في حكمك، ما أبسط أولئك الذين يريدون أن يتنزل نص في كل حادثة، وإذا لم يرد النص، تجمد الذهن، وعشي البصر، وانقطع الفكر!».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٢٦-٢٢٧].

٦ ـ فعالية الخندق في الدفاع عن المدينة:

يقول أ/ باشميل: «بعد حفر الخندق أصبحت المدينة كالحصن المنيع الذي لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق المغامرات الانتحارية، وبعد تضحيات باهظة جسيمة.

فقد كانت المدينة ـ بالإضافة إلى الخندق وهو خط الدفاع الرئيس ـ مشبكة بالبنيان ومحاطة بأشجار النخيل الكثيفة ولمسافات بعيدة، وغير النخيل من الزروع الأخرى بالإضافة إلى الحواجز الطبيعية الصعبة الكبرى، وهى الحرات الثلاث التي تكتنف المدينة من جهاتها الثلاث: حرة من الجنوب، وحرة واقم من الشرق، وحرة الوبرة من الغرب.

والحرات في منطقة المدينة تشكل حواجز طبيعية فعالة لا يستطيع أحد ـ راجلًا كان أم راكبًا ـ اجتيازها إلا بصعوبة كبيرة لأنها مزروعة بحجارة سوداء محروقة يكون لها ـ غالبًا ـ رؤوس جارحة كأطراف الآلات الحادة.

وهكذا وبحفر الخندق استطاعت قيادة الجيش الإسلامي أن تعزل جيوش العدو عن مكان تجمع الجيش الإسلامي المدافع عن المدينة عزلًا تامًا، وأن تَحول بينه وبين مداخل المدينة كما يريد؛ لأن هذه المداخل صارت بعد حفر الخندق خلفه ممنوعة به.

فقد حال الخندق بين الجيشين وبين أي التحام جدي شامل، وهذا هو الذي تهدف إليه القيادة الإسلامية، وتكرهه ولا تريد حدوثه قيادة جيوش الأحزاب التي ما حشدت تلك الحشود التي لم تشهد

الجزيرة مثلها إلا لتشتبك مع المسلمين في معركة فاصلة تهدف من ورائها إلى محو الكيان الإسلامي إلى الأبد.

لقد تحصن المسلمون وراء الخندق الواسع العميق الذي يبلغ طوله حوالي اثنين من الكيلومترات، الخندق الذي لا يجرؤ على اقتحامه إلا فارس فذ زاهد في الحياة، أما المشاة فلا سبيل لهم إلى اقتحامه أبدًا.

وقد استفاد الجيش الإسلامي من مناعة جبل سلع الذي جعله خلف ظهره، كما استفاد من وعورة حرة الوبرة لحماية جناحه الأيسر، ووعورة حرة واقم لحماية جناحه الأيمن، والحرة الجنوبية لحماية مؤخرته.

فأمن كليًا من خطر أي التفاف يقوم به العدو، فظهره إلى جبل سلع، ومن ورائه المدينة وأبنيتها المتشابكة ونخيلها المتلاصق مع الحرة وجناحاه محميتان بالحرتين مع جزء من الخندق، أما صدره فقد واجه به جيوش الأحزاب التي صار الخندق فاصلًا بينه وبينها.

وهكذا نجحت خطه الدفاع التي اتبعها المسلمون نجاحًا كاملًا، حيث صاروا بعد تطبيقها وكأنهم في قلعة منيعة يكون الموت مصير من تحدثه نفسه بالاقتراب منها من ناحية الخندق الشمالية التي لا يمكن لجيوش الأحزاب أن تقوم بأي قتال جدي وعلى نطاق واسع كما تريد إلا عن طريقها.

فكان الخندق بحق من أعظم الأعمال الدفاعية التي قام بها المسلمون لإحباط هجوم الأحزاب على المدينة، فقد وجد قادة الأحزاب المكان الذي حددوه ليكون هدف هجومهم الرئيس وهو مداخل المدينة الفسيحة الواقعة بين الحرتين، وجدوا هذا المكان تعسكر فيه جيوش الإسلام رابضة ليوثها وراء الخندق العميق، فتحطمت آمالهم وانهارت خططهم التي رسموها لاقتحام المدينة من الأساس».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٤٢-١٤٣].

ويقول د/ الحميدي: «ولقد كان لهذه الخطة الحربية أثر فعال في نجاح المسلمين في المعركة حيث أبطلوا بذلك مفعول سلاح الفرسان الذي يتفوق به الأعداء على المسلمين، واقتصر القتال على سلاح الرماية الذي لم يستفد منه الكفار كثيرًا لضعف استعدادهم في هذا المجال، ولبعد معسكر المسلمين نسبيًّا عن الخندق، ولقوة الحراسة من المسلمين وشدة انتباههم كما سيأتي».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٠٧-١٠٨].

٧ ـ تعبئة جديدة:

يقول ل/ خطاب: «استفاد المسلمون من حفر الخندق للدفاع عن المدينة المنورة، وهذا الأسلوب الجديد من أساليب القتال يدخل في أساليب العرب الحربية لأول مرة في التاريخ.

إنَّ القائد العبقري هو الذي يستخدم أسلوبًا جديدًا أو سلاحًا جديدًا في القتال، والخندق هو الأسلوب الجديد الثاني الذي استخدمه الرسول ﷺ في القتال، بعد أن استخدم أسلوب الصفوف في معركة (بدر) كما رأينا.

لقد أخذ الرسول ﷺ بفكرة حفر الخندق من سلمان الفارسي ﭬ؛ لذلك قال فيه كلمته الخالدة: (**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**)، ليشجِّع على التفكير المفيد ويشيد بالعاملين للمصلحة العامة ويقطع دابر العصبيَّات». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣٧-٢٣٨**].

٨ ـ حفر الخندق كان خطة ناجحة لإبطال خطة الأحزاب:

يقول د/ أبو فارس: «استطاع الرسول ﷺ بحفر الخندق أن يعزل قوات العدو عن مكان التجمع الرئيس للقوات المدافعة عن المدينة، وأن تحول بينها وبين اقتحام مداخل المدينة؛ لأن هذه المداخل أصبح من الممكن حراستها بعد حفر الخندق.

وقد أفادت قوات المسلمين من مناعة جبل سلع الذي كان إلى يسارها وإلى الخلف، كما أفادت من وعورة حرة الوبرة لحماية جناحها الأيسر، ومن وعورة حرة واقم لحماية جناحها الأيمن، ومن الحرة الجنوبية وجبل عسير لحماية المؤخرة». [**الرسول العربي وفن الحرب ١٩٦**]. [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٧**].

٩ ـ أهمية الاستخبارات ودورها في جمع المعلومات:

يقول د/ الفنيسان: «لما قدم الأحزاب، بعث الرسول ﷺ رجلين من الصحابة، هما سليط وسفيان بن عوف ﭭ يستكشفان له خبرهم، فقبضوا عليهما وقُتلا شهيدين، ودُفنا في قبر واحدٍ، ويُطلق عليهما الشهيدان القرينان، كما أرسل الرسول ﷺ حذيفة بن اليمان ﭬ في آخر مدة الحصار، وقبله أرسل الزبير بن العوام ﭬ إلى بني قريظة يستطلع له خبرهم فوجدوهم على شر ما يكونون عليه».

[**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٢**].

ويقول أ/ حوى: «لقد برز لنا في أحداث هذه السنة ومن قبل كان بارزًا وسنرى ذلك دائمًا أن رسول الله ﷺ كانت تأتيه أخبار تحشدات الأعداء في أوائلها، فلم يكن يفاجأ بحادثة ولا تدبير يدبره الأعداء، وهذا يجعلنا أمام أهم قضية في الحرب والسلم، وهي قضية أجهزة المخابرات، إن العالم كله قد أدرك اليوم

أنه بقدر ما يكون جهاز المخابرات قويًا فإن ذلك يعوض عليك أشياء كثيرة ويجنبك أشياء خطيرة، صحيح أن ذلك قد يكلف ولكن مهما كانت التكلفة فالربح أكبر، إنه بالنسبة لأي نظام يشكل جهاز المخابرات عينه التي تكشف الخطأ والخطر فتتلافى الأخطاء وتستأصل الأخطار قبل وقوعها، ومهما يقال بالنسبة لأجهزة المخابرات فالمسألة أخطر وأكبر، وكل ما يمكن أن تحققه أجهزة المخابرات في العالم كان يتحقق لرسول الله ﷺ أحيانًا عن طريق عالم الأسباب وأحيانًا عن طريق الغيب، فكم من مؤامرة كشفها جبريل عليه السلام، ولكن رسول الله ﷺ مع هذا لم يكن ليغفل فذلك تكليفه، ولقد كانت تتجمع عند رسول الله ﷺ المعلومات من مصادر متعددة، سراياه الاستطلاعية، المسلمون المتخفون، المتعاطفون مع المسلمين، المعاهدون، الفراسة واستكشاف ما وراء السطور، المهم أن رسول الله ﷺ ما كان يفاجأ بتآمر داخلي أو تهديد خارجي، وهذا يجعل المسلمين في عصرنا أمام قضية يجب أن يعطوها كامل الاعتبار، مع ملاحظة الضوابط الشرعية». [**الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٧١٢**].

١٠ ـ الخطة الحربية لدى المتحزبين:

يقول الشيخ المسند: «وكانت خطة الأحزاب هي الوصول إلى المدينة مباشرة ودون توقف؛ لأنهم مدلون بقوتهم واثقون من المدد الداخلي موقنون بأن عدد المسلمين قليل إذا قيس بعددهم، وأن عتادهم الحربي لا يُذكر بجانب ما أحضروا من العدة التي بدأ تحضيرها من هزيمتهم... ولذلك لما شاهدهم الرعابيب وقليلو الإيمان تسللوا لواذًا واستأذن طائفة منهم رسول الله ﷺ في العودة، وأشاع بعضهم أنه لا قِبَل لنا بهم والأفضل الرجوع.

ولما وصلوا إلى المدينة يريدون اقتحامها فوجؤوا بالخندق، فسارع بعض الخيالة مقسمين أن يقتحموه فكان المجاهدون من المسلمين يقفون وراءه، فيأتي الفارس فيسقط فيبادر الجندي المسلم إلى ضرب عنق المهاجم، وهكذا كانت بداية سيئة للمشركين وضربة في وجوههم عملت رد فعل سريع لم يكونوا يتوقعونه وخاصة بعد أن تحدى المسلمين الشجاع الفاتك (عمرو بن عبد ود) واقتحم الخندق إلى المسلمين، فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمبارزته، فأقبل إليه علي رضي الله عنه فتجاولا فصرعه علي رضي الله عنه أمام أعين الفريقين». [**متى ينتصر المسلمون؟ للمسند ٧٠-٧١**].

١١ ـ تنظيم القيادة والسيطرة خلال المعركة الدفاعية:

«احتفظ الرسول ﷺ بالقيادة في يده على الدوام، ولم يترك جبهة القتال طوال أيام الحصار ساعة واحدة، تصرف كأي فرد منهم، وشارك جيشه في جميع مشاكله وساعات ضيقه، وهذا يشير كيف أن قيادته كانت في الذروة على الدوام». [**النور الخالد محمد ﷺ لكولن ١٠٦**].

ويقول عميد/ كاخيا: «كانت قيادة الرسول الكريم ﷺ خلال الحصار الذي دام مدة شهر ثابتة وحكيمة وشجاعة، وكانت سيطرته على قواته مستمرة طيلة هذه المدة الصعبة والأحوال القاسية والحرجة، فقد عالج ﷺ مسألة المنافقين ومسألة تآمر اليهود، ومسألة خوف وجزع المسلمين، ومسألة الإيقاع بين صفوف الأعداء بحكمة وتعقل وهدوء أعصاب، تندر في كثير من عظام القادة العسكريين، وخرج من المعركة ظافرًا منتصرًا مع جيشه المؤمن، وثبت أنه ﷺ كان يتواجد في أكثر الأماكن خطرًا، فكان يقرب مقر قيادته ليلًا على مشارف الخندق حتى ليسمع أحاديث وسمر الأعداء، وينتقل نهارًا إلى الأماكن التي تؤمن الإشراف والمساعدة للمسلمين». [**الغزوات النبوية المطهرة لكاخيا ٧٣-٧٤**].

١٢ ـ توحيد القيادة أهم عوامل النصر:

يقول د/ الفنيسان: «قاتل المسلمون يوم الأحزاب وكان لهم لواءان، أحدهما للمهاجرين، والآخر للأنصار، غير أن القيادة العامة للجيش كله كانت بيد الرسول ﷺ، وبها استطاع أن يسيطر سيطرة تامة على الموقف.

وكانت جيوش الأحزاب على العكس من هذا، فلم تكن لهم قيادة موحدة، بل كان لكل قبيلة قائد أو أكثر، وحتى القادة لم يستطيعوا أن يتحدوا فيما بينهم بأن يختاروا قائدًا منهم؛ لأن هذا القائد في نظرهم سينال الشرف، وكل قبيلة تريده لنفسها». [**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٠**].

١٣ ـ حسن اختيار حملة الرايات:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان رسول الله ﷺ في اختياره لحملة الرايات في غاية التوفيق، يدل على حسن معرفته لمعادن الرجال وخبرته بذلك، فيعطي القوس لباريها.

فزيد بن حارثة ﷺ بطل من أبطال المسلمين يتصف بشجاعة نادرة لا يهاب الموت يكر ولا يعرف الفرار، وحامل اللواء ينبغي أن يكون كذلك لأن سهام الموت توجه إليه من كل جانب، ولقد ظهر معدن زيد بن حارثة ﷺ بنصاعة في غزوة مؤتة حيث هو الأمير الأول الذي قاد الحفنة المؤمنة القليلة يتصدى بها ويواجه مائتي ألف صليبي حاقد، فيُقبل على الطعان حتى يستشهد.

أما سعد بن عبادة ﷺ فهو زعيم الخزرج وسيدهم وقائدهم، قد ورث الشجاعة كابرًا عن كابر، وحين يرى القوم زعيمهم يستلم الراية ويقاتل لتكون هي العليا تلتف حوله النفوس، وتهفو إليه القلوب، ويفدي بالأرواح والمهج، وتدب الحماسة للقتال، ولا يتأخر متأخر لأن القادة هم القدوة فهم في المقدمة أولًا».

[**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٩٨-٩٩، وقد سبق تفصيلها في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ، تحت نفس العنوان**].

ويقول ل/ خطاب: «ومن المعلوم أن اللواء يحمله اعتياديًا أشجع الشجعان؛ لأن الدفاع عنه وإبقاءه مرفوعًا دون أن يهوي إلى الأرض أو يُعفر بالتراب، لا يتم إلا لشجعان مشهود لهم بالشجاعة والإقدام والثبات، وقوة الأعصاب، والألمعية والذكاء». [**قادة النبي ﷺ لخطاب ٥٨**].

١٤ ـ وضع الأعلام والرايات لعموم قطاعات الجيش [1]:

يقول د/ الفنيسان: «مضت سنة الرسول ﷺ أن يعقد الرايات والألوية لقادة الجيش إذا أراد الغزو، وعقد في هذه الغزوة لواءين، أحدهما للأنصار وأعطاه سعد بن عبادة ﷺ، والآخر للمهاجرين وأعطاه زيد بن حارثة ﷺ، وقد كانت للرسول ﷺ راية تدعى «العقاب» سوداء مربعة من نمرة، ولواؤه أبيض [ينظر: عون المعبود ٧/ ٢٥٤، ومجمع الزوائد ٥/ ٣٢١]، واللواء عادة أكبر من الراية، وهو بطول الرمح تصفق به الريح، فإذا طوي على رأس الرمح سمي «علمًا»، وقد اختلط اسم الراية باللواء على كثير من الناس فصار يعبر بأحدهما عن الآخر، وذلك تبعًا لاختلاف عُرْف أهل كل بلد عن الآخر، غير أن بينهما فروقًا منها:

١ـ اللواء يكون كبيرًا ولونه أبيض، والراية أصغر منه ومختلفة الألوان، فأهل التاريخ والسير يذكرون أن لواء الرسول ﷺ كان أبيض ورايته سوداء، وقيل: إنها كانت خضراء، وقيل: إنها صفراء، فهم لا يذكرون الألوان إلا مع الرايات، ويقولون عن اللواء إنه مكتوب عليه «لا إله إلا الله».

والكتابة على اللون الأبيض أوضح من غيرها من الألوان، لا سيما لتُرى من مكان بعيد.

٢ـ اللواء هو العلم العام للجيش، ويتمثل مركز القيادة العامة فيه، أما الرايات فهي أعلام صغيرة تدل على القبائل والوحدات التي يتألف منها الجيش. ويؤيد هذا أن قائد الجيش كثيرًا ما يقف على الرايات يحرض أصحابها على القتال ويقول: «**الزموا راياتكم فلا تميلوها**».

٣ ـ ثم ظهر بعد زمن مُسَمَّيَان أخريان لم يعرفا من قبل، هما البيارق والأعلام. فالبيارق جمع بيرق وهي تقابل الرايات، والأعلام يراد بها الألوية. والله أعلم». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٤-٢٤٥].

١٥ ـ كلمة التعارف أو «سر الليل» عامل مهم في انضباط المعسكر [2]:

يقول د/ الفنيسان: «في ليلة من ليالي الخندق قال الرسول ﷺ لصحابته: «**إِنِّي لا أَرَى القَوْمَ إِلا مُبَيِّتِيكُمْ اللَّيْلَةَ**» وهذا توقع منه «**شعاركم: حم، لَا يُنْصَرُونَ**».

وبعث مرة إلى بني قريظة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير يستطلعون خبر قريظة، وهل هو صحيح نقضهم العهد؟ «**فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ**»، أي كَنُّوا في كلامكم بما لا يفهمه عامة الناس من المسلمين، حتى لا يصل الضعف والوهن إلى المسلمين، وحتى لا يتسرب الخبر إلى بني قريظة، وذهب الوفد فوجدوهم قد نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ فقالوا: يا رسول الله ﷺ عضل والقارة، أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٢].

---

(١) سبق تفصيل الحديث عنها في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ، تحت عنوان: «**أهمية اتخاذ الألوية والرايات في الإسلام**».

(٢) سبق تفصيل الحديث عنها في الدروس العسكرية المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة بدر الكبرى، تحت عنوان: «**أهمية الشارة والشعار في المعارك**».

١٦ ـ تبادل الحراسة وتعاهد الثغرات:

يقول د/ الفنيسان: «تقول عائشة ﵂ وكانت مع الرسول ﷺ في يوم الخندق: «كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِالخَنْدَقِ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَاهَدُ ثُغْرَةً مِنَ الجَبَلِ يَخَافُ مِنْهَا فَيَأْتِي فَيَضْطَجِعُ فِي حِجْرِي، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَسَمَّعُ، فَسَمِعَ حِسَّ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ الحَدِيدُ، فَانْسَلَّ فِي الجَبَلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ هَذَا؟**»، قَالَ: **أَنَا سَعْدُ، جِئْتُكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ**، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبِيتَ فِي تِلكَ الثُّغْرَةِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حِجْرِي حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: لا أَنْسَاهَا لِسَعْدٍ. [**مجمع الزوائد ٦/ ١٩٦-١٩٧ في المغازي والسير (١٠١٥٢)، وقال الهيثمي: رواه البزار [كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/ ٣٣٣ رقم ١٨٠٦] عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف، وفي الصحيح طرف منه]. [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٢-٢٤٣]**.

١٧ ـ المتابعة الدؤوبة لتنفيذ القرار:

يقول د/ الغضبان: «فليس القائد هو الذي يصدر قراره ويمضي، ولا يدري ما هو واقع هذا القرار في عالم التنفيذ، إنما القائد هو الذي يُمضي وقته ليلًا ونهارًا ساهرًا على تنفيذ قراره.

لقد تمت عملية حفر الخندق بأعلى مستوى من التنفيذ والإنجاز، إلا مكانًا واحدًا ضيقًا، وثلمة كان يمكن أن ينفذ منها العدو، وذلك إما لخلل في التنفيذ، أو لصعوبة في الأرض قاسية حالت دون الاتساع المطلوب، ومنها كان الفوارس يقتحمون الخندق، ويدخلون الأرض الإسلامية، فكيف كان ﷺ يعيش بأعصابه مع هذا الثلمة أو هذه الثغرة؟!

تقول عائشة ﵂: لَقَدْ رَأَيْتُ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ لَيْلَةً، وَنَحْنُ بِالخَنْدَقِ لا أَزَالُ أُحِبُّهُ أَبَدًا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْتَلِفُ إِلَى ثَلْمَةٍ فِي الخَنْدَقِ يَحْرُسُهَا، حَتَّى إِذَا آذَاهُ البَرْدُ جَاءَنِي فَأَدْفَأْتُهُ فِي حِضْنِي، فَإِذَا دَفِئَ خَرَجَ إِلَى تِلْكَ الثَّلْمَةِ يَحْرُسُهَا وَيَقُولُ: «**مَا أَخْشَى أَنْ يُؤْتَى النَّاسُ إِلَّا مِنْهَا**».

فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حِضْنِي قَدْ دَفِئَ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا يَحْرُسُنِي**»، قَالَتْ: إِلَى أَنْ سَمِعْتُ صَوْتَ السِّلَاحِ وَقَعْقَعَةَ الحَدِيدِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ هَذَا؟**» فَقَالَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: «**عَلَيْكَ بِهَذِهِ الثَّلْمَةِ فَاحْرُسْهَا**».

قَالَتْ: وَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٣**].

ورسول الله ﷺ هو بشخصه يحرس الثلمة، ويترك زوجه الحبيب بنت الرابعة عشرة ليمضي إلى محرسه، وعندما سمع صوت قعقعة سعد ﵁ لم يطلب منه أن يحرسه، بل طلب منه أن يمضي إلى تلك الثلمة، فيحرسها، بينما يكون دائمًا هَمُّ قواد الأرض حماية أشخاصهم، والحرس الملكي، والحرس الجمهوري فيه من الأسلحة والعتاد والقوات ما يعادل أو يفوق الجيوش النظامية، في أيامنا المعاصرة.

هذه ليلة عائشة ﵂، وقد حدثتنا عن سيد ولد آدم ﷺ: لم تذق عيناه النوم حتى اطمأن على تلك الثلمة.

وهذه النوبة الأخرى لأم سلمة رضي الله عنها تحدثنا عما شاهدت في ليلتها في قلب المعركة: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الخَنْدَقِ فَلَمْ أُفَارِقْهُ مَقَامَهُ كُلَّهُ، وَكَانَ يَحْرُسُ بِنَفْسِهِ فِي الخَنْدَقِ، وَكُنَّا فِي قُرٍّ شَدِيدٍ، فَإِنِّي لأَنْظُرُ إِلَيْهِ قَامَ فَصَلَّى مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي قُبَّتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَنَظَرَ سَاعَةً فَأَسْمَعُهُ يَقُولُ: «**هَذِهِ خَيْلُ الْمُشْرِكِينَ تُطِيفُ بِالخَنْدَقِ مَنْ لَـهُمْ؟**» ثُمَّ نَادَى: «**يَا عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ**»، فَقَالَ عَبَّادٌ رضي الله عنه: لَبَّيْكَ، قَالَ: «**أَمَعَكَ أَحَدٌ؟**» قَالَ: نَعَمْ أَنَا فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي كُنَّا حَوْلَ قُبَّتِكَ.

قَالَ: «**فَانْطَلِقْ فِي أَصْحَابِك فَأَطِفْ بِالخَنْدَقِ فَهَذِهِ خَيْلٌ مِنْ خَيْلِهِمْ تُطِيفُ بِكُمْ يَطْمَعُونَ أَنْ يُصِيبُوا مِنْكُمْ غِرَّةً، اللَّهُمَّ ادْفَعْ عَنَّا شَرَّهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ، وَاغْلِبْهُمْ لا يَغْلِبُهُمْ غَيْرُكَ**»، فَخَرَجَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فِي أَصْحَابِهِ، فَإِذَا بِأَبِي سُفْيَانَ فِي خَيْلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُطِيفُونَ بِمَضِيقِ الخَنْدَقِ، وَقَدْ نَذَرَ بِهِمْ الْمُسْلِمُونَ فَرَمَوْهُمْ بِالحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ، فَوَقَفْنَا مَعَهُمْ فَرَمَيْنَاهُمْ حَتَّى أَذْلَقْنَاهُمْ (أضعفناهم) بِالرَّمْيِ فَانْكَشَفُوا رَاجِعِينَ إِلَى مَنْزِلِهِمْ، وَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَجِدُهُ يُصَلِّي فَأَخْبَرْتُهُ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: فَنَامَ حَتَّى سَمِعْت غَطِيطَهُ، فَمَا تَحَرَّكَ حَتَّى سَمِعْتُ بِلالًا يُؤَذِّنُ بِالصُّبْحِ وَبَيَاضِ الفَجْرِ، فَخَرَجَ فَصَلَّى بِالـمُسْلِمِينَ، فَكَانَتْ تَقُولُ: يَرْحَمُ اللهُ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ، فَإِنَّهُ كَانَ أَلْزَمَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِقُبَّةِ رَسُولِ اللهِ يَحْرُسُهَا أَبَدًا. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٣-٤٦٤].

وهذه ليلة ثانية من ليالي أم سلمة رضي الله عنها تحدثنا فيها عن رسول الله ﷺ كيف أمضى ليله: عَنْ عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ أَبِي عَوْنٍ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: وَاللهِ إِنِّي لَفِي جَوْفِ اللَّيْلِ فِي قُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ إِلَى أَنْ سَمِعْتُ الهَيْعَةَ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: يَا خَيْلَ اللهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَعَلَ شِعَارَ الْمُهَاجِرِينَ: يَا خَيْلَ اللهِ، فَفَزِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِصَوْتِهِ فَخَرَجَ مِنَ القُبَّةِ، فَإِذَا نَفَرٌ مِنْ الصَّحَابَةِ عِنْدَ قُبَّتِهِ يَحْرُسُونَهَا، مِنْهُمْ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: «**مَا بَالُ النَّاسِ؟**» قَالَ عَبَّادٌ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا صَوْتُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، اللَّيْلَةَ نَوْبَتُهُ يُنَادِي: يَا خَيْلَ اللهِ! وَالنَّاسُ يَثُوبُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ نَاحِيَةِ حُسَيْكَةَ مَا بَيْنَ ذُبَابٍ وَمَسْجِدِ الفَتْحِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ رضي الله عنه: «**اذْهَبْ فَانْظُرْ، ثُمَّ ارْجِعْ إِلَيَّ إِنْ شَاءَ اللهُ فَأَخْبِرْنِي**»، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: فَقُمْتُ عَلَى بَابِ القُبَّةِ أَسْمَعُ كُلَّ مَا يَتَكَلَّمَانِ بِهِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَل رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمًا حَتَّى جَاءَهُ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ فِي خَيْلِ الـمُشْرِكِينَ مَعَهُ مَسْعُودُ بْنُ رُخَيْلَةَ بْنِ نُوَيْرَةَ بْنِ طَرِيفِ بْنِ سُحْمَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ هِلالِ بْنِ خَلاوَةَ بْنِ أَشْجَعَ بْنِ رَيْثِ بْنِ غَطَفَانَ، فِي خَيْلِ غَطَفَانَ، وَالـمُسْلِمُونَ يُرَامُونَهُمْ بِالنَّبْلِ وَالحِجَارَةِ.

قَالَتْ: فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَبِسَ دِرْعَهُ وَمِغْفَرَهُ وَرَكِبَ فَرَسَهُ وَخَرَجَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى أَتَى تِلْكَ الثَّغْرَةَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَجَعَ وَهُوَ مَسْرُورٌ، فَقَالَ: «**صَرَفَهُمْ اللهُ وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمْ الجِرَاحَةُ**».

قَالَتْ: فَنَامَ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ، وَسَمِعْتُ هَائِعَةً أُخْرَى، فَفَزِعَ فَوَثَبَ فَصَاحَ: «**يَا عَبَّادُ بْنَ بِشْرٍ**»، قَالَ: لَبَّيْكَ، قَالَ: «**أَنْظُرْ مَا هَذَا**»، فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: هَذَا ضِرَارُ بْنُ الخَطَّابِ فِي خَيْلٍ مِنَ الـمُشْرِكِينَ مَعَهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ فِي خَيْلِ غَطَفَانَ عِنْدَ جَبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ، وَالـمُسْلِمُونَ يُرَامُونَهُمْ بِالحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ، فَعَادَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَبِسَ دِرْعَهُ وَرَكِبَ فَرَسَهُ، ثُمَّ خَرَجَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ إِلَى تِلْكَ الثَّغْرَةِ، فَلَمْ يَأْتِنَا حَتَّى كَانَ السَّحَرُ فَرَجَعَ وَهُوَ يَقُولُ: «**رَجَعُوا مَفْلُولِينَ قَدْ كَثُرَتْ فِيهِمْ الجِرَاحَةُ**»، ثُمَّ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ الصُّبْحَ وَجَلَسَ، فَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تَقُولُ: قَدْ شَهِدْتُ مَعَهُ مَشَاهِدَ فِيهَا قِتَالٌ وَخَوْفٌ ـ الـمُرَيْسِيعَ، وَخَيْبَرَ، وَكُنَّا بِالحُدَيْبِيَةِ، وَفِي الفَتْحِ، وَحُنَيْنٍ ـ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ أَتْعَبُ لِرَسُولِ الله ﷺ وَلا أَخْوَفُ عِنْدَنَا مِنَ الخَنْدَقِ، وَذَلِكَ أَنَّ المُسْلِمِينَ كَانُوا فِي مِثْلِ الحَرَجَةِ، وَأَنَّ قُرَيْظَةَ لا نَأْمَنُهَا عَلَى الذَّرَارِيِّ، وَالمَدِينَةُ تُحْرَسُ حَتَّى الصَّبَاحِ يُسْمَعُ تَكْبِيرُ المُسْلِمِينَ فِيهَا حَتَّى يُصْبِحُوا خَوْفًا، حَتَّى رَدَّهُمْ اللهُ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَكَفَى اللهُ الـمُؤْمِنِينَ القِتَالَ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٦-٤٦٨**].

وبقي حال النبي ﷺ ذلك حتى أمكن إصلاح هذه الثغرة.

قال الواقدي: فَحَدَّثَنِي أَيُّوبُ بْنُ النُّعْمَانِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ يَحْرُسُ الخَنْدَقَ فِي أَصْحَابِهِ، فَانْتَهَوْا إِلَى مَكَانٍ مِنَ الخَنْدَقِ تَطْفُرُهُ (**طفر**: وثب في ارتفاع، وطفر الحائط: وثبه إلى ما وراءه) الخَيْلُ، فَإِذَا طَلِيعَةٌ مِنَ المُشْرِكِينَ مِائَةُ فَارِسٍ أَوْ نَحْوُهَا، عَلَيْهِمْ عَمْرُو بْنُ العَاصِ يُرِيدُونَ أَنْ يُغِيرُوا إِلَى المُسْلِمِينَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ عَلَيْهَا بِأَصْحَابِهِ، فَرَمَوْهُمْ بِالحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ حَتَّى أَجْهَضُوا عَنَّا وَوَلَّوْا.

وَكَانَ فِي الـمُسْلِمِينَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ ﷺ، فَقَالَ لأُسَيْدٍ ﷺ: إِنَّ هَذَا مَكَانٌ مِنَ الخَنْدَقِ مُتَقَارِبٌ، وَنَحْنُ نَخَافُ تَطْفُرَهُ خَيْلُهُمْ، وَكَانَ النَّاسُ عَجِلُوا فِي حَفْرِهِ، وَبَادَرُوا فَبَاتُوا يُوَسِّعُونَهُ حَتَّى صَارَ كَهَيْئَةِ الخَنْدَقِ، وَأَمَّنُوا أَنْ تَطْفُرَهُ خَيْلُهُمْ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ يَتَنَاوَبُونَ الحِرَاسَةَ، وَكَانُوا فِي قُرٍّ شَدِيدٍ وَجُوعٍ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٦٤-٤٦٥**].

وعندها أمكن للنبي القائد ﷺ أن تقرَّ عينه بعد أن سُدَّت تلك الثغرة، ويطمئن إلى سلامة التنفيذ في قراره». [**التربية القيادية للغضبان ٤/ ٣٠-٣٣**].

١٨ ـ مقارنة بين القوتين [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٣-١٦٥**]:

(أ) **من حيث القيادة**: قيادة الأحزاب قيادة غير منسجمة ولا متماسكة، ولا متحدة، فكل قبيلة قيادتها مستقلة عن الأخرى، والتنسيق بينها يكاد يكون منعدمًا.

ويصف الزعيم الركن محمود شيت خطاب قيادة المشركين وصفًا دقيقًا، فيقول: (لم تكن للأحزاب قيادة موحدة، تستطيع السيطرة على جميع القوات المتيسرة، وتوجيهها للعمل الحاسم في الوقت الحاسم.

كان لكل قبيلة قائد، بل عدة قواد، ولم يستطع هؤلاء القادة تنظيم خطة موحدة للهجوم على المسلمين، وقد كان من المستحيل اتفاقهم على قائد منهم، ليسيطر على الجميع؛ لأن هذا القائد سينال شرفًا عظيمًا يمتاز به على الآخرين، ولا يمكن للآخرين أن يقبلوا بهذا الامتياز.

لقد كانت النعرة الجاهلية لا الهدف المشترك هي التي تسيطر على القيادة، ولا يمكن أن تنجح مثل هذه القيادة في أي موقف بأي معركة، حتى ولو كانت لها كل الظروف المواتية ـ كما في غزوة الخندق ـ بالنسبة للأحزاب واليهود.

وكانت الثقة بين الأحزاب أنفسهم من جهة وبينهم وبين اليهود من جهة أخرى واهنة جدًّا، بل لم تكن هناك ثقة على الإطلاق.

قريش تريد القضاء على المسلمين بالإفادة من جهود القبائل واليهود، والقبائل تريد الأسلاب بالدرجة الأولى، من أي مصدر كان، ولو وقعت أموال أحلافهم بني قريظة بأيديهم لأخذوها أيضًا.

واليهود لا يثقون بالجميع ويريدون القضاء على المسلمين بدماء قريش والقبائل الأخرى.

(وهكذا انعدمت الثقة لتفرق الأهداف والمقاصد). [**الرسول القائد ﷺ ص ١٥٤ - ١٥٦**].

أما القيادة المسلمة وعلى رأسها رسول الله ﷺ فهي قيادة ناجحة لقوتها وحزمها ويقظتها وحذرها الشديد، ولإخلاصها، وهي في نفس الوقت ليست قيادة مستبدة متسلطة تنفرد باتخاذ القرار، بل قيادة شورية، تحرص على أن تستشير أهل الرأي والحكمة والتدبير، ولا تجد غضاضة في الأخذ برأيهم، وإن كان يخالف رأيها.

أما القاعدة فهي تثق بقيادتها الحازمة الرشيدة ثقة مطلقة، وتطيع الأوامر الصادرة عنها دون تردد، وليس لواحد من القاعدة أطماع مادية أو مآرب شخصية يريد تحقيقها، تحمله على الاختلاف مع قيادته، فليس لواحد منهم رغبة في الزعامة ينافس القيادة عليها.

كانت القاعدة بجميع عناصرها منضبطة متعاونة مع القيادة لإنجاحها، ودعمها؛ لأن الهدف واحد للطرفين والمقصد واحد، ويوم أن يتوحد الهدف والمقصد للقيادة والقاعدة تكون فرص النصر كثيرة وإمكانية النصر قريبة.

(ب) **من حيث العدد والعُدَّة:** تذكر كتب السيرة أن جيوش الأحزاب قد بلغت عشرة آلاف[١]

---

(١) وقد ذكر المسعودي ؒ في كتابه مروج الذهب ص ٢١٦، أن عدد الأحزاب أربعة وعشرون ألفًا، وهذا كما ترى مخالف لما عليه جماهير العلماء وكتاب السير والتاريخ، إلا إذا اعتبر الأحزاب جميع أفراد القبائل التي اتفقت على حرب رسول الله ﷺ ويدخل في ذلك الذين خرجوا للقتال والذين لم يخرجوا للقتال.

مقاتل، ومعهم من الجمال ألفان وخمسمائة ومن الخيول ثلاثمائة فرس.

[ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٦٦، والرسول العربي ﷺ وفن الحرب ص ١٩٣].

أما المسلمون فقد بلغوا ثلاثة آلاف مقاتل، وكان معهم من الخيول ست وثلاثون فرسًا، ذكر ذلك صاحب سمط النجوم العوالي عن ابن سعد في طبقاته».

[سمط النجوم العوالي ٢/ ١٢٧، وينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٧٤].

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٦٣-١٦٥].

١٩ـ دقة موقف المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «لقد كان كل شيء مادي يوحي (على نحو ساحق) بأن الغلبة ستكون للأحزاب على المسلمين وأن نهايتهم في (حساب التقدير العسكري المجرد) أمر مفروغ منه؛ وذلك للأسباب الآتية:

(١) **قوة العدو الساحقة المتفوقة في كل شيء مادي:** فقد أطبقت على المدينة عشرة آلاف مقاتل من العرب القرشيين والغطفانيين، مجهزين أحسن تجهيز، وكلهم غيظ وحنق على المسلمين، يساند هذه القوات العسكرية الضخمة رأس المال اليهودي الطاغي، ويخطط لها الفكر الإسرائيلي الماكر الخبيث.

يقابل كل هذه القوات الضخمة في الجانب الآخر (المسلمين) ألف مقاتل فقط (أو ثلاثة آلاف على الأكثر) هم دون هذه القوة في كل شيء مادي سوى الإيمان.

[وهكذا وقف الفريقان أمام الخندق وجهًا لوجه: المسلمون في قلة عددهم وضعف عدتهم، والمشركون في كثرة جموعهم وضخامة استعدادهم، «ولكن شتان بين قوة متماسكة بأمل واحد وإيمان واحد، وبين أناس متفرقين ليست لهم غاية مشتركة تجمع قلوبهم، لقد كان جمع الأحزاب كامل العَدد والعُدد من الناحية المادية، ولكن لم تكن هناك الروابط التي تحملهم على الإخلاص والتعاون في القتال، ولأول لحظة بدا أن أبا سفيان إنما هو قائد الجيش اسمًا لا حقيقة، فقد كان كل من خرج على رأس قوة يرى نفسه أهلًا للقيادة، وأهلًا لأن تكون له الصدارة والرأي الأول».

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٢/ ١٨٣ نقلًا عن محمد القائد ﷺ].

(٢) **نقض اليهود للعهد:** وبالإضافة إلى الخطر المدمر الذي وقف جيش الإسلام بأكمله لمواجهته، والمتمثل في هذه الحشود القرشية والنجدية الهائلة، تعرض هذا الجيش لرجة مزلزلة مخيفة وهي غدر يهود بني قريظة، بنقضهم العهد وانضمامهم ـ وهم وراء خطوط جيش الإسلام ـ إلى الغزاة في تلك الساعات الرهيبة الحاسمة.

فقد كانت هناك معاهدة دفاع مشترك بين المسلمين ويهود بني قريظة كان المفروض أن يكون اليهود بموجبها جزءًا من الجيش المدافع عن المدينة.

ولكن اليهود بدلًا من أن يشدوا من أزر حلفائهم المسلمين فيقفوا بجانبهم ضد الغزاة المعتدين، انضموا إلى هؤلاء الغزاة وصاروا - وهم حوالي ألف مقاتل - قوة معادية للجيش الإسلامي تتحفز للانقضاض عليه من الخلف، فكان هذا العمل الشائن من اليهود ضربة موجعة وتهديدًا خطيرًا لا تقل فعاليته عن فعالية القوات الرئيسة الغازية.

لأن التهديد المفاجئ من الخلف لأي جيش - وهو في حالة مواجهة للعدو - قد يكون أشد خطرًا عليه من القوة الرئيسة التي يواجهها.

وفعلًا لقد كان لنقض اليهود العهد وانضمامهم إلى الغزاة أسوأ الأثر بين صفوف جيش المدينة الصغير، حيث تأزمت الحالة، واستحكمت المحنة وتحرج الموقف إلى درجة فكر معها النبي القائد ﷺ في أن يعقد صلحًا منفردًا مع قادة غطفان ينصرفون بموجبه عن المدينة على أن يعطي لهم مقابل ذلك ثلث ثمار المدينة، وذلك سعي من النبي ﷺ لتخفيف الضغط العسكري الخانق الذي يتعرض له جيش الإسلام.

(٣) **عنصر المنافقين والمرجفين الموجودين داخل جيش الإسلام كجزء منه:** فقد كان هذا العنصر من أشد البلايا على جيش الإسلام المدافع عن المدينة، حيث ظهر هذا العنصر الخبيث على حقيقته والمسلمون في أقصى درجات المحنة.

فبعد أن نقض اليهود العهد، وآذنوا المسلمين بالحرب تحركت عوامل الخسة والدناءة المتأصلة في نفوس هؤلاء المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر، فأخذوا - في تلك الساعات الرهيبة التي يجتازها الكيان الإسلامي - ينسحبون من الجيش، على شكل تسلل، واستئذان مشبوه أحيانًا، مُحدثين بذلك تصدعات خطيرة في معنويات الجند المدافع عن المدينة.

ولم يكتف المنافقون بذلك بل راحوا يشيعون روح الهزيمة في الجيش ويعملون - علنًا - على إشاعة الخوف والفزع داخل صفوفه، حتى أخذ عدده يتناقص إلى أن وصل في الليالي الأخيرة من المعركة إلى ثلاثمائة مقاتل (فقط)، الأمر الذي ضاعف من متاعب قيادة المدينة إلى درجة لا مزيد عليها.

[ينظر حديث حذيفة ؓ في عرض الغزوة].

(٤) **العِوَز وحالة الفقر مع برودة الطقس وشدة الرياح:** وبالإضافة إلى هذه الأمور الخطيرة المخيفة التي واجهتها قيادة المدينة، كان عام الأحزاب عام مجاعة وجدب بالنسبة للمسلمين، وكان الفصل فصل برد قارس ورياح هوج، وقد روى الثقاة من المؤرخين أن كثيرًا من المسلمين، يمر بهم اليوم واليومان لا يذوقون فيها طعامًا، وأن النبي ﷺ كما روى البخاري كان يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع.

بينما كانت جيوش الأحزاب - من الناحية الأخرى - مزودة بكل المؤن الغذائية اللازمة، ويقف - مع هذا - من ورائها اليهود - وهم ملوك المال - يسدون بما لديهم من ثروات طائلة أي نقص يحدث في تموين جيوش الغزاة.

وقد رأينا كيف كان بنو قريظة يرسلون القوافل محملة بالمؤن إلى جيوش الأحزاب، وكيف وقعت إحدى هذه القوافل في أيدي إحدى دوريات جيش المدينة فصادرتها، وكانت عشرين بعيرًا، فخفف الله بأحمالها من ضائقة المسلمين.

كل هذه العوامل والأسباب كانت توحي ـ لأول وهلة وعلى نحو لا يقبل النقاش ـ بأن النصر الساحق سيكون حليف الأحزاب ضد المسلمين، وأن المدينة لابد وأن تصبح في قبضة هذه الجيوش الغازية الضخمة الغامرة.

الأمر الذي غرر ببني قريظة فحملهم على ارتكاب جريمة الخيانة البشعة تلك، إذ نقضوا العهد وانضموا إلى الجيوش الغازية ضد المسلمين ليأخذوا نصيبهم من ثمار النصر الذي لم يكن لديهم أدنى شك (إلا زعيمهم كعب بن أسد) بأنه سيكون حليف الأحزاب». [**غزوة الأحزاب لباشميل ٢٥٢-٢٥٥**].

٢٠ ـ تنظيم الحيطة القتالية كالاستطلاع والحراسة الإنذارية:

يقول عميد/ كاخيا: «كانت المعلومات عن العدو تَرِد إلى الرسول الكريم ﷺ أولًا بأول، فقد علم بمؤامرة اليهود وتأليبهم قريشًا وغطفان وغيرهم على المسلمين وعلم ببدء تحرك جيش أبي سفيان من مكة، وأرسل السعدين لمعرفة موقف اليهود بعد وصول جيش المشركين إلى شمال المدينة المنورة، وأرسل أيضًا الصحابي حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما للتأكد من عزم القرشيين على الرحيل إلى مكة، وروى حذيفة رضي الله عنه نفسه: أن رسول الله مر على أصحابه في ليلة من ليالي الخندق الباردة وهم ثلاثمائة رجل، حتى أتى عليَّ وما عليَّ جُنة من العدو ولا من البرد، ألا يدل هذا على وجود حراسة إنذارية أو ما يُطلق عليه «مخافر أمامية» في تماس مباشر مع العدو». [**الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٧٤**].

٢١ ـ التعرف على الأخبار بطريق غير مباشر:

يقول د/ أبو فارس: «إن الطريقة التي استطاع الوفد أن يعرف بها حقيقة موقف بني قريظة من العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين كانت طريقة ذكية لبقة، إذ لم يسألوا بني قريظة عن صحة الخبر الذي سمعوه عنهم، وأرسلهم رسول الله ﷺ من أجل أن يتبينوه، بل تجاهلوه ولم يُشعروهم بمعرفته، وطلبوا منهم الموادعة وتجديد الحلف وتوكيده، فما كان ليهود بني قريظة إلا أن يجيبوهم بحقيقة موقفهم، موقف الخيانة والغدر ونقض العهد، بل وإنكار العهد، إذ أنكروا نبوة محمد ورسالته وأن يكون عهد بينهم وبين المسلمين.

أقول: إن القائد الذكي، والوفد العسكري اللبق، يستطيع أن يتعرف على كثير من أخبار عدوه، ومواقفه العسكرية بطرق غير مباشرة دون أن يشعر عدوه بذلك، ولو كان السؤال مباشرًا ربما لامتنع العدو عن الإجابة أو تحفظ فيها.

وهكذا يمكن للمسلم أن يتعرف على كثير من أخبار عدوه بالطريق غير المباشر، فيعرف عنهم دقائق حياتهم.

وإني أُذكِّر القارئ الكريم كيف استطاع الرسول ﷺ أن يعرف عدد جيش المشركين في بدر ومعلومات أخرى عن طريق أسئلة غير مباشرة وجهها للأسيرين، فسألهم كم ينحر القوم من الإبل، فبمعرفة رسول الله ﷺ لكمية الغذاء استطاع أن يقدر عدد الجيش، ولقد سألهما سؤالًا مباشرًا فما وجد جوابًا عندهما». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٣٣-٣٤**].

٢٢ ـ ينبغي أن يُبنى الموقف العسكري وغير العسكري على معلومات دقيقة صحيحة:

يقول د/ أبو فارس: «إن على القائد المسلم أن يفحص الأخبار التي تصله قبل أن يصدر قراره العسكري، فقد تكون هذه الأخبار غير صحيحة ومضللة يهدف العدو منها إيقاعه في شركه، أو استفزازه، أو أي هدف آخر يرسمه العدو ويريد تحقيقه، وقد تكون المعلومات الواردة كذبًا لا أساس لها من الصحة، وكم يكون القرار فاشلًا حينما يتخذ القرار مبنيًّا على تلك المعلومات الكاذبة، فقد يعلن الحرب على قوم ليسوا بمحاربين، ويوسع جبهة القتال بالنسبة له، ومن ثم يوزع جنوده على أكثر من جبهة، وهذا أمر يربكه، ويوسع جبهته بلا موجب يوجبه أو حالة ضرورة تستدعيه.

تأمل كيف فعل رسول الله ﷺ حينما بلغه الخبر، فقبل أن يتخذ قراره العسكري، ويعدل خطته، قام بإرسال الزبير بن العوام ﵁ فجاءه بمعلومات أولية تدل على أن تحركًا غير طبيعي لبني قريظة، وفيه أمارات على أنهم يستعدون للحرب، لم يكتف الرسول ﷺ بالتقرير الذي قدمه الزبير بن العوام ﵁، بل أرسل نفرًا من الأوس والخزرج ليستوثق من صحة الخبر ودقة المعلومات، فجاءته الأخبار دقيقة موثقة، فبنى بعد ذلك قراره العسكري عليها، إذ تبدل الموقف، فلا بد من تعديل الخطة، إذ كان جميع الجنود يرابطون خلف الخندق لصد الأحزاب، أما وقد فتحت جبهة أخرى فلا بد من إرسال جنود منهم إلى الجبهة الأخرى حتى تقف في وجه بني قريظة، وتحمي النساء والأطفال في المدينة.

ونأخذ من موقف الرسول ﷺ درسًا في غاية الأهمية، وهو عدم التسرع في اتخاذ القرارات، وضرورة الاعتماد على معلومات صحيحة دقيقة وشاملة قبل اتخاذ أي قرار من القرارات سواء كانت إدارية أو سياسية أو عسكرية أو تربوية أو اقتصادية مالية أو أمنية أو غيرها، فإن ما يُبنى على الدقة يكون دقيقًا وصحيحًا ونافعًا، وما يُبنى على المعلومات الكاذبة أو على فقر في المعلومات فسيكتب له الفشل الذريع.

ولا بد أيضًا من دراسة الأخبار والمعلومات وتمحيصها وفحصها وتحليلها ثم البناء على النتائج المدروسة.

إن كثيرًا من خطط التنمية في بلاد المسلمين، والقرارات العسكرية والأمنية والاقتصادية والتربوية يُكتب لها الفشل إما لأنها غير معتمدة على معلومات أصلًا، اتخذت ارتجالًا، أو أنها بنيت على معلومات قليلة وغير كافية، أو أنها بنيت على معلومات خاطئة غير دقيقة، أو على دراسة مبتسرة غير ناضجة، ولا رشيدة، ومن المؤسف حقًّا أن نقول: وأحيانًا ليست مدروسة». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٨-٢٩**].

٢٣ ـ طريقة نقل المعلومات موفقة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد اختار رسول الله ﷺ طريقة لنقل المعلومات العسكرية وتوصيلها في الدقة والسرية والكتمان.

ولقد وفق الوفد في اختيار أسلوب تبليغ رسول الله ﷺ الخبر، إذ ألمحوا إلماحًا فَهِمَ منه رسول الله ﷺ ما أرادوا، إذ كانت العبارة موجزة جدًّا: عضل والقارة، أي: غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه رضي الله عنهم.

إن رسول الله ﷺ كان يهدف إلى عدم إشاعة الخبر إن كانت بنو قريظة قد نقضت، فلا ينبغي أن يعلم الجنود بهذا ويصدموا، ولقد حققت هذه الطريقة الهدف المنشود». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس٢/ ٣١**].

٢٤ ـ فقدان المسلمين لمبدأ «السلامة»:

إذ اعتمدوا على بني قريظة، وفي ساعة الحسم، اتضحت خيانتهم وكادت المعركة أن تنقلب وبالًا على المسلمين، فالحذر والحيطة ضرورة لابد من التزامها من أجل سلامة الموقف».

[**انتصارات عربية خالدة لفرج ٥١**].

٢٥ ـ تقسيم الجنود إلى دوريات للحراسة:

يقول د/ الصلابي: «قسَّم النبي ﷺ أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة الخندق وحراسة نبيهم ﷺ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه، وكانوا على أهبة الاستعداد جنودًا وقيادة، حتى إنهم استمروا ذات يوم من السحر إلى جوف من الليل في اليوم الثاني، ويفوت المسلمين الصلواتُ الأربع، ويقضونها لعجزهم عن التوقف لحظة واحدة أثناء الاشتباك المباشر للقتال، واستطاع علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع مجموعة من الصحابة أن يصدوا محاولة عكرمة بن أبي جهل، بل تصدى علي رضي الله عنه لبطل قريش عمرو بن عبد ود وقتله». [**السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٦٣-٢٦٤**].

٢٦ ـ اليقظة الدائمة للجنود:

يقول د/ أبو فارس: «إن يقظة المسلمين الدائمة وحراستهم للخندق ليل نهار قد فوتت على المشركين ما أرادوا، فردت فرسانهم خائبين، قُتل من قُتل، وهرب من هرب.

وهكذا ينبغي على المسلم ألا يغفل لحظة عن مراقبة عدوه وتحركاته في مجابهته له؛ لأن عدوه يترقب منه ساعة غفلة فيميل عليه ميلة واحدة يستأصل فيها شأفته بعد أن ينهك قوته قال تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾[النساء: ١٠٢].

ومما يؤسف له أن كثيرًا من حروبنا مع اليهود في المنطقة كانت تعتمد على الغفلة منا والحيلة من أعدائنا، ففي حرب ١٩٦٧م كانت الغفلة حيث كان ضباط الطيران منشغلين في حفلة ساهرة ماجنة حتى الفجر، ثم كان النوم من الساهرين فدُمرت الطائرات وهي جاثمة على أراضي المطارات، وكما يقولون: **حفلتان ودمَّر الطيران**.

والذي نرجوه من كل قلوبنا ألا تتكرر المآسي في حروبنا القادمة مع عدونا، فإنه عدو خبيث لئيم».
[**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٢-١٧٣**].

٢٧ ـ محافظة القائد على معنويات الجند:

يقول د/ أبو فارس: «لقد حرص رسول الله ﷺ رغم قساوة الظروف وسوئها أن تبقى الروح المعنوية للمقاتلين قوية، لا يُسمعهم خبرًا يؤثر على هذه الروح المعنوية، ولا يسمح لأحد أن يُسمعهم شيئًا يحط من هذه الروح ويضعفها، تأمل قوله ﷺ: «**فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ**».

إن عوامل كسب النصر في القتال كثيرة، وقوة الروح المعنوية من أقوى العوامل لكسب النصر في المعارك رغم قلة العدد والعدة، وإن أخطر شيء في القتال انهيار معنويات المقاتِل، إنه يُهزم من داخله في إرادته وعزمه، ومن ثم ينهزم من الداخل فيعطي سيقانه للريح ويولي هاربًا، أو يرفع يديه ويلقي سلاحه ويستسلم.

والصبر كما نعلم طريق النصر، والشجاعة صبر ساعة». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٣٢**].

٢٨ ـ أهمية الجانب المعنوي من المعركة:

يقول د/ الغضبان: «فهؤلاء المحاصَرون الآن بها لا قبل لهم من بني قريظة وغطفان وقريش، قد يشتد عليهم الحصار، ويبادون جميعًا، وقد يتمكن الأحزاب من تجاوز الخندق فينقَضُّون على المسلمين ويبيدونهم عن بكرة أبيهم، فليس عند المسلمين المؤن الكافية من الطعام، وقد يُقضى عليهم جوعًا وعطشًا، كل ذلك يمكن أن يقع، وقد لا يتمكنون من حفر الخندق ويبادرهم المشركون قبل الانتهاء منه، فيكونوا جميعًا أسرى وسبايا وقتلى بأيديهم، كل هذا يمكن أن يقع، وقد بلغ الخوف مبلغه من المسلمين كما قال تعالى بأدق وصف وأروعه: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

هذه الاحتمالات كلها واردة ويأتي هنا دور القيادة العظمى، التي ترفع المعنويات، وتعالج الرعب والخوف، وتواجه الزلزال الشديد، فإذا القائد المصطفى ﷺ وهم لا يذوقون ذواقًا منذ ثلاثة أيام، وهم يجهدون بالحفر، يستمعون إلى تباشير النصر، ليس الآن فقط، ولكنه النصر الممتد أقصى المشرق والمغرب، حتى ليسقط كسرى وقيصر ـ قادة الدنيا ـ بأيدي المسلمين، وتنهار اليمن والشام والعراق تحت سنابك خيلهم، فأي تعبئة، ورفع للمشاعر تعدل هذه التعبئة، وتعادل هذه الثقة بموعود الله تعالى؟! وهم المحاصَرون من فوقهم ومن أسفل منهم.

ومن المبشِّرات التي ترفع الروح المعنوية إلى الأوج، حين بلغ رسول الله ﷺ غدر بني قريظة (فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالُوا: **عَضَلٌ وَالقَارَةُ**، أَيْ كَغَدْرِ عَضَلٍ وَالقَارَةِ بِأَصْحَابِ الرَّجِيعِ، خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ)، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الـمُسْلِمِينَ**».

في الوَقت الذي يمكن فيه لقائد آخر أن يسلم بلده، ويعلن استسلامه أمام هذا التظاهر العظيم من أهل الأرض عليه، لكن التكبيرة والبشرى يأتيان في أحلك الظروف وأشد حالات الهول.

ومن المبشرات كذلك والتي رسم بها رسول الله ﷺ خطًا في الأفق البعيد معلنًا فيه انتهاء مرحلة وابتداء مرحلة جديدة، وهي الانتقال منذ الآن من الدفاع للهجوم، ما رواه سليمان بن صرد ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٦-٢٧].

ويقول أ/ الشامي: «إن الاحتفاظ بالمعنويات في نفوس الأفراد هو أحد أسباب الانتصار، وفي سبيل ذلك اتخذ رسول الله ﷺ الأمرين التاليين:

أ ـ فقد ابتلي المؤمنون بالمنافقين ضمن صفوفهم، وقد كان هؤلاء عوامل تثبيط للمؤمنين، وقد واجه ﷺ هذه المشكلات بإذكاء الإيمان في النفوس، فاستطاع أن يتغلب عليها، وبهذا الصدد وردت الآية الكريمة تبين وضع المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

ب ـ كما اتخذ ﷺ كل الوسائل التي تهيء الراحة النفسية للصحابة الكرام الذين يتحملون معه عبء المعركة، ولعل أول ما يشغل الفكر الأولاد والنساء؛ ولذا أمر بهم ﷺ فنقلوا إلى أبنية منيعة، وكان ذلك احتياطًا في بدء الأمر قبل أن تنقض قريظة العهد.

وبعد نقضها العهد عُزِّزت المدينة بالدوريات المكثفة وخاصة بالليل، والتي أمرت أن تُظهر التكبير حتى ترتفع بمعنويات النساء والأطفال. **[طبقات ابن سعد ٢/ ٦٧]**.

كما عمل ﷺ على إبعاد كل ما من شأنه أن يفت في عضد المؤمنين ويلاحظ هذا واضحًا في أمره ﷺ للوفد الذي أرسله إلى بني قريظة ليتأكد من نقضهم العهد، بأن يلحنوا إليه لحنًا يعرفه ولا يفتوا في أعضاد المسلمين، إن كانوا غدروا، وإن كانوا على العهد أن يجهروا به أمام الناس. [**البداية والنهاية ٤/ ١٠٣**].

تلك بعض إجراءات القيادة للحفاظ على الجانب النفسي لدى المسلمين وهم يخوضون معركة غايتها استئصالهم من الوجود الإنساني». [**من معين السيرة للشامي ٣١٢**].

ويقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من قول رسول الله ﷺ المتقدم حرص النبي ﷺ على رفع معنويات المسلمين، وإبعاد كل ما يؤثِّر في معنوياتهم بضعف أو غيره.

وهذا ما أراده الرسول ﷺ حين قال: **وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ**.

والفت في أعضاد الناس إنما يكون بإشاعة الخبر السيئ فيهم، ولهذا أمر بالتورية إن كان الخبر سيئًا، وبالتصريح إن كان الخبر مفرحًا؛ لأن في ذلك رفعًا لمعنويات المقاتلين، فقال: **وَإِنْ كَانُوا عَلَى الوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ**.

وهكذا ينبغي أن يحرص كل قائد على معنويات جنوده بأن تبقى الروح المعنوية عالية؛ فإن لهذه الروح أثرًا في القتال وجلب النصر، ودفع الهزيمة». [**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٤٩-١٥٠**].

٢٩ ـ غدر بني قريظة هو الثغرة التي أُتي منها المسلمون:

يقول أ/ دويدار: «ليس من شك في أن العناية الإلهية هي التي أنقذت المسلمين في غزوة الأحزاب، وأنه لولا هذه العناية لكان فناء المسلمين أمرًا واقعًا لا محالة، وكان مصير الدعوة الإسلامية إلى زوال لا شك فيه، وهذا ما كان يخشاه رسول الله ﷺ، وهو يدعو ربه مستغيثًا به إذ يقول: «**اللهم إنك إن تشأ لا تعبد**»، نعم، فلو شاء الله أن ينهزم المسلمون في هذه الغزوة لانتهى أمر الإسلام إلى الزوال، ولفَنِيت هذه الفئة القليلة التي كانت توحد الله وتقيم دينه في الأرض.

وليس من شك في أن غدر بني قريظة كان هو الثغرة الوحيدة التي أُتي منها المسلمون، والتي لولاها لما استطاع المشركون أن يجدوا إلى المسلمين سبيلًا، فقد وقفوا أمام الخندق طويلًا، وطافوا به كثيرًا، وحاولوا غير مرة أن يجدوا فيه منفذًا ينفذون منه إلى المسلمين، ولكن المسلمين كانوا من اليقظة والتمكن بحيث استطاعوا أن يسدوا عليهم كل ثغرة، وأن يردوا إليهم كل محاولة.

ولقد كان من الجائز أن يسأم المشركون هذه الحالة، وأن يملوا الوقوف أمام هذا الخندق، وأن يتملكهم اليأس من الوصول إلى معسكر المسلمين، بعد ما حاولوا وحاولوا فلم يستطيعوا، وكان من الجائز أن يدفعهم اليأس والملل إلى الرجوع إلى ديارهم، دون أن ينالوا أربًا مما كانوا يريدون بالمسلمين.

لكن دخول بني قريظة في زمرة الأحزاب، ونقضهم العهد مع المسلمين، كان ـ ولا شك ـ هو السبب الذي أعاد الأمل قويًّا إلى نفوس المشركين، فَعَلَتْ به روحهم المعنوية، وازداد نشاطهم، واشتد ضغطهم على معسكر المسلمين حتى أرهقوهم، وكان هو العامل الأكبر فيما أصاب المسلمين من زلة وخوف، وما حدث في صفوفهم من خلخلة واضطراب، وما جعل المنافقين والذين في قلوبهم مرض ينتهزونها فرصة، فيخذِّلون بين الناس، ويشيعون اليأس في القلوب، ويقولون كما حكى الله عنهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب]، ويتداعون إلى الفرار قائلين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

وإن ما وصف القرآن من حال المؤمنين في هذا الظرف العصيب، ليصور بوضوح قوة الهجوم الكاسح من جانب الأحزاب على معسكر المسلمين، إذ جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ويدل دلالة واضحة على مبلغ الخوف الذي أصاب المسلمين، حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وذهبت الظنون بهم كل مذهب، ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب]».

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٢/ ١٩٢-١٩٣].

٣٠ ـ المحاولات اليهودية لإشغال المسلمين:

يقول د/ أبو خليل: «وحادثة هذا الجاسوس، محاولة من اليهود لإشغال المسلمين بعمل حربي في مؤخرة جيشهم، فأرسلوا هذا الجاسوس بمهمة استطلاعية إلى الآطام التي حلَّت بها النساء المسلمات وأولادهن، وأيقنت بنو قريظة عندما لم يرجع إليهم أنه قتل، وأن المسلمين قد خصصوا جزءًا من قواتهم لحماية الظعن والمؤخرة؛ لذلك عدلوا عن القيام بأي عمل حربي في مؤخرة الجيش الإسلامي، وقبعوا في حصونهم لا يفكرون بالخروج خوفًا ورعبًا وتحسبًا». **[غزوة الخندق لأبي خليل ١٠٧-١٠٨]**.

٣١ ـ يقظة الصحابة رضي الله عنهم لهجوم بني قريظة:

يقول د/ الحميدي: «كان الصحابة رضي الله عنهم في تمام اليقظة والحذر، فكانت فصائلهم تجوب أنحاء المدينة في الليل حتى لم تترك لليهود أية فرصة للإغارة على النساء والذراري ونحوهم.

وهذا مثل للجهود الكبيرة التي كان يبذلها سلمة بن أسلم بن حريش وأصحابه رضي الله عنهم في حراسة المدينة من داخلها.

ونجد أن هؤلاء الأبطال لم يكتفوا برد غارة اليهود بل تبعوهم إلى أحد حصونهم وأرهبوهم وهدموا بئرًا لهم خارج الحصن حتى أصبحوا محصورين في حصونهم لا يستطيعون الخروج».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٢١].

٣٢ ـ تخطيط محكم:

يقول الشيخ عبيد: «القائد الحكيم دائمًا يتصرف حسبما تمليه الحاجة ويتطلبه الموقف؛ لذلك وزع الرسول ﷺ جنده على:

أ ـ طول الخندق؛ لأنه كان يتوقع الهجوم في كل لحظة؛ لذلك يخشى أن يأخذه المشركون على غِرة ويهاجموه ليلًا أو نهارًا؛ لذلك احتاط للأمر وأقام الحراسة الدائمة على طول الخندق، وقد علَّم أصحابه كلمة السر بحيث يتعارفون بها في ظلمات الليل ولا يقتل بعضهم بعضًا وهذه الكلمة هي: «**حم لا ينصرون**» أرأيت الدقة والتنظيم والمهارة.

ب ـ طائفة أخرى من المسلمين تحرس المدينة خوفًا من أن يقوم يهود بني قريظة بفتح ثغرة للمشركين، فأرسل بجند ليأمنوا هذا الجانب وكانت كلمة سرهم: «**الله أكبر**».

ج ـ فرقة أخرى تحرس النبي ﷺ، مع الإحاطة بأن العرب تنفر من القتل غدرًا وغيلة وتعده دناءة وعارًا، لكن اليهود يعدون الغدر شرفًا وهو يتخوف منهم.

د ـ كان اليهود قدَّموا وعودًا وعهودًا إلى غطفان أن لهم نصف ثمر خيبر، إذًا هؤلاء قوم مأجورون بالمال، فهم يغامرون بالحرب في سبيل الحصول عليه؛ لذلك أرسل ﷺ إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف مَنْ فاوضهما على أن يرجعا بجيشهما ولهم ثلث ثمار المدينة، وقد فرح قادة غطفان بهذا العرض؛ لأنهم لن يخوضوا حربًا وسوف يأخذون ثلث ثمار المدينة، وبعد أن تمت الموافقة على ذلك أرسل ﷺ إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة باعتبارهما قيادات شعبية لهما مكانة سامية في نفوس الجماهير واستشارهما في ذلك قبل أن يوقِّع على العقد مع غطفان، فقال السعدان ما قالا، تعبيرًا عن رفض إعطائهم إلا السيف.

هذا التخطيط المحكم وهذه الدقة والانضباط على قيم الوفاء لله ﷻ والأدب مع رسول الله ﷺ، كان لكل ذلك ثمرته ونتائجه التي حققت النصر المبين». [**غزوة الأحزاب لعبيد ٣١-٣٢**].

٣٣ ـ الهدف النبوي من إطالة أمد المعركة:

يقول أ/ كولن: «كان الرسول ﷺ يسعى إلى إطالة أمد المعركة ما أمكنه ذلك، ونجح في ذلك، واستفاد من إطالتها فوائد عديدة نستطيع أن نعدد بعضها:

الأولى: كان الوقت مقبلًا على موسم الشتاء، ولم تكن قريش وحلفاؤها قد استعدوا للشتاء، فلو بقوا أكثر لأنهى الشتاء أمرهم، وعندما يفكون الحصار ويذهبون، يذهبون وقد ضعفت قواهم وتداعت.

الثانية: كان العدو مضطرًا إلى العناية بعشرة آلاف من المقاتلين وإطعامهم كل يوم، وكلما زادت المدة وتوالت الأيام دخلوا إلى أزمة مالية أكبر، وعندما اتحد الجوع والظمأ والبرد، أصبح الوضع غير محتمل بالنسبة لهم.

الثالثة: لم يكن من المتوقع أن يستمر الحلف في جبهة العدو طويلًا، هذا الحلف الذي كان حلفًا مصطنعًا قام على أساس واحد، وهو اشتراكهم في عداوة رسول الله ﷺ، وكان مرور كل يوم يُضعف هذا الحلف، بينما كانت جبهة الإسلام تقوى على مر الأيام وتزداد تراصًّا ووحدة.

الرابعة: كان هناك زعماء عديدون في جبهة العدو، ولم يكن أي واحد منهم قادرًا على أن يُسمع كلامه للآخرين ولا أن يجعل الآخرين يطيعونه، كانوا يشبهون الجيوش الصليبية، كان أبو سفيان ـ من الناحية النظرية فقط ـ هو قائد جبهة العدو وجيشه، ولكن هذا كان في الظاهر فقط، وكلما مرت الأيام بدأ الشقاق يدب بين هؤلاء الزعماء والأنداد وتتزايد النزاعات بينهم». [**النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/١٠٣-١٠٤**].

٣٤ ـ تحطيم صيغة التحالف بين الأحزاب:

يقول عميد/ فرج: «فرسول الله ﷺ خطا هذه الخطوة لأنه أراد أن يكسر شوكة التحالف، وأن يخفف على المسلمين ما هم فيه من بلاء، ورأى ﷺ أن هذين الهدفين يعدلان في النتيجة ثلث ثمار المدينة.

ولكنه ﷺ لم يشأ ـ وقد كتب صلحًا بذلك ـ أن يقر أمرًا يخص المسلمين جميعًا دون أن يكون لهم رأي، ذلك أن أسلوبه في القيادة كان يفرض الشورى في كل أمر عسكري يتصل بالجماعة، ولم يشأ ﷺ أن يخرج عن هذا الأسلوب أو يحيد عنه، فالأمر شورى، ولا ينفرد به فرد حتى ولو كان هذا الفرد هو رسول الله ﷺ، طالما أن الأمر تُرك للاجتهاد ولم ينزل به وحي، ولعل هذا الأسلوب كان من عوامل تفوق المسلمين ونجاحهم، وقد استخدم هذا الأسلوب في بدر وأحد، وأثبت رجاحته وامتيازه.

وكان موقف سعد رضي الله عنه موقفًا كريمًا يحمل أكثر من معنى:

(١) فهو أولًا يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية، فإن أحدهم كان لا يتردد في أن يبدي رأيه في موضوع يحتاج إلى الرأي والمشورة حتى ولو كان يعرف مسبقًا أنه يخالف رأى رسول الله ﷺ.

(٢) وهو ثانيًا يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله وبرسوله وبالإسلام، هذا الاتصال الذي يفرضه إيمان عميق وعقيدة راسخة وثقة كبيرة، وهذه عُمَد رئيسة قام عليها البناء الإسلامي.

(٣) وهو ثالثًا يبين ما تمتلئ به روح المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر والصمود والاحتمال، ومن رغبة جياشة في قهر العدو مهما تكتلت قواته أو كثر سلاحه أو تعدد حلفاؤه.

وقبول رسول الله ﷺ الرأي الذي أشار به سعد رضي الله عنه سمة من سمات القيادة، فالقائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، يعرف قدرهم ويدركون قدره، يحترم رأيهم ويحترمون رأيه.

وأخيرًا ماذا يعني قبول رجلي غطفان ما عرضه عليهما الرسول ﷺ؟

إنهما قبلا العودة والانسلاخ من الحِلف في مقابل ثلث ثمار المدينة، وهذا يؤكد في وضوح أن غطفان خرجت، وليس في داخلها دافع جوهري للخروج، ولاشك في أن هذا الدافع من وجهة النظر الحربية هو

الوقود الذي يشعل النفس عند القتال، وهو المُوتور الذي يحركها في جبهة القتال، واختفاء هذا الدافع يعني أن المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال.

لقد كان رسول الله ﷺ مقتنعًا أن حل الموقف يأتي عن طريق فض التحالف الذي جمع بين أعدائه، وجاءته ﷺ الفرصة حين أتاه نعيم بن مسعود ﷺ، وكان قد أسلم دون أن يعرف أحد بإسلامه، وكانت له مودة سابقة مع بني قريظة». [**العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٩٢-٢٩٤**].

٣٥ ـ موقف غطفان في المعركة:

يقول أ/ باشميل: «واللغز العسكري في سير عمليات الأحزاب الحربية هو أن أحدًا من المؤرخين لم يذكر أنه قد كان لقبائل غطفان النجدية ـ التي يشكل رجالها العمود الفقري لهذا الغزو ـ أي عمل حربي بارز ضد المسلمين في هذه الغزوة المقصود بها استئصال شأفة المسلمين وهدم الإسلام.

فقد كان من المفروض أن يشارك قادة غطفان قادة قريش في عمليات الاستفزاز والمناوشة التي قادها أولئك القادة القرشيون بأنفسهم ضد المسلمين على مشارف الخندق، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث طيلة أيام الحصار.

وهذا يعني بالتأكيد أن قبائل غطفان طيلة أيام الحصار لم تطلق سهمًا واحدًا ضد جيش المدينة ولم يقم أحد من رجالها بأي عمل حربي ضد المسلمين، فكل الذين جاء ذكرهم في كتب التاريخ أنهم قاتلوا وقاموا بمختلف العمليات الحربية ضد المسلمين طيلة أيام حصار المدينة إنما هم من قريش فقط.

لقد ظهر موقف التكاسل الذي وقفته من معركة الأحزاب، قبائل غطفان النجدية، وهي التي تشكل الأغلبية في حشود هذا الغزو.

فأثناء استعراضنا لجميع أدوار المعركة لم نر لأي من رجال غطفان (قادة وجنودًا) أي نشاط حربي ضد المسلمين في هذه المعركة.

فكل الذين قاموا بقفز الخندق بخيلهم هم من قريش وليس بينهم غطفاني واحد، كما أن كل القادة الذين تولوا بالتناوب عملية إرهاب المسلمين وإزعاجهم بالطواف بكتائبهم حول الخندق ليلًا نهارًا هم من قريش فقط، وليس بينهم قائد غطفاني واحد، كما أن التاريخ لم يذكر أنه كان ضمن جنود هؤلاء القادة القرشيين جندي غطفاني واحد.

فما هو السبب في هذا الموقف المتكاسل الذي وقفته قبائل غطفان في هذه الغزوة الكبيرة؟

الذي يظهر لنا أن هناك سببًا رئيسًا واحدًا، وهو أن قيادة غطفان قد يئست بعد حفر الخندق من احتلال المدينة إلا بعد تضحيات جسيمة باهظة.

وما كانت غطفان تحمل عقيدة صافية تصلها بالله، تستعذب الموت في سبيلها، وتؤمن بأن القتل تحت لوائها شهادة ترتفع بقتلاها إلى درجة الصديقين والشهداء، حتى تخاطر بأرواحها فتقتحم الخندق غير مبالية بما يصيبها من قتل وجرح كما هو الحال عند المسلمين.

بل لم تكن غطفان ـ على ما يظهر ـ تحمل للمسلمين ذلك العداء العقائدي المرير المتأصل الذي تحمله يهود وقريش، وإنما كل رجال غطفان أعراب خلص لا يعرفون للغزوات والحروب معنى، إلا أنها وسيلة فقط للنهب والسلب والحصول على المغنم المادي بأقل خسارة ممكنة، الأمر الذي كان أعراب غطفان يمنُّون النفس بالوصول إليه عندما تحركت جموعهم الغفيرة من مضاربها في صحاري نجد للمشاركة في غزو المدينة.

وحيث إن هذه المكيدة الحربية العظيمة التي ما كان العرب يكيدونها (وهي الخندق) قد جعلت من المستحيل على هؤلاء الأعراب الحصول على المغنم بالطريقة التي ألفوها في حروبهم المكشوفة الخاطفة التي لا تستغرق إلا ساعات قلائل وبصورة مفاجئة، ورأوا أن احتلال المدينة التي يحلمون بغنائمها، لن يكون إذا ما نجحوا فيه إلا بعد مغامرة خطيرة يكلفهم الإقدام عليها مئات القتلى مما يجعل المغنم الذي قد يحصلون عليه يتلاشى في حسابهم المادي أمام هذه التضحيات الجسام التي يبذلونها من الرجال للوصول إلى هذا المغنم المادي، فإنهم آثروا السلامة على المغنم المحفوف بكل هذه المخاطر الجسام.

فمن هنا ـ والله أعلم ـ جاء إحجامهم عن القيام بأي عمل حربي يُعَرِّض أرواحهم للخطر في هذا الغزو الكبير الذي ما شاركوا فيه إلا للحصول على الغنائم والغنائم فقط، وحيث إن هذا أصبح مستحيلًا بعد حفر الخندق، فلا داعي لأن يتعرض هؤلاء الأعراب للقتل والجرح، وهذا أمر يتفق تمامًا مع منطق الأهداف الصغيرة الضيقة المحدودة التي جاء هؤلاء الأعراب لتحقيقها».

[غزوة الأحزاب لباشميل ٢٦٦-٢٦٨].

٣٦ ـ أهمية حرب التخذيل:

يقول د/ الوكيل: «ورأى رسول الله ﷺ أن الأمر قد يشتد أكثر من ذلك، فإن العرب قد رمتهم عن قوس واحدة، ففكر في حيلة يفك بها الحصار عن المسلمين، ومن حق القائد أن يتصرف بكل ما يبعد الأذى والضر عن جنوده، أليست الحرب خدعة؟

بلى، إنه يجوز في الحرب ما لا يجوز في السلم، وقد هداه تفكيره ﷺ أن يشن عليهم حربًا من نوع جديد، لا سلاح فيها، ولا دماء معها، وإنما هي التخذيل والإشاعة.

هذا النوع من الحرب هو ما يسمى اليوم بالحرب الباردة، ولقد ثبتت فعالية تلك الحرب، ونجحت في كثير من الأحيان، وكان وقعها على بعض الجيوش أشد من وقع القنابل، وضررها أفتك من قصف الصواريخ.

والمقصود من هذه الحرب توهين الأعداء، وكسر شوكتهم، وتفريق كلمتهم، وإيقاع العداوة والخلاف بينهم، فإذا استطاع المسلمون أن يفعلوا ذلك بعدوهم فإنهم يضمنون النصر عليهم ـ بإذن الله ـ لأنه ليس أشد على المحاربين من النزاع ووقوع الخلاف، وقد استعمل ﷺ نوعين من هذه الحرب هما: التخذيل والإشاعة.

فأما التخذيل فقد اتبع فيه رسول الله ﷺ أسلوب المفاوضات، وقد اختار لذلك غطفان لأنها الفريق الأقوى، وقد خرج وليس له هدف حقيقي من وراء هذه الحرب، والذين يخرجون للحرب من غير أن يكون لهم هدف يريدون تحقيقه إلا هدفًا ماديًّا لو توفر لهم هذا الهدف المادي فإنهم يرجعون عن الحرب، ويفوزون بهدفهم بغير قتال، وإذا كان هذا الفريق هو أقوى المحاربين، وأكثرهم عددًا فإن توهينه وصرفه عن الحرب يكون من أهم أسباب هزيمة الباقين.

لهذا قصد الرسول ﷺ غطفان، وهم أكثر المحاربين عددًا، ولم يخرجوا إلا طمعًا في الحصول على تمر نخل خيبر، أَمَا وقد طال الحصار، ولم يحقق الحلفاء ما جاؤوا من أجله، بل لم يظهر في الأفق ما يبشر بانتصارهم، فإن ذلك كله يوحي لزعماء غطفان بأنهم سينقلبون من المعركة خائبين دون أن يحصلوا على تمر خيبر أو يفوزوا من الغنيمة بالإياب.

وانتهز الرسول ﷺ تلك الفرصة، فأغرى عيينة بن حصن زعيم غطفان بثلث تمر المدينة على أن يرجع هو وجيشه، ويتركوا القتال، وفكَّر عيينة في الأمر فوافق على المفاوضة، ورضي بما عرضه عليه الرسول ﷺ، أليس رجوعه بثلث تمر المدينة خيرًا من أن يرجع بلا شيء؟

[يقول د/ هيكل: وماذا عسى أن يُمسك غطفان عن أن تعود أدراجها وهي إنما اشتركت في الحرب لأن اليهود وعدتها ـ متى تم النصر ـ ثمارَ سنة كاملة من ثمار مزارع خيبر وحدائقها، وها هي ذي ترى النصر غير ميسور، أو هو على الأقل غير محقق، وهو يحتاج من المشقة في هذا الفصل القارس إلى ما ينسيها الثمار والحدائق!]. [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤١].

واشترط الرسول ﷺ لإنجاز المفاوضة أن يستشير أصحاب الأمر وأهل الرأي، فبعث إلى سعد بن معاذ زعيم الأوس، وسعد بن عبادة زعيم الخزرج يستشيرها في الصلح؛ وذلك لأن الأمر يتعلق بهما وبقومهما وبلدهما أكثر مما يتعلق بغيرهما، فالأرض أرضهم، والثمرة ثمرتهم، والحرب ستضر بهم أكثر من غيرهم.

استمع السعدان إلى ما عرضه عليهم رسول الله ﷺ في أدب واحترام، ثم كان منهما الموقف الدقيق الواعي حين قالا: **يَا رَسُولَ اللهِ! أَمْرًا تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ العَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا؟**

هكذا كان الموقف العظيم من السعدين العظيمين رضي الله عنهما إنه تصوير رائع للجندية الواعية المطيعة، إن كان الصلح شيئًا تحبه القيادة سارعا إليه وصنعاه، وإن كان بأمر من الله فليس لأحد إلا أن يتقبله ويرضاه، وإن كان لمصلحة الجنود فللجنود رأي ينبغي أن يُسمع في هذا المقام.

قال ﷺ: «**بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاللهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّنِي رَأَيْتُ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا**».

وكان الموقف الأكثر روعة، والأدق وعيًا، حين قال سعد بن معاذ رضي الله عنه: **يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ القَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِاللهِ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، لَا نَعْبُدُ اللهَ وَلَا نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلَّا قِرَىً أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ وَهَدَانَا لَهُ، وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا، وَاللهِ مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ**.

ولم يتم الصلح بين المسلمين وغطفان، وارتابت غطفان من عدم إتمام الصلح، وظنوا أن المسلمين رجعوا عن الصلح لأنهم وجدوا القوة التي تغنيهم، ويئست غطفان من أن تجني من وراء خروجها شيئًا فقلقت لهذا المصير، وعزمت على أحد أمرين:

إما أن تخوض معركة فاصلة، أو ترجع من حيث أتت.

وبالقدر الذي أصاب غطفان من اليأس، ضاقت قريش لهذا الموقف المتجمد، إنهم في حالة حرب ولا حرب، وإنهم قد خرجوا من ديارهم لاستئصال المسلمين، ولم يفعلوا شيئًا؛ ولهذا قرر أبو سفيان أن يتخذ موقفًا إيجابيًّا غير هذا الموقف المتخاذل.

وهنا برزت جماعة من جيش أبي سفيان، وقصدت مكانًا ضيقًا من الخندق، وهم عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب، وضربوا خيلهم فاقتحمت الخندق، وجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع.

وخرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه في جماعة من المسلمين رضي الله عنهم وسدوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها، وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراح، وظل يعالج منها زمنًا طويلًا، حتى إنه لم يشهد معركة أُحُد، فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلِمًا ليعرفه من يراه، وطلب من المسلمين المبارزة، فلم يقم له أحد لشجاعته وقدرته القتالية، فبرز له علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأراد الرسول ﷺ أن يخرج له غير علي رضي الله عنه ممن اشتهروا بالبسالة والإقدام، ولكن عليًّا رضي الله عنه أصر على الخروج له، وقتله عليٌّ رضي الله عنه بفضل الله عز وجل.

هدأت الجبهة الشمالية الشرقية على أمل استمرار المفاوضات، وعودة المسلمين إليها، كما كانت الهزيمة التي مني بها مقتحمو الخندق مثبطة لعزيمة قريش عن الدخول في معركة كبيرة، وظلت تتربص ما

ستتمخض عنه الأحداث، وأتيحت للرسول ﷺ فرصة من خلال هذا الهدوء النسبي ليواصل حرب التخذيل، فقد جاء نعيم بن مسعود الغطفاني ؓ إلى الرسول ﷺ وقال: **يَا رَسُولَ الله، إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ.**

فقال ﷺ: **إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ.**

وبهذا سنحت الفرصة لرسول الله ﷺ ليشن حرب التخذيل، ولكنها في هذه المرة ستكون بين الفرق المتحالفة على حرب المسلمين جميعًا، واستعمل فيها أسلوب الوقيعة، وبذر الشك في قلب كل فريق من الآخر، حتى إذا تمزقت القلوب المجتمعة، وتنافرت النفوس المؤتلفة، وفقدت الثقة بين الحلفاء، لم يعد هناك خوف من هذه القوات مهما كثر عددها؛ لأن فقد الثقة سيؤدي لا محالة إلى عدم التعاون.

لم يكن هناك شخصية تستطيع القيام بهذا الدور الخطير سوى نعيم بن مسعود ؓ؛ ذلك لأنها تمتاز بكل الخصائص التي ينبغي توفرها فيمن يقوم بمثل هذا الدور، فهو رجل غطفاني لا يشك أحد في إخلاصه لقومه، وهو كذلك نديم لبني قريظة في الجاهلية، وصديق حميم لقريش، فإذا دخل بين كل فريق من الحلفاء فهو محل ثقتهم، وموضع تقديرهم، وقد وهبه الله من الذكاء ما يؤهله للقيام بالدور الذي دله عليه الرسول ﷺ حين قال له: فخذل عنا إن استطعت.

وقام نعيم ؓ بالدور الذي أُنيط به خير قيام، وبدأ ببني قريظة، فذكَّرهم بما كان بينه وبينهم في الجاهلية من الإخلاص والمحبة، وأخبرهم بأنه جاءهم ناصحًا أمينًا، وقال: إِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ، البَلَدُ بَلَدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَحَوَّلُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاؤوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ، وَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بِغَيْرِهِ، فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ، فَإِنْ رَأَوْا نُهْزَةً (أي فرصة) أَصَابُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَحِقُوا بِبِلَادِهِمْ وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ بِبَلَدِكُمْ، وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ إِنْ خَلَا بِكُمْ، فَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ القَوْمِ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رُهُنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ، يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ، عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدًا حَتَّى تُنَاجِزُوهُ.

فسُرَّت قريظة برأي نعيم ؓ، وقالوا: لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ.

وتركهم نعيم ؓ وتوجه نحو معسكر قريش، وذكَّرهم بالود الذي بينه وبينهم، والصداقة القديمة التي تربطهم، ومفارقته لمحمد ﷺ ليظل على دينهم، ثم أخبرهم بأنه سيسر إليهم أمرًا خطيرًا، وطلب منهم كتمانه، فوعدوه بالكتمان.

فقال: تَعْلَمُوا أَنَّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ أَنْ قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا، فَهَل يُرْضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنَ القَبِيلَتَيْنِ، مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ

فَنُعْطِيكَهُمْ فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، ثُمَّ نَكُونَ مَعَكَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُمْ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ: أَنْ نَعَمْ، فَإِنْ بَعَثَتْ إِلَيْكُمْ يَهُودُ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رُهُنًا مِنْ رِجَالِكُمْ فَلَا تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ مِنْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا.

ثم تركهم يفكرون في هذا المصير المظلم الذي ينتظرهم، وقد اضطربت نفوسهم، وتزلزلت قلوبهم وخرج يقصد غطفان، وذكَّرهم بأنهم أصله وعشيرته، وأحب الناس إليه، وأخبرهم بما أخبر به قريشًا من اتفاق اليهود مع المسلمين، ومحاولة أخذ الرهائن، وحذَّرهم من ذلك.

ونجحت خطة نعيم ﵁، وبدأ الشك يتسرب إلى نفوس الحلفاء، وأرادت قريش وغطفان أن يتأكدوا من صحة ما أخبرهم به نعيم، فأرسلوا عكرمة بن أبي جهل على رأس نفر من قريش وغطفان إلى بني قريظة يطلبون منهم الدخول في معركة حاسمة ضد محمد ﷺ حتى ينهوا ذلك الموقف المتجمد.

وردت قريظة بأن اليوم سبت، ونحن لا نفعل فيه شيئًا، ولسنا مع ذلك بالذي نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رهنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا دليلًا على صدقكم في مناجزة محمد، فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال، أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجال في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه.

لم تفاجأ قريش وغطفان بهذا الرد من قريظة، ولكنهم اعتبروه دليلًا على صدق نعيم ﵁ وإخلاصه، وأرسلوا إلى بني قريظة: لن نرسل إليكم رجلًا واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا.

فقالت قريظة: إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق.

وعاد نعيم ﵁ إلى الرسول ﷺ وأخبره بما فعل، وبما أصبح عليه حال الحلفاء، من اختلاف أمرهم، وتفرق جماعتهم، وتخاذلهم عن نصرة بعضهم». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٨٢-١٨٧**].

٣٧ـ تمزيق شمل العدو:

يقول د/ الغضبان: «أصح ما روي في قصة نعيم ﵁ ما أورده الزهري في حديثه عن ابن المسيب: فبينا هم كذلك إذ جاءهم نعيم بن مسعود الأشجعي، وكان يأمنه الفريقان، كان موادعًا لهما، فقال: إني كنت عند عيينة وأبي سفيان إذ جاءهم رسول بني قريظة: أن اثبتوا فإنا سنخالف المسلمين إلى بيضتهم (أي مجتمعهم وموضع سلطانهم، ومستقر دعوتهم)، قال النبي ﷺ: «**فلعلنا أمرناهم بذلك**»، وكان نعيم رجلًا لا يكتم الحديث، فقام بكلمة النبي ﷺ، فجاءه عمر ﵁ فقال: **يا رسول الله إن كان هذا الأمر من الله فامضه، وإن كان رأيًا منك فإن شأن قريش وبني قريظة أهون من أن يكون لأحد عليك فيه مقال**، فقال النبي ﷺ: «**عليَّ الرجل ردوه**»، فردوه فقال: «**انظر الذي ذكرنا لك، فلا تذكره لأحد**» فإنما أغراه، فانطلق حتى أتى

عيينة وأبا سفيان، فقال: هل سمعتم من محمد يقول قولًا إلا كان حقًّا؟ قالا: لا، قال: فإني لما ذكرت له شأن قريظة، قال: فلعلنا أمرناهم بذلك، قال أبو سفيان: سنعلم ذلك إن كان مكرًا، فأرسل إلى بني قريظة، أنكم قد أمرتمونا أن نثبت وأنكم ستخالفون المسلمين إلى بيضتهم فأعطونا بذلك رهينة، فقالوا: إنها دخلت ليلة السبت، وإنا لا نقضي في السبت شيئًا، فقال أبو سفيان: إنكم في مكر من بني قريظة، فارتحلوا، وأرسل الله عليهم الريح وقذف في قلوبهم الرعب، فأطفأت نيرانهم وقطعت أرسان (جمع رَسَن وهو الحبل الذي يقاد به البعير وغيره) خيولهم، وانطلقوا منهزمين من غير قتال، قال: فذلك حين يقول: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب]. [**المصنف لعبد الرزاق ٥/ ٣٦٨، رقم ٩٧٣٧، هذه الرواية علقها عبد الرزاق عن الزهري فهي ضعيفة، لكن يشهد لبعض ما جاء فيها ما أخرجه البخاري ومسلم**].

[مرويات الإمام الزهري في المغازي للعواجي ٥١٨-٥١٩].

(أ) فالرسول ﷺ عرف أعماق نعيم ﵁، وطبيعة شخصيته، والدور المزدوج له، فوجهه إلى ذلك، وحين طلب منه أن يكتم السر، فكأنما أغراه بإفشائه.

أما رواية موسى بن عقبة عن الزهري، فتشير بشكل أوضح إلى عظمة القائد المصطفى ﷺ في زرع الشك والبلبلة في صف الأحزاب واليهود.

«وَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَشْجَعَ يُقَالُ لَهُ: نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ، يُذِيعُ الأَحَادِيثَ، وَقَدْ سَمِعَ الَّذِي أَرْسَلَتْ بِهِ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَالَّذِي رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ الله ﷺ أَشَارَ إِلَيْهِ وَذَلِكَ عِشَاءً، فَأَقْبَلَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى دَخَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قُبَّةٌ لَهُ تُرْكِيَّةٌ، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا وَرَاءَكَ؟**»، قَالَ: **إِنَّهُ وَالله مَا لَكَ طَاقَةٌ بِالقَوْمِ وَقَدْ تَحَزَّبُوا عَلَيْكَ وَهُمْ مُعَاجِلُوكَ، وَقَدْ بَعَثُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ أَنَّهُ قَدْ طَالَ ثَوَاؤُنَا، وَأَجْدَبَ مَا حَوْلَنَا، وَقَدْ أَحْبَبْنَا أَنْ نُعَاجِلَ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُمْ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَنْ نِعْمَ مَا رَأَيْتُمْ، فَإِذَا شِئْتُمْ فَابْعَثُوا بِالرَّهْنِ ثُمَّ لَا يَحْبِسُكُمْ إِلَّا أَنْفُسُكُمْ**، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ شَيْئًا فَلَا تَذْكُرْهُ**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: «**إِنَّهُمْ قَدْ أَرْسَلُوا إِلَيَّ يَدْعُونَنِي إِلَى الصُّلحِ وَأَرُدُّ بَنِي النَّضِيرِ إِلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**».

فَخَرَجَ نُعَيْمٌ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى غَطَفَانَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ، وَعَسَى اللهُ أَنْ يَصْنَعَ لَنَا**». [**دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٠٤-٤٠٥، وتعددت الروايات وبعضها عن ثقات رغم أنها مرسلة، توضحها رواية الواقدي التي تشير إلى تردد نعيم ﵁ أكثر من مرة إلى رسول الله ﷺ، وأنه كان يرعى الخطة بكل جزئياتها وآثارها، وما ذكره البيهقي في روايته عن رغبة يهود في الصلح، تجليها رواية الواقدي إلى أن نعيمًا هو الذي أقنع اليهود بذلك، ولم يحدِّث ﷺ فيها إلا عند صدق، ضمن التوجيه النبوي لجزئيات الخطة، وبذلك ينتفي التعارض بين الروايات، حيث إن رسول الله ﷺ كان حريصًا على كتمان إسلام نعيم ﵁؛ حتى لا تتعرض الخطة لخلل**].

(ب) وتبدو المحاولة الثانية في تمزيق شمل العدو من القائد الأعظم ﷺ حين عرض ثلث ثمار المدينة على غطفان مقابل انسحابها من المعركة.

(ج) لم يكن هناك هَمٌّ للقائد الأعظم ﷺ أكبر من فك الحصار، وتفتيت شمل العدو، وتوهين صفِّه، فكانت المحاولة الأولى عن طريق عرض ثلث ثمار المدينة على غطفان، ثم رفض السعدان ذلك، مصممين على الصبر والتضحية، دون تقديم تمرة واحدة للعدو مقابل تراجعه، ثم كانت العملية الثانية، التي زرعت البلبلة والشك في الصف بين اليهود وقريش وغطفان، وأثمرت ثمرتها المرجوة، حيث عجز حيي بن أخطب أن يرأب الصدع، أو يقيد لحمة الصف بين الفريقين، ثم كانت العملية الثالثة العظيمة داخل صف الأحزاب بين قريش وحلفائها ـ غطفان وأسد وسليم ـ كما ذكرت رواية الإمام البيهقي حيث بعث حذيفة إلى داخل صف الأحزاب، وفيها قال حذيفة ﷺ: فَقُلْتُ: وَاللهِ مَا بِي أَنْ أُقْتَلَ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ أُؤْسَرَ، فَقَالَ: «**إِنَّكَ لَنْ تُؤْسَرَ**»، فَقُلْتُ: مُرْنِي يَا رَسُولَ الله بِمَا شِئْتَ، فَقَالَ ﷺ: «**اذْهَبْ حَتَّى تَدْخُلَ بَيْنَ ظَهْرَيِ القَوْمِ، فَأْتِ قُرَيْشًا فَقُلْ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ إِذَا كَانَ غَدًا أَنْ يَقُولُوا: أَيْنَ قُرَيْشٌ؟ أَيْنَ قَادَةُ النَّاسِ؟ أَيْنَ رُؤُوسُ النَّاسِ؟ فَيُقَدِّمُوكُمْ فَتَصْلَوَا القِتَالَ، فَيَكُونُ القَتْلُ فِيكُمْ، ثُمَّ ائْتِ بَنِي كِنَانَةَ فَقُلْ: يَا مَعْشَرَ بَنِي كِنَانَةَ، إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ إِذَا كَانَ غَدًا أَنْ يَقُولُوا: أَيْنَ بَنُو كِنَانَةَ؟ أَيْنَ رُمَاةُ الحَدَقِ؟ فَيُقَدِّمُوكُمْ فَتَصْلَوَا القِتَالَ، فَيَكُونُ القَتْلُ فِيكُمْ، ثُمَّ ائْتِ قَيْسًا فَقُلْ: يَا مَعْشَرَ قَيْسٍ، إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ إِذَا كَانَ غَدًا أَنْ يَقُولُوا: أَيْنَ قَيْسٌ؟ أَيْنَ أَحْلَاسُ الخَيْلِ؟ أَيْنَ الفُرْسَانُ؟ فَيُقَدِّمُوكُمْ فَتَصْلَوَا القِتَالَ، فَيَكُونُ القَتْلُ فِيكُمْ**»، وَقَالَ لِي: «**لَا تُحْدِثُ فِي سِلَاحِكَ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي فَتَرَانِي**». [دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٥٤].

وتشير رواية البيهقي الثانية إلى نجاح هذه الخطة تمامًا، فحذيفة ﷺ هو المكلف بالنداء الأول والثاني: «فَلَمَّا دَنَا الصُّبْحُ نَادَى: أَيْنَ قُرَيْشٌ؟ أَيْنَ رُؤُوسُ النَّاسِ؟ فَقَالُوا: أَيْهَاتَ هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ البَارِحَةَ، أَيْنَ بَنُو كِنَانَةَ؟ وَأَيْنَ الرُّمَاةُ؟ فَقَالُوا: أَيْهَاتَ هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ البَارِحَةَ، أَيْنَ قَيْسٌ؟ أَيْنَ أَحْلَاسُ الخَيْلِ؟ أَيْنَ الفُرْسَانُ؟ فَقَالُوا: أَيْهَاتَ هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ البَارِحَةَ، فَتَخَاذَلُوا، وَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الرِّيحَ». [**دلائل النبوة ٣/ ٤٥٤-٤٥٥**].

وبذلك لم يدع ﷺ فرصة إلا استثمرها للنفاذ إلى قلب العدو، وتحطيم معنوياته من جهة، وتمزيق صفه من جهة أخرى، وما إرسال حذيفة في هذا الظرف العصيب من الريح إلا ليكون على بينة من أثر الخطط التي بُذلت لتحطيم الحصار المضروب، وكان فعل الريح في الحقيقة أضخم من أي فعل آخر في نفس العدو، جعلت القيادة العليا للجيش التي يمثلها أبو سفيان، تُصر على الرحيل والرعب يملأ قلوبهم جميعًا، خشية أن يلحق بهم محمد وأصحابه، فأي قيادة في هذا الوجود، تعيش خططها، وترعاها، وتقوم

على تنفيذها، وتعيش واقع جنودها مثل هذه القيادة؟! وتصل إلى هذه النتائج العظيمة بأقل قدر ممكن من الخسائر، بسبعة شهداء فقط وبدون قتال». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٣٣-٣٦].

٣٨ ـ الحرب خدعة [(١)]:

يقول ل/ خطاب: «رأينا أثر الإشاعات التي بثَّها نُعَيم بن مسعود ﷺ في تفريق كلمة الأحزاب، ولا يمكن نجاح الأحزاب أو غيرهم إلا بجمع الكلمة، فلما تفرقت كلمتهم، كان نصيبهم الإخفاق.

إن الحرب الحديثة تعتمد على بث الإشاعات المثيرة لتصديع الصفوف وبلبلة الأفكار، وقسم بث الإشاعات من أهم أقسام شُعب الاستخبارات في تشكيلات الجيوش، وهي أسلوب من أشد أساليب الحرب النفسية فتكًا.

وبقدر ما كانت الإشاعة تعمل عملها في صفوف الأحزاب، فإن الإشاعة لم يكن لها أي أثر في صفوف المسلمين.

حاول المنافقون أن يبثوا سموم إشاعاتهم لتحطيم معنويات المسلمين، ولكن محاولتهم فشلت.

وعندما أرسل الرسول ﷺ أصحابه لمعرفة موقف بني قريظة، وعاد هؤلاء إليه بعد أن تأكدوا من صحة إشاعة نكث بني قريظة بعهودها، حرصوا على أن يخبروا الرسول ﷺ بهذا الخبر بأسلوب من الكلام لا يفهمه غير الرسول ﷺ نفسه، فقد أخبروه بالرمز دون الإفصاح حتى لا يؤثر هذا الخبر في معنويات المسلمين.

لقد عرف المسلمون أثر الإشاعة في المعنويات قبل أربعة عشر قرنًا». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣٨].

ويقول د/ الفنيسان: «جاء في الأثر: (**لست بالخب، ولا الخب يخدعني**) [(٢)] أي ليس من خلقي ولا شيمتي الخداع، أو أن أبدأ به غيري، وعندي من الفطنة والحذر ما يسد طريق المخادع إن أرادني.

وقد تبين هذا واضحًا جليًّا في قصة نعيم بن مسعود ﷺ مع قادة الأحزاب، فقد يفعل الفردُ برأيه ما لا تفعله الجماعة بعدتها..». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٨].

ويقول د/ أبو خليل: «جاء في كتاب (المجتنى): يرى أن المماكرة في الحرب أنفع من المكاثرة والإقدام من غير علم، ومنه قول بعض الحكماء: «نفاذ الرأي في الحرب، أنفع من الطعن والضرب».

[المجتنى لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ص ٢٣ ـ ط دار الفكر ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م].

---

(١) سبق تفصيل هذا الدرس في الدروس العسكرية من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

(٢) قول لعمر بن الخطاب ﷺ، وأصله ثابت في حديث أبي هريرة ﷺ: «**المؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم**» أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٣.

وقال الإمام النووي: «اتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد، أو أمان، فلا يجوز».

وفي عبارة «الحرب خدعة» إشارة لطيفة إلى مكر العدو، وفيها تحذير من خداعه أيضًا، وأنه لا ينبغي التهاون به، فقد يلجأ إلى الخداع، فإن لم يتيقظ لذلك لم يأمن المسلم أن ينعكس الأمر عليه.

وفي الحديث أيضًا إشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل استخدام الرأي يسبق الشجاعة؛ فلذا قصر الحرب على الخدعة في قوله ﷺ:

«الحرب خدعة»، فهو كقوله ﷺ: «الحج عرفة».

«الحرب خدعة»: أي ينقضي أمرها بالمخادعة.

نصت المادة ٢٤ من اتفاقية الحرب البرية لسنة (١٩٠٧) على أنه يجوز للدول المحاربة أن تلجأ في الحرب إلى الخدع بشرط ألا تصل إلى درجة الغدر والخيانة أو الإخلال بواجباتها [(١)].

وهذا النص الدولي المعمول به حاليًا، خُلُق إسلامي راعاه الإسلام منذ أيامه الأولى».

[غزوة الخندق لأبي خليل ١٢٤- ١٢٦، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ١٠٧-١١٥].

---

(١) راجع: الحرب في القانون الدولي العام، للعميد بشير مراد، ص ١١٣، ط ١٩٧٣، ومن الحيل والخدع المشروعة في الحروب:

ـ المناورات والحشد الكاذب لاجتذاب قوات العدو إلى مكان ما. وتركيز الجهد على قواته في اتجاه آخر لحمله على تغيير مراكز قواته، أو مفاجأته بغير ما يتوقع.

ـ التظاهر بالانسحاب واستدراج العدو إلى حيث يمكن القضاء عليه.

ـ مفاجأة العدو بالهجوم ليلًا أو في أنواء صعبة أو في مواقع لا يتوقع الهجوم منها.

ـ بث الألغام في طريق تقدمه.

ـ التخفي والاستتار عن أنظار العدو وأخذه على حين غرة.

ـ تضليله بإيصال معلومات كاذبة معينة لحمله على تغيير مراكز قواته أو مفاجأته.

ـ تكوين طابور خامس في بلاد العدو والاستعانة به لتفسيخ الجبهة الداخلية للعدو عن طريق إثارة الفتن وبث الشائعات وروح التفرقة لتشتيت جهده وبعثرة قواه.

ـ الحرب النفسية، وهي أساليب تؤدي إلى إضعاف ثقة الخصم بنفسه، وتوهين عزيمته، وحل روحه المعنوية، وإضعاف إرادة القتال لديه.

ـ السعي للحصول على المعلومات عن قوات العدو وحجمها وخططها بواسطة كافة وسائل الاستعلام بما فيها الجاسوسية.

٣٩ ـ ما يُخدع العدو بمثل ما يفرق صفَّه ويشتت شمله:

يقول د/ فيض الله: «لما أصر المسلمون على مواجهة الأحزاب، ورفضوا مصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة، استمسكوا بالأصل، وهو العزيمة، فاستعدوا بذلك ـ لمقارعة السلاح، ولبذل الأرواح، وباعوا أنفسهم في سبيل الله؛ وكانوا في ذلك جادين، وكانوا صادقين، وكانوا منسجمين مع عقد البيعة الذي صوره القرآن الكريم بقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١] أتم ما يكون الانسجام.

فرضي الله ـ تعالى ـ عن موقفهم، وبارك لهم فيه، وحفظ عليهم أرواحهم، وسخر لهم جنوده الذي لا يعلمها إلا هو، لتدافع عنهم، وتخدمهم، وتصرف كيد العدو عنهم:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ ... لِنَفْسِي حَياةً مِثلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا

فقذف إلى النبي ﷺ بنعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني، وكان صديقًا لقريش ولليهود، يتمتع بسمعة بارزة مطبقة فيهما، وقد عرض على النبي ﷺ نفسه ليستخدمه فيما يشاء، فاستقل فرديته في هذه الجيوش المتلاطمة، لكنه لم يهدر فعاليته، فلعله يصنع شيئًا، وهو في موقفه ذلك بحاجة إلى أي شيء، وقال له تلك الكلمة الغالية الكبيرة الجامعة: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّل عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**».

ومعنى التخذيل هنا، حمل العدو على الفشل، وترك القتال، والإغراء بالقعود عن الحرب، وحب السلامة.

ومعنى أن الحرب خدعة، أنها تقوم على إظهار غير ما نخفيه للعدو، وإلحاق المكروه به من حيث لا يعلمه؛ معناه أن الحرب الكاملة الحقة والحرب الجيدة المفيدة، هي التي تقوم على المخادعة لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة، وحصول المقصود والظفر مع المخادعة من غير خطر.

وفي هاتين الجملتين شحنات هائلة ثمينة من الأسلحة المعنوية الفتاكة، التي تغني عن الكثير من أسلحة الحديد الثقيلة، والتي تفعل في العدو أكثر مما تفعله الذرة في أيامنا؛ إنها تعصف بالقوى، وتُذَوِّبُ الجيوش، وتدك الجبال، وتذر الديار بلاقع.

أرأيت إلى توجيه كلام من عل، أَسْتَمَعْتَ إلى كلام رسول الله ﷺ القائد، وفيه العزة ـ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ـ وفيه الإشارة البليغة إلى التكليف الواجب، والتوجيه السديد، والعمل المثمر؟

الحرب خدعة، من جوامع الكلم، التي أوتيها سيدنا رسول الله ﷺ والتي كان بسببها في المحل الأول، من فصحاء العرب، كما قال: «**أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش**».

[هكذا رواه القاضي عياض في الشفاء].

ويروى: «**أنا أعربكم، أنا من قريش**». [رواه ابن سعد مرسلًا].

وهكذا استعان النبي ﷺ في حربه، حتى في طاقة الفرد الواحد.

وهكذا أحسن النبي ﷺ توجيهه إلى ما ينبغي أن يفعله في هذا الظرف العصيب المربك.

وهكذا أيضًا، وصَّاه أن يكتم عن قومه إسلامَه، كيلا يتسرب إلى قومه الشك في مهمته التي يقوم بها.

وهكذا نجحت هذه الخدعة التي قام بها ذلك الفرد الواحد، الذي سخره الله للمسلمين في أحلك الأوقات.

وتعتبر هذه الخديعة تطبيقًا كاملًا للحديث المذكور، إذ ضرب بها بين قلوب بني قريظة وبين قلوب قريش، حتى تشكك كل فريق في نوايا الفريق الآخر، واحترس كلٌّ من صاحبه، فكان ذلك سببًا في تفتيت الأحزاب، وتفشيل اتحادها ضد المسلمين؛ وكانت المماكرة المسلمة خيرًا من المكاثرة الكافرة.

وسنرى ـ في فتح مكة ـ إن شاء الله تعالى ـ كيف أن رسولَ الله ﷺ نفسَه عمد إلى حيلةٍ، رَدَع بها أبا سفيان، وخدعه؛ ذلك أنه أمر العباس بحبس أبي سفيان في مضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود المسلمين، وكان كذلك، فكانت تمر به القبائل قبيلة فقبيلة فيراها، فيقول: مَنْ هؤلاءِ يا عباس؟ حتى قال أخيرًا: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة؛ والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملكُ ابنِ أخيك الغداةَ عظيمًا، فقال العباس: إنها النبوة، فقال أبو سفيان: فَنِعِمَّ إذن.

ومن هذا القبيل أنه ﷺ كان إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها، وأنه لم يحل الكذب إلا في ثلاث، منها الحرب، وفي حديث ابن أبي حاتم عن النواس بن سمعان ﷺ قال: بعث النبي ﷺ سرية، فقال: «**تهافتوا في الكذب تهافت الفراش في النار، إن كل كذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فإن الحرب خدعة**».

وفي هذا قال ابن العربي: «الكذب في الحرب من المستثنى الجائز بالنص، رفقًا بالمسلمين؛ لحاجتهم إليه».

ولعل هذا أيضًا من مشمولات القوة في الحرب والسلاح الذي أمر به القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وإذًا، فلا حرج على المسلمين في اللجوء إلى الحيلة والخديعة في قتال عدوهم، وعلى التخصيص إذا كان العدو يستخدم سلاح الشائعات والأراجيف الكاذبة، والأنباء المُزَوَّرَةِ، بقصد بلبلة الأفكار، وإضعاف الروح المعنوية في المسلمين، مستعينًا على ذلك بالصحف والإذاعات، والمنشورات والبرقيات وغيرها.

ومن هنا يعرف أهل الحق كيف يساير الإسلام الزمن، ويحالف القوة، وأسباب الانتصار، المادية والمعنوية؛ ويعرفون ما في الإسلام من قدرة على مواجهة كل ما يطالعهم به العدو، من مَكِنَات وقدرات، واكتشافات واختراعات». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٤١-٢٤٤].

٤٠ ـ أهمية بَثِّ الإشاعات في صفوف الأعداء لِلنَّيْلِ من معنوياتهم:

يقول د/ الرشيد: «تعتمد الحروب على الخداع والتضليل، ومن ذلك بثُّ الإشاعات والأراجيف في صفوف الأعداء، وفي غزوة الأحزاب تكالب على المسلمين عدَّةُ طوائف، من قبائل العرب واليهود، الذين يقيمون في المدينة وما جاورها.

وقد أدرك النبي ﷺ أن المسلمين لا قِبَلَ لهم بهذه الجموع الكثيرة، التي تفوقهم في العدد والعُدَّة، فلابد إذًا من الأخذ بأسلوبٍ سِرِّيٍّ، لتفريق جموع الأحزاب، وكسر صيغة التحالف الذي عُقِدَ للقضاء على المسلمين.

فتجلى هذا الأسلوب في التخذيل بين صفوف مختلف طوائف الأحزاب، حيث هَيَّأَ الله لهذا الأمرِ شخصيةً فَذَّةً، وَضَعَتْ إمكاناتها تحت تصرف الرسول ﷺ، ذلك هو (نعيم الغطفاني رضي الله عنه) الذي كان حديثَ عَهْدٍ بإسلام، وقد كتمه عن الأعداء فاستطاع بذلك أن يُثَبِّطَ قومًا عن قومٍ، وأن يُوقِعَ بينهم شرًّا، حتى كانت كلُّ فئةٍ ترى أنه ينصح لها، وبهذا اندفع كيدُ الأحزاب عن المؤمنين.

[ينظر: غزوة الأحزاب للشيخ باشميل ص ٢٤٨-٢٥٠].

وفيما فعله (نعيم رضي الله عنه) دلالةٌ واضحةٌ على أن بَثَّ الإشاعات والأراجيف بين صفوف الأعداء، يؤثرُ ما لا يؤثره جيشٌ كبيرٌ، مع عدم تعريض الجند للخطر، وبذل الأموال الكثيرة في تجهيزهم للقتال».

[القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٧٦-٤٧٧].

ويقول د/ الفنيسان: «الإشاعة التي قام بها نعيم بن مسعود رضي الله عنه على تفريق قوى الأحزاب بأمر الرسول ﷺ، كان لها أثر بالغ في انتصار المسلمين على أعدائهم، والحرب الحديثة تعتمد على بث الإشاعات لتصديع الصفوف وبلبلة الأفكار، وقسم بث الإشاعات من أهم أقسام شعب الاستخبارات في تشكيلات الجيوش، وبقدر ما كانت الإشاعة تعمل عملها في صفوف الأحزاب فإن الإشاعة لم يكن لها أثر في صفوف المسلمين، حاول المنافقون أن يبثوا سموم إشاعتهم لتحطيم معنويات المسلمين، ولكن محاولاتهم فشلت» [الرسول القائد ﷺ لخطاب ١٥٧].

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٩، وينظر درس: حكم نشر الشائعات في صفوف العدو، من الدروس الفقهية].

٤١ ـ الأسس التي ساعدت في نجاح مهمة نعيم رضي الله عنه:

يقول عميد / فرج: «لقد اعتمدتْ مهمة نُعيم رضي الله عنه على أسس ساعدت في نجاحها:

(١) منها أنه أخفى إسلامه على كافة الأطراف، فوثق كل طرف فيما قَدَّمَهُ له من نُصْحٍ.

(٢) ومنها أنه ذكَّر بني قريظة بما آل إليه أمر بني قينقاع وبني النضير، وبصَّرَهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إذا هم بقوا على حربهم لمحمد ﷺ، ولاشك في أن هذا كان له أثر في تغيير تفكيرهم وقلبِ مُخَطَّطَاتِهم العُدْوانية.

(٣) ومنها أنه نجح في إقناع الأطراف بأن يكتم كلُّ طرفٍ ما قاله له، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح لمهمته، فلو أن أمره انكشف لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته.

ولقد حقق نعيم رضي الله عنه بجولته مع بني قريظة ونجاحه في تخذيلها هدفين كان لهما أثر كبير على الجبهة الإسلامية:

(١) فبنو قريظة يسكنون المدينة، ودخولهم في الخلف يشكل خطرًا على المسلمين، وقد أصبح هؤلاء بعد انسحاب بني قريظة في أمان، فقد اطمأنوا إلى أن هؤلاء لن يقوموا بعمل عسكري ضدهم، فأمنوا لذلك ألا تأتيهم طعنة من خلف وهم مشغولون بمواجهة خصمهم الرئيس من أمام.

(٢) وبجانب ذلك فإن المسلمين قد اطمأنوا إلى أن بني قريظة ستستمر في إمدادهم بالمؤن التي يتطلبها الموقف، وهم في أشد الحاجة إليها؛ لانشغالهم بمهمة المواجهة عن توفير احتياجاتهم منها، والجيوش كما قال نابليون تسير على بطونها، وبدون هذه الإمدادات تضعف القدرة على المواجهة والقتال.

وهكذا فَقَدَ التحالف قوته وتفرقت جماعاته وانعدمت الثقة وتوترت الأعصاب وسئمت النفوس طول المقام». [**العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٩٥-٢٩٦**].

٤٢ ـ عدم إظهار الهوية في معسكر الأعداء:

يقول د/ أبو فارس: «عدم شيوع إسلام نعيم رضي الله عنه وكتمانه حقق مصلحة عامة للمسلمين، في أحلك الظروف، وهذه فائدة من فوائد الكتمان.

ويستفاد من هذا أن الذي تُوكل له أعمال خاصة في معسكر العدو ينبغي أن يكون غير معروف بهويته واتجاهه عند عدوه حتى لا تَحول هذه المعرفة بينه وبين تحقيق مصلحة المسلمين، ولا يعني بحال أن يكتم الناس إسلامهم، فهذا تفكير خطير يؤدي إلى موت الجماعة وضمور الدعوة في نفوس الناس، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصِّلَت]».

[**غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٨**].

٤٣ ـ لابد من الالتجاء إلى الله بصدق في الحروب واستنزال النصر من عنده مع إعداد القوة:

يقول د/ فيض الله: «أفرغ المسلمون جهدهم في حرب الأحزاب، فحفروا الخندق، واستعدوا للمواجهة، مع قلة العدد والعدة، وركنوا إلى الحيلة والخديعة في الحرب، وهي السلاح المُجْدِي الثاني بعد

الخندق؛ ومع ذلك، فقد كانوا في كرب ظاهر، وموقف عصيب، وصفه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾[الأحزاب].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قُلْنَا يَوْمَ الخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ الله، هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ، فَقَدْ بَلَغَتْ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ، قَالَ ﷺ: «**نَعَمْ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا**»، قَالَ: فَضَرَبَ اللهُ ﷻ وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَزَمَهُمْ اللهُ ﷻ بِالرِّيحِ. [**مسند أحمد ١٧/ ٢٧ رقم ١٠٩٩٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف**].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى ﵄ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا [العَدُوَّ] انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتْ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، قَالَ: «**[يَا] أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا [وَاسْأَلُوا] اللهَ [تَعَالَى] العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**».

[**البخاري في الجهاد (٢٩٦٦)، ومواضع أخرى، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١)، ومسند أحمد ٣١/ ٤٦٠ رقم ١٩١١٤**].

وهذا الحديث يشير ـ وفي هذا الظرف أيضًا على التخصيص ـ إلى أن الحرب في الإسلام ضرورة لا هدف، وحين تقع هذه الضرورة لابد للمسلم من الصبر في ميادين القتال؛ لأنها من ساحات الجنان.

أما النصر، فهو من عند الله، فالله الذي نزَّل الكتب هداية للعالمين، وأجرى السُّحُب سُقيًا للناس، وإنماءً للزرع وإملاءً للضرع، وهزم أحزاب الكفار الذين كذبوا الرسل، هو القادر وحده على أن يهزمَهم اليومَ، وينصرَنا عليهم.

فالحديث يشير إلى ما نحن بصدده، وهو أن القوة والصبر في المعارك، لا يُحَتِّمان النصرَ؛ لأنه منحةٌ من الله، فينبغي التضرع به إليه، واستنزاله من لَدُنْهُ.

وقد عَلَّمَنَا هذا الحديثُ أدبَ تقديمِ صفاتِ الله تعالى، وأسمائه، بين يدي دعواتنا، فهو أدعى للإجابة.

فالدعاء المخلص، والاتجاه الصادق، واستنزاف الطاقة المادية، هو كل ما وَسِع المسلمين فعله، في هذه الغزوة، وبقى بعد هذا أن تتدخل العناية الإلهية، فتنصر المُعْتَدَى عليه، وتهزم المعتدِي الظالم، وكذلك كان.

أرسل الله الريح الهوجاء العاصفة، فاقتلعت الخيام، وَأَكْفَأَتْ القدور، وشلت الأعمال، وزلزلت الرجال، حتى استيأس زعيم الكفار أبو سفيان من النصر، في هذا الجو المُكْفَهِرِّ، وقال كلمته يُرحل بها جنوده، ولم يحس المسلمون بهذه الريح، فكانت عليهم بردًا ورخاءً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[الأحزاب]». [**صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٤٧-٢٤٨**].

٤٤ ـ تقديم أسلوب الترغيب والتشجيع على أسلوب الأمر:

يقول د/ الرشيد: «يُعَدُّ أسلوبُ الترغيب والتشجيع ذا أثرٍ فعَّالٍ على النفس، فتستجيب ـ بعد مشيئة الله ـ لما طُلِبَ منها.

وقد عَلَّمَ النبي ﷺ أمته بسنَّتِه القولية والفعلية أسلوب التعامل الناجح، إذ كان يبدأ أولًا بأسلوب الترغيب والتشجيع، فإن لم يُجْدِ هذا الأسلوبُ أخذهم بالأمر الجازم.

وفي هذه الغزوة طَبَّقَ النبي ﷺ هذا الأسلوب عندما بعث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما ليأتيه بخبر الأعداء وماذا فعلوا ليلًا، فقال أولًا: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

فهذه دعوةٌ محبَّبَةٌ إلى كل واحدٍ من الصحابة، إذ إنهم أصلًا لم يخرجوا إلا طلبًا لرضوان الله وجنته، وعندما لم يُجْدِ هذا الأسلوب بعد أن كرره ثلاثَ مراتٍ، لجأ ﷺ إلى الأسلوب الثاني، وهو: «الأمر الجازم»، فَعَيَّنَ واحدًا بنفسه، فقال: «**قم يا حذيفةُ فائتنا بخبر القوم**»، فلما عيَّنه بنفسه لم يكن بُدٌّ من امتثاله.

وقد قرر العسكريون أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع، ولا تلجأ إلى الأمر والحزم إلا عند الضرورة». [ينظر: **المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية لمحفوظ** ص ٢٩١ وما بعدها]. [**القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد** ٤٧٧ - ٤٧٨].

٤٥ ـ إذا دعا الأمير أحدًا بعينه وجب أن يجيبه لوقته، وإن كان به عذر بيَّنه:

يقول د/ الفنيسان: «وجه هذا ما كان من النبي ﷺ من تعيينه حذيفة رضي الله عنه وتكليفه بمهمة الدخول بين الأحزاب ليأتيه بخبرهم». [**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٩**].

٤٦ ـ على الجنود تنفيذ أمر القائد بدقة متناهية:

يقول د/ فيض الله: «أراد النبي ﷺ أن يتعرف على أثر فعلة نعيم بن مسعود رضي الله عنه، في صفوف العدو، فانتدب ـ كما قد رأينا ـ حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، وإزاء هذه المهمة، أوصاه بهذه التوصية الحكيمة المطلقة، غير محدد له مهمته، وقال: «**يَا حُذَيْفَةُ! فَاذْهَبْ فَادْخُل فِي الْقَوْمِ، فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا**».

حدود المهمة أن يذهب ويشهد ما يصنع القوم، وما يتحدثون، ثم يرجع فيصف للنبي ﷺ ما رأى وما سَمِعَ.

ثم نهاه عن تجاوز هذه المهمة، فلا يُحْدِثُ حَدَثًا، ولا يفعل فعلًا، حتى يعود.

وقد اندس حذيفة رضي الله عنه في القوم، وعاين اضطرابهم، وسمع كلام أبي سفيان زعيمهم، وكان قريبًا منه، بحيث إنه كان يراه ويسمعه؛ وكم حدَّثته نفسه، أن يسدد إليه سهمًا فيقتله، ويقضي على حملته، ويريح المسلمين منه؛ لكنه ذَكَر نهي النبي ﷺ وقوله: «**وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا**»، فأمسك...

فهذا أصل في الأوامر العسكرية، التي يُلقيها الرؤساء إلى جنودهم، فإنه ينبغي التزامها، وتنفيذها بكل احتراس ودقة وأمانة، دون تزيُّد ولا تنقص؛ عَرف هذا الأصل العام المسلمون في فجر الإسلام، وطبقوه في حروبهم وغزواتهم، والتزموه كأحسن ما يكون الالتزام.

ولو قد فتح للمأمورين باب الاستصلاح، حيال الأوامر الصادرة إليهم، وإمكان التصرف بما تقضي به الظروف، أو تفرضه الأحوال والملابسات الخاصة حياله، لأدى ذلك إلى تعطيل الأوامر، وأصبحت بمثابة شيء لا معنى له، ولا وجود له؛ ولأصبح العمل مُفَوَّضًا إلى الجنود، كما لو لم يكن لهم قادة؛ وبذلك تَعُمُّ الفوضى، وتسوء الحال.

وهذا مما ينطوي تحت قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[الأحزاب]». [صور وعبر لفيض الله ٢٤٥-٢٤٦].

ويقول د/ أبو فارس: «إن القارئ الكريم يلاحظ الانضباط العسكري الدقيق الذي كان يتمتع به حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، لقد كان باستطاعته أن يقتل أبا سفيان رأس الأحزاب، فلقد كان تحت رمية سهمه، وحدثته نفسه بذلك، ووضع سهمه في كبد قوسه ثم ذكر قول الرسول ﷺ: «**وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا**» فأمسك عن ذلك.

وقد يقع في روع بعض الشباب المتحمس حماسة زائدة حبذا لو تخلص حذيفة رضي الله عنه من أبي سفيان، قائد الأحزاب وموجههم، وهذا مكسب عظيم لا يفوت وقد لا تواتي فرصة مثل هذه الفرصة.

لكننا نقول لهذا وأمثاله: إن الخير كل الخير، والرشد كل الرشد، والسداد كل السداد في تنفيذ أمر رسول الله ﷺ كما أمر دون زيادة أو نقصان.

ثم من يدري العواقب التي تترتب على قتل أبي سفيان؟ وهل هذه العواقب تكون لمصلحة المسلمين؟

أقول: لعل الأحزاب لو قُتل قائدها أبو سفيان، خاصة قريشًا، تستشيط غضبًا فتؤجج نار الحرب من جديد، وتثير روح الانتقام والثأر من المسلمين، وتُحكم الحصار على المسلمين، وتشدد في ذلك، والمسلمون بقيادة رسول الله ﷺ في أمس الحاجة لفك الحصار؛ لأنه قد بلغ منه الجهد، وساءت أحوالهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، لقد زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر.

ولقد نبه النبي ﷺ إلى خطورة إحداث أي قتل في هذه المهمة الاستطلاعية بقوله ﷺ لحذيفة رضي الله عنه: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**».

قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لهذه العبارة من الحديث: (لا تفزعهم عليَّ، ولا تحركهم، وقيل معناه: لا تنفرهم، وهو قريب من المعنى الأول) [شرح النووي على مسلم ١٢/ ١٤٥]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩٣-١٩٤].

ويقول د/ الغضبان: «وفي طبيعة الالتزام المطلوب، وهو يرى هدفًا ثمينًا يمكن تحقيقه، أبو سفيان بن حرب قائد الأحزاب كلها، يضرم النار ويتدفأ عليها، ويضع سهمه في قوسه، وقبل لحظة الرمي للقضاء عليه وقتله، تذكر قول رسول الله ﷺ له قبل وداعه: «**لَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي**»، وبذلك انقطعت كل الدوافع في داخله، في قتل قائد العدو، ولم تتمكن كل الرغبات الجامعة في التغيظ الشديد على أبي سفيان، وفي كسب الشهرة الكبرى بقتل قائد العدو، أمام الكلمة الحاسمة: «**لَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا**»، وأصبح الالتزام هو أعظم الدوافع جميعًا، والتي يستجيب لها المسلم، وحذيفة رضي الله عنه لا ينسى في حياته ذلك الموقف المؤثر، يوم أخذ المشركون منه ومن أبيه عهدًا ألا يكون عونًا لرسول الله ﷺ في بدر [(١)]، وكيف طلب منه المصطفى ﷺ الوفاء بعهده ولو مع المشركين، يدرك مدى التربية على الالتزام في الدرس الذي شهده من نبيه، فيدع كل اجتهاداته جانبًا لينفذ الأمر المحدد». [**التربية القيادية للغضبان ٤/ ٨٤**].

٤٧ ـ الحنكة والدهاء وضبط الأعصاب من صفات رجل الاستخبارات في الحرب:

يقول د/ الفنيسان: «يظهر هذا من تصرف حذيفة رضي الله عنه لما وصل إلى معسكر قريش وسمع أبا سفيان، يقول: «اِحْذَرُوا الجَوَاسِيسَ وَالعُيُونَ، وَلْيَنْظُرْ كُلُّ رَجُلٍ جَلِيسَهُ، قَالَ: فَالتَفَتُّ إِلَى عَمْرِو بْنِ العَاصِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ وَهُوَ عَنْ يَمِينِي، فَقَالَ: عَمْرُو بْنُ العَاصِ، وَالتَفَتُّ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ.

فقد أبعد التهمة عن نفسه لما سارع بسؤال جلسائه، فتبين أنهما زعيمان من زعمائهم، وضبط أعصابه وهو يرى عدوه أمامه وبين يديه ومعه سلاحه، وفي مكنته أن يقتله ولكنه لم يفعل.

إن هذا الموقف وأمثاله يدل على حنكة حذيفة رضي الله عنه ودهائه، كما يدل على قدرة الرسول ﷺ القيادية والإدارية في اختياره الرجل المناسب للعمل المناسب». [**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٣-٢٤٤**].

ويقول د/ الغضبان: «ومثل هذا الرسول الذي يطلب منه ﷺ أن يكون جاسوسًا في قلب جيش العدو، لابد أن يملك من المؤهلات، والطاقات في سرعة البديهة، وحسن التصرف ما ينقذه من أي أزمة تواجهه، ولم يكن اختيار الصدِّيق رضي الله عنه له اعتباطًا، بل كان عن خبرة به، وبإمكانياته حين رشحه لرسول الله ﷺ أن يقوم بهذه المهمة، والاختبار الصعب الذي مر به، وأثبت به كفاءته هو عندما شعرت قيادة العدو به، فأصدرت أمرًا مباشرًا: ليأخذ كل امرئ منكم بيد جليسه، وفي لفظ: فلينظر من جليسه. وفي رواية

---

(١) عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رضي الله عنه قَالَ: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٍ، فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، قُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الـمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ الله وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى المَدِينَةِ، وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الخَبَرَ، فَقَالَ: «**انْصَرِفَا، نَفِي بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ**». مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٧)، ومسند أحمد ٣٨/ ٣٧٨ رقم ٢٣٣٥٥، ومستدرك الحاكم في معرفة الصحابة رضي الله عنهم (٤٩٠٨).

الواقدي: أن أبا سفيان قال: احذروا الجواسيس والعيون، ولينظر كل رجل إلى جليسه، في هذه اللحظة الخطرة التي تكوِّن المنعطف الحاد في نجاح المهمة أو فشلها، وفي كشف الجاسوس أو خفائه، تبدو سرعة البديهة في التصرف المناسب، وقد كان حذيفة على هذا المستوى العالي من الكفاءة يقول: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني فأخذت بيده فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص، فعلت ذلك خشية أن يفطن بي فبدرتهم بالمسألة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٨٤].

ويقول د/ الوكيل: «إن مبادرة حذيفة ﷺ بسؤال جيرانه قبل أن يسألوه تدل على عبقرية فذة وأعصاب قوية، ولعل هذا هو السبب في اختيار الرسول ﷺ له ليقوم بهذه المهمة الخطيرة».

[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٨٨].

٤٨ ـ للمرأة أن تدافع عن نفسها إن لم تجد من يدافع عنها:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا في الأحداث التي وقعت أثناء حصار المدينة من قِبَل المشركين، حادث قيام صفية بنت عبد المطلب ﷺ بقتل اليهودي من بني قريظة الذي كان يدور حول الحصن الذي وُضعت فيه النساء والذراري وليس له من رجال يحمونه؛ لأنهم ذهبوا إلى القتال، فاضطرت صفية أن تُرِي اليهود أن في الحصن قوة تحميه لا كما قد يظنون أنه خلو ممن يدافع عنه، فبدأته بضربه بعمود نزلت به من الحصن فقتلته، فكان ذلك رادعًا لليهود من التحرش بهذا الحصن لظنهم أن فيه قوة كافية تحميه.

ووجه الدلالة بهذا الحادث أن على الدعاة تفهيم نساء المسلمين أن عليهن واجب الدفاع عن أنفسهن ولو بالقتال إذا عدمن المدافع عنهن من الرجال، وأنه لا يجوز لهن الاستسلام أبدًا، وقد ذكرنا أيضًا أن نسوة مؤمنات كن يخرجن للجهاد مع المسلمين في غزواتهم، ومنها في غزوة أُحُد، وكيف أنهن قاتلن فعلًا ضد العدو بالسيف والرمح عندما اضطررن إلى ذلك.

وعلى هذا فلا مانع من تدريب النساء المسلمات على استعمال بعض الأسلحة الضرورية للدفاع عن النفس كالبندقية والرشاشة، ورمي القنبلة على المهاجِم ونحو ذلك، وأن يكون اشتراكهن في الحرب في الخطوط الخلفية ويقمن بما يقدرن عليه عادة ويحتاج الجنود من طبخ ونحوه مع حملهن السلاح الحقيقي الذي تدربن عليه للدفاع به عن أنفسهن عند الحاجة.

فعلى الدعاة تبيين هذه الحقائق للناس حتى يكونوا على علم بها، وتعرف النساء حدود الشرع في حمل المرأة السلاح واشتراكها مع الرجل في الحرب». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦١].

٤٩ ـ فكرة جيدة يمكن العمل بها:

يقول د/ أبو فارس: «إن الشيء الذي فطن إليه أبو سفيان من أن نفرًا من المسلمين قد يدخلون في صفوف الأحزاب، ويكشفون أسرارهم، ويُلحقون الأضرار بهم، فما عليهم إلا أن ينتبهوا ويحذروا وجودهم بينهم.

واقترح طريقة ناجحة كل النجاح لو اتبعت في معرفة الغرباء على جيوش الأحزاب، وهي أن يتعرف كل إنسان على جاره، وبهذا يستطيع الجيش أن يتعرف على الغريب الذي دخل فيه بسهولة ويسر.

ويمكن للقائد المسلم أن يستفيد من طريقة أبي سفيان هذه في حروبه مع أعدائه إن خشي تسربًا إلى جيشه من جنود العدو فقد يموهون أنفسهم، أو يجدون ساعة غفلة من حارس فيدخلون معسكر المسلمين في جنح الظلام، ويحصلون على معلومات تضر بجيش المسلمين كله وقد تؤدي إلى تدميره».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩٥].

٥٠ ـ تأثير الجو «الطقس» على العمليات الحربية:

يقول د/ الفنيسان: «وافق حصار جيوش الأحزاب للمدينة فصل الشتاء، وكان شديدًا قارسًا فيه صواعق رعدية وعواصف رملية ورياح هوجاء مظلمة لا يستقيم معها بناء ولا تُوقد فيها نار، وفي هذا الجو الشاتي تُرابط جيوش الأحزاب في العراء وليس لديها من وسائل التدفئة أو الإعاشة ما يسد حاجاتها، وعلاوة على هذا فإن الأعراب في طبيعتهم أهل تنقل وارتحال، ويكرهون البقاء واللبث في مكان واحد مدة طويلة.

ولهذه الأسباب مجتمعة وغيرها انهزم الأحزاب». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٩-٢٤٠].

٥١ ـ غزوة الأحزاب أو الحرب الباردة:

يقول م/ أبو راس: «فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق هو وأصحابه، الذين وزعهم ـ رضوان الله عليهم ـ في أماكنهم متجهة تجاه المحاصرين الذين هالهم ما رأوا وقالوا قولتهم المشهورة: «**وَالله إِنَّ هَذِهِ لَمَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ العَرَبُ تَكِيدُهَا**» وضاق صدر الكفار من استمرار هذا الحصار إذ إنهم ما تعودوا في حروبهم كلها أن يقفوا على هذا النحو، الأمر الذي دفع بعمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب إلى أن يتيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق حيث ضربوا خيلهم حتى اقتحمته.. فأسرع المسلمون بعد أن أحسوا بالخطر، ليسدوا هذه الثغرة وكان على رأسهم علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ الذي قال لعمرو بن عبد ود وكان فارس العرب: يَا عَمْرُو! إِنَّكَ قَدْ كُنْتَ عَاهَدْتَ اللهَ أَلَّا يَدْعُوك رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى إِحْدَى خَلَّتَيْنِ إِلَّا أَخَذْتَهَا مِنْهُ، قَالَ لَهُ: أَجَل، قَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: فَإِنِّي أَدْعُوك إِلَى الله، وَإِلَى رَسُولِهِ،

وَإِلَى الإِسْلَامِ، قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ، قَالَ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى النِّزَالِ، فَقَالَ لَهُ: لِمَ يَا ابْنَ أَخِي؟ فَوَالله مَا أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، قَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: لَكِنِّي وَالله أُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَكَ، فَحَمِيَ عَمْرٌو عِنْدَ ذَلِكَ، فَاقْتَحَمَ عَنْ فَرَسِهِ فَعَقَرَهُ وَضَرَبَ وَجْهَهُ [1]، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ ﷺ، فَتَنَازَلَا وَتَجَاوَلَا، فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ ﷺ.

فكبر علي ـ كرم الله وجهه ـ تكبيرة كبر على أثرها المسلمون إذ عرفوا أنه ـ أي علي ﷺ ـ قد قتل عمرو بن عبد ود، وخرجت على إثر هذه النتيجة الحاسمة خيل المشركين من الخندق منهزمة.

وكان يهود بني قريظة إلى هذه اللحظة محافظين على عهدهم مع رسول الله ﷺ، ولم يكن هذا الحفاظ على العهد نتيجة لحبهم للحفاظ على العهود ولكنهم كانوا يخافون مغبة نكث العهود، وقد رأوا ما حل ببني قينقاع وبني النضير وليس أدل على أن اليهود لا يحافظون على عهودهم إلا إذا كانوا يخافون من خصومهم من أنهم ـ أي يهود بني قريظة ـ نقضوا العهد منذ اللحظة التي جاء فيها حيي بن أخطب إلى كعب بن أسد سيد قريظة وقرع عليه بابه، وكان كعب قد أغلق أبواب الحصون عند قدوم الأحزاب، وأخذ حيي بن أخطب يصرخ بكعب ويقول له: وَيْحَكَ يَا كَعْبُ! افْتَحْ لِي، قَالَ: وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! إِنَّكَ امْرُؤٌ مَشْؤُومٌ، وَإِنِّي قَدْ عَاهَدْتُ مُحَمَّدًا، فَلَسْتُ بِنَاقِضٍ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ إِلَّا وَفَاءً وَصِدْقًا.

قال حيي: وَيْحَكَ افْتَحْ لِي أُكَلِّمْكَ، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ!

فقال حيي: وَالله إِنْ أَغْلَقْتَ دُونِي الحِصْنَ إِلَّا تَخَوَّفْتَ عَلَى جَشِيشَتِكَ [2] أَنْ آكُلَ مَعَكَ مِنْهَا، فَأَحْفَظَ (أغضب) الرَّجُلَ، فَفَتَحَ لَهُ....

إلا أن حييًّا استطاع أن يقنع جمهور بني قريظة بوجهة نظره، وأن يزين لهم الأمر فأعلنوا انضمامهم إلى المشركين وذلك بإحضارهم الصحيفة التي كتب فيها الميثاق فمزقها، فلما بعث النبي ﷺ بعض رجاله وعلى رأسهم سعد بن معاذ ﷺ ليستجلوا موقف قريظة بإزاء عدوان الأحزاب: قالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد، فلما حاول سعد بن معاذ ﷺ أن يذكّرهم بعقدهم تصامُّوا عنه، فلما خوفهم عقبى الغدر وذكر لهم مصير بني النضير قالوا له: أكلت أير أبيك!

وهكذا التزمت بنو قريظة العهد عندما كانت تخاف مغبة الغدر فلما أمنت ذلك بظنهم أن الأحزاب لن ينسحبوا، وأنهم ما جاؤوا إلا لاستئصال الإسلام من جذوره تنكروا لعهدهم وعادوا إلى طبيعتهم.

---

(١) هذا من تقاليد العرب المرعية ـ حتى في الجاهلية ـ وهو أنه ـ وقت المبارزة ولكي يتم التكافؤ ـ لابد من أن ينزل الفارس من على فرسه ليبارز خصمه راجلًا مثله.

(٢) **الجشيشة**: طعام يُصنع من البر يطحن غليظًا، ثم تجعل في القدور ويُلقى عليه لحم أو تمر أو تطبخ. النهاية لابن الأثير ١/ ٢٧٣، وهو الذي تقول له العامة: «دشيش» بالدال، والصواب بالجيم.

لقد وجم المسلمون حين عاد سعد وأصحابه يحملون أنباء الغدر اليهودي الممقوت، وتقنَّع رسول الله ﷺ بثوبه فاضطجع ومكث طويلًا حتى اشتد على الناس البلاء، ثم غلبته روح الأمل فنهض يقول: «**أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ بِنَصْرِ اللهِ وَعَوْنِهِ**» وفكر ﷺ أن يرد عن المدينة بعض القبائل بإعطائها ثلث ثمار المدينة على أن تعود عن المدينة، ولكن سادة الأوس والخزرج قالوا: **وَاللهِ مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ**.

وطال الحصار وبلغت القلوب الحناجر، قال موسى بن عقبة: «وأحاط المشركون بالمسلمين حين جعلوهم في مثل الحصين من كتائبهم فحاصروهم قريبًا من عشرين ليلة، وأخذوا بكل ناحية حتى لا يدري هل احتلوا البلد أم لا؟ قال: ووجهوا نحو منزل رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فقاتلها المسلمون يومًا إلى الليل، فلما حانت صلاة العصر دنت الكتيبة من المنزل فلم يقدر النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه أن يصلوا الصلاة على نحو ما أرادوا، وانكفأت الكتيبة المشركة مع الليل، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «**شغلونا عن الصلاة ملأ الله بطونهم وقلوبهم نارًا**».

نعم إن غزوة الخندق لم تكن غزوة عادية، ولا معركة عادية فلم يتجاوز القتلى عدد أصابع اليد الواحدة، إنها غزوة ولكن من نوع آخر، إنها معركة ولكن ذات نكهة مغايرة لما مر من غزوات، إنها معركة يطلقون عليها في أيامنا هذه «الحرب الباردة» إذ إنها حرب أعصاب، لقد جاء المسلمون إلى رسول الله ﷺ يسألونه ماذا يدعون بهم، وقد بلغت قلوبهم حناجرهم، فقال ﷺ: «**قولوا: اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا**».

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، [مُجْرِيَ السَّحَابِ]، اللَّهُمَّ اهْزِمْ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**».

لقد بذل المسلمون بقيادة قائدهم وقدوتهم غاية وسعهم، للدفاع عن رسالتهم وعن مبادئهم ومنطلقاتهم، فدعاؤهم ودعاء قائدهم ﷺ لم يكن دعاء الكسلان ولا دعاء العاجز الخامل الذي ينتظر النصر ولما يقدم أسباب النصر!

ومن هنا بدأت يد الحق ﷻ تعمل، وأخذت الأجواء بالتغير على نحو لا يدرك الناس كنهها، لقد ضاق الأعراب النازلون بالعراء ذرعًا لهذا المقام الغريب.. ثم هبت الرياح حتى كادت تطير بالخيام المنتشرة على جانب الخندق في الآفاق..

وشاء الحق ﷻ أن يُسلم في هذه الأجواء المكفهرة نعيم بن مسعود، فأوصاه الرسول ﷺ أن يكتم إسلامه ورده على المشركين يوقع بينهم.

وقد أفلح نعيم بن مسعود ﷺ في فصم عرى التحالف بين الأحزاب، ليدب القنوط والتخاذل في صفوف المهاجمين.

وفي ليلة شاتية أرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان ﷺ ليستطلع الأمر في جيوش الأحزاب، ورجع حذيفة ﷺ إلى النبي ﷺ يقص عليه ما رأى، وطلع النهار فإذا ظاهر المدينة خلاء ارتحلت الأحزاب وانفك الحصار، ليسجل الإيمان على صفحات التاريخ، بحروف من نور، نصرًا جديدًا لا يقل شأنًا عن النصر الذي سجله المسلمون في بدر الكبرى، وهتف رسول الله ﷺ يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**»، وقال ﷺ مبشرًا أصحابه مطمئنًا لهم: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا**».

إن معركة الأحزاب ملحمة خالدة، فيها من الدروس والعبر ما لو وقف مسلمو هذه الأيام وقفة صادقة مع ربهم ورسولهم وإسلامهم، ومع أنفسهم، فما أشبه اليوم بالبارحة، حصار من أمم الشرك على اختلافهم، عبدة المادة في المعسكر الغربي، عبدة الطواغيت في المعسكر الشرقي، عبدة الأوثان والأبقار وكل ما يُعبد من دون الله في باقي المجتمعات الجاهلية الرعناء تقف صفًّا واحدًا في مواجهة هذه الأمة الإسلامية جنبًا إلى جنب مع اليهود الذين تساندوا جميعًا وأحكموا مؤامراتهم ليزرعوا اليهود في فلسطين، ليكونوا كالكلب المسعور، وهذا ما أقرته لجنة كامبل باثرمان عام ١٩٠٧م: «**إن الخطر الذي يهدد الوحدة يكمن في البحر المتوسط الذي يقيم على شواطئه شعب واحد يتميز بكل مقومات الوحدة والترابط، ويجب أن تعمل الدول الاستعمارية على تجزئته وتفككه، وإقامة حاجز بشري قوي وغريب يمكن للاستعمار أن يستخدمه أداة في تحقيق أغراضه**».

لقد كان للمسلمين ـ رضوان الله عليهم ـ قائد مؤمن بالله ﷻ وصلت ثقته بربه حدًّا جعله يرى قصور المدائن والحيرة وصنعاء.

قائد مؤمن بالله ﷻ يعلم علمًا يقينًا بأن رحلة الصعود في الآفاق محفوفة بالمخاطر، تتطلب كل جهد وتضحية، تتطلب صبرًا ونفسًا طويلًا، تتطلب نظرة أبعد مما يظهر على سطح الواقع.

فالواقع يقول ـ كما يقول أهل هذا الزمان ـ إن المسلمين وقعوا بين فكي (كماشة)! الأحزاب من أعلاهم واليهود ـ الذين أخذوا يضيقون بحصون المسلمين الذين وضعوا فيها أهليهم وذراريهم ـ من أسفلهم، ومع ذلك لم يهن الرسول ﷺ، ولم يهن أصحابه، وحاشا له ولأصحابه هذا، فكيف الهوان وهم خير القرون الذين امتلأت قلوبهم إيمانًا بالله رب العالمين، ولم ينهار المجتمع المسلم ولم يتخل عن مبادئه وأهدافه، بل ظل رابط الجأش، قدَّم كل ما في وسعه أن يقدمه وترك النتائج على الله ﷻ القادر على كل

شيء، نعم لقد كان للمسلمين قائد مؤمن، ولكن أنَّى لهم بمثله هذه الأيام، بعد أن نسي قادة المسلمين في هذا الزمان الله ﷻ فأنساهم الحقُّ أنفسَهم، قادة يصورهم الشاعر أعظم تصوير وهو يقول:

أَشْبَاهُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ

قادة خلت قلوبهم من الإيمان الحقيقي إذ لا يملؤها إلا الخوف والوجل، إما من البيت الأبيض جلله الله بالسواد، أو من البيت الأحمر دمره الله على ساكنيه، وكلما كلمهم المخلصون بوجوب النهوض للسير بالأمة نحو المعالي، قالوا: وماذا عن أمريكا؟ وماذا عن روسيا؟ وماذا؟ وماذا؟ حتى إنهم ألغوا شريعة الله مخافة غضب الشرق أو الغرب عليهم!

وكان المجتمع المسلم مجتمعًا يتسابق رجاله إلى الشهادة في سبيل الله، فإيمانه إيمان حق بالله وبرسوله، إيمان اختلط بكل ذرة في أجسامهم الطاهرة، إيمان ملك عليهم كل شيء فما عادوا يبالون بأي شيء، وما عادوا يبخلون على هذه الدعوة بأي شيء.

ولم يقتصر دور الشجاعة والإقدام والاستعداد على الرجال دون النساء، بل لقد كانت النساء على مستوى من هذا كله لا يقل عن مستوى الرجال، فلقد قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: إِنَّ عَائِشَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ كَانَتْ فِي حِصْنِ بَنِي حَارِثَةَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَكَانَ مِنْ أَحْرَزِ حُصُونِ المَدِينَةِ. قَالَ: وَكَانَتْ أُمُّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ مَعَهَا فِي الحِصْنِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْنَا الحِجَابُ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ لَهُ مُقَلَّصَةٌ (قصيرة)، قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا ذِرَاعُهُ كُلُّهَا، وَفِي يَدِهِ حَرْبَتُهُ يَرْفُلُ بِهَا وَيَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلًا يَشْهَدِ الهَيْجَا حَمَل ... لَا بَأْسَ بِالمَوْتِ إِذَا حَانَ الأَجَل

قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: الحَقْ أَيْ بُنَيَّ، فَقَدْ وَاللهِ أَخَّرْتَ؛ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّ سَعْدٍ وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ دِرْعَ سَعْدٍ كَانَتْ أَسْبَغَ مِمَّا هِيَ، قَالَتْ: وَخِفْتُ عَلَيْهِ حَيْثُ أَصَابَ السَّهْمُ مِنْهُ، فَرُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ بِسَهْمٍ فَقَطَعَ مِنْهُ الأَكْحَلَ.

وكأن هذه الإصابة كانت أمل سعد الذي تحقق فلقد أخذ يدعو الله ﷻ ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا، فَإِنَّهُ لَا قَوْمَ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ مِنْ قَوْمٍ آذَوْا رَسُولَكَ وَكَذَّبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهُ لِي شَهَادَةً، وَلَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنَيَّ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ**».

نعم لقد كان لرباطة جأش المرأة في هذه المعركة دور كبير، فالواقع يقول: إن الحصار قد يُسفر عن موت محقق، ولكن الإيمان الذي سيطر على عواطف الأمهات يجعلهن يحثثن فلذات الأكباد بالإسراع لا إلى الفرار، ولكن بالإسراع إلى الجهاد والاستشهاد «الحَقْ أَيْ بُنَيَّ، فَقَدْ وَاللهِ أَخَّرْتَ».

فأين أين المسلمات اللاتي أصبحن -إلا من رحم الله ﷻ- مثبطات للهمم مفسدات للرجال أبناء وأزواجًا وأشقاءً!

نعم.. فإن الحصار المضروب على الأمة في هذا العالم والعصر يحتاج إلى قيادات مؤمنة حق الإيمان ترى من نفسها جزءًا لا يتجزأ من جنود الله ﷻ الذين لا يعلم عددهم إلا الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

يحتاج إلى شعوب ترغم قادتها -إن أبوا- على الركون إلى ركن الله الشديد وحده، شعوب نساؤها ورجالها يتسابقون إلى الشهادة، شعوب تتمسك بالحق وتنشط له من اللحظة التي تقول فيها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» كما فعل نعيم بن مسعود ﷺ.

فإذا ما توفر فينا هذا: إيمان حقيقي، إخلاص حقيقي، عمل حقيقي، فثقوا كل الثقة أن جنود الله المنتشرة في هذا الكون ما نعلم منها وما لا نعلم، ستتعامل معنا تعاملًا إيجابيًا بنَّاء ليسير النصر في ركابنا كما سار في ركاب السلف الصالح.

أما إن كنا نرى أن هذه الدنيا بما فيها من طواغيت ومتاع أكبر في نفوسنا من الله وما عند الله.

أما إن كنا نُحجم عن كل مواقع البذل والعطاء بما نُرضي به أنفسنا من حُجج واهية، فاعلموا أنه اشتداد الحصار وأنه تجرع الذل والعار والموت البطيء الذليل الذليل.

فهل نخرج من عزلتنا؟! وهل نبادر إلى ربنا بالتوبة النصوح؟! وهل نعمل بجد وإخلاص لنكون على مستوى العالم والعصر الذي نعيش فيه؟ أسئلة كثيرة نطرحها على المسلمين فهل من مدكر؟!».

[تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٤٤-٢٥٣].

٥٢ - نتيجة المعركة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كانت نتيجة هذه المعركة بعد الحصار الطويل الشديد بهزيمة الأحزاب وانسحابهم، وقد خلفوا في أرض المعركة ثلاثة قتلى أو أربعة من بينهم أشجعهم وأكثرهم فروسية عمرو بن عبد ود العامري. واستشهد من المسلمين ستة أشخاص.

نعم لقد كانت نتيجة هذه المعركة نصرًا للمسلمين وهزيمة للمشركين، كما أخبر بذلك خاتم النبيين ورسول رب العالمين وسيد المرسلين، بل سيد ولد آدم في العالمين فقد روى الإمام البخاري ﷺ في صحيحه بإسناده عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**».

بل ظلت هذه النتيجة تتكرر على لسان الرسول ﷺ في مناسبات كثيرة، فكلما قفل من غزوة من الغزوات أو عاد من حج أو عمرة، ذكر ذلك على سبيل الشكر.

(إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر، بل كانت معركة أعصاب، لم يَجْرِ فيها قتال مرير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة؛ لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلي الله الأحزاب: (**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**)». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩٦-١٩٧].

٥٣ ـ أسباب فشل الأحزاب [(١)]:

(١) **قيادة غير موحدة**: لم تكن للأحزاب قيادة موحدة تستطيع السيطرة على جميع القوات المتجمعة وتوجيهها للعمل الحاسم في الوقت الحاسم.

كان لكل قبيلة قائد بل عدَّة قواد، ولم يستطع هؤلاء القادة تنظيم خطة موحدة للهجوم على المسلمين.

وقد كان من المستحيل اتفاقهم على قائد منهم ليسيطر على الجميع؛ لأن هذا القائد سينال شرفًا عظيمًا يتميَّز به على الآخرين، ولا يمكن للآخرين أن يرضوا بهذا الامتياز.

لقد كانت النعرة الجاهلية لا الهدف المشترك هي التي تسيطر على القيادة، ولا يمكن أن تنجح مثل هذه القيادة في أي موقف بأي معركة حتى ولو كانت لها كل الظروف المواتية لها كما كانت الظروف في غزوة الخندق بالنسبة للأحزاب ويهود.

(٢) **المباغتة بالخندق**: لقد كان حفر الخندق مباغتة تامة للأحزاب، فلم تكن العرب تعرف هذا الأسلوب، كما لم تكن تعرف أسلوب القتال المناسب لاجتياز الخندق والتغلب على المدافعين عنه.

لذلك بقي القتال (مُسْتَكِنًّا) طول مدة الحصار، عدا محاولات قليلة قام بها المشركون لمحاولة اجتياز الخندق باءت كلها بالفشل الذريع.

(٣) **الطقس**: كان موسم القتال شتاء، وكان الأعراب في العراء يعيشون في غير مواطنهم التي يستفيدون فيها من موادهم المتيسرة للتدفئة وللإعاشة وللسكنى؛ لذلك لم يستطيعوا البقاء لحصار المدينة مدة طويلة.

(٤) **انعدام الثقة**: كانت الثقة بين الأحزاب أنفسهم من جهة وبينهم وبين يهود من جهة أخرى واهنة جدًّا، بل لم تكن هناك ثقة بينهم على الإطلاق، قريش تريد القضاء على المسلمين بالإفادة من جهود

---

(١) الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣٤-٢٣٦.

القبائل الأخرى، ويهود والقبائل الأخرى تريد الأسلاب بالدرجة الأولى من أي مصدر كان، ولو وقعت أموال أحلافهم بني قريظة بيدهم لأخذوها أيضًا.

ويهود لا يثقون في الجميع ويريدون القضاء على المسلمين بدماء قريش والقبائل الأخرى.

وهكذا انعدمت الثقة بينهم لتفرق الأهداف والمقاصد والمصالح والرغبات.

(٥) **الصبر على الحصار:** يحتاج الصبر على الحصار المديد إلى قوات مدربة لها أهداف معلومة وقيادة مسيطرة.

أما القبائل فلا صبر لها على الحصار المديد؛ لأنها اعتادت التنقل بين فترة وأخرى، كما أنها لا تطيق صبرًا على فراق وطنها وأهلها مدة طويلة.

لذلك تذمَّر الأعراب من طول مدَّة الحصار ـ على قصرها ـ وآثروا الارتحال على البقاء».

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣٤-٢٣٦].

ويقول أ/ باشميل: «فما هي إذن الأسباب التي حالت دون تحقيق هذا النصر الذي توفرت للأحزاب كل أسبابه المادية؟ وما هي الأسباب التي جعلت هذا النصر المتوقع يتحول إلى هزيمة منكرة، حيث مني هذا الغزو الكبير بذلك الفشل الذريع الذي يعتبر على الإطلاق أعظم فشل يصاب به اليهود والمشركون في تاريخ الصراع بين الإسلام وأعدائه في الجزيرة العربية؟

الأسباب الرئيسة: يمكننا تلخيص الأسباب الرئيسة التي حالت دون تحقيق ذلك النصر وأدت إلى ذلك الفشل الذريع، كما يلي:

السبب الأول.. حفر الخندق: فقد كان نجاح قيادة المدينة في حفر هذا الخندق كخط أول للدفاع عن المدينة، مكيدة عسكرية فوجئت بها قيادة الأحزاب، بل وصعقت لها؛ لأن نجاح المسلمين في حفر الخندق قبل وصول جيوش الأحزاب نسف خطتهم المرسومة لاحتلال المدينة من الأساس.

لقد كانت قيادة الأحزاب ـ عندما وضعت نصب عينيها احتلال المدينة كهدف أساسي للغزو ـ تعتمد ـ لتحقيق هذا الهدف ـ على تلك الحشود الكبيرة التي جمعتها والتي بلغت إزاءها نسبة قوة المسلمين واحدًا لعشرة، وكانت تقصد من وراء هذا العدد الغامر إلى التغلب على الشجاعة الفائقة التي تميز بها المسلمون، وذلك عن طريق الالتحام معهم في معركة فاصلة، التي مهما كانت شجاعة المسلمين فيها فإن عامل التفوق العددي إلى الدرجة التي وصلت إليها جيوش الأحزاب يكون له أثره الذي لا يُستهان به في كسب المعركة، وقديمًا قالوا: الكثرة تغلب الشجاعة.

ولكن قيام المسلمين بحفر الخندق نسف خطة الأحزاب وقلبها رأسًا على عقب، إذ حال هذا الخندق بين جيوش الأحزاب الهائجة المتدفقة وبين الالتحام مع عسكر الإسلام في معركة فاصلة كما تريد قيادة الأحزاب وكما هي الخطة المرسومة للمعركة.

فقد جمَّد وجود الخندق نشاط تلك الآلاف المؤلفة من جيوش الأحزاب وشل حركتها، حيث لم تستطع مقاتلة المسلمين إلا عن طريق تسللية انتحارية عبر الخندق، وهذا العمل (مهما تكرر) لا يؤدي إلى النتيجة المرجوة من الغزو.

وقد جربت قيادة الأحزاب عملية القفز ـ عبر الخندق ـ بالخيل لعلها تستطيع ـ إن نجحت ـ أن تقيم معابر واسعة تمر منها مشاة الأحزاب تحت حماية سلاح الفرسان القرشي إلى ناحية المسلمين، ولكن هذه التجربة باءت بالفشل، إذ كان مصير الفرسان الذين قاموا بها إما القتل وإما الفرار، إلى حيث أتوا، وهكذا ظلت قيادة الأحزاب حائرة لا تدري ماذا تصنع إزاء هذه المكيدة الحربية التي لجأ إليها المسلمون فَشَلُّوا بها حركة جيوش الأحزاب وعطلوها عن الحركة كما تريد.

التذمر في صفوف الأحزاب: وقد نتج عن تجميد جيوش الأحزاب وعدم قدرتها على القيام بعمل حاسم في معركة فاصلة بسبب الخندق تذمر داخل جيوش الأحزاب؛ لأن جُلَّ هذه الجيوش الإعراب من البدو الذين ألفوا في حروبهم دائمًا المعارك الخاطفة التي لا تزيد على يوم أو بعض يوم، وما كانوا يعرفون المرابطة أمام الخنادق كل هذه المدة التي رابطوها حول المدينة.

ولهذا فقد ثقل عليهم التجمد وراء الخندق دونما قتال فملوا المرابطة على غير جدوى، الأمر الذي لاحظته قيادة الأحزاب، فأخذت تشعر بالحرج، وصارت نتيجة لذلك تفكر في الانسحاب، ولكن التزامها لبنى قريظة بعدم فك الحصار عن المدينة إلا بعد القضاء على المسلمين جعلها تتريث لأنها كانت تخشى اللوم إن هي خلت بين اليهود وبين المسلمين الذين سيحاسبونهم حسابًا عسيرًا على غدرهم وخيانتهم دونما شك.

ولهذا فإن قيادة الأحزاب لم تتردد في الانسحاب وترك اليهود وشأنهم عندما حدث ما يبرر ذلك ولو في الظاهر، وهو إحجام اليهود عن المشاركة في الهجوم على المسلمين إلا بعد الحصول على رهائن من رجالات الأحزاب يحتجزونها عندهم حتى يتم القضاء على المسلمين.

وهكذا فإن نجاح المسلمين في إقامة الخندق كخط دفاع أول لصد الغزاة عن المدينة كان من أكبر العوامل التي أدت إلى فشل الغزو، بل هو أكبر هذه العوامل إذا ما نظرنا إلى الأمر من الزاوية العسكرية المجردة.

السبب الثاني.. خديعة نعيم بن مسعود رضي الله عنه: مما لا جدال فيه أن إحداث الفُرقة والشقاق في صفوف أي جيش محارب هو من أكبر الأسلحة التي تؤتي ثمارها لصالح خصوم هذا الجيش.

وقد تفعل الفُرقة والشقاق بالعدو ما لم تفعله جيوش جرارة مزودة بأحدث الأسلحة وأقواها؛ ولهذا فإن النبي القائد ﷺ ـ وهو ذو الخبرة الواسعة والباع الطويل في السياسة العسكرية ـ طلب من نعيم بن

مسعود ﷺ ـ وكان معروفًا بالدهاء والمكر بين العرب ـ أن يستخدم هذا السلاح ـ سلاح الفُرقة والشقاق ـ ضد الأعداء المتحالفين في هذا الغزو المخيف، إذ قال له عندما أعلن إسلامه سرًّا ودون أن يعلم به أحد من قومه: «**إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة**».

وقد نجح نعيم بن مسعود ﷺ في استخدام سلاح الفُرقة والشقاق ضد الأعداء نجاحًا كاملًا، إذ استطاع أن يحطم بهذا السلاح وحدة الأحزاب وينسف اتحادهم مع اليهود من الأساس، كما هو مفصل فيما مضى من هذا الكتاب.

فكان هذا النجاح عاملًا مهمًّا في تعجيل فك الحصار عن المدينة وإنهاء ذلك الغزو الكبير بانسحاب جيوش الأحزاب الجرارة على تلك الصورة المخزية.

فإقناع نعيم بن مسعود ﷺ يهود بني قريظة بعدم التعاون مع الأحزاب إلا بعد الحصول على الرهائن منهم، فتح الطريق أمام قريش وغطفان للتعجيل بالانسحاب، وحفظ لهم ماء الوجه، إذا اتخذوا من عدم التعاون هذا مبررًا لانسحابهم وترك اليهود وحدهم يلقون مصيرهم على أيدي المسلمين، الأمر الذي كانت قيادة الأحزاب تتحرج من فعله، قبل أن ترفض قريظة التعاون معهم.

وقد سمعنا فيما مضى من هذا الكتاب كيف حمَّل أبو سفيان قائد عام جيوش الأحزاب بني قريظة مسؤولية ما حدث إذ قال (وهو يأمر بالانسحاب): إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره.

السبب الثالث: العقيدة: وبالإضافة إلى العاملين الحاسمين في فشل الغزو من وجهة النظر العسكرية المجردة، فإن هناك ـ من الناحية المعنوية ـ عاملًا مهمًّا (وقد يكون أهم العوامل) في إحباط هذا الغزو الخطير، وهو العقيدة.

فقد كانت العقيدة عند المسلمين الصادقين هي السلاح الرئيس الذي يعتمدون عليه في كل المعارك؛ ولهذا فإن العقيدة ـ عند المسلمين تأتي في المقام الأول بين العوامل والدواعي التي تجعلهم يصمدون ويثبتون، حيث يكون الفرار أو الاستسلام في حساب المقاييس العسكرية المادية أمرًا لا مناص منه، بل ولا لوم على فاعليه.

وما يمكن أن نقوله بالتفصيل عن العقيدة وأثرها في نفوس المسلمين وإسهامها بدرجة أولى ممتازة في انتصارات المسلمين الحاسمة، قد قلناه مفصلًا في ختام كل من كتابينا (غزوة بدر الكبرى، وغزوة أحد) تحت هذا العنوان (نظرة.. وتحليل) فليرجع إليه من يريد.

إلا أن العقيدة في معركة الأحزاب قد كان دورها ـ بالنسبة للمسلمين ـ أهم الأدوار على الإطلاق، حيث كانت هي السلاح الرئيس بل والوحيد في مواجهة الغزو وإحباطه.

فقد كان سلاح العدو الفعال الوحيد في هذه الغزوة هو الإرجاف والإرهاب والترويع والتخويف والخيانة والغدر والنكث والإرهاق، وهو سلاح مفزع مخيف حقًّا بالنسبة لألف مقاتل تناقصوا حتى لم يبق منهم في آخر ليلة من ليالي هذا الغزو إلا ثلاثمائة مقاتل، يحيط بهم أحد عشر ألف مقاتل من كل جانب، سلاح مخيف رهيب حقًّا، لا يقف في وجهه إلا سلاح رباطة الجأش وقوة الأعصاب، والاحتفاظ برجاحة العقل وهدوء النفس وثبات الجنان والثقة بنصر الله تعالى.

وهذه العوامل ذات الأثر الحاسم في مقاومة ذلك السلاح الرهيب المخيف الذي تنخلع له القلوب، لا تتوفر إلا لمن يحمل مثل تلك العقيدة الصافية السامية، عقيدة الإسلام، التي جعلت سيد الأوس الشاب سعد بن معاذ ﷛ يقول للنبي ﷺ ـ عندما حاول عقد صلح منفرد مع قبائل غطفان، مقابل ثلث ثمار المدينة (رحمة بجيشه الصغير المحصور): **وَاللهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ**.

لقد قال هذا الشاب السيد المؤمن هذه الكلمة الخالدة التي رفض بها الصلح مع غطفان، قالها والمسلمون في أعلى درجات الكرب والضيق قد أخذت المحنة بتلابيبهم وطَوَّقتهم الرزايا والخطوب وأحاطتهم من كل جانب.

رفض سيد الأنصار الشاب فكرة عقد الصلح المنفرد مع غطفان على تلك الصورة، مع أن هذه الفكرة التي استشار النبي ﷺ الأنصار للموافقة عليها، هي في عُرف السياسة العسكرية فكرة صائبة لا غبار عليها يلجأ إليها القادة العسكريون ويستخدمونها لتخفيف مؤونة الحرب على جيوشهم حتى اليوم.

لأن تشتيت شمل العدو وإضعاف قوته وتفريق كلمته بأية وسيلة لا يغيب عن بال أي قائد عسكري مسؤول في كل الحروب بلا استثناء، ولكن قوة العقيدة الراسخة البناءة التي جاء بها هذا النبي الكريم ﷺ جعلت قادة الأنصار ـ وهم العمود الفقري لجيش المدينة ـ يستأذنون نبيهم في رفض فكرة الصلح هذه والاستمرار في المقاومة مهما كانت النتائج.

الخواء العقائدي عند الأحزاب: وإذا كان موقف سعد بن معاذ وقادة الأنصار ﷺ قد أوضح لنا الصورة الجلية الواضحة عن فعالية سلاح العقيدة في جيش الإسلام الصغير، ومتانة هذه العقيدة وصلابتها إلى الحد الذي جعل المؤمنين بها يقفون ذلك الموقف الرائع، فإن مجيء قادة غطفان ـ وهم العمود الفقري لجيوش الأحزاب ـ إلى مقر القيادة النبوية سرًّا ومد يدهم ـ من وراء ظهر قريش ـ لعقد صلح منفرد مع المسلمين مقابل ثلث ثمار المدينة، يعطينا الدليل القاطع على الخواء العقائدي الكامل داخل جيوش الأحزاب العظيمة، وأن هذه الآلاف المؤلفة، قد جاءت يسودها التفكك لأنها ليست لها رابطة موحدة تجمعها على عقيدة راسخة صادقة تصلها بالله، فتستعذب الموت في سبيلها، كما هو الحال عند المسلمين.

وإنما جاءت هذه الآلاف تحدوها أهداف رخيصة محدودة ضيقة، أهداف لا يمكن أن تكون أساسًا لنضال أو قاعدة لكفاح، أهداف لحمتها وسداها الحصول على ما يمكن الحصول عليه من المغانم المادية بأية طريقة كانت، ثم العودة بسرعة إلى خيامها ومسارحها.

مقارنة بين الأحزاب والمسلمين: وبالمقارنة بين هذه الأهداف الرخيصة المحدودة التي جاءت الأحزاب تقاتل في سبيلها، وبين تلك العقيدة الشماء التي يقاتل المسلمون في سبيلها، والتي وقفت (في ظل رايتها) تلك القلة المؤمنة لتواجه تلك الحشود الهائلة، يتضح الفارق العظيم، ويتضح أي سلاح فعال سلاح العقيدة هو، عندما تكون عقيدة بناءة سليمة.

إنه لولا العقيدة التي تسلح بها المسلمون في تلك الظروف الرهيبة المزلزلة، ما استطاعوا أن يثبتوا أمام تلك الحشود الهائلة التي بلغت عشرة أضعاف المسلمين، ذلك الثبات الذي ظل (على مر العصور) مضرب الأمثال.

لقد كان باستطاعة جيوش الأحزاب الجرارة ـ لولا الخواء العقائدي الذي يسيطر عليها ـ أن تسجل على جيش المدينة الصغير، نصرًا حاسمًا حتى مع وجود الخندق؛ لأن الخندق لا يمكن أن يحول بينها وبين اقتحام المدينة على أية صورة من الصور، لا سيما وأنها تمتاز على المسلمين بذلك التفوق الساحق في العدد.

حقيق، أن اقتحام الخندق لاحتلال المدينة يتطلب تضحيات لا يُستهان بها، وما كانت جيوش الأحزاب لتبخل بمئات من القتلى لاقتحام المدينة، لو كان باعث غزوها على مستوى الباعث العقائدي الذي وقف المسلمون في ظله يدافعون عن المدينة ذلك الدفاع الرائع.

ولكن لما كان الباعث الحقيقي لحشد هذه الجيوش حول المدينة هو ذلك الباعث المادي الضحل الرخيص، المتمثل في التمكن من السلب والنهب فحسب، فإنه من البديهي أن تُحجم هذه الجيوش عن الإقدام على مثل هذا العمل الذي يتطلب الإقدام عليه بذل المهج والأرواح بسخاء كبير.

ولو كان الأمر على العكس، وكان المسلمون هم الذين جاؤوا يقودون تلك الجيوش الجرارة التي جاء بها الأحزاب، لما وقف الخندق حائلًا بينهم وبين احتلال المدينة، بل لاقتحموه في لحظات، كما حدث منهم ومن أبنائهم مرات ومرات في الشام والعراق عندما كان الفرس والرومان يخندقون على أنفسهم، وهم أقوى سلاحًا وأكثر عددًا من المسلمين». [**غزوة الأحزاب لباشميل ٢٥٥-٢٦٤**].

٥٤ ـ حصيلة الغزو العكسية:

يقول أ/ باشميل: «اتضح فيما مضى من هذا الكتاب أن المخطط الذي خرج به زعماء اليهود من خيبر والذي بموجبه تم تحشيد تلك الجيوش الجرارة من قريش وغطفان يهدف ـ في الدرجة الأولى ـ إلى إبادة المسلمين إبادة كاملة وهدم كيان الإسلام من الأساس، يشاطرهم في ذلك زعماء قريش وقادة غطفان.

ولكن ما هي النتائج التي جناها قادة اليهود وقريش وغطفان كحصيلة لهذا الغزو الكبير المنظم المخيف؟

النتائج كانت ـ بالتأكيد ـ عكسية مائة في المائة، وهي تتلخص فيما يلي:

(١) لقد منيت جيوش الأحزاب بهزيمة شنعاء لم تمن بمثلها قريش وغطفان واليهود في تاريخهم الطويل السابق واللاحق.

فقد جنى الأحزاب ـ كثمرة لهذا الغزو الكبير ـ تلك الهزيمة المنكرة وذلك الفشل الذريع، بدلًا من خضد شوكة المسلمين وهدم سلطانهم ونسف كيانهم.

فانحدرت هذه الهزيمة بسمعة قريش وغطفان العسكرية إلى درجة لم يستطع معها أي من هذه القبائل ـ وهي أقوى قبائل الجزيرة على الإطلاق ـ مجرد التفكير في غزو المسلمين، فكانت لذلك غزوة الأحزاب هذه آخر عملية غزو تقوم بها الوثنية العربية ضد الإسلام في جزيرة العرب.

سمعة المسلمين بعد غزوة الأحزاب: بينما ارتفعت ـ من ناحية أخرى ـ سمعة المسلمين العسكرية ـ بعد هذه المعركة ـ حتى بلغت الذروة، الأمر الذي جعلهم ـ حتى سقوط آخر معقل لليهودية والوثنية في جزيرة العرب ـ أسياد الموقف، يغزون ولا يقدر أحد على غزوهم.

(٢) أما حصيلة اليهود من هذا الغزو الذي هو من صنعهم ونتيجة تفكيرهم، فقد كانت خسارة أفدح من خسارة الوثنيين في نجد والحجاز.

فإن هؤلاء القرشيين والنجديين إذا كانوا قد خسروا هيبتهم العسكرية فلزموا الهدوء والسكينة حتى دخلوا فيما دخل فيه العرب من اعتناق الإسلام بعد فتح مكة من قِبَل قوات المسلمين، فإن اليهود لم تبق لهم أية هيبة عسكرية حتى يخسروها، ولكن حصتهم من ثمرة هذا الغزو الذي أثاروا عواصفه، كانت تصفية العنصر اليهودي في يثرب، بإبادة كل رجال يهود بني قريظة في المدينة، وهم ثمانمائة مقاتل، وسبي نسائهم وذراريهم وهي النكبة المروعة التي كان اليهود قد أعدوا العدة ـ بالاتفاق مع الأحزاب ـ لإنزالها بالمسلمين.

ولم تتوقف نكبة هؤلاء اليهود المجرمين على محو ما تبقى لهم من كيان في يثرب، كحصيلة لأعمالهم الشريرة، بل امتدت هذه النكبة إلى موطن الإجرام ووكر التآمر (خيبر) التي رُسم فيها مخطط ذلك الغزو الرهيب.

فقد كانت حملة الأحزاب المخيفة درسًا وَعَتْه قيادة المدينة، وأيقنت على أثره أن لا مناص من ضرب قواعد العدوان في خيبر، والتي إن لم تُضرب وتُحطم سيظل الكيان الإسلامي عُرضة لخطر التآمر والعدوان في كل لحظة.

لا سيما وأن اليهود يملكون من المال الوفير المكنوز ـ والمال ذو سلطان قاهر ـ ما يمكنهم من إثارة أية حرب يريدون إثارتها ضد المسلمين؛ ولهذا قامت المدينة ـ بقيادة النبي الأعظم ﷺ بعملية غزو واسعة ضد اليهود في خيبر حتى سقطت في أيدي المسلمين، وسقط كل قادتها وزعمائها قتلى في المعركة.

وبسقوط خيبر تمت تصفية آخر معقل لليهود في الجزيرة العربية، ولم يقم لليهود بعدها أي سلطان في الجزيرة العربية حتى اليوم، ولن يقوم إلى يوم القيامة إن شاء الله». [**غزوة الأحزاب لباشميل٢٦٤-٢٦٦**].

٥٥ ـ حصاد المعركة:

يقول د/ الوكيل: «لم تكن غزوة الخندق غزوة عسكرية بالمعنى المتعارف عليه عند إطلاق كلمة معركة؛ لأنه لم يكن فيها لقاء بين الجيشين، ولا مواجهة من الفريقين، وإنما كانت مناوشات بالنبل وذلك لحيلولة الخندق بين القوتين رغم طول الحصار الذي استمر قريبًا من شهر. [ابن هشام ٣/ ١٣٣].

وما حصل من القتال بالسيوف كان مغامرة من بعض فرسان قريش استطالوا الوقوف فتهيؤوا لخوض معركة، ولكنهم باؤوا بالفشل عندما قتل علي بن أبي طالب ﷺ زعيمهم عمرو بن عبد ود، وكانت هناك محاولة أخرى لعبور الخندق من نوفل بن عبد الله بن المغيرة، ولكنه سقط أثناء المحاولة ورماه المسلمون بالحجارة، وظل يصرخ ويستغيث حتى نزل إليه الزبير بن العوام ﷺ فقتله.

وكان أشد ما لقي المسلمون يوم الخندق استمرار الرمي في يوم من الأيام طوال النهار، ومن كل جوانب الخندق، حتى إن الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ لم يُصلوا الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء حتى توقف الرمي، وحينئذ صلوها، وقال ﷺ: «**مَلَأَ اللهُ [اللَّهُمَّ امْلَأْ] قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا كَمَا حَبَسُونَا وَشَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الوُسْطَى [صَلَاةِ الوُسْطَى] حَتَّى غَابَتْ [آبَتْ] الشَّمْسُ**».

واستشهد من المسلمين ستة نفر، وقتل من المشركين ثلاثة، كما استشهد يوم بني قريظة رجلان، وقتل منهم سبعمائة أو تسعمائة. [ابن هشام ٣/ ١٤٦، ١٥٥-١٥٦].

وتلك نتيجة عكسية تمامًا لما كان متوقعًا، فإن تصميم قريش على استئصال المسلمين، وإعدادهم لكل ما يلزم لذلك من السلاح والتموين لا يتصور مطلقًا أن يكون حصاد ذلك كله ثمانية شهداء.

وكانت هناك فرصة ضيعها المشركون، وتلك هي اقتحام الخندق، لقد كان المتوقع بعد اقتحام عمرو بن عبد ود ومن كان معه أن يزداد عدد المقتحمين حتى يقتحم الجيش كله، وهناك تدور معركة حامية قد يصلون فيها إلى غايتهم، ولكن ما الذي منع أبا سفيان من أمر الجيش بالاقتحام بعدما رأى أن الاقتحام ممكن، ولو أن أبا سفيان فعل، واقتحم المشركون الخندق، من يدري ماذا كانت ستكون النهاية؟

أغلب الظن أن سرعة المسلمين، وخفة حركتهم، ونهضتهم الفورية لسد الثغرة التي اقتحم منها المشركون، وقتل علي ﷺ الخاطف لشيخ فرسانهم ابن عبد ود، كل ذلك كان السبب الرئيس في عدم اقتحام الخندق، وكفهم عن تكرار المغامرة التي لم يهنأ بها فاعلوها، بل فروا هاربين من الموت الذي لحق بزعيمهم.

وعاد المشركون بخيبة أمل لم يتوقعها أحد، ماذا يقولون لمن ساندوهم وأمدوهم بما يحتاجون، وبأي شيء يسترون فشلهم، ويعللون عودتهم خائبين؟

أيقولون: اشتد البرد وعصفت الريح، فسيقولون: هو عليكم وعلى المسلمين.

أم يقولون: خذلتنا بنو قريظة، وسيردون عليهم: أو لم يكف عشرة آلاف للقضاء على ثلاثة آلاف، إنه الخزي الذي لا تقبل عنه علة، وأقبح منه التماس العذر.

وأحس المسلمون بأنهم في كنف الله، يحيطهم بعنايته، ويكلؤهم برعايته، وإلا فمن ذا الذي رد عدوهم؟». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٩٧-١٩٨**].

٥٦ ـ مقارنة وتحليل:

يقول د/ الوكيل: «كانت الغزوة مفاجئة للمسلمين، فقد عَلِموا بأخبار ذلك التجمع الرهيب، وهم جالسون في المدينة، وكانت المفاجأة عندما علم المسلمون بتحالف اليهود مع المشركين، فبين الفريقين بون شاسع في العقيدة، فهؤلاء أهل أصنام ووثنية، وأولئك أهل توحيد، وفي الأخلاق فاليهود جبناء غدارون، والمشركون شجعان صرحاء، فكيف التقى هؤلاء بأولئك؟ وما الأسس التي جمعت بينهم؟

فبرغم ما بين الفريقين من عداوة عقدية إلا أن هناك عاملًا مشتركًا جمع بينهما في هذا التحالف البغيض، ذلك هو اجتثاث العقيدة، واستئصال القيادة، وتدمير الدولة التي أصبحت خطرًا يهدد الفريقين معًا، وكان ذلك العامل الذي يتلخص في بغض الفريقين للإسلام كافيًا في أن يجمع بين النقيضين، ويؤلف بين المتنافرين.

وعلى إثر وصول أخبار هذا التحالف إلى المدينة اجتمع الرسول ﷺ مع كبار الصحابة، وبحثوا الأمر على طريقة الشورى، وكانت نتيجة البحث والدراسة أن مواجهة هذه الحشود الضخمة مستحيلة، وعلى المسلمين أن يسلكوا سبلًا تحميهم من هذا العدوان الغاشم فهم وإن كانوا يوقنون أن قوة الله ﷻ تؤيدهم وأن عونه ﷻ سيكون معهم، إلا أنهم يؤمنون بوجوب اتخاذ الأسباب، ويعتقدون أن الاحتياط والحذر أمر يفرضه عليهم الإسلام.

لهذا تبنى المجتمعون اقتراح سلمان ﷺ بحفر الخندق، وبدأوا العمل على الفور وجعلوا الخندق بينهم وبين عدوهم، وتحمل المسلمون كثيرًا من المشقات، فالجوع يهد قوتهم، والبرد يرعد أجسامهم، وخوف

العدو يزلزل نفوسهم، ولكنهم مع ذلك لم يهنوا، ولم يستسلموا، ولقد صور القرآن الكريم حال المسلمين صورة حية ترتجف من هولها فرائص الصناديد، وتطيش لفظاعتها أحلام المغاوير، وذلك حين يقول ـ جل من قائل: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

وبرغم ذلك صمد المسلمون، بل ورفض السعدان الصلح الذي أوشك أن يعقده الرسول ﷺ مع غطفان لمجرد ما يوحي به من الضعف في مثل هذا الموقف، وقالا: لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

وهذه الكلمة في مثل هذا الموقف لا تعبر إلا عن روح معنوية عالية، وصبر على الشدائد نادر.

لم يكن هذا الصمود أمام هذا الزحف الرهيب، ولم يكن هذا التحدي لهذا التحالف العنيد إلا ثمرة طيبة لعقيدة راسخة، وإيمان بالله لا يتزعزع، وثقة في وعده لا يتطرق إليها شك.

إن أية جماعة لا تكون وثيقة الصلة بالله ﷻ، عميقة الإيمان بالحق الذي هي عليه لا يمكن أن تصمد أمام هذا الزحف المخيف، ولا تستطيع الثبات في مثل هذه الظروف السيئة في وجه هذه الجموع الحاشدة التي زلزلت بمسيرها السهل والحزن، وأرعبت بتحالفها القاصي والداني، وإن ثبات المسلمين رغم ضعفهم وقوة عدوهم، وإن صبرهم على الشدائد، وتمسكهم بعقيدتهم رغم كل هذه التحديات من خصومهم لأكبر دليل على أنهم لا ينشدون إلا الحق، ولا يبتغون إلا نصرته.

وأما العدو فقد نجح في عقد تحالف مع قبائل مختلفة موتورة في عقيدتها الضالة الفاسدة، وقد خرجوا جميعًا في عزم أكيد على استئصال المسلمين ليقضوا بذلك على الإسلام، وصمموا على عدم مغادرة المدينة، وفك الحصار عنها حتى تستسلم، وتُسلم لهم محمدًا ﷺ.

ونجح اليهود كذلك في تجميع عشرة آلاف محارب، وواجههم المسلمون بثلاثة آلاف فقط، وكانت إمكانات العدو الاقتصادية جيدة، وحين بدأ تموين الجيش يتناقص أمدهم بنو قريظة بما يحتاجون إليه من التموين لهم ولماشيتهم، في الوقت الذي كان المسلمون يعصبون الحجارة على بطونهم من شدة الجوع.

واستطاع العدو أن يُحدث ثلمة في المدينة بإقناع بني قريظة بنقض العهد، وكان وقع ذلك أليمًا على نفوس المؤمنين، ولكن القيادة رفعت معنوياتهم بتبشيرهم بنصر الله وعونه، عندئذ تماسك المسلمون، وسدوا الثغرة، فأرسلوا قوات لحراسة المنطقة حتى لا يأتي العدو من قِبَلها، ولما استعان المشركون بالحلفاء الجدد لتموين جيوشهم، وقف المسلمون لهذه الإمدادات بالمرصاد، فقطعوا عليها الطريق، واستولوا على بعض قوافل التموين.

ونتيجة حتمية لهذه الظروف التي مر بها المسلمون ظهر في المحاربين منطقان: منطق الإيمان بالحق، والثبات على العقيدة، وذلكم هو منطق المؤمنين، مما يدل على أن الفتنة لم تنل من قلوبهم، وأن الحصار لم يوهن نفوسهم، وأن الخوف والفزع لم يخرج عن نطاق الخوف الفطري في النفس البشرية؛ ولهذا لم يزدد المؤمنون أمام خطورة الموقف إلا إيمانًا وتسليمًا: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

والمنطق الآخر منطق المنافقين الذين انخلعت قلوبهم لهول الموقف، وضاقت صدورهم لشدة الفزع فقالوا كما قال عنهم القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب]». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٩٥-١٩٧**].

٥٧ ـ آثار المعركة:

يقول د/ الوكيل: «حققت هذه المعركة آثارًا عظيمة في اتجاهات ثلاثة:

أما الأول: فكان في المدينة المنورة، عاصمة الإسلام ومقر حكمه، وكان أثرها على النحو التالي: كان انتصار المسلمين ملفتًا للنظر حيث لم يتحقق نتيجة اصطدام عسكري تحطمت على أثره قوة المشركين، وإنما كان في الحقيقة انتصارًا سياسيًّا رائعًا تحطمت على أثره روابط الاتحاد، وانهارت معاهدة التحالف وكان ذلك بشن حرب التخذيل التي أعلنها رسول الله ﷺ حينما فاوض غطفان فكسر حدتهم، ثم بالدور الخطير الذي قام به نعيم بن مسعود ﷺ، فقد أوهن الثقة التي كانت تربطهم، فانهزموا نفسيًا ومعنويًا ففروا من الميدان.

كان هذا الانتصار تدعيمًا لقوة المسلمين، وقضاء على خصومهم، وردعًا للمتربصين، فلم يعد لليهود أثر في المدينة يذكر، ولم يبق منهم فيها سوى فلول عاشت إلى جوار المسلمين وفي حمايتهم.

بالقضاء على قوة اليهود تخلص المسلمون من أكبر عدو لهم، كان يعيش بينهم، وكانت لديه القدرة على إنزال الضرر بهم، كما لم يعد للقبائل التي كانت تنتظر عونهم، ولا للمنافقين الذين كانوا يعتمدون عليهم ظهير يستعينون به على إيذاء المسلمين، فكفوا عن عداوتهم، ودخل كثير منهم في الإسلام، وانخذل المنافقون فأظهروا ولاءهم للمسلمين، وانحازوا إلى الجماعة المنتصرة شأنهم في كل زمان ومكان.

وأما الأثر الثاني: فكان في مكة عاصمة الشرك يومئذ، ومحضن قيادته، فقد تركت تلك الهزيمة في نفوس المشركين أثرًا لا ينمحي، فجيوشهم غير قادرة على تحقيق أي نصر على المسلمين، وفقدت ثقتها ببقية القبائل، فلم تعد تطمئن إلى مواثيقهم، ولا إلى مساعدتهم، وكيف تطمئن وقد رأت غطفان تفاوض المسلمين لتخذلهم، وهؤلاء اليهود قد غدروا بهم في أحرج الأوقات، وأما حيي بن أخطب فقد كان كذابًا حال ضد عدو متحد.

والواقع أننا لو نظرنا إلى كلتا الجبهتين لرأينا اختلافًا بيِّنًا، يمكن من خلاله الحكم الصادق على كل جبهة منهما.

فبينما ترى الجبهة الإسلامية في غاية من الاتحاد والتماسك هدفهم محدد، وغايتهم واضحة، يلتفون حول قيادتهم في إخلاص، ويبذلون ما يملكون لتسديدها في سخاء، ترى جبهة الحلفاء في تفكك وانحلال لم تجمعهم غاية واحدة، ولم توحدهم قيادة حازمة، ولم يتفقوا على هدف محدد.

فلكل جماعة منهم قيادة، وإن كانوا في ظاهرهم تحت قيادة أبي سفيان إلا أنهم في الحقيقة كانوا تحت قيادات مختلفة، ولم يكن هناك استعداد للخضوع لرأي واحد منهم، وكذلك كانت الغاية مختلفة عند كل فريق من الحلفاء.

فأما قريش فغايتها القضاء على الإسلام في شخص محمد ﷺ ووزيريه، وكانت الدوافع لذلك هو الثأر الذي لم يهدأ بعد في نفوسهم، وقد خرجوا متحمسين لتحقيق هذا الغرض.

وأما اليهود فقد كانت غايتهم إعادة سيطرتهم على المدينة التي أُخرجوا منها مرغمين، فلم يكن من مصلحتهم تمكين تلك القبائل المحاصرة لها من دخولها والسيطرة عليها، ولعل هذا هو السبب في إلحاح حيي بن أخطب على كعب بن أسد للانضمام إلى المحاربين حتى يمكن تكوين قوة من اليهود تتصدى للمشركين بعد الانتصار، وتحول بينهم وبين السيطرة على المدينة.

وأما غطفان فلم يكن لها في تلك الحرب ناقة ولا جمل، وإنما أخرجهم الطمع في الحصول على تمر خيبر لمدة سنة حسبما وعدهم اليهود، ولهذا لم يكن لهم حماس المقاتلين الموتورين، ولا هِمَّة المحاربين أصحاب الثأر، ولما لوَّح لهم الرسول ﷺ بثلث تمر المدينة هرعوا إليه واستجابوا للمفاوضة، وسال لعابهم، ووافقوا على العودة، وكأن لم يكن بينهم وبين اليهود عهد ولا ميثاق.

وهكذا اختلفت الغايات كما اختلفت الأسباب الداعية لهذا التحالف؛ ولذلك فإننا نستطيع أن نقول: إن هذا التحالف منذ وجوده كان يحمل أسباب فشله، ويحمل دواعي تحلله وانهياره، وكان ذلك من أهم أسباب انسحاب الحلفاء دون أن يحققوا ما تحالفوا من أجله.

ولو أضفنا إلى ذلك العوامل الطبيعية التي سخرها الله ﷻ لنصرة المسلمين كالبرد الشديد والريح العاصفة والمطر الغزير لتحققت بذلك كل أسباب الهزيمة التي منوا بها، وردتهم على أعقابهم خاسرين.

وأما الأثر الثالث: فكان في أنحاء الجزيرة المختلفة، حيث كان انتصار المسلمين على هذا النحو ذا اتجاهين مختلفين، فقد اعتقدت العرب أن المسلمين أصبحوا قوة لا تُغلب، وسيطر عليهم الخوف والفزع، فعزَّ النصير، وذل العدو.

وفي الاتجاه الآخر ظن يهود خيبر أنهم لو دخلوا في معركة مع المسلمين لانتصروا عليهم؛ لأن العرب لم يدخلوا المعركة، ولم يخوضوا حربًا، وإنما انهزموا باختلافهم وتفرقهم.

ولهذا أخذوا يجمعون اليهود، ويدربون الجنود، استعدادًا لخوض المعركة الفاصلة مع المسلمين، وقد اجتمع لديهم عشرة آلاف مقاتل». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٩٨-٢٠٠**].

٥٨ ـ أهمية هذه الغزوة فيما بعدها من أحداث:

يقول د/ أبو فارس: «تعتبر هذه الغزوة في تاريخ الحروب العسكرية النبوية فاصلة بين مرحلتين: مرحلة الدفاع، ومرحلة الهجوم، فقد كانت هذه الغزوة آخر وقعة تشن منها قريش حربًا هجومية على أرض المسلمين، ويقف فيها النبي ﷺ والمسلمون موقف المدافع عن المدينة وأهلها.

ولقد أعلن رسول الله ﷺ عن هذا التحول بقوله ﷺ: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**».

والمتتبع لسيرة رسول الله ﷺ في غزواته، يجد بالفعل أنها آخر غزوة وقف فيها موقف الدفاع، وبعدها تحول إلى مهاجمة عدوه عربيًّا مشركًا كان أو يهوديًّا أو صليبيًّا.

فها هو ذا رسول الله ﷺ بعد سنة تقريبًا من غزوة الأحزاب يغزو الحديبية وهي تقع على بعد تسعة أميال من مكة المكرمة، ويرابط فيها ويأخذ البيعة من أصحابه على قتال أهل مكة، وفي العام السابع من الهجرة يدخل هو وأصحابه مكة معتمرين ويمكثون فيها ثلاثة أيام رغم أنف المشركين، وبعد هذا بعام يتوجه رسول الله ﷺ ومعه عشرة آلاف مقاتل إلى أعتى قلاع الشرك مكة فيدخلها فاتحًا، ويحطم الأصنام مرددًا قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء].

أما اليهود فبعد غزوة الأحزاب مباشرة توجه الرسول ﷺ إلى بني قريظة وحاصرهم، وشدد عليهم في الحصار، حتى استسلموا لحكم سعد ﷺ فحكم عليهم بقتل المحاربين وسبي الذراري والنساء وغنم الأموال، وبذلك فقد طهر المدينة من رجس يهود بني قريظة.

وفي العام السابع من الهجرة قاد بنفسه جيشًا إلى حصون خيبر اليهودية، فدكها، وقتل صناديدها.

حقًّا إن غزوة الأحزاب كانت معركة فاصلة، كان ثمرتها أن يئس كل معسكر يعادي الإسلام من الوقوف في وجهه، لقد حاولت معسكرات الكفر مجتمعة أن تستأصل شأفة المسلمين، فباءت بالفشل، وحصدت الصاب والعلقم، ورجعت بِخُفَّيْ حنين، فكيف إن تفرقت وانفرد كل معسكر عن حليفه، لقد عجزوا عن تحقيق هدفهم مجتمعين، فهم أشد عجزًا عن ذلك وهم متفرقون، بل لقد استولى اليأس على قلوبهم وعلى نفوسهم وهم ينتظرون مصيرهم المحتوم على يد رسول الله ﷺ.

وأخيرًا فإننا نؤكد قول من قال: (لقد بلغت قوة المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ بعد غزوة الأحزاب قمة نضجها وتعاظمها، وكانت دلائل هذا التعاظم:

أولًا: إن المدينة أصبحت خالصة من الجيوب المضادة، والقوى المعادية، فهي قاعدة متينة وأمينة، تُمكن الرسول ﷺ من الانطلاق إلى خارجها، والضرب في عمق العدو.

ثانيًا: تقهقر قريش وفقدانها القدرة على تكوين أي حلف جديد ليضرب الرسول ﷺ، والتراجع عن الهجوم إلى الدفاع.

ثالثًا: تنامي القوة الذاتية للمؤمنين في المدينة فيما يظهر من تماسك اجتماعي، وطاعة تامة لرسول الله ﷺ، وقدرات دبلوماسية وعسكرية قادرة على السيطرة على الظروف وتوجيهها وفقًا لحاجات الدعوة والدولة الجديدة). [**ينظر: محاضرات في التاريخ العربي ـ د/ نزار عبد اللطيف الحديثي ص ١١١ ـ نشر مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ـ جامعة الموصل ـ مطبعة جامعة بغداد سنة ١٩٧٩، وينظر: حياة الرسول المصطفى ﷺ ٢/ ٤٨١**].

ولابد من الإشارة هنا إلى أنه وإن كان قد أصبح من المسلَّم أن قوة الرسول ﷺ بعد غزوة الخندق هي الأقوى، فإن الرسول ﷺ لم يترك الأحداث في المنطقة دون رصد ومراقبة، بل ظل يرصد أحداث المنطقة رصدًا دقيقًا عن طريق بث العيون في كل مكان، ويتخذ الإجراء المناسب وفق ما لديه من معلومات دقيقة مرصودة من جهاز الرصد النبوي القوي الأمين». [**المرجع السابق، ص ١١١**].

[**غزوة الأحزاب لأبي فارس ٨٧-٨٩**].

٥٩ ـ المبادأة بالغزو بعد الأحزاب:

يقول ل/ خطاب: «غزوة (الخندق) هي المعركة الحاسمة الثانية بعد معركة (بدر) الكبرى، فلو نجح المشركون ويهود في هذه المعركة لتغيرت وجهة التاريخ الإسلامي.

لقد استطاع يهود أن يجمعوا الأحزاب حول المدينة المنورة، وعاونهم يهود بني قريظة بعد وصولهم إلى المدينة، للقضاء على المسلمين ماديًا ومعنويًا، وهذا التجمع فرصة لا تعود أبدًا خاصة إذا أخفقت هذه الأحزاب.

إن معنى إخفاق الأحزاب ويهود بعد هذا التجمع الهائل، أنهم لن يجتمعوا مرة أخرى، وأنهم لا يستطيعون القضاء على المسلمين بعد ذلك منفردين بعد أن عجزوا عن القضاء عليهم مجتمعين، ولهذه النتيجة أثر حاسم في انتشار الإسلام فيما بعد.

لقد انتقل المسلمون من دور الدفاع إلى دور الهجوم في اليوم الذي انتهت به غزوة الخندق؛ لذلك قال الرسول ﷺ لأصحابه بعد انسحاب الأحزاب: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا**».

وانتقلت المبادأة إلى يد المسلمين بعد هذه الغزوة، ولم يتركوها حتى شمل الإسلام شبه الجزيرة العربية كلها، وارتفعت راية الإسلام شرقًا وغربًا فوق كل راية.

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب]». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٣٩**].

ويقول د/ الوكيل: «لم يكد رسول الله ﷺ يستريح من عناء ليال طوال قضاها مع أصحابه محاصرين بين الخندق وسلع، والعدو يهدد ويزمجر، لم يكد رسول الله ﷺ يمتع عينيه برؤية الوادي خاليًا من جيش الشرك، ويزيل عن نفسه شبح تلك الحرب المدمرة، وقد سره انخذال الحلفاء وانصرافهم حتى قال: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**».

وهذا التعبير مع وقته يدل على عبقرية عسكرية، وفهم عميق لنفسية القوم، وما آلت إليه حالهم؛ وذلك لأن انصرافهم من غير أن يحققوا هدفهم بعد أن جمعوا هذه الجموع الهائلة، واستعدوا هذا الاستعداد العظيم، وقد أحاطوا بالمدينة من كل جانب يدل على أنهم لن يفكروا في العودة إلى مثل هذا العمل أبدًا.

فمتى يتأتى لهم أن يجمعوا هذا العدد الوفير مرة أخرى؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يجمعهم، وقد رأوا ما يصرفهم عن التجمع حتى ولو كان ممكنًا؟ وكيف ينالون من رسول الله ﷺ وقد حيل بينهم وبينه؟ إذن هو ممنوع ولن تستطيع قوة مهما كانت أن تنال منه، فكيف يجرؤون على غزوه؟

لهذا قطع ﷺ بأن المشركين لن يغزوا المسلمين بعد ذلك أبدًا، وبشَّر بأن المسلمين هم الذين سيغزونهم في عقر دارهم». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٨٨-١٨٩**].

٦٠ ـ الرسول ﷺ ينتزع المبادأة من يد أعدائه [(١)]:

يقول ل/ محفوظ: «قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله تعالى عنه الأحزاب: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**».

قرار خطير ونقطة تحول تاريخية: هذا الحديث الشريف قرار خطير في تاريخ الإسلام يستحق أن نقف أمامه بكثير من التأمل والتدبر لما ينطوي عليه وما يترتب عليه من دروس تنفع المسلمين وتنير لهم الطريق للخروج من واقعهم الأليم: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء].

---

(١) مجلة الأمة القطرية ٣٩/ ١١-١٣، والعسكرية في الإسلام لمحفوظ ١١٦-١٢٦.

فلقد كان هذا القرار نقطة تحول بارزة في صراع المسلمين مع أعدائهم في عصر النبوة انتقلت فيها المبادأة [1] إلى أيديهم لأول مرة في تاريخ هذا الصراع، وترتب على هذا الانتقال آثار بعيدة المدى، فطوال الفترة التي قضوها في المدينة من يوم الهجرة إلى ما قبل غزوة الخندق، كانوا يتلقون هجمات أعدائهم ويواجهونها «بمعارك دفاعية» كان أبرزها غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة، وأُحُد في السنة الثالثة، ثم كانت غزوة الخندق في السنة الخامسة التي واجهوا فيها هجوم قريش والقبائل العربية واليهود، فقرار الرسول القائد ﷺ بعد غزوة الخندق (الأحزاب): «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**»، معناه أن يتحول المسلمون من الدفاع إلى الهجوم، وأن يسيروا إلى أعدائهم بدلًا من البقاء انتظارًا لضرباتهم، وبعبارة أخرى فإن معنى القرار أن يتحول المسلمون من حالة رد الفعل إلى الفعل.

ولابد هنا من أن نصحح ما في بعض الأذهان من خطأ في فهم معنى الهجوم على أنه يعني العُدوان أو الاغتصاب، فالهجوم شكل من أشكال العمليات الحربية تتحرك فيه القوة إلى العدو وتوجه ضربتها إليه في مواقعه، وطبيعة الحرب تجعل الهجوم شكلًا من الأشكال الضرورية لتحقيق الأهداف حتى في إطار العمليات الدفاعية، ومن الأقوال الشهيرة في هذا المجال «**الهجوم خير وسيلة للدفاع**»، فليس من صواب الرأي أن نعتبر الهجوم مرادفًا للعُدوان أو منطويًا على نواياه، ولقد أوضح لنا الرسول القائد ﷺ هذا المعنى وأكده في معارك عصر النبوة، فكل الغزوات والسرايا التي تحرك فيها المسلمون إلى عدوهم ليوجِّهوا إليه ضرباتهم هي عمليات هجومية تمت في إطار إستراتيجية دفاعية تستهدف الدفاع عن الدعوة وحرية التدين، ولم يكن العدوان أو الاغتصاب أو القهر هدفًا من أهدافها، وإنما كانت أهدافها حقًّا وعدلًا ودفعًا للاعتداء وإعلاء لكلمة الله.

أسس هذا التحول التاريخي: وخطورة هذا القرار التاريخي وما ترتب على تنفيذه من نتائج تدعونا إلى محاولة تقصي الأسس التي بُني عليها فإن تنفيذ هذا القرار ينطوي على مواجهة تحديات كبيرة أهمها أن المسلمين في عملياتهم المقبلة ضد قريش سوف يتركون المدينة قاعدتهم الرئيسة ويسيرون أربعمائة كيلومتر في أرض أقل ما يُقال فيها إنها أرض غير صديقة، ثم يتجهون إلى مكة قاعدة قريش الرئيسة بكل ما فيها من قوة بشرية بأكبر حشد وبكل ما فيها من حوافز معنوية لأهلها للدفاع عنها في معركة تعد معركة مصير بالنسبة إليهم.

---

(١) **المبادأة** (أو المبادرة) معناها باختصار حرية العمل، والذي يملك المبادأة يحرم خصمه من حرية العمل، ويحصر أعماله في نطاق رد الفعل، وإحراز المبادأة من أهم عوامل النصر والنجاح في الحرب والسياسة على حد سواء.

وليس من شك في أن الرسول ﷺ كان مدركًا لحجم هذه التحديات التي لم يسبق أن واجه المسلمون مثلها، ومع ذلك كان مطمئنًا إلى اتخاذ قراره بكل ما له من عواقب ونتائج.

والواقع أن مما يعين على استخلاص أسس ذلك القرار استقراء تطور الأحداث خلال السنوات الخمس الأولى للهجرة.

فشل قريش في تحقيق أهدافها: ففي خلال تلك الفترة كانت قريش تملك زمام المبادأة لكنها لم تستطع تحقيق هدفها الأساسي وهو القضاء على الإسلام أو القضاء على المسلمين في موطنهم الجديد، لقد قاتلت المسلمين في عدة معارك أهمها بدر وأحد والخندق بلا جدوى.

حتى في تلك الغزوة الأخيرة (الخندق) التي أرادت لها أن تكون «فاصلة» فحشدت لها كل ما أمكنها من قوى أخرى إلى جانب قوتها متمثلة في القبائل العربية واليهود لم تُجْدها شيئًا، والذي يُتصور أن قريشًا إزاء هذا الفشل سوف تضعف عزيمتها ويفتر استعدادها للعودة إلى التجربة مرة أخرى.

وهنا تظهر عبقرية الرسول ﷺ في فهمه لطبائع البشر وفراسته في «رصد ملامح الضعف» في قوة خصمه، وسرعته الفائقة في اتخاذ القرار الصحيح في الوقت الملائم تمامًا لتوجيه «الضربة القاضية»: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**»!

الضغط الاقتصادي على قريش: وخلال تلك الفترة نجح المسلمون في فرض الحصار الاقتصادي على قريش بالسيطرة على طريق التجارة إلى الشام ثم على طريق العراق الذي تحولت إليه، فبعد أن أصبح طريق الشام محفوفًا بالمخاطر تحولت قريش إلى طريق العراق فقد قال صفوان بن أمية: «إن محمدًا ﷺ وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل وأهل الساحل قد وادعوهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء»، فأشار عليه الأسود بن عبد المطلب أن يتخذ طريق العراق ففعل، وتجهز من البضائع والفضة بما قيمته مائة ألف درهم، غير أن الرسول ﷺ بعث زيد بن حارثة ﷺ في مائة راكب فاستولى على القافلة وهي في طريقها عند ماء يقال له: (القَرَدة) من مياه نجد، وهكذا لم يعد أمام قريش إلا التجارة مع الحبشة، وكان لذلك أسوأ الأثر على حياتها الاقتصادية.

فلابد وأن يكون لهذا الضغط الاقتصادي أثر كبير في عودة قريش إلى أن «تعيد النظر في موقفها» ضد المسلمين، فيكون الضغط العسكري الذي يتحقق بعد انتزاع المبادأة، «دافعًا» لها أكثر وأكثر في هذا الاتجاه.

تأمين قاعدة المدينة: لقد أصبحت المدينة خلال تلك الفترة «قاعدة أمينة» يستطيع الرسول ﷺ أن «يتركها» خلفه، ويبعد عنها ما شاء من مسافات، «ويغيب» عنها ما شاء من زمن ثم «يعود» إليها ليجدها ـ كما تركها ـ صلبة قوية أمينة.

والواقع أن تأمين المدينة المنورة كقاعدة للإسلام، بدأ منذ اللحظة الأولى لوصول المسلمين إليها بعد الهجرة، فكان أول ما عمد إليه الرسول القائد ﷺ «إقامة جبهة داخلية صلبة»، وذلك بجمع صفوف المسلمين وتوحيد جبهتهم وإيجاد رابطة قوية بينهم (توحيد صف الأنصار من أوس وخزرج، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار)، ثم بتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لكافة سكان المدينة من المسلمين والمشركين واليهود بمقتضى ميثاق المدينة، كل ذلك تأمين للقاعدة «من الداخل».

ثم كان تأمين المدينة «من الخارج» بعقد المعاهدات والاتفاقات مع مختلف القبائل العربية، فهذه الاتفاقات ـ فضلًا عن أنها كفلت حرية الدعوة ـ فقد كفلت حسن الجوار والمعاملة، وهو ينطوي على تأمين كبير للمدينة لأنه يحرم قريشًا من الاعتماد على هذه القبائل أو محالفتها أو اتخاذها «قاعدة» للعدوان على المدينة.

كفاءة أجهزة المعلومات والأمن: وثبت خلال تلك الفترة أن للمسلمين أجهزة للمعلومات والأمن على درجة عالية من الكفاءة تتمثل في أمرين، الأمر الأول شبكة من العيون والأرصاد منتشرة في أنحاء شبه الجزيرة العربية؛ لإبلاغ الرسول ﷺ بالمعلومات عن نوايا أعدائه وحركاتهم، فقد علم ﷺ من عمه العباس رضي الله عنه في مكة بتجهيز قريش لمهاجمته قبل غزوة أحد وغزوة الخندق.

وكان الدليل الناصع على كفاءة أجهزة المعلومات هذه أن المسلمين «لم يؤخذوا على غِرَّة أبدًا» فشكلت بذلك مصدر أمن مستمر يكون له دور فعال في تأمين حركة المسلمين وحرمان أعدائهم من مباغتتهم.

ثم نضيف إلى أجهزة المعلومات، جهاز الأمن الذي نجح في المحافظة على أسرار المسلمين وحرمان العدو من كشفها، وواقعة منع رسالة حاطب بن أبي بلتعة من أن تصل إلى قريش قبل غزوة الفتح خير ما يُذكر دليلًا على ذلك، هذا إلى ما كان لدى المسلمين من وعي الأمن والمحافظة على الأسرار.

تنفيذ القرار: لقد كان فتح مكة بطبيعة الحال هو قمة الأعمال التنفيذية لقرار انتزاع المبادأة، باعتبار أن مكة هي الهدف الرئيس، لكن فتح مكة لم يقع إلا في رمضان من السنة الثامنة للهجرة أي بعد صدور القرار بسنوات ثلاث تقريبًا، فما هو السر في هذا؟

الواقع أن دراسة أحداث تلك الفترة من بعد الخندق إلى ما قبل الفتح تكشف عن مخطط بالغ الدقة والإحكام مهد الطريق تمامًا لسير المسلمين إلى هدفهم الرئيس مكة، كما تبرز لنا درسًا عظيمًا يعلِّم المسلمين أن يبتعدوا عن العمل المتسرع أو غير المخطط، وأن تكون خطواتهم نحو أهدافهم محسوبة بكل الدقة والإحكام.

فإنه يلفت نظر الباحث المدقق أن الغالبية العظمى لسرايا القتال بُعثت خلال تلك الفترة (أكثر من ثلاثة أرباع مجموع عدد السرايا)، كما أن الرسول ﷺ قاد في تلك الفترة خمس غزوات هي غزوة بني قريظة، وبني لحيان، وذي قرد، والحديبية، وخيبر.

توطيد الأمن في المنطقة الشمالية: أما بَعث هذا العدد الكبير من السرايا فكان لتأمين المنطقة الشمالية حتى حدود الشام، والعراق، والسيطرة على القبائل العربية في تلك المنطقة مثل هوازن، وبني كلاب، وبني مرة، وبني عوال، وبني عبد بن ثعلبة، وغطفان، وبني سليم، وبني الملوح، وجهينة، والقبائل التي عاونت الروم ضد المسلمين.

القضاء على اليهود عسكريًّا: وأما الغزوات فقد قضى الرسول ﷺ على اليهود عسكريًّا بغزوهم في بني قريظة وخيبر.

لقد فتح اليهود ـ بنقضهم العهد ـ «جبهة ثانية» ضد المسلمين كان عليهم أن يواجهوها بالردع الذي تستحقه، وكانت غزوة خيبر ضربتهم القاضية، إذ كانت المعقل الرئيس لليهود في شبه الجزيرة، وكان بها سبعة حصون تكتنفها البساتين، وكان أهلها أقوياء مسلحين استماتوا في الدفاع إذ كانوا يعلمون علم اليقين أن اندحارهم معناه القضاء الأخير على بني إسرائيل في شبه الجزيرة.

وهكذا أَمِن الرسول القائد ﷺ ـ بسقوط خيبر ـ بأس اليهود وآمن بأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة، وبأنه يستطيع بعد ذلك أن يتحرك جنوبًا نحو هدفه الرئيس.

زيادة قوة الجيش ورفع كفاءته القتالية: ولقد أتاحت غزوة الحديبية قيام هدنة أتاحت للمسلمين أن يزيدوا من حجم الجيش إلى درجة لم يكونوا بالغيها من قبل، يؤكد ذلك مقارنة قوة الجيش في غزوة الخندق بقوته في الفتح، ففي الخندق كانت القوة ثلاثة آلاف، وفي الفتح كانت عشرة آلاف، وتلك قفزة كبيرة في زمن قصير نسبيًّا.

وارتفعت كفاءة الجيش القتالية إلى أقصى حد، بعد أن بلغ رصيده من عمليات القتال منذ بدأ الصراع في السنة الثانية للهجرة إلى ما قبل الفتح قرابة ستين عملية، قاد منها الرسول ﷺ أربعًا وعشرين غزوة، وقاد أصحابه ما بقي منها، ومارس المسلمون في هذه العمليات كل أشكال القتال من دفاع وهجوم

ومطاردة وإغارات، وقتال في القرى، وحصار المواقع الحصينة، وغيرها، كما أصبح للجيش عدد كبير من القادة الأكفاء القادرين على قيادة العملية المستقلة.

إضعاف إرادة قريش القتالية: وأُصيبت إرادة قريش القتالية بالضعف نتيجة لعدة عوامل نذكر منها:

(١) تجريدها من الحلفاء خاصة اليهود بعد القضاء عليهم عسكريًّا.

(٢) انفتاح المجال أمام الرسول ﷺ ـ بعد الحديبية ـ لمحالفة القبائل التي لم تكن مطمئنة إلى محالفته لقوة قريش لوجود الكعبة في مكة مما أضعف شوكة قريش.

(٣) انتشار الإسلام جعل جانبًا من قريش يدين بالإسلام وجانبًا آخر باقيًا على الشرك، فأصبح من المستحيل أن تجتمع كلمتها على حرب المسلمين.

أغلى الدروس: وهكذا أصدر الرسول ﷺ قراره التاريخي بانتزاع المبادأة ـ في الوقت المناسب ـ من يد أعدائه، وانتقل بالمسلمين من نطاق رد الفعل في غير اندفاع أو مجازفة، بل بتخطيط سليم، وخطوات محسوبة، واضعًا في اعتباره كل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، ثم سار نحو هدفه الرئيس، فحققه على أكمل ما يكون التحقيق، وجنى ثمرة الأخذ بالأسباب والإعداد والاستعداد، واثقًا ـ منذ البداية ـ من معية الله، شاكرًا لربه ومسبحًا بحمده على النصر والفتح ورؤية الناس يدخلون في دين الله أفواجًا.. ا.هـ.

المبحث السادس
الدروس الدعوية

١ ـ إرجاع الأمور إلى أولي الأمر فيما يخص الجماعة:

يقول د/ أبو فارس: «أخذناه من موقف عمر بن الخطاب ﵁، إذ حينما سمع خبر نقض بني قريظة العهد الذي بينها وبين رسول الله ﷺ سارع من فوره وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، ثم انتظر الأمر، دون أن يخبر أحدًا من صحابة رسول الله ﷺ بما سمع؛ ذلك لأن إشاعة الخبر يضر بالروح المعنوية التي يتمتع بها الجندي المسلم، ويؤثر على قدرته في القتال، وثباته في مواجهة التحديات الجسام، فلا تتماسك الصفوف ولا تتراص.

إن القيادة وحدها هي أقدر جهة على تحليل الموقف، بعد دراسته وفحصه، ومن ثم اتخاذ القرار المناسب الذي يحقق المصلحة العامة للمسلمين، ويدفع المفسدة عنهم، فجاء عمر ﵁ إلى القائد ليخبره الخبر.

وهذا الموقف من عمر بن الخطاب ﵁، ينبغي أن يتعلم منه الدعاة إلى الله، فإذا سمعوا أخبارًا مؤذية، أو تشوه الصورة الحقيقية، أو تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ألا يحدثوا بها أحدًا، وأن يئدوها، وإذا كان لخبر من الأخبار أهمية، يتعلق بأمن الجماعة المسلمة عليهم أيضًا ألا يشيعوه، بل يبادروا على الفور بإيصاله للقيادة المسلمة، التي تقوم بدورها بدراسته واتخاذ القرار المناسب.

ولقد عاب القرآن الكريم على نفر من المسلمين في عهده ﷺ تسرعهم ونشرهم لبعض الأخبار التي سمعوها، فأرشدهم الرب تبارك وتعالى إلى الطريق السليم، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[النساء: ٨٣].

وموقف عمر بن الخطاب ﵁ كان ردًّا إلى الرسول ﷺ ولي الأمر ليتخذ التدابير اللازمة بهذا الخصوص». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٧-٢٨**].

٢ ـ دفع أراجيف وتثبيط المنافقين:

يقول أ/ ياقوت : «ولكن خبر الخيانة اليهودية انتشر بين الناس انتشار النار في الهشيم؛ ليمحص الله المؤمنين ويكشف ضغائن المنافقين، فظهر على إثر ذلك المثبطون والمتشائمون والجبناء الذين يزيدون في تسعير الفتنة وتأجيج الأزمة، والمائقون والمرجفون الذين يصيدون في الماء العكر، وهؤلاء جميعًا قال الله فيهم: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ

إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ [الأحزاب].

قال الحارث المخزومي :

إِنَّ الوُشَاةَ قَلِيلٌ إِنْ أَطَعْتَهُمْ   لا يَرْقُبُونَ بِنَا إِلًّا وَلَا ذِمَمَا

إن على المسلم في مثل هذه النوازل أن يدفع هذه الأراجيف ولا يدعها تفت في النفوس، وعليه أن ينف الوشاية والشائعات، وأن يذب عن أعراض المجاهدين خاصة قيادة المسلمين وإمامهم، ولا يَلجّ في شيء مُلتَبس حتى يتبين له الصواب فيه، وتَسْتَوضحَ له الحقيقة... وعليه أن يسهم في كل ما هو من شأنه تثبيت الناس وتشجيع المقاتلين، واستنفار الهمم، والتشمير للمجد، والذود عن حياض سيد المرسلين ﷺ:

فَمَنْ يَحْمِي حِمَى الإِسْلَامِ أَمْ مَنْ   يَذُبُّ عَنْ المَكَارِمِ أَوْ يَذُودُ؟

[السيرة النبوية لياقوت ٢٤١-٢٤٢].

٣ ـ انتهاز الفرصة للدعوة إلى الله:

يقول د/ أبو فارس: «قضية تبليغ الدعوة إلى الله ﷻ حية في نفس علي ﷺ، لا يغفل عنها مهما كانت الظروف والأحوال، إنها فرصة أن يُنقذ عمرو بن عبد ود من النار، فيدعوه إلى التوحيد وهكذا ينبغي ألا يغفل الداعية عن تبليغ دعوته تحت أي ظرف، وفي أي زمان، وقدوته في ذلك رسولنا محمد ﷺ، وصاحبه علي بن أبي طالب ﷺ، وقبل ذلك يوسف ﷺ إذ اغتنم وجوده في السجن فأخذ يبشر بدعوته بين السجناء: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَٰحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف]».

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٧٣].

٤ ـ المعنى الحقيقي للبطولة:

في مبارزة علي ﷺ عمرو بن عبد ود العامري يقول أ/ ياقوت : «ذاك الإمام السيد الضرغام في إحدى صولاته، إنه مشهد يُحيي البطولة الحقة في النفوس، بعدما زاغ الناس بمفهوم البطولة إلى ساحات الملاعب والمراقص، فصار (البطل) هو اللاعب الذي يركل الكُرة في الشِّباك، وصار (رأس الحربة) و(المُهاجم) الذي سقط مخ رأسه إلى مخ ساقه؛ فالكل ينظر إلى موضع قدمه لا إلى موضع عقله، فذلك هو البطل المزعوم، ومثله بطل الفيلم وبطل التمثيلية وبطل المسرحية... وكثر هؤلاء الأبطال في ميادين الخلاعة والخلابة ممن تُرسم له التصاوير على الملابس، وأكياس البطاطس المقلي، وعُلب الحلوى... وهؤلاء الأبطال الباطلون إذا تدبرتَ أمرهم تجدهم في أخلاقهم من السَّفلة والحشوة، وطغام الفَسَقة، ورعاع الناس، يحاربون كل فضيلة، ويمحقون في نفوس الناس كل قيمة كريمة.

نحن في مسيس الحاجة لإحياء معاني البطولة الإسلامية، والشجاعة الحربية، والأعمال الخيرية في شتى ميادين الحياة،، فهذه هي البطولة التي تَبني ولا تهدم، وليست كتلك البطولة المزيفة التي تحرك الغرائز». [السيرة النبوية لياقوت ٤٣٣-٤٣٤].

٥ ـ رجوع الأمير عن رأيه إذا ظهر الصواب في غيره:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا ميل النبي ﷺ إلى التعاقد مع غطفان على إعطائهم جزءًا من ثمار المدينة على أن يرحلوا ويخرجوا من تحالفهم مع قريش في حصارهم للمدينة، وتقول بعض الروايات: إن النبي ﷺ كلمهم في ذلك ولكن لم يبرم العقد معهم، فاستشار السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة على ما بدا له ﷺ من ميل إلى مصالحة غطفان فأجاباه بما ذكرناه من قبل وخلاصته أنهما قالا: إن كان هناك أمر من الله أو هوى من نفسك نحو مصالحتهم فنحن على السمع والطاعة، وإن كان ذلك تصنعه لمصلحتنا فنحن لا نرى إعطاءهم ذلك، فأخذ برأيهما ولم يبرم الصفقة مع غطفان.

فعلى قادة الجماعة المسلمة جماعة الدعاة أن لا يترددوا في الرجوع عن رأيهم إذا ظهر عدم صوابه وعدم رغبة من يتعلق بهم هذا الرأي الذي رؤي لمصلحتهم». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦١-٢٦٢].

٦ ـ الخوف قد يصيب الداعية، ولكن إيمانه يحميه من الاستسلام:

يقول د/ زيدان: «قلنا إن المؤمنين أصابهم الخوف والفزع وزُلزلوا وفقدوا الثبات في أثناء الحصار، وهذا شيء طبيعي؛ لأنهم بشر لم يخرجوا عن بشريتهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى حالتهم فقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾[الأحزاب].

لقد كانوا أناسًا من البشر، وللبشر طاقة لا يكلفهم الله ما فوقها، وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله في النهاية، وبشارة الرسول ﷺ لهم بفتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق، على الرغم من هذا كله فإن الهول الذي كان حاضرًا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفسهم، ولكن كان إلى جانب الزلزلة وزوغان الأبصار وكرب الأنفاس، كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله، ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببًا في انتظار النصر مستحضرين في أذهانهم قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[البقرة].

ومن ثم قالوا لما رأوا الأحزاب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

فعلى جماعة الدعاة أن لا يستغربوا من الهزة التي تصيب الدعاة إذا فاجأتهم صعاب وشدائد وتجمُّع للأعداء مما يبعث الخوف والفزع في نفوسهم، فهذا شيء ممكن الحدوث ولا يدل على زوال الإيمان من نفوسهم أو الشك في دعوتهم، وإنما هو الشعور الذي ينتاب الإنسان باعتباره إنسانًا، ولكن سرعان ما يعود المؤمن بفضل إيمانه إلى حالته المستقرة واستحضاره ما وعد الله المؤمنين.

فعلى قيادة الجماعة المسلمة أن لا تدهشها هذه الهزة والزلزلة التي تصيب أفرادها عند الشدائد الشديدة، ولكن لا يجوز لها أن تستسلم أو تيأس لما تراه وإنما عليها أن تذكرهم بوعد الله وتكون هي القدوة الملموسة في الثبات حتى يثبتوا معها». [**المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦٢-٢٦٣**].

٧ ـ الحذر من المنافقين:

يقول أ/ كولن: «وضع ﷺ المنافقين تحت مراقبة دقيقة بحيث لم يمكنهم من إلحاق أي أذى أو سوء مع أنهم كانوا يرغبون في ذلك، وهذا يدل على فطنته ﷺ في اتخاذ التدابير الضرورية في درء الأضرار ومنعها». [**النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/ ١٠٣**].

ويقول د/ زيدان: «على جماعة الدعاة أن تعلم يقينًا إمكان تسلل بعض المنافقين في صفوف الجماعة، فليسوا هم بأفضل من جماعة المسلمين الأوَل وقد تسلل بعض المنافقين في صفوفها مع وجود النبي ﷺ وتنزل الوحي بفضحهم وبيان خبايا نفوسهم، وإذا كان هذا حدث في عصر النبي ﷺ وبين صفوف المؤمنين من صحابة رسول الله ﷺ فحدوثه الآن وبين صفوف الجماعة المسلمة أقرب احتمالًا وأيسر وقوعًا، فعلى قيادة جماعة الدعاة، وعلى الدعاة أنفسهم، أن يرصدوا المتصفين بصفات المنافقين التي ذكرها القرآن، ومنها ما ذكره عنهم بصدد معركة الأحزاب حتى يحذرهم المؤمنون ولا يتأثروا بإرجافهم ودعاياتهم وتخذيلهم المؤمنين، فمن صفاتهم:

استبعادهم النصر لدعوة الإسلام ولدعاته، وإشاعة اليأس في النفوس، وأن لا جدوى من الدعوة ومن العمل للإسلام.

وأنهم في وقت الشدائد يفرون، وفي وقت الرخاء يدَّعون لأنفسهم الدعاوى الباطلة من الشجاعة والإقدام والحرص على الدعوة ومصلحتها.

فعلى الجماعة المسلمة أن ترصد المنافقين من خلال ما يبدو منهم من صفات وأقوال، وأن تحذِّر المؤمنين والدعاة من أعضائها حتى لا يتأثروا بإرجافهم وأقوالهم، وقد ذكرنا الآيات التي نزلت في معركة الخندق والمتعلقة بالمنافقين وبيان موقفهم من تلك المعركة، وما كانوا يقولونه ويحرضون غيرهم عليه، فعلى الدعاة وجماعتهم أن يرجعوا إلى ما قلناه بشأن تلك الآيات التي فضحت المنافقين وبينت خبايا

نفوسهم، فالوحي قد انقطع ولا سبيل لمعرفة المنافقين اليوم ثم الحذر منهم إلا من خلال ما يظهر من أقوالهم وأفعالهم وصفاتهم التي بينها القرآن ومن ذلك آيات سورة الأحزاب والتي ذكرناها.

وليحذر الدعاة أسلوبهم في تنقيص الدعاة واختلاق العيوب لهم أو تكبيرها وإشاعة سوء الظن فيهم». [المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦٣].

٨ ـ إخفاء صلة بعض الدعاة بالجماعة:

يقول د/ زيدان: «وقد يكون من المفيد للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، عدم إظهار بعضهم، وإخفاء صلتهم بالجماعة، حتى يمكن الإفادة منهم في بعض الأوقات، كما استفاد المسلمون من نعيم ابن مسعود ﷺ حيث إنه أسلم ولم يعلم به قومه، وجاء إلى النبي ﷺ وأخبره بإسلامه وعدم علم قومه بذلك، فقال له النبي ﷺ: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**»، فعلى الجماعة المسلمة أن تضع في منهاجها عدم إظهار بعض دعاتها للناس، وعدم إظهار صلتهم بها، حتى يمكن أن يقوم بمثل ما قام به نعيم بن مسعود ﷺ عند الحاجة إلى ذلك، فإن الدعاة إلى الله الآن في حالة حرب في أكثر البلاد حيث يستبيح الحاكمون في هذه البلاد إيذاءهم بل وقتلهم، فعليهم أن يأخذوا الحذر وما يدفع عنهم الشر، ومن ذلك إخفاء بعض دعاتها للغرض الذي ذكرناه، ولغرض آخر، وهو أن يكون الصف الثاني للدعاة إذا سقط الصف الأول أو أُزيح أو أُبعد أو لم يستطع العمل كان في الثاني عوض وبدل عنهم».

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٦٣-٢٦٤].

٩ ـ التعرف على أحوال أعداء الدعوة:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا إرسال النبي ﷺ حذيفة بن اليمان ﷺ إلى جيش المشركين للوقوف على أحوالهم وما هم عازمون عليه، وأمره أن لا يُحدث شيئًا حتى يرجع، وأنه لم يقتل أبا سفيان وقد أمكنه ذلك تنفيذًا لوصية رسول الله ﷺ إليه لا يُحدث شيئًا حتى يرجع، وأن حذيفة ﷺ كان سريع البديهة يوم قال أبو سفيان لجيشه: فليسأل كل جليسه عن هويته خوفًا من اندساس الغرباء في جيشه، فبادر حذيفة ﷺ بسؤال جليسه قائلًا له: من أنت؟ فأجابه: أنا فلان.

وهكذا تخلص حذيفة ﷺ من أن يبدأه جليسه بهذا السؤال، فعلى أمير الجماعة المسلمة، أن يختار الكفء للعمل الخطير القادر عليه، وأن يكون ذا مقدرة عالية لحسن التخلص من الأمور المحرجة، وأن يلتزم التزامًا كاملًا بما تأمره به الجماعة، أو يأمره أميرها عند إناطة العمل به بحيث لا يسوغ له مخالفته وإن بدا له أن هذه المخالفة نافعة، كما حصل من حذيفة ﷺ، فقد قال: سنحت لي الفرصة لقتل أبي سفيان ولكني لم أفعل لأمر رسول الله ﷺ ألا أُحدث أي شيء حتى أرجع؛ لأن مهمته كانت رصد ما عند العدو ومعرفة أحواله وما يتكلمون به، وهذا ما حصل عليه حذيفة ﷺ ولم يتصرف أكثر مما أُمر به.

وهكذا ينبغي أن يروض الدعاة وغيرهم من أعضاء الجماعة المسلمة أنفسهم إذا كُلف أحدهم بعمل معين كاستكشاف أحوال خصوم الدعوة أو غير ذلك من الأمور، أن يلتزموا بأوامر جماعتهم».

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٥٩-٢٦٠].

١٠ ـ ذكاء الداعية وسرعة التصرف، والخروج من المأزق:

يقول د/ أبو فارس: «لقد سمع حذيفة ﷺ قول أبي سفيان: (وليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه)، أي يتعرف عليه، وفي السيرة الحلبية: (ليتعرف كل منكم على جليسه، واحذروا الجواسيس والعيون)، وهنا بادر على الفور بسؤال مَنْ على يمينه ومَنْ على شماله حتى لا يُعرف.

ومن الجدير بالذكر أنه كان بين دهاتين من دهاة العرب، إنهما معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقد أسلما بعد ذلك.

وهذا يدل على دهاء حذيفة ﷺ وسرعة خاطره وقدرته على التخلص من المآزق الحرجة بأبسط السبل وأيسرها.

ويمكن للداعية المسلم أن يستفيد من طريقة حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما في هذا الشأن ويستخدمها كلما دعت الحاجة إليها، ومطلوب منه أن يبحث عن وسائل وطرق غيرها قد يستخدمها لخدعة العدو والتمويه عليه». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩٥-١٩٦].

١١ ـ لا ينبغي لجماعة الدعاة تمني لقاء العدو:

يقول د/ زيدان: «لقد ذكرنا تذكير الله ﷻ عباده المسلمين بنعمته عليهم بكف المشركين عنهم ورجوعهم إلي ديارهم خائبين قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب] فهذه الآية تُشعر بتذكير الله تعالى عباده المسلمين بنعمته عليهم بكف المشركين عنهم، ذلك أن معنى قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي فلم يحوجونهم إلى مبارزة أعدائهم ومنازلتهم وقتالهم ليجلوهم عن المدينة، بل تولى الله وحده كفاية ذلك، وعلى هذا فلا ينبغي لجماعة الدعاة تعمد مواجهة أعداء الدعوة وتعريض أعضائها الدعاة إلى بطش أعدائهم؛ لأن المطلوب القيام بالدعوة إلى الله، وليس المطلوب مصادمة أعداء الدعوة الأقوياء، فإن هذا الصنيع يؤذن بوقوع الجماعة بالرياء وطلب السمعة عند الناس، ليقولوا إن جماعة الدعاة أوذيت في سبيل الله، وفي وصية رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنهما وقد أمَّره على جيش المسلمين الذي أرسله لإرهاب الروم، قال ﷺ له: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ عَدُوِّكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْرُونَ عَسَى أَنْ تُبْتَلَوْا بِهِمْ، وَلَكِنْ قُولُوا: اللَّهُمَّ اكْفِنَاهُمْ وَاكْفُفْ عَنَّا بَأْسَهُمْ**». [سنن الإمام سعيد بن منصور ـ القسم الثاني من المجلد الثالث ص ٢٠٤ رقم ٢٥١٩ تح الأعظمي].

ولكن لا يعني ما أقول أن على الدعاة وجماعتهم القعود وعدم القيام بالدعوة إلى الله، وإنما الذي أعنيه بكل تأكيد عدم تعمدهم لقاء الخصوم والدخول معهم في حرب ولهم مندوحة من ذلك، أي يمكنهم أن يدعوا إلى الله، وأن يتجنبوا المخاصمة مع أعداء الدعوة لا سيما إذا كانت الدولة هي ـ لسوء فهمها مقاصد الدعوة ـ خصم الدعاة وجماعتهم، ففي هذه الحالة ينبغي لجماعة الدعاة عدم تصعيد الخصام مع الدولة، مع المضي في متطلبات الدعوة بهدوء مع تحمل شيء من شطط الدولة وبغيها، أما هذا الكلام قد لا ينفع المتحمسين من أعضاء الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، فيندفعون إلى مخاصمة الدولة دون ضرورة ولا حاجة إلى هذه المخاصمة فيقعون ويوقعون جماعتهم في أذى شديد لا طاقة لهم به ولا ضرورة تدعو إليه، فلتحذر الجماعة وأعضاؤها والمنتسبون إليها من الدعاة والأنصار ما قلناه وليدعوا الله أن ينجيهم من كيد أعدائهم ولا يحملوا أنفسهم على مواجهتهم، ولكن إذا واجههم عدوهم فليصبروا وليثبتوا ولا يستسلموا، بل عليهم أن يصدقوا الله في جهادهم ولا يضعفوا أمام عدوهم». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٦٥].

١٢ ـ الحرب الإعلامية تواكب الحرب العسكرية:

يقول د/ الغضبان: «لقد وجدنا الحرب الإعلامية للمسلمين تواكب الحرب العسكرية، وكانت هي التي تمثل لسان الناطق الرسمي بنتائج الحرب والمعارك عند العرب، فمن ديوان الأشعار يتعرف العرب على الأحداث، ولم يكن هذا الأمر كذلك بالنسبة للمسلمين، إذ كان القرآن الكريم بالنسبة لهم هو مصدر التلقي والحُكم على الأحداث، ولم يكونوا يعيرون التفاتًا فيما بينهم للشعر بعد أن صار الوحي هو موطن التربية بالنسبة لهم.

لقد كان الشعر للرد على العدو الذي لا يؤمن بالقرآن الكريم، واستطاع الشعراء المسلمون أن يخوضوا معارك الشعر كلها دون حرج أو تلجلج من أي ميدان، تكلموا بقيم العرب، وطرحوا مفاهيم الإسلام من خلال الشعر، ولم يتركوا مثلبة عربية يطعن منها الأعداء إلا ردُّوها عليهم.

وما أحوج الحركة الإسلامية اليوم التي تخوض معركتها العسكرية أن تعطي الجانب الإعلامي حقه، وطبيعة الحرب العالمية اليوم حرب إعلامية، فالمعسكران يبتعدان ما استطاعا عن الصدام والمواجهة العسكرية، لكن حربهم المستمرة اليومية تنطلق من وسائل الإعلام.

وإن ثقة الناس بإعلام الحركة يعني ثقة الناس بها، فهم يحكمون على الحركة الجهادية من خلال إذاعتها ومجلاتها ونشراتها، وإذا كان الشعر وحده أيام الرسالة هو الوسيلة الإعلامية الأكبر ـ إن لم تكن الأوحد ـ فوضعنا اليوم يختلف كثيرًا عن سالفه.

إن وسائل الإعلام اليوم تسد الأفق، ولا يأخذ الشعر إلا حيزًا محدودًا جدًّا منها، فهناك الموعظة، والخطبة، والمقالة، والأقصوصة، والقصة، والتعليق السياسي، والتحليل الإخباري، والمادة الإخبارية، والأناشيد الحماسية، كل هذه ذات أثر خطير في الواقع الإعلامي.

إضافة إلى وسائل البث الإعلامي، من إذاعة وتلفاز وجريدة ومجلة وكتاب وتسجيل سمعي وبصري، كلها غدت تتحكم في قلوب البشر وعقولهم وتفكيرهم، وتوجه قناعاتهم وتبني عقائدهم.

إن المعركة من الخطورة والدقة والأهمية ما يجعل الحكم على نجاح المعركة من خلال نجاح إعلامها والثقة به والتعامل معه، وأملنا كبير أن توجه الحركة الإسلامية طاقاتها لتكوين الاختصاصيين المبدعين في هذا الفن، ويملكون مقود الفكر والعاطفة؛ ليحققوا القاعدة الأساس التي يقوم عليها صرح البناء الجهادي، فيكون كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم]، إنها مواصفات واضحة للكلمة الطيبة، إنها من الأصالة والصدق ضاربة جذورها في الأرض، فلا يزعزعها كل بهرج الدنيا وزخرفها، وهي من جهة ثانية منتشرة في كل صقع، وطالت فروعها الباسقة حتى عمت الأرض وامتدت للسماء، وهي من جهة ثالثة مثمرة ترعاها عناية الله، تحقق أهدافها التي قامت من أجلها، كاملة، ويكون ثمرها مذاقًا لكل قارئ أو راءٍ أو سامع، وفقدان أيٍّ من هذه المواصفات الثلاثة يعني أننا لم نصل إلى الكلمة الطيبة التي نريد».

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٣٦٨-٣٧٠].

المبحث السابع
حديث القرآن عن غزوة الأحزاب (١)

يقول أ/ باشميل: «وقد تحدث القرآن الكريم عن معركة الأحزاب، وتناول مراحل هذه المعركة في عدة آيات من سورة الأحزاب بلغت سبع عشرة آية، تبدأ بالآية التاسعة من سورة الأحزاب، وتنتهي بالآية الخامسة والعشرين من نفس السورة.

وأول ما تحدث عنه القرآن هو نزول البلاء على المسلمين بوصول قوات الأحزاب، وإنعام الله تعالى على المسلمين بدحر هذه القوات وتسليط العوامل الطبيعية عليهم وإزعاجهم بجنود من عند الله لم يرها أحد، مما أدى إلى إجبارهم على الرحيل عن المدينة وفك الحصار عنها، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

ويعنى القرآن الكريم بالجنود الذين جاؤوا لحرب المسلمين، قريشًا وغطفان وبني قريظة، أما الجنود الذين أشار القرآن إلى أن الله أرسلهم لإزعاج الأحزاب، فقد ذكر كثير من أهل التفسير أنهم الملائكة، ولم يثبت أن الملائكة قاتلوا الأحزاب، ولكنهم أرسلوا للإزعاج وللتضييق.

قال الإمام الشوكاني في (فتح القدير ٤/ ٢٥٦): قال المفسرون: بعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر، تخويفًا للأحزاب، حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه: يا بني فلان هلم إليَّ، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاءَ النجاءَ. ا. هـ.

وقد جاء هذا التأييد الإلهي للتضييق على الأحزاب، وإزعاجهم بعد أن محص الله المؤمنين وصهرهم في مختبر المحن والمصائب التي أخذت بخناقهم وأحاطتهم من كل جانب، فصمدوا لها وأثبتوا (عمليًّا) أنهم بإيمانهم - أكبر من هذه المصائب والنكبات، فقرروا مقاومة الغزو حتى النصر أو الفناء، ومن هنا جاءهم النصر المفاجئ من عند الله جزاء صبرهم وثباتهم وإيمانهم ويقينهم.

حديث القرآن عن تدهور الحالة:

وتحدث القرآن الكريم عن تدهور الحالة بين المسلمين، وانتشار الخوف والرعب والفزع بين صفوفهم نتيجة إطباق جيوش الأحزاب عليهم (بمساعدة يهود المدينة) من كل ناحية وإحكام الحصار

(١) ينظر في ذلك: غزوة الأحزاب لباشميل ٢٤١ – ٢٥٠، محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ١٥٧ – ١٦٨، ١٧٠، السيرة النبوية العطرة لشقرة ٣٨٦- ٣٩٨، في ظلال القرآن لسيد قطب ٢٨١٩، ٢٨٣٦، ٢٨٣٦ – ٢٨٤٥.

عليهم بشكل مخيف رهيب، فقال تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾﴾[الأحزاب].

حديث القرآن عن المنافقين:

كما تحدث القرآن الكريم عن مواقف التخريب والإرجاف التي اتخذها المنافقون الموجودون في جيش المدينة، والتي بها ساهموا في مضاعفة الكرب والبلاء النازل بالنبي ﷺ وصحبه ﵃، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾﴾[الأحزاب].

وذلك أن بعض المنافقين، وقفوا في تلك الساعات الحاسمة التي عَمَّ فيها الخوف والرعب بين المسلمين، وقف هؤلاء المنافقون يسخرون من وعد الله ورسوله المؤمنين بالنصر، فقالوا: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا الآن لا يستطيع الذهاب إلى الغائط (خوفًا).. ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا.

وتحدث كذلك عن طائفة المنافقين الذين ـ عندما اشتد الكرب واستحكمت حلقات البلاء ـ انطلقوا يشيعون روح الهزيمة والفرار بين الجند، بدافع الرغبة في نشر الفُرقة والتخاذل داخل صفوف الجيش الإسلامي، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾﴾[الأحزاب].

ويستمر القرآن الكريم في التنديد بهؤلاء المنافقين الذين سلكوا ذلك المسلك الشائن يوم الأحزاب، فيقول: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٦﴾ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾﴾[الأحزاب].

ويتحدث القرآن عن طبيعة المنافقين الخبيثة المخربة، طبيعة القعود عن الجهاد، وطبيعة تحريض الغير على الانفضاض من حول النبي ﷺ والانضمام إلى صفوف هؤلاء المنافقين المعوقين، كما يصور حالة الجبن والخور المتأصلة في نفوسهم، عندما تكون الحرب، مع الانتفاش وسلاطة اللسان والتشدق بقارص الكلام في حالة الأمن، فيقول: ﴿۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب].

ويتحدث القرآن كيف كان الفزع والفشل مسيطرًا على قلوب المنافقين ومزيلًا لرشدهم وصوابهم ـ حتى بعد انصراف جيوش الأحزاب ـ إلى درجة أنهم كانوا يعتقدون أن هذه الجيوش لا تزال في معسكراتها حول المدينة، بالرغم من أنها قد انسحبت نهائيًّا.

وكيف أن هؤلاء المنافقين المحسوبين على المسلمين بالرغم من تسللهم من صفوف الجيش ساعة الشدة والروع، وهروبهم من الميدان وبُعدهم عن خطر القتال، كانوا لشدة جبنهم يتمنون أنهم من أعراب البادية وأن لا علاقة تربطهم بالمدينة، التي كانت الهدف الأول للغزو، وكيف أنهم كانوا يسألون في فزع وقلق ـ كما يسأل الجبان الرعديد الذي يحسب كل شيء تحرك هو ضده ـ عن أخبار نتيجة القتال الدائر بين المسلمين والأحزاب، فقال تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾[الأحزاب].

حديث القرآن عن مواقف المسلمين المشرِّفة:

ثم ينتقل القرآن من الحديث عن الصورة الكالحة الرديئة البغيضة التي كان عليها المنافقون منذ نشوب معركة الأحزاب حتى نهايتها، إلى الحديث عن الصورة الوضيئة المشرقة الرائعة التي ظهر فيها النبي الأعظم ﷺ والصفوة من أصحابه يوم أن حاقت بهم المحن وتحالفت ضدهم البلايا وتقاطرت عليهم الرزايا، فصمدوا في وجهها وثبتوا أمام زعازعها ثبوت الرواسي، والتي بدلًا من أن تكون هذه المحن والبلايا لهم مصدر اضطراب وتضعضع وانهيار، كانت مصدرًا للطمأنينة والثقة والإيمان واليقين والاستبشار بنصر الله.

وقد بدأ السياق بذكر الرسول الأعظم ﷺ وهو القدوة الكاملة في الشجاعة والثبات والإيمان وقيادة الأمم إلى شاطئ النصر والظفر عندما تضطرب الأحوال وتتقاطر المحن والرزايا، فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾[الأحزاب].

ويتحدث القرآن هنا عن هذا النموذج من الرجال الذين ـ لصلتهم الوثيقة الصادقة بالسماء ـ لم يزدهم ذلك الكرب الذي نزل بهم ـ والزلزال المخيف الذي أصابهم في غزوة الأحزاب إلا صلابة في إيمانهم وصدقًا فيما عاهدوا الله عليه من الصبر والثبات والتضحية في سبيله حتى الموت، عكس ذلك النموذج الفج الهلوع المهزوز الجبان فريق المنافقين الذي لا يقف عند عهد ولا يوفي بميثاق، فقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾[الأحزاب].

وبعضهم يرى أن هذه الآيات نزلت في أنس بن النضر ﷺ وأصحابه الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ في معركة أُحُد، فقد روى الإمام أحمد بسنده قَالَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ ﷺ: عَمِّي ـ قَالَ هَاشِمٌ: أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ ـ سُمِّيتُ بِهِ، لَمْ يَشْهَدْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ: فَشَقَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ: فِي أَوَّلِ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ الله ﷺ غِبْتُ عَنْهُ! لَئِنْ أَرَانِي اللهُ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، قَالَ: فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، قَالَ: فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﷺ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ؟ وَاهًا لِرِيحِ الجَنَّةِ أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ، قَالَ: فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ، فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، قَالَ: فَقَالَتْ أُخْتُهُ عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، قَالَ: فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ.

[مسند أحمد ٢٠/ ٣١٨ رقم ١٣٠١٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

وعلى أي كان الأمر فإن هذه الآية ينطبق ما جاء فيها من وصف على ذلك النوع من الرجال الأبرار الذين ثبتوا بجانب نبيهم في كل المواقف ووفوا بعهدهم الذي عاهدوا الله عليه سواء أنس بن النضر وأصحابه من أبطال أحد، أم الصفوة المختارة من صحابة محمد ﷺ، الذين ثبتوا معه في معركة الأحزاب.

الابتلاء والاختبار:

ثم يعقب القرآن الكريم على تلك المشاهد المختلفة والصور المتباينة التي واكبت معركة الأحزاب بأن ما شاهده الناس من أهوال وكروب ومحن إنما هو للابتلاء والاختبار؛ لكي يظهر الصادق على حقيقته (كما هو)، فينال جزاءه الطيب عند الله، ويتبين المنافق الكاذب ويظهر أمام الناس (كما هو)؛ لكي ينال ما يستحق من عذاب ونكال، فقال تعالى معقبًا على ذكر تلك الأحداث: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾[الأحزاب].

ثم يختم الحديث عن هذا الحدث الضخم الرهيب (غزوة الأحزاب) بأن الله دائمًا مع المؤمنين الصادقين الصابرين لا يسلمهم لعدوهم ولا يمكنه منهم ـ ما داموا على صلة وثيقة بالله وعلى يقين بصدق وعده ـ بل ينصرهم على هذا العدو مهما كانت قوته وجبروته، كما حدث للنبي ﷺ في غزوة الأحزاب المزلزلة هذه، فقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[الأحزاب].

كما تحدث القرآن الكريم عن تكاسل المنافقين وأعمالهم التخريبية أثناء حفر الخندق، وكيف أنهم كانوا يتركون العمل في الخندق دونما استئذان من النبي القائد ﷺ، فندد القرآن الكريم بعملية التسلل التي

كانوا يقومون بها تهربًا من المشاركة الفعالة في حفر الخندق الذي قررت قيادة المدينة أن يكون خط الدفاع الرئيس عن العاصمة، كما أثنى ـ في الوقت نفسه ـ على المؤمنين الذين لا يتركون العمل في الحفر إلا عندما تدعو الحاجة الماسة الضرورية، والذين لا يتركون العمل ـ مع هذا ـ إلا بعد أخذ إذن خاص من النبي القائد ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾[النور].

ثم وجه تحذيره للمنافقين فقال جل وعلا: «﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور]». [غزوة الأحزاب لباشميل ٢٤١-٢٤٩].

ويقول الشيخ عرجون: «ونزلت حشود الأحزاب وجموعهم منازلها من ميدان المعركة، محيطين بكتائب المجاهدين، إذ جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، واشتد البلاء، وعظم الخطب، وزاغت الأبصار، وضاقت مجاري الأنفاس وبلغت القلوب الحناجر، وتناوحت الظنون والأوهام، وطفت التخيلات والشكوك، وظن ضعفة الإيمان بالله الظنونا، واستولت وساوس الشيطان على العقول والقلوب والأفكار، ونجم النفاق واستشرى الظلام وكثرت الأراجيف الفاجرة، وانتشرت منها الأكاذيب الماكرة حتى أخذت المحنة بالحلاقيم، وتعاظم البلاء واشتدت المحن، وزلزل المجاهدون زلزالًا شديدًا أساخ أقدامهم، وأيبس أعصابهم وشل حركاتهم، وكانوا كما ذكَّرهم الله تعالى بمواقف محن السابقين من المؤمنين في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[البقرة].

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: نزلت هذه الآية في يوم الأحزاب أصاب النبي ﷺ يومئذ وأصحابه بلاء وحصر».

المنافقون يستولي عليهم الرعب والفزع فيكشف قناع قلوبهم عن الجبن والهلع:

ولم يقو المنافقون على مداراة وتغطية ما نزل بهم من الرعب والهلع والجبن والفزع، مما جعلهم يتسللون في خفية وتدسس فرارًا أن يصيبهم من الكوارث ما يقصم ظهورهم، وكان أمثلهم طريقة في النفاق من يستأذن النبي ﷺ متعللين بالأكاذيب الفاجرة، يقولون إن بيوتنا عورة، أي مكشوفة للعدو، وقد كذبوا بما قالوا وفجروا فيما زعموا، وقد رد الله عليهم كذبهم وفجورهم، فقال: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: ١٣] ولكنهم لجبنهم وتزايل مفاصلهم من هول ما رأوا وما عاينوا من الشدائد والأزمات

زعموا ما زعموا من الكذب، وهم في مداخل أنفسهم لا يريدون إلا فرارًا، لينجوا بزعمهم من البلاء والمحن القواصم.

أبلغ أسلوب تصويري لمشاهد ووقائع هذه القصة كما هو مبين هنا في تفسيرها:

وفي ذلك كله نزل قدر كبير من صدر سورة الأحزاب بدأه الله تعالى بأشرف وأحب نداء للمؤمنين، ممتنًا بنعمه وفضله عليهم، ومذكِّرًا لهم بإحسانه في تفريج ضوائقهم فيما سبق لهم من المحن التمحيصية لتطهرهم من شوائب الخوف، وتثبت قلوبهم وتربط على أفئدتهم بروابط الإيمان، فقال جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[الأحزاب].

ثم ذكر عز شأنه مواقع جنود الأعداء في إحاطتهم بكتائب المجاهدين فقال: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ يعني غطفان ومن تبعها من أهل نجد بقيادة الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري، ثم قال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ وهم قريش وأحابيشها ومن ضوى إليهم من كنانة وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب بعد قتل صناديدها في بدر.

ثم قال تعالى يذكر شدة البلاء وعظيم المحنة، ويصف ما أصاب المجاهدين في موقعهم من ميدان المعركة: ﴿ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ وزيغ الأبصار تحيُّرها وعدم تثبتها مما ترى؛ لأنها مالت عن سننها وأضلت طريقها إلى ما تريد إبصاره، فلم تُثبت مما ترى شيئًا لشدة الهول الذي نزل بأصحابه فأفسد رؤيتها.

ومعنى بلوغ القلوب الحناجر التي هي مدخل الطعام والشراب: أنها اضطربت واهتزت روابطها وكثر وجيبها، وكأنما تحولت عن مكانها لتضايقه عن حركات اضطرابها لتخرج إلى ما يسعها وهو كناية عن بلوغ الشدة أقصى غايتها.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾[الأحزاب] إخبار عن اختلاف الأحوال أمام النوازل والكوارث التي لا يُستطاع دفعها، فأهل التثبت كانت ظنونهم أن هذا الذي نزل بهم إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليميز به الخبيث من الطيب، كما قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[آل عمران: ١٧٩] حتى يصفي المجتمع المسلم من غلث الضعف.

وأما ضعفاء المؤمنين الذين لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، فظنهم بالله أنهم حينما رأوا ما نزل من البلاء تحيروا، واهتزت عزائمهم، ووهنت دعائم إيمانهم، وملكهم الخوف والرعب، فجسم لهم خيالهم الصغير كبيرًا، وأراهم ما لم يروا، وأنزلهم الشيطان منازل حيرته ووسوسته وضلالاته.

وأما المنافقون على القول بدخولهم في عموم النداء نظرًا لظاهر حالهم من إظهار الإسلام ومداخلتهم لمجتمعه، مع إبطانهم الكفر وتدسسهم مع أهله، فظنُّهم بالله ما حكاه الله عنهم من التكذيب لوعد الله في قوله: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[الأحزاب] وقد أخذوا معهم في هذا الظن السيء من الذين استعبد الخوف والرعب والفزع نفوسهم، فكانوا على بعض أخلاق المنافقين في طبائعهم المهزوزة، وقد وسمهم الله بمرض القلوب، وهم الذين مس الإيمان قلوبهم ولكنه لم يستقر فيها استقرارًا ثابتًا يعصمه عن التأثر ببعض خلال المنافقين.

وقد عقب الله تعالى ما ذكره من أحوال المجاهدين في موقفهم أمام جموع أعدائهم بتصوير إجمالي لابتلائهم وزلزلة أقدامهم في قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[الأحزاب] ومعناه أن الخوف بلغ منهم مبلغًا عظيمًا أزعجهم وأفزعهم، وذهب بأمنهم وثباتهم وذهلوا عن النظر في معمعة الموقف، ولم يكن لهم إلا ترقب العواقب التي توحي بها هذه الشدائد والأزمات التي لم يعرفوا لهم مخرجًا منها، لتعمية معالمها عليهم لشدة ما لحقهم من الفزع.

وصف المنافقين بالهلع والجبن والتدسس:

ثم قال الله تعالى يحكي شيئًا من تدسس النفاق والمنافقين في جبنهم وعدم تماسكهم أمام شدائد الأحداث: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[الأحزاب].

وهذا تذكير للنبي ﷺ بحال هؤلاء المنافقين الجبناء، فكأن الله تبارك وتعالى يقول: واذكر يا محمد قول طائفة من المنافقين لغيرها من طوائفهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ وهذا النداء يرجع بهم إلى جذور كفرهم، فهم لم يقولوا يا أهل المدينة ـ وهو الاسم الإسلامي الذي سُمِّيت به بعد هجرة النبي ﷺ إليها، واتخذها دارًا له ولمجتمعه المسلم، وجعل منها قلعة لكتائبه وحصنًا للمجاهدين ـ كراهية في الإسلام وأهله، ولكنهم قالوا: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ فرارًا من اسم المدينة الذي يوحي بالاستقرار والتجمع المطمئن الآمن إلى التثريب واللوم والتقريع؛ ولهذا قالوا لإخوانهم المنافقين: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي مع هذه الشدائد المرعبات المزعجات وتوالي المحن والبلايا، فارجعوا إلى بيوتكم لتأمنوا عواقب هذه المزعجات متعللين بالكذب والبهتان في قولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، وقد أكذبهم الله في قولهم فقال ردًّا عليهم: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ ولكنهم لجبنهم لا يريدون من هذا الكذب إلا الفرار عن مواقع البأس والشدة.

ثم بيَّن تعالى أن الجبن طبيعة النفاق والمنافقين، وأن ما هم عليه من الرعب والانزعاج ليس قاصرًا على وجودهم في ميادين المعارك، ولكنه ملازم لهم لا يفارقهم، فقال: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم ﴾[الأحزاب:١٤]

أي: بيوتهم ﴿مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾ من جميع جوانبها وأكنافها، وانثالت على أهليهم وذراريهم جموع الأعداء ناهبين لأموالهم، سابين لنسائهم وأطفالهم، ثم سئلوا عند ذلك الرجوع إلى صريح الكفر لأسرعوا إلى إجابة ما يُطلب منهم فَرَقًا من هؤلاء المهاجمين لبيوتهم.

قال الزمخشري: والمعنى أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ويتمحَّلون ليفروا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين ومصافة الأحزاب الذين ملؤهم رعبًا وهولًا، وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا عليهم أرضهم وديارهم وعُرض عليهم الكفر، وقيل كونوا على المسلمين لسارعوا إليه، وما تعللوا بشيء، ما ذلك إلا لمقتهم الإسلام وشدة بغضهم لأهله وحبهم الكفر وتهالكهم على مصانعة أهله، والارتماء في أحضانهم.

خصائص المنافقين مستمدة من خصائص معلميهم اليهود:

ثم بيَّن تعالى أن المنافقين غُدْر لا عهد لهم، بل هم ـ كمعلميهم من أخابث اليهود ـ مجبولون على الخيانة والغدر ونقض العهود لا يستمسكون بعقد ولا يوفون بوعد، كما وصفهم رسول الله ﷺ، وقد بلاهم، وعلم مداخل فجورهم فقال ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا، أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ، حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**». [البخاري في المظالم (٢٤٥٩)].

فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ [الأحزاب: ١٥] وقالوا: لئن أشهدنا الله قتالًا لنقاتلن، وقد كذبوا وأخلفوا الله ورسوله ما وعدوه.

ثم بيَّن الله تعالى للمنافقين أن الفرار لا ينجي من قدر الله، وأن قدر الله تعالى واقع لا مفر منه عند حلول أجله في مناسباته، ولو نجاكم أيها المنافقون الفرار من الحتف أو القتل لكانت هذه النجاة مسطَّرة في علم الله يجري بها قدره، ولا تعدو أن تكون متعة قليلة جرى بها قلم الغيب، تنقضي فينقضي عمر من عاشها.

ومما ينسب إلى علي ؓ في هذا المعنى قوله:

أَيُّ يَوْمٍ مِنَ المَوْتِ أَفِرُّ ... يَوْمٌ لَمْ يُقْدَرْ أَوْ يَوْمٌ قُدِرْ
يَوْمٌ لَمْ يُقْدَرْ لا أَرْهَبُهُ ... وَمِنَ المَقْدُورِ لا يَنْجُو الحَذِرْ

ثم زجر الله تعالى المنافقين مقرِّعًا لهم، فأمر نبيه محمدًا ﷺ أن يبلغهم أن سنة الله تعالى في مجريات أقداره ونفاذ إرادته لا تتخلف، فقال له ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: من ذا الذي يعصمكم ـ أي يمنعكم من الله ـ إن أراد بكم سوءًا من ألوان عذابه وأذاقكم بأسه، أو أراد بكم رحمة في الدنيا يستدرجكم

بها لتزدادوا رجسًا على رجسكم، فتكونوا أحقَّاء بإنزال أسوأ العقاب بكم وإحلالكم أشد العذاب؟! والاستفهام إنكاري مصحوب بالتقريع، ومعنى الكلام: لا أحد يمنعكم من نزول ما أراد الله بكم إنزاله من بأسه ومقته، ولا أحد يمنعكم ويحول بينكم وبين ما أراد الله بكم من رحمة تصيبكم في الدنيا لتزدادوا بها آثامًا وقد عدمتم الولي والناصر الذي يجيركم من عذاب الله، فلا تجدونه لو طلبتموه بكل ما في استطاعتكم من سيئ المكر وخبيث التدبير، ثم أخبرهم الله تعالى أن علمه المحيط لا يند عنه سوء مقصدكم في تثبيطكم عزائم المؤمنين من أقربائكم عن الخروج مع رسول الله ﷺ لمقاتلة أعدائه وأعداء رسالته من طوائف الأحزاب المهاجمين لهم، وتدعون أقرباءكم إلى أن يكونوا معكم لتباعدوهم عن الجهاد لإعلاء كلمة الله مع رسوله ﷺ، وإذا افتضح نفاقكم لم تخرجوا لتقاتلوا إلا قتالًا قليلًا لتدفعوا به قالة السوء عنكم.

خسة المنافقين في الشح والطمع:

ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنافقين في مجال البذل والإنفاق في الحرب، ووصمهم بأنهم ضموا إلى الجبن البخل، فقال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩] في وقت الحرب أضناء بما في أيديهم يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله، فإذا جاءهم طلب البذل والإنفاق ضاقت أنفاسهم، وعراهم ما يعرو الموتى، ونظروا إلى رسول الله ﷺ بأعين حائرة زائغة كنظر الذي تغشَّاه الموت ونزلت به أسبابه وهو يعالج سكراته وشدائده فلا يرى أمامه إلا أشباحًا لا يميزها، فإذا ذهبت الشدة وانتهت المعركة وحيزت الغنائم هب المنافقون في حرص البخلاء الأشحة على المال، وانتقل بهم شحهم من الخور والرعب إلى المطالبة بنصيب من الغنائم في فجور وقح، يطلقون عليكم ألسنتهم بالسوء والبذاء لتوفروا لهم ما يطلبون من الغنائم، ويدَّعون زورًا وكذبًا أنهم قاتلوا معكم وبمكانهم منكم في القتال غلبتم أعداءكم وغنمتم أموالهم.

ثم أكد ما جُبلوا عليه من البخل والشح تأكيدًا محا وجودهم من سجل الرجاء في أن يصدر منهم فعل من أفعال الخير، فقال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾[الأحزاب: ١٩] وتعليق (أشحة) بحرف الاستعلاء (على) دون حرف (الباء) التي تفيد الإلصاق بالخير ولزومه لهم؛ لأنه أُريد بالكلام تجريدهم من كل رغبة في الخير، ومعناه أنهم بلغوا من البخل على المؤمنين أنهم يكرهون أن يكون الخير ظلَّة يستظلون بها، ولكنهم لشدة كراهيتهم له يجعلونه تحت أقدامهم يستعلون عليه، نافرين منه نفرة تباعد بينهم وبينه، فلا هم يعرفونه ولا هو من خلائقهم وسجاياهم، فهم أشحة بالخير ولو على أنفسهم، فكانوا بذلك مفارقين بطبيعة وجودهم لأهل الإيمان؛ لأن الإيمان أصل أصول الخير، لم يسامتهم مسامتة تجعل لهم منه أي نصيب، ولو كان لهم منه ذرة لحبط وهلك وباد كما يبيد الظل إذا واجهته أشعة الشمس، بما يقترفونه من تدسس خبيث ونفاق معرق أصيل فيهم يملأ جوانحهم وعقولهم، ويستولي على مشاعرهم.

ما حلَّ بالمنافقين من الفزع والرعب أزاغ مداركهم بما أفسد تصورهم للواقع أمامهم:

ثم ذكر الله تعالى بعض تعللاتهم الباطنة التي يخدعون بها أنفسهم نتيجة للخوف والرعب والجبن من كل ما امتلأت به قلوبهم واستحوذ على إحساساتهم، حتى إنهم يتوهمون الواقع المشهود غير واقع ولا موجود لشدة ذهولهم وزيغ أبصارهم وضلال بصائرهم وفساد عقولهم واضطراب تفكيرهم.

فالهزيمة النكراء التي نزلت بأوليائهم من طواغيت الشرك وعبيد الوثنية المتحزِّبين على رسول الله ﷺ وعلى مجتمعه المسلم، والتي فرَّقت جموعهم ومزَّقت تحزبهم وشتتت شملهم، وأطلقت أسواقهم للفرار مدبرين لا يلوون على شيء ـ يتوهمونها تحفزًا للكرة وتوثبًا للرجعة لمهاجمة المجاهدين، فقال تعالى في تصوير هذا الموقف: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ﴾[الأحزاب: ٢٠] مدحورين منهزمين، وهذا حسبان باطل أملاه الهلع الذي أُصيبوا به من جراء تبدد آمالهم في أحزاب الكفر وحشود الشرك والطغيان، ولكن الواقع صك عقولهم وأراهم الحقيقة معاينة، وأن الأحزاب قد انهزموا هزيمة كشفت سوءات غرورهم بقواهم المادية التي ذهبت هباء مع أضاليل الشيطان وأباطيله، والمنافقون يرون في دخائل أنفسهم جبنهم وخورهم وزيغ أبصارهم وضلال بصائرهم.

فإن رجع الأحزاب ـ وما هم بفاعلين لأنهم أصيبوا بما حل عواصم تحزبهم ـ تمنى المنافقون لهول ما حل بهم من الخوف والرعب أن لا يشهدوا مرة أخرى ما شهدوه من قبل، وودوا لو أنهم أتيح لهم مهرب إلى بوادي الأعراب، يتسقطون أخبار المجاهدين ويسألون عن أنبائهم وتعرف أحوالهم.

ثم فضحهم الله وكشف سرهم مبيِّنًا أن هذا السؤال سؤال نفاق خبيث، يودون من ورائه أن يسمعوا شيئًا يسرهم وقوعه للمجاهدين، وأنهم لو كانوا موجودين بين صفوف المسلمين لم يتخلوا عن جبنهم، ولو اضطروا أن يباشروا القتال مع المجاهدين لم يقاتلوا إلا قتالًا ضعيفًا يدارون به نفاقهم، فهو قتال تعلَّة ورياء ونفاق يراؤون به المسلمين، وهم يُبطنون وراء هذا القتال الضعيف أفجر الكفر والخداع، مما لا يخدع أحدًا من المسلمين؛ لأن صدق الإيمان وإخلاصه لا يكون بالمظاهر الكاذبة الخادعة والحركات المنافقة، وإنما يكون بالتأسي برسول الله ﷺ في صدق جهاده وقوة صبره على لأواء الحياة وشظفها وشدة أزماتها، وتحمُّل أشد البلاء في سبيل نشر رسالته لإعلاء كلمة الله ومجاهدته شراذم الكفر وفئات النفاق والغلظة عليهم ليعلموا أن ليس في قلوب المؤمنين هوادة لهم ولا مداراة لمخازيهم، ولن يتحقق هذا التأسي برسول الله ﷺ إلا لمن صفا قلبه، واستنار بنور الهداية فؤاده، واستوى في الإخلاص للإسلام باطنه وظاهره، وهذا الاستواء في الإخلاص لا يكون إلا بمعرفة حق رسول الله ﷺ على كل مؤمن برسالته والإيمان بأنه ﷺ المحفوظ بتوفيق الله ﷻ وتسديده بوحيه، فلا يُخدع بنفاق المنافقين.

وهذا معنى تأكيد التأسي برجاء اليوم الآخر، والإيمان بمجيئه لتوفية كل عامل جزاء عمله، وأمارة ذلك أن يذكر العبد الله ذكرًا قلبيًّا، يغسل درن النفاق، وذكرًا لسانيًّا يتطابق مع الذكر القلبي؛ ليكون ذلك عنوانًا على إخلاص الإيمان وصدق اليقين.

الله تعالى يثني على المؤمنين وهم على أهبة القتال:

ثم أثنى الله تعالى على المؤمنين وهم على أهبة خوض المعركة والدخول في معمعانها ثناء جميلًا، وذلك بإعلان ما وعدهم الله ورسوله، وصدق الله ورسوله في وعدهما بالنصر على حشود الأحزاب وكثرة عددهم وتوافر عُددهم المادية وتكالبهم على استئصال المجتمع المسلم، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ [الأحزاب: ٢٢] على ما وصفهم رسول الله ﷺ لأصحابه في كثرتهم الهائلة، وضخامة حشودهم، ووفرة عدتهم للهجوم على كتائب المجاهدين، وتعطشهم لسفك دمائهم، قال المؤمنون في صدق وإخلاص وطمأنينة وتسليم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[الأحزاب: ٢٢] أي هذا الذي نراه مشاهدة بأعين أبصارنا من حشود الأحزاب وكثرتهم هو الذي وعدنا الله ورسوله ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[الأحزاب: ٢٢] في تبشير المؤمنين المجاهدين بالنصر على هذه الجموع الخاوية قلوبها من الإيمان كما نصرنا ربنا تبارك وتعالى في (بدر) على حشود الفجور من المشركين، ولم تزدهم رؤيتهم لحشود الأحزاب، وكثرة عددهم ووفرة عدتهم إلا إيمانًا بالله ورسوله، وتسليمًا لأمرهما، وتصديقًا لوعدهما، وتبشيرًا بنصر الله.

ثم ذكر الله تعالى ذِكْرًا خاصًّا شأن صفوة من المؤمنين الذين كانوا في ثباتهم قد بلغوا مبلغًا عاينوا فيه صدق موعود الله، وكانوا عاهدوا الله تعالى على الصبر والثبات، فقال جل شأنه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب: ٢٣] من الثبات في قتال الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، فأوفوا بما عاهدوا، فمنهم من استشهد ومضى إلى ما أعده الله للشهداء من جزيل النعيم، ومنهم من بذل طاقته وجهده، فلم يُبْق منهما شيئًا ولكن الله تعالى أبقاهم إلى آجالهم ليكونوا غصصًا في حلاقيم فجَّار الكفار وعبيد الوثنية، وهم على ثباتهم وقوة إيمانهم وصدق إخلاصهم، لم يبدِّلوا عهودهم مع الله، ولكنهم ظلوا في قوة إيمانهم وصوارم عزائمهم وصادق إخلاصهم.

ثم ذكر تعالى ما هو كالسبب في اتصاف الفريقين: خلص المؤمنين، وشراذم المنافقين بما اتصف به كل منهما فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[الأحزاب: ٢٤].

قال الزمخشري في تفسيرها: وفيه تعريض بمن بدَّلوا من أهل النفاق ومرضى القلوب، جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم ـ بما عاهدوا الله عليه ـ لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما.

ختم الآيات بذكر هزيمة الأحزاب وما كان من عاقبة غدر اليهود:

ثم أجملت الآيات في خواتيمها ما كان من هزيمة الأحزاب وصرف القتال عن المؤمنين بما وقع من معجزة إرسال الريح العاصفة على حشودهم في منازلهم لا تتعداها، وما أرسل معها من جند غيب الله تعالى تأييدًا لرسوله ﷺ، فصنعت بهم ما أفزعهم بالرعب وملأ قلوبهم بالخوف، وأطلقوا سيقانهم وركائبهم فرارًا من هول ما نزل بهم فقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾[الأحزاب: ٢٥] أي: لم يصيبوا من المعركة إلا أنهم رُدُّوا على أعقابهم، والغيظ يهرئ قلوبهم ويحرق أكبادهم، تسوقهم الهزيمة بسياطها ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[الأحزاب: ٢٥] أي: صرف الله عن المؤمنين بما أمدهم به من معجزة الريح القاصفة ومن جند الغيب القتالَ وأعفاهم من شدائده، ولم يحمِّلهم آصاره وأعباءه رحمة بهم، ثم جاءت فاصلة الآيات بأجل ما يناسبها من نعوت جلاله وقهره فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[الأحزاب].

ثم ذكر الله تعالى شيئًا من غدر يهود بني قريظة ووخيم عواقبه عليهم في مظاهرتهم لأهل الشرك من الأحزاب الذين قاموا بتحزيبهم وتحريضهم على قتال رسول الله ﷺ وقتال أصحابه حتى يستأصلوهم، فقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾[الأحزاب: ٢٦] وكان حيي بن أخطب ـ لعنه الله ـ بعد أن فرغ من تحزيب الأحزاب ذهب إلى إخوة القردة والخنازير، وهم معاهدون للنبي ﷺ فلم يزل حيي برئيسهم كعب بن أسد يروضه على نقض العهد فنقضه وانضم إلى جموع الأحزاب.

والصياصي هي الحصون التي يتحصن بها الخائفون من هجمات أعدائهم، وزاد الله تعالى هؤلاء الغدرة بلاء فوق إنزالهم صاغرين أذلاء من حصونهم فألقى في قلوبهم الرعب، فلم تنفعهم صياصيهم وحصونهم، واستسلموا راغمين، وكانت أموالهم وأرضهم طعمة لرسول الله ﷺ لم يجر عليها تخميس؛ ولهذا لما قال عمر رضي الله عنه: ما تخمس كما خمست يوم بدر؟ قال رسول الله ﷺ: «**لا، إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس**»، فقال عمر رضي الله عنه: رضينا بما صنع الله ورسوله.

وقد راش رسول الله ﷺ من هذه الأموال التي جعلها الله له خالصة المهاجرين خاصة ليستقلوا بأنفسهم ومعاشهم عن إخوانهم الأنصار الذين شاركوهم أموالهم وديارهم، بل آثروهم على أنفسهم.

وأريد بقوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧] تبشير المؤمنين بأن الله تعالى سيتحفهم بنفحات عطاياه ويفتح عليهم بلادًا وممالك لم تطأ أرضها أقدامهم، روي عن عكرمة أن المراد بها كل أرض تُفتح على المسلمين إلى يوم القيامة، ثم ختم الله تعالى الآية بما يبعث في النفوس طمأنينة الإيمان بأن وعد الله حق وأنه آت لا ريب فيه، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾[الأحزاب]، ويدخل في ذلك فتح ما يُفتح

من البلاد والممالك إعزازًا لدينه وتعظيمًا لنبيه ﷺ ونشرًا لدعوته وتيسيرًا لتبليغ رسالته، وتحقيقًا لبشرى أمته بظهور دينها على الدين كله، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة].

وإنما أطلنا رشاء البحث في تفسير هذه الآيات لأنها جمعت امتنان الله على عباده المؤمنين بنعمة الصبر والنصر في قصة الأحزاب، إلى تعقيب ذلك بذكر أعداء دينه، وأعداء نبيه ﷺ وأعداء مجتمعه الذين تحزبوا وتجمعوا من فجاج الأرض لمهاجمة المجاهدين في ديارهم ليعوقوا سير رسالة الإسلام.

وجود المنافق الكفري في طوائف وأمم وشعوب موزعون في الأرض يريدون ليطفؤوا نور الله بنفاقهم: وهؤلاء الطوائف الذين كانوا في سابق التاريخ يقفون من الإسلام مواقف العداء قد تركوا ميراثهم في ذلك لربائبهم وتلاميذهم من الملاحدة والزنادقة والصليبية المتعصبة والشيوعية الفاجرة، واليهود الغادرين، والمنافقين الذين يَظهرون في إطار العلم الاستشراقي، ومن أخذ عنهم من شباب الإسلام الجغرافي.

وكل أولئك داخل فيمن ذكرته الآيات التي جاءت في صدر سورة الأحزاب لمناسبة الحديث عن غزوتها، التي كانت في الماضي آخر غزوات الهجوم الكفور على المجتمع المسلم، وقد شمر وارثو ضلالاتهم في أقطار الأرض ليقفوا من الإسلام اليوم مواقف غابريهم من أهل الكفر والضلال في شتى صوره وأشكاله، والكفر كله ملة واحدة، وشره النفاق.

وقد فسرنا هذه الآيات تفسيرًا قبسناه من سياق القرآن في موضوع الآيات الخاصة بالأحزاب ومن ذكر معهم، ولم نحاول التكثير والتطويل بذكر روايات أصحاب السير والمغازي والمحدثين؛ لأننا قصدنا أن نبرز ما في الآيات من معالم منهج الرسالة الخالدة، والمتأمل في هذه الآيات على ضوء تفسيرنا لها يرى أنها أتت على أحداث غزوة الأحزاب التي كانت ثانية الغزوات الإسلامية في شدة الأزمات ونزول البلاء وزلزلة الأقدام بعد غزوة (أحد).

وقد أجملت الآيات القرآنية التي فسرناها خلاصة لباب الحياة من جميع جوانبها سلبًا وإيجابًا في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]، فذكرت أهل الإيمان الذين يرون في حياة رسول الله ﷺ غذاء روحيًّا وماديًّا، يجريان بقدر متفاوت في تكييف الحياة فيأخذون من هذا ويقبسون من ذاك ما يقيم بنيان مجتمعهم على أسس متوازية بين حاجة الروح وحاجة الجسد.

وذكرت الذين لا يرجون الله واليوم والآخر من فجرة الكفار والمشركين وخبثاء أهل الكتاب الذين نبذوا ما أنزل الله من الحق والهدى وراء أظهرهم واتبعوا الباطل ونصروه، وقالوا للذين كفروا هؤلاء في

شركهم ووثنيتهم أهدى سبيلًا من الذين آمنوا بالله ونصروا دينه، وحملوا لواء رسالته؛ ليضحكوا منهم ويحملوهم على أن يقفوا معهم في حروبهم الظالمة المظلمة لمهاجمة المجتمع المسلم؛ ليصدوا مسيرة الرسالة حتى لا تصل إلى القلوب والعقول، وهي تحمل لواء الهداية والحق والإخاء المتواسي لتعيش الحياة كلها في أمن وسلام وتراحم.

ذكرت الآيات الكريمة هذا كله صراحة وتضمينًا ليكون المجتمع المسلم على ذِكر منه حتى لا يُخدع عن منهجه لتستقيم له الحياة، وليعلم أن حياة الدعاة إلى الله لا تعرف الترف والتنعم، وإنما هي حياة كفاح ونضال وصبر على شدائد المحن وكوارث البلاء، فلا تهزهم أعاصير الأحداث، ولا تخيفهم قوى الأرض وما في أيديها من أسلحة الدمار والفناء.

لأن المؤمن في هذه الحياة متحفز للقاء الله تعالى، وليعلم ولاة أمور المسلمين أنهم أحق الناس بالتأسي برسول الله ﷺ، وقد حذر الله تعالى الحائدين عن التأسي به ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[النور]». [**محمد رسول الله ﷺ لعرجون** ٤/ ١٥٧-١٦٨، ١٧٠].

ويقول أ/ سيد قطب: «يتناول الشوط الثاني ـ من سورة الأحزاب ـ بيان نعمة الله على المؤمنين، إذ رد عنهم كيد الأحزاب والمهاجمين، ثم يأخذ في تصوير وقعتي الأحزاب وبني قريظة تصويرًا حيًّا، في مشاهد متعاقبة، ترسم المشاعر الباطنة، والحركات الظاهرة، والحوار بين الجماعات والأفراد، وفي خلال رسم المعركة وتطوراتها تجيء التوجيهات في موضعها المناسب، وتجيء التعقيبات على الأحداث مقررة للمنهج القرآني في إنشاء القيم الثابتة التي يقررها للحياة، من خلال ما وقع فعلًا، وما جاش في الأخلاد والضمائر.

وطريقة القرآن الدائمة في مثل هذه الوقائع التي يتخذ منها وسيلة لبناء النفوس، وتقرير القيم، ووضع الموازين وإنشاء التصورات التي يريد لها أن تسود.. طريقة القرآن في مثل هذه الوقائع أن يرسم الحركة التي وقعت، ويرسم معها المشاعر الظاهرة والباطنة، ويسلط عليها الأضواء التي تكشف زواياها وخباياها، ثم يقول للمؤمنين حُكمه على ما وقع، ونقده لما فيه من خطأ وانحراف، وثناءه على ما فيه من صواب واستقامة، وتوجيهه لتدارك الخطأ والانحراف، وتنمية الصواب والاستقامة، وربط هذا كله بقدر الله وإرادته وعلمه ونهجه المستقيم، وبفطرة النفس، ونواميس الوجود.

وهكذا نجد وصف المعركة يبدأ بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾، ويتوسطها قوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾، وبقوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ

وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾، ويختمها بقوله: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

وهذا إلى جانب عرض تصورات المؤمنين الصادقين للموقف، وتصورات المنافقين والذين في قلوبهم مرض عرضًا يكشف عن القيم الصحيحة والزائفة من خلال تلك التصورات: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ ثم تجيء العاقبة بالقول الفصل والخبر اليقين: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

يبدأ السياق القرآني الحديث عن حادث الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم أن رد عنهم الجيش الذي همَّ أن يستأصلهم، لولا عون الله وتدبيره اللطيف، ومن ثم يُجمل في الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث، وبدءه ونهايته، قبل تفصيله وعرض مواقفه؛ لتبرز نعمة الله التي يذكرهم بها، ويطلب إليهم أن يتذكروها؛ وليظهر أن الله الذي يأمر المؤمنين باتباع وحيه، والتوكل عليه وحده، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه، من عدوان الكافرين والمنافقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾.

وهكذا يرسم في هذه البداءة المجملة بدء المعركة وختامها، والعناصر الحاسمة فيها.. مجيء جنود الأعداء، وإرسال ريح الله وجنوده التي لم يرها المؤمنون، ونصر الله المرتبط بعلم الله بهم، وبصره بعملهم.

ثم يأخذ بعد هذا الإجمال في التفصيل والتصوير: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

إنها صورة الهول الذي روَّع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب، من أعلاها ومن أسفلها، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج، ومن ثم كان الابتلاء كاملًا والامتحان دقيقًا، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسمًا لا تردد فيه.

وننظر اليوم فنرى الموقف بكل سماته، وكل انفعالاته، وكل خلجاته، وكل حركاته، ماثلًا أمامنا كأننا نراه من خلال هذا النص القصير.

ننظر فنرى الموقف من خارجه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، ثم ننظر فنرى أثـر الموقـف في النفـوس: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ وهـو تعبـير مصـوِّر لحالـة الخـوف والكربـة والضيق، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ ولا يفصِّل هذه الظنون، ويدعها مجملة ترسم حالة الاضـطراب في المشـاعر والخوالج، وذهابها كل مذهب، واختلاف التصورات في شتى القلوب.

ثم تزيد سمات الموقف بروزًا، وتزيد خصائص الهول فيه وضـوحًا: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾، والهول الذي يزلزل المؤمنين لابد أن يكون هولًا مروعًا رعيبًا.

قال مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه: كَانَ لَيْلُنَا بِالخَنْدَقِ نَهَارًا حَتَّى فَرَّجَهُ اللهُ.

وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يومًا، ويغدو خالد بـن الوليـد يومًا، ويغدو عمرو بن العاص يومًا، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يومًا، ويغدو عكرمـة بـن أبي جهـل يومًـا، ويغدو ضرار بن الخطاب يومًا، حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفًا شديدًا.

ويصور حال المسلمين ما رواه المقريزي في إمتاع الأسماع، قال: ثم وافى المشركون سحرًا، وعبأ رسـول الله ﷺ أصحابه فقاتلوا يومهم إلى هوي من الليل، ومـا يقـدر رسـول الله ﷺ ولا أحـد مـن المسـلمين أن يزولوا من موضعهم، وما قدر رسول الله ﷺ على صلاة ظهـر ولا عصرـ ولا مغـرب ولا عشـاء، فجعـل أصحابه يقولون: يا رسول الله ما صلينا! فيقول: ولا أنا والله ما صليت! حتى كشف الله المشركين، ورجـع كل من الفريقين إلى منزله، وقام أسيد بن حضير رضي الله عنه في مائتين على شفير الخندق، فكرَّت خيل للمشـــركين يطلبون غِرة ـ وعليها خالد بن الوليد ـ فناوشهم ساعة، فزرق وحشـيٌّ الطفيـلَ بـن الـنعمان بـن خنسـاء الأنصاري السلمي بمزراق، فقتله كما قتل حمزة رضي الله عنه بأحد.

وقال رسول الله ﷺ يومئذ: «**شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الوُسْطَى صَلَاةِ العَصْـرِ مَـلأَ اللهُ قُبُـورَهُمْ وَبُيُـوتَهُمْ أَوْ أَجْوَافَهُمْ نَارًا**». [**مسند أحمد ٢/ ٣٠٤ عن علي رضي الله عنه رقم ١٠٣٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صـحيح عـلى شرط مسـلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير شتير بن شكل فمن رجال مسلم**].

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلًا فالتقتا ـ ولا يشعر بعضـهم بـبعض، ولا يظنـون إلا أنهـم العـدو ـ فكانت بينهم جراحة وقَتْل، ثم نادوا بشعار الإسلام! (حم. لا ينصرون) فكف بعضهم عن بعض، فقـال رسول الله ﷺ: «**جِرَاحُكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ**»..

ولقد كان أشد الكرب على المسلمين، وهم محصورون بالمشركين داخل الخنـدق، ذلـك الـذي كـان يجيئهم من انتقاض بني قريظة عليهم من خلفهـم، فلـم يكونـوا يـأمنون في أيـة لحظـة أن يـنقض علـيهم

المشركون من الخندق، وأن تميل عليهم يهود، وهم قلة بين هذه الجموع، التي جاءت بنية استئصالهم في معركة حاسمة أخيرة.

ذلك كله إلى ما كان من كيد المنافقين والمرجفين في المدينة وبين الصفوف: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد، وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون، فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم، فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمُّل، وروَّع نفوسهم ترويعًا لا يثبت له إيمانهم المهلهل! فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين!

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة، وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء، فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان!

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾.

فهم يحرِّضون أهل المدينة على ترك الصفوف، والعودة إلى بيوتهم، بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا، لا موضع لها ولا محل، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم، وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها، ثغرة الخوف على النساء والذراري، والخطر محدق والهول جامح، والظنون لا تثبت ولا تستقر!

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾

يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو، متروكة بلا حماية.

وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة، ويجردهم من العذر والحجة: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾

ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجبن والفرار: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

وقد رُوي أن بني حارثة بعثت بأوس بن قيظي إلى رسول الله ﷺ يقولون: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾، وليس دار من دور الأنصار مثل دورنا، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا، فأْذن لنا فلنرجع إلى دورنا، فنمنع ذرارينا ونساءنا، فأذن لهم ﷺ، فبلغ سعد بن معاذ ﵁ ذلك فقال: يا رسول الله لا تأذن لهم، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا صنعوا هكذا.. فردهم..

فهكذا كان أولئك الذين يجبههم القرآن بأنهم: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

نقض المنافقين العهد ونشاطهم عند الفتنة: ويقف السياق عند هذه اللقطة الفنية المصورة لموقف البلبلة والفزع والمراوغة، يقف ليرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض، صورة نفسية داخلية لوهن العقيدة، وخور القلب، والاستعداد للانسلاخ من الصف بمجرد مصادفة غير مبقين على شيء، ولا متجملين لشيء: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

ذلك كان شأنهم والأعداء بعدُ خارج المدينة، ولم تقتحم عليهم بعد، ومهما يكن الكرب والفزع، فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع، فأما لو وقع واقتحمت عليهم المدينة من أطرافها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ وطُلبت إليهم الردة عن دينهم ﴿لَآتَوْهَا﴾ سراعًا غير متلبثين، ولا مترددين ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ من الوقت، أو إلا قليلًا منهم يتلبثون شيئًا ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفارًا! فهي عقيدة واهنة لا تثبت، وهو جبن غامر لا يملكون معه مقاومة!

هكذا يكشفهم القرآن، ويقف نفوسهم عارية من كل ستار، ثم يصمهم بعد هذا بنقض العهد وخلف الوعد. ومع من؟ مع الله الذي عاهدوه من قبل على غير هذا، ثم لم يرعوا مع الله عهدًا: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾.

قال ابن هشام من رواية ابن إسحاق في السيرة: هم بنو حارثة، وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أُحُد مع بني سلمة حين همتا بالفشل يومها، ثم عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها أبدًا، فذكر لهم الذي أعطوا من أنفسهم.

فأما يوم أُحُد فقد تداركهم الله برحمته ورعايته، وثبتهم، وعصمهم من عواقب الفشل، وكان ذلك درسًا من دروس التربية في أوائل العهد بالجهاد، فأما اليوم، وبعد الزمن الطويل، والتجربة الكافية، فالقرآن يواجههم هذه المواجهة العنيفة.

الفرار لا يدفع أمر الله ولا يطيل العمر:

وعند هذا المقطع ـ وهم أمام العهد المنقوض ابتغاء النجاة من الخطر والأمان من الفزع ـ يقرر القرآن إحدى القيم الباقية التي يقررها في أوانها، ويصحح التصور الذي يدعوهم إلى نقض العهد والفرار: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر، يدفعها في الطريق المرسوم، وينتهي بها إلى النهاية المحتومة، والموت أو القتل قَدَرٌ لا مفر من لقائه، في موعده، لا يُستقدم لحظة ولا يُستأخر، ولن ينفع

الفرار في دفع القدر المحتوم عن فار، فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب، في موعده القريب، وكل موعد في الدنيا قريب، وكل متاع فيها قليل، ولا عاصم من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته، سواء أراد بهم سوءًا أم أراد بهم رحمة، ولا مولى لهم ولا نصير، من دون الله، يحميهم ويمنعهم من قدر الله.

فالاستسلام الاستسلام، والطاعة الطاعة، والوفاء الوفاء بالعهد مع الله، في السراء والضراء، ورجع الأمر إليه، والتوكل الكامل عليه، ثم يفعل الله ما يشاء.

صور منفرة للمنافقين وأفعال مرذولة لهم: ثم يستطرد إلى تقرير علم الله بالمعوِّقين، الذين يَقعدون عن الجهاد ويدعون غيرهم إلى القعود، ويقولون لهم: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ ويرسم لهم صورة نفسية مبدعة، وهي ـ على صدقها ـ تثير الضحك والسخرية من هذا النموذج المكرور في الناس، صورة للجبن والانزواء، والفزع والهلع، في ساعة الشدة، والانتفاش وسلاطة اللسان عند الرخاء، والشح على الخير والضن ببذل أي جهد فيه، والجزع والاضطراب عند توهم الخطر من بعيد.. والتعبير القرآني يرسم هذه الصورة في لمسات فنية مبدعة لا سبيل إلى استبدالها أو ترجمتها في غير سياقها المعجز: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

ويبدأ هذا النص بتقرير علم الله المؤكد بالمعوقين الذين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة، الذين يدعون إخوانهم إلى القعود ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ ولا يشهدون الجهاد إلا لمامًا، فهم مكشوفون لعلم الله، ومكرهم مكشوف.

ثم تأخذ الريشة المعجزة في رسم سمات هذا النموذج:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ﴾ ففي نفوسهم كزازة على المسلمين، كزازة بالجهد، وكزازة بالمال، وكزازة في العواطف والمشاعر على السواء.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ وهي صورة شاخصة، واضحة الملامح، متحركة الجوارح، وهي في الوقت ذاته مُضحكة، تثير السخرية من هذا الصنف الجبان، الذين تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار!

وأشد إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجيء الأمن:

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

فخرجوا من الجحور، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش، وانتفخت أوداجهم بالعظمة، ونفشوا بعد الانزواء، وادعوا في غير حياء، ما شاء لهم الادعاء، من البلاء في القتال والفضل في الأعمال، والشجاعة والاستبسال..

ثم هم: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ فلا يبذلون للخير شيئًا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم، مع كل ذلك الادعاء العريض وكل ذلك التبجح وطول اللسان!

وهذا النموذج من الناس لا ينقطع في جيل ولا في قبيل، فهو موجود دائمًا، وهو شجاع فصيح بارز حيثما كان هناك أمن ورخاء، وهو جبان صامت منزو حيثما كان هناك شدة وخوف، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير، لا ينالهم منهم إلا سلاطة اللسان!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

فهذه هي العلة الأولى، العلة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشة الإيمان، ولم تهتد بنوره، ولم تسلك منهجه ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ولم ينجحوا لأن عنصر النجاح الأصيل ليس هناك.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٩﴾ وليس هنالك عسير على الله، وكان أمر الله مفعولًا.

فأما يوم الأحزاب فيمضي النص في تصويرهم صورة مضحكة زرية:

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ فهم ما يزالون يرتعشون، ويتخاذلون، ويخذّلون! ويأبون أن يصدقوا أن الأحزاب قد ذهبت، وأنه قد ذهب الخوف، وجاء الأمان!

﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾.

يا للسخرية! ويا للتصوير الزري! ويا للصورة المضحكة! وإن يأت الأحزاب يود هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يومًا من الأيام، ويتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية، لا يشاركون أهل المدينة في حياة ولا في مصير، ولا يعلمون ـ حتى ـ ما يجري عند أهلها، إنما هم يجهلونه، ويسألون عنه سؤال الغريب عن الغريب !مبالغة في البعد والانفصال، والنجاة من الأهوال!

يتمنون هذه الأمنيات المضحكة، مع أنهم قاعدون، بعيدون عن المعركة، لا يتعرضون لها مباشرة، إنما هو الخوف من بعيد! والفزع والهلع من بعيد! ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ٢٠﴾.

وبهذا الخط ينتهي رسم الصورة، صورة ذلك النموذج الذي كان عائشًا في الجماعة الإسلامية الناشئة في المدينة، والذي ما يزال يتكرر في كل جيل وكل قبيل، بنفس الملامح، وذات السمات، ينتهي رسم الصورة وقد تركت في النفوس الاحتقار لهذا النموذج، والسخرية منه، والابتعاد عنه، وهوانه على الله وعلى الناس.

الاقتداء الحسن بالرسول ﷺ: ذلك كان حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في الصفوف، وتلك كانت صورتهم الرديئة، ولكن الهول والكرب والشدة والضيق لم تحوِّل الناس جميعًا إلى هذه الصورة الرديئة، كانت هنالك صورة وضيئة في وسط الظلام، مطمئنة في وسط الزلزال، واثقة بالله، راضية بقضاء الله، مستيقنة من نصر الله، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب.

ويبدأ السياق هذه الصورة الوضيئة برسول الله ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ وقد كان رسول الله ﷺ على الرغم من الهول المرعب والضيق المجهد، مثابة الأمان للمسلمين، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان، وإن دراسة موقفه ﷺ في هذا الحادث الضخم لما يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم، وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وتطلب نفسه القدوة الطيبة، ويذكر الله ولا ينساه.

ويحسن أن نلم بلمحات من هذا الموقف على سبيل المثال، إذ كنا لا نملك هنا أن نتناوله بالتفصيل.

خرج رسول الله ﷺ يعمل في الخندق مع المسلمين يضرب بالفأس، يجرف التراب بالمسحاة، ويحمل التراب في المكتل، ويرفع صوته مع المرتجزين، وهم يرفعون أصواتهم بالرجز في أثناء العمل، فيشاركهم الترجيع! وقد كانوا يتغنون بأغان ساذجة من وحي الحوادث الجارية: كان هناك رجل من المسلمين اسمه جعيل، فكره رسول الله ﷺ اسمه، وسماه عمرًا، فراح العاملون في الخندق يغنون جماعة بهذا الرجز الساذج:

سَمَّاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرًا وَكَانَ لِلبَائِسِ يَوْمًا ظَهْرًا

فإذا مروا في ترجيعهم بكلمة «عمرو»، قال رسول الله ﷺ: «عمرا»، وإذا مروا بكلمة «ظهر» قال رسول الله ﷺ: «ظهرا».

ولنا أن نتصور هذا الجو الذي يعمل فيه المسلمون، والرسول ﷺ بينهم، يضرب بالفأس، ويجرف بالمسحاة، ويحمل في المكتل، ويرجِّع معهم هذا الغناء، ولنا أن نتصور أية طاقة يطلقها هذا الجو في أرواحهم، وأي ينبوع يتفجر في كيانهم بالرضا والحماسة والثقة والاعتزاز.

وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه فيمن ينقل التراب، فقال ﷺ: «**أما إنه نعم الغلام!**» وغلبته عيناه فنام في الخندق، وكان القر شديدًا، فأخذ عمارة بن حزم سلاحه، وهو لا يشعر، فلما قام فزع، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا رقاد! نمت حتى ذهب سلاحك!**»، ثم قال: «**من له علم بسلاح هذا الغلام**»؟ فقال عمارة: يا رسول الله، هو عندي، فقال: «**فرده عليه**»، ونهى أن يروَّع المسلم ويؤخذ متاعه لاعبًا!

وهو حادث كذلك يصور يقظة العين والقلب، لكل من في الصف، صغيرًا أو كبيرًا، كما يصور روح الدعابة الحلوة الحانية الكريمة: «**يَا أَبَا رُقَادٍ! نِمْتَ حَتَّى ذَهَبَ سِلاحُكَ!**» ويصور في النهاية ذلك الجو الذي كان المسلمون يعيشون فيه في كنف نبيهم، في أحرج الظروف.

ثم كانت روحه ﷺ تستشرف النصر من بعيد، وتراه رأي العين في ومضات الصخور على ضرب المعاول، فيحدِّث بها المسلمين، ويبث فيهم الثقة واليقين.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحُدِّثْتُ عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: ضَرَبْتُ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الخَنْدَقِ، فَغَلُظَتْ عَلَيَّ صَخْرَةٌ، وَرَسُولُ الله ﷺ قَرِيبٌ مِنِّي؛ فَلَمَّا رَآنِي أَضْرِبُ وَرَأَى شِدَّةَ المَكَانِ عَلَيَّ نَزَلَ فَأَخَذَ المِعْوَلَ مِنْ يَدِي، فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً لَمَعَتْ تَحْتَ المِعْوَلِ بَرْقَةٌ، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الثَّالِثَةَ فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بَرْقَةٌ أُخْرَى، قَالَ: قُلت: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله! مَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ لَمَعَ تَحْتَ المِعْوَلِ وَأَنْتَ تَضْرِبُ؟ قَالَ ﷺ: «**أَوَقَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**أَمَّا الأَوَّلُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا اليَمَنَ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالمَغْرِبَ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنَّ اللهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا المَشْرِقَ**».

وجاء في «إمتاع الأسماع للمقريزي» أن هذا الحادث وقع لعمر بن الخطاب بحضور سلمان رضي الله عنهما.

ولنا أن نتصور اليوم كيف يقع مثل هذا القول في القلوب، والخطر محدق بها محيط.

ولنا أن نضيف إلى تلك الصور الوضيئة صورة حذيفة ﷺ عائدًا من استطلاع خبر الأحزاب وقد أخذه القر الشديد ورسول الله ﷺ قائم يصلي في ثوب لإحدى أزواجه، فإذا هو في صلاته واتصاله بربه، لا يترك حذيفة ﷺ يرتعش حتى ينتهي من صلاته بل يأخذه - صلوات الله وسلامه عليه - بين رجليه، ويلقي عليه طرف الثوب ليدفئه في حنو، ويمضي في صلاته حتى ينتهي، فينبئه حذيفة ﷺ النبأ، ويلقي إليه بالبشرى التي عرفها قلبه ﷺ فبعث حذيفة ﷺ يبصر أخبارها!

أما أخبار شجاعته ﷺ في الهول، وثباته ويقينه، فهي بارزة في القصة كلها، ولا حاجة بنا إلى نقلها، فهي مستفيضة معروفة.

وصدق الله العظيم: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾﴾.

ثناء على الصحابة رضي الله عنهم لصدقهم الجهادي وهزيمة الأحزاب: ثم تأتي صورة الإيمان الواثق المطمئن، وصورة المؤمنين المشرقة الوضيئة، في مواجهة الهول، وفي لقاء الخطر، الخطر الذي يزلزل القلوب المؤمنة، فتتخذ من هذا الزلزال مادة للطمأنينة والثقة والاستبشار واليقين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾﴾.

لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون في هذا الحادث من الضخامة، وكان الكرب الذي واجهوه من الشدة، وكان الفزع الذي لقوه من العنف، بحيث زلزلهم زلزالًا شديدًا، كما قال عنهم أصدق القائلين: ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾﴾.

لقد كانوا ناسًا من البشر، وللبشر طاقة، لا يكلفهم الله ما فوقها، وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله في النهاية، وبشارة الرسول ﷺ لهم، تلك البشارة التي تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق، على الرغم من هذا كله، فإن الهول الذي كان حاضرًا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم.

ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبر حذيفة رضي الله عنه والرسول ﷺ يحس حالة أصحابه، ويرى نفوسهم من داخلها، فيقول: «**مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ القَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ، يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ الرَّجْعَةَ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ**».. ومع هذا الشرط بالرجعة، ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله ﷺ في الجنة، فإن أحدًا لا يلبي النداء، فإذا عَيَّن بالاسم حذيفة رضي الله عنه قال: فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ القِيَامِ حِينَ دَعَانِي!

ألا إن هذا لا يقع إلا في أقصى درجات الزلزلة.

ولكن كان إلى جانب الزلزلة، وزوغان الأبصار، وكرب الأنفاس، كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله، والإدراك الذي لا يضل عن سنن الله، والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن، وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها، ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببًا في انتظار النصر، ذلك أنهم صَدَّقوا قول الله سبحانه من قبل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

ومن ثم قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ هذا الهول، وهذا الكرب، وهذه الزلزلة، وهذا الضيق، وَعَدَنا عليه النصر، فلا بد أن يجيء النصر: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ صدق الله ورسوله في الأمارة وصدق الله ورسوله في دلالتها، ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

لقد كانوا ناسًا من البشر، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر، وضعف البشر، وليس مطلوبًا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري، ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس، ويفقدوا خصائصه ومميزاته؛ فلهذا خلقهم الله، خلقهم ليبقوا بشرًا، ولا يتحولوا جنسًا آخر، لا ملائكة ولا شياطين، ولا بهيمة ولا حجرًا، كانوا ناسًا من البشر يفزعون، ويضيقون بالشدة، ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة، ولكنهم كانوا ـ مع هذا ـ مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله، وتمنعهم من السقوط، وتجدد فيهم الأمل، وتحرسهم من القنوط، وكانوا بهذا وذاك نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية لم يُعرف له نظير.

وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور، علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرًا، لم يتخلوا عن طبيعة البشر، بما فيها من قوة وضعف، وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبني الإنسان، في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء.

وحين نرانا ضعفنا مرة، أو زُلزلنا مرة، أو فزعنا مرة، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق، فعلينا ألا نيأس من أنفسنا، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا، أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدًا! ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا لأنه من فطرتنا البشرية! ونُصِرُّ عليه لأنه يقع لمن هم خير منا! هنالك العروة الوثقى، عروة السماء، وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة، ونتخذ من الزلزال بشيرًا بالنصر، فنثبت ونستقر، ونقوى ونطمئن، ونسير في الطريق.

وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام، النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده، وثباته على عهده مع الله، فمنهم من لقيه، ومنهم من ينتظر أن يلقاه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

هذا في مقابل ذلك النموذج الكريه، نموذج الذين عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، ثم ولم يوفوا بعهد الله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾.

روى الإمام أحمد بسنده... قَالَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: عَمِّي - قَالَ هَاشِمٌ: أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ - سُمِّيتُ بِهِ، لَمْ يَشْهَدْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ: فَشَقَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ: فِي أَوَّلِ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ الله ﷺ غِبْتُ عَنْهُ! لَئِنْ أَرَانِي اللهُ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، قَالَ: فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، قَالَ: فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه، قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ؟ قَالَ: وَاهًا لِرِيحِ الجَنَّةِ أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ، قَالَ: فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ، فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، قَالَ: فَقَالَتْ أُخْتُهُ عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، قَالَ: فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ. [ورواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة].

وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان، في مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق؛ لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن.

ويعقب عليها ببيان حكمة الابتلاء، وعاقبة النقض والوفاء، وتفويض الأمر في هذا كله لمشيئة الله: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد؛ ليرد الأمر كله إلى الله، ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع، فليس شيء منها عبثًا ولا مصادفة، إنما تقع وفق حكمة مقدرة، وتدبير قاصد، وتنتهي إلى ما شاء الله من العواقب، وفيها تتجلى رحمة الله بعباده، ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

ويختم الحديث عن الحدث الضخم بعاقبته التي تصدق ظن المؤمنين بربهم، وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراتهم، وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

وقد بدأت المعركة، وسارت في طريقها، وانتهت إلى نهايتها، وزمامها في يد الله، يصرِّفها كيف يشاء، وأثبت النص القرآني هذه الحقيقة بطريقة تعبيره، فأسند إلى الله تعالى إسنادًا مباشرًا كل ما تم من الأحداث والعواقب، تقريرًا لهذه الحقيقة، وتثبيتًا لها في القلوب، وإيضاحًا للتصور الإسلامي الصحيح».

[في ظلال القرآن لقطب ٢٨١٩، ٢٨٣٦-٢٨٤٥ باختصار].

ويقول أ/ شقرة: «غزوة الأحزاب من أعظم الغزوات خطورة، وأشدها تأثيرًا في حياة الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فقد رقيت هذه الغزوة فوق الغزوات، وأدلت عليها جميعًا بما كان لها من حظوة السماء، وظلت تخطُر على التاريخ تُباهي الغزوات والمعارك التي وقعت فوق أطباق الثرى، وكان الفوز فيها للحق وأهله.

إن غزوة الأحزاب نمط فريد في تاريخ الحروب، فإن الثمرة الطيبة التي جناها المسلمون فيها تدلَّت بأغصانها من السماء، وأدنَتها من أيديهم يدُ الله، فرأوا فيها معجزة النصر، وانتصار المعجزة.

تحدث القرآن عن غزوة الأحزاب في سبع عشرة آية من سورة الأحزاب، من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٩-٢٥].

والقرآن حين يتحدث عن الغزوات لا يتحدث عنها بطريقة واحدة، فهو تارة يغفل ذكر الأسباب والمقدمات، وتارة يهتم بالنتائج والنهايات وتارة يفصِّل في مجريات أحداث الغزوة، وتارةً يقرن بين المقدِّمات والنهايات والأحداث في نسق واحد مؤتلف، وكل واحدة من هذه تحكمها طبيعة الغزوة، ومكانتها، وأثرُها في الواقع الإسلامي العام.

وغزوة الأحزاب جمعت بين أولئك جميعًا، فقد تحدثت الآيات القرآنية عن مقدماتها، ونهايتها، ومجرياتها في إيجاز بليغ، لا يمكن للعقل وحده أن يعمل في تصويرها من غير أن يكون للإيمان الدور الأظهر والأمثل في تكوين الصورة واكتمالها عنها.

وتبدأ هذه الآيات بتذكير المؤمنين بالنعمة العظيمة التي أصابوها في هذه الغزوة، وهذه البداية تعجيلُ النهاية التي انتهت الغزوة إليها، وهي نهاية سارة جميلة ولا شك، فإن كلمة: ﴿نِعۡمَةَ﴾ لا تكون إلا في التبشير بشيء، والتعجيل بذكر النهاية وضع للنهاية موضع البداية، ووضع للبداية موضع النهاية، لو ذُكرت النهاية بغير هذه الكلمة لم يكن للتعبير القرآني ذلك الوقع المؤثر على النفوس.

إذًا فالتعبير القرآني هو الذي يجعل للشيء الذي يعرضه التأثير القائم على النفوس، ولا يكون للمعنى ذلك التأثير القائم إلا إذا كان منسجمًا مع الصورة اللفظية التي تحتويه.

ومما زاد في قوة تأثير هذه النهاية وجمالها أن جاءت مقترنة ببداية الغزوة، ولم تأت مقترنة بنهايتها، ولم يفصل بين البداية ومجريات الغزوة إلا بحرف الفاء فقط، وأما مجرياتها فقد جاءت في ست كلمات فقط، وهي: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب:٩]، فأي إعجاز هذا الذي رسم غزوة بكاملها بمقدماتها، ومجرياتها، ونهايتها، في ثلاث عشرة كلمة وهي: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾، ثم ترك للعقل وحده أن يتملى تفاصيلها الدقيقة؟!، إنه إعجاز القرآن، كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وكان لليهود دور خطير في هذه الغزوة، لم يأت ذكره في الحديث عنها، إذ اكتُفي عنه بذكره في الحديث عن غزوة بني قريظة التي جاء ذكرها عقيب غزوة الأحزاب مباشرة، فأغنى عن ذكره في غزوة الأحزاب.

وحين يتحدث القرآن عن غزوة من الغزوات، فإنه يُعنى عناية كبيرة بإظهار الأحوال والانفعالات النفسية التي تنشأ عن هذه الغزوة أو تلك؛ لأن سَوْقَ الأحداث وتفصيلها ليس هو الذي يُعنى به القرآنُ، فهو يريد أن يبرز العبرة، والعبرةُ لا تكون مؤثرة قوية إلا إذا سيقت من خلال تلك الأحوال والانفعالات النفسية.

وإذا أردنا أن ندخلَ في تفاصيل غزوة الأحزاب، فإننا نكاد نشاهدها ونلمسها من قريب، حتى لكأنها قد وقعت حين نقرؤها حروفًا وكلمات.

فقوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ لا نعرف منه كيف جاءت، حتى إذا قرأنا قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ [الأحزاب: ١٠]، عرفنا أن هذه الجنود أحكمت الحصار على المدينة إحكامًا شديدًا، وهذا ما وقع فعلًا فقد تواردت على المدينة أحزابُ المشركين من منافذها التي تنتهي إلى داخلها، وإن كان يمكنُ أن يلقوا شدة في ذلك.

ويؤكد هذا ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾، وليس أدل على التعبير عن الفزع الذي ملأ نفوس المسلمين يوم الأحزاب من مثل قوله:

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، فلم تعد الأبصار قادرة على تركيز نظرها في شيء، ولا على استيعاب شيء مما يقع نظرُها عليه، فإن الذهن لا يلم بشيء أبدًا إلا إذا كان في حالة استقرار وسكينة، وأين الاستقرار والسكينة في أذهان المسلمين يوم الأحزاب؟ وقد قفزت الأرواح إلى الحناجر فهي تكاد تخرج من أقطار النفوس، ولا تجد أيسر من الحناجر فتقفز إليها، ولكن هذا لا يقدِّرها على النجاة من الموت الذي فزعت منه وخافت، فتستقر في الحناجر مضطربة فزعة، فلا هي قادرة على الخروج منها ـ إذ ليس ذلك إليها وإنما لخالقها وحده ـ ولا هي قادرة على العودة إلى حيث كانت، فقد أوثقها الفزع والخوف بالحناجر، فهي إذًا بين الحياة وبين الموت، بين الرجاء في النجاة، وبين الخوف من الهلاك.

إنه الهول الذي أحاط بالمسلمين من كل جانب، ولفهم لفًّا عنيفًا أضحوا معه عاجزين عن التدبر والتفكير، بل أخرج الكثيرين منهم عن الظن السَّوي في الله ﷻ، فربما ظنوا في أنفسهم أن الله قد تخلى عن المسلمين فليس بناصرهم، وربما ظنوا أن المشركين سوف يستأصلون شأفة المسلمين، والرسول ﷺ أولهم، وربما ظنوا أن الإسلام ليس الدين الحق الذي يستأهل أهله النصر، فهم مقهورون بعجزهم، وكل هذه الظنون لا تعدو دائرة المنافقين أو نفرًا وَهَنوا لما أصابهم فلحقوا بالمنافقين في بعض ظنونهم، وأمسكوا على هذه الظنون ألسنتهم، وحبسوها في صدورهم، حتى يكون أمر من الأمر بنصر المسلمين أو بهزيمتهم، وإن كانت الهزيمة أقرب وأدنى إلى ظنهم.

وتضطرب القلوب في الحناجر اضطرابًا شديدًا يؤثر على الأجسام تأثيرًا قويًّا حتى إنه ليظهر في حركات لا إرادية، في جيئة وذهاب، وفي صعود ونزول، وفي سَنة ويقظة، وفي جوع وشبع، وفي ري وظمأ، وهذا أشد ما لقي المسلمون من بلاء في هذه الغزوة، وذلك قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

وحين يبلغ الأمر بجند ـ وهم محاصرون ـ هذا المبلغ فإن ذلك مؤذن بنهاية مفجعة، لا يُنتظر لهم بعدها رجاء في نجاة منها، وهي اهتمامُ كل فرد منهم بشأن نفسه، لا يعنيه أحد ممن حوله أبدًا؛ لأنه وهو ينتظر هذه النهاية المفجعة لا يقوى على استجماع تفكيره المشتت في أرجاء نفسه الفزعة المضطربة، فهو بذلك لا يمكنه أن يحدد جبهة ينجو منها إذا وطئته أقدام الغزاة المحاصِرين، فكيف يمكنه أن يفكر في شأن غيره، وشأنه هو نفسه لا يمسك منه بشيء؟! وحين يصبح الجند على مثل هذه الحال، فإن ذلك واضع فيهم التفرق والتشتت لا محالة.

ولكن الله سبحانه الذي يعلم من نفوس هؤلاء المسلمين ما لا يعلمون هم منها ـ وهو الذي أنزل بهم هذه الشدة ابتلاء لهم واختبارًا ـ لم يكن ليدعهم لمثل هذه النهاية، أو لآثارها، فيدركهم بنصره، ويكلأهم

بعين رعايته، ويرسل على المشركين والأحزاب ريحًا وجنودًا لم يروها، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

ويكون للمنافقين دور يتفق مع طبيعتهم المنحرفة الخبيثة، فلا يجدون في أنفسهم خفة إلا لكلمة سوء، ولا توجهًا لقلوبهم إلا نحو الشر والإفساد، ويرون من واقع المسلمين الفزع المضطرب ما يمكِّن لما يريدون، أو هكذا كانوا يظنون، فيُلقون بِدِلاء ألسنتهم في آبار الفتنة، ويرفعون الأقنعة عن وجوههم الكالحة، وتصعد الكلمات النتنة من قلوبهم فلا تستقر حتى على ألسنتهم من استعجال لا تطيق معه صبرًا على الانتظار والإبطاء فقالت فئة منهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾، وقالت فئة أخرى: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣]، وتأتي فئة ثالثة لم تملك أن تواري كلمتها بلطف الاعتذار فتقول في تعليل استئذانها: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، فيعجِّل الله بافتضاحهم فيقول: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ والفرار هنا ليس في ظني من خوف، فالمنافقون ضامنون أن لا يوقع المشركون ولا اليهود بهم شرًّا، إن انتصروا ـ بل إنه زيادة في إضعاف صف المسلمين ـ وقد علموا ما حاق بهم، ونزل في قلوبهم من فزع واضطراب.

وإذا كان هذا هو الدور الذي لعبه المنافقون في غزوة الأحزاب فهو الدور الذي يُنتظر أن يلعبوه في كل زمان، فالأمة حينئذ مندوبة لكف يد المنافقين، وكشف وجوههم للناس جميعًا، وتعريتهم تحت الشمس حتى يراهم كل أحد فلا يخفون عليه، ثم لا يكون لهم قدرة على التحرك بين المؤمنين بفسادهم وشرهم.

والمنافقون لا يطول لبثهم أمام الاختبار، فهم سرعان ما يستجيبون لدعاة الشر والفتنة، ولا يتورعون من إعلان حقيقة ما تكنه صدورهم، ويبدون ما كانوا يخفون من قبل: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

وإذا انكشفت عورات المنافقين، وبدا ما كانوا يخفونه، فما ينبغي أن يُصدَّقوا في قول أو عهد؛ لأن معدن النفاق واحد في كل زمان ومكان، ومعدن الشيء لا يتغير، وإن تغيرت ألوانه وظواهره، هذه حقيقة ثابتة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾.

وصدقُ العهد أو تخلفه لا يظهر إلا تحت منظار التجربة، والبطء في ظهور حقيقة العهد أو السرعة فيه يكون تبعًا لجسامة التجربة أو صغرها، وقد كانت التجربة في غزوة الأحزاب جسيمة ضخمة؛ لذا ما لبث عهد المنافقين أن بدا تخلفه في لواذهم ببيوتهم، وفرارهم من أرض القتال، وتبريرهم ذلك بأن بيوتهم مكشوفة للأعداء فهم يريدون حمايتها والدفاع عنها، وربما داخلهم ريب أن المشركين إن دخلوا المدينة فلا يفرقون بين المؤمنين والمنافقين في القتل والإيذاء فليأخذوا الحيطة إذًا لأنفسهم، وليمتنعوا في بيوتهم، فإذا

دخل المشركون المدينة علموا أنهم لم يقاتلوهم، ولم يصدوهم عن دخولها، فنجوا من سيوفهم وأسلحتهم، ونالوا منهم خيرًا.

لكن مع كل ما مَنُّوا به أنفسهم من النجاة، وأخذِهم الحيطة لأنفسهم، فإن شيئًا مما فعلوا لن يرد عنهم الموت، ولن يدفع عنهم الهلاك؛ لأن الأسباب ليس لها حساب في تدبير الله وتقديره، فهي معطلة إذا أراد الله سبحانه شيئًا، قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

ولم يقف دور المنافقين في غزوة الأحزاب عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى التخذيل والتشكيك، فقالوا لإخوانهم الذين بينهم وبينهم مودة: هلم إلينا، وانعموا بالظلال والثمار، ولا تشقُّوا على أنفسكم بالخروج للقتال لئلا يصيبكم القتال والجراح، ثم لا تصيبوا حظًّا من النصر.

ثم إنهم مع قعودهم عن القتال، وتخذيلهم إخوانهم عن المشاركة في الجهاد، حين رأوهم قد عادوا بالعافية والنصر، لم يمنعهم الحياء أن ينسِبوا لأنفسهم شيئًا مما عاد به إخوانهم، فأطلقوا لألسنتهم العنان في ادِّعاء الشجاعة والنجدة، ورفعوا عقائرهم المنكرة بمطالبة المجاهدين مقاسمتهم ما غنموه.

وجرَّأهم على ما قالوا ورفعوا به أصواتهم ظنُّهم أن الأحزاب التي أحاطت بالمدينة لا زالت في مواقعها لم تبرحها، ولو أنهم أيقنوا أن هذه الأحزاب تستهدفهم بقتالها، لآثروا السلامة بالبقاء في البادية، بعيدًا عن مواطن الخوف والفزع، يلوذون بجبنهم وشحهم بها، يرقبون ما يجري على أرض المعركة، لا يرجون إلا هزيمتكم والظَّفر بكم، ليبدوا لكم الشماتة والفرح بما أصابكم، ولم يكن للمنافقين رجاء إلا هذا، لتعود لهم السيادة على أرض المدينة بعد أن يئسوا اليأس كله من عودتها إليهم، فجاءت غزوة الأحزاب لتحيي فيهم هذا الرجاء من جديد، ويحذر الله نبيه والمؤمنين أن يكون للمنافقين دور في القتال؛ لأنهم لو قاتلوا لن يصبروا في القتال إلا قليلًا، ثم ينهزموا ويفروا، وفي فرارهم وهزيمتهم إضعاف لمعنويات المجاهدين، وهذا شر ما يُصاب به المجاهدون في أثناء القتال، قال تعالى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

ومن خلال الفزع والخوف والشدة المطبقة على المؤمنين ببأسها، والتخذيل والتشكيك تبرز الصورة الرائعة المشرقة للقيادة المقتدرة بإذن ربها، صورة الرسول ﷺ وهو يحمل همَّ أمته في غزوة الأحزاب

وبعدها إلى قيام الساعة، ومصير الأرض التي لو قُدِّر للأحزاب أن تستولي عليها لضاقت عليهم الأرض كلها برحبتها، فلا يراه أصحابه إلا يقظًا متحركًا لا تأخذه عنهم غفلة، ولا تستميله من دونهم راحة، ولا يتخير لنفسه مستراحًا آمنًا ولا مستردًّا هنيئًا، فيستذكرون به وعدًا أُنزل عليهم من قبل، رأوه ماثلًا أمامهم في شخصه ﷺ، يقينًا يبعث بشذى الإيمان وروح الجنان، فيصوِّبون إليه عيونهم، فيزيدهم إيمانًا بالله ورسوله، وتسليمًا لكل ما قد يأتيهم به الوحي من أمر ونهي، ويظنون أن النصر منهم قريب، وإن تمالأت عليهم تلك الأحزاب الكاثرة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

وإذا كان المنافقون قد أخلوا مكانهم، وأعملوا ألسنتهم في التخذيل والتشكيك، وهم يرجون أن يصيبوا من صف المسلمين صدعًا يدخلون منه إليهم فيفرِّقوهم، فإن رجالًا حول محمد ﷺ آلَوْا على أنفسهم أن يظلوا ماضين على أمر الله، لا يضرهم تخذيل مخذِّل، مقيمين على العهد، لا يضعفهم تشكيك مشكِّك، حتى يلقوا ربهم سبحانه في موت أو شهادة، وهم المعنيون في قوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

وبهؤلاء الرجال كان النصر الذي أنزله الله ﷻ على المؤمنين في غزوة الأحزاب؛ لأن النصر لا يكون منحة للعاجزين القاعدين الخوَّارين، بل للأقوياء القائمين المثابرين.

وإذا كان قد أصاب المسلمين في غزوة الأحزاب الفزع والخوف، فليس يعني هذا أن إيمانهم قد وهن في صدورهم، فإن في جبلة الإنسان الضعف الذي لا يقوى على مغالبته بنفسه أحيانًا، إلا إذا كان له روافد من قوة تأتيه من خارج نفسه، والذي أحاط بالمسلمين يوم الأحزاب من الأعداد البشرية الكاثرة، ووفرة السلاح والشوكة، والإحساس النفسي أن الجزيرة قد ألقت إليهم بثقلها، وانبجست من أرجائها عيون الشر، تدفع به نحو المدينة لتغمرها وتغرقها، كل ذلك كشف عن الضعف البشري.

لكن هذا الضعف لم يلبث أن انخنس في أعماقهم خوفًا وفرقًا من وَقْدَة عزيمة الإيمان التي توهجت أن تحرقه ثم لا يكون له وجود فيهم، واستطاعت فئة ممن صدقت في إيمانها ودينها أن تعيد إلى المؤمنين الثقة الإيمانية، فكانت هذه الفئة هي الوقدة المتوهجة التي أقصت عن نفوس المؤمنين الضعف بصدقها، فنالت أجرها من الله سبحانه جزاء وفاقًا: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

أما المنافقون فإن لهم شأنًا آخر، فمن مات على نفاقه فمآله عذاب النار، ومن تاب ونزع من نفاقه فباب الله مفتوح يدخل منه إليه، ليغرف من معين رحمته: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب]. [السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٣٨٦-٣٩٨].

المبحث الثامن
موازنة بين غزوة الأحزاب وحرب التتار
عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

توطئة:

يقول د/ الفنيسان: «لماذا وازن ابن تيمية بين هذه الغزوة وبين أحداث عصره؟

لأن فقه شيخ الإسلام يأبى عليه أن ينظر إلى الغزوة في القرآن نظرة تاريخية مجردة عن العبرة والاتعاظ.

إنها ذُكرت لتكون نبراسًا للزمن كله والأحداث المتجددة، والله يخاطب المؤمنين أن يذكروا نعمة الله عليهم، وأن يعرفوا أسباب نصره، وأن يتبعوا سبيل المؤمنين الصادقين الذي يثبتون في الشدائد، ويثقون في وعد الله في جميع الأحوال، ولا تزيدهم المحن والأراجيف من حولهم إلا إيمانًا وتسليمًا.

إن شيخ الإسلام عالم مجاهد ينشد الإسلام واقعًا في حياة المسلمين، ويقرأ القرآن لأحداث عصره وزمنه، يصلح به ما فسد، ويقوِّم ما اعوج، وما كان القرآن لجيل دون جيل، وما كانت آياته إلا بشيرًا ونذيرًا لقوم يعلمون، فالقرآن شامل لأحداث الزمان والمكان، فما ما من قضية تَجِدُّ أو حادثة تحدث إلا وفي القرآن لها علاج وحُكْم.

وإذا ما تليت آياته على حادثةٍ نزلت اليوم، فكأنما الآية إنما نزلت فيها بعينها، وهذا سر من أسرار إعجاز القرآن الكريم». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٥٣].

وإن الناظر اليوم يجد أن الأحزاب قد تحزبت من جديد على الإسلام والمسلمين، والتقى الفرقاء من اليهود والنصارى والملحدين على حرب الإسلام والمسلمين، يبغون استئصاله كما أراد الأحزاب بالأمس، ومن هنا تأتي أهمية هذه الرسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لتعيد الحادثة القرآنية كأنها تتنزل بين يدي أحداث العصر الجارية، ولتبين للمسلمين أن هذه الأحزاب المعاصرة ليست أول الأحزاب ولا آخرها، وإنما هو الصراع الدائم بين الحق والباطل، والنتيجة النهائية فيما سبق معروفة، وهي نصر الله لجنده المؤمنين الموحدين، وخذلانه للأحزاب المتألبين، وهي نفس النتيجة التي سنراها قريبًا للأحزاب المعاصرة، فإن هذا من سنن الله تعالى في خلقه، ولكن حين تصبح الأمة المسلمة أهلًا لهذا النصر وهذا التمكين: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات].

وندعو الله أن نرى هذا النصر قريبًا إن شاء الله.

كَتَبَ شَيْخُ الإِسْلَامِ أَحْمَد بْنُ تيمية ـ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ ـ لَـمَّا قَدِمَ العَـدُوُّ مِـنَ التَّتَـارِ سَـنَةَ تِسْعٍ وَتِسْـعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ (٦٩٩هـ) إِلَى حَلَبَ، وَانْصَرَفَ عَسْكَرُ مِصْرَ، وَبَقِيَ عَسْكَرُ الشَّامِ. (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِلَى مَنْ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ: أَحْسَنَ اللهُ إِلَـيْهِمْ فِي الـدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ، وَأَسْـبَغَ عَلَـيْهِمْ نِعَمَـهُ بَاطِنَةً وَظَاهِرَةً، وَنَصَرَهُمْ نَصْرًا عَزِيزًا، وَفَتَحَ عَلَيْهِمْ فَتْحًا كَبِيرًا، وَجَعَـلَ لَـهُمْ مِـنْ لَدُنْـه سُـلطَانًا نَصِـيرًا، وَجَعَلَـهُمْ مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِهِ المَتِينِ مُهْتَدِينَ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ.

سَلامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ.

فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَهُوَ لِلحَمْدِ أَهْلٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَنَسْـأَلُهُ أَنْ يُصَـلِّيَ عَلَى صَفْوَتِهِ مِنْ خَلِيقَتِهِ وَخِيْرَتِهِ مِنْ بَرِيَّتِهِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ اللهَ ﷻ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَـلَى الـدِّينِ كُلِّـهِ وَكَفَـى بِـالله شَـهِيدًا وَجَعَلَهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ وَجَعَلَ كِتَابَهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مُهَيْمِنًا عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْـهِ مِنَ الكُتُبِ وَمُصَدِّقًا لَهَا، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ: يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ؛ فَهُـمْ يُوفُونَ سَبْعِينَ فِرْقَةً هُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ، وَقَدْ أَكْمَلَ لَـهُمْ دِينَهُمْ وَأَتَـمَّ عَلَـيْهِمْ نِعْمَتَـهُ وَرَضِيَ لَـهُمُ الإِسْلَامَ دِينًا.

فَلَيْسَ دِينٌ أَفْضَلَ مِنْ دِينِهِمْ الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُهُمْ، لَا كِتَابٌ أَفْضَلَ مِنْ كِتَابِهِمْ، لَا أُمَّةٌ خَيْرًا مِنْ أُمَّـتِهِمْ، بَل كِتَابُنَا وَنَبِيُّنَا وَدِينُنَا وَأُمَّتُنَا أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ كِتَابٍ وَدِينٍ وَنَبِيٍّ وَأُمَّةٍ.

فَاشْكُرُوا اللهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِـهِ عَلَـيْكُمْ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]، وَاحْفَظُوا هَذِهِ الَّتِي بِهَا تَنَالُونَ نَعِيمَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا مِمَّنْ بَدَّلَ نِعْمَةَ الله كُفْـرًا فَتُعْرِضُـونَ عَنْ حِفْظِ هَذِهِ النِّعْمَةِ وَرِعَايَتِهَا فَيَحِيقُ بِكُمْ مَا حَاقَ بِمَنْ انْقَلَبَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَاشْـتَغَلَ بِـمَا لَا يَنْفَعُـهُ مِـنْ أَمْـرِ الدُّنْيَا عَمَّا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ مِنْ مَصْلَحَةِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ فَخَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ.

فَقَدْ سَمِعْتُمْ مَا نَعَتَ اللهُ بِهِ الشَّاكِرِينَ وَالْمُنْقَلِبِينَ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الآيَةَ وَمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا فِي غَزْوَةِ أُحُـدٍ لَـمَّا انْكَسَرَ الْمُسْـلِمُونَ مَـعَ النَّبِـيِّ ﷺ، وَقُتِلَ جَمَاعَةٌ مِنْ خِيَارِ الأُمَّةِ، وَثَبَتَ رَسُولُ الله ﷺ مَعَ طَائِفَةٍ يَسِيرَةٍ حَتَّى خَلَصَ إِلَيْهِ العَدُوُّ فَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَـهُ

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٨ / ٢٢٦-٢٣٣ ط دار الوفاء، وص ٤١٠ وما بعدها من الطبعات الأخرى.

وَشَجُّوا وَجْهَهُ وَهَشَّمُوا البَيْضَةَ عَلَى رَأْسِهِ، وَقُتِلَ وَجُرِحَ دُونَهُ طَائِفَةٌ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِهِ لِذَبِّهِمْ عَنْهُ، وَنَعَقَ الشَّيْطَانُ فِيهِمْ: أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَزَلزَلَ ذَلِكَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ حَتَّى انْهَزَمَ طَائِفَةٌ وَثَبَّتَ اللهُ آخَرِينَ حَتَّى ثَبَتُوا.

وَكَذَلِكَ لَـمَّا قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ فَتَزَلزَلَتْ القُلُوبُ وَاضْطَرَبَ حَبلُ الدِّينِ وَغَشِيَتْ الذِّلَّةُ مَنْ شَاءَ اللهُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِمُ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه فَقَالَ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَرَأَ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾، فَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَسْمَعُوهَا حَتَّى تَلَاهَا الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، فَلَا يُوجَدُ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ يَتْلُوهَا.

وَارْتَدَّ بِسَبَبِ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ وَلَـمَّا حَصَلَ لَـهُمْ مِنَ الضَّعْفِ جَمَاعَاتٌ مِنَ النَّاسِ:

قَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنِ الدِّينِ بِالكُلِّيَّةِ.

وَقَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنْ بَعْضِهِ فَقَالُوا: نُصَلِّي وَلَا نُزَكِّي.

وَقَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنْ إِخْلَاصِ الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَآمَنُوا مَعَ مُحَمَّدٍ بِقَوْمٍ مِنَ النَّبِيِّينَ الكَذَّابِينَ كمسيلمة الكَذَّابِ وطليحة الأسدي وَغَيْرِهِمَا فَقَامَ إِلَى جِهَادِهِمُ الشَّاكِرُونَ الَّذِينَ ثَبَتُوا عَلَى الدِّينِ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالطُّلَقَاءِ وَالأَعْرَابِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، الَّذِينَ قَالَ اللهُ ﷻ فِيهِمْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ جَاهَدُوا المُنْقَلِبِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ الَّذِينَ لَمْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا.

وَمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي القُرْآنِ مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَقَدْ عَمِلَ بِهَا قَوْمٌ وَسَيَعْمَلُ بِهَا آخَرُونَ.

فَمَنْ كَانَ مِنَ الشَّاكِرِينَ الثَّابِتِينَ عَلَى الدِّينِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ ﷻ وَرَسُولُهُ؛ فَإِنَّهُ يُجَاهِدُ المُنْقَلِبِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، الَّذِينَ يَخْرُجُونَ عَنِ الدِّينِ وَيَأْخُذُونَ بَعْضَهُ وَيَدَعُونَ بَعْضَهُ كَحَالِ هَؤُلَاءِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ المُفْسِدِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى أَهْلِ الإِسْلَامِ وَتَكَلَّمَ بَعْضُهُمْ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَتَسَمَّى بِالإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ التِزَامِ شَرِيعَتِهِ؛ فَإِنَّ عَسْكَرَهُمْ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَرْبَعِ طَوَائِفَ:

كَافِرَةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى كُفْرِهَا: مِنَ الكرج وَالأَرْمَنِ وَالمَغُولِ.

وَطَائِفَةٌ كَانَتْ مُسْلِمَةً فَارْتَدَتْ عَنِ الإِسْلَامِ وَانْقَلَبَتْ عَلَى عَقِبَيْهَا: مِنَ العَرَبِ وَالفُرْسِ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ.

وَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ جُرْمًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ وَالمُؤْمِنِينَ مِنَ الكَافِرِ الأَصْلِيِّ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ: فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَجِبُ قَتْلُهُمْ حَتْمًا مَا لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مَا خَرَجُوا عَنْهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْقَدَ لَـهُمْ ذِمَّةٌ وَلَا هُدْنَةٌ وَلَا أَمَانٌ وَلَا يُطْلَقُ

أَسِيرُهُمْ وَلَا يُفَادَى بِمَالٍ وَلَا رِجَالٍ وَلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ وَلَا تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ وَلَا يُسْتَرَقُّونَ؛ مَعَ بَقَائِهِمْ عَلَى الرِّدَّةِ بِالِاتِّفَاقِ. وَيُقْتَلُ مَنْ قَاتَلَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يُقَاتِلْ؛ كَالشَّيْخِ الهَرِمِ وَالأَعْمَى وَالزَّمِنِ بِاتِّفَاقِ العُلَمَاءِ. وَكَذَا نِسَاؤُهُمْ عِنْدَ الجُمْهُورِ.

وَالكَافِرُ الأَصْلِيُّ يَجُوزُ أَنْ يُعْقَدَ لَهُ أَمَانٌ وَهُدْنَةٌ وَيَجُوزُ المَنُّ عَلَيْهِ وَالمُفَادَاةُ بِهِ إِذَا كَانَ أَسِيرًا عِنْدَ الجُمْهُورِ، وَيَجُوزُ إِذَا كَانَ كِتَابِيًّا أَنْ يُعْقَدَ لَهُ ذِمَّةٌ وَيُؤْكَلُ طَعَامُهُمْ وَتُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ وَلَا تُقْتَلُ نِسَاؤُهُمْ إِلَّا أَنْ يُقَاتِلْنَ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ بِاتِّفَاقِ العُلَمَاءِ، وَكَذَلِكَ لَا يُقْتَلُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ القِتَالِ عِنْدَ جُمْهُورِ العُلَمَاءِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ.

فَالكَافِرُ المُرْتَدُّ أَسْوَأُ حَالًا فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا مِنَ الكَافِرِ المُسْتَمِرِّ عَلَى كُفْرِهِ.

وَهَؤُلَاءِ القَوْمُ فِيهِمْ مِنَ المُرْتَدَّةِ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللهُ، فَهَذَانِ صِنْفَانِ.

وَفِيهِمْ أَيْضًا مَنْ كَانَ كَافِرًا فَانْتَسَبَ إِلَى الإِسْلَامِ وَلَمْ يَلْتَزِمْ شَرَائِعَهُ؛ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَحَجِّ البَيْتِ وَالكَفِّ عَنْ دِمَاءِ المُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ وَالتِزَامِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَضَرْبِ الجِزْيَةِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَهَؤُلَاءِ يَجِبُ قِتَالُهُمْ بِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ كَمَا قَاتَلَ الصِّدِّيقُ ﷺ مَانِعِي الزَّكَاةِ؛ بَلْ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْهُمْ مِنْ وُجُوهٍ، وَكَمَا قَاتَلَ الصَّحَابَةُ أَيْضًا مَعَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ ﷺ الخَوَارِجَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ ﷺ فِي وَصْفِهِمْ: «**تُحَقِّرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

وَقَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ مَاذَا لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ لَنَكَلُوا عَنِ العَمَلِ**».

وَقَالَ: «**هُمْ شَرُّ الخَلْقِ وَالخَلِيقَةِ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ**».

فَهَؤُلَاءِ مَعَ كَثْرَةِ صِيَامِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَقِرَاءَتِهِمْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقِتَالِهِمْ وَقَاتَلَهُمْ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ ﷺ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ مَعَهُ، وَلَمْ يَخْتَلِفْ أَحَدٌ فِي قِتَالِهِمْ كَمَا اخْتَلَفُوا فِي قِتَالِ أَهْلِ البَصْرَةِ وَالشَّامِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ أُولَئِكَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ فِي الِاعْتِقَادِ؛ فَإِنَّ مَعَهُمْ مَنْ يُوَافِقُ رَأْيُهُ فِي المُسْلِمِينَ رَأْيَ الخَوَارِجِ. فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ.

وَفِيهِمْ صِنْفٌ رَابِعٌ شَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَهُمْ قَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ وَبَقُوا مُسْتَمْسِكِينَ بِالِانْتِسَابِ إِلَيْهِ، فَهَؤُلَاءِ الكُفَّارُ المُرْتَدُّونَ وَالدَّاخِلُونَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ التِزَامٍ لِشَرَائِعِهِ وَالمُرْتَدُّونَ عَنْ شَرَائِعِهِ لَا عَنْ سِمَتِهِ: كُلُّهُمْ يَجِبُ قِتَالُهُمْ بِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ حَتَّى يَلْتَزِمُوا شَرَائِعَ الإِسْلَامِ وَحَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ وَحَتَّى تَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ ـ الَّتِي هِيَ كِتَابُهُ وَمَا فِيهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَخَبَرِهِ ـ هِيَ العُلْيَا.

هَذَا إِذَا كَانُوا قَاطِنِينَ فِي أَرْضِهِمْ فَكَيْفَ إِذَا اسْتَوْلَوْا عَلَى أَرَاضِي الإِسْلَامِ: مِنَ العِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَالجَزِيرَةِ وَالرُّومِ، فَكَيْفَ إِذَا قَصَدُوكُمْ وَصَالُوا عَلَيْكُمْ بَغْيًا وَعُدْوَانًا: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة].

وَاعْلَمُوا - أَصْلَحَكُمُ اللهُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ**»، وَثَبَتَ أَنَّهُمْ بِالشَّامِ.

فَهَذِهِ الفِتْنَةُ قَدْ تُفَرِّقُ النَّاسُ فِيهَا ثَلَاثَ فِرَقٍ:

الطَّائِفَةُ المَنْصُورَةُ: وَهُمُ المُجَاهِدُونَ لِهَؤُلَاءِ القَوْمِ المُفْسِدِينَ.

وَالطَّائِفَةُ المُخَالِفَةُ: وَهُمْ هَؤُلَاءِ القَوْمُ وَمَنْ تَحَيَّزَ إِلَيْهِمْ مِنْ خِبَالَةِ المُنْتَسِبِينَ إِلَى الإِسْلَامِ.

وَالطَّائِفَةُ المُخَذِّلَةُ: وَهُمُ القَاعِدُونَ عَنْ جِهَادِهِمْ؛ وَإِنْ كَانُوا صَحِيحِي الإِسْلَامِ.

فَلْيَنْظُرْ الرَّجُلُ أَيَكُونُ مِنَ الطَّائِفَةِ المَنْصُورَةِ، أَمْ مِنَ الخَاذِلَةِ، أَمْ مِنْ المُخَالِفَةِ؟ فَمَا بَقِيَ قِسْمٌ رَابِعٌ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ الجِهَادَ فِيهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَفِي تَرْكِهِ خَسَارَةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ ﴾ [التوبة: ٥٣].

يَعْنِي: إِمَّا النَّصْرُ وَالظَّفَرُ وَإِمَّا الشَّهَادَةُ وَالجَنَّةُ فَمَنْ عَاشَ مِنَ المُجَاهِدِينَ كَانَ كَرِيمًا لَهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الآخِرَةِ. وَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ أَوْ قُتِلَ فَإِلَى الجَنَّةِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يُعْطَى الشَّهِيدُ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ بِأَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُكْسَى حُلَّةً مِنَ الإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُوقَى فِتْنَةَ القَبْرِ، وَيُؤَمَّنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ**» رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

وَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَمِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ إِلَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَعَدَّهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ**».

فَهَذَا ارْتِفَاعُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فِي الجَنَّةِ لِأَهْلِ الجِهَادِ.

وَقَالَ ﷺ: «**مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ مَثَلُ الصَّائِمِ القَائِمِ القَانِتِ الَّذِي لَا يَفْتُرُ مِنْ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ**».

وَقَالَ رَجُلٌ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: لَا تَسْتَطِيعُهُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي بِهِ؟ قَالَ: هَلْ **تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ المُجَاهِدُ أَنْ تَصُومَ لَا تُفْطِرُ وَتَقُومَ لَا تَفْتُرُ؟** قَالَ: لَا. قَالَ: **فَذَلِكَ الَّذِي يَعْدِلُ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ**.

وَهَذِهِ الأَحَادِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا.

وَكَذَلِكَ اتَّفَقَ العُلَمَاءُ - فِيمَا أَعْلَمُ - عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي التَّطَوُّعَاتِ أَفْضَلُ مِنَ الجِهَادِ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الحَجِّ وَأَفْضَلُ مِنَ الصَّوْمِ التَّطَوُّعِ وَأَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ التَّطَوُّعِ.

وَالمُرَابَطَةُ فِي سَبِيلِ الله أَفْضَلُ مِنَ المُجَاوَرَةِ بِمَكَّةَ وَالمَدِينَةِ وَبَيْتِ المَقْدِسِ حَتَّى قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: لَأَنْ أُرَابِطَ لَيْلَةً فِي سَبِيلِ الله أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُوَافِقَ لَيْلَةَ القَدْرِ عِنْدَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ.

فَقَدْ اخْتَارَ الرِّبَاطَ لَيْلَةً عَلَى العِبَادَةِ فِي أَفْضَلِ اللَّيَالِي عِنْدَ أَفْضَلِ البِقَاعِ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يُقِيمُونَ بِالمَدِينَةِ دُونَ مَكَّةَ؛ لِمَعَانٍ مِنْهَا أَنَّهُمْ كَانُوا مُرَابِطِينَ بِالمَدِينَةِ، فَإِنَّ الرِّبَاطَ هُوَ المَقَامُ بِمَكَانٍ يُخِيفُهُ العَدُوُّ وَيُخِيفُ العَدُوَّ، فَمَنْ أَقَامَ فِيهِ بِنِيَّةِ دَفْعِ العَدُوِّ فَهُوَ مُرَابِطٌ وَالأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ المَنَازِلِ**». رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ وَصَحَّحُوهُ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «عَنْ سَلْمَانَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطًا أُجْرِيَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَمِنَ الفَتَّانَ**»، يَعْنِي مُنْكَرًا وَنَكِيرًا. فَهَذَا فِي الرِّبَاطِ فَكَيْفَ الجِهَادُ.

وَقَالَ ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ الله وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي وَجْهِ عَبْدٍ أَبَدًا**».

وَقَالَ ﷺ: «**مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ الله حَرَّمَهُمَا اللهُ عَلَى النَّارِ**».

فَهَذَا فِي الغُبَارِ الَّذِي يُصِيبُ الوَجْهَ وَالرِّجْلَ فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَشَقُّ مِنْهُ؛ كَالثَّلْجِ وَالبَرْدِ وَالوَحْلِ؛ وَلِهَذَا عَابَ اللهُ ﷻ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَتَعَلَّلُونَ بِالعَوَائِقِ كَالحَرِّ وَالبَرْدِ، فَقَالَ تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة].

وَهَكَذَا الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا تَنْفِرُوا فِي البَرْدِ، فَيُقَالُ: نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ بَرْدًا.

كَمَا أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا فَأْذَنْ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشُدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الحَرِّ وَالبَرْدِ فَهُوَ مِنْ زَمْهَرِيرِ جَهَنَّمَ، فَالمُؤْمِنُ يَدْفَعُ بِصَبْرِهِ عَلَى الحَرِّ وَالبَرْدِ فِي سَبِيلِ الله حَرَّ جَهَنَّمَ وَبَرْدَهَا، وَالمُنَافِقُ يَفِرُّ مِنْ حَرِّ الدُّنْيَا وَبَرْدِهَا حَتَّى يَقَعَ فِي حَرِّ جَهَنَّمَ وَزَمْهَرِيرِهَا**».

وَاعْلَمُوا - أَصْلَحَكُمُ اللهُ - أَنَّ النُّصْرَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، وَأَنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

وَهَؤُلَاءِ القَوْمُ مَقْهُورُونَ مَقْمُوعُونَ، وَاللهُ سبحانه وتعالى نَاصِرُنَا عَلَيْهِمْ وَمُنْتَقِمٌ لَنَا مِنْهُمْ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله العَلِيِّ العَظِيمِ.

فَأَبْشِرُوا بِنَصْرِ اللهِ تَعَالَى وَبِحُسْنِ عَاقِبَتِهِ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]. وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ تَيَقَّنَّاهُ وَتَحَقَّقْنَاهُ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف].

وَاعْلَمُوا - أَصْلَحَكُمُ اللهُ - أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَى مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا أَنْ أَحْيَاهُ إِلَى هَذَا الوَقْتِ الَّذِي يُجَدِّدُ اللهُ فِيهِ الدِّينَ وَيُحْيِي فِيهِ شِعَارَ المُسْلِمِينَ وَأَحْوَالَ المُؤْمِنِينَ وَالمُجَاهِدِينَ حَتَّى يَكُونَ شَبِيهًا بِالسَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ.

فَمَنْ قَامَ فِي هَذَا الوَقْتِ بِذَلِكَ كَانَ مِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، الَّذِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ.

فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ المِحْنَةِ الَّتِي حَقِيقَتُهَا مِنْحَةٌ كَرِيمَةٌ مِنَ اللهِ، وَهَذِهِ الفِتْنَةُ الَّتِي فِي بَاطِنِهَا نِعْمَةٌ جَسِيمَةٌ حَتَّى وَاللهِ لَوْ كَانَ السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ - كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَغَيْرِهِمْ ﷺ - حَاضِرِينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ لَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِهِمْ جِهَادُ هَؤُلَاءِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ.

وَلَا يَفُوتُ مِثْلُ هَذِهِ الغُزَاةِ إِلَّا مَنْ خَسِرَتْ تِجَارَتُهُ وَسَفَّهَ نَفْسَهُ وَحُرِمَ حَظًّا عَظِيمًا مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ عَذَّرَ اللهُ تَعَالَى كَالمَرِيضِ وَالفَقِيرِ وَالأَعْمَى وَغَيْرِهِمْ، وَإِلَّا فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَهُوَ عَاجِزٌ بِبَدَنِهِ فَلْيَغْزُ بِمَالِهِ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا**»، وَمَنْ كَانَ قَادِرًا بِبَدَنِهِ وَهُوَ فَقِيرٌ فَلْيَأْخُذْ مِنْ أَمْوَالِ المُسْلِمِينَ مَا يَتَجَهَّزُ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ المَأْخُوذُ زَكَاةً أَوْ صِلَةً أَوْ مِنْ بَيْتِ المَالِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ حَتَّى لَوْ كَانَ الرَّجُلُ قَدْ حَصَلَ بِيَدِهِ مَالٌ حَرَامٌ وَقَدْ تَعَذَّرَ رَدُّهُ إِلَى أَصْحَابِهِ لِجَهْلِهِ بِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَوْ كَانَ بِيَدِهِ وَدَائِعُ أَوْ رُهُونٌ أَوْ عَوَارٍ قَدْ تَعَذَّرَ مَعْرِفَةُ أَصْحَابِهَا فَلْيُنْفِقْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْرِفُهَا.

وَمَنْ كَانَ كَثِيرَ الذُّنُوبِ فَأَعْظَمُ دَوَائِهِ الجِهَادُ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

وَمَنْ أَرَادَ التَّخَلُّصَ مِنَ الحَرَامِ وَالتَّوْبَةَ وَلَا يُمْكِنُ رَدُّهُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَلْيُنْفِقْهُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَنْ أَصْحَابِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ طَرِيقٌ حَسَنَةٌ إِلَى خَلَاصِهِ مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنْ أَجْرِ الجِهَادِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ فِي دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَحَمِيَّتِهَا فَعَلَيْهِ بِالجِهَادِ؛ فَإِنَّ الَّذِينَ يَتَعَصَّبُونَ لِلقَبَائِلِ وَغَيْرِ القَبَائِلِ ـ مِثْلَ قَيْسٍ وَيُمَنٍّ وَهِلَالٍ وَأَسَدٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ـ كُلُّ هَؤُلَاءِ إِذَا قُتِلُوا فَإِنَّ القَاتِلَ وَالمَقْتُولَ فِي النَّارِ كَذَلِكَ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: **إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ**». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

وَقَالَ ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ: يَغْضَبُ لِعَصَبِيَّةٍ وَيَدْعُو لِعَصَبِيَّةٍ، فَهُوَ فِي النَّارِ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ ﷺ: «**مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ بِهَنِّ أَبِيهِ وَلَا تَكْنُوا**»، فَسَمِعَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رَجُلًا يَقُولُ: يَا لِفُلَانٍ، فَقَالَ: اعْضَضْ أَيْرَ أَبِيك، فَقَالَ: يَا أَبَا المُنْذِرِ؛ مَا كُنْتَ فَاحِشًا، فَقَالَ: بِهَذَا أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. رَوَاهُ أَحْمَد فِي مُسْنَدِهِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «**مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الجَاهِلِيَّةِ**» يَعْنِي: يَعْتَزِي بِعِزْوَاتِهِمْ وَهِيَ الِانْتِسَابُ إِلَيْهِمْ فِي الدَّعْوَةِ مِثْلَ قَوْلِهِ: يَا لِقَيْسٍ يَا ليمن وَيَا لِهِلَالٍ وَيَا لِأَسَدٍ، فَمَنْ تَعَصَّبَ لِأَهْلِ بَلْدَتِهِ أَوْ مَذْهَبِهِ أَوْ طَرِيقَتِهِ أَوْ قَرَابَتِهِ أَوْ لِأَصْدِقَائِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ كَانَتْ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ حَتَّى يَكُونَ المُؤْمِنُونَ كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِهِ وَكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَإِنَّ كِتَابَهُمْ وَاحِدٌ، وَدِينَهُمْ وَاحِدٌ، وَنَبِيَّهُمْ وَاحِدٌ، وَرَبَّهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الفُرْقَةِ وَالبِدْعَةِ.

فَاللهَ، اللهَ، عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ والائتلاف عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ؛ يَجْمَعِ اللهُ قُلُوبَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَحْصُل لَكُمْ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

أَعَانَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَصَرَفَ عَنَّا وَعَنْكُمْ سَبِيلَ مَعْصِيَتِهِ، وَآتَانَا وَإِيَّاكُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَوَقَانَا عَذَابَ النَّارِ، وَجَعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ.

وَالحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

وَقَالَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ (١):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِلَى مَنْ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ.

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ؛ فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَهُوَ لِلحَمْدِ أَهْلٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى صَفْوَتِهِ مِنْ خَلِيقَتِهِ وَخَيْرَتِهِ مِنْ بَرِيَّتِهِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَأَعَزَّ جُنْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[الأحزاب]، وَاللهُ تَعَالَى يُحَقِّقُ لَنَا التَّمَامَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

فَإِنَّ هَذِهِ الفِتْنَةَ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ مَعَ هَذَا العَدُوِّ الْمُفْسِدِ الخَارِجِ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ: قَدْ جَرَى فِيهَا شَبِيهٌ بِمَا جَرَى لِلْمُسْلِمِينَ مَعَ عَدُوِّهِمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي المَغَازِي الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ فِيهَا كُتُبَهُ وَابْتَلَى بِهَا نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ: مِمَّا هُوَ أُسْوَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ؛ فَإِنَّ نُصُوصَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اللَّذَيْنِ هُمَا دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ يَتَنَاوَلَانِ عُمُومَ الخَلْقِ بِالعُمُومِ اللَّفْظِيِّ وَالمَعْنَوِيِّ أَوْ بِالعُمُومِ المَعْنَوِيِّ.

وَعُهُودُ اللهِ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ تَنَالُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ كَمَا نَالَتْ أَوَّلَهَا، وَإِنَّمَا قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا قَصَصَ مَنْ قَبْلَنَا مِنَ الأُمَمِ لِتَكُونَ عِبْرَةً لَنَا، فَنُشَبِّهُ حَالَنَا بِحَالِهِمْ وَنَقِيسُ أَوَاخِرَ الأُمَمِ بِأَوَائِلِهَا، فَيَكُونُ لِلمُؤْمِنِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ شَبَهٌ بِمَا كَانَ لِلمُؤْمِنِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَيَكُونُ لِلكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ شَبَهٌ بِمَا كَانَ لِلكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى لَـمَّا قَصَّ قِصَّةَ يُوسُفَ عليه السلام مُفَصَّلَةً وَأَجْمَلَ قَصَصَ الأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا﴾ [يوسف: ١١١]، أَيْ هَذِهِ القَصَصُ المَذْكُورَةُ فِي الكِتَابِ لَيْسَتْ بِمَنْزِلَةِ مَا يُفْتَرَى مِنَ القَصَصِ المَكْذُوبَةِ كَنَحْوِ مَا يُذْكَرُ فِي الحُرُوبِ مِنَ السِّيَرِ المَكْذُوبَةِ.

وَقَالَ تَعَالَى لَـمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ فِرْعَوْنَ: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾[النازعات].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٨ / ٢٣٤-٢٥٦ ط دار الوفاء، وص ٤٢٤ وما بعدها من الطبعات الأخرى.

وَقَالَ فِي سِيرَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ مَعَ أَعْدَائِهِ بِبَدْرٍ وَغَيْرِهَا: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران].

وَقَالَ تَعَالَى فِي مُحَاصَرَتِهِ لِبَنِي النَّضِيرِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

فَأَمَرَنَا أَنْ نَعْتَبِرَ بِأَحْوَالِ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْنَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ وَمِمَّنْ قَبْلَهَا مِنَ الأُمَمِ.

وَذَكَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ: أَنَّ سُنَّتَهُ فِي ذَلِكَ سُنَّةٌ مُطَّرِدَةٌ وَعَادَتَهُ مُسْتَمِرَّةٌ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ دَأْبَ الكَافِرِينَ مِنَ الْمُسْتَأْخِرِينَ كَدَأْبِ الكَافِرِينَ مِنَ الْمُسْتَقْدِمِينَ.

فَيَنْبَغِي لِلعُقَلَاءِ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِسُنَّةِ اللهِ وَأَيَّامِهِ فِي عِبَادِهِ، وَدَأْبِ الأُمَمِ وَعَادَاتِهِمْ لَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الحَادِثَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي طَبَّقَ الخَافِقَيْنِ خَبَرُهَا، وَاسْتَطَارَ فِي جَمِيعِ دِيَارِ الإِسْلَامِ شَرَرُهَا، وَأَطْلَعَ فِيهَا النِّفَاقُ نَاصِيَةَ رَأْسِهِ، وَكَشَّرَ فِيهَا الكُفْرُ عَنْ أَنْيَابِهِ وَأَضْرَاسِهِ، وَكَادَ فِيهِ عَمُودُ الكِتَابِ أَنْ يَجْتَثَّ وَيَخْتَرِمَ، وَحَبْلُ الإِيمَانِ أَنْ يَنْقَطِعَ وَيَصْطَلِمَ، وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَحِلَّ بِهَا البَوَارُ، وَأَنْ يَزُولَ هَذَا الدِّينُ بِاسْتِيلَاءِ الفَجَرَةِ التَّتَارِ، وَظَنَّ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنَّ مَا وَعَدَهُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا، وَأَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ حِزْبُ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا ظَنَّ السَّوْءِ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا، وَنَزَلَتْ فِتْنَةٌ تَرَكَتِ الحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ، وَأَنْزَلَتِ الرَّجُلَ الصَّاحِيَ مَنْزِلَةَ السَّكْرَانِ، وَتَرَكَتِ الرَّجُلَ اللَّبِيبَ لِكَثْرَةِ الوَسْوَاسِ لَيْسَ بِالنَّائِمِ وَلَا اليَقِظَانِ، وَتَنَاكَرَتْ فِيهَا قُلُوبُ المَعَارِفِ وَالإِخْوَانِ حَتَّى بَقِيَ لِلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ شُغْلٌ عَنْ أَنْ يُغِيثَ اللَّهْفَانَ.

وَمَيَّزَ اللهُ فِيهَا أَهْلَ البَصَائِرِ وَالإِيقَانَ مِنَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَوْ نِفَاقٌ وَضَعْفُ إِيمَانٍ، وَرَفَعَ بِهَا أَقْوَامًا إِلَى الدَّرَجَاتِ العَالِيَةِ، كَمَا خَفَضَ بِهَا أَقْوَامًا إِلَى المَنَازِلِ الهَاوِيَةِ، وَكَفَّرَ بِهَا عَنْ آخَرِينَ أَعْمَالَهُمُ الخَاطِئَةَ، وَحَدَثَ مِنْ أَنْوَاعِ البَلْوَى مَا جَعَلَهَا قِيَامَةً مُخْتَصَرَةً مِنَ القِيَامَةِ الكُبْرَى.

فَإِنَّ النَّاسَ تَفَرَّقُوا فِيهَا مَا بَيْنَ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، كَمَا يَتَفَرَّقُونَ كَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَفَرَّ الرَّجُلُ فِيهَا مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ؛ إِذْ كَانَ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.

وَكَانَ مِنَ النَّاسِ مَنْ أَقْصَى هِمَّتِهِ النَّجَاةُ بِنَفْسِهِ لَا يَلْوِي عَلَى مَالِهِ وَلَا وَلَدِهِ وَلَا عُرْسِهِ، كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ فِيهِ قُوَّةٌ عَلَى تَخْلِيصِ الأَهْلِ وَالْمَالِ.

وَآخر فِيهِ زِيَادَةُ مَعُونَةٍ لِمَنْ هُوَ مِنْهُ بِبَالٍ.

وَآخَرُ مَنْزِلَتُهُ مَنْزِلَةُ الشَّفِيعِ الْمُطَاعِ.

وَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ فِي الْمَنْفَعَةِ وَالدِّفَاعِ، وَلَمْ تَنْفَعْ الْمَنْفَعَةُ الْخَالِصَةُ مِنَ الشَّكْوَى إِلَّا الإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَبُلِيَتْ فِيهَا السَّرَائِرُ، وَظَهَرَتْ الْخَبَايَا الَّتِي كَانَتْ تُكِنُّهَا الضَّمَائِرُ، وَتُبَيِّنُ أَنَّ الْبَهْرَجَ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ يَخُونُ صَاحِبَهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ فِي الْمَآلِ، وَذَمَّ سَادَتَهُ وَكُبَرَاءَهُ مَنْ أَطَاعَهُمْ فَأَضَلُّوهُ السَّبِيلَا، كَمَا حَمِدَ رَبَّهُ مَنْ صَدَقَ فِي إِيمَانِهِ فَاتَّخَذَ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، وَبَانَ صِدْقُ مَا جَاءَتْ بِهِ الآثَارُ النَّبَوِيَّةُ مِنَ الإِخْبَارِ بِمَا يَكُونُ، وَوَاطَأَتْهَا قُلُوبُ الَّذِينَ هُمْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مُحَدَّثُونَ كَمَا تَوَاطَأَتْ عَلَيْهِ الْمُبَشِّرَاتُ الَّتِي أُرِيهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَبَيَّنَ فِيهَا الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الظَّاهِرَةُ عَلَى الدِّينِ الَّذِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حَيْثُ تَحَزَّبَتْ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَحْزَابٍ:

حِزْبٌ مُجْتَهِدٌ فِي نَصْرِ الدِّينِ، وَآخَرُ خَاذِلٌ لَهُ، وَآخَرُ خَارِجٌ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ.

وَانْقَسَمَ النَّاسُ مَا بَيْنَ مَأْجُورٍ وَمَعْذُورٍ، وَآخَرُ قَدْ غَرَّهُ بِاللهِ الْغَرُورُ، وَكَانَ هَذَا الامْتِحَانُ تَمْيِيزًا مِنَ اللهِ وَتَقْسِيمًا: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾[الأحزاب].

وَوَجْهُ الاعْتِبَارِ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْعَظِيمَةِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَشَرَعَ لَهُ الْجِهَادَ إِبَاحَةً لَهُ أَوَّلًا ثُمَّ إِيجَابًا لَهُ ثَانِيًا لَـمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَصَارَ لَهُ فِيهَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَغَزَا بِنَفْسِهِ ﷺ مُدَّةَ مَقَامِهِ بِدَارِ الْهِجْرَةِ وَهُوَ نَحْوُ عَشْرِ سِنِينَ: بِضْعًا وَعِشْرِينَ غَزْوَةً، أَوَّلُهَا غَزْوَةُ بَدْرٍ [1] وَآخِرُهَا غَزْوَةُ تَبُوكَ، أَنْزَلَ اللهُ فِي أَوَّلِ مَغَازِيهِ «سُورَةَ الأَنْفَالِ» وَفِي آخِرِهَا «سُورَةَ بَرَاءَةَ».

وَجَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي الْمُصْحَفِ؛ لِتَشَابُهِ أَوَّلِ الأَمْرِ وَآخِرِهِ كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ ﵁ لَـمَّا سُئِلَ عَنِ الْقِرَانِ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ فَصْلٍ بِالْبَسْمَلَةِ.

وَكَانَ الْقِتَالُ مِنْهَا فِي تِسْعِ غَزَوَاتٍ. فَأَوَّلُ غَزَوَاتِ الْقِتَالِ: بَدْرٌ وَآخِرُهَا حُنَيْنٌ وَالطَّائِفُ. وَأَنْزَلَ اللهُ فِيهَا مَلَائِكَتَهُ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ وَلِهَذَا صَارَ النَّاسُ يَجْمَعُونَ بَيْنَهُمَا فِي الْقَوْلِ وَإِنْ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْغَزْوَتَيْنِ مَكَانًا

---

(١) بحسب أولية الغزوات الكبرى، وإلا فأول غزواته ﷺ هي غزوة الأبواء (ودان) ١٢ صفر ٢ هـ.

وَزَمَانًا؛ فَإِنَّ بَدْرًا كَانَتْ فِي رَمَضَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الهِجْرَةِ مَا بَيْنَ المَدِينَةِ وَمَكَّةَ شَامِيَّ مَكَّةَ، وَغَزْوَةُ حُنَيْنَ فِي آخِرِ شَوَّالَ مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ، وحُنَيْنُ وَادٍ قَرِيبٌ مِنَ الطَّائِفِ شَرْقِيَّ مَكَّةَ، ثُمَّ قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ غَنَائِمَهَا بِالجِعْرَانَةِ وَاعْتَمَرَ مِنَ الجِعْرَانَةِ، ثُمَّ حَاصَرَ الطَّائِفَ، فَلَمْ يُقَاتِلْهُ أَهْلُ الطَّائِفِ زَحْفًا وَصُفُوفًا وَإِنَّمَا قَاتَلُوهُ مِنْ وَرَاءِ جِدَارٍ، فَآخِرُ غَزْوَةٍ كَانَ فِيهَا القِتَالُ زَحْفًا وَاصْطِفَافًا: هِيَ غَزْوَةُ حُنَيْنَ.

وَكَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ أَوَّلَ غَزْوَةٍ ظَهَرَ فِيهَا المُسْلِمُونَ عَلَى صَنَادِيدِ الكُفَّارِ، وَقَتَلَ اللهُ أَشْرَافَهُمْ وَأَسَرَ رُؤُوسَهُمْ مَعَ قِلَّةِ المُسْلِمِينَ وَضَعْفِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ لَيْسَ مَعَهُمْ إِلَّا فَرَسَانِ وَكَانَ يَعْتَقِبُ الاِثْنَانِ وَالثَّلَاثَةُ عَلَى البَعِيرِ الوَاحِدِ، وَكَانَ عَدُوُّهُمْ بِقَدْرِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ فِي قُوَّةٍ وَعِدَّةٍ وَهَيْئَةٍ وَخُيَلَاءَ.

فَلَـمَّا كَانَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ غَزَا الكُفَّارُ المَدِينَةَ وَفِيهَا النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فِي نَحْوٍ مِنْ رُبُعِ الكُفَّارِ وَتَرَكُوا عِيَالَهُمْ بِالمَدِينَةِ، ثُمَّ يَنْقُلُوهُمْ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَكَانَتْ أَوَّلًا الكَرَّةُ لِلمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ صَارَتْ لِلكُفَّارِ، فَانْهَزَمَ عَامَّةُ عَسْكَرِ المُسْلِمِينَ إِلَّا نَفَرًا قَلِيلًا حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ وَمِنْهُمْ مَنْ جُرِحَ، وَحَرَصُوا عَلَى قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى كَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَشَجُّوا جَبِينَهُ وَهَشَّمُوا البَيْضَةَ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَنْزَلَ اللهُ فِيهَا شَطْرًا مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] وَقَالَ فِيهَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران].

وَقَالَ فِيهَا: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران].

وَقَالَ فِيهَا: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران].

وَكَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ نَعَقَ فِي النَّاسِ: أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَزَلْزَلَ لِذَلِكَ فَهَرَبَ، وَمِنْهُمْ مَنْ ثَبَتَ فَقَاتَلَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

وَكَانَ هَذَا مَثَلَ حَالِ المُسْلِمِينَ لَـمَّا انْكَسَرُوا فِي العَامِ المَاضِي، وَكَانَتْ هَزِيمَةُ المُسْلِمِينَ فِي العَامِ المَاضِي بِذُنُوبٍ ظَاهِرَةٍ وَخَطَايَا وَاضِحَةٍ: مِنْ فَسَادِ النِّيَّاتِ وَالفَخْرِ وَالخُيَلَاءِ وَالظُّلْمِ وَالفَوَاحِشِ وَالإِعْرَاضِ عَنْ

حُكْمِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَعَنِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى فَرَائِضِ اللهِ وَالبَغْيِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِأَرْضِ الجَزِيرَةِ وَالرُّومِ، وَكَانَ عَدُوُّهُمْ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ رَاضِيًا مِنْهُمْ بِالْمُوَادَعَةِ وَالْمُسَالَمَةِ شَارِعًا فِي الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ.

وَكَانَ مُبْتَدِئًا فِي الإِيمَانِ وَالأَمَانِ وَكَانُوا هُمْ قَدْ أَعْرَضُوا عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِ الإِيمَانِ، فَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ أَنْ ابْتَلَاهُمْ بِمَا ابْتَلَاهُمْ بِهِ لِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُنِيبُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَلِيَظْهَرَ مِنْ عَدُوِّهِمْ مَا ظَهَرَ مِنْهُ مِنْ البَغْيِ وَالمَكْرِ وَالنَّكْثِ وَالخُرُوجِ عَنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ، فَيَقُومُ بِهِمْ مَا يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ النَّصْرَ وَبِعَدُوِّهِمْ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الانْتِقَامَ، فَقَدْ كَانَ فِي نُفُوسِ كَثِيرٍ مِنْ مُقَاتِلَةِ الْمُسْلِمِينَ وَرَعِيَّتِهِمْ مِنَ الشَّرِّ الكَبِيرِ مَا لَوْ يَقْتَرِنُ بِهِ ظَفَرٌ بِعَدُوِّهِمْ ـ الَّذِي هُوَ عَلَى الحَالِ الْمَذْكُورَةِ ـ لَأَوْجَبَ لَهُمْ ذَلِكَ مِنْ فَسَادِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَا لَا يُوصَفُ، كَمَا أَنَّ نَصْرَ اللهِ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ كَانَ رَحْمَةً وَنِعْمَةً وَهَزِيمَتُهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ كَانَ نِعْمَةً وَرَحْمَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ اللهَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ**».

فَلَمَّا كَانَتْ حَادِثَةُ الْمُسْلِمِينَ عَامَ أَوَّلٍ شَبِيهَةً بِأُحُدٍ، وَكَانَ بَعْدَ أُحُدٍ بِأَكْثَرِ مِنْ سَنَةٍ ـ وَقِيلَ بِسَنَتَيْنِ ـ قَدْ أُبْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ عَامَ الخَنْدَقِ، كَذَلِكَ فِي هَذَا العَامِ أُبْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ بِعَدُوِّهِمْ كَنَحْوِ مَا أُبْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ الخَنْدَقِ وَهِيَ غَزْوَةُ الأَحْزَابِ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ فِيهَا «سُورَةَ الأَحْزَابِ»، وَهِيَ سُورَةٌ تَضَمَّنَتْ ذِكْرَ هَذِهِ الغُزَاةِ الَّتِي نَصَرَ اللهُ فِيهَا عَبْدَهُ ﷺ وَأَعَزَّ فِيهَا جُنْدَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ ـ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَيْهِ ـ وَحْدَهُ بِغَيْرِ قِتَالٍ؛ بَل بِثَبَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِإِزَاءِ عَدُوِّهِمْ، ذَكَرَ فِيهَا خَصَائِصَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَحُقُوقَهُ وَحُرْمَتَهُ وَحُرْمَةَ أَهْلِ بَيْتِهِ لَـمَّا كَانَ هُوَ القَلْبُ الَّذِي نَصَرَهُ اللهُ فِيهَا بِغَيْرِ قِتَالٍ، كَمَا كَانَ ذَلِكَ فِي غَزْوَتِنَا هَذِهِ سَوَاءً.

وَظَهَرَ فِيهَا سِرُّ تَأْيِيدِ الدِّينِ كَمَا ظَهَرَ فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ.

وَانْقَسَمَ النَّاسُ فِيهَا كَانْقِسَامِهِمْ عَامَ الخَنْدَقِ.

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى مُنْذُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَعَزَّهُ بِالهِجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ صَارَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ:

قِسْمًا مُؤْمِنِينَ: وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَقِسْمًا كُفَّارًا: وَهُمْ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الكُفْرَ بِهِ.

وَقِسْمًا مُنَافِقِينَ: وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا ظَاهِرًا لَا بَاطِنًا.

وَلِهَذَا افْتَتَحَ «سُورَةَ البَقَرَةِ» بِأَرْبَعِ آيَاتٍ فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَآيَتَيْنِ فِي صِفَةِ الكَافِرِينَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ آيَةً فِي صِفَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الإِيمَانِ وَالكُفْرِ وَالنِّفَاقِ لَهُ دَعَائِمُ وَشُعَبٌ.

كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ دَلَائِلُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَمَا فَسَّرَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فِي الحَدِيثِ المَأْثُورِ عَنْهُ فِي الإِيمَانِ وَدَعَائِمِهِ وَشُعَبِهِ.

فَمِنَ النِّفَاقِ مَا هُوَ أَكْبَرُ وَيَكُونُ صَاحِبُهُ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ؛ كَنِفَاقِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي وَغَيْرِهِ؛ بِأَنْ يُظْهِرَ تَكْذِيبَ الرَّسُولِ ﷺ أَوْ جُحُودَ بَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ أَوْ بُغْضَهُ أَوْ عَدَمَ اعْتِقَادِ وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ أَوْ المَسَرَّةَ بِانْخِفَاضِ دِينِهِ أَوْ المُسَاءَةَ بِظُهُورِ دِينِهِ.

وَنَحْوِ ذَلِكَ: مِمَّا لَا يَكُونُ صَاحِبُهُ إِلَّا عدوًّا لله وَرَسُولِهِ. وَهَذَا القَدْرُ كَانَ مَوْجُودًا فِي زَمَنِ رَسُولِ الله ﷺ وَمَا زَالَ بَعْدَهُ؛ بَل هُوَ بَعْدَهُ أَكْثَرُ مِنْهُ عَلَى عَهْدِهِ؛ لِكَوْنِ مُوجِبَاتِ الإِيمَانِ عَلَى عَهْدِهِ أَقْوَى، فَإِذَا كَانَتْ مَعَ قُوَّتِهَا وَكَانَ النِّفَاقُ مَعَهَا مَوْجُودًا فَوُجُودُهُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ أَوْلَى، وَكَمَا أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَعْلَمُ بَعْضَ المُنَافِقِينَ وَلَا يَعْلَمُ بَعْضَهُمْ كَمَا بَيَّنَهُ قَوْلُهُ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١] كَذَلِكَ خُلَفَاؤُهُ بَعْدَهُ وَوَرَثَتُهُ: قَدْ يَعْلَمُونَ بَعْضَ المُنَافِقِينَ وَلَا يَعْلَمُونَ بَعْضَهُمْ.

وَفِي المُنْتَسِبِينَ إِلَى الإِسْلَامِ مِنْ عَامَّةِ الطَّوَائِفِ مُنَافِقُونَ كَثِيرُونَ فِي الخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ، وَيُسَمَّوْنَ «الزَّنَادِقَةَ».

وَقَدْ اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي قَبُولِ تَوْبَتِهِمْ فِي الظَّاهِرِ لِكَوْنِ ذَلِكَ لَا يُعْلَمُ إِذْ هُمْ دَائِمًا يُظْهِرُونَ الإِسْلَامَ.

وَهَؤُلَاءِ يَكْثُرُونَ فِي المُتَفَلسِفَةِ: مِنَ المُنَجِّمِينَ وَنَحْوِهِمْ، ثُمَّ فِي الأَطِبَّاءِ، ثُمَّ فِي الكُتَّابِ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَيُوجَدُونَ فِي المُتَصَوِّفَةِ وَالمُتَفَقِّهَةِ وَفِي المُقَاتِلَةِ وَالأُمَرَاءِ وَفِي العَامَّةِ أَيْضًا، وَلَكِنْ يُوجَدُونَ كَثِيرًا فِي نِحَلِ أَهْلِ البِدَعِ؛ لَا سِيَّمَا الرَّافِضَةُ، فَفِيهِمْ مِنَ الزَّنَادِقَةِ وَالمُنَافِقِينَ مَا لَيْسَ فِي أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النِّحَلِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الخُرَّمِيَّةُ وَالبَاطِنِيَّةُ وَالقَرَامِطَةُ والإِسْماعيليَّةُ وَالنُّصيرِيَّةُ وَنَحْوُهِم مِنَ المُنَافِقِينَ الزَّنَادِقَةِ: مُنْتَسِبَةٍ إِلَى الرَّافِضَةِ.

وَهَؤُلَاءِ المُنَافِقُونَ فِي هَذِهِ الأَوْقَاتِ لِكَثِيرٍ مِنْهُمْ مَيْلٌ إِلَى دَوْلَةِ هَؤُلَاءِ التَّتَارِ؛ لِكَوْنِهِمْ لَا يُلْزِمُونَهُمْ شَرِيعَةَ الإِسْلَامِ؛ بَل يَتْرُكُونَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ، وَبَعْضُهُمْ إِنَّمَا يَنْفِرُونَ عَنِ التَّتَارِ لِفَسَادِ سِيرَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَاسْتِيلَائِهِمْ عَلَى الأَمْوَالِ وَاجْتِرَائِهِمْ عَلَى الدِّمَاءِ وَالسَّبْيِ؛ لَا لِأَجْلِ الدِّينِ. فَهَذَا ضَرْبُ النِّفَاقِ الأَكْبَرِ.

وَأَمَّا النِّفَاقُ الأَصْغَرُ: فَهُوَ النِّفَاقُ فِي الأَعْمَالِ وَنَحْوِهَا: مِثْلَ أَنْ يَكْذِبَ إِذَا حَدَّثَ وَيُخْلِفَ إِذَا وَعَدَ وَيَخُونَ إِذَا اؤْتُمِنَ أَوْ يَفْجُرَ إِذَا خَاصَمَ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ صَحِيحَةٍ: «**وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ**»، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**».

وَمِنْ هَذَا البَابِ: الإِعْرَاضُ عَنِ الجِهَادِ، فَإِنَّهُ مِنْ خِصَالِ المُنَافِقِينَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ «سُورَةَ بَرَاءَةَ» الَّتِي تُسَمَّى الفَاضِحَةَ؛ لِأَنَّهَا فَضَحَتِ المُنَافِقِينَ. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: هِيَ الفَاضِحَةُ مَا زَالَتْ تَنْزِلُ (وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ) حَتَّى ظَنُّوا أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا.

وَعَنْ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ رضي الله عنه قَالَ: هِيَ «سُورَةُ البُحُوثِ» لِأَنَّهَا بَحَثَتْ عَنْ سَرَائِرِ المُنَافِقِينَ.

وَعَنْ قتادة قَالَ: هِيَ المُثِيرَةُ؛ لِأَنَّهَا أَثَارَتْ مَخَازِي المُنَافِقِينَ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: هِيَ المُبَعْثِرَةُ. وَالبَعْثَرَةُ وَالإِثَارَةُ مُتَقَارِبَانِ.

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّهَا المُقَشْقِشَةُ؛ لِأَنَّهَا تُبْرِئُ مِنْ مَرَضِ النِّفَاقِ. يُقَالُ: تَقَشْقَشَ المَرِيضُ إِذَا بَرَأَ، قَالَ الأَصْمَعِيُّ: وَكَانَ يُقَالُ لِسُورَتَيْ الإِخْلَاصِ: المُقَشْقِشَتَانِ؛ لِأَنَّهُمَا يُبَرِّئَانِ مِنَ النِّفَاقِ.

وَهَذِهِ السُّورَةُ نَزَلَتْ فِي آخِرِ مَغَازِي النَّبِيِّ ﷺ غَزْوَةِ تَبُوكَ عَامَ تِسْعٍ مِنَ الهِجْرَةِ وَقَدْ عَزَّ الإِسْلَامُ وَظَهَرَ، فَكَشَفَ اللهُ فِيهَا أَحْوَالَ المُنَافِقِينَ وَوَصَفَهُمْ فِيهَا بِالجُبْنِ وَتَرْكِ الجِهَادِ، وَوَصَفَهُمْ بِالبُخْلِ عَنِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالشُّحِّ عَلَى المَالِ، وَهَذَانِ دَاءَانِ عَظِيمَانِ: الجُبْنُ وَالبُخْلُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**شَرُّ مَا فِي المَرْءِ: شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ**». حَدِيثٌ صَحِيحٌ؛ وَلِهَذَا قَدْ يَكُونَانِ مِنَ الكَبَائِرِ المُوجِبَةِ لِلنَّارِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال].

وَأَمَّا وَصْفُهُمْ بِالجُبْنِ وَالفَزَعِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾[التوبة].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ وَإِنْ حَلَفُوا إِنَّهُمْ مِنَ المُؤْمِنِينَ فَمَا هُمْ مِنْهُمْ؛ وَلَكِنْ يَفْزَعُونَ مِنَ العَدُوِّ، فـ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ يَلْجَؤُونَ إِلَيْهِ مِنَ المَعَاقِلِ وَالحُصُونِ الَّتِي يَفِرُّ إِلَيْهَا مَنْ يَتْرُكُ الجِهَادَ أَوْ ﴿مَغَـٰرَٰتٍ﴾ وَهِيَ جَمْعُ مَغَارَةٍ، وَمَغَارَاتٌ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الدَّاخِلَ يَغُورُ فِيهَا أَيْ يَسْتَتِرُ؛ كَمَا يَغُورُ المَاءُ ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَكَلَّفُ الدُّخُولَ إِلَيْهِ إِمَّا لِضِيقِ بَابِهِ أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ، أَيْ مَكَانًا يَدْخُلُونَ إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ الدُّخُولُ بِكُلْفَةٍ وَمَشَقَّةٍ، ﴿لَّوَلَّوْا۟﴾ عَنْ الجِهَادِ ﴿إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أَيْ يُسْرِعُونَ إِسْرَاعًا لَا يَرُدُّهُمْ شَيْءٌ كَالفَرَسِ الجَمُوحِ الَّذِي إِذَا حَمَلَ لَا يَرُدُّهُ اللِّجَامُ.

وَهَذَا وَصْفٌ مُنْطَبِقٌ عَلَى أَقْوَامٍ كَثِيرِينَ فِي حَادِثَتِنَا وَفِيمَا قَبْلَهَا مِنَ الحَوَادِثِ وَبَعْدَهَا.

وَكَذَلِكَ قَالَ فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٠﴾ [محمد] أَيْ فَبُعْدًا لهُمْ ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ۝٢١﴾ [محمد].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحُجُرات] فَحَصَرَ المُؤْمِنِينَ فِيمَنْ آمَنَ وَجَاهَدَ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤٤ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥﴾[التوبة].

فَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ بِأَنَّ المُؤْمِنَ لَا يَسْتَأْذِنُ الرَّسُولَ ﷺ فِي تَرْكِ الجِهَادِ؛ وَإِنَّمَا يَسْتَأْذِنُهُ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ فَكَيْفَ بِالتَّارِكِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، وَمَنْ تَدَبَّرَ القُرْآنَ وَجَدَ نَظَائِرَ هَذَا مُتَضَافِرَةً عَلَى هَذَا المَعْنَى.

وَقَالَ فِي وَصْفِهِمْ بِالشُّحِّ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ [التوبة].

فَهَذِهِ حَالُ مَنْ أَنْفَقَ كَارِهًا فَكَيْفَ بِمَنْ تَرَكَ النَّفَقَةَ رَأْسًا وَقَالَ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة].

وَقَالَ: ﴿۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٧٦﴾ [التوبة].

وَقَالَ فِي السُّورَةِ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ۝٣٥﴾ [التوبة].

فَانْتَظَمَتْ هَذِهِ الآيَةُ حَالَ مَنْ أَخَذَ المَالَ بِغَيْرِ حَقِّهِ أَوْ مَنَعَهُ مِنْ مُسْتَحَقِّهِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ الأَحْبَارَ هُمُ العُلَمَاءُ وَالرُّهْبَانُ هُمُ العِبَادُ.

وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ - أَيْ يُعْرِضُونَ وَيَمْنَعُونَ، يُقَالُ: صَدَّ عَنِ الحَقِّ صُدُودًا وَصَدَّ غَيْرَهُ صَدًّا، وَهَذَا يَنْدَرِجُ فِيهِ مَا يُؤْكَلُ بِالبَاطِلِ: مِنْ وَقْفٍ أَوْ عَطِيَّةٍ عَلَى الدِّينِ كَالصَّلَاةِ وَالنُّذُورِ الَّتِي تُنْذَرُ لِأَهْلِ الدِّينِ وَمِنَ الأَمْوَالِ المُشْتَرَكَةِ كَأَمْوَالِ بَيْتِ المَالِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا فِيمَنْ يَأْكُلُ المَالَ بِالبَاطِلِ بِشُبْهَةِ دِينٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

فَهَذَا يَنْدَرِجُ فِيهِ مَنْ كَنَزَ الْمَالَ عَنِ النَّفَقَةِ الْوَاجِبَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْجِهَادُ أَحَقُّ الْأَعْمَالِ بِاسْمِ سَبِيلِ اللهِ سَوَاءٌ كَانَ مَلِكًا أَوْ مُقَدَّمًا أَوْ غَنِيًّا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

وَإِذَا دَخَلَ فِي هَذَا مَا كُنِزَ مِنَ الْمَالِ الْمَوْرُوثِ وَالْمَكْسُوبِ فَمَا كُنِزَ مِنَ الْأَمْوَالِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا عُمُومُ الْأُمَّةِ ـ وَمُسْتَحَقُّهَا: مَصَالِحُهُمْ ـ أَوْلَى وَأَحْرَى.

فَصْلٌ: فَإِذَا تَبَيَّنَ بَعْضُ مَعْنَى الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ، فَإِذَا قَرَأَ الْإِنْسَانُ «سُورَةَ الْأَحْزَابِ» وَعَرَفَ مِنَ الْمَنْقُولَاتِ فِي الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ وَالْمَغَازِي: كَيْفَ كَانَتْ صِفَةُ الْوَاقِعَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ ثُمَّ اعْتَبَرَ هَذِهِ الْحَادِثَةَ بِتِلْكَ: وَجَدَ مِصْدَاقَ مَا ذَكَرْنَا، وَأَنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ إِلَى الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ، كَمَا انْقَسَمُوا فِي تِلْكَ، وَتَبَيَّنَ لَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ.

افْتَتَحَ اللهُ السُّورَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وَذَكَرَ فِي أَثْنَائِهَا قَوْلَهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ [الأحزاب].

فَأَمَرَهُ بِاتِّبَاعِ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ـ الَّتِي هِيَ سُنَّتُهُ ـ وَبِأَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ، فَبِالْأَوْلَى يُحَقِّقُ قَوْلَهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَبِالثَّانِيَةِ يُحَقِّقُ قَوْلَهُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى].

وهذا وَإِنْ كَانَ مَأْمُورًا بِهِ فِي جَمِيعِ الدِّينِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ فِي الْجِهَادِ أَوْكَدُ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُجَاهِدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ؛ وَذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَأْيِيدٍ قَوِيٍّ مِنَ اللهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَادُ سَنَامَ الْعَمَلِ وَانْتَظَمَ سَنَامُ جَمِيعِ الْأَحْوَالِ الشَّرِيفَةِ، فَفِيهِ سَنَامُ الْمَحَبَّةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وَفِيهِ سَنَامُ التَّوَكُّلِ وَسَنَامُ الصَّبْرِ؛ فَإِنَّ الْمُجَاهِدَ أَحْوَجُ النَّاسِ إِلَى الصَّبْرِ وَالتَّوَكُّلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل].

وَقَالَ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف]؛ وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ وَالْيَقِينُ ـ اللَّذَيْنِ هُمَا أَصْلُ التَّوَكُّلِ ـ يُوجِبَانِ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة].

وَلهَذَا كَانَ الجِهَادُ مُوجِبًا لِلهِدَايَةِ الَّتِي هِيَ مُحِيطَةٌ بِأَبْوَابِ العِلْمِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت]، فَجَعَلَ لِمَنْ جَاهَدَ فِيهِ هِدَايَةَ جَمِيعِ سُبُلِهِ تَعَالَى؛ وَلهَذَا قَالَ الإِمَامَانِ عَبْدُ الله بْنُ المُبَارَكِ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمَا: إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ فَانْظُرُوا مَاذَا عَلَيْهِ أَهْلُ الثُّغْرُ فَإِنَّ الحَقَّ مَعَهُمْ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾.

وَفِي الجِهَادِ أَيْضًا: حَقِيقَةُ الزُّهْدِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الدَّارِ الدُّنْيَا.

وَفِيهِ أَيْضًا: حَقِيقَةُ الإِخْلَاصِ، فَإِنَّ الكَلَامَ فِيمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله لَا فِي سَبِيلِ الرِّيَاسَةِ وَلَا فِي سَبِيلِ المَالِ وَلَا فِي سَبِيلِ الحَمِيَّةِ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ قَاتَلَ لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ؛ وَلِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا.

وَأَعْظَمُ مَرَاتِبِ الإِخْلَاصِ: تَسْلِيمُ النَّفْسِ وَالمَالِ لِلمَعْبُودِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾[التوبة: ١١١] ... وَ(الجَنَّةُ اسْمٌ لِلدَّارِ الَّتِي حَوَتْ كُلَّ نَعِيمٍ)، أَعْلَاهُ النَّظَرُ إِلَى الله إِلَى مَا دُونَ ذَلِكَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ مِمَّا قَدْ نَعْرِفُهُ وَقَدْ لَا نَعْرِفُهُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**».

فَقَدْ تَبَيَّنَ بَعْضُ أَسْبَابِ افْتِتَاحِ هَذِهِ السُّورَةِ بِهَذَا، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ** عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾[الأحزاب].

كَانَ مُخْتَصَرُ القِصَّةِ: أَنَّ المُسْلِمِينَ تَحَزَّبَ عَلَيْهِمْ عَامَّةُ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَوْلهُمْ وَجَاؤُوا بِجُمُوعِهِمْ إِلَى المَدِينَةِ لِيَسْتَأْصِلُوا المُؤْمِنِينَ، فَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ وَحُلَفَاؤُهَا مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَأَشْجَعَ وَفَزَارَةَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ قَبَائِلِ نَجْدٍ، وَاجْتَمَعَتْ أَيْضًا اليَهُودُ: مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، فَإِنَّ بَنِي النَّضِيرِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَجْلَاهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي «سُورَةِ الحَشْرِ».

فَجَاؤُوا فِي الأَحْزَابِ إِلَى قُرَيْظَةَ - وَهُم مُعَاهِدُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَمُجَاوِرُونَ لَهُ قَرِيبًا مِنَ المَدِينَةِ - فَلَمْ يَزَالُوا بِهِمْ حَتَّى نَقَضَتْ قُرَيْظَةُ العَهْدَ وَدَخَلُوا فِي الأَحْزَابِ، فَاجْتَمَعَتْ هَذِهِ الأَحْزَابُ العَظِيمَةُ وَهُمْ بِقَدْرِ المُسْلِمِينَ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ الذُّرِّيَّةَ مِنَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فِي آطَامِ المَدِينَةِ وَهِيَ مِثْلُ الجَوَاسِقِ وَلَمْ يَنْقُلْهُمْ إِلَى مَوَاضِعَ أُخَرَ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُمْ إِلَى سَلْعٍ - وَهُوَ الجَبَلُ القَرِيبُ مِنَ المَدِينَةِ مِنْ نَاحِيَةِ الغَرْبِ وَالشَّامِ - وَجَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ العَدُوِّ خَنْدَقًا، وَالعَدُوُّ قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ العَالِيَةِ وَالسَّافِلَةِ، وَكَانَ عدوًّا شَدِيدَ العَدَاوَةِ لَوْ تَمَكَّنَ مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَانَتْ نِكَايَتُهُ فِيهِمْ أَعْظَمَ النِّكَايَاتِ.

وَفِي هَذِهِ الحَادِثَةِ - حروب التتار - تَحَزَّبَ هَذَا العَدُوُّ مِنْ مَغُولٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ التُّرْكِ وَمِنْ فُرْسٍ وَمُسْتَعْرِبَةٍ وَنَحْوِهِمْ مِنْ أَجْنَاسِ المُرْتَدَّةِ وَمِنْ نَصَارَى الأَرْمَنِ وَغَيْرِهِمْ.

وَنَزَلَ هَذَا العَدُوُّ بِجَانِبِ دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ بَيْنَ الإِقْدَامِ وَالإِحْجَامِ مَعَ قِلَّةِ مَنْ بِإِزَائِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَقْصُودُهُمْ الاِسْتِيلَاءُ عَلَى الدَّارِ وَاصْطِلَامُ أَهْلِهَا.

كَمَا نَزَلَ أُولَئِكَ بِنُوَاحِي المَدِينَةِ بِإِزَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَدَامَ الحِصَارُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عَامَ الخَنْدَقِ ـ عَلَى مَا قِيلَ ـ بِضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً. وَقِيلَ: عِشْرِينَ لَيْلَةً.

وَهَذَا العَدُوُّ ـ التتار ـ عَبَرَ الفُرَاتَ سَابِعَ عَشَرَ رَبِيعِ الآخِرِ وَكَانَ أَوَّلُ انْصِرَافِهِ رَاجِعًا عَنْ حَلَبَ لـمَّا رَجَعَ مُقَدِّمُهُمْ الكَبِيرُ قَازَانُ بِمَنْ مَعَهُ: يَوْمَ الاِثْنَيْنِ حَادِي أَوْ ثَانِي عَشَرَ جُمَادَى الأُولَى يَوْمَ دَخَلَ العَسْكَرُ عَسْكَرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مِصْرَ المَحْرُوسَةِ، وَاجْتَمَعَ بِهِمْ الدَّاعِي وَخَاطَبَهُمْ فِي هَذِهِ القَضِيَّةِ.

وَكَانَ اللهُ ﷻ لـمَّا أَلقَى فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَلقَى مِنَ الاِهْتِمَامِ وَالعَزْمِ: أَلقَى اللهُ فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمْ الرَّوْعَ وَالاِنْصِرَافَ.

وَكَانَ عَامَ الخَنْدَقِ بَرْدٌ شَدِيدٌ وَرِيحٌ شَدِيدَةٌ مُنْكَرَةٌ بِهَا صَرَفَ اللهُ الأَحْزَابَ عَنِ المَدِينَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

وَهَكَذَا هَذَا العَامُ أَكْثَرَ اللهُ فِيهِ الثَّلْجَ وَالمَطَرَ وَالبَرْدَ عَلَى خِلَافِ أَكْثَرِ العَادَاتِ، حَتَّى كَرِهَ أَكْثَرُ النَّاسِ ذَلِكَ، وَكُنَّا نَقُولُ لَهُمْ: لَا تَكْرَهُوا ذَلِكَ؛ فَإِنَّ للهِ فِيهِ حِكْمَةً وَرَحْمَةً.

وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ الَّتِي صَرَفَ اللهُ بِهِ العَدُوَّ؛ فَإِنَّهُ كَثُرَ عَلَيْهِمُ الثَّلْجُ وَالمَطَرُ وَالبَرْدُ حَتَّى هَلَكَ مِنْ خَيْلِهِمْ مَا شَاءَ اللهُ، وَهَلَكَ أَيْضًا مِنْهُمْ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَظَهَرَ فِيهِمْ وَفِي بَقِيَّةِ خَيْلِهِمْ مِنَ الضَّعْفِ وَالعَجْزِ بِسَبَبِ البَرْدِ وَالجُوعِ مَا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ مَعَهُ بِقِتَالٍ، حَتَّى بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ كِبَارِ الْمُقَدِمِينَ فِي أَرْضِ الشَّامِ أَنَّهُ قَالَ: لَا بَيَّضَ اللهُ وُجُوهَنَا: أَعَدُوُّنَا فِي الثَّلْجِ إِلَى شَعَرِهِ وَنَحْنُ قُعُودٌ لَا نَأْخُذُهُمْ؟ وَحَتَّى عَلِمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا صَيْدًا لِلمُسْلِمِينَ لَوْ يَصْطَادُونَهُمْ؛ لَكِنْ فِي تَأْخِيرِ الله اصْطِيَادَهُمْ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ.

وَقَالَ اللهُ فِي شَأْنِ الأَحْزَابِ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾[الأحزاب].

وَهَكَذَا هَذَا العَامُ، جَاءَ العَدُوُّ مِنْ نَاحِيَتِي عُلُوِّ الشَّامِ وَهُوَ شَمَالُ الفُرَاتِ، وَهُوَ قِبْلِيُّ الفُرَاتِ، فَزَاغَتِ الأَبْصَارُ زَيْغًا عَظِيمًا وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ؛ لِعَظْمِ البَلَاءِ؛ لَا سِيَّمَا لـمَّا اسْتَفَاضَ الخَبَرُ بِانْصِرَافِ العَسْكَرِ إِلَى مِصْرَ وَتَقَرُّبَ العَدُوِّ وَتَوَجُّهِهُ إِلَى دِمَشْقَ، وَظَنَّ النَّاسُ بِالله الظَّنُونَا:

هَذَا يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَقِفُ قُدَّامَهُمْ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِ الشَّامِ حَتَّى يَصْطَلِمُوا أَهْلَ الشَّامِ.

وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّهُمْ لَوْ وَقَفُوا لَكَسَرُوهُمْ كَسْرَةً وَأَحَاطُوا بِهِمْ إِحَاطَةَ الهَالَةِ بِالقَمَرِ.

وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّ أَرْضَ الشَّامِ مَا بَقِيَتْ تُسْكَنُ وَلَا بَقِيَتْ تَكُونُ تَحْتَ مَمْلَكَةِ الإِسْلَامِ.

وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَهَا ثُمَّ يَذْهَبُونَ إِلَى مِصْرَ فَيَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا فَلَا يَقِفُ قُدَّامَهُمْ أَحَدٌ فَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالفِرَارِ إِلَى اليَمَنِ وَنَحْوِهَا.

وَهَذَا ـ إِذَا أَحْسَنَ ظَنَّهُ ـ قَالَ: إِنَّهُمْ يَمْلِكُونَهَا العَامَ كَمَا مَلَكُوهَا عَامَ هُولَاكُو سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ، ثُمَّ قَدْ يَخْرُجُ العَسْكَرُ مِنْ مِصْرَ فَيَسْتَنْقِذُهَا مِنْهُمْ كَمَا خَرَجَ ذَلِكَ العَامَ، وَهَذَا ظَنُّ خِيَارِهِمْ.

وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّ مَا أَخْبَرَهُ بِهِ أَهْلُ الآثَارِ النَّبَوِيَّةِ وَأَهْلُ التَّحْدِيثِ وَالمُبَشِّرَاتُ أَمَانِي كَاذِبَةٌ وَخُرَافَاتٌ لَاغِيَةٌ.

وَهَذَا قَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الرُّعْبُ وَالفَزَعُ حَتَّى يَمُرَّ الظَّنُّ بِفُؤَادِهِ مَرَّ السَّحَابِ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ يَتَفَهَّمُ وَلَا لِسَانٌ يَتَكَلَّمُ.

وَهَذَا قَدْ تَعَارَضَتْ عِنْدَهُ الأَمَارَاتُ وَتَقَابَلَتْ عِنْدَهُ الإِرَادَاتُ؛ لَا سِيَّمَا وَهُوَ لَا يُفَرِّقُ مِنَ المُبَشِّرَاتِ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالكَاذِبِ، وَلَا يُمَيِّزُ فِي التَّحْدِيثِ بَيْنَ المُخْطِئِ وَالصَّائِبِ، وَلَا يَعْرِفُ النُّصُوصَ الأَثَرِيَّةَ مَعْرِفَةَ العُلَمَاءِ؛ بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا بِهَا وَقَدْ سَمِعَهَا سَمَاعَ العِبَرِ ثُمَّ قَدْ لَا يَتَفَطَّنُ لِوُجُوهِ دَلَالَتِهَا الخَفِيَّةِ وَلَا يَهْتَدِي لِدَفْعِ مَا يَتَخَيَّلُ أَنَّهُ مُعَارِضٌ لَهَا فِي بَادِئِ الرَّوِيَّةِ، فَلِذَلِكَ اسْتَوْلَتْ الحِيرَةُ عَلَى مَنْ كَانَ مُتَّسِمًا بِالِاهْتِدَاءِ وَتَرَاجَمَتْ بِهِ الآرَاءُ تَرَاجِمَ الصِّبْيَانِ بِالحَصْبَاءِ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾، ابْتَلَاهُمُ اللهُ بِهَذَا الِابْتِلَاءِ الَّذِي يُكَفِّرُ بِهِ خَطِيئَاتِهِمْ وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَاتِهِمْ وَزُلْزِلُوا بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الرَّجَفَاتِ مَا اسْتَوْجَبُوا بِهِ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

وَهَكَذَا قَالُوا فِي هَذِهِ الفِتْنَةِ فِيمَا وَعَدَهُمْ أَهْلُ الوِرَاثَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالخِلَافَةِ الرِّسَالِيَّةِ، وَحِزْبُ اللهِ المُحَدِّثُونَ عَنْهُ، حَتَّى حَصَلَ لِهَؤُلَاءِ التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فَأَمَّا المُنَافِقُونَ فَقَدْ مَضَى التَّنْبِيهُ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، فَذَكَرُوا هُنَا وَفِي قَوْلِهِ: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وَذَكَرَ اللهُ مَرَضَ القَلْبِ فِي مَوَاضِعَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]، وَالمَرَضُ فِي القَلْبِ كَالمَرَضِ فِي الجَسَدِ فَكَمَا أَنَّ هَذَا هُوَ إِحَالَةٌ عَنِ الصِّحَّةِ وَالِاعْتِدَالِ مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ فَكَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ فِي القَلْبِ مَرَضٌ يُحِيلُهُ عَنِ الصِّحَّةِ وَالِاعْتِدَالِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمُوتَ القَلْبُ سَوَاءٌ أَفْسَدَ إِحْسَاسَ القَلْبِ وَإِدْرَاكَهُ أَوْ أَفْسَدَ عَمَلَهُ وَحَرَكَتَهُ، وَذَلِكَ ـ كَمَا فَسَّرُوهُ ـ: هُوَ مِنْ ضَعْفِ الإِيمَانِ؛ إِمَّا بِضَعْفِ عِلْمِ القَلْبِ وَاعْتِقَادِهِ وَإِمَّا بِضَعْفِ عَمَلِهِ وَحَرَكَتِهِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ مَنْ

ضَعُفَ تَصْدِيقُهُ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الجُبْنُ وَالفَزَعُ؛ فَإِنَّ أَدْوَاءَ القَلْبِ مِنَ الشَّهْوَةِ المُحَرَّمَةِ وَالحَسَدِ وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ كُلُّهَا أَمْرَاضٌ، وَكَذَلِكَ الجَهْلُ وَالشُّكُوكُ وَالشُّبُهَاتُ الَّتِي فِيهِ.

وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ هُوَ إِرَادَةُ الفُجُورِ وَشَهْوَةُ الزِّنَا كَمَا فَسَّرُوهُ بِهِ. وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ البُخْلِ؟**».

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى كِتَابَهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ**».

وَكَانَ يَقُولُ ﷺ فِي دُعَائِهِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِك مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ وَالأَهْوَاءِ وَالأَدْوَاءِ**».

وَلَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ غَيْرَ اللهِ إِلَّا لِمَرَضٍ فِي قَلْبِهِ، كَمَا ذَكَرُوا أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ خَوْفَهُ مِنْ بَعْضِ الوُلَاةِ فَقَالَ: لَوْ صَحَحْتَ لَمْ تَخَفْ أَحَدًا، أَيْ خَوْفُك مِنْ أَجْلِ زَوَالِ الصِّحَّةِ مِنْ قَلْبِكَ؛ وَلِهَذَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ لَا يَخَافُوا حِزْبَ الشَّيْطَانِ؛ بَل لَا يَخَافُونَ غَيْرَهُ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران] أَيْ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ. وَقَالَ لِعُمُومِ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَنْبِيهًا لَنَا: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة]، وَقَالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَالَ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣]، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، وَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وَقَالَ: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة: ١٣]، فَدَلَّتْ هَذِهِ الآيَةُ ـ وَهِيَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: ١٢] ـ عَلَى أَنَّ المَرَضَ وَالنِّفَاقَ فِي القَلْبِ يُوجِبُ الرَّيْبَ فِي الأَنْبَاءِ الصَّادِقَةِ الَّتِي تُوجِبُ أَمْنَ الإِنْسَانِ: مِنَ الخَوْفِ حَتَّى يَظُنُّوا أَنَّهَا كَانَتْ غُرُورًا لَهُمْ كَمَا وَقَعَ فِي حَادِثَتِنَا هَذِهِ سَوَاءٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾ [الأحزاب: ١٣]، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ عَسْكَرَ بِالمُسْلِمِينَ عِنْدَ سَلْعٍ وَجَعَلَ الخَنْدَقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ العَدُوِّ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: لَا مُقَامَ لَكُمْ هُنَا؛ لِكَثْرَةِ العَدُوِّ، فَارْجِعُوا إِلَى المَدِينَةِ، وَقِيلَ: لَا مُقَامَ لَكُمْ عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ فَارْجِعُوا إِلَى دِينِ الشِّرْكِ، وَقِيلَ: لَا مُقَامَ لَكُمْ عَلَى القِتَالِ فَارْجِعُوا إِلَى الاِسْتِئْمَانِ وَالاِسْتِجَارَةِ بِهِمْ.

وَهَكَذَا لَـمَّا قَدِمَ هَذَا العَدُوُّ كَانَ مِنَ المُنَافِقِينَ مَنْ قَالَ: مَا بَقِيَتْ الدَّوْلَةُ الإِسْلَامِيَّةُ تَقُومُ فَيَنْبَغِي الدُّخُولُ فِي دَوْلَةِ التَّتَارِ.

وَقَالَ بَعْضُ الخَاصَّةِ: مَا بَقِيَتْ أَرْضُ الشَّامِ تُسْكَنُ؛ بَل نَنْتَقِلُ عَنْهَا إِمَّا إِلَى الحِجَازِ وَاليَمَنِ وَإِمَّا إِلَى مِصْرَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلِ المَصْلَحَةُ الاِسْتِسْلَامُ لِهَؤُلَاءِ كَمَا قَدْ اسْتَسْلَمَ لَهُمْ أَهْلُ العِرَاقِ وَالدُّخُولُ تَحْتَ حُكْمِهِمْ. فَهَذِهِ المَقَالَاتُ الثَّلَاثُ قَدْ قِيلَتْ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ، كَمَا قِيلَتْ فِي تِلكَ.

وَهَكَذَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ المُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ لِأَهْلِ دِمَشْقَ خَاصَّةً وَالشَّامِ عَامَّةً: لَا مُقَامَ لَكُمْ بِهَذِهِ الأَرْضِ، وَنَفْيُ المَقَامِ بِهَا أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ المُقَامِ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ قُرِئَتْ بِالضَّمِّ أَيْضًا، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقُومَ بِالمَكَانِ فَكَيْفَ يُقِيمُ بِهِ؟

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب]، وَكَانَ قَوْمٌ مِنْ هَؤُلَاءِ المَذْمُومِينَ يَقُولُونَ ـ وَالنَّاسُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ سَلعٍ دَاخِلِ الخَنْدَقِ وَالنِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ فِي آطَامِ المَدِينَةِ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ، أَيْ: مَكْشُوفَةٌ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ العَدُوِّ حَائِلٌ.

وَأَصْلُ العَوْرَةِ: الخَالِي الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى حِفْظٍ وَسِتْرٍ. يُقَالُ: اعْوَرَّ مَجْلِسُكَ إِذَا ذَهَبَ سِتْرُهُ أَوْ سَقَطَ جِدَارُهُ. وَمِنْهُ عَوْرَةُ العَدُوِّ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالحَسَنُ: أَيْ ضَائِعَةٌ تُخْشَى عَلَيْهَا السُّرَّاقُ.

وَقَالَ قتادة: قَالُوا: بُيُوتُنَا مِمَّا يَلِي العَدُوَّ فَلَا نَأْمَنُ عَلَى أَهْلِنَا فَأْذَنْ لَنَا أَنْ نَذْهَبَ إِلَيْهَا لِحِفْظِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ لِأَنَّ اللهَ يَحْفَظُهَا ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ فَهُمْ يَقْصِدُونَ الفِرَارَ مِنَ الجِهَادِ وَيَحْتَجُّونَ بِحُجَّةِ العَائِلَةِ.

وَهَكَذَا أَصَابَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الغَزَاةِ، صَارُوا يَفِرُّونَ مِنَ الثَّغْرِ إِلَى المَعَاقِلِ وَالحُصُونِ وَإِلَى الأَمَاكِنِ البَعِيدَةِ كَمِصْرَ، وَيَقُولُونَ: مَا مَقْصُودُنَا إِلَّا حِفْظَ العِيَالِ وَمَا يُمْكِنُ إِرْسَالُهُمْ مَعَ غَيْرِنَا، وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ جَعْلُهُمْ فِي حِصْنِ دِمَشْقَ لَوْ دَنَا العَدُوُّ، كَمَا فَعَلَ المُسْلِمُونَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ إِرْسَالُهُمْ وَالمُقَامُ لِلجِهَادِ، فَكَيْفَ بِمَنْ فَرَّ بَعْدَ إِرْسَالِ عِيَالِهِ؟

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الأحزاب]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمُ المَدِينَةُ مِنْ جَوَانِبِهَا ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْهُمُ الفِتْنَةَ ـ وَهِيَ الاِفْتِتَانُ عَنِ الدِّينِ بِالكُفْرِ أَوْ النِّفَاقِ ـ لَأَعْطُوا الفِتْنَةَ، وَلَجَاؤُوهَا مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ.

وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ لَوْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ هَذَا العَدُوُّ المُنَافِقُ المُجْرِمُ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُمْ مُوَافَقَتَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الخُرُوجِ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ ـ وَتِلْكَ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ ـ لَكَانُوا مَعَهُ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا سَاعَدَهُمْ فِي العَامِ المَاضِي

أَقْوَامٌ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الفِتْنَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَا بَيْنَ تَرْكِ وَاجِبَاتٍ وَفِعْلِ مُحَرَّمَاتٍ إِمَّا فِي حَقِّ الله وَإِمَّا فِي حَقِّ العِبَادِ، كَتَرْكِ الصَّلَاةِ، وَشُرْبِ الخُمُورِ، وَسَبِّ السَّلَفِ، وَسَبِّ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ وَالتَّجَسُّسِ لَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَدَلَالَتِهِمْ عَلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَحَرِيمِهِمْ، وَأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَتَعْذِيبِهِمْ وَتَقْوِيَةِ دَوْلَتِهِمُ الْمَلعُونَةِ، وَإِرْجَافِ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الفِتْنَةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب].

هَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ عَاهَدُوا ثُمَّ نَكَثُوا قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ، فَإِنَّ فِي العَامِ الْمَاضِي وَفِي هَذَا العَامِ: فِي أَوَّلِ الأَمْرِ كَانَ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ مَنْ عَاهَدَ عَلَى أَنْ يُقَاتِلَ وَلَا يَفِرَّ ثُمَّ فَرَّ مُنْهَزِمًا لَـمَّا اشْتَدَّ الأَمْرُ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب]، فَأَخْبَرَ اللهُ أَنَّ الفِرَارَ لَا يَنْفَعُ لَا مِنَ الْمَوْتِ وَلَا مِنَ القَتْلِ، فَالفِرَارُ مِنَ الْمَوْتِ كَالفِرَارِ مِنَ الطَّاعُونِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**»، وَالفِرَارُ مِنَ القَتْلِ كَالفِرَارِ مِنْ الجِهَادِ، وَحَرْفُ «لَنْ» يَنْفِي الفِعْلَ فِي الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَالفِعْلُ نَكِرَةٌ، وَالنَّكِرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تَعُمُّ جَمِيعَ أَفْرَادِهَا، فَاقْتَضَى ذَلِكَ: أَنَّ الفِرَارَ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ القَتْلِ لَيْسَ فِيهِ مَنْفَعَةٌ أَبَدًا، وَهَذَا خَبَرُ الله الصَّادِقِ، فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ فَقَدْ كَذَّبَ اللهَ فِي خَبَرِهِ، وَالتَّجْرِبَةُ تَدُلُّ عَلَى مِثْلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ القُرْآنُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَرُّوا فِي هَذَا العَامِ لَمْ يَنْفَعْهُمْ فِرَارُهُمْ؛ بَل خَسِرُوا الدِّينَ وَالدُّنْيَا وَتَفَاوَتُوا فِي الْمَصَائِبِ، وَالْمُرَابِطُونَ الثَّابِتُونَ نَفَعَهُمْ ذَلِكَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، حَتَّى الْمَوْتُ الَّذِي فَرُّوا مِنْهُ كَثُرَ فِيهِمْ، وَقَلَّ فِي الْمُقِيمِينَ، فَمَا مَنَعَ الهَرَبُ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَالطَّالِبُونَ لِلعَدُوِّ وَالْمُعَاقِبُونَ لَهُ لَمْ يَمُتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا قُتِلَ؛ بَل الْمَوْتُ قَلَّ فِي البَلَدِ مِنْ حِينِ خَرَجَ الفَارُّونَ، وَهَكَذَا سُنَّةُ الله قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ يَقُولُ: لَوْ كَانَ الفِرَارُ يَنْفَعُكُمْ لَمْ يَنْفَعْكُمْ إِلَّا حَيَاةً قَلِيلَةً ثُمَّ تَمُوتُونَ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَقَدْ حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الحَمْقَى أَنَّهُ قَالَ: فَنَحْنُ نُرِيدُ ذَلِكَ القَلِيلَ، وَهَذَا جَهْلٌ مِنْهُ بِمَعْنَى الآيَةِ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقُل: إِنَّهُمْ يُمَتَّعُونَ بِالفِرَارِ قَلِيلًا، لَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ أَبَدًا، ثُمَّ ذَكَرَ جَوَابًا ثَانِيًا، أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا مَتَاعٌ قَلِيلٌ، ثُمَّ ذَكَرَ جَوَابًا ثَالِثًا وَهُوَ أَنَّ الفَارَّ يَأْتِيهِ مَا قُضِيَ لَهُ مِنَ الْمَضَرَّةِ وَيَأْتِي الثَّابِتُ مَا قُضِيَ لَهُ مِنَ الْمَسَرَّةِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب]، وَنَظِيرُهُ: قَوْلُهُ فِي سِيَاقِ آيَاتِ الجِهَادِ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ الآيَةَ [النساء: ٧٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران].

فَمَضْمُونُ الأَمْرِ: أَنَّ المَنَايَا مَحْتُومَةٌ فَكَمْ مَنْ حَضَرَ الصُّفُوفَ فَسَلِمَ، وَكَمْ مِمَّنْ فَرَّ مِنَ المَنِيَّةِ فَصَادَفَتْهُ، كَمَا قَالَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ رضي الله عنه - لَـمَّا احْتُضِرَ -: **لَقَدْ حَضَرْتُ كَذَا وَكَذَا صَفًّا وَأَنَّ بِبَدَنِي بِضْعًا وَثَمَانِينَ مَا بَيْنَ ضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ وَطَعْنَةٍ بِرُمْحٍ وَرَمْيَةٍ بِسَهْمٍ، وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ البَعِيرُ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الجُبَنَاءِ.**

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾[الأحزاب: ١٨].

قَالَ العُلَمَاءُ: كَانَ مِنَ المُنَافِقِينَ مَنْ يَرْجِعُ مِنَ الخَنْدَقِ فَيَدْخُلُ المَدِينَةَ، فَإِذَا جَاءَهُمْ أَحَدٌ قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ اجْلِسْ فَلَا تَخْرُجْ، وَيَكْتُبُونَ بِذَلِكَ إِلَى إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ بِالعَسْكَرِ: أَنْ ائْتُونَا بِالمَدِينَةِ فَإِنَّا نَنْتَظِرُكُمْ، يُثَبِّطُونَهُمْ عَنِ القِتَالِ، وَكَانُوا لَا يَأْتُونَ العَسْكَرَ إِلَّا أَلَّا يَجِدُوا بُدًّا، فَيَأْتُونَ العَسْكَرَ لِيَرَى النَّاسُ وُجُوهَهُمْ، فَإِذَا غَفَلَ عَنْهُمْ عَادُوا إِلَى المَدِينَةِ، فَانْصَرَفَ بَعْضُهُمْ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَوَجَدَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ وَعِنْدَهُ شِوَاءٌ وَنَبِيذٌ، فَقَالَ: أَنْتَ هَهُنَا وَرَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بَيْنَ الرِّمَاحِ وَالسُّيُوفِ؟ فَقَالَ: هَلُمَّ إِلَيَّ فَقَدْ أُحِيطَ بِكَ وَبِصَاحِبِكَ.

فَوَصَفَ المُثَبِّطِينَ عَنِ الجِهَادِ - وَهُمْ صِنْفَانِ - بِأَنَّهُمْ إِمَّا أَنْ يَكُونُوا فِي بَلَدِ الغُزَاةِ أَوْ فِي غَيْرِهِ، فَإِنْ كَانُوا فِيهِ عَوَّقُوهُمْ عَنِ الجِهَادِ بِالقَوْلِ أَوْ بِالعَمَلِ أَوْ بِهِمَا، وَإِنْ كَانُوا فِي غَيْرِهِ رَاسَلُوهُمْ أَوْ كَاتَبُوهُمْ: بِأَنْ يَخْرُجُوا إِلَيْهِمْ مِنْ بَلَدِ الغُزَاةِ لِيَكُونُوا مَعَهُمْ بِالحُصُونِ أَوْ بِالبُعْدِ، كَمَا جَرَى فِي هَذِهِ الغَزَاةِ، فَإِنَّ أَقْوَامًا فِي العَسْكَرِ وَالمَدِينَةِ وَغَيْرِهِمَا صَارُوا يُعَوِّقُونَ مَنْ أَرَادَ الغَزْوَ وَأَقْوَامًا بُعِثُوا مِنَ المَعَاقِلِ وَالحُصُونِ وَغَيْرِهَا إِلَى إِخْوَانِهِمْ: هَلُمَّ إِلَيْنَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾[الأحزاب]، أَيْ بُخَلَاءَ عَلَيْكُمْ بِالقِتَالِ مَعَكُمْ وَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ الله، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بُخَلَاءُ عَلَيْكُمْ بِالخَيْرِ وَالظَّفَرِ وَالغَنِيمَةِ.

وَهَذِهِ حَالُ مَنْ بَخِلَ عَلَى المُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ أَوْ شَحَّ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِ الله: مِنْ نَصْرِهِ وَرِزْقِهِ الَّذِي يُجْرِيهِ بِفِعْلِ غَيْرِهِ، فَإِنَّ أَقْوَامًا يَشُحُّونَ بِمَعْرُوفِهِمْ، وَأَقْوَامًا يَشُحُّونَ بِمَعْرُوفِ الله وَفَضْلِهِ، وَهُمُ الحُسَّادُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾[الأحزاب: ١٩] مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ يُشْبِهُونَ المُغْمَى عَلَيْهِ وَقْتَ النَّزْعِ، فَإِنَّهُ يَخَافُ وَيَذْهَلُ عَقْلُهُ وَيَشْخَصُ بَصَرُهُ وَلَا يَطْرِفُ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ يَخَافُونَ القَتْلَ، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وَيُقَالُ فِي اللُّغَةِ: «صَلَقُوكُمْ» وَهُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالكَلَامِ المُؤْذِي، وَمِنْهُ «الصَّالِقَةُ» وَهِيَ الَّتِي تَرْفَعُ صَوْتَهَا بِالمُصِيبَةِ، يُقَالُ: صَلَقَهُ وَسَلَقَهُ - وَقَدْ قَرَأَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ بِهَا؛ لَكِنَّهَا خَارِجَةٌ عَنِ المُصْحَفِ - إِذَا خَاطَبَهُ خِطَابًا شَدِيدًا قَوِيًّا، وَيُقَالُ: خَطِيبٌ مِسْلَاقٌ: إِذَا كَانَ بَلِيغًا فِي خُطْبَتِهِ؛ لَكِنَّ الشِّدَّةَ هُنَا فِي الشَّرِّ لَا فِي الخَيْرِ، كَمَا قَالَ: ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وَهَذَا السَّلْقُ بِالأَلْسِنَةِ الحَادَّةِ يَكُونُ بِوُجُوهٍ: تَارَةً يَقُولُ المُنَافِقُونَ لِلمُؤْمِنِينَ: هَذَا الَّذِي جَرَى عَلَيْنَا بِشُؤْمِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ دَعَوْتُمُ النَّاسَ إِلَى هَذَا الدِّينِ وَقَاتَلْتُمْ عَلَيْهِ وَخَالَفْتُمُوهُمْ؛ فَإِنَّ هَذِهِ مَقَالَةُ المُنَافِقِينَ لِلمُؤْمِنِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَتَارَةً يَقُولُونَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ أَشَرْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمُقَامِ هُنَا وَالثَّبَاتِ بِهَذَا الثَّغْرِ إِلَى هَذَا الوَقْتِ وَإِلَّا فَلَوْ كُنَّا سَافَرْنَا قَبْلَ هَذَا لَمَا أَصَابَنَا هَذَا.

وَتَارَةً يَقُولُونَ ـ أَنْتُمْ مَعَ قِلَّتِكُمْ وَضَعْفِكُمْ ـ تُرِيدُونَ أَنْ تَكْسِرُوا العَدُوَّ وَقَدْ غَرَّكُمْ دِينُكُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال].

وَتَارَةً يَقُولُونَ: أَنْتُمْ مَجَانِينُ لَا عقل لَكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ وَالنَّاسُ مَعَكُمْ.

وَتَارَةً يَقُولُونَ أَنْوَاعًا مِنْ الكَلَامِ الْمُؤْذِي الشَّدِيدِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَشِحَّةٌ عَلَى الخَيْرِ أَيْ حُرَّاصٌ عَلَى الغَنِيمَةِ وَالمَالِ الَّذِي قَدْ حَصَلَ لَكُمْ.

قَالَ قتادة: إِنْ كَانَ وَقْتَ قِسْمَةِ الغَنِيمَةِ بَسَطُوا أَلسِنَتَهُمْ فِيكُمْ، يَقُولُونَ: أَعْطُونَا فَلَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا، فَأَمَّا عِنْدَ البَأْسِ فَأَجْبَنُ قَوْمٍ وَأَخْذَلُهُمْ لِلحَقِّ، وَأَمَّا عِنْدَ الغَنِيمَةِ فَأَشَحُّ قَوْمٍ، وَقِيلَ: أَشِحَّةٌ عَلَى الخَيْرِ أَيْ بُخَلَاءُ بِهِ لَا يَنْفَعُونَ لَا بِنُفُوسِهِمْ وَلَا بِأَمْوَالِهِمْ، وَأَصْلُ الشُّحِّ: شِدَّةُ الحِرْصِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ عَنْهُ البُخْلُ، وَالظُّلْمُ: مَنْ مَنَعَ الحَقَّ وَأَخَذَ البَاطِلَ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالبُخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا؟**» فَهَؤُلَاءِ أَشِحَّاءُ عَلَى إِخْوَانِهِمْ، أَيْ بُخَلَاءُ عَلَيْهِمْ وَأَشِحَّاءُ عَلَى الخَيْرِ أَيْ حُرَّاصٌ عَلَيْهِ، فَلَا يُنْفِقُونَهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات]، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب].

فَوَصَفَهُمْ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ لِفَرْطِ خَوْفِهِمْ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَنْصَرِفُوا عَنِ البَلَدِ، وَهَذِهِ حَالُ الجَبَانِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ، فَإِنَّ قَلْبَهُ يُبَادِرُ إِلَى تَصْدِيقِ الخَبَرِ المُخَوِّفِ وَتَكْذِيبِ خَبَرِ الأَمْنِ.

الوَصْفُ الثَّانِي: أَنَّ الأَحْزَابَ إِذَا جَاؤُوا تَمَنَّوْا أَنْ لَا يَكُونُوا بَيْنَكُمْ؛ بَلْ يَكُونُونَ فِي البَادِيَةِ بَيْنَ الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ: إِيش خَبَرُ المَدِينَةِ؟ وإِيش جَرَى لِلنَّاسِ؟

وَالوَصْفُ الثَّالِثُ: أَنَّ الأَحْزَابَ إِذَا أَتَوْا وَهُمْ فِيكُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا.

وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الثَّلَاثُ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ كَمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَيَعْرِفُهُ مِنْهُمْ مَنْ خَبَرَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الَّذِينَ يُبْتَلَوْنَ بِالعَدُوِّ كَمَا ابْتُلِيَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَهُمْ فِيهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ حَيْثُ

أَصَابَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُ، فَلْيَتَأَسَّوْا بِهِ فِي التَّوَكُّلِ وَالصَّبْرِ، وَلَا يَظُنُّونَ أَنَّ هَذِهِ نِقَمٌ لِصَاحِبِهَا وَإِهَانَةٌ لَهُ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ مَا اُبْتُلِيَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْرُ الخَلَائِقِ؛ بَل بِهَا يُنَالُ الدَّرَجَاتُ العَالِيَةُ، وَبِهَا يُكَفِّرُ اللهُ الخَطَايَا لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا، وَإِلَّا فَقَدْ يُبْتَلَى بِذَلِكَ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ فَيَكُونُ فِي حَقِّهِ عَذَابًا. كَالكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾[الأحزاب].

قَالَ العُلَمَاءُ: كَانَ اللهُ قَدْ أَنْزَلَ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

فَبَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ ـ مُنْكِرًا عَلَى مَنْ حَسَبَ خِلَافَ ذَلِكَ ـ أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُبْتَلَوْا مِثْلَ هَذِهِ الأُمَمِ قَبْلَهُمْ بِـ «البَأْسَاءِ» وَهِيَ الحَاجَةُ وَالفَاقَةُ، وَ«الضَّرَّاءُ» وَهِيَ الوَجَعُ وَالمَرَضُ، وَ«الزِّلْزَالُ»، وَهِيَ زَلْزَلَةُ العَدُوِّ، فَلَـمَّا جَاءَ الأَحْزَابُ عَامَ الخَنْدَقِ فَرَأَوْهُمْ، قَالُوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وَعَلِمُوا أَنَّ اللهَ قَدْ ابْتَلَاهُمْ بِالزِّلْزَالِ، وَأَتَاهُمْ مِثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا لِحُكْمِ اللهِ وَأَمْرِهِ، وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ قَالُوا ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، أَيْ عَهْدَهُ الَّذِي عَاهَدَ اللهَ عَلَيْهِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ أَوْ عَاشَ، وَ«النَّحْبُ» النَّذْرُ وَالعَهْدُ، وَأَصْلُهُ مِنَ النَّحِيبِ، وَهُوَ الصَّوْتُ، وَمِنْهُ: الاِنْتِحَابُ فِي البُكَاءِ وَهُوَ الصَّوْتُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ فِي العَهْدِ، ثُمَّ لَـمَّا كَانَ عَهْدُهُمْ هُوَ نَذْرُهُمْ الصِّدْقُ فِي اللِّقَاءِ ـ وَمَنْ صَدَقَ فِي اللِّقَاءِ فَقَدْ يُقْتَلُ ـ صَارَ يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أَنَّهُ اُسْتُشْهِدَ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ النَّحْبُ: نَذْرُ الصِّدْقِ فِي جَمِيعِ المُوَاطِنِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْضِيهِ إِلَّا بِالمَوْتِ، وَقَضَاءُ النَّحْبِ هُوَ الوَفَاءُ بِالعَهْدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أَيْ أَكْمَلَ الوَفَاءَ، وَذَلِكَ لِمَنْ كَانَ عَهْدُهُ مُطْلَقًا: بِالمَوْتِ أَوْ القَتْلِ، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] قَضَاءَهُ إِذَا كَانَ قَدْ وَفَى البَعْضَ فَهُوَ يَنْتَظِرُ تَمَامَ العَهْدِ، وَأَصْلُ القَضَاءِ: الإِتْمَامُ وَالإِكْمَالُ، ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾[الأحزاب] بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَتَى بِالأَحْزَابِ لِيَجْزِيَ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ حَيْثُ صَدَقُوا فِي إِيمَانِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[الحُجُرات].

فَحَصَرَ الإِيمَانَ فِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ هُمْ الصَّادِقُونَ فِي قَوْلِهِمْ: آمَنَّا؛ لَا مَنْ قَالَ كَمَا قَالَتِ الأَعْرَابُ: آمَنَّا وَالإِيمَانُ لَمْ يَدْخُل فِي قُلُوبِهِمْ؛ بَل انْقَادُوا وَاسْتَسْلَمُوا.

وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُعَذِّبَهُمْ وَإِمَّا أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ. فَهَذَا حَالُ النَّاسِ فِي الخَنْدَقِ وَفِي هَذِهِ الغَزَاةِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى ابْتَلَى النَّاسَ بِهَذِهِ الفِتْنَةِ لِيَجْزِيَ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَهُمْ الثَّابِتُونَ الصَّابِرُونَ لِيَنْصُرُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، وَنَحْنُ نَرْجُو مِنَ الله أَنْ يَتُوبَ عَلَى خَلقٍ كَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْمُومِينَ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ نَدِمَ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ لِلتَّوْبَةِ بَابًا مِنْ قِبَلِ المَغْرِبِ عَرْضُهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً، لَا يُغْلِقُهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ المَغَازِي -مِنْهُمْ ابْنُ إسْحَاقَ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي الخَنْدَقِ: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا**» فَمَا غَزَتْ قُرَيْشٌ وَلَا غطفان وَلَا اليَهُودُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَهَا؛ بَل غَزَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ: فَفَتَحُوا خَيْبَرَ ثُمَّ فَتَحُوا مَكَّةَ.

كَذَلِكَ -إنْ شَاءَ اللهُ- هَؤُلَاءِ الأَحْزَابُ مَنَ المَغُولِ وَأَصْنَافِ التُّرْكِ وَمِنَ الفُرْسِ والمستعربة وَالنَّصَارَى وَنَحْوِهِمْ مِنْ أَصْنَافِ الخَارِجِينَ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ: الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا.

وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ خَالَطَ قُلُوبَهُمْ مَرَضٌ أَوْ نِفَاقٌ بِأَنْ يُنِيبُوا إلَى رَبِّهِمْ وَيَحْسُنَ ظَنُّهُمْ بِالإِسْلَامِ وَتَقْوَى عَزِيمَتُهُمْ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، فَقَدْ أَرَاهُمُ اللهُ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَبْصَارِ كَمَا قَالَ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

فَإِنَّ اللهَ صَرَفَ الأَحْزَابَ عَامَ الخَنْدَقِ بِمَا أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ رِيحِ الصَّبَا: رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ، وَبِمَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ حَتَّى شَتَّتَ شَمْلَهُمْ وَلَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، إذْ كَانَ هَمُّهُمْ فَتْحُ المَدِينَةِ وَالاِسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا وَعَلَى الرَّسُولِ وَالصَّحَابَةِ كَمَا كَانَ هَمُّ هَذَا العَدُوِّ فَتْحَ الشَّامِ وَالاِسْتِيلَاءَ عَلَى مَنْ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرَدَّهُمُ اللهُ بِغَيْظِهِمْ حَيْثُ أَصَابَهُمْ مِنَ الثَّلْجِ العَظِيمِ وَالبَرْدِ الشَّدِيدِ وَالرِّيحِ العَاصِفِ وَالجُوعِ الْمُزْعِجِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ.

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ يَكْرَهُ تِلْكَ الثُّلُوجَ وَالأَمْطَارَ العَظِيمَةَ الَّتِي وَقَعَتْ فِي هَذَا العَامِ حَتَّى طَلَبُوا الاسْتِصْحَاءَ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَكُنَّا نَقُولُ لَهُمْ: هَذَا فِيهِ خِيَرَةٌ عَظِيمَةٌ. وَفِيهِ لله حِكْمَةٌ وَسِرٌّ فَلَا تَكْرَهُوهُ، فَكَانَ مِنْ حِكْمَتِهِ: أَنَّهُ فِيمَا قِيلَ: أَصَابَ قَازَانَ وَجُنُودَهُ حَتَّى أَهْلَكَهُمْ وَهُوَ كَانَ فِيمَا قِيلَ: سَبَبُ رَحِيلِهِمْ، وَابْتُلِيَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ لِيَتَبَيَّنَ مَنْ يَصْبِرُ عَلَى أَمْرِ الله وَحُكْمِهِ مِمَّنْ يَفِرُّ عَنْ طَاعَتِهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ، وَكَانَ مَبْدَأُ رَحِيلِ قَازَانَ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ وَأَرَاضِي حَلَبَ: يَوْمَ الاِثْنَيْنِ حَادِيَ عَشَرَ جُمَادَى الأُولَى يَوْمَ دَخَلَتْ مِصْرَ عَقِيبَ العَسْكَرِ وَاجْتَمَعَتْ بِالسُّلْطَانِ وَأُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَلْقَى اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الاِهْتِمَامِ بِالجِهَادِ مَا أَلْقَاهُ.

فَلَـمَّا ثَبَّتَ اللهُ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ صَرَفَ العَدُوَّ جَزَاءً مِنْهُ وَبَيَانًا أَنَّ النِّيَّةَ الخَالِصَةَ وَالهِمَّةَ الصَّادِقَةَ يَنْصُرُ اللهُ بِهَا وَإِنْ لَمْ يَقَعْ الفِعْلُ وَإِنْ تَبَاعَدَتْ الدِّيَارُ، وَذَكَرَ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنَ قُلُوبِ هَؤُلَاءِ المَغُولِ وَالكَرَجِ وَأَلْقَى بَيْنَهُمْ تَبَاغُضًا وَتَعَادِيًا كَمَا أَلْقَى سُبْحَانَهُ عَامَ الأَحْزَابِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وغطفان وَبَيْنَ اليَهُودِ.

كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَهْلُ المَغَازِي، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَّسِعْ هَذَا المَكَانُ لِأَنْ نَصِفَ فِيهِ قِصَّةَ الخَنْدَقِ، بَل مَنْ طَالَعَهَا عَلِمَ صِحَّةَ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ المَغَازِي، مِثْلَ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَالزُّهْرِيِّ وَمُوسَى بْنِ عُقْبَةَ وَسَعِيدِ بْنِ يَحْيَى الأُمَوِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عَائِذٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ والواقدي وَغَيْرِهِمْ.

ثُمَّ تَبَقَّى بِالشَّامِ مِنْهُمْ بَقَايَا سَارَ إِلَيْهِمْ مِنْ عَسْكَرِ دِمَشْقَ أَكْثَرُهُمْ مُضَافًا إِلَى عَسْكَرِ حَمَاةَ وَحَلَبَ وَمَا هُنَالِكَ، وَثَبَتَ الْمُسْلِمُونَ بِإِزَائِهِمْ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِكَثِيرٍ؛ لَكِنْ فِي ضَعْفٍ شَدِيدٍ وَتَقَرَّبُوا إِلَى حَمَاةَ وَأَذَلَّهُمْ اللهُ تَعَالَى فَلَمْ يَقْدَمُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَطُّ، وَصَارَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يُرِيدُ الإِقْدَامَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يُوَافِقْهُ غَيْرُهُ فَجَرَتْ مُنَاوَشَاتٌ صِغَارٌ كَمَا جَرَى فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ حَيْثُ قَتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فِيهَا عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ العَامِرِيَّ لَـمَّا اقْتَحَمَ الخَنْدَقَ هُوَ وَنَفَرٌ قَلِيلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

كَذَلِكَ صَارَ يَتَقَرَّبُ بَعْضُ العَدُوِّ فَيَكْسِرُهُمُ الْمُسْلِمُونَ مَعَ كَوْنِ العَدُوِّ الْمُتَقَرِّبِ أَضْعَافَ مَنْ قَدْ سَرَى إِلَيْهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ مستظهرين عَلَيْهِمْ، وَسَاقَ الْمُسْلِمُونَ خَلْفَهُمْ فِي آخِرِ النَّوْبَاتِ فَلَمْ يُدْرِكُوهُمْ إِلَّا عِنْدَ عُبُورِ الفُرَاتِ، وَبَعْضُهُمْ فِي جَزِيرَةٍ فِيهَا، فَرَأَوْا أَوَائِلَ الْمُسْلِمِينَ فَهَرَبُوا مِنْهُمْ وَخَالَطُوهُمْ؛ وَأَصَابَ الْمُسْلِمُونَ بَعْضَهُمْ، وَقِيلَ: إِنَّهُ غَرِقَ بَعْضُهُمْ.

وَكَانَ عُبُورُهُمْ وَخُلُوُّ الشَّامِ مِنْهُمْ فِي أَوَائِلِ رَجَبٍ بَعْدَ أَنْ جَرَى - مَا بَيْنَ عُبُورِ قَازَانَ أَوَّلًا وَهَذَا العُبُورُ - رَجَفَاتٌ وَوَقَعَاتٌ صِغَارٌ وَعَزَمْنَا عَلَى الذَّهَابِ إِلَى حَمَاةَ غَيْرَ مَرَّةٍ لِأَجْلِ الغَزَاةِ؛ لَـمَّا بَلَغَنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يُرِيدُونَ غَزْوَ الَّذِينَ بَقُوا، وَثَبَتَ بِإِزَائِهِمْ الْمُقَدَّمُ الَّذِي بِحَمَاةِ وَمَنْ مَعَهُمْ مِنَ العَسْكَرِ وَمَنْ أَتَاهُ مِنْ دِمَشْقَ وَعَزَمُوا عَلَى لِقَائِهِمْ وَنَالُوا أَجْرًا عَظِيمًا.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عِدَّةَ كمانات؛ إِمَّا ثَلَاثَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ، فَكَانَ مِنَ الْمُقَدَّرِ: أَنَّهُ إِذَا عَزَمَ الأَمْرُ وَصَدَقَ الْمُؤْمِنُونَ اللهَ يُلْقِي فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمُ الرُّعْبَ فَيَهْرُبُونَ، لَكِنْ أَصَابُوا مِنْ البُلَيْدَاتِ بِالشَّمَالِ مِثْلَ «تِيزِينِ» وَ«الفَوْعَةِ» وَ«مَعَرَّةِ مِصْرِيْنِ» وَغَيْرِهَا مَا لَمْ يَكُونُوا وَطِؤُوهُ فِي العَامِ المَاضِي.

وَقِيلَ: إِنَّ كَثِيرًا مِنْ تِلْكَ البِلَادِ كَانَ فِيهِمْ مَيْلٌ إِلَيْهِمْ؛ بِسَبَبِ الرَّفْضِ وَأَنَّ عِنْدَ بَعْضِهِمْ فَرَامِينَ مِنْهُمْ؛ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ ظَلَمَةٌ وَمَنْ أَعَانَ ظَالِمًا بُلِيَ بِهِ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٢٩﴾ [الأنعام]، وَقَدْ ظَاهَرُوهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ: الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ أَهْلِ «سِيسَ» وَالإِفْرِنْجِ.

فَنَحْنُ نَرْجُو مِنَ اللهِ أَنْ يُنْزِلَهُمْ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَهِيَ الحُصُونُ ـ وَيُقَالُ لِلقُرُونِ: الصَّيَاصِي ـ وَيَقْذِفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ تِلكَ البِلَادَ، وَنَغْزُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى فَنَفْتَحُ أَرْضَ العِرَاقِ وَغَيْرَهَا وَتَعْلُو كَلِمَةُ اللهِ وَيَظْهَرُ دِينُهُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الحَادِثَةَ كَانَ فِيهَا أُمُورٌ عَظِيمَةٌ جَازَتْ حَدَّ القِيَاسِ، وَخَرَجَتْ عَنْ سُنَنِ العَادَةِ، وَظَهَرَ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ مِنْ تَأْيِيدِ اللهِ لِهَذَا الدِّينِ وَعِنَايَتِهِ بِهَذِهِ الأُمَّةِ وَحِفْظِهِ لِلأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ فِيهَا لِلعَالَمِينَ ـ بَعْدَ أَنْ كَادَ الإِسْلَامُ أَنْ يَنْثَلِمَ وَكَرَّ العَدُوُّ كَرَّةً فَلَمْ يَلوِ عَنْ..[1] وَخُذِلَ النَّاصِرُونَ فَلَمْ يَلوُوا عَلَى.. وَتَحَيَّرَ السَّائِرُونَ فَلَمْ يَدْرُوا مَنْ..وَلَا إِلَى..وَانْقَطَعَتْ الأَسْبَابُ الظَّاهِرَةُ. وَأَهْطَعَتِ الأَحْزَابُ القَاهِرَةَ، وَانْصَرَفَتِ الفِئَةُ النَّاصِرَةُ وَتَخَاذَلَتْ القُلُوبُ المُتَنَاصِرَةُ وَثَبَتَتِ الفِئَةُ النَّاصِرَةُ وَأَيْقَنَتْ بِالنَّصْرِ القُلُوبُ الطَّاهِرَةُ وَاسْتَنْجَزَتْ مِنَ اللهِ وَعْدَهُ العِصَابَةُ المَنْصُورَةُ الظَّاهِرَةُ، فَفَتَحَ اللهُ أَبْوَابَ سَمَوَاتِهِ لِجُنُودِهِ القَاهِرَةِ، وَأَظْهَرَ عَلَى الحَقِّ آيَاتِهِ البَاهِرَةَ، وَأَقَامَ عَمُودَ الكِتَابِ بَعْدَ مَيْلِهِ، وَثَبَتَ لِوَاءُ الدِّينِ بِقُوَّتِهِ وَحَوْلِهِ، وَأَرْغَمَ مَعَاطِسَ أَهْلِ الكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ آيَةً لِلمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ التلاق. فَاللهُ يُتِمُّ هَذِهِ النِّعْمَةَ بِجَمْعِ قُلُوبِ أَهْلِ الإِيمَانِ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الطُّغْيَانِ وَيَجْعَلُ هَذِهِ المِنَّةَ الجَسِيمَةَ مَبْدًا لِكُلِّ مِنْحَةٍ كَرِيمَةٍ وَأَسَاسًا لِإِقَامَةِ الدَّعْوَةِ النَّبَوِيَّةِ القَوِيمَةِ وَيَشْفِي صُدُورَ المُؤْمِنِينَ مِنْ أَعَادِيهِمْ، وَيُمَكِّنُهُمْ مِنْ دَانِيهِمْ وَقَاصِيهِمْ.

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ الشَّيْخُ ﵀: كَتَبْتُ أَوَّلَ هَذَا الكِتَابِ بَعْدَ رَحِيلِ قَازَانَ وَجُنُودِهِ لَـمَّا رَجَعْتُ مِنْ مِصْرَ فِي جُمَادَى الآخِرَةِ وَأَشَاعُوا أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، ثُمَّ لَـمَّا بَقِيَتْ تِلكَ الطَّائِفَةُ اشْتَغَلنَا بِالاِهْتِمَامِ بِجِهَادِهِمْ وَقَصْدَ الذَّهَابِ إِلَى إِخْوَانِنَا بِحَمَاةٍ وَتَحْرِيضِ الأُمَرَاءِ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى جَاءَنَا الخَبَرُ بِانْصِرَافِ المُتبَقِّينَ مِنْهُمْ. فَكَتَبْتُهُ فِي رَجَبٍ وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَالحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى أَشْرَفِ الخَلقِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. ا. هـ.

---

(١) سقط بالأصل، وكذلك مكان النقط فيما يلي.

[١] فهرس الموضوعات التفصيلي للجزء الأول من غزوة الأحزاب

[٢] فهرس الموضوعات الإجمالي للجزء الأول من غزوة الأحزاب